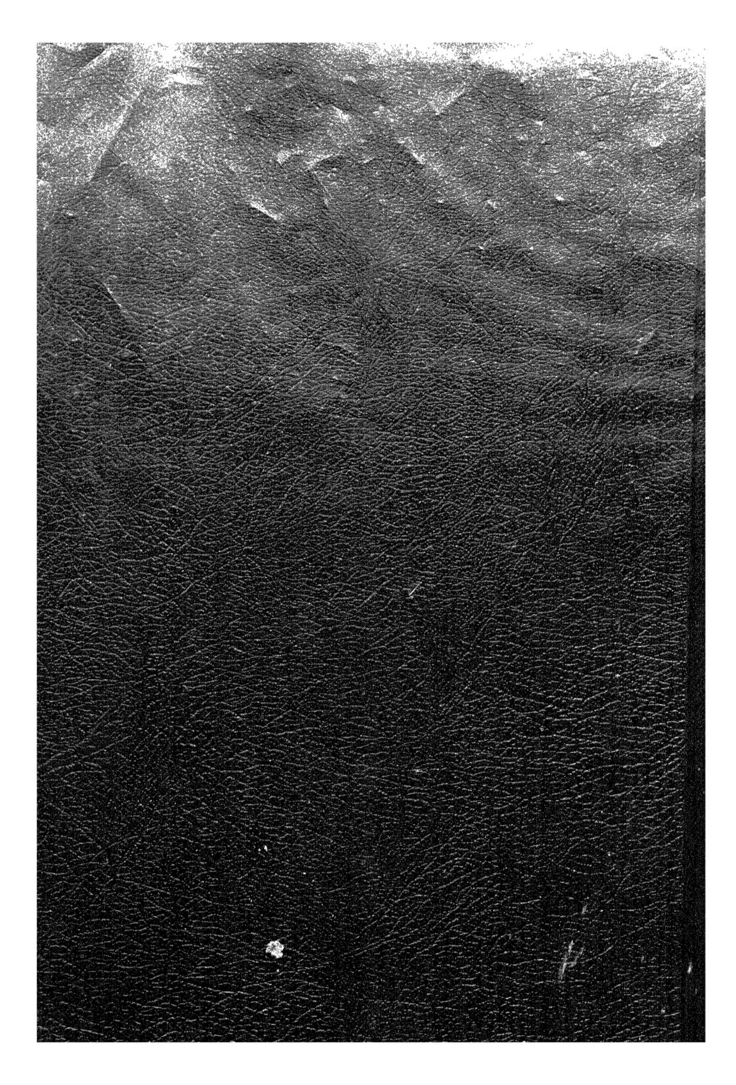


عالم الفكر

المجلد التاسع - العدد الاول - ابريل - مايو - يونيو ١٩٧٨

• جغرافية المدن عن العرب

• الطب والاطباء

• أبحاث المستشرقين في تاريخ العلوم عند العرب

• تصنيف العلوم بين الفارابي وابن خلدون



عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة اشهر عن وزارة الاعلام فى الكويت ❋ ابريل - مايو - يونيو ١٩٧٨
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الاعلام - الكويت : ص.ب ١٩٣

المحتويات

العلوم عند العرب

★ ★ ★

آفاق المعرفة

★ ★ ★

أدباء وفنانون

★ ★ ★

عرض الكتب

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم

العلوم عند العرب



تمهيد

فى مقال عن « العلـم والمجتمـع في الشرق والغرب » يذكر لنا الاستاذ جوزيف نيدهام الذي يعتبر من كبار الثقاة عن الحضارة الصينية انه حين بدأ يفكر لاول مرة في عام ١٩٣٨ فى تأليف مرجع علمي موضوعي ومنهجي عن تاريخ العلم والتفكير العلمي والتكنولوجيا فى منطقة الثقافة الصينية شعر بأنه كان يتعين عليه ان يواجه ماكان يعتبره حينذاك احدى المشكلات الجوهرية ، وهي البحث عن السبب فى ان « العلم الحديث » بكل مقوماته واصوله ومناهجه وطرائقه لم يظهر في الحضارة الصينية او الحضارة الهندية ، وانما ارتبط العلم الحديث بالحضـارة الغربيـة أو الاوروبية وحدها ، بحيث يعتبر الان احـد مقوماتها الاساسية . ولقد شغلت هذه المشكلة ذهن نيدهام لعدة سنوات ، وخلال تلك الفترة بدأت مشكلة اخرى تسيطر على تفكيره وهي لماذا كانت حضارة الصين فيما بـين القرنـين الاول واواخر القرن الخامس عشر اكثر قـدرة مـن الحضارة الغربية فى تطبيق المعرفة الانسانية على الحاجات العملية ؟ وتوصل من ذلك الى ان الاجابة

الصحيحة عن مثل هذه التساؤلات تكمن في الابنية العقلية والاقتصادية والاجتماعية للحضارات المختلفة ، وانه ليس ثمة ما يدل على صحة ما يذهب اليه بعض الكتاب من محاولة رد هذه الامور الى اختلاف الظروف المناخية مثلا ، والزعم بأن للمناخ تأثيرا حاسما في اتجاه التفكير الى العلم الدقيق او الى نواح اخرى غيبية او غير ذلك .

ولا يعني هذا ان جوزيف نيدهام كان ينكر أهمية الدور الذي تلعبه الظروف الطبيعية والجغرافية والمناخية في تشكيل الحضارات المختلفة وابراز بعض السمات والملامح التي تميزها بعضها عن بعض ، ولكنه لم يكن يذهب في ذلك الى الحد الذي كان يذهب اليه انصار مدرسة الحتمية الجغرافية في القرن التاسع عشر الذين كانوا يرون ان تلك الظروف والاوضاع الجغرافية هي العامل الرئيسي او حتى العامل الوحيد في تحديد مسار تلك الحضارات ، بل ان نيدهام يعترف بأنه يشك كل الشك في مدى فعالية واهمية ما يعرف باسم العوامل الانثربولوجية الفيزيقية والخصائص السلالية في ظهور الحضارات ، او حتى في تمييز حضارة عن اخرى بميزات خاصة ، وانه لا يمكن على هذا الاساس الزعم بأن العلم الحديث ظهر في أوروبا دون غيرها نتيجة لانفراد الشعوب الغربية بميزات سلالية أو عرقية لا تتوفر في الشعوب الصينية او الهندية مثلا .

وعلى حد قوله في هذا الصدد : « فان خبرتي وتجاربي الخاصة خلال السنوات الثلاثين الماضية ، واتصالاتي المباشرة والشخصية والقوية بعدد كبير من الزعماء الصينيين كانت كلها تؤكد ذلك الشك والارتباط . فخصائص التفكير واحدة لدى الشرقيين والغربيين ، ولذا فانني اميل الى الاعتقاد بأن الاختلافات التاريخية والثقافية الواسعة بين الثقافات لا يمكن تفسيرها الا عن طريق الدراسات والبحوث الاجتماعية .. وانني كلما تعمقت في دراستي لتاريخ انجازات العلم الصيني والتكنولوجيا الصينية قبل ان تصب في بحر العلم الحديث ، وتوغلت في بحث تفاصيل هذا الموضوع ازددت اقتناعا بأن الكشوف العلمية التي تمت في اوروبا انما كانت ترتبط في المحل الاول بالظروف الاجتماعية والاقتصادية التي تسود هناك ابان عصر النهضة ، وانه لا يمكن ان نفسرها بالاشارة الى اي عجز او قصور سواء في العقل الصيني او في التقاليد الفكرية الفلسفية الصينية » .

هذه النظرة العميقة الى الامور تصدق الى حد كبير على ما احرزه العرب والمسلمون من تقدم علمي وفكري خلال العصور الوسطى ، في حين كانت أوروبا تمر بفترة ركود وخمول وتخلف مثلما تصدق على تخلف العالم العربي والاسلامي في الوقت الحالي ومنذ عصر النهضة عن الاسهام في التقدم العلمي والتكنولوجي اسهاما يتلاءم مع ذلك الماضي ، ووقوف العرب والمسلمين عامة من هذا التقدم موقفا سلبيا يدعو الى التساؤل والبحث عن الاسباب ، وعما اذا كان ذلك التخلف

راجعا الى الظروف الجغرافيـة او المقومـات السلالية العرقية او الانثربولوجية الفيزيقية كما يزعم بعض الكتاب الغربيين او انها اسباب تتصل بالاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية كما يقول جوزيف نيدهام .

• • •

ولقد كتب الشيء الكثير عن تقدم العلوم عند العرب والمسلمين في العصور الوسطى وعن اسهام العرب والمسلمين في كل مجالات العلم والفلسفة والفكر ، وعن استفادة اوروبا فيما بعد من ازدهار الحركة العلمية والفكرية في العالم الاسلامي ، ولذا فليس ثمة ما يدعو الى العودة هنا الى هذا الموضوع (وان كانت بعض المقالات التي يتضمنها هذا العدد لا تخلو من بعض الاشارة الصريحة الى ذلك ولقد اسهم عدد كبير من المستشرقين بالذات في ابراز فضل العرب والمسلمين على الحضارة الاوروبية وعلى التقدم العلمي الحديث هناك . ومقال الدكتور عبدالرحمن بدوي يلقي كثيرا من الضوء على هذه الناحية) ، ولكن لا تزال هناك مع ذلك جوانب كثيرة تتعلق بذلك التراث العلمي العربي والاسلامي ، وتحتاج الى مزيد من الدراسة والتأمل والتفكير والتحليل خاصة وان ثمة في الوقت الحالي اهتماما بالغا بدراسة هذا التراث ، كما انه يبذل كثير من الجهود في مختلف انحاء العالم العربي والاسلامي لاحياء ذلك التراث العلمي ، وكثيرا ما تتكرر هذه الجهود بغير تنسيق فيما بينها مما يؤدي الى ضياع كثير من الوقت والمال في آخر الامر .

وليس من شك في ان الاهتمام بالتراث العلمي العربي والاسلامي يجب ان يقابل بالترحيب والتشجيع بعد ان طال اغفاله والانصراف عنه وبعد ان جرى العرب والمسلمون وراء الغرب وعلومه وفلسفاته وآدابه وفنونه ، وتقبلوا كل ما يأتي من الغرب بغير مناقشة ، فضلا عن ان يعملوا على الاسهام في مجالات العلوم والثقافة الحديثة . وقد ادى ذلك الى قيام هوة هائلة وواسعة وعميقة بين حاضر المسلمين والعرب وماضيهم من ناحية ، ثم — وهذا هو الاهم والاكثر خطرا — اثارة الشك في نفوس المسلمين والعرب في قدرتهم على الخلق والابداع والابتكار ، وبالتالي الشعور بالعجز عن الاسهام في مجالات العلم الحديث ، ورسوخ الفكرة من ان كل ما امكن للعرب والمسلمين حتى في الماضي ان يحققوه ، انما كان من قبيل النقل والمحاكاة والتقليد . وهذه فكرة روج لها عدد من المستشرقين والمشتغلين بدراسة التراث الاسلامي ، ووجدت لها صدى عند كثيرين من العرب والمسلمين الذين تقبلوا التبعية العلمية مثلما يتقبلون التبعية السياسية والاقتصادية للغرب .

وعلى الرغم من كل ما يقال من ان العلم لا وطن له ، فالمشاهد ان كل دولة من الدول الحديثة تسهم بنصيبها في العلم وفي التقدم العلمي وتفخر بما اسهمت به . وليس هناك على هذا الاساس ما يمنع من ان يحاول المسلمون والعرب ان يكون لهم نصيبهم واسهامهم هم ايضا في هذا التقدم العلمي .

وكما ان الحضارة الغربية الحديثة ترد اصولها الى حضارة اليونان الاقدمين وافلحت بذلك فى ان تصل الحاضر بالماضي فان هنالك ما يستوجب الان ان يعمل المسلمون والعرب على العودة الى الماضي الاسلامي والعربي العريق ليس فقط بقصد احيائه في حد ذاته ــ رغم اهمية هذا ــ او التغني بما حققه المسلمون من انجازات فى مختلف ميادين المعرفة والفخر بهذه الانجازات بل وايضا ــ وهذا هو الاهم ــ من اجل التعرف على الاسباب التى ادت بهؤلاء الاسلاف الى ان يحققوا ذلك النجاح فى تلك الميادين ، وماذا يمكن ان نفيده من هذا التراث فى وضع اسس سليمة لنهضة علمية جديدة يكون لها طابعها الخاص المميز . وهذا لا يتعارض بطبيعة الحال مع التسليم بوحدة المنهج العلمي الذي لا يخضع لاختلاف الجنس او السلالة او اللغة او الدين .

وعلى الرغم ايضا مما يقوله بعض المستشرقين ويردده من ورائهم بعض الكتاب المسلمين والعرب من ان هؤلاء الاسلاف لم يفعلوا شيئا سوى نقل التراث الى اللغة العربية مع اضافة بعض الشروح والتعليقات الى ان جاءت الفرصة لنهضة اوروبا واستردادها لتراثها القديم من ايدي الشراح العرب ، وان دور العرب على هذا الاساس لم يتعد المحافظة على التراث اليوناني ثم رد الامانة الى اهلها بعد ان زالت الظروف والاوضاع التي كانت تمنع اوروبا من مواصله السير فى الطريق الذى ارتاده الاغريق ، على الرغم من هذه المزاعم والاقوال فالذي لا شك فيه هو انه كان للعرب والمسلمين اسهاماتهم الاصيلة فى مختلف فروع العلم ، وان كانوا استمدوا الكثير ليس فقط من الفكر اليوناني بل وايضا من الفكر الشرقي القديم وبخاصة من الهند .

وهذا معناه انه كانت هناك روافد كثيرة تصب فى الثقافة العربية والاسلامية . وليس فى هذا ما يضير العرب والمسلمين او يقلل من شأنهم . ذلك ان الخاصية الاساسية التي تميز العلم هي خاصية (التراكم) التي من شأنها ان يفيد العلماء فى اي عصر مما حققه السابقون عليهم بصرف النظر عن عوامل الزمان والمكان ثم يضيفون الى ما حققه السابقون ، وهكذا ، بحيث يصبح كل انجاز فى مجال العلم بمثابة اضافة جديدة الى التراث العلمي الانساني المشترك .

• • •

والمعروف ان تأثير ما يسميه بعض المستشرقين بالعلم الاسلامى Islamic Science على الغرب بدأ بفتوحات العرب للجزء الغربى من حوض البحر الابيض المتوسط على ما يقول مارتن بلسنر Martin Plessner فى مقال له فى كتاب تراث الاسلام The Legacy of Islam (ص ٤٢٥) وقد ترك وجود العرب في اسبانيا خلال ثمانية قرون علامات قوية ثابتة وراسخة وعميقة على كثير من نواحى التفكير والفن التى تعدت الاندلس ذاتها . بل ان خروج العرب من

اوروبا وانحسار دولة الاسلام عن تلك الربوع وزوال الحكم الاسلامى تماما لم تقطع العلاقات الثقافية مع اوروبا ، وان كان الاوروبيون بدأوا يتخلصون بالتدريج من ذلك التأثير ويقيمون حضارتهم وتفكيرهم وعلومهم الخاصة المستقلة التى تنبع – كما ذكرنا – من التفكير اليونانى القديم ، الى ان أفلحوا فى التحرر تماما من تلك التأثيرات الاسلامية .

واضح من ذلك أن تأثير العلوم الاسلامية فى اوروبا لم يكن وليد الحروب الصليبية بل كان أقوم من ذلك بكثير ، وان ذلك التأثير المبكر حدث فى غرب البحر المتوسط وليس فى شرقيه ، ما دامت الاندلس قد خضعت للفتح الاسلامى قبل الحروب الصليبية بعدة قرون ، ولكن هذا الموضوع بعيد عما نحن بصدده هنا ولا داعى للخوض فيه .

ومن الواضح أيضا ان النهضة العلمية الاسلامية استمدت عناصرها من عدة مصادر قد يكون من أهمها التأثير الهندى الى جانب التأثير اليونانى الذى يحب الكثيرون من المستشرقين وعلماء تاريخ العلوم عند العرب ان يؤكدوه ، وقد جاء هذا التأثير اليوناني عن طريق المسيحيين المتأثرين بالثقافة الهلينية وعن طريق الفرس أيضا .

والواقع أن بعض من المشتغلين بالتأريخ للعلوم عند العرب يذهبون الى ابراز أهمية الفكر الهندي بالذات اكثر من الفكر اليوناني ، على الاقل فى بعض مجالات العلم مثل الفلك ، فنجد E. B. Havel مثلا يقول أن المسلمين يدينون للهنود اولا وليس للاغريق بكثير جدا من الوان الثقافة التي وصلتهم فى بداية عهودهم . وهذا راي يجد ما يعزوه الى حد كبير في ان أولى الكتابات فى مجالات الفلك والرياضيات والطب التي حملت الى بغداد فى ايام المنصور كانت من اصول هندية ، ثم غذى هذا الميل البرامكة الذين اهتموا اهتماما كبيرا بالاستعانة بأطباء الهنود وحكمائهم كما شجعوا نقل التراث الهندي الضخم الى اللغة العربية .

والمهم هنا هو ان العرب كانوا على دراية بما حققته الثقافات الاخرى وان نهضتهم العلمية كانت نتاجا لاسهام مفكرين وعلماء من مختلف القوميات والاديان كالسريانيين والفرس والمسيحين والصابئة والنساطرة والعبرانين والاتراك وغيرهم ، وقد ادرك ابن خلدون هذه الحقيقة وعبر عنها حين اشار فى مقدمته الى ان العرب الحقيقيين لم يلعبوا الا دورا صغيرا نسبيا فى تطور وتقدم العلم الاسلامي ، وان معظم الفضل في ذلك يجب ان يرد الى الفرس والمسيحيين واليهود ، وان كانت اللغة العربية هي اللغة الرئيسية للكتابة والتأليف العلميين .

كذلك انتبه المستشرقون الى هذه الحقيقة بحيث نجد ان بليسنر يلاحظ ان « العلم الاسلامي » لم يكن بالضرورة فى ايدي المسلمين وحدهم حتى بعد ان تم تعريبه ، بل ظلت هناك اسهامات كثيرة وهامة تمثلت فى كتابات العلماء المسيحيين واليهود ، ولم تكن هذه الكتابات

تختلف فى شىء وبخاصة فى مجالات الطب ــ عن كتابات المسلمين ، وخير مثل لذلك هو كتابات ابن ميمون وقد يمكن ان يعتبر ذلك دليلا على مدى اتساع افق العرب والمسلمين الذين تقبلوا كل الثقافات بصرف النظر عن مصدرها او عمن يحملها ، فقد كانت التربة خصبة وممهـــدة لمناقشة الاراء الكثيرة المتضاربة ، على الرغم من بعض ما يعتور بعض تلك الاراء من غلو وتطرق وبعد عن الحياة والفكر التقليديين ، بل ان بعض الاراء الفلسفية بالذات كانت لا تتفق تماما مـع تعاليم الاسلام ومع ذلك وجدت مـن يتقبلهـا ويدافع عنها ، كما وجدت من يتصدى لها بالحجة والبرهان .

وهذا موقف يختلف اختلافا كبيرا عمـا حدث فى عصر النهضة مثلا في اوروبا حين وقفت الكنيسة موقف المتزمت من العلوم الاسلامية التي نقلت الى اللاتينية ، وكانت تحرم كتابات ابن رشد بالذات وتعتبر مذهبه مثالا ونموذجا للالحاد ، لدرجة ان مجتمع لاتران الكنسي استنزل اللعنات على ابن رشد واتباعه ، وليس ادل على هـذا التزمت الفكري والعنت وضيق الافق مـن ان الكنيسة احرقت القس جوردانو برونو فى احـد الميادين العامة فى روما لاعتناقه مذهب الجوهر الفرد الذي كان يعتنقه بعض علماء الكلام مـــن المعتزلة والاشاعرة ، وليس معنى هذا ان العلماء المسلمين لم يكونوا يجدون عنتا مـن المسلمـين انفسهم . فنحن نعرف مثلا كيف ان الكثيرين من اهل السنة كانوا يرفضون العلوم (الحديثة) ، كما نعرف ما صادفه الكندى بالذات مـن عنت أيام المتوكل ، وذلك نظرا لخوف بعض اهل السنة من ان تؤدى تلك العلوم الى الكفر والالحاد .

ولكن لا بد ان نلاحظ من الناحية الاخرى ان ترجمة كتب المسلمين الى العبرية واللاتينية دليل على قوة العلاقات بين العلماء من مختلف الاديان ، وعلى الصبغة العالمية او الطابع الدولي الذي كان يتميز به العلم الاسلامي .

ومما له دلالته في هذا المجال ان كثيرا من اسماء هؤلاء العلماء تعدى النطاق المحلي واكتسب شهرة عالمية ، كما ان البعض الاخر حقق كثيرا من النجاح والشهرة والتميز والتفوق فى اكثر من فرع واحد من فروع العلم كما يظهر ذلك مـن مؤلفاتهم ، بل ان بعضهم كان يكتب في العـلوم الطبيعية والانسانية على السواء ، ولعل من اهم هؤلاء العلماء عالم الطبيعيات ابو بكر محمد بـن زكريا الرازي (٨٦٥ ــ ٩٢٥) الذي ظلت شهرته ذائعة فى أوروبا ذاتها حتى القرن السابع عشر ، وربما كان ذلك نتيجة لجرأته الفكرية وتمرده على التقاليد والاوضاع والنظريات القديمة ، وتحديه لكثير من العلماء ، وانتقاداته العنيفة لكثير مـن الاراء الراسخة التي كان يسلم بها رجال الدين والفكر الاسلامي ، بحيث وجهت اليه تهمة الالحاد والزندقة ، وقد نالت مؤلفاته فى الطب والكيمياء كثيرا من الشهرة نظرا للاسلوب العلمي الدقيق الذي كان يحرص على تطبيقه واتباعه ويكفـــي

لتبيين مدى اتساع شهرته وقوة تأثيره ورسوخ مكانته العلمية ان تأثر به **ابو ريحان البيروني** الذى يعتبر فى نظر الكثرين اعظم علماء الاسلام فى العصور الوسطى ، ومع ذلك فقد كان البيروني يعتبر نفسه من اتباع الرازى وأحد تلاميذه الروحيين على الرغم من انه تفوق عليه فى كثير من مجالات العلم واكتسب شهرة عالمية اكبر من تلك التي حظى الرازي بها ، فضلا عن اتساع افقه وتنوع مجالات اهتماماته سواء فى العلوم الطبيعية او العلوم الانسانية او اللغويات ، وقيامه بكثير من الترجمات من اللغات الهندية الى العربية .

ويذكر لنا البيروني نفسه فى كتابه « لآثار الباقية عن القرون الخالية » انه ظل يبحث عن كتاب « سفر الاسرار » المائي لمدة اربعين عاما حتى عثر عليه في خوارزم وذلك لكي يدفع عن الرازي تهمة الالحاد .

والاغلب ان اهتمام العرب والمسلمين بالعلم بدأ قبل عصر الترجمة بوقت طويل ، وذلك نتيجة للاتصال الوثيق بالمسيحيين وبالشعوب التي كانت متأثرة بالثقافة الهلينية والتي تحولت الى الاسلام وما ترتب على ذلك من الشعور بضرورة الاهتمام بثقافات هذه الشعوب والاقوام والتعرف على مقومات تفكيرها . فاتساع رقعة الامبراطورية الاسلامية ، واتصال العرب بكثير من الحضارات والديانات وبمختلف الاتجاهات الفكرية كان من شأنه بغير شك ان يتسع افق المسلمين بحيث تظهر لديهم نزعة عقلية قوية واضحة امتدت الى الامور الشرعية ذاتها ، وتمثلت فى العمل على تطوير الشرع حتى يتلاءم بقدر الامكان مع الاوضاع الجديدة السائدة فى مختلف بقاع الامبراطورية حتى يكون اقدر على معالجة المشكلات الطارئة النابعة من تلك الثقافات والحضارات الغريبة ، وكان هذا فى حقيقة الامر من اهم الاسباب التي دعت الى الاعتماد على القياس والرأي والاجتهاد .

ويذهب الكثيرون من المشتغلين بتاريخ العلوم عند العرب الى القول بأن ذلك الميل الشديد الى الاخذ بأساليب التفكير العقلي لم يكن وليد الجدل الفكرى والخلافات المذهبية بين المسلمين واتباع الاديان والعقائد الاخرى فحسب؛ بل وايضا نتيجة للصراع الفكري العنيف بين المذاهب والفرق المختلفة المتضاربة ، بل المتناقضة داخل الدين الاسلامي نفسه ، انما الذي لا شك فيه هو ان قيام حركة النقل والترجمة هو الذي لعب الدور الحاسم في تحقيق كل ذلك التقدم الرائع فى مختلف مجالات الفكر والعلم وفى ظهور هذه النهضة العلمية المزدهرة التي تمتعت بها الحضارة العربية الاسلامية خلال فترة طويلة من تاريخها فى العصور الوسطى . فقد ترتب على هذه الحركة ازدياد النشاط الفكري والاهتمام بانشاء المكتبات العامة والخاصة وظهور المراكز الثقافية الهامة فى مختلف انحاء الدولة الاسلامية المترامية ، وقد استمرت هذه الحركة فى التقدم حتى وصلت أوجها في القرن الحادي عشر الميلادي . وليس أدل على المكانة العالية التي

احتلتها العلوم وعلى اهتمام المسلمين البالغ بالعلم والفكر من ان الكتب كانت تهدى للخلفاء لاسترضائهم على ما يقول الدكتور احمد سعيد الدمرداش في كتابه القصير القيم عن « تاريخ العلوم عند العرب » بحيث نرى ان هارون الرشيد مثلا يحمل الكتب والمخطوطات معه حين فتح عمورية وانقرة الى بغداد ، وهو موقف نجد مثيلاله عند المأمون الذي طالب حاكم صقلية مثلا بأن يرسل اليه محتويات المكتبة ، وكما يقول بلسنو مرة اخرى فان خالد بن يزيد حفيد معاوية أبدى اهتماما كبيرا بالكيمياء ، وان لم تكن لدينا معلومات كافية او مؤكدة عن كتاباته ومؤلفاته ، او عما حققه بالفعل في هذا المضمار ، ولكن المؤكد هو ان الكيمياء كانت من اول العلوم التي اهتم بها العرب والمسلمون نتيجة للتأثيرات الخارجية ، ولو ان اهتمامهم بالطب ـ كما هو واضح من مقال الدكتور جلال موسى ـ كان بطبيعة الحال اسبق على ذلك بكثير ، وهذا امر تشترك فيه جميع الشعوب التي تحاول ان يكون لها طبها الخاص بها ، كما يصدق هذا على الجغرافيا ، على اعتبار ان الرغبة في اكتشاف المجهول وحب الرحلة والمخاطرة كانت دائما احدى الخصائص الانسانية الاساسية . وقد حقق العرب الكثير ايضا في هذا الميدان على ما نجد في مقال الدكتور .

ومع التسليم بأهمية الدور الذى لعبته حركة النقل والترجمة في تلك النهضة العلمية ، وبخاصة نظرا لما صاحبها من تعديلات وتعليقات وشروح كان فيها كثير من العمق والاصالة ، ومهدت لقيام الاعمال الاصيلة التي تبرز القدرة على الخلق والابداع ، فان من الصعب ان نزعم ان هذه التراجم كانت كفيلة وحدها بان تجعل العقل العربي يتقبل بسهولة وفي يسر كل نتائج الفكر الاجنبي الغريب ودون ان يبدي ازاءه كثيرا من المقاومة والرفض ، ان لم يكن قد سبق للعرب ان يتصلوا قبل عصر الترجمة ببعض نتائج ذلك الفكر وان يتعرفوا عليه ويتقبلوه بالتدريج ، حتى جاءت حركة النقل والترجمة بكل انجازاتها فوجدت الاوضاع مهيأة الى حد كبير لقبول كل تلك الافكار والمذاهب والاتجاهات والانجازات العلمية التي حققتها تلك الثقافات الاجنبية . وهذا يصدق بالذات على الفكر الهندي الذي كان معروفا بشكل او بآخر ، على ما يقول ڤرنر Verner لدى العرب ، منذ زمن طويل الى ان تمت ترجمة العلوم الهندية فوجدت البيئة صالحة وممهدة لقبولها .

وهذا لا يقلل بحال من شأن الدور الذى لعبته تلك التراجم في نشأة وظهور وازدهار العلوم « الاسلامية » وان كان يعني في الوقت ذاته أن هذه الحركة كانت هى الفرصة التى أتاحت لكل تلك القوى أن تظهر في الخارج حين توفرت لها الظروف الاجتماعية والاقتصادية والفكرية العامة .

• • •

كل هذا خليق بأن يثير أمامنا عددا من الاموراالتى يجب أن نأخذها فى الاعتبار اذا أردنا أن نسهم في التقدم العلمى والفكرى الحديث بنصيب يتفق مع ذلك التراث من ناحية ، ومع ضخامة المسئولية الملقاة على عاتق العلماء والمفكرين فى الوقت الحالى ازاء الاجيال التالية .

وأول هذه الامور هو ادراكنا لمدى قدرة العقل العربى والاسلامى فى العصور الوسطى على استيعاب العلوم السائدة حينذاك والاتصال الوثيق بتراث الاغريق وعلوم الهند ونقل كل ما أمكن نقله منها الى اللغة العربية ليكون ذلك أساسا قويا لنهضة علمية وفكرية متميزة . وبصرف النظر عن تضارب الاقوال حول مدى ما حققه العرب بالفعل فى ذلك المضمار ، فانى لاشك فيه هو أن عملية النقل والترجمة ومايرتبط بها من محاولات للشرح والتفسير والتعليق تعتبر من أهم القواعد التى يجب أن تتوفر لدى أى مجتمع متخلف يريد أن يلحق بركب العلم وبالتقدم العلمى والفكرى ، قبل أن تتاح له الفرصة للاسهام فى ذلك التقدم بدور مؤثر فعال . وهذا هو الوضع الذى يواجهه العالم العربى والاسلامى فى الوقت الحالى مثلما واجهه العرب والمسلمون في العصور الوسطى ، وهو وضع يفرض على العرب والمسلمين الان أن يسلكوا نفس السبيل التى سلكها أسلافهم من قبل ،واعنى به ضرورة العمل على نقل التراث العلمى والفكرى الحديث الى اللغة العربية على اوسع نطاق ممكن . ومن ذلك المزيج الذى سوف يتألف حينئذ من أصالة التراث العربى والاسلامى الذى تبذل الجهود الان لاعادة نشره واحيائه ثم العلوم والافكار الحديثة التى سوف تنقل الى اللغة العربية ، تبدأ الخطوة الاولى القوية الثابتة على طريق الاسهام والابداع والابتكار فى ميادين العلم المختلفة .

والامر الثانى هو أن النهضة العلمية لدى العرب والمسلمين فى العصور الوسطى كانت تستهدف الاشتغال بالعلوم العقلية والعملية على السواء . واذا كان هناك من يذهب الى أن العرب اهتموا بالعلوم العملية اكثر من اهتمامهم بالعلوم النظرية ومن هنا كان اسهامهم أكبر واعمق في مجالات الطب مثلا والجغرافيا وعلوم النبات والحيوان والصيدلة وما اليها ، ويأخذون ذلك دليلا على عجز العقل العربى عن التفكير النظرى الخالص، فان هذا القول يجب أن يؤخذ بكثير من الحذر والتشكك خاصة وان اسهام العرب والمسلمين فى الفلسفة بالذات كان اسهاما خصيبا الى حد كبير ، ولم يتوقف الفلاسفة العرب والاسلاميون عند الشرح والتعليق ، كما أن عددا منهم جذبته المشكلات المنهجية فأعطى جانبا كبيرا من اهتمامه لتصنيف العلوم (ومقال الدكتور محمد على ابوريان يعطينا صورة طيبة عن بعض هذه المشكلات) . ومهما يكن من شيء فاننا فى أشد الحاجة في الوقت الحالى الى الاهتمام بالجانب التطبيقى للعلم الحديث مع الاستفادة بما حققه الاسلاف العرب فى هذا الميدان من قبل ليكون هذا كله أساسا للتنمية فى جميع المجالات ، وقاعدة للارتفاع بالمجتمع العربى والاسلامى الى نفس المستويات التى بلغتها المجتمعات الغربية عن طريق تطبيق هذه العلوم الحديثة فى حياتها اليومية .

والامر الثالث والاخير هو قدرة اللغـــةالعربية على التعبير عن كل تلك الثروة العلمية والفكرية التى كانت سائدة فى ذلك الحين - وهوأمر يدعو الى اعادة النظر في بعض الاحكام التى يطلقها عدد من المشتغلين الآن بالعلوم البحتـــةحول قصور اللغة العربية عن التعبير بدقـــة عن المصطلحات والافكار التى تزخر بها العلومالحديثة ، وأن اللغة العربية بذلك ليست لغة علم بقدر ما هى لغة أدب وفن . وهذه قضـــيةقديمة ومعروفة ، ولكن يكفى هنا أن ننظر فى ذلك التراث العلمى العربى القديم لندركانهشيءمن الجهد يمكن للعلماء المعاصرين أن يفعلوا باللغة العربية وعن طريقها ما فعله العلماء القـــدامىفى عصر الترجمة ، والواقع ان الثروة اللفظيـــة العربية الضخمة التى تركها لنا هؤلاء العلمـــاءوالعرب والاسلاميون القدامى تصلح لان تكـــون ركيزة لمثل هذا الاتجاه الذى لن يمكن للعـــرببحال أن يسهموا اسهاما فعالا فى التقدم العلمى او اللحاق بالعلوم الحديثة ان لم يسيروا فيه ،بحيث تصبح هذه اللغة هى لغة الكتابة والتعليم فى مختلف مجالات العلوم البحتة . وكل مجهوديبذل فىهذا الشأن خليقبالترحيب والتشجيع.

* * *

عبدالرحمن بدوي

أبحاث المستشرقين في تاريخ العلوم عند العرب

تمهيد

للمستشرقين في الكشف عن تاريخ العلوم عند العرب فضل عظيم يعرفه لهم كل من له اطلاع — ولو قليل — فى هــذا المجــال فلقد تناولــوه بالدرس وتحقيق النصوص ، والمقارنة بينه وبين أصوله اليونانية والهندية ، **وتأثــيره فى أوروبا فى العصر** الوسيط وأوائل **العصر الحديث** .

ونريد في هذا البحث ان نعرض لأطراف مما قاموا به ، عرضا سريعا غــير مستقصى لان مثل هذا العرض المستقصى يحتاج الى كتب ذات اجزاء عديدة ويكفي ان يعلم المرء أن مجرد السرد البيليوجرافى يمكن ان يستفرق وحده أكثر مــن ألفى صفحة !

وقد رأينا أن اوضح وسيلة للعرض هــى ان نتناول هــذه العلوم علما علما ، ونذكــر بعض ما أسهم به هؤلاء المستشرقون فى دراســة تاريخه وتحقيق نصوصه . ولنبدأ بعلم الكيمياء .

---

* **نذكر من المحاولات البيليوجرافية فى هذا الباب مايلى :**

a) M. Ullmann: Die Medizin im Islam, Leiden, 1970; — Die Natur-und Geheimwissenschaften im Islamî Leiden, 1972; Fuat Sezgin : Geschichte des arabischen Schrifttums, B. IV, V, 1970, 71, 74; S.H. Nasr and M.C. Chittick: annotated bibliography of Islamic Science. Vol. I, 1976.

اولا : ــ فى الكيمياء

ونقصد بالكيمياء هنا الكيمياء العلمية كمانعرفها فى العصــر الحديث ، وعلــم الصناعة او الكيمياء غير العلمية وهى التى تسعى الى تحقيق غرضين : الاول هــو تحويــل المعادن الخسيسة (النحاس ، الحديد ، الرصاص الخ) الى المعدنين الشريفين (الذهب والفضة)، والثاني هو تحضير « اكسير الحياة » ، وهــو الدواء الذى يراد منه علاج كل ما يصيب الانسان من آفات وأمراض .

ونشاة الكيمياء عند العــرب ترتبط بامير أموى هــو خالد بن يزيد ، لكــن تكوينها ونموها العظيم كان علــى يد شخصية أسطورية حينا ، تاريخية حينا آخر هى جابر بن حيان .

وقد تناول خالد بن يزيد ،والكميائيــون العرب الاوائل بالبحث **يوليوس روسكا** فى كتاب ظهر في كراستين بعنوان «الكميائيون العرب » (١) هيلدلبرج سنة ١٩٢٤) كذلك بحث روسكا فى القسم الاخير من كتاب « ســر الخليقة » المنســوب الى بلنياس الطوانى (ظهر فى هيلدلبرج سنة ١٩٢٦) وتتلمذ علــى روسكا فى برلــين سيد الباحثين فى جابر بن حيان وهــو **باول كراوس** (توفى سنــة ١٩٤٤) ..

لكن العنايــة بجابر بــن حيان ترجــع الى النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، فقد عنى به **مارسلان برتيلو** (توفى سنة ١٩٠٧) في كتابه بعنــوان **« الكيمياء فى العصــــر الوسيــط »** (٢) (باريس سنة ١٨٩٣) استنادا الى ما ترجمــه من كتب جابر الى اللغــة اللاتينيــة ، واثبت فى الوقت نفسه أن جابر كما عرف فى الكتب اللاتينية اوســع بكثير من جابر المعــروف في المصــادر العربية .

ثم جاء **هولميرد** فقام بأول دراســة جديــة لمؤلفات جابر العربية ونشر بعض رسائله . (٣) وجاء كراوس فتوفر على دراسة جابر دراســة شاملة مستقصاة ،حتى ان جهوده العلمية تركزت الى جانب عنايته بمحمد بن زكريا الرازي ــ على جابر بن حيان ، حتى صار اعظــم حجة في كل ما يتعلق به وبالكيمياء عند العرب بعامة .

مكان بداية انتاجه فى هذا المجال بحث بعنوان« تهافت اسطورة جابر » (ظهر فى الجزء الثالث من **« النشرة السنوية لمعهد الابحاث الخاصــة بتاريخ العلوم »** فى برلين سنة ١٩٣٠) ، وفيه حاول ان يبين ان مجموعة الكتب التي تحمل اسم جابر كانت اسماعيلية ، وانها النموذج السابق لرسائل اخوان الصفا .

---

(١) Juilus Ruska : Arabische Alchemisten, 2 Hefte Heidelberg, 1924

(٢) M. Berthelot : La Chimie au Moyen Age. Paris, 1893.

(٣) E.J. Holmyard : The Arabic Works of Jabir-Ibn-Haiyan, 1, Paris 1928; The Works of Geber, R. Russell, 1978, edited by E.J. Holmyard, London, 1928; Isis n. 19, p. 478 599.

ومن الطبيعي — والقليل من رسائل جابر هوالذى نشر — ان يقوم بنشر بعض هذه الرسائل . فنشر مختارات منها تحت عنوان **« مختار رسائل جابر بن حيان »** (مطبعة الخانجي سنة ١٣٥٤ هـ / سنة ١٩٣٥ م) ، وفى هذا الكتاب نشر فصولا رئيسية من كتب جابر ، كما نشر رسائل كاملة ، واهتم بأن تكون هذه النصوص ممثلة لمختلف نواحي مذهب جابر : ففيها نماذج لابحاثه فى الكيمياء ، واخرى لابحاثه فى الفيزياء ، كما انها تشتمل على نصوص تتعلق بالامور الدينية لبيان علاقتها الوثيقة بآراء مذهب الاسماعيلية وغلاة الشيعة ، مما يؤكد نسبة رسائل جابر الى « الاوساط الشيعية الاسماعيلية » .

لكن بحثه العظيم — الذى يعد من اجل أعمال المستشرقين بعامة — هو كتابه عن **« جابر بن حيان »** الذى ظهر فى جزئين ضمن مطبوعات المعهد المصرى (المجلد ٤٥ ، ٤٤ ضمن منشورات هذا المعهد الذى كان عظيما حتى سنة ١٩٤٥ ، واليوم أثرا بعد عين ، واسما على غير مسمى !!) ، وقد ظهر الجزء الثاني قبل الاول ، وذلك في سنة ١٩٤٢ ، والاول ظهر فى السنة التالية ، سنة ١٩٤٣ ، وفى هذا الجزء الاول مقدمة طويلة ، ثم ثبت كامل بكل ما وصل الينا وما عرف من كتب جابر بن حيان وما بقى منها من مخطوطات .

اما الجزء الثاني فقد عرض فيه المسائل العلمية الرئيسية الواردة فى الكتب والرسائل المنسوبة الى جابر بن حيان ، ونقول « المنسوبة » لان كراوس اثبت في الجزء الاول أن هذه الكتب منحولة كلها ، وقد وضعتها طائفة من علماء الشيعة المشتغلين بالكيمياء حوالي سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) .

واتبع عرضه ببحث فى الاصول اليونانية والشرقية التي اعتمد عليها مؤلف أو مؤلفو هذه الكتب . وبهذه المناسبة يعرض — في ايجاز — تطور الكيمياء اليونانية وخصائص كل دور من أدوار تطورها عند اليونان والسريان ، ويعني خصوصا بصلة جابر بكيمياء **ذوسيموس وبلنياس الطواني « ويخرج من هذا البحث ببيان ما هنالك من اختلاف كبير جدا بين الكيمياء الجابرية والكيمياء اليونانية القديمة : فعلى الرغم مما هنالك من تشابه فى التعبير الاصطلاحي وفى جزئيات كبيرة ، فان كيمياء جابر تختلف اختلافا بينا عن غيرها ، ان فى الروح أو فى التفصيلات . فكيمياء جابر تمتاز بالميل الى الناحية التجريبية ، واستبعاد الخوارق ، والاتجاه العلمي العقلي ، بينما الكيمياء القديمة كثيرا ما تلجأ الى الرؤيا الوجدانية واستخدام فكرة الخوارق فى التفسير . ومن ناحية التفصيل ، نجد جابرا يعني بالكيمياء العضوية خصوصا ، ويستعمل « ملحا » لم يعرفه اليونانيون والشرقيون ، وانما استعملته الكيمياء الاسلامية ، ونعني به ملح النوشادر ، ويرجع العناصر الى الكيفيات الطبيعية : من حرارة ، وبرودة ، ويبوسة ورطوبة . »** (٤)

---

(٤) راجع كتابنا : « من تاريخ الالحاد في الاسلام » ص ١٩٣ ، وراجع هذا الفصل كله من ص ١٨٩ — ١٩٧ .

وعقد فصلا للبحث فى مشكلة كتاب « سر الخليقة » المنسوب الى بلنياس الطوني ، ولو انه لم يصل الى نتائج حاسمة ، لكنه استطاع على كل حال ان يعقد مقارنة بين هذا الكتاب وكتاب « الكنوز » لايوب الرهاوى (وقد نشره منجانا وترجمه الى الانجليزية عن أصله السرياني، سنة ١٩٣٥) ، وانتهى الى ان مصدر الكتابين لابد ان يكون واحدا .

● ● ●

ويتصل بالكيمياء البحث في السحر ومايسمى بالعلوم الصنعوية . واهم الباحثين فى هذا الميدان هو لين ثورنديك بكتابه «**تاريخ السحر والعلم التجريبي فى الثلاثة عشر قرنا الاولى من ميلاد المسيح**» (٥) ، وهو يعتمد على الترجمات اللاتينية للمؤلفات العربية بشكل خاص ، فضلا عن بيانه لتأثير التراث العربي في السحر والعلم التجريبي فى تقدم العلوم فى أوروبا اللاتينية فى العصور الوسطى . وهو كنز لا ينضب من المعلومات فى هذا الموضوع .

كذلك نشر هلموت رتر H. Ritter كتابا فى السحر كان له أثر كبير فى المشتغلين بالسحر فى العصور الوسطى المسيحية ، هو كتاب « **غاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم** » ليبتسك سنة ١٩٣٣ في ٤١٦ ص) تأليف مسلمة بن احمد المجريطى ، الرياضي الاندلسي المشهور ، المتوفي سنة ٣٩٨ هـ ، وقد عرف الكتاب فى الترجمة اللاتينية تحت اسم **Picatrix**

● ● ●

وثانى شخصية عظيمة فى الكيمياء عند العرب هو محمد بن زكريا الرازى (ولد سنة ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م وتوفى سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥م) الطبيب العظيم .

واهم من عنى بكيمياء الرازى من المستشرقين يوليوس روسكا . فقد ترجم كتاب «**سر الاسرار**» **لابي بكر محمد بن زكريا الرازى** (٦) مع مقدمة وشرح . كما كتب عدة مقالات عن كيمياء **الرازى ، نذكر منها :**

١ ــ « الرازى رائدا لكيمياء جديدة » ، في مجلة **DLZ** سنة ١٩٢٣ ، عمود ١١٧ ــ ١٢٠٤ .

٢ ــ « حول الوضع الراهن للبحث فى الرازى » ، فى مجلة
Archivio di Storia della scienza, 5/1924/P. 335-347.

---

(٥) Lynn Thorndike : **A History of Magic and Experimental Science,** 4 Volumes, New York. 1923-34,

(٦) J. Ruska : Al-Razi's Buch Geheimnis der Geheimnisrse. Mit Einleitung und Erlauterungen in deutscher vebersetzung. Quellen v. Studien z. Gesch. d. Naturwissen. u. Medizin, 6/1937/1-2 46.

٣ ـ « الكيمياء فى العراق وفارس فىالقرن العاشر الميلادى » ، فى مجلة Der Islam سنة ١٩٢٨ ص ٢٨٠ ـ ٢٩٣

٤ ـ « كيمياء الرازى » فى مجلة Der Islam سنة ١٩٣٥ ص ٢٨١ ـ ٣١٩ .

٥ ـ « الكتاب الرئيسي للرازى فىالكيمياء » ، نشر في Die Umschau in Wissen Schaft Und Technik سنة ١٩٣٧ ص ٨٥٢ـ ٨٥٣

٦ ـ « المؤلفات المنحولة المنسوبة الىالرازى » فى مجلة Osiris سنة ١٩٣٩ ص ٣١ ـ ٩٤ .

كما نشر المستشرق الروسى U. I. Karimov كتاب **((سر الاسرار))** للرازى وترجمه الى اللغة الروسية فى طشقند سنة ١٩٥٧ .

● ● ●

واخيرا نذكر **أبا عبد الله محمد بن أميل التميمي** الذى عاش في القرن الرابع الهجرى وله عدة كتب فى الكيمياء نذكر منها « رسالة الشمس الى الهلال » ومنها مخطوطات عديدة (القاهرة دار الكتب جـ ٥ الفهرست القديم كيمياء ٢٠ م و ٢٣ م ، راغب فى استانبول برقم ٩/٩٦٣) ، والحميدية فى استانبول برقم ٩/٩٧٤) وقد خصه يوليوس روسكا ببحثين هما :

١ ـ « كتاب محمد بن اميل التميمي المعنون الماء الورقي والارض النجمية » فى مجلة OLZ سنة ١٩٤ ص ٥٩ ـ ٥٩٦ .

٢ ـ « دراسات عن محمد بن اميل التميمي وكتابه الماء الورقي والارض النجمية » فى مجلة Isis سنة ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ ص ٣١٠ ـ ٣٤٢ .

● ● ●

ثانيا في الطب

اما في تاريخ الطب عند العرب والمسلمين فدراسات المستشرقين لا تدخل تحت حصر ، وفى هذا الميدان من العلوم كانت ابحاثهم اشمل واقدم واكثر تعمقا واستقصاء .

ولنبدا بذكر الكتب العامة فى تاريخ الطب عند العرب ، ونتلوه بالدراسات المفردة عن بعض مشاهير الاطباء .

أ ـ التواريخ العامة للطب العربي

● واقدم ما في هذا الباب كتاب فيستنفلد بعنوان : « تاريخ الاطباء والعلماء العرب » ، جتنجن ١٨٤٠ :

Geschichte der Arabischen Aerzte und Naturforscher, nach den Quellen bearbeitet, von Ferdinand Wüstenfeld, Gôttingen, 1840.

● ويتلوه لوكلير : « تاريخ الطب العربى »، باريس سنة ١٨٧٦ فى جزئين :

Lucien Leclerc : Histoire de la médecine arabe I, II, Paris 1876.

● ادوارد براون : « الطـب العربـى » ، كمبردج سنة ١٩٢١ :

Edward G. Browne : Arabian Medicine. Cambridge, 1921

● هرشبــرج ولبرت ومتفــوخ : « أطباء العيون العرب » ، ليبتسك سنة ١٩٠٥ فى جزئين

Die Arabischen Augenârzte, nach den Quellen bearbetet von J. Hirschberg, J, Lippert, und E. Mittwoch I. teil, Leipzig, 1904; II Teil, Leipzig, 1905.

● جورج سارتون : « المدخل الـى تاريخ العلم » :

جـ ١ : « من هوميروس الى عمر الخيام »، بلتيمور سنة ١٩٢٧

جـ ٢ : « من ربى بن عزار الى روجربيكون» فى جزئين ، بلتيمور سنة ١٩٣١

جـ : « العلم والتعلم فى القرن الرابع عشر» فى جزئين ، بلتيمور سنة ١٩٤٦ ــ ١٩٤٨

George Sarton; Introduction to the History of Science. Baltimore, I. 1927, II. 1931, II. 1964-48.

وقد اعيد طبعه بالاوفست سنة ١٩٥٠ .

ب ــ الدراسات المفردة عن الاطباء ــ

١ ــ على بن ربن الطبرى

● ب . رشتر : « من تاريخ الجدرى عند العرب » Arch. für Gesch d. Medizin فى سنة ١٩١٢ ــ ٣٢٣ وما يتلوها .

● ماكس مايرهــوف : « علـى بن ربـن الطبــرى : طبيـب فارسـى فى القرن التاســع الميلادى » ، في ISIS سنة ١٩٣١ ص ٣٨ ــ ٦٨ .

● ماكس ماير هوف : « كتــاب فردوس الحكمة لعلى بن ربـن الطبرى ، واحد من اقــدم الكتب العربية ، فى الطب ، مجلة Tsis سنة ١٩٣١ ص ٦ ــ ٥٤ .

● يوسف شاخت : « طبيــب فارسى فى القرن التاسع ، من اصل مسيحى : على بن ربن الطبرى » ، مقال في Bull. Soc. Franc. hist. medecine سنة ١٩٣٢ ص ١٦٥ ــ ١٧٥ .

● ا . سجــل A. Siggel : « امــراض النساء وعلـم الاجنـة وصحـة النساء فى كتاب فردوس الحكمة لابي الحسن بن على بن ربن الطبرى» نشر فى Quellen u. stud. z. Gesch. d. Naturwis. u. d. Medizin سنة ١٩٤١ ــ ١٩٤٢ ص ٢١٦ ــ ٢٧٢

● دورتيه تيس Dorothea Thies : « آراء الطبيبين العرابيين الطبرى وابن هبل : فى القلب ، والرئــة ، والمثانة ، والطحال » ، رسالة دكتوراه ، بون ، سنة ١٩٦٧ .

• • •

● ــ محمد بن زكريا الرازى

ومحمد بــن زكريا الرازى هــو أكبر أطباءالاسلام غير منازع ، ومــن أكبر الاطباء فى تاريخ الطب فى العالــم ، ولد فى مدينة الرى (القســم الجنوبى من مدينة طهــران الحالية) فى حوالى سنة ٢٥١هـ (٨٦٥م) ، ومات فى الرى فى سنة٣١٣هـ (٩٢٥م) .

وقد نشر **باول كراوس** « فهــرست كتب محمد بن زكريا الرازى » (عن مخطوط فى ليدن برقم ١٣٣ورقة ١٧ ــ ٢٤) فىباريس سنة ١٩٣٦، وترجم روسكا هذا الفهرست الى الالمانية في مجلة ايزيس Isis سنة ١٩٢٣ ص ٢٦ ــ ٥٠ .

وكتب عن حياة الرازى ومؤلفاته **G.S.A. Ranking** في بحث القاه فى « المؤتمر الدولي للطب ، القسم الخاص بتاريخ الطب » ، لندن ، سنة ١٩١٣ ، ص ٣٣٧ ــ ٣٦٨ .

ونذكرها هنا بعض مــا كتب عــن الرزاىالطبيب ، الى جانب ما ورد فى كتب تاريخ الطب التى ذكرناها فى أول هذا الفصل :

● ف . برونــر : « طــب العيــون عنــدالرازى » رسالة دكتوراه ، برلين ١٩٠٠ :
W. Browner : Die Augenheilkunde des Rhases. Berlin, 1900

● هرشبرج : متن فى مجموع طب العيون« جـ ٢ ص ١٠١ ــ ١٠٧ ، ليبتسك ، سنة ١٩٠٨
Hirschberg : Handbuch der gesamten Augenheilkunde, Leipzig, 1908.

● جورلت : « تاريخ علم الجراحة » جـ ١ ص ٦٠١ ــ ٦١١ ، برلين سنة ١٨٩٨
Gurlt : Gesch. d. Chirurgie, I, 601-611, Berlin, 1898.

● تمكين O. Temkin : « نصوص ووثائق : ترجمة مــن العصر الوسيط لملاحظات الرازى الاكلينيكية ، مقال فى
Bull. of the History of Medicine, 1942, pp. 102-117.

● ● ●

● ــ على بن العباس المجوسي

عاش فى النصف الثانى مــن القرن الرابــع الهجرى (العاشر الميلادى) ، وحظى برعاية عضد الدولة احد الامراء البويهيين (٣٣٨ ــ ٣٨٢ هـ) ، واليه اهدى كتابــه المشهور : « كامــل الصناعة الطبية » ، وترجــع شهرتــه الــى هــذا الكتاب خصوصا .

ومن الابحاث التى كتبت عنه :

ــ جرتشيشف «طب العيون عند على بن العباس» مع ترجمة الــى الالمانية ، رسالة دكتــوراه برلين سنة ١٩٠٠
Gretschischeff : Die Augenheilkunde des Ali Abbas

ــ ب . رشتر : « من تاريخ الجدرى عند العرب» في « محفوظات فى تاريخ الطب » سنة ١٩١٢ ص ٣١١ ــ ٣٣١

P. Richter, in Arch. f. Gesch. d. Medizin

ــ ب . رشتر : « علم الامراض الجلدية الخاص عند على بــن العباس » ، فى محفوظات الامراض الجلدية والزهرى »

P. Richter, in Archiv f. Dermatologie und Syphilis, 1912, pp. 849-864.

ــ كامبل : « الطب العربي وتأثيره فى العصور الوسطى » جـ ١ ص ٧٤ ــ ٧٥

Donald Campbell : Arabian Medicine and its Influence on the Middle Ages. 2 Volumes, London, 1926.

ــ شبرجس : « تمثــل الطــب العربى في العصور الوسطى اللاتينية » ص ٣٤ ــ ٤٠

Heinrich Schipperges : Die Assismilation der arabischan Medizin das lateinische Mittelater. Wiesbaden, 1964.

• • •

● ــ ابن سينا

من بين الترجمات العديدة الــى اللاتينية لكتاب « القانون » لابن سينا نذكر ترجمة Plempius مع شروح واسعة وتعليقات ممتعة عن أنواع الادوية التى يذكرها ابن سينا :

Plampius: abuali ibn Tsina... dictu Avicenna : canon medicinae Lovanii (Louvain) 1558, liber secundus, P. 1-311.

• • •

● ــ أبو القاسم الزهراوى

هو خلف بن عباس الزهراوى ، نسبة الى الزهراء ضاحية قرطبة بالاندلس ، وله تصانيف مشهورة فى الطب ، وافضلها كتابه الكبير المعروف بالزهراوى ، واسمه الحقيقى : « التعريف لمــن عجز عن التأليف » ــ ولا يعرف تاريخ ميلاده ولا وفاته ، ويبدو انه توفــى فى نهاية القــرن الرابع الهجرى .

ومن الابحاث الجيدة عنه :

لوكلير : « جراحة ابي القاسم » ، باريس ، سنة ١٩٦١

Leclerc : La chirurgie d'albucasis, Paris, 1861.

جورلت : « تاريخ الجراحة » جـ ١ ص ٦٢٠ ــ ٦٤٩

ــ هـ . فريلش : « ابو القاسم كجراح حربي » فى « محفوظات الجراحة الاكلينيكية »

H. Frôhlich: Abul-Kasim als Kriegschirurg, in Archiv f. klinische chrurgie, 1884 pp. 364-376.

ــ ر . فالنس : «جراح عربي : ابوالقاسم»

R. Valensi : Un Chirurgien arabe : abulcasis. Montpellier, 1908.

ــ شارل نيل : « جراحة الاسنان عند ابىالقاسم ومقارنتها بجراحة الاسنان عند مغاربة طرارزا » فى « مجلة طب الفم والاسنان » Ch. Niel, in Revue de stomatologie سنة ١٩١١ ص ١٦٩ ــ ١٨١ ثم ٢٢٢ ــ ٢٢٩

ــ ك . سودهوف : « فى تاريخ الجراحةفى العصر الوسيط » ج ٢ ص ١٦ ــ ٨٤

K. Sudhoff : Beitrâge zur Gesch. d. Chirurgie in Mittelalter, II Leipzig 1918, PP. 16-84.

ــ هـ . ب . ج . رينو H.P. J. Renaud : « أبو القاسم وابن سينا وكبار الاطباء العرب : هل عرفوا مرض الزهري ؟ » مقال فى « مضبطةالجمعية الفرنسية لتاريخ الطب » سنة ١٩٣٤ ص ١٢٢

Bull. soc. frame. de hist. de la medecine, 1934, P. 122.

• • •

● ــ على بن عيسى الكحال

والكحال هو طبيب العيون . وقد عاشعلي بن عيسى فى النصف الاول من القرن الخامس الهجرى . وكتابه « تذكرة الكحالين » ، يعـدأشهر كتاب في طب العيون عند العرب .

ومن الامور الجديدة التي أحدثها على بنعيسى الكحال استخدامه للتخدير أثناء اجراء العمليات الجراحية فى العين . ولعله أول طبيبفى تاريخ الطب العالمي استخدم التخدير اثنـاء اجراء العمليات الجراحية .

وقد عنى بدراسته ى . هرشبرج ، فترجمالتذكرة الى اللغة الالمانية مستندا الى المخطوطات العربية ، وشرحها في كتابه :

J. Hirschberg : Ali ibn Issa Erinnerungsbuch für Augenarzte, aus arabischen Handschriften übersetzt und erlâutert. Leipzig, 1904.

كذلك عقد له فصلا فى كتابـه : « متـن فى طبالعيون العام »

Handbuch der gesamten Augenheilkunde, II, 41-47, 121-146.

وترجمها الـى الانجليزيـة وود

C.A. Wood : Memorandum of a tenth-century occulist, for the use of modern opthalmoligists. Chicago, 1936.

• • •

● ـ ابن النفيس

هو علي بن ابي حزم القرشى ، المعروفبابن النفيس ، مكتشف الدورة الدمويةالصغرى، وعاش فى القرن السابع الهجرى ومن الدراساتعنه :

ـ ماكس مايرهوف : « ابن النفيس (القرنالثالث عشر الميلادى) ونظريته فى الدورة الدموية الصغرى » مقال فى مجلة Isis سنة ١٩٣٥ ص١٠٠ ـ ١٢٠ . Max Mayerhof, in Isis.

ـ يوسف شاخت Joseph Schacht :ابن النفيس وسرفيتوس وكولومبو ، « مقال فى مجلة Al-Andalus المجلد » سنة ١٩٥٧ ص٣١٧ ـ ٣٣١ . وفيه بيان بالمؤلفات في موضوع الدورة الدموية ومختارات من سرفيتوس ،وفالفردى ، وكولمبوس لبيان امكان انتقال آراء ابن النفيس الى اوروبا .

ـ تشارلز.د . اوملى : « ترجمة لاتينيةلابن النفيس (١٥٤٧) تتعلق بمشكلة الدورة الدموية » ص ٦١٧ ـ ٧٢٠ من المجلد الثاني مناعمال المؤتمر الثامن الدولى لتاريخ العلوم . فيرنتسه ـ ميلانو ، ٣ ـ ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٦،عند الناشر Hermann فى باريس سنة ١٩٥٨ .

Charles D. O'Malley : A Latin Translation of Ibn Nafis (1547) related to the Problem of circulation of the blood.

Actes du VIIIe Congres International d'Histoire des Sciences Vol. 2, pp. 716-20, Paris, Hermann, 1958.

• • •

ثالثا ـ علم الحيوان والطب البيطرى

ولننتقل الآن الى علم الحيوان والطبالبيطرى . ولنذكر الابحاث بحسب المؤلفين فيهما

أ ـ الجاحظ

وهنا نلتقى اولا بالجاحظ . وقد خصهبحث بوصفه عالم حيوان ج . فان فلوتن ، ناشر بعض رسائله . اذ له بحث ترجمه الى الالمانيةبعنوان : « عالم طبيعي عربى فى القرن التاسع »، اشتوتجت سنة ١٩١٨

G. Vloten : Ein arabischer Naturphilosoph in 9. Jahr hundert. Aus dem Hôllândischen vebertragen von O. Rescher.

كما بحث في « الجن والارواح والسحر عندالعرب بحسب ما ورد فى كتاب « الحيوان » للجاحظ » ، فى مجلة WZKMسنة ١٨٩٣ ص١٦٩ ـ ١٨٧ ، ٢٣٣ ـ ٢٤٧ ، سنة ١٨٩٤ ص ٥٩ ـ ٧٣ ، ٢٩٠ ـ ٢٩٢ .

ومن بحثوا فى كتاب الحيوان للجاحظ ايضا :

ــ فيدمان : «دارونيات عند الجاحظ »

E. Wiedemann : Darwinistischer
bei Gahiz, in SBPMS Erlangen 47/1915, pp. 130-131.

ــ اسين بلاثيوس « كتاب الحيوان للجاحظ » ، فى مجلة Isis سنة ١٣٠ ص ٢٠ ــ ٥٤

ب ــ ابن قتيبة

وقد عقد ابن قتيبة فى « عيون الاخبار » فصولا عن الحيوان ، ترجمها الى الالمانية ودرسها فيدمن فى بحث بعنوان : « بحوث فى العلوم الطبيعية عند ابن قتيبة » :

E. Wiedemann : Naturwissenschaftliches aus Ibn Qutaiba. Beitrage z, Gesch. d. Naturwiss. XLIII, in SBPMS Erlangen 1915, pp. 101-120.

وترجم هذا القسم الى الانجليزية كوبف بعنوان : « قسم التاريخ الطبيعي من عيون الاخبار لابن قتيبة » :

The Natural History section from a 9th Century Book of useful knowledge The Uyun al-Akhbar of Ibn Qutayba translated by L. Kopf, ed. by F.S. Bodenheimer and L. Kopf. Paris-Leiden, 1949.

ج ــ ابو حيان التوحيدى

وفى كتاب « الامتاع والمؤانسة » لأبى حيان التوحيدى معلومات وفيرة عن الحيوان ، ترجمها الى الانجليزية وعلق عليها ل . كوبف :

L. Kopf : The Zoological chapter of the Kitab al-Imta wal Muanasa of Abu Hayyan al-Tauhidi (10th Century). Translated from the Arabic and annotated, in **Oriris,** 1956, pp. 390-466.

د ــ الدميرى

وبحث في كتاب «حياة الحيوان» للدميرى:

دى سوموجى الذى كرس له عدة ابحاث نذكر منها :

ــ « دليل مصادر حياة الحيوان للدميرى » في « المجلة الآسيوية JA » سنة ١٩٢٨ ص ٥ ــ ١٢٨

De Somogyi : Index des sources de la Hayat al-Hayawan de ad-Damiri

ــ « مكانة الدميرى فى الادب العربى » في « مجلة فينا لمعرفة الشرق WZKM » سنة ١٩٦٠ ص ١٩٢ ــ ٢٠٦

Annual of the Leeds University Oriental Society

ــ « الجاحظ والدميرى » ، فى حوليــاتالجمعية الشرقية فى جامعة ليدز ج ١ ســنة ١٩٥٨/١٩٥٩ ص ٥٥ ــ ٦٠

R. Froehner : Arabische Kamelheilkunde des Mittelaters, in Archiv f. wissenschaftliche und praktischa Tierheilkunde, 1934 pp. 358-361.

هـ ــ أبحاث فى الطب البيطرى

أما فى الطب البيطرى ، فنذكر الابحاثالتالية :

١ ــ همر بورجشتال : « الجمل » Das Kamel فينا سنة ١٨٥٤

٢ ــ ر . فرينر : « بيطرة الجمال عنــدالعرب فى العصور الوسطى » :

R. Froehner : Arabische Kamelheilkunde des Mittelatters, in Archiv. f. wissenschaftliche und praktische Tierheilkunde 1934, pp. 358-361.

٣ ــ د.مولر : « دراسات فى البيزرة تربية(تربية الصقور) العربية فى العصور الوسطى »، برلين سنة ١٩٦٥ :

D. Moller : Studien zur mittelalterlichen arabischen Falkener literatur. Berlin, 1965.

• • •

رابعا ــ الصيدلة والعقاقير

كانت عمدة الصيدلانيين العرب فى امورالعقاقير كتاب « ديسقوريدس العين زربى اكبر العلماء بالحشائش الطبية في العصر اليوناني .وكتابه فى خمس مقالات بيانها كالآتى :

« المقالة الاولى : تشتمل على ذكر ادويةعطرة الرائحة وأفاوية وأدهان وصموغ وأشجار كبار .

والمقالةالثانية : تشتمل على ذكرالحيواناتورطوبات الحيوان ، والحبوب ، والقطانى ، والبقول المأكولة والبقــول الحريفة ، وادويــةحريفة .

والمقالة الثالثة : تشتمل على ذكر اصول‌النبــات ، وعلى نبــات شوكى ، وعلــى بزور وصموغ ، وعلى حشائش بازهرية .

والمقالة الرابعة : تشتمل على ذكر أدويةاكثرها حشائش باردة وعلى حشائش حــــارة مسهلة ومقيئة، وعلى حشائش نافعةمن السموم.

والمقالة الخامسة : تشتمل على ذكرالكرم ،وعلى أنواع الاشربة ، وعلى الادوية المعدنية وقد كرس سيزار دوبلر Cesar Dübler حياتهلهذا الكتاب كما ترجم الى العربية . ومنها الى اللاتينية وما دار حوله من أبحاث . فنشر الكتابفي الترجمتين العربية واللاتينية ، ودرس مصيره

فى العالمين العربي والاوروبي في العصر الوسيط ؛ وفحص عن ذلك فى كتاب فى ستة مجلدات على النحو التالي :

La Materia Medica de Dioscorides. Transmision medieval y renacentista:

Vol. I.La transmision medieval y renacentista y la supervivencia de la medicina popular moderna de la, Material medica de Dioscorides, estudiada particularmente en Espana y Africa del Norte. Tipografia Emporium, S.A. Barcelona 1953.

Vol II (con Elias Teres) : La version arabe de la, Materia Medica texto, variantes e indices). Estudio de la transcripcion de ls nombres grieg al arabe y comparacion de las versiones griega, arabe y castellana. Tetuan y Barcelona, 1952-1957 CL XXX y 626 p.

Vol. III : La Materia Medica de Dioscorides, traducida y comentada por D. andres de Laguna (texto critico). Barcelona, 1955. XXVII y 621 p.

Vol. IV : D. Andres de Laguna y su epoca. Barcelona, 1955. XI y 368 p.

Vol. V : Glosario medico castellano del siglo XVI. Prologo de Gregorio Maranon. Barcelona, 1954. XVIII y 940 p.

Vol. VI : Indices generales y lexico especial de Andres de Laguna. Barcelnoa, 1959. XI y 353 p.

ومن الابحا ثالتي ظهرت قبل نشرة دبلن ودراسته العظيمة هذه ، نذكر :

ـ ماكس مايرهوف : «كتاب دياسقوريدس عند العرب » فى
Quell. u. Stud. Gesch. & Naturwiss. u. Medizin, 1933, p. 280-292.

ـ أ. جروبه : «مواد لدراسة دياسقوريدس عند العرب » :
E. Grube : " Materialen zun Dioskurides Arabieus", in Festschrift Kühnel, Berlin 1957, pp. 163-194.

• • •

ومن الدراسات العامة عن الصيدلة والعقاقير عند العرب نذكر :

ـ ماكس مايرهوف : « مخطط تاريخ الصيدلة والنباتات الطبية عند المسلمين فى اسبانيا » مقال فى مجلة Al-Andalus ، مدريد سنة ١٩٣٥ ، ص ١ ـ ٤٤

ـ هولميرد : « الصيدلة العربية فى العصور الوسطى » .

H.J. Holmyard : „Mediaeval arabic pharmacology", in Proceedings of the Royal Society of Medicine. Section of the History of Medicine. Vol. XXIX (London, 1935), pp. 99-108.

ـ رينو : « اسهام العرب فى معرفة الانواع النباتية »

H.P.J. Renaud : La contribution des arabes à la connaissance des espèces végétales, in Bull. de la soc. des sciences Naturelles du Maroc, to. XV (Rabat - Paris - Londres), n. du 31 mars 1935.

ـ مقدمة مايرهوف لنشرته لـ « شرح أسماء العقار » لموسى بن ميمون « القاهرة ، مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، سنة ١٩٤٠ ص V — LXX VI

ونذكر الآن دراسات مفردة عن مؤلفين :

أ ـ البيروني

ولنبدأ بأبى الريحان محمد البيرونى(المتوفي فى غزنة سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م) الذي الف كتابا في **« الصيدلة »** طبع فى باكستان سنة١٩٧٤ طبعة رديئة . وكان ماكس مايرهوف قد اعد له نشرة محققة جيدة بدأ في طبعها فى المعهدالفرنسى بالقاهرة ، ثم توقف الطبع ولا يدرى احد ما مصير النص المحقق !

وقد سبق لمايرهوف ان بحث فى هذاالكتاب فى بحث بعنوان : « مقدمة كتاب الصيدنة للبيرونى » :

Max Meyerhof : „Das Vorwart zur Drogenkunde des Beruni'', in Quellen u. studien zur Geschichte der Naturwissenschaften und der Medizin, Bd. III (Berlin, 1932), pp. 159-208.

ب ـ الادريسى

وللشريف الادريسى : الرحالة والجغرافيالعظيم (المتوفي فى بلرمو بصقلية سنة ٥٦٢ هـ/ ١١٦٦ م) نظرات فى الصيدلة والحشائش ، وقددرسها ماكس مايرهوف فى البحث التالي :

Max Meyerhof : „Ueber die Pharmakologie und Botanik des arabischen Gegraphen Edrisi'', in Archiv fuer Geschichte der Mathmatik, der Naturwissenschaften und der Technik. Bd. XII (Leipzig, 1930), pp. 45-53, 225-236.

جـ ـ هبة الله بن التلميذ

وكان طبيبا فىالقاهرة عاش فى بلاط الخليفةالمكتفي وتوفي سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م ، وله كتاب فى « الاقرباذين » توجد منه مخطوطات الآن(راجع بروكلمن جـ ١ ص ٤٨٧ وما يتلوها ، والملحق جـ ١ ص ٨٩١) . وقد كتب عنه ماكس مايرهوف مقالا فى ملحق « دائرة المعارف الاسلامية » الطبعة الاولى (ليدن ـ لندن ، سنة ١٩٣٦) .

د ـ نجم الدين محمد بن اياس الشيرازى

يبدو أنه عاش قبل القرن السابع الهجرى، وله كتاب « الحاوى في علم التداوى » الموجود منه عدة نسخ فى ليدن وجوتا (المانيا) .

وقد كتب عنه جيجس في الكتاب الذىبعنوان :

P. Guiges: Le livre de l'art du traitement, de Najm ad-Dyn Mahmoud. Beyrouth, 1903.

هـ ــ ابن بكلارش

يونس بن اسحق بن بكلارش ، كان طبيبلاحمد الثاني المستعين ، امير سرقسطة ، ولـه كتاب « المستعينى » فى الادوية المفردة .

وقدر درسه رينو :

H.P.J. Renaud: Trois études de la médecine en occident : 1. Le Mustaini d'Ibn Beklares, in **Hesperis (Paris,** 1931), pp. 135-150.

و ــ ابو الاعلى زهر الاشبيلي

هو والد الطبيب المشهور ابى مروان بن زهر ، وقد ألف كتبا عديدة فى الادوية المفردة والعلاجـات والاغـذية . ومـن أهمها كتـاب« التذكرة » .

وقد درسه جورج كولان :

G. Colin: ,,La Tedkira d'abu'l-Ala'', Publications de la Faculté des Lettres d'Alger, t. XIV (Paris, 1911).

ز ــ أحمد الغافقى

هو ابو جعفر احمد بن محمد الغافقي :ولد بقرية قرب قرطبة ؛ وهو فى نظر مايرهوف أكبر عالم بالصيدلة والنبات فى العالم الإسلامى . وقد عاش فى النصف الاول من القرن السادس الهجرى .

وقد ضاع كتابه الاصلى فى الادوية ، لكن بقى مختصره الذي قام به ابو الفرج جريجوريوس ابن العبرى (المتوفى فى سنة ٦٨٥ هـ/١٢٨٦م) .

وقد بـدأ فى نشر هـذا المختصـر ماكس مايرهوف وجورج صبحى ضمن مطبوعات كلية الطب فى جامعـة القاهرة (الكراسة الاولى سنة١٩٣٢ ، والثانيـة سنة ١٩٣٣ ، والثالثـة سنة ١٩٣٨) .

وكتب عنه ماكس مايرهوف البحث التالى:

M. Meyerhof : u Ueber die Pharmacologie und Botanik des Ahmad al-Ghafigi, in Archiv f. Gesch. d. Mathematik u. Naturwissenschaften, XIII (1930), pp. 65-74.

ح ــ ابن البيطار

ولعـل اشهـر كتـب الصيدلـة كتاب :« الجامـع في مفردات الادويـة والاغذية » الذى نشر فى القاهرة ، بولاق سنة ١٢٩١ هـ/١٨٧٤ مفي ٤ مجلدات . وترجمـه الـى الفرنسية مـع تعليقات : لوسيان كولير L. Leclerc تحت عنوان :

Traité de simples par Ibn al-Baithar. 3 Volumes. Paris 1877-83.

ولـه ترجمـة المانيـة « رديئـة ـجدا »(مايرهوف) قام بها Sontheimer

ط ـ موسى بن ميمون

والدراسات الاوروبية عنه لا تكاد تحصى ،وقد ذكر بعضها ماير هوف فيمقدمة نشرته لكتاب « شرح اسماء العقار » الذى نشره ماكسمايرهوف فى القاهرة سنة ١٩٤٠ عن المخطوط الوحيد الموجود فى جامع ايا صوفيا باستانبول(رقم ٣٧١١) . وهو معجم أبجدى بأسماء العقاقير الطبية ، يقول موسى بن ميمون فىمقدمته : « قصدى فى هذه المقالة شرح أسماء العقاقير الموجودة فى ازماننا المعروفة عندنا ،المستعملة فى صناعة الطب فى هذه الكتب الموجودة لدينا . ولا اذكر من الادوية المفردة المعروفة ،ما ترادفت عليه أسماء أكثر من واحد : اما بحسب اختلاف اللغات ، او بحسب اهل اللغةالواحدة ، لان الدواء الواحد قد تكون له اسماء كثيرة عند اهل اللغة الواحدة » (ص ٣) .

وقد اردف ماكس مايرهوف هذه النشرةللنص العربى بترجمة فرنسية مزودة بتعليقات وفيرة .

• • •

خامسا ـ النبات والفلاحة

واهم الابحاث عن الفلاحة عند العرب تدورحول كتاب « الفلاحة النبطية » ، وعنوانه الكامل هو : « **كتاب افلاح الارض واصلاح الزرعوالشجر والثمار ، ودفع الافات عنها** » . وهذا الكتاب مترجم عن « السريانية القديمة » أو لغة« النبط » ومترجمه هو أبو بكر بن وحشية ، الذى عاش فى بداية القرن الرابع الهجرى ، الذىيزعم ان مؤلفه شخص اسمه قطامى الذى عاش ـ بحسب تقدير اشفولسون ـ في القرنالسادس عشر قبل الميلاد !

وقد توالى على دراسته :

ـ كاترمير Quatremère فى مقال بعنوان :« مذكرة عن الانباط » ، المجلة الاسيوية J.A. سنة ١٨٣٥ ص ٢٣١ ـ ٢٣٥ .

ـ ماير E. H. F. Meyer مؤرخ علم النبات فى كتابه عن « تاريخ علم النبات » جـ ٣ص ٤٣ ومايتلوها ، سنة ١٨٥٦

ـ اشفولسون : « بقايا الادب البابلى فىالترجمات العربية ، بطرسبرج سنة ١٨٥٩
D. Chwolson : Ueber die Ueberreste der altababylonischen Literatur in arabischen Uebersetzungen. St. Peterburg, 1859.

ـ ارنست رينان : « عن بقايا الادب البابلىالقديم المحفوظة فى النقول العربية » ، مقال فى المجلة الجرمانية Revue Germanique سنة ١٨٦٠ ـ ص ١٣٦ ـ ١٦٦

ـ أ.فون جوتشيمد A. Von Gutschmid : « الفلاحة النبطية واخواتها » : مقال فى Zdmg سنة ١٨٦٠ ص ١ ـ ١١٠ .

وقد بين فى مقاله هـذا أن كتاب « الفلاحة النبطية » كتاب متحـول مزيف كتب فى العصـر الاسلامي ، وايد هذا الرأى .

نيلدكـه Th. Noeldeke المستشرق العظيم فى مقالـه بعنوان : « مزيد مـن القول فى الفلاحة النبطية » ، فى مجلة ZDMG سنة ١٨٧٦ ص ٤٤٥ ــ ٤٥٥ .

ــ ويمضى نلينو الى أبعد من هذا فيقول انه ليس من المحتمل ان يكون ابن وحشـية هو مؤلف الكتاب ، بل هو مما انتحله (أبو طالب احمد بن الحسين بن على بن أحمد بن محمد بن عبد الله) الزيات ، الذى يقول انه كان تليذا لابن وحشية « وذلك في كتابه » « علـم الفلك » ، روما سنة ص ٢٠٧ .

ــ ويندفع باول كراوس فى هذا الانكار الى حد أن يقول ان ابن الزيات هو ليس فقط مؤلف كتاب « الفلاحة النبطية » بـل هو أيضا الـذى اخترع شخصية ابن وحشية ــ وذلك فى كتابة « جار بن حيان » جـ ١ ، المقدمة ص LIX .

ــ وفى اتجاه مضاد سعـى بعض الباحثين مثل فيدمن « عن الفلاحة النبطية لابن وحشية » مقال فى مجلة ZS سنة ١٩٢٢ ص ٢٠١ ــ ٢٠٢) ومارتن بلسنر « الفلاحة النبطية » لابن وحشية محاولة لرد اعتبار ابن وحشية » ، وفى مجلة ZS سنة ١٩٢٨/١٩٢٩ ص ٢٧ ــ ٥٦) وبرجدولت "E. Bergdult" « من تاريخ علم النبات فى الشرق ١ : ابن وحشية » ، تقارير جمعية علـم النبات الالمانية سنة ١٩٣٢ ص ٣٢١ ــ ٣٣٦) ــ نقول : سعى هؤلاء الى رد اعتبار ابـن وحشية وتوكيد وجوده وكونه مؤلف « الفلاحة النبطية » .

وحسبنا هذا القدر لبيان مالقى هذا الكتاب الفريد من عناية بالغة .

١ ــ ابو حنيفة الدينورى

وثانى كتاب لقى العناية مـن الباحثين هو « النبات » لابـى حنيفة الدينـورى (المتوفـى حوالى سنة ٢٨٢ هـ/٨٩٥ م) .

واكبر الباحثين فى هذا الكتاب ب . زلبربرج B. Silberberg ، فقد خـص هـذا الكتاب برسالة للدكتوراه من جامعة برسلاو سنة ١٩٠٨ ، وعنوانها : كتاب النبات لابى حنيفة احمد بـن داود الدينورى . اسهام فى تاريخ النبات عند العرب . وقد نشر قسم منها فى مجلة الاشوريات ZA سنة ١٩١٠ . ص ــ ٢٢٥ ــ ٢٦٥ ثم سنة ١٩١١ ص ٣٩ ــ ٨٨ .

ولا يزال لكتابه هذا قيمة كبيرة ، على الرغم من انه لـم يعرف مـا اكتشف بعد مـن أصول مخطوطـة لبعـض اجـزاء كتـاب « النبات » ، ومجموعها سبعة أجزاء (راجـع « الفهرست » لابن نديم ص ٣٨ .)

وقد نشـر ب . ليفين Lewin الجـزء الخامس مـن هـذا الكتاب في أبسالا (السويد) سنة ١٩٥٣ ، كما اعد للنشر الجزء الثالث لينشر ضمن مجموعة Biblioteca Islamica

• • •

ب ــ ابن العوام

اما فى الاندلس فيبدو أن الباحثين العرب فى علم الفلاحة قد استندوا أيضا الى مصادر لاتينية ، بينما زملاؤهم فى الشرق الاسلامى اعتمدوا على مصادر يونانية (مثل كتاب « الفلاحة » المنسوب الى بليناس ، وكتاب كسيانوس بلسوس) وفارسية .

ــ واولهم احمد بن محمد الحجاج (وقد الف كتابه سنة ٤٦٦ هـ/١٠٧٣ م) فى كتابة « المقنع » ، الذى بقى لنا قسم منه فى المخطوط رقم ٥٠١٣ بالمكتبة الوطنية فى باريس . وقد عنى بدراسته مياس فيكروسا ، فكتب عنه مقالين : (١) « تقاليد علم الفلاحة فى اسبانيا العربية فى « محفوظات معهد تاريخ العلوم » سنة ١٩٥٥

Millas — Vallicrosa : „La Tradicion de la Ciencia geoponica" in : Arch. Int. d'Hist. des sciences, 1955.

٢٩ ، « اسهام فى دراسة كتابى ابن حجاج وابى الخير فى الفلاحة » مجلة Al-Andalus سنة ١٩٥٥ ص ٨٧ ــ ١٠٥ .

ــ وثانيهم هو ابو زكريا يحيى بن محمد بن العوام (عاش في النصف الاول من القرن السادس الهجرى ، راجع بروكلمن ج ١ ص ٤٩٤) صاحب كتاب « الفلاحة » (ومنه نسخ فى ليدن برقم ١٢٨٥ ، وباريس برقم ٢٨٠٤ ، والمتحف البريطانى برقم ٩٩٨ ، والاسكوريال فهرست الغزيرى برقم ٩٠١) وقد ترجمه الى الاسبانية وعلق عليه J.A. Banqueri فى مدريد سنة ١٨٠٢ فى مجلدين مع نشر النص العربى .

ومما كتب عنه من ابحاث : (١) C. Moncada, فى اعمال المؤتمر الثامن للمستشرقين ، القسم الاول ص ٢١٧ ــ ٢٥٧ .

(٢) C.E. Dubler فى مجلة « الاندلس Al-Andalus » ج ٦ ص ١٤٢ وما يتلوها .

جـ) والثالث هو ابن بصال ، وقد بقى من كتابه فى الفلاحة الفصول الخمسة الاخيرة ، وقد نشرها مياس فى Tamuda I (1953) P. 47-58. وراجع نفس المجلة جـ ٢ ص ٣٣٩ ــ ٣٤٤

• • •

سادسا ــ فى الرياضيات

وللعرب فى الرياضيات اليد الطولى ، ومن هنا كثرت دراسات المستشرقين والباحثين الاوروبيين (اعتمادا على الترجمات اللاتينية) فى هذا الميدان .

أ ــ دراسات عامة

ولنبدأ بذكر الدراسات العامة :

ــ سيديو : « مواد للتاريخ المقارن للعلوم الرياضية عند اليونان والشرقيين ، في جزئين ، باريس ١٨٤٥ ، ١٨٤٩

L.P.E. A. Sedillot : Matériaux Pour servir à l'histoire comparée des sciences mathématiques chez les Grecs et les Orientaux.

ــ أ . كانتــور : « محاضــرات في تاريــخ الرياضيات » ، ج ١ ص ٥٩٣ ــ ٧٠٠ ، ليبتسك ١٨٨٠ .

M. Cantor Vorlesungen ueber Geschichte der Mathematik

هـ . سوتر : « علماء الرياضة والفلـك العرب وأعمالهم ليبتسك سنة ١٩٠٠

H. Suter : Die Mathematiker and Astronomer der Araber und ihre werke (Abh. Zur Gesch. der math. wissenschaften mit Einschluss ihrer Anwendungan, X, Suppl. zum 45 Jahrg. der Zeitschrift für Math. u. Physik. Nachträge u. Berichtigungen dazu ebenda, XIV (1903), S. 147-185.

ــ مورتس اشتينشنيدر : « الرياضيــون العرب » في مجلة OLZ جـ ٧ العــدد ٦ (يونيو ١٩٠٤) ، جـ ٩ عدد ١ (يناير سنة ١٩٠٦) .

ــ سنتشز بــيرث : « تراجـم الرياضيين العرب ازدهروا في اسبانيا » ، مدريد سنة ١٩٢١

J.A. Sanchez Perez : Biografias de matematicos arabes qui florecieron en Espana.

ــ الدوميلي : « العلم العربــى ودوره فى التطور العلمي العالمي ، مع بعــض اضافات كتبها رينــو ومايرهــوف وروسكا » ، ليدن ، سنــة ١٩٣٨ .

Aldo Mieli : A science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale, avec quelques additions de H.P.J. Renaud M. Meyerhof, J. Ruska. Leiden, 1938.

ــ ماسنيــون وارنالدز : الفصــل الخاص بتاريخ الرياضيات والعلوم عند العرب في كتاب

Histoire générale des sciences, sous la direction de René Taton, Vol. I : Science antique et médiévale (des origines à 1450). Paris, PUF, 1957.

ب ــ دراسات خاصة

١ ــ عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي

واقدم الرياضيين العرب الجديرين بالذكر عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي ، الذى عاش في أيام الخليفة المأمون واشتغل فى «بيت الحكمة» وقد توفي بعد سنة ٢٣٢ هـ/٨٤٦ م .

وقد ترجم جيردو الكريمونى فى القرن الثاني عشر كتــابه : « مختصر مــن حســاب الجــبر والمقابلة » ، ونشر هذه الترجمة جليلمو لبرى G. Libri فى باريس سنة ١٨٣٨ .

وقــد نشر نصــه العربى وترجمتــه الــى الانجليزية Fr. Rosen تحت عنوان :

The Algebra of Muhammad bin Musa, ed. and transl. London, 1831.

وممن درسوه :

أ) إ . فيلينتر : « تمرينات فى تقســيم الميراث عند محمد بن موسى » ، مقال فى

Mitteil z. Math. u. Nat. 53 (1922) P. 57-67.

ب) س . جــانــدز : « مصــادر جــبر الخوارزمى » ، مقال في مجلة Isis سنة ١٩٣٦ ص ٢٧٢ ــ ٢٧٤

S. Gandz: Sources of al-Khowarizmi's algbra

جـ) ا . مار : « القسم الهندسي من جبرالخوارزمي » مقال فى
Nouvelles annuales des Mathematiques V (1846) P. 557-70, et dans : Annali di matematica pura ed applicata VII, Roma 1866.

د) كرلو الفرنسو نلينو : « الخـوارزمي واصلاحه لجغرافيا بطليموس » فى
RAL, ser. V.Vol 2, la, Roma 1894.

٢ ـ ثابت بن قرة الحرانى

ولد فى حران سنة ٢١٩ هـ/٨٣٤ م وكان من الصابئة . وتوفى فى ٦ صفر سنة ٢٨٨ هـ (= ١٨ فبراير سنة ٩٠١) ومن أهم كتبه فى الرياضيات : « كتاب المفردات » وكتاب « الاكر والمخروطات » ، « فى القرسطون » . وممـن كتبوا عنه :

ا) د . اشفولزون D. Chawolsohn فـي كتابه عن « الصابئة » جـ ١ ص ٥٤٦ ـ ٥٦٧ .

ب) فوبسكه Woepcke « تعليق على نظرية اضافها ثابت بن قرة للحساب النظـرى اليوناني » ، في « المجلة الآسيوية » JA سنـة ١٨٥٢ جـ ٢ـ ٤٢٠ ـ ٤٢٦ .

جـ) وعـن ترجماته وملخصـاته للكتـب اليونانية كتب اشتينشنيدر فى مجلة ZDMG المجلد الخمسون ص ١٧٣ .

د) A. Bjornbo : « كتـاب ثابت عـن الشكل القطاع ، مع ملاحظات لسوتر ، وتكملة مؤلفة من أبحاث عن تاريخ حساب المثلثات وقياس الاكر عند المسلمين » ، ايرلنجن سنة ١٩٢٤ (« أبحاث فى تاريخ العلوم الطبيعية والطب ») الكراسة ٧) .

٣ ـ الحسن بن الهيثم

ابو على الحسن محمـد بن الحسن بـن الهيثم البصرى ثم المصرى ، المعروف عند اللاتين باسم Alhazen المتوفى سنة ٤٣٠ هـ/١٠٣٨م . وقد اشتهر في ميـدان الرياضيات والبصريـات معا .

وممن عنوا بدراسته :

أ) م . كانتور : « محاضرات فى تاريـخ الرياضة » جـ ١ ص ٦٧٧ وما يتلوها .

ب) نردوتشى M. Marducci في Boncompagni : Boll. di bibl. e. di storia delle sienza mat. e fis. TV, Roma, 1871.

جـ) م ـ سديو : « تعليق على مقالة فـى المعلومات للحسن بن الهيثم » ، مقال فى « المجلة الآسيوية » ، السلسلة الثانية جـ ٤ ، ص ٤٣٥ وما يتلوها .

د) فيدمن : « ابن الهيثم » عالم عربي ، الكتاب التذكـار المهدى الـى ى . روزنتـال ، ليبتسك سنة ١٩٠٦ ص ١٤٩ ـ ١٧٨

هـ) سوتر : « كتاب تربيع الدائرة لابن‌الهيثم ، نشرة للنص العربي وترجمة ألمانية » فى مجلة الرياضيات والفيزياء .
Zeitschr. f. Math. u. Physik. Hist. Lit. Abt. 44 (1899), Heft 23, S. 33-47.

و) فيدمن : نشر فصولا من « القول فى‌المكان » و « شكل نبى موسى » فى
SBPh MS, Erlangen 1909

٤ ــ عمر الخيام (توفى سنة ٤١٧ هـ/١١٢٣ م)

الشاعر المشهور صاحب «الرباعيات» وهومن كبار الرياضيين ، ومن مقالاته العربية فى الرياضيات :

أ) « مقالة فى الجبر والمقابلة » منه نسخةفي ليدن برقم ١٢٠ ، وباريس برقم ٢٤٥٨ .

ب) « رسالة فيشرح ما اشكل من‌مصادرات‌اقليدس » ، ومنه نسخة فى ليدن برقم ٩٦٧

جـ) « فى الاحتيال لمعرفة مقدارى الذهب‌والفضة فى جسم مركب منهما » ، ومنه نسخة في جوتا برقم ١١٥٨ .

وممن كتبوا عنه بوصفه رياضيا :

١ ــ و . ا . استورى : « عمر رياضيا »،بوسطن سنة ١٩١٨
W.E. Story : Omar as Mathematician, Boston, 1918.

٢ ــ فوبسكه : « جبر عمر الخيـام » ،باريس سنة ١٨٥١
Woepcke: L' algèbre d'Omar al-Khayyami, Paris 1851.

٣ ــ فيدمن : «فى تحديد الاوزان النوعية»
Wiedemann : Ueber Bestimmung der spezifischen Gewichte,
SBPMS, Erlangen XXXVIII, 1906, p. 170-173.

● ● ●

سابعا ــ فى علم الفلك

خير كتاب فى تاريخ الفلك عند العرب هوكتاب كرلو الفونسو نلينو وهو بالعربية وعنوانه :

« علم الفلك : تاريخه عند العرب فى القرون‌الوسطى : ملخص المحاضرات التي ألقاها بالجامعة المصرية : ١ ، ٢ . » وقد طبع فى رومـا‌سنة ١٩١١ ضمن «منشورات الجامعة المصرية» .

يضاف اليه (١) جورج سارتون : » مقدمةالى تاريخ العلم « جـ ١ : من هوميروس الى عمر الخيام » ، بلتيمور سنة ١٩٢٩ (منشورات‌معهد كرينجى ، رقم ٣٧٦)

(٢) واقدم من تناول الموضوع : ديلامبر :« تاريخ الفلك فى العصر الوسيط » ، باريس سنة ١٨١٩

J.B.J. Delambre : Histoire de l'astronomie an moyen âge.

(٣) نويجباور : « تاريخ الفلك الرياضى القديم .

O. Neugebaver of ancient Mathamatical astronomy. Springer-Verlag, Berlin, New York, 3 Volumes, 1975.

(٤) وآخر الابحاث الممتازة كتاب بول كونتشى : « المجسطى » ، فيزبادن سنة ١٩٧٤

Paul Kunitzsch : Der almagest. Die syntaxis Mathematica des Claudins Ptolemanus in arabisch-lateinischer Ueberlieferung. Harrassowitz, Wiesbaden, 1974, XVI — 384 pp. — 10 Taf.

ب ــ دراسات مفردة

١ ــ ابو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخى

من اكبر الفلكيين فى العصور الوسطى الاسلامية والاوروبية ، وتوفى فى = ٢٨ رمضان سنة ٢٧٢ هـ/٨ مارس سنة ٨٨٦ م . ومن أشهر كتبه : « كتاب الالوف فى بيوت العبادات » وهو كتاب يقع فى ثمانى مقالات . راجع عنه لبرت Lippert فى WZKM المجلد التاسع ص ٣٥١ ــ ٣٥٨ . وكتاب « المدخل الكبير الى علم احكام النجوم » . وكتاب « مواليد الرجال والنساء » ، وكتاب « قرانات الكواكب » .

وتجد ذكرا له في كتاب نيلنو ، وسوتر (٢٨)

٢ ــ أبو على محمد بن جابر بن سنان البتانى

كان صابئا من حران ، ولد قبل سنة ٢٤٤ هـ/٨٥٨ فى حران ، ثم اعتنق الاسلام . وعاش معظم حياته فى الرقة حيث بدأ هناك ارصاده الفلكية . وتوفى فى سنة ٣١٧ هـ/ ٩٢٩ م . ويعده المسعودى من اعظم الفلكيين فى الاسلام .

أ ــ اشفولسون : « الصابئة » جـ ٢ ص ٦١١ وما يتلوها .

ب ــ م . كانتور : « تاريخ الرياضيات » ص ٦٣٢

ولكن خير دراسة هي ما قام بها كارلو الفنسو من نشر زيج البتانى وترجمته والتعليق عليه ؛ استنادا الى المخطوطة الوحيدة لهذا الكتاب الموجودة بالاسكوريال (اسبانيا) . وبين هناك المصادر اليونانية واللاتينية والفهلوية والهندية التي أخذ عنها الفلكيون العرب نظرياتهم . ويقع هذا العمل فى ثلاثة مجلدات ضخمة من ١١٣١ صفحة من قطع الربع . وبهذا العمل الفذ صار نلينو اكبر حجة فى تاريخ الفلك عند العرب .

٣ ـ أبو الوفاء البوزجانى

ولد في أول رمضان سنة ٣٢٨ هـ / ١٠ يونيو سنة ٩٤٠م فى بوزجان بالقرب من نيسابور . وتوفى فى سنة ٣٨٧ ، او فى رجب سنة ٣٨٨ هـ (يوليو سنة ٩٨٨) . ومن أهم مؤلفاته : « المجسطى » وهو تقليد لكتاب بطلميوس بهذا العنوان ، ومنه نسخة فى باريس برقم ٢٤٩٤ .

وممن درسوه :

أ ـ سديو : « مواد ... » ص٤٢ ومايتلوها

ب ـ كرا دى فو في مقال فى « المجلة الاسيوية » JA المجلد ١٩ ص ٤٠٨ ـ ٤٧١ .

جـ ـ ر . فولف R. Wolf : « تاريخ الفلك » ص ٥٣ ، ٣٠٤

د ـ سوتر Suter فى « دراسات فى الرياضيات والعلوم الطبيعية » ارلنجن سنة ١٩٢٢ .

٤ ـ ابو الحسن على بن سعيد عبد الرحمن بن احمد بن يونس بن عبد الاعلى الصوفى

عاش فى خدمة الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى ، وتوفى فى ٣ شوال سنة ٣٩٩ هـ (٣ مايو سنة ١٠٠٩) ويعد الى جانب البتانى اكبر فلكي عربي . اشهر كتبه : « الزنج الحاكمي » نسبة الى الحاكم بأمر الله .

وممن درسوه :

أ ـ دلامبر : « تاريخ الفلك فى العصر الوسيط » ص ٧٦ وما يتلوها .

ب ـ ف . ميرن F. Mehren في Annaler for Nord. Old frymd'z سنة ١٨٥٧ ص ٢٥

جـ ـ كوسان دى برسيفال

Notes et Ex- : Caussin de Parceval traits VII, 16, p. 240.

د ـ C. Schoy في مجلة Isis جـ ٥ سنة ١٩٢٣ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٦ وقد ترجم شوى الى الالمانية بعض فصول من « الزيج الحاكمى » فى :

Annal. d. hydrograph. u. marit. Meteorologie, Hamburg, 1921
Gnomonik der Araber, Berlin, 1923.

٥ ـ أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر بن الصفار الغافقى الاندلسى

هو تلميذ مسلمة المجريطى ، عاش فى قرطبة ، ثم لجأ الى جزيرة دانية وتوفى فيها سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٥ م وله « رسالة في الاسطرلاب » معظمها مأخوذ من كتاب استاذه مسلمة .

وقد درسه مياس مايكروسا J. Millas Vallicrosa في بحث باللغة القطالونية عنوانه : « بحث فى تاريخ الاراء الفيزيائية والرياضة فى قطالونيا في العصور الوسطى جـ ١ ، برشلونة سنة ١٩٣٦ وترجم كتاب « الاسطرلاب»

٦ ـ ابو الريحاني البيروني

صاحب كتاب « الهند » والآثار الباقية عن القرون الخالية) . لكن يهمنا هنا ما كتبه في الفلك، واهم مؤلفاته في الفلك :

١ ـ « التفهيم لاوائل صناعة التنجيم »

وقد نشره رمزى رايت Ramsay Wright في لندن سنة ١٩٣٤ مع ترجمة انجليزية بعنوان :

The Book of Introduction to the art of astrology by al-Biruni written in Ghazna 1039 A.D., reproduced from the Ms. in the British Museum, with translation facing text, by Ramsay Wright.

ودرس بعض فصوله فيدمن E. Wiedemann في Beitr. 27 خصوصا مـا يتعلـق بالمساحـات والمسافات على الارض .

٢ ـ « القانون المسعودى في الهيئة والنجوم » وقد اهداه الى السلطان الغزنوى مسعود بن محمود في سنة ٤٢١ هـ/١٠٣٠م .

وممن بحث فيه :

ـ فيدمن في Eders Jahrb سنة ١٩١٤

ـ فيدمـن في « محفوظات تاريـخ الطب » سنة ١٩٢٣ ص ٤٣ ـ ٥٢

ـ شوى C. Shoy في مقال بعنوان : « مـن الجغرافيا التنجيمية عند العرب » في مجلـة Isis جـ ٥ ص ٥١ ـ ٧٤ ، جـ ٦ ص ١٤٧١

ـ شوى : « تحديد عرض مدينة غزنـة » مقال في Ann. d. Hydrographie سنة ١٩٢٥ ص ٤١ ـ ٤٧ ، مجلـة جـ ٧ ص ٥٣٦ ، جـ ٨ ص ٧٣٩

٣ ـ « استيعاب الوجوه الممكنة في صنعة الاسطرلاب » ـ ترجم مقدمته فيد من في Das Weltall جـ ٢ ص ٢١ وما يتلوها .

ودرسه J. Frank : « الاسطرلاب » في SBPMS, Erlang سنة ١٩١٨ ـ ١٩١٩ ص ٥٥٢ وما يتلوها .

و . هـ . زيمن H. Seemann و Th. Mittelberger بعنوان : « تأملات عامة للبيروني في كتابه عن الاسطرلابات » ، في SBPMS, Erlangen 52 (1922) (1922)

وفيد من : « تحديد حجم الارض عنـد البيروني في » محفوظات تاريخ العلوم الطبيعيـة والتكنيك جـ ١ سنة ١٩٠٨ ص ٦٦ ـ ٦٩ .

٤ ـ « استخراج الاوتار في الدائرة بخواص الخط المنحنى الواقع فيها » وقد ترجمه وشرحه هـ . سوتر H. Suter في ليبتسك سنة ١٩١٠ ـ سنة ١٩١١ في Bibl. Math. F. 11, 5

٥ ــ « تحديد نهايات الاماكن وتسطيح مسافات المساكن »

راجع كرنكوف فى Islamic Culture VI, p. 528-34

ونذكر من الابحاث عن البيروني أيضا :

١ ــ خ . برنت خينس Vernet Gines :البيروني وحركات الارض » فى اعمال مؤتمر البيروني فىطهران ، القسم الانجليزي والفرنسي،ص ٢١٩ ــ ٢٨٤ ، طهران سنة ١٩٧٦ .

٢ ــ لورنس بول الول ــ ستون :«البيروني واقواله في الاسطرلاب» ، فى اعمال مؤتمر البيروني فى طهران المنعقد فى سبتمبر سنة ١٩٧٣ ، القسم الانجليزى والفرنسى ص ١١٣ ــ ١٢٧ طهران سنة ١٩٧٦ .

٣ ــ ل . ا . سيديو L. Am. Sedillot : « مذكرة عن الآلات الفلكية عند العرب » ، باريس سنة ١٨٤١ .

٤ ــ كارل شوى Carl Schoy : « نظريات حساب المثلثات عند الفلكى الفارسى ابى الريحاني محمد بن احمد البيروني ، بحسب ما عرضه في كتاب القانون المسعودى » . هانوفر ، سنة ١٩٢٧

٥ ــ فيورينى Fiorini : « اسقاطات الخرائط الجغرافية للبيرونى » ، فى Boll. soc. geografica ital (3 ser.)

٦ ــ لوى ما سينسون : « البيروني والقيمة العالمية للعلم العربى » فى
Al-Beruni commamorations volume. Iran Society, Calcutta, 1951, texte reproduit ap. Louis Massignon : Opera Minora, t. II, Beyrouth, 1963

٧ ــ س . بينس S. Pines : « نظرية دوران الارض فى عصر البيرونى » مقال فى « المجلة الآسيوية » ٢٤٤ (١٩٥٦) ص ٣٠١ ــ ٣٠٥

٧ ــ ابن رشد

الى جانب الدراسات العامة عن ابن رشد بوصفه فلكيا ، نشير الى الابحاث التالية :

١ ــ ليون جوتييه Leon Gauthier :« اصلاح نظام بطلميوس الفلكى كما حاوله الفلاسفة العرب في القرن الثانى عشر » ، فى « المجلة الاسيوية » JA السلسلة العاشرة المجلد ١٤ (سنة ١٩٠٩) ص ٤٨٣ ــ ٥١٠ .

٢ ــ ف . ج . كرمودى F.J. Carmody : « نظرية ابن رشد فى الكواكب » مقال فى مجلة Osirsi المجلد العاشر (١٩٥٢) ص ٥٥٦ ــ ٥٨٦

٣ ــ برنرد جولد شتين Bernard R. Goldstein : « الرواية العربية لفروض بطليموس الفلكية » فى
Transactions of the American Philosophical society, new series, Vol. 57 :1967) Par 4.

٤ ــ بيتر دوهم : « نظام العالم من افلاطون الى كوبر نيكوس »
Pierre Duhem: Le Système du monde: de Platon à Copernic, t. IV, PP. 532-575, Paris,1916.

• • •

ثامنا ــ فى الفيزياء

اكبر عالم عربى فى الفيزياء هو الحسن بن الهيثم ، وقد اشرنا الى ما كتب عن اعماله الرياضية . ونتناول هنا ما كتب عنه بوصفه فيزيائيا ، خصوصا ما يتعلق بالبصريات .

والابحاث عديدة في هذا الباب ونكتفي بذكر الآتي :

١ ــ ونتر : ابحاث ابن الهيثم فى البصريات
H. J. Winter : The optical researches of Ibn al-Haitham, in **Contaurus**, 3 (1954), pp. 19-210.

٢ ــ ونتر ووليد عرفات : « ابن الهيثم والمرايا ذات البؤرة التى على شكل قطع زائد » مقال فى JRAS جـ ١٥ (سنة ١٩٤٩) ص ٢٥ ــ ٤

٣ ــ ونشر مياس بايكروزا ترجمة لاتينية مجهولة لرسالة في الفلك لابن الهيثم بحسب مخطوط المكتبة الوطنية فى مدريد رقم ١٠٠٥٩ (ورقة ٣٧ أ ــ ٥٠ أ) في
Las traducciones orientales, n. 9, pp. 285-312

٤ ــ ا . س . مارشال : « ابن الهيثم والتلسكوب » :
O.S. Marshall : „Alhazen and the telescope:", Astronomical society of the pacific. San Francisco, 1950.

٥ ــ هـ . باور H. Bauer : علم النفس عند الحسن بن الهيثم ، بحسب نظرياته فى البصريات » مونستر ١٩١١ ، ضمن مجموعة
Beitr. z. Gesch. d. Philosophie in Mittelater

٦ ــ فيدمن : مقالات عديدة فى مجموعة
Beitr. zur. Gesch. d. Nat. SBPMS, Erlangen

٧ ــ وترجم ى . ل . هيبرج J.L. Heiberg وفيدمان كتاب : « فى المرايا المحرقة بالقطوع » ، وترجم فيدمان كتاب « مقالة فى المرايا المحرقة بالدوائر » ــ وذلك في
Bibl. M ath. 3. Folge, B. 10 (1910), pp. 201-37, 293-307

---

* اعادت طبعها دار نشر Olms فى هلد سهيم بالمانيا
Eilhard Wiedemann : Aufsâtze zur arabischen wissensechftsgeschichte, mit einer Vorwort und Indices, herausgegeben von Wolfdietrich Fischer. Hildisheim - New York, I, II, 1970.

٨ — وترجم C. Schoy الى الالمانية ايضارسالة « ماهيةالاثر الذى فى وجهالقمر » ،وظهرت هذه الترجمة فى هانوفر سنة ١٩٢٥ .

وقد كشفتهذه الابحاث وغيرها عن العبقريةالعلمية العظيمة التي لابن الهيثم فيمجال الفيزياء، والبصريات على وجه التخصيص ، وما يمثلـــهانتاجه العلمى من « تقدم كبير فى المنهج التجريبى . لقد استعمل المرايا الكروية والقطع مكافئـــة ،ودرس الانحراف الكروى ، وقوة العدسات على التكبير والانكســـار الجوي.وصححمعرفتنابالعينوبعملية الابصار ، وحل مشاكل في البصريـــات الهندسية بواسطة رياضيات قادرة . والترجمةاللاتينية لاعماله فى البصريات احدثت تاثيرا ضخما على نمو العلم فى الغرب ، خصوصا من خلالروجربيكون وكبلر » وليم سيسيل دامير : « تاريـــخ العلم » ط ٤ سنة ١٩٦٦ ، كمبردج ص ٧٥) .

● ● ●

تاسعا — فى الميكانيكا والآلات

عرف العرب من الكتباليونانيةفى الميكانيكيةمايلى (راجع «الفهرست» لابن النديمص ٢٨٥) :

١ — كتاب عمل الآلة التي تطرح البنادقلارشميدس الـــذى من سرقوسة في صقليـــــة (٢٨٧ — ٢١٢ ق.م) وهو أكبر عالـــم يونانيبالميكانيكا ، اذ استطاع الجمع بـــين الرياضيات والبحثالتجريبي فى الآلات والحركات . ومن بيناختراعاته : المدافع من اجل الدفاع عن سرقوسة. وقد بقى لنا عشر مؤلفات من مؤلفات اليونانية ،نشرها تاماس هيث Thomas Heath سنة ١٨٩٧ — ١٩١٢ ، كما نشرها قبل ذلك Torelli فى سنة ١٧٩٢ ثم Heiberg سنـــــة ١٨٨٠ — ١٨٨١ .

٢ — كتاب الدوائر والدواليب لهرقل النجار

٣ — كتاب فى الاشياء المتحركة من ذاتهـــالايرن — وهو هيرونالميكانيكي الرياضىوالفيزيائى والمخترع الذى عاش ما بين القرن الاول قبـــلالميلاد والثالثالميلادى . وقد اكتشفحلولا جبرية لمعادلات الدرجة الاولى والدرجة الثانية ، ووضعصيغا عديدة لقياس المساحات والحجوم . وبين ان الخط الذى يسلكه شعاع ضوء منعكس هواقصر طريق ممكن ، لكنه اشتهر خصوصا بالحيل الميكانيكية التى اكتشفها مثل : السيفونوالكشافالحرارى ، والمضخات الهوائية ، والآلات البخارية الاولية . وقد بقى لنا من كتبه في الميكانيكا باللغةاليونانية اربعة كتب هى :

أ — pneumatica ويـــرد عنوانـــــه فى« الفهرست » وابن النديم (ص ٣٦٩) : هكذا : « كتاب الحيل الروحانية » .

ب — automatopoietice

جـ — Belopoeica

د — Cheiroballistra

اما كتابه Mechanica وهو الذى نتحدثعنه الآن والمترجم الى العربية بعنــوان : « فى الاشياء المتحركة من ذاتها » فلا يوجد نصـــهاليوناني ، بل يوجد فقط فى ترجمة عربية ملخصة نشرت مع ترجمة فرنسية .

وقــد نشر النص اليوناني لهـــذه الكتببعنوان :

Heroni alexandrini opera quae supersunt omnia, ed. W. Schmidt, L. Nix, H. Schone und J.L. Heiberg, 5 Vols. (1899-1914).

٤ ــ كتاب الدواليب لمورطس

٥ ــ كتاب الارغنن

٦ ــ كتاب آلة ساعات الماء التــى ترمىبالبنادق لارشميدس (« الفهرست » لابن النديم ص ٢٦٦)

واول من اشتغل بالميكانيكا فى الاسلام بنوموسى بن شاكر (محمد واحمد والحسن) . ولهم في ذلك من الكتب :

١ ــ كتاب « الحيل » لاحمد بن موسى .

٢ ــ كتاب بنى موسى فى « القرسطون » ــ وهذه كلمة يونانية χειροσίδηρον بمعنى القبان. راجعدورن:«ثلاث آلات فلكية عربية» Dorn: Drei arabische astronomische Instrumentae ولقسطابـــن لوقا كتاب فى « القرسطـــــون »(« الفهرست » لابن النديم ص ٢٩٥) .

ومن أحدث الابحاث والنشرات فى هذا العلمتحقيق د.ر. هل D.R. Hill لكتـــاب ابن الرزاز الجزرى : « كتاب فى معرفة الحيل الهندسية »مع ترجمة الى الانجليزية وتعليقات ، وكذلــك مقدمة كتبها L. White سنة ١٩٧٤ من حجـمالربع في ٢٥+٢٨٦ صفحة و ١٧٤ شكل ، و ٣٤ رسم ٢ و ٣٢ صورة عن مصغرات اصلية :

Ibn al-Razzaz al-Jazari : The Book of knowldge of ingenious mechanical devices. Transl. andnnot. by D.R. Hill. Foreword by L. White, Jr. 1974, in 4 to (XXV, 286 P., 174 Fig., 34 draw, 32 reprod. of the orig. miniature paintings.

• • •

كتاب ((الحيل)) لاحمد بن موسى

درس هذا الكتاب :

a) E. Wiedemann, SB Erlangen 38 (1906) pp. 341-348, XII (1907), pp. 200-205; Mitteilungen der Wetteranischen Gesellschaft, 1908, 29-36.

b) E. Wiedemann, : „Ueber Musikautomaten bei den Arabern'', in Centenario della Nascita di Michele Amari, II, 1909, pp. 164-185.

c) Wiedemann und Hauser, in **Isis**, VII,spp. 55-93, 286-91.

d) F. Hauser : a Das Ktabal-Hiyal der Bani Musa uber die sinnreicher Anardnungen, in abhandungen z. Gesehichte d. Naturw, u. Medizin, 1, Erlangen, 1922.

• • •

عاشرا ــ فى الاحجار والمعادن

عنى المسلمون بعلم الاحجار (الجــواهــر الكريمة) والمعادن ، ونذكر منهم ما يلى :

١ ــ الفيلسوف الكنـــدى لـه كتاب فى« الجواهر والاشباه » ، « رسالة فى انواع الجواهر الثمينة وغيرها » ، « رسالة فى انواع الحجارة »

ويقول البيرونى في مقدمة كتابة « الجماهر »انه كان احد مصدرين اعتمد عليهما .

٢ ــ ابو سعيد مضر بن يعقوب الدينورى المتوفى بعد سنة ٣٩٧ هـ (راجع بروكلمن ج ١ ص ٢٤٤ ، والملحــق جـ ١ ص ٤٣٣ . وراجـــع« الجماهر » للبيرونى ص ٠٣٢) .

٣ ــ محمد بن زكريا الرازى : « الجواهر والخواص »

٤ ــ محمد بــن زكريــا الرازى : « علل المعادن » .

٥ ــ جابر بن حيان فى رسائل مختلفة ــ راجع باول كراوس : جابر بن حيان « القاهـــرة جـ ٢ سنة ١٩٤٢ »

٦ ــ ابو الريحان البيروني : « الجماهــر فى معرفة الجواهر » وسنفرد له فقرة خاصة بعد قليـــل .

٧ ــ عطارد بن محمد : « منافع الاحجار »

٨ ــ ابو القاسم عبد الله بن على بن محمدبن ابى طاهر الكاشانى : « عرايس الجواهر واطايب النفائس »

٩ ــ احمد بن عبد العزيز الجوهـــرى :« رسالة فى الجواهر »

١٠ ــ ابن زهــر الاندلسى : « خــواص الاشياء »

١ ــ التيفاشى : « ازهار الافكار في جواهر الاحجار » ــ انظر فيما بعد . وكـــان لكتاب « الاحجار » المنسوب الى ارسطو تأثير واضح فى بداية هذه الابحاث فى الاحجار . وقد نشره وعلق عليه يوليوس روسكا :

J. Ruska : Das Steinbuch des Aristoteles, mit literargeschichtlichen Untersuchungen nach der arabischen Handschrift der Bibliothèque Nationale, Herausgegeben und uebersetzt. Heidelberg, 1912.

وراجع ايضا :

H. Ritter F. Sane — R. Winderlich : Orientalische Steinbücher : 1935.

لكن ربما كان اهم ما وصلنا من هذه الكتب الاسلامية (العربية والفارسية) كتاب الجماهر في معرفة الجواهر وقد أهداه البيروني الى السلطان الغزنوي مودود . وينقسم الكتاب الى قسمين متميزين : الاول في الجواهر والاحجار الكريمة ، والثاني في المعادن والفلزات بوجه عام . والكتاب قد صححه F. Krenkow في سنة ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦) ونشره في مجموعة دائرة المعارف العثمانية في حيدر اباد الركن (الهند)

وقد ترجم القسم المتعلق باللآلىء في مجلة Islamic Culture المجلد الخامس عشر ، سنة ١٩٤٢ .

وقد درسه : فيدمن : « في قيمة الاحجار الكريمة عند المسلمين »

Wiedemann : Ueber den
Wert von Edelsteinen bei den Muslimen, Isl. II, 345-358.

التيفاشي : « ازهار الافكار في جواهر الاحجار »

نشره وترجمه الى اللغة الايطالية بيشيا بعنوان :

Fiori de Pensieri sulle
pietre preziose di Ahmed Teifascite, opera stampata nel suo originale arabo, traduzions italiana suppressa e diverse note di A.R. Biscia. Firenze, 1818.

● ● ●

تلك هي نخبة من الابحاث المهمة التي قام بها المستشرقون الاوروبيون والامريكيون في ميدان العلوم عند العرب والمسلمين بعامة . وقد توالت منذ قرن ونصف بمختلف اللغات الاوروبية الحديثة ، فكل لها فضل الكشف عن الدور العظيم الذي قام به العلماء المسلمون سواء في تقدم العلوم الرياضية والطبيعية والحيوية والطب والبيطرة والزراعة والفلك ، وفي نقلها وشرحها من التراث **العلمي اليوناني والشرقي القديم (الهندي والفارسي والسرياني) الى اوروبا في العصر الوسيط . واذا كانت الغالبية العظمى من مؤلفات العلماء المسلمين لا تزال على المخطوطات ، ولم تتناولها ايدي الدارسين بالبحث والتحقيق** والتحليل والارجاع الى الاصول ، فان ما بذله هؤلاء الذين اتينا على ذكر ابحاثهم يعد مجهودا ضخما خليقا بكل اعجاب وتقدير وعرفانا بالجميل . وان اسماء امثال **فيدمن وسوتر ونلينو وروسكا وكراوس** ينبغي ان تقرن دائما بالاجلال . وانما الشيء المؤلم حقا هو اننا لا نعثر في الربع قرن الاخير على نظراء لهؤلاء الاعلام الافذاذ ، رغم ازدياد عدد « المشتغلين » بتاريخ العلوم عند العرب ، ممن لا عمل لهم غير الثرثرة في المؤتمرات والتباهي بالضئيل التافه من الوريقات !

جلال محمد موسى

الطب والأطباء

حظي التراث الطبي اليوناني والتراث الطبي العربي باهتمام المؤرخين . فالكتابات في تاريخ الطب اليوناني والعربى كثيرة ، ولذلك رأى الباحث ضرورة ان يختط لنفسه منهجا يعالج به موضوعا متشعبا كموضوع «الطب والاطباء » .أقام الباحث حوارا بين الطب اليوناني والطب العربى ، ومن خلال هذا الحوار عالج الباحث الموضوعات التى تطرق اليها في بحثه .

اقتصر الباحث فى عمله على بعض النماذج المثلة من الشخصيات الطبية ، تلك التي لا يختلف الامر بشأنها كما يختلف بخصوص غيرها .

فمن المشرق العربى اختار « الرازى » و« ابن سينا » ومن المغرب العربى اختار « الزهراوى » . أبان الباحث عن جهود هؤلاء الاطباء العظام مقارنا اياهم بما فعله الاطباء اليونانيون قبلهم . أوجز الباحث القول فى نشأة الطب وافاض فى بيان فرق الطب عند اليونان وهى : ــ

١ ــ القياسيون (أصحاب القياس)

٢ ــ الامبريقيون (أصحاب التجربة عند اليونان)

٣ ــ الحيليون (اصحاب الحيلة)

٤ ــ الروحانيون (النفثيون)

ثم عرض الباحث لمبادىء التجربة عنداليونان وهى :

١ ــ المبدأ الطبيعي .

٢ ــ المبدأ العرضى .

٣ ــ المبدأ الارادى .

٤ ــ المبدأ النقيل .

وتناول الباحث الاصول الطبية اليونانيةالتى نجد صداها فى الطب العربى وهى :

١ ــ نظرية الاخلاط

٢ ــ نظرية القوى الطبيعية الشافية

٣ ــ نظرية البحران (الايام البحرانية)

انتقل الباحث بعد ذلك الى حركة نقلالتراث الطبي اليوناني الى العرب . وبذلك يتأسس الطب العربى على جهود المترجمينوالمؤلفين .

ذكر الباحث جهود حنين بن اسحق فيالترجمة والتاليف ، وجهود الرازى وابن سينا فى الاستقلال بالراى عن الطب اليوناني . حنينبن اسحق يمثل المرحلة الاولى ، وهى مرحلة نقل التراث اليوناني الى اللغة العربية ،والرازى وابن سينا والزهراوى يمثلون المرحلة الثانية ، وهي مرحلة التاليف والاستقلالبالرأى . اعتمد الباحث فى دراسته هذه على المخطوطات الطبية العربية لابراز النواحيالاصيلة فى الطب العربى ، ولذلك جاء حواره بين الطب اليوناني والعربى شاهدا على فضلالسابقواستقلال اللاحق ، بحيث اصبح الطب العربى يوافقه فى الكليات ويخالفه فى الجزئيات . هذاالنوع من الدراسات المنهجية المركزية اصدق فى الدلالة من كثير من الدراسات التاريخيةالمغرقة فى التفصيلات .

اشار ابن ابى أصيبعة فى كتابه ((**عيونالانباء فى طبقات الاطباء والحكماء**)) الى صناعة الطب وكيفية حدوثها فقال ((بعضهم يقول انالطب خلق مع الانسان ، اذ كان احد الاشياء التي بها صلاح الانسان ، وبعضهم يقول ، وهمالجمهور ، أنه استخرج بعد ، وهؤلاء ينقسمون قسمين : فمنهم من يقول ان الله الهمها الناس،واصحاب هذا الراى على ما يقوله ابقراط وجالينوس وجميع أصحاب القياس . ومنهم منيقول ان الناس استخرجوها ، وهؤلاء قوم من

أصحاب التجربة وأصحاب الحيل ، وهم مختلفون فى الوضع الذى به استخرجت » (١)
تكفى الاشارة فيما ذكره ابن ابى اصيبعة الى وجود فرق ثلاث تولت امر هذه الصناعة ,وهم :
أصحاب القياس والتجربة والحيل .

أ ـ أصحاب القياس (القياسيون) :

كان أصحاب القياس فى الاسكندرية على عهد البطالسة قبل المسيح بثلاثة قرون وهم شيعة هيرافيلوس (٢) وارازستراتوس (٣) ذهبوا الى القول بأن علاج الامراض متوقف على معرفة العلة . وبذلك يسهل الوقوف على ما يناسبها من الدواء لما يوجد بين الطبيعة والمزاج الانسانى من المشاكلة ,والمجانسة وذلك يتم الوصول اليه بأمرين :ـ

١ ـ الاعتقاد بانه لاشىء فى الطبيعة ولا فى بدن الانسان الا وله غاية ومنفعة يجب الفحص عنها ليستدل بها على علة الامراض وكيفية علاجها (٤)

٢ ـ ان لعلم التشريح نصيبا وافرا فى اعانة الطبيب على معرفة الداء والدواء . (٥)

ولذلك عنى أصحاب القياس بالتشريح ومعرفة منافع الاعضاء ووظائفها ، اى علم الفسيولوجيا بالمعنى الحديث .

ذهب أصحاب القياس ، وهم الجمهور الاعظم من اطباء اليونان ، الى أن (الطريق والقانون الى معرفة الطب مأخوذ من مقدمات أولية) .

وهذه المقدمات التى أوجبها هؤلاء الاطباء هى معرفة طبائع الابدان والاعضاء وافعالها. جعل القياسيون من الاطباء هذه المقدمات أولية بمعنى التسليم بها دون البرهنة عليها أو الشك فيها ، علما بأن التسليم بصحة المقدمات يؤدى ضرورة الى التسليم بصحة النتائج المترتبة عليها .

أول المقدمات التى صرح بها أطباء القياس هى المقدمة القائلة (معرفة علل ظواهر الحياة فى حالتها السوية تعلمنا كيف نحول دون اختلالها ،وبالتالي كيف نحفظ الصحة) . (٦) يعمل كل

---

(١) ابن أبى اصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص٢٤ ـ طبعة بيروت ١٩٦٥ .

(٢) SARTON (George) : Introduction to the history of science Vo. 1. P. 159.

(٣) Ibid.

(٤) سانتلانا المذاهب الفلسفية ـ جـ ٢ ـ ص ٤٦٠ .

(٥) نفس المصدر ـ نفس الصحيفة + اسماعيل مظهر فى تاريخ الفكر العربى ص ٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ (قال وهو يتحدث عن معهد الاسكندرية وكان بها معهد مشهور للطب نبغ رجاله فى علوم الطب وخاصة فى علم التشريح) ـ

(٦) Bernard (Claude) : Introduction à l'étude de la medecine experimentale. P. 7 Paris, 1928.

عضو من أعضاء البدن الانسانى حسب نظـام واحد لا يتغير ، ولذلك كى نفهم كيفية حدوث الامراض وتفسيرها ، وكذلك فعل الادوية ، راى القياسيون ضرورة معرفة وظائف الاعضـاء في البدن وطبائعها ، أى صفاتها ، فضلا عن معرفة الطبائع الاربع (الحارة والبـاردة واليابسـة والرطبة) وصولا للطبائع المضادة أو المخالفة .

والمقدمة التالية هـى القائلـة (ومعرفـة الاهوية واختلافها والاعمال والصنائع والعادات والاشربة والاسفار ومعرفة قوى الامراض) (٧).

لقد كان المناخ من أسباب نشوء الامراض في نظر الاطباء اليونان ، فكان الاعتقاد بأن « كل حالة طبيعية أو مرضية تتفق ومناخ خـاص »(٨) . وهذا ماحـدا بأبقراط أن يجعـل أحـد مؤلفاته بعنوان « كتاب الاهوية والمياه والبلدان »(٩) ، فى ثلاث مقالات **الاولى** خاصة بتعرف أمزجة البلدان وماتولد من الامراض . **والثانية** خاصة بتعرف امزجة المياة المشروبة وفصول السنة . **والثالثة** خاصة بالازمنة ان كانـت سقيمـة أوسليمة .

سيطر على هذا المؤلف الطابع الفيثاغوري في تقسيمه الرباعي اذ جعل البلدان اربعة والمياه أربعة وكذلك الازمنة .

بحث الاهوية والميـاه والبلدان بحث عـن تأثر التكوين الانسانى بالبيئة لا الطبيعية فحسب بل السياسية كذلك ، فالطب الابقراطي يأخـذ فى الاعتبار الطعام الذى يتناوله الانسان ، ونوع المياه التى يشربها ، والمناخ الذى يعيش فيه . وليس من شك ان اشد المؤثرات التصاقا بالانسان بصفة مستمرة هو عمله اليومى . ويمكن تسمية هذا العامل بعامل البيئة او طبيعة العمـل ، اذ هو نتيجه افعال الانسان وعاداته الحميـدة أوالسيئه .

كان أبقراط واعيا بأهمية عمل الانسـان ونوع عمله وان التزم الصمت ازاء الامـراض الناجمة عن العمل ، اذ لم تبدأ دراسة هذا النوع من الامراض الا علـى يد الطبيب السويسـرى باراكلسيـس (١٠) فى القـرن السادس عشر الميلادى .

---

(٧) Browne (Edward) Arabian medicine P, 116.

(٨) غليونجي (بول) : ابن النفيس ص ٢٦ سلسلة اعلام العرب العدد ٥٧ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ .

(٩) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جزء (١) ص ٨٩ يذكر ان هذا الكتاب فسره جالينوس .

(١٠) Farrington : Greek Scince P. 70.

كانت مقدمات الطب القياسي دليلا ليسترشد به الطبيب المعالج ، فالتشخيص للمرض هو نتيجة الاستدلال من المقدمات ، وقد اختلف هؤلاء في كيفية الاستدلال من الاغذية والادوية هل يكون بالطعم أو الرائحة أو اللون او قوام الغذاء أو بفعله وتأثيره في الجسد .

• • •

ب ـ أصحاب التجربة (الامبريقيون) :

وبالاسكندرية ايضا وجدت مدرسة الامبريقيين (١١) وهم يدعون اصحاب التجربة على اساس ان التجربة باليونانية (امبريكى) وهم شيعة فيلنوس المتوفى سنة ٢٨٠ ق.م القائلون « ليس سبب المرض وباعثه ما يهم الطبيب انما العقار الشافي هو الذى يعنيه ، ليس كيف يهضم الطعام انما ما الشىء الذى يسهل هضمه وتحققه » . (١٢)

المثال على ذلك ما يقوله أبقراط من ان العسل ليس مناسبا لمن عنده سوداوية او افرازات مرارية مع انه حسن لمتقدمي السن .بعض الاطباء وجد ذلك صحيحا على اساس التجربة ، والبعض وجده صحيحا من خلال علامات خاصة بطبيعة العسل وهم الامبريقيون فالتجربة عند هؤلاء عبارة عما يظهر من علامات المرض .

اعتبر الامبريقيون القياس قسما من اقسام التجربة الثلاثة وهى : الملاحظات الشخصية وملاحظات الغير والقياس ، وسميت هذه الاقسام ركيزة ثلاثية القوائم (١٣) .

ان التجربة عند هؤلاء علم يتكرر بالحس على المحسوس الواحد في أحوال متغيرة ، فيوجد بالحس فى آخر الاحوال كما يوجد فى أولها ، والحافظ لذلك هو المجرب (١٤) .

ان الامبريقيين كانوا يقتصرون على ما يشاهد من الظواهر المحسوسة المرئية بالحواس الخمس فيعا لجونها من غير تعرض الى غير ذلك من المباحث كالبحث عن العلل وهو مراد اصحاب القياس . ان التجربة ما يظهر من علامات الداء وما ظهر منها من قبل حتى يستدل من ذلك على طريق العلاج للتجربة مبادىء اربعة هي فى نظرهم بمثابة الاوائل والمقدمات اليها انقسمت التجربة فصارت بذلك أجزاء لها .

---

(١١) لفظة Empiricism تعنى فى الاصطلاح اللغوى التطبب بالاختبار او التجربة واحيانا التدجيل وتعاطى المهنة بدون تعلم ــ انظر مواقف حاسمة فى تاريخ العلم ــ ترجمة أحمد زكي .

(١٢) سانتلانا : المذاهب الفلسفية جـ ٢ ص ٤٦٠ .

(١٣) غليونجى (بول) : ابن النفيس ص ٣٧ .

(١٤) المسعودى : مروج الذهب ص ١٧٣ .

اقسام التجربة عند اليونان :

القسم الاول : اول هذه الاقسام هو القسم الطبيعى وهو « ما تفعله الطبيعة فى الصحيح والمريض من الرعاف والعروق والاسهال والقيء التى تعقب فى المشاهدة منفعة او ضررا » (١٥) ، يركز الاطباء القدماء على فعل الطبيعة فى المرء فهى تفعل فى السليم كما تفعل فى العليل ، اى ان من افعالها ما يولد منفعة ومنها ما يولد ضررا ، وكلا الامرين : المنفعة والضرر يمكن مشاهدتهما كأثر من آثار الطبيعة ، فالرعاف وهو خروج الدم من الانف يكون من الشرايين التي فى حجب الدماغ ، وهو قد يحدث من غلبة الدم الذى هو امتلاء بحسب التجاويف وهو ما يقصده الاطباء بالامتلاء ، وهم يرون ان هذا الدم الذى يخرج من الانف يزيد على ما تفى الطبيعة بحفظه ، اما العرق فهو وسيلة من وسائل اخراج فضول الهضم من البدن ، وكذلك القيء والاسهال للتخلص من المواد الزائدة عن حاجة الجسم والتى قد تسبب المرض ، وفي فصول ابقراط «الجسد يعالج على خمسة اضرب: ما في الراس بالغرغرة، وما فى المعدة بالقيء ، وما فى البدن باسهال البطن ، وما فى الجسد بالعرق ، وداخل العروق بارسال الدم » (١٦) .

وذلك لان المبدأ الهام فى الطب الابقراطى هو القوة الطبيعية الشافية ، ولذا وجب على الطبيب ان يكون حذرا وان لا يتسرع فى التدخل فى سير المرض خوفا من ان يحول دون عمل الطبيعة ، ولكن اذا حدث تأخر فى ظهور البحران(١٧) وهو الذى يتأتي في أثنائه التخلص من الخلط الزائد فعليه ان يساعد على ازالة المواد السقيمة بواسطة الفصد او الادوية المقيئة او المسهلات .

القسم الثانى : ـ اما القسم الثانى من اقسام التجربة فهو القسم العرضي وهو « ما يعرض للحيوان من الحوادث والنوازل ، وذلك كما يعرض للانسان ان يجرح او يسقط فيخرج منه دم قليل أو كثير ، أو يشرب فى مرضه او صحته ماءا باردا فيعقب فى المشاهدة منفعة او ضررا .(١٨)

المراد اذن هو التجارب العرضية الاتفاقية ، وهى فى الواقع تجارب حقيقية يستفيد منها الطبيب دون أن يكون قد تعمد احداث الاصابات، فاذا حدث للانسان ان جرح او سقط من فوق دابته او من مكان مرتفع فنزف دما قليلا او كثيرا امكن للطبيب فى هذه الحالة ان يشاهد على الطبيعة الاثر الذى احدثه الحادث العارضي وذلك يفيده كثيرا فى دراسة وظيفة عضو من الاعضاء او دراسة تأثير دواء معين ، على ان الاضطراب الذى يحدثه العارض فى وظيفته العضو لايختلف

---

(١٥) المسعودى : مروج الذهب ص ١٧٤ .

(١٦) ابن القف : الاصول فى شرح الفصول البقراطية ص٣١ .

(١٧) قنواتى (جورج) : تاريخ الصيدلة والعقاقير فى العهد القديم والعصر الوسيط ص ٧٨ .

(١٨) المسعودى : مروج الذهب ص ١٧٤ .

عن الاضطراب العمد الذى يلجأ الطبيب الـــىاحداثه فى حالة التجربة على الكائن الحى . مثال ذلك قول جالينوس فى المقالة الاولى من الاعضاءالآلمة :

« فعل العصب يبطل اما ببتره البتهفى العرضاو رضه او سده او لورم يحدث فيه او لبـــرد شديد يصيبه » (١٩) وهو القائل « العصب الذىينبث في الجلد يحس » (٢٠) . فاذا كان فعـــل العصب الوجهى يؤدى الى فقدان الحركة فانه لوحدث ان رصاصة طائشة او ضربـــة سيـــف قطعت هذا العصب او ابادته لنشأ عن ذلك شللفي الحركة اى اضطراب .

هذه التجربة وان تكن تلقائية لم يستثرهاالطبيب الا انها واقعة عرضية تسهم في ملاحظة سير المرض والوقوف على تأثير الدواء ، لم يكنالطب الابقراطيفى جلتهالا ملاحظة دقيقة لتحديد خصائص مرض ما بالنسبة الى تطوره ، ومعرفةما سيئول اليه من العواقب الموافقة او المخالفة، وان يتنبأ بها بناء على علامات دقيقة ، وقد سمىابقراط احد مؤلفاته باسم « تقدمة المعرفة »(٢١) بمعنى معرفة الشىء قبل وقوعه ، وهو يتضمنتعريف العلامات التى يقف بها الطبيب على احوال مرض ما فى الازمان الثلاثة الماضى والحاضـــروالمستقبل ، هذا عن الشطر الاول من التعريف.

اما الشطر الثانى فيختص بطريقة العلاجفى الطب اليوناني ، اذ لما كان الطب قائما علـــى معالجة الشىء بضده اى الحار بالبارد وبالعكس،لاعتبار الحمى حرارة زائدة والرعشة برودةزائدة كان النظر الى الماء البارد على انه مفيد فى حالةالصحة ، ضار لمن به نزلة برد او زكـــام ، فاذا عرض للانسان زكام اعتقد الطبيب انه شـــربماءا باردا ولذلك كان الطبيب يصـــف له دواء مسخنا كما فى حالة الحميات يوصى بالماء الباردلدفعها .

القسم الثالث من أقســـام التجربه هو القســـمالارادى : ويراد به « مايقـــع من قبل النفـــس الناطقة كمثل منام يراه الانسان ، وهو أن يرىكأنه عالج مريضا به علة مشاهدة معقولة بشىء من الاشياء معروف فيبرأ ذلك المريض من مرضهأو يخطر مثل ذلك بباله فى حال فكرة ، فيتردد ويعطب ذهنه بعطبه فيجربه بأن يفعله كما يرىفي منامه فيجده كما يرى او يخالف ذلك وفعله مرارا فيجده كذلك (٢٢) المعروف أن الارواحعند الفلاسفة ثلاث هى ١ ــ الروح الطبيعيـــة

---

(١٩) الرازى : الحاوى جـ ١ ص ٢ طبعة حيدر آباد الدكنسنة ١٩٥٥ الطبعة الاولى المراد بالســـدة أو الســـدد داء ياخذ فى الانف يمنع الشم وتنسم الريح ــ ابن الحشاء :مفيد العلوم ومبيد الهموم ــ نشرة كولان ــ طبعة الرباط سنة ١٩٤١ .

(٢٠) نفس المصدر ــ نفس الصحيفة .

(٢١) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ ١ ص ٧٦ ، ٧٩ .

(٢٢) المسعودى : مروج الذهب ص ١٧٥ .

وهى في الكبد ومشتركة بين الحيوان والنبات وتنبعث فى الاوردة الى جميع البدن ـ ٢ ـ الروح الحيوانية هى للحيوان الناطق وغير الناطق وهى فى القلب وتنبعث منه فى الشرايين الى اعضاء البدن ـ ٣ ـ الروح النفسانية وهى فى الدماغ تنبعث منه الى اعضاء البدن فى الانسان .

النفس للانسان دون غيره من انواع الحيوان ، الروح الطبيعية تسمى النفس النباتية والنامية والشهوانية ، والروح الحيوانية تسمى النفس الغضبية . ولما كان الحس والحركة الارادية والتخيل والفكر والتذكر من الدماغ كان الدماغ أول آلة وأداة تستعملها النفس الناطقة ، اذ ان التخيل والحركات الارادية وكذلك التذكر من جملة ما يقع من قبل الناطقة ، وليس المنام الذى يراه الانسان الا تخيلا وتذكرا ، كأن يرى المرء او يخطر بباله انه عالج مريضا بمرض معين فأبراه بدواء معين وذلك كله فى حال النوم فاذا كان فى حال اليقظة جرب ان يفعل ما رآه فى منامه فأحيانا يجده موافقا لما رآه واحيانا يجده مخالفا ، ويظل يجربه حتى يجده في نهاية الامر موافقا لما رآه .

ان دل هذا الامر على شيء فانما يدل على امتزاج الطب بالفلسفة عند اليونان ، وسيطرة المفاهيم الفلسفية على المعالجات الطبية ، فقد كانت النظرة الى الفلسفة انها علم العلوم ولذلك كانت في مرتبة فوق الطب وكان الرأى آنذاك ان الفلسفة تقوم على أسس ثابتة لايرقى اليها الشك ، وعلى ذلك لم يكن للطبيب ان يجادل فى هذه الاسس مهما كانت مخالفة لمشاهداته وعلمه .

يذكر ابن ابي أصيبعه مثالا لذلك قول جالينوس فى كتابه « فى الفصد من انه امر فى منامه مرتين بفصد العرق الضارب (الشريان) الذى بين السبابة والابهام من اليد اليمنى » فلما اصبحت فصدت هذا العرق وتركت الدم يجرى الى ان انقطع من تلقاء نفسه لانى كذلك أمرت فى منامى . (٢٣) « هذا المثال حقا موضع شك» .

ان الجانب الارادى من التجربه لا يعنى أكثر من رؤيا يحاول الطبيب تحقيقها فى الواقع ، والتجربة بهذا المعنى وسيلة لتغيير اتجاه المرض وشفاء المريض بفعل أدوية هدته اليها الرؤيا ؛ ولذلك كان الطبيب اذا خاب أمله فى دواء جرب غيره ، ولم يكن هناك فى ذلك الوقت فهم علمى لشروط فعل الدواء في المرض فلم تكن دراسة خواص الامراض والادوية دراسة علمية ، فلم يكن الطب اكثر من مجموعة وصفات تشفى الكثير من الامراض .

القسم الرابع من أقسام التجربة هو القسم النقيل : وقد جعلوا له الوانا ثلاثة هى نقل الدواء في الادواء ونقله فى الاعضاء ونقل الدواء الى الدواء « اما ان ينقل الدواء الواحد

---

(٢٣) ابن ابى أصيبعه : عيون الانباء جـ ١ ص ٩ .

من مرض الى مرض يشبهه وذلك كالنقلة من ورم الحمرة الى الورم المعروف بالنملة ، واما من عضو الى عضو يشبهه وذلك كالنقلة من العضد الى الفخذ واما من دواء الى دواء يشبهه كالنقلة من السفرجل الى الزعرور فى علاج انطلاق البطن » (٢٤). هذا النص يوضح ان التمثيل او الانالوجى Analogy اداة لها قيمتها في التجربة ، ففى مجال العلاج الطبى اذا أردنا الوقوف على فعل الدواء الواحد جربناه على امراض متشابهة الاعراض كورم الحمرة وهو « ورم صفراوى حار »(٢٥) والورم المعروف بالنملة وهو «البثور الدقاق التى تتقرح وتسعى فى الجلد وما يقرب منه » (٢٦) .

ولانه لم تكن تتوافر دراسة لوظائف الاعضاء كان صعبا على الطبيب فى ذلك الوقت فهم الكيفية الفسيولوجية التى يحدث بها المرض وكذلك كيفية عمل الدواء فى الشفاء ، ولان الطبيب كان لا يثق كثيرا بفعل الدواء الشافى وليس له ان يساعد فعل الطبيعة بفعل بعض الادوية كان هذا دافعا للمختبر فعل الدواء ان ينقل اختباره من عضو الى آخر فى جسم الانسان .

فاذا لم يفلح الدواء في علاج مرض بالعضد جربه على مرض بالفخذ عله يفيد ، بل انه فى المرض الواحد قد يستخدم الطبيب أكثر من علاج ويقف في النهاية على العلاج الشافى كما هو الحال فى انطلاق البطن أو الاسهال ، وهو لعلة تعرض للمعدة فلا تهضم الطعام فيفسد ولا تمسكه فيحتاج الامر الى ادوية قابضة او ماسكة كالسفرجل وهو ، قابض مقو للمعدة القابلة للفضول »(٢٧) واذا استكثر منه اخرج الطعام قبل الانهضام .أو الزعرور وهو النبق او التفاح الجبلى وهو «مقو للمعدة عاقل للطبيعة» وفى عبارة اخرى « والنبق قابض »(٢٨) ولما كان السفرجل والزعرور من القوابض كان الانتقال فى العلاج من احدهما الى الاخر موافقا لوقف الانطلاق ، واذا كان المراد بهذا الانتقال من دواء الى آخر عقد ملاحظات مقارنة بين الاثنين لامكان تحديد اثر الدواء فى شفاء المرض فقد وجب فى حالة عدم جدوى الدواء فى الشفاء امتناع الطبيب عن استخدامه ، ولذلك كثيرا ما يلجأ الطبيب الى تجربة سواه . لم تكن هناك موجهات لاجراء هذه التجارب وانما كان اجراؤها اتفاقا وبغية اختبار اكبر عدد من

---

(٢٤) المسعودى : مروج الذهب ص ١٧٥ .

(٢٥) ابن الحشاء : مفيد العلوم ومبيد الهموم ص ١٩١ . صفراوى اى منشاه من المرارة .

(٢٦) نفس المصدر ــ نفس الصفحة + مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ٩٥ مع ملاحظة ان النملة اسم عربى .

(٢٧) النويرى : نهاية الارب فى فنون الادب ج ١١ ص١٦٩ .

(٢٨) نفس المصدر ص ١٤٤ . ولفظة الطبيعة يكنى بها عن حال البطن فى اللين واليبس ــ فيقال طبيعته يابسة اى بطنه معتقل . وطبيعته لينة اى بطنه لين . مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ١٠٦ .

الادوية، ولذلك امكن القول ان التجربة عند اليونان لم تكن ناضجة، بل فجة مشوبة ينقصها الوضوح والتحديد ، وربما كان السبب في ذلك خلط مفهوم التجربة بمفهوم الخبرة الحسية ، وهذا ما جعل التجربة غير محددة المعالم والاصول والسؤال الان هل نطمع أن نجد هذا التحديد عند الاطباء العرب خاصة وان الطب العربى اساسه هذه المفاهيم اليونانية وهذا ما نتبينه فى عرض الطب عند العرب ، هذا ما اردناه بقولنا عن أصحاب التجارب .

• • •

بقى أن نعرض لأصحاب الحيل .

حـ ـ أصحاب الحيل : ـ

المدرسة الحيلية أو أصحاب الحيل ونعنى بهم أصحاب الطريقة أو أصحاب الاصول الواضع لها اسقلبياس الطبيب اليونانى الذى انتقل الى روما حوالى ١٢٤ ق.م وهو تلميذ تاميرون(٢٩) ترك أصحاب هذه المدرسة القول بالاخلاط ، وجمعوا بين الطب واقوال الطبيعيين من امثال ديموقريطس (٣٠) ولوقيبوس(٣١) فى الجزء الذى لا يتجزأ ، قالوا ان من اجتماع الاجزاء يتركب البدن والنفس ومن حركتها تنشأ الحياة لدخولها وخروجها من البدن عن طريق المسام، وعلى ذلك يكون علاج الامراض مقصورا على منافذ البدن لا سيما المسام ففى حالة اتساعها يلزم تضييقها وبالعكس .

المراد بالحيلة فى تقريب أمر صناعة الطب وتسهيلها ان « ترد اشخاص العلل ومولداتها الى الاصول الحاضرة الجامعة لها» (٣٢) .

فما هى هذه الاصول الطبية اليونانية التى كان الطب العربى حصيلة مفهوماتها فى نهاية الامر ؟

الاصول الطبية عند اليونان والعرب : ـ

ربما وجدنا جوابا لسؤالنا فى كتاب المسائل فى الطب لحنين بن سحاق لانه ـ فى رأى شارحه ابن ابى صادق ٤٦٠ هـ ـ «جمع فيها جملا وجوامع تجرى مجرى المبادىء والاصول»(٣٣) وكان يعول عليه فى امتحان طلبة الطب .

---

(٢٩) Sarton : Introduction to the history of scince Vol. 1. P. 215.

(٣٠) Ibid : P. 88.

(٣١) Ibid : P. 88

(٣٢) المسعودى : مروج الذهب ص ١٧٦ .

(٣٣) ابن ابى اصيبعة : عيون الانباء فى طبقات الاطباء ص١٩٨ .

ينقسم الطب الى قسمين هما النظر والعمل . وينقسم النظر وحده الى ثلاثه أقسام هي :

١ ـ النظر فى الامور الطبيعية .
٢ ـ النظر في الاسباب .
٣ ـ النظر في الدلائل .

الامور الطبيعية سبعة أمور هي :

١ ـ الاركان
٢ ـ الامزجة
٣ ـ الاخلاط
٤ ـ الاعضاء
٥ ـ القوى
٦ ـ الافعال
٧ ـ الارواح .

الاركان أربعة هى : النار والهواء والماءوالتراب ـ والطبائع أربعة فالنار حارة يابسة ، والهواء حار رطب، والماء بارد رطب،والارض بارديابس .

أصناف المزاج تسعة : احداها المعتدل وهى : الحار والبارد والرطب واليابس ؛ ومركباتها ثمانية غير معتدلة وواحد معتدل ـ الاخلاط أربعة هى الدم والبلغم والمرة الصفراء والمرة السوداء وهى الامشاج ـ كل خلط يقابله عنصر من العناصر الاربعة وفصل من فصول السنة الاربعة . الصفراء تقابل النار وزمانها الصيف ، والدم يقابل الهواء وزمانه الربيع، والبلغم يقابل الماء وزمانه الشتاء ، والسوداء تقابل التراب وزمانها الخريف .

كان لتحديد الازمان الملائمة لكل خلط من هذه الاخلاط شأنه فى العلاج الطبى للامراض اذ يمكن فصل هذه الاخلاط واخراجها باستعمال بعض العقاقير ، ولذلك كان على الطبيب المعالج ان يسترشد فى علاجه بمعرفة نوع الخلط الزائد ومزاجه فقد كان مقدورا « الاستدلال على الدواء من نفس طبيعة المرض الحاضر الموجود فى الحال والوقت دون الاسباب المؤثرة الفاعلة التي قد عدمت ودون الازمان والاوقات والعادات والاسباب ومعرفة طبائع الاعضاء وحدودها (٣٤) .

أى ان نظر الطبيب اذا اتجه فى بداية الامر الى تحديد نوع الخلط والمزاج أمكنه الاهتداء الى الدواء ودليله فى ذلك الامراض التى امامه تشخيصها من معرفة دلائل اعراضها وذلك قبل

---

(٣٤) المسعودى : مروج الذهب ص ١٧٦ .

ان يتجه تفكيره الى تأثير المناخ إو البيئة والهواءأو المهنة ، وكلها ولا شك عوامل تؤثر فى احداث المــرض .

ولم يكن فى ذلك الوقت اهتمام بمعرفــةطبائع الاعراض وحدودها اي وظائفها وهــو ما يختص به علم الفسيولوجيا فى الطب الحديث،ومع ذلك كان الاهتمام بتسجيل الملاحظ مــن العلامات والدلائل اى الاعراض البادية ســواء في العلل الحاضرة او التى تنذر بالوقوع ،ولذلك كان واجبا علىالطبيبالالمام بمبادىء التشخيص،وتقدمة المعرفة ، والاحتفاظ بمثل هذه الملاحظات من الاعراض والاسباب هام في الاســتدلال علىالدواء بعد الاستدلال على الداء ابتداء .

من مبادىء العلاجعند الحيليين أنالضدين لايجوز اجتماعهما بحال من الاحوال ، ومثالهم فى ذلك أن المحموم لا يجوز ان يكون حارا وباردا فى آنواحد ، ولذلك كان العلاج بالمبردات لتخفيفحدة حرارة الحمى وكانت النظرة الى العلاج باعتبار الخلط،فاذا كان المرض حارا كان العلاج بالبارد طبيعة ، كانت التغيرات فى درجة حرارة الجســمالانساني مثل التغيرات في درجة حرارة الطبيعة تعزى الى زيادة ونقصان .

وعلى الرغم من أن التنبؤ بعواقب المرضتتوقف أساسا علىالتشخيص بناء على الاسباب والعلامات الظاهرة الا انهم لم يجعــلوا الامــر الظاهر حقيقا فى الاســتدلال على الامر الخفى لاحتمال استنتاج نتائج مخالفة وترتيبعلاجاتعلى هذه النتائج ، اذ لا يكون واضحا ما يوجبه الامر الظاهر من امور كائنة خفية وفي هذهالحالا تؤدى العلاجات الفرض المقصود منها وهــو شفاء المرض ووقف نموه عند حد معين بحيثيتجه الى التحسن بدلا من الاتجاه الى التفاقم .

يقــول الحيليون ، « وليس هــذا كشيءظاهر يستدل به على شيء خفى،والشيء الظاهر يحتمل الوجود فيختلف فى الاستدلال فيــكونالقطع على ما يوجبه غير بين»(٣٥) ففى كــل دواء أو غذاء طبيعة كامنة موجودة على درجــةواحدة من أربع درجات (٣٦) . ومثــال ذلك المادة الحارة من الدرجة الاولى هى الغذاء ومنالدرجة الثانية هى الغذاء والدواء ومن الدرجــة الثالثة هى الدواء ومن الدرجــة الرابعة هــىالســموم .

الروحانيون (النفثيون) : Pneumatists :

وتبــع اصــحاب الحيــل شــيعة تعرفبالروحانيــين او النفثيــين Pneumatists اســندوا القوى الحيوانية الى النفث اى الىنوع من الروح الحيوى يسرى فى الجسم .»(٣٧) فهم اتخذوا مذهب الرواقيين اساسا لهمفقالواان الهواء ، النفس ، الروح ، او النفث تصــل جانب القلب الايسر بواســطة التنفس وهنــاكتتحول الى نفثة نفسانية Psycho Pneuma قوية ونشــيطة ، وهذه النفثة تصل للدمــاغومنه تتوزع بواسطة الشرايين الى الجســم ، ترجم العرب ذلك بالروح الحيوانية او المبــداالحى الواعى .

---

(٣٥) نفس المصدر السابق ص ١٧٥ .

(٣٦) Brown (Edward) : Arabian medicine P. 133

(٣٧) سانتلانا : المذاهب الفلسفية ج ٢ ص ٦١ .

وبجانب هؤلاء كان يوجد الاصطفائيــون او الاختياريون Electics قالوا باختيار الافضل والاوفق من الانظمة الاخرى لكل حالةبعينها ، فلم يتقيدوا بمذهب من المذاهب . برع منهم روف الافسيس(٣٨) وديسقوريدس (٣٩).

اتضح اذن أن فريقى القيــاس والتجربةيمثلان اغلب المشتغلين بالصناعة الطبيــة ،وان فريق الحيل لم يعجبه منهج الاثنين فأراد انينتهج لنفسه منهجا مخالفا ولذلك تردد الاطباء بخصوص المؤلفاتة التى وضعها الحيليون فقبلهابعضهم ورفضها بعضهم ، حتى ظهر جاليونوس فناقضهم عليها واحرق ماوجد منها وابطل هذهالصناعة الحيلية،هذا ما يقوله ابن ابى اصيبعة.

• • •

قول في الاصول الطبية عند اليونان :

نجد فى الطب اليونانى اصولا ثلاثة هي :

١ ــ نظرية الاخلاط .

٢ ــ القوى الطبيعية الشافية .

٣ ــ الايام البحرانية (البحران) .

١ ــ **نظرية الاخلاط :** تبنى هذه النظريةعلى الاعتقاد بأن الاشياء تتكون من اربعة عناصر رئيسية هى الماء والهواء والتراب والنار،والجسمالانسانى مزيج متناسب من هــذه العناصر أن امتزجت امتزاجا محكما فى الكيفية والكميــةكانت هذه حالة الكرازيس Crasis أى الامتزاج ، ولكن اذا زاد أحد العناصر او نقصاو امتنع عن الامتزاج بالعناصر الاخرى حدثت الامراض ، اخذ ابقــراط فكــرة تكون الجسمالانسانى من اربعةعناصر من الفيلسوفاليونانى امبا دوقليدس ٤٣٥ ق.م بل أن فكــرة توقفالصحة على توازن العناصر الاربعة تعــود هى الاخرى الى امبادوقليدس (٤٠).وتحديد العناصربأربع يرجع الى ماكان لهذا الرقم من مكانة عند الفيثاغوريين ، فقد كانت له مكانة خاصة عندالفلاسفة الطبيعيين فكانوا لا يتكلمون عن شىء من العلويات او السلفيات او يكتبونعنه الا بكلامذى جمل اربع او برسائل ذى اقسام اربع(٤١)

---

(٣٨) Sarton : Introduction to the history of scince. Vol. 1 P. 281 282

(٣٩) ديسقوريدس العين زربى صاحب كتاب الحشائش ،كان هذا الكتاب المرجـع الذى استفاد منه علمـاء النبات العرب ، توجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحترقم ١٠٢٩ طب وتفصيل مقالاته الخمس فى عيون الانباء جـ ١ ص ٨٥ .

(٤٠) Sarton : Introduction to the history of scince. Vol. 1 P. 73.

(٤١) ديبور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ١١٠ .

كان فيثاغورس يرى الكمال فى الاعداد الاربعة الاولى وكان اتباعه يسمون بالرباعية وكان يرى أن الاربعة أصل الاشياء ، فأشياء ما بعد الطبيعة أولها الله ودونه العقل ثم النفس فالهيولي ، والمكونات أربعة هى الحيوان والنبات والمعدن والانسان (٤٢) ادت فلسفة الارقام بأبقراط ــ فى رأى غاليونجى ــ (٤٣) الى أن يحدد أياما حاسمة بالنسبة للامراض لمقابلتها بعض الارقام التى لها خواص معينة .

٢ ــ **القوى الطبيعية الشافية :** يعنى هذا المبدأ محاكاة الطبيعة فى المعالجة وتعنى هذه المحاكاة أن « لكل مرض تطور طبيعى ونضوج محدود السير والمصير »(٤٤) وهناك مبدأ واحد بسيط فى ذاته متعدد بمفعوله وهو الطبيعة وهذا المبدأ يشرف على جميع الوظائف الحيوية ويقاوم العوامل الهدامة للجسم وعلى الطبيب أن يساعد الطبيعة كى تقوم بعملها .

كان ابقراط يعتبر الجسم الانسانى كلا متماسكا ويعمل كوحدة ، وعلاقته بما يحيط به أى البيئة علاقة تجاوب أو انسجام بين الفيسيس (٤٥) التى ترجمت بطبيعة الانسان وبيئته في حالة الصحة والا نتج المرض ، أو كما يقول الدكتور غليونجي(٤٦) هى علاقة بين قطبين احدهما الجسم والآخر البيئة . الاول يخضع للثانى الذى يستوعبه بأن يأخذ منه ما ينفعه ويلفظ ما لا يلائمه فان نجحت عملية الاستيعاب ويسمونها الهضم Pepsis تمت الصحة ، والا حدث العكس .

يعود هذا الى ان الجسم يحمل فى طياته استعدادا طبيعيا للشفاء الذى يتأتى له حين يستجيب الى كل تغير يحدث فى البيئة بفضل عملية الهضم التى هى نوع من نضج الاخلاط ينتهى بالتخلص من الفضلات ولذلك قال الرازى « ان الطبيعة تجاهد العلل وتعاركها وتروم احالتها »(٤٧) .

٣ ــ **نظرية الايام البحرانية (البحران):** يعنى هذا الاصل انه لابد للطبيب من معرفة البحران او الحومة Crisis وهى النقطة الفاصلة في المرض والتى تؤذن بالاتجاه نحو

---

(٤٢) سانتلانا : تاريخ المذاهب الفلسفية ج ١ ص ٤٣ .

(٤٣) غاليونجى (بول) ابن النفيس ص ١٧ .

(٤٤) الأب قنواتى : تاريخ الصيدلة والعقاقير ص ٧٨ .

(٤٥) غاليونجى (بول) : ابن النفيس ص ٢٥ .

(٤٦) نفس المصدر ص ٢٦ .

(٤٧) الرازى : المرشد او الفصول ص ٤٩ .

التحسن أو التفاقم(٤٨) . اخذ ابقراط هـذه النظرية من فيثاغورس ٤٩٧ ق.م. البحران(٤٩) لفظة سريانية والاطباء يقولون هـذا اليوم باحورى اذا نسبوه الى البحـران ولا يكادون يقولون بحرانى. طور البحران هذا يسبقه طوران يمر بهما المرض هما الطور النيىء أو الخـام كما سـماه أبقراط وطـور النضج . يقـول الدكتور محمد كامل حسين «ان اعراض البحران ليست شيئا أكثر من مجاهدة الطبيعة للعلة»(٥٠) فهى حالة تحدث للمريض دفعة استفراغا وتغيرا عظيما ويكون هذا في الامراض الحادة كالحميات المحرقة والمطبقة. اذا حدث تأخر في ظهور البحران وهو الذى يتأتى فى أثنائه التخلص من الخطر الزائد فعلى الطبيب ان يساعد على ازالة المواد السقيمة بواسطة الفصد أو القيء أو الاسهال .

• • •

حركة نقل الطب اليوناني : ـ

ان الكثيرين(٥١) من المؤرخين يتفقـون فى القـول بأنه قد ألف فى الاسـكندرية فى العصر الهللينى المتاخر مجموعة كتب طبية وجوامع لستة عشر كتابا من كتب جالينوس لا نعرف من المصادر اليونانية شيئـا عـن هـذه الجوامع الا أسمها ، وهى خمس كتب في التشريح وستة كتب فى التشخيص واربعة كتب فى النبض لكل واحد منها جامع واسم هذه الجوامع كلهـا للمتعلمين (٥٢) ، ترجمت مبكرا الى السريانيـة والعربية ترجمها حنـين بن اسـحاق ٢٦٠هـ وتلامذته .

أورد حنين عناوين هذه الستة عشر كتابا في رسالته عما ترجم من كتب جاليونوس الـى السريانية وذكر ابن النديم(٥٤) بعض أسـماء النقلة لهذه الجوامع فى كتابه «الفهرست» فقال :

---

(٤٨) الأب قنواتى : تاريخ الصيدلة والعقاقير ص ٧٨ .

(٤٩) الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص ١٠٦ .

(٥٠) محمد كامل حسين : طب الرازى ص ١٦٥ .

(٥١) مايرهوف : من الاسكندرية الى بغداد ص ٤٥ .

(٥٢) ما يرهوف : ص ٣٨ ، ص ٤٥ من مقالة بعنوان مـن الاسكندرية الى بغـداد (يقول عن بعض مؤرخى وفلاسفـة واطباء العصر الاسلامى فى اواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الميلادى ان اقوالهم ينبغى ان تؤخذ بحذر لانها مفعمة بالاخطاء التاريخية والخلط بين المسائل الى جانب التحريفات العديدة للاسماء اليونانية وهى تحريفات النساخ القدمـاء مسئولون عنها) .

(٥٣) حنين بن اسحق : رسالة الى على بن يحيى فى ذكـر ما ترجم من كتب جاليينوس ـ النسخة المخطوطة .

(٥٤) ابن النديم . الفهرست ص ٢٩٢ .

اصطفن (٥٥) ، جاسيوس (٥٦) انقيلاوس (٥٧)،مارينوس (٥٨) ، هؤلاء اسكندرانيون وهم ممن فسر كتب جاليولس وجمعها واختصرها واوجزالقول فيها لاسيما كتب جالينوس الستة عشر .

وكذلك فعل القفطي (٥٩) فى كتابه « تاريخ الحكماء» ص ٧٠ اذ يقول« انقيلاوس الاسكندرانى حكيم فاضل طبائعى مصرى الاقليم اسكندرانىالمنزل وهو احد الاسكندرانيين الذين عنوا بجمع كلام جالينوس واختصار كتبه وتأليفها علىالمسألة والجواب ، ودل حسن اختصارهم على معرفتهم بجوامع الكلام واتقانهم لصناعة الطب،وكان انقلاوس هذا رئيسهم هو المرتب للكتب والمستخرج لاكثرها،حتى ان اكثر الناس ينسبون الجوامع اليه وقد ذكر هذا حنين بن اسحاق فى نقله لها من اليوناني الى السريانى » .

وعن الاسكندرانيين يذكر القفطى(٦٠)(الاسكندرانيون هم الذين رتبوا بالاسكندرية دار العلم ومجال الدرس الطبى وكانوا يقراون كتب جالينوس ويرتبونها على هذا الشكل الذى تقرأ عليه اليوم وعملوا لها تفاسير وجوامع تختصر معانيها وتسهل على القارىء حفظها وحملها فى الاسفار ، فأولهم على ماترتبه اسحاق بن حنين اصطفن الاسكندرانى ثم جاسيوس وانقلاوس ومارينوس فهؤلاء الاربعة عمدة الاطباء الاسكندرانيين ، وهم الذين عملوا الجوامع والتفاسير،وانقلاوس هو المرتب للكتب والمستخرج لها على ما تقدم شرحه) .

يقول حنين عن جوامع جالينوس هذه« فى هذه الكتب كان يقتصر على قراءتها فى موضع تعليم الطب بالاسكندرية وكانوا يقرأونها على هذا الترتيب الذى اجريت ذكرها عليه ، وكانوا يجتمعون في كل يوم على قراءة امام منها وتفهمه،كما يجتمع اصحابنا من النصارى فى مواضع التعليم التى تعرف بالاسكول فى كل يوم على كتاب امام من كتب المتقدمين واما من سائر الكتب وانما كانوا يقرأونها الافراد كل واحد على حدته بعد الارتياض بتلك الكتب التى ذكرت كما يقرأ اصحابنا اليوم كتب المتقدمين» (٦١) .

---

(٥٥) اصطفن الاسكندرانى الفيلسوف اشهر المعلمين فى الاسكندرية أيام الامبراطور هرقل .

(٥٦) جاسيوس : لعله العالم الطبيب جاسيوس الذى عاش حوالي سنة ٥٠٠ م .

(٥٧) انقيلاوس : احد الاسكندرانيين الذين عنوا بجمع كلام جالينوس .

(٥٨) اريونوس : الفيلسوف من نيشم (صفد) خلف ابرقلس على رئاسة الاكاديمية ص ٤٩٥ .

(٥٩) القفطى : تاريخ الحكماء ص ٩٧١ .

(٦٠) نفس المصدر نفس الصفحة .

(٦١) حنين بن اسحاق : رسالة الى على بن يحيى فى ذكرما ترجم من كتب جاليونس ـ النسخة المخطوطة .

كانت الاماكن (٦٢) التي ازدهرت فيها العلوم اليونانيــة في المنطقــة هي الرهـا ونصيبين . وجنديسابور اقتصر فيها التعليم الطبي على مؤلفات ابقراط وجالينوس ، وفي مدرسة جنديسابور لم يكن الطب يدرس نظريا فحسب بل عمليــا كذلك في بيمارستان كبير وكان نموذجا لما كانت عليه دراسة الطب بعد ذلك في العالم الاسلامي، وفي هذه البيمارستان اتصل العلماء اليـونـان والسريان والفرس بعلماء الهند وتأثر بعضــهم ببعض، وفي الطب العربي بقايا لهذا التأثير. اتجهت العناية لمدرسة جنديسابور في اول عهد الدولة العباسية اذ استشار الخليفة المنصور ١٤٨ هـ رئيس اطباء جنديسابور وهــو جورجيس بن بختيشوع حين دعاه الى بغداد ومنذ ذلك الحين حظيت اسرة بختيشوع بمكانة لدى الخلفــاء العباسيين طوال قرون ثلاثة ، وقد حظي الاطباء السريان النصارى بهذه المكانة كذلك .

يصور الجاحظ (٦٣) هــذا الوضع خــير تصوير في كتابه « البخلاء » اذ يقــول عن الطبيب البغدادي اسد بن جاني « وكان اسد بن جاني طبيبا فأكســد مرة فقال له قائل السنة وبئة والامراض فاشية وانت عالم ، ولك صبر وخدمة ولك بيان ومعرفة ، فمــن اين تؤتى في هــذا الكساد « قال » اما واحدة « فاني عندهم مسلم وقد اعتقد القوم قبل ان اتطبب لا بل قبل ان اخلق ان المسلمين لا يفلحون في الطب . واسمي (ثانية) اســد وكان ينبغي ان يكون اســمي صليبا ومرايل ، ويوحنا ، وبيرا ، وكنيتي ابو الحارث وكان ينبغي أن تكون أبو عيسى ، وابو زكريا ، وابو ابراهيم ، وعلي رداء قطــن ابيض وكان ينبغي ان يكون رداء حرير اسود ، واخيرا لفظي لفظ عربي ، وكان ينبغي ان تكون لغتي لغة اهل جنديسابور » .

وهكذا يقول الطبيب العربي انه كان ينبغي ان يكون مسيحيا ذا اسم سرياني ولهجة سريانية ويلبس رداء من الحــرير محــرما على المســلم ويــدرس في المدرســة السريانيــة الفارســية المشــهورة .

كان القرن الثالث الهجــري (التاســع الميلادي) (٦٤) عصر المترجمين حقــا ، وكــان هؤلاء جميعا من النصارى السريانيين ومنهم من اتقن اليونانية والفارسية فضلا عن السريانية . **اصبح حنين فيما بعد شيخ المترجمين ، وقد عاونه تلامذته وابنه اسحق . كانت الترجمة** في النصف الاول من القرن التاسع من اليونانية الى السريانية ، وفي النصف الثاني ازدادت حركــة الترجمة الى العربية . عاون الخلفاء وابناء موسى بن شاكر على نشاط حركة الترجمة ، كان اول

---

(٦٢) ما برهوف (ماكس) : من الاسكندرية الى بغداد ص ٥٣ .

(٦٣) الجاحظ : البخلاء ص ١٠٩ طبع فلوتن القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ .

(٦٤) ما برهوف : من الاسكندرية الى بغداد ص ٥٨ .

المصنفات الطبية التى نقلت من اليونانية الـىالعربيـة هى ما يسمى بالمجموعة الابقراطيـة ، ترجم حنين من هذه المجموعة :

١ ـ كتاب عهد ابقراط . قال عنه حنـين(ترجمته الى السريانية واضفت اليـه شـرحا عملته للمواضع المستعصية منه) . (٦٥)

٢ ـ تدبير الامراض الحادة قال عنه حنين(واختصرت معانيه على جهة السؤال والجواب). (٦٦)

٣ ـ جراحات الراس . قـال عنه حنـين(وعملت من بعد مختصر الجوامع) . (٦٧)

٤ ـ ابيذيما (الامراض الوافدة) قال عنهحنين « اضفت الى ترجمته ما ترجمته منتفسير جالينوس للمقالة الثانية من كتاب ابيذيمـا ،ترجمت نص كلام ابقراط في تلك المقالة الـى السريانيـة والى العربيـة مجردا على حدته ثمترجمت من بعد الثمانى مقالات التى فسر فيها جالينوس المقالة السادسة من كتاب ابيذيمـا الى العربية ، فلما حصل من تفسير الاربع مقالات من كتاب ابقراط المعروف بابيذيما وهى المقالةالاولى والثانية والثالثـة والسادسة لجالينوس تسع عشرة مقالة اختصرت معانيها على جهـةالسؤال والجواب بالسريانية . (٦٨)

٥ ـ قطيطربون (حانوت الطبيب) قـالعنه حنين (نسخته باليونانية فى كتبى ثم ترجمته من بعد الى السريانية وعملت له جوامع) .(٦٩)

٦ ـ الهواء والماء والمساكن قال عنه حنينترجمت نص كلام ابقراط واضفت اليه شرحـا وجيزا الا اننى لم اتمـه وترجمت ايضا النصالى العربية . (٧٠)

٧ ـ الغذاء قال عنه حنين ترجمت نصكلام ابقراط واضفت اليه شرحا وجيزا . (٧١)
وفيما عدا ذلك ترجم حنين من كتب ابقـراطبتفسير جالينوس (الفصول ، تقدمه المعرفـة ، القروح ، الاخلاط ، طبيعة الحنـين وطبيعـةالانسان) .

اصلح حنين كذلك ترجمه اصـطفان بنبسـيل لكتاب الحشـائش لد يسقوريدس وقد ظل هذا الكتاب المرجع الاساسى للمفرداتالطبية فقد درسه وعلق عليـه الاطبـاء منـذ جالينوس وحتى عصر النهضة ، يشتمل الكتابعلى ذكر ستمائة نبات وعدد من الادوية المعدنية والزيوت والادهان ، يصف ديسقوريدس الموادطبيا وصفا دقيقا يدل على دقة ملاحظة . يذكر القفطى (٧٢) ان ديسقوريدس كان اعلم من تكلمفى اصـل العـلاج وفوائد العقاقير المفردة متبعا

---

(٦٥) نفس المصدر السابق ـ نفس الصفحة .

(٦٦) الى (٧١) حنين بن اسحق رسالة الى علي بن يحييفى ذكر ما ترجم من كتب جاليونوس النسخة المخطوطـة . انظر ايضا الماحى (التيتانى) : مقدمة فى تاريخ الطب العربىص ٣١ طبعة الخرطوم ١٩٥٩ .

(٧٢) القفطى : تاريخ الحكماء ص ١٨٣ .

طريقة التجنيس والتنويع حتى حذا حذوه الذين اتبعوه ولذلك قال جالينوس « تصفحت اربعة عشر مصحفا في الادوية المفردة لاقوام شتى فمارايت فيها اتم من كتاب ديسقوريدس الذى من أهل عين زربة ويه احتذى كل من اتى بعده وخلدفيه علما نافعا واصلا جامعا . » (٧٣)

اشتمل كتاب جالينوس على خمس مقالات : (٧٤)

تشتمل المقالة الاولى على ذكر ادوية عطرةالرائحة وادهان وصموغ .

وتشتمل المقالة الثانية على ذكر الحيوانورطوبات الحيوان : العسل واللبن والشحم والحبوب والبقول .

وتشتمل المقالة الثالثة على ذكر اصول النبات وعصارات وبذور .

وتشتمل المقالة الرابعة : على ذكر ادويةاكثرهاحشائش باردة وحارةونافعةمن السموم.

وتشتمل المقالة الخامسة على ذكر الكرومالخمور والادوية المعدنية .
وترجم حنين كذلك كتاب بولس الاجانيطى(٧٥) ٦٩٠ م فى سبع مقالات اذ لعب بعد ترجمته الى العربية دورا فى تطور الجراحة عند العرب .

فى المقالة الاولى يشرح المؤلف ضرورة وجودمؤلف شامل ومختصر يتوفر للطبيب حمله فى حله وترحاله ويفيده فى ممارسة مهنته .

وفى المقالة الثانية يبحث في الحميات بوجهعام والنبض واهميته فى تشخيص الامراض والامراض الوافدة واسباب الاوبئة ومع ذلك لا يذكر عن الجدرى والحصبة شيئا .

وفى المقالة الثالثه ذكر الامراض من الراسالى القدم واسبابها وعلاجاتها .

وفى المقالة الرابعة ذكر الامراض الخارجيةالتي تؤثر في اعضاء البدن كالديدان المعوية وداء الفيل وامراض الجلد وسقوط الشعر والعناية به والاورام الجاسيه (السرطانية وغير السرطانية) .

وفى المقالة الخامسة ذكر الجروح ونهشالهوام والحيوانات السامة والكلب الكلِب والادويه المخدرة والسامة وطرق الوقاية منها .

وفى المقالة السادسة فيالعملباليد (الجراحة)واستخراج السهام والكسر والخلع والجبر وجراحات الراس ومعالجة الحروق والاستسقاءومعالجته جراحيا وكذلك امراض العين والفم والعضد والكى واستخراج الحصاة من الكلىوالمثانة والبواسير .

---

(٧٣) نفس المصدر السابق ـ نفس الصفحة .

(٧٤) قنواتى : تاريخ الصيدلة والعقاقير فى العصر الوسيطص ٩٠ .

(٧٥) حمارنة (سامى) فهرس مخطوطات دار الكتبالظاهرية ص ٥٦ ، ٥٧ .

وفي المقالة السابعة ذكر صفات الادوية المفردة والمركبه وكيفية العلاج وابدال الادوية وقواها وخصائصها وكيفية استعمالها .

يمثل بولس الاجانيطي (٧٦) هذا خاتمة الاطباء المشهورين في العصر اليوناني والروماني من القرن الخامس قبل الميلاد وحتى صدر الاسلام وقد ترك هؤلاء الاطباء اثرا لا ينكر في تطور الصناعة الطبية عند العرب .

• • •

تاسيس الطب العربي

أ ـ حنين بن اسحاق وجهوده في الترجمة والتاليف .

ب ـ الرازي وابن سينا (التاليف في المشرق) .

ج ـ الزهراوي (التاليف في المغرب) .

أ ـ حنين بن اسحاق وجهوده في الترجمة والتاليف :ـ

يعد حنين (٧٧) من اعظم مترجمي التراث اليوناني الى اللغة العربية ومن اكثر الاطباء العرب الاوائل تصنيفا ، لقد وصلت الينا عدة كتب له في الطب ، لم يتناول البحث الحديث منها الا كتابه في طب العيون واشاد الباحثون ايضا بفضل كتابه « المسائل في الطب » (٧٨) واثره في حضارة الغرب . لقد اتضح قيمة جهود حنين في طب العيون بفضل دراسات هيرشبرج ومايرهوف. ذكر هيرشبرج لحنين جهوده في تاليف اول كتاب مستقل باللغة العربية في التخصص الدقيق .... « طب العيون » . كان الاطباء العرب قد اشادوا بذكر هذا الكتاب ، فقد ذكر علي بن عيسى احد اطباء العيون ذوي المكانة ان حنين بن اسحاق جمع احسن المؤلفات التي صنفها الاطباء الكبار قبل جالينوس وبعده ، وكذلك فعل ابن ابي اصيبعة حيث اكد ان هذا الكتاب يتالف من عده مقالات متفاوته متباينة ، قال ابن ابي اصيبعة (٧٩) هذا الكتاب يوجد في نسخه اختلاف كثير وليست مقالاته على واحد ، فان بعضها توجد مختصرة موجزة في المعنى الذي هي فيه ، والبعض الآخر قد طول فيه وزاد عما يوجبه تاليف الكتاب ، والسبب في ذلك ان كل مقالة منه بمفردها من غير التئام لها مع غيرها ، وذلك لان حنينا (٨٠) يقول في المقالة الاخيرة من

---

(٧٦) سامي حمارنة : فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ص ٥٦ ـ ٥٧ دمشق ١٩٦٩ م .

(٧٧) سزجين (فؤاد) : تاريخ التراث العربي ج ٣ عن الطب العربي مادة حنين .

(٧٨) المسائل في الطب : كان مخطوطا حتى وقت اعداد المقال . وقام المؤلف بتحقيقه ونشره بتعاون مع المكتبة القومية للطب في واشنطن ـ الولايات المتحدة الامريكية .

(٧٩) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ص ١٩٨ .

(٨٠) نفس المصدر .

هذا الكتاب : « انى كنت قد الفت منذ نيف وثلاثين سنة فى العين مقالات مفردة نحوت فيها الى أغراض شتى سألنى تأليفها قوم بعد قوم قال : ثم ان صبيا سألنى أن اجمع له ذلك وهو تسع مقالات واجعله كتابا واحدا ، وان اضيف له للتسع مقالات الماضية مقالة أخرى اذكر فيها كتبهم لعلل العين .

لاحظ ابن أبى اصيبعة ان القسم النظرى من كتاب العشر مقالات في العين في تفصيل واسهاب عكس القسم العملى فهو فى ايجاز واختصار .

كان اشتغال حنين (٨١) بالترجمة الحافز الاول لاشتغاله بالطب ، كان الهدف الاساسي لجهود حنين فيما يبدو نقل مؤلفات الاطباء اليونان الى اللغة العربية على ان تكون الترجمة عربية واضحة ومفهومة بقدر الامكان ، اعتمد حنين فى هذا العمل على ترجمة نصوص الكتب كما اعتمد ايضا على الشروح المصنفة عليها والملخصات التى اعدت لها ، اطلق حنين على نتاج هذه الجهود عدة عناوين مثل ثمار أو تفسير او جوامع او شرح ، ويبدو انه افاد مصطلح « جوامع » من ترجمته لجوامع الاسكندرانيين .

كان حنين يسعى الى تحقيق هدفه العلمى متوسلاً الى ذلك بالكتب التى اعدت تيسيرا لكتب اخرى اراد حنين أن يترجمها او يهذبها ،وكانت هذه الكتب المبسطة بطريقة السؤال والجواب .

ترجم حنين (٨٢) الى السريانية وحدها ثمانية وخمسين مصنفا من مصنفات جالينوس ، والى العربية وحدها اثنى عشر مصنفا ، والى السريانية ثم الى العربية اثنين وعشرين مصنفا وبذلك يصير مجموع ما ترجمه من مصنفات جالينوس وتفسيراته باللغتين اثنين وتسعين مصنفا عدا اضافاته وتلخيصاته لترجمات تلامذته والمتقدمين عليه امثال أيوب الرهاوى (٨٣) وسرجيس الرسعى .

وكان حنين ينقل كتب اليونانيين الى السريانية ثم يقوم بترجمتها الى العربية او يعهد بذلك الى تلامذته . وسبب تفضيله النقل الى السريانية قبل العربية غزارة المصطلحات العلمية والحكمية السريانية اذا قورنت بالعربية آنذاك ،كان حنين فى ترجمته يتوخى اداء المعنى بتعبير سلس ودقة علميه متحاشيا الغموض ومتجنبا التحوير .

---

(٨١) سزجين (فؤاد) تاريخ التراث العربى ج ٣ عن الطب العربى مادة حنين .

(٨٢) انظر للمؤلف مقدمة كتاب المسائل فى الطب لحنين ابن اسحاق طبعة القاهرة سنة ١٩٧٦ .

(٨٣) أيوب الرهاوى : عالم سريانى عاش فى مطلع القرن الثامن الميلادى ،عمل تراجم كثيرة من اليونانية الى السريانية، وتبعا لحنين بن اسحاق ترجم خمسة وثلاثين كتابا لجالينوس الى السريانية وتوجد طبعة حديثة لكتابة دائرة المعارف للعلوم الاسلامية المعروف باسم الكنوز .

لم يكن حنين يكتفى بمخطوطة واحدة يترجمها بل كان يعمد الى جمع اكبر عدد من المخطوطات للكتاب الواحد قبل اقدامه على ترجمته ويرجع الى الترجمات السابقة للكتاب عينه ان توفرت ، ويستنير بآراء القدماء للوصول الى درجة الجودة والاتقان ، وفى سبيل ذلك . راجع حنين ترجمات سالفيه امثال سرجيس وايوب الرهاوى وكذلك ترجمات تلامذته .

كان حنين يتوخى الكمال في اعماله ولذلك نراه لا يحتاج الى الترجمات التى قام بها فى حداثة سنة فيراجعها ويترجم بعضها من جديد يقول حنين (٨٥) عن كتاب الفرق لجالينوس « ترجمته وانا شاب من نسخة خطية يونانية مشوهة ، ثم لما بلغت الاربعين من عمرى طلب الى تلميذى حبيش ان اصلحها بعد ان كنت جمعت قدرا من المخطوطات اليونانية وعند ذلك رتبت هذه بحيث نسقت منها نسخة صحيحة قارنتها بالنص السريانى ثم صححتها وتلك عادتى التى اتبعتها فى كل ما ترجمته » .

قال القفطى : (٨٦) عن حنين « كان جليلا فى ترجمته ، وهو الذى اوضح معانى كتب ابقراط وجالينوس ولخصها احسن تلخيص » . ان السؤال الذى يطرح نفسه في هذا الصدد هل تجاوز حنين النتائج المعروفة حتى عصره والمتاحة له ، والى اى حد كان جهده فى هذا العمل ؟ .

وايا كانت الاجابة عن السؤال فان احدا لا يستطيع ان ينكر اسهام حنين بن اسحق فى تكوين المصطلح العربى وهذا الاسهام يعد على اية حال جهدا قيما وممتازا .

ب ـ الرازى وابن سينا فى المشرق :ـ

نجد فى الطب العربى نوعين من الاطباء : الاطباء الفلاسفة ويمثلهم الرازى ، والفلاسفة الاطباء ويمثلهم ابن سينا ، هذا الرأى ذهب اليه سارتون في قوله :

« ان من الموافق تقسيم الاطباء العرب الى مجموعتين : ممارسون ومدرسون ، يمثل الممارسين الرازى ويمثل المدرسين ابن سينا ، وهما يمثلان مذهبين مختلفين ، ففريق المدرسين درسوا الطب على أنه جزء من المعرفة لا غنى عنه ، وسعيهم الى استكمال المعرفه هو الذى دفعهم الى دارسة الطب ، اما فريق الممارسين فهم يهتمون فى المقام الاول بالمرض والتشخيص والعلاج ، الفلسفة عندهم وسيلة لبلوغ هذه الغاية ، اسلوب الفريقين يختلف : المدرسيون يعنون بالتنظيم والتقسيم المنطقى ، والممارسون يعنون بالمشاهدات والدلالات » . (٨٧)

---

(٨٤) سرجيس الرسعنى المتوفى سنة ٥٣٦ م من اقدم السريانيين الذين اشتغلوا بترجمة الكتب اليونانية الى السريانية ، نقل بعض مؤلفات ابقراط وجالينوس الى السريانية وكان الكل يحسبونهم مرجعا من مراجع العليا فى الطب والفلسفة يقال انه اسس مدرسة سريانية فى الطب ، درس سرجيس الطب والكيمياء بالاسكندرية اما نشاته فكانت براس العين بالعراق . انظر للمؤلف مقدمة كتاب المسائل فى الطب لحنين بن اسحاق .

(٨٥) حنين بن اسحاق : رسالة الى على بن يحيى النسخة المخطوطة .

(٨٦) القفطى : تاريخ الحكماء ص ١٧١ .

(٨٧) Sarton : Introduction to the history of science. Vol. 1. P 587

يهمنا الآن تبيان هذا الامتزاج الذى كان بين الفلسفة والطب ولماذا بدأ عند اليونان واستمر كذلك عند العرب . ان اليونانيين حاولوا تفسير الكون والاستدلال على قوانينه لا بالتفسير المجرد والمنطق المقنن ، بل بالتوصل الى أساليب المنطق لتكون أداة لهذا التفسير ، وهم انما « نهجوا هذا المنهج لايمانهم بقابلية الكون للتفسير العقلى وبسببية الاحداث الطبيعية » (٨٨) نظروا الى تأملات الفلاسفة والى ملاحظة الظواهر الطبيعية على انها موضوع لدراسة واحدة ولذلك نجد الاثر الفلسفى واضحا فى الطب لا فى جزئه النظرى فحسب بل فى جميع نواحيه . استمرار هذا الامر عند الاطباء العرب يعنى انهم أقاموا طبهم على النظام العام اليونانى ، فمن اليونان اخذوا كلياتهم . (٨٩) لقد جمع الرازى بين الاطباء والفلاسفة فى عبارته القائلة « متى اجتمع ارسطو وجالينوس على معنى فذلك هو الصواب ومتى اختلفا صعب ادراك صوابه جدا » (٩٠)

ارسطو هو القائل بتكون الموجودات من اربعة عناصر ولها أربعة طبائع ، وجالينوس هو القائل بأن فى بدن الانسان أخلاطا أربعة تقابل العناصر الاربعة .

سيطرت نظرية الاخلاط على الطب اليونانى ومن بعده على الطب العربى وفى ضوء هذه النظرية بات الاطباء العرب يعللون وظائف الجسم ونشوء المرض فيه ، ولكن ذلك لم يكن ليمنع الاطباء العرب من الاعتراض على بعض آراء الاطباء اليونانيين وتفنيدها تفنيدا قد يكون احيانا قاسيا عنيفا ، فكثيرا ماكان الاطباء العرب يرفضون الاخذ بنظريات ابقراط وجالينوس لخطأ يجدونه فيها اما بناء على اختباراتهم الشخصية أو بناء على تفكير منطقى .

واذا أردنا ان نفهم لماذا لم يخرج الطب العربى عما التزم به الطب اليونانى لوجدنا الجواب فيما قاله روزنتال من « ان هم العلماء الاول فى عصر المخطوطات كان الحفاظ على العلم الوضعى المقرر الذى جمعته الاجيال السابقة » (٩١) ، وكذلك فيما يقوله الدكتور محمد كامل حسين (٩٢) من ان أساتذة الطب لايرون من واجباتهم ان يثوروا على النظريات الطبية القائمة ولا أن يقدموا للناس نظريات جديدة حتى يصقلها الزمن ويتبين خطؤها او صوابها ، ولذلك كثيرا مانجد فى المؤلفات الطبية العربية روايات عن الفاضلين ابقراط وجالينوس ويكون ذلك دعما للرأى أو النظرية ، وكثيرا ما ترتب على ذلك نسبة ما هو يونانى الى ما هو عربى وما هو

---

(٨٨) غاليونجى : ابن النفيس ص ٩ .

(٨٩) نماذج هذه الكليات أن الكائنات مكونة من اربعة عناصر هى الماء والهواء والتراب والنار وأن القوى الكامنة فى هذه العناصر هى اليبوسة والرطوبة والحرارة والبرودة وان الاخلاط الاربعة هى الدم والبلغم والمرة الصفراء والسوداء وان كل العلل والامراض يرجع تفسيرها الى هذه الكليات

(٩٠) ابن ابى اصيبعة : عيون الانباء فى طبقات الاطباء ج ١ ص ٣١٤ .

(٩١) Rosental (Franz): The technique and approach of Muslem scholarship. p. 54

(٩٢) محمد كامل حسين : طب الرازى ص ١٣٣ وفى ص ١٣٤ من كتابه « متنوعات » طبعة القاهرة بدون تاريخ ، يرى ان الذى يجرؤ على أن يجاهر برأى جديد لا يعد عالما مبتكرا وانما يعد غير عالم بما قال الاولون ولقد كان من العبث البحث عن شىء لم يعرفه ارسطو وجالينوس .

عربي الى ما هو يوناني ، ويصعب التحقق لتشتت المصادر اليونانية واختلاف المنهج والترتيب .

ومع ذلك نجد في كتب الرازي بالذات تلخيصا أمينا للطب اليوناني المترجم والطب العربي المعاصر لزمانه فانه « كان ينسب كل ما ينقله من معلومات الى اصحابها ، ويذكر الباب او الفصل الذى استمد منه المادة ثم يميز آراءه وخبراته الشخصية بلفظة لى » (٩٣)

ففى كتابه « الحاوى » يقول « قال جالينوس سقط رجل عن دابة فصك صلبه الارض، فلما كان اليوم الثالث ضعف صوته وفى اليوم الرابع انقطع البتة واسترخت رجلاه ولم تنل يديه آفة لان عصبها يجيئها من نخاع العنق » (٩٤) .

ولذلك نراه فى موضع آخر يقول « ان من عرف منابت العصب الجائي الى عضو من الاعضاء سهل علاجه » (٩٥) لايخرج هذا القول عن قول جالينوس « أفصد » ابدا عند بطلان حس عضو او حركة الى أصل العصب الجائي اليها ، » (٩٦)

لايدهشنا ان يوافق الرازى جالينوس فى طرائق المعالجه لبعض الامراض او تشخيصها فلاشك أن مؤلفات جالينوس اسهمت في تكوين الرازى .

فلسفة العلاج الطبى عند الرازى :ـ

الف الرازى كتابا عنوانه (**فى محنة الطبيب وتعيينه**) (٩٧) افاد مادته من كتاب لجالينوس بعنوان « فى المحنة التى يعرف بها أفاضل الاطباء » (٩٨) فى كتاب الرازى تتضح طريقته فى درس الامراض ، اذ كان يرشد طلاب الطب الى طلب التعريف ثم العلة والسبب ثم هل ينقسم بسببه أو نوعه او لا ، فيقول « اطلب فى كل مرض هذه الرؤوس : المسمى التعريف أولا ومثاله ان تقول : ان ذات الجنب هو اجتماع حمى حارة مع وخز فى الاضلاع ، وضيق فى النفس وصلابة فى النبض ، وسعلة يابسة منذ أول الامر ، ثم أطلب العلة والسبب ومثال ذلك أن تعلم ان سبب ذات الجنب ورم حاد فى ناحيه الغشاء المستبطن للاضلاع ، ثم أطلب هل ينقسم بسببه أو نوعه أو لا ، مثال ذلك تنقسم ذات الجنب الى الخالصة وغير الخالصة ، ثم اطلب تفضل كل قسم من الآخر ثم العلاج ثم الاستعداد ثم الاحتراس ثم الانذار » (٩٩) .

---

(٩٣) Meyerhof (Max) : Thirty three Clinical observations by Rhazes. Isis, Vol. 23 N 66

(٩٤) الرازى : الحاوى ج ١ ص ٥ .

(٩٥) نفس المصدر ص ٨ وفى هذه الملاحظة يبدو واضحا دقة الرازى فى التشخيص .

(٩٦) نفس المصدر السابق ص ٣ .

(٩٧) يوجد مخطوطا بمكتبه بلديه اسكندرية تحت رقم ١٢٠٥ ب وهو اقدم المخطوطات .

(٩٨) يوجد مخطوطا بمكتبه بلديه اسكندرية تحت رقم ٣٨١٣ ج .

(٩٩) الرازى : المرشد فصل ٣٥٠ ص ١١٣ ومحنة الطبيب ص ٤٧١ .

ذكرنا هذا النص المطول لأن فيه بيانا لفلسفة العلاج الطبى عند الاطباء العرب اذ كان البحث فى علم من العلوم يبدأ بوضع حدود دقيقة هى ما تسمى الآن بالتعريف لا يتعداها الانسان .
وليس عفوا أن أول المباحث كان البحث فى الحدود ، ولذلك تلحظ فى عبارة الرازى السابقة تقيده بالمنطق اليوناني الذى يجعل مبحث التعريف مستندا على مبحث العلل ، فقد كانت الغايه فى العلم اليوناني البحث عن العلل واكتشافها ولذلك نجد الرازى يقول « انا انما نريد ان نعرف اسباب الامراض لنقابلها بأضدادها فيكون بذلك زوالها . (١٠٠)

جعل الرازى اجناس سبب المرض الاول جنسين هما تغير الشكل وتغير المزاج ، والرازى يطلب بعد التعريف بالعلة الانقسام لاجل السبب او النوع واحيانا كان ثمه خلط بين الجنس والنوع . اما الاستعداد والاحتراس والانذار والعلاج فكلها مأخوذ من جالينوس .

واذا كان الرازى ـ فيما اسلفنا ـ متقيدا بالمنطق اليونانى فهو ـ مع ذلك يبز اليونان فى منطقهم واستنتاجهم (١٠١) .

ويسجل ميله الى التجريب فى مقدمة كتابه الخواص » (١٠٢) حيث يبرر رايه فى تأليف هذا الكتاب الذى قرر ان يجمع فيه اقوال الناس في خواص الاشياء ويحذر من قبول هذه الخواص دون التثبت بالتجربة ، ولكنه يدعو كذلك الى تدوينها جميعا لانه قد يكون فى ترك واحدة اغفال لخاصة نافعة .

ولقد كان الرازى يرى تدوين كل ما يقرأ او يسمع ويرى وربما كان ذلك سر كثرة تأليفه وعدم تنظيمها . ، (١٠٣) يقول الرازى فى مقدمة الكتاب لا ينبغى لنا ان ندع شيئا نؤمل فيه نفعا من اجل ان قوما جهلوا وتعدوا ، وقد كان الواجب عليهم لو كانوا اهل راى وتثبت وتوقف ان لا يبادروا الى انكار ما ليس عندهم على بطلانه برهان (١٠٤) .

وقد كان هذا ردا من الرازى على الطاعنين والرافضين قبول الخواص التى يجهلونها فيبادرون الى انكار وجودها ، ولذلك يقول الرازى « ليس البرهان على اخبارنا انه كان كذا وكذا بأوجب منه على اخبارنا انه لم يكن كذا وكذا واذا لم يكن فى هذا الامر الا هذه الواحدة لوجب التوقف والتثبت من دفع ما لا يوجب على دفعه برهان وتركه موقوفا الى ان يصح ببرهان » (١٠٥) هذه العبارة تصور حدود المنهج التجريبى ادق تصوير ، فمن المشاهد لا يجوز الحكم على ما لم

---

(١٠٠) الرازى : المرشد ١٨٧ ص ٦٥ .

(١٠١) انحصر الفكر اليوناني فى صيغ قياسية تعتمد على مقدمات مسلمة لا تقبل البرهنة .

(١٠٢) الرازى : الخواص مخطوط تحت رقم ٢٦٤ طب تيمور ، ١٤١ طب عام دار الكتب المصرية .

(١٠٣) محمد كامل حسين : طب الرازى ص ١٣٩ .

(١٠٤) الرازى خواص الاشيك ورق ٢ وجه .

(١٠٥) نفس المصدر ونفس الصفحة .

يشاهد الا على سبيل الاحتمال لا اليقين ، فليس لاحد ان يدفع ويمنع وجود مالم يشاهد مثلـه بل انما ينبغى له ان يتوقف عن ذلك حتى يشهدالبرهان بوجوبه او عدمه .

يمضى الرازى فى حديث طويل عن خواص الامور التى لا نعرف لها علة كجذب المغناطيس للحديد وامســـاكه عن جذبه متى دلك بالثوم وعودة هذه القوى متى غسل بالخل يقول « انا لما رأينا لهذه الجواهر افاعيل كثيرة عجيبة لا تبلغ عقولنا معرفة سببها الفاعل ولا يحيط به لم نر ان نطرح كل شيء لا تدركه ولا تبلغه عقولنا لان فى ذلك سقوط جل المنافع عنا بل نضيف الى ذلك ما ادركناه بالتجارب وشهد لنا الناس به ولا نحل شـيئا من ذلك محل الثقة الا بعد الامتحان والتجربة له » (١٠٦) اى ان الرازى يعى تماما ان التقصير عن ادراك جميع الموجودات لازم للانسان المحدود ، ولكن ذلك لا يعنى طرح ما قصر حسنا او عقلنا عن ادراكه والا اسقطنا الكثير مما ينفعنا ، وانما نثبت ما شهدت به التجربة والاختبار وأيدته شهادة الغير .

يعــود الرازى محتكما الى التجربة الــى الفصل بين الحق والباطل فى امر هذه الخواص التى قد تكون موضع تكذيب الارديا من القوم، يقول « ولما كان كثير من ارديا الناس قد يكذبون مثل هذه الاشياء ولم يكن عندنا شيء نختبر به حق المحق وباطل المبطل فى هــذه الدعــاوى الا التجربة راينا ان تكون هذه الدعاوى غير مطرحة بل مجموعة مدونة . » (١٠٧)

فموقف الرازى مما سمع به من خواص الاشياء ان لا ينكرها ، فقد يكون فيها شيء من الصواب ، بل يعلق ذلك الى ان تثبت التجربه صدقه او كذبه .

يرى الرازى ان التجربة علم له اصــول وفروع ولذلك يوجب على الطبيب ان يكون قد « احكم الاصول وقرأ الفروع فانه من غير هذين لا يصح له شيء ولا يهتدى لامر من الامور فى الصناعة » (١٠٨) ولذلك يحذر من فهم جهال الاطباء للتجربة اذ ينظرون فى الكتب فيستعملون منها العــلاجات وليســوا يعلمون ان الاشــــياء الموجوده فيها ليست هى اشياء تستعمل بأعيانها، بل هى مثالات جعلت لتحتذى عليها وتعلم الصناعة منها (١٠٩) واذا لم يكن من التجربة الا هذا الفهم لها فقد نهى عنها جالينوس وسبقه الى ذلك ابقراط القائل فى فصوله «والتجربة خطر» (١١٠) ولذلك يؤيده الرازى فى نهيه عن التجربة بهـذا المعنى عند المخرقين الذين يتكلفون استخراج اشياء فى صناعة الطب مما يعتادها الكذنة، ويقول الرازى « فقد صدق لعمرى فى قوله وانى انهى

---

(١٠٦) الرازى : خواص الاشياء ورق ٤ وجه .

(١٠٧) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(١٠٨) الرازى : رسالة الى احد تلامذته ضمن مجموعــة خطية تحت رقم ١١٩ طب تيمور من ص ١٦٦ : ١٨٤ النص ورق ١٧٧ وجه .

(١٠٩) نفس المصدر نفس الصفحة .

(١١٠) ابن القف : الاصول فى شرح الفصول البقراطية ص٣ طبعة الاسكندرية ١٩٠٢ م .

عن التجربة فى صناعة الطب » (١١١) اذ الماهر من الاطباء قد يستدل على العلة فى المريض من النظر الى بوله وهو ما يسمى بالتفسرة وكذلك اذا ماجس نبضه ، ولكنه لا يمكنه بحال من الاحوال ان يخبر عما فعله البارحة وعما اكله على حقيقته فهذه امور يدعيها المشعوذون .

وما دمنا بصـــدد الكلام عن التجربة عندالرازى فقد تحسن الاشارة الى ما يراه الدكتور محمد كامل حسين (١١٢) من ان التجربة عندالرازى لم تكن محددة القواعد والاصول ومع ذلك يقدم لنا مثالين من تجارب الرازى يعترف انهما« يدلان على فهمه الحق لما يجب ان تكون عليه التجارب من ضرورة وجود موجهات او ضوابطبمعنى Controls » .

المثال الاول : هو « سافر رجل نبيل فى الصيف اياما ورجع به حمى مطبقة قوية الحرارة فالزمنيه بعض الملوك فلما لم يكن ذلك ورايت الحرارة والكرب والقلق يتزايد اسقيته مقـدار عشرة ارطال من الماء الصادق البرد فحصر مكانه وانطفأ ما به ودر بوله . (١١٣)

هذه من غير شك حالة ضربة شمـــس Sun Stncko عولجت بما يخفف من ارتفاع درجه الحرارة .

المثال الثانى : من الحاوى يثبت ان التجربة عند الرازى كانت تجربة موجهة ولم تكن اتفاقية كتلك التى وجدناها عند اليونان ، فلكى يتحقق الرازى من اثر الفصد كعلاج لمرضى السرســام قسم مرضاه الى مجموعتين يعالج احداها بالفصد ويمتنع عن فصد الاخرى ، ثم يراقب الاثـــر والنتيجة فى افراد المجموعتين حتى ينتهى الى حكم فى قيمة العلاج ، يقول فى حديثه عن حالة تنذر بمرض السرسام « فمتى رأيت هذه العلامات فتقدم فى الفصد فانى قد خلصت جماعة به وتركت متعمدا جماعة استوى بذلك فسرسموا كلهم » (١١٤)

ولأن الرازى ادرك أهمية التجربة فقد قام بنفسه باجراء بعض التجارب علـى الحيـوان وبالذات على القردة باعتبار انها شبيهة بالانسان ولا يزال الطب الحديث يدرك اهميــه اجـراء التجربة على الحيوان قبل اجرائها على الانسان وان اختلفت الطبيعتان فى بعض الاحيان .

المثال على ذلك ما ذكره الرازى مطـولا فى خواص الزئبق اذ يقول « اما الزئبق العبيط فلا احسب ان له كثير مضرة اذا شرب ، اكثر من وجع شديد فى البطن والامعاء ، وقد سقيـت

---

(١١١) الرازى : رسالة الى احد تلامذته ورق ٦٦ ظهر ـ١٨٤ وجه .

(١١٢) محمد كامل حسين : : طب الرازى ص ١٤٤ وفى ص ١٩٠ يعقب على النص بقوله « والذى يعنى فى ذلك هو فهمه لاساس من اسس التجربة العلمية » .

(١١٣) الرازى : المرشد فصل ٣٣١ ص ١٠٦ .

(١١٤) السرسام : كلمة فارسية تتكون من مقطعين : سر . بمعنى رأس ، سام بمعنى مرض او ورم وهو ورم فى حبب الدماغ حارا كان او باردا ـ مفيد العلوم ومبيد الهموم لابن الحشاء ص ٧٢ .

انا منه قردا كان عندى فلم اره عرض له الا ماذكرت وخمنت ذلك من تلويه وقبضه بفمه ويديه على بطنه اما اذا صب فى الاذن منه فكان له نكاية شديدة » (١١٥) هذا المثال اصدق دلالة على التجربة الموجهة التى ترتبها فكرة ومن ثم يصدق القول بأن التجربة ملاحظة مستثارة « فالمجرب يباشر التجربة عادة ليثبت قيمة فكرة تجريبية أو يتحقق من صحتها » (١١٦) هذا ما فعله الرازى ادرك وظيفة التجربة فى التحقق من صحة الفروض .

• • •

طبيب القياس وطبيب التجربة : ـ

لما كان الاختلاف بين طبيب القياس وطبيب التجربة فى المنهج الذى يسلكه كلاهما وجدنا الرازى يؤازر طبيب التجربة ويقف بجانبه اذا اختلف فى الرأى مع طبيب القياس ، اذ يرى ان الشكوك المغلوطة تقع فى الاكثر فى الفن النظرى أكثر منه فى الفن العلمي ، يقول الرازى عن طبيب القياس انه يجب ان يكون ذا خبرة فان لم يجتمع ذلك لرجل واحد اى ان يجمع بين التجربة والقياس فينبغى للمعنى بأمر الطب ان يجمع بين رجلين احدهما فاضل فى الفن العلمى من الطب والآخر كثير الدربة والتجربة ويصدر عن اجتماعهما فى اكثر الامر ، فان اختلفا فى شىء فيعرض ما اختلفا فيه على كثير من اصحاب التجارب فان اجمعوا جميعا على مخالفة صاحب النظر قبل منهم » (١١٧)

ذكرنا النص مطولا لان الرازى جمع بين الصفتين فلم يكن بد من ان يقرر لنفسه مذهبا فيما يكون عليه رأيه حين يتعارض النظر والعمل وهو القائل « فان لم يتهيأ له الا احد الرجلين فليختر المجرب فانه اكثر نفعا فى صناعة الطب من العاري عن الخدمة والتجربة البتة » (١١٨) اذ ليس للطبيب الممارس ان يغفل الفن العملى وهو المراد بالفن التجريبى الذى يمارسه طبيب التجربة لذلك لم يكن الرازى مقلدا فى عمله كطبيب لهؤلاء الذين ظنوا ان واجب الطبيب ومدى عبقريته يقاس بمقدار تفهمه واقتباسه لما كتبه القدماء بغض النظر عما يراه هو من الوقائع والاحوال الطبيعية بالبرهان والاختبار والمشاهدة حوله .

بل تفرد الرازى (١١٩) برايه وصدق فى تسجيل مشاهداته واختباراته الشخصية وكتابه الحاوى حافل بانتقادات كثيرة لآراء السابقين له من الاطباء ، فهو لا يعرف الحق بالرجال بمعنى أن يقبل رأيا لان قائله ابقراط او جالينوس ، انما لان التجربة والمشاهدة تؤيده ، وهو يمتنع

---

(١١٥) محمد كامل حسين : طب الرازى ص ١٤٥ .

(١١٦) برنارد (كلود) المدخل لدراسة الطب التجريبى ص١٩ من الترجمة العربية .

(١١٧) الرازى : محنة الطبيب ص ٥٠٠ وطب الرازى لمحمد كامل حسين ص ١٤٢ .

(١١٨) الرازى : المرشد فصل ٣٦٤ ص ١١٩ .

(١١٩) محمد كامل حسين : طب الرازى ص ١٤٦ .

عن قبول الآراء المبنية على مشاهدة واحدة ، ويؤدى به البحث الى فحص حالات اخرى ومثال ذلك قول الرازى «جربت فوجدت فى فرط الاسهال أو القىء أو خروج دم ضربة من فصد أو غيره حمى تتبع ذلك فينبغى أن يعتدل فى ذلك كله » (١٢٠) فهو يلجأ الى التجربة قبل اللجوء الى رأى ابقراط القائل (كل استفراغ كثير مقاوم للطبيعة) (١٢١) كذلك يؤكد الرازى ان ممارسة الصنعة خير معين لاكتساب الخبرة والمهارة ، ويثق فى الطبيب الذى يعالج المرضى فى المدن الكبيرة المزدحمة بالسكان والموبوءة بالامراض ، يقول « ينبغى أن ينظر هل شاهد المرضى وقلبهم وهل كان ذلك منه فى المواضع المشهورة بكثرة الاطباء والمرضى أم لا » (١٢٢) ويضيف الرازى الى ذلك قوله ان من قرأ الكتب ثم زاول المرضى يستفيد من التجربة كثيرا » (١٢٣) .

من امثلة اتجاه الرازى الى التجربة الحالات الاربع والثلاثين التى ذكرها مايرهوف (١٢٤) فى مقاله فى مجلة ايزيس يمنعنا كثرة الحالات وطول بعضها من العرض لها تفصيلا ، ولكنها فى جملتها تقوم دليلا على استخدام الرازى للتجربة فى بحوثه الطبية كما انها فى الآن عينة تشهد للرازى بالدقة والبراعة فى ملاحظاته الاكلينيكية مما يظهر بالتالى أهمية الطب السريرى ، وكان الرازى يؤمن بأهمية دراسة الحالات المرضية دراسة تحليلية لتفهم ما تتضمنه من العلامات وما تدل عليه الاعراض وايام البحران وغيرها ، مثال الاستدلال من البحران قوله « لا يمكن ان تعالج علاج صواب حتى تعرف تركيب الابدان وذلك يعرف من التشريح ومن البحران وايامه ، » (١٢٥) الذى يريده الرازى من البحران يدل عليه قوله « الذى يريده الاطباء بالبحران هو تغير سريع يحدث للمريض عن حاله اما الى ما هو أجود أو الى ما هو أردا » (١٢٦) .

اتخذ الرازى من ذكر هذه الحالات وسيلة لتعليم تلاميذه فى الرى وان كان من الملاحظ اختيار حالاته دون ترتيب او نظام معين ، نلاحظ انها تعالج امراضا مختلفة الطبائع بعضها باطنى والبعض الآخر خاص بطب العيون .

من الملاحظ كذلك فى هذه الحالات اهتمام الرازى بتأريخ المرض فيذكر علامات التهيؤ وعلامات ابتداء المرض والتزيد والمنتهى والانحطاط ، وهى مراتب العلل عنده « ابتداء وتزيد ومنتهى

---

(١٢٠) الرازى : الحاوى ج ٦ ص ٤٢ ـ ضربة اى مرة واحدة يقال ارتفعت الحمى ضربة ـ طب الرازى لمحمد كامل حسين ص ١٦٧ .

(١٢١) نفس المصدر ـ نفس الصحيفة .

(١٢٢) الرازى محنة الطبيب ص ٤٩٥ .

(١٢٣) الرازى المرشد فصل ١٦٤ ص ١١٩ .

(١٢٤) Meyerhof (Max) Thirty three clinical observations

والواقع أن عدد الحالات هو ٣٤ وليس ٣٣ كما ذكر مايرهوف .

(١٢٥) الرازى محنة الطبيب ص ٥٠٥ .

(١٢٦) الرازى المرشد فصل ٢٢٥ ص ٧٢ وكذلك فصل ٢٣٣ عن ايام البحران .

وانحطاط» (١٢٧) ، لا يخرج ذلك عما نراه مطبقافى الوقت الراهن من تتبع حالات سير المرض وتاريخ الاصابة به وتسجيل ذلك كله فى لوحاتخاصة بالوقوف على ما يطرأ على حالة المريض من تحسن أو تدهور .

كان الرازى يذكر كذلك ما اذا كانت العلةحادة او مزمنة مسجلا اوقات حدوث النكسات والنوائب كأن يصف النفثوحالة التنفس والبرازوالقيىء وغير ذلك من الامور التى احتفظت بأهميتها حتى فى الطب الحديث .

لم يكن الرازى ليغفل قوة المريض لأجل رفع مقاومة الجسم للمرضوذلكبجانباهتمامه بعلاج المرض الاصلى . فقد كان العلاج دونالحفاظ على قوة المريض عديم الفائدة ، ومنأمثله اهتمام الرازى بقوة العليل قوله ، « القوةللعليلكالزاد للمسافر والمرض كالطريق ولذلك ينبغى ان يعنى الطبيب كل العناية الا تسقط القوة قبل المنتهى» (١٢٨)

ويقول الرازى في حكاية الوضاحى الذىنالته شوصة وهى مذكورة فى كتابه (الحاوى) « لم التفت انا الى الحمى لانى علمت لما هى فصرفت عنايتىكلها الىتقويةالقوة لانىعلمتبأنهيحتاج الى قوة قوية » (١٢٨)،نلاحظ كذلك ان الرازىكان يصف مزاج المريض ومهنته وعمره وجنسه وكثيرا ما نرى اسم المريض قرين المرض الذىاصابه .

فعن مزاج المريض يقول الرازى فى الحالةالثالثة وهى حالة ابن عمراوية (كان هذا رجلا مستعدا للسرسام جدا وكان قد اصابه قبلقدومى سرسام »(١٣٠) .

وعن المهنة يقول الرازى في الحالة السابعةان مريضه كان يعمل بحياكة الملابس وفى الحالة الرابعة عشرة صائغا ، وفى الحالة السادسة عشرةبوابا،وفى الحالة الثامنة عشرة بزازا ، وفى الحالة التاسعة عشرة وراقا . ومن امثلة ذكر عمرالمريض قول الرازى « رايت خراجا فى الرئة جمع ونفث دما صار مدة وبرىء وذلك فىصبىابن خمس سنين »(١٣١) .

لم يقف الامر بالرازى عند هذا الحد ،كان يكتب عن الامراض التي تصيبه هو شخصيا كما جاء في قوليه :

أولهما « جربت في نفسي ورايت ان اجود ما يكون ان ساعة ما يحس الانسان بنزول اللهاة والخوانيق ان يتغرغر بخل حامض قابض مرات كثيرة» (١٣٢) .

---

(١٢٧) الرازى : رسالة الى احد تلامذته ورق ١٧٠ وجه .

(١٢٨) الرازى : المرشد فصل ٢٦٩ ص ٩١ .

(١٢٩) الرازى : الحاوى جـ ٤ ص ١٧٨ .

(١٣٠) الحالة الثالثة Meyerhof (Max) Thirty three clinicall observations. P. 339.

(١٣١) الرازى : الحاوى جـ ٤ ص ١١٥ .

(١٣٢) الرازى : الحاوى جـ ٧ ص ٢٧٩ .

الظاهر انه يشير بذلك الى حالة التهابالزور واللوزتين واعتبار الفرغرة بالخل علاجا وذلك لكون الخل من الحوامض التى تقبض .

ثانيهما : « كان بى وجع فى الطحال فدمتعلى اخذ الاطريفل لشىء آخر فأذهب الوجع البته »(١٣٣) .

اذا كنا في الطب الحديث ندرك أهميةالتجارب الذاتية أو الشخصية ولدينا الامثلة على ذلك فان الرازى قد سبق الى هذا الفهممنذ زمن بعيد ولدينا من اقوال الرازى ما يلفت النظر الى اهتمامه بالاستدلال من أحوال المريضعامة على ما يشكوه من مرض .

يقول الرازى « استخرج سبب الوجعمن التدبير والسن والزمان والمزاج» . (١٣٤) ، أو بعبارة اخرى » انظر الى التدبير وحال البدنوالنوم واليقظة »(١٣٥) .

هل يفعل الطب الحديث أكثر من ذلكاى من الاحاطة بأحوال المريض فى معيشته ونومه ويقظته ؟ ، يضيف الرازى الى ذلك ضرورةالانصات الى المريضوهويعرف شكواهوالاستفسار منه عن بيئته وحياته واحوال معيشته ثم ملازمتهملاحظة ما يطرأ على أحواله من تغير اذا تيسر ذلك قام الطبيب بفحص بوله وجس نبضه .

يقول الرازى « من أبلغ الاشياء فيمايحتاجاليه فى علاج الامراض بعد المعرفة الكاملة للصناعة حسن مسائلة العليل وابلغ من ذلك لزوم الطبيبالعليل وملاحظة احواله ... » (١٣٦) لم تكن ملازمة المرضى فى الحقيقة الا جزءا من أحكامصناعة الطب ولزوم الطبيب للعليل كان امرا واجبا لان من المرضى من لا يحسن ان يعبرعما به .

يعطى الرازى مثالا لذلك بصديق له كانيسهل اسهالا مزمنا طويلا واشار عليه بدواء الخردل فانقطع عنه داؤه يقول الرازى ، لولاطول الالتقاء والمجالسة لم يمكن ان يلحق من أمره هذا شيء البتة »(١٣٧) وهذا مبدأ طبىصحيح فى حد ذاته .

ان الرازى فاق فى تدوين ملاحظاتهالسريرية جميعمن تقدمهمن الاطباء . هذه المعلومات السريرية هامة لكونها تتعلق بدراسة سيرالمرض ووصف العلاج الذى استعمل لكل حالة من الحالات وكذلك تطور حال المريض ومااسفرعنه العلاج .

---

(١٣٣) الرازى : الحاوى ج ٦ ص ٢٨٤ — الاطريفل : دواء مركب فيه لا محالة بعض الاهليلجات آوكلها ويزاد فيه بحسب الحاجة من الافاوية وهو بالهندية ثلاثة اخلاط : اهليلج اصفر ، وبليلج ، وأملج — لفظة اطريفل تدل على المعجون .

(١٣٤) الرازى : الحاوي ج ٣ ص ٢٧٩ .

(١٣٥) الرازى : الحاوى ج ٣ ص ١٩ .

(١٣٦) الرازى : المرشد فصل ٣٦٨ ص ١٢١ .

(١٣٧) نفس المصدر — نفس الصفحة .

الرازى والتشخيص المقارن : (١٣٨)

تعتبر كتابات الرازى فى التفريق بين الامراض المتشابهة الاعراض اسهاما اصيلا فى تقسيم وترتيب خلاصة تجاربه الشخصية على اعـدادغير قليلة من المرضى الذين كان الرازى يعالجهم دون نظر الى وضعهم الاجتماعى فمنهم النبـلاءوالفقراء وأصحاب المهن .

كان الرازى يتناول أمراضا متشابهة يقارنبين علامات كل منها أو علامة من العلامات المرضية ثم يبحث فيأسبابها المختلفة وكيفية التفريق بينهاجميعا .

مثال **النوع الاول** : هو التفرقة بينالقولنجووجع الكلي ، او بين ذات الجنب وذات الرئة ، أو بين بول الدم والمدة ــ ففى الحاوى للرازىاذا كان الوجع فى الجانب الايسر نظنانه فى الكلى واذا كان يتأدى الى سـطح الجسم حتى يحسالعليل بألم عند غمز المراق فقولنج » ...ويفصل القولنج من وجع الكلى امور كثيرة جاء الرازىعلى ذكرها فى الجزءالثامنمن كتابه الحاوى(١٣٩) اما تفرقته بين ذات الجنب وذات الرئة فقـدوردت فى الجزء الرابع عن الاخيرة يقول الرازى « وذلك بشدة ضيق النفس جدا حتىكأنهيختنقولا يقدر ان يتنفس ، أما ذات الجنب فانه يقدر أن يتنفس نفسا عظيما ولو أن نفســه مختلفبحسب المادة ,والوجع فى صدره »(١٤٠)

مثال **النوع الثانى** : ما يكتبه الـرازى فىاسـباب احتباس البول فقد يكون من حصـاة فى الكلي أو ورم فى الكبد وذلك في قوله « أما الذىيكون من الكلى فيكون محتسبا البتة وفيها المرض وذلك اما لورم أو حجر أو علقة دم أو مدة(١٤١).

وعن الورم في الكبد يقول الرازى « لى ــتفقد فى علل الكبد حال البول فمتى رأيته قـد احتبساصلافاعلم أنالورمبالكبد عظيمجدا»(١٤٢)

هذا الوضوح فى تحديد العلامات,والالتهاباتفى التشخيص المقارن لا نجده فى التفرقة بـين أنواع الحميات وهى كثيرة لن نعرض لها ، انالمهم هو حسن ادراك الرازى للدلالات فهو يرجع فى تقدير ما يؤوله اليه حال المريض الى الدلائل.يقول الرازى « أما جودة الدلائل فلا نثق بها الا فى النظر فى المنتهى ، وأما الردية فلا نحكم فيها حكم ثقة الا مع اسقاط القوة واجعل هذا أصـلا وعمادا » (١٤٣) .

---

(١٣٨) يوصى الرازى فى كتابه « محنة الطبيب » بضرورةالامتحان فى علامات الامراض المتشابهة التى كثيرا ما يختلط على الطبيب تشخصيها ، وهذا يتم فى الطب الحديث النصص ٥٠ من محنة الطبيب .

(١٣٩) الرازى : الحاوى ج ٨ ص ١٥٢ وفى ص ١٧٩ ــتعريف القولنج بانه احتباس منالطبيعة مع وجع شديد وعرق وقيىء او غشى .

(١٤٠) الرازى : الحاوى ج ٤ ص ٩٣ ويذكر الخوارزمىفى مفاتيح العلوم ص ٩٧ أن ذات الرئة قرحة فى الرئة يضيق منها النفس .

(١٤١) الحاوى ج ٦ ص ٨٢ .

(١٤٢) نفس المصدر ص ٨٣ .

(١٤٣) محمد كامل حسين : طب الرازى ص ١٤٦ .

اذ عنده اسقاط القوة من اعظم الدلائل الردية فالرازى لا ينخدع بما يبدو من الدلائل الحسنة وينظر فى النتيجة لانه قد تكون الدلالات الجيدة غير صحيحة التعبير عن حياة المريض ، والمرض منه ظاهر وكامن وبذلك يرى أن الحادث المحمود دلالته « خفه علته وسكون الوجع والاعراض وضعفها وحسن النفس »(١٤٤) ويرى كذلك انه بقدر تقدم علامات النضج يكون قصر مدة المرض وبقدر قوتها سلامة المريض . ينصح الرازى بجمع العلامات وترتيبها بمراتب قواها سواء أكانت جيدة أم ردية اذ العلامات تختلف فى دلالاتها على قدر وقت حدوثها من تاريخ المرض فان ظهرت دلائل الهلاك منذ أول الامر كانت نذير سوء ، أما ظهور العلامات الجيدة في أول أيام المرض فليس دليلا على البرء .

يرى الرازى أن للعلل من جهة البئر شروط ثلاث هى : ١ ــ علة واجب البرء . ٢ ــ علة جائز البرء . ٣ ــ علة مستحيل البرء (١٤٥) .

يعنى ذلك ان بعضا من الامراض لا علاج لها . ويعطى مثالا لذلك السرطان والجزام والبرص فقد يكون الالم فى احتمال مؤونة علاجها يزيد أو يربو على المها نفسه . ويمكن أن نستشف من هذا القول الاخير ان الرازى لا يقطع باستحالة علاجها مستقبلا اذ المرض ذاته قد يكون له علاج ، ولكنه اقتصر فى ابداء الراى ــ من حيث جعلها من العلل المستحيلة البرء ــ على احتمال المريض لمشقة العلاج . اما العلل الجائزة البرء فهى التى تعالج كما يجب وكيفما يجب وبما يجب . أما واجب البرء فهى العلل البسيطة .

منهج الرازى فى التشخيص والعلاج :

يقول الرازى « يحتاج فى استدلال علل الاعضاء الباطنية الى العلم بجواهرها أولا بأن تكون شوهدت بالتشريح ، والى العلم بمواضعها من البدن والى العلم بأفعالها ، والى العلم بأعظامها والى العلم بما تحتوى عليه ، والى العلم بفضولها التى تدفع عنها لأن من لم يعرف ذلك لم يكن علاجه على صواب » (١٤٦) .

يقول الرازى مثالا لكل واحدة :

ففى الجواهر الظاهرة قوله « انه متى خرج بالنفث شيء من جوهر الرئة لم يعرف ذلك الا من قد شاهد ذلك الجوهر فى الرئة مرات » .

وفي المواضع قوله « ان من علم موضع الكبد لم يظن اذا رى وجعا فى الجانب الايسر من البطن انه فى الكبد » وفى الافعال قوله « ان من علم ان الحس والحركة تكون بالعصب والنخاع لم يقصد عند بطلانها علاج أعضاء أخرى » .

---

(١٤٤) الرازى : الحاوى ج ٤ ص ١٢٣ .

(١٤٥) الرازى : رسالة الى احد تلامذته ورق ١٦٨ وجه .

(١٤٦) الرازى : المرشد فصل ١٩١ ص ٦٦ .

وفى الاشكال قوله «ان الورم الهلالى الذى فى الجانب الايمن ما دون الشراسيف يدل على الورم فى الكبد اذ شكل الكبد كذلك . وفىالعظام قوله «ان الحصاة التى تعظم عن مقدار بطون الكلى لا يمكن أن يكون تولدها فى الكلى » وفى المحتوى قوله « ان الدم الرقيق الاحمر خاص بالشريان والزبدى خاص بجرم الرئة » وفى الفضول ودفعها قوله « ان اليرقان الاصفر ينذر بالعلة فى الكبد والمرارة ، والاسود يدل على أن العلةفى الطحال» (١٤٧) ففى هذه الامور واشباهها ينبغى ان يتدرب من يريد استخراج عللالاعضاء الباطنة لكى يمكنه اكتساب الدلائل ويصيب المقدمات الدالة على العضو الوجع وماهية وجعهلان من لم يعرف ذلك لم يكن علاجه على صواب ومن أرتكب علاجا على غير هذا الطريق كانمخطئا .

بدأ الرازى بالتشريح وثنى بالفسيولوجياواشار الى المورفولوجيا وهى دراسة الاعضاء والافراد من حيث شكلها الخارجي ولم يهملالرازى علم الباثولوجيا أى علم طبائع الامراض فى قوله « بفضولها التي تدفع عنها » .

جعل الرازى العلاج نتيجة لهذهالمقدمات.بل كثيرا ما اشار الرازى الىاهميةالفحصالدقيق للقلب والنبض والتنفس والبراز عند مراقبةتطور مرض بعينه . وهذه الامور لم تزل تحتفظ بأهميتها فى الطب الحديث .

ايضا تنبه الرازى الى اثر العامل النفسانيفي صحه المريض وفى احداث المرض يرى الرازى أن سوء الهضم قد يكون لاسباب نفسانية ،يقول « قد يكون لسوء الهضم اسباب بخلاف رداءة الكبد والطحالمنها حال الهواء والاستحمامونقصان الشرب وكثرة اخراج الدم والجماع والهموم النفسانية » (١٤٨) .

فما يجرى فى نفس الانسان من خواطروما تعانيه من آلام يمكن ان يستشف من خلال الملامح الظاهرة كما فى حالة سوء الهضم التى ذكرناها ، ان للنفس الشأن الاول فيما بينهما وبين البدن من صلة ولذلك وجب على طبيبالجسم أن يكون أولا طبيبا للنفس « مزاج الجسم تابع لاخلاق النفس » (١٤٩) يمكن أن نجعل ما اسلفناه عن الرازى فى عبارات قليلة تضمن اهتمام الرازى بالمشاهدات والدلالات والفروقبين الامراض وتفوقهيقوم على الملاحظة والتجربة. ففى ملاحظاته الاكلينيكية دقة ملاحظة وقوة مقارنة وصدق حكم وقدرة على تمييز الدلائل وتقويمها . وان خير مافي تأليف الرازى ملاحظاتهالاكلينيكية وحسن ادراكه للدلالات .

لقد اتبع الرازى فى بحوثه الطبية منهجاسلمه الى نتائج صحيحة غالبا ومع ذلك كان المنهج مضمرا فى ثنايا بحثه وقد شغلته نتائجعمله عن الاهتمام بتقنينه .

• • •

---

(١٤٧) الاقوال التالية من المرشد .

(١٤٨) الرازى : الحاوى جـ ٣ ص ٦١ .

(١٤٩) ابن ابى اصيبعه : طبقات الاطباء جـ ١ ص ٣١٤ .

ثانيا : ابن سينا :

أول ما يسترعى النظر عند ابن سينا فى كتابه « القانون » انه متأثر فى تبويب كتابه وعرض ما اشتمل عليه من حقائق الطب ـ بدراسته الفلسفية والمنطقية (١٥٠) ـ راعى فى تقسيمه انه يحقق الدقة فى حصر مسائل الطب ، واهتم ابن سينا فى مقدمة كتابه برسم دستوره الطبى فى تأليف كتابه .

يتلخص هذا الدستور فى الكلام عن الامور الكلية (١٥١) ثم الامور الجزئية وليس من شك ان المقارنة بين كلياته وطابعها الفلسفى وجزئياته وطابعها العلمى تثير فى الواقع صراعا خفيا بين الفلسفة والعلم عامة وبينها وبين الطب خاصة.

لعل ابن سينا شعر بهذا الصراع فوضع للطبيب حدودا يجب الا يتعداها الى ما هو من عمل الفلاسفة ، واضح من دستوره الطبى انه كان يضع الفلسفة قبل العلم ، دليلنا فى ذلك نصان من القانون يقول فى موضع منه « أعلم ان الخالق جل جلاله اعطى كل حيوان وكل عضو من المزاج ما هو أليق به وأصلح لأفعاله وأحواله بحسب احتمال الامكان له وتحقيق ذلك الى الفيلسوف دون الطبيب »(١٥٢) .

وفى موضع آخر « والطبيب ليس عليه ان يتتبع المخرج الى الحق من هذين الاختلافين بالبرهان فليس اليه سبيل من جهة ما هو طبيب ولا يضره فى شىء من مباحثه واعماله »(١٥٣)

كل ذلك يدل على أن ابن سينا كان يشعر ان الطبيب يجب ان لا يحمل نفسه عبء البرهان الفلسفى على ما يقوم به من مشاهدة وعلاج ، ذلك ان الفلسفة تقوم على أسس ثابتة لا يرقى اليها الشك وان البرهان فى امورها لا يتعلق بالجزئيات ولا بالواقع ، وعلى ذلك لا يكون للطبيب أن يجادل فى هذه الاسس مهما تكن مخالفة لمشاهداته وعلمه ، وتفسير ذلك ان المشاهدات العلمية فى ذلك الوقت كانت أقل خطرا من ان تقف امام الحقائق الفلسفية واضعف شأنا من أن تقوم بدونها ، ولا ينفى ذلك أن ابن سينا الطبيب افاد من ابن سينا الفيلسوف فما أفاده الطب من تعمق ابن سينا فى الفلسفة واضح فى كتاب القانون فى التبويب والتقسيم والتنظيم فقد يحدث أن يذكر ابن سينا بابا او فصلا لا لاهميته الطبية ولكن لحاجته اليه فى التقسيم المنطقى ، فقد كانت الحاجة المنطقية تغلب الحاجة الطبية »(١٥٤) .

---

(١٥٠) يرى الدكتور محمد كامل حسين فى مقالة عن الفلسفة والعلم فى كتاب القانون ص ١٢٠ من كتابه « متنوعات » ان دراسة القانون من الناحية الفلسفية امتع عند الباحث الحديث من دراسته من الناحية الطبية .

(١٥١) الكليات فى الطب هى الاركان والمزاجات والاخلاط والقوى والارواح والاسباب ـ القانون لابن سينا ج ١ ص ٥

(١٥٢) يرى ابن سينا ان الطبيب لا يمنع موتا ولا يطيل أجلا ، انما غايته ان يبلغ كل شخص بحسب مزاجه وقوته منتهى الاجل ، وان يحفظ صحة كل سن على ما يليق به ـ القانون لابن سينا ج ١ ص ١٥٠ .

(١٥٣) ابن سينا : القانون ج ١ ص ٢١ .

(١٥٤) المثال على ذلك قول ابن سينا عن أصول الصحة والمرض ج ١ ص ٤ « لا مناقشة مع الاطباء فى هذا وما هم ممن يناقشون فى مثله ولا تؤدى المناقشة بهم او بمن يناقشهم الى فائدة فى الطب اما معرفة الحق فى ذلك فمما يليق بصناعة اخرى اعنى صناعة اصول المنطق » .

يحدد ابن سينا منهجه في كتابه القانون قائلا « رأيت ان أتكلم أولا فى الامور العامةالكلية فى كلا قسمى الطب اعنى القسم النظرى والعملى،ثم بعد ذلك اتكلم فى كليات أحكام قوى الادوية المفردة ، ثم في جزئياتها ، ثم بعد ذلك فىالامراض الواقعة بعضو عضو » (١٥٥) يبدأ ابن سينا بدراسة الكليات ثم الجزئيات ويتناول الامراض الواقعة فى اعضاء الجسم من الرأس الى القدم ، يمضى ابن سينا في عرض منهجه ، يبدأ أولابالحديث عن تشريح العضو ثم يعقب ذلك ببيان كيفية المحافظة على صحته ، ثم ينتقل الى الكلامعن كلياتامراض العضوواسبابها وطرقالاستدلال عليها واسباب معالجتها، يقول ابن سينا «ابتدىءأولا بتشريح ذلك العضو ومنفعته ثم اذا فرغت من ذلك ابتدات فى اكثر المواضع بالدلالة علىكيفية حفظ صحته ، ثم دللت بالقول المطلق على كليات امراضه واسبابها وطرق الاستدلالعليها وطرق معالجاتها بالقول الكلي »(١٥٦) .

تأتى الجزئيات العلمية فى المرحلة التاليةللفراغ من الكليات ، نجد ذلك فى قول ابن سينا « فاذا فرغت من هذه الامور اقبلت علىالامراض الجزئية ودللت أولا فى أكثرها أيضا على الحكم الكلى في حده واسبابه ودلائله ، ثم خلصت الىالاحكام الجزئية ثم اعطيت القانون الكلى للمعالجة ثم نزلت الى المعالجات الجزئية»(١٥٧) .

الكتاب كله على هذا النحو من المد والجزر بين الكليات والجزئيات مما يعكس فلسفة العلم انذاك . لقد كانت غاية العلم النفاذ الى ماهيات الاشياء كى يفسرها وماهية الشيء أيا كان كلية دائما ومن هنا جاءت أولوية الكليات على الجزئيات » .

لنقارن الآن بين تبويب القانون وتبويبالكتب الطبية الحديثة ، نجد القانون يبدا بالتشريح anatomy وهذا ما تفعله الكتبالطبية الحديثة ، ويثنى بعلم وظائف الاعضاء physiology ويعقب ذلك بما نسميهالباثولوجيا Pathology اعنى علم طبائع الامراض واخيرا علم العلاج therapy

لنبحث الآن فى مسائل منهجية من واقعماحواه القانون .

أول ما نلاحظه هو استخدام ابن سينا لمصطلح الاعراض Synptoms وهذا دليل على ان ابن سينا كان يجرى فىتشخيصهللامراض على جمع الاعراض التى يشكوها المريض وهى اما « مؤقتة تبتدىء وتنقطع مع المرضكالحمى الحادة والوجع الناخس فى ذات الجنب. واما ان تأتى آخر الامر ومن ذلك علامات البحرانوعلامات النضج ، ومن الاعراض ما ليس له وقت معلوم فيتبع المرض تارة وتارة لا يتبع كالصداعللحمى (١٥٨) .

---

(١٥٥) ابن سينا : القانون ص ٣ من المقدمة طبعة رومانسة ١٥٩٣ م .

(١٥٦) ابن سينا : مقدمة القانون ص ٤٣ .

(١٥٧) ابن سينا : مقدمة القانون ص ٤ .

(١٥٨) ابن سينا : القانون جـ ١ ص ١١٢ .

اذا كانت الاعــراض ما يلاحظــه المــريض والعلامات ما يراه الطبيب بنفسه فان لكليهما دلالات ثلاثا يفيد منها المريض والطبيب ، فالدلالةاما على امر حاضر وينتفع به المريض وحده فيما ينبغى ان يفعل من واجب تدبير نفسه ، وامــا على امر ماضٍ يفيد منه الطبيب وحده اذ قد يســتدل بذلك على تقدمه فى صناعتة فتــزدادالثقة بمشورته ، واما على امر مستقبل ينتفعان به جميعا ، الطبيب يستدل منه على تقدمه فى المعرفة والمريض يقف منه على واجب تدبيره .

لابن سينا فى العلامات اقوال ، اذ منهــامايدل على ظاهر الاحوال ومنهـــا مايــدل على الاحوال الباطنة « فالدال على الظاهر مثل اللون واللمس والطعوم والارابيج والدال على الاحوال الباطنة كالبول والبراز » (١٥٩) يشــترط ابن سينا فى المستدل على الامراض الباطنة من الاحوال السابقة ان يكون قد سبق له العلــم بالتشريح الذى تقدم علم وظائف الاعضاء ومنافعها . ومن واجب الطبيب ان يسائل المريض عن عــلامــات الامراض التى يمكن ان تكون فى الامراض المشاركة فى العضو العليل او تكون غير محسوسة ولا مؤلمة المــا ظاهرا »(١٦٠) فقد يهتدى الطبيب من ذلك الى معرفة العلة . ذلك ان اسباب الصحة والمــرض قد تكون ظاهرة وقد تكون خفية لا تنــال بالجس بل بالاســتدلال من العوارض فيجب ان تعرف فى الطب العوارض التى تعرض فى الصحة والمرض » (١٦١)

السؤل الآن ما المراد بالعرض والطلب ؟

ان الكلام عن العرض عند ابن سينا يرتبط بالكلام عن السبب والمرض كذلك « السبب ما يكون اولا فيجب عنه وجود حالة من حالات بدن الانسان او ثباتها » (١٦٢) فأسباب واحوال بدن الانسان عند ابن سينا هى الصحة والمرض والحال المتوسطة بينهما ثلاثة السابقة والبادية والواصلة .، « المرض هيئة غير طبيعية فى بدن الانسان يجب عنها بالذات آفة فى الفعل وجوبا اوليا » (١٦٣) العرض يتبع المرض وهو «الشىء الذى يتبع هذه الهيئة وهو غير طبيعى (١٦٤)

يسمى العرض عرضا باعتبار ذاته او بقياسه الى المعروض له ويسمى دليلا باعتبار مطالعة الطبيب اياه وسلوكه منه الى معرفــة ماهية المرض، ولذلك كانت الوظيفة التى يؤديها العرض فى الطب هى عين وظيفته فى المنطق .

فاذا ادركنا ان العرض فى الطب دليــل الطبيب الى ماهية المرض لم يكن ثمة خلاف فى الدور الذى يؤديه العرض فى الطب او المنطق.

---

(١٥٩) ابن سينا : القانون جـ ١ ص ١١٣ ومن امثله الدلالةعلى الامراض الباطنة دلالة حمرة الوجنة على ذات الرئة .

(١٦٠) ابن سينا : القانون جـ ١ ص ١١٥ .

(١٦١) ابن سينا : القانون جـ ١ ص ٤

(١٦٢) ابن سينا : القانون جـ ١ ص ٧٣

(١٦٣) ابن سينا : القانون جـ ١ ص ٧٣

(١٦٤) نفس المصدر ــ نفس الصفحة .

يقدم ابن سينا أمثلة للسبب والمرض والعرض « مثال السبب العفونة ومثال المرض الحمى ومثال العرض العطش والصداع »(١٦٥)ومع ذلك قد يتحول واحد من هذه الثلاثه الى الآخر ، وقد يصير المرض سببا لمرض آخر كالقولنج او الصرع وقد يصير العرض سببا للمرض كالوجع الشديد يصير سببا للورم لانصباب المواد الى موضع الوجع ، وقد يصير العرض بنفسه مرضا كالصداع العارض عن الحمى فانه ربما استقر واستحكم حتى صار مرضا وقد يختلف الترتيب فيصير الشيء « بالقياس الى نفسه والى شيء قبله او بعده مرضا وعرضا وسببا » (١٦٦)

المثال على ذلك الحمى السلية عرض لقرحة الرئة ومرض فى نفسها وسبب لضعف المعدة وكالصداع الحادث عن الحمى اذا استحكم كان عرضا للحمى ومرضا فى نفسه وربما جلب السرسام فصار بذلك سببا ، ففى الحالة الثانية هو عرض باعتباره ذات ، وفى الحالة الاولى عرض بالقياس الى الحمى .

• • •

ابن سينا والتشخيص المقارن : ــ

يبدأ ابن سينا بتعريف المرض والتفرقة بينه وبين غيره عند وجود تشابه بينهما فمثلا يتكلم عن الفرق بين السدر والدوار يقول « السدر ظلمة تعترى البصر عند القيام والدوار ان يتخيل صاحبه كان الاشياء تدور ، والسدر مقدمته وينذران اذا داما بسكتة او صرع » (١٦٧) وكذلك فى الفرق بين ذات الجنب وذات الرئة يصف المرض واعراضه ذاكرا ان ذات الرئة قد ينتقل الى قرحة فى الرئة وهى السل، وكذلك فى أمراض الكلى والمثانة يذكر علامات الحرارة والبرودة لكل منهما وفى الفرق بين حصات الكلى والقولنج يقول ابن سينا « الفرق بين حصات الكلى والقولنج ان وجع حصات الكلى صغير يبتدىء من أعلى وينزل الى حيث يستقر من أى جانب كان، والقولنجى يبتدىء من الاسفل ومن اليمين ثم ينبسط ، والقولنجى يخف على الخوى والحصوى يشتد عليه .. (١٦٨) وبعدان يفرق ابن سينا بين حصاة الكلى والمثانة قال « والحصاة مما يورث »(١٦٩) قاصدا أن حصاة الكلى او المثانة مما يورث .

مادمنا بصدد الكلام عن التشخيص المقارن عند ابن سينا كان حسنا ان نعرج على رايه فى مجال الحميات ، نجد ان التحديد بين انواع الحميات المختلفة كان على اساس النظر فى الزمان

---

(١٦٥) ابن سينا : القانون جـ ١ ص ٧٢

(١٦٦) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(١٦٧) ابن سينا : القانون جـ ٢ ص ٧٣ و ٧٦ .

(١٦٨) ابن سينا : القانون جـ ٢ ص ٤٨٨ .

(١٦٩) ابن سينا : القانون جـ ٢ ص ٥٠٧ .

والسن والمزاج والنبض والبول والعطش والقيىء والبراز ولا غرابة فى ذلك ، لم يكن لهؤلاء القدماء ان يفرقوا بين الحميات المتشابهه على اساس مانعمله اليوم من تحاليل . لم يكن متوفرا لهم ما توفر لنا .

ما يهمنا فى هذه الامور التى اقاموا عليها استدلالاتهم هو كيفية الاستدلال بالبول والبراز والنبض وهى امور تحتفظ بأهميتها فى الطب الحديث .

القول في البول :ـ

يعرض ابن سينا فى الكتاب الاول من قانونه الشروط التى يتعين توافرها في فحص البول ، ومن أمثلة ذلك انه يوصى بأن يكون «اول بول اصبح عليه ولم يدافع به الى زمان طويل ، ولم يكن صاحبه قد شرب ماء او اكل طعاما او تناول صابغا من مأكول أو مشروب فان ذلك يحيل لون البول الى الصفرة أو الحمرة » (١٧٠)

ولما كان لون البول يتغير كذلك بالصوم والسهر والتعب فقد اوصى ابن سينا ان يؤخذ البول فى قارورة واسعة الفم ويركد بعيدا عن تأثير الشمس او الريح ثم تميز الرسوب . (١٧١)

وللاستدلال بالبول اجناس سبعة هى اللون ، القوام ، الصفاء الكدورة ، والرائحة ، الزبد ، والرسوب ، ومقدار البول .

لابن سينا كلام يطول في كل واحدة من أجناس الاستدلالات السبعة ولان هذه الاجناس السبعة ما زالت تحتفظ بأهميتها الى وقتنا الحاضر عرضنا لها وان يكن ذلك باختصار شديد .

القول فى البراز :ـ

يقول ابن سينا فى الاستدلال بالبراز اقوالا مشابهة لاقواله فى البول ، فهو يرى ان البراز يدل بلونه ومقداره وقوامه وكذلك رقته ورائحته والمراد باللون والقوام فى الحالين هو الغلظ والرقة .

القول في النبض :ـ

أما الاستدلال من النبض (١٧٢) فأجناس أدلته عشرة (١٧٣) وهى المقدار واقسامه تسعة ، ثم كيفية قرع الحركة من حيث القوة والضعف والتوسط بينهما وزمان الحركة وهو اما سريع أو بطىء أو متوسط ، وقوام الآلة وهو اما صلب او لين او متوسط ، وزمان السكون وهو متواتر

---

(١٧٠) ابن سينا : القانون جـ ١ ص ١٣٥ .

(١٧١) نفس المصدر نفس الصفحة .

(١٧٢) ابن سينا : القانون جـ ١ ص ١٢٣ يذكر ان النبض حركة من اوعية الروح مؤلفة من انبساط وانقباض .

(١٧٣) ابن النفيس : موجز القانون .

او متفاوت أو متوسط ، وملمس الآلة اما حار او بارد أو متوسط ، ومقدار ما فيه من الرطوبة من حيث الامتلاء او الخلو او التوسط بينهما والاستواء فى أحواله واختلافه فيها ، والانتظام وعدمه واخيرا الوزن وهو اما جيد او بخلاف ذلك ، اذ لكل سن وزن معين في النبض ، لم يكن جس النبض امرا يسيرا لانه يقتضى التدرب على مجسة العروق حتى يعرف عن طريقها التغير اليسير الحادث فى النبض ، لقد كان النظر الى النبض على انه رسول لا يكذب اذ يكشف عن أشياء خفية . ولذلك أمكن التعرف على حركة القلب من حركة الشريان .

ذكرنا الاستدلالات الثلاثة من البول والبراز والنبض لان تشخيص المرض كان يجرى على نظام قريب من نظامنا الراهن باستخدام أدق الوسائل المتاحة فى تلك العصور ، فكان الطبيب ينصت الى مريضه وهو يعرف شكواه فيستفسر منه عن بيئته وحياته واحوال معيشته ومدى سلامته ويتعرف الى اسرته واحتمال اصابتها بالمرض . فاذا تيسر ذلك قام بفحص بوله وبرازه وجس نبضه للوقوف على علته .

● ● ●

ابن سينا والعلاج :

لابن سينا كلام دقيق في المعالجات اذا اجتمع المرض والعرض أو المرض والسبب ، مثال ذلك قوله « اذا اجتمعت السدة والحمى عالجنا السدة أولا ولا نبالى بالحمى ، لأن الحمى يستحيل أن تزول وسببها باق » (١٧٤) ولكن اذا اجتمع مرض وعرض فابدأ بالمرض لان العرض يتبع المرض ولا يتقدمه فاذا ماغلب العرض قصدناه بالعلاج ابتداء ولا نلتفت الى المرض وذلك بقصد تسكين الوجع . المثال على ذلك أن « نسقى المخدرات فى القولنج الشديد الوجع وان كان يضر نفس القولنج » (١٧٥) أو موجب وقع كالضربة والسقطة فابدأ بتسكين الوجع . (١٧٦)

ما قاله ابن سينا كلام حسن يحسن أن يتدبره الاطباء حتى في عصرنا الحاضر ، يمضى ابن سينا فى حديثه عن المعالجات فيقول « اذا اشكلت العلة فخل بينها وبين الطبيعة ولا تستعجل (١٧٧) .

لان ثمة احتمالان اما أن تقهر الطبيعة العلة أو تظهر العلة ، ومن الامور التى تحتاج فى علاجها الى نظر دقيق ان « يجتمع في مرض استحقاقان متضادان » (١٧٨) كأن يستحق المرض تبريدا وسببه تسخينا ، التبريد فى حالة الحمى والتسخين في حالة السدد الذى يكون سببا

(١٧٤) ابن سينا : القانون جـ ١ ص ١٦٠ .

(١٧٥) ابن سينا : القانون جـ ١ ص ١٩٠ .

(١٧٦) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(١٧٧) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(١٧٨) ابن سينا : القانون جـ ١ ص ١٩٠ .

للحمى ، أو قد يستحق المرض تسخينا وعرضهتبريدا كما فى حالة مرض القولنج الذى تستحق شدة وجعه تبريدا ،وتخديرا وهو عينه يستحقتسخينا ، من ذلك نرى ان المرض كان يعالج الضد ، والصحة تحفظ بالمشاكل ، وابن سينايجمل قوانين المعالجة فى عبارته القائلة « اذا أمكن التدبير بأسهل الوجوه فلا يعدل علىأصعبها ويتدرج من الاضعف الى الاقوى ولا يقم فى المعالجة على دواء ،واحد فتألفه الطبيعة ويقلانفعالها عنه ولا يدم على الفلط ولا يهرب عن الصواب وحيث أمكن التدبير بالاغذية فلا يعدلالى الادوية » . (١٧٩)

يطالب ابن سينا بعدم الوقوف على دواءواحد كعلاج واحد وذلك راجع الى أن لكل بدن ولكل عضو خاصيته فى الانفعال عن دواء دوندواء ــ ووقت دون وقت ، واذا كان الدواء المفرد كافيا فى حصول الفرض فلا يعدل عنه الى الدواءالمركب لأن المفرد أخف على الطبيعة من المركب ، ومفرداته أقل عددا .

عبارات ناطقة بدقته وسلامة منهجه ومنطقهفي العلاج .

• • •

ج ــ جهود الزهراوى « المغرب العربى » :ــ

يعد ابو القاسم خلف بن عباس الزهراوىالمتوفى سنة ١٠١٣م اكبر من نبغ من العرب فى الجراحة ، الف كتابه **(التصريف لمن عجز عنالتاليف)** وهو موسوعة طبية كاملة تشتمل على جميع فروع الطب المعروفة في زمانه ، الا ان مارفع قدره وخلد ذكره هو ذلك الجزء من كتابه **« المقالة الثلاثون »** التى افردها للجراحة وهىتعتبر أول ماكتب فى علم الجراحة مقرونا برسوم ايضاحية كثيرة للأدوات والآلاتالجراحية .

كان ابو القاسم مشهورا بطبه ونبوغه فيالجراحة . وكانت الجراحة عند العرب تسمى صناعة اليد . ولذلك لم تكن علما مستقلا . كانالنظر الى الطب على انه نتاج العقل ، والعقل فى نظرهم اعلى منزلة من اليد ، وذلك للعلاقةالوثيقة بين الطب والفلسفة فى ذلك الوقت ، وهذا ماحدا بالزهراوى الى القول في المقالهالثلاثين من كتابه التصريف « لما اكملت لكم يابنى هذا الكتاب الذى هو جزء العلم فى الطببكماله وبلغت فيه الغاية من وضوحه وبيانه رأيت ان اكمله لكم بهذه المقالة التى هى جزءالعمل باليد لان العمل باليد مخسة فى بلادنا وفى زماننا معدوم البتة حتى كاد أن يندرس علمهوينقطع اثرة » (١٨٠)

والسبب الذى لا يوجد من اجله صانعمحسن فى زماننا هذا ان صناعة الطب طويلة وينبغى لصاحبها ان يرتاض قبل ذلك في علمالتشريح الذى وصفه جالينوس حتى يقف على

---

(١٧٩) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(١٨٠) الزهراوى : التصريف لمن عجز عن التاليف جـ ١ ص ٢ .

منافع الاعضاء وهيئاتها ومزاجها واتصالهاوانفصالها ،ومعرفة العظام والعضلات والاعصاب وعددها ومخارجها،والعروق والنوابض والسواكن ومواضع مخارجها. ولذلك قال ابقراط أن الاطباء بالاسم كثير وبالفعل قليل . لا سيما فى صناعة اليد وقد ذكرنا نحن من ذلك طرفا فى المدخل من هذا الكتاب لانه من لم يكن عالما بما ذكرنا من التشريح لم يخل أن يقع فى خطأ يقتل الناس به،كما قد شاهدت كثيرا ممن تصدرفى هذا العلم وادعاه بغير علم ولا دراية وذلك أنى رايت طبيبا جاهلا قد شق على ورم خنزيرى فيعنق امراة فأصاب بعض شريانات العنق فنزف دم المرأة حتى سقطت ميتة بين يديه ، ورايت طبيبا آخر قد تقدم فى اخراج حصاة لرجل قد طعن فى السن وكانت الحصاة كبيرة فتهور فأخرجها بقطعة من جرم المثانة فمات الرجل الى نحو ثلاثة أيام ، وكنت قد دعيت الى اخراجهافرأيت من عظم الحصاة وحال العليل ما قدرت عليه ذلك (١٨١) .

ولهذا يابنى ينبغى لكم ان تعلموا ان العمل باليد ينقسم قسمين :

أ ـ عمل تصحبه السلامة .

ب ـ وعمل يكون معه العطب فى أكثر الحالات .

وقد نبهت فى كل مكان يأتى من هذا الكتاب الى ان العمل الذى فيه الغرور والخوف ينبغى لكم أن ترفضوه وتحذروه لئلا يجد الجاهل السبيل الى القول والطعن. فخذوا لانفسكم بالحزم والحياطة ولمرضاكم بالرفق والتثبيت ، واستعملوا الطريق الافضل المؤدى الى السلامه والعافية المحمودة ، وتنكبوا الامراض الخطرةالعسرة البرء ، ونزهوا انفسكم عما تخافون أن يدخل عليكم الشبهة في دينكم ودنياكم فهو أبقى لجاهكم وارفع فى الدنيا والآخرة لأقداركم . فقد قال جالينوس فى بعض وصاياه لا تداووا مرضى السوء فتسموا اطباء سوء . (١٨٢)

محتويات كتاب التصريف :

وضع الزهراوى كتابه التصريف فى ثلاثين مقالة وجعله على قسمين أحدهما نظرى والآخر عملى قدم للمقالة الاولى بمقدمة شرح فيها غرضه من الكتاب (١٨٣) ليسهل على الطبيب تداوله بحيث يجد فيه زادا يغنيه عن قراءة غيره من الكنانيش الطبية .

يرى الزهراوى أن الطب ينقسم الى علم وعمل اى الى نظر وعمل . النظر ثلاثة اقسام هى الامور الطبيعية والأسباب والدلائل ، والامور الطبيعية عنده هى الاركان والامزجة والاخلاط والاعضاء والقوى والافعال والارواح .

---

(١٨١) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(١٨٢) نفس المصدر السابق ص ٣ .

(١٨٣) سامى حمارنة : فهرست المخطوطات بالمكتبة الظاهرية ص ١٤٨ .

يخصص الزهراوى فصولا لتشريح العظام ومنفعتها اذ بهـا يتماسـك البـدن ، فالعظـام كالاساس للبيت ، وقد جعلت العظام متمفصلة ليسهل بذلك على الانسان جميع الحركات الموافقة لما يريد ، وجعل فى أطراف العظام رباطات بيض صلبة عديمة الحس وزوائـد في بعضها مواضـع مقعرة حيث تدخل تلك الزوائد فصارت بهـذا الفعل متمفصلة ليتحرك بعضها دون بعض ، ثم شدت العظام بأعصاب تأتيها من الدمـاغ ينبـوع الحس والحركة لتحركها الى كل جهة .

يصف الزهراوى أعصاب العين حيث تكون حاسة الابصار ، وأعصاب الانف حيث حاسة الشم ، ويصف العضلات والعروق وأفعال الذهن الثلاثة التخيل والفكر والذكـر ، وكذلك طبقـات العين وصفات الاذن والأنف والمعـدة والصدر وهيئـة الكبد حيث تنقسم العروق ، ويصف أعضاء البدن الاخرى ويبحث فى الادوية المسهلة وتركيبها ويذكر الاسباب لتركيب الادوية ، ويتحدث عن أعراض المرض ودلائله وعلاماته وتقدمة المعرفة والبحران والاستدلال من البول والنبض .

يختم الزهراوى مقالته بقولـه (ان الزمـن أبلغ الاشياء مما يحتاج اليه فى علاج الامراض بعد المعرفة الكاملة وحسن مساءلة العليل وأبلغ مـن ذلك لزوم الطبيب العليل وملاحظة أحواله وذلك لانه ليس كل عليل يحسن التعبير عن نفسه وربما كان بالعلة من الغموض ما لا يتسنى للعليل وان كان عاقلا التعبير عنه (١٨٤) .

تكلم الزهراوى فى **المقالة الثانية** (١٨٥) عن تقاسيم الامراض مـن الـرأس الـى القـدم وعلاجاتها من الراس الى القدم ، ذكر الزهراوى الحمى فوصفها بأنها حرارة غريبة خارجة عـن الطبع تتصل بالقلب والشرايين وتنتشر من القلب مع الحرارة الغريزية دفعة الى جميع البدن وتضر بالافعال الطبيعية .

وفى **المقالة الثالثة** (١٨٦) ذكر الزهـراوى صفات المعاجين القديمة التى اعتاد الحكمـاء تركيبها وتكرار تجربتها على طول الزمـان ، اذ اقتبس الزهراوى وصفا من مؤلف قبله ذكـره باسمه وعنوان كتابه اقرارا منه بفضله ، ومن الجدير بالذكر ان قسما كبيرا من هذه المعاجين مركب من ادوية كثيرة وتتطلب وقتا في التحضير والتركيب .

عرض الزهراوى فى **المقالة الرابعة** (١٨٧) من كتابه لعمل الترياقات ولا سيما الترياق الفاروقى ، وذكر الادوية المفردة النافعة من السموم والمضادة لفعلها في البدن ، يشير الزهراوى الى كيفية عمل الترياق الفاروقى فى البيمارستان ، وفى نهايـة المقالة يقتبس الزهراوى بعض الادوية التى ذكر بولس الاجانيطى انها نافعة ضد السموم .

---

(١٨٤) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .

(١٨٥) سامى حمارنة : فهرسـت للمخطوطـات بالمكتبـة الظاهرية ــ المقالة الثانية ص ١٤٩ .

(١٨٦) نفس المصدر المقالة الثالثة ص ١٥٠ .

(١٨٧) نفس المصدر السابق المقالة الرابعة ص ١٥١ .

وفي **المقالة الخامسة** (١٨٨) يذكر الزهراوي كيف عنى القدماء بتركيب الايارجات القديمة والحديثة وادخارها وتخميرها ، يذكر الزهراوي مقدار شربة الدواء ومنافعه ويشير فى هذا الصدد الى جالينوس وابن ما سوية وابن الجزار المتوفى سنة ١٠٠٩ م . الايارجات هى التى يختزنها الملوك فى خزائنهم حتى تعتق وتستعمل فى الامراض العسيرة وقد اشتهرت بفضلها ونفعها (لفظة ايارج مشتقة من اليونانية وتفسيرها الدواء المر ومنها ما يدخله الصبر) .

عرض الزهراوى فى **المقالة السادسة** (١٨٩) للادوية المسهلة ويحذر من الاستفراغ بالادوية المسهلة كشحم الحنظل ، والصبر السقمونيا لاينبغى ان يستعمله الا اصحاب الابدان القوية ويجتنبه ضعاف البنية ، ويذكر ان معاصره المستطبب السوسى كان يمنع من سقى هذه الادوية لاى سبب كان .

وفي **المقالة السابعة (١٩٠)** عرض الزهراوى للادوية المقيئة ويقسمها الى ثلاثة اقسام : قسم ينقى السوداء وقسم ينقى الدم وقسم ينقى البلغم . والحقن والشيافات والفرزجات ويبدا بالتحذير من أن العلاج بالقيىء خطر بالجملة ولاسيما لمن يعسر عليه ، ولا يستعمله المستعدون للسل ومن فى حلوقهم امراض متمكنة وهم اصحاب الاعناق الطوال والاكتاف المتجنحة والحناجر الناتئة والصدور الضيقة العارية من اللحم .

عرض الزهراوى في **المقالة الثامنة** (١٩١) للادوية المسهلة اللذيذة الطعم العطرية الرائحة تلك التي يستعملها الملوك والاشراف لضعف فى المعدة او البنية أو خوفا من حدوث القيىء . يقتبس الزهراوى فى هذه المقالة وصفات كثيرة من كتاب الجذام واسبابه وعلاجه ، وكتاب نصائح الابرار لابن الجزار وكتاب الطب الملوكى للرازى وغيرهم .

خصص الزهراوى **المقالة التاسعة** للادوية القلبية (١٩٢) وفيها يذكر ان أكثر أمراض القلب المتحركة من داخل البدن على الجملة انما تكون من المرة السوداء والبلغم ، والادوية المستعملة مفردة أو مركبة أما ان تفعل بمزاجها حارة كانت أو باردة واما أن تفعل بخواصها .

جمع الزهراوى فى **المقالة العاشرة (١٩٣)** من كتابه أطريفلات ونسب كل اطريفل الى صاحبه واشار الى أنها تستعمل اذا كان فى المعدة رطوبات حارة لا يمكن استفراغها بالقيىء والادوية الحارة ، يشير الزهراوى فى هذه المقالة الى فعل الحكماء فى الكيمياء وخاصة الكيمياء الطبية أو الطب الكيميائى Chemo therapy فى العلاجات الداخلية والخارجية .

---

(١٨٨) نفس المصدر السابق المقالة الخامسة ص ١٥١ .

(١٨٩) نفس المصدر السابق المقالة السادسة ص ١٥٢ .

(١٩٠) نفس المصدر السابق المقالة السابعة ص ١٥٢ .

(١٩١) نفس المصدر السابق المقالة الثامنة ص ١٥٣ .

(١٩٢) و (١٩٣) نفس المصدر المقالة التاسعة والعاشرة ص ١٥٣ .

تحتوى المقالة **الحادية عشرة(١٩٤)** ضروبا من الجوارشنات وصنوفا من المعجونات التى جمعها الزهراوى من كتب الاوائل وهى نافعة فى حفظ الصحة وفى ردها للمرض مهما كانت حالة مزاجها حارة أو باردة أو متوسطة . يذكر الزهرواى صفة جوارشن من تأليفه يقول عنه « نافع من جميع علل المعدة الباردة مطيب للنفس مقو لجميع الاعضاء الرئيسية نافع من علل الكليتين والمثانة يزيد في الحفظ ويعين على الهضم وينقي الرياح وهو ملوكى ويصلح للاشراف .

يطرق الزهراوى فى **المقالة الثانية عشرة(١٩٥)** موضوعا مألوفا لدى اطباء العصور الوسطى فى أدوية الباه وتسمين المهزول وتهزيل السمين واكثار اللبن في ثدى المرضعات أو اقلاله والضمادات والحقن والادهان المستعملة فى أمراض النساء .

يذكر الزهراوى فى **المقالة الثالثة عشرة(١٩٦)** الاشربة والسكنجبيات والربوبات وهى أدوية لطيفة سليمة مأمونة فى كل زمان ملائمة لكل سن وذلك فى أربعة ابواب، الاشربة الباردة والحارة والمتوسطة . تحوى المقالة الوصفات الكثيرة المستمدة من مصادر مختلفة .

يركز الزهراوى بحثه فى **المقالة الرابعة عشرة(١٩٧)** حول المنقوعات والمطبوخات ذاكرا أنها تصلح لمن كان محرورا واخلاط بدنه رقيقة لطيفة وهى سهلة على الطباع تغسل ما تصادف فى المعدة والامعاء الا قليلا وتخرج ولا تحدث فى البدن ما تحدثه سائر المسهلات من الامفاص والتقطيع تشتمل هذه الادوية على ما يسهل الصفراء ويسكن وهج الدم ويسهل السوداء والبلغم .

يشرح الزهراوى فى **المقالة الخامسة عشرة(١٩٨)** عمل المربيات من الفواكه والازهار والعقاقير الرطبة واليابسة ويذكر منافعها وطرق ادخارها مشيرا الى اهمية الخبرة الطويلة فى عملها فيقول « وما اقل ما يتعلم من الكتب » ويقول « يحتاج فيها الى المشاهدة والوقوف على حقيقة عملها عند أربابها » .

يبحث الزهراوى في السفوفات فى **المقالة السادسة عشرة(١٩٩)** موضحا انها لا تتحمل البقاء لاسراع الهواء فى افساد مركباتها لخلوها من حافظ ينفى عنها الفساد كما هو الحال فى الاقراص التى يخصص لها المقالة السابعة عشرة.

المقالة السابعة عشرة(٢٠٠) وهى فى الاقراص أذ قواها أبقى من السفوفات فى السفر والحضر

---

(١٩٤) نفس المصدر السابق المقالة الحادية عشرة ص ١٥٤.

(١٩٥) و (١٩٦) نفس المصدر السابق المقالة الثانية عشرة والثالثة عشرة ص ١٥٥ .

(١٩٧) نفس المصدر السابق المقالة الرابعة عشرة ص ١٥٦.

(١٩٨) نفس المصدر السابق ص ١٥٧ المقالة الخامسة عشرة

(١٩٩) و (٢٠٠) نفس المصدر السابق المقالة السادسة عشرة والسابعة عشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة .

وذلك بسبب الاصماغ التى تدخلها والرطوبات والعصارات التى تجمع بها أدويتها لانها تبقى عليها قوامها زمنا طويلا سواء أكانت مسهلة أو ممسكة .

خصص الزهراوى **المقالة الثامنة عشرة** (٢٠١) للسعوطات والبخورات والغراغر والذرورات والقطرات والادوية القاطعة للرعاف ، يقسم الزهراوى المقالة الى خمسة اقسام : ـ

أ ـ في السعوطات المنقية للدماغ من الفضول الغليظة من الصرع واللقوة والفالج والنزلات والشقيقة والصداع .

ب ـ في القطرات النافعة لعلل الاذن واوجاعها وما تكون فيها من الاورام والطنين والدود .

جـ ـ فى الغراغر المنقية للدماغ والحلق من الفضول الغليظة والرطوبات .

د ـ فى البخورات التى تسقط العلق وتنفع من وجع الاضراس والنزلات والزكام واورام اللهاة والبواسير .

هـ ـ فى الذورات القاطعة للدم في الجراحات وانتفاخ الشرايين وتنفع فى علل الانف والبواسير والرعاف والاورام .

تشتمل **المقالة التاسعة عشرة (٢٠٢)** على البحث فى الزينه وصناعة الغوالى وهى قسمان:

١ ـ الطيب من صناعة الغوالى والادهان والبخورات مما يستعمله الاصحاء والمرضى

٢ ـ فى أدوية الزينة التى يستعملها الرجال والنساء .

خصص الزهراوى **المقالة العشرين** (٢٠٣) للحديث عن الاكحال والشيافات الحارة والباردة المستخدمة فى علاج العين وفى جملة الوصفات يذكر صفة كل كحل استخرجه عيسى الكحال للمأمون وكان يسميه مخزون الملك وهو نافع لكل وجع والم يعرض في العين .

ذكر الزهراوى فى **المقالة الحادية والعشرين** (٢٠٤) أدوية الفم والحلق والاسنان وهى السنونات والغراغر والمضمضة ، وقسم الزهراوى الادوية الى ثلاثة أقسام : ١ ـ أدوية وجع الاسنان وتبييضها .

٢ ـ السنونات النافعة للثة والفم والاسنان .

٣ ـ ادوية ما يعرض فى الحلق كالذبحة وورم اللهاة واللوزتين .

---

(٢٠١) و (٢٠٢) ص ١٥٨ .

(٢٠٣) نفس المصدر السابق المقالة العشرين ص ١٥٩ .

(٢٠٤) نفس المصدر السابق المقالة الحادية والعشرين ص ١٥٩ .

خصص الزهراوى **المقالة الثانية والعشرين(٢٠٥)** لادوية علل الصدر من السعال والقرحة في الرئة وخشونة الصوت وضيق النفس ونفث الدم والقيح .

اما **المقالة الثالثة والعشرون (٢٠٦)** فتبحث فى العلاج بالاضمدة من الراس الى القدم وفيها يوصى الزهراوى باستفراغ البدن قبل وضع الاضمدة فى مكانها . تحوى المقالة مئات الوصفات لكل عضو فى البدن .

يذكر الزهراوى المواد المعدنية الداخلة فى تركيب المراهم التى يخصص لها الزهراوى **المقالة الرابعة والعشرين(٢٠٧)** في هذه المقالة ينظر الزهراوى الى المراهم على انها قريبة من الاضمدة فى المعنى والفرق بينهما أن الاضمدة في العلاج أعم والمراهم بالخراجات والجراحات اخص . يضيف الزهراوى الى ذلك قوله أن من المراهم ما يقوى أكثر مما يحلل ومنها ما يحلل اكثر مما يقوى ، يستعمل الزهراوى فى المراهم مواد كثيرة كما فعل فى الاضمدة .

يفرد الزهراوى **المقالة الخامسة والعشرين(٢٠٨)** للادهان البسيطة والمركبة ويظهر الزهراوى فى بحثه أصالة فى تركيب المواد التى يستخلصها من المفردات الطبية والحبوب والثمار ويضع فيها الكثير من اختباراته الشخصية وملاحظاته المفيدة .

فى **المقالة السادسة والعشرين(٢٠٩)** يتحدث الزهراوى عن أطعمة المرضى موضحا أن جميع ما يتغذى به الانسان انما القصد منه منفعته فى تغذية جسمه فان اتفق ان يكون غذاء محمودا ولذيذا معا بالطبع أو الصنعة فذلك تمام سعادة المتغذى به . وهذا جار فى الاصحاء والمرضى على السواء الا أن المرضى ، ولا سيما الناقهين ، فانك اذا جعلت أغذيتهم مع جودتها لذيذة فذلك أسرع لنفعهم . ودم جهدك أن تجعل علاجك للمرضى بالاغذية دون الادوية فهو أقرب الى السلامة واحمد فى العاقبة .

جمع الزهراوى في هذه المقالة اغذية لاكثر الامراض وذكر مفرداتها ومركباتها وجعلها فصولا لتكون حاضرة بين يدى المتطبب ، لهذه المقالة قيمتها التاريخية لما تقدمه من وصف الاطعمة والاغذية وطريقة تحضيرها وطبخها وحفظها واستعمالها .

جعل الزهراوى **المقالة السابعة والعشرين(٢١٠)** فى معرفة قوى الاغذية وخواص الادوية واصلاحها ومنافعها ودرجاتها فى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة .

---

(٢٠٥) و (٢٠٦) و (٢٠٧) و (٢٠٨) نفس المصدر السابق المقالة الثانية والعشرين والمقالة الثالثة والعشرين والمقالة الرابعة والعشرين والمقالة الخامسة والعشرين ص ١٦٠ .

(٢٠٩) نفس المصدر السابق المقالة السادسة والعشرين ص ١٦١ .

(٢١٠) نفس المصدر السابق المقالة السابعة والعشرين ص ١٦١ .

ذكر الزهراوى المشهور المجلوب من الادوية والحشائش الطبية الموجودة فى الاندلس جيدها ورديئها. رتبها الزهراوى حسب أسمائها وعلى حروف المعجم وحسب الدرجة التى يقع فيها العقار ، تحوى المقالة فصولا عن الخمر ، ذكر الزهراوى تحريمه فى الشريعة اذ مساوئه أكثر من منافعه لانك لا تجد احدا يأخذه على ما ينبغى وكيف ينبغى والقدر الذى به ينبغى .

يقول ومن مضار الشراب جملة لمن ادمن عليه واخذه على غير ترتيب وطلب به السكر انه يولد أمراضا مزمنة كالصرع والماليخوليا وفساد العقل والفالج والرعشة والخدر .

قسم الزهراوى مقالته هذه في اصلاح الادوية الى ثلاثة اقسام وهى **المقالة الثامنة والعشرون**(٢١١) .

١ ــ فى تدبير الاحجار المعدنية وغسلها واحراقها وفى هذا القسم يذكر الزهراوى طرق تحضير بعض المعادن أو أملاحها واكاسيدها بصورة عملية غاية فى الاهمية فى تاريخ الكيمياء الطبية .

٢ ــ في تدبير العقاقير النباتية واستخراج اللعابات وتقشير الحبوب واستخراج اللبوب وغسل الزيت وتبييض الخل ، تحوى المقالة صورا للقوالب لاعداد الاقراص والمراوق المستعملة لترويق العصارات .

٣ ــ فى تدبير الادوية الحيوانية كاحراق الاصداف والقرون والاظلاف والحوافر والعظام وقشور البيض واخذ المرارات وتجفيفها لاستعمالها فى الاكحال والاشياف .

قسم الزهراوى **المقالة التاسعة والعشرين** الى خمس مقالات(٢١٢) .

١ ــ فى تسمية العقاقير فى عدة لغات اليونانية والسريانية والفارسية والعربية والبربرية وترتيبها على حروف المعجم .

٢ ــ في تسمية الاسماء الحادثة فى كتبهم من غير العقاقير كالانبيق والقاثاطير .

٣ ــ فى بدل العقاقير بعضها من بعض اذا عدمت المطلوبة او تعذر وجودها .

٤ ــ في أعمار الادوية المفردة والمركبة والمعدنية والحيوانية والنباتية فى النشأة والمصدر .

٥ ــ فى تفسير الاكيال والاوزان الموجودة فى كتب الحكماء باختلاف لغاتهم مرتبة على حروف المعجم .

---

(٢١١) نفس المصدر السابق المقالة الثامنة والعشرين ص١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢١٢) نفس المصدر السابق المقالة التاسعة والعشرين ص١٦٦ .

تحليـــل المقالة الثلاثين : يقسم الزهراوى (٢١٣) المقالة الثلاثين الى ثلاثة أبواب رئيسية :ــ

الباب الاول يختص بالكلى وينقسم الـى٥٦ فصلا

الباب الثانى يختص بالشق والبط والفصدوسائر العمليات الجراحية وفيه جزء عن امراض النساء والولادة والعيون والانف والحلق وينقسم الى ١٠٠ فصل

الباب الثالث يختص بالكسور والخلع وهومقسم الى ٣٥ فصلا .

لم يكن الزهراوى(٢١٤) أول من استعمل الكى ، غير انه وصل به الى حد يقرب من الكمال وابتدع له كثيرا من الادوات وطرق الصـــناعة . يصف الزهراوى طريقة الكى فى الامراض المختلفة من الرأس والقدم. فعلاج الامراض بالكى بالنـــارطريقة قديمة ، لقد كان الاقدمون يظنـــون ان بعض الاوجاع والامراض سببها رطوبات فاسدةلذلك كان علاجها الشافى هو النار وهى الحـــار اليابس .

صمم الزهراوى اشـــكالا مختلفة للمكاوىالتى يستعملها مبينا مكان اســـتعمال كل واحدة ومن هذه المكاوى : ١ ـــ المكواة الزيتونية . ٢ ـــ المكواة السكينية . ٢ ـــ المكواة الهلالية . ٤ ـــ المكواة المســـمارية . ٥ ـــ المكـــواة ذات السفودين . ٦ ـــ المكواة ذات السفافيـــد الثلاثة . ٧ ـــ المكواة الدائرة . ٨ ـــ المكواة التى تشبه الميل (المسبر) .

يقدم الزهراوى فى الفصل الاخير من البابالاول طرقا مختلفة لعلاج النزيف فيقول :

« أولا اسرع بيدك الى فم الشريان فضععليه اصبعك السبابة وتشده حتى ينحصر الدم تحت اصبعك ولا يخرج منه شىء ثم تضع فيالنار مكاوى زيتونية صغارا وكبارا ، ثم تأخـــذ واحدة على حسب الجرح وتنزل المكواة على نفسالعرق بعد أن تنزع اصبعك بالعجلة وتمســـك المكواة حتى ينقطع الدم فان اندفع عند رفعـــكالاصبع من فم الشريان فخذ مكواة أخرى من النار ولاتزال تفعل حتى ينقطع الدم وتحفظ الاتحرق عصبا يكون هناك ، واعلم ان الشريان اذا نفذ منه الدم فانه لا يستطاع وقفه ولا ســـيما اذا كان الشريان عظيما الا فى أحد اربعة أوجه :

١ ـــ اما بالكى ٢ ـــ واما ببتره اذا لم يكن قد انبتر ، فانه اذا انفصل طرفاه انقطع الدم .

٣ ـــ واما بربطه بالخيوط ربطا وثيقا .

٤ ـــ واما بأن توضع عليه الادوية التى منشأنها قطع الدم والشـــد بالرفايد شدا محكما .

---

(٢١٣) نفس المصدر السابق المقالة الثلاثين ص ١٦٧ وما بعدها .

(٢١٤) الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب اشرافد.محمد كامل حسين الباب الاول ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

وان عرض لاحد ذلك ولم يحضره طبيب ولا دواء فيبادر ويضع الاصبع السبابة على فم الجرح نفسه ويشده جيدا حتى ينحسر .

وفى الباب الثانى يحذر الزهراوى (٢١٥) المشتغلين بالجراحة فيقول « لان العمل فى هذا الباب كثيرا ما يقع فيه الاستفراغ من الدم الذى به تقوم الحياة عند فتح عرق أو شق على ورم أو بط خراج، أو علاج جراحة او اخراج سهم أو شق عن حصاة ونحو ذلك ويقع فى اكثرها الموت وانا أوصيكم يابنى عن الوقوع فيما فيه الشبهة عليكم فانه قد يقع اليكم فى هذه الصناعة ضروب من الناس بضروب من الاسقام فمنهم من قد ضجر بمرضه وهان عليه الموت لشدة مايجده من سقمه، ومنهم من يبذل ماله ويعينك به رجاء الصحة ومرضه قتال ، فلا ينبغى أن تباعدوا البتة بينكم وبين من هذه صفته وليكن تحذركم اشد من رغبتكم وحرصكم ، ولاتقدموا على شيء من ذلك الا بعد علم يقين يصح عندكم بما تصير اليه العاقبة المحمودة ، واستعملوا فى علاج مرضاكم تقدمة المعرفة والانذار الى ماتؤول اليه السلامة ، فان لكم فى ذلك عونا على اكتساب الثناء والمجد والذكر الكريم .

وفى الباب الثالث يبدأ الزهراوى(٢١٦) بمقدمة لهذا الباب يقول فيها اعلموا يابنى انه قد يدعي هذا الباب الجهال من الاطباء والاعوام ومن لم يتصفح قط فيه للقدماء كتابا ولا قرأ منه ، فلهذه العلة صار هذا الفن من العلوم فى بلدنا معدوما وانى لم ألق فيه محسنا قط البتة ، وانا استفدت منه ما استفدت بطول قراءتي لكتب الاوائل وحرصى على فهمها حتى استخرجت علم ذلك منها ، ثم لزمت التجربة والدربة طول عمرى ، وقد رسمت لكم من ذلك فى هذا الباب جميع ما احاط به علمى ومضت عليه تجربتي بعد أن قربته لكم وتخلصته من شعب التطويل واختصرته غاية الاختصار وبينته غاية البيان وصورت لكم فيه صورا كثيرة من صور الآلات التى تستعمل .

كانت هذه المقالة الثلاثون خاتمة كتاب التصريف وهو المؤلف الوحيد المعروف للزهراوى ولأهمية الكتاب وكبر حجم بعض مقالاته بحيث تصلح الواحدة منها لأن تكون كتابا مستقلا عرضنا هذا التحليل. لاشك ان المقالة الاخيرة فى الجراحة نالت من الشهرة والامتنان فى الاوساط العلمية والطبية نصيبا كبيرا ، فقد استفاد منها جراحو الغرب فى العصور الوسطى وكان لها أثرها البالغ فى البلدان الاسلامية. كذلك اقتبس منها ابو الفرج ابن القف ١٢٨٦ م فى كتابه العمدة فى صناعة الجراحة .

• • •

---

(٢١٥) الرجع السابق ص ١١١ .

(٢١٦) نفس المرجع السابق ١٤٤ .

قول مختصر فى الطب العربى :

ان التصور العام للطب العربى كان مشابها للطب اليونانى ، ولكنهما مع ذلك مختلفان فى التفاصيل وان تشابه البناءان . لم يكن هذا الاختلاف فى مادة البحث بقدر ماكان في منهج البحث ، لقد كان الطب اليونانى قياسيا استنتاجيا يعتمد على المنطق اكثر من اعتماده على المشاهدة والتجربة ، أما الطب العربى فكان يستخدم المشاهدة والتجربة ويطبق قواعد المنهج التجريبى التى كانت مضمرة فى أبحاث الاطباء العرب .

رأينا عند الرازى وابن سينا كيف كانا يصفان الاعراض ويشخصان العلل ثم يأتيان على بيان الروابط والعلاقات بين العلل المتشابهة ، وفي ذلك يقومان بعملية تفسير لا تقتصر على مجرد الوصف أو التعريف ، هذا التفسير يقتضى أن تشاهد الاعراض والدلالات ، وان يتلو المشاهدة وضع فرض يتحقق منه الطبيب عن طريقة التجربة ، قدمنا النماذج المثلة لذلك فى حالة القرد الذى سقاه الرازى زئبقا وفي علاج مرضى السرسام اذ اصنع منهج الملاحظة والتجربة فى دراسته .

السؤال الآن اذا اعتبرها الطب العربى مستخدما المنهج التجريبى فهل يعنى ذلك أنه لم يكن لدى اليونان منهج تجريبى فى أبحاثهم الطبية ؟

جوابا على السؤال كان هناك علم آت الى العرب من اليونان والهنود وغيرهم وهذا أمر لا يتكرر « لان الامم جميعها دائنة ومدينة فى تراث الفكر الانسانى تعطى وتأخذ وليست تنشأ الحضارات فجأة انما هى سلسلة فى درجات التقدم ترقاها الانسانية درجة درجة »(٢١٧) جاء العرب بعد اليونانيين والفرس والهنود وحملوا المشعل كما حملته سائر الامم وهذا العلم الآتى من خارج ماكان ليصل الى الابحاث الناضجة التى وجدنا مثالاتها عند الاطباء العرب لولا أنه كان « هناك منهج موجود فى الداخل التحم مع دائرة العلوم الاتية من الخارج »(٢١٨) .

وبذلك يتضح لنا لماذا تشابهت الكليات واختلفت التفصيلات . لم يكن هذا المنهج سوى المنهج التجريبى الذى وجدنا تطبيقاته فى علم الطب . ومما لاشك فيه كان لدى اليونان نوع من هذا المنهج أوضحناه فى كلامنا عن التجربة في الطب اليونانى ، انها لم تكن تجربة ذات أصول وطرق تحقيق كتلك التى وجدناها عند الاطباء العرب ولكن ذلك لا يعنى أن العرب صاغوا قواعد المنهج التجريبى حين نجد استخدامالتلك القواعد فى مجال الطب . ان الاطباء العرب اكتفوا بالملاحظة الحسية واكدوا دورها وأوصوا بأجراء التجارب للتحقيق من صحة الفروض ،

---

(٢١٧) بدر الدين القاسم ، محاضرات الموسم الثقافى ج ٤ ص ٥٧ — طبعة دمشق سنة ١٩٦٠ .

(٢١٨) النشار : مناهج البحث عند مفكرى الاسلام ص ٣٥٧

وعملوا على الصعود من دراسة الجزئيات الىوضع القوانين العامة كما هو الحال في قــوانين تدبير الغذاء للمحرورين والممرورين وغيرهم من المرضى، وهذا ما جعل الطب ينمو فى أيدى الاطباء العرب نموا طبيعيا مستقلا بفضل المنهج الــذىاستخدموه .

ولذلك اخطأ (دونالد كامبل (٢١٩) عندمانظر الى الطبيب العربى باعتباره الطب اليونانى معدلا . وليس صحيحا كذلك ما قيل من ان حظ العرب فى الطب لم يكن الا النقل والحفظ والتعليق على الطب اليونانى ، يدحض هذا الرأى مقارنة ماكتبه حنين بن اسحاق وثابت بن قرة بما كتبه الرازى وابن سينا ، المؤلفات الاولى تمثل مرحلةالنقل والترجمة والمؤلفات الثانية تمثل مرحلة التأليف الخالص ولو كانت حجة النقل صحيحــةلجاءت المؤلفات الاولى اكبر من الاخيرة .

السؤال الآن : ــ لماذا كان اختيارنا للرازىوابن ســينا فى المشرق والزهراوى فى المغــرب موضوعا لبحثنا مع التسليم بوجود أطباء كثيرينغيرهم بحاجة هم الآخرون للدراسة والبحث ؟ ان السر في ذلك يرجع الى أن مؤلفات الرازىوابن ســينا والزهراوى ظلت المراجع الاساسية لدراسة الطب فى الجامعات الاوروبية حتى أوائلالقرن السابع عشر . لقد كان الرازى خير ممثل للاطباء الفلاســفة وكان ابن سينا خير ممــثلللفلاسفة الاطباء وكــان الزهــراوى خير ممثــل للجراحين حيث أخذ الغربيون خبرتهم فىالجراحةمن كتابه ((التصريف لمن عجز عن التأليف)) ولذلك كانت دراسة الطب عند هؤلاء الاطباء بمثــابةالالمــام بالطب الغربى في مرحلة من أزهى مراحله وفى فترة من أنضج فترات الفكر الانسانى .

* * *

---

(٢١٩) Campel (Donald), Arabian Medicine and its influence on the middle ages Vol. II. P. 3.

(٢٢٠) سيديو : تاريخ العرب العام ترجمة عادل زعيتر ص٤١٩ .

المصادر

١ ـ ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء فى طبقات الاطباء ـ طبعة أوجست موللر فى مجلدين ـ مطبعة مصطفى وهبى ، القاهرة سنة ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م . وكذلك طبعة بيروت سنة ١٩٦٠ وقد أخذت عن طبعة القاهرة .

٢ ـ ابن جلجل : طبقات الاطباء والحكماء الفه سنة٣٣٧هـ تحقيق فؤاد السيد ـ طبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ـ القاهرة ١٩٦٢ .

٣ ـ ابن الحشاء : مفيد العلوم ومبيد الهموم فى شرح المصطلحات الواردة فى الكتاب المنصوري للرازى . نشره وصححه عن بعض نسخ المخطوط كولان ورينوطبعة الرباط سنة ١٩٤١ .

٤ ـ ابن سينا : القانون فى الطب ـ ٣ مجلدات ـ طبعة روما سنة ١٥٩٣م وبهامشة النجاة مختصر الشفاء وطبعة بولاق سنة ١٨٧٧م .

٥ ـ ابن القف : الاصول فى شرح الفصول البقراطية ـ طبعة الاسكندرية سنة ١٩٠٢م .

٦ ـ ابن النديم : الفهرست ـ المطبعة الرحمانية ـ القاهرة سنة ١٩٤٨م .

٧ ـ اسماعيل مظهر : الفكر العربى والتراث اليونانى ـ مطبوعات مجلة العصور القاهرة سنة ١٩٢٨ .

٨ ـ الخوارزمى : مفاتيح العلوم ـ المطبعة المنيرية ـ القاهرة سنة ١٣٤٢هـ .

٩ ـ ديسقوريدس : الحشائش فى خمس مقالات ـ مخطوط تحت رقم ١٠٢٩ طب / دار الكتب المصرية .

١٠ ـ الرازى : الحاوى فى الطب ـ طبعة حيدر آباد الدكن سنة ١٩٢٥ الطبعة الاولى .

١١ ـ الرازى : المرشد او الفصول تحقيق الدكتورالبير زكى اسكندر/مجلة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية/المجلد السابع ـ الجزء الاول عدد مايو سنة ١٩٦١.

١٢ ـ الرازى : محنة الطبيب تحقيق الدكتور البيرزكي اسكندر ـ مجلة المشرق عدد ٥٤ بيروت سنة ١٩٦٠ .

١٣ ـ الرازى : خواص الاشياء مخطوط تحت رقم ٢٦٤طب تيمور .

١٤ ـ الرازى : رسالة الى أحد تلامذته ضمن مجموعةخطية تحت رقم ١١٩ طب تيمور .

١٥ ـ سامى حمارنه : فهرست مخطوطات المكتبةالظاهرية بدمشق ـ دمشق سنة ١٩٦٧ .

١٦ ـ سانتلانا : المذاهب الفلسفية ـ مجموعة محاضرات فى الجامعة المصرية سنة ١٩١٠/١٩١١ ـ نسخة خطية .

١٧ ـ سيديو : تاريخ العرب العام ـ ترجمة عادلزعيتر ـ طبعة القاهرة سنة ١٣٦٧هـ .

١٨ ـ القفطى : تاريخ الحكماء ـ طبعة ليبزج سنة١٣٢١هـ .

١٩ ـ قنواتى : تاريخ الصيدلة والعقاقير فى العهدالقديم والعصر الوسيط ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩م .

٢٠ ـ مايرهوف : من الاسكندرية الى بغداد ومقال ضمن كتاب التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية لعبد الرحمن بدوى ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٠م .

٢١ ـ محمد كامل حسين : طب الرازى ـ مجلة معهدالمخطوطات بجامعة الدول العربية ـ المجلد السابع عدد مايو سنة ١٩٦١ .

٢٢ ـ محمد كامل حسين : متنوعات ـ الجزء الثانيطبعة القاهرة بدون تاريخ ـ الطبعة الثانية .

٢٣ ـ محمد كامل حسين : الفلسفة والعلم فى كتابالقانون ـ مقال بمجلة رسالة العلم ـ العدد الثالث سبتمبر ١٩٥٢ .

٢٤ ـ المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ـطبعة باريس ـ ٩ أجزاء بدون تاريخ .

٢٥ ـ اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ـ ثلاثة اجزاء فى ٣مجلدات ـ طبعة النجف سنة ١٣٥٨هـ .

٢٦ ـ غليونجى : ابن النفيس ـ طبعة القاهرة سنة١٩٦٦ العدد ٥٧ سلسلة اعلام العرب .

٢٧ ـ النشار : مناهج البحث عند مفكرى الاسلامطبعة الاسكندرية سنة ١٩٦٥ الطبعة الثانية .

٢٨ ـ حنين بن اسحق : رسالة الى علي بن يحيى فيماترجم ومالم يترجم من كتب جالينوس النسخة الخطية .

٢٩ ـ جلال موسى : المسائل فى الطب لحنين بن اسحقتحقيق ودراسة منهج البحث العلمى عند العرب فى مجال العلوم الطبيعية والكونية .

30. Bernard (Claude) : **Introduction a L'étude de la medecine experimental, Paris** 1938.

31. Brown (Edward) : **Arabian Medicine,** Cambridge. 1921.

32. Campbel (Donald): **Arabian Medicine and its Influence on Middle Ages,** 2 Vols., London 1926.

33. Meyerhof (Max) : ,,Thirty Three Clinical Observations by Rhazes'', **Isis.** Vol. 23, 1935.

34. Sarton (George) : **Introduction to the History of Science,** 3 Vols., Baltimore 1927.

* * *

محمد علي أبو ريان *

تصنيف العلوم
بين الفارابى وابن خلدون

١ ـ مقدمة عامة : فى اهمية تصنيف العلوم وصلته بالمنهج العلمى (١)

لقد شغل موضوع تصنيف العلوم الفلاسفة والباحثين فى مجال العلم طوال عصور ازدهار العلم منذ عصر أفلاطون الى يومنا هذا . والأمر الذى لاشك فيه أن اى تصور لتصنيفات العلوم انما يكشف عن فلسفة معينة لصاحب التصنيف، بحيث يصدر هذا التصنيف عن فكرة منهجية تظهر بوضوح من خلال تحديد الأصول والفروع فى هذا التصنيف .

وثمة فكرة جديرة بالنظر وراء اهتمام العلماء بتصنيفات العلوم وهى التعرف على صلة العلوم وارتباطاتها فيما بينها ، الأمر الذى يسمح لفريق من العلماء المتخصصين فى علوم ضيقة متقاربة المجال بأن يتناولوا بالدراسة وقائع أوظواهر واحدة ، وكل منهم يعالجها من زاوية تخصصه مع وجود نظرة تكاملية من ناحية أن مجال البحث انما يدور حول مشكلة واحدة ، أو

* استاذ الفلسفة الاسلامية وعميد كلية الاداب بجامعة بيروت العربية .

(١) راجع للمؤلف ، الفلسفة ومباحثها (مبحث تصنيف العلوم) .

ظاهرة أو واقعة بعينها . ولقد اظهر **أوجست كونت** فى تصنيفه للعلوم ، تدرج العلوم المعروفة فى عصره من حيث البساطة والتعقيد ، حتى انتهى تصنيفه الى علم الطبيعة الانسانية أو علم الاجتماع ، فوجد أنه اكثر العلوم تعقيدا ، ومن ثم فهو يحتاج الى تضافر العلوم الأخرى السابقة عليه فى سلم التفاضل العلمى المتجه نحو التعقيد شيئا فشيئا .

لهذا كله اتضحت لنا أهمية دراسة تصنيف العلوم كحلقة من حلقات المنهج العلمى طلبا لمزيد من الوضوح فى مجال البحث . وغايتنا فى هذا الاستقصاء أن نلقى الضوء على موضوع تصنيف العلوم فى فترة من فترات الحضارة الاسلامية الزاهرة حتى مغيبها .

ولاشك ان بحثنا هذا لن يكون مجرد احصاء للعلوم مسجلا لأسمائها فحسب ، بل ينبغي أن يكون هذا التصنيف مؤشرا على سائر الأنشطة العلمية فى العصر الذى نبحث فيه . وبذلك يستطيع الباحث فى تاريخ العلوم عند العرب أن يجد مدخلا منطقيا ومنهجيا فى تناوله لهذه المادة فى سائر فروعها ، وذلك بمساعدة هذا العرض لتصنيف العلوم عند العرب فى تلك الفترة .

● ● ●

٢ ـ تصنيف العلوم بين القدماء والمسلمين

واذا كان هذا البحث يدور حول فترة معينة فى العصر الاسلامى ، الا اننا يجب أن نذكر أن موضوع تصنيف العلوم ، كما أشرنا ، قد عولج لأول مرة فى نطاق الفلسفة عند أفلاطون . وقد ظلت الفلسفة حاوية للعلوم جميعا فى العصرين القديم والوسيط حتى مطلع العصر الحديث ، حينما بدات العلوم تنفض عنها غبار الفلسفة وأداتها ، أعنى المنطق الصورى ، لكى تبدأ مسيرتها مستعينة بمنطق الاستقراء التجريبى ، الذى يعد مفتاح العلم وتقدمه فى العصر الحديث .

وعلى الرغم من أن المسلمين قد استشفوا المنهج العلمى القائم على الاستقراء ـ وقد ظهر ذلك ضمنا فى أبحاثهم كما اثبتت الأبحاث مؤخرا ـ (٢) الا ان جميع فروع العلم المعروفة فى العصر الاسلامى ، غير العلوم الشرعية والعربية ، وهى مايسمى **بالعلوم الدخيلة** كانت تنضوى كلها تحت لواء الفلسفة . فأبحاث ابن سينا فى الطب ، والبيرونى فى الرياضة ، وابن حيان فى الكيمياء ، وابن الهيثم فى الطبيعة والفلك ، والبتانى والفرغانى ... الخ .

كل هؤلاء العلماء كانوا ينطلقون من الفلسفة ومطالبها فى اتجاه علومهم الجزئية . ومن ثم فان اى تصنيف للعلوم عند العرب سيكون خاضعا لهذا التوجيه القديم الذى رسخ منذ عهد ارسطو

---

(٢) جلال موسى ، المنهج العلمى عند العرب فى مجال العلوم الطبيعية والكونية . بحث للدكتور جلال موسى باشرافنا .

الى الآن فى العالمين القديم والوسيط . ولو أنناسنجد اختلافا من حيث التفصيل ، واختلافا آخر جوهريا . اما الاختلاف الاول فهو فى جعل المنطق فرعا من فروع الفلسفة ، تليه الفلسفة النظرية ، وهى ذات ثلاثة فروع : العلم الطبيعى،والعلم الرياضى أو الاوسط ، ثم العلم الالهى . وتتفرع من هـذه العلوم الثلاثـة سائر العلوم المعروفة فى ذلك العصر .. وتأتى العلوم العملية بعد الفلسفة النظرية ، وهى تتفرع الى سياسة واخلاق وتدبير المنزل . وسنجد أن فريقا من مؤرخى العلم العربى من المسلمين سيذهبون مع ارسطو فى هذا التقسيم مع تغيير المسميات ، والبعض الآخر سيلغى القسم الثانى ، ويضع بدلا منه قسما آخر لايسميه بالعلوم ، بل يذكره باسم الصنائع . وسنرى كيف يصوغ ابن خلدون موقفه بهذا الصدد فى التفرقة بين العلم النظرى والصنائع ، اى العلم التطبيقى ، او الممارسات الحرفية القائمة على الخبرة البحتة ، وليس على النظر العقلى الخالص .

يبقى ان نشـير الـى الاختـلاف الثانى الجوهرى بين تصنيفات قدماء اليونان وتصنيفات المسلمين وهـو يرجع الـى افراد قسم خاص بالعلوم النقلية اى الشرعيـة ، المتعلقـة بالدين وباللغة العربية وآدابها وهي لغة القرآن . فان هذه العلوم الاسلامية والعربية التى كان لها مقام الصدارة عند الاسلاميين بحيث شغلت اذهانهم طوال عصـور الازدهـار ، وكذلك فى عصـور الانحطاط الفكرى ، هذه العلوم الشرعية لم يكن لها أثر كبير فى تعطيل اتجاه المسلمين لتحصيـل العلوم العقلية وممارسة تطبيقاتها ، بل والتجويد فيهـا فى شتى الميادين ، وذلـك رغم تحذيرات بعض الفقهاء مـن الحنابلة والمالكية المتزمتين ،الذين وقفوا موقفا معارضا لانتشار ما أسموه بالعلوم الدخيلة بين المسلمين .

وسنقتصر فى بحثنا هذا على تناول فتـرة طويلة بالدراسة تستغرق خمسة قرون . (من القرن الثالث الى القرن الثامن) من الفارابى حتى عصر ابن خلدون . على أن يكون تركيزنا على هذيـن القطبـين الكبيرين ، أى الفارابى وابن خلدون .

ونلاحظ من ناحية أخرى ان هذا البحث سوف ينصب على فترة زمنية بعد جابر بن حيان والكندى ، وكـان لهما مجهـود فيما يختص بتصنيف العلوم .

اما الفترة موضوع البحث فهى تشتمـل على مواقف ابن سينا ، واخوان الصفا ، وابن النديم ، والخوارزمى كحلقة اتصال بين كل من الفارابى وابن خلدون .

وهدفنا النهائى هو أن نرصد تطور حركة تصنيف العلوم عند العرب من الفارابى كنقطة انطلاق واعية فى هذا المجال ، حتى نرى هـذا التيار وهو يصب فى ابن خلدون ، وما تصوره من هيكل لتصنيف العلـوم والتمييز بينهـا وبين الصنائع .

• • •

أولا : تصنيف العلوم عند الفارابى

١ ــ لاشك أن **الكندى** الفيلسوف يعد المقدمة التى لاغنى عنها للفكر الفلسفى فى الاسلام، فهو اول فيلسوف اسلامى ينقل الفلسفة اليونانية ويضمنها الفكر العربى ، ومن ثم فان موقفه من تصنيف العلوم الذى تلقاه من القدماء يعد مدخلنا الى تصنيف العلوم عند الفارابى .

ويذكر ابن نباتة من كلام الكندى فى الفلسفة أن علومها ثلاثة : العلم الطبيعى والعلم الرياضى ، أى التعاليم ، وهو اوسطها فى الطبع ، وعلم الربوبية وهو أعلاها فى الطبع . ويشتمل علم الرياضيات عند الكندى على دراسة العدد والهندسة والتنجيم . ويلاحظ من ناحية أخرى أن الكندى لم يعرض فى تقسيمه للعلوم لأقسام الفلسفة العملية تفصيلا ، بل اشار اليها اشارة مجملة ، كما انه اغفل ذكر المنطق فى هذا التصنيف ، (٣) على اعتبار انه أداة العلم وليس جزءا منه على راى ارسطو .

٢ ــ اما **الفارابى** فانه يعد المفكر الاسلامى الاول الذى عنى بدراسة تصنيفات العلوم ، اذ افرد لها كتاب « احصاء العلوم » وهو يعد من أهم كتبه على الاطلاق . (٤)

يحدد الفارابى مقصده من تحرير هذا الكتاب ، فيذكر فى مقدمته انه قصد من هذا الكتاب احصاء العلوم المشهورة فى عصره علما علما ، وتعيين غرضها بالدقة اللازمة ، وبيان مجمل ما يشتمل عليه كل واحد منها ، وأجزاء كل ماله اجزاء ، ومجمل ما في كل واحد من اجزاء ، وهو فى خمسة فصول ، **الفصل الاول** فى علم اللسان واجزائه ، **والثانى** فى علم المنطق واجزائه ، **والثالث** فى علوم التعاليم ، اى العلوم الرياضية والطبيعية وهى العدد والهندسة وعلم المناظر وعلم النجوم التعليمى وعلم الموسيقى وعلم الاثقال وعلم الحيل . **والرابع** فى العلم الطبيعى واجزائه وفى العلم الالهى واجزائه ، **والخامس** فى العلم المدنى واجزائه وفى علم الفقه وعلم الكلام . (٥)

---

(٣) راجع للمؤلف كتاب الفلسفة الاسلامية : شخصياتها ومذاهبها ، ص ٢٣ وما بعدها .

(٤) راجع النشرة النقدية الممتازة لكتاب احصاء العلوم تحقيق د.عثمان امين ، وقد قدم لها بمقدمة مستفيضة ، استفدنا منها فى هذا الموضع . وراجع أيضا كتابنا : الفلسفة ومباحثها من ص ١٠٨ ــ ١١٤ حيث توجد دراسة مركزة عن هذا الكتاب . راجع أيضا ، حول اهمية كتاب احصاء العلوم، مقال د.صالح الجمارنة عن (كتاب احصاء العلوم للفارابى والمنهج العلمى) فى اعمال مؤتمر بغداد عن الفارابى سنة ١٩٧٥ من ص ٥٤ ــ ٦٣ . ويقال ان سبب اشتهار الفارابى باسم فيلسوف الاسلام هو كتابه احصاء العلوم الذى صنف فيه علوم عصره ، يذهب الى هذا دى بور ، وعثمان امين ، دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ١٣١ ــ ١٣٢ ، عثمان امين : مقدمة كتاب احصاء العلوم ص ٣٦ . وكذلك قول ابن صاعد الاندلسي فى كتاب (طبقات الامم) ، حيث يذكر « للفارابى كتاب شريف فى احصاء العلوم والتعريف باغراضها لم يسبق اليه ولاذهب اليه احد مذهبه فيه ، ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به وتقديم النظر فيه » . ابن صاعد الاندلسي ، كتاب طبقات الأمم ، ص ٥٣ .

(٥) احصاء العلوم للفارابى ، المقدمة ، ص ٤٣ ، فى نشرة عثمان امين .

ويوضح الفارابى هدفه من تحريره لهذاالكتاب فيقول « وبهذا الكتاب يقدر الانسان على أن يقايس بين العلوم فيعلم أيها افضل وأيها انفعوأيها اتقن واوثق واقوى ، وأيها أوهن وأوهى واضعف » . (٦)

وسنرى فى عرضنا لهذه العلوم الثمانية ،التى أشار اليها ، انه يعتبر ان الفقه وعلم الكلام صناعتان زائدتان على الفلسفة ومتأخرتانبالزمان عنها ، على الرغم من انهما تابعان لها ، من حيث انهما يدخلان فى دائرة العلوم العملية ،كالأخلاق والسياسة وتدبير المنزل ، وهذا القول فيه نظر ، فاذا كانت هناك وشيجة ظاهرة بينعلم الكلام والفلسفة من حيث استخدام النظر العقلى فى كل منهما مع اختلاف المنهج فيهما ، الاأن علم الفقه يعد علما اسلاميا خالصا ، لاصلة له بالفلسفة وعلومها ، الا من حيث كونه علماعمليا قد يندرج تجوزا تحت القسم العملى من العلوم التى أشار اليها القدماء اجمالا . وهذاالربط غير الطبيعى بين الفقه وعلم الكلام من ناحية ، وبين العلوم الأخرى قد اثار نقد بعضمؤرخى الفلسفة ، حيث يشير **لويس جارديه** الى ان محاولة الفارابى فى ادخال علم الكلام وعلمالفقه فى دائرة العلوم العملية جعلت من تصنيفه عملا مصطنعا . (٧) لكننا لانلبث ان نجد موقفاآخر للويس جارديه فى بحث مؤخر له عن الفارابى ، حيث يذكر ان وضع هذين العلمين فىدائرة العلوم العملية الىجوار الاخلاق والسياسة وتدبير المنزل ، انما يعتبر ثمرة حقيقية لعمليةالتوفيق بين الفلسفة والدين ، التى اتسمت بها فلسفة الفارابى التلفيقية . (٨)

• • •

٣ ـ محتويات كتاب احصاء العلوم :

أ ـ يتضمن الفصل الاول من هذا الكتابدراسة عن اللغة ، ويذكر الفارابى ان علم اللسان (٩) يشتمل على قسمين : ـ

(١) حفظ الالفاظ التى عند الأمة ، وهذافى العادة تقوم به القواميس والمعاجم اللغوية المختلفة .

---

(٦) كتاب احصاء العلوم ، نشرة عثمان امين ، ص٥٣ ـ ٥٤ .

(٧) لويس جارديه ، وقنواتى : فلسفة الفكر الدينىبين الاسلام والمسيحية ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ١٩٢ .

(٨) لويس جارديه : التوفيق بين الدين والفلسفة عندالفارابى ، فى مجلد الفارابى والحضارة الانسانية ، مهرجان الفارابى ـ بغداد ١٩٧٥ ، ص ١٢٩ .

(٩) يرى الفارابى أن لهذا العلم سبعة أجزاء عظمىعند الامم جميعا هى : علم الالفاظ المفردة ـ علم الالفاظ المركبة ـ علم قوانين الالفاظ عندما تكون مفردة ، وقوانينالالفاظ عندما تركب ـ وقوانين تصحيح الكتابة ، وقوانين تصحيح القراءة ، وقوانين الاشعار . (راجع احصاء العلوم،الفصل الاول ص ٤٦ ـ ٤٧) .

(٢) امـا العلم الثانى مـن قسمى علم اللسان فهو العلم الذى يستنبط قوانين هـذه الالفاظ وهو المعروف بعلم اللغة ، ثم القواعـد التى تتم بمقتضاها هذه الألفاظ وهو علم النحو. وكانت للفارابى مساجلات عديدة هو واستاذه « ابو بشر متى » ارادا ان يثبتا استمداد النحـو من المنطق . (١٠)

ب ـ اما الفصل الثانى فهو يتضمن دراسة موسعة عن علم المنطـق تشتمـل على العبارة والقياس والبرهان والمقولات والمواضع الجدلية والخطابة والشعر . ويلاحظ ان الفارابى قـد توسع فى هذا الفصل عن قصد وغاية ، ذلك أنه كان يريد الرد على المهاجمين للمنطق فى عصره بعد ان تغلب راى النحويين فى مناظرة وقعت عام ٣٢٠ هـ فى بغداد (١١) فى مجلس الفضل بن جعفر بن الفرات وزير الخليفة المقتدر آنذاك . وكانت المناظرة ما بين ابى سعيد السيرافى اللغوى الفقيه المتكلم الذى اخذ عن ابى السراج ، وما بين ابـى بشر متى بن يونس المتوفى عام ٣٢٨ هـ ـ أستـاذ الفارابى ـ وكان له مجلس للتعليم يضخم فيه دور المنطق ويقصر دور النحو على اللفظ لا المعنى ، وقد انتهت هذه المناظرة بانتظار ابى سعيد على مجادلة ومنافسة أبى بشر ، واعتبر هذا انتصار للنحو على المنطق ، وللنحويين والمتكلمين علـى أصحاب المنطق والفلسفة . وكان سبب اندحار ابى بشر انه كـان يجهل النحو واحكـام اللغـة والحروف ومعانيها ومواضع استعمالها ، ومـن هنا نجح السيرافى في اظهار جملة اللغـة العربية ونحوها وفقهها ، ولم يغنه المنطق فى اقناع النظارة فى صحة ما يقـول به من صلـة المنطق بالنحـو واستمداد النحو من المنطق . وقـد اثار هـذا الانتصار شكوكا فى فوائد المنطق والفلسفة ودعوى أصحابها . وكانت علاقـة الفارابى بأبـى بشر معروفة ، اذ اخذ عنه المنطق ، وكان الفارابى فى زمن المناظرة يقرا المنطق والفلسفة مع تلامذته ، ويملى عليهم شروحه لكتب المنطق وعلاقته بالنحو. وقد كان على الفارابى أن يجيب على التساؤلات التى أثارتها هذه المناظرة، وجاء كتاب الحروف، ثم كتاب احصاء العلوم ليشاركا فى الجدل الدائر حول صلة المنطق بالنحو . وقد استاء الفارابى من هجمة بعض النحويين على المنطق وادعائهـم بأنه فضل لا يحتاج اليه من كان كامل القريحة ، فرد عليهم بأن النحو أيضا لا يحتاج اليه مـن لا يلحن أصلا من غير أن يكون قد علم شيئا مـن قواعد النحو . ويختم الفارابى مناقشته حـول هذا الموضوع باشارته الى ان علـم النحو انمـا يعطى قوانين تخص الفاظ أمة مـا ، واما علـم المنطق فهـو يعطى قوانـين مشتركة تعم الامـم كلها . (١٢)

---

(١٠) راجع للمؤلف بحثا عن « دراسة تحليلية مقارنة بين المنطق وراى الفارابى فيهما » ، ص ١٨٧ ـ ٢١٠ ، فى اعمال مؤتمر الفارابى والحضارة الانسـانية ، بغـداد ـ ١٩٧٥ .

(١١) راجع فى هذا الموضع وما يليه خاصة بالمنطـق والنحو ، مقال الدكتور صالح الحمارنة ، عن كتاب « احصاء العلوم للفارابى » بمجموعة أعمال مؤتمر الفارابى والحضارة الانسانية ببغداد ١٩٧٥ ص ٥٤ ـ ٥٥ . وكذلك مقدمة كتاب الحروف للفارابى ، نشره الدكتور محسن مهدى ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٤٧ ، ص ٤٨ . وكذلك (الامتاع والمؤانسة) لابى حيان التوحيدى ، نشرة القاهرة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٤ جـ ١ ص ١١٤ .

(١٢) الفارابى : احصاء العلوم : ، ص ٧٤ ، ص ٧٦.

هذه هى اذن المبررات التى دفعت بالفارابى الى تخصيص الفصل الثانى بأكمله من احصاء العلوم لعلم المنطق بعد أن فصله عن الفلسفة كمافعل أرسطو ، وقدمه على سائر العلوم اذ هو آلة للفكر ، وليس جزءا من الفكر ، يقول الفارابى « ان صناعة المنطق تعطى بالجملة القوانين التى شأنها أن تقوم العقل وتسدد الانسان نحو طريق الصواب ونحو الحق ، فى كل ما يمكن أن يغلط فيه من المعقولات والقوانين التى تحفظه وتحوطه من الخطأ والزلل » (١٣) فالمنطق اذن عند الفارابى ينطوى على قوانين عامة كلية لابد من مراعاتها فى اى علم ، اذ انها تعصم الذهن من الزلل فى الاحكام ، ولذلك يجب تقديم الكلام فيه قبل الخوض فى سائر العلوم الاخرى . (١٤) ويلاحظ من ناحية اخرى أن الفارابى قد أدخل فى أقسام الصناعة المنطقية موضوعات لم يدرجها ارسطو فى دائرتها ، وذلك بما أسماه بالاقاويل الخطابية والاقاويل الشعرية . (١٥) وكان أرسطو قد ميز بين ثلاث مجموعات من العلوم هى : العلوم النظرية ـ العلوم العملية ـ العلوم الشعرية (١٦) . وقد قصر العلوم الشعرية على كتابى الخطابة والشعر ، ولكن الشراح لم يهتموا كثيرا بوضع قسم ثالث للعلوم عند أرسطو ، بل انصب اهتمامهم على تقسيم العلوم الى نظرية وعملية ، ومن ثم فان الفارابى قد وجد طريقة الى اقحام الخطابة والشعر على المنطق ، دون معارضة جدية من مؤرخى الفلسفة على عصره او فيما بعد هذا العصر ، ذلك لانه تلقى هذا التقليد من المفسرين المشائين فى القرن الخامس الميلادى بعد الاسكندر الافروديسى مثل امونيوس ، وسمبليقيوس ، وداود الارمنى ، اذ ان هؤلاء كانوا قد وضعوا الخطابة والشعر فى تصنيفهم للاورجانون . هذا بالاضافة الى ايساغوجى فورفوريوس ، ولهذا فقد تبع العرب هؤلاء المشائين المتأخرين فى دراستهم للاورجانون ، حيث يتناولونه جزءا بعد آخر من أجزائه التسعة ، مبتدئين بايساغوجى ومنتهين بالشعر . (١٧)

جـ ـ **أما الفصل الثالث** من كتاب احصاء العلوم فيشتمل على علوم التعاليم ، وهى تنقسم الى سبعة أجزاء :

١ ـ علم العدد والحساب .

٢ ـ علم الهندسة . ويقصد به هندسة اقليدس ، لا الهندسة التطبيقية .

٣ ـ علم المناظر .

---

(١٣) المرجع السابق ، ص ٥٣ . راجع بحثا عن احصاء العلوم فى اعمال مؤتمر بغداد عن الفارابى سنة ١٩٧٥ .

(١٤) راجع التنبيه على سبيل السعادة للفارابى ، طبعة حيدر أباد الدكن ١٩٢٦ ، ص ٢٣ .

(١٥) احصاء العلوم للفارابى : ص ٦٦ ـ ٦٧ .

(١٦) راجع للمؤلف تاريخ الفكر الفلسفى أرسطو ، ص ٣٢ هامش (٢) : ـ كتاب الجدل ـ الكتاب الثالث ـ الفصل الثالث ف ١٤٥أ ـ الكتاب الثامن ـ الفصل الاول ف ١٥٧أ ، وايضا كتاب الاخلاق النيقوماخية ـ الكتاب الثالث ، الفصل الثاني ف ١٣٩أ ـ كتاب الميتافيزيقا ـ الكتاب الاول ـ الفصل السابع .

(١٧) Dr. Iczah. Madkour, L'Organon d,Aristote dans le monde Arabe, Paris 1934, p. 12.

٤ ـ علم النجوم أو علم الفلك . ويذكر الفارابى « وهو اما علم احكام النجوم أو علم النجوم التعليمى » .

٥ ـ علم الموسيقى ، وهو « اما علم الموسيقى العملية ، او علم الموسيقى النظرية . »

٦ ـ علم الاثقال .

٧ ـ علم الحيل او علم الميكانيكا التطبيقى المعاصر او علم قوانين الحركة .

ويلاحظ ان اشارة الفارابى الى علم النجوم وقوله بانه ينطوى على علمين هما علم أحكام النجوم ، وعلم النجوم التعليمى ، هذه الاشارة تنطوى على دلالات كثيرة .

١ ـ فعلم أحكام النجوم هو علم دلالات الكواكب على ما سيحدث فى المستقبل ، اىَ هو العلم الذى يربط حياة الانسان برصد الكواكب والافلاك . وهو اشبه بالرؤيا والزجر والعرافة .

٢ ـ أما علم النجوم التعليمى ، فهو مايعرف لدينا الآن بعلم الفلك، ولكن الفارابى يشير الى موضوع جديد لهذا العلم فيقول ان علم النجوم التعليمي يبحث فى الاجسام السماوية وفى الارض عن ثلاث جمل : ـ

أولها : اشكال الاجسام السماوية والارض واوضاعها ومراتبها ومقادير اجرامها ونسبة اوضاع بعضها من بعض .

وثانيها : البحث عن حركات الاجسام السماوية وشكلها الكروى والكواكب وغير الكواكب ، ومعرفة مكان كل كوكب وأجزاء البروج ، والقمر والشمس والتشاريق والتغاريب ، وبالجملة كل ما يعرض لاجسام عالم السماء وحركاتها ، خلوا من اضافتها الى الارض . وهذا هو المقصود بدراسة علم الفلك .

ثالثها : ان هذا العلم ، اى علم النجوم التعليمي ، انما يبحث فى المعمور من الارض وغير المعمور وأقاليمها ، ومساكنها وترتيبها فى العالم ودورة فصولها ، وهذا ما يسمى الآن بعلم الجغرافيا . كأن الفارابى يجعل الارض كوكبا من الكواكب التى ستدرس فى علم النجوم . (١٨)

د ـ **العلم الطبيعى** : « وينظر فى الاجسام الطبيعية ، وفى الاعراض التي قوامها هذه الاجسام ، ويعرف الاشياء التى عنها والتي بها والتى لها توجد هذه الاجسام ، والاعراض التى قوامها فيها » . (١٩) ويشتمل العلم الطبيعى على ثمانية اجزاء ، ينقلها الفارابى عن ارسطو ، وهى : ـ

(١) السماع الطبيعى .

---

(١٨) احصاء العلوم ، ص ٨٤ ـ ٨٥ ، مرجع سابق .

(١٩) كتاب احصاء العلوم ، ص ٩١ .

(٢) كتاب السماء والعالم ، وهو كتاب عرف فيالعصور الوسطى باسم De Caelo

(٣) الكون والفساد .

(٤ ، ٥) الآثار العلوية (٢٠)

(٦) المعادن .

(٧) النبات .

(٨) الحيوان والنفس ، وهنا نجد الفارابى يتابعارسطو تماما فى هذا الموضع ، لان ارسطو يرى ان العلم الطبيعى يبحث فى الموجودات المركبة منصورة وهيولى ، ولما كانت النفس صورة الجسم الحي ومبدا افعاله الحيوية ، ولهذا فان دراسةالنفس ومراتبها النباتية والحيوانية والناطقة ، انما تدخل فى نطاق العلم الطبيعى .

والتزام الفارابى بهذا الموقف الارسطوىانما يتعارض مع ما يذكره فى مواضع اخرى من كتبه عن شرف النفس وعلوها وارتباطها بالعالمالاعلى على نحو ما ذكره افلاطون ، ولهذا فان مبحث النفس عنده وعند ابن سينا لم يكن من المناسب أن يوضع فى دائرة أبحاث العلمالطبيعى، لعدم احتذاء الفارابى للموقف الارسطوىالخالص فى فلسفته . وهذه هى احدى عيوب النزعة التلفيقية عند الفارابى . (٢١)

هـ ـ **العلم الالهى** ، وهو موضوع كتاب مابعد الطبيعة وينقسم الى ثلاثة اقسام :

(١) قسم يفحص فيه عن الموجودات بماهي موجودات ، أى عن المبادىء الاولى للفلسفة.

(٢) اما القسم الثانيفهو يبحثفى مبادىءالبراهين فى العلوم النظرية والجزئية .

(٣) يبقى القسم الثالث وهو يبحث فىالموجودات المجردة ، اى فى الانيات الروحانية التي ليست بأجسام ولا فى اجسام . (٢٢)

و ـ **العلم المدنى** : وهو يفحص فى أصنافالافعال والسنين الارادية ، وكيفينبغي أن تكون موجودة فى الانسان دونغيره من الكائنات الحية،وهذا العلم يوضح ويفصل غايات الافعال ، اى أنه علم غائى ، وهو كذلك من العلوم العملية ،ويتفرع الى فرعين : ـ

(١) الواحد منها يشتمل تعريف السعادةوعلى وجوه طلبها من حيث ان السعادة الدنيوية والاخروية هى مطلب اساسى للانسان .

---

(٢٠) راجع احصاء العلوم لشرح هذا الموضع .

(٢١) راجع مؤلفنا عن تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام،فى موضوع الفارابى وفلسفته .

(٢٢) راجع احصاء العلوم ، ص ٩٩ .

(٢) أما الفرع الثانى من هذا العلم فهو يشتمل على ترتيب الشيم والسير والافعال ، اى أن هذا الفرع يتضمن الاشارة الى أنماط السلوك الانسانى .

ويلاحظ على ما يشتمل عليه العلم المدنى من مطالب انها تشير فى مجملها الى العلوم العملية التى أشار اليها ارسطو دون أن يذكر الفارابى صراحة اقسام هذه العلوم فى كتاب الاحصاء ، ولكنه يشير الى هذه الاقسام أى فروع العلوم العملية فى كتاب « التنبيه على سبيل السعادة »، وهو يجمل هذه العلوم فى كتاب الاحصاء تحت اسم العلم المدنى ، ويضيف اليه علم الفقه وعلم الكلام .

وهذه اضافة يقصد منها ان يكون هذان العلمان فرعين من العلوم العملية ، وليسا علمين مستقلين عن أقسام العلوم عند الفارابى ، وسنعرض لهذا الموضوع بالتفصيل فيما بعد .

والحقيقة ان مبحث السعادة الذى تصدر عنه سائر مباحث العلوم العملية انما يعد موضوعا للعلوم العملية عند أرسطو ، وهى الاخلاق والسياسة وتدبير المنزل ، فالسعادة يطلبها الفرد لذاته فى مجال علم الاخلاق وهى سعادة دنيوية فقط ، أضاف اليها الفارابى السعادة الاخروية . والسعادة بشقيها مطلب اساسى للانسان عند الفارابى ، وهذا ما يبحثه علم الاخلاق ، بالاضافة الى تعريف الفضيلة والوسط العدل ، وهذه يشير اليها الفارابى فى كتب اخرى .

وكذلك فان السعادة ايضا هى مطلب اساسى لمجتمع المدينة الانسانى ، وهذا ما يحققه نظام المدينة السياسي ، ويبحثه أرسطو فى علم السياسة .

أما تحقيق الكفاية المادية للفرد ولمجتمع المدينة ، والتى تعتبر مدخلا لسعادة الافراد والجماعة من الناحية المادية ، والتى ترجع من ناحية أخرى الى اكتفائهم ذاتيا من النواحى المادية وعدم احتياجهم الى الآخرين ، لاسيما فى حال الازمات والحروب ، فان ذلك يبحثه علم تدبير المنزل او علم الاقتصاد .

ويشير الفارابى الى هذه الانحاء فى كتبه الاخرى ووسائله السياسية والاخلاقية . ولكنه بعد ان جعل الفقه علما قائما بذاته فى تقسيمه كما سنرى ، يتحرج من الاشارة الى الاخلاق او السياسة كعلم ، اذ ان مباحث الفقه العملية تنطوى على أمور كثيرة مما يدخل فى باب السلوك السوى الذى تبحثه الاخلاق ، والتنظيم السياسى الذى يبحثه علم السياسة ، والتنظيم الاقتصادى ، أى المعاملات ، الذى يبحثه علم تدبير المنزل او الاقتصاد ، فكأن الفارابى أراد أن يترك المجال لتدخل الفكر الاسلامي فى تكوين العلم المدنى واعطاءه صبغة اسلامية ، أو تقريبا من الشريعة ، كما فعل فى « آراء أهل المدينة الفاضلة » (٢٣) .

ز ـ **علم الفقه** ، وهو صناعة بها يستطيع الانسان ان يستنبط تقدير الشيء مما لم يصرح

(٢٣) راجع للمؤلف تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام، الفصل الخاص بالفارابى .

واضع الشريعة بتحديده على الاشياء التى صرح فيها بالتحديد والتقدير (القياس) وان يتحرى تصحيح ذلك على حسب غرض واضع الشريعة بالملة التى شرعها فى الأمة التى لها شرع (٢٤) .

واذا كانت عبارة الفارابى تعطى انطباعا بأنه انما يتكلم عن صناعة الفقه بالنسبة لجميع الأمم وشرائعها ، الا أنه كما رأينا فى رسائله وفى كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة ، انما يجعل الاسلام نصب عينيه حيمنا يتكلم عن هذه المواضع الخاصة بالفروع الشرعية للاسلام التى يدرسها علم الفقه . وهو يذكر أن هذا العلم جزءان : ـ

أحدهما فى الآراء ، والثانى فى الافعال . اما الجزء الاول فهو يدور حول أصول المذاهب الفقهية أو اصول الاحكام الشرعية والقواعد الاصولية التى تدرس فى علم اصول الفقه ، وهى مستمدة من العقائد التى هى أصل الشريعة ومنبعها .

أما الجزء الثانى من علم الفقه فهو تطبيقى يدور حول مسائل الفروع ، اى حول سلوك المسلم وممارسته العملية في حياته المؤتمرة بالعقائد الاسلامية . وهنا نجد مباحث وموضوعات الاخلاق والسياسة والاقتصاد والاجتماع والقانون بصفة عامة .

ح ـ **علم الكلام** ، وصناعة الكلام ملكة يقتدر بها الانسان على نصرة الآراء والافعال المحدودة التى صرح بها واضع الملة ، وتزييف كل ما خالفها بالاقاويل (٢٥) .

ولهذا العلم جزءان :

الاول : يدور حول الآراء **والثاني** : حول الأفعال .

اما ما يدور حول الآراء فهو ما يتعلق بمسائل التوحيد وذات الله وصفاته وأفعاله ، اى ما يمس العقيدة عن كثب . اما القسم الثانى فهو يتعلق بأفعال الانسان ، مثل الجبر والاختيار ، ومشكلة الامامة ، وغيرها من مباحث تتعلق بسلوك الفرد والجماعة ، والنظر اليهما من زاوية العقل الانساني .

• • •

٤ ـ دراسة نقدية حول بناء التصنيف عند الفارابى وأساسه

لقد جاءت محاولات السابقين على الفارابى فى مجال تصنيفات العلوم بمثابة نظرات تقليدية تسبق الكلام عن اقسام الفلسفة ومباحثها ، وكأداة منهجية لدراسة موضوعات الفلسفة واستيعاب اقسامها .

---

(٢٤) احصاء العلوم ، ص ١٠٦ ـ ص ١٠٧ .

(٢٥) احصاء العلوم ، ص ١٠٨ .

ولهذا فقد تميزت محاولة الفارابى فى تصنيفه عن السابقين عليه بالجدة والاصالة ، وتعمد المؤلف القصد اليها والرغبة الواضحة فى الاحاطة بفروع العلم فى عصره واكتمال تصوراته عن محتوى هذه الفروع وميادين بحثها ، فلم يكن مجهوده بهذا الصدد من قبيل التجميع التراكمى لهذه العلوم ، بل لقد جاء كتاب « احصاء العلوم » على سبيل التطبيق العلمى لنظريته العامة فى ترتيب العلوم .

واذا كان اى تصنيف للعلوم انما ينبع من الموقف الفلسفى العام للفيلسوف ، لهذا فقد حرص الفارابى على ايضاح الأساس الفلسفى لهذا التصنيف فى كتبه الاخرى مثل : التنبؤية على سبيل السعادة (٢٦) ، والسياسات المدنية ، وآراء اهل المدينة الفاضلة ، ثم بيان الغاية القصوى والنهائية من تحصيل العلوم وترتيبها على النحو الذى اشار اليه .

فمن **الناحية الاولى** ، نجده يقيم التصنيف على أساس موقف ابستمولوجى تجاه موضوعات المعرفة ، فمنها موجودات يعرفها الانسان ولادخل له فى فعلها ، والمعرفة تطلب فيها لذاتها .

اما الصنف الثانى من الموضوعات فان الانسان يعرفها ويستطيع فعلها ، والمعرفة تطلب هنا من أجل العمل او المنفعة .

والصنف الاول من الموجودات تدرسه العلوم النظرية .

اما الصنف الثانى فتبحث فيه العلوم العملية . وقد قدم الفارابى العلوم النظرية على العلوم العملية لتوقف الثانية على الاولى .

ومن **الناحية الثانية** ، اى من حيث الغاية النهائية القصوى من تحصيل العلوم وترتيبها فان الفارابى يتجه اتجاها أخلاقيا عاما من حيث انه يتبنى نظرية ارسطو فى السعادة ، وكيف ان غاية الحياة هى السعادة التى تتحقق بالدرجة الاولى من التأمل ، اى من الفلسفة او الحكمة ، وتأمل موضوعاتها الالهية ، هذا فضلا عن أن الانسان يطلب السعادة ايضا من وراء ممارساته العملية فى حياته ، وهذه هى المنفعة القصوى التى يجنيها من معرفة العلوم العملية .

ومن ثم فان السعادة ، كما يرى الفارابي ، غاية كل انسان وهى تحصل بالاكتساب وتتوقف على جودة التمييز الذى يحصل بقوة الذهن التي نستفيدها من صناعة المنطق .

وعلى هذا النحو يحصّل الانسان على معارف يكون قسم منها مقصوده تحصيل الجميل ، وقسم آخر تحصيل النافع .

اما القسم الاول فيسمى بالفلسفة أو بالحكمة وعلومها ، وبها ينال الانسان السعادة القصوى وهذه العلوم وهي القسم النظرى من تصنيف العلوم عند الفارابى ، انما تطلب لذاتها .

وتدخل العلوم العملية ، كالعلم المدني والفقه وعلم الكلام فى قسم العلوم النافعة ، وهي لا تطلب لذاتها ، ويكون تحقيقها للسعادة عن طريق فعلها .

واذن فالغاية من تحصيل القسمين واحدة ،وهي السعادة .

وبينما تتحقق السعادة فى المعرفة النظريةعن طريق المعرفة الخالصة وبلوغ تمام اليقين نجد أن السعادة تتحقق فى نطاق المعرفة العملية عنطريق المنفعة العملية التى يكتسبها من يحصل هذه العلوم (٢٧) .

• • •

ثانيا : تصنيف العلوم بين ابن سينا واخوان الصفا

قبل أن نتناول تصنيف العلوم عند ابن سيناتحسن الاشارة الى كتاب فى احصاء العلوم ظهر تاريخيا قبل ابن سينا وهو كتاب « مفاتيح العلوم » للخوارزمى (٢٨) وكانت لكتابه هذا مكانة خاصة فى عصره ، فقد استوعب سائر علوم العصربطريقة تراكمية اقتصر فيها على الوصف والاحصاء فحسب ، ولم يهتم بمراتب العلوم أويذكر المراجع التى استند اليها . ويرى « لويس جارديه » أن هذا النقد لا يوجه للخوارزمىفحسب ، بلّ ينبغي أن يوجه ايضا الى ابن النديم صاحب الفهرست (٢٩) . ومع هذا فان الدومييلىيمتدح كتاب « مفاتيح العلوم » ويذكر انه مما يزيد من نفاستهتفسيرهللمصطلحات الفنية للعلوم (٣٠).

ويشتمل كتاب مفاتيح العلوم على مقالتين :اولاهما فى ستة أبواب وتعالج علوم الشريعة وما يتصل بها من العلوم العربية مثل الفقه والكلاموالنحو والكتابة والشعر والعروض والاخبار . وثانيتهما فى تسعة ابواب نجد فيها علوم العجم من اليونانيين وغيرهم من الأمم ، وهي الفلسفة ، والمنطق والطب وعلمالعدد والهندسة وعلم النجوموالموسيقى والحيل والكيمياء .

يلاحظ على هذا التصنيفانصاحبه اضافعلمىالطبوالكيمياء الىمجموعةالعلوم الفلسفية، وكان الفارابى قد اهمل ذكرهما ، كذلك يمكنالقول بأنه لا يوجد اساس واضح لتصنيف الخوارزمى ، كما هو الحال عند الفارابى .

(١) ابن سينا (٣١) وتصنيفه للعلوم :

ويعرف ابن سينا الحكمة فى رسالة اقسامالعلوم العقلية بأنها صناعة يستفيد منها الانسان

---

(٢٦) الفارابى : التنبية على سبيل السعادة ، طبعالهند ١٣٤٦ هـ ، ص ٢١ .

(٢٧) راجع الفارابى : التنبيه على سبيل السعادة،وكذلك كتاب « المعلم الثانى » للشيخ مصطفى عبد الرازق ، ص ٧٦ .

(٢٨) هو ابو عبد الله محمد الخوارزمى المتوفى عام٣٨٧ هـ / ٩٩٧م .

(٢٩) لويس جارديه ، وقنواتى : فلسفة الفكر الدينىبين الاسلام والمسيحية ، ص ٢٠٢ الترجمة العربية .

(٣٠) الدومييلى : العلوم عند العرب ، الترجمةالعربية ، ١٩٦٢ ، ص ١٨٠ .

(٣١) يعتبر كتاب الشفاء لابن سينا موسوعة علميةتشتمل على العلوم التى أوردها الفارابى فى « كتاب الاحصاء » .

تحصيل ما عليه الوجود كله فى نفسه ، وما عليه الواجب مما ينبغي ان يكسبه فعله لتشرف بذلك نفسه وتستكمل وتصير عالما معقولا مضاهيا للعالم الموجود ، وتستعد للسعادة القصوى بالآخرة وذلك بحسب الطاقة الانسانية .

فكأن ابن سينا بهذا التعريف للحكمة يجمع فيها العلوم النظرية المجردة الى جانب العلوم العملية ، كما فعل ارسطو ، مع اضافة العلوم الشرعية الى قسم العلوم العملية ، وهذا يفهم من اشارته فى تعريف للحكمة وقوله « لأن كمال النفس لا يتم بطلب ما هو معقول فحسب ، بل ان الاستعداد للآخرة ــ اى لعالم المعاد ــ هو أمر متمم لسعادة الانسان ، بل لحصوله على السعادة القصوى فى الآخرة . وهذا لا يتضمنه قسم العلوم العملية عند أرسطو والتى تشتمل على الاخلاق والسياسة وتدبير المنزل .

أما القسم النظرى فالغاية فيه حصول الاعتقاد اليقيني بحال الموجودات التي لا يتعلق وجودها بفعل الانسان ، ويكون المقصود فيها حصول راى فحسب ، مثل علم التوحيد وعلم الهيئة ، اى ان العلوم النظرية تطلب لذاتها بدون نظر الى منفعة عملية .

ويلاحظ من ناحية اخرى أن ابن سينا يدخل علم التوحيد فى دائرة العلوم النظرية ، وهو يحدد مباحثه فى الكلام على وحدانية الله وذاته وصفاته وافعاله . وهذه أمور من الممكن ان تكون موضوعات للفلسفة البحتة ، ولكنه يريد التأكيد على ان علم التوحيد الفلسفي انما يشتمل على مبحث العقائد الاسلامية ، اذ أن جوهرها التوحيد ، وهو مبحث نظرى من وجهة النظر الفلسفية .

ويبدو ان ابن سينا قد تأثر بمباحث علم الكلام فى هذه الناحية ، ولا سيما في كلامه عن واجب الوجود ، بعد أن قسم الوجود الى واجب وممكن . والأمر الذى لا شك فيه ان ثمة عناصر كلامية واضحة متداخلة فى فلسفة ابن سينا ويتعين الكشف عنها فى بحث آخر مستقل .

اما القسم العملي من الحكمة ، فالغاية منه حصول صحة راى يحصل بقدرة الانسان ليكسب ما فيه من خير ، اى حصول راى لأجل عمل . وينطبق هذا القول ــ كما سنرى ــ على العلوم العملية عند ارسطو .

(٢) اقسام الحكمة النظرية عند ابن سينا :

تنقسم الحكمة النظرية الى ثلاثة :

(أ) العلم الاسفل وهو العلم الطبيعى ، ويبحث فى امور يتعلق وجودها بالمادة والحركة كالعناصر الأربعة ، واجرام الافلاك ، والاستحالة ، والتغير والحركة ، والكون والفساد . كما تدخل فى دراسته النفس وقواها وأفعالها على نحو ما فعل أرسطو . كذلك تدخل سائر العلوم الطبيعية . ولم يكن ابن سينا واضحا فى تقسيمه لهذه العلوم ، مثل الفارابى ، مع انه متأخر عنه كما نعلم .

ب ــ **العلم الاوسط وهو العلم الرياضى** ، ويبحث فى أمور وجودها ــ وليس حدودها ــ متعلق بالمادة والحركة ، كالتربيع والتدوير والعدد وخواصه . وهنا أيضا نجد هذا العلم وهو الذى

يشير اليه الاسلاميون باسم علم التعاليم، كالحساب والهندسة ... وكذلك يمكن القول بأن ابن سينا لم يستفد كثيرا فى تفصيله للعلوم الرياضـــية من تجربة الفارابى فى احضاء العلوم .

جـ **العلم الاعلى ويسمى بالعلـــم الالهى** ، ويبحث فى أمور ليس وجودها وكذلك ليســـت حدودها مفتقرة الى المادة والحركة ، وهما اما ذوات ، كذات الحق رب العالمين ، وهنا يدخـل علم التوحيد بمباحثه المختلفـة ، سـواء أكانت فلسفية أم كلامية . أو صفات مثل الكثرة والعلة والمعلول والكلية والجزئية وغيرها من المعانى التى تظل فى دائرة التجريد . ولابن سينا رســـائل تتناول فروع هذا العلم ، نذكر منها مباحثه فى أقسام الملائكة وفى أمور المعاد وغير ذلك من المباحث الالهية العالية .

(٣) أقسام الحكمة العملية عند ابن سينا :

أ ــ **الأخلاق** وبها يعرف الانسان كيف ينبغى أن تكون أخلاقه وافعاله حتى تكون حياته الاولى والآخرة سعيدة . وهنا نرى ابن سـينا يربط الاخلاق بالدين ، على غير ما قصده أرسطو فى اخلاقه .

ب ــ **علم السياسة** وبه يعرف المرء اصناف السياسات والرئاسـات والاجتماعـات المدنيـة الفاضلة والرديئة ، كما يدرس أشكال الحكـم الصحيحة والفاسدة ، وعلة زوال وبقاء هــذه النظم ، فيدرس حاجة النوع الانسانى الى النبوة ، ويفرق بين النبوة الإلهية والنبوة الكاذبة . وهنا نـرى كيـف ان ابن سينا قد ربط علم السياسة بالدين مخالفا بذلك أرسطو ، وجعل النبوة مطلبا طبيعيا للنوع الانسانى . وفى هذا ربط اساسى للدين بالفلسفة السياسية .

جـ ــ **علم تدبير المنزل** ، او علم الاقتصاد ، وبه يعلم المرء كيف ينبغي أن يكون تدبيره لمنزله المشترك بينه وبين زوجته واولاده ، حتى يتمكن من كسب السعادة . وهنا نرى ارتباط ابن سينا بوجهة النظر اليونانية من حيث قيامها على تصور محدود للاقتصاد وهو ما يعرف باسم الاقتصاد العائلى . واذا كان ارسطو واليونانيون ، بصفة عامـة ، قد تكلموا عن تدبير المنزل ، فانهم كانوا يقصدون بذلك أن الوحدة السياسية المثلى هى المدينة وليست الدولة . وان هذه المدينة كانت محدودة العدد ، وتتألف من بضع أسر كبيرة يبرز فيها اليونانيون الخلصاء ، دون العبيد والمهجنين . ولكن المجتمع الاسلامي قام على أساس التسوية بين المسلمين جميعا ، احـرارا كانوا أم عبيدا ، عربا كانوا ام من العجم . ولذا فان وقـوف ابن سينا عند التفســير الارســطوي لتدبير المنزل ، بالمعنى الضيق الذى أشرنا اليه ، انما يبعده كثيرا عن صورة المجتمع الاسلامي من عصره .

ويرى ابن سينا ان مبدأ هذه العلوم العملية السياسية ، أى فروع الحكمة العملية ، مستفاد من جهـة الشريعة الالهية ، وأن هذه الاقســام الثلاثة تعد كالاصول ، وتتفرع منها أقسام أخرى هي كالفروع والتوابع بالنسبة لهذه الاقســام . أى انه يفتح المجال أمام فروع عملية أخرى متصلة بالدين ، ولهذا فهو يعرض فى رسالته ، التى أشرنا اليها ، لصلة كل قسم من هذه الاقســام الثلاثة

بالدين ، وينتهي الى القول بأنه ليس شيء منها يشتمل على ما يخالف الشرع . وهذه محاولة من ابن سينا لربط الحكمة بالدين ، وهذا هو الطابع العام لفلسفته التى تقوم على التوفيق بين الفلسفة والدين . وتظهر هذه المحاولة فى كتبه التى يتناول فيها الاقسام المذكورة من نظرية وعملية بالشرح والدراسة .

اما **المنطق** فهو آلة هذه العلوم جميعا تستخدمه لتمييز الصواب من الخطأ .. وابن سينا من هذا الوضوع يتابع ارسطو ، اذ انه يجعل المنطق آلة للعلم ، وليس قسما من اقسام الفلسفة .

ولم يكتف ابن سينا بما أورده من اقسام للحكمة فى رسالة اقسام العلوم العقلية ، بل نجده فى كتابه « منطق المشرقيين » يضيف علما رابعا الى العلوم النظرية ويسميه باسم (العلم الكلي) . وهو يبحث ـ كما يرى ابن سينا ـ فى أمور تخالط المادة وقد لا تخالطها مثل الوحدة والكثرة ، والكلي والجزئي ، والعلة والمعلول . ذلك لأنه رأى ان وضع هذه الامور فى دائرة العلم الالهى سيضفى عليها طابعا مجرداً ، مع انها قد تظهر فى الامور المحسوسة وبذلك تخرج من هذه الناحية من العلم الالهي . ومن ثم فقد أفرد لها علما خاصا يسمح لنا من خلاله بتناولها على الوجهين ، المجرد والمحسوس معا .

والحقيقة انه كان من الممكن ان تظل هذه الامور فى دائرة العلم الالهي فى صورتها المجردة الخالصة ، واما تطبيقاتها فى مجال المحسوس فانها تدخل حتما فى دائرة العلم الطبيعي ، كما فعل ارسطو .

ويذكر ابن سينا أيضا فى كتاب « **منطق المشرقيين** » ، أن العلوم العملية أربعة هي : علم الاخلاق ، علم تدبير المنزل ، علم تدبير المدينة ، ثم الصناعة الشارعة ، اى علم القانون . ثم يبنى حدود المتولى تدبير المنزل او المدينة ، وكيف ينبغي ان يدير شئون المنزل او المدينة . وهنا نجد ابن سينا يستدرك ما فاته فى تقسيمه الاول بالنسبة لتدبير المدينة ، اذ أن هذا العلم يشتمل على الوجوه السياسية والاقتصادية والاجتماعية لمجتمع المدينة ، اى الدولة فى نظره ، مع انه يحتفظ فى التقسيم بعلم تدبير المنزل ، اى الاسرة الضيقة . أما العلم الرابع فيعد اضافة جديدة لتصنيف العلوم عند ابن سينا ، واعنى به علم الصناعة الشارعة ، اى علم القانون . وهذا العلم يدخل فى دائرة العلم المدنى وكذلك فى دائرة علم الفقه ، ولم تكن الصناعة الشارعة عند الفارابى بهذا القدر الذى اشار اليه ابن سينا .

ويبدو ان اساس التصنيف عند ابن سينا انما يرجع الى الغاية التى نقصدها من طلبنا للحكمة . فاذا كانت الغاية علمية تفسيرية ، اى اذا كانت المعرفة تقصد لذاتها دون اى منفعة عملية ، فان العلوم التى تطلبها هى العلوم النظرية . واما اذا كانت الغاية نفعية عملية فان العلوم التى تبحث فيها هى العلوم العملية ، وهنا يتابع ابن سينا موقف الفارابى فى كتاب احصاء العلوم .

• • •

اخوان الصفا :

نجد اخوان الصفا يقسمون الفلسفة الى نظرية وعملية ، وهم يدخلون القسم العملي كله فى دائرة الالهيات ، وكذلك يضمون الى علوم الفلسفة فروعا لم يدخلها فيها من سبقهم من الفلاسفة وذلك مثل السياسة النبوية وعلم الآخرة .

والأمر الذى لا شك فيه ان تصنيف العلوم عند اخوان الصفا موجه الى غايات باطنية ، وهى المقصودة من رسائلهم التى وضعوها فى سائر علوم عصرهم .

وهم تارة يخالفون ارسطو وابن سينا فيما يختص بالمنطق ، فهو فى نظرهم قسم من اقسام الفلسفة وليس آلة لها . وتارة اخرى يرد فى موضع آخر من رسائلهم أن المنطق اداة الفيلسوف ، وانه ميزان الفلسفة .

• • •

لقد اجملنا فى هذا الجزء من البحث تصنيفات العلوم فى الفترة الواقعة بين الفارابى وابن خلدون ، وهي تستغرق زهاء خمسة قرون تقريبا . وقد لاحظنا ان معظم التصنيفات التى ظهرت فى هذه الحقبة تستمد هيكلها العام من تصنيف الفارابى للعلوم ، مع اختلافات جزئية فى بعض المواضع تتعلق بمضمون العلوم فى فروعها المختلفة ، وكذلك فيما يتعلق بتأجيل العلوم الشرعية حيث يتجه التيار بعد هذه الفترة الى اظهارها فى قسم خاص بها ، يواجه العلوم الدخيلة او العلوم العقلية التى تجمعها الفلسفة أو الحكمة على ما سنرى عند ابن خلدون وهو يمثل فترة الركود او نهايات الحضارة الاسلامية فى القرن الثامن الهجرى .

• • •

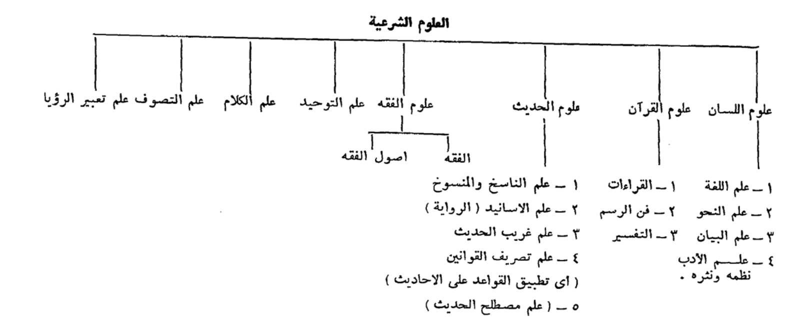
ثالثا ـ تصنيف العلوم عند ابن خلدون

يرى ابن خلدون ان العلوم التى يخوض فيها البشر تحصيلا وتعليما انما تكون على صنفين :

١ ـ صنف طبيعي للانسان يهتدى اليه بفكره .

٢ ـ وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه .

وأما الصنف الاول فهي العلوم الحكمية الفلسفية التي يمكن ان يهتدى اليها الانسان بطبيعة فكره وبمداركه البشرية . ويخوض فى موضوعاتها ، وانحاء براهينها ، من حيث هو انسان ذو فكر ، ليصل الى تمييز الصواب من الخطأ فيها .


العلوم الشرعية
علوم اللسان
علوم القرآن
علوم الحديث
علوم الفقه
علم التوحيد
علم الكلام
علم التصوف
علم تعبير الرؤيا
الفقه
اصول الفقه
١ ــ علم اللغة
٢ ــ علم النحو
٣ ــ علم البيان
٤ ــ علــم الأدب نظمه ونثره .
١ ــ القراءات
٢ ــ فن الرسم
٣ ــ التفسير
١ ــ علم الناسخ والمنسوخ
٢ ــ علم الاسانيد (الرواية)
٣ ــ علم غريب الحديث
٤ ــ علم تصريف القوانين
(اى تطبيق القواعد على الاحاديث)
٥ ــ (علم مصطلح الحديث)

أما الصـــنف الثـــاني من العلوم فهي العلومالنقلية الوضعية ، ولا مجال فيها للعقل الا فى الحاق الفروع من مسـائلها بالأصول ، وهى كما يقول ابنخلدون « مستندة الى الخبر عن الواضع الشرعى» (٢٣) (انظر الرسم الملحق) .

ويحدد ابن خلدوندور العقل فى هذه المسألةفيرى ان عملية الحاق الفروع بالاصول ، أو ادراج الجزئيات تحت الكليات لا تتم آليا ، ولكنها تحتاجأولا الى التأكد من ثبوت الاصل او الحكم الكلى الذى تدرج تحته الزئيات ، وهذا أمر نقلى ، اىنتلقاه عن غيرنا كسبا أو تعلما . اما الجزء الثاني من عملية تكوين العلوم (الوضعية) فى نظره فانهاتتحدد فى اســتخدام (القياس) لربط الجزئي بالكلي . ويبدو أن ابن خلدون هنا انما يتحدث فىالاصل عن الشرعيات ويضعهافى صدر او فى مقدمة العلــوم النقليـــة . اذ أن اســتنباط العلوم بهذاالاسلوب القياسي وحده انما يتجاهل المعطيــات التجريبية التي تستند اليها العلوم ، وابن خلدونهنا انما يتابع وجهة النظر القديمة التي كانت تقيم العلم على أسس نظرية بحتة ، وتجعل الصـــدارةللتركيبات العقلية فى تفسيرها للطبيعة وللانسان ، قبل الخوض فى الوقائع التجريبية Empirical Facts ، اى استخدام الاستقراء Induction بطريقة واضحة جلية .

والدليل على صحة ما سقناه من تفســير ،يأتى فى الفقرة التالية لهذا البحث الذى خصصه ابن خلدون لدراسة العلوم الواقعة فى العمران علىعهده ، اذ يذكر لنا (٣٣) ان اصل هذه العلـــوم النقلية كلها هى الشرعيات من الكتاب والسنــة، ولكنــه يستطـرد فيلحــق بهــذه العلــوم متعلقات أخرى من علوم نستخدمها لكى تتـــمالاستفادة من الشرعيات .ثم يضيف صنفا آخر من العلوم المساعدة لتمام فهم العلوم السابقة ،وذلك مثل علوم اللسان العربى من لغة ونحـــو وبيان وأدب .

وهذه العلوم النقلية جميعها تختص بالملــةالاسلامية ، وان كانت كل ملة ، كمايرىابنخلدون لا بد فيها من مثل هذه العلوم ، فهى مشاركة لأىملة فى الجنس البعيد من حيث أنها علوم الشريعة المنزلة من عند الله تعالى على صاحب الشريعةالمبلغ لها . ولكنه يعود فيستدرك قائلا : ان علوم الشريعة الاسلامية على وجه الخصوص مباينـــةلجميع الملل لانها ناسخة لها « وكل ما قبلها من علوم الملل فمهجورة والنظر فيهـــا محظور فقـــدنهى الشرع عن النظرفىالكتبالمنزلة غـــــير القرآن ».(٣٤) وكلام ابن خلدون هذا يعنى انـــهولو أن كل دين سابق على الاسلام كانت له شريعة وعلوم تتبعها على النحو الذى اشار اليه ، الا انهلما جاء الاسلام فان شريعته والعلوم المتعلقة بهـــا والمتفرعة عنها تعد ناسخة لعلوم الاديان السابقةلكل الشعوب .

---

(٣٢) ابن خلدون : المقدمة ، تحقيق الدكتور علىعبد الواحد وافى ، ج ٣ ص ٩٩٢ .

(٣٣) المرجع السابق ، نفس الموضع .

ولأمر الذى لا شك فيه ان ابن خلدون هناانما يتناول موقفا يصح أن يدرس فى مجال الدين المقارن ، أو فى فلسفة الاديان ، فهو يرى بحسب النص ان كل دين لا بد له من شريعة ومن علوم تكون على مستوى التصنيف الذى يسوقه فى مقدمته . او بمعنى آخر ، كأن ابن خلدون يريد أن يضع نسقا واحدا للتفكير الدينى فى علوم الشرائع الدينية على اختلاف أزمانها وشعوبها ، وهذا أمر ندرك من خلاله الاساس الموضوعى لتصنيف العلوم النقلية .

ولكن استدراكه الاخير الذى ينسخ فيه علوم الشرائع الاخرى السابقة ، انما يرجع الى ما يعرفه المسلمون من التحريف الذى خضعت له التوراة والانجيل وكتب الله المنزلة على رسله . ومن ثم فانه يجب الحذر فى تناولها والاكتفاء بعلوم الشريعة الاسلامية الخاتمة لملة ابراهيم الحنيفية.

وابن خلدون يحصر العلوم النقلية ــ على ما سنرى ــ فى علوم اللسان وعلوم القرآن (التفسير والقراءات) وعلوم الحديث وعلم أصول الفقه ، ثم علم الفقه ، ثم علم التوحيد (أى دراسة العقائد الايمانية) ثم علم الكلام وهو علم الحجاج عن هذه العقائد الايمانية ، والرد على المنحرفين عن أهل السنة والسلف ، أى انه انما يقصر مباحث علم الكلام على مستوى الموقف الاشعرى الذى يعتنقه ابن خلدون نفسه . وهذه النقطة بالذات انما تدين تصنيفه العلمى للعلوم النقلية ، لأنه بدلا من ان يتجرد لوضع تصنيف موضوعى للعلوم المعروفة فى عصره ، نجده يتخذ موقفا عقائديا معينا يسم به علم الكلام . بينما نجد أن هذا العلم قد وصل فى عصره الى قمة التطور ، واتسعت مباحثه ، وكثرت فيه اقاويل وآراء أصحاب الاعتزال والماتريدية وسائر أهل الفرق التى كان يزخر بها أفق الحياة العقلية فى الاسلام حينذاك.

واما القسم الذى يلى علم الكلام من أقسام العلوم النقلية فهو **علم التصوف** . **ويذكر** ابن خلدون انه من العلوم الحادثة فى الملة (٣٥)، وهو ايضا يكتفى فى هذا بايراد مشاهدات المتقدمين ومجاهداتهم ورياضتهم على طريقة اهل السنة فحسب . ويكتفى بذم المتأخرين من المتصوفة ومذاهبهم التى تنبو عن موقف اهل السنة من الزهاد والمتصوفين .

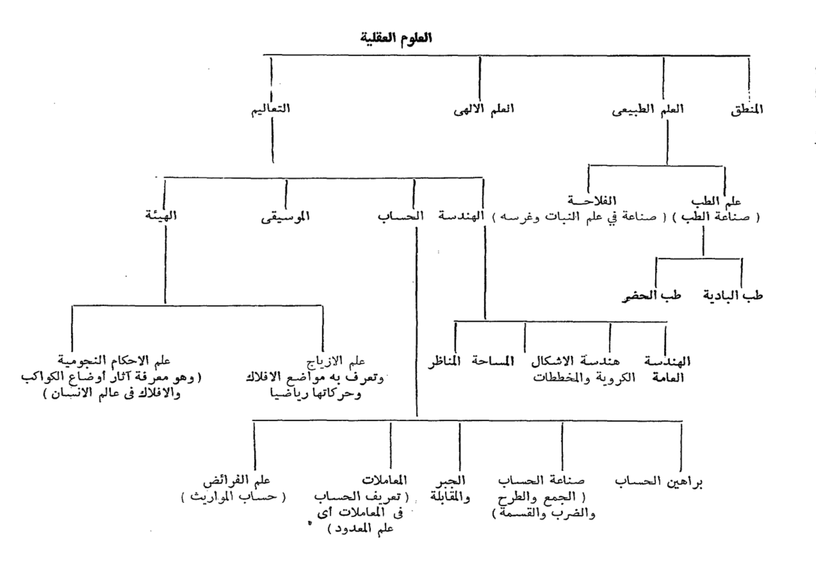
اما القسم الاخير من العلوم الشرعية فهو **علم تعبير الرؤيا** (٣٦). ويرى ابن خلدون أن هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة ، ومتآلف فيه الكثيرون ومنهم محمد بن سيرين والكرمانى ، وهو علم يبحث فى تفسير الرؤى والأحلام . ويستند ابن خلدون الى مصوغ دينى لربط هذا العلم

---

(٣٤) المقدمة ، ج ٢ ، ص ٨٩٣ .

(٣٥) المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٠٦٣ .

(٣٦) المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٠٨١ .


العلوم العقلية
المنطق
العلم الطبيعى
العلم الالهى
التعاليم
علم الطب (صناعة الطب)
الفلاحة (صناعة في علم النبات وغرسه)
طب البادية
طب الحضر
الهندسة
الحساب
الموسيقى
الهيئة
الهندسة العامة
هندسة الاشكال الكروية والمخططات
المساحة
المناظر
علم الازياج وتعرف به مواضع الافلاك وحركاتها رياضيا
علم الاحكام النجومية (وهو معرفة آثار أوضاع الكواكب والافلاك فى عالم الانسان)
براهين الحساب
صناعة الحساب (الجمع والطرح والضرب والقسمة)
الجبر والمقابلة
المعاملات (تعريف الحساب فى المعاملات أى علم المعدود)
علم الفرائض (حساب المواريث)

بالعلوم الشرعية، فيذكر رؤيا يوسف الصديق(٣٧)، ثم احاديث الرسول عن الرؤيا الصالحة ، والتمييز بينها وبين أضغاث الاحلام الكاذبة .

ويجمل ابن خلدون كلامه عن تصنيفه للعلوم النقلية باشارته الى حقيقة تاريخية وهى كساد هذه العلوم فى المغرب مع رواجها فى المشرق ـ فى عصره ـ ويربط بين هذا الكساد فى المغرب وتناقص العمران فيه وانقطاع سند العلم والتعليم . أما ازدهار العلوم الشرعية فى المشرق ، فى عصره فيرجع الى كثرة العمران والحضارة ووجود الاعانة لطالب العلم من الاوقاف الاسلامية التى اتسعت بها ارزاق حملة العلم (٣٨). وهنا نجد أن ابن خلدون يربط ربطا اساسيا بين العلم والحضارة ، بين ازدهار العلوم وكثرة العمران ، فلا يتقدم العلم الا حينما تزدهر الحضارة وتكثر الصنائع .

• • •

العلوم العقلية واقسامها عند ابن خلدون : ـ

واذا كانت العلوم الشرعية تختص بشعب او بدين معين ، فان العلوم العقلية تعتبر طبيعية للانسان من حيث انه ذو فكر « فهى اذن غير مختصة بملة بل يوجه النظر فيها لأهل الملل كلها، ويسنون فى مداركها ومباحثها وهى موجودة فى النوع الانساني منذ كان عمران الخليقة » . (٣٦)

وتسمى العلوم العقلية عند ابن خلدون باسم علوم الفلسفة والحكمة ، وهى نفس التسمية التى أشار اليها الفارابى وابن سينا ، وهى ايضا علم العقل فى مقابل علوم النقل ، وتشتمل على اربعة علوم :

أولها علم المنطق ، وهو علم يعصم الذهن عن الخطأ فى اقتناص المطالب المجهولة من الامور الحاصلة المعلومة . وفائدته تمييز الخطأ من الصواب فيما يتلمسه الناظر فى الموجودات وعوارضها ، ليقف على تحقيق الحق فى الكائنات بمنتهى فكره .

وثانيها العلم الطبيعى ، وهو يبحث فى المحسوسات من الاجسام العنصرية والمكونة عنها من المعادن والنبات والحيوان والاجسام الفلكية والحركات الطبيعية والنفس التى تنبعث عنها الحركات وغير ذلك .

---

(٣٧) سورة يوسف ، آيات رقم ٤٣ ـ ٤٩ .

(٣٨) المقدمة ، ص ٣ ، ص ٩٩٤ .

(٣٩) المقدمة ، جـ ٣ ، ص ١٠٨٥ .

وثالثها العلم الالهى ، وهو يبحث فى الاموراالتى وراء الطبيعة من الروحانيات .

ورابعها علم التعاليم ، وهو العلم الناظــرفى المقادير ، وهذا العلم يشتمل على اربعة علوم فرعية هى :

١ ــ علم الهندسة ، وهو ينظر فى المقاديرعلى الاطلاق وما يعرض لها ، اما من حيث ذاتهــا او من حيث نسبة بعضها الى بعض . وقد تكــونهذه المقادير منفصلة من حيث كونها معدودة ، او متصلة ، وهى اما ذو بعد واحد وهو الخط ، اوذو بعدين وهو السطح ، أو ذو ابعاد ثلاثة وهو الجسم التعليمي .

٢ ــ علم الاريثما طيقا ، او علم العدد او علم الحساب ، وهو معرفة ما يعرض للكم المنفصل الذى هو العدد ،ويأخذ له من الخواص والعوارض اللاحقة .

٣ ــ علم الموسيقى ، وهــو معرفــة نسبالاصوات والنغــم بعضها مــن بعض وتقديرهــا بالعدد . وثمرة هذا العلم معرفة تلاحين الغناء .

٤ ــ علم الهيئة ، وهو تعيين الاشكال للافلاك وحصر انواعها وتعددها لكل كوكب من السيارة، والقيام على معرفــة ذلك مــن قبــل الحركــاتالسماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها ،ومن رجوعها واستقامتها واقبالها وادبارها .

هذا هو مجمل عرض ابــن خلدون للعلــومالعقلية ، وهو يستطرد فى عرضها فيذكر ان هذه هى اصول العلوم الفلسفية . وبعد أن اجملها فىاربعة علوم يعود فيذكر أنها سبعة (٤١) ، ذلك لانه ذكر الفروع الاربعة لعلــم التعاليم ، وقدم لهــابالمنطق ، ثم ذكر بعدها الطبيعيات ثم الالهيات . ثم يذكر أن لكل علم من هذه العلوم فروعا تتفرعنه ، فمن فروع الطبيعيات الطب ، ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات .ومن فروع الهيئة ، الازياج وهى قوانين لحسابات حركات الكواكب وتعديلها للوقوف على مواضعها،ومن فروع النظر فى النجوم علم الاحكام النجومية.

١ ــ والملاحظ على تصنيف ابن خلدون أنهيميز أولا بين الصنائع والعلوم . ويفهم من هــذا التمييز لاول وهلة ، أن العلوم تنطوى على مباحثعقلية ، وأما الصنائع فهي تطبيقات قد تستنــد الى هذه العلوم أولا تستند اليها . ولكننا نراه بعدأن تكلم فى باب الصنائع عن الطب والفلاحةوغيرهما من جملة الصنائع التى اشار اليها ، نجده يعودفيدخــل الطب والفلاحة أيضــا فى دائرة العلــوم الطبيعية ، ويسمى مبحث الطب باسم علم الطبدون أن يقدم لنا تمييزا واضحا بين صناعة الطب

---

(٤٠) المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٠٨٦ .

وعلم الطب ، بل ان التعريفات التى يضعها فى كلاالموضعين تكاد تكون متطابقة ، وهكذا الامر فيما يختص بالفلاحة كصناعة او كعلم .

٢ ـ **والامر الثانى** انه ليس هنــاك تمييزاحاسما بين العلوم الشرعيّة النقليــة ، والعلــوم العقلية ، بل نجد تداخلا بين بعض اقسام هــذهالعلوم ، اذ نجد فى علم الفقه فرعا يسميه باســم علم الفرائض ، اى حساب المواريث . والفقــهانما يدخل تحت قسم العلوم النقلية ، ثم لا نلبث أن نراه يجعل علم الفرائض وعلم المعاملات مــن فروع علم الحساب ، اى من جملة علوم التعاليم .

٣ ـ كذلك نجد ابــن خلــدون لا يستوعب مباحث العلم الطبيعى بأكملها ، وكذلك علم الهيئة وهو فرع من التعاليم ، اذ اننا نجده من الناحيةالاولى لا يشير الى المبحث نفسه فى دائرة العلــم الطبيعي كما فعل حكماء المشائين الاسلاميين ، ثم انه يفرد القول فى مباحث علم الكيمياء ويجعلــه قسما من اقسام العلوم السحرية وينكر ثمرتــه ،ويؤكد فساد هذا العلم وبطلانه . (٤١) ويشير الى اعظم من زاول هذه الصناعة من المسلمين وهو جابربن حيان بأنه من السحرة الذين يضيفون الــى المعادن الخصائص السحرية للاعداد ، ويتمكنون بذلك من تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب .وهو كذلك يدخل فى باب السحر صناعة النجوم اى اصدار احكام وتنبؤات كنتيجة للزعم بأن ثمة علاقة تربط النجوم والافلاك بالانسان ومصيره . (٤٢) وابن خلدون يبطل هذه الصناعة ولا يستبقى من علم الهيئة سوى رصد ودراسة حركات الكواكب والافلاك بطريقــة علمية لا اثــر فيها للسحــر او التنجيم . وهو ما يسميه بعلم الهيئة العام . (٤٣) واستكمالا لموقف ابن خلدون من السحر والسحرة نجده يهاجم السحر والطلسمات لانهما من الامور التى لا يقبلها الشرع .

٤ ـ وفى دائرة **العلوم العددية او علوم التعاليم** نجده يفرق تفريقا غير واضــح بين الاريثماطيقــا وصناعــة الحســاب (٤٤) . ويرجع هذا التمييز غير الواضح الى انه خلط علم الحساب المجرد ، اى علم العــدد ، بصناعــة الحساب ، اى بعلــم المعدود . وكذلك نجده فى دائرة العلوم الهندسية يخلط بين صناعة المساحة وهــى علم تطبيــقى ، والهندسة العامة وهى علم نظرى (٤٥) . ويميز بطريقة غير حاسمة بين ما يسميه بالهندسة العامة وهندسة الاشكال الكروية والمخروطات . ثم انــه يجعل علم المناظر جزءا من العلوم الهندسية التــى هى فرع للتعاليم ، اى للعلوم العددية . والواقع

---

(٤١) المقدمة ، ج ٤ ، ص ١١٨٦ .

(٤٢) المقدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٠٧ .

(٤٣) المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٠٠٠ ـ ص ١٠٠١ .

(٤٤) المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٠٩١ ـ ص ١٠٩٤ .

(٤٥) المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٠٩٧ ـ ص ١١٠٠ .

ان علم المناظر ، اى البصريات ، هو أقرب الـى العلم الطبيعى منه الى علوم التعاليم ، على الرغم من ان دراسة المناظر تحتاج الى معاونة علوم العددوالهندسة . وهذا يدل على عدم وضوح الفروق الدقيقة بين هذه العلوم عند ابن خلدون .

أساس التصنيف عند ابن خلدون :

يبدو لنا من خلال دراستنا لتصنيف العلومعند ابن خلدون انه قد اقام هذا التصنيف علـى اساس موضوعى ، اى نظرة الى موضوعاتالعلوم. ولكنه خلط بين الفائدة العملية فى بعض الصنائـع والهدف النظرى لبعض العلوم . وعلى هذا فـانأساس التصنيف لم يتعد التمييز بين علوم تبحث فى موضوعات الشريعة، وعلوم تبحث فى موضوعاتالفلسفة والحكمة بالمعنى العام . ولـم يكن ابـن خلدون فى تقسيماته للعلوم واضحا كل الوضوح ،وملما بفروع العلوم كلها وجزئياتها مثل الفارابى ، مع ان ابن خلدون من كبار المتأخرين الذين التقتعندهم نهايات الفنون والعلوم الاسلامية فى القرن الثامن الهجرى .

● ● ●

خاتمـة

يتبين من هذه الدراسة لتصنيفات العلومعند المسلمين والتىانصبتعلى زهاء خمسة قرون من القرن الثالث الى القرن الثامن الهجرى ، انالفارابى كان رائدا فى هذا المجال على الرغم من سبق جابر بن حيان وغيره من المصنفين والفلاسفة .وكان الفارابى مدركا لاهمية تصنيف العلوم وصلة هذا التصنيف بالمنهجالعلمى ، لان هذا المبحث انماينددرج فى منطق العلوم ولا يمكن لباحث ان ينفذ بفكره فى علـوم العصر دون أن تكون لديه فكـرةتكاملية مـن الترابط الموجود بـين هذه العلـوم واشتقاقها بعضها من البعض الآخر على النحوالذى انجزه الفارابى .

ويلاحظ ان الفارابى حاول ان يرتفع بالعلومالشرعية الى مستوى العلوم الفلسفية من حيث انه اراد ان يجعل من علم الفقه وعلم الكلام علمينعامين للملل جميعا ، ولكنه لم يحالفه التوفيق ، فى هذا الاتجاه ، فمالبث ان ربط مباحث العلومالعملية بالاخرويات ، اى بالدين ، وكذلك نجده يربط مباحث الالهيات بعلم التوحيد .. الخ .

وظلت تجربة الفارابى تسير قدما عبـرالتاريخ فتلقى الخوارزمي واخوان الصفا وابن سينا وغيرهم مما اشرنا اليهم ، وقد أدلى كلمنهم بدلوه فى هذا المجال ، ولكنهم جميعا علـى الطريق الذى رسمه الفارابى ، ولكننا نجد ابنخلدون فى نهاية المكان ، اى فى القـرن الثامـن

الهجرى ، وهو عصر الركود والانحلال والتأخر بالنسبة للعلم والحضارة الاسلامية بصفة عامة ، ولهذا غلبت على العصر روح الجمع وتدوين المصنفات الضخمة خوفا من ضياع التراث بعد هجمات التتار وغيرهم على بلاد الاسلام ، وهذا هو سبب حرص ابن خلدون على ان يضمن مقدمته كل ما انتهى اليه وتوفر اليه من علوم العصر فأودعه فى هذه المقدمة ضنا بهذا التراث ان يندثر فى عصر الظلام ، ولهذا جاء تمييزه للعلوم غير واضح تماما كما أشرنا ، كما نجد فيه تداخلا بين العلوم النقلية والعلوم العقلية ، مما يشوب التصنيف بالنقص والضعف . والأمر الثانى أنه اهتم اهتماما كبيرا بتدوين العلوم النقلية اى العلوم الشرعية وتوسع فى تصنيفها ، وهو يذكر ان هذه العلوم كانت سوقها نافقة فى بلاد المشرق وغير نافقة فى بلاد المغرب على عصره ، اما العلوم العقلية فهي مجموعة علوم الفلسفة والحكمة ، فقد كانت رائجة ، على مايقول ، عند الفرنجة فى اوروبا ، وغير نافقة فى بلاد المشرق .

والأمر الذى لاشك فيه ان ابن خلدون قد استفاد بدون شك من تجربة الفارابى فى تصنيفه للعلوم ، واضاف تصنيفا كاملا للعلوم الشرعية ، لأنها كانت مدار الاهتمام فى عصره .

★ ★ ★

عبدالعال عبدالمنعم الشامي *

جغرافية المدن عند العرب

توصف الجغرافيـــة العربية بأنهـا – فى معظمها – دراسات وصفية تسير وفقا للمنهج الاقليمـي ، ولكن هـذا لا يعنـي أن الاهتمـام بالظاهرات الجغرافية داخل الأقاليم يأتي على قدم المساواة ، اذ تحظى المدن – كأهم ظاهرات الاقليم – بعناية كبيرة ، بل لقد بلـغ من عنايـة العرب بدراسة المدن أن أصبح من المقرر القول بأن **الجغرافية العربية جغرافية مدن بقدر ماهي جغرافية اقليمية .**

ويمكـن أن نتبين مـدى عنايـة العـرب بجغرافية المدن من خلال استعراض الكتابـات الجغرافية وبيان نصيب المدن منها ، وكذلـك عرض الكتابات المنفردة والمفصلة الخاصة بالمدن ، وهذا مـا سنعرض له في هـذا المقـال حيث سنتناول الدراسة الخارجية للمدن من خـلال كتب الزيوج ، والجداول الجغرافية ، وكتـب المسالـك والممالـك ، والمعاجـم الجغرافيـة ،

---

* مدرس بقسم الجغرافيا بكلية الآداب – جـامعة القاهرة .

والموسوعات ، وكتب الجغرافية الادارية واخيرا الخرائط العربية ، **والدراسة الداخلية للمدن** من خلال كتب الخطط ، والرحلات الجغرافية ، وتواريخ المدن ، وكتب الحضارة والعمران ، مع العناية بما سطره ابن خلدون فى هذا المجال .

دراسة المدن من الخارج

تتمثل دراسة المدن كظاهرة جغرافية واضحة في اقاليمها من استعراض التصانيف الجغرافية وتحديد نصيب المدن فيها بوجه عام ، مع التمثيل بمدن الدلتا حتى يصبح مثل هذا العرض داخلا ضمن التعريف بمصادر الدراسة وتحليلها .

١ ـ كتب الزيوج والجداول الجغرافية :

اذا كانت هذه الكتابات عبارة عن جداول مقسمة وفقا للتقسيم السباعى للاقاليم فانه فى داخل كل اقليم يأتى ذكر أهم الظاهرات الجغرافية فيه ومنها المدن ، حيث تحدد اطوالها وعروضها كما فى صورة الارض **للخوارزمي** الذى اقتصر على المدن الساحلية للدلتا لاعتماده على خريطة بطليموس التى نقلها الى العربية وحقق ماورد فيها .

اما **البيرونى** فقد سار بهذا الفن خطوة جديدة فحقق أطوال المدن وعروضها بما يقترب كثيرا من الحقيقة ، ثم اهتم بتبعية المدن للممالك والنواحى وذكر صفات المدن وما تشتهر به.(١)

ويأتى بعد البيرونى من يقتفى اثره ، ويعتمد عليه ، فيتوج هذا النمط من التأليف بجداول جغرافية معتمدا على الكتابات السابقة ، وخاصة ماكتبه **ابن سعيد** ، ومن ثم فقد قسم « **ابو الفدا** » « تقويم البلدان » الى جداول شملت العالم الاسلامى ، وأدخل فى هذه الجداول معلومات عن جغرافية المدن بذكر الاسم وضبطه وتحديد الاقليم الحقيقى (من الاقاليم السبعة) والاقليم العرفى (الواقعة فيه المدينة سياسيا اواداريا) ثم ذكر خطوط الطول والعرض ، واخيرا الاوصاف العامة للمدينة التى تتضمن المعلومات التاريخية والجغرافية . وقد أحصى فى مصر ٢٨ مدينة ، فضلا عما كتب من مقدمات عن مصر تسبق الجداول .

٢ ـ كتب المسالك والممالك :

ـ تمثل هذه الكتابات صلب الجغرافية العربية ، ومنذ بداية الكتابة وفقا لهذا النمط من التأليف الجغرافى نجد الاهتمام بالمدن على نحو ما هو واضح عند **اليعقوبى وابن رسته** ، ولقد بلغ من اهتمام الجغرافيين العرب بالمدن فى دراستهم ان عاب **المقدسى** على سابقيه التقصير في هذا الجانب ، وعد اهتمامه بالمدن من أهم ما ميز كتاباته الجغرافية فيقول عن **الجيهانى** انه

(١) كمثال تنيس : فى الاقليم الثالث ـ جزيرة فى بحيرة المصب (مصب النيل) . يعمل فيها الثياب البيض ، واما من حيث موقعها الجغرافى فهي من الجزائر ..

لم يصف المدن ولا استوعب ذكرها بل غفل عن ذلك ، وأما **البلخى** فانه ترك الكثير من أمهات المدن فلم يذكرها ، فى حين انتقد **ابن الفقيه** باقتصاره على ذكر المدن العظمى .

ـ **اما الاصطخرى** عند دراسته لكل اقليم ، فانه يولى اهتماما بالمدن الكبرى وأهميتها ، بل لعل المدن هى أكثر ما يعنى به الاصطخرى ، فهو يذكر المدينة وموقعها وما فيها وآثارها والطرق التي تربطها بما حولها ، ويوقع هذه المدن على خرائطه .

ـ **وابن حوقل** الذى استصفى كتاب الاصطخرى يضيف عليه زيادات كبيرة هامة بفضل زياراته على نحو ما فصل القول عن مدن الدلتا وقراها وما ضمنه خريطته من تفاصيل لم تذكر عند غيره ، بل استغنى بها عن كتابة المادة العلمية في كتابه .

ـ **والمقدسى** الذى انتقد سابقيه يفاخر بأنه قد طول كتابه بوصف المدن بما كتبه عن مشاهدة ورؤية خلال رحلاته ، كما كانت له خرائطه التى وقع عليها المدن .

ـ **والمهلبى** وان كان كتابه « العزيزى » لم يصل الينا ، فان النقول الواردة عند « ياقوت » « وأبو الفدا » عنه تدل على مدى اهتمامه بالمدن المصرية والمسافات بينها مع الوصف التفصيلى للمدن .

ـ **والبكرى** ـ الجغرافى الاندلسى ـ يهتم بالمدن فيذكر اسواقها وحماماتها ومساجدها وصناعاتها ، وبالنسبة للمدن التاريخية يهتم بالبرابى والآثار . وعلى الرغم من عدم زيارته لمصر الا انه قد نقل عن الرحالة والحجاج احوال مدن الدلتا بتفصيل لا يتوافر عند غيره أحيانا .

ـ **وأما الادريسى** الذى اعتمد على التقسيم السباعى للعالم فقد اهتم فى داخل كل اقليم بالمدن والحصون ، وكتب عنها بمقدار ما جمع من مادة علمية وما شاهده وما نقل اليه ممن ارسلهم الى مختلف النواحى والممالك ، ثم صور ذلك كله على الكرة المجسمة ثم خريطته المشهورة .

ـ ثم يأتي « **أبو سعيد المغربي** » فى « **بسط الارض** » بما يمكن وصفه بأنه جداول للمدن وغيرها من الاعلام الجغرافية محددة الاطوال والعروض بدقة . ويهتم فى مصر بالمدن الحادثة (المنصورة) والمتدهورة (الفرما) .

٣ ـ المعاجم الجغرافية :

الكثرة الغالبة من الاعلام الجغرافية الواردة فى المعاجم الجغرافية خاصة بالعمران . وخير مثال ماكتبه **ياقوت الحموى** عن رؤية ومشاهدة ، وماجمعه من مصادر سابقة لم تصل الينا . وقد اهتم بضبط الاسماء وبيان اشتقاقها ومعناها وتحديد اقليمها ويذكر المدن الحادثة ، وتاريخ فتح المدن فى الاسلام وما اشتهرت به . وقد جمع في كتابه « المشترك » بين عمله فى المعجم والاهتمام بدلالات الاسماء المشتركة بين المدن .

٤ ــ الموسوعات (الجمهرات) :

هذا الطراز المصرى قد حذق فى وضعـه علماء وعمال دولة المماليـك فى القـرن الثامـن الهجرى ، وكان للجغرافية مكانة مرموقة فيها ، وخاصة المدن واحوالها ، والتقسيمـات الاداريـة وتطورها . وقد بدأت سلسلة الجمهرات بمـاكتبه **الوطواط الوراق** (٧١٨ هـ) **فالنورى** ، ثم **ابن فضل الله العمرى** ، واخيرا **القلقشنـدى** . وقد أضاف كل منهم عن المدن المصرية معلومات تمثل عصره فضلا عن دراسات تاريخيه متطورة عن المدن .

٥ ــ كتب الجغرافية الادارية :

وهى وان كانت تجعل التقسيم الادارى وتطوره عبر التاريخ أساسها ــ وهذا جانب لـه اهمية كبيرة في دراسة المدن وخاصة الادارية ــ الا انها تتضمن معلومات هامة عن المدن عامة ومن امثلة هذه الكتابات المصرية « قوانين الدواوين » « **لابن مماتى** » ، « ولمع القوانين » **للنابلسـى** ، والتعريف « **لابن فضل الله العمرى** ، وزبـدة كشف الممالك » **للظاهرى** ، والتحفة السنيـة « **لابن الجيعان** » .

٦ ــ الخرائط العربية والمدن :

اهتم العرب بتوقيع المدن علـى الخرائـط ، واستخدموا ــ احيانا ــ رموزا تدل على سمـات او وظائفها ، واحجام كتلتها السكنية ، على نحـو ما هو مشاهد فى خرائط مصـر للاصطخـرى والمقدسى والادريسى ، وتعتبر خريطة ابن حوقل للدلتا اكثر الخرائط العربيـة شمـولا للمـدن والبلدان فى عصره ، حتى لقد استغنى بهـده الخريطة عن ذكر العديد من التفاصيل عن هذه المدن والقرى فى كتابه .

والى جانب اهتمام العرب بتوقيع المـدن تضمنت كتاباتهم الجغرافية خرائط تفصيليـة للمدن ــ اذا جازت هذه التسمية ــ وتبرز هذه الصور احياء المدن وارباضها وما هو فى ظاهرها من ظاهرات طبيعية وبشرية كالجبال والقرى ؛ ويمكن الرجوع الى معجم ياقوت وكتاب القزوينى (٢) وتاريخ المستبصر لابن المجاور (٣) حيث تضمنت هذه الكتب خرائط لامهات المدن العربية والاسلامية وغيرها .

هذا وقد عرفت مصر مجسمات المـدن على نحو ما اقام المعلم حسن ابن الصياد المهندس حين خط للسلطان الغورى سنة ٩١٦هـ بالجبس فى الارض مدينة الاسكندرية وعدد ابراجهـا وابوابها وهيئة صورها والمنارة التى كانت بهـا وقدر عرضها وطولها ، ولعل ذلك كان لاغـراض عسكرية حيث يذكر ابن اياس (٤) ان ذلك تم بعد عبث الفرنج بالسواحل المصرية ، مما دفـع

---

(٢) القزوينى : آثار البلاد واخبار العباد ص ٤٣٤ ، ٦٠٤ خريطة مدينة قزوين ومدينة القسطنطينة .

(٣) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ... تحقيق وضبط اوسكر لوففرين . ليدن ١٩٥١ ، ١٩٥٤ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ : ص ١٩٦ .

السلطان للتفكير فى الذهاب الى ثغر الاسكندريةبنفسه ليتفقده فحال « أتابك المعسكر » دون ذلك وذهب نيابة عنه ، وفى أعقاب ذلك نزل السلطان من القلعة وتوجه نحو المطربة لمشاهدة هذا الجسم .

دراسة المدن من الداخل

بالاضافة الى الكتابات الجغرافية السابقةفان هناك كتاباتجغرافية كثيرةتركز علىتفاصيل المدن من الداخل ، مثل كتب الخطط والرحلاتالجغرافية وما افرد للمدن من كتابات مستقلة ، وما انفرد به ابن خلدون من معالجة للمدنكظاهرات جغرافية .

١ ــ **الخطط** : كتب الوصف الطبوغرافي

هذا الفن من فنون التاريخ للمدن قدابتدعه وسما به المصريون كفن مستقل بذاته فكان لهم الفضل في ابتكاره اولا ثم تقدمهوازدهاره ثانيا ، حتى غدت آثاره تكون وحدها ثبتا حافلا فى تراثنا التاريخي (٥)

وقد تتابعت الكتابة عن الخطط في مصرمنذ النصف الثانى من القرن الثالث بما كتبه **ابن عبد الحكم** ثم **الكندى وابن زولاق والمسبحى**ثم **القضاعى والنحوى والجوانى** ثم **ابو صالح الارمنى وابن عبدالظاهر وابن المتوج وابن دقماق والاوحدى**،واخير يأتى **المقريزى** فى القرن التاسع الهجرى ليمثل قمة هذا الفن من حيث الشمولوالاستيعاب والحصر مع الدراسة التطوريةعلى مدى القرون السابقة حتى عصره ، وقد جمعفيدراسته للمدن بين المندرسة والقائمة والحادثة .

٢ ــ الرحلات الجغرافية :

كانت فى معظمها صورا لحياة المدن كمارآها الرحالة ، وهى تضيف تفصيلات قيمة عن المدن حيث يستلفت نظر الرحالة ما يخالف ماألفه في بلاده ، ومن ثم يسجل مالا يسجله الجغرافي المقيم في هذه البلاد . وبالنسبة لمدنالدلتا نجد عند **ناصر خسرو** تفصيلات عنمدينة تنيس كما رآها فى منتصف القرن الخامسالهجرى . واما **ابن جبير** الذى اقام فى مصرنحو اربعة اشهر في الربع الاخير من القرن السادسفقد استوفى عند ذكر المدن الاشارة الىمرافقها من اسوار وقلاع ومساجد واسواق وشوارعومنازل وابواب ومافى ظواهرها من ارياض وضواحى . (٦)

وقدزار **عبد اللطيف البغدادى** مصر ــ فيأواخر القرن السادس ــ ابان حدوث اشهر المجاعات التى مرت بمصر فحدد آثارها علىالمدنوسكانها ، ثم افرد لابنية مصر فصلا لقيمته . واما رحلة **العبدرى** سنة ٦٨٨ هـ فقد عالجتالمظهر الحضارى لبعض المدن بالدلتا . واخيرا

---

(٥) محمد عبد الله عنان : مصر الاسلامية وتاريخالخطط المصرية ص ٣ / ٥ .

(٦) حسين نصار : رحلة ابن جبير ص ٢٤٥ بمجلةتراث الانسانية المجلد الاول .

نجد **ابن بطوطة** فى « تحفة النظار » حين يصل الىمصر ويتجول فى مدن الدلتا يصور لنا دمياط الجديدة ، ويعطى تفاصيل دقيقة عنها .

٣ ـ تواريخ المدن : (٧)

يرى **جويدى** ان اساليب الابتداء في علـم الجغرافيا عند العرب واليونان متشابهة ، فان أول ما اشتغل به علماء اليونان من هذا العلـم اخبار المدن كأثينا فجعلوا لكل مدينة من مدنهم التى ملكوها وحلوا فيها تاريخا ، وهم في هـذا كالامةالعربية حيث نجد اهتماما كبيرا بالمدن .(٨)

هذا وقد الف العرب كتبا خاصة بالكثيرمن المدن ـ غير أننا لا نعرف شيئا عن أكثرها ـ ويمكن القول « بأنه قلما تجد مدينة من المـدنالعربية دون ان يؤلف لها تاريخ خاص بها ،وهذا النوع من التاريخ يمكن ان ندخله ضمن الجغرافياالتاريخية . (٩)

ومن هذه التواريخ ماهو خاص بالمـدنالدينية كمكة والمدينة ، ومنها ما أفرد لعواصـم الخلافة الاسلامية كدمشق وبغداد ، ومنها مـاأختص بالامصار العظمـى فى الاسـلام كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وواسط بغـدادوسامراء ، وفوق هذا نجد تاريخا لامهات المدن الاسلامية فى المشرق كبخارى ،واصفهان ، ولولامثل هذه الكتابات لما وصل الينا علم عن حياة المدن فى وسط آسيا ، ليس فقط فى العصـــرالاسلامي ، بل وفى زمن الساسانيين . (١٠)

أما نصيب مدن مصر من تواريخ المـدنفنجده عند **ابن دقماق** الذى انتصر للفسطاط كواسطة لعقد الامصار ، واما **المقريزى** فقد خصالقاهرة المعزية بمعظم كتابه « المواعـظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، وهناك تاريخ الاسكندريةوتاريخ دمياط وتاريخ الفيوم وبلاده **للنابلسي** ، وانيس الجليس فى اخبار تنيـس **لابـن بسـامالتنيسي** ، والطالع السعيد **للادفـوى** عن مـدن الصعيد الاعلى .

٤ ـ كتب الحضارة والعمران :

تبحث هذه الكتبفىمدينة العرب وحضارةالاسلام ، ويأتى فى مقدمة هذه الكتابات في مجال دراسة المدينة ابن خلدون بمـا تضمنتـه مـنتفاصيل عن خصائص مواقـع ومواضع المـدن وعوامل نمو المدن او تدهورها ، وما وضعه مـنأسـس لتصنيف المدن .

● ● ●

---

(٧) لمزيد من التفاصيل عن تواريخ المدن انظر مقدمةذيل تاريخ مدينة السلام بن الدثينى . بغداد ١٩٧٤ .

(٨) جويدى : محاضرات ادبيات الجغرافيا والتاريخواللغة عند العرب ص ٥ . مجلة الجامعة المصرية ١٩٠٨ / ١٩٠٩ .

(٩) ناجى معروف : عروبة المدن الاسلامية ص / ٩ .الطبعة الاولى . بغداد ١٩٦٤ .

(١٠) احمد زكى الوليدى : الاسلاموالعلوم الجغرافيةص ٥٦٥ مجلة المعرفة . المجلد الثالث .

دراسات ابن خلدون عن المدن :

أولا ـ هيئة المكان أو خصائص الموقع والموضع ونشأة المدن :

ـ اذا كانت الخطوة الأولى فى دراسة اى مدينة هى تحديد خصائص المكان (الموقع والموضع) بكل دقة ، فان ابن خلدون قد اهتم بذلك واطلق على مانسميه بخصائص المكان او هيئة الارض ، **الوضع الطبيعى للمدن (١١)** سواء في ذلك السمات الطبيعية او البشرية . وقد خصص ابن خلدون لذلك فصلا عنوانه « ماتجب مراعاته فى أوضاع المدن وما يحدث اذا غفل عن تلك المراعاة » ، ولما كانت المدن للقرار والمأوى ، وجب ان يراعى فيها دفع المضارب بالحماية من طوارقها ، وجلب المنافع ، وتسهيل المرافق لها (١٢) ثم حدد تحت هذا العنوان من خصائص المكان ما يلى :

الحماية الطبيعية بأن يكون موضع المدينة فى متمنع من الامكنة ، اما على هضبة متوعرة فى الجبل ، واما باستدارة بحر أو نهربها حتى لا يوصل اليها الا بعد العبور على جسر او قنطرة ، فيصعب منالها على العدو ، ويتضاعف امتناعها وحصنها . (١٣)

الحماية البشرية المكملة للحماية الطبيعية وتتمثل فى أن يدار على منازل المدينة جميعا سياج الأسوار (١٤) الذى يدفع العدوان الخارجى عند الغفلة او الاغارة ليلا أو العجز عن المقاومة نهارا ، او يدفعه جنود الحامية من أعوان الدولة عند الاستعداد والمقاومة . (١٥)

وبالاضافة الى أهمية الاسوار لتحقيق الحماية للمدن يرى ابن خلدون ان المدن الساحلية تحتاج ـ اذا لم تكن فى موقع جبلى ـ الى ظهير بشرى موفور العدد يكون صريخا للمدينة متى طرقها طارق من العدو ، والسبب فى ذلك ان المدينة اذا كانت حاضرة البحر ، ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبيات ، ولا موضعها متوعر فى الجبل كانت في غرة للبيات وسهل طروقها من الاساطيل البحرية على عدوها وتحيفه لها ، لما يأمن من عدم وجود الصريخ لها،

---

(١١) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٧٥ ، ٩٧٦ .

(١٢) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٧٣ .

(١٣) ابن خلدون : نفس المرجع ونفس المكان .

(١٤) ابن خلدون : نفس المرجع ونفس المكان .

(١٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٩٢ ، وقد علل ابن خلدون قيام الاسوار واهميتها بقوله : والسبب فى ذلك ان أهل الحضر القوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة ، وانغمسوا في النعيم والترف ، ووكلوا امرهم في المدافعة عن احوالهم وانفسهم الى واليهم والحاكم الذى يسوسهم والحامية التى تولت حراستهم واستناموا الى الاسوار التى تحوطهم والحرز الذى يحول دونهم .. انظر ص ٥٨٨ .

وان الحضر المتعودين للدعة قد صاروا عيالاوخرجوا عن حكم المقاتلة وهذه الاسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب . (١٦)

مواد المياه : ادخلها ابن خلدون ضمنجلب المنافع للمدن ، وذلك بأن تكون المدينة على نهر أوبازائها عيون عذبة ثرة ، فان وجود الماءقريبا من المدينة يسهل على السكان وفرة الماء وهى ضرورية ، فيكون لهم فى وجوده مرفقةعظيمة عامة . (١٧)

الظهير : (اقليم المدينة) قد عدد فيه ابنخلدون عدة مظاهر طبيعية :

(أ) النطاق الزراعى فان الزورع هىالاقوات ، فاذا كانت مزارع المدينة بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله .

(ب) توافر المراعى : ما يراعى من المرافقفى المدن طيب المراعى لسائمتهماذ ان صاحب كل قرار لابد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرعوالركوب ، ولا بد لها من المرعى ، فاذا كان قريبا كان ذلك أرفق بحالهم ، لما يعانون من المشقةفى بعده .

(ج) توافر النباتات الطبيعية : ومنذلك الشجر للحطب والبناء فان الحطب مما تعم البلوى فى اتخاذه لوقود النيران للاصطلاءوالطبخ . والخشب أيضا ضرورى لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب منضرورياتهم . (١٨)

الموقع : أشار ابن خلدون الى أهميةالموقع الساحلى واعتبره مما يراعى عند قيام المدن ، ذلك أن قربها من البحر يسهل حاجاتهمالقاصية من البلاد النائية ، وان كانت هذه الميزة ــ كمنفعة للمدينة ــ ليست بمثابةالميزات السابقة كما يقول . (١٩)

المناخ : وهو مما يراعى حماية المدن ؛ذلك ان طيب الهواء شرط للسلامة من الامراض ، والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرةفى الغالب ، وقد اشتهرت بذلك مدينة قابس بالمغرب ، اما الرياح فقد اهتم بها في المدن لانهاتخبث مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات ، فى حين ان الظعن بالبادية يجعل الهواء طيباً . (٢٠)

---

(١٦) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٧٥ / ١٩٧٦ .وتصديقا لقوله عن الاسكندرية تعرضها سنة ٨٣٢ هـ الى هجوم خمسة مراكب للفرنج ، ومبادرة عبد القادر بن أبىالفرج الاستادار الى جميع عرب البحيرة وادخالهمالاسكندرية حتى قويت بهم نفوس أهل الثغر ونكص الفرنج على اعقابهمبعد أن جرح منهم جماعة .. أنظر ابن حجر العسقلانى : أبناء الغمر ج ٣ : ص ٤٢٠، وكانت الاسكندرية قداستبيحت من قبل على يد القبارصة سنة ٧٦٧ هـ بل وتعرضت لهجمات العربان عند فرار أهلها امام الفرنج .

(١٧) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٧٤ .

(١٨) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٧٤ / ٩٦٥ .

(١٩) ابن خلدون : نفس المرجع السابق ص ١٩٧٥ .

(٢٠) ابن خلدون : المرجع السابق . ص ٩٧٥، ٩٩٢ .

الظروف الصحية : ذلك ان مجاورةالمدن للمياه الفاسدة ، او المناقع المتعفنة او المروج الخبيثة مما يؤدى الى سرعة التعفنوسرعة حدوث المرض للحيوان الكائن فيها لا محالة . (٢١)

وبعد أن عالج ابن خلدون **هيئة المكان**أشار الى تفاوت المدن بمدى توافر هذه الخصائص أو عدمها ، فانه بالتفاوت في هذهتتفاوت جودة المصر ورداءته من حيث العمران الطبيعى .

وقد انتقل ابن خلدون بعد ذلك الىالجانب التطبيقى وما يحدث عندما يكون الوضع للمدن غافلا عن حسن الاختيار الطبيعى بمااشترط فى المكان من خصائص طبيعية وبشرية .

ويضرب المثل بالعربعندما اختطوا الكوفةوالبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطاطها الا مراعى ابلهم ، ومايقرب من القفر ومسالكالظعن ، فكانت بعيدة عنالوضع الطبيعى للمدن، ولم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم ، فقدكانت مواطنها غير طبيعية للقرار ، ولم تكن في وسط الأمم فيضمرها الناس . فلأول وهلةمن انحلال أمرهم وذهاب عصبيتهم التي كانت سياجا لها أتى عليها الخراب والانحلال كأن لمتكن . (٢٢)

وعلى الرغم من وضوح التعليل السابقفان ابن خلدون لم يقطع به كسبب أوحد فى تفسير ظاهرة أن المبانى التيكانت تختطها العربيسرع اليها الخراب الا فى الاقل ، بل وضع أسبابا أخرى منها :

– شأن البداوة والبعد عن الصنائع عندالعرب ، ومن ثم فلا تكون المبانى وثيقة فى تشييدها . (٢٣)

– وأيضا فان العرب كانوا أجانبا عنالممالك التى استولوا عليها قبل الاسلام ، ولما تملكوها لم ينفسح الأمد حتى تستوفى رسومالحضارة ، مع أنهم استغنوا بما وجدوا من مبانى غيرهم أحيانا .

– وأيضا فكان الدين اول الأمر مانعا منالمغالاة فى البنيان والاسراف فيه . (٢٤)

– وأيضا فقد يكون الواضع للمدن غافلاعن حسن الاختيار الطبيعى لأنه انما يراعى فى المدن التي اختطها الاهم عنده من مراعى الابلوما يصلح لها من الشجر والماء والملح ، ولم

---

(٢١) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٧٣ .

(٢٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٩٢ .

(٢٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٩١ .

(٢٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٩١ .

يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعى السائمة من ذوات الظلف وهذا ما حدث في القيروان والكوفة والبصرة ولهذا خربت لعدم مراعاة الامور الطبيعية . (٢٥)

ومن الواضح ان ابن خلدون انما يعالج هنا نمطا واحدا من أنماط المدن العربية وهى المدن الحربية التى تقوم لسد متطلبات الوظيفة ،ومثل هذه المدن فى الغالب هامشية وليس لها ظهير طبيعى أو بشرى يكفل لها الحياة الطبيعية للمدن حين تزول أسباب النشأة الاولى .

ثانيا ــ النمو : عوامل نمو المدن وازدهارها وعوامل تدهورها وخرابها :

يقرر ابن خلدون ان اختطاط المنازل من منازع الحضارة (٢٦) ، وذلك ان الحضارة انما هى تفنن فى الترف واحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والمبانى والابنية وسائر عوائد المنزل واحواله ، (٢٧) ويلاحظ ان المبانى القائمة في المدن لا تكون كلها خاصة بالافراد ، بل ان قسما منها يكون من المرافق العامة التى يشترك فيها ويستفيد منها جميع السكان .

وطبيعى ان هذه المرافق تحتاج الى رعاية الدولة . ولذلك يقول ابن خلدون « لا بد فى تمصير الامصار واختطاط المدن من الدولة والملك » . (٢٨)

هذا ويربط ابن خلدون ــ عند عرضه لاطوار الدولة المختلفة ــ بين رفاهية الدولة حين تصل الى طور الفراغ والدعة وبين تحصيلها بثمرات الملك ، ومن ذلك تشييد المبانى الحافلة والمصانع (المبانى) العظيمة والامصار المتسعة والهياكل المرتفعة ، وذلك بفضل ما تحصله من اموال عن طريق ضبط الدخل العام . (٢٩)

ومن ثم يقرر ابن خلدون ان مبانى الدولة تكون على نسبة قوة الدولة فى اصلها . (٣٠) وهو فى هذا يضيف عاملا هاما فى ازدهار العمران الحضرى نجد مصداقا له فيما شهدته مصر فى عصر الناصر محمد بن قلاوون .

ولا يقتصر دور الدولة على زيادة معدل نمو وازدهار المدن القائمة ، بل تستحدث مدنا جديدة وخاصة زمن الفتوحات الكبيرة لها ،فانها تكون فى حاجة الى استحداث بعض المدن والثغور لايواء حامياتها وحماية حدودها الجديدة من غارات الدول المجاورة لها (٣١)

---

(٢٥) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٧٥ .

(٢٦) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٦٥ .

(٢٧) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٦٥٨ .

(٢٨) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٦٦ .

(٢٩) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٦٦٤ .

(٣٠) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٦٦٦ .

(٣١) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٦٨ .

ويمكن تطبيق قوله هذا على الفتوحات الاسلامية الاولى وما تلاها من اقامة امصار جديدة وسلسلة من الثغور البرية والبحرية على طول الحدود .

وكما ربط ابن خلدون بين رقى الدول ومايطرأ على المدن من ازدهار ونمو تبعا لذلك فقد ربط أيضا بين اضطراب أحوال الدول في أواخرأيامها وما تتعرض له المدن من تدهور وخراب ، وذلك لما يحدث في مثل هذه الفترات من أحداث ترتبط بطبيعة هذه المرحلة من حياة الدول .

وقد استقى ابن خلدون شواهده على ذلك من أحداث عصره وعلى نحو ما هو مقرر فى تاريخ الدول المتعاقبة ، وتتمثل هذه العوامل والمظاهر فيما يلى : عندما يفسد النظام الاقتصادى للدولة يضطرها ذلك الى اتخاذ اجراءات اقتصادية قد تؤدى الى تدهور المدن ، ومن هذه الاجراءات مثلا ، فرض الضرائب او المكوس وزيادتها زيادة بالغة فتكسد الاسواق ويؤذن ذلك باختلال العمران ، فيؤثر على الدولة ، اذ لا يزال ذلك بتزايد الى أن تضمحل . (٣٢)

واما ما يصاحب هذا التدهور الاقتصادى في الدولة فهو بطبيعة الحال ما تكرر حدوثه فى مصر من تعرضها للمجاعات والأوبئة ، وان تضافرت مع هذا كثرة الفتنة لاختلال نظام الدولة السياسى (٣٣) مثل قيام العربان بنهب المدن مع قلة المدافعين عنها (٣٤) . وهكذا يربط ابن خلدون بين الاقتصاد المستقر والاستقرار السياسي ، ويؤكد ارتباط التدهور الاقتصادى بالتدهور السياسى فى أواخر الدولة ، ويبرز بوضوح أثر ذلك كله على تدهور المدن وخرابها .

وعلى نحو ما فصل ابن خلدون عوامل ازدهار العواصم والامصار بالنسبة للدولة الحادثة تعرض عند ذكر تدهور المدن وخرابها لأحوال هذه المدن معللا ذلك ومبينا الاحتمالات التى تطرأ عليها بعد زوال الدول . وينطلق ابن خلدون فى ذلك من قاعدة اساسية هى أن عمر العاصمة هو عمر الدولة التى شيدتها .

ومن ثم فمع امتداد عمر الدولة تشاد المبانى وتتعدد وتتسع الاسواق وتزداد رقعة المدينة كما وقع فى بغداد حتى لم تصبح مدينة واحدة يجمعها سور ، وكما هو حال مصر والقاهرة فى أيامه . (٣٥)

اما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة فتتغير الأمور تماما ، اذ تخرب العاصمة (كرسى الملك) بخراب الدولة وانقراضها على نحو ما حدث للعسكر والقطائع فى مصر . وقد ينقص العمران تدريجيا حتى تنتهي المدينة الى خراب . ويعلل ذلك بفقدان العاصمة لوظيفتها السياسية وما يتبع ذلك من خروج الكثير من سكانها أصحاب الوضائف العامة التى لا توجد

---

(٣٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٨٤٠ / ٨٤١ .

(٣٣) ابن خلدون : المقدمة : ص ٨٨٠ .

(٣٤) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٦٢٣ .

(٣٥) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٦٦ .

الا في العاصمة ، وقلة الاهتمام بها ، فضـلا عماقد ينظر الى سكانها من أنهم اشياع الدولـة السالفة ، بل قد تنقل الدولة الجديدة سكـانالعاصمة القديمة لتضمن سيطرتها عليها .

ولم يقتصر ابن خلدون على معالجة تدهورالعواصم على النحو السابق ، بل يعطى تصورا آخر حيث تقف الظروف البشرية من وراء بقـاءالعواصم على حالها ، وذلك اذا ما بقيت كرسيا للدولـة الجديـدة واستغنت الدولـة بها عـناختطاط عاصمة جديدة على نحـو ما حـدث للقاهرة وفاس . (٣٦)

وهناك سبب آخر يحفظ للمدينة بقاءهاوعدم تدهورها وهو أن تكون قد أقيمت حيـث وضعها الطبيعى (ما اشترطـه من قبـل عنـداختطاط المدن) ومن ثم يكـون للمدينـة ظهير بشـرى في ضواحيها ومـا قاربهـا فى الجبـالوالبسائط من بادية تمدها بالسكان ، فيكون ذلك حافظا لوجودها وبقائها كما هـو الحـالبفاس وجاية من المغرب . والسبب فى ذلك هو ما يقرره ابن خلدون من تحول سكان الريـفوالبادية الى سكنـى المـدن (ظاهرة الخـروج الريفى) . واما اذا لم يتوفر للمدن (الامصار)مثل هذه الظروف البشرية فان انقراض الدولة يؤدى الى تناقص العمران وتشتت السكان ومنثم خرابها ، ومثال ذلـك الفسطـاط والكوفـة والقيروان والمهدية وقلعة بنى حماد . (٣٧)

والقد لخص ابن خلدون عمليـة الهـرم فيالمدن بانتقاص عمرانها وقلة ساكنيها ـ أى أنه عالج السكن والسكان فى المدن ورتب على ذلـكمظاهر منها :

١ ـ انتقاص الصناعات : ذلك أن الصنائعانما تستجاد وتكثـر اذا كثـر طالبوها ، فـاذا ضعفت احوال المدن واخذت فى الهرم يتناقصفيها الترف ، ويرجع سكانها الى الاقتصار على الضرورى ، فتقل الصنائع التى كانت من توابعالترف (السلع الترفيهية او الكمالية) ومن ثم يهاجر أصحاب هذه الحرف الى غيرها من المدن،وهكذا تظل الصناعات فى التناقـص ما زالـت المدينة فى التناقص الى أن تضمحل . (٣٨)

٢ ـ ان تراجع عمـران المدن لا يظهـر فيتقلص مساحتها ، وتناقص سكانهـا فقط بـل يظهر في **تغير نمط المبانى ومادة بنائها ،** ذلك انالمدن العامرة تكثر فيها المبانى المشيدة بالحجر والجير والمنمقة بشتى أساليب التنمق ، فاذا**تراجع عمرانها** وخف ساكنها وقلت الصنائع كان من جملة ذلك عدم الاجادة فى البناء واستخدامالطوب بدلا من الحجارة ، والقصور عن التنميق فيعود بناء المدينة مثل بناء القرية والمدن وتظهـرعليها سيماء البداوة ، وفوق هذا فان مع قلـة

---

(٣٦) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٦٧ .

(٣٧) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٦٦ / ٩٦٧ .

(٣٨) ابن خلدون : المقدمة ص ١٠٦٢ / ١٠٦٣ .

السكان وهجر المساكن وعدم القدرة على جلب مواد البناء الجديدة يدفع سكان المدن المتدهورة الى استخدام احجار البناء القديمة ونقلها من الدور القديمة الى الحادثة . (٣٩)

ومثل هذه الدورة في المبانى قد رآتها الفسطاط والقاهرة فى مراحل من تدهور الأولى وخراب ظواهر الثانية مع المجاعات والأوبئة على نحو ما فصل المقريزى (٤٠) ولعله تأثر بأفكار ابن خلدون ، فهو استاذه حين خلص الى مثل هذه النتائج وطبقها على المدينتين .

ثالثا : تصنيف المدن عند ابن خلدون :

لم يكن ابن خلدون اول جغرافى راعى تصنيف المدن ، فقد سبقه آخرون منهم المقدسي الذى صنف المدن على أساس الوظيفة الادارية والسياسية ، وميز بذلك بين ثلاثة أنواع من المدن هى :

١ ــ **الامصار :** وقصد بها العواصم ، وهى المدن التى يحلها السلطان ويجتمع فيها الدواوين (الوزارات) وتقلد منها الاعمال (الوظائف العامة) وتضاف اليها مدن الاقاليم ، مثل الفسطاط فى مصر فى عصره ، وشبهها بالملوك .

٢ ــ **القصبات :** عواصم الاقاليم ... وشبهها بالحجاب .

٣ ــ **المدن أو المدائن :** وهى ما يلى القصبة في الاقليم من مدن أخرى غير عاصمتها وشبهها بالجند . (٤١)

وهكذا نجد أن المقدسي قد حدد بذلك نوعا واحدا من المدن وهى ذات الوظيفة الادارية ، وان أخذ فى اعتباره ــ ضمنا ــ اتساع رقعة المدينة وحجمها .

أما ابن خلدون فقد راعى اتساع كتلة المدينة ، وقصد بذلك مدى اتساع العمران بالمدينة واكتمال مرافق المدن بها ، وتنوع هذه المرافق واحتواء المدينة على الكثير من مظاهر التحضر والترف ممثلة فى تعدد الصناعات بها . وعلى هذا الاساس صنف المدن فمنها :

* المدن الامصار المستبحرة فى العمارة .
* والمدن المتوسطة .

---

(٣٩) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٩٩٢ / ٩٩٣ .

(٤٠) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٠٨ / ١٣٢ .

(٤١) المقدسي : ص ٤٧ ، محمد محمود الصياد ، الفكر الجغرافى العربى وتطوره ص ١٢٧ مجلة الثقافة العربية ١٩٧٥ .

فأما المدن المستبحرة في العمارة فانها بحكم اتساعها الكبير تختص بكل الصنائع ، بل تتداعى الصنائع فيها سواء الصنائع الضرورية او الكمالية الترفيهية ، وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة تستحدث الصنائع وهذا من خصائص الأمصار ، وقد حدد من المظاهر المميزة للمدن المستبحرة الحمامات (٤٢) لانها انما توجد فى الامصار دون المدن المتوسطة ، كما حدد أيضا ان الصنائع في الامصار كاملة ومتعددة ، اما فى المدن المتوسطة فناقصة ومقتصرة على البسيط الضرورى .(٤٣)

• • •

التركيب الداخلى للمدينة العربية

ا ـ الخطة : (تخطيط المدينة)

يعد تخطيط المدن العربية من أهم الظواهر الحضارية والفنية عند العرب التى بدأت مع الفتح العربى بتمصير الامصار ، فصارت هذه المدن الحادثة في الاسلام من مظاهر الحضارة العربية . وعلى الرغم من أن هذه المراكز الحضرية كانت لها صفاتها الحربية عند تخطيطها الأول الا انها قد اشتملت على سمات حضارية تعكس تخطيط المدن عند العرب ، من ذلك تمصير البصرة على عهد عمر بن الخطاب ، فقد جعلت خططا(٤٤) للقبائل وجعل عرض شارعها الاعظم وهو مربدها ستين ذراعا (٣٢ مترا تقريبا) وجعلوا عرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعا ، وعرض كل زقائق سبعة أذرع ، ثم جعلوا فى وسط كل خطة رحبة (٤٥) فسيحة لمرابط خيلهم وقبور موتاهم وتلاصقوا فى المنازل . (٤٦)

أما الكوفة فقد خططت شوارعها بحيث كان عرضها عشرين ذراعا ، وطولها اربعين ذراعا ، والازقة عرضها تسعة أذرع ، والقطائع ستون ذراعا ، وبنوا المسجد الجامع فى الوسط بحيث تتفرع الشوارع ، وهذا يدل على نفاذ سوق التخطيط في البناء حتى فى هذا الزمن الاول (٤٧) للحضارة العربية .

---

(٤٢) ابن خلدون : المقدمة ص ١٠١٨ / ١٠١٩ .

(٤٣) ابن خلدون : المرجع السابق ص ١٠٥٧ / ١٠٥٨ .

(٤٤) الخطة : المكان المختط للعمارة والارض يختطها الرجل لم تكن لاحد من قبله والجمع خطط وعندما بنى العرب مدينة الفسطاط جعلوها أخطاطا اما قاهرة المعز فكانت حارات والحارة هى كل محلة دنت منازلها والمحلة منزل القوم فالحارة كالخط جزء من مجموع مابنى المدينة يتخللها الطرق ويوجد بها المرافق العامة ... انظر تعليقات محمد رمزى على النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٤٢ .

(٤٥) الرحبة : الاصل فى الرحبة الفضاء ، وقل ان تكون مدينة ليس فيها محلة يقال لها الرحبة .. انظر ياقوت : المشترك ص ٢٠٣ .

(٤٦) ابن حبيب البغدادى : الاحكام السلطانية ص ١٧١ .

(٤٧) الكتانى : نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية جـ ١ ص ٢٨٢ / ٢٨٣ دار احياء التراث العربى ـ بيروت ـ لبنان .

واذا كان المبدأ القبلى قد روعى فى تنظيم الجيش العربى زمن الفتوح الاولى فان ذلك الأمر قد اخذ به فى تخطيط المدن التى بناها العرب كذلك ولنفس الحكمة وهى مراعاة الانسجام والتكاتف ومنعا للتفاخر او التنافس ووقوع المصادمات فى مثل هذه الظروف الحربية. ولهذا فقد خصصت الاحياء لسكنى القبائل ، ومن ثم كانت الاحياء تحمل أسماء القبائل ، والشوارع تحمل اسماء البطون التى تسكن فيها ... وهكذا يعطينا تخطيط مدينة **الكوفة** صورة عن أنساب العرب . ولم يكن الأمر فى البصرة مختلفا عن هذا (٤٨) كما قد طبق المبدأ القبلى عند تخطيط مدينة الفسطاط وصارت ضواحى الفسطاط على هذا الأمر ، كما حدث فى مدينة القطائع واخيرا فى قاهرة المعز ، كما تدل على ذلك أسماء الحارات التى تعكس طوائف الجند العرقية التى شاركت فى الفتح الفاطمى لمصر .

ب ـ مواضع المدن :

المقصود بذلك الموقع المحلى الذى تحدد الظروف الطبيعية أن تقام فيه المدينة على نحو ما حدد ابن خلدون ، وهو أمر وقع به الاهتمام عند العرب وفقا لاغراض الاستقرار المدنى ، ولكن هناك مواصفات عامة ذكرت فى مواضع المدن من ذلك ماقاله ابن قتيبة عند ذكر الأمصار.

قالت الحكماء : المدائن لا تبنى الا على ثلاثة أشياء ، على الماء والكلأ والمحتطب . (٤٩) وفى موضع آخر ، وقالت الحكماء من الروم ، اصلح مواضع البنيان أن يكون على تل أو كبس وثيق ليكون مطلا (٥٠) . ويقول ابن الفقيه فى هذا المعنى واصح البلاد ما كان على الجبال والاماكن التى تواجه مهب الصبا (الشمال) ، وما كان فى قعور وأغوار ومواجهة لريح الجنوب او الدبور فهى مواضع ردية مولدة للامراض (٥١) وأولى المواضع ببناء المدن والدور المشرف من الارض ليشرف على ما حولها . (٥٢)

ولما كانت ارض مصر مستوية منخفضة ، يهددها الفيضان كل عام فلا بد من كومات كبيرة من التراب ، ترتفع فوق مستوى أعلى فيضان وتثبت امام الماء الجارف وقت اندفاع المياه ، وكثيرا ما تبطن جنبات هذه الكومات بالاحجار الجيرية البيضاء يجلبها القوم من حافة الهضبة اذا كانت قريبة ، أو بأعمدة من جذوع الاشجار وجدائل من الاحراش والاعشاب ان كانت الكومة

---

(٤٨) عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الاولى للهجرة ص ٢٢٩ دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، وقد اعتمد على يوليوس فلهوزن : الخوارج والشيعة هامش ص ١٥٤ ، الترجمة العربية . القاهرة ١٩٥٨ .

(٤٩) ابن قتيبة (ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ت ٢٧٦ هـ) عيون الاخبار المجلد الاول ص ٢١٣ . دار الكتب المصرية . القاهرة ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٥م

(٥٠) ابن قتيبة : المرجع السابق ص ٣١٣ .

(٥١) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ١٥٣ .

(٥٢) ابن الفقيه : المرجع السابق ص ١٥٥ .

بعيدة عن الهضبة ومعرضة فى بعض جنباتهالتيارجارف ، وذلك حتى لا تنهار الكومة ويجـرفها الماء (٥٣) خصوصا وان لماء الفيضـان فى ذلكالوقت امواجا عالية نسبيا تصطدم بالكـومات مما يؤثر على تماسكها .

هذا اذا كانت مراكز الاستقرار البشرىقائمة فى وسط المحيط الزراعى وهـو النمـط السائد فى معظم القرى المصرية ومدنها الداخلية ،اما اذا كانت تلك المراكز قائمة على ضفة النهـر أو خلجانه مباشرة فان مثل هذه المواضع ، وانكانت تستفيد من جسور النهر العالية أو ضفافه المرتفعة ، الا أن ذلك لايمنع من تعرض هـذهالمدن لأخطار الفيضانات العالية ، ومن ثم نجـد تدابير أخرى تتخذ لحماية المدن ، من ذلك بناءالجسور الترابية المدعمة بالاخشاب واغصـان الاشجار ، واحيانا تقام الجدران الحجرية حتىلا تتآكل حافة النهر المقام عليها المدينة ، امـا اذا كان عامل النحر يؤثر فى خط ساحل النهـرالذى تقوم عليه المدينة فان استحداث الرؤوس الحجرية على ضفة النهر عند المدينة يؤدى الىدفع التيار بعيدا عن المدينة نحو الضفة الاخرى.

جـ ــ أسـوار المدن :

عرفت المدينة الأوروبية الاسوار فيالعصورالوسطى ، وكان ذلك كشفا جديدا تدعو اليـه الحاجة وحدها حيال الغارات المفاجئة من اهلالشمال المتبربرين . وكانت الاسـوار الواقيـة بقيامها بالحراسة المستديمة أكثر نفعا من أىقدر من الشجاعة العسكرية . وقد أقيمت تلك الاسوار من الاحجار وحفر حولها خندق .

وخلال القرن العاشر الميلادى نرى ان بنـاءالحصون والاسوار حول مراكز الاستقرار أحـد وجوه النشاط الرئيسية لجيش الملك ، ويعتبرذلك اعادة لبناء الاسوار الرومانية القديمة .

وهكذا نرى ان الحاجة الى الحماية قـداحتلت مكان الصدارة بين مشاغل سكان المدن ، وصار القيام بترميم الاسوار حولها ، من بينالمؤهلات اللازمةلحصولهاعلىحقوق البلديات(٥٤) والخلاصة ، ان المدينة فى العصور الوسطى هىالمدينة ذات الاسوار . (٥٥) وكان السور مـن ابرز سمات تخطيط المدن فى العصور الوسطى ،وقد تضافر مع الخندق الخارجي أو القنـاة او النهر فى جعل المدينة كجزيرة . (٥٦)

واذا كان ما سبق يصدق على المدينة فىأوروبا العصور الوسطى ، فان المدن المصرية فى مجموعها ــ في نفس العصر ــ لم تعرف هـذهالسمة من سمات المدن بوجه عام ، وان كانت

---

(٥٣) سليمان حزين : القرية والاصلاح الريفى فىمصر ص ٢٥٨ / ٢٥٩ .

(٥٤) ممفورد : المدينة على مصر العصور ص ٤٥٢ / ٤٥٥ .

(٥٥)ممفورد : المرجع السابق ص ٤٦٧ .

(٥٦) ممفورد : المرجع السابق ص ٥٥٥ / ٥٥٦ .

قد عرفت الاسوار فى بعض المدن لأسباب وظروف خاصة ولفترات محددة ارتبطت بتلك الظروف من ذلك :

١ ـ مدن الثغور والرباطات وهذا أمر يتمشى مع وظيفتها الحربية .

٢ ـ المدن المعرضة لغارات الأعراب وخاصة اذا كانت هامشية مثل **دمنهور** .

٣ ـ المدن الواقعة على طرق الغزو الخارجى مثل **بلبيس** وذلك لدورها الحربى .

وهناك مدن أخرى بصعيد مصر ذكر ابن جبير ـ فى رحلته ـ ان لها أسوارا مثل اسيوط ودشنا وقوص .

د ـ توابع المدينة فى ظواهرها :

الارباض جمع ربض ، والربض (٥٧) مـاحول المدينة ، (أى ما هو خارج عن كتلتها السكنية الرئيسية أو خارج اسوارها اذا كانت مسورة) وقيل هو الفضاء حول المدينة . وقيل هى الابنية (المساكن) التى تكون حـول المـدن وتحت القلاع ... وهذا المعنى الاخير هو المقصود هنا أى ضواحى المدينة أو ظاهرها او توابعهـا المتصلة بها عمرانيا . ومن الواضح ان الارباض من خصائص او سمات المدن الكبرى خاصة مثل عواصم الدول .

وقد اهتم ياقوت الحموى بالارباض وعددها ويمكن ان نعطى أمثلة للارباض مما ذكرها وذلك ليتضح المدلول الجغرافى للضواحى عند الجغرافيين العرب حيث قصدوا بها ما اتصل بكتلة السـكن الرئيسية ، وليست الضـواحى المنفصلة التى لا تتصل مباشرة بالمدن ، وأنهم قد ميزوا بـين صور متعددة من الاستقرار القريب من المدن .

يذكر ياقوت ربض قرطبة بالاندلس متصلة بها بظاهرها ، **وارباض القاهرة** فى عصره ما اتصل بها من عمران خارج اسوارها ، ومن ثم حين يذكر ((**أم دنين**)) يقول : هى قرية كانت بين القـاهرة والنيل اختلطت بمنازل ربض القـاهرة . اما **مدينة قوص** (التى كانت تعيش عمرها الذهبى) فلها ربضها ممثلا فى **منية قوص** فهى ربض المدينة وهو كبير واسع فيه منـازل التجـار وارباب الاموال :

---

(٥٧) لمزيد من التفاصيل عن اللفظ يحسن الرجوع الى قواميس اللغة وخاصة :

ابن منظور : لسان العرب

الزبيدى : تاج العروس جـ ٥ ص ٢٩

الربعى : كتاب نظام الغريب ص ٨٣ . الطبعة الاولى ، القاهرة .

العسكرى : التلخيص جـ ١ ص ٢٦٢

فالربض سور المدينة ومأوى الغنم ووسط الشيء ، والربض او الربض أساس البنيان او البناء وقال بعضـهم أساس المدينة ، والربض (بالتحريك) نواحى الشيء أى احياء المدينة ومن ثم نجد ياقوتا يذكر أن الارباض كثـيرة وقل ما تخلو مدينة من موضع فيها يقال له الربض وعدد ارباض بغداد او محلاتها . ويذكر العسكرى ان اللفظ يقال له بالفارسية براسته .

ومن المـدن الاخرى الكبـيرة التى عرفت الارباض فى مصر نجد مدينة تنيس . هذا وقصر لفظ الربض على احياء المدينة الخارجية المتصلة بالمدينة الأم واضح عند الجغرافيين العرب ، بل قد ذكره الفقهاء الأحناف عند تحديدهم لتوابع المصر (المدينة) فجعلوا كل قرية متصلة بربض المصر من توابع المصر فان لم تكن متصلة بالربض فليست من توابعه أى كما قالوا « ماكان خارجا عن عمران المصر فليس من توابعه ، وان كانوا قد قدروا أحيانا مسافة عدة أميال أو فراسـخ لهذا التحديد . (٥٨)

ويرى حسين مؤنـس ان الارض كضواح للمدن يقصد بها ما اتصل بعمارة المدينة وكانت صغيرة ، فاذا كانت كبيرة منقطعة عن عمارة البلد سميت بالحاضر (٥٩) وسـوف نعرض لمـداول الحاضر والضاحية، ثم نقارن ذلك بما كان سائدا فى أوروبا العصور الوسطى .

الحواضر : فى قواميس اللغة الحاضر المقيم فى المدن والقرى بخلاف البادى المقيم بالبادية ، ويقال للمناهل المحاضر للاجتماع والحضور عليها والحاضرون : كل من نزل على ماء عد ولم يتحول عنه شتاء ولا صيفا فهو حاضر سواء نزلوا فى القرى والأرياف والدور المدرية او بنوا الاخبية على المياه فقروا بها ورعوا ما حواليها من الكلأ .

قال الخطابى وربما جعلوا **الحاضر** اسـم المكان المحضور ، ويقال نزلنا حاضر بنى فلان ، **والحاضرة** بقنسرين وهو موضع الاقامة على الماء من قنسرين ، **والحاضر محلة عظيمة بظاهر حلب** وهذا المعنى هو المقصود هنا ، ومن ثم نجد ياقوت الحموى في معجمه يذكر **حاضر قنسرين** فيقـول قرية جامعة كالمدينة تقابل قنسرين ، **والحـاضر السلمانى : حاضر مدينة حلب بظاهرها** ، ويعرف قديما بحاضر السليمانية وهو ربضها محلة عظيمة كالمدينة . ولهذا الحاضر توابعه ، فالظاهرية محلة بظاهر حلب متصلة بالحاضر السلمانى كان أول من عمرها الملك الظاهر غازى بن صـلاح الدين قرابة سنة ٦٠٠ هـ .

اما زويلة افريقيـة فهى مـدينة كالربض للمهدية بمنزلة الحاضر لمدينة حلب جعلها عبيدالله المتسـمى بالمهدى جـد ملوك مصر المتعـلوية (الفاطميين) مسكنا للرعية بأهاليهم وسكن هـو وجنده **المهدية** ، فكانت الرعية تبيت بزويلة عند أهاليهم ويبكرون الى دكاكينهم ومعايشهم بالمهدية. وزعم المهدى انه فعل بهم ليأمن غايلتهم ، قـال أحول بينهم وبين اموالهم ليلا وبينهم وبين حرمهم نهارا . (٦٠)

واضح ان الحاضر والربض يشتركان فى أنهما من ظواهر المدن وتوابعها ، وليس هنـاك ما يدل على الفرق بينهما من حيث الاتصال اوالانفصال عن كتلة المدينة الأم او اختلاف الحجم والمساحة بدليل ان ياقوت وصف الحاضر (حاضر حلب) انه ربضها ، وان كان واضحا ان الحـاضر

---

(٥٨) الزبيدى : تاج العروس جـ ٣ ص ١٢٨ .

(٥٩) حسين مؤنس : فجر الاندلس ص ٥٨٩ .

(٦٠) ياقوت : المشترك ص ١١٨ ، ٢٣٦ .

كبير كالمدينة وله توابعه (الظاهرية) ولكن نلاحظان مثل هذه الحواضر أو المدن السكنية قد ارتبطت بالمدن الحربية الحادثة التى تقيمهاالدول الغازية عند سيطرتها على البلاد المفتوحة ، اذ يصبح الجيش القادم فى حاجة الى مدينته الحربية التى يقتصر سكناها على السلطان وجنده ، ومن ثم يصبح للسكان المدنيين محلة خاصة بهم خارج أسوار المدينة الحربية ، ولكن هذه المحلة ليست بعيدة عن المدينة ، فهى فى ظاهرها أوحول أسوارها على نحو ما ساقه ياقوت عن **المهدية** وزويلة . وكمثال آخر **قاهرة العز** التى ظلت حصنا للفاطميين ومدينة خاصة بالسلطان وجنده وليست مسكنا للعامة ، ولم تفتح كمدينة عامة الا زمن صلاح الدين الايوبى حين أباحها لسكنى العامة ، ثم اتخذت **قلعة الجبل** كرسيا للملك ، وقامت الارباض فى ظواهر القاهرة الى أن تكون منها ومن الفسطاط مجمع مدنى كبير داخل الاسوار المحيطة بهما .

وكمثال آخر من بلاد المشرق مدينة بخارى فقد كان لها قلعتها ومدينتها المسورة ثم ربضها (وله ابراجه التى تحميه وقد جعلوا له البوابات سنة ٢٣٥ هـ) السور أيضا وقد وصف الدمشقى بخارى كمدينة يحيط بها قصور وبساتين وقرى ومساحتها ١٢ فرسخا ، ويحيط بذلك كله سور واحد ، ولها ربض يشقه نهر الصغد . (٦١)

الضواحى : ضحا الشىء يضحو فهو ضاح أى برز ، والضاحى من كل شىء البارز والظاهر ، والذى لايستره منك حائط ولا غيره . وضواحى كل شىء نواحيه البارزة للشمس والضاحية الناحية البارزة ، ويقال للبادية الضاحية ، **وضاحية كل بلد ناحيتها البارزة وجمع الضاحية ضواح** . ومنه قريش الضواحى اى النازلون بظواهر مكة (بادية) وقريش البطاح (الاباطح) لانه حاضر قطان الحرم **فالضاحية ما تنحى عن المساكن وكان بارزا** . (٦٢)

وقد عرض **القلقشندى** (٦٣) عند ذكر ضواحى القاهرة لمداول اللفظ لغة واصطلاحا فقال الضاحية فى أصل اللغة البارزة للشمس وكأنها سميت بذلك لبروز قراها للشمس بخلاف المدينة لغلبة السكن بها ، وقد اطلقت كلمة الضواحى على ماجاور القاهرة من جهة الشمال من القرى . وكانت ولايتها مضافة الى ولاية القاهرة وداخلة في حكمها .

هذا وقد أحصى **ابن الجيعان** (٦٤) ضواحى القاهرة فى عشرين ناحية وذلك بخلاف قرى الحبس الشرقي أو نواحيه (ست نواح) وهى فى مجموعها تمثل القرى الواقعة الى الشمال من القاهرة والى الشمال الشرقى على نحو ماهو محدد فى خريطة الضواحى .

ومعنى **هذا ان الضواحى تختلف عن الارباض والحواضر السابقة وفقا لمفهوم العصر الوسيط عند الجغرافيين العرب ، واما مفهوم الضاحية الحديث فقد بدأ فى اوروبا العصور الوسطى على**

---

(٦١) الدمشقى : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص ٢٢٣ .

(٦٢) ابن منظور : لسان العرب ج ١٦ ص ٢٠١ .

(٦٣) القلقشندى : صبح الاعشي ج ٣ ص ٤٠٢ .

(٦٤) ابن الجيعان : التحفة السنية ص ٨١٥ .

نحو ما عرض ممفورد . فمنذ القرن الثالث عشر الميلادى كانت هناك حول فلورنسا بايطاليا الضواحى المقصورة الى حد كبير على الطبقة العليا، وقد تمثلت الضواحى فى العهد الاخير من العصور الوسطى كاكواخ ومنازل صغيرة وفيلات مع حدائق فسيحة خارج اسوار المدينة ، وكانت تستخدم للتتريض فى الصيف كأماكن للهواء الطلق وسط المبانى القليله والحدائق ، ثم نشأت ضواحى لندن بعد ذلك بعدة قرون . (٦٥)

هـ ــ شوارع المدن :

كان للمدينة شارعها الاعظم الذى يتسع أضعاف شوارعها الاخرى، ثم تأتي بعد ذلك السكة (أوسع من الزقاق سميت بذلك لاصطفاف الدور فيها) ثم الزقاق .

ويجب أن لا ننظر الى اتساع هذه الشوارع فى ضوء اتساع الشوارع فى العصر الحاضر ، وانما فى ضوء ظروف العصور الوسطى ومهمة الشارع فى ذلك الوقت .

فقد كانت الشوارع تستخدم للسير على الاقدام ولم تكن تستخدم من قبل الباعة المتجولين، فالتجارة لها أحياء خاصة بها ، كما أن وسائل الحمل والنقل لم تكن الا الدواب . وهذه الصفة ــ ضيق الشوارع فى العصور الوسطى عن العصر الحاضر ــ كانت مشتركة بين المدينة العربية والأوروبية (٦٦) على السواء ، وان اختلفت العلة في ذلك . ففى حين كان ساكن المدينة الاوروبية ينشد الوقاية من ريح الشتاء فقد مكنه ضيق الشوارع وتعرجها من غرضه هذا وقلل من مساحة الاوحال، ومن ثم وفرت له هذه المواصفات المزيد من اسباب الراحة أثناء مزاولة نشاطه اليومى . وحتى شوارع جنوب اوروبا ــ حيث الدفء ــ كانت ضيقة والمنازل ذات اجزاء عريضة بارزة تقى السائر على قدميه من المطر ومن وهج الشمس على السواء . (٦٧)

اما المدينة العربية فان ضيق شوارعها انما جاء استجابة للمناخ الحار وشدة وهج الشمس واشعتها فى فصل الصيف خاصة . ومن ثم فقد كان ضيق الشوارع سببا فى زيادة مساحة الظل فى الطرق ، وفوق ذلك فان شوارع الحى التجارى أو السوق كانت لها سقائفها لحماية المترددين على المحلات التجارية من الشمس والمطر معا .

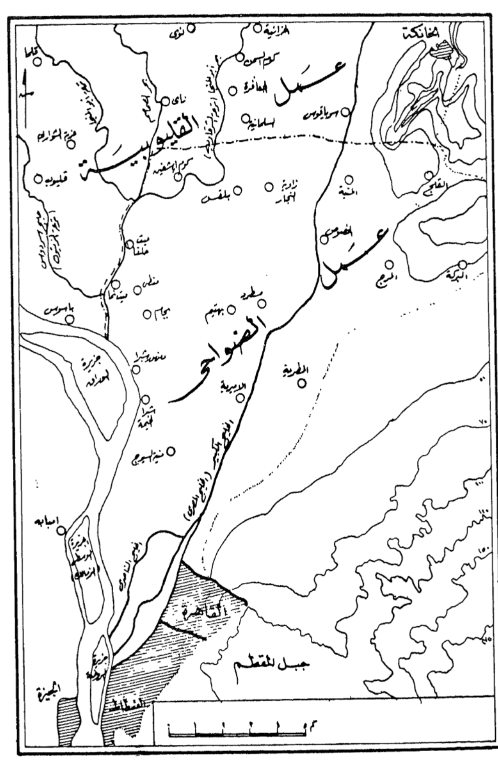
وفوق ما سبق فان الشوارع فى المدينة العربية لم تكن مصدر الضوء والهواء بالنسبة للمنازل على نحو ما هو متبع فى العصر الحاضر ،وانما الاعتماد الكلى في التهوية والضوء للمسكن العربى انما يأتى من داخله حيث الصحن والحديقة وبهذا فان الغرف المطلة على الصحن تستقبل الهواء النقى وتتجنب هواء الطريق بما فيه من أتربة تجعله غير صحى . وعلى الرغم من اتساع الشوارع فى العصر الحاضر الا ان الهواء فيها ملوث بما ينتشر فيها من أتربة وابخرة وغازات وفضلات تلوث بيئة الشارع .

---

(٦٥) عن الضواحى فى العصور القديمة والوسطى انظر ممفورد : المدينة على مر العصور ص ٥٦٤ .

(٦٦) ممفورد : المدينة على مر العصور ص ٥٦٤ .

(٦٧) ممفورد : المرجع السابق ص ٥٦٥ .



عمل الضواحي "عصر المماليك"

وقد خضعت شوارع المدن لاشراف المحتسب فكان يتطلع الى تصحيح مقدارها وترتيب كل الطرق بقسطاسها ومعيارها ويؤدب من يعتمد الخيانة فيها (٦٨) وذلك حرصا منه على قيامها بوظائفها ، وضمانا لنظافتها وحراستها ليلا .

اما من حيث المحافظة عليها فقد منع المحتسب البناء فى الطريق مهما اتسع الطريق ــ ولو كان المبنى مسجدا ــ لأن مرافق الطرق للسلوك لا للابنية ، ومن ثم تهدم مثل هذه المبانى (٦٩) وكذلك يمنع غرس الاشجار اواخراج اجنحة المبانى فى الطريق أو اقامة المصاطب التى تضر بالمارة وتضيق على العامة . (٧٠) بل لم يكن يسمح بوضع الامتعة ومواد البناء التى تنقل بعد فترة قصيرة الا اذا لم يكن فى ذلك ضرر على المارة .

اما عن الباعة فلم يكن يسمح لهم بالبيع والشراء على الطريق ، وكان الورعون لايشترون شيئا ممن قعد على الطريق للبيع (٧١) ومثل هؤلاء يمنعون من جلوسهم فى الطريق ويمنع الشراء منه لأنه غاصب لمواضع مرور الناس وقضاء حوائجهم ان كان الطريق ضيقا واو لم يضيق بذلك عليهم ــ لوسع الطريق ــ فيكره لانه يؤدى الى تضييقها بكثرة الجلوس فيها ، ولأن في الشراء منه اعانة له على ما يتعاطاه مماهو ممنوع فى الشرع الشريف . (٧٢)

ولم يكن يسمح بالتجول فى الشوارع والسكك والأزقة الا للباعة الذين تتعلق تجارتهم بما يلزم سيدات البيوت ، فمثل هؤلاء يسمح لهم بالطواف على البيوت ودخول الأزقة وسلوك المواضع البعيدة من السوق على ان يمر فى حاجته كما يمر غيره . (٧٣)

أما فيما يختص **بالمحافظة على نظافتها** : فقد كان المحتسب يمنع من طرح الكناسة فيها أو رش الماء اذا خشى من التزلق والسقوط ، كما يمنع كل ما فيه أذية واضرار على السالكين كالميازيب الظاهرة من الحيطان فى زمن الشتاء . ومجارى الأوساخ الخارجة من الدور فى زمن الصيف الى وسط الطريق ، فيأمر المحتسب أصحاب الميازيب ان يجعلوا عوضها مسيلا محفورا في الحائط مكلسا يجرى فيه ماء السطح ، وكل من كان فى داره مخرج للوسخ الى الطريق فانه يكلفه سده فى الصيف ويحفر له فى الدار حفرة يتجمع فيها (٧٤) . اما طين المطر فقد كانت ازالته من اختصاص أولى الامر ولا يكلف الناس بذلك لانه ليس من صنعهم ، وكذلك كان يمنع القصابين من الذبح على أبواب دكاكينهم لانهم بذلك يلوثون الطريق ويضيقون على الناس . (٧٥)

---

(٦٨) ابو سالم محمد بن طلحة القرشي النصيبي الوزير (ت ٦٥٢ هـ) : العقد الفريد للملك السعيد ص ١٧٦ ، المطبعة الوهبية ــ القاهرة ١٢٨٣ هـ .

(٦٩) ابن حبيب البغدادى : الاحكام السلطانية ص ٢٤٤ .

(٧٠) النصيبى : مرجع سابق ص ١٧٧ .

(٧١) أحمد سعيد المجيلدى : التيسير فى احكام التسعير ص ٧٤ / ٧٥ .

(٧٢) ابن الحاج : المدخل جـ ٤ ص ١٠١ ، ابن الاخوة : معالم القربة ص ٧٨ .

(٧٣) ابن الحاج : المرجع السابق جـ ٤ ص ١٠١ .

(٧٤) الشيزرى : نهاية الرتبة ص ١٧ ابن الاخوة : معالم القربة ص ٧٩ .

(٧٥) ابن الاخوة : معالم القربة ص ٩٩ .

واخيرا فقد كان للدرب حارس عليه ان ينصح لاهل الدرب ويسهر عليه اذا ناموا ، وينبه النوام اذا اغتيلوا بحريق أو غيره ، ولا يدل على عمارتهم واليا ولا غيره ، ويقابل هذا الحارس فى اطراف المدينة الخارجية الطوفية وهم بين البساتين والمساكن الخارجة عن البلد كالحارس بين الدروب فى وسط البلد . (٧٦)

و ـ المنازل

وليس أدل على اهتمام الاسلام بالبناء والتشييد ودفع الناس الى ذلك من تقريره أن من أحيي مواتا ملكه ، ويستوى في ذلك احياء الارض للزرع واحياء الموات للسكنى وذلك بالبناء والتسقيف لانه أول كمال العمارة التي يمكن سكناها (٧٧) . ويذكر البغدادى عن أهل مصر أنهم قلما يتركون مكانا غفلا خاليا من مصلحة .

ولم تكن المساكن بعيدة عن تفتيش المحتسب واشرافه فقد كان له الحكم على أهل المبانى المتداعية للسقوط بهدمها وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة (٧٨) وكان يتدخل لمنع صرف مياه اسطحها فى ميازيب ، ويلزم اصحابها بحفر المسيلات فى الجدران بدلا من ذلك .

هذا وقد كان للعرب مواصفات مرعية عند تشييد المبانى خاصة باختيار افضل مواضعها، من ذلك قولهم جميع خصال الدار المتحسنة ان تكون على طريق نافذة وماؤها يخرج فيها وليس عليها مشترف وحدودها لها ، وتكون بين الماء والسوق ويصلح فناؤها لحط الرجال وبل الطين ووقوف الدواب ، وان كان لها بابان فذاك امثل، وينبغى أن يكون ايضا فى طرف البلد لأن الاطراف منازل الاشراف (٧٩) القادرين على تحقيق كل هذه المواصفات المطلوبة . « واحق ما جعلت اليه أبواب المنازل وافنيتها وكواؤها المشرق واستقبال الصبا فان ذلك اصلح للابدان لسرعة طلوع الشمس وضوئها عليهم . (٨٠)

اما عن ارتفاع المنازل واحجامها ، فقد عرفت مصر تعدد الطوابق فى منازلها ، ويذكر المقدسى انها بلغت خمس طوابق حتى تصير المنازل كالمنائر يدخل اليها الضياء من الوسط . ويضيف ان الدار الواحدة يسكنها مائتا نفس (٨١) ، وقد بلغ من عظم مساحة بعض الدور بالفسطاط ان كان يطلق عليها اسم المدينة ، مثل دار آل مروان فهى الدار المذهبة التى اقامها عبدالعزيز بن مروان سنة ٦٧ هـ ، التى كان يصب لسكانها فى كل يوم ٤٠٠ راوية ماء ، وقد اشتملت على خمسة مساجد (مساجد الصلوات الخمس) وحمامين واكثر من فرن . (٨٢)

---

(٧٦) السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ص ١٢٥ / ١٢٦ .

(٧٧) ابن حبيب : الاحكام السلطانية ص ١٦٩ .

(٧٨) ابن خلدون : المقدمة ص ٧٤٦ .

(٧٩) الغزولى : مطالع البدور في منازل السرور ص٨، ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان .

(٨٠) ابن قتيبة : عيون الاخبار المجلد الاول الجزء الثالث ص ٢١٣ .

(٨١) المقدسي : احسن التقاسيم ص ١٩٨ .

(٨٢) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٣٠ .

ولعـل من أهم ما يميـز المنازل العربيةالاسلامية على اختلاف انواعها وجود صحن او فناء مكشـوف ــ قد تكون فيه أشجار أحيانا ــيتوسط كتلة المبنى وتلتف حوله بقية الوحدات المعمارية الرئيسية منها والثانوية ، كى تستمدمنه معظم حاجتها من الضوء والتهوية ، ثم يستمد القليل الباقى من الطرق والشوارع الخارجية .وعلى هذا فان الصحن كان هو الوحدة الهـامة أو بالأحرى ، كان هو نواة تصميم مساقط جميعالعمائر على اختلاف انواعها ، لأنه يؤدى عـدة وظائف ، كتلطيف حدة الضوء وكونه بمثابةمرشحللهواء الذى يحمل الغبار ــ وخاصة في مـدن النطاق الصحراوى . وكان الصحن باتساعه هذامخزنا للدفء فى الشـتاء اذا اغلقت الابواب والفتحات الخارجية فيمنع مرور تيارات الهواء.وعلى العكس من ذلك فى الصيف يساعد عـلى تلطيف شدة القيظ اذا تركت تيارات الهواءتدخلمن خلال فتحات المنزل والفناء ، ويزيد من نفعه لهذا الغرض اذا ما زرعت فيه أشجار وزهور أوتوسطته نافورة أو حوض للماء . (٨٣) ولا تقتصر فائدة النافورة أو الحوض على تلطيف وانعاشالجو وتجميل المنظر ، بل كانت كوعاء لحـفظ الماء اللازم للحياة المنزلية .

وترجع اهمية الصحن كجزء رئيسى فى كلمنزل الى انه المكان الذى تقوم فيه ربة البيت بأعمالها المنزلية بعيدا عن اعين الغرباء من الزواراو الجيران أو المارة ، وفوق ذلك فان سـكان المنزل يقضون جزءا كبيرا من حياتهم العائلية به،وهو أيضا مرتع للاطفال (٨٤) هذا وقد بقى الفناء من سمات بعض الدور الاسبانية حتى الوقتالحاضر ، ويسمونه هناك Patio ولا يزاليؤدى بعضا من تلك الوظائف التى أشير اليها . (٨٥)

اما عن **المظهر الخارجى للمنازل** فانها كانتبخلاف ما هى عليه من الداخل من ابهة ، فـلم يكن يزين تلك الجدران العـارية سـوى أبوابالمداخل الصغيرة الخالية تمـاما من الزخـرفة والنوافذ القليلة الصغيرة . وقد عرفت الطوابقالعلوية ــ فى المنازل ذات الاهمية ــ «المشربيات» التى انتقلت الى أسبانيا وعرفت باسم الشماسة Ajimez (٨٦) حيث تسـتطيع النسـاء من خلالها مشاهدة من بالخارج دون أن يراهن أحد،وقد ظهرتهناك فىالقرن الرابع عشرالميلادى(٨٧)

اما الابواب فكانت صغيرة وجانبية ، ومنالمتبع دائما الا يتواجه بابان على جانبى الطريق للتخلص من نظرات الفضوليين ، كما أن مدخـلالمنزل يؤدى الى داخله في ممر متعرج يفضى الى داخله بما لايمكن من بالخارج من رؤية منبالداخلعلى الرغم من فتح الباب الخارجى . (٨٨)

---

(٨٣) فريد شافعى : العمارة العربية في مصرالاسلاميةص ٢٨ / ٢٩ ، ليوبولد توريس / الابنية الاسلامية ص١٢٧.

(٨٤) فريد شافعى : المرجع السابق ص ٢٩ ،ليوبولد وتوريس : المرجع السابق ص ١٢٧ .

(٨٥) فريد شافعى : مرجع سابق ص ٢٩ .

(٨٦) انظر ليوبولد وتوريس ص ١٢٤ حيث يشـيرالى أن هذه الكلمة القشتالية مشتقة من اللفظ العـربى الشماسة أى النافذة وكلمة الشماسة بدورها مشتقة مـنكلمة الشمس وكانت هذه الشماسات تزيد من ضيقالشوارع الصغيرة جدا وتعمل على اظلامه وقد ازيلت أواخر القرنين١٥ ، ١٦ م .

(٨٧) ليوبولد وفرويس : نفس المرجع السابق ص١٢٤ / ١٢٦ .

(٨٨) ليوبولد وفوريس : نفس المرجع السابق ص١٢٧ .

وأخيراً فان أشكال المبانى فى المدينةالعربيةوان اتفقت فى قدر مشترك من المواصفات الا انها تتعدد وفقا لاختلاف وظائفها مابين مرافق عامةدينية واخرى اجتماعية وترفيهية وصحيةوثالثة اقتصادية تجارية ورابعة حربية .

ز ـ تلاؤم المبانى المصرية مع ظروف المناخ((تأثير المناخ على طرز العمارة فى مصر))

لا يشكل فصل الشتاء فى مصر مشكلةكبيرة بالنسبة للسكان حيث لاتقسو فيه ظروف الجو كثيرا ، اما فى فصل الصيف ، وخاصةشهرى يوليو واغسطس ، فان الحرارة الشديدة تصبح من المشاكل التى تجعل من الضرورىالتكيف معها للتخفيف من آثار ارتفاع درجات الحرارة .

ولما كانت الرياح الشمالية في مصر باردة نسبيا ـ ومنعشة لأنها قادمة عبر البحر المتوسط فان اثرها في الصيف يكون طيبا ، خصوصا وانهاتسود فى الصيف سيادة تامة على الوادى والدلتا وتصبح الحاجة اليها فى الوادى اشد لأن الحرارةتزداد كلما توغلنا جنوبا .

وفى سبيل التغلب على الحرارة الشديدةوالاستفادة ـ فى هذا المجال ـ بالرياح الشمالية (التجارية) ابتكر المصريون عنصر ((**الملاقف**)) فيالعمارة وذلك منذ عصر الفراعنة كما دلت على ذلك النقوش (٨٩) . وقد استلفت نظر عبداللطيف البغدادى فى مصر ان المصريين ((يجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة ،وقلماتجد منزلا الا وفيه باذاهنج ، وباذاهنجاتهم كبيرة واسعة للريح عليها تسلط . (٩٠)

والباذاهنج : كلمة فارسية معناها المنفذالهوائى (منفذ التهوية) فى اعلى المنزل وهومايعبر عنه العوام بالشخشيخة ، وقد اجاد بعضهم فيتسميته راووق النسيم . (٩١) وفكرة هذه الملاقف اساسها تلقى الهواء الملطف (الرياحالشمالية) واسقاطه من فتحاتها فى اعلى المنزل الى القاعات والايوانات ، وكأنها نوع من طرقتكييف الهواء . (٩٢)

وكانت هذه الملاقف مفتوحة الجانبينالشمالى والغربىلتستقبل الهواءالرطب ،فيندفع خلالها الى أسفل داخل القاعة ليحل محل الهواءالساخن (٩٣) . ولم تكن هذه الملاقف لتحولدون الشمس فى فصل الشتاء الى جانب توفيرهانسيمالصيف . وكانت تصنع من الخشب بما لها من أبواب أو شبكات نحاسية ، وتدهن بالالوان ،ولها اشكال مختلفة . وقد أشار البغدادى الى

---

(٨٩) عباس حلمى كامل : تطورالمسكنالمصرى الاسلامىص ١٠٠ ـ رسالة دكتوراه ـ غير منشورة ـ آداب القاهرة ١٩٦٨ .

(٩٠) عبد اللطيف البغدادى : الافادة والاعتبار ص ٣٨ .

(٩١) الخفاجى : شفاء العليل ص ٤٧ حيث يذكر انكلمة باذهنج معرب بادكير وانها على هيئة اسطوانة لها فتحة فى الجهة الغربية يدخل منها النسيم وسماه راووق النسيم.

(٩٢) فريد شافعى : العمارة العربية فىمصر الاسلامية ـالمجلد الاول ص ٢٨٨ .

(٩٣) عباس حلمى : مرجع سابق ص ١٩٨ .

انه « قلما تجد منزلا الا وتجد فيه باذاهنج وهي كبيرة واسعة للريح عليها تسلط ويحكمونها غاية الاحكام حتى انه يقوم على عمارة الواحد منهاما بين مائة الى خمسمائة دينار ، وان كانت باذاهنجات المنازل الصغيرة يقرم على الواحد منها دينار . (٩٤)

هذا ، وقد ظل استعمال عنصر الملاقف في العمارة المصرية الى وقت قريب ، حتى لنراه شائعا فى مدن الصعيد لشدة الحرارة فيها صيفا وقد صورت لنا الحملة الفرنسية كثيرا من دور مدينة المنيا وقد علتها الملاقف . (٩٥)

وقد كانت هناك صورة أخرى للملاقف ، اذ لم تكن تنتهي مباشرة الى داخل المنزل بل كانت لها مجار داخل الجدران الخلفية للايوانات في أبنية المدارس والمساجد ، (٩٦) وكانت هذه المجارى فى الحوائط تنتهى فوق الاسطح بحاجز مائل يساعد على توجيه الهواء الى داخل تلك المجارى . وقد ثبت ان هذه المجارى الواسعة داخل الجدران لا تؤدى الى اى هدف اسفلها حيث انها بعيدة عن مجارير الصرف « البيارات » بل كانت توصل الى المستويات العليا للدار فقط ، واتضح انها كانت لتوصيل الهواء الطلق لتلك الايوانات « ملاقف » . (٩٧)

ومن التأثير المناخى على تخطيط المنازل انها كانت غير مصمتة ، أى تتخللها فراغات وأفنية داخلية ، واحد أو أكثر ، وذلك لسهولة التهوية الداخلية بايجاد متنفس يسمح للهواء البارد بتخلل اجزاء الدار والهواء الساخن بالتصاعد للجو . كما روعى فى التخطيط تخصيص أجزاء للجلوس اليومى في مواجهة تيار الهواء القادم من الجهة الشمالية (البحرية) على قدر الامكان . وتعددت أشكال هذه الاجزاء المخصصة للجلوس ، من أروقة وايوانات الى مقاعد (٩٨) أو حتى مجرد دخلات للجلوس ، كما استخدمت أيضا الاشجار وفساقى المياه فى الافنية لنفس الغرض . (٩٩)

ويدخل ضمن سلامة التهوية فى المنازل المصرية ماكانت تؤديه الملاقف من فرصة لادخال الهواء الرطب من الطبقات العليا للهواء بعيدا عن أتربة الشارع ، كما كانت تغطى الاضاءة من أعلى مستوى النظر بحيث لايؤذى العين وهج انعكاس الاضواء الشديدة بالخارج . (١٠٠)

---

(٩٤) عبد اللطيف البغدادى : ص ٣٨ .

(٩٥) عباس حلمى : مرجع سابق ص ١١٥ .

(٩٦) من هذا النوع ما هو مشاهد فى جامع الصالح طلائع بين زديق حيث توجد فتحة المجرى المؤدى الى الملقف والتى تفتح خلف المنبر ، وكذلك فى المدرسة الكاملية وخانقاه بيبرس الجاشنكير .. انظر فريد شافعى ص ٢٨٨ ، عباس حلمى : ص ١١٦ .

(٩٧) عباس حلمى : ص ١١٥ .

(٩٨) من هذه المقاعد المفتوحة فى مواجهة الاتجاه الشمالى لتلقى الهواء الملطف من الافنية المكشوفة بيت القاضي بقاهرة المعز (بجوار مسجد الحسين) انظر فريد شافعى : مرجع سابق ص ٢٨٨ .

(٩٩) عباس حلمى كامل : ص ١٠٠ .

(١٠٠) عباس حلمى كامل : ص ١٩٩ .

وهناك أيضا ظاهرة صفر مسطح فتحات الاضاءة وتغطيتها بضلف او حواجز خشبية ضيقة المسافات لتقليل الوهج والضوء المنعكس من اشعة الشمس البراقة . (١٠١)

وقد اشترك العاملان الدينى والمناخى فى الايحاء بابتكار اسلوب فنى تمتاز به العمارة الاسلامية ، وانتج الفنانون منه تحفا رائعة منه ، وهو أسلوب الخشب المخروط المجمع من قطع خشبية ذات اشكال هندسية مختلفة ، وهو الاسلوب المعروف بالمشربيات ، وكانت تصنع منه الشرفات والأحجبة التى تغطى الفتحات والنوافذ حتى تحفظ حرمة اهل البيت من انظار الغرباء، وتسمح فى نفس الوقت بمرور الهواء والضوء (١٠٢)

طريقة بناء المنازل : من العلوم التى خذفها العرب علم الهندسة ، ويدخل تحت هذا العلم عندهم ، علم عقود الأبنية ، وهو علم تتعرف فيه أحوال أوضاع الابنية وكيفية احكامها ، كبناء الحصون المحكمة وتنضيد المنازل البهية والقناطر المشيدة وامثالها ، وشق الانهار وتنقية القنى وانباط المياه ونقلها من الاغوار الى النجود وسد البثوق ، وغير ذلك ، ومنفعته عظيمة فى عمارة المدن والقلاع والمنازل ، وفي الفلاحة . (١٠٣)

وقد خصص البغدادى فصلا لما شاهد بمصر من غرائب الابنية ، بعد أن أشاد بما فى الأبنية المصرية من هندسة بارعة وترتيب للغاية ـ فأعطى صورة لمراحل البناء وطريقته فى مصر بالنسبة للابنية الكبرى فقال : واذا أرادوا بناء ربع او دار ملكية او قيسارية ، استحضر المهندس (١٠٤) وفوض اليه العمل ، فيعمد الى العرصة (١٠٥) وهي تل تراب أو نحوه ـ فيقسمها فى ذهنه ويرتبها بحسب ما يقترح عليه ، ثم يعمد الى جزء من تلك العرصة فيعمره ويكمله بحيث ينتفع به على انفراده ويسكن ، ثم يعمد الى جزء آخر ولا يزال كذلك حتى تكمل الجملة بكمال الاجزاء من غير خلل ولا استدراك . (١٠٦)

وواضح من قول البغدادى ان المبانى العربية كانت أجنحة مستقلة غير متصلة ببعضها ولذلك اذا نظرنا الى مثل هذه المبانى نرى انها مقسمة الى عدة مساكن كل مسكن كامل بجميع لوازمه (١٠٧) فضلا عما فى مثل هذه الطريقة من الاستفادة الجزئية المبنى ، أو لعل ذلك لحماية

---

(١٠١) عباس حلمى كامل : ص ١٠١ .

(١٠٢) فريد شافعى : مرجع سابق ص ٢٨٨ / ٢٨٩ ويرى انه كان يوضع في تلك الشرفات اوانى شرب الماء حتى تبرد من تيار الهواء ، ولعل ذلك هو الذى اعطاها اسم المشربيات .

(١٠٣) حاجى خليفة : مفتاح السعادة جـ ١ ص ٣٧٥ ، التهانوى : كشاف اصلاحات الفنون ص ٦٥ ... وقد وضعت فى هذا العلم كتب منها كتاب لابن الهيثم وآخر لكرجى .

(١٠٤) لقب مهندس يطلق على المقاول الذى يخطط البناء ثم يشرف على عمليات البناء اى انه صانع ماهر أو مشرف فنى .. انظر فريد شافعى : مرجع سابق ص ٣٠٩ ، ص ٣٨٩ .

(١٠٥) العرصة : المكان الواسع الذى لا بناء فيه .

(١٠٦) البغدادى : الافادة والاعتبار ص ٥٢ .

(١٠٧) مصطفى منير ادهم : موفق الدين عبد اللطيف البغدادى ورحلته الى مصر . محاضرة بالجمعية الجغرافية المصرية سنة ١٩٢٧ .

المبانى من التعرض لهبوط الارض بما يشاهد فيعصرنا من وجود فواصل بين المبانى الكبيرة وانها مقسمة الى اجنحة .

وقد فصل البغدادى بعد ذلك الخطوات المتبعة في بناء المسناة (١٠٨) ويحسن أن ننقل نصه كاملا «واما المسناة فيسمونها الزربية» (١٠٩) ولهم فى بنائها اتقان حسن ، وصفته أن يحفر الاساس حتى تظهر النداوة ونزيز الماء فحينئذ يوضع ملبن (١١٠) من خشب الجميز أو نحوه على تلك الارض الندية بعد ما تمهد ويكون عرضه نحو ثلثى ذراع وقطر حلقته نحو ذراعين مثل الذى يجعل فى قعر الآبار ، ثم يبنى عليه بالطوب والجير نحو قامتين فيصير بمنزلة التنور فيأتى الغواصون وينزلون هذه البير ويحفرونها ، وكلما نبع الماء نزحوه من الطين والرمل ويحفرون أيضا تحت ذلك الملبن ، فكلما تخلل ما تحته وثقل بما عليه من البناء نزل وكلما نزل غاصوا عليه وحفروا تحته والبناء أثناء ذلك يبنى عليه ويرفعه ولايزال البناء يرفع والغواص تحته يحفر وهو بثقله يغوص حتى يستقر على أرض جلده . (١١١) ويصل الى الحد الذى يعرفونه فحينئذ ينتقلون الى عمل آخر مثله على سمته على بعد اربعة اذرع منه او نحوها ولا يزالون يفعلون ذلك فى جميع طول الاساس المفروض ثم يبنون الاساس كالعادة بعد ردمهم هذه الآبار فترجع أوتارا راسية للبناء وعمدا تدعمه وتوثقه . (١١٢)

فاذا كان المقصود بهذا النص وصف المسناة التى تتخذ كسد يحمى من السيل كما كانت تتخذ كبناء يزيد من حصانة المدن حول اسوارها ، وبينها وبين الخندق ، فقد عرفت مصر مثل هذا التشييد منذ عصر الولاة اذ يذكر الكندى (١١٣) فى أحداث سنة ٣٨ هـ وما كان من دخول مصر فى نطاق معاوية بن ابى سفيان خلال الصراع بينه وبين على بن ابى طالب ـ يوم المسناة وانهزام أهل مصر ودخول عمرو بن العاص بأهل الشام الفسطاط في حين عاد أهل مصر الى الحصن واغلقوه على انفسهم .

---

(١٠٨) المسناة : ضفيرة تبنى للسيل لترد الماء ، سميت مسناة لان فيها مفاتح للماء بقدر ما تحتاج اليه مما لايغلب مأخوذ من قولك سنيت الشيء والامر اذا فتحت وجهه ، وسنيت الباب وسنوته اذا فتحته (ابن منظور : اللسان ١٩ : ١٣١) اما الضفيرة فقد قيل فيها مثل المسناة المستطيلة فى الارض فيها خشب وحجارة وضفرها عملها من الضفر وهو النسج وقيل اخذت الضفيرة من الضفر وادخال بعضه فى بعض معترضا ، والضفر البناء بحجارة بغير كلس ولا طين (ابن منظور : اللسان ٦ : ١٦١ / ١٦٢) .

(١٠٩) الزربية : بئر يحتفرها الصائد يكمن فيها للصيد .

(١١٠) الملبن : قالب اللبن والملبن الذى يضرب به اللبن وهو مطول مربع ولبن الشيء ربعه واللبن واللبنة التى يبنى بها وهو المضروب من الطين مربعا .

(١١١) الجلد : من الارض الغليظ الصلب من غير حجارة (العسكرى : التلخيص) .

(١١٢) البغدادى : ص ٣٩ / ٤٠ .

(١١٣) الكندى : الولاة والقضاء ص ٢٨ / ٣٠ .

اما ما كان يقام حول المدن فقـد جاء في وصف بغداد عند نشأتها زمن المنصور انه كان حول السور فصيل جليل عظيم بين حائط السور وحائط الفصيل بمائة ذراع والفصيل أبرجـة عظام وعليه الشرفات المدورة وخارج الفصيـل كما يدور مسناة بالاجر والمصاريع متقنة محكمة عالية والخندق بعد المسناة . (١١٤)

وقد يفهم من النص انه انما قصد وصف وضع الاساس للمباني الكبيرة التي كانت ترفع عدة أدوار حتى انه وصف ابنية مصر انها شاهقة فضلا عن ان غالب سكناهم في الاعالي اذ يتركون الدور الارضي لاغراض اخرى . فان المفهوم من النص ان هذه الآبار المردومة بعد وصولها الـى الارض الصلبة تردم لتصبح بذلك قواعد ثابتة أو اوتادا راسية ودعامات قوية يقام عليها الاساس ليرتفع بعد ذلك البناء قويا مدعما لا يختل مـع الزمان . (١١٥)

مـواد البنـاء : من الطبيعـي ان يعتمد سكان المدن في تشييد منازلهـم على امكانيـات البيئة المحلية ، ومن ثم فهناك ارتباط واضح بين مادة البناء والتكوين الجيولوجي ، فقد استخدمت الاحجار الجيرية (الحجر النحيت) في مناطـق توافرها . ففي القاهرة استخدم الحجر الجيري البويضي المتوفر في المنطقة وقد سماه المقدسي « الحجر البحري » . (١١٧)

وفيما عدا هذا نجد ان البيئة الفيضية قد اتاحت اللبن (١١٨) والآجر (الطوب الاحمر) ، وقد عرفت المدن كلا النوعين على نحو ما شاهد المقدسي في بلبيس من مباني طين وأخرى مـن الآجر (١١٩) . ويشير البغدادي الى ان الطوب الاحمر على قدر نصف طوب العراق . (١٢٠) وقد عرفت مصر استخدام القصب والنخيـل (أفلاق النخل والجريد) مـع الطوب والطـين وخاصة في المباني الأولى لمدينة الفسطاط ، وقد نقل ابن سعيد عن مشاهدة أن مباني الفسطاط

---

(١١٤) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٣٩ .

(١١٥) مصطفى منير ادهم : موفق الدين عبداللطيف البغدادي ورحلته الى مصر وما شاهده فيها ـ محاضرة القيت بالجمعية الجغرافية المصرية ١٩٢٧ ، حيث يذكر ان هذه الطريقة هي الجارية العمل بها الان ويستعملونها في العمارات الكبيرة ثم يبنون عليها الاساس بعد ردمها ومازالت مثل هذه الآبار تستخدم في مصر لاغراض الوصول الى الماء الجوفي لصرف ماء الصرف دون حاجة الى رفعه آليا وتسمى الابار الاسكندرانية وعند العامة تعرف بالخنزيرة .

(١١٦) حسن عبد الوهاب : طرز العمارة الاسلامية في ريف مصر ص ٩ .

(١١٧) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٩٧ .

(١١٨) يعتبر الطمي الذي يصنع منه اللبن مناسبا جدا لاحوال المناخ في مصر حيث انه موصل رديء للحـرارة فهو لا يسخن في الصيف ولا يبرد في الشتاء ، لذلك وجد المصريون فيه مادة مناسبة جدا لمناخ مصر الصحراوي .وكان استخدامه على طول العصور القديمة والوسطى والحديثة، اما الحجر فلم يكن يبنى به غير المعابد والهياكل والمقابر ، وما اليها من بيوت العبادة ودور البقاء ، وكان هذا هـو السر في انه لم يبق لنا من آثار السكن القديم في مصر غير القليل سواء في العصور القديمة أو الوسطى . انظـر سليمان حزين : القرية والاصلاح الريفي في مصر ص ٢٦٢ مجلة الكاتب المصري مجلد ٤ عدد ٢٤ لسنة ١٩٤٦ .

(١١٩) المقدسي : ص ١٩٥ / ١٩٦ .

(١٢٠) البغدادي : ص ٥٢ .

بالقصبة والطوب الادكن والنخيل طبقة فوق طبقة (١٢١) واما عن القاهرة فمبانيها من قصب وطين . (١٢٢)

ونظرا لافتقار مصر للاخشاب الخاصة بالبناء فقد كانت تستوردها من الشام ، (١٢٣) وينقل السيوطي عن ابن فضل الله العمري ان خشب الصنوبر مجلوب الى مصر من بلاد الروم في البحر (١٢٤) وهذا بالاضافة الى استخدام اخشاب الجميز المحلية حيث تعمر به المساكن ويتخذ منه الابواب لما له من بقاء على الدهر وصبر على الماء والشمس ، وقلما يتآكل هذا الخشب مع انه خفيف قليل اللدونة ، والى جانب ذلك استخدام السنط لما له من صلابة كالحديد واذا قدم أسود كالابنوس . (١٢٥)

وقد كان لانتشار الآثار الفرعونية وغيرها اثره في قلع احجارها ونقلها الى الابنية والمساكن (١٢٦) واستخدامها في المشروعات العمرانية الكبيرة .

كما كانت الربوات والتلال الكفرية هي الاخرى مصدرا لمواد البناء خصوصا بالنسبة للمشروعات الكبيرة التي تتطلب احجارا جيرية مثل استخدام ذلك في بناء الاسوار والمرافق العامة .

كما كانت تتخذ المساكن القديمة اوالمهجورة هي الاخرى كمصدر لمواد البناء في المباني الجديدة ، وقد اشار ابن خلدون ومن بعده تلميذه المقريزي الى هذه الناحية ، فربطها الاول بالتدهور العام الذي يصيب المدن عند دهرمها (١٢٧) ، وجعلها الثاني احدى مراحل التطور العمراني في ظواهر غرب القاهرة حيث يتم بيع المساكن كانقاض عند خراب العمران مع كل هزة اقتصادية وما يعقبها من وباء يؤديان الى الفناء والخراب . (١٢٨)

اما عن المواد اللاحمة فالجير والرمل في الاجزاء العلوية من المباني المتخذ فيها الآجر ، اما في الاجزاء السفلية المعرضة للمياه فيستخدم الجير والحمرة واحيانا الجبس ، ويستخدم أيضا الطين والجير او الطين فقط .

وقد تستخدم الاحجار الجيرية غير المنتظمة في اجزاء قليلة من الاساسات ولكن الاصل كان استخدام الآجر . (١٢٩)

• • •

(١٢١) ابن سعيد المغربي : المغرب ص ٦ .
(١٢٢) ابن سعيد المغربي : النجوم الزاهرة ص ٢٤ .
(١٢٣) فريد شافعي : العمارة العربية ص ٢٩١ .
(١٢٤) السيوطي : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٣٣ .
(١٢٥) البغدادي : ص ٥٢ .
(١٢٦) ابن فضل الله العمري : مسالك الابصار جـ١ ص ٢٣٧ .
(١٢٧) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٩٢ / ٩٩٣ .
(١٢٨) المقريزي : الخطط جـ ٢ ص ١٠٨ وما بعدها.
(١٢٩) عباس حلمي : مرجع سابق ص ١٢٤ .

مرافق المدينة العربية

اولا ـ الاسواق ((الحي التجاري))

اعتمادا على ما صورتــه كتب الحسبــةلاحوال الاسواق فى المدن ، حيث كانت الاسواق تخضع لاشراف المحتسب حتى لقد سميت كتبالحسبة الاولى « احكــام الســوق » (١٣٠) وبالاضافة الى ما بقي من آثار المنشآت التجاريةفي العصر الوسيط ، يمكن اعادة تركيب الاسواق او الاحياء التجارية فى المدن العربية .

وقد عرفت المدن العربية الاسواق المنظمةفى عصورها الاولى ، وكان للحسبــة دورهــا في تنظيم الاسواق ، وحين اتسعت الحياة فى المدنالعربية اصبح لاسواقها نظم مرعية سجلتها كتب الحسبة ، من ذلك قول الشيزرى : ينبغي انتكون الاسواق فى الارتفاع والاتساع علــى مــا وضعتــه الروم قديمــا (١٣١) ، حيث كانتالاسواق في مدن الدولة الرومانية مقامة حــول الميدان Forum والمعابد والكنائس غالبا ، ثمانشئت الدكاكين على جانبي الشوارع المختلفة ، وجعل لكل صنف من اصحاب التجارة موضعخاص ، وبنيت السقوف (السقائف) فوق تلك المواضع لحماية المارة من الشمس والمطر ، ولذلكسميت تلك الاسواق بالسقائف ، وقد سرى هذا النظام فى معظم المدن الاسلامية . (١٣٢)

هذا وقــد تشابهت الاســواق العربيــةوالبيزنطية فى العصر الوسيط واصبحت وظيفة المحتسب العربية تقابل وظيفة والــي المدينــة Prefect of the City فى الدولة البيزنطية، مما جعل البعض يرى ان مصدر النظامين واحدومنقول عن المدينة الرومانية ، واعتمادا على نص الشيزرى المشار اليه (١٣٣) ، ولكن هناك منيرى ان مظاهر الحسبة الاولى ومراعاة احكامها فى الاسواق مرعية ومطبقة فى صدر الاسلام الاولقبل الفتوحات الاسلامية ، وان كان هذا لا يمنع من انه بعد اتساع رقعة الدولة الاسلامية اقتبسالعرب اقتباس تمثل لا اقتباس تقليد من نظــم الاسواق ما اصبح قائما في الاسواق العربيــة ،وادى هذا الى التشابه بــين الاسواق العربيــة والبيزنطية (١٣٤) بل فوق هذا هناك تبادل بينالحضارتين فى مثل هذه المظاهر الحضارية اثبتته المقارنة بين نظام الحسبة الاسلامي ووالي المدينةالبيزنطية .

---

(١٣٠) يحيى بن عمر (ت ٢٨٩ هـ) احكام السوق ،تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٥ .

(١٣١) الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبــةص ١١ .

(١٣٢) الشيزرى : نهاية الرتبة في طلب الحسبــةهامش ص ١١ تعليق السيد الباز العربى محقق الكتاب .

(١٣٣) انظر هذا الراى للسيد الباز العرينى فيمانقله عن ((والى المدينة)) فى الدولة البيزنطية من انه كان من هيئة كبار الموظفين ويلى فى الرتبة والى الاقليم ، وهومسئول عن الاشراف على الاسواق وتموين السكان بالقمح ومراقبة النقابات (ورش الصناعات) ... ص ١٣٤ .وما بعدها من كتاب الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلبالحسبة

(١٣٤) محمد المبارك : الدولة ونظام الحسبة ص ٧٦.

اما عن تحديد مواضع الاسواق او الحي التجارى من المدينة العربية فعلى الرغم من شدة الحاجة لوجود الاسواق فى قلب المدينة الا أن ذلك لم يكن بالضرورة عاما فى كل المدن ، ولا عاما بالنسبة لكل التجارات والحرف والصناعات ، فهناك حرف قد خصصت لها اماكن خارج المدن ، وسلع لا تعرض الا خارج المدن اما لطبيعة السلعة او لظروف أصحاب هذه الحرف ، من ذلك تخصيص مكان للذبح (سلخانة) ويمنع المحتسب القصابين من الذبح على ابواب دكاكينهم وعليهم ان يذبحوا فى المذبح (١٣٥) ، وكذلك يمنع جلابى الحطب والتبن واحمال الخلفاء والشوك ونحوهم من دخول السوق ووقوفهم فى العراص (١٣٦) مع تجار الخضراوات والفاكهة حيث كانت دكاكينهم في هذه العراص ، (١٣٧) فاذا لم تتوافر فى المدينة هذه العراص فيجوز دخولهم الى الاسواق لحاجة اهل المدينة اليهم .

وهناك من المدن الكبرى ماكانت اسواقها خارج كتلتها السكنية الرئيسية من ذلك مدينة بغداد ، اذ اخرجت أسواقها خارجها الى حيث اقيمت فى كرخ بغداد ، اذ جعلت الاسواق فيها صفوفا ، واخر سوق القصابين في آخر الاسواق لانهم سفهاء وفى ايديهم الحديد القاطع . وكان لهم مسجدهم الذى يجتمعون فيه يوم الجمعة فلا يدخلون المدينة .

اما السبب فى اخراج الاسواق خارج بغداد فقد قيل ان دخاخينهم ارتفعت واسودت حيطان المدينة وتأذى بها الخليفة المنصور فأمر بنقلهم ، وهناك من يرى ان « المنصور » فعل ذلك خوفا من الجواسيس الذين يترددون على المدينة بحجة التجارة فيكشفون احوال العاصمة (١٣٨) ومعنى هذا ان دواعى الامن كانت من وراء اخراج الاسواق عن المدينة ، او ان الظروف الصحية أى الخوف من التلوث البيئى ، أو أن الخوف على النواحى الجمالية كان من وراء ذلك .

وقد عرفت عواصم اخرى نظاما فريدا للأسواق فنجد مدينة **المهدية** قد اتخذ الى جوارها ربض « زويلة » وجعله المهدى مسكنا للرعية بناها لهم ، وسكن هو وجنده المهدية ، فكانت الرعية تبيت بزويلة عند أهاليهم ويبكرون الى دكاكينهم ومعايشهم بالمهدية ، وزعم المهدى (جد الفاطميين بمصر) انه فعل بهم هذا ليأمن غائلتهم اذ يحول بينهم وبين اهليهم بالنهار وبينهم وبين أموالهم بالليل . وليس بعيدا عما سبق ماكان قائما فى **قاهرة المعز** التى قامت كحصن منع العامة من سكناها ، ومن ثم كانت الفسطاط عاصمة البلاد التجارية ، وظلت القاهرة كذلك حتى اباحها صلاح الدين الايوبى لسكنى العامة بعد أن ظلت طوال عصر الفاطميين حصنا ملكيا .

---

(١٣٥) ابن الاخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ص ٩٩ .

(١٣٦) العراص : كل جوبة منفتقة ليس فيها بناء فهى عرصه ، وتجمع عراصا وعرصات وعرصة الدار وسطها. وقيل هو ما لا بناء فيه سميت بذلك لاعتراص (للعب) الصبيان فيها والعرصة كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء ، وقيل هى كل موضع واسع لا بناء فيه .

(١٣٧) الشيزرى : ص ١٧ ، ص ١١٦ ، ابن الاخوة : ص ٧٩ .

(١٣٨) ياقوت الحموى : معجم البلدان ومادة كرخ .

سمات الأسواق العربية أو خصائصها : فأولى سمات الاسواق العربية تخصيص سوق لكل صنعة أو حرفة ، فيجعل لأهل كل صنعة سوقا يختص بهم ، ويفرد لكل صناعة مكان خاص بها ، فتعرف صناعتهم فيه فان ذلك لقصادهم أرفق ، ولصنائعهم أنفق . (١٣٩)

وقد كان من اهداف هذا التجمع أن تصبح الفرصة متاحة لجميع المشترين دون أن يختص بالسلعة البعض ، من ذلك **الفراء** فقد نصت كتب الحسبة على أن لا يباع المجلوب منه في الدور ويخص به قوم دون آخرين ، بل تحمل الى سوقهم وتباع فيها بالنداء لينالها القوى والضعيف . (١٤٠) ولم يقتصر الامر على السلع المستوردة الترفيهية بل شمل اساسا الضروريات لشدة الحاجة اليها فكان يمنع تجار الطعام من بيعه فى الدور بل يخرجون الى السوق . (١٤١)

ومن سمات الاسواق العربية مراعاة التجانس بين الحرف المتجاورة ، كما يتم التفريق بين الحرف التى يخشى منها على بعضها الآخر ، ومعنى هذا انه كان هناك تناسب بين الاسواق ، فالى جانب سوق الاكسية والثياب توجد دكاكين الرفائين ، والى جوارهما سوق الكتانين وكذلك لما بين هذه الاسواق من تشابه وارتباط . اما الحرف التى ليس بينها تجانس ، ويخشى من حصول الضرور على بعضها ، فانها تبعد عن بعضها ، من ذلك من كانت صناعته تحتاج الى وقود نار كالخباز والطباخ والحداد فللمحتسب ان يبعد حوانيتهم عن العطارين والبزازين ، لعدم المجانسة بينهم وحصول الأضرار (١٤٢) ويدخل ضمن هذا التخطيط ماكان يفعله المحتسب من اتخاذ مكان لبائعى الحوت (السمك) يكون فيه سوقهم بمعزل عن الطريق . (١٤٣)

وهناك من يرى فى تخطيط الاسواق انما جاء على نسبة اتصالها بالجوامع ، وان الاسواق القريبة هى سوق الشماعين لوجوب الاستضاءة بالشموع فى الصلوات ، وهناك سوق العطارين والطيبيين لوجوب التعطر والتبخر بالجوامع ، وهناك القباقبية لوجوب الوضوء ، وهناك سوق العدول (المأذونين لأن العقود تتم بالجوامع) وهناك سوق الكتبيين لأن الجوامع مدارس ، ثم تتابع الاسواق طبقة طبقة الى ان تكون آخرها الى جوار السور الداخلى للمدينة ، وهى تلك التى يجب أن تكون بعيدة عن المنازل خوف الايذاء بالرائحة الكريهه او الدخان أو الحريق أو الدوى ، مثل الدباغين والصباغين والسراجين والحدادين والنجارين . (١٤٤)

---

(١٣٩) يحيى بن عمر : أحكام السوق ص ٢٢ ، الشيزرى : نهاية الرتبة ص ١١ .

(١٤٠) ابن الاخوة : معالم القربة ص ٢٣١ .

(١٤١) احمد سعيد المجيلدى : التيسير في أحكام التسعير ، ص ٧٢ .

(١٤٢) يحيى بن عمر : احكام السوق ص ٢٣ ، الشيزرى : نهاية الرتبة ص ١١ ، ١٢ .

(١٤٣) ابن عبد الرؤوف : ثلاث رسائل اندلسية في الحسبة ص ٩٧ .

(١٤٤) عثمان الكعاك : الحضارة العربية فى حوض البحر المتوسط ص ٦٦ .

ويذكر أن أسواق جزر البحر المتوسط بهذا الشكل وهذا التوزيع تنتشر حول الكنائس وعرص الجوامع . معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٦٠ .

شوارع الاسواق : لقدكانت الاسواق العربية مناطق تسويق خاصة للمشاة بهـا كل ضروب البضائع ، وهى تعتبر ابتكار حضرى عملى ومشوق لدرجة ان مخططى المدن المعـاصرين يحـاولون ادخالها فى المنطقة التجارية المـدينة الغربيـة الحديثة . (١٤٥)

وقـد حظيت شـوارع الاسـواق بعناية المحتسب واشرافه على جميع نواحيها سواء فى ذلك مواصـفات تخطيـط الشـوارع وتنظيـم استخدامها بواسطة التجار او المشترين ، مـن ذلك : أن يكون من جانبى السوق افريزان يمشى عليهما الناس في زمن الشتاء اذا لم يكن السوق مبلطا . (١٤٦)

ويأمر المحتسب أهل الاسواق بكنســـها وتنظيفها من الاوساخ والطين المتجمع وغير ذلك مما يضر بالناس . (١٤٧) وفى زمن الشتاء اذا كثر طين المطر فجمعه اصحاب الحوانيت فى وسط السوق أكداسا فاضر بالمارة وبالمحمولة فعليهـم كنسه والا فالدولة ملزمة بهذا الواجب ، اذ يجب أن تنقى الاسواق من الطين فى زمن الشتاء (١٤٨) ولا يجوز لاحد من السوقة (التجار) اخـراج مصطبة دكانه عن سمت اركان السقائف الى الممر الاصلى (الطريق) لانه عدوان على المارة ، ويجب على المحتسب ازالته والمنع من فعله ، لما فى ذلك من لحوق الضرر بالناس . (١٤٩)

ويستفاد مما سبق أن بعـض الاسـواق كانت مظللة بالسقائف لحماية السابلة من المطر والشمس (١٥٠) ، على ان هذه السقائف وان كان مسموحا بها ــ الا انها كانت محظورة أحيانا اذا ما ترتب على وجودها الضرر بالنسبة للمشترين ذلك انها تسقط ظلا على حوانيت البزازين وغيرهم فلا يتمكن المشترى من رؤية الوان الاقمشة على حقيقتها ، وكثيرا ما يجد المشترى بعد الشراء ما اشتراه مخالفا لفرضه فى مكان الضوء . (١٥١)

وينبغى أن يمنع المحتسب احمال الحطب واعـدال التبن وروايا المـاء وشرائح السرجيين والرماد واشباه ذلك ، من الدخول الى الاسواق لما فيه من الضرر بلباس الناس . (١٥٢)

ولما كانت شوارع الاسواق مخصصة للسيردون البيع فقد ورد النهى عن وقوف البائسين بالطرقات لأن الواقف يصبح غاصبا لمواضع المرور حتى ولو كان الطريق واسعا ، لأن ذلك يؤدى الى تضييقها ويجب على المشترين ان يمتنعـوا عن الشراء . (١٥٣)

---

(١٤٥) سابا جورج شبر : العلم وتنظيم المـدن العربية ص ٣٢ الكويت ١٩٦١ .

(١٤٦) الشيزرى : مرجع سابق ص ١١ .

(١٤٧) الشيزرى : نفس المرجع والمكان .

(١٤٨) يحيى بن عمر : أحكام السوق ص ١٢٧ .

(١٤٩) الشيزرى : مرجع سابق ص ١١ .

(١٥٠) الشيزرى : مرجع سابق ص ١٧ .

(١٥١) المجيلدى : مرجع سابق ص ٨٥/٨٦ وقد قاس هذا الحكم على نهى الشارع عن البيع والشـراء فى ليل مظلم أو مقمر بحيث لايقف على حقيقة ما اشتراه والتظليل قريب من ذلك .

(١٥٢) الشيزرى : ص ١٧ .

(١٥٣) ابن الحاج : المدخل جـ ٤ ص

المنشآت التجارية (١٥٤) (القيساريات ـ الفنادق ـ الخانات ـ الوكايل) :

كانت توجد فيداخل الحى التجارى للمدينةالعربية عدةمنشآتتجاريةتمثل أسواقامتخصصة او تجمعات للتجارة والتجار ، سواء فى ذلكالتجار الوطنيين أو الغرباء ، ومعنى هذا أنها تخدم التجارة الداخلية والخارجية **معا** .

أ ـ **القياسر (١٥٥)** : هى منشآت تجاريةمتخصصة فى شكل مبان كبيرة داخل الاسواق بالمدينة تضم داخلها عدة حوانيت للتجارة ،وتختلف هذه الحوانيت عن حوانيت السوق ـ المقامة على جانبى الطريق ـ فى أنها تشكل بناءمستقلا مستطيلا او مربع الشكل ، له عدة أبواب ويضم نحو ثلاثين حانوتا في داخل كل منهامصطبةومقعد ، ويلحق بكل قيسارية دورة مياه تضم حوضا وحماما وثلاثة مراحيض وبئر للماء ،ومخزن السقاء .

اما أعلى القيسارية فربع لسكن الاجانبوغيرهم من التجار ، واحيانا يكون فى أعلى هذه القيسارية مسجد يصعد اليه بسلم ، وكانتالقيسارية تغلق ليلا ولها حارس (١٥٦) وقد عرفت المدن المصرية القياسر منذ الفتح العربىلمصر ، وقد خصص ابن دقماق لقياسر الفسطاط عدة صفحات من كتابه ، وكانت تنسب الىأصحابها او لما يباع فيها ، وقد يشغل وسطها فى اقامة مساطب ومقاعد للخياطين . وفى حالةعدم استخدامها فى الاغراض التجارية قد تتحول الى ورش تقوم بها صناعات (١٥٧) هذا ، ولاتخلو مدينة مصرية من وجود قيسارية او اكثر بها ، ومازالت بعض شوارع الحى التجارى فىكل مدينة تحمل نفس الاسم .

ب ـ **الفنادق** : **(١٥٨)** هى منشآت تجاريةوسكنية للتجار من أجانب ووطنيين في داخل الحي التجارى ، وينزل هؤلاء التجار أعاليها فىحين يخصص اسفلها للبيع والشراء ، وتنسب

---

(١٥٤) يمكن معرفة المزيد من التفصيلات عن مثلهذه المنشآت التجارية من مراجعة كتب الخطط التى تتبع اشكالها وتطورها التاريخى ، كما آن حجج الوقف تعتبرمصدرا هاما فى تحديدها ووصفها نظرا لان هذه المؤسسات كانت ملكا للاشخاص ، وكثيرا ماكانوا يوقفونها على المنشآتالدينية والتعليمية .

(١٥٥) قيسارية : الكلمة آصلها لفظ يونانى(قيساريون) بمعنى السوق الامبراطورية مما يدل علىانها كانت من انشاء الدولة ، ثم اطلقت بعد ذلك على الشارعالتجارى فى المدن .. أنظر فؤاد حسانين : الدخيل في اللغة العربية ص ٩٢ ، آمال العمرى : المنشآت التجاريةفى القاهرة فى زمن الايوبيين والمماليك ص ١١٩ . رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآثار . جامعة القاهرة ١٩٧٥ .

(١٥٦) آمال العمرى : مرجع سابق ص ١١٩/١١٧ .

(١٥٧) ابن دقماق : الانتصار جـ ص ٤٠/٢٧ .

(١٥٨) اللفظ يونانى الاصل Pandokeon ويقابلهافى الايطالية كلمة Fondaco وكان يعرف فى الدولة البيزنطية باسم Mitata ... انظر آدم متيز : الحضارةالاسلامية في القرن الرابع الهجرى ص ٣٤٧ ، آمال العمرى: مرجع سابق ص ١٣٩ ، في حين يرى ليوبولدو فى مقالة عنالابنية العربية الاسبانية ص ١٢٢ ان كلمة Fonda (فندق) فى الاسبانية مشتقة من اللغة العربية تماما ككلمة Alhondega وقد أسهب عثمان الكعاك فى (الحضارة العربية) ص ٦٤ / ٦٥ في وصف الفندق أو الخان ودورهالعظيم فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية واوروبا وحدد مواضع الفنادق على ابواب المدن وفى الاسواق والفنادقالخاصة بالقنصليات الاجنبية مع تحديد مهام كل منها وخصائصها وتفاصيل نواحيها ومن يسكنها أو يتعامل فىداخلها .

هذه المنشآت اما الى أصحابها أو الى ما يباع بهامن سلع (حيث كان كل فندق متخصصا فى بيع سلعة معينة مثل فندق الكارم) أو الى سكانه من التجار . (١٥٩)

ويتألف الفندق من صحن أوسط حوله صار بها اربعة أروقة تشتمل على الغرف التى ينزلها التجار فى الدور الاعلى (١٦٠) وقد عرفت الفنادق فى مصر منذ القرون الاولى للهجرة ، اذ يذكر المقدسى فنادق مصر ويشير الى أن عامة أبوابها من شجر الجميز . (١٦١)

جـ – **الخانات : (١٦٢)** كان للخانات وظيفتها فى التخزين والبيع وكمأوى للتجار الغرباء ، فشأنها فى ذلك شأن الفنادق ، وتسمى ايضا باسم الاشياء التى تباع فيها او باسم صاحبها . أما عن نظام بناء هذه الخانات (وفقا لما هو قائم فى المغرب الاقصى حاليا) فانها تتألف من صحن مستطيل تحف به أربعة أروقة تشتمل على حجرات ، واهمية الاروقة انها تؤوى التجار والحيوانات والبضائع حتى لايبقوا فى العراء ، والطابق الارضى يخصص للمتاجر والاصطبلات، والعلوى يشتمل على حجرات للضيوف ، وكذلك مخازن تجارية . واذا كانت للمخزن أهمية كبيرة فانه يشتمل على طابق آخر له نفس وظيفة الطابق السابق . (١٦٣)

والى جانب الخانات فى الاسواق كانت هناك خانات على الطرق التجارية لخدمة التجار المارين والمقيمين فى هذه المنازل على الطريق . وهذه الخانات عبارة عن بناء هندسى مكون من عدة حجرات تحيط بفناء مكشوف ، يضم غالبا طابقين بالارض منهما اصطبلات للدواب من الداخل ، اما من الخارج فحوانيت صغيرة مثل حوانيت الاسواق ، اى عبارة عن حنية فى الجدار حوالى ستة أقدام مربعة تضم ارففا للبضائع ومصطبة للبائع والمشترى . اما الدور العلوى فمقسم لمساكن ، وكانت هذه الانواع من المبانى تضم مسجدا ، اما فى الفناء الاوسط أو فى الطابق العلوى فوق المدخل ، كما تضم ايضا سبيلا . وبحكم وقوع هذه الخانات (واحيانا تسمى رباطات أيضا) على الطرق كان لها أبراج للمراقبة والدفاع ، ومن ثم لا تحتوى على عدد كبير من المخازن وحجرات النوم والدور الارضى غالبا مكون من حجرتين فقط على جانبى المدخل ، علاوة على قاعات كبيرة لاتزيد عن اثنتين فى الجانب الموجود به المدخل الوحيد للخان ، ثم ممر ، وتطل جميع هذه الوحدات على حوش أوسط مكشوف . وتخصص الحجرتان بالدور الارضى للعاملين بالخان وقد زود كل خان ببئر ومسجد للصلاة واصطبل للدواب . (١٦٤)

---

(١٥٩) ابن دقماق : الانتصار جـ ٤ ص ٤٠ / ٤١ .

(١٦٠) ليوبولدو : الابنية الاسبانية الاسلامية ص١٢.

(١٦١) المقدسي : ص ٢٠٤

(١٦٢) الخان كلمة فارسية وقد عرفها ياقوت بالمنازل التى ينزلها التجار ، ومعناها منزل او سوق ، وقد انتقلت من المشرق الاسلامى الى المغرب ، وظلت محتفظة بمميزاتها فى الشرق . وهناك تشابه كبير بين هذه الخانات وما نجده فى الميادين اليونانية فيما يسمى Agora وانتقل الى الرومان فيما يسمى Horrea ... انظر ليوبولدو مرجع سابق ص ١١٩ .

(١٦٣) ليوبولدو : مرجع سابق ص ١١٨ .

(١٦٤) آمال العمرى : مرجع سابق ص ١٤٦/١٤٧ ، ص ٢٠١ ، نعيم زكى عطية طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب فى أواخر العصور الوسطى . رسالة دكتوراه (غير منشورة) آداب القاهرة ١٩٦٨ . ص ٢٥٦ .

د ــ **الوكائل :** تطلق على العمائر التي اعدت سكنا للتجار الشرقيين وحفظ بضائعهم والتسمية محلية في مصر ، وهي أشبه ما تكون بالبورصة اذ يتولى الوكيل عن التجار في ممارسة كل صور البيع والشراء .

وهذه المنشآت كانت ملكا للدولة ويتولى الاشراف عليها موظف حكومة وهي بذلك تجمع بين وظيفتي الفندق والخان الا انها اكبر منهما من حيث المساحة واكثر دقة في تخطيطها . وكذلك كان للافراد وكائل خاصة بهم واصحابها من التجار الحائزين على ثقة الحكام . وقد عرفت الوكائل في مصر منذ القرن الخامس الهجري وانتشرت في القاهرة والاسكندرية ودمياط . وقد ظهرت المشربيات بكثرة في واجهات الوكالات الخارجية المطلة على الشارع والمطلة على الفناء الاوسط (١٦٥) واذا كان الخان قد اشتمل على طابقين فان الوكالة كانت من ثلاثة طوابق اولها للضيوف وثانيها به المطبخ الذي يخدم الدورين وثالثها السكن الخاص .

خضوع الاسواق للاشراف الحكومي : يتولى المحتسب الاشراف على الاسواق يساعده في ذلك عيونه وغلمانه واعوانه ومن كان يختارهم من العرفاء من صالح اهل كل صنعة . (١٦٦) ويشمل اشرافه عدة نواح أهمها :

- حفظ أموال التجار والغرباء الواردين من الامصار والرعايا فيما تدعوهم اليه حاجة الاضطرار باقامة الضمان للسماسرة والدلالين والباعة والكيالية والنقلة والحمالين والمكارية والجمالين. وان كان في مكان فيه سفن ومرآب فللنوتية والملاحين . (١٦٧)

- مراقبة المكاييل والموازين وتحقيق كمياتها وسعتها ، وكذلك مراقبة النقود ، أي القيام بمهمة مفتش الاسواق ومندوب مصلحة المكاييل والموازين والتمغة .

- محاربة التدليس والغش في السلع ومراعاة عدم الاحتكار والزام التجار بالبيع ، ومثل هذه المهام تمثل اختصاص مفتشي التموين في العصر الحاضر .

- التأكد من ضرورة مراعاة الشروط الصحية بالنسبة للمأكولات أي العمل كمفتش صحة .

- القيام باختبار اصحاب الحرف والصناعات في اعمالهم قبل الموافقة على الترخيص لهم بمزاولة المهن كل حسب حرفته ، من ذلك مثلا الكحالون (أطباء العيون) والاطباء فهؤلاء يمنحهم المحتسب بما ذكر في كتاب « حنين بن اسحاق » واما الحجام فيمنحه بما يثبت مهارة وخفة يده في الجراحة ، في حين يلزم المحتسب المجبرين والجراحين بأن يكونوا على علم بالتشريح واعضاء الانسان . (١٦٨)

---

(١٦٥) آمال العمرى : المرجع السابق ص ١٦٦/١٦٨ص ٢٠٩ .

(١٦٦) بما انه ليس من المستطاع ان يحيط المحتسب بكل افعال السوق فقد جاز له أن يجعل لكل صنعة عريفا من صالح أهلها خبيرا بصناعتهم بصيرا بغشوشهم وتدليساتهم يكون مشرفا على أحوالهم ، ويطالعه باخبارهم ، وما يجلب الى سوقهم من السلع وما تستقر عليه من الاسعار وغيرذلك مما يلزم معرفته ... انظر الشيزرى : ص ١٢ .

(١٦٧) محمد بن طلحة القرشي النصيبي : العقد الفريد للملك السعيد ص ١٧٧ .

(١٦٨) الشيزرى : ص ٩٥ / ٩٩ ، ص ١٠٠ / ١٠١ .

ــ هذا ولا يقتصر اشراف المحتسب على السوق الرئيسى المعينة بل كان له الاشراف على الحوانيت المتفردة فى الحارات والدروب خارج السوق، اذ يفاجيء هؤلاء على حين غفلة منهم في كل اسبوع لأن اكثرهم يدلس فى تجارته وصناعته .(١٦٩)

ثانيا : الافران « المخابز »

نعمت المدن العربية بتنظيم احتياجات سكانها من الخبز وذلك بفضل ما كان متبعا من ضرورة الزام الدقاقين ــ الذين يتولون طحن الفلال ــ برفع « الوظائف » (الكميات المتفق عليها من الدقيق) الى حوانيت الخبازين ، ثم يجعل المحتسب بعد ذلك على كل مخبز وظيفة يخبزها فى كل يوم ، لئلا تختل المدينة عند قلة الخبز ، ويلزم اصحاب المخابز بذلك ان امتنعوا منه . كما كان عليه ان يفرقهم (يوزعهم) أي الافران ــ على الدروب واطراف البلد ، لما فيهم من المرافق (المنافع) وعظم حاجة الناس اليهم . (١٧٠)

وكان المحتسب يسجل فى دفتر اسماء الخبازين ومواضع حوانيتهم ، فان الحاجة تدعوه الى معرفتهم (١٧١) ، ويتفقد الافران فى آخر النهار . (١٧٢) وفوق كل ذلك يراعي جميع الشروط الصحية الواجبة فى شخص القائمين على انجاز الخبز في جميع مراحله سواء قبل أو اثناء ذلك وبعده .

ونظرا للضرورة الملحة فى وجود الافران فى ارجاء المدينة فان تصميمها كان يخضع لاشراف المحتسب، وذلك لمراعاة الظروف الصحية للسكان من ذلك ما كان ينبغي على الخبازين من رفع سقائف حوانيتهم ، وفتح ابوابها وجعل منافس واسعة (فتحات) فى السقوف يخرج منها الدخان لئلا يتضرر بذلك الناس ، مع مداومة اصلاح هذه المداخن . (١٧٣) .

وكذلك كانت المطاحن هي الاخرى تخضع لتفتيش المحتسب سواء فى سلامة عمليات الطحن ومراعاة الشروط الصحية وضرورة الرفق بالدواب المستعملة فى ادارة احجار الطواحين .

وقد زاد من اهتمام المحتسب بهذا المرفق بالمدن أن معظم سكان المدن الكبرى كانوا يعتمدون على المخابز لسد احتياجاتهم اليومية لانهم لا يدخرون اقوات سنتهم ولا شهرهم ، وعامة مأكلهم من اسواقهم . (١٧٤)

ثالثا ــ الحمامات

للحمام أهمية كبرى في الحياة الاجتماعية فى المجتمع الاسلامي فان عادة الاستحمام متأصلة فى سلوك المسلمين . ولقد كانت الحمامات من مرافق المدن الهامة التي تعطى المدينة صفتها

---

(١٦٩) الشيزرى : ص ٦٠ ، ابن الاخوة ص ١٣٠ .
(١٧٠) الشيزرى : ص ٢١ ، ٢٣ / ٢٤ ، ابن الاخوة : ص ٧٢ .
(١٧١) الشيزرى : ص ٢٢ .
(١٧٢) ابن الاخوة : ص ٩٢ .
(١٧٣) الشيزرى : ص ٢٢ / ٢٤ ، ابن الاخوة : ص ٩١ .
(١٧٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٩٣ .

الحضرية ، واكثر من هذا فقد جعلها ابن خلدون من المظاهر المميزة للمدن المستبحرة ، حيث انها مما تدعو اليه عادة الترف والغنى والتنعم .

وفضلا عن وظيفة الحمام الصحية والترفيهية ، فقد كان للحمام غرضه الديني ــ كما هو الحال فى جميع مرافق الحياة الاسلامية (١٧٥) ــ ومن ثم فقد كان فتح الحمام يبدأ من السحر لحاجة الناس اليه للتطهر قبل الصلاة . (١٧٦)

ونظرا للاهمية الصحية والترفيهية والدينية للحمامات فقد خضعت لاشراف المحتسب الذي كان يتفقد حماما فى كل يوم مرارا ، ويأمر اصحابها باصلاح الحمامات ونضح مائها ، وبغسل الحمام وكنسة وتنظيفه بالماء الطاهر ، وان يفعلوا ذلك مرارا في اليوم . (١٧٧)

لقد كانت اعداد الحمامات كبيرة في المدن الآهلة بالسكان ، فكان فى كل حي حمام على الاقل ان لم يكن اكثر من ذلك فى بعض الاحيان ، اما المنازل الكبيرة او القصور فقد كان لها حمامات خاصة على طراز الحمامات العامة ، ولو انها اصغر منها بوجه عام . كما عرفت كثير من الابنية العامة ــ فى المدن ــ الحمامات مثل الخوانق والرباطات والخانات المقامة على الطرق .

ولطبيعة المجتمع الاسلامى كان للنساء حمامات خاصة ، ليس فقط فى المدن الكبيرة وانما فى المدن المتوسطة مثل مدينة الخانكة . (١٧٨)

وقد كان المحتسب يتفقد ابواب حمامات النساء . (١٧٩)

ومن الناحية الاقتصادية فقد كانت الحمامات من أفضل العقارات التي تقتنى داخل المدن ، وقد وضع الدمشقي (١٨٠) لافضلها مواصفات منها ، ان تتوسط المدينة وان تكون مصارف الماء فيها واسعة مستقلة ليؤمن عليها من الاختناق ، وان بيوتها متوسطة مكتنزة ليعمل فيها الوقود ، وان يكون مخلعها وقمينها واسعين ليمكن ادخال الكثير من الوقود لها . وان كان ماؤها بدولاب وما قل عمق بئرها فهي أفضل ، وان كان ماؤها جاريا فما قرب من جهة الماء ومعظمه .

ويدخل في مجال المفاضلة بين الحمامات تفضيل ما كان قديم البناء (١٨١) كثير الاضواء

---

(١٧٥) ليوبولد ونوريس : الابنية الاسبانية الاسلامية ص ١٠٨ / ١٠٩ .

(١٧٦) الشيزرى : ص ٨٨ ، ابن الاخوة : ص ١٥٦ .

(١٧٧) الشيزرى : ص ٨٨ ، ابن الاخوة : ص ١٥٤ / ١٥٥ .

(١٧٨) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٥١ « حمام برسم النساء واستجد بعد سنة ٧٩٠ هـ »

(١٧٩) الشيزرى : ص ١٠٩ .

(١٨٠) الدمشقى : الاشارة الى محاسن التجارة ص ٣٥ .

(١٨١) قال مهذب الدين بن هبل فى كتاب « المختار » خير الحمام ما كان قديم البناء فان الحمام القريب العهد بالبناء تكون حيطانه ندية فتكون ارابيح صهاريجه مضرة قال بعض الشراح لهذا الفصل « الحمام الجديد البناء يتحلل من حيطانه رطوبات ممتزجة بجوهر الكلس والحصى والقار ويتبخر بحرارة الحمام فيضر استنشاقها بالروح والنفس ... فاذا اعتقت الحمام قل تحليل الابخرة الرديئة منها ومن حيطانها فيؤمن الضرر الحاصل منها ... انظر الغزولى : مطالع البدور في منازل السرور ج ٢ ص ٥ . القاهرة ١٢٩٩ هـ .

مرتفع السقوف واسع البيوت عذب الماء طيب الرائحة ، وان تكون حرارته بقدر مزاج الداخل اليه ، وان يكون الفناء متسعا لان ابخرة الحمام رديئة وكثيرة وان يكون الحمام على البناء فان ذلك معين على تقليل حر ابخرتها . (١٨٢)

وكل هذه الاشتراطات ان دلت على شيء فانما تدل على مدى حرص العرب على ان تكون حماماتهم على احسن وضع ومستوفية لكافة الشروط المطلوبة فى مثل هذا المرفق الهام من مرافق المدن .

أما عن تخطيط الحمامات فقد شيدت على نظام يضمن للمستحم عدم تعرضه للايذاء بالانتقال السريع من البرد الى الحر أو العكس (١٨٣) فقد كانت تشتمل على عدة بيوت ، الاول منها مبرد مرطب ، والبيت الثاني مسخن مرخ والبيت الثالث مسخن مجفف (١٨٤) ، وفوق ذلك فالانتقال بينها يكون تدريجيا (١٨٥) وقد حفظ لنا البغدادي وصفا تفصيلا لحمامات مصر فذكر انه لم يشاهد فى البلاد اتقن منها وضعا ولا أتم حكمة ولا احسن منظرا ومخبرا ، ثم وصف الاحواض وسعتها ومقدار ما يصب فيها من ماء بارد وحار . واما البرك فمن الرخام ، وعليها أعمدة وقبة ، وسقوفها مزخرفة والارض من الرخام (١٨٦) . وكانت جدران بعض الحمامات تزين بالصور والنقوش الجميلة اعتقادا انها تزيد قوى البدن الحيوانية والطبيعية والنفسية . (١٨٧)

أما وصف البغدادي لبيت النار فان عليه من القدور المصنوعة من الرصاص التي تتصل قرب اعاليها بمجار من انابيب فيدخل الماء من مجرى البئر الى فسقية عظيمة ثم منها الى القدور ، ثم الى مجاري الحمام فلا يزال الماء جاريا وحارا بأيسر كلفة . ويشير الى ان ارض الاتون (بيت النار) تفرش بنحو خمسين اردبا من الملح ــ وكذلك ارض الافران ــ لان الملح من خصائصه حفظ الحرارة ، ويضيف البغدادي انه توجد اماكن للخاصة دون العامة . (١٨٨)

هذا وترجع الحمامات الاسلامية من حيث عادة الانشاء وطريقة البناء الى الرومان ، وان كانت الحمامات الرومانية اكثر عظمة واكبر حجما واعظم ترفا فان العرب لم يراعوا الا الفائدة العملية فى جميع أبنيتهم (١٨٩) ، وان كانت الحمامات فى عصر المماليك بمصر قد اخذت الكثير من المظاهر الجمالية .

---

(١٨٢) الفزولى : مطالع البدور فى منازل السرور ج ٢ ص / ٤ / ٥ . القاهرة ١٢٩٩ هـ .

(١٨٣) زكى حسن : فنون الاسلام ، ص ٢٨ .

(١٨٤) الشيزرى : ص ٨٦ ، الفزولى ، مطالع البدور ج ٢ ص ٤ .

(١٨٥) الفزولى : مطالع البدور ، ج ٢ ص ٤ .

(١٨٦) البغدادى : الافادة والاعتبار ص ٣٩ / ٤١ .

(١٨٧) زكى حسن : فنون الاسلام ص ٢٨ .

(١٨٨) البغدادى : الافادة والاعتبار ص ٤١/٣٩ .

(١٨٩) ليوبولد ونوريس : الابنية الاسبانية الاسلامية ص ١٠٨ .

واخيرا يجب ان نذكر ان الحمامات فيمدينة العصور الوسطى بأوروبا كانت محرمة ، ولم تعرف اسبانيا الحمامات الا بعد نزول العرب بها ، ولم تقتصر الحمامات على المدن الاسلامية بالاندلس بل تعدتها الى غيرها،واصبح الاستحمامعادة عند الاوروبيين حتى الراهبات في الاديـرة ثم مع زوال سلطان الاســلام تـلاشت عــادةالاستحمام فى اسبانيا منذ القرن السادس عشر الميلادي وساعد على ذلك عداء الكنيسة للعادات الاسلامية . (١٩٠)

رابعـا ـ الابنية الدينية :

تميزت المدينة الاسلامية بالعديد من المباني والمنشآت الدينية التي لا يقتصر دورها على احياء الشعائر الدينيةبل تعدى ذلكالى تقديم خدماتتعليمية وثقافية (١٩١) واجتماعية وصحية ، من هذه المنشآت المساجد والخوانق والرباطاتوالزوايا .

المساجد : لا يتشابه دور المسجد فى المدينةالعربية مع دور الكنيسة او الكاندرائية فى أوروبا العصور الوسطى ، فانه فضلا عن قيام المسجدبعدة مهام دينية وتعليمية وثقافية ، فان مساجد الصلوات الخمس تتعدد فى المدينة الواحدة حتىتعد بالمئات ولقد كانت اقامــة بعض المساجــد « المسجد الجامع » مــن مسئوليات الحاكم أوالوالي ،والى جانبها مساجد تعد بالمئاتفيتسابق فى اقامتها الامراء والقواد والتجار وغيرهم مــنافراد المجتمع كل حسب قدرته .

أما المسجد الجامع ـ الذى اتخذه بعضالفقهاء علامة مميزة للمدن الاسلامية أو الامصار ـ فقد كان مركزا للحياة الدينية والسياسيةوالاجتماعية الى جانب مهمتــه الاساسية أداء الصلاة ، فقد كانت تعقد فيه الاجتماعات العامةالكبيرة ، وتنظر فيه القضايا ، وتعطى في رحابه الدروس ، ومن فوق منبره كانت تقرا النشراتالرسمية والخطابات التي تتضمن اخبارا هامة كالانتصارات الحربية . (١٩٢)

ويرجع قيام المسجد الجامع بكل هذه المهامالى انه كان مجلسا للوالي ، وكان للمسجد حرس (١٩٣) حول الموضع الذي يجلس فيــه الواليالذي يتولى الولاية على الاقليم ــ وأول مظاهرها

---

(١٩٠) ليوبولد وثوريس : المرجع السابق ص ١١٦ /١١٨ ، وانظر ممفورد : المدينة على مر العصور ج ٢ ص ٥٢٢ حيث يذكر انه كانت توجد فى احياء المدن الاوربيةفى العصور الوسطى دار للاستحمام .

(١٩١) كمثال نجد فى مسجد أحمد بن طولون فىعهدالسلطان لاجين انه رتب بالمسجد ثلاثين نفسا يتفقهون على مذهب الامام مالك ، وشيخا يتفقهون عليه ومثلهم علىمذهب الامام الشافعى وابى حنيفة والامام احمد ، ومثلهم محدثين (علم الحديث النبوى) وعشرة من الاطباء يقراونالطب ، وشيخا يقراون عليه ، وطائفة من القراء (للقرآن الكريم) ومن يلقن الصبيان الايتام ، الى غير ذلك مــنوجوه البر ، واجرى لجميعهم ارزاقا جمة ، ووقف لجميع ذلك اموالا عظيمة . انظر التجيبى السبتى : مستفاد الرحلةوالاغتراب ص ٧ .

(١٩٢) ليوبولد ونوريس : مرجع سابق ، ص ١٠٠.

(١٩٣) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٦٢ .

امامة المسلمين فى الصلاة ، وقد ظل الخلفاء والولاة يؤدون خطبة الجمعة بأنفسهم حتى العصر العباسي ، ثم أنابوا عنهم غيرهم .

ولم يقتصر استخدام المسجد كمركز اعلام لاوامر الدولة ومقرراتها (١٩٤) بل اخذت هذه الاوامر والمقررات ـ احيانا ـ صورة الدوام والاستمرار ، فقد كانت المراسيم تنقش على الرخام وتثبت بجوار المحاريب او تثبت على ابواب المساجد ، وخصوصا تلك المراسيم الخاصة بالاعفاء من المكوس او الضرائب بالنسبة للمدينة او الجهة التي يقع فيها المسجد ، وهكذا يصبح من وظائف المسجد نشر أوامر الدولة ومقرراتها على نحو ما هو ثابت فى مسجد الامير نصر الله بمدينة فوه (مرسوم ابطال مكس فوم ٨٠٣ هـ) ولم يقتصر هذا الامر على المدن بل عم فى القرى فى مساجدها الجامعة . (١٩٥)

ونظرا لاهمية المسجد الجامع فى المدينة العربية فقد نظر اليه البعض على انه أساس التنظيم العمراني للمدينة ومن حوله بقية الانشطة (١٩٦) وانه بهذا يحتل موضعا هو بمثابة القلب أو المركز الرئيسي للمدينة ، وتنتشر حوله الاحياء والخطط المختلفة بما حوته من دور ومساكن وأسواق ورحاب وغيرها . (١٩٧) وقد قارن البعض بين المسجد الجامع والكاتدرائية في العالم المسيحي وما بين منارة المسجد وبرج الكنيسة . وان ساحة المسجد تحل محل ميدان الكنيسة (١٩٨) . ومثل هذه المقارنة كان من الممكن قبولها لو ان المدينة العربية كانت تعرف مسجدا جامعا واحدا ، وانها تخطط على هذا الاساس ان يتخذ موضع المسجد اولا ثم تقام المدينة من حوله ، وأن صدق هذا قائما على الامصار اوالمدن الحادثة ، اما اذا نظر الى تخطيط المدينة العربية بوجه عام فانها تختلف فى تركيبها عن المدينة الاوروبية لاختلاف دور كل من المسجد والكاتدرائية .

---

(١٩٤) يذكر ابن الاثير أن منشورات الحكومة كانت تكتب فى الواح تعلق فى الاسواق . ويذكر السخاوى ان هذه المنشورات منها ماكان منقوشا على رخام يطاف به فى الشوارع ويلصق واحدة منها قرب أبواب المدينة الرئيسية أو قد تلصق على حائط بقرب المسجد الجامع ، وأحيانا كانت تعلق على الحوانيت وأبواب الدور ... انظر احمد تيمور : التذكرة التيمورية ص ٤٤ / ٤٥ .

(١٩٥) حسن عبد الوهاب : طرز العمارة الاسلامية في ريف مصر ص ٦ .

(١٩٦) السيد محمود عبد العزيز سالم : التخطيط ومظاهر العمران فى العصور الوسطى ص ٥٤ . المجلة ، العدد ٩ سبتمبر ١٩٥٧ .

(١٩٧) فريد شافعى : العمارة والبيئة العربية الاسلامية ص ٣٦ . مجلة الدار العدد ٢ ، ربع سنوية تصدر عن دارة الملك عبد العزيز . السعودية يونية ١٩٧٥ .

(١٩٨) سابا جورج شبر : العلم وتنظيم المدن العربية ص ٣٠ . الكويت ١٩٦٣ .

المعاهد والمؤسسات الدينية الاسلامية :

تعتبر الخوانق والرباطات (١٩٩) والزوايا صورا متعددة من المعاهد والمؤسسات الدينية الاسلامية العامة والتي تؤدي خدمات ثقافية واجتماعية وصحية ، ففي بعضها ينقطع اصحاب التصوف واهل التقشف للعلم والعبادة ، وفيها يتم تدريس مذاهب الفقهاء على اختلافها ، كما ان بعضها يقوم بايواء الغرباء والوافدين من الفقراء وأهل المسكنة وهى بذلك بديل عن أماكن السكنى العامة . واذا كان لهذه الدور شروط فى القبول فان بعضها بدون شروط ، ومنها ما كان خاصا بالنساء ، كان فيها متسع للاطفال يتعلمون الدين والعلوم العامة ، وفوق ذلك خدمات صحية .

ولقد كانت دور العبادة والعلم هذه من الاعمال الخيرية التي تنافس فى تشييدها السلاطين والحكام والامراء والاعيان والتجار وكل أهل الرياسة والثروة (٢٠٠) ثم أوقف كل هؤلاء على هذه المؤسسات من العقارات والاراضي الزراعية وغيرها ما مكنها من أداء وظيفتها فى المجتمع ، وما وسع من اختصاصاتها بمالا يقارن بحال من الاحوال بدور العبادة التي قامت فى المجتمع الاوروبي .

خامسا - المقابر والاضرحة :

كانت المقابر القديمة الفرعونية (البرابى) احدى سمات تعريف المدينة في مصر العصر الوسيط . أما المقابر الاسلامية فقد استحدثت مع انتشار الاسلام فى مصر واتخذت بوجه عام مواضع فى الجهات القبلية (الجنوبية) او الغربية من مراكز العمران دون الجهات الشمالية لمراعاة اتجاه الرياح السائدة .

اما خصائص مواضع هذه المقابر فكانت اما على حافة الصحراء او فى الجزر الرملية ان وجدت بين المعمور ، أو على التلال الكفرية الباقية كأثر للمراكز العمرانية القديمة ، أو كبقايا للمقابر القديمة السابقة للفتح الاسلامي .

---

(١٩٩) عن الرباط ودوره في الحياة الدينية فى الاسلام وصلته بالرباط الحربى ومدى العلاقة بينهما والتشابه القائم بين هذه المنشآت ومثيلاتها فى أوروبا العصور الوسطى أنظر :

زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٢٦ / ٢٧ ، الطبعة الاولى ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

كمال الدين سامح : العمارة في صدر الاسلام ص ١٤٢ ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٧١ .

عثمان الكعاك : الحضارة العربية فى حوض البحر المتوسط ، معهد الدراسات العربية القاهرة ١٩٦٥ .

ناجى معروف : اصالة الحضارة العربية ص ٢٦٠ /٢٦٢ .

حسن الباشا : الالقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار ص ٤٦٧ القاهرة ١٩٥٧ .

(٢٠٠) ابن خلدون : الرحلة ص ٣٠٤ .

وقد دعت الضرورة أحيانا الـى اتخـاذالمقابر في الجزر المنتشرة في بحيرات شمال الدلتا وذلك ضنا بالاراضي الزراعية وحرصا في جميعالحالات على الدفن في اماكن جافة خالية مـن النز والرشح والرطوبة .

أما الاضرحة ــ وهي المقابر ذات القباب ــ فقد كثرت في منطقة المقابر وفي داخل المساجـد بالمدن حتى صارت من سمات المدن الاسلامية ،ويلاحظ على هذه الاضرحة ان الكثرة الغالبة من المدفونين بداخلها من غير المصريين ، منهم الحجاجوالرحالة العـابرين لارض مصر والـذين انتهت حياتهم في تلك المدن ، ومنهم طلاب علم نالوا فيمصر الوظائف بعد ان استقروا فيها وماتوا .

وقد تنافس في تجصيص المقابر والاضرحةوزخرفتها وتشييدها كل من الملوك والسلاطين والامراء والتجار وأفراد الشعب مما جعل مـنتلك المقابر سجلا حافلا بالفن الاسلامي العربي خصوصا اذا ما علمنا بأن الكثيرين من السلاطينوالامراء والاغنياء قـد اهتمـوا باقامـة المقابـر والاضرحة الخاصة بهم في حياتهم،ويبدو واضحاان هذه من سمات مصر منذ العصر الفرعوني .

وهناك من المقابر ما ارتبـط تشييـدهبالمساجد والزوايا والرباطات والخوانق ، اذ أن كثيرا ما كان المشيد لهذه العمائر الدينية يقيـملنفسه ولغيره من سكان هذه المؤسسات مقابر على نحو ما هو بمدينة الخانقاة السرياقوسية .

هذا وتعد منطقة المقابر من المعالم الواضحةفي المدن العربية المصرية في العصر الوسيـط ، وكثيرا ما تشغل الاجزاء الداخلية مـن كتلـةالسكن الرئيسية ، وقد تتعدد مناطـق المقابـر بتعدد النوبات السكنية القديمة للمدينة الحالية،وفي كثير من الاحيان تشغل منطقة المقابر اطراف الكتلة السكنية القديمة .

سادسا : احتياجات المدينة من المياه العذبة

ان توفر الماء العذب شرط اساسـي لايتجمع عمراني ، وتصبح الحاجة اليه اشد مـع زيادة حجم هذا التجمع الممثل في المدن ، ولهذانجد ان القرب من النهر وفروعه وخلجانه وترعه شرط اساسي في تحديد مواضع المدن ، كما انلفصلية النهر أثرها وبالمثل فصليـة خلجـان النهر ، مما يدفع باستمرار الى العناية بالمجاريالمائية وضمان استمرار جريان الماء فيها ، واذا لم تتوفر المجاري الطبيعية فان شق الخلجان أوالترع يصبح البديل الضروري للمراكز العمرانية المستحدثة في مثل هذه النواحي .

هذا ويتم تزويد مساكنالمدينة بالماء العذبعلى يد السقائين وأصحاب الروايا والقرب ممن يحملون على ظهورهم او على الدواب . وقد كانمن اختصاص المحتسب الاشراف على السقائين فيأمرهم بالدخول في النهر حتى يبعدوا عن الشطومواضع الاوساخ ولا يستقون من موضع النهر

بقرب سقاية الدواب أو مستخدم (خرارة) أومجرى حمام ، بل يصعدون عنه أو يبعدون من تحته .ومن اتخذ منهم رِوَاية جديدة أمره المحتسب بنقل الماء الى معاجن الطين اياما ، ولا يبيعون الماء للشرب ، فانه يكون متغير الطعم والرائحة من أثر الدباغة والزفت ، فان زال التغير أذن لهم المحتسب ببيعه للناس للشرب والاستعمال .

وفى سبيل المحافظة على المارة من البلل فقدكان المحتسب يأمر السقائين بربط أفواه القرب ، وان يشدوا فى اعناق دوابهم الاجراس وصفاقات الحديد والنحاس ، لتعلو جلبة الدابة اذا عبرت فى سوق أو محلة . (٢٠١)

وهناك من المدن المشرفة على النهر مباشرة ما كانت المنازل فيها تأخذ حاجتها من النهر مباشرة بدركات تؤدي الى النهر مثلما شاهد ابن بطوطة في دمياط ، كما عرفت بعض المدن رفع الماء بالدواليب لتوصيل الماء الى المرافق العامة كالحمامات والمساجد . وكذلك عرفت بعض المدن استخدام ماء الآبار فى الاغراض المنزلية تسهيلا وتيسيرا ، فى حين اقتصر حمل الماء العذب على اغراض الشرب .

واما فى المدن البعيدة عن مصادر الماء العذب مثل المدن القائمة فى الجزر او الهامشية فقد اعتمدت على تخزين الماء العذب فى الصهاريج او استفادت من ماء المطر .

سابعا : الصرف والتخلص من نفايات المدن :

كما عرفت المدن المصرية شبكات المياه العذبة في المساكن والمرافق العامة حيث ينقل الماء الى الادوار العليا ، كذلك عرفت المدن طرق صرف مياه آبار الحشوش (المراحيض) المتجمعة من مرافق المنازل فى حفر الدور وذلك على يد الكاسح (السراباتي) الذي كان يتولى تنظيف الاسرية والقنى بعد نقل هذه المياه المستعملة .(٢٠٢) ولقد كان نص اختصاص المحتسب الزام من اخرج كنيفا ان يطرحه خارج البلد .(٢٠٣)

وفى المدن الكبرى كالقاهرة كانت الدولة تعطى حق نقل مياه الحشوش لملتزم يدفع للدولة اموالا مقابل احتكار هذا العمل فى كل المدينة ،ثم يتولى هو بالاتفاق مع السكان على الاجر الذى يتقاضاه فى مقابل نقل مياه حشوشهم ولايستطيع مالك أن يفعل ذلك الا عن طريق هذا الملتزم .

---

(٢٠١) الشيزرى : ص ١١٧ ، ابن الاخوة : ص ٢٤٠

(٢٠٢) السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، ص١٤٦ .

(٢٠٣) الجيلدى : التيسير فى احكام التسعير ، ص٧٢ .

والى جانب هذه الوسيلة فقد عرفت بعض المنازل استخدام آبار عميقة فى داخلها يصرف اليها الماء المستعمل حتى يتسرب مع الماء الجوفي على نحو ما كشفت عمليات الحفر فى اثار الفسطاط . (٢٠٤)

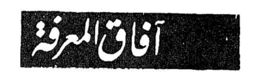
• • •

وبعد ، فقد القينا الضوء هنا على جانب هام من الفكر العربى ، كيف كان يعامل مع معطيات الحضارة من حوله ـ المدينة ـ فهذه نبذة عن تركيب المدينة العربية تعكس مدى عناية العرب بجغرافية المدن ، ولقد استعرضنا نصيب هذه الظاهرة الجغرافية ، فى المؤلفات الجغرافية وكتب تواريخ المدن والحضارة ، وخاصة ما سجله ابن خلدون فى مقدمته . ولقد الحقنا ذلك بتركيب المدينة من الداخل من حيث تخطيطها : منازلها وأسوارها وتوابعها ، ثم فصلنا القول عن أهم مرافقها التجارية والصناعية والصحية ومؤسساتها الاجتماعية والثقافية والدينية ، ومدى كفاية هذه المرافق فى سد احتياجات السكان اليومية لتقويم المدينة بوظائفها المتعددة .

★ ★ ★

---

(٢٠٤) الشيزرى : ص ٣٣ ، ابن الاخوة ، ص ١١١، ص ١٢٩ .



ماذا يحدث الآن فى علوم الفضاء

« يا معشر الجن والانس ، ان استطعتم ان تنفذوا من
أقطار السماوات والارض فانفذوا • لا تنفذون الا بسلطان »•
قرآن كريم

المهندس سعد شعبان *

مقـدمة

بعد الحرب العالمية الثانية ، انحسر عصر الذرة ، وبدأ عصر الفضاء . فالفضاء عصرنا الذى نعيشه ، وانجازاته أصبحت ملءالسمع والبصر ، تبهر الناس ، وتأخذهم ، ولكنهم جميعا بين خاصة وعامة ، ما زالوا يحســون انهم يقفون أمام المجهول . لأن ما نعرفه عن الفضاء ، وما استكشفناه منه ليس غير قطرة فى بحر لجى .

وتكنولوجيا الفضـاء اصبحت تتربع على عرش الانجازات والتطبيقات العلمية نموذجا لدقة التخطيط ودقة التصنيع ، باعتبارهما خلاصة الفكر الانسانى المتقدم وثمرة لجهود حشد كبير من العلماء • ومن ثم فقد جذبت اليها سائر تكنولوجيات العصر ، ودفعتهـا الى عجلة التطوير •

ولم تمض غـير سـنوات على بدء عصر الفضاء حتى أصبح لانجازاته وبحوثه آثارعلى

* المهندس سعد شعبان : (ماجستير فى الملاحة الجوية).
- رئيس لجنة الفضاء بنادى الطيران المصرى . وعضولجنة الفضاء باتحاد الطيران الدولى بباريس .
- رئيس تحرير مجلة المهندسين بالقاهرة .
- له مؤلفات علمية عديدة فى علوم الطيران والفضاء .

كل معالم الحياة فى العصر ، تكاد تؤثر على كل مواطن فى كل قارة ، سواء فى عمله او بيته . فقد فرضت التحولات الفضائية نفسها على حياتنا اليومية وعلى معالم الحضارة فوق أرضنا ، ليس فقط فى مجالات الرفاهية بل فى ادق مظاهر الحياة . فقد اصبح لها اثرها على الاتصالات بين الدول ، وعلى التنبؤ بالأحوال الجوية ، وعلى الملاحة عبر المحيطات والبحار والاجواء ، وعلى التصوير من الجو ، وعلى تسليح الجيوش .

كما أصبح له اثره على الفكر الانسانى فى عديدة من مجالات الفنون التشكيلية والتطبيقية .

ومن هذه التحولات ما فرض نفسه بحيث أصبح يشكل حجر زاوية فى ركب البشرية لأنها تحولات جذرية فى الاسلوب والتطبيق ، فعلى سبيل المثال كان البحث عن البترول والمياه الجوفية والمعادن الدفينة يعتمد على الحفر والتنقيب فى جوف الارض ، بمثاقيب وحفارات الى أعماق كبيرة تحت سطح الارض ولكن بعد تقدم البحوث ، اصبحت هذه الوسائل عتيقة ، واصبحت عملية التقاط الاشعاعات الصادرة من هذه المناطق هى الوسيلة الرئيسية .

وكذلك فرضت التحولات الفضائية تغييرات على كثير من المجالات الأخرى ، الأمر الذى يدعونا الى التبصر فيما نحن مقبلون عليه .

ومن ثم فان نظرتنا الى بحوث الفضاء تدعونا الى التبصر فيما كانت عليه افكار سابقينا ، وما اصبحت عليه في واقع حياتنا ، وما هو مخطط لها فى مستقبلها .

•••

فى البدء كان خيالا

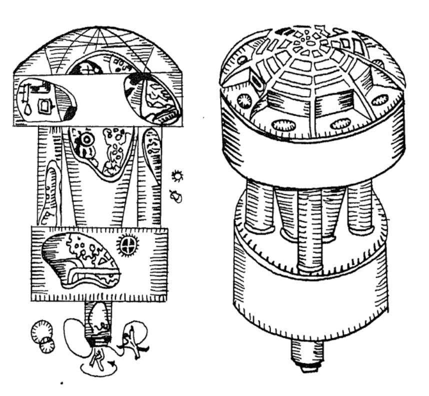
لا شك أن حقائق اليوم هى أحلام الأمس .

ولا شك أن الحقائق الفضائية التى نعيشها اليوم كانت افكارا خيالية فى عقول بعض أدباء او علماء القرن الماضى ، امتزجت فى خيالاتهم بالأحلام ، ووردت لذلك فى بعض قصص أدباء القرون السابقة وخاصة القرن التاسع عشر الذى شهد فجر ثورة التكنولوجيا . لقد غزا هؤلاء الأدباء القمر وهم على الارض ، وتصوروا هجوما ساخنا من سكان كواكب اخرى موجها الى سكان الارض . وصوروا للناس في بساطة كيف يمكن الافلات من الجاذبية ومعاناة انعدام الوزن وطرق بناء مستعمرات على القمر .

من هؤلاء « **جول فيرن** » الأديب الفرنسى الذى برع فى مزج العلم بالأدب فى عدة روايات والذى يعرفه العالم بروايته الشهيرة **٨٠ يوما حول العالم** ومنهم كذلك الرياضى الروسى « **تسيلكوفسكى** » الذى وضع تصميمات مبكرة لسفن الفضاء والصواريخ ، والتى لا تختلف عنها كثير من سفن الفضاء الحالية شكل(١) ويشاركهم فى هذا الركب العلماء البريطانيون « البرت بيل » و « هـ . ج ويلز » ، والسويسرى « بواسيه » .

كل من هؤلاء الادباء سبق عصره وصور للناس فى قالب مثير وشيق ، مركبات خيالية تستطيع اختراق الغلاف الجوى للأرض ، وكيف يعانى الانسان من انعدام الوزن ،عند السفر للقمر ، أو التجول بين الكواكب . ومن أجل ذلك افترضوا اكتشافات لا علم للناس بها كتفجير طاقات خفية فى المادة . أو تسخير قوى لا دراية للبشرية بها . وبذلك أشاعوا بين قراء الآداب لونا جديدا يمتزج فيه العلم بنسيج الرواية ، ويختلط فيه الخيال مع حقائق الوجود . وبذلك اصبحت الحقائق العلمية في متناول غير المتخصصين فى تبسيط محبب للنفوس ، وخاصة بعض المستغلقات عن الطاقة والذرة والفلك والاشعاع .

•••



شكل (١) لم تختلف سفن الفضاء التى تخيلها العالم تسيلكوفسكى فى القرن التاسع عشر ، عن سفن سويوز التى أطلقها السوفييت فى القرن العشرين

الفضل للمطية

لا شك في أن الأقمار الصناعية وسفن الفضاء مدينة للصواريخ بنجاح صعودها الى الفضاء . فالصواريخ تمثل المطية التي تحمل كل الاجسام الصناعية في الغلاف الجوى المحيط بالارض وتفلت بها من أسار الجاذبية ثم تضعها على مداراتها . والحقيقة انه اولا الوسيلة لانعدمت النتائج . لذلك فمن تدقيق القول تقرير أن الصواريخ كانت الجهد الأساسى فى غزو الفضاء .

ولقد قامت الافكار العلمية والأسس النظرية لاطلاق الصواريخ فى العصر الحديث على اكتاف عديد من العلماء **يبرز منهم ثلاثة :**

اولهم عالم الرياضيات الروسى « تسيلكوفسكى » ، الذى وضع عام ١٩٠٣ نظريات الانطلاق فى الفضاء ، وتحول رد فعل الغازات الى حركة ، وربط بين الحقائق الرياضية البحتة وحقائق علوم الفلك والتفاعل الكيماوى في مركبات ترتفع بعيدا عن الارض .

وثانيهم العالم الالمانى « هرمان اويرث » وقد كان ضليعا فى علوم الفلك والرياضيات والذى نشر عام (١٩٢٣) كتيبا باسم « الصاروخ عابر الفضاء الكونى » وأعاد طباعته بعد أعوام مضيفا اليه رسوما توضيحية . وقد لاقى الكتيب ترحيبا فى الاوساط العلمية ، نظرا لأنه قرب للأذهان فكرة سفن الفضاء التى يمكن أن تدور حول الارض ، وتهبط على الكواكب الاخرى .

وقد اهتم « أوبرث » بنشر الوعى العلمى بين الجماهير فكون « جماعة السفر عبر الفضاء » ، وأشرف بنفسه على اخراج عدة أفلام سينمائية ، تقرب هذه المعلومات وتبسطها للناس ، احدها باسم « رحلة صاروخية الى الفضاء » وآخر باسم « بنت القمر » .

وثالثهم العالم الامريكى « جودارد » ، الذى يسمى باسمه حاليا المركز الرئيسى لمراقبة سفن الفضاء فى الولايات المتحدة الامريكية فقد بدأ ابحاثه وكتاباته عن « وسيلة الوصول الى أقصى الارتفاعات » عام ١٩١٩ شكل (٢) ووضع تصميمات بسيطة لعدة صواريخ ، واخذ يطور أساليب اطلاقها ويجريها امام الجماهير فى الحدائق العامة والاماكن الخالية . وبعد عدة سنوات أفلح فى الارتفاع بصواريخه الى ارتفاع (٤٠٠٠) قدم ثم (٤٨٠٠) قدم ثم (٧٥٠٠) قدم ، ووفق في دراسة خواص الوسط المادى لانطلاق الصاروخ ، وتيقن من امكان اندفاعها فى الفضاء بنجاح . كما درس نظرية نفث الغازات ، خلال الاختناقات أو اعناق النفث (Nozzles) .

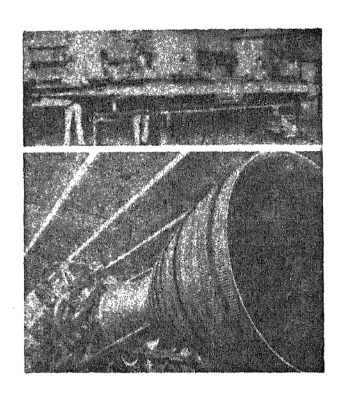
ولقد كان من أعمق أعماله ، نشر الوعى العلمى عن الصواريخ والفضاء وجذب انتباه الجماهير الى هذه العلوم فكون عدة جمعيات علمية « لهواة السفر الى الفضاء » ، ودراسة شئونه .

وقد ظل « جودارد » فى كفاحه ، حتى قامت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ، وبعثت ابحاث الصواريخ فى عدة دول من أهمها المانيا ، للبحث عن وسائل مبتكرة للدمار ، وكان لها فى ذلك قصب السبق ، الذى أدخلت به البشرية عصر الفضاء .

● ● ●

رواد الصواريخ

لم تبدأ الدفعة القوية لانتاج الصواريخ بصورة غير بدائية الا اواخر الحرب العالمية الثانية فى المانيا . ويرجع ذلك الى مجهودات الضابط المهندس الالماني « وولتر دورنبرجر » الذى تضافرت مجهوداته مع مجهودات مستشاره الفنى الشاب « فيرنر فون براون » وخصص لهما هتلر قرية « بينموند » (Peenemunde) **المنعزلة فى جزيرة**



شكل (٢) جودارد يجرب صواريخه التى بدأت ترتفع
لعدة آلاف من الاقدام فوق الارض

« بوسدوم » عند مصب نهر الاودر لاجراء أبحاث الصواريخ . وكانت أولى ثمرات أبحاثهما صاروخ من طراز (ف ٢) يتجاوز فى مداه مدى أقوى المدافع ، ولذلك اطلق عليه اسم « سلاح الانتقام » . وأمر هتلر بتوجيه آلاف من هذه القذائف نحو مدينة لندن فبثت الرعب فى قلوب البريطانيين قبل ان يكتشفوا قواعد اطلاقها فى شمال فرنسا التى كانت محتلة آنذاك .

وقد توالت سلسلة النجاح والفشل فى تصنيع محركات صاروخية للصاروخ (ف٢) حتى اطلق أول صاروخ منه في ٨ سبتمبر ١٩٤٤ . وامكن تحميل كل صاروخ منها بحمولة قدرها طن من المواد المتفجرة لمسافة ٣٧٠ كيلو مترا ـ وهذا بلا شك ما كانت تعجز ـ وما زالت ـ عن حمله المدفعية الثقيلة .

وقد كان هذا الصاروخ يحمل تسعة اطنان من المواد المشتعلة المكونة من الكحول والاوكسجين السائل ، بينما يبلغ وزنه الكلى ١٤ طنا ، وكان عدد اجزائه يبلغ ٣٠ الف قطعة يجرى تصنيعها فى عدة مصانع ، ثم يتم تجميعها فى قرية بينموند فى شمال المانيا .

وجدير بالذكر أن كلا من (دورنبرجر وفون براون) قد وقعا أسرى فى أيدى الامريكيين عند غزو المانيا ونقلا الى الولايات المتحدة الامريكية ، وتجنسا فيما بعد بالجنسية الامريكية عام ١٩٥٦ . واصبح (فيرنر فون براون) مشرفا على أبحاث وبرامج غزو الفضاء فى الولايات المتحدة الامريكية لعدة سنوات . ويرجع له الفضل في كثير من التقدم الامريكى فى تصنيع الصواريخ ، وهو الذى قام بتصميم اول صاروخ حامل للمواد النووية من طراز (ردستون) واستخدم خلال الحرب الكورية عام ١٩٥٣ . كما صمم الصاروخ الامريكى الضخم من طراز (ساترون) الذى حمل أغلب سفن (ابوللو) الى الفضاء ، شكل (٣) .

اما قرية (بينموند) فقد سقطت فى يد الجيش الروسى ، وتكشفت اسرار الصواريخ لكل من روسيا وامريكا وبدأت بينهما مباراة حامية الوطيس فى انتاج هذه الوسائل المحققة للدمار .

لماذا تتعدد مراحل الصواريخ

يتكون الصاروخ وهو فارغ من اجزاء معدنية تتمثل فى هيكله ومحركه الصاروخى ، وهذه الأجزاء لها وزن ثابت يمكن أن نسميه « وزن الصاروخ فارغا » فاذا أضفنا اليه وزن الوقود الذى يمكن أن يوضع داخله ليشتعل، يصبح لدينا « الوزن الكلى » للصاروخ .

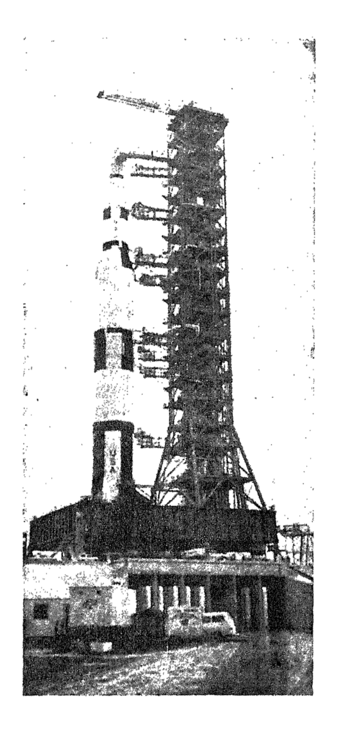
ونسبة الكتلة هى النسبة بين هذين الوزنين أى بين الوزن الكلى للصاروخ فارغا .

نسبة الكتلة = الوزن الكلى للصاروخ ÷ وزنه فارغا .

ويبدو من هذه المعادلة البسيطة ان العامل المتغير فيها هو الوقود .

وهناك علاقة رياضية خاصة تربط بين نسبة الكتلة وبين السرعة النهائية التى يمكن ان يبلغها الصاروخ تتمثل فى الأرقام التالية :

نسبة الكتلة	السرعة النهائية
٧ر٤	السرعة النهائية للصاروخ = سرعة خروج الغازات
٢ر٧	السرعة النهائية للصاروخ = ضعف سرعة الغازات
٢٠	السرعة النهائية للصاروخ = ٣ امثال سرعة الغازات



شكل (٣) صاروخ « ساترن ــ ٥ » ذو أربعة مراحل استخدم لاطلاق اغلب سفن أبوللو الامريكية ويزيد ارتفاعه عن عمارة مكونة من ٣٢ طابقا .

وهنا قد يتبادر الى الذهن سؤال ، لماذا لا نستطيع صنع صاروخ كبير نزيد فيه من نسبة الكتلة الى حد كبير فنجعله يسع قدرا كبيرا من الوقود لتزيد سرعته الى الحد الذى نريده ؟ . ولاشك أن هناك عقبات هندسية تقف أمام تحقيق ذلك ، من اهمها ان الصاروخ كجسم متحرك ، له وزن ، وان المعادن التى تستطيع تحمل هذا الوزن تتعرض لاجهاد نتيجة الاشتغال الذى يتم داخله ، كما يتعرض هذا الجسم الضخم لمقاومة من الهواء ولذلك فليس ممكنا الى ما لا نهاية زيادة كمية الوقود داخل الصاروخ بفرض زيادة سرعته.

ولكن أمكن التغلب على هذه المشكلة بالتفكير في الصاروخ المتعدد المراحل . والصاروخ المتعدد المراحل ليس أكثر من صاروخ كبير يحمل صاروخا آخر أصغر منه ، ولا يبدأ هذا الأخير فى الاحتراق الا بعد ان يصل الصاروخ الاول الى سرعة معينة ، فينفصل عنه ويبدأ فى الاحتراق . وهكذا يمكننا القول أن المرحلة الثانية من الصاروخ المتعدد المراحل تبدأ من حيث تنتهى المرحلة الاولى ، كما تبدأ المرحلة الثالثة من حيث تنتهى سرعة المرحلة الثانية.

وبذلك فان نسبة الكتلة لهذه المجموعة المركبة من الصواريخ تصبح حاصل ضرب نسب كتل كل منها فى بعضها . فاذا كانت نسبة كتلة صاروخ المرحلة الاولى (٦) مثلا ونسبة كتلة صاروخ المرحلة الثانية (٥) ونسبة كتلة المرحلة الثالثة (٣) فان معنى هذا أن الصاروخ الذى يتكون من ثلاث مراحل له نسبة كتلة ٦ × ٥ × ٣ = ٩٠ . وقد أمكن بتصميم الصواريخ المتعددة المراحل الافلات من جاذبية الارض ، والانطلاق الى الفضاء الكونى ، والتغلب على كثير من قصور الصواريخ الصغيرة المدى بتصميم الصواريخ الضخمة العابرة للقارات التي يصل مداها الى عدة آلاف من الكيلو مترات .

وفى أواخر الحرب العالمية الثانية وفق الالمان مرة اخرى في انتاج صاروخ متعدد المراحل أسموه (أ ٩ ـ أ ١٠) يتكون من مرحلتين . وكان هدفهم البعيد محاولة قذف الولايات المتحدة الامريكية به ، بعد أن أفلحوا فى قذف الجزر البريطانية .

ولقد كان تصميم هذا الصاروخ يسمح بخروج الغازات بعد احتراق المرحلة الثانية بسرعة تصل الى ٦٠٠٠ ميل / الساعة . وكان حلم « فون براون » بناء صاروخ يتكون من ثلاث مراحل ، الا أن الحرب وضعت أوزارها دون أن يتحقق الحلم .

وتبنت الولايات المتحدة الامريكية أفكار فون براون ، بعد انتقاله اليها فى نهاية الحرب ، وامكن عام ١٩٤٩ اطلاق صاروخ أمريكى صغير من طراز « كوربورال » (Corporal) على الصاروخ الالمانى (ف ٢) الذى أصبحت أسراره فى أيدى علماء أمريكا . وشاع بعد ذلك استخدام الصواريخ المتعددة المراحل التى يعزى اليها الفضل فى نجاح بلوغ الاقمار الصناعية لمداراتها العالية فى الفضاء .

ونحن نسمع اليوم عن جيل من الصواريخ العابرة للقارات ، والتى تستخدم فى ترسانات الاسلحة العسكرية. وهى فى حقيقتها صواريخ ضخمة يمكن أن تنطلق لتصب المتفجرات فوق رؤوس الاعداء على بعد آلاف الكيلومترات ، كما يمكن أن تحمل قنابل نووية أو ذرية عبر هذه المسافات الطويلة . ويمكننا ان تحمل بدلا من ذلك قمرا صناعيا أو سفينة للفضاء من احكام توجيهها الى الارتفاع المناسب في الفضاء .

هذا الجيل من الصواريخ العابرة للقارات يضم الانواع الامريكية المسماة :

اطلس ـ ثور ـ تيتان ـ جوبيتر ـ منيوتمان ـ بولاريس ـ بوسيدون ـ ساترن

بينما أهم الانواع السوفيتية صاروخ « فوستوك » وهو ايضا نفس الاسم الذى يطلق على سلسلة سفن فضائية بدون رواد . وقد طور السوفييت صواريخهم الدافعة لسفنهم من طراز « سويوز » حيث قدر المراقبون انها ذات قدرة دفع ٦٠ مليون حصان . وهو مايعادل قدرة صواريخ « فوستوك » . كما ان هناك أنواعا أخرى مطورة قذفت بسفنهم الفضائية بدون رواد من طراز « فينوس » . « ومارس » . ولقد تجاوز مدى الصواريخ المتعددة المراحل عشرة آلاف من الكيلو مترات . ولذلك فهى تستطيع الانطلاق من قارة الى اخرى ، ولذلك يطلق عليها الصواريخ العابرة للقارات . وقد تنوع استخدام بعضها لتطلق من فوق الارض أو من فوق الفواصات ، وبعضها يمكن ان يطلق من فوق قطارات السكك الحديدية .

● ● ●

بدء عصر الفضاء

يمكن التأريخ لبدء عصر الفضاء ، باليوم الذى اطلق فيه الاتحاد السوفييتى أول قمر صناعى ، وسماه « سبوتنيك ــ ١ » . وكان ذلك فى ٤ اكتوبر ١٩٥٧ . لقد لفت الحدث الانظار ، وبهر المتطلعين ، ولكنه كان اول خطوة على طريق طويل ، للكشف عن المجهول فى تيه لا يعرف العلماء له نهاية ، ولا بداية . ولا يحيطون بأمره الا قليلا . ولكن المراقبين على يقين من أن البشرية على عتبات عصر جديد .

غير ان التصاق الفجر بالاتحاد السوفييتى وضع الولايات المتحدة الامريكية فى موقف محرج ، وكأنها كانت فى وقفة تخلف امام انظار العالم .

وتأكد هذا الانتصار العلمى باطلاق القمر الصناعى السوفييتى الثانى «سبوتنيك ــ ٢» بعد شهر واحد فى ٣ نوفمبر ١٩٥٧ حاملا الكلبة « لايكا » التى ظلت حية داخل هذا القمر زهاء سبعة أيام ثم نفقت مسجلة أنها أول « شهيدة » للبحث العلمى فى الفضاء .

كل ذلك دفع أمريكا الى رصد ميزانية ضخمة لبرامج البحث العلمى الامريكية لكى لا يستأثر السوفييت بالنصر وحدهم ،وحمى وطيس المنافسة بين علماء الدولتين . ولقد تطورت الاحداث على عجل ، ولم يمض غير اربعة شهور تقريبا حتى وفق الأمريكيون فى اطلاق أول اقمارهم الصناعية «اكسبلورر ــ ١» (Explorer) او (الكاشف ــ ١) فى ٣١ يناير ١٩٥٨ .

بعدئذ توالى اطلاق سلاسل من الاقمار الصناعية من كلا الطرفين ، تعد بالعشرات ، بعضها يدور حول الارض ، وبعضها يغوص فى الفضاء ، وبعضها يقترب من القمر ، كل ذلك لقياس العناصر العلمية التى تهتك ستر المجهول عن الفضاء . ولذلك سميت «مجسات الفضاء » (Space Probes) لان مهمتها كانت التعرف على طبيعته . ولقد حملت الاقمار الصناعية العديد من الاجهزة العلمية الدقيقة لقياس الحرارة والضغط والكثافة والاشعاع فى أعالى طبقات الغلاف الجوى . والحقيقة أن الاقمار الصناعية لم تكن تختلف عن بعضها البعض الا فيما تحويه من أجهزة مستحدثة ، وما تستطيع أن تبلغه من ارتفاعات اثناء دوراتها المتتالية .

ورغم ان القمر الصناعى السوفييتى الاول « سبوتنيك ــ ١ » (Sputnik-1) لم يكن حجمه يجاوز حجم كرة السلة ، وكان كرويا مثلها ، فان الاقمار السوفييتية والامريكية التالية ظلت فى تزايد مستمر من حيث الحجم والوزن ، كما تباينت أشكالها واجهزتها .

سيل منهمر من الاقمار الصناعية

منذ أوائل عام ١٩٥٨ توالى اطلاق سيل منهمر من الاقمار الصناعية الى الفضاء من كل من روسيا وأمريكا ، وكأنهما في مباراة حامية الوطيس .

وكانت سنة ١٩٥٨ هى السنة الجغرافية الدولية او السنة الجيوفيزيقية وفقا لنظم هيئة الامم المتحدة. وخلال مثل هذه السنوات التى يطلق عليها اسم « سنة » مجازا ــ وحقيقتها انها تستمر اربعة اعوام يتم تبادل المعلومات بين علماء الدول .

ولقد لعبت الاقمار الصناعية دورا متعاظما فى نقل كثير من المعلومات المستحدثة الى كثير من دول العالم. وتبددت بذلك كثير من المفاهيم الخاطئة ، على ضوء ما قاسته من عناصر . ولذلك سميت الاجيال الاولى من هذه الاقمار باسماء تعبر عن مهامها فى الفضاء مثل «الكاشف» (Explorer) و «المستكشف» (Discoverer) و «الرائد» (Pioneer) و « الطليعة » (Vanguard) . وحسبنا على سبيل المثال أن الاقمار الصناعية أطاحت بما كان يلقن فى المدارس للتلاميذ الصغار عن أن الارض كروية. فقد صورتها من ارتفاعات عالية فى الفضاء ، وعرف الناس انها ليست كروية ، بل كمثرية ، يتدبب طرفها القريب من القطب الشمالى .

كما أن اجهزة الرصد الجوى لم تكن ــ حتى آنذاك ــ قد بلغت كل طبقات الغلاف الجوى وقاست عناصر الضغط والحرارة والكثافة ونسب بخار الماء به ، وعرفت مكوناته، فقد قامت الاقمار الصناعية بالغوص فى طبقات الغلاف الجوى وطبقات الفضاء الاعلى منه ونقلت الى العلماء كل ما يريدون .

كما قاسم الاشعاعات الكونية ، والمجالات المغناطيسية ، والاشعاعات الشمسية المرئية وغير المرئية . وصورت الوجه المختفى من القمر والذى لم تره عين بشر من قبل ، وسجلت قياسات عن الشهب (Meteores) والنيازك وكثافة وجودها في الفضاء القريب من الارض .

كل هذه الاقمار والتى فاق عددها الآلاف فى بعض الاحيان ، كانت تمرح فى السماء ويسهل على المشاهد رؤيتها بالعين المجردة ، وهى تتجول بين النجوم أثناء الليل فهى لامعة مثلها ، ولكن يسهل تمييزها عنها ، ذلك أنها تتحرك فى خطوط مستقيمة بين النجوم الثوابت .

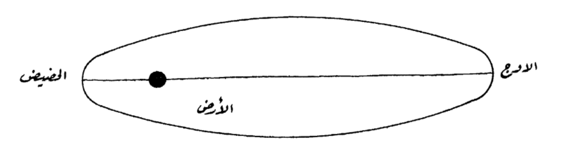
وحقيقة الامر ان مسارات الاقمار الصناعية ليست مستقيمة بكاملها ، بل تظهر كذلك للمشاهد فقط من مكان واحد . فمداراتها بيضاوية ، أو اهليليجية حول الارض كبؤرة وقد تفاوتت مداراتها غوصا فى الفضاء فبلغ (أوج = اكبر ارتفاع للمدار) (Perigee) بعضها ارتفاعات شاهقة تقاس بمئات الكيلو مترات ، كما دنا (حضيض = أقل ارتفاع للمدار) (Apogee) البعض الاخر الى حد ملامسة الغلاف الجوى للارض ، حتى احترق بعد حين نتيجة الاحتكاك بجزيئاته شكل (٤) . ومن هنا تفاوتت مدد بقاء الاقمار الصناعية فى الفضاء اى اختلفت أعمارها . فقد احترق بعضها بعد اداء مهام قصيرة لم تدم غير ايام ، بينما ظل بعضها يدور وما زال يدور الى الآن ، وسيظل يدور ربما لمئات أو آلاف السنين . ومن البديهى ان المعلومات التى يقيسها القمر الصناعى ، ترسل الى الارض عبر محطات المتابعة التى تتبع حركتها وتستقبل معطياتها ، فيعكف العلماء على تحليلها واستنباط الاستنتاجات منها .

ومن الامثلة البارزة في هذا المجال ما حققه العالم الامريكى « فان آلن (Van Allen) » من نتائج قياسات مجموعة الاقمار الامريكية «الكاشف» أو (Explorer) عن الاشعاعات الكونية المحيطة بالارض وشدة تكاثفها . وقد خلص من قياساته الى تركز هذه الاشعاعات القاتلة فى حزامين حول الأرض ويمتدان الى آلاف الكيلو مترات فى الفضاء، وسميا باسمه « حزام فان آلن » .

هذا السيل المنهمر من الاقمار الصناعية او « مجسات الفضاء » ، مازال يتوالى باعداد غزيرة الى اليوم الى ارتفاعات متفاوتة فى الفضاء . ولقد كانت مجموعات الاقمار السوفيتية والامريكية تتوالى فى سلاسل متتابعة ، كل منها يحوى العشرات من اقمار ذوات مهام مختلفة . فقد حوت سلسلة أقمار الرائد (Pioneer) الامريكية خمسة أقمار، على حين تكونت سلسلة أقمار الكاشف (Explorer) الامريكية من ٣٨ قمرا ، بينما لم يزد عدد اقمار سلسلة الاقمار السوفيتية « سبوتنيك » عن قمرين فقط . وتحول السوفييت بعدها الى سلسلة أقمار « كوزموس » التى تعد أغزر السلاسل قاطبة والتى مازالت تتوالى أقمارها الى الآن . والتى بلغت حتى أوائل عام ١٩٧٧ أكثر من (٩٣٠) قمرا . ولقد سجلت هذه السلسلة الفريدة قياسات لم تعرف قبلها ، حيث حققت نجاح التحام جسمين مختلفين فى الفضاء ثم نجاح انفصالهما ، كما حققت مزيدا من التطبيقات التكنولوجية المتنوعة ، كقياس الاشعاعات واثرها البيولوجى على الميكروبات والفيروسات . وامكانات توليد الطاقة الكهربائية من الاشعاعات الشمسية والانتقال من مدار الى مدار آخر .

ولا يفوتنا أن نقرر أن بعضا من هذه الأقمار سواء الامريكية أو السوفيتية لم تكن تطلق من أجل الاغراض العلمية المجردة بقدر ما كانت من أجل أغراض أخرى عسكرية . فقد اغرت الارتفاعات الشاهقة التى تدور عليها الاقمار، العسكريين في كلا الدولتين بالتطلع الى ماتحويه الدولة الاخرى من قواعد عسكرية يصعب اخفاؤها ، مثل المطارات وقواعد الصواريخ والمنشآت الحيوية . هذا الى جانب كشف كل ما يحدث فى هذه الدول من تفجيرات ذرية أو نووية من المجال حجب الاشعاعات أو الاهتزازات المصاحبة لوقوعها . ومن هنا تطور فن « الاستطلاع الجوى » بابعاد جديدة ويمكننا أن نطرح هذا اللفظ المهذب ونقول بأن فن « التجسس » أخذ صورة متطورة تتسم بالعمق والشمول .

• • •



شكل (٤) الاوج والحضيض فى مدارات الاقمار الصناعية البيضاوية والتى تتخذ الارض موقعا لاحدى بؤرتى الشكل البيضاوى .

حيوانات فى عداد الشهداء

قبل أن يسمع الناس عن مشاهير رواد الفضاء ، عرف العالم مشاهيرا من الحيوانات الفضائية أولها الكلبة السوفيتية ((لايكا)) التى ظلت حية فى الفضاء لمدة أسبوع قبل أن تنفق داخل القمر الصناعى ((سبوتنيك ــ ٢)) ومن بعدها عرفت حيوانات تجارب فضائية أخرى مثل القرود الامريكية ((هام)) و ((سام)) و ((اينوس)) . والكلاب الروسية ((بيلكا)) و ((ستريلكا)) و ((تشيرنوشكا)) . كما حوت بعض الاقمار الصناعية وسفن الفضاء الاخرى خنازير وفئرانا وميكروبات وحشرات لدراسة تأثير الفضاء عليها عضويا وبيولوجيا وسيكولوجيا . ثم تطور الامر وارسلت حبوب زراعية ونباتات لدراسة التأثير البيولوجى للفضاء عليها .

وجدير بالذكر أن بعض الاقمار الصناعية حوت دمى فى حجم وزن الانسان ، ووضعت فى المكان المخصص لرواد الفضاء بداخلها ، لدراسة تأثيرات الوضع في الفضاء على هذا الجسم .

وقد كانت هذه الحيوانات ترتدى حللا فضائية مزودة بأجهزة القياس الخاصة والتى تنقل قياساتها الى الارض باللاسلكى ، عن نبضات القلب ، وضغط الدم ، وافرازات الجلد والغدد .

وتركز البحث فى كثير من الاحيان على سلوك هذه الحيوانات عند بلوغ حالة انعدام الوزن لمعرفة ما سيكون عليه حال رواد الفضاء عند وقوعهم تحت تأثير هذه الحالة .

وبذلك ادت هذه الحيوانات أجل الفوائد للانسان ومهدت الطريق له قبل صعوده الى الفضاء .

القياسات العلمية بالاقمار الصناعية

استخدمت الاقمار الصناعية اولا للقياسات العلمية لتعبيد الطريق عن المجهول فى الفضاء ثم استغلت لرفاهية الحياة البشرية فى اغراض تكنولوجية وتطبيقية . فحققت نتائج مذهلة فى عدة نواحى ، من اهمها الاتصالات اللاسلكية والارصاد الجوية والمسح الجوى ، ثم استغلها العسكريون للاستطلاع العسكرى . لهذا اقتصرت سلاسل الانواع المبكرة من الاقمار الصناعية على هذا النوع الذى يحوى الاجهزة العلمية ويرفعها الى الفضاء ، لتقوم بالقياسات اللازمة من عناصره ومكوناته ، ومن أهم هذه العناصر درجة الحرارة على مختلف الارتفاعات والكثافة ، والضغط . وحظيت الاشعاعات فى الفضاء بكثير من الاهتمام ايضا ، بالاضافة الى دراسة مكونات طبقات الغلاف الجوى والفضاء نفسه . وكذلك مشاكل الحركة في الفضاء ، ومؤثرات ظاهرة « انعدام الوزن » وطرق التغلب عليها .

وتتفاوت الاقمار الصناعية فى شكلها وحجمها ووزنها كما تتفاوت فى مداراتها . فبعضها يدور على مداره عدة أيام ثم يحترق من الاحتكاك بهواء أعالى طبقات الغلاف الهوائى وبعضها الآخر يدور على مدارات عالية تسمح له بأن يظل فى دورانه لعدة سنوات مقبلة ، بل ان بعضها مصمم ليظل فى دورانه ما يقرب من الف عام . ولذلك توجد على الاسطح الخارجية لأغلب الاقمار الصناعية خلايا شمسية لتستمد منها الطاقة الكهربية عن طريق تحويل حرارة الاشعاعات الشمسية الى طاقة كهربية لتشغيل اجهزتها .

ومن اهم القياسات العلمية التى قامت بها الاقمار الصناعية على سبيل المثال لا الحصر :

(ا) قياس شدة الاشعة الكونية

الاشعة الكونية فى كنهها قذائف ذرية تهبط على الارض فى صورة اشعاع مصدره الفضاء

المحيط بنا ، أو من المجرات الخارجية ،ولذلك تبدو آثار هذه الاشـعة واضحة فوق قمم الجبال ، والمرتفعات العالية . وهى تتكـون من أيونات موجبة أو بروتونات ، لكن تتفاوت درجات تركيزها حسب الارتفاع، وتكادتنعدم على الارض . ولولا رحمة الله بوجود الفلاف الجوى المحيط بنا ، لهلك كل يوم من البشر مئات بسبب آثارها المميتة على الخـــلايا البشرية .

ولقد بدات قياسات الاشعة الكونيةبواسطة القمر الصناعى الامريكى الاول «الكاشفـ-١» (Explorer - I) فى كشف هذه السلسلة من الاقمار الصناعية الامريكية ، عن تركيز شديد فى الاشعة الكونية فى طبقات الجوالعليا التى انطلقت اليها . وبتحليل نتائج معلومات هذه الاقمار ، أمكن تحديد شكل حزامين من الجزيئات المشحونة حول الارض ، وســميت باسم مكتشفها العالم الامريكى « فان آلن » .

ويتخذ الحزامان شكلا غريبا حول الارض، ويفصل بينهما فضاء غير مشحون . ويشبه الحزام الداخلى « اصبع الموز » بينما ينثنى الحزام الخارجي من حوله ، وكلاهما ينثنيان حول الارض عند خط الاستواء ، ويبتعـدان عن منطقتى القطبين المغناطيسيين ، ويتضح من دراسة شكلى الحزامين انهما يتوزعان مـع خطوط المجال المغناطيسى للارض ، شكل(٥)

ويبدأ الحزام الداخلى على ارتفاع ١٣٠٠ ميل ، (= ٢٠٨٠ كيلو مترا) .

ويمتد بعمق ٣٠٠٠ ميل ، (= ٤٨٠٠ كيلو متر) .

ويبلغ طوله ٤٠٠٠ ميل ، (= ٦٤٠٠ كيلو متر) .

اما الحزام الخارجى فيبدأ على ارتفـاع ٨٠٠٠ ميل (= ١٢٫٨٠٠ كيلو متر)

ويمتد بعمق ٤٠٠ ميل (= ٦٤٠٠ كيلو متر) .

ويصل طوله ١٦٫٠٠٠ (= ٢٥٫٦٠٠ كيلو متر) .

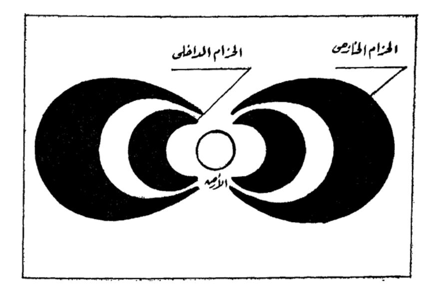
وجدير بالذكرأن العلماء السوفييت اكتشفوا بعد ذلك ، حزاما ثالثا على ارتفاع ٣٤٫٠٠٠ ميل ويمتد فى الفضاء ضعف هذه المسافة .

ولعل أهم ما دعا الى دراسـة تاثير هذه الاحزمة فى الفضاء ، هو معرفة أثرها عـلى المواصلات اللاسلكية، والعواصف المغناطيسية والحياة البشرية . والعلاقة بينها وبين بعض الظواهر الطبيعية الغامضة السبب ، والتى تظهر فى طبقات الجو العليا مثل « وهـج الاورورا » (Aurora) والوهج القطبى .

(٢) قياس المجال المغناطيسى الارضى

تتوزع الحقول المغناطيســـية حول الكرة الارضية ، والمعروف أن المجـال المغناطيسى الارضى يقوم على افتراض وجـود قضيـب مغناطيسى وهمى ضخم مدفون فى باطن الارض ويميل على قطبيها بزاوية قدرها ١/٢ ٢٣° ، وينتهى طرفاه بالقطبين المغناطيسيين للارض واللذين يبعدان قليلا عن القطبين الجغرافيين لها .

غير ان القدرة المغناطيسية لهذا القضيب الوهمى ، ليست قاصرة على وجود خطوط مجاله على سطح الكرة الارضية ، بل تمتـد الخطوط الى الفلاف الهوائى المحيط بها ،والى الفضاء الذى حولها ، وكان لزاما قياس مدى انتشار هذا المجال ومسحه علميا ، ورســم الخرائط التوضيحية له ، وقد تحقق ذلك بواسطة انواع مختلفة من الاقمار الصناعية .



شكل (٥) حزاما فان آلن يمتد الخارجى منهمـا حتى
عمق ٦٥٠٠ كيلو متر فى الفضاء وينثنيان مع خطوط المجال
المغناطيسي للارض .

(٣) تصوير شكل الارض

لقد تحقق بواسطة بعض الاقمار الصناعية التقاط صور مختلفة للارض من ارتفاعات عالية ، ثبت منها ان الارض ليست تامة التكور .

وقد كان معروفا ان قطر الارض الواصل بين قطبيها الشمالى والجنوبى ، يقل عن قطرها عند خط الاستواء بمقدار ٢٧ ميلا ، اذ يبلغ قطر الارض الاقصر ١٩٠٠ ميل ، اما القطر الاستوائي الاكبر فيبلغ ٧٩٢٧ ميلا . ولقد اعطى هذا الفرق صورة مشوهة للارض فى اذهان الناس ، بأنها منبعجة عند خط الاستواء ، ومستوية عند القطبين .

وقد كان القمر الصناعى الامريكى « فانجارد » (Vanguard) اول قمر التقط صورا مختلفة للارض من مداره المرتفع في مارس ١٩٥٨ .

ومازال هذا القمر فى الفضاء سابحا الى الآن ، ومن المقدر له أن يستمر الى عدة مئات من السنين ، نظرا لارتفاع مداره . ولقد ثبت من الصور التى ارسلها هذا القمر أن الارض « كمثرية الشكل » (Pear Shaped) ويمتد عنقها ناحية القطب الشمالى ، وانها ليست مستوية عند القطبين كما كان يظن من قبل ، بفارق عند التكور التام يصل الى ٥٠ قدما ، شكل (٦) .

(٤) قياس النشاط الشمسى

المعروف ان هناك علاقة بين البقع الشمسية التى تظهر على سطح الشمس وبين « العواصف المغناطيسية » التى يتكرر ظهورها كل احد عشر عاما تقريبا . وبالاقمار الصناعية تيسرت دراسة تأثير هذه البقع على الاتصالات اللاسلكية بجانب دراسة بعض الظواهر الطبيعية فى اعالى الغلاف الجوى مثل ظاهرة وهج الاورا ، والوهج القطبى ، وكذلك تأثير امتداد السنة اللهب التى تبرز من سطح الشمس وتمتد فى الفضاء لآلاف الكيلو مترات والتى ينفصل بعضها عن الشمس ويغوص فى الفضاء مبتعدا عنها .

(٥) قياس كثافة الشهب والنيازك فى الفضاء

من أهم القياسات التى قامت بها الاقمار الصناعية ، قياس كثافة تساقط الشهب التى تلمع احيانا على هيئة خاطفة في سماء الارض ليلا ، نتيجة لاحتراقها بالاحتكاك بالغلاف الجوى . فهى فى حقيقتها احجار نيزكية تتساقط فرادى أو فى صورة اسراب من اعماق الفضاء لتصل قريبا من الارض .

فان احترقت بكاملها بالاحتكاك فى طبقات الغلاف الجوى للارض ، وظهرت متحركة خاطفة فى السماء كانما هى نجم يتهاوى ويجر وراءه ذيلا طويلا ، فانها تسمى « شهبا » واذا لم يكتمل احتراقها كلها نظرا لكبر حجمها ، فانها تسقط على الارض بفعل الجاذبية الارضية وتحدث حفرة عميقة وتسمى « نيزكا » . وكان الدافع لاجراء هذه القياسات هو الحفاظ على حياة رواد الفضاء . ولقد قامت اعداد من الاقمار الصناعية برصد القياسات اللازمة عن الشهب ، وخاصة عندما قرب موعد هبوط الانسان على القمر ، نظرا للخوف من اصابة الشهب لرواد الفضاء أثناء وجودهم على سطحه ، ولذلك صممت ملابس الرواد بحيث يمكنها تحمل صدمات هذه الشهب .

(٦) دراسة طبقات الايونوسفير

الطبقة العليا من الغلاف الجوى المحيط بالارض ، تعرف باسم طبقة **الأيونوسفير** ، نظرا لتأينها بتأثير الاشعة فوق البنفسجية . ومعنى التأين أن ذرات غازات الغلاف الجوى تفقد بعضا من الكتروناتها الحرة التى تدور



شكل (٦) الارض من الفضاء ليست تامة الاستدارة اذ يوجد فيها بروز عند القطب الشمالى قدره (٥٠) قدما

حول نواة الذرة ، فيصبح للذرة شحنة كهربائية بدلا من وجودها فى حالة تعادل .
وتوجد أولى طبقات الايونوسفير على الارتفاعات بين ٨٠ ، ١٠٠ كيلو متر وتعرف باسم «طبقة هيفيسيد» (Heaviside Layer)
وتوجد ثانى الطبقات على الارتفاعات بين ٢٥٠ ، ٣٠٠ كيلو متر وتعرف باسم « طبقة أبلتون » (Aplleton) كما توجد بعض طبقات أخرى تحت هاتين الطبقتين وفوقهما ، ولكن لم تحدد ارتفاعاتها بدقة ، كما لم يعرف لها شدة تأين ثابتة . وتلعب طبقات الايونوسفير الدور الاساسى في انعكاس الموجات اللاسلكية الى الارض ، وامكان وصولها من مكان الى آخر نتيجة لهذا الانعكاس ، كما قد يكون هذا الانعكاس متكررا على قفزات ، شكل (٧)

وكان لزاما دراسة تأثير طبقات الايونوسفير على الاتصالات اللاسلكية بين الارض وبين الاقمار الصناعية ، وسفن الفضاء ، لان المعلومات من والى الاقمار الصناعية يتم لاسلكيا ، كما أن مراقبتها تتم بواسطة المراصد اللاسلكية الضخمة .

(٧) اكتشاف طبقات الغازات الخاصة

عرف من عدة قياسات أن بعض الغازات ذات الخواص الشاذة يتزايد وجودها على ارتفاعات معينة فى الفضاء منها غاز «الاوزون» (O_3-OZONE) الذى له القدرة على امتصاص الأشعة فوق البنفسجية من ضوء الشمس ، ولذلك ترتفع درجة حرارة هذه الطبقة بطريقة ملحوظة ، وتزيد درجة الحرارة فيها عن درجة تبخر الماء . وقد كشف الأقمار الصناعية عن أن هذه الطبقة توجد بين ارتفاعى ٨٠ ، ١٠٠ كيلو متر ، وأن سمكها لايزيد عن ٣٠ كيلو مترا .

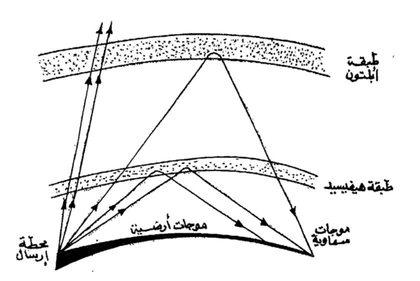
(٨) تصوير القمر ووجهه المختفى

كان أول قمر صناعى حقق هذه المعجزة هو القمر « **أونيك ــ ٣** » السوفييتى عام ١٩٥٩ ولم يكن قد سبق لعين بشر رؤية أو معرفة أية تفاصيل عن النصف غير المرئى من سطح القمر قبل ذلك . وسبب استحالة رؤية هذا النصف هو تساوى مدة دوران القمر حول الارض ، وحول نفسه . فالقمر تابع للأرض ، يصغرها كثيرا فى الحجم ويتبعها فى حركتها ، ويدور حولها دورة كاملة كل ٢٨ يوما ، غير أن له حركة ذاتية حول نفسه ، فهو أثناء دورانه حول الارض ، يدور حول محوره كذلك خلال نفس المدة . ولذلك يقال أن نهار القمر ١٤ يوما ، وليله ١٤ يوما أخرى فاليوم القمرى مدته ٢٨ يوما من أيامنا على الأرض . وهذا ما يجعل اهل الارض لا يرون منه الا وجها واحدا فقط . ويمكننا تصور هاتين الحركتين ، بتصور دوران طفل على محيط دائرة يقف رجل فى مركزها فمهما دار الطفل ، فان الرجل لن يستطيع ان يرى من وجه الطفل غير أحد صدغيه فقط . وذلك لأن مدة دوران الطفل حول الرجل ، تتساوى مع مدة دورانه حول نفسه .

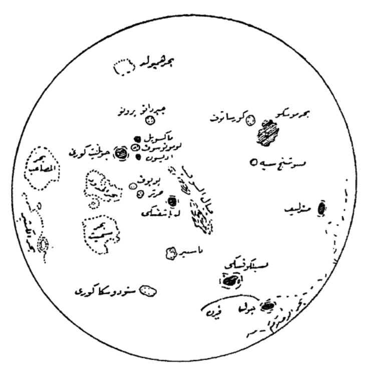
ولقد أعلن السوفييت عام ١٩٦٠ عن تفاصيل الوجه غير المرئى للقمر التى صوروها واطلقوا عليها اسماء مشاهير العلماء سواء من الروس او من الاوروبيين ، مثل جبل بوبوف ــ جبال السوفييت ــ جبل كورشاتوف ــ جبل جول فيرن ــ جبل هرتز ــ جبل مكسويل ــ جبل باستير ، شكل (٨) .

ثم تعددت بعد ذلك الاقمار الصناعية الامريكية والسوفيتية للدوران حول القمر لتصوير تفاصيل سطحه المرئى وغير المرئى ، حتى لم يعد يوجد عليه حجر واحد أو حفرة أو فوهة أو صخرة ليس لها صورة على الارض

وكان الهدف الواضح لدى الامريكيين هو التخطيط لهبوط الانسان عليه .



شكل (٧) طبقات الايونوسفير التى تتاين جزيئاتها وتعكس الموجات الكهرو مغناطيسية الى الارض بعد سلسلة من الانكسارات .



شكل (٨) تفاصيل الوجه المختفى للقمر .

ومن أبرز هذه الاقمار الصناعية الامريكية سلسلة « رينجر » (Ranger) التى استخدمت العدسات البصرية سواءللتصوير البانوراميــة والتليفزيونيــة . كما استخدمت التصوير المائل ، والتصــوير بالاشعة تحت الحمراء ، اذ لم يكن الهدف منصبا علىتصوير السطح وحده ، بقدر ما كان مركزا على قياس ارتفاعات جباله ، واعماق بحاره .

(٩) تجربة الالتحام فى الفضاء

كان السوفييت سباقين في هذا المضمار ، باطلاق بعض اقمار كوزموس لتقوم بتجربة الالتحام فى الفضاء . وقد تلخص ذلك فىاطلاق قمرين الى مدار واحد ، ثم تقريب أحدهما من الآخر ، ليلتحما ويكونا جسما واحدا ،ثم يعاد فصلهما بتحكم من الارض مرة اخــرى بعد تجربة توجيههما سويا ، وتغيير مدارهما المشترك وهما ملتحمين . وقد نجحت هذه التجارب فى اكتوبر عام ١٩٦٧ بين القمرين « كوزموس ــ ١٨٦ » و « كوزموس ــ ١٨٨ » وأعيدت هذه التجارب على قمرين آخرين فى ابريل ١٩٦٨ هما كوزموس ٢١٢ ، ٢١٤ . واعتبرت هذه التجارب مقدمة لتجارب التحام سفن الفضاء وفعلا نجحت تجارب التحامعدة سفن فى برنامج « سويوز » . كما نجحت من قبلهما عملياتالتحام المركباتالقمرية ،بسفن الفضاء بعد ان تدور حول القمر ، أو تهبط على سطحه ثم تعود للالتحام بالسفن الام في برنامج ابوللو الامريكى .

كما اعتبرت هذه التجارب مقدمة لتكوين محطات فضائية يمكن التزود منها بالوقــود أو المؤن ، كما تم فعلا بتكوين محطة الفضــاء السوفيتية « ساليوت » (Salyute) .

●●●

الاقمار الصناعية فى مجال التطبيق

لم تلبث الابحاث العلمية بالاقمارالصناعية أن تحولت الى ميدان التطبيق وفتحتالباب على مصراعيه لتطورات جديدة لرفاهية البشر

ومن أبرز مجالات التطبيق التى استخدمت فيها الاقمار الصناعية تحقيق الاتصــــالات اللاسلكية لمســافات بعيدة لم تعهــد بأقوى الاجهزة من قبل ، ونقل البث التليفزيونىالى مسافات طويلة، ونقل حزمالمكالمات التليفونية المتعددة القنوات فى آن واحد عبر القــارات ، فحققت امكان الاستغناء عن الكابلات .

ومن الميادين الاخــرى التى نجــح فيهــا استخدام الاقمارالصناعية التنبؤ الجوىالذى يعتمد على التقاط صور لتجمعات الســحب فوق القارات ، فأمكن التنبؤ بالطقس لمــدة أيام مقبلة ، بعد أن كان التنبؤ محدودا بعدة ساعات فقط .

كما استخدمت صور الاقمار الصناعية فى عمليات المسح الجوى ، وتحقيق المساعدات الملاحية اللاسلكية للسفن والطائرات العابرة للمحيطات حيث يندر وجود هذه المساعدات.

وبالاضافة الى ذلك تحقيق الاســتطلاع العسكرى فوق أراضى الدول الاخرى ، أو بمعنى أدق استخدامها للتجسس .

فبواسطة الصور المأخوذة بالاقمــار يمكن الكشف عن توزيع الصواريخ العابرةللقارات فوق أراضى الدول الاخرى، كما يمكنالتحقق من توزيع الطائرات فى المطارات .

وقد خلقت هذهالمجالات تكنولوجيا جديدة للتصوير بالاشعة المرئية والاشعة تحتالحمراء مع التطور في صناعة العدسات ووسائلتحليل الصور وتكبيرها وتفسيرها .

وبذلك أصبح العالم ، فى قبضة بعض أقمار تطلقها بعض الدول ، لتهتك ستر المخفى فى هذا العالم .

وجدير بالذكر انه خصصت بعض الاقمار للكشف عن التفجيرات النووية التى تحدثها الدول الاخرى فى الفضاء أو فى المحيطات . وبذلك تكاملت حلقات التجسس بين الاقمار الصناعية ، والطائرات التى تطير بدون طيارين وطائرات الاستطلاع التى تحلق على ارتفاعات عالية ، وبوارج التجسس المخصصة بأجهزة الكترونية بالغة التعقيد .

ولابد ان نلمح بشىء من التفصيل لبعض هذه التطبيقات لانها تعتبر حجر زاوية فى تطوير الحياة وتقدمها .

(١) الاتصالات الاذاعية والتليفونية والتليفزيونية

لعبت الاقمار الصناعية دورا هاما فى تكبير المدى الذى تصل اليه الموجات اللاسلكية ، ويكفى أن نعلم أن ثلاثة أقمار صناعية تدور فى مدار حول الارض تكفى لان تغطى الاذاعات اللاساكية فوق سطح الكرة الارضية كله . وقد أصبحت الاشارة اللاسلكية قادرة على الانتقال من قارة لتصل عبر القمر الصناعى الى عدة قارات اخرى، دون حاجة الى محطات تقوية فى الطريق .

والى جانب نجاح الاقمار الصناعية فى نقل الاذاعات ، يتعاظم استخدامها عاما بعد عام فى نقل حزم المكالمات التليفونية عبر قنوات الاقمار الصناعية الى مسافات طويلة ، فتغنى بذلك عن آلاف الكيلو مترات من الكابلات المحورية التى تستخدم على الارض .

ولقد وجد من الاقمار الصناعية المستخدمة فى الاتصالات اللاسلكية نوعان رئيسيان هما:

— الاقمار الصناعية السلبية .

— الاقمار الصناعية الايجابية .

وكانت أقمار النوع الاول تتكون من بالونات ضخمة الحجم ، كروية الشكل ، مصنوعة من مادة رقيقة بحيث يمكن أن تطوى وتوضع فى مقدمة صاروخ لتشغل حيزا صغيرا منه ، فاذا ما بلغ الصاروخ ارتفاعا معينا يمكن ان ينفصل البالون المطوى ، ويبدأ تفاعل مواد كيماوية بداخله لتنتج احجاما كبيرة من الغازات تملأ البالون وتجعله يأخذ شكلا كرويا . ولم يكن يوجد بهذه الاقمار اجهزة وكان دورها قاصرا على تحقيق انعكاس الموجات اللاسلكية على سطحها .

وقد وجد جيل كبير من مثل هذه الاقمار السلبية ، التى ولدت فكرتها البسيطة فى أمريكا ، ونفذت على يدى العالم الامريكى « وليم أوسوليفان » منذ عام ١٩٦٠ باطلاق أول هذه الانواع المسمى « ايكو — ١ » (Echo-1) أو (الصدى — ١) .

وقد اطلقت بعد ذلك عدة أنواع الى الفضاء وتطور استخدام هذه الاقمار السلبية ، بزيادة اقطارها ، وبعضها بلغ قطره ٣٠ مترا .

ويستلزم الاستفادة من مثل هذه الاقمار امتلاك شبكة من محطات الاستقبال الفضائية لالتقاط الاشارات اللاسلكية المنعكسة عليها ، ومتابعة هذه الاقمار فى دورانها فى الفضاء .

أما اقمار الاتصالات اللاسلكية الايجابية فتعمل فى الفضاء كمرددات للاشارات اللاسلكية ، فهى تستقبل الاشارات المرسلة من محطات على الارض ، وتقوم باعادة ارسالها الى محطات أخرى بعيدة عن المحطة الاصلية ،

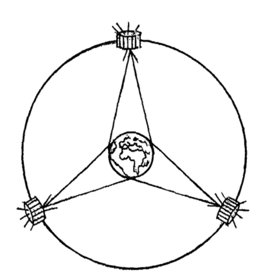
بعد أن تعجز الاشارات عن بلوغها الا باستخدام قدرة ارسال ضخمة .

وقد وجدت عدة انواع امريكية من هذه الاقمار قامت بتطبيقات ناجحة فى أوائل الستينات ، فحققت نتائج مذهلة لم تكن تخطر ببال . ومن اشهر الانواع المبكرة اقمار « ايرلى بيرد » (Early Bird) أو (الطائر المبكر) و « ريلاى » (Relay) **أو (اللاقط) و « تلستار »** (Telestar) أو **(نجم الاتصالات) .** ويقف على قمتها النوع الشهير **« سينكوم »** (Syncom) الذى كان له دور مشهور في نقل اذاعات دورة الالعاب الرياضية الاوليمبية من طوكيو الى كل العواصم الاوروبية وبعض المدن الامريكية عام ١٩٦٤ . ويتم اختبار المدار المشترك لاقمار الاتصالات والتحكم فى سرعة دورانها بحيث تكون متزامنة مع سرعة دوران الارض ، فتبدو الاقمار وكأنها ثابتة أو معلقة فوق مكان واحد فوق خط الاستواء ولذلك تسمى باسم « الاقمار المتوافقة او (المتزامنة) (Synchronous Satelliles) شكل (٩) .

فهى تطلق الى مدار موحد ارتفاعه ٤٠,٠٠٠ كيلو متر فوق خط الاستواء ليتحقق دورانها بسرعة متساوية لسرعة دوران الكرة الارضية ولذلك فهى تبدو للناظر اليها من فوق الارض كأنما هى ثابتة فى مكانها لا تدور .

ثم اطلقت بعد ذلك سلسلة من أقمار الاتصالات من نوع **(انتلسات)** (Intelsat) ويتجدد اطلاق كل قمر فى السلسلة بعد خمس أو سبع سنوات هى عمر قمر الاتصالات ، لأنه خلال هذه المدة تنفذ كمية الغازات التى به والتى تصحح مداره .

اوائل عام ١٩٧١ تم اشتراك جمهورية مصر العربية فى مشروع نقل المكالمات بالراديو تليفونية بواسطة القمر الصناعى «ايرلى بيرد»



شكل (٩) تطلق أقمار الاتصالات الاذاعية والتليفزيونية بحيث تتزامن مع سرعة دوران الارض فتبدو معلقة فوق خط الاستواء وتكفى ثلاث منها لتغطية الكرة الارضية كلها باذاعاتها

عبر الكابل البحرى الممتد من الاسكندرية الى ايطاليا ، حيث ترسل من قرية «فيوميشينو» الايطالية الى اغلب عواصم أوروبا وامريكا . وانتشرت في العالم العربى محطات الاتصالات بالاقمار الصناعية في كل من الكويت والبحرين والجزائر والمغرب وليبيا ومصر واليمن .

اما عن البث التليفزيونى ، فمن المعروف ان الارسال التليفزيونى يتعذر نقله الى مسافات كبيرة دون الاستعانة بمحطات تقوية . وحتى هذه المحطات يكون مداها محدودا لان عملية التقوية لايمكن تكرارها مرات كثيرة .

غير أن الاقمار الصناعية عندما استخدمت فى الارسال التليفزيونى ، فاقت كل تصور ، وحولت الصور الى الشاشات الصغيرة عبر آلاف الكيلو مترات ، وأمكن نقلها من قارة الى اخرى عبر الفضاء . ولذلك تخصص قنوات للبث التليفزيونى فى اقمار الاتصالات . وقد نجح ذلك فى القمر « تلستار ــ ٢ » كما قامت اقمار «سينكوم ــ ٣» بنقل البرامج التليفزيونية ابان دورة طوكيو الاولومبية عام ١٩٦٤ .

وجدير بالذكر أن اتحاد الاذاعات العربية من خلال تنظيمات الجامعة العربية يدرس امكان اطلاق « قمر صناعى عربى » بمعونة اجنبية ، الغاية الرئيسية منه ربط الاقمار العربية باذاعة تليفزيونية موحدة ، ويعتمد فى ذلك على وحدة الفكر واللغة والعقائد والامانى السياسية فى هذه البلاد التى تربطها اواصر متعددة .

(٢) التنبؤ المبكر بالطقس

يعتمد المتنبئون الجويون على جمع عدة عناصر عن الطقس ، ليمكنهم التنبؤ بالجو المحتمل خلال فترة محدودة تتراوح بين ٦ ساعات ، ٢٤ ساعة .

واهم هذه العناصر الضغط الجوى ، والحرارة ، ودرجة الرطوبة ، وكثافة الجو ، واتجاهات الرياح ، وانواع السحب ، وارتفاع قاعدتها عن سطح الارض ، وعمق طبقاتها .

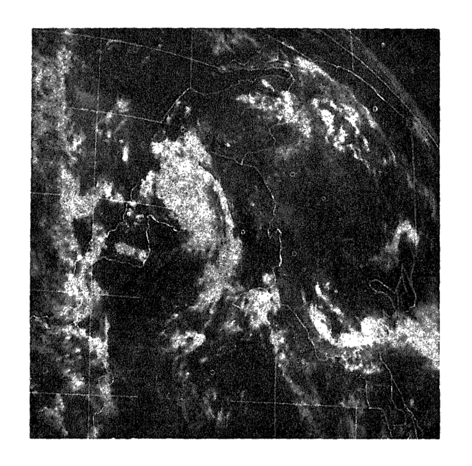
وتبدو عملية التنبؤ بالجو مسبقا ، عملية متعثرة تثير تهكم كثير من الناس ، لكثرة احتمالات الخطأ فيها ، غير أن الحقيقة المجردة أن القراءات والاحصائيات العديدة اللازمة للتنبؤ الدقيق ، هي العقبة الكؤود فى هذا السبيل .

ولقد اسهمت الاقمار الصناعية فى تطوير عمليات التنبؤ الجوى وجعلته ميسورا لعدة أيام مقبلة تتراوح بين ثلاثة ايام وستة أيام .

ولقد ظهرت عدة أنواع من الاقمار الصناعية الامريكية الحاملة لاجهزة الرصد الجوى ، من اشهرها اقمار « **تيروس** » (Tiros) و « **نيمبوس** » (Nimbuss) ، و « **ايسا** » (ESSA) ثم (SMS) ثم (ITOS) فى هذا المجال ايضا شاع استخدام القمر السوفييتى « ميتيور » (Meteor)

ويعتمد التنبؤ الجوى بالاقمار الصناعية على جمع العناصر التقليدية عن الطقس بالاضافة الى التقاط صور السحب الموزعة فوق سطح الكرة الارضية على فترات تسمح بقياس سرعة الرياح ، شكل (١٠) .

ولاشك ان الارتفاعات العالية التى يدور عليها القمر الصناعى تمكنه من التقاط صور لمساحات كبيرة من سطح الكرة الارضية ، وبالتالى يمكن تمييز انماط توزع السحب عليها وقد امكن بالتقاط صور السحب ، وتكبيرها رسم الخرائط الجوية التى ترسم فوقها خطوط تساوى الضغط (Isobars) . وتحديد اماكن ارتفاع وانخفاض الضغط ، وبالتالى اتجاهات الجبهات الهوائية الباردة والساخنة، كما تقوم الاقمار الصناعية بتحديد درجات اشعاع الحرارة من سطح الكرة الارضية أثناء



شكل (١٠) تعتمد عملية التنبؤ الجوى بواسطه الاقمار الصناعية على التقاط صور السحب وتوزعها على سطح الكرة الارضية كلها ومنها يمكن قياس سرعات الرياح وتبين الجبهات الباردة والساخنة وأماكن الاعاصير .

الليل بالتقاط الاشعة تحت الحمراء الصادرة منها . ولذلك لا تقتصر أهمية الاقمار الصناعية فى مجال الارصاد الجوية على التنبؤ بالجو لمدة طويلة مقبلة ، ولكن عملية التنبؤ تشمل رقعة كبيرة فوق سطح الارض .

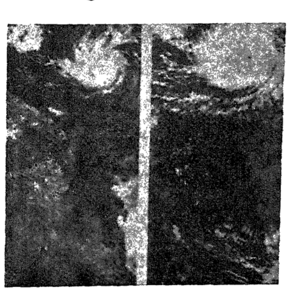
وقد تحقق فعلا التنبؤ بهبوب الاعاصير المدمرة ، مثل اعصار «هاريكان» (Hurrican) قبل هبوبه بعدة ايام ، بعد أن كان يدهم الشواطىء الامريكية فجأة ويحيق بها الدمار شكل (١١)

(٣) الاقمار الصناعية للاغراض العسكرية

تتعدد الاغراض العسكرية التى تستخدم فيها الاقمار الصناعية، غير أن أهمها الاتصالات اللاسلكية المعادية للتشويش ، والتقاط الصور الجوية الدقيقة للاستطلاع العسكرى . وتقف وراء ذلك تكنولوجيا التكبير ، وصناعة العدسات الدقيقة ذات الانواع المتعددة مثل العدسات البانورامية ، والتليفزيونية ، كما تلعب عملية التصوير بالاشعة تحت الحمراء فى الظلام دورا هاما فى هذا المجال .

والحقيقة أنه أصبح متعذرا اخفاء توزيع قواعد الصواريخ والمطارات والمنشآت الحيوية عن أعين الاستطلاع الهاتكة لكل ستر . فقد أصبح التصوير من الفضاء فنا متعاظما يستطيع توضيح كل التفاصيل وخاصة المعدنية بفضل وسائل تكبير الصور ، كالمسامير المعدنية مثلا التى تربط بين اجزاء كشك خشبى اخذت صورته من ارتفاع عدة آلاف من الاميال .

والى جانب ذلك أصبح عسيرا اخفاء التفجيرات الذرية والنووية فى المناطق النائية من الاراضي او المحيطات ، سواء فوق الارض او تحتها . كما أصبح عسيرا اخفاء قواعد الصواريخ ، نظرا لضخامة حجمها ، أو اخفاء الطائرات حتى داخل حظائر محصنة . ولذلك عمدت الدول الكبرى لاخفائها تحت الارض ، في آبار خرسانية محصنة (Silo) او وضعها فى الغواصات الذرية كما هو الحال بالنسبة لصواريخ « بولاريس وبوسيدون » الامريكية .



شكل (١١) التنبؤ بهبوب اعصار « هاريكان » قبل وصوله الى الشواطىء بعدة أيام .

ومن أشهرالاقمار العسكرية الامريكيةاقمار « فيلا » للكشف عن التفجيرات النووية ، واقمار « ساموس » ، و « ميداس » وغيرها، ومن البديهى أن هناك انواعا سوفيتية غير معلن عن أسمائها .

(٤) استخدامات متعددة أخرى

استخدمت الاقمار الصناعية فى اغراض‌عدة اخرى مثل :

ـ هداية الطائرات فى الجو والبواخر فى المحيطات كمساعد ملاحى وقد اشتهر فى هذا المجال شبكة اقمار ترانسيت (Transit)

ـ التصوير المساحى نظرا للدقة في التقاط الصور ، والتباين فى ظهور المساحات المنزرعة عن الصحراوية والقاحلة فى الصور الفضائية.

ـ تنظيم صيد الاسماك بالاعتماد على‌الصور الفضائية الملونة اذ تكثر الاسماك فى مناطق المياه ذات اللون الاخضر الذى توجد به « البلانكتون » الذى تتغذى عليه الاسماك .

• • •

مرحلة الطيران الكونى

جاجارين يدخل التاريخ

دخل « جاجارين » التاريخ من أوسع‌ابوابه كأول رائد فضاء ، تمثلت فيه شجاعة قهر المجهول فى الفضاء . ورغم‌ان‌رحلته لم تكن تزيد عن دورة واحدة حول الارض ، ولم تدم غير ١٠٨ دقائق الا أن تاريخ ١١ ابريل عام ١٩٦١ الذى قام فيه برحلته سيظل على مر التاريخ يوما خالدا يرمز لنجاح الانسان فى غزوالفضاء بالطيران الكونى فيه وقد قررت الامم المتحدة تسمية هذا اليوم ب « يوم جاجارين » أو « يوم الشباب والفضاء العالمى » حثا لهمم الشباب.

وعلى الجانب‌الاخر تزايدت‌لدى الامريكيين عقدة التخلف‌التى‌بدأت بالتخلف عن‌السوفييت فى اطلاق الاقمار الصناعية . ولكنهم لم يستسلموا لها ، بل ملك الرئيس الامريكى الراحل « جون كيندى » زمام الموقف ،وتبنى تشجيع الابحاث الامريكية ووضع لها خططا طويلة الأمد تهدف الى هبوط رواد امريكيين على القمر في نهاية الستينات .

انواع الرحلات فى الفضاء

عندما صعد « جاجارين » الى الفضاء استطاع ان يدور بسفينته دورة واحدة حول الارض . غير أن أول الرواد الامريكيين « الان شبرد » لم يستطع ذلك واقتصر على‌الصعود الى ارتفاعات عالية ، تسمح بالافلات من الجاذبية ، ومعرفة تأثير مرحلة انعدام‌الوزن، واعقبه الرائد الامريكى الثانى « جريسوم » فى رحلة مشابهة .

ويمكن تقسيم الرحلات الفضائية الى ثلاثة انواع هى :

ـ رحلات دون مدارية ـ مدارية ـ وكونية

أ ـ الرحلات دون المدارية :

تقل سرعة سفينة الفضاء فيها عن السرعة المدارية (١٨٫٠٠٠ ميل فى الساعة) ، لذلك تعجز السفينة عن الدوران حول الارض ، وتتسم بقصر مدتها التى قد لاتتجاوز بضع دقائق .

ب ـ الرحلات المدارية :

عندما تبلغ‌سرعة‌السفينة الفضائية السرعة المدارية ، يمكنها ان تدور حول الارض فى رحلة مدارية، مثل رحلة جاجارين ،وماتلاها من رحلات دامت اياما واسابيعا .

ج ـ الرحلات الكونية

عندما تبلغ سرعة السفينة الفضائية سرعة الافلات من الجاذبية الارضية والتى تعادل ٢٥٫٠٠٠ ميل فى الساعة ، فان السفينةتخرج من نطاق جاذبية الارض الى نطاق جاذبيةالقمر أو الكواكب الاخرى التى تنطلق عليه .

البرامج الامريكية لغزو الفضاء

نفذت الرحلات الفضائية الامريكية ، والتجارب السابقة لها ، وفق مخطط معين وضعته وكالة (ناسا) (NASA) يتضمن ثلاثة برامج روعى تدرجها بحيث تخدم نتائج كل منها الاخرى ، وهذه البرامج هى :

١ ـ برنامج سفن الفضاء طراز «ميركورى» (Murcury)

٢ ـ برنامج سفن الفضاء طراز « جيمنى » (Gemini)

٣ ـ برنامج سفن الفضاء طراز « ابوللو » (Apollo)

والفضل الذى لا ينكر في دفع هذه البرامج يرجع للرئيس الامريكى الراحل « جون كنيدى » . فقدعرض مشروعهعلى الكونجرس الامريكى فى مايو ١٩٦١ تحت مضمون «رسالة الفضاء » ، وأفلح فى التغلب على الاصوات المعارضة له والتي كانت تستكثر الاعتمادات المرصودة لمشروع « ابوللو » وهى ٢٥ بليونا من الدولارات .

والحقيقة أن « كنيدى » كان متحمسا للمشروعات العلمية الحديثةعامة ،ولمشروعات غزو الفضاء خاصة ليثبت جدارة الانسان الامريكى فى العصر الحديث .

وكان رائده فىذلك مااستوحاه من الرئيس الامريكى الراحل « روزفلت » الذى عمل بوصية العلامة « اينشتين » بدفع عجلةابحاث الذرة الى الامام أثناء الحرب العالمية الثانية. وثبت أن ذلك كان العنصر المؤثر فى وضع نهاية للحرب العالمية الثانية تتمثل فى انتصار العلم بتحطيم الذرة . وكان هناك برنامج لانتاج الطائرات الصاروخية (س ـ ١٥) ، والطائرات الفضائية « الديناصور » الذى توقف بعد ذلك .

١ ـ برنامج ميركورى : كان الهدف الاساسى فى برنامج « ميركورى » هو اطلاق رائد فضاء واحد في سفينة فضائية ليدور حول الارض . وقد كانت الرحلتان الاولى والثانية رحلات دون مدارية . ولذلك لم يكد يمر على رحلة جاجارين غير (٢٣) يوما حتى اطلقتالسفينة الفضائية الامريكية « الحرية ـ ٧ » حاملةاول رائد امريكى « الان شبرد » فى رحلة فضائية عمودية مدتها (١٥) دقيقة تعرض رائدالفضاء خلال خمس دقائق منها لحالة انعدام الوزن. واجرى خلال هذه المدة القصيرة (٧٠)اتصالا لاسلكيا وقام بانجاز (٢٧) اختبارا وقياسا ثم هبط بعيدا عن قاعدة الاطلاق بمسافة ٥٥٠ كيلو مترا .

واعقبتها رحلة « جرسيوم » الامريكى بعد شهرين بالارتفاع رأسيا الى ارتفاع اكثرغوصا فى الفضاء . ولكن المدة لم تدم غير (١٥) دقيقة كالرحلة السابقة لها .

ولم تبدأ الرحلات الامريكية بالدورانحول الارض الا فى ٢٠ فبراير ١٩٦٢ بالرحلة الفضائية الثالثة بواسطة رائد الفضاء « جلين » .

وقد تميزت سفن المشروع بشكلها الذى يشبه الناقوس ، والذى يبلغ قطر قاعدته ستة أقدام ، ويرتفع بطول تسعة أقدام ، بينما يعلوه برج الهروب (Escape Tower) لمسافة ١٥ قدما ، وبذلك يبلغ الارتفاع الكلى للسفينة ٢٤ قدما (= ٧٫٥ مترا) .

ولقد صمم « برج الهروب » ليضمن الرائد امكان الخروج من السفينة سالما اذا فشل صاروخ الدفع فى الاطلاق ، أو بلغ بالسفينة سرعة دوران عالية اكثر من المطلوب ، ليتم هروب رائد الفضاء بواسطة مظلة .

وفى داخل السفينة كان رائد الفضاء يستلقى على ظهره فوق مقعد خاص بحيث يستمر فى هذا الوضع اغلب الرحلة ، والى جانب يده اليمنى أجهزة التحكم فى مستويات السفينة الثلاثة ، اذا رغب فى التدخل فى عمل أجهزة التحكم الاوتوماتيكية . والى جانب يده اليسرى حواكم لتشغيل أجهزة « برج الهروب » ، اذ تنطلق اوتوماتيكيا . ومن حوله فراغ يماثل الفراغ الذى يوجد حول طيار فى طائرة عادية صغيرة . وامامه لوحة الحواكم فى الصواريخ العكسية ، وفى الضغط داخل السفينة ، والأضواء الدالة على صحة اداء اجهزة السفينة ، هذا بالاضافة الى العدادات التى يراقب عليها العناصر الدالة على مستويات السفينة بالنسبة للمدار ، ودرجات الحرارة والضغط داخل السفينة ، وداخل البدلة التى يرتديها ، وحواكم أخرى خاصة بالاتصالات اللاسلكية واضواء الانذار من اى اخطار .

كما كان يوجد فى السفينة فتحة يمكن أن يشاهد منها المراقب خط الافق ، وأن ينظر من خلال جهاز بيروسكوبى الى الارض التى يدور حولها .

وقد كانت السفينة مجهزة بأجهزة (اتصالات) لاسلكية ذات ترددات عالية وعالية جدا وعالية للغاية ، ومنارات لاسلكية ورادارية لتساعد على انتشال السفينة عند عودتها للارض .

كما كانت السفينة مجهزة بكاميرتين ١٦ مم لتصوير رائد الفضاء وتسجيل حركاته اثناء الرحلة ، وتسجيل قراءات العدادات التى أمامه ، وبالاضافة الى ذلك كاميرا أخرى ٧٠ مم لتصوير خط الأفق .

ولقد تم وفق مشروع « ميركورى » اطلاق ست وعشرين رحلة فضائية تم ست منها بواسطة رواد من البشر ، كما تم اطلاق أربع أخرى بواسطة قرود تجارب ، اما التجارب الباقية فقد تمت بدون ركاب فى السفينة .

وكانت أغلب رحلات البرنامج بسرعات (دون مدارية) ، والباقى تم بسرعات مدارية .

وقد كللت بعض هذه الرحلات بالنجاح ، وفشل البعض الآخر فى تحقيق الغرض منه .

وجدير بالذكر أن هذا البرنامج كلف الولايات المتحدة ٤١٢ مليون دولار ، وتكلفت الرحلة الأخيرة وحدها ٣٠ مليون دولار من ذلك المبلغ .

وقد اختير لتحقيق هذا البرنامج سبعة رواد فضائيين تم انتقاؤهم من بين ٦٩ متطوعا كلهم من العسكريين المنضمين الى القوات الجوية والبحرية الامريكية ، وهم :

ـ مالكولم سكوت كاربنتر . ـ لبروى جودون كوبر . ـ جون جلبن . ـ فيرجيل جريسوم . ـ والتر شيراء ـ آلان شبرد . ـ دونالد سلايتون .

ولقد تدرب كل منهم على كيفية تناول الطعام فى الفضاء ، من الانابيب الخاصة المضغوط بها ، وكيفية التخلص من البول والفضلات اثناء الرحلة ، بحيث أصبحت هذه التصرفات ميسورة عليهم . كما سمح لكل منهم بأن يباشر حياته العائلية عاديا ، فكل منهم كان متزوجا وله اطفال .

٢ ـ برنامج جيمنى : يعتبر هذا البرنامج امتدادا لبرنامج « ميركورى » ، ولذلك فأحيانا كان يسمى « ميركورى ـ ٢ » .

وكان للبرنامج هدفان هما اطلاق سفن فضائية يطير فيها رائد فضاء ، فى رحلات

مدارية تدوم عدة أيام وقد تصل الى اسبوع او اسبوعين .

وتحقيق التقاء مركبة فضاء بها رائدان بأخرى خالية أثناء الدوران ليلتحمابعضهما وقد قام بدور المركبة الخالية في الفضاءمرحلة من مراحل الصاروخ « اجينا ـ ب » اطلقت الى الفضاء بواسطة صاروخ (اطلس) لتشتبك بها احدى سفن «جيمنى» التى تطلقبصاروخ تيتان ، ثم تحقق التقاء جيمينى (٦ ، ٧) فى الفضاء بعد ذلك .

كذلك اختلف برنامج « جيمينى » عن سابقه « ميركورى » فى خلق قدرة الاحتمال لدى الرواد للبقاء مددا أطول فى الفضاء ، مع تبادل القيادة بين الرائدين اللذين بها . وكذلك عمل تدريبهم على عملية من اعقد عمليات الفضاء وهى التشابك مع جسم آخر أثناء الدوران ، مما يستلزم درجة عالية من الدقة وقدرة فى التحكم .

لذلك اختلفت سفينة « جيمينى » عن سابقتها ، فى حجمها وأن لم تختلف عنها في شكلها ، وذلك لتسع رائدين بدلا من رائد واحد ، ونظرا لطول مدة بقائهما فى الفضاء فقد روعى زيادة الحيز الذى يمكن أن يتحركا فيه .

كما تميزت السفينة بامكان تحكم الرواد فى فصلها عن صاروخ الدفع عند اكتشاف اى خلل بوسيلة يدوية حسب تقديرهما وليس اوتوماتيكيا كما كان متبعا فى سفن ميركورى .

ولقد اختير لبرنامج « جيمينى » تسعة رواد للفضاء هم :

- جون ينج
- ادوارد هوايت
- اليوت سى
- نيل ارمسترونج
- توماس ستافورد
- جيمس لوفيل
- شارز كونراد
- فرانك بورمان
- جيمس ماكدوفيت

وتم تدريبهم على الاجهزة المحاكية ،للتحكم فى المناورة وقيادة السفينة فى ظروف مماثلة للظروف التى سيواجهونها فى الفضاء .

وبالاضافة الى هؤلاء الرواد ، درب رواد اخرون شاركوا في رحلات البرنامج وهم :

- نيل ارمسترونج
- سير نان
- كوللينز
- الدرين

ولقد تم القيام باثنتى عشرة رحلة مدارية بسفن جيمينى ، وكانت الرحلتان الاولى والثانية بدون رواد ، واعتبارا من جيمينى ـ ٣ ، حتى ١٢ طار فى كل رحلة رائدان . وكان قد سبقاشتراك بعضرواد البرنامج فىرحلات « ميركورى » .

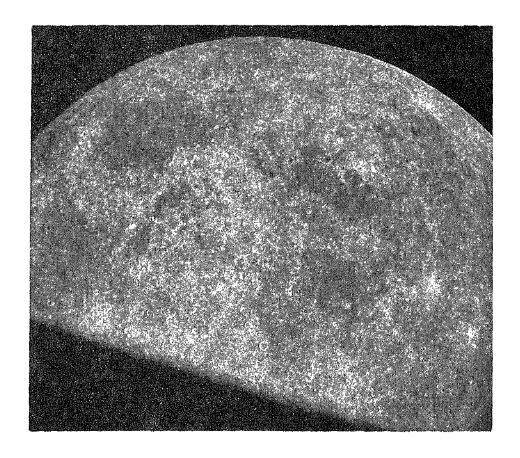
٣ ـ برنامج ((أبوللو)) : يعتبر برنامج «ابوللو» تسلسلا طبيعيا للبرنامجين السابقين ميركورى ثم جيمينى . وقد استهدف منذ بدء تخطيطه اطلاق سفن فضاء يقودها ثلاثة رواد لأجل :

- الدوران حول الارض فى رحلات مدارية .
- الطيران فى رحلات فضائية قريبة من القمر وتصوير فوهاته وشقوقه ، شكل (١٢) .
- الاقتراب من القمر ، ثمهبوط رائدىفضاء على سطحه ، وجمع عينات من تربته ، والعودة بها الى الارض .

ونظرا لان مدة رحلة كل من هذه السفن تقرب من أسبوعين ، فقد اتسمت سفن ابوللو بسعتها لتستوعب مستلزمات الحياة لثلاثة رواد ، الى جانب الاجهزة والمعدات اللازمة .

وكانت سفن « ابوللو » تتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية هى :

- جزء القيادة ، ويتسع للرواد الثلاثة .



شكل (١٢) تنتشر الفوهات القمرية فى كل مكان على سطحه بأقطار متفاوتة .

ـ جزء الخدمات ، ويتسع لمعدات توليد القوى الكهربائية . وخزانات الوقود ، ووحدات الدفع الصاروخية .

ـ المركبة القمرية ، لتستخدم فى رحلات الاقتراب او الهبوط على القمر .

وكان رواد الفضاء الثلاثة يستلقون داخل جزء القيادة على كراسى خاصة والى جوارهم أزرار التحكم في أجهزة السفن ، والى جانبهم خزان الاغذية المعلبة والمؤنية والماء ، والمغسل والمرحاض . وكان جزء القيادة هو الجزء الوحيد الذى يستعاد بعد نهاية الرحلة بانتشاله من المحيط ، وبداخله الرواد . اما جزء الخدمات فاسطوانى الشكل ، ويبلغ قطره نفس قطر قاعدة مخروط جزء القيادة اى ١٣ قدما ، بينما يبلغ طوله ١٢ قدما ويزن ١٣ طنا .

ويحتوى على اربعة خزانات للوقود ، والبطاريات ، ووحدة الدفع الرئيسية التى تتمثل فى محرك صاروخى يعمل بالوقود السائل ، ويستعمل لتصحيح المسار والمدار والمناورة .

المركبة القمرية

استخدمت المركبة القمرية فى الهبوط على القمر ، فى رحلة « ابوللو ــ ١١ » التاريخية وظلت تستخدم حتى نهاية البرنامج بالرحلة « ابوللو ــ ١٧ » . كما استخدمت قبل ذلك فى رحلة « ابوللو ــ ١٠ » لتجربة الاقترابمنه حتى مسافة ١٤٫٤ كيلو مترا .

وقبل ذلك جربت المركبة القمرية فىرحلة « ابوللو ــ ٩ » ، للتأكد من طريقة تشغيل محركاتها بعد انفصالها عن السفينة الام ، وتجربة دورانها حولالقمر مع اجراء مناورات للصعود والهبوط وتغيير السرعة ، ثم تجربة معاودة الالتحام بالسفينة الام مرة اخرى . ولقد كانت هذه اخطر مرحلة لان المركبة غير مزودة بصواريخ دفع تجعلها قادرة علىالعودة الى الارض ، كما ان عملية الالتحام نفسها تتطلب دقة بالغة في الاقتراب والمناورة ،شكل (١٣) .

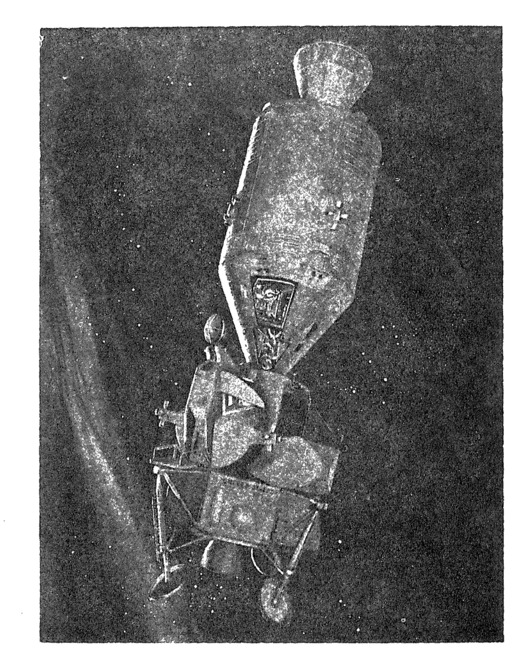
وجدير بالذكر أن الرواد كانوا ينتقلون الى المركبة القمرية عبر أنبوبة تصل بين قمة جزء الخدمات المخروطى فى السفينة وبين المركبة ، زحفا على الركبتين . وكان للمركبة اربعة أرجل طول كل منها ٩٤ سنتيمترا ، وله وسادة نصف كروية للارتكاز على السطح

ويبلغ ارتفاع المركبة كلها بعد فرد ارجلها ٦٫٩٨ مترا وقطرها ٩٫٤ مترا ويصل وزنها الى ١٤٧٠٠ كيلو جرام . ويعرف جزؤها العلوى باسم « جزء الصعود » . ويمكن انفصاله عن الجزء السفلى الذى يعرف باسم « جزء الهبوط » ويربط الجزئين اربعةاحزمة صاروخية متفجرة . وقد صممت السفينة بحيث يتم الهبوط بها على القمر بواسطة تشغيل محركاتجزء الهبوط، لكن عندمغادرة القمر يترك هذا الجزء على سطحه ويعمل فقط كمنصة اطلاق لجزء الصعود .

ولا يمكن للرائدين اللذين يشغلان المركبة القمرية الجلوس بها ، اذ انها صممت على أساس بقائهما داخلها فى حالة وقوف ،بصفة مستمرة سواء أثناء العمل أو الراحة أو حتى النوم .

ولقد فشل اطلاق السفينة « أبوللو ــ ١ » واحترقت قبل انطلاقها من الارض ومات روادها الثلاثة . واعقب ذلك اعادة تجارب الاطلاق بدون رواد فى ثلاث رحلات . فرحلات ابوللو ــ ٤ ، ٦ التى بدات فى نهاية عام١٩٦٧ تمت بدونرواد لاجلتجربة السفينة واجزائها المختلفة ، وطريقة انتشالها فى المحيط .

وفي برنامج ابوللو زودت سفن الفضاءبنظام لهروب الرواد وقت حدوث الخطر . ويتمثل ذلك فى جهاز داخل برج يعلو السفينة ،



شكل (١٣) المركبة القمرية التى هبط بها رائدان فى رحلة أبوللو ـ ١١ على سطح القمر ، وظلت تستخدم حتى رحلة أبوللو ـ ١٧

يستطيع ان يقذف مركبة الفضاء وبداخلها روادها الثلاثة عند اكتشاف اى خلل فى الصاروخ وقت الاطلاق . ويظل برج الهروب يعلو الصاروخ والسفينة منذ لحظة الاطلاق ، حتى التخلص منه عندما يصل الصاروخ الى ارتفاع معين ، يطمئن بزوال الخطر عن الرواد

ورغم أن الفرض الاساسى من رحلات ابوللو وعددها ١٤ رحلة ، كان انزال رواد على القمر فقد اطلقت السفن الاولى من هذا النوع بدون رواد لتجربتها .

ثم بدأت أول رحلة برواد ، اعتبارا من « أبوللو ــ ٧ » وقد تم تدريب عدد من رواد برنامج « ميركورى وجيمينى » ، فى برنامج أبوللو ، كما زيد عليهم رواد آخرون .

ومن أبرز من شاركوا فى رحلات هذا البرنامج غير رواد البرنامجين السابقين ، رواد الفضاء التالية أسماؤهم :

- ايزلى .
- كانينجهام .
- اندرس .
- شويكارت .

الرحلة التاريخية ابوللو ــ ١١ : وابرز من سجل لهم التاريخ فخر النصر العالمى ، بوضع اول خطوات على القمر مهندس الفضاء « نيل ارمسترونج » وزميله « الدرين » . فى الرحلة التاريخية المشهورة «ابوللو ــ ١١» . وشاركهما فى هذه الرحلة بقيادة السفينة الام عندما انفصلا عنها ، زميلهما « كولينز » .

وثلاثتهم سبق لهم المشاركة فى رحلات برنامج جيمينى ، وقد اختيروا لرحلة «ابوللو ــ ١١ » بعد تحليل خبراتهم السابقة .

وقد بدأت الرحلة فى ١٦ يوليو ١٩٦٩ ودامت ١٩٥ ساعة و ٢٠ دقيقة وانتهت فى ٢٤ يوليو ، بينما سجل الحدث التاريخى بوطء سطح القمر يوم ٢٠ يوليو . وقد قام بالرحلة الرواد « نيل ارمسترونج » ، « الدرين » وهما اللذان هبطا على القمر بينما كان يقود السفينة الام الرائد الثالث « مايكل كولينز » ولقد مكث أول رائدين على القمر مدة ٢٢ ساعة ، ٤٠ دقيقة وضعا خلالها علم الولايات المتحدة الامريكية على سطحه كما وضعا بعض الاجهزة العلمية والرموز التذكارية عليه .

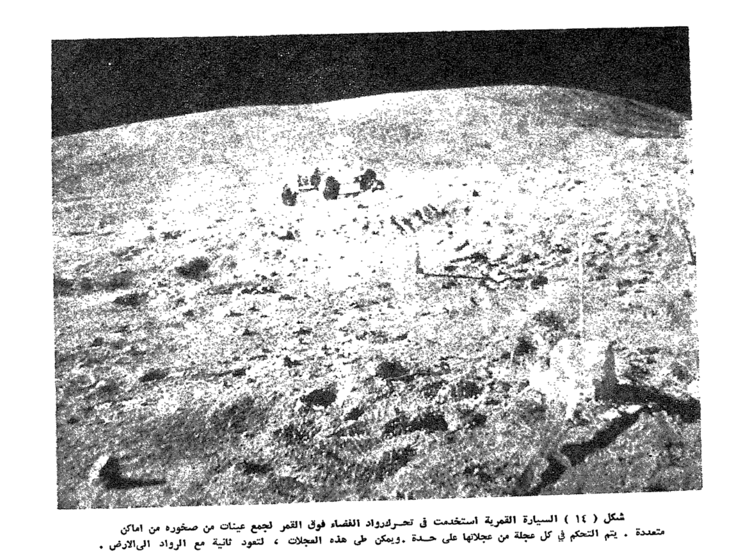
واقد قال نيل ارمسترونج عند اول خطوة له على القمر « انها خطوة خطيرة للانسان ولكنها خطوة كبيرة بالنسبة للانسانية » وكان الهبوط فوق منطقة منبسطة من القمر تعرف باسم بحر الهدوء عادا منها بحمل كبير من الصخور والاتربة التى جمعاها منها . وقد تم تبادل حديث تليفزيونى بين الرائدين وهما على القمر مع الرئيس الامريكى نيكسون واعتبرت كل دول العالم المتحضر هذا الحدث على انه فتح جديد فى التاريخ وتبادلت التهانى مع الولايات المتحدة الامريكية لهذا الانتصار العلمى .

ولقد توالت بعد رحلة « ابوللو ــ ١١ » ست رحلات أخرى انتهت برحلة « ابوللو ــ ١٧ » فى ديسمبر ١٩٧٢ وكان من ابرز الانجازات خلال هذه الرحلات جمع مزيد من صخور القمر باستخدام السيارة القمرية التى تميزت بكونها ذات عجلات يمكن التحكم في كل منها على حدة شكل (١٤) . وتجمع فى نهاية برنامج ابوللو ، ما يبلغ من ٣٧٥ كيلو جراما من صخور القمر ، بالاضافة الى وضع عدد كبير من الاجهزة العلمية وتركها على سطحه ، شكل (١٥)

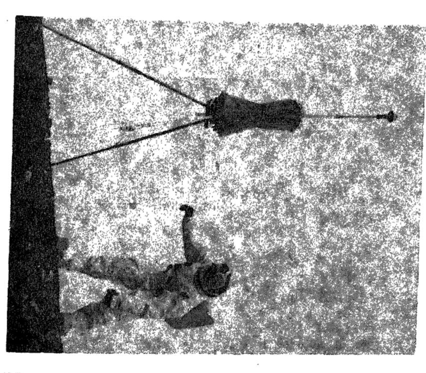
●●●

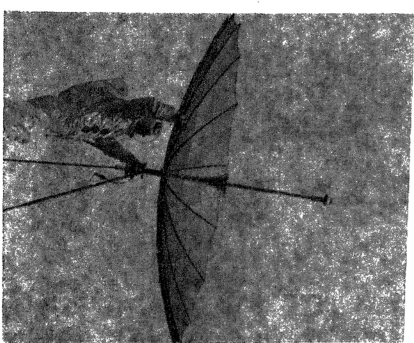
البرامج السوفيتية لغزو الفضاء

ظل الاتحاد السوفيتى سباقا فى تسجيل الانتصارات فى الفضاء ، عاما بعد عام . وتميزت هذه الانتصارات فى أوائل الستينات بالتفوق على الولايات المتحدة الامريكية ، ثم انقلب الميزان بتقدم البرامج الامريكية التى سبق الالماح اليها .



شكل (١٤) السيارة القمرية استخدمت فى تحـركرواد الفضاء فوق القمر لجمع عينات من صخوره من اماكن متعددة . يتم التحكم فى كل عجلة من عجلاتها على حـدة .ويمكن طى هذه العجلات ، لتعود ثانية مع الرواد الىالارض .





شكل (١٥) استخدم رواد الفضاء الامريكيون عـدداكبيرا من الاجهزة العلمية على سطح القمر من أهمها جهــاز قياس الزلازل على القمر واجهزة قياس شدة الاشعة الكونيةواجهزة تعكس اشعة ليزر موجهة من الارض لقياس بعــد القمر عن الارض بدقة .

غير أن الاتحاد السوفييتى انفرد بتسجيل عدة انتصارات فضائية نوعية ، تعبر عن مدى تقدم علمائه ورواده فى تكنولوجيا الفضاء وعملياته .

فقد سبق العالم اجمع في ارسال الرائد الفضائى الاول « جاجارين » كما سجل الانتصار العلمى الوحيد بارسال ممثلة الجنس الناعم « فالنتينا تريشكوفا » فى رحلة من أصعب الرحلات الفضائية .

وقد سبق أمريكا فى تسجيل أول التحام فى الفضاء بين سفينتين فضائيتين ، وسجل أول خروج لرائد الفضاء من سفينته ليمشى خارجها وهو مربوط اليها بحبل .

وكانت أولى السفن الفضائية التى تحمل ثلاثة رواد ، وهى سوفيتية من طراز « فوسخود » تحلق فى الفضاء قبل أن يبدأ برنامج « جيمينى » الذى تحمل سفنه رائدين فقط « بعدة شهور » .

ولقد تميزت الانتصارات الفضائية السوفيتية بالتنوع المبنى على الدراسة فقد كان أحد الرواد الثلاثة فى السفينة الفضائية « فوسخود ـ ١ » طبيبا ، والثانى عالما طبيعيا والثالث طيارا كونيا ، ولهذا الاختيار وجاهته وأسبابه بلا شك .

كما تم زواج رائدة الفضاء « فالنتينا » ، من زميلها الطيار الفضائى « نيكولاييف » لدراسة اجهادات الفضاء ، واشعاعاته على ذريتهما .

وقد انقسمت البرامج السوفيتية للرحلات البشرية الفضائية الى :

* برنامج رحلات فوستوك (Vostock) .

* برنامج رحلات فوسخود (Voskhod) .

* برنامج رحلات سويوز (Soyuz) .

ورغم قلة المراجع التى نشرت عن هذه المركبات وتصميمها فسنعرض لتفاصيل هذه الرحلات فيما يلى :

١ ــ **برنامج فوستوك** : تحقق اطلاق ست سفن فضائية في هذا البرنامج ، بدأت أولاها بالرائد الفضائى الاول « جاجارين » ، وكانت كلها رحلات مدارية تحمل رائدا واحدا . وقد حملت آخرها « فوستوك ــ ٦ » الرائدة الفضائية الوحيدة « فالنتينا » . وتميزت الرحلات بالتدرج فى كبر زمن الرحلة وعدد الدورات . فقد ظلت الرحلة الاولى مدة تقل عن ساعتين ، ولبثت الرحلة السادسة اقل من ٧١ ساعة .

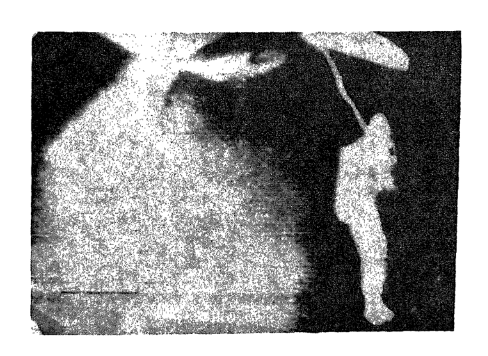
٢ ــ **برنامج فوسخود** : تمت فى هذا البرنامج رحلتان ، حملت الاولى ثلاثة رواد الى الفضاء وحملت الثانية رائدين فقط .

وكانت مدة كل من الرحلتين قريبة من ٢٤ ساعة ، وتحقق فى كليهما نصر علمى فريد .

فقد تم فى الاولى انطلاق أول ثلاثة رواد فى سفينة فضائية واحدة ، اما في الثانية فقد انطلق « ليونوف » خارج السفينة من باب فتحة فى جانبها وظل يسبح فى الفضاء وهو مربوط الى سفينته بحبل ، شكل (١٦) .

٣ ــ **برنامج سويوز** : بدأ البرنامج الفضائى السوفييتى الثالث عام ١٩٦٧ ، ومازال مستمرا الى الان .

وتتميز سفن « سويوز » بشكل اسطوانى ذى مقدمة كروية ، وطول السفينة ٣٠ قدما وتستطيع حمل عدد من الرواد يصل الى ستة رواد ، ولكن للآن لم يزد عدد الرواد عن ثلاثة ، ووزن السفينة ٦٥٠٠٠ رطل ، واستحدث فيها تصميم جديد يتيح بقاء الرواد داخلها بدون ملابس خاصة وبدون اغطية



شكل (١٦) سجل رائد الفضاء السوفييتى «ليونوف»
أول سباحة فى الفضاء .

للرأس ، ويجد الرائد فيها اماكن للجلوس واخرى للقراءة والنوم .

وقد بدات الرحلة الاولى بكارثة وفاة رائد الفضاء فلاديمير كوماروف فى ٢٣ ابريل١٩٦٧ عند ارتطام السفينة بالارض بسرعة عالية فى رحلة العودة بعد ان طار فى الفضاء مدة ٢٦ ساعة و ٤٥ دقيقة . وقد ألغيت الرحلة « سيوز ـ ٢ » ثم بدات رحلة « سويوز ـ ٣ » في اكتوبر ١٩٦٨ بواسطة رائد واحد ايضا هو « بيريجوفوى » وبقى فى الفضاء مدة ٩٤ ساعة و ٥١ دقيقة .

وفى ١٤ يناير ١٩٦٩ اطلقت «سويوز ـ ٤» بقيادة « فلاديمير شاتالوف » ودار حول الارض ٤٨ دورة خلال ٧١ ساعة ، وفى اليوم التالى اطلقت « سويوز ـ ٥ » وفيها ثلاثة رواد هم « بوريس فولينوف واليكس يليسيف ويفجينى خرونوف » واتخذت السفينة مدارا يقرب من مدار سابقتها « سويوز ـ ٤ » أوجه ١٤٤ ميلا وحضيضه ١٢٥ ميلا بفارق اربعة اميال بين المدارين . ووقتئذ اعتبر هذا الاقتراب نصرا علميا كبيرا ومقدمة لدراسة التحام السفن فى الفضاء . وقد أخذت المسافة بين السفينة تتناقص حتى بلغت ميلين . ثن انجز التحام « سويوز ـ ٤ » كهدف ايجابى « بسويوز ـ ٥ » كهدف سلبى بواسطة حاسب الكترونى كان مثبتا فى الاولى حتى أصبح الفاصل بين السفينتين ٣٣٠ مترا واكمل الالتحام بالتحكم اليدوى . وقدظلت السفينتان ملتحمتين مدة اربع ساعات وقامتا بعمل مناورات لتأكيد عملية الالتحام . كما قام الرائدان « يليسيف وخرونوف » بالسباحة خارج السفينتين مدة عشر دقائق ، ثم انفصلت السفينتان عن بعضهما وتبادل الرواد اماكنهم فى السفينتين وعادت « سويوز ـ ٤ » الى الارض يوم ١٧ يناير وبها ثلاثة رواد ، بينما عاد فولونوف بمفرده بالسفينة « سويوز ـ ٥ » فى اليوم التالي وهبط على بعد ٥٠٠ ميل من السفينة الاخرى . وفى ١١ اكتوبر من عام ١٩٦٩ واليومين التاليين انطلقت سفن « سويوز ـ ٦ ، سويوز ـ ٧ ، سويوز ـ ٨ » تباعا لتكوين « محطة فضاء » وقد بدأ اطلاق سويوز ـ ٦ من قاعدة بايكونور فى وسط آسيا واتخذت مدارا أوجه (٢٢٣ كم) وحضيضه (١٨٦ كم) وكان بالسفينة رائد الفضاء « جورجى شونين » ، « فاليرى كوباسوف » وأهم ما أنجزته الرحلة استخدام نظم الملاحة القصورية ونظم الملاحة الفلكية فى توجيه السفينة واختبار لحام المعادن في الفضاء تحت حالة انعدام الوزن .

وفى ١٢ اكتوبر ١٩٦٩ انطلقت « سويوز ـ ٧ » من نفس القاعدة الفضائية وبها ثلاثة رواد هم « اناتولى فيليفتشنكو ، وفادبلاف فولكوف وفيكتور جورباتكو » . عمل الاول قائدا والثانى ملاحا والثالث مسجلا للظواهر العلمية ومتابعة الاتصالات ، وقد قامت السفينة بالمناورة فى الفضاء ورصد الاجرام السماوية ودراسة تغير اضاءة بعض النجوم ودراسات أخرى عن الشمس . وطارت فى تشكيل شديد القرب من « سويوز ـ ٦ » . وفى اليوم التالى اطلقت « سويوز ـ ٨ » وكان بها الرائدان « شاتالوف ، واليكس يليسيف » وكونت السفن الثلاث تشكيلا فى الفضاء وكان قائد هذا التشكيل الرائد شاتالوف . غير أن السفن لم تلتحم ببعضها ولكنها جربت التحكم في المناورة الى درجة بلغت ١/٢ من الثانية ، وكان الرواد يرون بعضهم فى السفن الاخرى بالعين المجردة ، وامكن أن يقوم رواد كل سفينة بتصوير السفينتين الأخريين . واستخدم رائد الفضاء « شونين » فى سويوز ـ ٦ جهازا جديدا للحام المعادن فى الفضاء بدون لهب . وبدأت رحلة عودة السفن الثلاث فيما يشبه المظاهرة اذ هبطت سويوز ـ ٦ قرب مدينة (كراجاندا) بوسط آسيا يوم ١٦ اكتوبر ، وأعقبتها « سويوز ـ ٧ » فى اليوم التالى فى موقع يبعد ٢٥ كم عن الاول . وفي اليوم الثالث

هبطت سويوز ــ ٨ وقد احتفل قادة وزعماء الاتحاد السوفييتى بالرواد فى الكرملين ، ومنح كل منهم النجمة الذهبية .

وفى أول يونيو ١٩٧٠ اطلقت « سويوز ــ ٩ » وبها الرائدان « اندريان نيكولايف وفيتالى سفاستيانوف » بغرض دراسة تأثير بقاء الرواد فى الفضاء مددا طويلة . وقد ظلت السفينة ١٨ يوما حتى هبطت يوم ٢٠ يونيو ، وبذلك سجلت رقما قياسيا لطول مدة البقاء فى الفضاء . وقد أظهر السوفييت عملية الهبوط على شاشات التليفزيون لأول مرة .

ثم بدات فى ٢٣ ابريل ١٩٧١ الرحلة للسفينة « سويوز ــ ١٠ » وبها ثلاثة رواد هم « فلاديمير شاتالوف ، واليكس يليسييف ، وروكافيشينكوف » الى مدار قريب من المحطة المدارية (ساليوت ــ ١) التى كان قد سبق اطلاقها قبل ذلك بأربعة أيام . وقد اتخذت مدارا أوجه ٢٢٢ كيلو مترا وحضيضه ٢٠٠ كيلو متر ، وكانت تتم كل دورة من دوراتها كل ٨٨٫٦ دقيقة . وقد تم الالتحام بين السفينة والمحطة المدارية ودام لمدة خمس ساعات ونصف ، وكان ذلك أول حلقة في جهود بناء « المحطات الفضائية » الكبيرة .

ثم لحقت السفينة «سويوز ــ ١١» بالمحطة المدارية نفسها « ساليوت ــ ١ » فى ٦ يونيو ١٩٧١ وهى تحمل ثلاثة رواد هم « جورجى دوبر فلولسكى، و فيكتورباتسييف ، و فلاديلاف فولكوف » وقد ظل الرواد بعد انتقالهم من السفينة الى داخل المحطة المدارية « ساليوت ــ ١ » مدة ٢٣ يوما ، وآنذاك كانت هذه المدة اطول مدة قياسية لبقاء الرواد فى الفضاء سواء بين الامريكيين او السوفييت . وبعد انجاز عديد من التجارب العلمية المتقدمة عن آثار انعدام الوزن ، وانواع جديدة من الملابس الفضائية ، واستزراع النباتات بدون تربة من اهمها البصل والكرنب ، والتقاط صور عديدة للارض ، ثم بدأ الرواد رحلة العودة الى الارض . غير انه فى نهاية رحلة العودة استعدادا للهبوط حدث خلل فى اجهزة الضغط بالسفينة ادى الى وفاة الرواد الثلاثة داخل سفينتهم . وقد تسبب هذا الحادث المشئوم فى وقفة تخلف لم يفق منها السوفييت الا في سبتمبر ١٩٧٣ عند اطلاق الرحلة التالية « سويوز ــ ١٢ » . وتوالت رحلات سويوز حتى سجلت الرحلة « سويوز ــ ٢٤ » فى فبراير ١٩٧٧ ، ويبدو ان البرنامج لم يتوقف بعد . غير أن اهم انجازات البرنامج هو تحقيق الالتحام بالمحطات المدارية من طراز (ساليوت) (Salyute) والتى أطلق منها حتى يونيو ١٩٧٥ المحطة الخامسة (ساليوت ــ ٥) . ولقد سجل رائدا « سويوز ــ ١٧ » فى يناير ١٩٧٥ مدة بقاء فى الفضاء بلغت (٣٠) يوما قضياها فى « ساليوت ــ ٤ » وحطم رائدا « سويوز ــ ١٨ » هذا الرقم فى مايو ١٩٧٥ بالبقاء في نفس المحطة المدارية مدة (٦٣) يوما كما تدرب رواد بعض رحلات سويوز على السباحة فى الفضاء واجراء التجارب اللازمة لرحلة الوفاق السوفيتية الامريكية المشتركة التى تمت فى يوليو ١٩٧٥ .

• • •

مرحلة غزو الكواكب

حلبة جديدة

بعد أن خطط العلماء لهبوط رواد الفضاء على القمر ، وقبل ان يتحقق هذا الحلم ، بدات أبحاث الفضاء تأخذ بعدا جديدا فى اواسط الستينات ، بتوجيه سفن الفضاء الى الكواكب القريبة . وبذلك أصبحت الحلبة الجديدة للجهود الفضائية ، هى رقعة المجموعة الشمسية التى تضم الكواكب الثمانية اخوات الارض بواسطة سفن الفضاء بدل الاقمار الصناعية . وقد انفردت روسيا وامريكا بالتبارى فى اطلاق سفن الفضاء ، لكنها ليست فى مثل غزارة الاقمار الصناعية لانها اكبر

حجما ، وأثقل وزنا وتبقى في الفضاء عدة مئات من الايام حتى تدخل فى مجال جاذبية كوكب أو تستطيع ان تدور حوله .

سلاسل من سفن الفضاء

للتفرقة بين الاقمار الصناعية وسفن الفضاء يسهل علينا تعريف الاقمار الصناعية بأنها « توابع » (Satellites) تتبع الأرض فى حركتها ، شأنها فى ذلك شأن «القمر البدر » ، وتجوب الفضاء القريب منها والذى لا يتجاوز القمر ، ولا توغل فى الفضاء البعيد.

اما سفن الفضاء فتعمل فى آماد ابعد في الفضاء (البيكوكبى) ، ولا ترتبط بالارض فى دورانها ، بل ترتبط بالقمر أو بأحد الكواكب .

تباين استراتيجية غزو الفضاء

تقتصر حلبة استخدام سفن الفضاء على الدولتين الكبيرتين امريكا وروسيا ، ومن العسير انفراد احداهما بقصب السبق ، اذ لا يكاد يتحقق لاحدهما نصر ، حتى تلحق بها الاخرى .

غير أن الدارسين لما تحقق فى كافة انشطة غزو الفضاء ، يدركون أن كلا من الدولتين لها استراتيجية خاصة ترسمها سياستها العلمية ، وتحققها تجاربها فى الفضاء .

وبعد السيل المنهمر من سلاسل الاقمار الصناعية للقياسات العلمية ، اتخذت كل منهما خطا مستقلا لاستخدام الاقمار فى الاغراض التطبيقية . وبدا التباين واضحا في الاغراض المرسومة لرحلات الفضاء الكونية بدون بشر ، ثم برواد من البشر . ويصح القول أن الاستراتيجية الامريكية لغزو الفضاء استهدفت الوصول الى القمر ، والرسو عليه برواد، ثم التحرك فوق سطحه لدراسةتعميره واقامة المستعمرات عليه .

بينما رسمت الاستراتيجية السوفييتية لتحقيق انتصارات نوعية فى الفضاء ، تحقق المزيد من الدراسة والاستقصاء عن طبيعة سطح القمر وطوبوغرافيته ، وجوه .

تحد سوفييتى اسمه لونا

وفى الوقت الذى انطلقت فيه اشهر رحلات برنامج ابوللو الامريكى ، وهى رحلة « أبوللو ــ ١١ » ، ليهبط منها أول رائدين على سطح القمر ويحضرا عينات من صخوره نجد السوفييت قد اطلقوا احدى سفنهم « لونا ــ ١٥ » لتدور حول القمر ، وتحط عليه فى صمت .

وقد دارت « لونا ــ ١٥ » ٥٠ مرة حول القمر قبل أن تحط عليه على بعد ٥٠٠ ميل من بحر الهدوء الذى هبط عليه رائدا « ابوللو ــ ١١ » ، وتوقفت عن آداء مهمتها . وبعد أكثر من عام تقريبا تكشف للعلماء سر لم يذع فى حينه ، وهو أن « لونا ــ ١٥ » لم تكمل الشق الثانى من مهمتها . ذلك انها بعد أن قامت بتصوير الاماكن التى هبط عليها رائدا الفضاء الامريكيان . تحطمت عندما حطتعلى القمر ، لان رسوها لم يكن برفق . وكان من المقرر أن تعود الى الارض قبل عودة الرواد الامريكيين ومعها بعض من صخور القمر لتسجل كونها أول سفينة فضاء تهبط على القمر ثم تعود منه ببعض تربته ، ولتسجل أيضا برهانا صامتا يقول للعالم نحن أيضا نستطيع العودة من القمر ببعض صخوره كما فعل رواد امريكا ، بدون جلبة وبدون هذه الملايين التى انفقوها . غير أن مهمة « لونا ــ ١٥ » لم يكتب لها النجاح عندما ارتطمتبسطح القمر وتحطمت .

غير ان « لونا ــ ١٦ » حققت نفس المهمة بعد أكثر من عام ، حيث حطت على القمر وجمعت عينات من صخوره وعادت بها الى الارض بعد أن حققت ما لم توفق « لونا ــ ١٥ » في عمله .

لونخود تتحرك على عجل

وبعد أكثر من عام وفى ١٠ نوفمبر ١٩٧١، اكتملت حلقة اخرى من حلقات التحدى الصامت ، فقد حطت « لونا ــ ١٧ » على القمر فوق منطقة « بحر الامطار » الذى يتميز بمساحته المنبسطة وحملت السفينة معها مركبة قمرية ضخمة الحجم وذاتية الحركة اطلق عليها « لونخود ــ ١ » ، ومن العجيب أن « لونخوذ » انزلقت من باطن السفينة فوق « كوبرى » برز من داخلها وانثنى فوق سطح القمر، فتحركت عليه بسهولة، رغم أن حجمها وشكلها يكاد يعادل ويشابه « بانيو » الحمام. وظلت « لونخود » التى كانت مطلية بلون ابيض ــ لتسهل مراقبة حركتها ــ تتجول على سطح القمر فوق ثمانى عجلات معدنية بتحكم من الارض . تذهب فى اتجاه ، ثم يتحكم فيها لتتوجه الى اتجاه آخر . فقد كانت حركة كل عجلة من عجلاتها الثمانى مستقلة عن العجلات الاخرى ، وكان يتحكم فى حركتها من الارض طاقم يتكون من خمس رجال . كل منهم له مهمة مستقلة عن الآخرين . ويتألف الطاقم من قائد ، ومرشد ، ومهندس ، وملاح ولاسلكى، وكانت أمام كل منهم اجهزة محاكية لاجهزة المركبة لونخود ليستطيع متابعة حركتها والتحكم فيها ، وظلت المركبة فى حركة وتجوال مايفوق على ١٠٠ ساعة ، بينما المحطات الارضية تستقبل منها الصور ، عن سطح القمر ، وخاصة المناطق التى وطئتها عجلات المركبة .

وخلال الليل القمرى الذى يدوم ١٤ يوما انسدل على المركبة غطاء عازل ليقيها البرد الذى تهبط درجة الحرارة فيه الى (ــ ١٥٠) درجة مئوية . ودفع طاقم التحكم الارضى بالمركبة الى تجويف من تجاويف القمر ،لتبقى فى حالة « بيات ليلى » وتوقفت اجهزتها عن العمل . ثم عاودت نشاطها على فترات متقطعة طوال احد عشر شهرا في ٩ اكتوبر ١٩٧١ .

وبذلك حققت « لونخود » حلقة فى الصراع الصامت على سطح القمر ، لتكون كرد سوفيتى على الامريكيين عن سياراتهم التى تتجول على القمر ، شكل (١٧) .

وتوالت حلقات الصراع الصامت بعد ذلك حتى اطلقت السفينة « لونا ــ ٢٠ » فى ٢٥ فبراير ١٩٧٢ وهى مزودة بمثقاب ميكانيكى يستطيع أن ينفذ فى تربة القمر وقد أمكن للمثقاب أن يعمل لمدة (٣٠) دقيقة ، عادت بعدها سالمة الى الارض حاملة بقايا من نواتج الحفر .



شكل (١٧) اخذت المركبة السوفيتية لونخود تتحرك على سطح القمر بتحكم من الارض وليس فيها بشر .

وعكف العلماءعلى تحليل ماأحضرتهالسفينة من اعماق القمر ، ليضيف الى معلوماتهم جديدا بعد ما علموا عن صخور سطحه مما احضرته « لونا ــ ١٦ » . ومن بعد « لونا ــ ٢٠ » انطلقت « لونا ــ ٢١ » فى يناير ١٩٧٣ لتواصل سلسلة سفن الفضاء التى تستهدف دراسة سطح القمر والفضاء المحيط به .

المريخ ... لماذا ؟

لم يحظ كوكب من كواكب المجموعة الشمسية بمثل ما حظى به كوكب المريخ من اهتمام ، سواء من المتخصصين أو عامة المراقبين .

فقد نسجت حوله الاساطير، وتخيل تلاميذ المدارس الصغار بعض الاحياء ذات الاشكال العجيبة عليه ورسموهما فى كراساتهم .

وحبك كثير من الادباء قصصا وروايات عن غزو سكان المريخ لاهل الارض ، وانزال الدمار بهم . ومع حلول عصر الفضاء ، تركزت اغلب سفن الفضاء ، لتدور حول هذا الكوكب الذى يراه علماء الفلك من خلال مراقبهم ذا لون يميل الى الاحمرار ولذلك سموه « الكوكب الاحمر » ، واهل علماء الفلك انفسهم أولوه عنايتهم ، لانه يلى الارض مباشرة في البعد عن الشمس فضلا عن أنه يتم دورته حول محوره فى مدة تقرب من يوم الارض . وتراه دائما تام الاستدارة بينما يتم دورته حول الشمس فى (٦٨٧) يوما أو ما يقرب من عامين من أعوام الارض . ونظرا لما يحيط به من جو شفاف ، فقد تمكن العلماء من رصد كثير من تفاصيل سطحه منذ عهد جاليليو . وقد طلع على الناس بعض العلماء من أشهرهم الفلكى الايطالى « شيباريلى » والبريطانى « لول » بقول خلاصته أن على سطح المريخ شبكة من القنوات ذات تصميم هندسى فيه سمات من التماثل .

ويرجح انها قد تكون شبكة لقنوات الرى صنعها عقلاء يسكنون المريخ ويعمرونه وقوى من هذا الزعم ، ما لاحظه علماء آخرون من اختلاف لون بعض المساحات الواسعة على المريخ وعزوا ذلك الى جنى بعض المحصولات الزراعية التى تغذيها شبكة قنوات الرى .

وقد أيد هذه الظنون ، حقيقة ان المريخ يتعمم بطاقيتين بيضاويتين فوق قطبيه ، قالوا أنها جليد متجمد ، اذا ما ارتفعت درجة الحرارة تنحسر المسافة البيضاء فينصهر الجليد وينساب كماء فى القنوات التى اعدها عقلاء المريخ .

مارينر تهتك اسرار المريخ

بدأت امريكا منذ عام ١٩٦٢ فى توجيه سفن فضاء من طراز «مارينر» (Mariner) الى كوكب المريخ لتجميع المعلومات عن سطحه وجوه، وتبين تفاصيل طوبوغرافيته وتصويره.

وحتى عام ١٩٧١ كان قد تم اطلاق تسع سفن من هذا الطراز باء اثنان منها بالفشل ، ووجهت اثنتان هما « مارينر ــ ٢ » و «مارينر ــ ٥ » الى كوكب الزهرة ، بينما توالت سفن « مارينر ــ ٤ » حتى « مارينر ــ ٦ » الى الدوران حول هذا الكوكب . ثم اطلقت « مارينر ــ ١٠ » فى نوفمبر ١٩٧٣ الى الزهرة وعطارد معا .

ولعله من اللازم أن ندرك ان مثل هذه السفن تقطع في هذه الرحلات ملايين الكيلو مترات حتى تصبح فى مجال جاذبية الكوكب وتصبح قادرة على مداومة الدوران حوله .

وعلى سبيل المثال فان السفينة « مارينر ــ ٤ » التى بدأ اطلاقها يوم ٢٨ نوفمبر عام ١٩٦٤ ظلت تتحرك فى الفضاء مدة ٢٢٨ يوما لتقطع خلال هذه المدة ٣٢٥ مليون ميل (= ٥٢٣ مليون كيلو متر) ، حتى اصبحت

على بعد ٥٧٠٠ ميل من المريخ ، ثم اخذت توالى الدوران حوله وتلتقط الصور لسطحه .

وقد زودت سفن « مارينر » بأجهزة تصوير تليفزيونية واجهزة تسجيل وقياس للاشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية وبذلك اصبح لدى العلماء على الارض حصيلة مكونة من آلاف الصور المأخوذة لسطح المريخ على مدارات مختلفة .

وقد احاطت ملايين الصور التى التقطت لسطح المريخ ، بكثير من الافتراضات التى ظنها العلماء عنه . ويمكن القول ان تطابق هذه الصور بنظام « الموزايك » وقد وضع امام العلماء خرائط كاملة عن سطح الكوكب كله ، وعرفت كل معالمه من جبال ووديان وفوهات وشقوق وقنوات واخاديد .

وقد برع فى تفسير هذه الصور العالم الامريكى « دكتور هارولد ماسورسكى » المشرف الجيولوجى على مشروع مارينر وقد أعطى تفسيرا منطقيا لعديد من هذه الصور ، وخاصة تلك المأخوذة من ارتفاعات عالية . واهم ما خلص اليه هو وجود « عواصف ترابية » تتحرك على سطح المريخ ، فتحجب معالم المناطق التى تسبح فوقها .

فاذا انقشعت السحابة الترابية وضحت تفاصيل ماكانت تحجبه . وبذلك وضح سبب المساحات الداكنة التى كانت ترصد على المريخ والتى ظن بعضهم انها مساحات تكسوها المحصولات النباتية .

كما تكشف وجود عديد من الشقوق على سطح الكوكب تمتد فى تعرج لمسافات طويلة بعضها زاد عن ٣٠٠٠ كيلو متر وبعضها بلغ عمقه ستة كيلو مترات ، وليس فى اى منها قطرة ماء . وتظهر الصور أن الشقوق تتقاطع لتكون شبكة توجد بينها فوهات دائرية تماثل الفوهات القمرية ، شكل (١٨) .

كما اوضحت الصور أن على المريخ براكين بعضها ثائر الى الآن تتصاعد منه الحمم ، وبعضها خمد منذ ملايين السنين ، وتراكمت حول فوهته (اللافا) فى حلقات ، ويتميز منها بركان « نيكس اوليمبيا » فوق جبل يبلغ قطره ٥٠٠ كيلو متر .

وهناك اثار واضحة اشار اليها «ماسورسكى» تدل على أن الماء كان موجودا يوما ما على المريخ ثم انحسر ، كما ان هناك مناطق تظهر آثاراً واضحة لسقوط الامطار ، واخرى تبدو فيها آثار لعوامل التعرية ، شكل (١٩) .

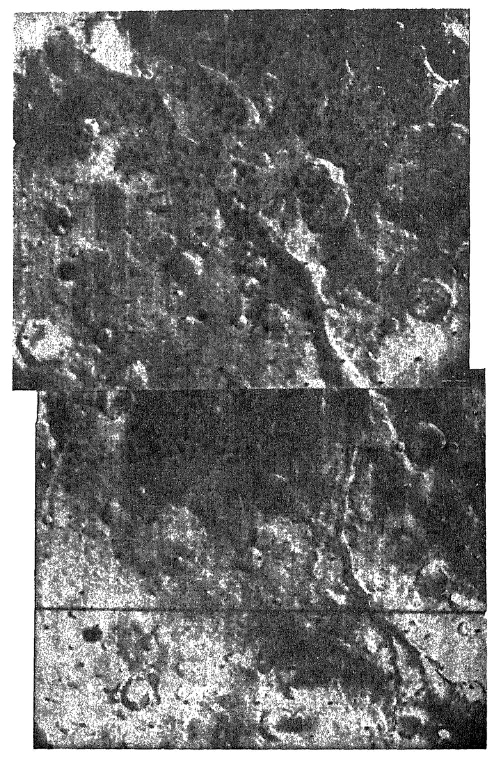
كما اجتهد عالمان آخران هما الدكتوران « ساجان وبولاك » فى العثور على مساحات مغناطيسية على المريخ ، تتميز بشدة جاذبيتها، ورجحا ان يكون السبب فى ذلك تركيز بعض المعادن تحت السطح نتيجة لسقوط شهب اونيازك وغوصها فى أعماق التربة .

وقد ثبت ان انخفاض درجة الحرارة عند قطبى المريخ لا يجعل هناك فرصة لذوبان الجليد الذى يظهر على هيئة طواقى بيضاء عند القطبين . شكل (٢٠)

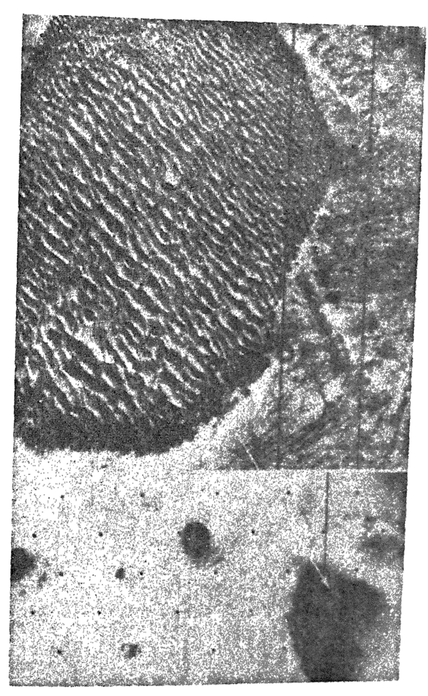
فينوس تدور حول نفسها

كوكب الزهرة (Venus) هو ثانى الكواكب بعدا عن الشمس ، وتعد المسافة بينه وبين الارض اقل من تلك التى بين الارض والمريخ، بل تكاد تقترب من نصفها حيث تبلغ فى متوسطها ٤١٫٥ مليون كيلو متر .

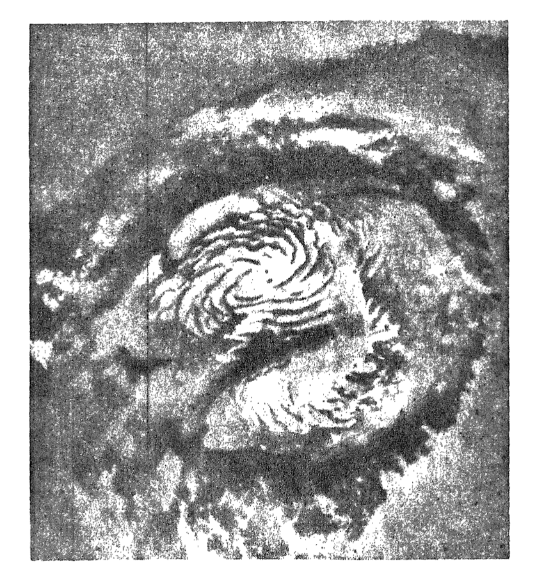
وقد بدأ اهتمام السوفييت بهذا الكوكب فى مرحلة مبكرة منذ فبراير عام ١٩٦١ حيث صمموا سلسلة سفن الفضاء المسماة باسم الكوكب نفسه. وقد افلحت السفينة « فينوس ــ ٢ » فى الانطلاق يوم ١٢ نوفمبر ١٩٦٥ ، واصبحت على بعد ٢٤٫٠٠٠ كيلو متر من



شكل (١٨) طبيعة سطح المريخ انه ملىء بالشـقوق والفوهات والبراكين .



شكل (١٩) اظهرت صور سفن مارينر عوامل التعرية على سطح المريخ دليلا على وجود رياح وهواء .



شكل (٢٠) أوضح دكتور ماسورسكى أن الطواقى البيضاء على قطبى المريخ فى حقيقتها ثلوج متجمدة لا تذوب لانخفاض درجة الحرارة .

الكوكب فى ٢٧ فبراير ١٩٦٦ . وتوالت سفن فينوس حتى « فينوس ـ ٨ » التى أطلقت فى ٢٧ مارس ١٩٧٢ . وكانت تعتمد سفن فينوس فى توجيهها على استقبال ضوء الشمس وبعض النجوم اللامعة، حتى خلص العلماء السوفييت الى ان كوكب الزهرة يحتفظ حوله بغلاف جوى شديد الحرارة ، وان كثافة هذا الغلاف اكبر من كثافة الغلاف الجوى للارض بمقدار ٦٠ مرة . وان درجة الحرارة اثناء النهار تتراوح بين ٤٧٠ و ٤٨٠ درجة مئوية ، بينما تتراوح درجة الحرارة اثناء الليل بين ٤٧٥ و ٤٥٩ درجة مئوية .

كما كشفت تسجيلات السفن عن ان ٩٧٪ من جو الزهرة يتكون من غاز ثانى اكسيد الكربون ، ٢٪ نيتروجين ، ١٪ أوكسجين ، ١ ٪ بخار ماء . كما وجدت آثار طفيفة من غاز النشادر . وكشفت قياسات التربة عن أن سطح الزهرة كجرانيت الارض ويحوى ٤ ٪ بوتاسيوم ، وآثارا من اليورانيوم ، والثوريوم .

ولكن السوفييت يمموا وجوههم بعد ذلك شطر « المريخ » حيث توالت سلسلة سفن فضائية جديدة تحمل اسم الكوكب نفسه « مارس » وقد نجح من هذه السلسلة (مارس ـ ٣) الذى هبط برفق فوق المريخ بواسطة مظلة فى ٢ ديسمبر ١٩٧١ . وبينما اطلقت « مارس ـ ٥ » فى يوليو ١٩٧٣ ولم يمض غير اسبوعين حتى انطلقت « مارس ـ ٦ » فى اغسطس ١٩٧٣ .

ولا يفوتنا ان نقرر أن الاتحاد السوفييتى اطلق فى الستينات سلسلة سفن فضائية من طراز «زوند» (Zond) استهدفت اغراضا متعددة منها الدوران حول القمر ، وتجربة الطيران البيكوكبى الطويل الامد ، واستخدم محطات ذات نوع جديد هى « محركات البلازما » . وكانت احدى سفن سلسلة « زوند » وهى « زوند ـ ٢ » موجهة الى كوكب المريخ . وقد توقفت عن العمل فى مارس ١٩٦٥ بعد اطلاقها بحوالى ثلاثة شهور .

رسالة الى المشترى

ملكت امريكا زمام المبادرة ، بالسبق الى غزو كوكب المشترى قبل روسيا . ذلك انها فى ٣ مارس ١٩٧٢ بادرت الى اطلاق السفينة الفضائية « بيونير ـ ١٠ » (Pioneer-10) الى هذا الكوكب الذى يبعد عن الارض مسافة متوسطها ٦٢٨ مليون كيلو متر . ويتميز المشترى بأنه اكبر كواكب المجموعة الشمسية قطرا وبالتالى حجما ، اذ يمكنه ان يبتلع بداخله « ١٣٣٠ » ارضا . كما أنه يحتفظ لنفسه بأكبر عدد من الاقمار التوابع ، اذ ان له ١٢ قمرا .

كما يتميز بتحرك بقع كبيرة على سطحه ذات الوان متغيرة بين الاحمر والاصفر والبنى، وقد رصدت هذه البقع فى حركة سريعة وهى تقطع قرص الكوكب المرئى لمراصد الارض فى أقل من خمس ساعات ، ولذلك رجح كثير من العلماء ان تكون هذه البقع نوعا من السحب لغازات غير بخار الماء كالميثان أو النشادر .

ولقد انطلقت « بيونير ـ ١٠ » لتقطع فى الفضاء هذه المسافة الشاسعة ولتبلغ مجال جاذبية المشترى حتى بعد ١٤٠,٠٠٠ كيلو متر من سطحه ، بعد رحلة مدتها ٢٢ شهرا في الفضاء .

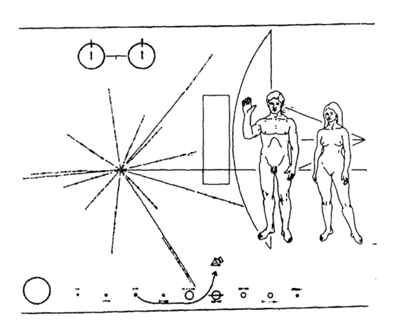
وكان الغرض الرئيسى من هذه السفينة، هو تصوير سطح الكوكب من قرب ، لتبين معالمه . بالاضافة الى تصوير حركة اقماره الاثنى عشر وهي تدور حوله ، فبعضها يدور فى نفس اتجاه سائر اقمار الكواكب الاخرى ، بينما يشذ البعض الآخر عن ذلك ويدور فى الاتجاه العكسي .

ولا شك ان السبب فى مبادرة امريكا الى القفز نحو كوكب « المشتري » (Jupiter) هو تخير الوقت المناسب لتفادي حزام « الكويكبات » (Astroids) الذي يقع بين الارض وبينه حتى لا تتعرض السفينة « بيونير — ١٠ » لخطر الاصطدام باحدها . وقد حملت السفينة رسالة على لوحة معدنية، لتسقط برفق فوق سطح الكوكب ، لاي عقلاء عليه ، ولغة الرسالة هي الرسم المعبر يتمثل فى ذكر وانثى وبجانبهما مستطيل يشير الى نسبة حجم سكان الارض الى حجم السفينة . ورسم لذرة ايدروجين فى حالة تغير ، ومسقط لكواكب المجموعة الشمسية وتسلسل بعدها عن الشمس ، مع سهم يشير الى سفينة فضاء من الارض ذات المرتبة الثالثة في تسلسل ابعاد الكواكب عن الشمس ، ويمتد الى المشتري الذي يحتل الترتيب الخامس فى هذا التسلسل . وتعد هذه أول رسالة من اهل الارض لسكان الكواكب الاخرى،شكل (٢١).

وبعد ذلك افلتت « بيونير — ١١ » الى كوكب زحل (Saturn) وقد بدات صور هذه السفينة تصل الى الارض فى نوفمبر ١٩٧٥ .

المحطات المدارية أو الاستراحات الفضائية

لم تكن المسافة الى القمر الا بضعة آلاف من الكيلومترات ، ولكن المسافة الى اي من الكواكب ، تبلغ عدة ملايين من الكيلومترات . ولذلك تخيل الفنانون منذ أمد بعيد ، محطات الفضاء مكونة من عدة اجزاء ، سيعمل رواد المستقبل على تجميع اجزائها فى الفضاء . ليستريح فيها الرواد ، او يتبادل بها أطقم الرواد ليلموا بالراحة او يتزودوا بالصواريخ الدافعة ، أو الوقود او الاوكسجين او الطعام أو الشراب او الملابس .



شكل (٢١) حملت السفينة « بيونير — ١٠ » اغرب رسالة من أهل الارض الى كوكب المشترى واعتمدت على لغة الرسم التى يمكن أن يفهمها أصحاب قدر محدود من الذكاء .

من ذلك يمكننا تصور ان الطريق الى الكواكب سيكون على مراحل ، او على قفزات من محطة فضائية الى اخرى .

لذلك كان من المنجزات المبكرة فى عصر الفضاء ، خروج بعض الرواد من سفنهم والسباحة فيه ، ولم يكن الهدف فى حد ذاته السباحة وحدها ، بقدر ما كان تجربة قدرة الرواد على القيام بأعمال ومهام مختلفة أثناءها . فبعضهم كان يكلف بتثبيت اجزاء ميكانيكية في جدار السفينة ، وبعضهم كان يكلف بتجميع اجزاء اخرى مع استخدام أدوات ومعدات ميكانيكية خاصة تمهيدا لتجميع المحطات الفضائية. واكتملت التجارب بمحاولة قام بها احد الرواد السوفييت « شونين » فى احدى رحلات « سيوز » اذ قام بلحام للمعادن داخل سفينته بدون استخدام لهب . والغرض ولا شك واضح الا وهو التمهيد لتجميع اجزاء المحطات فى المستقبل .

من هنا يمكن القول ان حلقات التفكير فى المحطات المدارية توالت واحدة اثر الاخرى . غير ان الاهم من ذلك ان القدرات البشرية كذلك كانت محل التجربة ايضا .

« ساليوت ــ ١ » المحطة المدارية الاولى

من الانصاف القول بان الاتحاد السوفييتي كان سباقا الى اطلاق أولى المحطات المدارية ، وقد اطلقت أول محطة منها فى ١٩ ابريل ١٩٧١ وسميت «ساليوت ــ ١» (Salut - 1) وتوقع المراقبون عند اطلاقها ان احداثا فضائية ستتلو ذلك ومن انشطة هؤلاء مراقبي مرصد « بوخوم » الالماني ، الذين رصدوا المنصة الفضائية الاولى وهي تدور على مدار اوجه ٢٢٢ كيلو مترا ، وحضيضة ٢٠٠ كيلو متر ، وتتم دورتها كل ٨٨٫٦ دقيقة . ولقد صح ما كان متوقعا ، اذ لم تمض غير اربعة ايام حتى اطلق السوفييت السفينة « سويوز ــ ١٠ » وهي تحمل ثلاثة رواد الى مدار قريب من مدار المحطة الفضائية «ساليوت» . ودام الالتحام مدة خمس ساعات ونصف . وقد تمكن رواد « سويوز ــ ١٠ » الثلاثة « شاتالوف » و « يليسيف » و « روكافيشينكوف » من الانتقال من سفينتهم الى المحطة الفضائية أثناء الالتحام ، وقاموا بتجارب علمية متقدمة ، وتأكد السوفييت من نجاح تصميماتهم الميكانيكية والالكترونية اللازمة لتحقيق الالتحام .

وفي ٦ يونيو من العام نفسه ، لحقت السفينة « سويوز ــ ١١ » بالمحطة «ساليوت ــ ١» وهي تحمل ثلاثة رواد آخرين ، وسرعان ما التحمت بها .

وقام الرواد الثلاثة داخل المحطة الفضائية بتجارب فضائية متقدمة ومتعددة عن آثار انعدام الوزن ، والملابس الفضائية ، حيث صمم لهم زي خاص اطلق عليه «طائر البطريق» واستزرعوا داخل المحطة نباتات بدون تربة منها البصل والكرنب الصيني ، وذلك باضافة محاليل كيماوية مخصبة لبذور هذه النباتات . ونقلت الى الارض صورا ناجحة للرواد وهم يتناولون طعامهم فوق مائدة مخصصة لهذا الغرض ، وأثناء تاديتهم التمارين الرياضية فى اماكن رحبة داخل المحطة .

وقد افلح الرواد فى تصوير الاعاصير ، وخاصة تلك التي فى المناطق الاستوائية . وقد ظل الرواد فى نشاط دام ما يقرب من ٢٣ يوما ، وضربوا بذلك الرقم القياسي لبقاء الانسان فى الفضاء ، اذ لم يكن قد سبقهم في هذا المضمار من الرواد السوفييت الا رواد السفينة « سويوز ــ ٩ » الذين ظلوا فى الفضاء (١٨) يوما ، ومن الرواد الامريكيين غير رواد السفينة « جيمني ــ ٧ » الذين بقوا « ١٤ » يوما . غير انه فى غمرة افراح الانتصار الجديد ، روع العالم بوفاة الرواد الثلاثة فجاة أثناء رحلة العودة الى الارض بعد انفصال سفينتهم عن المحطة المدارية « ساليوت » .

وبهذا الحادث المشئوم اصيب السوفييت بنكسة فى ابحاث الفضاء ، جعلتهم رغم ما كان لهم من سبق فى عدة مجالات يجمدون نشاطهم من ذلك التاريخ ما يقرب من عامين . ذلك ان الجهود السوفيتية التي كانت متوقعة عن توالي سفن « سويوز » أو غيرها لم تتقدم خلال العامين التاليين ، حتى اطلقت محطة مدارية ثانية باسم « ساليوت ــ ٢ » ، التي فشلت في بلوغ المدار المحدد لها .

وقد تابع السوفييت اطلاق المحطات المدارية ساليوت ، حتى وصلت فى اوائل عام ١٩٧٧ الى « ساليوت ــ ٥ » . وكلها كانت محلا لالتحام سفن سويوز لاجراء تجارب متقدمة ، ولتسجيل مدد طويلة للبقاء فى الفضاء ، غير ان الرقم القياسي السوفييتي لم يتعد (٦٣) يوما .

●●●

معمل الفضاء ((سكاي لاب))

قياس القدرة البشرية ... كان الهدف

بعد انتهاء برنامج « ابوللو » الامريكي الذي كانت آخر رحلاته « ابوللو ــ ١٧ » فى ديسمبر ١٩٧٢ ، وحقق البرنامج استكشافات على سطح القمر ، تجل عن الوصف ، اصبح لدى العلماء مسح شبه كامل عن القمر وخواص جوه وطبيعته ، وطبوغرافيته ، وجيولوجيا طبقاته . فأخذوا يتطلعون الى شيء آخر ، اكثر بعدا واكثر غورا فى الفضاء عن القمر . وهذا ما تؤكده عمليات ارسال سفن الفضاء لتجوب ما حول الكواكب منذ عدة سنوات ، وكأن القمر بالنسبة لرحلات الفضاء لم يكن الا بمثابة الباب الى الفضاء الفسيح الممتد الى الكواكب .

فاذا كانت المسافة الى القمر تقاس بآلاف الكليو مترات ، وبلوغه بسفن الفضاء لم يكن يستغرق الا أياما ، فالمسافة الى الكواكب تقاس بملايين الكيلو مترات ، وعلى هذه المسافات يحتاج شهورا . ولا شك ان القدرة البشرية على تحمل مشاق هذا السفر لا بد ان تكون موضع دراسة . لذلك اتى « سكاي لاب » ليكون مختبرا لقدرات رواد الفضاء على تحمل مشاق هذا السفر الطويل ، وليكون معملا لتجارب فضائية اكثر تقدما . ومن هنا اتى اسمه « سكاي لاب » (Sky Laboratory) أي « معمل السماء » أو « مختبر الفضاء » حيث يمكن ان تجرى التجارب .

ويمكن القول ان « سكاي لاب »(Sky Lab) لم يكن الا مختبرا للمحطات المدارية الفضائية التي تنطلق فى المستقبل حيث سيمكن للرواد المتجهين الى الكواكب في رحلات طويلة ، التزود بالوقود والصواريخ وقطع الغيار والاجهزة الى جانب الالمام بالراحة والتزود بالطعام والشراب وتغيير الملابس . بل تبادل مهام قيادة سفن الفضاء ، عندما لا يقوى طاقم واحد على مواصلة السفن الطويل ، ويكون لزاما السفر الى الكواكب على قفزات فتصبح المحطات المدارية نهاية كل قفزة من هذه القفزات .

ولقد كان من منجزات « سكاي لاب » ، ما يمس حلولا لمشاكل تؤرق ركب الحضارة ، كمشكلة الطاقة ، وتلوث البيئة ، والبحث عن مصادر غذائية جديدة . كما عالجت من الامور ما لم يعالج من الفضاء من قبل ، كآفات الغابات ، وهجرة الاسماك فى المحيطات ومخزون المياه الجوفية فى باطن الارض ، ومناجم المعادن الدفينة تحت القشرة الارضية . الى جانب عدد كبير آخر من تجارب متقدمة سنتعرض لها بالتفصيل فيما بعد .

ثلاث رحلات متعاقبة

صمم معمل « سكاي لاب » ليكون محلا لتنفيذ ثلاث رحلات فضائية طويلة ، يتعاقب روادها فى اللحاق به بواسطة سفن من طراز

أبوللو تلتحم بالمعمل ثم يعودون بها الى الارض . على حين يظل المعمل يدور على مداره ، منتظرا لحاق رواد الرحلة التالية به .

ولذلك اطلق المعمل نفسه ، خاليا من الرواد يوم ١٤ مايو ١٩٧٣ ليستقر على مداره قبيل لحاق اول مجموعة من الرواد به بأيام قليلة .

وقد لحقت مجموعة الرواد الاولى بالمعمل والتحمت سفينتهم به ، وظلت الرحلة . مدة (٢٨) يوما ، هبطوا بعدها الى الأرض .

وقد بدأت هذه الرحلة فى ٢٥ مايو ١٩٧٣ وانتهت فى ٢١ يونيو ١٩٧٣ . وبعد فاصل زمني قدره شهر تقريبا ، لحقت مجموعة الرواد الثانية بالمعمل في ٢٨ يوليو ١٩٧٣وظلت الرحلة مدة (٥٦) يوما .

وبعد فاصل زمني آخر قدره شهران تقريبا لحقت مجموعة الرواد الثالثة بالمعمل فى ٢٦ نوفمبر ١٩٧٣ وظلت الرحلة مدة (٨٤) يوما.

كما ان نتائج قياس القدرات البشرية على البقاء فى الفضاء مددا طويلة ، والتي وضعت تحت الاختبار فى الرحلتين السابقتين اتت بنتائج مشجعة .

معمل ذو اربعة أذرع وجناحين

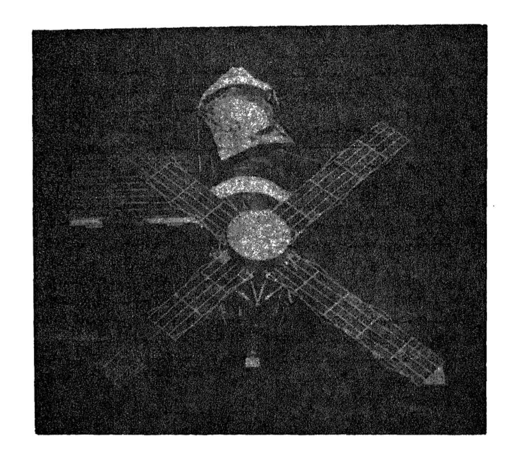
كان المعمل ذا شكل اسطواني يبرز منه جناحان تترصع فوقهما الخلايا الكهرو ــ ضوئية ، ويشمخ فوق المقدمة برج معدني من أعمدة متقاطعة تحمل التلسكوب الفلكي الضخم . ويمتد من هذا البرج اربعة اذرع تترصع فوقها أيضا الخلايا الكهرو ــ ضوئية التي تتولد منها الطاقة الكهربائية اللازمة لتشغيل التلسكوب . ومن المقدمة تبرز وحدة المهاياة (Coupling Unit) التي يمكن ان تلتحم بها سفينة ابوللو ، ومن خلالها ينتقل الرواد من السفينة الى المعمل ، عبر انبوب توصيل خاص بمثابة النفق .

وكان المعمل اضخم واثقل ما اطلق الى الفضاء من اجسام صناعية لابحاث الفضاء وما زال كذلك حتى الآن ، اذ كان يبلغ وزنه ٨٨ طنا ، بينما كان حجمه ٣٦٥ مترا مكعبا . اي قدر سعة سفن ابوللو خمسين مرة ، ومن الرحابة كمنزل يتكون من خمس حجرات . وكان طول هيلكه الاسطواني ٣٦ مترا ، بينما كان قطره سبعة امتار تقريبا وطول كل من أذرعه الاربعة ٣٦ مترا ، بينما تبلغ مساحة الجناحين ٢١٩ مترا مربعا . ويترصع فوقهما عدد مهول من الخلايا الكهرو ــ ضوئية ، يبلغ ٣١٢ الف خلية ، ومساحة كل خلية ٢ × ٤ أو ٢ × ٢ سنتيمترات ، شكل (٢٢) .

معمل فضاء ... يحمل لوازم منزل

صمم المعمل ليسع عديدا من الخزانات والدواليب والثلاجات ووحدات حفظ الطعام من التلف ، واهم ما كان به من تجهيزات خلاف الاجهزة والمعدات الفنية : ١٠ خزانات مياه ــ ١١ ثلاجة لحفظ الطعام ــ ٥ وحدات تجميد للطعام ــ عديد من الدواليب لحفظ الملابس التالية :

٦٠ غيار (جاكتة ــ قميص ــ بنطلون) ــ ٣٠ غيار (ملابس داخلية) ــ ١٥ حذاء ــ ١٥ قفازا ــ ٢١٠ بنطلونات قصيرة (شورت) ــ ٥٥ قالب صابون ــ ٩٦ كيلو جراما من الفوط ــ ١٨٠٠ كيس بلاستيك لحفظ البول والبراز ــ ١٥٦ لفة ورق لاجهزة البرق الكاتب (تليبرينتر) ــ ١٠٤ افلام تصوير فوتوغرافي ــ ١٠٨ اقلام للكتابة ــ ١ مكنسة كهربائية لشفط الفضلات والبقايا ــ ١ دراجة ثابتة لتنشيط الدورة الدموية ــ ١ مكتبة للاطلاع والتسلية والمراجع ــ مهمات انقاذ .



شكل (٢٢) كان معمل سكاى لاب كمنزل مكون من خمس حجرات وله أربعة أذرع وجناحان .

العمل على مداره

اطلق معمل الفضاء « سكاي لاب » بواسطة صاروخ ـ ساترن من قاعدة « كيب كيندي » فى ١٤ مايو ١٩٧٣ الى مدار يبلغ متوسط ارتفاعه ٤٣٥ كيلو مترا فوق سطح البحر ليبدأ الدوران حول الارض (٣٩٥) دورة مدة كل منها (٩٣ دقيقة) .

وكان من المقرر ان ينطلق رواد الرحلة الاولى فى اليوم التالي ليلحقوا بالمعمل بواسطة احدى سفن ابوللو ، وليبدأوا مهاما فضائية مستحدثة مدتها (٢٨) يوما الا ان عملية اطلاقهم تأجلت لان مشاكل فنية لحقت بالمعمل وهددت البرنامج بالفشل .

تكنولوجيا الفضاء فى محنة

بعد اطلاق معمل « سكاي لاب » بمدة ٦٣ ثانية ، تعرض المعمل لمتاعب فنية ، اطاحت بجزء من الدرع الواقي من الاحرار والمحيط بجسمه الاسطواني . مما جعل اشعة الشمس تتسلط على الجزء المعدني العاري منه وترفع درجة الحرارة داخل المعمل ، حتى وصلت ٤٩ درجة مئوية ، وهي درجة يصعب معها البقاء داخل المعمل .

والتف جزء من الدرع الواقي المنتزع حول احد جناحي المعمل ، وعاقه عن الانبساط فى وضع افقي ، فنجم عن ذلك انخفاض فى الطاقة الكهربية ، كما تعطلت التروس التي تتحكم فى حركة المرآة المائلة التي تعكس الاشعة فوق البنفسجية للقياسات الفلكية من النجوم . كذلك انفصلت بطاريتان عن مكانيهما اثناء الاطلاق ، فنجم عن ذلك انخفاض فى الطاقة الكهربية بالمعمل بنسبة ٣٥٪ ، ثم بدأ غاز سام يتسرب من خزانات داخل المعمل ، ويشكل تهديدا لحياة الرواد .

كل هذه المتاعب الفنية ادت الى تأجيل اطلاق رواد الرحلة الاولى احد عشر يوما ووضعت علماء وكالة « الناسا » فى مأزق لم يتعرضوا له من قبل .

وقد كان رائدهم ، انقاذ سمعة امريكا العلمية ، وانقاذ ٢٫٦ بليون دولار من الضياع هباء في الفضاء .

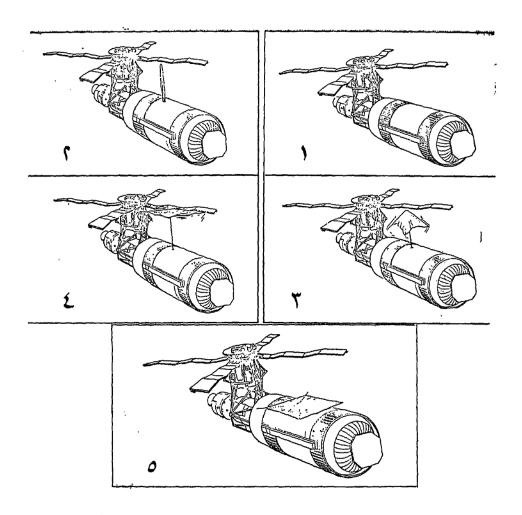
ولذلك جند آلاف من المهندسين والعلماء لتصميم وتنفيذ ما يمكن ان يكون عملية انقاذ لما اصاب المعمل من تلف ، ليمكن خفض درجة الحرارة داخل المعمل ، شكل (٢٣) .

بوليس نجدة فضائي

تأخر اطلاق مجموعة الرواد الاولى ، للحاق بالمعمل حتى ٢٥ مايو ١٩٧٣ ، بعد موعدهم الذي كان مقررا من قبل بأحد عشر يوما ، وكان الطاقم مكونا من ثلاثة رواد هم : تشارلز كونراد و بول ويتز و جوزيف كروين .

وكانوا خلال فترة الانتظار من ١٥ مايو الى موعد انطلاقهم فى تدريب مستمر على وسائل انقاذ المعمل ، لمحاولة التغلب على الاعطال التي المت به باستخدام معدات وعدد خاصة من معاول وخطاطيف واجهزة قطع ، وذلك من اجل محاولة تحقيق تخليص لجناح المعمل مما يعوق بسطه على آخره . مع العمل على تغطية الجزء العاري من سطح المعمل بمظلة واقية تحميه من حرارة اشعة الشمس . ولذلك حمل الرواد معهم ثلاث مظلات ، حتى اذا اخفقوا فى نشر واحدة كان لديهم اثنتان اخريان .

وقد كانت الخطة هي قيام احدهم بالسباحة فى الفضاء خارج المعمل من خلال كوة جانبية ، مع البقاء مربوطا الى المعمل « بحبل سري » لتخليص الجناح مما يعوقه عن البسط لتصبح الخلايا الشمسية معرضة كلها لاشعة الشمس . فتزداد نسبة الطاقة الكهربية المتولدة داخل المعمل . وقد نجح الرواد فى



شكل (٢٣) اجريت لمعمل سكاى لاب عملية انقاذفضائية عبرت عن المغامرة والشجاعة التى تساندها عقـول العلماء .

هذه العملية جزئيا ، ولم يفلحوا في بسط الجناح بالكامل .

والغرض الثاني كان تغطية الجزء العاري من هيكل المعمل بمظلة واقية مساحتها ٢٢ × ٢٤ قدما من مادة متعددة الطبقات من النايلون العازل الارجواني اللون والتي صنعت خصيصا خلال ستة أيام . وقد عمل الرواد اثناء السباحة في الفضاء على نشر هذه المظلة فوق الجزء العاري على خطوات متدرجة ، ادى الى خفض درجة الحرارة المرتفعة داخل المعمل من ٤٩ درجة الى ٣٢ درجة . وجدير بالذكر ان هذه المظلة قد تكلفت ما يقرب من (١٠٠٫٠٠٠) دولار . كما ان احدهم أمضى سابحا في الفضاء ما يزيد عن ثلاث ساعات في محاولة اصلاح البطاريات الخاصة بالتلسكوب الفلكي ، فلم يوفق تماما،واتى بنتائج جزئية. وبذلك تيسر للرواد ، امكان البقاء داخل المعمل في درجة حرارة معقولة ، مع عدم حذف جزء كبير من برامج التجارب المقررة ، نتيجة للانخفاض في الطاقة الكهربية المتولدة .

وسرعان ما عدل العلماء على الارض خطط التجارب التى كان مقررا اجراؤها ، ومن اهم المنجزات التى تمت خلال تجارب هذه الرحلة داخل المعمل ، نجاح في لحام قطعتين من معدنى الصلب والالومنيوم بشعاع اليكترونى رفع درجة حرارتهما الى ما يقرب من(٢٠٠٠) درجة مئوية . وكان الفرض من هذه التجربة هو دراسة تأثير ذوبان المعادن والتحامها مع التأثر بحالة انعدام الوزن .

وفي ختام الرحلة ، كان الرواد قد حطموا الارقام القياسية لبقاء الانسان في الفضاء سواء منجانبالرواد الامريكيينأو السوفييت اذ بقيت رحلتهم (٢٨) يوما عادوا بعدها سالمين وهبطوا في المحيط الهادى . بعد أن حققوا من التجارب العلمية والطبية ، مايعتبر ثورة في مجال الفضاء ومنجزاته .

وعلى سبيل المثال لا الحصر يمكن الالماح الى بعض ما أسفرت عنه هذه التجارب من نتائج بتطبيق ظاهرة « الاستشعار من بعد » :

* كشفت الصور عن ألف مكان تتصاعد منه الغازات التى تلوث الهواء في ولايةامريكية واحدة هى ولاية فرجينيا .

* تبين أن بعض المدن الامريكية عائمة فوق أتون من المعادن المنصهرة المدفونة فيباطن الارض ، والتى يمكن أن تتعرض لهزات زلزالية اذا ماثارت هذه المعادن وانطلقت الى السطح .

* كشفت عن اخطاء في منحنيات نهر الأمازون ، موقعة على الخرائط الرسمية بعضها يبلغ قدرة ٢٠ ميلا .

* أمكن تمييز بعض الحقول المزروعةقطنا والتى تعرضت لآفات دودة القطن ، وكيف تختلف عن الحقول غير المصابة .

* أمكن التأكد من وجود مياه جوفية في كثير من قارات العالم .

* أمكن الكشف عن احتمالات وجود حقول للبترول في بعض الولايات الامريكية .

* أمكن تصوير أماكن الكنوز المعدنية من حديد ونيكل ونحاس وذهب تحت بعض الجبال .

• • •

تجارب متقدمة في سكاى لاب

بلغ عدد التجارب المختلفة داخل المعمل (٢٧٠) تجربة ، وصمم لتنفيذها (٥٨) جهازا علميا جديدا . واكبر هذه الاجهزة تلسكوب فلكى ضخم لرصد الكواكب والنجوم ، له(٨) عدسات و (٦) كاميرات للتصوير ، وتبلغ مساحة قاعدته ٢ × ٣ مترا .

ونظرا لتركيز الرحلات علىقياس القدرات البشرية فيالفضاء خلال مدة طويلة فقد أوليت

عناية خاصة بالتجارب الطبية . لذلك بلغ عددها ضمن مجموع التجارب (٢٨) تجربة طبية ، على (١٨) جهازا طبيا حديثا .

وجدير بالذكر أن عدد العلماء الذين شاركوا في وضع برامج هذه التجارب يبلغ (٢٠٢) عالما متفرغا يضاف اليهم (٤٢٤) عالما نصف متفرغ . وليس كل هؤلاء العلماء امريكيين بل يتبعون (٢٥) دولة مختلفة . ولعله مما يدعونا الى الفخر أن بعضا من هؤلاء العلماء عرب ، وعلى راسهم الدكتور «عبد المنعم عبد الجواد» وهو مصرى متخصص في الزلازل والذى أوكل **اليه تحليل الصور التي التقطها الرواد لدراسة** موضوع الزلازل .

وكانت حركة الرواد داخل المعمل بالاشتباك بخطاطيف فى نهاية احذيتهم فى ثقوب شبكة معدنية تكسو قاعة ، شكل (٢٤) .

وقد قسمت مجموعة التجارب الى ثلاثة انواع مختلفة هى :

- تجارب طبية .
- تجارب علمية .
- تجارب الموارد الارضية (Earth Resourse)

التجارب الطبية

وضعت خطط اغلب تجارب « سكاى لاب » الطبية ، لدراسة الآثار البيولوجية ، أو الفسيولوجية ، أو السيكولوجية تحت التأثر بانعدام الوزن وخاصة على نبضات القلب وبالتالى ضغط الدم ، وخلايا الدم ، وعلى تعرض عضلات الاطراف للارتخاء ، وتوزع السوائل فى الجسم ، وترسيب المعادن فى العظام ، والاشارات الكهربية الصادرة من المخ .

وكان ضمن الرواد طبيب متخصص هو « جوزيف كروين » ، وحصل باقى الرواد على دراسات طبية قصيرة .

وللتغلب على حالات الركود فى الدورة الدموية ، وضعت في المعمل دراجة ثابتة ، يتنشط الرواد بالتبديل عليها بالارجل أو بالايدى . كما ضم المعمل أجهزة كاملة لخلع الاسنان خشية أن تصيب الام الاسنان أيا من الرواد اثناء الرحلات . كما ضم المعمل صيدلية فيها الادوية والعقاقير الطبية والمعدات اللازمة للاسعاف والجراحة .

ومن الطريف ان الدراسات البيولوجية استكملت فى برنامج سكاى لاب على بعض الاسماك والجرذان والعناكب والذباب .

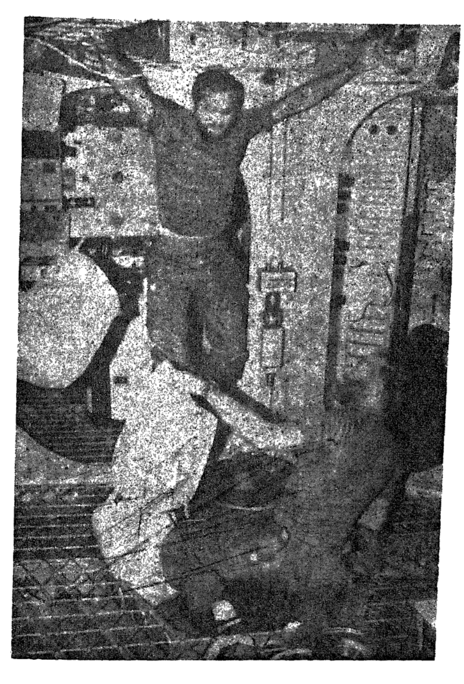
التجارب العلمية

يعتبر المرصد الفلكى ذو الثمانى عدسات الذى حمله سكاى لاب ، أكبر جهاز علمى حمل فى الفضاء حتى الآن ، شكل (٢٥)

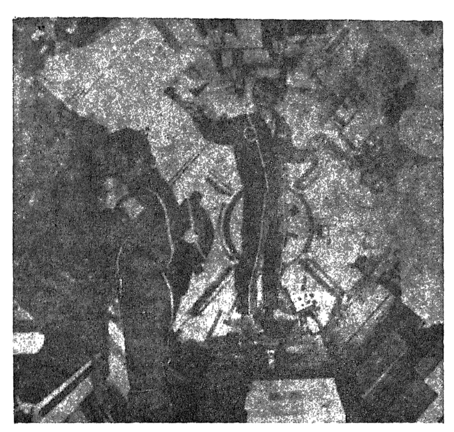
وقد تركزت اغلب الابحاث العلمية الفلكية حول الدراسات الشمسية بالذات، اذ وضعت السنة اللهب المندلعة التى تنبعث من غاز الايدروجين فى الفضاء موضع الدراسة واستخدمت لذلك أجهزة « كرونوجراف » لتصوير الهالة الشمسية المحيطة بقرص الشمس المضىء ، وقياس درجات تقاطب ضوئها .

كما وجهت عدسات التلسكوب نحو الكواكب والنجوم ، مثلما وجهت عدسات تلسكوب سكاى لاب لرصد مذنب (كهوتيك) فقد عرف اقترابه من الأرض بواسطة العالم التشيكى « كهوتيك » فى مارس ١٩٧٣ فقط، واطلق عليه اسمه .

ومن اهم التجارب العلمية التى قام بها رواد « سكاى لاب » لحام ثلاثة معادن فى الفضاء بواسطة شعاع اليكترونى تطلقه بندقية اشعاعات خاصة وقد وضح من قطع هذه المعادن بعد لحامها ، ان بعض الفازات تحتبس داخل منطقة اللحام ، متأثرة بانعدام الوزن .



شكل (٢٤) كانت الحركة داخل معمل سكاى لاب تتم فوق شبكة معدنية تشتبك بها احذية الرواد ، وعلى جانبى الجسم الاسطوانى من اعلى توجد خزانات مياه تكفى ثلاثة رواد لمدة تسعة شهور .



شكل (٢٥) التلسكوب الفضائى على متن معمل الفضاء له ٨ عدسات ومزود بست كاميرات تصوير .

تجارب الظواهر الارضية

تعتمد تجارب الظواهر الارضية (Earth Resources) على استغلال خاصية «الاستشعار من بعد» (Remote Sensing) تصوير الارض في أطياف الاشعاعات المختلفة، مع تتبع مدى تبيانها على مدى مدة معينة .

وتعتمد الظاهرة على التقاط الاشعة تحت الحمراء الصادرة من الاجسام التى على الارض او فى جوفها ، فكل ما على الارض يختزن حرارة نتيجة لتعرضه لاشعة الشمس نهارا ، ونتيجة لتباين طبيعة امتصاص الاجسام لهذه الاشعة فانه بالتالى تصدر منها اشعاعات حارة على هيئة اشعة تحت حمراء (Infra Red Rays) . وتختلف هذه الاشعاعات حسب طبيعة السطح المشع .

ولقد اطلقت منذ عام ١٩٧٢ أقماراكتشاف الموارد الارضية (ERTS) أو (Earth Resources Techonology Satellites) وبعد سنوات تحول اسمها واصبح «لاندسات» (Landast) وبواسطة هذه الاقمار المزودة بأجهزة تصوير حساسة للاشعة تحت الحمراء أمكن وجود تكنولوجيا متقدمة طرحت جانبا بعضا من الوسائل التقليدية ، وكشفت عن كثير مما هو مخبوء تحت سطح الارض من ثروات طبيعية مثل المياه الجوفية ، والبترول والمعادن . كما افادت فى تبين حرارة جوف الارض ومعرفة اماكن البراكين ، ومناطق تلوث البحار والمحيطات بنفايات المصانع ، وكذلك تحديد الاماكن الزراعية المصابة بالآفات الحشرية .

رحلة سكاى لاب الثانية

بدات مجموعة الرواد الثانية فى اللحاق بالمعمل فى ٢٨ يوليو ١٩٧٣ بواسطة احدى سفن ابوللو ليبقوا فيه ضعف المدة التى قضاها الطاقم الاول ؛ أى (٥٨) يوما . وبسبب طول الرحلة ، أطلق الرواد عليها اسم « رحلة الملل » . وكان الطاقم يتكون من : « آلان بين » « جاك لوسما » دكتور «أوين جاريوت» .

وقد قام الرواد خلال الرحلة بأنشطة مختلفة تعتبر استكمالا لتجارب الرحلة الاولى . فقد تمكن الرواد من تصوير فقاعة شمسية ضخمة تعتبر الاولى من نوعها ، وتتمثل فى لسان مندلع انفصل عن قرص الشمس ، وامتد بعيدا عنها لآلاف الكيلو مترات . كما سبحوا فى الفضاء مددا طويلة ، قاموا خلالها بتغيير أفلام التلسكوب الفلكى بأفلام جديدة، وكانوا خلال السباحة خارج المعمل مثبتين اليه بحبل سرى طوله ٢٠ مترا .

وقد انتهت الرحلة فى ٢٥ سبتمبر ١٩٧٣، مسجلة رقما قياسيا للبقاء فى الفضاء وهو (٥٩) يوما . وقد دار أثناءها الرواد حول الارض (٨٥٢) دورة وقطعوا خلالها مسافة ٣٠٫٦٧٥٫٠٠٠ كيلو متر . وامكنهم التقاط عدد كبير من الصور جملته ١٦٫٤٠٠ صورة مختلفة للظواهر الارضية والكواكب والنجوم .

رحلة سكاى لاب الثالثة

بدأت رحلة الطاقم الثالث لسكاى لاب يوم ١٦ نوفمبر ١٩٧٣ ، وقد كان مقررا أن تستمر الرحلة (٥٦) يوما كسابقتها ، غير ان نتائج الرحلتين السابقتين شجعت العلماء على اطالة مدتها الى (٨٤) يوما لتصبح ثلاثة أمثال الرحلة الاولى .

وكان الطاقم يتكون من ثلاثة رواد هم « جيرالد كار » و « وليم بوج » و « دكتور ادوارد جيبسون » .

ولقد واصل رواد الرحلة بعد التحامهم بالمعمل ما بداه زملاؤهم السابقون من اجراء التجارب المخططة . ومن أهم منجزاتهم تغيير أفلام التلسكوب ومحاولة اصلاح أعطاب الجناح . وقد ضرب اثنان منهم أكبر رقم

قياسي للسباحة في الفضاء اذ سبح جيبسون وبوج ، مدة ست ساعات و ٣٥ دقيقة في الفضاء خارج المعمل . وكرر الرائدان جيرالد كار ، وبوج السباحة في الفضاء وزادا المدة الى ٧ ساعات . وقد قاما خلال السباحة بأخذ عديد من الصور للمذنب كهوتيك . وانتهت الرحلة في ٨ فبراير ١٩٧٤ .

أين ذهب المعمل ؟

قد يكون من المنطقي ، التساؤل عن مصير معمل « سكاي لاب » بعد أن قضى في الفضاء زهاء تسعة شهور . هل فجر أم ترك ليواصل دورانه الى الارض . أم هبط الى الغلاف الجوي ليحترق به . « والحقيقة أن « سكاي لاب » ظل يدور حول الارض مدة قدرت انها ستستمر ما يقرب من ست سنوات .

ولا شك أن المحطات التي مثل « سكاي لاب » يمكن ان تكون في المستقبل رصيفا فضائيا ، يعمل الرواد على تجميع اجزائه في الفضاء على مراحل ، لترسو عليه سفن الفضاء في الرحلات الطويلة الى الكواكب .

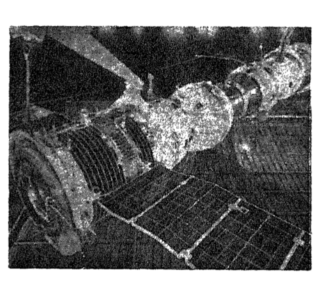
• • •

رحلة الفضاء الامريكية ـ السوفيتية المشتركة

كانت زيارة الرئيس الامريكي السابق نيكسون لموسكو في مايو ١٩٧٢ فتحا في عالم السياسة اصطلح على تسميته بسياسة الوفاق ، ولكن بدأ مع هذه الزيارة أيضا عهد جديد في التعاون الدولي الفضائي . وكانت أولى الاتفاقات في هذا المضمار ، القيام برحلة فضائية مشتركة ، حدد لانجازها منتصف شهر يوليو من عام ١٩٧٥ . وقد نص الاتفاق بين الرئيس الامريكي السابق نيكسون ، والزعيم السوفييتي بريجنيف على أن تتم الرحلة بسفينتي فضاء الاولى من طراز « أبوللو » الامريكية ، والثانية من طراز « سويوز » السوفيتية .

ويتحقق التحام السفينتين في الفضاء ، أثناء دورانهما على مدار واحد حول الارض . ثم تدور السفينتان كجسم واحد عبر وحدة ربط او مهايأة (Coupling Unit) تحقق عملية الالتحام بينهما ، شكل (٢٦) .

ومنذ تم الاتفاق على انجاز هذه الرحلة ، بدات الدولتان برنامجا فضائيا مشتركا يضمن



شكل (٢٦) بعد أن التحمت سفينتا ابوللو الامريكية وسويوز السوفيتية ظهرتا وكانهما قطار فضائي .

تحقيق نجاح الرحلة ، بوضع الخطط اللازمة لتذليل العقبات القائمة نظرا لاختلاف تصميم السفينتين .

ولقد أخذ هذا البرنامج المشترك ثلاثة اتجاهات مختلفة : **الأول** كان يتعلق بوضع خطة تدريب الرواد الامريكيين والسوفييت معا ، ومن اجل ذلك تمت زيارات متبادلة بين رواد كل دولة للدولة الاخرى للاطلاع على النشاطات الفضائية فيها، ولاجل التدريب على محاكيات فضائية تحقق انجاز التجارب المطلوبة في الفضاء .

اما **الاتجاه الثاني** من البرنامج ، فقد كان لوضع خطة هندسية لتصنيع وحدة الربط أو المهايأة التي ستحقق التحام السفينتين بعضهما عبرها . ومن أجل ذلك اطلعت كل من الدولتين مهندسي الدولة الأخرى على تصميم سفينتها الداخلي والخارجي ، وقام طاقم مشترك من مهندسي الدولتين بتصميم وحدة الربط .

اما **ثالث** بنود البرنامج المشترك فكان يتعلق بوضع الخطة العلمية للرحلة ، والاستقرار على التجارب التي كلف الرواد بانجازها ، وتصميم الاجهزة اللازمة لتحقيقها . وهذا أهم ما في الموضوع ، فقد وضعت قائمة التجارب لتحقق مزيدا من النفع لكلا الدولتين ، ولتلبي طلبات بعض الدول الاخرى بالنسبة لتعليمات علمية خاصة مطلوبة من الفضاء .

وقد أطلق الاتحاد السوفييتي سفينة « سويوز » من قاعدة « بايكنور » الفضائية وبها الرائدان (ليونوف و كوباسوف) يوم ١٥ يوليو ١٩٧٥ وبعد سبع ساعات اطلقت امريكا السفينة « ابوللو » من قاعدة « كيب كيندي » بولاية فلوريدا وبها ثلاثة رواد هم « توماس ستانفورد ، دونالد سلايتون ، فينس براند» . وقد دارت السفينتان حول الارض بمعدل دورة كل ٩٠ دقيقة ، وبعد التحامهما ظلتا في الفضاء مكونتين جسما واحدا لمدة ٤٤ ساعة فقط دارتا خلالها حول الارض ٢٥ دورة . وقد تم الالتحام على ارتفاع ٢٢٧ كيلو مترا وأجريت خلاله ١٨ تجربة علمية مشتركة ، وبعد انتهاء الالتحام هبطت السفينة السوفيتية الى الارض في جمهورية أوزبخستان فوق زلاقات ، أما السفينة الامريكية فقد واصلت التجارب في الفضاء بعد الانفصال لمدة ستة أيام ، وقد التقط خلال هذه المدة الرواد الامريكيون ما يقرب من ٨٠٠ صورة لمناطق مختلفة على الأرض لاجراء مسح جيولوجي لها ، منها دلتا نهر النيل ، والصحراوات المصرية ، وخليج السويس وسيناء ، وكان ذلك بناء على طلب السلطات المصرية ، وكذلك التقطت صور لجبال الهيمالايا .

وقد أثبتت قائمة تجارب رحلة الفضاء المشتركة أن أبحاث الفضاء لم تعد ترفا في البحث العلمي ، بل أصبحت ضربا من العلم الملتزم لتحقيق الرفاهية للبشر على الارض . ولذلك لم تقتصر التجارب على القياسات العلمية المجردة بل عنيت بتحقيق مزيد من التطبيقات الفضائية المستحدثة على الارض . ولقد تم اتفاق وكالة الفضاء الامريكية «الناسا» مع اكاديمية العلوم السوفيتية على التجارب المقررة والتي بلغت ١٨ تجربة تكلفت ما يربو على عشرة ملايين دولار وقد عنيت بالاهداف التالية :

* تصوير الهالة الشمسية حول قرص الشمس المضيء « الفوتوسفير » بفرض زيادة دراسة الطاقة الشمسية كحل بديل لازمة الطاقة المستحكمة في أمريكا .

* قياس الاشعاعات فوق البنفسجية وخاصة اثناء الليل في طبقات الجو العليا ، حيث تنعدم جزئيات الاوكسجين والايدروجين لمعرفة مسارات توزع هذه الاشعاعات حول الارض .

* دراسة ظاهرة بريق الضوء في الفضاء التي لاحظها رواد بعض الرحلات الفضائية

السابقة والمعتقد ان سببها هي الاشعة الكونية التي تصل الى الارض من المجرات الخارجية.

* دراسة ظاهرة بريق الضوء في الفضاء البيكوكبي داخل المنظومة الشمسية وتصوير البريق الذي يصدر عنه .

* دراسة سلوك الاشعة السينية (اكس) في الحدود بين ١ ، ١٠٠ انجشتروم .

* دراسة انصهار المعادن وسبائكها في الفضاء تحت التأثير بانعدام الوزن بصنع سبيكة من معادن الحديد والجرافيت والذهب .

* دراسة تأثير المواد المستخدمة في الصناعات الالكترونية بحالة انعدام الوزن ، كمادة الجرمانيوم المستخدمة في أشباه الموصلات .

* تصوير مصادر تلوث البيئة في بعض الاماكن الامريكية والسوفيتية .

* تصوير جبال الهيمالايا في الهند ، لدراسة مسارات تسرب المياه منها اذا ما تعرض الجليد الذي فوقها للذوبان ، ولاكتشاف ما تحت الجليد من معادن .

* اجراء تجارب طبية في الفضاء لدراسة امكانيات فصل البروتينات والفيروسات والخلايا الحية من دم الانسان ودم الارانب لاعداد اللقاح .

* اجراء تجارب طبية لدراسة قابلية العدوى بالبكتريا أثناء الوجود في الفضاء ، ومدى تأثر كرات الدم البيضاء بها ، وتأثير حالة انعدام الوزن عليها ، وذلك بتحليل عينات من دم الرواد قبل وبعد الرحلة .

* دراسة طريقة مستحدثة لاقتراب سفينة فضاء من سفينة اخرى باستخدام جهاز لاسلكي يعمل على الترددات العالية جدا لقياس تغير المسافة بينهما .

* اجراء قياسات عن الجاذبية الارضية، وعمل مسح جيولوجي لبعض المناطق على الارض ، واستشعار اماكن احتمال حدوث الزلازل ، واماكن تجمع الرواسب المعدنية تحت القشرة الارضية .

* التعاون مع احدى الجامعات الالمانية في اجراء تجارب على بعض المواد العضوية كالبيض وجذور نبات الفول والاحياء البحرية كالجمبري لمعرفة مدى تأثرها بالاشعة الكونية .

● ● ●

فايكنج تغزو المريخ

فايكنج ــ ١ ــ

في ٢٠ اغسطس ١٩٧٥ اطلقت السفينة الامريكية الفضائية « فايكنج ــ ١ » نحو كوكب المريخ لكي تهبط على سطحه برفق . وكان مقررا لها أن تحقق عملية الهبوط يوم ٤ يوليو ١٩٧٦ في ذكرى مرور ٢٠٠ عام على قيام الولايات المتحدة الامريكية . غير ان الرحلة التي كان مقررا لها ان تكون ٣٠٣ يوما ، امتدت حتى ٣٢٠ يوما ، بعد أن ساور علماء الفضاء خوف من تحطم السفينة عندما تبين لهم أن المنطقة التي كان مقرار هبوطها عليها مليئة بالمرتفعات والمنخفضات ، وبها كثير من الصخور . وأخيرا هبطت السفينة فوق منطقة سهل « كرايز » (Chryse) على سطح الكوكب الذي يطلق عليه الفلكيون اسم « الكوكب الاحمر » . واخذت محطة المتابعة الرئيسية في « باسادينا » بولاية كاليفورنيا تتابع استقبال اشارات السفينة واستقبال الصور المرسلة منها والتحكم فيها يساعدها في ذلك محطتان فرعيتان للمتابعة اولاها في مدريد باسبانيا ، والثانية في كانبرا باستراليا .

وبهذا النجاح ، يعتبر هذا الانجاز الفضائي، فاتحة لبعد جديد في مجال البحث عن المعرفة

في الفضاء (البيكوكبي) الممتد بين الكواكب . بعد ان انتقلت أبحاث العلماء من الفضاء الدانى القريبمن الارض ، والمحيطبالقمر ، وأصبحت حلبة البحث اكثر اتساعا ، وذات ذراع يمتد ملايين الكيلومترات حول الارض . ذلـك ان متوسطبعد القمر عنالارض يقل عن ٤٠٠ الف كيلومتر ، بينما متوسط بعد هذا الكوكب عن الارض ٧٨ مليون كيلومتر .

ولكن لان كلا من الارض وايا من الكواكـب تدور حول الشمس فى مدار بيضاوى فان البعد بين الارض والمريخ وقت هبوط فايكنج بلغ٣٨٠ مليون كيلومتر .

السفينة تحمل العلم الامريكي

حملت السفينة « فايكنج ــ ١ » علىمتنها ثلاثة رموز . الرمز الاول كان العلم الامريكى ، والثانى كان رمزا لمرور مائتى سنة على اقامة الولايات المتحدة الامريكية ، اما الرمز الثالث فكان شعارا لمشروع فايكنج ، الذى بدا عـام ١٩٦٨ والذى تجاوزت نفقاته الف مليون دولار حتى الآن .

وجدير بالذكر ان وزن وحدة الاطلاق التي تمثلت فى صـــاروخ تتكــون من مــرحلتين طراز (تيتان ــ سنتور) بالاضافة الـى وزن السفينة ، بلغ ٦٤١ الف كيلو جرام بينما بلغ وزن السفينة وحدهــا ٢٩٠١ كيلوجرامـا . وتتكون السفينة من جزئين رئيسيين الاولهو للهبوط (Lander) ويحوىالاجهزة وهو الذى يوجه الى سطح الكوكب ، والثانى هــو جــزء للدوران (Orbiter) يظل يدور حول سطح الكوكب ومهمته تصوير سطح الكوكب والعمل كمرور للاشارات بين جزء الهبوط ، والارض . ويحوى جزء الهبوط اجهزة متقدمة استخدمفى تصميمها أحدث ما بلغته تكنولوجيا الفضاء من تقدم . وقد حققهبوط هذا الجزء على الكوكب برفق بفتح مظلات فى جو المريخ ، لتامين عدم الارتطام بسطحه ، وعدم تحطم الاجهزة التي يحويها ، واهم هذه الاجهزة : ــ

ــ ٢ كاميرا تصوير تليفزيونى .

ــ ١ ــ كاميرا تصوير بانورامى .

ــ محلل طيف بالاشعة تحت الحمراء .

ــ جهازا قياس للاشعة تحت الحمرا .

ــ اجهزة قياس للاشعة السينية .

ــ أجهة ارسال واستقبال اليكترونية .

ــاجهزة قياس لعناصر الضغط والحرارة والرطوبة .

ــ اجهزة تسجيل مغناطيسية .

ــ حواسب اليكترونية لتخزين المعلومات .

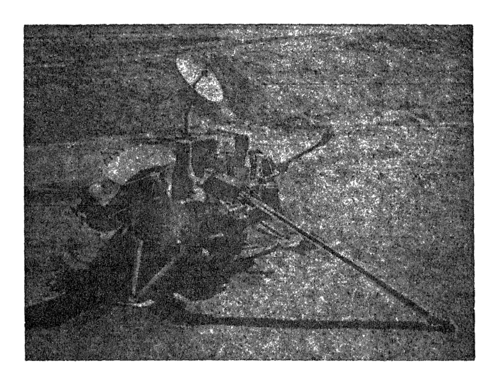
ــ اجهزة تسجيل للهزات والبراكين فـوق سطح الكوكب .

ــ ذراع ميكانيكيةطولها ٣ امتار تقريباتنتهى بمخلب عينات من تربةالكواكب،وايداعها داخل السفينة نفسها ، ويتم التحكم في هذه الذراع من محطة المتابعة الارضية شكل (١٧) .

ــ معمل تحليلكيماوى لتحليلالعينات وارسال نتائج التحليل الى الارض . ــ معمــل تحليل بيولوجى لتسجيل التفاعلات فى العينات التي تودعها الذراع فيه .

نتائج تسجيلات فايكنج

توصلت أجهزة السفينة « فايكنج ــ ١ »الى تسجيل قياسات جديدة وضعت العلماء أمام مفاهيم جديدة .من أهمها وجود غاز النتروجين فى جو الكوكب بنسبة ٣٪ (بينما تبلغ نسبته فى جو الارض ٧٨٪) كمـا ثبت وجـود غــاز



شكل (٢٧) السفينة فايكنج كان لها ذراع ينتهى بمخلب ليلتقط العينات المريخية ويودعها معمل تحليل فى باطن السفينة .

« الارجون » الخامل بنسبة بين ٢ ، ٣٪ ، وكذلك وجود غاز ثاني اكسيد الكربون بنسب متفاوته .

بينما قامت ذراع السفينة بتحكم من محطة المتابعة الارضية ، بأخذ عينات من التربةحولها وأودعتها معامل التحليل الكيماوى والبيولوجى داخل السفينة . ولقد تعرضت الذراع لعطل فى الاداء مرتين ، ولكن أمكن التغلب على المصاعب الفنية وعادت الى العمل في كل مرة. ومع عودتها ثبت أن العينات المريخية يتصاعد منها غاز الاوكسجين ، الأمر الذى يعطى دلالات على نوع الحياة المحتمل وجودها على المريخ .

دلالات الحياة على المريخ :

يقترن وجود الحياة فى صورها المختلفة سواء فى مملكة الحيوان أو النبات أو الانسان بوجود الماء ، وذلك مصداقا لقوله تعالى فى القرآن الكريم « وجعلنا من الماء كل شيء حي» .

ومع ثبوت وجود الماء على المريخ فى صورة جليد متجمد لا يذوب ، وكذلك وجود غازات ثانى أوكسيد الكربون والاوكسجين ، فضلا عن غاز الزينون ، والارجون ، لم يتوصل العلماء الى وجود أى نوع من النباتات ، أو الطفيليات ، ولم يستطيعوا التوصل الى وجود أية أحياء دقيقة مثل البكتريا أو الاميبا .

المريخ في انتظار الانسان :

لقد سجلت « فايكنج ــ ١ » امتداد ذراع الانسان الى المريخ ، عبر ملايين الكيلومترات بسلطان العلم . وفايكنج ــ ٢ قطعت نفس الطريق ، لتواصل مهام سابقتها فى رحلة امتدت احد عشر شهرا حتى دخلت جو الكوكب ، ولترسو عليه فى ٤ سبتمبر ١٩٧٦ .

والسؤال الذى يؤرق بال الكثيرين هو هل هذا كله مقدمة لوصول الانسان الى المريخ ، كما فعل فى القمر ؟ والحقيقة البادية انه لا يمنع من ذلك الا قدرات الانسان نفسه . فالجسم البشرى لا يستطيع البقاء فى الفضاء طوال هذه المدة ، معرضا لحالة انعدام الوزن وما يصاحبها من مؤثرات فسيولوجية وسيكولوجية ، ومتى يكون ذلك .

الطائرة الفضائية المكوك

أبحاث الفضاء لاتقوى عليها كل الدول :

المباراة في حلبة أبحاث الفضاء لاتقوى على خوضها كل الدول ، ولذلك لايتنافس فى هذه المباراة غير أمريكا وروسيا . بينما تقوم الدول الاخرى بعمليات مساعدة فرعية تشمل اطلاق الصواريخ ، وبعض انواع من الاقمار الصناعية .

غير أن مجال اطلاق سفن الفضاء ، اقتصر على الدولتين الكبيرتين وحدهما . وواضح أن السبب فى ذلك مرجعه أن التكاليف الفضائية تستلزم أموالا طائلة . وعلى سبيل المثال فان تكاليف رحلة « أبوللو ــ ١١ » التى هبط منها رائدان على سطح القمر عام ١٩٦٩ تكلفت مبلغ (٧٥٥) مليون دولار .

وتكاليف مشروع معمل الفضاء الامريكي « سكاى لاب » الذى لحقت به ثلاث رحلات عام ١٩٧٣ بلغت مايقرب من (٢ر٦) بليون دولار . كذلك فان مشروع السفينة الامريكية فايكنج التى هبط منها نوعان على سطح كوكب المريخ فى صيف عام ١٩٧٦ تكلف نفقات باهظة تقدر بالمليارات . وبسبب هذه التكاليف الباهظة التى تستلزمها أبحاث الفضاء توجد معارضة قوية لدى عديد من أعضاء الكونجرس الامريكى ، لاعتماد الميزانيات المطلوبة من وكالة الفضاء الامريكية « الناسا » . لذلك وجد علماء الفضاء الامريكيون فى ايجاد حلول للاقتصاد في نفقات رحلات الفضاء بطريقة جذرية . وانتهت هذه الجهود الى فكرة الطائرة الفضائية « المكوك » (Space Shuttle) التى يمكن ان يتكرر اطلاقها عدة مرات .

طائرة تدور حول الكرة الارضية :

ولقد اتت تسمية « المكوك » من امكان تكرار عملية اطلاق السفينة عددا يمكن أن يصل الى مائة مرة مثل مكوك النسيج . ولذلك يتوفر الثمن الاساسى لسفينة الفضاء التقليدية ، التى صممت لتكون على هيئة طائرة ذات جناحين وذيل ، ومقدمة يستقر فيها الرواد ، واطارات يمكن أن تنحدر عليها فوق الارض فى رحلة العودة . وبذلك انخفضت نفقات التجهيزات الخاصة بعملية هبوط السفينة . وزاد من خفض هذه النفقات أيضا ، أن تصميم الطائرة يسمح باستعادة بعض من أجزاء صاروخ الدفع الذى يحملها الى مدارها فى الفضاء . فاذا ما استوت السفينة على مدارها ، وبدات عملية الدوران حول الارض يقوم طاقمها بالتحكم فيها والقيام بالتجارب المعملية المطلوب آداؤها . وعندما تتم مهامها المطلوبة فى الفضاء يعمل طاقم الرواد على التحكم فيها والانحدار بها الى الارض ، كأنها طائرة شراعية .

صواريخ ضخمة تحوى وقودا جافا :

الدور الرئيسي للصواريخ بالنسبة لسفن الفضاء ، هى أنها وسيلة حمل ، تقوم بعمل المطية التى تحملها خارج نطاق الجاذبية الارضية ، اذ تعمل قوة نفث الغازات التي تنجم عن اختراق الوقود داخل الصواريخ ، على حمل جسم الصاروخ ، وما يكون عالقا به من اجسام اخرى الى طبقات الفضاء العليا ، مارا بارتفاع يستطيع ان يتحرر عنده من آثار الجاذبية . وبعدئذ يصبح مابقى من جسم الصاروخ ، وما يحمله متحركا فى الفضاء بسرعة تسمى السرعة المنتظمة . وحيث لاتوجد اعاقة أو مقاومة من ذرات الهواء لأنه لا وجود له . وكل جسم يتحرك بسرعة منتظمة يظل محتفظا بهذه السرعة حتى يطرأ عليه تدخل خارجى . ومن ثم تستطيع الصواريخ أن تجعل جسم السفينة « المكوك » التى تحملها ملتصقة بها يستقر على مدار معين في أعالى الفضاء . بعد أن ينفصل عنها على هذا المدار .

والصواريخ المستخدمة فى حمل السفينة المكوك ، هما صاروخان جافان يحتويان على مسحوق جاف من مادة مشتعلة ، لتوفر فى وزن المجموعة . ويلتصقان بصاروخ ثالث ضخم يحوى وقودا سائلا يتكون من الاوكسجين والايدروجين .

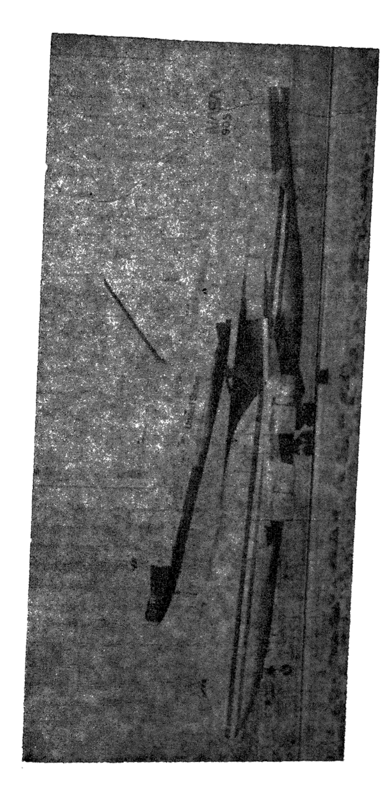
وتلتصق السفينة الفضائية المكوك متمددة بطولها بهذا الخزان الضخم . ولذلك تكون فى وضع رأسى عند الاطلاق رغم أن شكلها كطائرة فتكون مقدمة الطائرة الى أعلى وذيلها الى أسفل . وبعد الاطلاق يتوالى احتراق الوقود فى الصاروخين الجافين أولا ، وبعد نفاذ الوقود منهما ، يعود جسم الصاروخين الفارغين الى الارض ، بواسطة مظلات تؤكد سقوطهما فى مياه المحيط سالمين . ليمكن اعادة استخدامهما مرة أخرى . بينما تواصل « المكوك » اجتياز طبقات الفضاء بواسطة اندفاع صاروخ الوقود السائل ، حتى تصل الى المدار الذى ستدور عليه .

الاطلاق من فوق متن طائرة

وفي مرحلة التجارب ، تمكنت الولايات المتحدة الامريكية من تجربة اطلاق « المكوك » الى الفضاء من فوق متن الطائرة المدنية الضخمة « الجامبو » أو « البوينج — ٧٤٧ » التى تعمل فى هذه الحالة كمنصة اطلاق شكل (٢٨) كما تجرى دراسة استخدام الطائرة الامريكية العملاقة « سى — ٥ أ » المعروفة باسم « الجلاكسى » لنفس الفرض . اذ تستطيع كلا الطائرتين حمل السفينة المكوك فوق هيكلها الضخم .

حمولات مختلفة واطلاق متكرر

بعد أن تستوى السفينة المكوك على مدارها تدور حول الارض شأنها شأن أى سفينة فضاء



شكل (٢٨) الطائرة المدنية بوينج – ٧٤٧ تحمل الطائرة المكوك لتعمل كمنصة فضاء لإطلاقها اثناء الطيران .

وأن كان هيكلها هيكل طائرة . ولذلك فان لها قمرة قيادة يستقر فيها رواد الفضاء لقيادتها. ويكفى أن يحقق عملية القيادة رائدان، غير أن السفينة تضم أيضا قمرة أخرى رحبة السعة يمكن ان تضم عددا من الركاب يمكن أن يصل الى اثنى عشر راكبا ، ليس الزاما أن يكونوا على نفس مستوى اللياقة كرواد الفضاء . كما يمكن أن يكونوا من العلماء أو المتخصصين فى شئون القياسات الفضائية .

ويمكن ان يملأ هيكل السفينة بحمولات مختلفة حسب الفرض من الاطلاق ، اذ يمكن أن تحمل صاروخا يحمل قمرا صناعيا لينطلق من مدار السفينة ليصل به الى مدار اكثر ارتفاعا ، وبذلك تعتبر السفينة نفسها كمنصة اطلاق شكل (٢٩) . ويمكن أن تكون الحمولة مرصدا فلكيا لرصد اجرام السماء . وقد تضافرت جهود بعض من الدول الاوروبية فعلا لتصميم مرصد فلكى فضائى اطلق عليه اسم (Space Lab) ليقوم لفيف من علمائهم بالرصد الفلكى بواسطته من فوق متن المكوك ، ولا شك أن مزايا الرصد من مثل هذا المرصد لا حد لها ، وأهمها عدم وجود السحب أو الضباب أو العوامل الجوية التى تحجب اجرام السماء أو تحدد رؤيتها بعض الوقت ، شكل (٣٠) .

ولقد انطلق خيال العلماء من أساره ، وراحت العقول تتفنن فى استحداث اغراض شتى لاستخدام المكوك . منها أن تعمل كسفينة انقاذ للاقمار الصناعية أو سفن الفضاء التى يصيبها العطب . ويمكنها ان تقل ضمن ركابها اطقما من الفنيين الذين يستطيعون القيام بعمليات الاصلاح كبوليس نجدة فضائى ، شكل (٣١) .

كما سرح خيال البعض الى امكان تنشيط السياحة الفضائية ، اذ ستزول رهبة الانطلاق فى سفن الفضاء ، عند ركوب متن الطائرة المكوك . وبدأت بعض شركات السياحة تروج لهذه الافكار .

واذا انحدرت الطائرة المكوك وعادت الى الارض ، فانها تعدو من الفضاء الى الغلاف الجوى بواسطة صواريخ دفع عكسية لتنحدر شراعيا فى طبقات الغلاف الجوى شأنها شأن أية طائرة ، حتى تلامس اطاراتها سطح القمر في أى مطار عادى .

وجدير بالذكر أن عملية الاطلاق يمكن أن تتكرر بعد ١٤ يوما يقضيها الفنيون فى اعادة الفحص والتفتيش على أجزاء السفينة .

ويمكن أن تتكرر عملية الاطلاق ما يقرب من ١٠٠ مرة ، وفى كل مرة يمكن أن تظل السفينة محلقة فى الفضاء ما يقرب من شهر كامل .

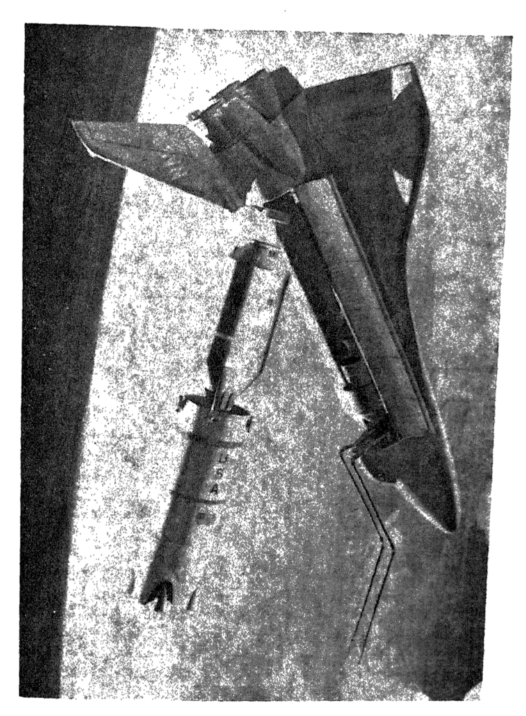
مستقبل أبحاث الفضاء حتى سنة ٢٠٠٠

أبحاث الفضاء بين السرية والعلانية

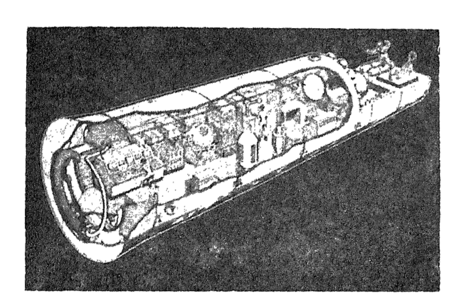
عندما نتحدث عن مستقبل أبحاث الفضاء، فلابد أن نفصح عن حقيقة ثابتة هى أن الحديث ليس شطحات للخيال ورواية لأمانى وامنيات، بل هو عرض لبرامج وضعها العلماء لجدولة خططهم ، مع تصور لما سيكون لهذه الخطط من نتائج .

وعند ذكر هذه الخطط فلابد من القول بأنها كلها خطط غربية أو أمريكية بالدرجة الاولى . لا لأن الولايات المتحدة الامريكية تلعب مباراة من طرف واحد ، أو لأن الحلبة قاصرة عليها وحدها ، ولكن لأن الطرف المنافس وهو الاتحاد السوفييتي يتلفع دائما بالصمت الرهيب عن خططه ، آخذا بأساليب الكتمان او الحفاظ على الاسرار .

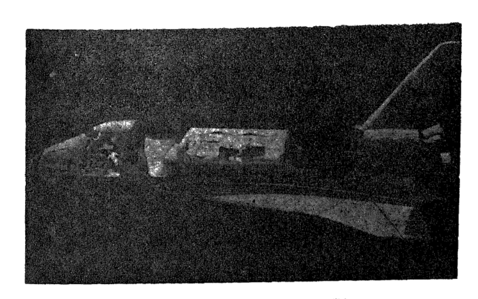
فبينما نجد الخطط الامريكية معلنة حتى عام ٢٠٠٠ ، نجد أن الخطوة التالية فى الفضاء بالنسبة للسوفييت غير معلومة حتى لكثير



شكل (٢٩) فراغ الطائرة المكوك يسمح بحمل صاروخ فوق متنها .



شكل (٣٠) المرصد الفضائى الاوروبى تعاونت دول أوروبا على تصنيعه لوضعه فوق متن الطائرة المكوك .



شكل (٣١) يمكن آن تعمل السفينة المكوك كبوليس
نجدة فى الفضاء آو منصة لانطلاق الاقمار الصـــناعية من
مدارات عالية .

من المسئولين السوفييت أنفسهم . ومن ثم سيقتصر الحديث عن مستقبل أبحاث الفضاء الامريكية وحدها .

المكوك يفتح آفاقا جديدة

وحسب الترتيب الزمنى للتطورات فان أولى انجازات الفضاء هى تأكيد اطلاق السفينة الامريكية « المكوك » عام ١٩٧٨ .

فبعد ما نجحت عملية طيرانها الى أجواز الفضاء من فوق متن الطائرة المدنية الجامبو فى يوليو ١٩٧٧ كما ألمحنا من قبل ، أصبح من المنتظر اطلاقها مرة أخرى بواسطة صواريخ دفع يستعاد بعض أجزائها. والخطة الامريكية الموضوعة هو تحقيق ذلك عام ١٩٧٨ وقد تحقق ، بحيث تصبح السفينة المكوك صالحة لتكرار الاطلاق مائة مرة .

ولاشك أن نجاح انطلاق السفينة المكوك سيكون فاتحة لتطورات كثيرة باعتبارها أول سفينة فضاء ذات حمولة مربحة (Pay Load) فبدلا من حمل « مرصد الفضاء الاوروبى » (Space Lab) لرصد النجوم والكواكب يمكن حمل عدد من الركاب بين (٨ ، ١٢) راكبا من علماء الرصد والقياس والتسجيل. كما يمكن أن يكونوا من « سائحى الفضاء » الذين تسمح لهم لياقتهم البدنية والعصبية بالسفر فيه . وبذلك سيجد العالم نفسه امام معنى جديد « للسياحة » لم يعرف من قبل . وهذا ما بدأ فعلا في كثير من المدن الامريكية ، اذ بدأ حجز تذاكر السفر على « المكوك » .

وكما سيوجد بعد جديد للسياحة كذلك سيوجد بعد جديد لمعنى **((الانقاذ أو النجدة))** فى الفضاء . لان السفينة المكوك يمكن ان تعمل كسفينة لانقاذ أطقم السفر الأخرى التى قد تتعرض لاية متاعب فنية ، كما يمكن ان تحمل لفيفا من الفنيين لاصلاح أعطاب الاقمار الصناعية أو سفن الفضاء . ولذلك تصور بعض العلماء أن المكوك يمكن أن تجهز بمخالب وملاقط تستطيع الامساك بالاقمار المعطلة واستعادتها الى الارض .

ولاشك أن ذلك يعنى سهولة ان تعمل المكوك مستقبلا كمنصة فضائية عالية لاطلاق الاقمار الصناعية بدلا من اطلاقها من الارض .

ويتوقع العلماء الامريكيون أن تشهد أوائل الثمانينات تقدما فى استخدام الطاقة النووية فى مجال بحوث الفضاء بحيث يصبح لديهم « مكوك فضائى نووى » وهو ما يعرف باسم (Nuclear Shuttle) يسهل به غزو كوكب المريخ .

ولاشك أن استخدام المرصد الفضائى الاوروبى على المدارات العالية التى ستطير عليها السفينة المكوك ، وتشغيله بواسطة فلكيين متخصصين بعيدا عن المعوقات الارضية التى تتمثل فى السحب التى تحجب الرؤية أحيانا والاضواء التى تشوه هذه الرؤية ، وضوء الشمس الباهر الذى يغطى وجه الارض نصف اليوم ، والغلاف الجوى المحيط بالارض الذى يحدث انكسارات فى أشعة الضوء كل ذلك سيتحرر منه الفلكيون وسيفتح لهم بابا جديدا بالنسبة للمعلومات الفلكية ،بحيث يمكن القول ان ثراءا فلكيا سيتجمع لدى علماء الرصد الفلكى عن المجرات الخارجية ، والظواهر الفلكية المحيرة مثل المذنبات والشهب سيستطيع العلماء الغوص الى اماد أبعد في أعماق الكون المجهول من خلال نوافذ الرصد الضوئى والصوتى والاشعاعى .

ولا شك أنه سيكون امام علماء الحقبة المقبلة واجب محاولة الكشف عن مصادر محددة للاشعة الكونية (Cosmic Rays) واستجلاء كنهها ، ومعرفة اسرارها . وكذلك محاولة البحث عن مضمون لشفرة الموجات الكهرومغناطيسية التى تصل الارض بالمجرات الخارجية .

كشف أسرار الحياة على الكواكب

لم تستطع سفينتا « فايكنج ١ ، ٢ » ان تعطى اجابة شافية عن كنه الحياة على كوكب المريخ ، ولذلك منى العلماء الامريكيون بخيبة امل لم يكونوا يتوقعونها ، غير ان الآمال معقودة على استكشاف كنه الحياة على كواكب اخرى غير المريخ ، ومن هنا توجد مشاريع امريكية للسنوات القادمة تتركز فى اطلاق سلسلة سفن فضاء من طراز « فواياجير (Voyager) الى كوكب « المريخ » فى أواخر عام ١٩٧٧ ، ثم الى كوكب الزهرة (Venus) خلال عام ١٩٧٨ ثم الى كوكب المشترى (Jupiter) عام ١٩٧٩ ثم كوكب « زحل » (Saturn) عام ١٩٨١ ثم كوكب « اورانوس » (Uranus) عام ١٩٨٥ .

ومن المحتمل انه خلال عام (١٩٨٤) ستطلق سفينة فضاء الى مذنب (هالى) (Hally) الذى سيقترب من الارض آنذاك ومعروف انه يكرر دوراته كل ٧٤ عاما .

ويخطط العلماء انه خلال عام ١٩٩٠ ستطلق سفينة فضاء من طراز جديد لتحط فوق المريخ برفق ويمكنها أن تقتبس بعضا من عيناته وتعود بها الى الارض وتكون عودتها عام ١٩٩٣ . وبذلك سيكون قد تجمع لدى العلماء ما يمكنهم من اعطاء تفسير لأصل الحياة فى المنظومة الشمسية .

مطارات ومستعمرات قمرية

ورغم أن برنامج أبوللو الذى كان يستهدف القمر انتهى عام ١٩٧٢ ، الا أن القمر باعتباره أقرب الاجرام السماوية الينا ، مازال هدفا لبعض مشاريع الفضاء المقبلة . فالمخطط الامريكى يطمح فى ارسال مزيد من المركبات القمرية لتحط على سطح القمر فى الثمانينات بحيث تتدرج سعة كل منها من (٦) اشخاص الى (٢٤) ثم الى (٥٠) شخصا كمقدمة لفكرة المستعمرات القمرية .

وامام هذه الأفكار الطموحة نجد أن العلماء غارقين في وضع حلول لتذليل عقبات عدم وجود الاوكسجين على القمر ، وانعدام الجو حوله وانخفاض قوى الجاذبية على سطحه حتى تكون الحياة ممكنة وميسرة داخل مستعمرات قمرية مكيفة ، والمواد المناسبة لاقامتها : شكل (٣٢) .

ولاشك أن المعنى العسكرى للمستعمرات لا يغيب عن الاذهان ، لأن القمر نفسه يمكن ان يكون محلا للاطماع العسكرية فى مجال التصارع النووى بين الكتلتين الغربية والشرقية باعتبار امكان استغلال القمر كقاعدة عسكرية لتوجيه القنابل المدارية النووية (Nuclear Orbitat Bombs) ، نظرا لسهولة توجيه هذه القنابل من الارتفاعات العالية أو من القواعد القمرية الى أية اهداف على الارض .

المحطات الفضائية

وامام تقدم فكرة المحطات المدارية كاستراحات فضائية لتحقيق السفر الى الكواكب على قفزات ، يوجد لدى علماء الفضاء أفكار يصبون الى تحقيقها فى أواخر التسعينات ، تستهدف اقامة محطات مدارية فضائية تتكون من عدة اجزاء بحيث يجرى تجميعها فى الفضاء بواسطة رواد يسبحون فى الفضاء ، أو بواسطة وحدات اليكترونية تحقق هذا الترابط بالالتحام الذى يتوقف على دقة توجيه الاجزاء بعضها الى بعض شكل (٣٣) . ويستهدف المشروع الامريكى الى تجميع محطة « جيو ــ توافقية » وهى ما تعرف باسم Geo Synchronous Station بدون رواد ، تمهيدا لبناء محطة فضائية كبيرة تسع (١٠٠) شخص .



شكل (٣٢) شطح خيال الفنانين الى تصورالمستعمرات القمرية .



شكل (٣٢) ستكون اولى الانجازات تجميع محطات الفضاء ذات الاجزاء المتعددة .

وبذلك يصبح للبحوث الفضائية منطلق جديد يسهل سفر الانسان الى الكواكب وخاصة كوكب المريخ بواسطة سفن فضاء تسع (١٢) شخصا ، تمهيدا لارساء محطة فضاء دائمة على المريخ تسع (٤٨) شخصا .

وقد يكون لازما القول بأن الأمل معقود فى هذا المضمار على تطويع الطاقة النووية للاستخدام في صواريخ دفع سفن الفضاء لتقليل مدد السفر الى الكواكب ، لان الجسم البشرى مازال يمثل عنق الزجاجة فى تقدم هذه البحوث . اذ لايقوى الكيان البشرى على السفر شهورا طويلة لو اعتمدنا على الدفع بالاحتراق الداخلى المستخدم حاليا . ومن ثم يمكن أن يتكرر اطلاق سفن جديدة الى كوكبى المشترى (Jupiter) وزحل (Saturn) اللذين لم يرسل الى اى منهما الى الآن غير سفينة فضاء واحدة من طراز « بيونير » (Pionear) ولا شك ان ذلك يمكن أن يتطور فى أواخر القرن العشرين الى ارسال سفن تحط فوق سطح كل منهما برفق كما حدث على المريخ ، ثم يأتى بعد ذلك دور ارسال سفن فضاء الى الكواكب الثلاثة الاكثر بعدا عن الشمس وهى « نبتون » (Nebton) « اورانوس » (Uranus) « بلوتو » (Pluto)

• • •

مشروع القمر الصناعى العربى

فى ختام البحث نجد انه من الضرورى الالماح الى ان انجازا فضائيا على وشك التحقيق فى الاعوام المقبلة ، سيعم نفعه المنطقة العربية وهو مشروع القمر الصناعى العربى ، الذى بدا يجد سبيله الى دنيا التنفيذ . فقد اجتمعت جهود وزراء المواصلات العرب من خلال جامعة الدول العربية ؛ واتحاد الاذاعات العربية لتوفير الاعتمادات المالية اللازمة للمشروع لكى يغطى القمر باذاعاته الصوتية والمرئية والهاتفية رقعة الشرق العربى والاجزاء المتاخمة لها من البلاد الافريقية والاسيوية . وبهذا القمر سيمكن ربط شبكات التليفزيون المحلية لكل بلد عربى ببعضها البعض ، كما سيمكن ربطها بشبكات تليفزيون الدول المجاورة ، فضلا عن تيسير غمر العالم العربى باذاعات صوتية او مرئية موحدة ، وتحسين خدمة الاتصالات التليفونية بين دول العالم العربى عبر هذا القمر بدلا من ملايين الكيلومترات من الكوابل الارضية والبحرية .

وهناك عروض من شركات امريكية ويابانية لانجاز هذا المشروع بواسطة « منظمة الفضاء العربية » التى مقرها الرياض ، بتمويل عربى مشترك بين دول الجامعة العربية . ولو شئنا أن نحصى مزايا هذا المشروع من وجهات النظر المختلفة فسنجدها تجل عن الحصر . ولكن يمكن الالماح الى اهمها وهى :

* سيكون مشروع القمر الصناعى العربى لبنة فعالة فى بناء صرح القومية العربية ، اعتمادا على وحدة اللغة في المنطقة ووحدة الامانى والمشاعر والروابط العقائدية والسياسية .

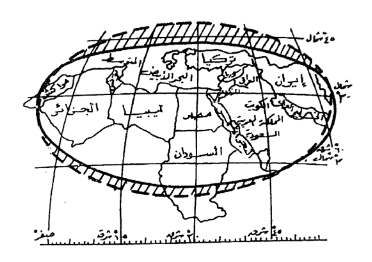
* سيعمل القمر على توحيد العالم العربى بتقوية الاحساس بانعدام الفواصل الجغرافية من خلال توحيد الكلمة المسموعة والصورة المرئية لدى شعوب المنطقة .

* دعم الخدمات الاذاعية والتليفزيونية فى مجالات الثقافة والاعلام والترفيه والتعليم

بتبادل الخبرات بين المتخصصين فى هــذه المجالات فى مختلف الدول العربية ، شــكل (٣٤) .

※ تطوير وسائل التعليم بالانفتاح الايجابى على أساليب التعليم الحديث ، ودفع عجــلة محو الامية بين الشعوب العربية الى الامام من خلال اذاعات القمر العربى .

※ اتخاذ بعد جديد فى دعم الاواصر مــع الشعوب المحيطة بالعالم العربى ، وخاصــة الشعوب الافريقية القريبة وايران وتركيــا وشعوب جنوب اوروبا ، حيث يمكن اجتذاب شركاء منهم فى بعض قنوات القمر الصناعى العربى .



شكل (٣٤) نطاق تغطية القمر الصناعى العربى .

المراجع العربية

١ ـ غـزو الفضــاء — تاليف : عبد المنعم ابو السعود

٢ ـ الانســان والقمــر — تاليف : دكتور محمد يوسف حسن

٣ ـ السـفر الى الكـواكب — ترجمة : الاستاذ اسماعيل حقى

٤ ـ الفضاء الكـونى — تاليف : دكتور محمد جمال الفندى

٥ ـ اتصــالات الفضــــاء — ترجمة : زكريا البــرادعى

٦ ـ عــالم الافــلاك — ترجمة : دكتور امام ابراهيم احمد

٧ ـ فى أعمــاق الفضــــاء — تاليف : دكتور عبد الحميد سماحة

٨ ـ معالم على الطريق الى الفضاء — تاليف : الاستاذ حسن وهيب المصرى

٩ ـ الكـون العجيب — تاليف : قدرى حـافظ طوقان

١٠ ـ مع الله فى الســماء — تاليف : دكتور احمد زكى

١١ ـ علم الفلك وصور الســماء — تاليف : الاستاذ يعقوب صروف

١٢ ـ العـوالم الاخـرى — تاليف : دكتور محمد جمــال الفندى

١٣ ـ المـــــريخ — تاليف : الدكتورين محمد الفندى ومحمود خيرى

١٤ ـ تاريخ الفلك عند العرب — تاليف : الدكتور محمد امام ابراهيم

١٥ ـ فى أعمــاق الفضــــاء — تاليف : الدكتور عبد الحميد سماحة

١٦ ـ أساطين العلم الحديث — تاليف : الاستاذ فؤاد صروف

١٧ ـ صواريخ العصر — تاليف : عقيد مهندس ا . ح . سعد شعبان

١٨ ـ أعمـــاق الكـــون — تاليف : عقيد مهندس ا . ح . سعد شعبان

١٩ ـ الصواريخ فى الحرب الحـديثة — تاليف : عميد مهندس ا . ح . سعد شعبان

٢٠ ـ طـرائف علميــة — تاليف : عميد مهندس ا . ح . سعد شعبان

٢١ ـ الطـريق الى القمـر — تاليف : عميد مهندس ا . ح . سعد شعبان

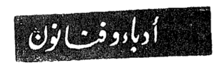
٢٢ ـ الاقمــار الصنــاعية وســفن الفضاء — تاليف : عميد مهندس ا . ح . سعد شعبان

٢٣ ـ سكاى لاب والطريق الى الكـواكب — تاليف : عميد مهندس ا . ح . سعد شعبان

٢٤ ـ الـلاحة الكـــونية — تاليف : لواء مهندس سعد شعبان

المراجع غير العربية

1. America on the Moon, by Holmes
2. Reverse Side of Moon, by USSR Academy
3. Spacecraft, by Willy Ley
4. Outer Space, by Bloomfield
5. Introduction to Space, by Lee
6. Space New Frontier, by NASA
7. Principle of Guided Missiles, by Merile
8. Rocket to the Moon, by Hull
9. Astronomy for Entertainment (Russian)
10. Space Physics, Radio Astronomy, by Messel, Butler
11. Radio Astronomy, by Lovell, Clegg
12. The Solar System, by Clifford
13. Guide to the Stars, by Patrick Moore
14. Space World, by Perelman
15. Aviation Weak and Space Technology, Magazine Series
16. Interavia, Magazine Series
17. Space, Magazine Series
18. Flight, Magazine Series.



الأدب والسياسة *

مناقشة جديدة لقضية عزرا باوند

بقلم : روبرت أ. كوريجان

Robert A. Corrigan

ترجمة : صدقي حطاب

صادف ٢٣ مارس (آذار) ١٩٧٨ الذكرى السبعين لحدث من ابرز حوادث التاريخ الادبى وان كان أقلها حظا من الاحتفاء ، هذا الحدث هو غزو عزرا باوند لاوروبا (١) . أن ذلك الشاب الجرىء الذى كان يتسم بالخيال وسرعة الاستثارة والموهبة الفياضة والذى وقف فى عام ١٩٠٨ يقصف ابواب لندن الادبية مات فى ايطاليا فى نوفمبر (تشرين الثانى) عام ١٩٧٢ بعد ان اصبح هادئا ومنعزلا وشيخا كبيرا يعيش بقية حياته في صمت عام فرضه على نفسه. واذا كان بالذكر أن باوند قد فارق العالم الادبى كما دخله ـ

---

* لعلنا لو اردنا ان نضع عنوانا آخر لهذا المقال لقلنا ((باوند والمانيا اليهودية)) ، فباوند ـ كما يكشف المقال ـ كان ضحية للمافيا اليهودية ، تماما كما كان فورستال وزيرالدفاع الامريكى (١٩٤٧ ـ ١٩٤٩) ـ من ضحاياها ، (المترجم)

(١) ارجع الى كتاب Etruscan Gate المنشور فى اكسترفى مطبعة Rougemont عام ١٩٧١ لدوروثى باوند صفحة ٢ وفى هذا الكتاب مايشير الى أن باوند أخذ دوروثى وأمها فى ٢٣ مارس (آذار) ١٩٠٩ الى تناول الشاى بعد حضور حفلة موسيقية وذلك احتفاء بالذكرى السنوية لنزوله فى اوروبا .

وسط دوامة من الجدل المرير والنقاش الحاد الذى أسرع فى تفجيره قرار أكاديمية ذات مكانة رفيعة هى (الاكاديمية الامريكيةللفنون والعلوم) بحرمان باوند من ميدالية يطمع فيها الناس هى ميدالية امرسون وثورو Emerson - Thoreau (٢).

وليس هناك من يستطيع أن يجزم بأن باوند كان راغبا فى هذه الجائزة . فكثيرا ماكان لمثل هذا التكريم فى الماضى شأن كبير ، ولكن غالبا ما كان الملحفون فى طلبه لباوند أفراد تلك المجموعة من أصدقائه الراعين له وأقاربه الذين كانوا يلتفون حوله فى موئله الايطالى (٣) وسنقتصر هنا على تسجيل علاقة باوندبهؤلاء الرفاق وتأثير حياتهالفنية المضطربة علىأسرته وأصدقائه ، ثم تأثير جهودهم عليه ، هذه الجهود التى اتسمت بالنية الطيبة وان كانت قد ضلت السبيل . فالحاجة قليلة الىطريق وعر آخر يعبر تلك الأجمة من المصطلحات التى تم مسحها مرات كثيرة ، هذه الأجمةالتى أطلق عليها باوند أناشيده Cantos

ان من يتذكرون باوند الشاب يتذكرون فتى نحيلا أشقر الشعر طوله ستة أقدام ، كان على جانب كبير من الوسامة وجمال المحيا مما جعله محظيا لدى ثلاثة أجيال من المعجبات كما أعانه جيدا في الرياضة حجمه الجسدى ، فقد مشى مسافات طويلة على قدميه فى المانيا بصحبة فورد مادوكس فورد، وتبارى فى الملاكمة مع ارنست همنجوى فى باريس ، وتبارز بالسيففى لندن معمتمرسين فى هذا اللون من المبارزات (وتحدى ناقدا هاويا فيمبارزة) ولعب التنس فىنصف انجلترا وجنوب أوروبا ، وكان يظهر فى كل مكانيرحل اليه اتقانه لأشهر الالعاب الرياضية التىتلعب فى القاعات . ومن المؤكد أنه لم يكن ذلك العبقرى الخجول الضعيف الرخو السمحالذى كثيرا ما يصوره لنا خصوم الشعر الحديث الافظاظ .

ويذكر باوند كرجل كبير فى أمور أخرى ايضا ، فهناك الكثيرون ممن هم مدينون كثيرا لكرمه : فالشاعر الشيخ وليمبطلريتس Yeats الذى جدد باوند روحه الشعرية نال جائزة نوبل وجيمس جويس Joyce اليائس كان من الممكن ان يموت فى كوخ فى مدينة تريستا أعمى مغمورا لم يقراه احد لولا فضل باوند عليه ، وروبرت فروست Frost الطموح كان في منتصف العمر ولم ينشر شيئا واذا هو بعد لقاء عرضي وربما كان مرتبا مع باوند يتألق فى سماء الأدب ، وأكثر من هؤلاء كلهم ت . سى اليوت Eliot الخجول الذى سدد ـ ويقول البعض انه كان يسدد دائما ـ ما عليه من ديون اولى لباوند ديون مؤازرة ونقد وصداقة مدة أربعين عاما (لعل باوند كان يزدرى الربا ولكننا لا نجد شاعرا دفع مثل تلك الفوائد الباهظة على دينه مثل اليوت ، ربما لأنه لم يكن هناك شاعر مدين لغيره مثلما كان اليوت مدينا لباوند) ان قائمة المستفيدين من باوند طويلة

---

(٢) انظر مقال « عزرا باوند محور جدل جديد » بقلمRobert Reinholdفى صحيفة نيويورك تايمز عدد ٥ يوليو (تموز) ١٩٧٢ الصفحتين ١ و ٢٩ وفى عدد ١٧ يوليو (تموز) ١٩٧٢صفحة ١٠ مقالا بعنوان « جائزة باوند » ومقالا بقلم : L. V. D. بعنوان « الاعتراض على منح الاكاديمية جائزة لعزرا باونديثير جدلا مرا بين العلماء » المنشور فى مجلة Chronicle of Higher Education عدد ١٢اكتوبر (تشرين اول) ١٩٧٢ صفحة٣ ومقالا بقلم Irving Howe عنوانه « عودة قضية عزرا باوند » المنشور فىمجلة World عدد ٢٤ اكتوبر (تشرين اول) ١٩٧٢ من صفحة ٢٠ الى صفحة ٢٤ .

(٣) وعلى سبيل المثال مضى احد النقاد المتاخرين ـ وقدكتب كتبا عن باوند ـ الى أبعد من الاعلان عن تفكيره فى تنظيم حملة من أجل حصول باوندعلى جائزة نوبل ، فذكر لاصدقائهان بالامكان اقناع قداسة البابا لدراسة منح لقب قديس لعزرا باوند .

انها حاشية مثيرة للاعجاب من كتاب ورسامين وعازفى ومؤلفى موسيقى ومعماريين وحتى من صانعى الافلام الطليعين . ولا شك أن هذا السجل المنقطع النظير من الرعاية معروف جيدا ، لأن مدينيه سرعان ما يعترفون بدينهم من ناحية ، ولأن باوند كان سرعان ما ينشر اعلان هذا الدين .

وهناك جانب فى شخصية باوند اقل شهرة من شهامته ، الا وهو ميله الى التوافه مما كان يثير سخط حتى أقرب الاصدقاء اليه . هناك مثلا مسألة الفيلسوف العجوز جورج سانتيانا Santayana الذى حجز طوال الحرب (العالمية الثانية) فى روما ، لقد تحدى سانتايانا الشيوعيين والفاشيين ، الايطاليين والالمان ، الامريكيين ورهط البيروقراطيين الدوليين ليزور باوند فى مركز الاعتقال فى مدينة بيزا فى الوقت الذى كانت حتى أسرة باوند لا تعرف انه على قيد الحياة . ومن المفروض فى باوند أن يكون ممتنا لهذه الاشارة الشجاعة من الاهتمام ، ولكن اعتراف باوند بهذه الزيارة جاء بعد ذلك بعدة سنوات فى حديث مع صديق له من واشنطون حيث اسر لصديقه هذا بشىء من الخشونة انه كثيرا ما صادف اثناء تجواله فى شمال اسبانيا اسم سانتيانا — وهو اسم يحمله دائما يهودى (٤) . ورسائل باوندالتى لم تنشر تكشف عن درجة مذهلة من الاحتقار الذى كان يكنه لارشيبالدماكليش Archibald MacLeish هذا الشاعر الذى كان لحملته المخلصة التى دامت خمس عشرة سنة الفضل فى انقاذ حياة باوند واطلاق سراحه من مستشفى سانت اليزابيث (٥) . اما بالنسبة لروبرت فروست ، رجل ماكليش المتردد ، والذى نسب اليه خطأ تدبير اطلاق سراح باوند عن طريق صديق قوى له من نيوهامشاير ومساعد الرئيس شيرمان آدمز ، فان التقدير الوحيد الذى لقيه من باوند على ما بذل من جهد كان عبارة مقتضبة قالها للمراسلين الصحفيين « لم يكن فى عجلة من أمره. »(٦)

ان أية محاولة لدراسة تاريخ معارك باوند التى لا نهاية لها هى محاولة معقدة لأن الاساطير التى قامت حول هذه المعارك لا نهاية لها أيضا . اننا لا نجد كاتبا امريكيا كبيرا ، ربما باستثناء نائنيال وست West عالج ببراعة مثله حقائق حياته الاساسية أو جعل غيره يعالجها له . وعلى سبيل المثال فانه بالرغم من انه ولد فى الحقيقة فى مدينة هيلى فى ولاية ايداهو Idaho ، الا انه لم يكن قد تجاوز ثمانية عشر شهرا من العمر عندما غادرت اسرته تلك المدينة الحدودية الباردة فى قطار وسط عاصفة ثلجية هوجاء ، وكان عزرا الصغير يسقى الكيروسين ليحصن ضد التهاب الحلق . ولكننا مع هذا لدينا كل تلك

---

(٤) من مذكرات غير منشورة موجودة فى قسم المخطوطات فى مكتبة الكونجرس .

(٥) ارجع على سبيل المثال الى رسالة دوروثى باوند الموجهة الى رونالد دنكن المؤرخة فى ٥ اكتوبر (تشرين اول) ١٩٤٧ وفيها تقتبس قول زوجها التالى : « ان مستوى ماكليش من الثقافة ليس من السمو بحيث يخدع الدنيا » .

(٦) انظر مقابلة فى جريدة Washington Daily News عدد ٣٠ ابريل (نيسان) ١٩٥٨ وقد اقتبسها Eustace Mullens فى كتاب The Difficult Individual Ezra pound المنشور فى نيويورك مطبعة Fleet عام ١٩٦١ صفحة ١٩٦ .

(٧) ارجع الى كتاب Milton and His Modern Critics « بقلم Logan Pearsall Smith من منشورات Boston : Litlle, Brown عام ١٩٤١ ، صفحة ١٠ ففيه يقول المؤلف انه تلقى هذه المعلومات من أول ناشر انجليزى لباوند وهو Elkin Mathews .

(٨) ارجع الى كتاب Bid Me to Live بقلم Hilda Doolittle من منشورات نيويورك Grove Press عام ١٩٦٠ صفحة ٤١ .

القصص الاولى البريطانية والاوربية عن فتى جامح جاء من الغرب (غرب الولايات المتحدة) الوحشى ، وظهر لاول مرة فى انجلترا وهو يلبس قبعة رعاة البقر الكبيرة ويهز بيده سوط راعى بقر ، او يحدث فرقعة به ليؤكد ملاحظاته . والحدود بالنسبة لدانتى (ولاية داكوتا) ـ كما وصفته الشاعرة هيلدا دولتل Doolittle ـ كانت فيلادلفيا شارع ٤٣ ، اما غربه الوحشى فكان الجوار الرزين لكلية وست فيلادلفيا حيث استقرت أسرته فى البداية وقبل ان تنتقل الى ضاحية أكثر غنى . اما مسار تعليمه فكان من اكاديمية شيلتنهام الخاصة الى جامعة بنسلفانيا الى كلية هاملتون ثم ثانية الى جامعة بنسلفانيا ليأخذ شهادة الماجستير ومساقات دراسية أخرى كافية للدكتوراه فى اللغات الحديثة المشتقة من اللغة اللاتينية (٩) ، ولكن هذا لم يكن سبيل هذا الشاب لا ولا تانك الرحلتين الى أوروبا ولا تعليم دام ستة اشهر فى احدى الكليات .

وسواء أكان السوط بيده ام لا فقد وصل هذا الفتى الفيلادلفى الى لندن في عام ١٩٠٨ وفى جيبه شلن وتحت ابطه رزمة من القصائد وبرز كشاب بوهيمى فاسق متهور شديد الخصام مستعد لأن يدفع للمجتمع الثمن مقابل استقلاله الذى يضن به . (١٠) كان قادراعلى أن يخلق الاساطير اللازمة لدعم شخصية من الضخامة بحيث تحتل المسرح الأدبى الادواردى(١١) **(نسبة الى الملك دوارد السابع الذى حكم انجلترا من ١٩٠١ الى ١٩١٠) . وقد وصفه ريتشارد الدنجتون** Aldington فقال : كان « بركانا صغيرا ولكنه مستمر فى اجواء مجتمع لندن الادبى المعتمة » . وسرعان ما نجح باوند فى ربط نفسه مع كبار المتمردين الذين كانوا يخططون حتى فى ذلك الحين لقلب المؤسسة (الادبية) اللندنية وما لبث ان جعل من نفسه قائدا لتلك الثورة (١٢) . وبالرغم من اظهار هذا

---

(٩) ارجع الى مقال Penn's poet Friends بقلم Emily Mitchell Wallace فى عدد فبراير (شباط) ١٩٧٣ من مجلة Pennsylvania Gazette صفحة ٣٥ . وقد اكتشفت الكاتبة ان باوند قد رسب فى احد مقررات الدراسات العليا وهو مقرر النقد الادبى ! Pennsylvania Gazette

(١٠) ارجع الى مقال بعنوان « والد عزرا باوند يتحدث عن ابنه الذى ذهب الى لندن وفى جيبه شلن واحد ووجد الشهرة» بقلم Mary Dixon Thayer المنشور فى مجلة Philadelphia Bulletin عدد ٢٠ فبراير (شباط) ١٩٢٨ صفحة ١٢ .

* نسبة الى الملك ادوارد السابع الذى حكم انجلترا من عام ١٩٠١ الى عام ١٩١٠ (المترجم)

(١١) وتذكر فى هذا المقام الاسطورة (أو الاساطير) عن طرد باوند فى نصف السنة من كلية واباش فى انديانا . وهنا يورد باوند روايتين ، وتتفق الروايتان على ان باوند كان يمشى ذات مساء عندما تقدمت منه احدى الراقصات وقالت له انها غريبة فى تلك البلد وانها بحاجة الى مكان تنام فيه ليلتها . (وتختلف الروايتان فى عمل الراقصة ، هل كانت راقصة باليه ، ام كانت تمثل فى برنامج ساخر) ، فما كان من باوند الا ان تخلى عن فراشه للراقصة ونام ليلته على كرسى ، وفى الصباح ذهب الى صفه وترك الفتاة فى فراشه وسرعان ما اكتشفتها العانسات المسئولات عن البيت . ربما كانت تلك الفتاة راقصة وقد اكتشفت فى فراشه من غير شك، ولكن بقية القصة تلفيق وهى : ان ضيفته كانت فى الواقع مقيمة فى احدى حجرات ذلك البيت ، وان هذه الحادثة كانت الحادثة الاخيرة فى سلسلة حوادث ليلية ادت الى طرده من ذلك السكن المحترم ومن تلك الكلية المحافظة جدا .

(١٢) روى هذا ريتشارد الدنجتون فى مقاله Des Imagistes المنشور فى مجلة Saturday Review of Literature مجلد ٢١ (١٦ مارس (آذار) ١٩٤٠) بالصفحتين ٣ و٤ ، وكذلك فى مقال « وداع لاوروبا » فى Atlantic عدد اكتوبر (تشرين اول) ١٩٤٠ من صفحة ٥١٨ الى صفحة ٥٢٩ ، وفى كتاب Life for Life's Sake المنشور فى نيويورك Viking عام ١٩٤١ .

المتهور الامريكى (١٣) لأسوا ما فى اساليب قاعة موسيقى في لندن من محاكاة ساخرة ، الا انه كان فى طريقه لأن يصبح ـ ما سماه ألفردكازن Kazin ـ« البطل الأسطورى في عصر نهضة صفير » (١٤)

وبعد ان استنفذ كل ما فى حي كنزنجتون Kenzington من مبارزات أدبية ، انتقل الى باريس ، فلما اصبحت باريس تعج بالمؤلفين الامريكيين المغتربين ، سافر باوند الى ايطاليا واسبانيا ، واخيرا استقر فىمدينة صغيرة لطيفة على البحر المتوسط هى مدينة ربالو (فى ايطاليا) ، وظل يعيش ويعمل في هذه المدينة حتى القى عليه القبض بتهمة الخيانة فى ٣ مايو (أيار) عام ١٩٤٥ . وفى هذه المدينة اخذ باوند فى الثلاثينات ينشر فلسفته الاقتصادية التى تقوم على طرف فرضية ماركسية مفادها : انه لما كانت الحضارة تعتمد على تأثيرات اقتصادية ، وانه لما كان الازدهار هو الغاية الاولى لجميع الحكومات فانه من الضرورى (لضمان هذا الازدهار) أن تتولى الحكومات ادارة أموالها والا تعتمد على المقرضين أو المصارف أو المرابين . وكان باوند يرى أن العمود الفقرى فى اى نظام اقتصادى سليم هو « الصندوق الاجتماعى » ويعنى به أن تقوم الامة في زمن الرخاء الاقتصادى لابالتوقف عنجبىالضرائب فقط وانما عليها أيضا أن توزع الاموال الحكومية الفائضة على مواطنيها كأرباح أسهم وطنية . وقد ازداد ايمان باوند بصحة فلسفته الاقتصادية حتى أصبح متزمتا ، وابتعد اكثر وأكثر عن المبادىء الماركسية المقبولة وتوقف عن الكتابة كلية فىالمجلاتالاسبوعية الشيوعية ولم يأت عام ١٩٣٩ حتى كان أول هدف ينتقده كثير من الصحفيين اليساريين (١٥) .

وفى البدايةيبدو أن باوند قد ظنأن الرئيس فرانكلن ديلانو روزفلت يمكن أن يعلم ليقبل الصندوق الاجتماعى ، ولكن باوند لما رأى ان برنامج الاصلاح الداخلى الذى وضعه روزفلت يسير ببطء أصبح باوند مقتنعا بأن فرانكلين ديلانو روزفلت أسير ـ من الناحية الايديولوجية ـلاعداء الديمقراطية الاقتصادية الماكرين وهم اليهود الذين لم يكن تأثيرهم على أوروبا الا « لعنة كريهة » (١٦) . وأخذ يجهر

---

(١٣) انظر ـ على سبيل المثال ـ التحية التى كثيرا ما يستشهد بها بقلم C, I. E. U. Lucas, Graves وهى Mr. Welkin Mark's New Poet فى مجلة Punch عدد ٢٣ يونيه (حزيران) عام ١٩٠٩ صفحة ٤٤٩ وهى : « ان ويلكن مارك يود ان يعلن(تماما ضد رغبات لونج جين) انه ضمن للسوق الانجليزى المؤلفات النابضة لشاعر مونتانا (الولايات المتحدة) الجديد.ان عزقيال تون الذى يعتبر أهم حدث فى الشعر منذ روبرت براوننج ، والذى ترك امريكا ليقيم لبعض الوقت فى لندن ،ويفرض شخصيته علىرؤساء التحرير الانجليز وعلى الناشرين والقراء ، هو حتى الآن احدث شاعر رائج مهما قالتالاعلانات عنه غير ذلك . فقد نجح بينما فشل الاخرون جميعا فى ابراز مزيج من صور الغرب (غرب الولايات المتحدة)الطليق ومن لغة شارع واربور من بقايا بورجيا الايطالية » .

(١٤) انظر كتاب On Native Ground بقلم Alfred Kazin الذى صدر فى نيويورك عن Harcourt Brace عام ١٩٤٢ ،صفحة ٤٠٣ .

(١٥) بدات مجلة The New Masses حملتها على باوندفىسبتمبر (ايلول) ١٩٣١ حين نشرت رسالة مفتوحة من مايك جولد . انظر هجوما آخر فى عدد ١٠ ابريل (نيسان) ١٩٣٤وعدد ١٧ مارس (آذار) ١٩٣٦ وفى ١١ ديسمبر (كانون اول) ١٩٤٥ . وقد نشر ايسدور شنايدر مقالا بعنوان « خائن أمابله قديس » فى نفس المجلة ، وبعد ذلك باسبوعين ظهر فى ندوة شائنة بمنوان هل يجب ان يطلق الرصاص على عزراباوند . انظر أيضا مقالة T (h) inker Pound and other Italian Legends بقلم دونالد ماكنزى فى مجلة The left عدد الصيف والخريف عام ١٩٣١ من صفحة ٤٨ الى صفحة ٥٢ .

(١٦) من رسالة وندهام لويس فبراير (شباط) ١٩٤٩محفوظة فى مكتبة Beinecke فى جامعة Yale

فى عدائه لروزفلت وكان قاسيا فى شجبه اليهود ـ او « اليهود القاذورات » كما كان يدعوهم . وقد قيل ان باوند فى كراهيته لليهود وفى عدم ثقته بالمصالح المصرفية الكبرى وفى احتقاره لسلطان الحكومة الامريكية كان ينتمى الى حزب الشعبأى الى تراث مسقط رأسه فى غرب الولايات المتحدة . ولكنه منذ عام ١٩٢٢ نجد باوند يعارض فى انتشار اليهود بين المسهمين فى مجلة Dial ، ويتنبأ بانه خلال نصف قرن سيحل اليهود والسود والصينيون (١٧) محل البيض (فى الولايات المتحدة) ـ وهذا ينفى تأكيدا ضعيفا حديثا بأن باوند قد وقع فى معاداة السامية عام ١٩٣٩ (١٨) . ويجب ألا ننسى ان معاداة السامية كانت شائعة ولا تثير الاستغراب بين الناس فى عهد الملك ادوارد السابع . وقد عبر كثير من رفاق باوند المقربين ـ كاليوت وجون كوين Quinn صراحة عن مشاعر معادية للسامية (بينما شعر باوند بأن الكنيسة المسيحية هى بحكم تعريفها معادية للسامية .) (١٩) .

ولاشك انه ليس من جنون فى الجوهر كراهية اليهود أو المناداةبالصندوق الاجتماعى او لعن روزفلت او حتى الاعجاب بأشبال موسولينى . (٢٠) ولكن رسائل باوند التى لم تنشر وذكرياتاصدقائه المقربين الشخصية توحى بأنه فىأواخر الثلاثينياتبدأيفقد الاتصال بالواقع حتى عندما اخذت قناعته تزداد بسلطانه وحكمته وتأثيره . كان باوند مستقل الرأى ، يصل الى مايريد اما عن طريق سحر شخصيته وكثيرا ماوصل الى مايريد عن طريق قوة آرائه والحجة التى كان يعرض بها هذه الآراء ، وكان مدركا تماما للدور الهام الذى لعبه فى تشكيل الحياة الادبية لكثير من الموهوبين ـ وفى بناء الفن الحديث من خلالهم . ولا يختلف اثنان فى انه مسئول شخصيا عن نجاح عدد من كبار الادباء والفنانين ، وكان يعتبر اهم قوة مؤثرة فى وضع قانون الشعر الجديد . كان اسطورة فى عصره فالتفت للسياسة والاقتصاد حيث اكتشف ان آراءه يمكن أن تقبل ، وانها كارائه فى الادب غالبا ما تكون موضعنقاش شديد بين كبار المفكرين .

احتار باوند لان الشعب الامريكى لم يقبل برنامجه الاقتصادى ، ولذا لم يكن غريبا عليه ان يستنتج ان ذوى النفوذ فى الكونجرس

---

(١٧) من رسالة الى جان روبرت فوستر مؤرخة فى ٢ فبراير (شباط) ١٩٢٢ محفوظة فى مكتبة Houghton فى جامعة هارفارد .

(١٨) انظر مقالة بعنوان « سيرة لامبالية » بقلم هيوكينرKenner فى مجلة New Republic عدد ١٧ اكتوبر (تشرين اول) ١٩٧٠ من صفحة ٢٠ الى صحة ٢٢ .

(١٩) انظر ـ على سبيل المثال ـ قول ت.س . اليوت فىكتابه After Strange Gods « ان اسباب العنصر والدين تلتقى لتجعل من اى عدد كبير من اليهود المتحررين فكريامفهوما » . وارجع ايضا الى ماجاء فى رسالة John Quinn الموجهة الى Mary Maguire Column المؤرخة فى ٢ يناير (كانون الثانى) ١٩١٩ والمحفوظة فى مركز البحوث الانسانية فى جامعة تكساس ومنها : « كنت اكرهالمانيا والالمانيين كراهيةتقصر عن وصفها الكلمات . اما الآن فاننى احتقرهم احتقارا تقصر عن وصفه الكلمات ، وليس عندى سوى الاشمئزازوالاحتقار لاتينهم ولجميع الغرائز الدنيا التى تجعل من ادنى ادنياء اليهود محتقرين . »

(٢٠) ذكر باوند لاصدقائه فى مناسبات عديدة مختلفة انهقال لموسولينى عندما التقى به ان الشيء الوحيد الذى يحسده عليه هو الاشبال : انظر ـ على سبيل المثال ـ رسالةباوند الى رونالد دنكن المؤرخة فى ٨ مايو (ايار) ١٩٤٦ المحفوظة فى مكتبة Beinecke فى جامعة ييل . ومن ناحيةكتب . س. اليوت الى فيرجينيا وولف فى ١٧ ابريل (نيسان) ١٩٣٦ يقول انه كتب « رسائل ساخرة الى عزرا باوند عنموسولينى » ـ ربما لاثارته . انظر الرسالة فى مجموعةBerg فى مكتبة نيويورك العامة .

والصحافة قد حجبوا عن الجمهور آراءه ، اما لغباء منهم واما لميلهم لخداع هذا الجمهور . ولكي يقف في وجه هذا التأثير ابحر باوند الى أمريكا عام ١٩٣٩ وجاب أبهاء الكابيتول واجبر أعضاء الكونجرس على الاصغاء له واخذ يناقش نظرياته ، ويقابل كل من لديه استعداد من الصحفيين للاصغاء له ، بل انه ذهب ليأخذ من كلية هاملتون أول شهادة فخرية يأخذها ، وذلك من أجل ان يجد جمهورا أكثر ليشرح فلسفته الاقتصادية . كانت رحلة باوند الى امريكا فاشلة تماما باستثناء أخذ الشهادة الفخرية ، فأعضاء الكونجرس لم ينصتوا له ، وروزفلت رفض أن يلتقى به أو حتى ان يرد على رسائله ، والصحافة عموما تجاهلته . عاد باوند الى ايطاليا وهو مقتنع بأن اليهود وروزفلت قد أفسدوا الشعب الامريكي ودنسوا تراثه ، وأنهم على وشك زج بلاده في حرب لا اخلاقية . وقد ظل مصرا حتى آخر أيام حياته على أنه بدأ أحاديثه المشهورة في اذاعة روما في فبراير (شباط) ١٩٤١ لكي يمنع وقوع الحرب بين ايطاليا وامريكا ، وانه لم يكن يخاطب الجمهور الاوروبي وانما كان يتحدث الى المستمع الامريكي الذى حجبت عنه نظريات باوند طويلا ، وقد حجبتها ــ كما يقول باوند ــ الصحافة المعادية ، والمؤامرة اليهودية وحقد رئيس جمهورية مجنون . (٢١)

ومع مرور الايام أصبح محتوى احاديثه الاذاعية يزداد اضطرابا وتشابكا ، واتهاماته أكثر بذاءة وتلفيقا ، والفكر فيها أقل منطقا ، ونغمتها اكثر هستيرية . لقد أخذ باوند يفقد الاتصال بالعالم الخارجي حين حبس نفسه في بلد اجنبي هو في حرب معلنة مع وطنه وبدأ عدد الرسائل التي يتلقاها ينضب ، وتوقفت الصحف المكتوبة باللغة الانجليزية عن الوصول، وكان المال الذى يتلقاه نزرا يسيرا . وكان مابدأ في فبراير (شباط) ١٩٤١ كمنطق مثالي ضد الحرب قد أصبح في فبراير من العام التالي عملا دعائيا مأجورا من جانب رجل متعصب لرايه انعزل تماما عن اى تأثير ملطف لآرائه أو رأى يناقضها . لقد اخرجت الاذاعة كل ماكان مستترا عنده من مرض الشعور بالذات ، ذلك المرض الذى عرف أصدقاؤه المخلصون كيف يعالجون على مدى السنين ، ومع جمهور دولى يعد بالملايين فقد باوند كل حس بالتوازن او المسئولية .

ثم جاءته صدمة تسليم موسوليني ، وفرار باوند اليائس في الشتاء في ايطاليا ، وعودته السرية في الربيع الى شواطىء البحر المتوسط . (٢٢) وقام الالمان بمصادرة منزله لبناء تحصينات للميناء ، وبهذا أجبروا أسرته كأعداء غرباء الى الانتقال الى الهضاب التي تقع فوق مدينة رابالو ولتعيش مع أولجا روج في كوخها الريفي . (٢٣) وفي هذا المكان القى القبض عليه أنصار الحلفاء من الايطاليين

---

(٢١) ارجع من اجل مزيد من المناقشة الى مقالي وعنوانه« عزرا باوند ووزارة الثقافة الشعبية الايطالية » المنشور في مجلة Jouranal of Popular Culture مجلد ٦ (ربيع عام١٩٧٢) من صفحة ٧٦٧ الى صفحة ٧٨١ .

(٢٢) ارجع مناجل الاطلاع على روايةدوروثي باوندللاحداث لكتاب The Caged Panther بقلم Harry M. Meacham المطبوع في نيويورك دار نشر Twayne عام ١٩٦٧ ، وكذلك لكتاب Discretions بقلم Mary de Rachewiltz المطبوع في بوسطون والصادر عن دار Atlantic, Little, Brown ١٩٧١ من اجل الاطلاع على رواية ابنة باوند لهذه الاحداث . وهناك ايضا رسائل غير منشورة تتناول هذا الموضوع وهي محفوظة في جامعة تكساس .

(٢٣) ولمدة عام او يزيد عاشوا جميعا معا ــ الزوج والزوجة والعشيقة ، ولو لم تكن أم الشاعر قد بلغ بها كبر السن والضعف مبلغا كبيرا لتركت شقتها في رابالو وانضمت اليهم في بيت من اشهر البيوت في التاريخ الادبي . وكانت دوروثي تقوم برحلة كل اسبوع لتزور حماتها في مدينة رابالو ، وخلال واحدة من هذه الزيارات جاء انصار الحلفاء الاجلاف وسجنوا باوند ثم سحبوه الى جنوا ليجرى استجوابه من قبل قيادة الحلفاء .

وسلموه لجيش الحلفاء لاستجوابه . وكان باوند قد أصبح رجلا يائسا تمتلىء نفسه بالكراهية والخوف ـ رجل مصاب بمرض الذات يؤمن بصحة آرائه ويحقد على جميع الحكومات . ولاشك أن عرضه فى ذلك القفص السلكى المشين فى مركز الاعتقال فى مدينة بيزا لم يصلح حاله ، اذ سرعان ما ضاعف انهيار جسده الدرامى من تدهور حالته العقلية والعاطفية . قد اصبح لما القى به فى حجرة فى سجن واشنطون فى ١٨ نوفمبر (تشرين ثانى) عام ١٩٤٥ ، كان قد اصبح رجلا انهكه المرض.

واذا كان باوند قد أصبح مريضا مرضا عقليا فى عام ١٩٤٥ ، وهناك دليل قوى يشير الى ذلك ، فان هذا لا يستلزم ان يكون اصدقاؤه واسرته قد أصيبوا بمثل هذا العجز . ان الحديث عن « مأساة » عزرا باوند لا يعنى مجرد وصف السقوط الانعزالى لفرد . بل ان هذا الحديث هو لتأكيد تأثير سيرة رجل على حياة الكثيرين ، انه وصف لتأثير أفكاره وشخصيته بل ومخاوفه غير المنطقية على من كان يفترض انهم أكثر استعداد لمعالجتها . ومنذ عام ١٩٤٥ تحدد مصير باوند ، ولكن الشرك السياسى الذى تشابكت فيه حياة الكثيرين أمدا طويلا كان يجرى نسجه . والمأساة هى أن سجن عزرا باوند قد قاد أصدقاءه الى أن يسلكوا سلوكا ينطوى على الهجوم والسرية والتامر ، بل وبطريقة لاتبدو معقولة ، وهم الذين كانوا فى غير هذا أصحاب أسمى المبادىء الاخلاقية والمذهبية ، وهو سلوك لم ينجح الا فى اطالة عقاب باوند عشر سنوات أخرى .

وبالرغم من جميع مخاصماته الاسطورية الا أنه كان ما يزال فى عام ١٩٤٥ يتمتع بعدد من الاصدقاء الحميمين المهمين جدا ، فقد كان باوند دائما كريما فى وقته ، وسخيا فى نصيحته ، فاكتسب اخلاص حتى من كانوا يحتقرون معاداته للسامية ويستنكرون قيمه السياسية . وقد انقطع عن كثيرين من هؤلاء الاصدقاء خلال معظم السنوات الخمس التى تلت عودته من أمريكا ، وظل سنة ونصف السنة لا يعرف مكانه الحقيقى سوى نفر قليل من أعز أصدقائه وأقاربه ، بل ان عددا من الناس سوغوا لانفسهم الافتراض بأنه قد مات . والظروف التى أحاطت بالقاء القبض عليه ثم سجنه ولا سيما سجنه الانفرادى لعدة شهور أسهمت كثيرا فى قلق هؤلاء الاصدقاء والاقارب . (٢٤) وبالاضافة الى هذا فان تجمع المشاعر الامريكية المعادية للفاشية والاكتشاف الجديد لضخامة اهوال معسكرات الاعتقال وحدة الهجوم الصحفى الماركسى على باوند ، واعدام البريطانيين اثنين ممن كانوا يعملون فى اذاعات دول المحور وهما جون أمرى ووليم جويس ، قد زاد هذا كله من التوتر حتى كاد يبلغ درجة الهستيريا . (٢٥) وهناك أيضا آثار نفسية كبيرة ترتبت على نقل باوند من ايطاليا الى واشنطون ، وهى حركة أخذته من صحبة أصدقائه المخلصين وأسرته ووضعته تحت رحمة خليط متنافر من المعتقلين

---

(٢٤) ارجع الى رسالة من دوروثى باوند الى E. E. Cummings المؤرخة فى ٤ نوفمبر (تشرين ثانى) ١٩٤٥ ، والرسالة محفوظة فى مكتبة Beinecke فى جامعة ييل وفيها « لقد سمح لى الآن بالاتصال برجلى الطيب ، وسمح له باستلام رسائل من الخارج ... وهو شاكر لاية اخبار يتلقاها بعد خمسة شهور من الانقطاع عن العالم الخارجى .... لقد سمح لى بزيارة واحدة بعد ان ظللت خمسة شهور لا اعرف مكانه » .

(٢٥) انظر مقالة بعنوان « أيجب اطلاق الرصاص على عزرا باوند » فى مجلة New Masses عدد ٢٥ ديسمبر (كانون اول) ١٩٤٥ من صفحة ٤ الى صفحة ٦ . ولمناقشة هذا ارجع الى مقالى المنشور فى مجلة American Quarterly مجلد ٢٤ (مارس (آذار) ١٩٧٢) من صفحة ١٠١ الى صفحة ١١٣ وعنوان المقال :
What's My Love : Bennet Cerf, Ezra Pound and the American Poet ".

السياسيين من شعراء ينشدون الشهرة وهم نسيج خاص ، وموظفين عنصريين وأدباء مرضى نفسيا . وقد اعتبرهم أصدقاء باوند من اللندنيين من المتطفلين على الادب غير الناضجين وما كان هؤلاء مهتمين حقا بحل هذا الشرك القانوني وانما احبوا أن يبقوه فى واشنطون، وكانوا يعرفون أنه اذا أطلق سراحه سيعود الى ايطاليا . (٢٦)

ان هذا الشعور بالعزلة والانفراد الذى احس به باوند وأسرته وأصدقاؤه حاسم فى فهم مأساة باوند . ويجب الا ننسى أن عزرا باوند لم يقم فى الولايات المتحدة لمدة تربو على ثلاثين سنة ، وانه ــ باستثناء تلك الرحلة القصيرة جدا التى زار فيها بلاده عام ١٩٣٩ ــ كان غريبا فى مسقط رأسه حتى عاد اليها مصفدا فى ١٨ نوفمبر . أما دوروثى باوند التى استبدلت جنسيتها البريطانية بالجنسية الامريكية عندما تزوجت بعزرا باوند عام ١٩١٤ فانها لم تر البلاد التى تبنتها حتى وصلت اليها فى صيف عام ١٩٤٦ لتواسى زوجها المسجون (٢٧) . اما ولداهما مارى وعمر فانهما ــ بالرغم من جنسيتهما الامريكية ــ لم يزورا وطنهما أبدا . وقد خلف باوند وزوجته وراءهما جميع تلك الصداقات الاوربية المتينة التى انشأها خلال عشرين سنة من الاقامة فى ايطاليا بما فى ذلك أولئك الزملاء البريطانيون من امثال ت.س اليوت ورونالد دنكان Duncan وويندهام لويس Lewis وجون دراموند Drummond غيرهم الذين اصبحا يثقان بهم خلال السنين الثلاثين من زواجهما .

ولا شك كان فى أمريكا وليم كارلوس وليامز وى.ى. كمنجز Cummings وجيمس لافلن وماريان مور و هـ.أ. مينكن وأرشيبالد ماكليش ولكن باوند لم يقابل احدا تقريبا قبل وصول زوجته الا الاطباء النفسانيين والمستشار القانونى . ولما كان جواز سفر دوروثى باوند قد انتهى فى عام ١٩٤١ وكانت الحكومة البريطانية قد احتجزت جميع أموالها بموجب قانون أملاك الاجانب ، فقد انفقت عدة شهور فى المفاوضات حتى وصلت الى الولايات المتحدة . وظلت شهورا هى الزائر الوحيد فى معظم الاحيان لزوجها ، وزيارتها لم يكن يسمح لها أن تزيد على خمس عشرة دقيقة فى اليوم . وأخيرا نقل باوند فى عام ١٩٤٧ بعد أن أنفق خمسمائة يوم من سجن هوارد هول ذى القيود الشديدة الى حبس أقل تقييدا هو شستنط و Chestnust Ward

وهنا لم يقتصر الامر على زيارة دوروثى التى صارت تستغرق ثلاث ساعات فى اليوم وانما شمل أيضا الاصدقاء . بعض

---

(٢٦) انظر رسالة رونالد دنكن الى جون دراموند المؤخة فى ٤ مايو (آيار) ١٩٤٨ والمحفوظة فى مركز الابحاث الانسانية فى جامعة تكساس .

(٢٧) جاء فى رسالة آرثر ف. مور الى رونالد دنكن المؤرخة فى ٢٠ فبراير (شباط) ١٩٤٦ والمحفوظة فى مركز الابحاث الانسانية فى جامعة تكساس آن دوروثى تنوى الابحار فى ٢٥ فبراير (شباط) . ولكن باوند يذكر اسم السفينة فى رسالة الى Eileen Lane Kenney مؤرخة فى ٣ يوليو (تموز) ١٩٤٦ ومحفوظة فى مكتبة Beinecke فى جامعة ييل فيقول « لقد قيل ان د. ابحرت ... » وجاء فى كتاب The Life of Ezra Pound بقلم Noel Stock (نيويورك Pantheon عام ١٩٧٠) صفحة ٤٢٠ ان جواز سفر دوروثى قد تم تجديده اخيرا فى يونيه (حزيران) ١٩٤٦ وانها كانت قد زارت زوجها مرتين حتى ١٤ يوليو (تموز) . وجاء فى كتاب The Trial of Ezea Pound بقلم Julian Cornell (نيويورك John Day عام ١٩٦٦) صفحة ٥٠ ان دوروثى ابحرت فى شهر يونيه (حزيران) .

هؤلاء من أمثال هـ.ا.منكى (٢٩) Menken جاءوه فورا ، وآخرون من امثال ارشيبالد ماكليش انتظروا عشر سنوات حتى زاروه ، (٣٠) ونفر قليل منهم من امثال ايرنست همنجوى وروبرت فروست لم يزوروه أبدا. على أن معظم أصدقائه الحميمين كانوا فى أوروبا ، وكان عليه مع ذلك ان يكتسب صحبة متطفلين على الأدب ظهروا فى الخمسينات .

فى عام ١٩٤٥ كان الخوف الرئيسي ـ وان كان خوفا غير منطقى ـ الذى شعر به أصدقاء باوند هو انه قد يحاكم بتهمة الخيانة العظمى، وأن يدان وان ينفذ فيه حكم الاعدام ، وقد أثارت الندوة التى عقدتها مجلة « الجماهير الجديدة New Masses » عشية عيد الميلاد الاضطراب فى نفوس هؤلاء عندما أوصت هذه الندوة باطلاق الرصاص عليه بتهمة الخيانة . ولكن كانت هناك سوابق الحرب العالمية الاولى والتى أكدتها المعاملة الكريمة التى تلقاها بعض المتعاونين مع دول المحور واليابان ، وقالوا ان أقصى عقوبة يمكن ان توقع عليه هى السجن ، ولكن خوف هؤلاء الاصدقاء ظل موجودا . على أن تشخيص الجنون الذى اتفق عليه اربعة اطباء نفسانيين اراحهم بعض الشيء .

وفى ذلك الحين لم يتحرك أحد من أصدقائه ليناقش حكمة الاستراتيجية القانونية فى اعلان جنون باوند عند محاكمته بدلا من بحث الجريمة المزعومة ، ربما لانهم اعتقدوا أن هذه ليست سوى أولى مناورات قانونية عديدة ستؤدى فى النهاية الى اطلاق سراح باوند دون محاكمة . ولا شك أن جوليان كورنل ، محامي باوند ، أقنع المقربين الى الشاعر بأن الاتهام سيسقط ، وأن الرجل العجوز سيعتبر شخصا لايؤذى ومن ثم يطلق سراحه . (٣٠) ثم يأتى الاطباء النفسانيون الاربعة ـ كما كان الظن ـ ويعلنوا بوضوح اكثر انه لم يكن فى كامل قواه العقلية فى زمن أحاديثه الاذاعية ، وبهذا يبرئونه لدى الجمهور الامريكى (٣١) . وكانت هناك بعض المخاوف من أن باوند قد يتصدى لدعوى الجنون ويحاربها حتى ولو كان مقتنعا بعدم جدوى محاولة جعل المحلفين « الاغبياء » يفهمون حول ماذا كانت تدور حياته وعمله . (٣٢) ان التأثيرات الموهنة لثمانية شهور من السجن كانت باهظة ، فقد وضع باوند ـ من غير شك ـ مستقبله فى أيدى أولئك الذين أجبر على ائتمانهم . كان اذا تحدث فى مسائل الادب او الاقتصاد تحدث حديثا منطقيا ، ولكنه كان ينهار تماما ـ كما روى أصدقاؤه ـ عندما يسأل عن معضلته . (٣٣) وكانت الخطة حينئذ هى الانتظار بينما واصل جوليان كورنل حث

---

(٢٨) جاء فى رسالة من باوند الى D.D. Paige مؤرخة فى ٢٠ مايو (ايار) ١٩٤٧ ومحفوظة فى مكتبة Beinecke فى جامعة ييل ما يلى : « كتب مينكن Mencken فى العام الذى سبق العام الماضى عند وصولى وجاء ومعه خمسة ارطال من الحلوى وكمية من الكتب » .

(٢٩) كما جاء فى المراسلات المحفوظة فى مركز الابحاث الانسانية فى جامعة تكساس .

(٣٠) انظر رسالة James Laughlin الى ت.س. اليوت المؤرخة فى ٢٣ ديسمبر (كانون اول) ١٩٤٥ المحفوظة فى مركز الابحاث الانسانية فى جامعة تكساس .

(٣١) ارجع الى الرسالة السابقة (حاشية ٣٠) .

(٣٢) ارجع الى الرسالة السابقة (حاشية ٣٠) .

(٣٣) ارجع الى رسالة آرثر ف. مور الموجهة الى دونالدنكن المؤرخة فى ١٩ ديسمبر (كانون اول) ١٩٤٥ المحفوظة فى مركز الابحاث الانسانية فى جامعة تكساس .

الاطباء النفسائيين لاصدار شهادة خطية مشفوعة بالقسم تؤكد انهم يعتقدون بأن حالة باوند لـن تتحسن ، وعندئذ يتحرك المحامى لاسقاط التهمة على أساس قانون تحـديد التقاضى (قانون التقادم المسقط) واستنادا الى أن المقاضاة لم تثبت الجريمة . (٣٤)

ولعل محامياً اكبر خبرة من كورنل فى هذه الامور كان يستطيع أن يتوقع فى عام ١٩٤٥ أن هذا سيؤدى الى سجن باوند فى سـانت اليزابيش نحو ثلاث عشرة سنة ـ اى أطـول من المدة التى حكم بها على مجرمى الحـرب الالمان الذين أدينوا فى محكمة نوريمبرج والتى قضوها فيالسجونالاوروبية ـ ولكن الشعراء والناشرين وأفراد الاسرة المضطربين ما كان لينتظر منهم أن يمتلكوا مثل هذه الاحـاطة القانونية . ولو أنه ذكر أن باوند كان مجنونا وقت الجريمة لعولج فى مستشـفى سانت اليزابيث حتى يعلن شفاؤه وعندئذ يخـلى سبيله ولن يكون هناك داع لمحاكمته بتهمة الخيانة العظمى . ولقد كانت النتيجة المؤسفة لاعتراض كورنل على تقديم باوند للمحاكمة هى أنه أبقى التهديد بالمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى معلقا فوقرأس باوند طيلة الثلاثعشرة سنة من سجنه وقد أدى هذا بدوره الى تردد شنيع منجانب جوليانكورنل ودوروثى باوند بل وعزرا باوند كما أثار هذا كثيرا من الاضطراب والقلقوعدمالاطمئنان عنداصدقائه خارج أمريكا . وأشنع من هذا فقد أدى الى مأزق حرج بالنسبة لوزارة العدل الامريكيـة التى لم ترغب فى تقديمه للمحاكمة فى عـام ١٩٥٨ وثالثة الاثافى كانت الحط النهائى من قدره عندما عينت زوجته قيما عليه حـتى مات .

وعلى مدى السنين ظلت الاسئلة تثـار حول دقة تشخيص الطب النفسى بحالة جنون العظمة فى شخصية سايكوباتيه (مضـطربة عقليا) ، وكان الظن الشائع بأن هذا تخـلص قانونى من جانب محاميى الحكومة ومحامى الدفاع على السواء . ولكن أحد أصدقاءباوند المقربين أسر الى ت . س اليوت أثناء هـذه المحنة بأنه يخشى من أن يكون التقرير الطبى دقيقا تماما . وقـد قال هـذا الصديق ان باوند لا يدرى لماذا يكرهه اليهود وهو الذى كان يفكر في خطة لبعث معبدهم القـديم فى القدس . وكان يصر على أن الحرب ما كانت لتقـع لو أن قـادة العـالم قراوا ترجمته لكونفوشيوس وفهموها وعملوا بموجبها . وقد رأى الاطباء النفسانيون فى هذا الاعتقـاد الاخير عرضا منأعراض اوهام العظمة . وكانت هناك علامات على وسواس المرض فى شـكواه المستمرة من أنه منهك بالرغم من أن الفحوص الجسدية كانت تشهد بسلامته الصحيةوقوته الجسدية النسبة لرجل في مثل عمره . امـا عدم قدرته على متابعة اكثر من بضع جمـل فى أى موضوع ، فكان هذا علامة على تشتت ذهنه وفى احاديثه كان يتحدث عن اشـياء فى الماضى لم تحدث ابدا . وكل هذه اعتبرها الاطباء النفسانيون أمراضا كلاسيكية لحـالة جنون العظمة ، وقد وافق صديقه علىحكمهم هذا على مضض . (٣٥)

وفى الحقيقة ان المحاولات المنظمة لاطـلاق سراح باوند يمكن ارجاعها الى المناقشـات التى جرت قبل القاء القبض عليه ـ ربمـا كانت بدايتها في ٣ يناير (كانون الثانى)١٩٤٥ عندما كشف ت . س . اليوت لمحامى أسرة باوند وهو أ . ف . مور أن عمر بن باوند

(٣٤) انظر الى رسالةJames Laughlinالى ت.س. اليوتالمؤرخة فى ١٥ فبراير (شباط) ١٩٤٦ فى مركز الابحـاث الانسانية فى جامعة تكساس .

(٣٥) ارجع الى الرسالة السابقة (حاشية ٣٤) .

قد استعار نسخة من كتاب « جيفرسون و / أو موسوليني » لكي يرى اذا ما كان في هذا الكتاب شيء يمكن ان ينتفع به أبوه . (٣٦) وبالرغم من أن محكمة فيدرالية كانت قد اتهمت باوند بالخيانة العظمى في يوليو (تموز) ١٩٤٣ . الا أن مور لم يكن قد رأى لائحة الاتهام هذه بعد ، ولم يكن قد أطلع على نصوص أحاديث باوند التي اذاعها من ايطاليا وهكذا لم يكن يدري ماذا يفعل بل ولم يكن يدري أي سلطة ستتولى محاكمته . على أنه كان يعتقد كما كان يعتقد اليوت ان على أصدقاء باوند أن يكونوا مستعدين لمساعدته. وهنا كان اليوت القوة الخفية وراء محاولة دامت ثلاثة عشر سنة لاطلاق سراح باوند . (كان اليوت يعمل في لندن من وراء الستار ، ولم يعرف الناس دوره في الحملة حتى ظهر ذلك واضحا بعد ذلك الجدل الشديد غير المتوقع الذي جرى عام ١٩٤٩ حول منح جائزة بولنجن Bollingen

ولا شك أن أصدقاء آخرين غير اليوت ومور كانوا مهتمين بأمر باوند قبل القاء القبض عليه ، فقد كان بعض الامريكيين يخشون عليه من الحكومة الفيدرالية ولذلك كتبوا لوزير العدل الامريكي بيدل Biddle طالبين العفو عن باوند نظرا لمكانته العالية كشاعر . ومن هذه الرسائل رسالة تلقاها المحرر الادبي لمجلة « الجمهورية الجديدة New Republic في ذلك الحين وهو مالكولم كاولي Malcolm Cowley يؤكد كاتبها ارتباط باوند (الذي يقترب شعره الخالد من الجنون) بأسماء اناس خانوا بلادهم خيانة تامة . وقد نشر كاولي هذه الرسالة لا ليحرج باوند ولكن لأنه يعارض مثل هذه الاحكام الضمنية حول باوند بشكل خاص والشعراء بشكل عام . كتب كاولي يقول : ان باوند رجل وليس طفلا ، وسواء أكان شاعرا أم لم يكن فانه يجب ان يعتبر مسئولا عن أفعاله كأي رجل آخر، والعفو عنه سيكون اهانة لجميع الفنانين الاخرين . وقال كاولي : « انني أود ان أرى باوند وجميع الشعراء الاخرين يحافظون على كرامتهم الانسانية . واذا كانت المحافظة عليها تستلزم عقابهم فليعاقبوا على الا يتجاوز هذا العقاب في شدته ما تستحقه أفعالهم »(٣٧) وكان رد فعل الشاعر رولف هامفريز Rolphe Humphries متصلفا نسبيا حين تساءل : « اذا سلمنا بالمقدمة المنطقية من أن باوند لما كان خائنا وشاعرا مجيدا فانه يجب ان يصفح عن خطيئته الاولى بسبب فضيلته الثانية فما هو الاستنتاج الذي سنصل اليه بالنسبة للشعراء الرديئين والوطنيين العدوانيين ؟ أيجب اطلاق النار عليهم أم أعدامهم ؟ وفي ذهني بعض الافراد ممن لا أذكرهم الان الذين يشعرون بشيء من القلق الى أن يبت في هذا الامر » (٣٨) وعلى العموم كان الشعراء والنقاد الذين لا تربطهم بباوند علاقة مودة يشاركون كاولي في موقفه من أن باوند يستحق العقاب ولكنه لا يستحق الاعدام أو السجن لمدة طويلة جدا . وكان هناك بالطبع من شذ عن ذلك مثل لويس انترميير Louis Untermeyer الذي اقترح ان يسجن باوند في زنزانة تحيط به الكتب ، وكل هذه

---

(٣٦) ارجع الى رسالة ت.س. اليوت الموجهة الى آثـرف. مور المؤرخة في ٣ يناير (كانون ثاني) ١٩٤٥ المحفوظة في مركز الابحاث الانسانية في جامعة تكساس . وقد رد مورعليها في ٦ يناير (كانون ثاني) .

(٣٧) انظر مقال « الكتب والناس » بقلم مالكلولم كاولي فيمجلة New Republic مجلد ١٠٩ (١٥ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٤٣ من صفحة ٦٨٩ الى صفحة ٦٩٠ .

(٣٨) انظر مقال « شعراء » خونه ووطنيون « بقلم رولف هامفريز في مجلة New Republic مجلد ١٠٩ (٢٩ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٤٣ صفحة ٧٤٨ .

الكتب نسخ من مؤلفات ادجار أ . جست Edgar A. Guest (٣٩) ومثل أحد أساتذة الدراسات الكلاسيكية الذى أوصى توصية قاسية فقال ان باوند يجب ان يعدم لا بجريمة الخيانة وانما بجريمة الاخطاء التى وردت فى ترجماته . (٤٠) . وبالرغم من هذه الاحكام القاسية المتفرقة كان الناس عموما يدركون جدية محنة باوند حتى اولئك الذين كانوا يرفضون دعوى الجنون كمناورة قانونية ، تلك الدعوى التى تبرم بها الشعراء والنقاد كثيرا .

وبالرغم من أن المدافعين عن باوند فرحوا بحكم الاطباء النفسانيين عليه ، الا أنهم خشيوا من أن اصدقاءه المقربين قد يجدون انه حكم قاس من الصعب القبول به . (٤١) وهذا هو ما كان يشغل بال جوليان كورنل حين كتب لدوروثى باوند حول اقتراب جلسة المحكمة لتقرير ما اذا كانت حالة زوجها من الجنون النفسى تجعله أهلا للمحاكمة . كان كورنل واثقا من النتيجة ، ولذا فقد تنبأ بأن الموضوع سينتهى خلال شهور معدودة وسيطلق سراح زوجها . وكانت خطة كورنل هى الافراج عن باوند بالكفالة بهدوء ثم نقله سرا الى مصح خاص ثم اخراجه من المصح ليعود للعيش فى داره مع أسرته (٤٢) . وحتى أن ت.س. اليوت كتب لدوروثى يقترح عليها الشروط التى يجب أن تراعيها فى البحث عن مستشفى خاص مناسب لزوجها (٤٣) . وكم كانت مفاجأتهم عندما رفضت الكفالة وأعيد باوند ثانية الى مستشفى سانت اليزابيث ليبقى فيه حتى يقرر الاطباء النفسانيون بأنه أصبح أهلا للمحاكمة .

وبعد أن انتهت صدمة هذا القرار المفاجىء عاد أصدقاء باوند الى التشاور فيما بينهم عن طريق الرسائل واتفقوا على تعليق نشاطهم حتى تنتهى انتخابات الكونجرس لعام ١٩٤٦ وذلك لحماية هذا الشاعر المثير للجدل من أن يصبح قضية انتخابية (٤٤) . فلما انتهت هذه الانتخابات أعد كورنل التماسا لاخراج باوند من مستشفى سانت اليزابيث بدعوى انه غير خطر ، حتى وان كان مصابا بالجنون النفسى ، ولأنه حبسه وقتا أطول في مؤسسة فيدرالية سيكون مضرا بصحته . وعندما سمع نائب وزير العدل الامريكي ثيرون كودل Theron Cadle بهذه الخطة من أحد الصحفيين أكد بأنه اذا نجحت هذه المناورة

---

(٣٩) راجع رسالة Louis Untermeyer الى شارلزنورمان المؤرخة فى ٨ اكتوبر (تشرين اول) ١٩٤٥ فى مكتبة Van Pelt فى جامعة بنسلفانيا والتى نشرت فى مقالة شارلزنورمان التى عنوانها « عزرا باوند » المنشورة فى مجلة PM عدد ٢٥ نوفمبر (تشرين ثانى) ١٩٤٥ صفحة ١٧ ، ولكنه لم ينشرها فى كتابه المسمى The Case of Ezra Pound نيويورك John Day عام ١٩٤٨) .

(٤٠) راجع مقال Ezra Pound and Sextuc Propertius بقلم Clearence A. Forbes: المنشور فى مجلة Classical Journal مجلد ٤٢ (ديسمبر (كانون اول) ١٩٤٦) من صفحة ١٧٧ الى صفحة ١٧٩ .

(٤١) راجع رسالة جيمس لافلن الى ت.س. اليوت المؤرخة فى ٢٣ ديسمبر (كانون اول) ١٩٤٥ المحفوظة فى مركز الابحاث الانسانية فى جامعة تكساس .

(٤٢) راجع كتاب The Trial of Ezra Pound بقلم كورنل

(٤٣) راجع رسالة ت.س. اليوت الى دوروثى باوند المؤرخة فى ١٣ نوفمبر (تشرين ثانى) ١٩٤٦ الموجودة فى مركز الابحاث الانسانية فى جامعة تكساس .

(٤٤) راجع الرسالة السابقة (حاشية ٤٣) .

فانه سيبدأ فورا اتخـاذ الاجراءات لتقديم الشاعر للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى(٤٥). وكان الصحفى الذى نقل هذا الخبر لكودل هـو ألبـرت دوتشـى Albert Deutsch وهو نفس الصحفى الذى أعاد نشر التقارير الخاصة باتهام باوند بالجنون فى عام ١٩٤٦، تلك التقارير التى انتشرت انتشارا واسـعا والتى شجبها بمرارة جوليان كورنل، لأنه رأى فى مثل هـذا النشر غير المرغوب فيـه سببا يمنع الحكومة من اسقاط التهم عـن موكله بهدوء (٤٦). ولم يتح لكودل تنفيـذ تهـديده لأن القاضـية بوليثـا. ج. لوز Bolitha J. Laws رفضت طلب الكفالة.

وهنا اراد كورنل أن يستأنف ــ الى المحكمة العليا اذا تطلب الأمر ــ ولكن دوروثى باوند طلبت منه فى ١٣ مارس (آذار) ١٩٤٨ أن يترك كل هذه الخطط (٤٧). وقد أنهى هذا التحرك القضائى فى جميع النقاط الأساسية نحو عشر سنوات. فقد كانت الأسرة مصممة على ريادة طريق آخر (٤٨).

كان الطريق الذى اختاره أصدقاء الشاعر الحميمين والناصحون هـو القيـام بحملـة لاحياء الادبيـة التى اخذت تتداعى وذلـك للتعويض عن تأثير المعاملة التى أعطيت لخيانته المزعومة. وهنا فكروا فى ألد أعداء الفاشية من الأدباء وهو ايرنست همنجوى وهل يمكن أن يعلن همنجوى رأيه الذى يعترف به فى السر وهـو أنه لا يستطيع ادانة الافعـال التى لا يعتبر الشاعر مسئولا عنها عقليا(٤٩). وبالرغم من أن همنجوى قد قال هذا فى رسالة بعث بها الى شارلز نومان Charles Norman الا انه لم يسمح بنشر الرسالة ولم يسـمح باقتباس قوله حول « جريمة » باوند سنوات عدة. وهناك جانب آخر فى هذه الخطـة غـير القضائية، وهو التأثير عـلى النقـاد المشهورين فى البلاد وخارجها للاشادة بشعر باونـد ولاقنـاع المجلات الأدبيـة الجيـدة لاستكتاب النقاد للحديث عن شـعره بـل وتخصيص بعض أعدادهـا للتحـدث عـن مؤلفاته.

على أن المشكلة الرئيسية التى واجهـت المخططين هى أن الاهتمام النقدى بشعر عزرا باوند قد انحدر كثيرا فى الثلاثينات ــ الى درجة أنه لما نشر فى عام ١٩٤٠ مقطوعات جديدة من أناشيده Cantos لم تثر هذه المقطوعات الا مقالات نقدية ضعيفة ومتفرقة، بل ان الشاعر رأى أن من الضرورى أن يضم للديوان الجديد مقالتين عن شعر باوند بعد أن بيـع

---

(٤٥) راجع مقال البرت دوتش وعنوانه « عزرا باوند الشاعر المرتـد يسعـى للخلاص مـن مستشفى الامـراض العقلـية الفيدرالى »، المنشور فى مجلة PM عدد ٢٥ يناير (كانون ثانى) ١٩٤٧ فى الصفحتين ١ و ٢٤.

(٤٦) راجع مقال البـرت دويتش « ادانه باوند بالجنـون ينجيه من المحاكمه » المنشور فى مجلة .P.M عدد ١٤ فبراير (شباط) عام ١٩٤٦ صفحة ٧.

(٤٧) انظر رسالة دوروثى باوند الى جوليان كورنل المؤرخة فى ١٣ مارس (آذار) عام ١٩٤٨ المنشورة فى كتاب The Trial of Ezra Pound صفحة ٦٧.

(٤٨) على ان هذا لا يعنى ان اصدقاء باوند مـن الانجليز تخلوا عن الاجراءات القضائية، فقد استمروا فى الضغط لاتخاذ حكم قضائى.

(٤٩) راجع رسالة جيمس لافلن الموجهة الى ت.س. اليوت المؤرخة فى ٢٣ ديسمبر (كانون اول) ١٩٤٥، المحفوظة فى مركز الابحاث الانسانية فى جامعة تكساس. على ان همنجوى قد لفت الانظار فى ديسمبر (كانون اول) عام ١٩٥٤ عندمـا منح جائزة نوبل فى الآداب عندما قال « انها سنة طيبة لاطلاق سراح شعراء ». ارجع الى مقال « قصاص امريكى » فى مجلة Time عدد ١٣ ديسمبر (كانون اول) ١٩٥٤ صفحة ٧٢

نصف النسخ المطبوعة . (٥٠) وكان الاهتمام العام الرئيسى في الفترة الواقعة ما بين ١٩٤٠ و ١٩٤٧ منصبا على سياسة باوند لا على شعره ، ففى ست سنوات ونصف السنة ـ من ١٩٤٠ وحتى سبتمبر (أيلول) ١٩٤٦ ـ لم تنشر سوى مقالة رئيسة واحدة لا تتناول الجانب السياسى فى انتاجه وكانت هذه المقالة هجوما شديدا على شعره . (٥١) ثم اخذ الاهتمام بباوند ينبعث من جديد من النقاد والمحررين على السواء وكانت بداية هذا البعث مقالة مشهورة نشرها اليوت فى عام ١٩٤٦ فى مجلة (شعر) Poetey (٥٢) ، وخصصت (مجلة يل للشعر) Yale Poetry Review قسما فيها في عام ١٩٤٧ للحديث عن باوند ـ وهى من المجلات الادبية الجيدة التى كان يشير اليها اليوت وغيره(٥٣) واستمر هذا البعث فى ذلك العدد الخاص الذى أصدرته مجلة الأدب الفصلية Quarterly Review or Literature (٥٤) . ومن الطبيعى أن هذا الاهتمام كان بشكل جزئى نتيجة للشهرة التى اعطيت لنشاطه ابان فترة الحرب ولكنها عكست الى درجة تفوق التوقع تأثير الجهود التى بذلت لتحسين صورة

---

(٥٠) راجع اناشيد Cantos باوند من النشيد رقم ٥٢الى النشيد رقم ٧١ (نورفولك : New Directions عام ١٩٤٠) . وفى الواقع تم طبع الف نسخة من هذه الاناشيدولكن الخمسمائة نسخة الاولى هى التى تحتوى على كراسة عنوانها « ملاحظات على اناشيد عزرا باوند : البناء والوزن »وهى مؤلفة من مقالين الاول بعنوان « ملاحظات على الاناشيد » بقلم جيمس لافلن وبتوقيع H.H. والثانى بعنوان « ملاحظاتعلى نظم الاناشيد » بقلم ديلمور شفارتز وبتوقيع S. D. انظر البيبليوغرافيا التى اعدها Donald Gallup بعنوانA Bibliography of Ezra Pound (لندن عام ١٩٦٣) فى الصفحتين ٩٠ و ٩١ .

(٥١) راجع مقال Hvatt H. Waggoner وعنوانه« أسطورة عزرا باوند » المنشورة فى مجلة University of Kansas City Review مجلد ١٠ (صيف عام ١٩٤٤)من صفحة ٢٧٥ الى صفحة ٢٨٥ . وانظر ايضا مقالا بعنوان « يوم مع عزرا باوند » بقلم Elizebeth Delehanty فى مجلة New Yorker عدد ١٣ ابريل (نيسان) ١٩٤٠ الصفحتين ٧٦ و ٧٧ ، ومقالا بعنوان « وستون » فى New Yorker عدد ١٤ اغسطس (آب ١٩٤٣) الصفحتين ١٦ و ١٧ ومقالEzra Pound of Wyncote بقلم دوجلاس ماكفرصونفى مجلة Arts in Philadelphia (مايو ايار ١٩٤٠) من صفحة ١٠ الى صفحة ٢٨ ، والمقال قطعة تاريخية كتبهاصديق من اصدقاء باوند .

(٥٢) راجع مقال « عزرا باوند » بقلم ب.س. اليبوت فيمجلة Poetry العدد ٤٨ (سبتمبر ايلول ١٩٤٦) من صفحة ٣٢٦ الى صفحة ٣٣٨ . ويحتوى هذا العدد على مقال بقلمجورج ديلون بعنوان A Note on the Obivious ومقال بقلم R. P. Blackmur بعنوان «An Adjunct of the Muses Diadem : A Note on E.P.» من صفحة ٣٣٨ الى صفحة ٣٤٦ ومقال بقلم V. Healy بعنوان « تذييل Addendum » من صفحة ٣٤٧ الى صفحة ٣٤٩ .

(٥٣) تحرير Rolfe Fjeldle العدد رقم ٦ وفيه النشيدرقم ٨٣ ومقالين الاول بقلم H. H. Watts وعنوان PoundCantos Means to an End من صفحة ٩ الى صفحة ٢٠ ، والثانىبقلم Laurence Richardson وعنوانه Ezra Pound Homage to Propertius من صفحة ٢١ الى صفحة ٢٩ .

(٥٤) حرر مع ملاحظة من المحرر D. D. Faige المجلدالخامس نوفمبر (تشرين ثانى) من مجلة Quarterly Review of Literature (حقوق الطبع عام ١٩٤٩) وفيهثلاث قصائد لباوند بالاضافة الى Ezra: The Portrait of a Personality بقلم ويندهام لويس و E. P. Pour I. Erection بقلم جون سينيور ، Ezra Pound بقلم ماريان مور ، و The Devices of Pounds Cantos بقلم كهارولد واطس و Pounds New Cantos بقلم ريتشارد ايبرهارت و Pounds and Contemporary Criticism بقلم دى ب . وست .

الشاعر ، وهى حركة ازدادت قوة عندما ايقنت اسرة باوند انه وان كان التهديد الفورى باعدامه قد تم تجاوزه الا انه ما زال يواجه مستقبلا قاتما وهو السجن مدى الحياة ، في مستشفى سانت اليزابيث ما لم يفعل شيء للتأثير على أصحاب النفوذ لاطلاق سراحه .

ولا جدال فى ان مؤلفات باوند جديرة جدا بالتقويم النقدى الجديد ، ولا مراء فى أن نصيبه من الشهرة السيئة كان كبيرا . والتهمة القائلة بأن الحكومة عاملته برفق لمكانته الادبية تعادلها تلك المعاملة الخشنة التى عاملته بها الصحافة لمركزه كشاعر مشهور ايضا . ولم يلتفت الناس الا قليلا لأولئك السبعة الآخرين من الاذاعيين الذين ادينوا بالخيانة مع باوند عام ١٩٤٣ ، (٥٥) فقد ظل ما لحقهم من اهانات سرا . اما باوند فكانت محاكمته أشبه بمحاكمة فى ساحة عامة ، وفى هذه الساحة نفسها حاول المدافعون عنه تبرئته .

واذا كان جزء كبير من هذا النقد الاطرائى قد نشر بوحى من الحاجة لجعل صورة باوند كشاعر مشرقة ، فان كثيرا من هذا النقد موضوعى . فمقالة اليوت التى نشرها عام ١٩٤٦ قطعة أدبية رائعة : انها دراسة غنية مبينة ، ولايمكن أيضا اغفال ما جاء فى مجلة ييل للشعر ، ولا يمكن تجاهل دوافع د.د. بيج D. D. Paige لاصدار عدد خاص من مجلة (الادب) الفصلية عن باوند (وفي هذا العدد سيرة باوند الذاتية ومقال لبيج وآخر لوندهام لويس Wyndham Lewis وآخر لماريان مور) وهى دوافع ان امكن الشك فيها فانه لايمكن الشك فى قيمة ما احتوى العدد من مقالات . ومن ناحية اخرى نجد أن قليلا من المادة التى ظهرت فى المجلات المتخصصة والتى تناولت نظريات باوند بأقلام اولئك المرتدين الشباب الذين أحاطوا به فى مستشفى سانت اليزابيث تستحق اليوم اهتمام القارىء الجاد للأدب . ومثل هذا يقال عن كتابات كثير من النقاد والباحثين الشباب الذين جذبتهم الى واشنطون دوروثى باوند وابنها عمر ، ولا شك أن دراسة يوستاس مولن Eustacea Miullin لباوند مليئة بالتلفيق والغمز والتعصب الاعمى ، انها شاهد على سخف السيرة حينما تملى كتابتها على مؤلفها دوافع سياسية (٥٦) وهناك ايضا جون كاسبر John Kasper العنصرى المضلل الذى ينتمى الى مدينة نيويورك والذى قضى عامين فى أحد السجون الفيدرالية لتدخله فى دمج مدارس ولاية تنيسى (٥٧) . على أنه ليس كل من تناول حياة باوند ومؤلفاته يشبه مولن وكاسبر فمعظمهم كانوا جادين في جعل دراسة حياة الشاعر ومؤلفاته شغلهم الرئيسى وتدريس فلسفته واجبهم الاكبر . ولكن القليلين من هؤلاء استطاعوا أن يفصلوا اهتمامهم بمصير الرجل عن تقديرهم لقيمة مؤلفاته .

ومن الطرف ان الشاب د . دبيج الذى كان قد تخرج من جامعة بنسلفانيا واشتغل بتدريس اللغة الانجليزية فى كلية ويلزلى كان قد عرف لاول مرة بمنحة باوند من ثيودور سبنسر Theodore Spencer فى حفلة استقبال تلت محاضرة القاها ت . س .

---

(٥٥) ادوارد ديلانى ، وكنستانس دريفيل ، وجين اندرسون، وماكس كولشفتس ، وروبرت بيست ، ودوجلاس شاندلر ، وفريدريك كالتنباش .

(٥٦) راجع كتاب The Difficult Individual Ezra Pound بقلم يوستاس (نيويورك : Fleet عام ١٩٦١) .

(٥٧) راجع مقال Intruder in the South بقلم آرثرجوردون ــ مجلة Look ١٩ فبراير (شباط) ١٩٥٧ من صفحة ٢٧ الى صفحة ٣١ .

اليوت . وكان بيج أول من قام بالسفر اللازم الى واشنطون لاكتساب ثقة جماعة باوند ، ثم تطوع بالقيام بأكبر مشروع قام به أحد من هؤلاء وهو اصدار طبعة تضم رسائل باوند ليظهر للناس جميعا ضخامة اسهام باوند فى الادب وفى الهامه لجيل كامل جديد من الدارسين وقد نسخ بيج على الالة الكاتبة رسائل باوند لا ليؤكد أنه أهمل نشر النصوص الكاملة للاصول — كما اعترف بذلك فى مقدمة الكتاب — وانما ليثبت أيضا ان المادة التى حذفت بشكل روتينى هى عبارة عن آراء من المرجح انها ستنفر منه الجمهور الحساس ازاء مواقف باوند السياسية والاجتماعية المكروهة شعبيا . (٥٨) وهكذا لم يورد التعليقات المعادية لليهود فى رسالة باوند الى همنجوى حول العمل المصرفى ، ولم يورد تلك الاستهزاءات المعادية للسامية المألوفة فى رسائل باوند الى لويس زوكوفسكى Louis Zukofsky (٥٩) ولم ينشر التعليقات المعادية للدين فى رد باوند على الحبر هنرى سوابى Henry Swabey (٦٠) ؛ ولا نصوص رسائل مثل رسائله الى وليم كارلوس وليامز التى يشبه فيها أهوال الحرب الاهلية الاسبانية بالتصريف (البزل) الضرورى لمياه المستنقع . (٦١) واذا نظرنا الان الى طبعة بيج **لرسائل عزرا باوند** نجد أنها مخيبة جدا للامال ، لا بسبب ماحذفه محرر هذه الرسائل لأسباب سياسية رآها فحسب وانما لأن جيلا من الدارسين للأدب توهموا أن عمل بيج عمل أكاديمى سليم وان الكتاب محاولة مخلصة لتقديم مجموعة تمثيلية من رسائل باوند . ولا شك ان هذه المجموعة تمثل باوند الأديب أفضل تمثيل ، وكما قال مارك فان دورن Mark Van Doven فى تمهيده للكتاب انها مجموعة جديرة بالنشر حتى ولو كان ذلك من أجل المراسلات التى جرت بين اليوت وباوند حول قصيدة « الارض الخراب » . ولكن الكتاب اذا نظرنا اليه من زاوية العكس الدقيق لفكر باوند الاجتماعى والسياسى والاقتصادى

---

(٥٨) راجع كتاب The Letters of Ezra Pound 1907-1941 تحرير D.D. Paige Harcourt, Brace (نيويورك عام ١٩٥٠ ان ناقدا واحدا على الاقل اعتبر هذا خطا فى مقال بعنوان « درس من السيد باوند » فى ملحق التايمز الادبى TLS عدد ٢١ سبتمبر (ايلول) ١٩٥١ صفحة ٥٩٥ ، وقال هذا الناقد « ان ادخال مثل هذه الرسائل ...... كان يمكن ان يساعد السيد باوند ومؤيديه الكثيرين لاثبات براءته .... »

(٥٩) وردا على مثل هذه الرسالة كتب زوكوفسكى فى عام ١٩٣٨ لباوند يقول : « لم تكن هناك ضغينة فى هذه الاجزاء ولم يقتل آلاف الابرياء الامريكان نتيجة لجرائم السادة دوبونت وروكفيلر ومورجان وغيرهم . ومن ناحية اذا استمر كفلن بتأييد منك فى ذكر أسماء كوهن وروتشيلد وغيرهما الى نفس الامريكان الابرياء فان المرء يستطيع ان يتنبأ بمجزرة فى مدينة نيويورك خلال سنة أو أقل يقتل فيها آلاف اليهود الابرياء . انظر رسالة لويس زوكوفسكى لعزرا باوند المؤرخة فى ١٤ ديسمبر (كانون اول) ١٩٣٨ فى مركز الابحاث الانسانية فى جامعة تكساس .

(٦٠) انظر — على سبيل المثال — رسالة عزرا باوند الى هنرى سوابى المؤرخة فى ٢٨ فبراير (شباط) ١٩٤٠ .

(٦١) لم يضمن Paige مجموعة الرسائل التى نشرها لباوند رسائل من باوند الى وليامز مكتوبة بعد عام ١٩٣١ . وليس فى المخطوطات المكتوبة على الآلة الكاتبة التى تركها بيج فى جامعة ييل أية رسائل الى وليامز فى الفترة الواقعة ما بين ١٩٤٠ و ١٩٤٧ .

(٦٢) راجع ديوان The Pisan Cantos اناشيد بيزا لعزرا باوند (نيويورك : New Directions عام ١٩٤٨) . وقد نشر هذا الديوان فى ٣٠ يوليو (تموز) ١٩٤٨ وطبعت منه ١٥٢٥ نسخة ثم تم اصداره من جديد فى يونيه (حزيران) ١٩٤٩ وطبعت منه ١٠٢٣ نسخة . وقامت فى ٢٢ يوليو (تموز) ١٩٤٩ دار النشر الانجليزية فابر و فابر Faber & Faber فطبعت منه ١٩٧٦ نسخة. انظر البيبليوجرافيا التى اعدها دونالد جالوب بعنوان A Bibliography of Ezra Pound لندن : Hart-Davis عام ١٩٦٣) فى الصفحتين ١٠٣ و ١٠٤

او على اعتبار انه وثيقة تاريخية ثقـافية نجده قاصرا جدا ، انه يعكس مخـاوف جمـاعة مستشفى سانت اليـزابيث من ان الجمهـور لم يكن مستعدا لأن يتقبل الآراء الكاملة لعزرا باوند .

ومن المصادفات ان الفترة الاولى من اقامة باوند بمستشفى سانت اليزابيث قـد انتهت بذلك الشجار المشهور حول نيله فى عام ١٩٤٩ جائزة بولينجن للشعر على ديوانه المسـمى « اناشيد بيزا » The Pisan ، تلك الاناشيد التى نظمها في عام ١٩٤٥ . بينمـا كان مسجونا فى ايطاليا ونشرتها فى عام ١٩٤٨ دار نشر New Directions فى الوقت الذى كان باوند فيه محجوزا فى مستشـفى عقلى . أعطيت هذه الجائزة باشراف لجنة من مكتبـة الكونجرس اختيرت لتكريم احسـن ديوان شعر لشاعر امريكى منشور في امريكا. وقد انتقدت هذه الجائزة نقدا شديدا لانهـا تجاهلت ما فى هذا الديوان من بعض الاشـعار ذات المضمون المعادى لامريكا والمعادى للسامية ويمكن ان نقول الان انه يبدو من الواضح ان دوافع سياسية كانت وراء الجائزة كما ادعى كثير ممن عابوا فيها ، وباستطاعتنا ان نرى فيها الان تتويجا للجهود المتضافرة التى بذلها ت . س . اليوت وناشر مؤلفات باوندلاستعادة احترامه المفقود ومن ثم حريته . وعلى اية حال فقد كانت مخطوطة **اناشيد بيزا** موجودة لدى الناشر منذ عام ١٩٤٥ ولكنـه لم ينشرهـا حتى عام ١٩٤٨ ، (٦٣) وكان هو محامـى باوند الاول لدى لجنة مكتبة الكونجرس بالرغم من نفيه العلنى لذلك . ومـن المؤيدين الذيـن الذين طال عهدهم بتأييد باوند فىلجنة التحكيم الاصلية او فى اللجنـة التى عينت خـلال تلك المجادلة كونراد ايكن Conrad Aiken والن تيت Allen Tate واودن W.H. Auden وروبرت لويل Robert Lowell وثيودور سبنسر وآرشيبالد ماكليش ووليم كارلوس وليامز . ويبدو أن هؤلاء قد قللوا من شأن رد الفعل الجماهيرى الممكن ، اذ بدلا من أن يخلق منح الجائزة لباوند تعاطفا معه ويسهم فى الحملة المنظمة لاطلاق سراحه ، حرك أطول واعنف جدل حول باوند منذ القاء القبض عليه فى عام ١٩٥٤ : مما جعل مـن باوند شخصية مثيرة للجدل وافرز نقدا سلبيا لشعـره حتى اقتضى نيل باوند لحريته مرور عشر سنوات اخـرى .

وسواء اكان باوند مقترفا للخيانـة أم لا ، فان ثـلاث عشرة سنـة في مستشفى سانت اليزابيث تعتبر عقابا صارما فى تلك الظروف ، والسؤال الذى يبقى قائما : من الذى يتحمل مسئولية هذا الظلم ؟ واذا نظرنا الى الظروف التى ساعدت فى تشكيل موقف الشاعر في تلك الفترة الحاسمة بعد سنتين تقريبا من فراره من الالمان ومن الحزبيين الايطاليين ومن قوات الحلفاء ومن الشيوعيين نجد أن الشاعر عندما القى القبض عليه فى النهاية كان منهكا جسديا وعقليا . وكـاد أن يفقد عقلـه مـن الخـوف والوحدة والتشهير عندما وجد نفسه يدفع من هذا المعتقل الى ذاك ويعرض للاهانـة عندما سجن فى قفـص كما تسجن الحيوانات ومن حوله القتله ومغتصبو الاعراض واسوأ مايمكن ان يوجد من عناصر مجرمة فى الساحة الاوروبية والقى به مغلول اليدين فى سيارة جيب نقلته فى رحلة دامت ليلة كاملة الى مدينة روما حيث نقل بطائرة عسكرية الى واشنطن لم يذق طعم النوم فيها ، ووصل الى امريكا وهو يعانى من

---

(٦٣) انظر ــ على سبيل المثال ــ رسالة دوروثى باوند الـى دونالد دنكن المؤرخة فى ٢١ ديسمبر (كانون اول) ١٩٤٥ ، وفيها اشارة الى أن عشرين صفحة مطبوعة على الالة الكاتبةالى لافلن فى دار النشر New Direction والى ت.س. اليوت فى دار النشر Faber & Faber وذلك فى ٢٠ ديسمبر(كانون اول) .

الصدمة ومن الارهاق ليجد اصواتا غاضبة تستقبله او ليرى اعراض اصدقائه القدامى عنه ، وليسمع جدل الناس حول ما اذا كان يجب اطلاق الرصاص عليه بتهمة الخيانة . وهاجمته الصحافة لانها اعتبرته خائنا وحليفا لاقذر القتلة فى التاريخ والقى به فى سجن هو حظيرة ثور بصحبة المجانين وحرم من الاتصال بأسرته واصدقائه ففقد التأثير الموزون وسعى اليه باضطراد أولئك الذين كانوا اكثر منه جموحا ولا عقلانية .

او لنأخذ وضع دوروثى باوند : انها امراة هادئة لا تتمتع باستقلال فى شخصيتها فقد عاشت ثلاثين عاما في ظل رجل نحيل مستبد هو زوجها : لقد أجبرت على أن تواجه منفردة وبلا مال عدم اكتراث الموظفين بها فى السلك القنصلى الامريكى وفي وزارة الخارجية البريطانية وذلك لعدة شهور متواصلة وهم يتناقشون فى مسألة السماح لها بالانضمام الى زوجها . وبقى باوند مسجونا خمسة اشهر وزوجته لا تدرى أين هو ولا اذا كان حيا أم لا . (٦٤) وقد تلقت من أمريكا تقارير متضاربة حول مصيره: أيعدم شنقا أم بالكرسى الكهربائي أم يودع فى مصح عقلى ينفق فيه كل عمره ؟ فلما وصلت الى أمريكا كانت غريبة فى وطنها ، وهناك ، فى الغرفة التى استأجرتها كانت لا تقطع عزلتها الا خمسة عشرة دقيقة كانت تقضيها كل يوم مع زوجها السجين فى ظلال القضبان الحديدية وعلى مرأى من الحرس الرسمى ووسط مجموعة مخيفة من المجانين والمجرمين فى سجن هوارد هول .

ولهذا فليس من الغريب ان يتردد دوروثى وعزرا باوند فى ترك ذلك الاطمئنان الجديد الذى وجداه فى Chestnut Ward الى تلك العداوة الغريبة وتلك الكراهية العميقة فى ذلك العالم المتوحش الذى يقع خارج اسوار مستشفى سانت اليزابيث فلما يريا الا غضبا تعبر عنه الصحافة اليومية ، وقد حاولا — والخوف رفيقهما الدائم — يائسين تحليل الوضع ، وكانا يخشيان على الدوام من أن يصبح باوند ورقة سياسية في أحد البرامج الانتخابية . وقد حال الخوف والاضطراب والاغتراب بين هذه الاسرة التى كانت تتصف بالكبرياء فى الماضى وبين البحث عن حل ذكى وغير عاطفى لمحنتهما ، وهكذا اضطر الشاعر المشهور الى أن ينفق عشر سنوات أخرى في الاسر فى شبه نسيان من قبل ذلك الجمهور المعادى له معظم تلك المدة .

وليس صحيحا أيضا القاء اللوم على وزارة العدل أو على الجيش الامريكى عن ما حدث لباوند . لقد عومل باوند معاملة جيدة خلال المدة التى قضاها فى معسكر بيزا باستثناء الاسبوعين الاولين من اعتقاله ، وذلك بالرغم من القصص الرهيبة التى اشاعها أصدقاؤه فى الولايات المتحدة . واذا كانت لا تتوفر لدينا ادلة على تلك المعاملة الجيدة فان اتمامه احد عشر نشيدا جديدا خلال هذه المدة بدعم هذا القول . ورسائله مليئة بالثناء على المفوض الذى تولى التحقيق معه ، وملفات وزارة العدل توحى بما بذل من جهد وعناء فى اعداد القضية. وليس سبب المشكلة ما فعلته الحكومة أو ما لم تفعله .

وبالرغم من أن وزر هذا كله لا يتحمله فرد واحد او جماعة واحدة ، الا ان من الضرورى الالتفات الى تقدير مواقف من كانوا قريبين جدا من باوند خلال الفترة الاولى من سجنه. ويبدو الآن أن هؤلاء كانوا جميعا يشعرون

(٦٤) انظر رسالة دوروثى باوند الى ى.ى . كمنجز المؤرخةفى ٤ نوفمبر (تشرين ثانى) ١٩٤٥ المحفوظة فى مكتبة Houghton فى جامعة هارفارد .

باحتقاره للحكومة الامريكية ولشعب الولايات المتحدة ونظامها القضائي وفى بعض الحالات موقفه من اليهود الامريكيين (٦٥) . وقد اقتنع مستشاروه بأنهم بدلا من ان يعتمدوا على المحاكم لاصدار حكم عادل ، عليهم ان يحتالوا على الاجراء الطبيعي وأن يعملوا على اطلاق سراحه بهدوء . وحجة الجنون ــ سواء أكانت صحيحة أم باطلة ــ كانت مجرد ذريعة لكسب الوقت ، فى الوقت الذى كانوا يخططون فيه نشاطا خلف الستارة . والقول بأن باوند قد منح اهتمام خاص لشهرته ، ليس سوى نصف الحقيقة : فهذا لم يؤثر على الادعاء العام ولكنه كان مهما لدى الدفاع . فقد عملت هيئة الدفاع على اعادة بعث شهرته التي كانت مشرفة على الموت وذلك فى محاولة لتبرير اطلاق سراحه أمام الجمهور . ومن السخرية المرة ان تتويج هذا الجهد بجائزة بولنجن هو الفعل الذى أدى الى المأساة النهائية ــ وهي أن رجلا واحدا دفع مثل هذا الثمن الغالي لجريمة اشترك فيها كثيرون .

* * *

(٦٥) أنظر ــ على سبيل المثال ــ رسالة الى ت.س. اليوت المؤرخة فى ٢٣ ديسمبر (كانون اول) ١٩٤٥ الموجودة فى مركز الابحاث الانسانية فى جامعة تكساس ، وفيها يذكر احد المقربين من باوند وهو رئيس محامى الحكومة اسرائيل ماتلوك Israel Matlock فيصفه بانه « هذا الضئيل ذو الوجه القشرى الذى ... لا لن اقولها » والذي « يتاجر فى ... بناء شهرته من هذه المحاكمة . »

عرض الكتب

The Failure of the Sexual Revolution

إخفاق الثورة الجنسية

عرض وتحليل : الدكتور جلال الدين الغزاوى

ولد مؤلف الكتاب « **جورج فرانكل** » في عام ١٩٢١ بمدينة فيينا فى وقت كانت تجاهد فيه الثورة الاشتراكية من أجل خلق مجتمع جديد ، وذلك بعد أن اطاحت بامبراطورية هابسبرج . درس فرانكل الفلسفة ثم تبعها بدراسة التحليل النفسى وعلم الاعصاب . ولقد تأثر المؤلف بكتابات **فيلهلم رايخ** W. Reich وعلى الاخص بكتابه عن السيكولوجية الفاشية للجماهير Mass Psychology of Fascim غادر فرانكل النمسا — على أثر الغزو النازى لها — الى الولايات المتحدة وكندا لاتمام دراسته واخيرا استقر به المقام فى لندن ، حيث اخذ يزاول مهنة العلاج النفسى ، وليقوم فى بعض الاحيان بالقاء محاضرات تتعلق بالتحليل النفسى والفلسفة ، بالاضافة الى اشرافه على تحرير دورية فلسفية . كما كان على راس هؤلاء الذين اهتموا بتقديم آراء Reich الى الشعب البريطانى .

فى كتابه عن فشل الثورة الجنسية الذى نشر فى لندن عام ١٩٧٤ ، يقوم فرانكل بدراسة لأهداف هذه الثورة والعوامل التى — في رايه — تعتبر مسئولة عن فشلها ، والكتاب عبارة عن نقد وتحليل لحركة تعتبر من اهم الحركات التى اجتاحت كثيرا من الشعوب وخاصة فى المجتمعات الغربية . يقع الكتاب فى ١٩٠ صفحة ، ويعالج فكرة فشل الثورة الجنسية من خلال ١٤ فصلا عدا المقدمة التى يقوم فيها الكاتب بتقديم افكار Reich التى تستند فى جزء كبير منها على الاعتقاد بأن

تحرير قدرة الانسان الطبيعية على الحب هى وحدها التى ستمكنه من السيطرة على ما فيه من دوافع تخريب « سادية » . وبالاضافة الى هذا الاتجاه الذى يرتكز على نظريات التحليل النفسى يشير الكاتب الى محاولة استاذه Reich لاقناع الماركسيين بأن هدمهم للرأسمالية دون التعرض الى تغيير البناء الاجتماعى الذى « يرفض الجنس » سوف يساعد على خلق مجتمع يتصف بالفاشية . وينبثق هذا الاستنتاج من الاعتقاد بأن الثورة الاجتماعية لابد وان تجلب معها ثورة جنسية تتيح المجال الى الوصول للحب الذى يمثل جذور السعادة الانسانية ، وان السعادة الجنسية تعتبر الركيزة الاساسية للسعادة الاجتماعية . وان من يعجز عن حب السعادة الجنسية لايمكن ان يحب ، ومن عجز عن الحب لايقوى على بناء مجتمع قوى .

تحت عنوان « **ثورات ومضللون** » يؤكد الكاتب فى الفصل الاول ان الانسان اصبح يشعر بأنه فى وضع يمكنه من تدمير الارض التى يعيش عليها . فيما مضي تمت ابادة مجتمعات بأكملها ، وتم القضاء على بعض نظم الطبقات ، ودمرت المدن ـ وعلى الرغم من ذلك ـ بقى الجنس البشرى وتمكن من الاستمرار في الحياة ـ اما الآن فقد اصبح الانسان كفيلابوضع نهاية للبشرية، والىجانب هذا الشعور ظهور شعور آخر يعكسالاعتقاد بأن الانسان وحده هو المسئول عن كل ما سيحدث على وجه الارض من امور .

وينتقل الكاتب بعد ذلك الى وصف القرن العشرين بانه اصبح مقبرة للآمال الثورية حيث سقط كثير من المتألهين الذين غرروا بمن آمن بهم . ويستطرد فرانكل فى وصف هؤلاء « الثوريين » بعدم تقديرهم للمسئولية ـ ويشبههم بالاطفال من حيث سرعة النسيان وخضوع عزمهم واعتقاداتهم لتوقيت محدد. وان الانسان يشبه الحيوان فى سعيه وراء هدف معين ، واذا ما حرم من بلوغ قصده سيطر القلق على تصرفاته وانتهى به الامر متخبطا فى انماط من السلوك الذى يؤدى الى تدميره . ويرى الكاتب ان الشعوب المتحضرة قد مرت فعلا بمرحلة القلق ، واصبحتتواجه مرحلة تدمير النفس ـ وحتى نتفادى هذا الوضع يجب أن نتعلم ان نفكر فى اوضاعنا هذه بأسلوب « راديكالى » .

وبهذه العبارة السابقة ينتقل فرانكل بالقارىء الى الفصل الثانى بعنوان « **المدرسة الراديكالية** » ويستعين المؤلف بنظريات كانط وماركس وفرويد باعتبارهم ممثلى الراديكالية الاوروبية التى تتميز بعدم الرضا عن الاوضاع التى مازالت مسيطرة على مجتمعاتهم . ويرى فرانكل فى الاتجاه الراديكالى دعوة الى احداث تغير جذرى وسريع في المجتمع وقياداته . ويستعرض الكاتب آراء المرجل الثلاثى للراديكالية . نادى **كانط** بأن الذكاء الفطرى للانسان هو الذى خلق انواعا مختلفة من الادراك الحسى والعقلى ، وان هذه القدرة العقلية الانسانية هى المسئولة عن ادراكنا للحقائق ، وان كل ماصادف البشر من خبرات امكن تفهمها من خلال هذه الحقائق . اما **ماركس** فكان يعتقد انه لايمكن قصر الحقيقة فقط على ماورثناه من خلال صرح انتقل الينا عن طريق التفكير ، ولكن عن طريق خلق فكرة العمل الانسانى ، وان انسانية الفرد التى تعبر عن نفسها من خلال العمل هى التى عبرت عن « الحقيقة الانسانية » . وبلغة مختلفة ومن خلال اتجاه مغاير يصر **فرويد** على ان الذى يشكل الاوضاع الانسانية

لايعيش الا داخل انفسنا . ويرى فرانكل ان ماركس قد فشل فى تفهم دور اللاشعور فى قدرتــه على السيطرة على تفكير الانســان واتجاهاته والذى كان سببا فى فشل كــل حركة للحرية وكل طموح نحو السلام والتعاون الانســانى . ويســهب الكاتب فى توضيحه وتأكيده لنظريات فرويد عن الجنس والدور الذى يلعبه ليس فقط فى حياة الانسان كفرد ولكن فيما له من تأثير على حيــاة المجتمع بأكمله .

الفصل الثالث يمكن وصفه بأنه جيد ، لان الكاتب بذل فيه جهدا محاولا تقديم تحليل نفسى لمفهوم **الاغتراب** Alienation ويرى فرانكل انه لايجــوز ان نستند على القــوة السياســية او الاقتصــادية كتفسير ملائم لخضوع الانســان للسلطة ، كمــا يرى ان التحليل النفسى للبنــاء الاجتمــاعى الذى يخضع فيه الفرد خضوعا كامــلا لمصلحــة الدولة يجب ان يكــون مكملا لفكرة ماركس عن التحليل الاقتصادى ، وذلك لان الذات العليا تلعب دورا رئيسيا داخل نظام السلطة المطلقة في المجتمع . ومن هنا يحاول فرانكل ان يوضح للقارىء كيف تنمو « الذات العليا » فى الفــرد ويتتبع انعكاس مظاهرهــا علــى المجتمع ، هادفا بذلك الى مساعدة القارىء على تقبل الفكرة التى تنادى بأن الاضطهاد لايمكن حدوثة الا فى حالة ما اذا كان الانسان فى حالة من الاستعداد النفسى لتقبل الظلم ، وان « **الاغتراب** » لايصبح ممكنا الا اذا تمكنت القوى الاقتصادية من استغلال نزعــة الفرد النفسية ليصبح غريبا عن نفسه وعن ماينتجه بساعديه . ويترتب على هذا ان اى محاولة للبحث عــن الحرية الجنسية ســوف تبوء بالفشل لان « الذات العليا » بصفتها السائدة ســوف تبعــث فى النفوس الشــعور بالاثم والقلق .

وينتهى الكاتب من هذا الفصــل محاولا التأكيد بأن الهدف من وراء الثــورة الجنسية كان يقصد به ان تكون عبارة عن حافز التغير الاجتماعى الذى يتميز بالوصول الى جذور السلطة المتحكمة فى المجتمع ، وذلك بدلا من توقفها في الطريق مدافعــة ومؤيدة لفكــرة « الاباحية » دون ان تتعرض الى اعماق البناء الاجتمــاعى . ويرى فرانكــل ان الثــورة الجنسية قد انحرفت عن اهدافها الحقيقية الى طرق التحــدى والتمرد ، مؤكدة بهــذا السلوك سلبية الاعتماد على « الذات العليا » لصرح البناء الاجتمــاعى . والمهم **هنا** هــو اشارة الكاتب الــى ان التخلصــ مــن قلــق « اللذة » قد تحــول الى نوع مــن العبادة للاغتراب الجنسى الذى يأخذ صورة سلعــة استغلها طموح « الذات العليا » لمصلحتــه الخاصة فدفع بها الى سوق العمل التجارى .

ويتناول الكاتب فى الفصل الرابع موضوع **مهنة الجنس** وهنا يؤكد انه بدلا من ان تصبح الثورة الجنســية حافزا للتغير الاجتماعى اصبحت تعمل كحافز لتدعيم سوق جديدة للاستغلال التجارى . ويسخر الكاتب مــن قادة هذه الثورة قائلا ان افضــل باعــة فى ســوق الجنس هــم « متعهــدو الحريــة الجنسية » . ولا يفوت فرانكل الحديث عن انتشــار المصانع التى اصــبح كــل اهتمامها موجها الى انتاج العقاقير التى يؤدى تعاطيها الى الشعور بالارتيــاح العاطفى او التخلص من الشعور بالقلق . فبالنسبة لهؤلاء الذين وقعوا فريسة للحزن والكآبة ويئسوا مــن وضعهم فى مجتمع حرمهم من انسانيتهم فأن

الكيان السائد كفيل بانعاشهم ليجعل منهم متفائلين وذلك عن طريق نقلهم « عقليا » الى عالم افضل . فاذا ما عانى الانسان من الضعف الجنسى والوهن او عدم الشعور بالاهمية فهنالك عقاقير الامفيتامينز Amphetamines التى بامكانها تنبيه الجهاز العصبى للفرد ومنحه الثقة فى النفس . واذا ما عانى الانسان من التوتر العصبى واحتاج الى مهدىء فان املاح الباربيتوراتس Barbiturates تملأ السوق لتعيد اليه هدوءه . ويخرج فرانكل من تقديمه لهذا الفصل بنتيجة يزعم فيها انه عندما يعمل المجتمع على تشجيع استهلاك اللذة العاطفية والجنسية فان أى محاولة للتمرد على النظام الاجتماعى تصبح عديمة الجدوى. واذا ما حاولت احباطات الليبيدو Libido الظهور فانها سوف تكون عاجزة عن ابداء أى رغبة فى أحداث التغير الاجتماعى ، أو القيام بثورة ، وان كل ما يمكن ان تسببه مثل هذه الاحباطات هو نوع من الاضطراب العصبى او عدم الرضى العصابى الذى يفصح عن وجوده في صورة انحرافات او تمرد المراهقين ، وكلها فى راى المؤلف امراض يمكن التغلب عليها عن طريق التردد على المحللين النفسيين وماتنتجه المصانع من عقاقير بما فيها ال . اس . دى .

الفصل الخامس من الكتاب ، وان كان لايكمل صفحتين ، الا انه يقرب القارىء الى فكرة العلاقة التى تجمع ما بين **الصحافة والثورة الجنسية** معبرا عن ان الصحافة هى التى تقوم بوظيفة المرآة التى تعكس التقاليد الجنسية فى المجتمع ، ولكن بطريقة ماهرة يجب أن تسترعى انتباه الباحثين . وتتلخص هذه المهارة فى قدرة الصحافة على تدعيم قواعد سلوك « الذات العليا » فى الوقت الذى تعطى فيه فرصة لابناء المجتمع لان يتخلصوا من العقد النفسية ، وذلك عن طريق افساح المجال للتعبير عنها تعبيرا كاملا . ويتعرض فرانكل بعد ذلك الى موضوع انهيار القيم الاجتماعية والدينية ، ولجوء الانسان الى علم الاجتماع ، ليكشف له عن القوانين والقوى التى تفسر طبيعة الحياة فى المجتمع . ولكن الكاتب يعتقد أن علم الاجتماع قد فشل في أن يحل محل اللاعقلانية القديمة التى اعتمد الناس عليها فى التعبير عن سلوكهم . كما يرى انه فى الوقت الذى باءت فيه جهود علم الاجتماع بالفشل فقد نجحت الصحافة فى منح الناس الشعور بالانتماء واحساسهم بكيانهم .

ويتحدث الكاتب فى **الفصل السادس عن صحافة المرأة** مشيرا الى أهمية كثرة انتشارها فى وقتنا الحاضر (حسب احصائيات عام ١٩٦٩ ظهر في انجلترا وحدها ٣٧ مجلة بيع منها ٣ ملايين نسخة لمجلة Woman ، ٣٢.٢ الف نسخة لمجلة Harpers and Queen وبعد عرض لهذه المجلات يبدى الكاتب اسفه لعدم وجود دراسة سوسيولوجية للتعرف على مدى تأثير انتشار هذه المجلات . الا انه يشير الى دراسة واحدة قامت بها Cynthia L. White والجدير بالذكر هنا ان الكاتب لم يشر الى عنوان الكتاب الذى احتوى على هذه الدراسة فى صفحات كتابه الخاصة بالمراجع، ثم ينتقل الكاتب الى استعراض للمجلات النسائية التالية مرتبة حسب اهميتها :

Harpers and Queen, Woman, Cosmopolitan, Nova, Woman's Own, Vogue, Petticoat, Honey, Woman's Weekly, She.

ان عرض الكاتب لهذه المجلات يعتبر ــ فى رأى الناقد ــ على جانب عظيم من الاهمية

بالنسبة للقارىء وخاصة فى المجتمعات غير الغربية ، حيث يقوم فرانكل بتقديم دراسة بسيطة ذات طابع تحليلى لكل مجلة على حدة ونوعية « القارئات » اللاتى يفضلن قراءةمجلة على مجلة اخرى . واذا احتاج الامر نجده لايتردد فى عقد مقارنة ما بين مجلة واخرى . وينتهى الكاتب منتقديمه لهذه المجلات بتعميم ينادى فيه بأن الثورة الجنسية لها تأثير كبير على المراة المثقفة ، وانها قد لعبت دورا قويا لم يقتصر فقط على التسهيل من عملية خلق نوعية جديدة من المراة الواعية ، بل تعداه الى التأثير على الفتيات المراهقات .

وكثيرا ما يصاب القارىء بالحيرة عندما يجد الكاتب يعبر عن اعتقاده فى تعاظم مفهوم الحرية الجنسية عند النساء ، وان أهدافهن في الحياة قد تعدتالحدودالتى كانتمرسومة لهن فى الماضى ، ثم يعود بعد ذلك متسائلا عما اذا كان هذا التغير يعتبر تغيرا أصيلا فى حياة المراة ؟ ويجيب على ذلك متشككا فى طبيعة هذا التغير لانه ــ فى اعتقاده ــ بنى على أساس ان الثورة الجنسية لاتعدو كونها موجهة للاستهلاك ، حيث انتأثير المحاسن التىجنيت من وراء التسامح الجديد يعتبر ــ فى نظره ــ تأثيرا سطحيا للغاية دون أن يكون له اثر ملموس على البناء الاجتماعى نفسه ! !

يتحدث الكاتب في **الفصل السابع** عنالدور الذىلعبه**الادباو الفنالاباحى** Pornography فى اسقاط الثورة الجنسية . ويعتقد فرانكل ان نقد الثورة الجنسية يجب ان لايكون عن طريق شن هجوم مباشر على الادب والصور الاباحية لانها لا تمثل « المجرم » الحقيقى فى القضية ، وانها لا تتعدى كونها عرضا من أعراض مرض اثر بعمق فى الحضارة الغربية.

وبالاضافة الى ذلك يرى فى هؤلاء الذينينادون بالقضاء على الادب الاباحى انهم يتمسكون بالمظاهر دون التعرض للاسباب الحقيقيةالتى تمتد جذورها بعيدا فى الماضى ، وقبل ان تحصل البرجوازية الحديثة على حريتها . ويعتقد الكاتب ان ما نواجهه في وقتنا الحاضر انما هو عبارة عن حصيلة للضغوط الشديدة التى كانت تعانيها الحرية الجنسية فى الماضى، سواء كان ذلك عن طريق السلطة الدينية او السياسية ، ويسترسل فرانكل بعد ذلك فى عرض هذه الناحية عن طريق ربطها بنظريات التحليل النفسى الخاصة باللاشعور والجنس عند الاطفال .

ويحاول فرانكل فى **الفصل الثامن**منالكتاب اثبات ان **الرومانسية لاتسلب المراة شخصيتها** بل على العكس من هذا . فهى تؤكد وتعظم من هذه الشخصية ، ويستعرض الكاتب آراءه فى الحب الرومانسى الذى لعب ومازال يلعب دورا هاما في الحضارة الاوروبية ، وذلك عن طريق تحليله للحركات الرومانسية الرئيسية وهى : العبادة او الهيامAdoration من جهة ، والسادية Sadism والمازوكية Masochism من جهة اخرى ــ وهاتان الحركتان الاخيرتان تقعان ضمننطاق الشذوذ الجنسى . فالاولى يتمثل فيها نوع الحب الذى يتلذذ فيه المرء عن طريق انزال صنوف العذاب بمحبوبه ، والثانية يتمثل فيها الحب الذى يتلذذ فيه المرء بالتعذيب الذى ينزله به رفيقه . وبالطبع يعتمدالكاتب فى شرحهوتفسيرهللرومانسية بأنواعها المختلفة على نظريات فرويد فى التحليل النفسى .

يخصص الكاتب **الفصل التاسع لصحافة الفن الاباحى** واكثر هذه شيوعا هما مجلتا Penthouse, Playboy وبكل دقة يصور

الكاتب فى عرضه لهاتين المجلتين كل ما تقدمه لقرائهما من موضوعات ، وخاصة فيما يتعلق بالجزء الخاص بالاعلانات الجنسية ذات الطابع الخاص الذى تنفرد به كل مجلة . وينتقل بعد ذلك الى عرض لنوعية اخرى من المجلات تعتبر ـ فى نظره ـ على مستوى ادنى من سابقتها وهى **Knave Special, Modern Man, Mayfair, Forum, Prove.**

وفى سياق عرضه وتحليله لهذه الدوريات ذات الطابع الجنسى البحت يتساءل الكاتب على لسان استاذه Reich عن جدية الدور الذى تلعبه في المجتمعات التى تنتشر فيها ، وعما اذا كانت تعزز من فكرة اظهار الحياة الحرة الصحية للرجال والنساء ، اذ انها لا تمثل سوى محاولة من جانب الافتضاحيين لاثارة الآلاف ممن من جانب اشباع رغباتهم الجنسية المكبوتة عن طريق النظر الى مثل هذه المجلات ومطالعتها .

الفصل العاشر مخصص لما يطلق عليه الكاتب اسم **Political Pornography** ويقصد بها الصحافة السرية Underground Press ويعتقد فرانكل أن اهم ما يميز هذا النوع من الصحافة هو انها تنظر الى الثورة الجنسية وكأنها مطية لثورة اجتماعية قادمة. ولهذا فهى تعبر عن وجهات نظر يسارية ، وكلها تعمل ضد النظم المستقرة الحالية ، ممثلة فى اخلاقيات الراسمالية ، والاسرة ، والسلطة الابوية والمتزلفين والخنازير (المقصود بهم هنا رجال البوليس) .

ان قراءة الفصل الحادى عشر تعطى الانطباع بأن العالم كله منهمك فى عمليات التجريب بميكانيكيات الجنس ، وان اى بيت لا يصبح متكاملا الا اذا احتوى على آلة الاهتزاز الجنسية Vibrator التى فى امكانها ان تشبع المراة جنسيا دون الحاجة الى وجود الرجل . ويتعرض فرانكل بالنقد للتجارب التى اجراها كل من Masters and Johnson والتى قاما فيها بملاحظة أكثر من عشرة آلاف رجل وامراة اثناء ممارستهم للعملية الجنسية سواء عن طريق الجماع أو ممارسة العادة السرية . وقام الباحثان بتسجيل ملاحظاتهما ونتائجهما فى كتاب بعنوان « الاستجابة الجنسية عند الانسان » **Human Sexual Response** وعلى الرغم من امتداح فرانكل للصبغة العلمية التى اتصفت بها هذه الدراسة الا انه لايتردد فى التقليل من شأنها عند مقارنة النتائج التى توصل اليها هذان العالمان بما كتبه Reich وتفسيره للجنسانية الانسانية من وجهة نظر التحليل النفسى ، ويعلق بعد ذلك على هذه التجارب مؤكدا ان الجدال حول فكرة السعادة التى يصل اليها الانسان عن الطريق العضوى فقط تعتبر ذات مغزى محدود بالنسبة للانسان وتحتاج الى تصحيح ، وذلك حتى لا تقودنا الحرية الجنسية ـ التى يبشر بها الكاتب ـ الى طريق مسدود .

ويعالج الفصل الثانى عشر موضوع تحرير المراة ويرى فرانكل أن كفاح المراة من أجل الحصول على احترام النفس والمساواة قد انطوى على نوع من العدوان الموجه الى الرجل بصفة عامة . ويعتقد الكاتب ان كثيرات من النساء المنحرفات جنسيا قد التحقن بحركة تحرير المراة ليس بدافع الاعتقاد فيها ولكن من اجل الكفاح في سبيل تأكيد حريتهن فى مزاولة الانحراف . ويسخر الكاتب مما جاء فى كتاب Germaine Greer (وهى تعتبر احدى المتحدثات

رسميا باسم حركة تحرير المراة) بعنوان The Female Eunuch الذى يعنى « الانثى التى سلبت كل شيء ما عـدا قدرتها علـى الانجاب» ويصف افكار الكاتبة بأنها لاتستحق التعليق .

الفصل الثالث عشر مخصص لمعالجة قضية يثيرها الكاتب بسؤاله « هل انتشر وباء اصابة الرجال بالعنة » ويرجع فرانكل السبب فى اثارته لهذا السؤال للنواحى التالية : ـ

١ ـ كبت الرجل « المسيطر » لاظهار غضبه نحو المراة المحررة او صاحبة السلوك العدوانى .

٢ ـ انماط وحدوية الجنس Unisex التى بدأت تنتشر فى المجتمعات الغربية .

٣ ـ الرجل المطيع الذى يرحب بالمراة المسيطرة التى تقوم ازاءه بدور الأم .

ويعلق الكاتب على كل ناحية من النواحى السابقة بالشرح والتحليل ساخرا من فكرة وحدوية الجنس التى تنادى بأن كلا من المراة والرجل يجب ان يقوم بنفس الاعمال التى يقوم بها الآخر . وهذا بالاضافة الى اصراره على أن النساء سوف لا يحققن اى نجاح عن طريق رفضهن لأنوثتهن فى الوقت الـذى يحاولن فيه «خصى» الرجال . وان المتحررات منهن يتسببن في اصابة الرجال بالعنة .

وتحت عنوان **نتائج وبدايات** ينهى فرانكل كتابه بالفصل الرابع عشر . وفى هذا الجزء يتصور الكاتب مرحلتين للتحول الثقافى الذى ينتظر البشرية .

أولا يجب ان نخلق بيئة ايديولوجية تبشر بأن القدرة على ممارسة اللذة الجنسية لا يمكن أن تكون عن طريق استخدام الاعضاء التناسلية فقط ولكن عن طريق الجسم ككل، ويجب أن ينظر اليها على انها نوع من الفضيلة التى يجب تشجيعها . وان انكار اللذة سواء بالنسبة لذاتنا او للآخرين ، ونشر الشعور بالاثم يعتبر عملا شريراً . وفى الوقت نفسه يجب أن نساعد الآباء على ادراكهم بمسئوليتهم فى توصيل المعلومات الجنسية لأولادهم باعتبارها امرا مهما يساعدهم على النمو كأشخاص أصحاء واحرار .

ثانيا يجب ان نعرض خصائص انكار الحياة الجنسية التى تتميز بها ثقافتنا المعاصرة الى تحليل دقيق ، وارجاع هذه الخصائص الى دوافع النظام الأبوى المستبد والتى لا تقاوم ، ثم نقوم بوضع اطار نظرى لمجتمع خال من مثل هذه التعقيدات النفسية.

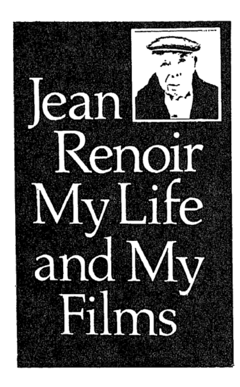
واخيرا من وجهة نظر هذا الناقد ـ لقد قام فرانكل بدور المرآة التى عكست بكل دقة نظريات فرويد فى التحليل النفسى ـ وكلنا في نظره نعانى من عقدة « اوديب » التى تحول دون قدرتنا على الاطاحة بالحكومات الديكتاتورية التى نخضع لها والتى تبدو ـ من وجهة نظره ـ وكأنها تنتشر فى جميع انحاء العالم ـ ومن الامور التى استرعت انتباهى كعارض لهذا الكتاب ان فرانكل لم يحاول ان يعالج مشاكل الاسرة والعلاقات بين الازواج من وجهة نظر «الحرية الجنسية»، كما انه لم يحاول أن يحدد معنى « الحرية » فى نطاقها السياسي كما أن لفظ «المسئولية» لم يذكر فى سياق الكتاب .

لقد دافع فرانكل بكل ما لديه من قـدرة فكرية عن نظرية فرويد التـي تتلخص فى شعور الفتيات الصغيرات بالحسد ازاء الاولاد الذين يملكون اعضاء تناسلية معينة لا تملكها الفتيات وذلك عندما اعترضت هذه النظرية بواسطة زعيمات الثورة الجنسية ، ولكنه يفشل فى ذكر أن ما اعترض عليه هـؤلاء النساء هو عدم تطبيقه لهذه النظرية علـى الفتيات الكبار اللاتـي اصـبحن ينافسـن الرجال في المجالات ذات الطابع الفكـرى . واخيرا لقد نسى فرانكل أن يذكر فى كتابه أن هناك الكثيرات من النساء ممن لديهن حاجات اخرى ملحة لا علاقة لها بالاستمتاع بالشهوة الجنسية اذ أن القضية التى نواجهها الآن هى كيف نحرر أناسا يعانون من الوحدة والقبح وكبر السن والحاجة الى الحب .

وبصفة عامة فان الكتاب جيد ، ويعالـج موضوعات انسانية على جانب كبير من الاهمية ، ولا بد للمجتمعات من مواجهتها بصراحة دون مواربة أو خجل .

والكتاب ليس سهلا ، اذ يتطلب من قارئه ان يكون على دراية بالتطورات الحديثـة فى مجال الجنسانية الانسانية ، وأن تكـون له خلفية فيما يتعلق بالنظريات الخاصـة بالتحليل النفسى .

★★★



جان رينوار
حياتى وافلامى

عرض وتحليل : الأستاذ هاشم النحاس

يعتبر جان رينوار من أبرز المخرجين فى تاريخ السينما العالمية ، وفى رأى شارلى شابلن أن « أعظم مخرج سينمائي ظهر فى العالم هو المخرج الفرنسى جان رينوار » .

تبلغ أعمال رينوار ٤٦ فيلما ما بين عامى ١٩٢٤ و ١٩٦٩ ، كتب السيناريو لأولها ، واخرج الباقى ، بالاضافة الى اشتراكه فى كتابة السيناريو بصفة دائمة ، وتحظى هذه الاعمال باهتمام النقاد والدارسين . ما نشر عنها من كتابات ودراسات يفوق كل ما نشر عن أى مخرج فرنسى آخر . وربما لا يفوق عليه من هذه الناحية ــ على المستوى العالمى ــ غير **ايزنشتين** . ولا يقاربه فيها غير عدد محدود جدا من المخرجين العالميين .

من أهم هذه الكتابات ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ كتاب **« الفيلم والعين الفاحصة » تاليف دينيس دينيتو بالاشتراك مع وليام هيرمان** ١٩٧٥ ، وكتاب **« جان رينوار .. بحث فى افلامه وفلسفته » تاليف بيير ليبروهون ١٩٦٧** . وقد ترجم هذا الكتاب الى الانجليزية عام ١٩٧١ فى سلسلة « سينما اليوم » . ومن اضخم ما كتب من أعمال جان رينوار الكتاب الذى كتبه **ريموند دورجنات** (٤٢٩ صفحة)

Jean Renoir, My Life and My Films. Collins. London, 1974.

ويحمل اسم « **جان رينوار** » وفيه يحاول ان يكشف عن تناسق البناء الفنى لكل فيلم من أفلامه باعتباره وحدة عضوية متكاملة .

ومنها كتاب « جان رينوار » الذى يضم مجموعة من المقالات والأحاديث واللقاءات مما سبق نشره في نيويوركر واوبزيرفر (لندن) ما بين عامى ٦٩ ، ١٩٧٣ ، بقلم **بنيلوب جيليات** التى تنظر الى رينوار باعتباره «أعظم عظماء السينما » وعن اعماله تقول : « يعتبر عمل رينوار فى مجمله من أقوى الأعمال تأثيرا فى تاريخ هذا الوسط . وعلى مستوى الافلام الفردية نجد أن أفلاما مثل : « الوهم الكبير » (وقواعد اللعبة) من بين اعظم الاعمال السينمائية التى لاتتجاوز اصابع اليد الواحدة » .

ويحاول ليوبراودى فى كتابه « **جان رينوار** » **عالم أفلامه** ١٩٧٢ ، ان يكشف لنا عن أبعاد عبقرية رينوار السينمائية . ولايتأتى هذا ببساطة عن طريق تناول فيلم بعد آخر ، ولكن بدراسة نقدية ثرية عن أعمال الفنان الكبير مجتمعة ، يركز فيها على العلاقات الاساسية فى أفلام رينوار بين المسرحى والطبيعى ، السحرى والميكانيكى ، المرتجل والمخطط ، الاجتماعى والجمالى .

أما كتاب اندريه بازان عن « **جان رينوار** » الذى يصل الى ٣٢٠ صفحة فى ترجمته الانجليزية ١٩٧٤ ، فيحتل مكانة خاصة من بين كل ما كتب عن رينوار . وقد قدمه رينوار بنفسه . وعن الكتاب يقول فرنسوا تريفو ــ أحد رواد الموجة الفرنسية الجديدة « بالنسبة لى يمثل هذا الكتاب افضل كتاب في السينما كتبه أفضل ناقد سينمائى عن أفضل مخرج سينمائى » .

وفى هذا الكتاب يحاول بازان أن يتابع شعر رينوار المرئى ابتداء من فانتازيا الآفاق جارد فى « **بائعة الكبريت الصغيرة** » ، ومن خلال ريادته للواقعية الجديدة فى « تونى » ، والانسانية الملحمية فى « الوهم الكبير » ، والسخرية الاجتماعية المرة فى «قواعد اللعبة» والصورية الرقيقة في « يوم فى القرية » والتناسق التام فى النهر » .

ومما يجدر الاشارة اليه انه الكتاب الوحيد بالعربية عن رينوار ، وهو كتاب « **تحليل أفلام رينوار** » الذى ترجمه عن الفرنسية انوبيس شنودة . والكتاب عبارة عن مقالات تحليلية مدرسية يختص كل منها بفيلم من أفلام جان رينوار اشترك فى تأليفه طلبة معهد الدراسات العليا بباريس .

ورغم كل ما كتب عن رينوار ، فقد حثه الكثير من أصدقائه على كتابة سيرته الذاتية « انهم لا يكتفون بما يقدمه الفنان من خلال الكاميرا أو الميكروفون بل يريدون ان يعرفوا من هو الفنان » (١) وكان هذا الكتاب الذى بين أيدينا ويحمل عنوان « جان رينوار .. حياتى وأفلامى » فى ٢٨٧ صفحة من القطع الكبير . ويحدد لنا جان رينوار من البداية غايته من وضع هذا الكتاب ، كما يحدد لنا وجهة النظر التى يعالج من خلالها مادته حين يقول : «**من جهتى ارى أن الفنان ــ أو أى شخص آخر ــ هو نتاج بيئته . ومن المخاطلة الاعتقاد بسيادة الفرد . فنحن لا نوجد من خلال انفسنا ولكن من خلال البيئة التى تشكلنا . ومن ثم لن احاول أن أضمن هذا الكتاب ، قائمة بكل أفلامى ، وهو ما تم من قبل ، وعلى الأخص فى العمل الفذ الذى كتبه اندريه بازان ، ولا أستطيع ان أضيف عليه شيئا ، ولكنى ساحاول**

---

(١) كل ماهو بين اقواس فيا يلي دون ذكر مرجعه مقتبس عن كلام رينوار بالكتاب المعروض .

أن استرجع مـن الاشخاص والاحـداث ما اعتقد انه لعب دورا فى تشكيل شخصيتى مما جعلنى على ما أنا عليه)) .

ولا شك أن رينوار بتحديد هذه الغـاية وحرصه على تحقيقها بالفعل خلال فصـول الكتاب كله جعل من عمله شيئا مبتكرا ، لا لأنه عمل غير مسبوق ، أو لأن غيره لايستطيع أن يكتبه بحكم طبيعة مادته الذاتية ، ولكـن لانه ــ فوقهذا وذاك ــ كان قادرا علىالاختيار والتحليل ومن ثم النفاذ الى أعماق ممارساته الحياتية والفنية مما جعل من كتابه درسـا كبيرا في الفن والحياة ، يمكن وضعه بكلتقدير الى جانب اعماله السينمائية العظيمة التى تعلم منها الكثيرون ، ولازالت تمثل رصيـدا هاما فى تاريخ فن الفيلم .

الطفـولة (*)

من الطبيعى أن يبدأ رينوار فى فصولكتابه الاولى بتحديد مكونات نشأته : النـــاس والأحداث ..وعلى الأخص مايقودنا الىعلاقته بالسينما « كانت اول تجربة لى مع السـينما عام ١٨٩٧ وكنت قد تجاوزت الثانية بقليل ، غير أن أول لقاء مع المحبوب كان لقاء فاشلا تماما » ، ذلك انه ما أن بدأ العرض حـتى أفزعه الظلام والآلة المخيفة التى تطلق شعاعا من الضوء ، وظهور سلسلة من الصور غـير المفهومة على الشاشة مصحوبة بصوت بيـانو عند أحد الاطراف . وما كان منه الا أن انفجر بالصراخ واضطرت جابرييل ان تأخذه آسفة الى الخارج . وجابرييل هى ابنة عم امه التى تعيش معهم وترتبط فى ذهنه بالمرح والنزهة واللعب فى مقابل أمه التى كانت تمثل عنـده الجانب المتعب فى حياته لأنها الشخص الذى يأمره بأكل طعامه كله والذهاب الى دورةالمياه والاستحمام . ونعلم أن اباه كان مغرما بشعره الذهبى وكان يحب أن يرسمه ، لذلك تركوا شعره يطول حتى يتهدل على كتفيه . وفيسن السادسة ، ورغم البنطلون الذى يرتديه ، كان الكثير من الناس يظنونه فتاة . لهذا كله ضاق رينوار الطفل بشعره وانتظر اليوم الذى يلتحق فيه بالمدرسة للتخلص منه . لكن أباه كان يؤخر هذا اليوم لأنه كان يخشى نظام التعليم ، وهو يعتقد أن نسمة الهواء افضـل من درجة الماجستير فى الرياضيات .

وعندما اخذته امه يوما الى احد المعـارض ورأى لأول مرة بعض لوحات والده خـارج المنزل صدمه ان يجدها فى هذا المكان الغريب « لم أتصور وجود هذه الصور التى تصاحب حياتى اليومية فى هذا المكان الا على انهاسرقت ولابد أن ذلك الرجل المهذب زعيم عصابة من اللصوص » وتكشف لنا هذه الحادثة عننوع علاقة جان رينوار بلوحات والده وعنها يقول « ان هذه الصور كانت جـزءا مـن مملكتى الخاصة » .

وكان رينوار الأب يبحث دائما عن قيـم جديدة للضوء لذلك كان دائم التغيير لمسـكنه فى الضواحى قريبا من الريف . وفى وسط احدى القرى، وتدعى ماجاجنوسك، استأجر كوخا ريفيـا ، ويعبر لنـا رينوار الابن عن عواطفه المشبوبة المتعلقة بهذه الفترة الاولىمن حياته في الريف مما يكشف عننزعةرومانسية واضحة بقوله « لم اعد أرى شيئا من هـذا السلام الذى كان يغمر ماجاجنوسك مـرة اخرى ، ودراجة الأب أوبرت (التى كانيتعلق بها) ومشية الفلاحين البطيئة الهادئة .. فقد تغير العالم الى الأفضل والى الاسوأ أيضا . ومن المؤكد ان هدوء المساء قد اختـفى مـن العالم الحاضر الذى يبدو انه يقوم أساساعلى توتر لا غاية منه .

(*) العناوين الموجـودة هنـا لا تمثل عناوينالفصول الموجودة بالكتاب وانما وضعتها من عنـدى وفقا لسياق العرض وتوضيحا لمحتواه . (هاشم النحاس)

وكان رينوار الطفل فى حوالى الخامسة عندما اصطحبته جابرييل الى عرض القراقوز وأصبح متيما بذلك الشكل من التسلية . وعملت مشاهداته هذه على تشكيل ثقافته الفنية ذلك ان ملابس الشخصيات الرمادية الداكنة على خلفية من الديكورات الرمادية جعلته ـ على حد قوله ـ يخشى التناقضات الحادة ، كما يذهب الى ان هذه العروض غرست فى نفسه الغرام بالقصص البسيطة والارتياب العميق بما يدعى عامة باسم علم النفس .

وكان فى حوالى التاسعة من عمره عندما حدث لقاؤه الثانى بالسينما من خلال العروض الاسبوعية بالمدرسة ، وكانت عبارة عن أفلام قصيرة يلعب بطولتها دائما ممثل هزلى معروف باسم اوتومايول . وقد بلغ من تأثير هذه العروض فى نفسه أن أحد طموحاته التى يأسف على عدم تحقيقها عندما أصبح صانع أفلام كان صناعة مجموعة من الافلام القصيرة تقوم على فكاهات ميكانيكية على غرار ما يتذكره من أفلام اوتومايول . الامر الذى حققه بعض زملائه ممن يعجب بهم أمثال رينيه كلير وماك سينيت .

وكان رينوار فى حوالى العاشرة عندما اكتشف الكسندر دوماس ، وكان يتمثل أبطال ميلودراماته . ويتخيل نفسه في مواقفهم البطولية الشريفة دفاعا عن اليتامى والفقراء. جابرييل هى التى علمته ايضا تقديس الميلودراما حيث حرصت على اصطحابه فى متابعتها للمسرحيات الميلودرامية المنتشرة وقتها . ويدافع رينوار عن اعجابه بهذه المسرحيات ساخرا من العقول المتعالية التى تعتبر هذا النوع من المسرح مجرد كذبة ؛ ويستبدلونه بما يدعى المسرح الواقعى . لأن هذا المسرح الأخير فى نظره لايقل كذبا عن المسرح الرومانسى .

جنون السينما :

سمع رينوار فى شبابه عن ممثل موهوب اسمه شارلوت. وهو أحدالاسماء التىاشتهر بها شارلى شابلن فى باريس . « ومنذ أن رأيت أول أفلامه لم أنسه وحرصت على مشاهدة كل ما يعرض له فى باريس ، ولم يخبو حبى له ابدا » .

وكان شارلى هو السبب في جنون رينوار بالسينما عموما حتى أصبح يرى ثلاثة أفلام يوميا . اما جريفث فهو الذى جعله متعلقا باللقطة القريبة . « ولشدة حبى لهذه اللقطة الجأ أحيانا الى اقحام مشهد كامل فى فيلمى لانه ببساطة يسمح لى بتصوير لقطة قريبة حقيقية » .

كيف بدأ العمل بالسينما :

كانت «ديدى» موديل والدته تشارك رينوار الابن غرامه بالسينما ولعب هذا الغرام المشترك دورا كبيرا فى قرارها بربط حياتهما ببعض . كانت ديدى شقراء جميلة جدا وكانت تسلك سلوك النجوم .. وكثيرا ما أوقفها الناس فى الطريق ليسألوها ان كانوا رأوها فى أحد الافلام . واتصل رينواربصديقه بيير ليسترينجويز لتقديمها الى السينما حيث كان كاتبا وله علاقة بهذا الفن . ويؤكد رينوار انه لم يضع قدمه فى السينما الا من أجل ان يجعل زوجته نجمة على ان يعود بعد ذلك الى استوديو الفخار . ولم يكن في ظنه انه لن يستطيع العودة « ولو ان واحدا قال لي وقتها بأنى سأكرس كل ما أملك وكل طاقتى لصناعة الافلام لما صدقته » . واختار رينوار القصة الملائمة لزوجته ونمت فى داخله الرغبة فى الاخراج وقرر مع زوجته الدخول فى مغامرة انتاج فيلم « فتاة الماء » . وكان يحلم هو وزوجته التى اختار لها اسم كاترين هسلنج بتحرير السينما الفرنسية من كل الآثار المسرحية والادبية « وكنا نأمل أيضا ان نراعى

الاسلوب الامريكي فى الحركة » . كان رينوار هو منتج الفيلم وليس مخرجه لكنه لم يستطع منع نفسه من التدخل فى الاخراج دائما . وقد عمل الفيلم على أساس استعراض امكانيات كاترين الفوتوغرافية ولم يكن للحبكة غير اهمية ثانوية ، ذلك ان رينوار يؤمن بقول اندريه جيد « الشكل هو كل شيء في الفن » غير ان هذا القول وان كان يصدق فى حالة الموسيقى واحيانا فى بعض اتجاهات الفنون التشكيلية الا أنه لايمكن أن يكون على نفس المستوى من الصدق فى السينما ، ذلك أن الصورة السينمائية بماتحويه من كلمة وانسان تفرض المعنى ، ومن ثم لايمكننا القول بصفة مطلقة بأن الشكل هو كل شيء فى الفن وخاصة اذا كان المقصود هو فن الفيلم .

فرحة النجاح :

لم يحرك فيلم « فتاة المياه » اهتمام احد . واتهموه بأنه يستهين بعقلية المتفرجين بمشهد الحلم الذى تجرى فيه الفتاة فى السماء على حصان أبيض بينما يحيط بها شخصيات مشوهة ترعبها ، ويتحول الرباط حول رقبة العم الشرير الى ثعبان . وبسبب هذاالفشل فكر جان رينوار أن يعود الى عمله بالفخار لكنه كان على ثقة بأن الذين يشترون اعماله الفخارية لايحبونها فيداخلهم . وانمايشترونها من قبيل التظاهر وانجذابهم باسم أبيه حتى يقولون ان لديهم فازة من أعمال رينوار مما يرضى غرورهم . وقرر أن يفتح محلا لبيع التحف الفنية لكنه اكتشف انه غير قادر على بيع اى شيء .

وفى أحد الايام بينما كان يهيم بلا هدف عبر شارع مونامارتر التقى بصديقه جان تيديسكو الذى دعاه لمشاهدة العرض فى دار سينما الموجة الجديدة التى افتتحها مؤخرا ، وكان البرنامج يتضمن فقرات مختلفة من الافلام ومنها مشهد الحلم من فيلم « فتاة المياه » . وذهب رينوار مع كاترين على مضض لانه كان قد قرر قطع علاقته بالسينما حتى كمشاهد . لكن استقبال الجمهور الحافل للمشهد ولهما جعله يشعر لأول مرة بفرحة النجاح ويقرر مع كاترين الا يتركا صناعة الفيلم أبدا .

نانا ثم ماركيتا :

وكان نتيجة هذا القرار المصيرى فيلم «نانا»١٩٢٦ المأخوذ عن رواية زولا . ولتمويل الفيلم كان عليه أن يستدين بالاضافة الى مساهمة اسرة زولا وشركة « فيلم المانيا » فى الانتاج . واختار رينوار لدور « كونت موفات » الممثل الالمانى وارنر كراوس وعنه يقول « هو الذى علمنى كيف أقدر الممثل » كان من أسباب اعجاب رينوار به قدرته المميزة على توظيف الحركات الجسدية الصغيرة . لكن رينوار يتبين فيما بعد ، ان هذه المهارة المتمثلة فى العرض الجسدى للشخصية ليست هي أساس عمل الممثل ، ذلك على الرغم من أن المظهر الخارجى المقنع يساعد بكل تأكيد ، لكنه ليس اكثر من عامل مساعد . اما المهم حقا على حد قول كراوس لرينوار « هو ما أشعر به . وهو ما يتم التعبير عنه بردود الافعال التى لا أحكمها » .

« انقسم الجمهور ازاء الفيلم الى فريقين احدهما يمثل السينما الكلاسيكية اعتبرنى أصحابه (ولا ادرى لماذا) ثوريا شريرا ، والفريق الثانى ويمثل الموجة الجديدةاعتبرنى اصحابه (ولا أدرى لماذا أيضا) مبتكرا جريئا. واعتقدت ان مثل هذا الاستقبال يعني ان الفيلم سيحقق اقبالا تاما . لكن الواقع كان على العكس من ذلك . وأدى فشله الى قرارنا بمقاطعة السينما كالعادة » .

لكن بعد ايام اتصلت به ماري لويس وكانت قد بدأت توا فى تأسيس شركة أفلام تجارية

وطلبت منه ان يخرج لها فيلما بعنوان «ماركيتا» كتب السيناريو ليستر نجويز وقد حمله بكل ما هو مسلم به من اكليشيهات . وقبل رينوار أن يخرج الفيلم ليعبر الحدود الى عالم السينما التجارية . وكان أول فيلم يخرجه بدون كاترين هو أول فيلم يعمله على حد تعبيره « من أجل نجاحى أنا وليس نجاح زوجتى » .

●●●

ما هو الفن :

يطرح رينوار على نفسه السؤال « هل السينما فن) » ويجيب بقوله : يمكنك ان تصنع أفلاما أو تزرع حديقة ففى كل من العملين مايكفى لأن تدعوه باسم الفن . صانع الحلوى الذي يصنع كعكة جيدة فنان ، الفلاح بالمحراث القديم يخلق عملا من الفن عندما يحرث حقلا . الفن ليس قضية في حد ذاتها ولكنه الطريقة التي يعالج بها الانسان القضية . الفن هو الصنعة Making . فن الفخار هو صنعة الفخار وفن الحب هو فن صنعة الحب .

ويستشهد رينوار بقول أبيه عن موزار بخصوص دوافع الابداع حين يقول : انه كتب الموسيقى لأنه لايستطيع أن يمنح نفسه من ذلك ثم يضيف .. والامر لايعدو أن يكون مثل الرغبة فى قضاء الحاجة . من الواضح ان تأثير والده عليه لم يكن له مهربا منه رغم ان والده لم يكلمه ابدا عن الفن . لم يكن رينوار الاب يتدخل فى توجيه نشاط ابنائه وانما كان يتركهم يفعلون مايشاءون . ولكن لعل تاثيره كان يتسرب اليهم من خلال اوحاته ومن خلال احاديثه مع اصدقائه . ومما نقله رينوار عن أبيه ايمانه بواحدية العالم وحب كل الاحياء وهو يقول عن ابيه «كان يعتقد ان سحق حشرة قد يؤدى الى فقدان توازن امبراطورية كاملة» كما كان احد مبادئه الراسخة ايمانه بالتناسب . والتناسب الكامل هو ما جعل من المعبد الاغريقى الصغير البارثينون احد أعمال البناء التاريخية العظيمة .

بعد ماركيتا الذى حقق ايرادا حاول رينوار بشق الانفس ان يعتمد على منتج لفكرة كان يشاركه الاعجاب بها ليستر نجويز ولكن لم يقبل الفكرة احد . ويعلق رينوار على هذا الوضع بقوله انه نظام غريب ذلك الذى لايسمح بحق التعبير عن نفسه الا لمن يملك حسابا بالبنك أو أن يكون من ذوى القربى بأصحاب السلطة « ومع ذلك فان الافلام الثلاثة التالية التى أخرجها رينوار عن طريق القطاع الخاص ولم يقم باختيار أى قصة منها يقول عنها » بعد عدة أسابيع من العمل فى السيناريو كنت اجعلها قصصى واجد السعادة فى عملها . . ويصل من هذه المحاولات الى النتيجة التى لا يفتأ يكررها حين يقول « ومرة اخرى أجد ان الموضوع فى الفن أقل اهمية من التنفيذ » .

أول افلامه الناطقة :

« رحبت بقدوم الصوت ورايت فيه امكانية خلق المواقف الآسرة بين كاترين وميشيل سيمون في فيلم مأخوذ عن رواية « الكلبة » التى كتبها لافوشارديه وعلى الأخص فى المشهد الدرامى القائم على اغنية شعبية تثير اعجابى وهى سيريناد دى باقى » . وغالبا مااستخدم هذه الحيلة لاضفاء شكل ما على احد المواقف فى الفيلم كما فعلت فى « الوهم الكبير » وفى « تونى » وفى « قلب نينون الصغير » .

وكان على رينوار ان يجتاز الكثير من العوائق قبل أن يحصل على فرصة عمل الفيلم . وكان هذا الفيلم بمثابة نقطة تحول في عمله على حد قوله « حيث اقتربت فيه من الاسلوب الذى اسميه بالواقعية الشعرية ، وان اتهمنى الجمهور والنقاد بأنى ضحيت بايمانى السابق » .

كان الدور النسائى يناسب كاترين الىحد الروعة . غير ان الاستوديو كان متعاقدا مع الممثلة جان مارى ، ومن ثم كان من الطبيعى ان يتم اختيارها ، وتخلى رينوار عن كاترين. وكانت هذه الخيانة علامة النهاية لحياتهما معا .

وقد حدث بعد ان انتهى من تصوير الفيلم أن انتزع منه وسلم ليد مونتيرة تقوم على تركيبه . وحاول رينوار انقاذ الموقف لكنه منع بالقوة من دخول حجرة المونتاج . وكاد هذا الوضع يلقى به فى هوة اليأس اولا انه توصل الى أحد كبار المسئولين فى الشركةوقد استقبله فى منزل صديقته التى تأثرت جدا بعرض مشكلته فأصرت على أن يصدر المسئول الكبير أمره لكى يتركوا رينوار ينهى فيلمه بالشكل الذى يريده .

وعندما عرض الفيلم فى « تانس » اعتبرته بعض الجماعات اليمينية المتطرفة فيلماثوريا .. ربما رأوه اهانة للسلطة القضائية ،وقوبل الفيلم بالصفير والاستهجان وتحطيم كراسىدار العرض ، ومن ثم سحب الفيلم « وبدا الأمر لى انه نهاية أعمالى فى السينما » . لولا ان اسعفه الحظ بأحد الاصدقاء من الموزعينالذى عرض الفيلم باحدى دور العرض التى يملكها، بعد ان قدمه بطريقة غير معتادة . فقد عمد في اعلاناته ان ينصح العائلات بعدم دخولالفيلم لأنه فيلم مروع ولا يناسب أصحابالاعصاب المرهفة واستمر الفيلم لعدة أسابيع واثار نجاحه اصحاب دور العرض الذين تهافتواعلى طلبه للعرض فى دورهم .

بعد هذا النجاح تصور رينوار أن طريقه سيفرش بالورود . ولكن لم يحدث شىء من هذا القبيل كالعادة . المشكلة أنه كان يريد أن ينفذ افكارهبينما يفضلالمنتجون انيستخدموا افكارهم . وهناك تصور خاطىء بأن نجاح الفيلم يرجع الى القصة ، ورجل المال يعتقد ان اى قصة يحبها سوف تجذب الجمهور ، بينما نجاح الفيلم فى رأى رينوار يرجع فى الأصل الى صانع الفيلم والممثلين . ولا شك ان تاريخ السينما يقف الى جانب رينوار ، فالقصة الواحدة يتم انتاجها اكثر من مرة وتتفاوت مستويات النجاح كما تتفاوت مستويات الاصالة فيما بينها .

ميول يسارية :

يعمل فيلم « جريمة مسيو لانج » الىجانب تعاونيات العمال ، ومن ثم وضعه هذا الفيلم فى الجناح الايسر من صانعى الافلام . أما فيلم « الحياة لنا » فقد وضعه ضمن الناس الذين يحبون الطبقة العاملة حقا . كان يرى فى امتلاك العمال للسلطة الدواء الممكن لأنانيتنا المحطمة . غير ان رينوار يستدرك بقوله « ولكن اين الطبقة العاملة اليوم في البلاد المتقدمة . لقد شملتهم الحياة البرجوازية والبروليتاريا الحقيقية الآن فى البلاد المتخلفة فقط . »

اما فيلم المارسلييز فقد منحه فرصةالتعبير عن حبه للفرنسية . وتدور احداثه حول فترة الثورة الفرنسية وعن هذا الفيلموسابقه يقول رينوار انه تنفس من خلالهما الهواء النقى للجبهة الشعبية .

تنفيذ السيناريو :

تأخذ العلاقة بين كتابة سيناريو الفيلم واخراجه طابعا خاصا عند رينوار ، ذلك انه كثيرا ما يفاجأ بأن الديكور الذى تم اعداده لا يتفق والموقف الذى يريد تصويره ، فلا يتردد فى اجراء التعديلات فى السيناريو بما يسمح باستغلال الديكور ، وفى حالات كثيرة تؤدى مثل هذه التعديلات الى نتائج مثمرة . ويضرب لنا مثلا على ذلك من فيلم « رحلة جماعية الى الريف » فقد تم وضع سيناريو الفيلم على أساس تصويره فى جو مشرق ، لكن الطبيعة اجبرته على تصوير جزء كبير منه تحت انهمار المطر ، واضطر الى تعديل

السيناريو ، وصار ذلك في صالح الفيلم حيث اضافت العاصفة بعدا جديدا للدراما .

اما فيلم « الاعمال السحيقة » فقداختلف فيه السيناريو عنالقصة الاصلية حتى اقتضى الامر الحصول على موافقة مؤلفها مكسيم جوركى . واثناء التصوير اجرى رينوار تعديلات اخرى بناء على اكتشافه امكانيات الممثلين . اكتشف رينوار ان جان جابان يصل الى قمة تعبيره عندما لايرفع صوته فابتكر من اجله مشاهد خاصة مما يجرى فيها الكلام همسا . ولم يكن لديه فكرة ان هذا الاسلوب من التمثيل سينتشر فى كل العالم لكنه اسلوب لا يأتى دائما بنتائج سعيدة .

يقول رينوار : « اعتدت أن أقرأ السيناريو مع الممثلين مرة واثنتين وثلاثا وربما عشرين مرة بدون تمثيل ولكن من اجل تحليل الدور واكتشاف اصالته المميزة عن دور مماثل . وهو ما يتم لنا اكتشافه معا بالتدريج .

ويترك رينوار للممثل الحرية الكاملة فى التعبير عن نفسه . ولا يعترض ابدا على أداء الممثل حتى لو كان اداؤه كاذبا فى نظره ، وانما يطلب منه فى هذه الحالة أن يعيده مرة أخرى ، مع مراعاة ملاحظة او ملاحظتين . وبذلك يحصل منه على الاداء الاكثر ملاءمة له ، ويعتقد الممثل ان هذا الاداء من عمله هو .

ويميل رينوار احيانا الى توزيع الممثلين على أدوار تختلف تماما عن مجالهم المعتاد . وما يسعده أن يستخدم الممثل بأسلوب غير أسلوبه حتى يحصل منه على التعبير الطازج الذى يمنح الجاذبية للممثل المبتدىء ، ولهذا السبب رفض ترشيح المنتج لجينا مانيه ، وهى أعظم ممثلة تراجيدية وقتها على الشاشة فى دور سيفيريين فى فيلم «الوحش الانسانى» ذلك ان الجمهور فى هذه الحالة سيعلم مقدما بأنه يقبل على مشاهدة دراما مروعة ، وفضل عليها رينوار الممثلة سيمون سيمون التى تؤدى ملامح وجهها الصينية الفاتنة ان يتوقع المشاهد اى شىء الا ان يكون فى مجال المأساة . وكان دور سيفيرين من ادوارهما التى لا تنسي .

ويرى رينوار ان كان ما يحيط بالممثل يجب ان يخضع لهذا الهدف وهو ان يجعل الجمهور على صلة بالانسان . ويمكن ان يقوم الديكور بمشاركة كبيرة في هذا المجال ولكن ليس على حساب الممثل . ومن ثم فقد اضطر رينوار الى اسقاط مشهد الهروب من فيلم «الوهم الكبير » كما وضعه فى السيناريو ، رغم انه كان يعلق عليه أهمية كبيرة ، وذلك بسبب معاناة الممثلين الشديدة لظروف الجو القاسية حتى كاد يستحيل عليهم الكلام ، فضلا عن تلطيخ ملابسهم بالطين واستبدال النص بأغنية « المركب الصغيرة » وجعلت الاغنية شريط الصوت أكثر ثراء وعبرت رمزيا عن الهروب . وكانت النتيجة رائعة .

ويخلص رينوار من ذلك الى النتيجة التى لا يمل تكرارها بقوله : « فى السينما لا يمكن أن يوجد الديكور الدقيق ، أو التصوير الجليل ، أو التمثيل العظيم ، أو الاخراج الملهم .. أقول لا يمكن ان يوجد اى منهم منفصلا على حدة ، فكل شىء يرتبط بكل شىء آخر » .

وينظر رينوار الى المشاهد على اساس انه انسان قادر على التفكير والتخيل لذلك يعامل الجمهور كما يعامل الممثل ، ومن ثم يفضل ان يترك الباب مفتوحا ويدعو الجمهور للدخول بتفسيره الخاص للموقف ومشاعر الشخصيات .

تونى والواقعية الايطالية :

يرفض رينوار راى النقاد فى فيلمه تونى « باعتباره المبشر بأفلام الواقعية الايطالية » ويبنى اعتراضه على أساسين اولهما أن الافلام الايطالية تمثل فى النهاية نتاجا دراميا رفيعا ، بينما كان فى توني يبذل جهدا عظيما لتجنب الدراما ، كما أنه لجأ فى الفيلم الى استخدام الصوت الطبيعي بينما يعمل الايطاليون بنظام الدوبلاج وشريط الصوت عندهم مصنوع بالكامل .

غير أن ماذكره عن فيلمه بعد ذلك يتفق تماما وما نعرفه عن مواصفات المدرسة الواقعية الايطالية الجديدة بحيث يجعلنا لا نتفق معه فى الراى ونقف الى جانب النقاد ، ومن ذلك محاولة ترك الانطباع بأن ما يتم تصويره انما يتم تلقائيا ودون اعداد سابق . وقصة الفيلم مأخوذة عن قصة حب حقيقية اخبره بها صديقه رئيس الشرطة ، وتم تصوير الفيلم أما خارجيا أو داخل اماكن حقيقية ، والممثلون جميعا ومنهم هواة جاءوا من نفس المنطقة التى حدثت بها القصة ، ومن ثم كانت لهم نفس لهجة أهل المنطقة . والفيلم يتجنب غلبة الطابع الفردى . ورغم أن رينوار كان يحب اللقطة القريبة فانه وجد فيها عامل انعزال وفصل ولذلك لجأ الى لقطات استعراضية تربط بين الشخصيات وبعضها ، وبينها وبين البيئة الخاصة بها . وتجنب رينوار التقطيع ، كما وجد في اللقطات الطويلة فرصة للممثل لتنمية ايقاعه الخاص فى النطق بكلماته .

وكل هذه الاساليب التكنيكية هى نفسها ما أخذت به المدرسة الايطالية الواقعية فيما بعد حيث تم انتاج الفيلم عام ١٩٣٤ .

* * *

في أمريكا :

عندما نشبت الحرب العالمية الثانية انتقل رينوار الى امريكا بدعوة من روبرت فلا هيرتى الذى توقع ـ عن حق ـ أن رينوا لابد وأن يكون فى خطر بسبب مواقفه الواضحة ضد الهتلرية سواء فى أفلامه مثل « جريمة مسيولانج » و « المارسيلييز » و « الحياة لنا» او في العديد من المقالات المنشورة بالصحف . واستقبله فلا هيرتى بحفاوة بالغة ، وهناك التقى رينوار بالعديد من الشخصيات السينمائية التى أحبها وعقد صداقات مع الكثير منها ، مثل اورسن ويلز ويورس ايفنز وجون فورد وشارلز لوتون وغيرهم .. ووقع رينوار عقدا مع شركة فوكس .

أرادت شركة فوكس من رينوار أن يتمثل منهج هوليود . ومن ثم دخل رينوار فى مناقشات لانهاية لها مع داريل زانوك أكبر رؤسائها محاولا اقناعه بأن يتركه يعمل على طريقته الخاصة حتى يمكنه ان يقدم شيئا ولا يكون مجرد مقلد . واقتنع زانوك بعد جهد ، وبدأ رينوار بقصة أمريكية خالصة هى قصة فيلم « مياه المستنقع » ١٩٤١ المعدة عن رواية فيرين بل ، وهى قصة رجل اتهم بدون وجه حق بجريمة قتل فلجأ هاربا داخل برارى اوكفينوكى ، وعاش هناك لمدة سنوات الى ان ظهرت براءته بالصدفة . وترجع جاذبية القصة لدى رينوار الى شخصياتها البدائية التى أغرم بها . وجرى التصوير في المواقع الطبيعية ، الامر الذى لم يكن زانوك مقتنعا به . حيث يجرى عندهم كل شىء فى الاستوديو ، « ولكني تنبأت لهم وقتها بانه سيأتى يوم تنطلق فيه فرق هوليود الى مختلف انحاء العالم بحثا عن الاصالة » .

كان المجلس الاعلى برئاسة زانوك يراقب المادة المصورة كل مساء . ولم يرق لهم تصوير احد المشاهد الذى أخذه رينوار فى لقطة مركبة واحدة تجمع كل عناصر الموقف. واضطر الى اعادة تصويره في لقطات بناء على رغبتهم . وكان هذا أول خضوعه لهوليود . ثم طلبوا منه مرة التنحى عن الفيلم ، وعلم من أحد مساعديه أن السبب هو البطء فى العمل ونصحه نفس المساعد أن يلقى بالتهمة على رأس مدير التصوير ، لكن رينوار رفض وذهب الى بيته الى أن أعاده زانوك بعد أن شاهد عمله واقتنع به .

غير أن أكثر ما ضايق رينوار أنه وجد نفسه غير مسئول عن مونتاج فيلمه « ربما تكون النتيجة ممتازة لكنها ليست من عملى» وهو ما يتناقض تماما وحلم رينوار الاساسي عن سينما الحرفي Craftsman's Cinema حيث يكن للمؤلف ان يعبر عن نفسه مباشرة ،شأنه شأن الرسام بلوحاته او الكاتب فى كتبه . ويعتبر رينوار أن النموذج الفريد لهذا الحلم هو شارلى شابلن .

والواقع ان هذا الحلم لا يراود رينواروحده وانما يراود الكثير من فنانى السينما ، ومن خلال تحقيقه بنسب مختلفة استطاع بعضهم أن يحقق روائع سينمائية ، لكن روائع اخرى تمت بالطريقة المخالفة التى تعتمد على الشخص . والسؤال الآن لماذا نقع اسرى تشبيه فن الفيلم بفنون اخرى سابقة ونسقط ما يتميز به هذا الفن من تعقيدات هائلةلاتجعل هذه المقارنة بأى وجه من الوجوه مقارنة عادلة ؟ ولماذا لا يرجع هبوط مستوىالافلام الرديئة القائمة على التخصص الى أسباب اخرى مثل تسلط الاهداف التجارية أو التخلف الاخلاقى للانسان نفسه حيث يتطلب منه هذا الفن قدرا من التعاون والتآزر لم يؤهل له بعد ؟ ومن ثم فان حل المشكلة يأتى بالنهوض بمستوى الانسان فى هذه الناحية بدلا من عملية النكوص الى حرفية القرن التاسع عشر .

وهل من الممكن حقا اعادة تحقيق نموذج شارلى شابلن الفريد ؟ أن شارلى نفسه فشل فى الوصول الى نفس القمة بدخول الصوت الى السينما وزيادتها تعقيدا .

على كل حال ان هذه الاسئلة يجب أن نضعها فى الذهن ونحن نحاول التفكير في حل هذه المشكلة التى يدور حولها رينوار كثيرا ولا يمكن ان نحسم فيها حتى الآن برأي قاطع، حيث لا يسعفنا تاريخ هذا الفن القصيرنسبيا بأمثلة كافية ، كما تعوزنا الدراسات النفسية وعلى الاخص فى مجال الابداع الفيلمى . ومن ثم فان المستقبل وحده هو الذى سيكشف عن هذا الموقف وان كانت الملابسات العملية تفرض نفسها وتفرض التخصص . ولكن التخصص نفسه أصبح يأخذ اشكالا مختلفة وربما كان اهتمام بعض المخرجين الآن بكتابة السيناريو والمشاركة فى المونتاج يحقق وضعا بين النموذج المستحيل الذى يطرحه رينوار والمتطلبات العملية للتخصص،غير أن هذاالحل ليس عاما . وليس دائما مضمون النتائج . فمن خلاله تتم أفلام جيدة وأخرى (هىالاكثر) أفلاما تجارية أيضا ، ويبدو أن الدوافع في النهاية هى الاهم . فعندما تكون الدوافع تجارية بحتة فلن ينقذها التخصص أو عدمه والغاية من السلعة هى التى تحدد نوعيتها.

الجنوبي :

كانت هوليود مغرمة برينوار ، لكنه على حد قوله غرام الفتاة الصغيرة بعروستها . وكان طموحه أن يقبل غرامها دون ان يلقى بأفكاره جانبا . وأتاح له فيلم « الجنوبى » هذا الطموح الى حد كبير ، واليه ترجع عودته الى صناعة الفيلم .

« كان الفيلم من الافلام التى يمكن لها تحقيق غايتى الرئيسية وهى ان أدير شركة صغيرة تتخصص فى أفلام تجريبية ذات ميزانيات محدودة يقوم بأداء الادوار فيها مبتدئون او ممثلون لم ينالوا حظهم بعد » وتمثل هذه الغاية احد الاحلام الاساسية التى تراود ذهن رينوار وتتفق مع حلمه المركزى وهو سيطرة الفنان الكاملة على الفيلم .

عندما رفض جول ماكراى القيام بدور « الجنوبى » سأل رينوار المنتج أن يتخلى عن فكرة النجوم ويبحث عن ممثل جيد . وفاجأ رينوار من حوله باختيار زخارى سكوت الذى تخصص في بعض أدوار قطاع الطرق . وهو من الجنوب ومن ثم ضمن رينوار سلامة مخارج حروفه ، أما السبب الاخر فيرجع الى ما سبق الاشارة اليه فى اعتقاده بأهلية ان يقوم الممثل بدور خارج نطاق دوره المعتاد .

يحكى الفيلم قصة فلاح سئم العمل لدى الآخرين ويحاول ان يعمل لحسابه باستصلاح قطعة أرض صغيرة . ورغم المصائب المتوالية فانه لا يستسلم . وعندما عرض السيناريو على رينوار لم يجذبه اليه القصة وانما عدم وجود القصة . فهو ليس سوى سلسلة من الانطباعات القوية تنتج عن المناظر الطبيعية الواسعة . والطموح البسيط للبطل ، والحرارة والجوع ، والاصرار على حياة ترزح تحت ضغط الاحتياجات المادية اليومية . ونجح الفيلم وسعد رينوار بنجاحه .

● ● ●

رينوار ليس منا :

تعاقدت شركة RKO مع رينوار على عمل ثلاثة افلام اولها وآخرها المراة على الشاطىء « كانت القصة تتعارض تماما مع كل أعماله السابقة . فبينما كان رينوار يحاول فى فلامه السابقة ان يصور الروابط التى تربط الفرد بخلفيته فقد وجد نفسه هنا مطالبا بدراسة لشخصيات تسعى الى العزلة . فالناس ، وقد سئموا حضارة الانتاج بالجملة ، يجاهدون للهروب من الحشد . ومن الصعب أن تتحقق العزلة لانها لا توجد ، حتى الخلاء يمتلىء بالاشباح .

وتحت تأثير ادراك رينوار لعدم صلابة مايصنعه حاول ان يغير القصة أثناء التصوير والنتيجة كانت سيناريو مضطربا أدى الى عمل نهائى يعتبره من جانبه عملا هاما لكنه غامض جدا لعامة الناس . ولم يرق الفيلم للجمهور الامريكى ، والأسوأ من ذلك انه أغضب كل رؤساء RKO حتى أنهم بعد بضعة ايام من العرض الاول للفيلم أبدوا استعدادهم للتخلى عن التعاقد على الفيلمين الاخرين مقابل مبلغ من المال . ولما كان رينوار غير مقاتل بطبيعته فقد قبل العرض . وكان فشل هذا الفيلم علامة النهاية لمغامرته الهوليودية ، وقد لخص داريل زانوك حالة رينوار بقوله « ان رينوار يملك موهبة كبيرة لكنه ليس واحدا منا » .

اول افلامه الملونة :

قرأ رينوار كتاب «النهر» للكاتب الانجليزى رومر جودن ، وظن انه وقع على القصة التى تفتح له أبواب استديوهات هوليود ، ولكن خاب ظنه لان القصة لا تتضمن صيد الافيال او صيد النمور ، والهند بدون ذلك فى رأيهم ليست هى الهند ، ولكن عندما حاول كيثيت ماكيلدانى (الذى يعبد السينما ويعبد الهند واتفق مع الهنود على تحويل فيلم عن الهند) عندما حاول شراء حق اختيار قصة النهر وجد أن رينوار كان قد سبقه الى ذلك فاتصل به واتفق معه على اخراج الفيلم .

وكان رينوار يتوق لاخراج فيلم بالالوان ، وحاول فى هذا الفيلم اول افلامه الملونة ان يضع نظريته فى استخدام اللون موضع التنفيذ . والمبدأ الاساسي الذى يحكم استخدام اللون عنده هو الابتعاد عن تأثرات المعمل . وبعبارة اخرى يرى أنه لاداعى لاستخدام مرشحات خاصة . والمبدأ الثانى الذى يذكره لنا هو انه يتجنب أثناء التصوير الخارجى المناظر الطبيعية ذات الظلال اللونية الناعمة ولهذا كانت البنغال بالنسبة له (مثلها مثل الكثير من المناطق الاستوائية) مناسبة جدا للتصوير الملون . فالالوان فيها ليست بالغة الحيوية وليست مختلطة ببعضها .

كانت رواية النهر نوعا من وصف الحياة لاسرة انجليزية فى البنغال ، واستعان رينوار بزوجة احد الاطباء الانجليز ، كما استعان بالعاملين معه من الهنود فى محاولته النفاذ الى الروح الهندوسية .. كان الفيلم فى حاجة الى فتاة صغيرة لدور هاريت، وهى الشخصية التى يعتمد عليها الفيلم كله ، وكانت الميزانية لا تسمح باستخدام نجمة من هوليود ، لم يتردد رينوار عن اختيار فتاة من الهواة ممن استجبن للاعلان المنشور فى الجريدة وهى باتريشيا والترز .

ويحدد لنا رينوار طريقة تعامله مع الممثلين الهواة بقوله اذا أردنا ان ننجح معهم فعلينا أن نوفر لهم التدريبات ، ولكن لا تكون هذه التدريبات على حساب الادوار التي سيقومون بها. الامر ببساطة هو ان نجعلهم يقراون بدون لعثمة ، وعندما يصلون الى هذه المرحلة ينقلون الى العمل على السيناريو ولكن بالطريقة الايطالية ، اى بدون تمثيل .

مشكلة الاعداد :

لقد يتجه رينوار الى السينما وفى نيته كما ذكر فى البداية ان يتجنب بحزم الاعداد للسينما عن الاعمال الادبية . وماتم بالفعل انه اتجه كلية الى عكس ذلك . ويناقش رينوار مشكلة الاعداد فيقول ان المهم فى الاعداد ليس في تماثله للعمل الاصلي ولكن فى الطريقة التي يستجيب بها صانع الفيلم للعمل الاصلي . وكالعادة يلجأ رينوار الى تدعيم افكاره بالرجوع الى فن الرسم ، فيقول ان اعجابنا باللوحة لا يرتبط بمدى اخلاص راسمها للموديل . أن كل ما نتطلبه من الموديل أن تثير خيال الفنان . لكن رينوا لا يذهب بهذا الرأى الى أقصى مداه تاركا للفنان حريته الكاملة فى الابتعاد عن الموديل ، ويعتبر ذلك غرورا ، ويعود الى القول بأن الفنان الحقيقى يتبع الموديل ، وهو يقصد انه اثناء عمله يعيد خلق الموديل ، سواء كان هذا الموديل شيئا او انسانا او فكرا .

رينــوار والمسرح :

كان لدى رينوار الرغبة فى أن يدخل مجالا جديدا تماما عليه هو مجال المسرح ، وسنحت له الفرصة لتحقيق رغبته عام ١٩٥٤ باخراج مسرحية شكسبير يوليوس قيصر ، ثم اخرج عام ١٩٥٥ مسرحيــة أوفيت . وكــان فيلم « وصية الدكتور كور ديليه » فيلما تجريبيا ينبع عن عمله فى المسرح . تجنب فيهاللقطات القصيرة وصور اغلب مشاهده فى لقطـــة واحــدة . وجد ان هذه الطريقة هي الافضل لضمان اندماج الممثل ، واتخذ رينوار نفس الاسلوب فى فيلم آخر هو «الغداء علىالعشب» ثم هجره بعد ذلك .

آخر أعمالــه :

لقد حاول رينوار في هذا الكتاب أن يعطى على حد قوله فكرة عن انتاجه ، ولكنه اقتصر فقط على تلك الاعمال التي تمثل علامات فى تطوره كصانع أفلام . ويحرص ان ينهي هذه المجموعة بذكر آخر أعماله « مسرح جــان رينوار الصغير » الذى صنعه للتلفزيون عام ١٩٦٩ بعد سبع سنوات من السكون وعنــه يقول « فى هــذا العمــل طــرحت اعتقاداتى وشكوكى من خلال حكاياته الاربع » .

واذا كان رينوار قد ارتبط بالمنهج الواقعى في معالجته الحكايتين الاولى والرابعة فــانه فى الحكايتين الثانية والثالثة جنح الىالخيال ، وعن ميله الى استخدام الاساليب المختلفــة يختتم رينوار كلامه بقوله « لقد قضيت حياتى اجرب مختلف الاساليب لكنها جميعا كانت تتجه نحو غاية واحدة ، وهى فى النهاية تمثل محاولاتى المختلفــة للوصــول الى الحقيقــة الداخلية ، وهذه الحقيقة الداخلية هىالشىء الوحيد الذى يهمنى فقط » .

ولا ينسى رينوار أن يعود فى نهاية كتابهالى جابرييل التى كان لهاأكبر الاثر علىشخصيته، فهى التى علمته منذ طفولته ان يتبين منخلال عروض التسلية غير الواقعية جــدا مبــررا لاختيار الحياة الواقعية ، كما علمته ان يرى الوجه خلف القناع ، والدجل خلف الزخارف، وعلمته أن يحتقر الكليشية .

خبرة حياة :

لقد حاولت قدر الامكان فى هذا العرض حصر الخبرات والآراء الفنية التي يطرحهــا رينوار . والكتاب من هذه الناحية يعتبر ــ في رأيى ــ مدرسة . وقد اســتطاع رينــوار من خلاله أن يقدم فيه بذكاء ووضوح خلاصة خبرته الفنية . وهو اذ يطرح هذه الخبــرة ذات الاهمية الخاصة لكل دارس ســينما ، يجعل من كتابه أيضا مادة خصبة لكل مــن يريد دراسة العملية الابداعية فى هذا المجــال الذى تندر فيه مثل هذه النصوص الوثائقية، وعلى الاخص من خلال ســيرة ذاتية نادرة ، مما يرفع كثيرا من قيمة الكتاب ويجعله جديرا بالقراءة بل وبالدراسة لكل مهتم بالفنوالابداع فضلا عن المهتم بالسينما اصلا .

ولعل قيمة هذا الكتاب تبدو اكثر وضوحا اذا ماقارنا بينه وبين محاولة شابلن المماثلة أيضا في كتابه ، فنجد ان محاولة رينــوار كانت اكثر ثراء . اما لو حاولنــا مقارنتهــا بمحاولة ايزنشتين فى كلامه المتفرق عن اعماله فى كتبه المختلفة فان الاخيرة تبدو الى جانبها معقدة للغاية . والواقع أن البساطة الشديدة

التى يعرض بها رينوا افكاره ميزة اضافية للكتاب تجعل منه مادة جذابة سهلة الاستيعاب لكل قارىء .

ولا شك ان نسبة كبيرة من الافكار المطروحة عن فن الفيلم لم تعد جديدة علينا الآن لكننا اذا ما ربطناها بمرحلتها استطعنا أن نعطيها قيمتها الحقيقية . فقد كان رينوار واحدا من مكتشفى هذه الافكار التى اصبحت مشاعة وميسرة لنا . وكانت أعماله النماذج التطبيقية الحية لهذه الافكار التى ظلت صحيحة ـ فى مجملها ـ حتى الآن . وذلك فضلا عما تضمنه الكتاب من أفكار وآراء اخرى لازالت قيد البحث والمناقشة . وبغض النظر عن اتفاقنا او اختلافنا مع آراء رينوار ، يبقى حيا ـ فوق كل هذا ـ كشف رينوار المتعمق عن تجربته الذاتية فى الفن والحياة .

★★★

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ، وسوف تعرض لها بالتحليل في الاعداد القادمة

1. Evans, Gareth Lloyd ; The Language of Modern Drama, Dent, Rowman and Littlefield, N.J. 1977.
2. Jeffry, D. Balfour & Katz, Roger C. ; Take it Off and Keep it Off, A Behavioral Program For Weight Loss and Healthy Living, Prentice-Hall, Inc., N.J. 1977.
3. Kirstein, Lincoln ; Stuart, Muriel and Dyer ; The Classic Ballet, Basic Technique and Terminology, A & C Black Ltd, London, 1977.
4. Menuhin, Yehudi (editor), My Favourite Music Stories, Lutterworth Press, London, 1977.
5. Nasr, Seyyed Hossein ; Islamic Science. An Illustrated Study, World of Islam Festival Publishing Company Ltd. 1976.

★ ★ ★

مطبعة حكومة الكويت

العدد التالى من المجلة

العدد الثانى ــ المجلد التاسع

يوليو ــ اغسطس ــ سبتمبر

قسم خاص عن

الاتجاهات الحديثة فى النقد الادبي

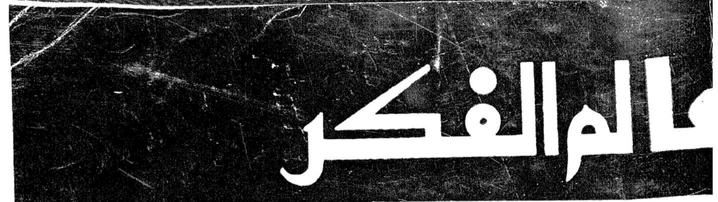
بالاضافة الى الابواب الثابتة

الخليج العربي	٥	ريالات	سوريا	٣	ليرات
السعودية	٥	ريالات	القاهرة	٢٥٠	مليمًا
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	مليمًا
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	ليبيا	٣٥	قرشا
اليمن الشمالية	٤٫٥	ريال	مسقط	٤٠٠	بايسه
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢٫٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلسًا	المغرب	٥	دراهم

الاشتراكات :

للاشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص.ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت



المجلد التاسع - العدد الثاني - يوليو - اغسطس - سبتمبر ١٩٧٨

نحو علم جمال عربي

الشكل والمضمون
في النقد الادبي الحديث

يحيى حقي
بين المصرية والتركية

...وائي الانجليزي في دور التكوين



رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة اشهر عن وزارة الاعلام فى الكويت * يوليو ـ اغسطس ـ سبتمبر ١٩٧٨
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية ـ وزارة الاعلام ـ الكويت : ص.ب ١٩٣

المحتويات

النقد الأدبى

***

آفاق المعرفة

***

أدباء وفنانون

***

عرض الكتب

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم

الاتجاهات الحديثة في النقد الادبي



تمهيد

ربما كان سقراط هو اول من فرق بين تاليف الأدب ونقد الادب وميز بينهما ، وذلك حين ذهب الى انه قلما كان يجد من بين الشعراء من يستطيع ان يشرح ما كان يعنيه بشعره . وكأنما كان سقراط يود ان يقول في هذه العبارة انه لم يكن ثمة من بين الشعراء من يستطيع ان ينقد شعره . وقد أدى ذلك بالأستاذ **لاسيل ابركرومبي**، وهو يستعرض راى سقراط فى مقاله الرائع عن قواعد النقد الادبى الذى نقله الى العربية منذ سنوات طويلة المرحوم الدكتور محمد عوض محمد الى ان يميز بين ثلاثة انواع من المقدارت هى : **القدرة على تذوق الادب ، والمقدرة على تحليل الادب تحليلا منطقيا ، ثم المقدرة على نقد الادب** . وحاول ابركرومبى ان يرد هذا التمييز بين المقدرات الثلاثة الى وجود ثلاث ملكات مختلفة هى ملكة الانشاء او الانتاج الادبى ، وملكة التذوق ثم ملكة النقد . وهذه الملكة الثالثة يمكن ان تكتسب وان تنمى بالدرس والممارسة والمران ، وان كان هذا لايمنع من ان النقد قد يكون غريزيا فى كثير من الاحيان ، وان يصدر على ما سنرى عن القارىء بطريقة تلقائية دون ان يعد لممارسة هذا العمل اعدادا متعمدا مقصودا .

ومهما يكن من امر ، فالمهم هو ان « الناقدعادة يكون مدركا » للخطة التى يتبعها فى نقده ، وان هذه الخطة تعتمد على قواعد منطقية خاصة قابلة لان ترتب بحيث يتألف منها نظام خاص . ومن الممكن دراستها وتطبيقها فى دقة وعناية » ،بينما ليس هناك فى رأيه « قواعد ترشدنا الى كيفية ابتكار الادب ولا الى كيفية الاستمتاع به » . بل الاكثر من ذلك ان النقد الادبى يعجز تماما عن « ايجاد هاتين الملكتين عند الناس اذا لم يكن لهما وجود من قبل . فهو يفترض اذن وجودهما افتراضا » (انظر كتاب **قواعد النقد الادبى** ـ دار التأليف والنشر والترجمة ـ القاهرة ـ صفحتا ٤ ، ٥)

ولكن على الرغم من اختلاف القدرة على النقد الادبى اختلافا تاما عن المقدرة على ابتكاره والمقدرة على تذوقه فليس ثمة ما يمنع بطبيعة الحال من امكان اجتماع القدرات الثلاث في شخص واحد ، بحيث يكون الاديب قارئا للادب وناقدا فى الوقت ذاته . وعلى اى حال فان النقد يبدأ بمجرد ان يأخذ قارىء الادب نفسه بالتزام « قواعد عقلية » يطبقها اثناء قراءته ويستعين بها فى تذوق الادب مع تقدير ما يقرأ بحيث يصبح الاستمتاع بالقراءة « مبنيا على اساس من الفهم وحسن التخير » وبذلك يكون النقد عبارة عن « اسئلة معقولة يسألها المرء عن كل شيء يتعلق بالادب ثم الاجابه عنها كذلك اجابه عقلية » **(ص ٧)** سواءاكانت هذه الاسئلة والاجوبة متعلقة بنظرية الادب ذاتها ، أو بما يسمونه « بالنقد الاساسي » اوالنقد الخاص لاعمال ادبية معينه ومحددة بالذات ومع التسليم بهذا كله فليس ثمة ما يمنع من ان يكون النقد الادبى على ما ذكرنا من قبل « عملا شخصيا كالتأليف الادبى سواء بسواء ، ويكون كالادب وليد النبوغ العبقرى » بحيث يصدر عن مواهب معينة قد لا تستند الى اى قواعد راسخة طبة ـ او مدروسة ، بل وقد تنفر من مثل هذه القواعد الجامدة فلا تلتزم بها ، وبذلك لا يتمسك الناقد بنظرية محددة او بمبدأ معين بالذات يلتزم به طول الوقت ويحاول تطبيقة على كل ما يقرأ . وهذا هو ما يسميه ابركورمبى **بنقد الالهام** الذى يصدر عن الخصائص والمميزات والقدرات الذاتية للناقد ، وان كان هذا النوع من النقد لا يعتبر فى رأى الكثيرين ، وبخاصة من المهتمين بنظرية النقد الادبي ومدارسه اهم انواع النقد ، لان الذى يهم فى ذلك هو مدى ما يضيفه النقد والناقد الى قواعد النقد وطرائقة واسهامها في شرح تلك القواعد والطرائق وتفسيرها والعمل على اثرائها وتقدمها . فمثل هذه الجهود هى التى ادت وتؤدى الى ظهور الاتجاهات المختلفة ، وتنوع المدارس والمذاهب فى النقد الادبي . **وسوف يجد القارىء عرضا لبعض هذه الاتجاهات والمذاهب فى هذا العدد .**

• • •

والواقع انه ليس هناك اسلوب او منهج واحد « صحيح » لمعالجة مشكلات الادب ، كما انه لا يوجد مدخل واحد يمكن اعتباره محكا ومعيارا لتقييم كل انواع الادب وكل الكتابات الادبية على اختلافها . ذلك لان الاعمال الادبية كثيرة ومتنوعة الى ابعد حدود الكثرة والتنوع ، وتغطي حقبة طويلة جدا من تاريخ الانسان والحضارة . ومع الاعتراف بالدور الذى تقوم به الدراسات النقدية ، وكذلك نظرية الادب فى توضيح ماهية الادب ومساعدة القارىء على فهم طبيعته وعلى الوصول الى درجة اكبر من الاستمتاع والتذوق من قراءته للاعمال الادبية ، فان من الخطأ الزعم بأن التذوق والاستمتاع وتقدير هذه الاعمال لن تتاح للقارىء الا عن طريق الالمام بنظرية الادب او الدراسات النقدية فيه . وكما يقول ديفيد ديشيس David Daiches انه من السخف ان نزعم ان اليونانيين القدامى لم يستطيعوا الاستمتاع بأعمال سوفوكليس وتذوقها وتقديرها حق قدرها قبل ان يجيىء ارسطو ويكتب كتابه الشهير عن الشعر Poetica ، او ان نزعم انه كان يتعين على رواد المسرح في بريطانيا ان ينتظروا مجيىء برادلى A. C. Bradley او الاستاذ هيلمان Heilman حتى يمكنهم الاستمتاع بمسرحية « الملك لير » . ذلك ان التذوق والتقدير يمكن ان يكونا مستقلين تمام الاستقلال عن نظرية النقد ، ولو ان الاستعانة بهذه النظرية قد تساعد على توضيح معنى العمل الادبى وبالتالى تساعد على الاستمتاع به ، والغوص الى اعماقه . وهذا معناه ان النقد الادبى لا يمكن ان يكون غاية فى ذاته ، اوانه حسب تعبير T. S. Eliot ليس غاية ذاتية autotelic وانما هو بالاحرى وسيلة للوصول الى فهم اعمق للعمل الادبى والى تحقيق درجة اكبر من التذوق والاستمتاع . ويحقق النقد وظيفته بتحقيق ذلك الهدف .

والذى لا شك فيه هو ان الفن اكبر بكثير من شراحه على ما يقول Daiches ايضا ، وانه ليس هناك من بين النقاد من يمكنه ان يزعم انه استطاع ان يحدد قيمة الفن الادبى ومعناه بكل ما تحتوى عليه من معنى . فنظريات النقد نظريات جزئية ومتحيزة وذاتية وقابلة للمناقشة والاختبار ، وان كان هذا لا يعني انه لا توجد مقاييس او معايير للقيمة ، او انها تعتمد فقط على الذوق الخاص او الانطباعات العامة الباهتة . وكل ما يعنيه ذلك هو انه لا يوجد حكم نقدى لاى عمل ادبي يمكن ان يكون حكما كاملا مطلقا وصحيحا او مقبولا من الجميع . ومع انه يمكن من الناحية النظرية البحته ـ وضع بعض المبادىء العامة القويمة فالواقع ان الاحكام التى تصدر من الناقد عن اى عمل ادبي هي بالضرورة احكام تقريبية ، وانه على الرغم من كل ما يبذله الناقد من جهود للكشف عن طبيعة العمل الادبى وماهيته فلن يستطيع فى الاغلب ان يحيط بكل جوانبه واعماقه . فالعمل الادبى مجموعة متشابكة ومعقدة من الافكار والآراء والاحاسيس والعواطف والتجارب التي خضع لها الكاتب او الشاعر ، ومن الصعب ، ان لم يكن من المستحيل ، ان يصل الى كل جزئيات

تلك التجربة ،وان يتعرف فى دقة وعمق على كل جوانبها ودقائقها . ومن هنا كان النقد الادبى اقرب فى طبيعته الى الفن منه الى العلم ، ومن هنا ايضا كان الناقد الذى يحرص على اخضاع الاعمال الادبية لعدد من المبادىء الجامدة المطلقة ويعمل على تطبيق هذه المبادىء بطريقة منهجية دقيقة وصارمة عرضة لكثير من المخاطر ، كما يشوب عمله كثير من اوجه العيب والنقص .

ومع ان بعض النقاد المحترفين قد يميلون الى وضع قواعد ومناهج ومبادىء محددة لكي يسترشد بها المبتدئون في فهمهم لاصول فن النقد الادبى وللاستعانة بها فى خطواتهم الاولى فكثيرا ما تنقلب الاوضاع وتخرج هذه القواعد والمناهج عن الاهداف التى وضعت من اجلها ،بحيث تصبح دراسة النقد الادبى فى آخر الامر مجرد دراسة للاسلوب الذى يتبعه الكاتب والعبارات التى يستخدمها وما الى ذلك وبدلا من ان يكون دراسة لطريقة الكاتب فى عرض تجربته بوضوح وعمق ، واداة لمساعدة القارىء على فهم تلك التجربة وادراك اعماقها وجوانبها المختلفة .

ومن هنا كان لا بد من ان نفهم وظيفة الادب او على الاقل الغرض منه . ولقد اختلفت الآراء في ذلك اختلافا كبيرا . ولكن الظاهر ان من اهم هذه النظريات التى يعتنقها لفيف كبير من المشتغلين بالنقد الادبي والتى نجد لها صدى عند كثير من علماء الانثربولوجيا والاجتماع المهتمين بدراسة الادب وتحليله وعلاقته بالمجتمع ،الاتجاه الذى يذهب الى ان الغرض الحقيقي من الادب هو « التعبير » « والتوصيل » فالادب نوع من التعبير عن تجارب المؤلف وحياته واحاسيسه وانفعالاته وما يدور فى نفسه وعقله من مشاعر وافكار ،كما انه فى الوقت ذاته وسيلة لتادية هذه التجارب والانفعالات والافكار الى الآخرين بنفس القوة التى يشعر بها الكاتب الذى يمر بتلك التجربة . والاخفاق او الفشل فى ذلك يعنى الاخفاق والفشل فى انتاج ادب يستحق ان يطلق عليه هذا الاسم .

هذه الوظيفة المزدوجة للادب ، اعنى **التعبير والتوصيل** ، تكشف لنا عن الجانبين الاساسيين اللذين يجب توفرهما في اى عمل ادبى ، وهما الجانب الذاتى للادب والجانب الموضوعى وتوكيد احد هذين الجانبين او الاخر ،والاهتمام به وابرازه هو الذى ادى الى ظهور مذهب الرومانتزم من ناحية ، والمذهب الواقعي من الناحية الاخرى ، والجمع بين هاتين الناحيتين (الذاتية والموضوعية) هو الذى يتمثل فى اعتبار الادب نوعا من توصيل او نقل التجربة الحية العميقة التى يمر بها المؤلف التى يعبر عنها فى كتاباته ، وليست العبارة اللفظية فى آخر الامر سوى « اداة » ووسيلة لتحقيق هذه العملية .

وعلى هذا الاساس فانه يمكن القول مع آبر كرومبى – مرة اخرى – ان الادب يفترض وجود اطراف ثلاثة هم المؤلف والقارىء ثم العبارة اللفظية – او الكلام – الذى يكون بمثابة الوسط بين هذين الطرفين . وليس المقصود بالتوصيل هو توصيل (المعلومات) كما هو الشأن في الكتب العلمية، فنحن لا نحكم على الكتابة الفنية او العمل الادبى بمدى صحة ما قد يكون به من (معلومات) ، وانما الذى نأخذه فى الاعتبار والذى نصدر عنه احكامنا هو مدى صدق ذلك العمل الادبى فى التعبير عن التجربة التى يمر بها الكاتب بكل اعماقها وقوتها ، وقدرة ذلك العمل الادبى على نقل هذه التجربة الذاتية بكل جوانبها وتنوعها واصالتها .

فالناقد إذن ينظر الى التعبير على ان له قيمة ذاتية خاصة به بصرف النظر عن الاحكام التى قد يتضمنها ، وذلك على الرغم من كل ما يقال عن الادب التطبيقى الذى قد يهدف الى الاقناع ، والى قبول قضية او راى او حكم .

فالغرض اذن من الادب الصرف « هو ان يؤدى عمق الاحساس دون ان يكون له غرض اخر غير مجرد وجوده ، كما ان الحكم عليه بالقوة اوالضعف انما يكون بالنظر الى قدرة الكاتب على توصيل تلك التجربة والتعبير عنها » .

وما دام العمل الادبى تعبيرا عن تجربة معينة مر بها الكاتب فان النظرة الى ذلك العمل وتقديره وتقييمه يجب الا تكون مجرد نظرة جمالية خالصة وانما لا بد من ان نأخذ فى الاعتبار المناخ العقلى والثقافى والحضارى الذى تم انتاجه فيه ، ومحاولة التعرف على العوامل السيكولوجية والظروف الاجتماعية التى خضع لها الكاتب . فهذه كلها امور من شانها ان تزيد قدرة القارىء على فهم ما يقرأ والاستمتاع به وتقديره ، وعلى الغوص الى اعماق التجربة الانسانية التي يعكسها الكاتب على ما يقول ديشيس .

فكأن الادب على ما يذهب إليه انصار هذا المذهب ، ومعهم المهتمون بالدراسات الادبية من علماء الاجتماع والانثربولوجيا – هو عمل اجتماعى ثقافي الى جانب كونه انتاجا فنيا او جماليا . ومن **الطريف ان نذكر هنا ان الكثيرين من علماء الاجتماع والانثربولوجيا الذين تعرضوا لهذه المسالة ينظرون الى الكاتب او الاديب على انه انسان يمارس حرفة او مهنة معينة . والى العمل الادبى على انه وسيلة للاتصال ، اى سلعة ثقافية ، والى القارىء على انه مستهلك لتلك السلعة الثقافية بشكل أو بآخر .**

والمعروف انـه منذ عـام حاول شوكنـج L. L. Schü King على ما يقـــول سكاربت Robert Scarpit في مقاله عــن « الادب » في **الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية** ـ ان يضـع نظرية عن علم الاجتماع الادبي او سوسيو لوجياالتذوق الادبي . ومع ان هذه المحاولة صادفت كثيرا من الصعوبات ، على الاقل في بداية الامر ، فانها اثارت الاهتمام بالموضوع لدى عدد مـــن المفكرين الاجتماعيين الذين اهتموا بالتعرف علىالعوامل الاجتماعية التى تؤثر في العمـل الادبى ومدى تعبير الادب عن الواقع الاجتماعى وانعكاس البيئة الاجتماعية للكاتب فى كتاباته ، واثر البناء الاجتماعى عموما في الانتاج الادبى . ثم بدات بعض المدارس التي تأثرت بكتابات الفيلسوف المجرى **جورجى لوكاش** Gyorgy Lukâs تنظر الـــىالمجتمع على انه هو الحقيقة الواقعية التىتختفي وراء مظاهر الادب ، وان كان ذلك لا يتنافى فى الوقت ذاته مع اعتباره الادب غاية في ذاتها . وقد بلغ الامر ببعضهم الى حـد اغفال دور القارىء فى عملية الاتصال الادبى ، بل ان منهم من انكر ان يكون الادب عملية اتصال بالمرة ، وبذلك انكرواوجود ما يمكن تسميته بالاتصال الادبي .

وهذا موقف متطرف يتعارض تماما مـــع موقف كاتب مفكر مثل **جان بول سارتر** Jean-Paul Sartre الذى يرى فى كتابه « ما هو الادب » الذى صدر عام ١٩٤٨ ان العمل الادبى الـــذى هو نتاج مكتوب للفكر لن يكون له وجود واقعي الا حين يقرأ بالفعل ، لان الكتابة بغير القراءة هى مجرد لغو ، كما ان الكتاب الذى لا يجد من يقرؤه لن يكون اكثر من مجموعة من الاوراق الملوثـــة بالحبر . وعلى هذا الاساس فانه لا يمكن اعتبار الظاهرة الادبية مجرد حصيلة للفن نفسه ، وانما هى لقاء او تقابل ، بل واحيانا صدام بين فعلين صادرين عن الحرية ، الاول فعل انتاج والآخر فعل استهلاك ، بكل ما يقتضيه هذان الفعلان من نتائج وآثار على العلاقات الاجتماعية والاخلاقية . وعلى اية حال فلا بد من ان يكون هناك دائمـا « رجل اخر » فى الادب : كاتب بالنسبة لقارىء وقارىء بالنسبة لكاتب .

• • •

وهذا كله معناه ان من الخطورة الى حـد كبير اخضاع النتاج العقلي المكتوب للمحكـــات الجمالية وحدها او اغفال غيرها من المحكـــات الثقافية والاجتماعية والاخلاقية ، خاصة وان اداة الادب هى اللغة والكتابة ، وهمـا اداتـان اجتماعيتان .

وليس من شك في ان الكاتب يأخذ فى اعتباره فى معظم الاحوال الافكار والاحكام والقيم التى تسود فى مجتمعه ، فضلا عن الاحكام التى يصدرها القراء انفسهم على ما يكتب . فالتفاعل بين الكاتب

والقارىء قائم وقوى ويعمل فى اتجاهين متكاملين ، بحيث يلعب الكاتب دورا ايجابيا يتمثل فيمـا يحاول توصيله من « رسائل » او تجارب انسانية الى جمهرة قرائه الذين تصدر عنهم « استجابات » لهذه « الرسائل » تتمثل فى الاحكام التى يصدرونها على ما يكتب والتى تنعكس بدورها على كتاباته الاخرى وهكذا .

ولقد كان من الطبيعى ازاء ذلك ان يشغل دارسو الادب انفسهم بوضع الحدود واقامـة التمييزات بين « التاريخ الادبى » و « النقـد الادبي » .

فالتاريخ الادبى على مايقول **الاستاذ بيتشون** Bateson يهتم بتبيين ان استمد من ب ، بينما النقد الادبى يحاول البرهنه على ان ا افضل من ب ... التاريخ الادبى يعالج حقائق مؤكدة ، او يمكن البرهنة عليها ، اما النقد الادبى فيتناول امورا تتصل بالاعتقاد او الراى ، وقد تتعلـق باصدار الاحكام التقويمية . وهـذه تمييزات معقولة ومقبولة الى حد كبير ، وان كانت المناهج والاساليب المتبعة كثيرا ما تخلط بينها ، كما انه كثيرا ما يصعب تصور تاريخ الادب بغير الرجـوع الى نظرية الادب أو النقد الادبى ، او ممارسة النقد بغير الرجوع الى نظرية الادب وتاريخه . وليس من شك فى ان النقد الادبى يأخـذ فى الاعتبار الاحكام التى كانت تسود فى عصور انتاج العمل الادبى الذى يتعرض له بالدراسة والنقد ، ويحاول ان يتعمق فى فهم اتجاهاتها ومواقفهـا وفلسفاتها ويتعرف على المعايير الادبية والفنيـة الموجودة حينذاك . وتعرف هذه النزعة بوجه عام ــ كما يقول ويليك Wellek ووارين Warren فى كتابيهما عن **نظرية الادب** Theory of Literature بالنزعة التاريخية historicism . وكانت هذه النزعة شائعة فى المانيا بوجه خاص فى القرن التاسع عشر رغم اعتراض الكثيرين عليها ، ثم انتقلت من المانيا الى انجلترا فالولايات المتحدة ولا يزال الكثيرون من « مؤرخي الادب » يتمسكون بها ، وادى ذلك الى ظهور ما يعرف باسـم « النسبية النقدية » Critical Relativism ــ على ما يسميها فردريك بوتل F. Pottle وهذه تسمية تتضمن الاعتراف بوجود نوع مـن عدم الاستمرار في تاريخ الادب ، ما دام انتاج كل عصر سوف يقاس بمعايير عصره فحسب .

ومع التسليم بما في هذا الموقف من وجاهة ، فقد تعرض لكثير من الهجوم والنقد ، على اعتبار انه يغفل اذواق القراء المعاصرين ، ويحصر العمل الادبى داخل اطار ضيق من الوحدة الزمانيـة والمكانية ، وبذلك يسلبه خاصية العموميـة اوالكلية التى يجب ان يتصف بها اى عمـل ادبى جيد . فالعمل الادبى يجب للحكم الصحيح عليه ان يخضع لمعيارين ، وان يدرس من بعديـن متكاملين هما الذوق الفنى الذى كان يسود عصر انتاجه ، ثم الذوق الفنى او الادبي العام ، ما دام

الادب يعبر عن تجربة انسانية ، حتى وان كانت هذه التجربة تتمثل فى شخص المؤلف الذى يجب ان يبرز النواحي الانسانية العامة العميقة فى تلك التجربة .

ونحن حين نقرأ اى عمل ادبى انما نقرؤه فى ضوء عصره ومجتمعه وثقافته على ما ذكرنا ، ولكن ايضا فى ضوء التجربة الانسانية العامة وفي ضوء المواقف والاتجاهات الحديثة . وهذا الموقف المزدوج له ما يماثله فى الدراسات الانثربولوجية مثلا ، حيث ينظر الباحث الانثربولوجى الى اية ثقافة فى ضوء الظروف التى انتجتها وكذلك فى ضوء ثقافته هو نفسه ، على اعتبار ان تلك الثقافة الجزئية التى يدرسها ما هى الا مظهر من مظاهر الثقافة الانسانية ككل . وكذلك العمل الادبي ما هو الا تعبير عن جزء معين من التجربة الانسانيـــة العامة ، بقدر ما تعرض لها الكاتب .

فكان من الصعب الفصل فصلا قاطعا وحاسما بين وجهة النظر التاريخية والمعاصرة في دراسة الادب دراسة نقدية ومحاولة تقييمه . ومع ذلك فانه يتعين على الناقد ان يعمل على ان يتجنب بقدر الامكان الوقوع فريسة فى « النسبية النقدية » او فى « النزعه المطلقة Abolutism » ، بحيث يتخلص من قصور النسبية دون ان ينزلق الى الاحكام المطلقة الجامدة التى تعتقد ان الطبيعة الانسانية ثابتة لا تتغير . **فالعمل الفنى او الادبي (ابدى) (تاريخي) معا** . وليس من السهـل الجمع بين هذين (البعدين) ، ولكنه امر لا بد منه اذا اريد فهم العمل الادبى فهما صحيحا يزيد من معرفة الانسان بطبيعـة النفس البشريـــة وعمق التجربة الانسانية وتعقدها .

* * *

محمد زكي العشماوي

الشكل والمضمون في النقد الادبي الحديث

شغلت قضية الشكل والمضمون فى الادب المشتغلين بالدراسات الادبية والنقدية على مر العصور ، لا فى الآداب الاوروبية وحدها ، ولكن فى ادبنا العربي كذلك ، وخطورة هذه القضية انما تنشأ من ارتباطها الوثيق بتقدير قيمة العمل الادبي وتبين تأثيره . فان اي خلط في فهم طبيعة العلاقة بين الشكل والمضمون سيؤدي بالضرورة الى الخلط فى الحكم على الآثار الفنية ، والى اختلاف النقاد والادباء فى حقائق ؛ ان جاز الاختلاف فيها فى العصور الماضية فلا يجوز أن يختلف عليها احد اليوم . وعلى الاخص بعد ان تطورت دراسات علم الجمال الحديث وبعد ان وضحت من خلال هذه الدراسات الاسس التي ينبنى عليها الفن ايا كان نوعه .

وقبل ان نبدا فى دراسة هذه القضية وتتبعها فى مراحلها المختلفة يحسن بنا ان نحدد ما يعنيه النقد الحديث باصطلاحي الشكل والمضمون اوالشكل والمحتوى ،وقد يستخدم أحيانا اصطلاح الصورة بدلا من الشكل فيقال: الصورة والمضمون.

والشكل عندهم هو الصورة الخارجية ، أوهو الفن الخالص المجرد عن المضمون والذي تتمثل فيه وتتحقق من خلاله شروط الفن الادبي ،سواءاكان قصيدة غنائية ام قصة ام مسرحية . فاذا حكمنا على قصيدة غنائية من حيث الشكل مثلا قصرنا احكامنا على كل ما يتصل بتحقيق الصورة

الخارجية لهذا الفن من وزن وموسيقى وصـــورشعرية ، وصياغة فنية ، وبما قد يتحقق من خلال ذلك من جمال او انسجام في الوحدة او تناظر في الاجزاء . وبالجملة كل ما يتصل بالعنصر الشعري الغنائي في القصيدة وصياغته واسلوب تصويره . وكذلك الحال في المسرحية ، فالشكل فيها هو كل ما يتصل ببنائها الدرامي وتماسك هـــذا البنـــاءوتدرجه من بداية ، الى وسط ، الى نهاية ، ثم التحام اجزائه وروعة تصويره بغض النظر عمـــايشمل من مضامين او يثير من قضايا انسانية او اجتماعية او نفسية او اخلاقية .

اما المضمون أو المحتوى فهو كل ما يشتمل عليه العمل الفني من فكر أو فلسفة أو اخـــلاق أو اجتماع او سياسة أو دين ، أو غير ذلك من موضوعات ذات شان تاريخي او وطني . ومن هنا يكون المضمون او المحتوى هو في غالب الامر المادة **الخام التي يستخدمها الاديب او الشاعر** ، والتي يشكلها الفنان في الصورة التي يريدها .

وانقسم النقاد وفقا لهذا التمييز بين الشكل والمضمون الى مدرستين : احداهما مدرسة الشكل والاخرى مدرسة المضمون . واخذت كل مدرسة تقيس الفن بمقاييسها الخاصة . فاصحاب الشكل لا يرون في المضمون اية قيمة فنية ، ويحصرون احكامهم في دائرة الصياغة الفنية وما يتحقق عنها من جمال . واصحاب المضمون يرون ان الفن كله مضمون . وحددوا المضمون كما يقول **كروتشه** تارة بما يلذ ، وتارة بما يتفق مع الاخلاق ، وتارة بما يسمو بالانسان الى سماوات الفلسفة والدين ، وتارة بما هو صادق من الناحية الواقعية ، وتارة بما هو جميل من الناحية الطبيعية المادية » (١) .

والمسألة مرتبطة في جذورها بفلسفة ادراك الاشياء : هل ماهية الشيء متحققة فيه ، أو ان الماهية فكرة منفصلة عن الشيء ؟ أو بمعنى آخر : هل المدرك الحي الذي امامنا يحمل في ذاته حقيقة كامنة فيه أم انه يمثل ظلا زائلا لحقيقة منفصلة عنه وبعيدة عن كيانه ؟

اما **أرسطو** فيرى ان الماهية ليست فكـــرا منفصلا عن الاشياء ، والحقيقة عنده كامنـــة في المدرك الحسي ، ومن ثم فان جوهر الشيء عنده لا ينفصل عن تحققه المادي ، ومن هنا كان عالم الشعر عند أرسطو كامنا في المظاهـــر الحسيـــة ، ويستطيع الباحث ان يستنتج من نقد ارسطو انه مؤمن بالتلازم بين الصورة والهيولى .

والذين يفصلون الشكل والمضمون انمـــا يعزاون الى حد كبير بين الافكار او المهايا وبـــين المدركات الحسية .

والكلمات لا تعني الدلالة على اشياء ، وانما تعني افكارا او اشياء في الوقت نفسه . فاذا ذكرنا كلمة اسد يتداعى الى الذهن شيئان :

أولا جملة الصفات التي تحدد شكل الاسد وتكتسب عن طريق الملاحظة والتفرقة بين الصفات الجزئية والعرضية والصفات المشتركة :

---

(١) الجمل في فلسفة الفن ــ تاليف بندته كروتشه ــ ترجمة سامي الدروبي ص ٥١

وثانيا جملة الارتباطات والانطباعات القائمةحول الكلمة ، او بمعنى آخر ما يمكن او تضيفه الكلمة من احساس. من اجل ذلك كان من الصعبان تفصل بين ماهية الاسد وبينالاحساس المرتبط بما تثيره الكلمة في النفس من ايحاءات خاصة الافى نطاق التقسيم النظري بين ما يدرك بالعقل وما يدرك بالحس . وقد يمكن القول بأن ماهيةالبدر مستقلة عن جمال البدر الذي يستمد عادة من جملة الايحاءات والارتباطات ، وفى وسع أيانسان ان يقول ان استدارة البدر واستنارتـه شىء وجماله شىء آخر ، كما فى وسع الدراسةالنظرية البحتة ان تقول ان وصفنا للبدر بالجمال شىء نابع عن الذوق . اما ماهية البدر التيتتمثل فى فكرته كنجم مستدير مستنير فى السماء ليلا فشىء آخر اكتسبناه من طول النظر والتأمل،لا عن طريق الذوق .

ومن الممكن ان نقول ذلك ، وان نفصل بينماهية الشىء وبين الانطباعات او الارتباطات القائمة حوله ، ذلك اذا اردنا ان نفرق بينالادراكالعقلي المحض وبين الادراك الحسي . (٢)

ولكننا في مجال اللغة والادب نخضع لمبداعام لا ينبغي الاختلاف عليه وهو مبدأ رمزية اللغة، فليست الكلمات فى اللغة والشعر مجرد علامات أواشارات نتخذها لنشير بها على وجود شىء أو سواه ، وانما هي رموز تتضمن شحنا من المشاعروالاحساسات .

« فالرموز بالمعنى الدقيق هي تلك التيلا يكتفي فيها على مجرد الدلالة بحيث يكون هناك طرفان فقط : طرف العلامة الدالة من جهة ،وطرف الشىء المدلول عليه من جهة أخرى ، بل يضاف الى مجرد الدلالة شحنة عاطفية من نوعمعين مقصود يراد لها ان تنزو فى نفس الرائي او السامع كلما وقع على رمز معين ، فعلم جمهوريةمصر العربية ــ مثلا ــ له ما لهذا الاسم من دلالة على البلد المراد الدلالة عليه ، لكنه يضيف الىمجرد دلالة الاسم على مسماه ضربا من الشعور يراد له ان ينشأ فى النفوس كلما وقعت العين علىذلك العلم ... والهلال رمز للاسلام ، والصليب رمز للمسيحية ، فكأنهما كلمتان ، لكنهما يزيدانعلى كونهما مجرد كلمتين لكل منهما مدلوله المعين ، اذ هما تضيفان الى عملية الدلالة موقفاشعوريا خاصا » (٣)

فالكلمات اذن ليست قطعا من الخشب اوالفيسفساء يوضع بعضها الى جانبالبعض ، وانما الكلمات ارواح تختزن فى داخلها مشاعرواحساسات . وهي وبتفاعلها مع غيرها فى داخل سياق لغوي قادرة على منح بعضها البعض دلالاتوفاعليات خاصة . وبذلك تكون اللغة في يد الكاتب او الاديب فى حركة خلق مستمرة ، والفن الادبياستثمار لامكانات اللغة التي لا تنتهي عند حد .

واذا فهمنا رمزية اللغة على هذا النحويصبح الفصل بين الفكر الخالص المجرد ، وبين الشعور او الاحساس او ما تتضمنه كلمات اللغةمن ارتباطات او ايحاءات امرا بعيدا كل البعد عن المفهوم الحقيقي لاثر اللغة فنيا .

---

(٢) نظرية المعنى في النقد العربي ص ٧٠ وما بعدها ــ دكتور مصطفى ناصف .

(٣) فلسفةوفن ص ٤٣ ، ٤٤ دكتور زكي نجيبمحمود.

من اجل هذا حق لارسطو الا يفصل بين الصورة والهيولى ، ولكن فهم ارسطو للغة لم يصادف هوى عند مدرسة اللغويين الاسكندريين . وعند **هوراس وشيشرون** فقد رأى هؤلاء ان الشعر عالم من الالفاظ ، واختلط عندهم مفهوم الشعر بمفهوم الخطابة ففصلوا بين الشكل والمضمون تحت اصطلاحي الالفاظ والاشياء (RES) ، واستمر هوراس فمن جاء بعده وحتى في عصر النهضة فاصبح النظر الى الشعر يتساوى مع النظر الى الخطابة والمنطق وفلسفة الاخلاق (٤) .

ومن الغريب ان يمتد هذا التأثير الى القرن التاسع عشر فينقسم فلاسفة الفن في هذا القرن الى مدرستين : مدرسة الشكل ومدرسة المضمون ، والاعجب من هذا كله ان نرى بيننا اليوم من المعاصرين من يفهم الشعر والادب على انه شكل ومضمون او لفظ ومعنى . ويرجع الفضيلة فيه الى الشكل دون المضمون او الى المضمون دون الشكل . فما اكثر ما نسمع من النقاد ان قصيدة ما جيدة فيما تشتمل عليه من احساسات ومشاعر ، ولكنها فقيرة من ناحية اسلوبها او صياغتها . وكثيرا ما نسمع بعض النقاد يتحدثون عن مسرحية ما فيقولون انها سليمة من حيث البناء الدرامي ، ولكن يعوزها الموضوع الهام ذو الشأن التاريخي او الوطني او الاجتماعي .

وهذه جميعها اخطاء يأباها الذوق بل وينفر منها العلم والفهم الصحيح لعمليتي الخلق الادبي والنقد الادبي على السواء .

وليس من شك في ان هذا الخلط في مفهوم العمل الفني خلقا ونقدا انما يرجع الى ظهور النظريات الكثيرة مثل نظريات اللذة ، والنظريات الاخلاقية والمادية في الفن وغير ذلك كما يرجع اساسا الى اهمال العنصر الفني اما افلاسا اوعجزا . الامر الذي جعل اصحاب لنظريات يعتبرون الفن عنصرا لاحقا أو عرضيا .

وليس هناك ما هو اشد حسما للخلاف القائم بين انصار الشكل والمضمون من نظرية الخيال عند **كولردج** فقد حددت النظرية الخطوط الاساسية التي ينبني عليها الخلق الادبي بدرجة لم يعد هناك مجال بعدها للتشيع او الانقسام . فقد عرفنا ان الخيال هو الذي يبدع الشكل العضوي ، وهذا الشكل العضوي ينبع من داخل العمل الفني ، كما انه خاضع لتجربة الشاعر لا لشيء آخر يفرض عليه من الخارج . ومن هنا اصبح الشكل الخارجي في الشعر ليس بذي قيمة في ذاته ، ان قيمته في اتحاده اتحادا عضويا مع سائر العناصر المكونة للعمل الفني . واعتماد كل جزء من اجزاء العمل الفني اعتمادا كليا على الاجزاء الاخرى هو معيار جودة الشكل عنده . وقد نتج عن هذا كله نتائج غاية في الاهمية نجملها في النقط الاتية :

أولا : اصبح نقد العمل الفني عند كولردج يقوم على اساس هام هو ان الشكل والمضمون يتحدان اتحادا تاما ، وان الشكل العضوي امر غير مكتسب ، وليس مصنوعا صناعة آلية ولكنه في باطن العمل الفني ويتحدد في تطوره من الداخل ومعنى شكله هو بالضبط اكتمال نموه (٥) .

---

(٤) فن الشعر ص ١٩١ ، ١٩٢ دكتور احسان عباس

(٥) كولردج ص ٩٣ الدكتور مصطفى بدوي

ثانيا : ان قيمة العمل الفني تأتيه من أتحاداجزائه ، واذا كان ثمة قوانين للعمل الفني في قانون العبقرية ، لا القانون المفروض على الفنانمن الخارج . انه قانونه الخاص الذي يستطيع ان يطرق به افضل السبل لتحقيق اهدافه ،وبهذايقضي كولردج على ما كان يلجأ اليه الكلاسيكيون في نقدهم عندما كانوا يحددون للقراء اصولا بعينهالا يحيدون عنها ، ويلتزم بها النقاد فلا يحكمون بالجودة او الرداءة على عمل فني الا اذا توافرت لهذا العمل شروط محددة . وبذلك يحطم كولردج فكرة القانون الصارم في النقد ، ويرى انهامسألة نسبية يحددها العمل الفني نفسه الذي يختلف من شاعر الى آخر ومن عصر الى عصر .

ثالثا : القضاء على ثنائية اللفظ والمعنى التيكانت سائدة في النقد الادبي قبل كولردج . وله في هذا المجال فهمه الدقيق للغة ووظيفتها فيالعمل الفني .

فهو يميز بين الكلمات كأصوات وبينهاكمعان . او بينها كأدوات اصطلاحية الغرض منها الاشارة ، وبينها كوسيلة من وسائل الدلالة علىحقيقة الشيء . غير ان اللغة في الشعر تجمع بين لغة الاشارة الباردة وبين اللغة الحية الناقلةللمشاعر . وهو يصف لغة الشعر فيقول عنها : « **انها اللغة الاولى ممتزجة باللغة الثانية** ، اللغةالاصطلاحية المستخدمة بحيث لا تكتفي بمجرد الاشارة الى الصورة الباردة ، وانما بحيث تعبرعن حقيقة لشيء (٦) . » ويقول في موضع آخر :

ان الفرق الشاسعبين الالفاظ التيتستعمل كمجرد علامات اصطلاحية للفكر ، والتي هي بمثابة عملة للتخاطب ، عملة ناعمة الملمس امحيما كان عليها من رسم وكتابة لكثرة الاستعمال . وبين تلك الالفاظ التي توصل لنا صورا . سواءاكانت هذه الصورة مستعارة من موضوع خارجي معين لكي تحيي وتخصص موضوعا آخر ، أم كانتمستخدمة بطريقة رمزية لكي تجسد حالة المتكلم **الباطنة ، او مستخدمة بحيث تعبر على الاقل عننزعاته الخاصة » (٧)** .

ويعرف الشعر بقوله :

« انه افضل الالفاظ في افضل الاوضاع »(٨) .

ومعنى هذا ان اي كلمة في العمل الفنيلا يمكن تغييرها او استبدالها بأخرى دون ان يفقد **السياق معناه . فكل لفظة مستقلة بوجودهامتميزة بشخصيتها** . فليس هناك لفظة يمكن ان **تتساوى مع لفظة اخرىفي محصولها من الشعو** .خذ اي كلمتين متشابهتين في المعنى وحاول ان تستجلي ما وراءهما من احساس فستجد ان لكلمنهما مزاجا مختلفا وروحا متباينة . من أجل ذلك قال كولردج : « ان الشعر الرائع هو الذيلا يمكن ترجمته الى الفاظ اخرى دون ان يفقد **جماله شيئا » (٩)** .

---

(٦) المرجع السابق ص ٩٦
(٧) المرجع السابق ص ٩٦
(٨) المرجع السابق ص ٩٦
(٩) المرجع السابق ص ٩٦

ولو كانت الكلمة مجرد رمز يشير الى معنى او فكرة فحسب لكان يمكن للكلمتين المترادفتين ان يتساويا او ان تحل الواحدة منهما مكان الاخرى. ولكننا عرفنا ان الكلمة ليست مجرد اشارة باردة لمعنى او فكرة ، وانما هي نسيج متشعب من احساسات . بل ان لكل كلمة تاريخا طويلا مرت به ، وظروفا نشأت فيها ، وارتباطات احاطت بها، وهذا كله كفيل ان يزيد الكلمة خصبا وحياة ، وان يجعلها شخصية متميزة تماما وهذا هو ماعناه كولردج بقوله :

« ولا يتضمن معنى اللفظة فى رايي مجرد الموضوع الذي يقابلها ، بل يشمل ايضا جميع الارتباطات التي تبعثها اللفظة في اذهاننا . فطبيعة اللغة لا تمكنها من نقل الموضوع فحسب ، وانما تجعلها ايضا قادرة على نقل شخصية المتكلم الذي يعرض الموضوع ونواياه » (١٠) .

يتضح لنا من كل ما سبق ان علاقة اللفظ بالمعنى عند كولردج علاقة حية ، وان ارتباطهما وثيق بحيث لا يمكنك ان تغير اللفظة او تنقلها من مكانها او تستبدلها الا اذا تغير المعنى .

رابعا : من النتائج الاخرى الهامة التي تولدت عن مفهوم كولردج للشكل والمضمون اعتباره الوزن الموسيقي في الشعر جزءا لا يتجزأ من التجربة الشعورية ، وعنصرا ملتحما التحاما كليا بسائر العناصر الاخرى المكونة للقصيدة . بل ان الوزن عنده ثمرة من ثمار الخيال ، يقول :

« انني اعتقد انه من البشائر المرضية جدا في تأليف الشاب الولع بالصوت الفني العذب حتى وان كان فى ذلك افراط معيب . ذلك بالطبع اذا كان من الواضح ان الموسيقى فى شعره اصيلة ، وليست نتيجة تقليد آلي سهل ... فالصور الشعرية (حتى ولو كانت مستقاة من الطبيعة ولا سيما حين يكون مصدرها الكتب مثل كتب الاسفار والرحلات وعلم الاحياء) شأنها شأن الاحداث المثيرة ، والافكار الصادقة والمشاعر الشخصية او العائلية الشيقة . كل هذه الاشياء بالاضافة الى فن جمعها او صياغتها في صورة قصيدة ، قد يستطيع اي فرد موهوب ، وعلى قدر من الاطلاع ان يكتسبها بالجهد المتصل مثلما يكتسب المرء حرفة من الحرف . اما الاحساس بالمتعة الموسيقية بالاضافة الى القدرة على توليد هذا الاحساس لدى الغير فانما هي هبة الخيال وحده . ومن الممكن تنمية هذا الاحساس وتثقيفه، ولكنه يستحيل تعلمه ، مثله في ذلك مثل القدرة على خلق اثر موحد من الكثرة ، وعلى تعديل سلسلة من الافكار بواسطة فكرة واحدة سائدة او انفعال واحد مهيمن . ان هذه هي الاشياء التي يصدق عليها المثل القائل بان المرء يولد شاعرا . ولا يمكنه ان يصبح شاعرا عن طريق الصنعة » (١١) .

ومصدر الوزن عند كولردج هو العاطفة او الانفعال بمعنى ان الذي يختار الوزن الشعري انفعال الشاعر نفسه فعندما تثور فى نفس الشاعر عاطفة جياشة يلجأ الى الوزن او الى الموسيقى لانهما اقرب الوسائل للتعبير عن العواطف المشبوبة ولانها هي الاخرى بدورها

---

(١٠) المرجع السابق ص ٩٧

(١١) كولردج ص ٩٩

اكثر الوسائل قدرة على تبليغ العاطفة واثارتهاعند القارىء أو السامع . على أن الوزن الـذى هو وليد الانفعال والعاطفة المشبوبة بحاجة الىان يفرض عليه الشاعر درجة من التوازن ، وهنا تتدخل الارادة التي تستطيع ان تحول العاطفةالثائرة المشبوبة عند الشاعر الى ارتفاع محدد خاضع لنظام ، وليس مجرد تفجر عاطفي غيـرخاضع لسيطرة الارادة . ومن ثم لا يتحقـق الوزن فى الشعر الا نتيجة لدرجة من التوازن بينالعاطفة والارادة . وفي هذا يقول كولردج :

« وبما أن الوزن نتيجة فعل ارادى لاجـلمزج اللذة بالانفعال فانه يجب أن تكون اثار هذه الارادة واضحة فى سائر اللغة المنظومة حسـبتدخل هذه الارادة » (١٣) .

ويربط كولردج بين الكلام المنظوم ولغته .وهو يرى ان اى كلام موزون بحاجة الى لغـة خاصة تناسبه ، فلما كان الوزن وليد الانفعالوصادرا عن عاطفة الشاعر فكذلك لغته . هذا بالاضافة الى ان جزءا هاما من موسيقى الشعرنابع من علاقات اللغة واصواتها ونبراتها ، وما تحمله تلك النبرات والاصوات من مشاعر .ومن هنا نشأت العلاقات العضوية الحية بـين الوزن وغيره منمقومات العمل الفنى وعلىالاخصاللغة التى هي مسـتودع الانفعال والموسـيقى والصورة .

اما تأثير الوزن عند كولردج فيرجع الـىناحيتين : الناحية الاولى ناشئة من تكرار وحدة موسيقية معينة تنتشر فى العمل الفنى كلـه ،وتعمل على تشويق القارىء ودفعه للقراءة واثارة حب الاستطلاع فى نفسه . اما الناحية الثانيـةفهى النغمة غير المتوقعة ، والتى لا تنشأ عـن التشابه بين وحدات موسيقية متكررة وانما تلكالتى تنشأ من عنصر المفاجأة او خيبة الظن كمـا يحلـو لريتشاردز أن يسميها . فالايقاع عندهلا يتحقق من قانون التوقع وحده وانما يتوقف على قانـون المفاجأة أو خيبة الظن . يقـولريتشاردر :

« والنسيج الذى يتألف من التوقعـاتوالاشباعات او خيبةالظن أو المفاجاتالتي يولدها سياق المقاطع هو الايقاع . وربما كانت معظـمضروب الايقاع تتألف من عدد من المفاجـات ، ومشاعر التسويف وخيبة الظن لا تقل عن عـددالاشباعات البسيطة المباشرة . وهذا يفسر لنا لماذا سرعان ما يصبح الايقاع المسرف فىالبساطةشيئا تمجه النفس » (١٣) .

وهذه النغمة الناشئة عن عدم التوقـعاو المفاجاة هى التى تولد الدهشة وتثيرها لدى القارىء فى الكلام المنظوم .

ومجمل القول فى الوزن عند كولردج انـهجزء لا يتجزأ من التجربة ، يصدر عن درجـة عالية من التوازن بين العاطفة المشبوبة والارادةالواعية ، ويثير فى النفس حب الاستطـلاع والتشويق والدهشة . وبتآلف الوزن مع مـادةالقصيدة يمكن للشاعر ان يحقق عملا فنيا رائعا

---

(١٢) المرجع السابق ص ١٠٠

(١٣) مبادىء النقد الادبـي ــ تاليف رتشـاردز ــترجمة د. مصطفى بدوى ص ١٩٢

أما الوزن وحده فلا يمكنه أن يحقق قيمة غنيةفى ذاته . من أجل ذلك يشبهه كولردج بالخميرة فيقول :

« ان الوزن اذا ما قصد استعماله لاغراضشعرية أشبه ما يكون بالخميرة ، فالخميرة فى ذاتها عديمة القيمة ، بل انها كريهة المذاق ، ومعذلك فهى تضفى على الشراب الذى تمتز ج بـه بنسب معقولة روحا وحيوية » .

ومن هذه العبارة الاخيرة يتضح لنا أن قيمةالوزن فى الشعر لا تتحقق الا اذا استطاع أن يتحد ببقية العناصر فى القصيدة اتحادا تاما .

الشكل والمضمون عند كروتشه :

ومنأهم منتعرض لقضية الشكلوالمضمونفي العمل الفنى الفيلسوف الايطالى المعروف بندتو كروتشه واضع كتاب « علم الجمال » وصاحبمدرسة كبيرة فى الدراسات الجمالية والفنية .

ولقد لاحظ كروتشه أن هناكثلاثة تمييزاتخداعة تملاء ساحة فلسفة الفن وتغرى المرء بسهولتها وبداهتها الظاهرة وكلها يتعلق بالشكلوالمضمون وأشهر هذه التمييزات هو التمييز بين **المضمون والصورة** (١٤) .

وخطورة هذا التمييز فى رأى كروتشه يرجع الى ان الناقد سوف يجد نفسه أمام قيمتين اثنتين للعمل الفنى لا قيمة واحدة . احداهماترجع للشكل والاخرى للمضمون . فيرى أشياع المضمون أن الفن هو العنصر الصورى المجرد ،ويرى أشياع الصورة أن الفن هو العنصر المجرد من المضمون .

ويسخر كروتشه من هؤلاء وهؤلاء ، حينيتتبع دراستهم وفلسفاتهم ويجد فى نهاية الامر أن كل ما دار من جدل حول المدرستين لم ينتهالا الى حقيقة واحدة هي أن أصبح أشياع المضمون ، على غير ارادة منهم، أشياعا للصورة ،أصبح أشياع الصورة على غير ادارة منهم أشياعا للمضمون . وهكذاوقفت كل من الطائفتين موقفالاخرى ، ولكن على غير استقرار ولا اطمئنان ، ثم تعود الى موقفها على غير اطمئنان ولا استقراركذلك .

ولكن قضية الشكل والمضمون عند كروتشهقد وجدت الحل تلقائيا في تفسيره للفن وتحديده لمفهومه . وقدعرفنا أن الفن حدسعند كروتشه .وعرفنا ما يعنيه بكلمة الحدس ، وادركنا أن تعريفه للفن بأنه حدس قد ميز الفن عن المفاهيمالمنطقية والفلسفية والاجتماعية ، كما ميزه عن اللذة والاخلاق ، ولكنه مع تمييزه للفن عن كلالمفاهيم فهو لم يقلل من شأن المضمون بل لقد جعله نقطةالبدء التى تتفرع منها التجربةوالحقيقةالتعبيرية أو الفنية . ولكنه مع ذلك لم يجعل للمضمون خصائصفنية سابقة علىالعمل الفنى .فاذا كان للمضمون قيمة فهو لا يكتسبها الا من خلال العمل ذاته .

---

(١٤) يستخدم كروتشه (الصورة) بدلا من (الشكل)

وينتهي كروتشه فى مناقشته لموضوع التمييزبين المضمونوالصورة الىالحقيقة الآتية ،فيقول :

« والحقيقة هى أن المضمون والصورة يجبأن يميزا فى الفن ، لكن لا يمكن أن يوصف كل منهما على انفراد بأنه فنى ، لان النسبة القائمةبينهما هى وحدها الفنية ، أعنى الوحدة ، لا الوحدة المجردة الميتة . بل الوحدة العيانيةالحية » (١٥) .

ويقول فى موضع اخر :

« فسيان اذن (أو قل انهما وسليتان منوسائل التعبير الموافق) أن نعد الفن مضمونا أو صورة ، شريطة ان يكون المفهوم دائما أن المضمونقد برز فيصوره ،وأن الصورة متمثلة بالمضمون، اى أن الشعور هو الشعور المصور . وأن الصورةهى الصورة المشعور بها » (١٦) .

ويقول كذلك :

« والعاطفة او الحالة النفسية ليستمضمونا خاصا ، وانما هى الكون كله منظورا اليه من ناحية الحدس . وليس فى وسعنا أن نتصورفى خارجها اى مضمون اخر ليس فى الوقت نفسه صورة مختلفة عن الصور الحدسية :

لا الافكار التي هى الكون بأسره منظورا اليهمن ناحية التعقل ، ولا الموضوعات الفيزيائية والعناصر الرياضية التى هى الكون بأسره منظوراليه من ناحية الارادة » (١٧) .

وبهذه العبارات الاخيرة المحددة يحسم كروتشه في القضية كلها عندما يربط بين المضمون والصورة هذا الربط المحكم ، فلا يمكن تصورمضمون مهما يكن شأنه خارجا عن الصورة الحدسية . وما الفكر والعقل ، والتخطيطوالتجربة ، والارادة الا وسائل خادمة للفن ولكنها ليست بذاتها فنا .

أما التمييز الثانى الذى لا يقل عن التمييزالاول خداعا والذى تمتلىء به أيضا ساحة فلسفة الفن فهو التمييز بين **الحدس والتعبير** او بمعنىاخر التمييز بين الصورة وترجمتها المادية .

فمن الناس من يميز بين التجربة باعتبارهاموضوع الانفعال والتصوير وبين ما يستخدمه الفنان من كلمات أو أصوات ألوان للتعبير عنها .ويرى هؤلاء ان الاولى هى باطن الفن والثانية هى ظاهرة . ويعتبرون الاولى هى باطن الفن والثانيةهى مادته .

ويرد كروتشه على هؤلاء فيرى ان التفريقبين الباطن والظاهر قد يكون سهلا أمره ولو فى القول على الاقل ، ولكننا اذا انتقلنا من عمليةالتفريق الى تقرير النسبة أو التركيب فسوف نصطدم بعوائق تخيب الظن وتحطم الامال ،واذابنا ندرك أن تمييزنا كان خاطئا . يقول :

---

(١٥) المجمل فى فلسفة الفن ص ٥٥

(١٦) المجمل فى فلسفة الفن ص ٦٦

(١٧) المجمل فى فلسفة الفن ص ٥٦ ، ٥٧

« فأنى لشيء خارج عن الداخل وغريب عنه أن يجتمع الى هذا الداخل ويعبر عنه ؟ كيف يمكن لصوت او لون أن يعبر عن صورة مجردة من الصوت واللون ؟ كيف يمكن الجسم أن يعبر عما ليس بجسم ؟ بأية طريقة يمكن أن يساهم فى فعل واحد الخيال التلقائي والتفكير والنشاط المادى ؟ متى فرقنا الحدس عن التعبير ، وجعلنا طبيعة الاول مختلفة عن طبيعة الثاني ، لم نجد هنالك حدا وسطا يستطيع ان يجمع بينهما ويلحم أحدهما بالآخر . ولا تستطيع جميع نظريات التداعى والعادة والآلية والنسيان التى ارتآها علماء النفس ان تحل مسألة الاتصال هذه بين التعبير والصورة . وهذا ما اضطر بعضهم الى افتراض ان فى المسألة سرا ... فمنهم من رأى أن هذا السر تزاوج عجيب ، وهؤلاء من أصحاب الذوق الشعرى ، ومنهم من رأى انه نوع من الموازاة النفسية الجميلة .

وكان ينبغى قبل أن نلجأ الى السر أن نبحث هل كان تفريق العنصرين صحيحا ، بل هل يمكن أن نتصور حدسا من غير تعبير . وفي رايي ان ذلك لا يقل امتناعا على التصور عن تصور نفس بلا جسد ... والواقع أننا لا نعرف الا حدوسا معبرا عنها . **فالفكرة لا تكون بالنسبة الينا فكرة الا اذا أمكن أن تصاغ بالفاظ ، ولا اللحن الموسيقي يمكن أن يكون لحنا موسيقيا ما لم يتحقق بأنغام ، ولا الصورة التجسمية يمكن أن تكون صورة تجسمية مالم تظهر بخطوط والوان .** ولست احتم أن تنطق الالفاظ جهارا ، ولا أن تعزف الموسيقي على آلة ، ولا أن تثبت الصورة على خيش . ولكن من المحقق أنه متى بلغت الفكرة حد النضج واصبحت فكرة حقا دارت الالفاظ فى كياننا كله ، فحركت عضلات الفم ، ورنت فى داخل الاذن . ومتى كانت القطعة الموسيقية قطعة موسيقية حقا رأيتها تترنح على الشفاه ، وتحرك الاصابع حتى لكأن الاصابع تلعب على أوتار خيالية » (١٨) .

ويقول كذلك :

« انك لو جردت الشاعر من أبحره والفاظه وقوانيه . لما بقى هنالك فكرة شعرية كما يخيل الى بعضهم . بل لما بقى شيء البتة . فانما نشأ الشعر مع هذه الالفاظ وهذه القوافى وهذه الابحر . وليس في وسعنا كذلك أن نقول أن التعبير اشبه بالبشرة بالنسبة الى الجسم . اللهم الا أن نقول : أن الجسم كله ، في كل خلية من خلاياه ، وفى كل عنصر من هذه الخلايا . هو فى الوقت نفسه بشرة » (١٩) .

وهكذا ينتهى كروتشه في مناقشاته بفكرة الفصل أو التمييز بين الحدس والتعبير الى حقيقة هامة مؤداها : انه لا يمكن تصور الفصل بين الفن ومادته طالما كانت العبقرية الاصيلة لدى الفنان هى فى الحقيقة كامنة فى قدرته الفائقة على استغلال مادة فنه واستثمارها على النحو الذى يبلغ به درجة عالية من الكمال . اذ كيف يمكن لانسان ان يكون شاعرا عظيما وهو يسيء نظم الشعر أو مصورا كبيرا وهو لايجيد الملاءمة بين الالوان . أو موسيقيا موهوبا وهو لا يحسن تحقيق

---

(١٨) المرجع السابق ص ٦٠ ، ٦١

(١٩) المرجع السابق ص ٦١

التناغم بين الاصوات . أو يكون فنانا كبيرا وهولا يحسن التعبير ؟ من أجل ذلك قالواعن روفائيل لو لم يكن له يدان لظل مصورا عظيما ، غيرأنهم لم يقولوا لو لم يكن له احساس بالرسم لظل مصورا عظيما . (٢٠)

اما التمييز أو التفريق الثالث الذى ملأساحة فلسفة الفن والجمال والذى خدع الناس طويلا وما زال يخدعهم ، والذى يحرص كروتشهعلى أن ينبه الاذهان اليه لخطورته على نظرية الفن ، وعلى المذاهب النقدية هو موضوع التفريقبين **التعبير والجمال** .

وهؤلاء ، فى نظر كروتشه ، يقسمون مفهومالتعبير الفنى الى لحظتين « لحظة التعبير بالمعنى الخاص للكلمة : يعنى الوصول الى التعبير ، ثملحظة جمال التعبير : يعنى زخرفة التعبير .وعلى هذا الاساس صنفوا التعبيرات في زمرتين :التعبيرات العارية، والتعبيراتالمزخرفة » (٢١) .

ويرى كروتشه ان هذا الاتجاه فى التفريقبين التعبير وزخرفة التعبير منتشر فى ميادين الفن المختلفة ، ولكنه قد نما واتسع فى ميدان اللغةبوجهخاص ، بل انه يحمل اسما مشهورا هو اسم البلاغة . ذلك لان البلاغة في اعتقاده هى الميدانالذى تنفصل فيه الصورة البيانية عن التعبير . فكثيرا ما نرى الدارسينفىالميادين البلاغية يعنونعناية خاصةبزخارف التعبير من تشبيهواستعارة ومجاز ، ويفردونها بالبحث والدراسة ، وكثيراما يقفون عند هذه الصور وقفاتخاصة يتناولونها منفصلة عن التعبير مما جعل بعض الناس يظنونأن للصور البيانية قيمة مستقلة عن التعبير الذى وردت فيه .

ويعلق كروتشه على هذا الاتجاه بقوله :

« وقد كان للبلاغة تاريخ طويل منذ بلغاءاليونانالى أيامنا هذه ولا تزال تدرسفىالمدارس ، ويعني بها فى الكتب ، بل في المباحث اللغوية التىتزعم لنفسها أنها عملية ، فضلا عن الافكارالعامية بطبيعة الحال ، ولو انه فقد فى ايامنا هذه كثيرامن قوته الاولى ، وقد قبله أناس من أهلالذكاء والحصافة لا أدرى اعن كسل ام لقوة التقاليد ،وتركوه يعيش قرونا طويلة . ولم تكد تحاول الثورات النادرة التى قامت فى وجهه أنتشيدثورتها مذهبا ، وأن تنتزع الخطأ من جذوره . ولم يقتصر شر البلاغة التى تقول بوجود لغة« مزخرفة » مختلفة عن اللغة العارية وسامية عليها ، لم يقتصر شرها على ميدان فلسفة الفن ،بل تعداه الى ميدان النقد » (٢٢) .

وليس من شك في أن المنهج البلاغى الذىيرجع مقياس الجمال والجودة فى الشعر أو فى النثر الى ما فيه من صور بيانية منهج لا ينهضعلى أساس من فهم صحيح للادب . ولقد نبه

(٢٠) المرجع السابق ص ٦٣

(٢١) المرجع السابق ص ٦٤

(٢٣) دلائل الاعجاز ــ عبد القاهر الجرجاني ــ ص ٧٩

عبد القاهر الجرجانى الى خطورة هذا المنهج فى القرن الخامس الهجرى ، وذلك عندما قضى على فكرة التفريق بين التعبيرات العارية والتعبيرات المزخرفة بقوله :

« ان من الاستعارة مالا يمكن بيانه الا من بعد العلم بالنظام والوقوف على حقيقته » . (٢٣)

وقد كان لناقدنا العربى الكبير منهجه الخاص في دراسة البلاغة وهو منهج يختلف كثيرا عن منهج من استمسكوا بالتقسيمات البلاغية الشكلية من أمثال السكاكى والقزوينى .

وما نظن أن هناك اليوم من النقاد المحدثين من يجادل فى أن الجمال ليس محصورا فى الزخرف أو الاستعارة . ومن البديهى أن يخلو بيت من الشعر من الصور البيانية ويحقق قمة الجمال فى الجمال في التعبير الفنى ، بل ان من الشعر مالا يعدو مجرد التعبير عن حالة نفسية تعبيرا بالغ التأثير قوى الايحاء ، وهو بهذا وحده قادر على أن يبلغ الجودة لسذاجته وصدقه ، ويقول كروتشه فى هذا :

« ان التعبير المناسب اذا كان مناسبا ، كان جميلا كذلك ، لان الجمال ليس الا القيمة المحددة للتعبير وبالتالى للصورة . ولذا كنا نعنى بنعته بالعرى أنه يعوزه شيء يجب أن يتوافر فيه . فمعنى ذلك فى هذه الحالة أنه ليس مناسبا ، أو انه ليس تعبيرا ، او لم يصبح بعد تعبيرا . وكذلك التعبير المزخرف ، فانه اذا كان تعبيرا في كل اجزائه لم نستطع ان ننعته بأنه مزخرف ، بل بأنه عار كالاول وبأنه سليم كالاول كذلك » (٢٤)

ويقول :

« ليس التعبير والجمال مفهومين اثنين ، فما هما الا مفهوم واحد يمكن ان ندعوه بأحد اللفظين على السواء . ان الخيال الفنى لا يكون بدون جسد ، ولكنه ليس بدينا ، ولباسه من ذاته ، لا يلبس شيئا غيره ، وليس اذن بمزخرف (٢٥) .

ويرى كروتشه أن موضوع التفريق بين التعبيرات العارية والتعبيرات المزخرفة يرجع فى الحقيقة الى تأثير المنطق والفكر على دراسى اللغة وعلمائها الذين كثيرا ما دارت بينهم المناقشات حول علاقة الفكر بالخيال والفلسفة بالشعر ، والمنطق بالفن ، والجدل بالبلاغة . ووجد هؤلاء أن التفريق بين الفكر والخيال يقتضيهم أن يصنفوا اللغة الى لغتين : الاولى لغة الفكر والثانية لغة الشعر . وذهبوا الى ان التعبير العادى أو العارى هو المطابق للفكر والفلسفة ، وان التعبير المزخرف هو المطابق للخيال والشعر . واستمسكوا بهذه القسمة النظرية التى ان جاز لها ان تصح فى مجال التفريق بين لغتين ، احداهما لغة عملية صارمة تستخدم خارج ميدان الشعر ، والثانية لغة الانفعال التى تستخدم فى ميدان الادب والشعر . ان مثل هذه القسمة لا يجوز لها أن تصح ، هذا ، اذا قصرنا كلامنا على ميدان التعبير الادبى سواء منه المزخرف أو غير المزخرف . وذلك أننا في مجال

---

(٢٣) المرجع ص ٦٤

(٢٤) المجمل في فلسفة الفن ص ٦٥

(٢٥) المجمل فى فلسفة الفن ص ٦٥

الادب لن نجد الا خيالا وشعرا وفنا ، وأن ادخال المنطق أو الفكر الفلسفي المجرد هاهنا ، ظلما ، خليق كما يقول كروتشه أن يلقى ظلا خادعا ، حقيقا بأن يلبس الامر على العقل ، ويوقعه فى الاضطراب ، ويحول بينه وبين رؤية الفن فى كامل رحابته ونقاوته بدون ان يريه منطقا ولا فكرا . (٢٦)

ثم يزيد كروتشه الامر توضيحا حين يهاجم النظرة المنطقية الى اللغة تلك النظرة التى فصلت بين النحو والبلاغة . فقد ظن أصحاب هذه النظرة أنه ما دامت اللغة نحوا فينبغى أن تكون نظرتنا اليها نظرة منطقية . والذى زاد الأمر فظاعة أن هذه النظرة المنطقية للغة قد فرضت هى الاخرى سلطانها على منهج البلاغة ودراستها . وحين يهاجم كروتشه هذه النظرة المنطقية الى اللغة انما ينبه الى خطورتها على مناهجنا فى دراسة الأدب والبلاغة يقول :

« على أن أسوأ الشرور التى سببها مذهب التعبير «المزخرف» لتصنيف صور الفكر الانسانى تصنيفا نظريا هو ما تعلق بنظرة أصحابه الى اللغة. فاننا اذا سلمنا بوجود تعبيرات عارية نحوية فحسب ، وبوجود تعبيرات أخرى مزخرفة أوبلاغية لزم عن ذلك أن ترجع اللغة الى تعبيرات العارية وان ترد الى النحو . وبالتالى ، (اذلا مكان للنحو في البلاغة ولا فى الفن) الى المنطق حيث يسند اليها دور ثانوى . والواقع ان فساد اللغة المنطقى مرتبط ارتباطا وثيقا بالمذهب البلاغى فى التعبير ، وهو يتقدم معه جنبا الى جنب ، فقد نشآ معا فى العصر اليونانى القديم ، ومعا يعيشان فى أيامنا هذه ، رغم تعارض الاول مع الآخر .وقد كانت الثورات على النظرية المنطقية في اللغة نادرة جدا ، ولم يكن لها نتائج ذات بال ، شأنها شأن الثورات التى قامت فى وجه البلاغة .

وظل الأمر على هذا المنوال حتى العهد الرومانطيقى ، فأصبحنا نرى لدى بعض المفكرين أو فى بعض المراكز المصطفاة ، شعورا قويا بما تمتاز به طبيعة اللغة من قوة خيالية أو مجازية ، وبما هنالك من روابط تجعل اللغة أوثق بالشعر منها بالمنطق .

على أن كثيرا من خيرة هؤلاء المفكرين ممن ظلوا يرون فى الفن رايا خارجا عن الفن « كالمذهب المفهومى أو المذهب الاخلاقى أو مذهب اللذة »ظلوا كذلك ينفرون نفورا واضحا من **التوحيد بين اللغة والشعر** . وفي راينا ان هذا التوحيد محترم وسهل معا ، ما دمنا فهمنا الفن على أنه حدس ، وفهمنا الحدس على أنه تعبير ، ووحدنا بذلك ، ضمنا ، بين التعبير واللغة ، اذا فهمنا اللغة بمعناها الواسع . فما قصرنا تحكميا على ما يدعى باللغة الملفوظة ، ولا حذفنا منها ، تحكيما عنصر النبرة والاشارة ، واذا فهمناها بكامل قوتها ، اى اذا فهمناها فى واقعها ، من حيث هى فعل الكلام نفسه ، فما خلطنا بينها وبين مجردات النحو والمفردات .ولاظننا ــ يا للحماقة ــ أن الانسان يتحدث وفقا للنحو ووفقا للمفردات . ان الانسان يتحدث فى كل لحظة كما يتحدث الشاعر لانه كالشاعر ، يعبر عن تأثيراته وعواطفه فى هذه الصورة التى يسمونها كلامية أو مألوفة ، والتى لا تفصلها اية

(٢٦) المجمل في فلسفة الفن ص ٦٦

قوة عن سائر الصور التي يسمونها نثرية ، أو نثرية شعرية ، أو قصصية ، أو ملحمية او حوارية درامية ، أو غنائية او موسيقية وما الى ذلك . ولئن كان لا يسيء الانسان ان يعد كالشاعر (وهو في الحق كذلك ، لكونه انسانا) فما ينبغي ان يسيء الشاعر أن يجمع الى عامة الناس ، فان هذا الجمع يفسر لنا لم كان للشعر الراقي سلطان عظيم على كافة النفوس الانسانية ، فلو كان للشعر لغة خاصة ، لو كان « لغة الآلهة » لما استطاع البشر ان يفهموه لئن كان الشعر يسمو بالبشر ، فانه لا يسمو بهم فوق ذواتهم ، بل داخل ذواتهم : وهكذا نرى الديمقراطية الحقة والارستقراطية الحقة ، في هذه الحالة ايضا تلتقيان : فيلتقي الفن باللغة ، وتلتقي فلسفة الفن بفلسفة اللغة حتى ليمكن ان تعرف كل منهما بالاخرى ، أي أن تعدا شيئا واحدا ... وان هذا التوحيد بين الشيئين يعود على الدراسات الفنية والشعرية بفائدة عظيمة ، فيخلصها من رواسب النظريات المفهومية والاخلاقية ، ونظريات اللذة التي لا تزال تلاحظ بوفرة عظيمة في النقد الادبي والنقد الفني. كما انه يعود بفائدة عظيمة على الدراسات اللغوية التي يحسن أن نخلصها من المناهج الفسيولوجية والنفسية الفسيولوجية التي تجري الآن مجرى المودة ، وان نحررها من نظرية الاصل الاصطلاحي هذه النظرية التي ما تفك تتجدد ، والتي تستتبع وراءها المزاوجات الغيبية بين الصورة والاشارة ، لان اللغة لا تفهم على انها اشارة ، بل على انها صورة اشارة . أي على انها اشارة للصورة ذاتها ، وبالتالي صورة ذات لون موسيقي وغناء . ان الصورة هي نتاج عفوي للخيال ، لان الاشارة التي يتفاهم بها الانسان مع الانسان ، تفترض مقدما وجود الصورة وبالتالي وجود اللغة (٢٧) .

هذا العرض الممتع الذي عرضه علينا كروتشه للنظرة المنطقية للغة ، وما ترتب عليها من آثار في المذاهب البلاغية والنقدية جدير بأن يلقي الضوء على كثير مما التبس على اذهان الدارسين حين يفرقون بين لغة الخيال ولغة المنطق ، وحين يفصلون بين اللغة والشعر ، وحين يميزون بين اللغة العارية واللغة المزخرفة وحين يزاوجون بين الصورة والاشارة ، وكلها تقسيمات خطرة تعود على النقد الادبي والبلاغة بالضرر البالغ ، وتباعد بين الدارسين وبين الفهم الصحيح لطبيعة اللغة الادب .

ولما كانت هذه الافكار وثيقة الصلة بدراساتنا البلاغية ومنهج العرب القدماء في درس البلاغة ، وفي تصورهم للغة ، فقد حرصنا كل الحرص على ان نثبت هنا ما قاله كروتشه كاملا حتى ينتبه مؤرخو البلاغة الى ما ينهض من مناهج البلاغة على مبدأ سليم ، وما لا ينهض منها الا على ضيق في النظرة وفساد في الحكم .

الشكل والمضمون ووظيفة الادب

تؤمن المدارس المثالية في الادب بأن الاثر الادبي ـ أيا كان نوعه ـ انما يصدر عن تجربة خيالية او حدسية تلتمس لذاتها ولا تهدف لغاية من ورائها ، اللهم الا ما في التجربة ذاتها من جمال

---

(٢٧) المرجع السابق من ص ٦٦ ـ ص ٦٩

او لذة او جدة . وبمعنى آخر وعلى حد قول وولتر باتر ، ليست الغاية فى الاثر الفنى هى ممارسة التجربة بل التجربة ذاتها . وواضح ان اصحاب هذه النظرة لا يعنون فى التجربة الشعرية او الادبية الا بقيمتها الجمالية والفنية وحدهما ، والفن عند هؤلاء ليس وسيلة للتعبير عن المشاعر الخاصة ، بقدر ما هو وسيلة لخلق صور واخيلة واحساسات تبعث على اللذة ، وتنشر الجمال للجمال وحده . اما ما فى العمل الفنى من نشاط آخر عقلى او اجتماعى ، او فلسفى او اخلاقى فليس له قيمة فى ذاته ، وفى هذه الحالة لا تتوقف قيمة العمل الفنى على ما فيه من خير خلقى أو اجتماعى أو فلسفى ، ولا يتوقف معيار صدقه على اى شىء يقع خارج العمل الفنى نفسه .

وواضح أن أصحاب هذه النظرة لمفهوم الاثر الادبى وطبيعته ووظيفته قد تورطوا فى خطأ جوهرى ، فهم بهذا الاتجاه انما **يعزلون مادة الفن عن صورته ، ولا يلقون بالا لكل ما يتضمنه الادب من أمور تتعلق بالمجتمع والاخلاق وسائر مقومات الحياة الفكرية العميقة** ، وما يتصل بالحياة الانسانية من مشاكل هى فى الحقيقة من صميم تفكير الفنان . فاذا كانت مشكلة الفنان الحقيقية هى فى محاولته الربط بين شعوره بفردية الحياة ، وبين حقيقة العالم حواليه ، فان الشاعر الذى يبدو فى وصفه للعالم مفرقا فى الرومانسية اوالمثالية **انما هو شاعر لم يصب الا قسطا ضئيلا** من النجاح ، بل لعله أن يكون فى بعض الاحيان عازفا عن محاولة الخوض فى موضوعات تحتاج الى تقمص مشاعر الآخرين ، والى قدر من قوة الخيال التى بدونها لا تتوافر للادب اصالته وقدراته . اضف الى هذا اننا اذا زعمنا أن ليس فى دولة الفن الا عبادة الجمال ، وأن الجمال وحده هو غاية الغايات فى دولة مستقلة ذات سيادة ، فقد حجزنا الادب عن ممارسة الحياة ، بل قل جعلنا الحياة شيئا ساذجا لا يستحق أن يعاش .

وفى هذا يرد عليهم الناقد الماركسى **جوزيف فريمان** بقوله :

« ان الناقد الليبرالى يطلب منا ان نعتقد اننا حين نكتب عن رياح الخريف وكيف عبثت بشعر فتاة ، أو نكتب عن النهود العطشى ، انما نكتب عن تجربة . فان كتبنا عن ثورة اكتوبر او مشروع السنوات الخمس أو عن شنق الزنوج فى جنوب الولايات المتحدة او عن اضراب سان فرانسيسكو ، فهذه الموضوعات لا تسمى تجربة » (٢٨) .

وفى هذا أيضا يقول **ستيفن سبندر** : « الشعر ليس مجرد تصوير لحظة احمرار وجنات الحبيبين او رؤية جمال الزهرة او روعة لون الغروب ، بل الشعر هو الذى يمتد سلطانه فيشمل الحياة بأسرها ، بل وما بعد الحياة ، هو ذلك النهر الهائل الذى يروى الحياة كلها ، لا يحتقر الضئيل الغض ، وأن كان يتجاهل التافه » (٢٩) .

---

(٢٨) الاشتراكية والادب ص ٥٣ د . لويس عوض

(٢٩) الحياة والشاعر تاليف ريتشاردز ترجمة ترجمة د. مصطفى بدوى ص ١٨

هذاما وقع فيه المثاليون من خطأ أما اليساريون المتطرفون فخطأهم لا يقل فظاعة عن خطأ المتطرفين من اليمينيين. فاذا كان اليمينيون قدعبدوا الجمال والفرد وحدهما، فان الساريين قد احلوا عبادة الجماعة محل الفرد ، وعبادة المادة محل الجمال ، وجعلوا ظواهر المجتمع بشتى صوره السياسية والاقتصادية غاية يسخرلخدمتها الانسان ، وليست وسيلة تسخر لخدمة الانسان .

وما نظن ان القضية بحاجة بعد هذا التحليل الى أن ينقسم فيها النقاد الى فئتين ، احداهما تقول بوجوب أن يكون الادب هادفا ، والأخرى تنادى بضرورة أن يترك الأدب حرا من قيود الأهداف ، ذلك ان جذور الخلاف كائنة كما يقول الشاعر الالمانى الحديث « اريك نوساك » فى خلط الناس بين مفهومين متميزين : مفهوم « الانسانى » ومفهوم الاجتماعى ولو ادركنا فى وضوح ان « الاجتماعى » وسيلة تحقيق لنا « الانسانى » لزالت عن المشكلة عقدتها ، لو أدركنا أن كل ظواهر المجتمع بشتى صورها السياسية والاقتصادية انما جاءت ، أو جىء بها لتخدم الانسان ـ والانسان لا يكون الا فردا ـ لادركنا تبعا لذلك أن الادب لابد أن يكون هو الانسان المتعين المتجسد . فاذا شغل الاديب نفسه باحداث عصره ، فانما يشغلها بها من الجانب الذى يصور لنا وقفة الانسان ازاء هذه الأحداث ، بحيث اذا زالت الاحداث ، واختفت امازتها ، بقيت صورة الانسان حية فى كل عصر وفى شتى الظروف (٣٠).

وما دام التوجه الى الانسان هو غاية الادب الحقيقية فى كل عصر وكل زمان ، بغض النظر عن اتجاهات الأدب ومدارسة ، فان الادب المظيم هو الادب الذى يتأمل العالم والانسان وقوانينة، ويتساءل لماذا تجرى الامور على هذا النحو ، والادب الباقى هو الذى يستمد قوته من الحياة والجمال معا ، وهو الذى ينظر بعين يقظة الى المجتمع الانسانى ، فيناصر من هذه المجتمعات ما يتمشى مع القيم الانسانية ، وما يساير الحق والعدل والجمال . فالاديب الحق يحرص على أن يكون لنظم المجتمعات غاية تعكس ما فى نفوس البشر ، وافراد المجتمع الواحد من هموم وآمال وشعور بالحب والحاجة الى التطور والتقدم .

على أن التوجه الى الانسان ـ أيا كان محتواه الفكرى او الفلسفى او الاجتماعى ـ لا يرتقى الى مستوى الفن الا اذا توافرت فيه شروط العمل الفنى ، ذلك اننا نعلم أن الذى يحدد القيمة النهائية لاى عمل فنى هو ما يحتوى عليه من قيم فنية وجمالية . ومهما تكن قيمة المضمون واهميته فلا بد له في النهاية أن يتحول الى فن ، والعمل الذى لا يقنعنا فنيا يظل قاصرا عن بلوغ كماله .

---

(٣٠) فلسفة وفن ص ٢٧٥

عبد العزيز الدسوقي

نحو علم جمال عربي

« تصور وتطبيق »

تمهيد ...

شغلتني — عبر أعوام طويلة من حياتي — فكرة ظلت تلح علي الحاحاً متواصلا . وكانت تتجسد بين الحين والحين في بعض كتاباتي ، بطريقة نظرية أو تطبيقية . ولقد فجر في نفسي هذه الفكرة ، سؤال القيته على نفسي بالمصادفة : لماذا لا يكون لنا « علم جمال عربي » ؟

ووجدتني أبحث عن تحديد دقيق لهذا المصطلح . وفضلت في البداية ان اكتفي بالتعريفات العامة المبسطة . فعرفت هذا المصطلح بأنه « النسق الفكرى المترابط الذى نبحث من خلاله عملية الابداع الفني ، ونختبر على ضوئه طبيعة الاعمال الفنية في اللغة العربية ، وسيكلوجية مبدعها ، والعناصر التى شكلت ذوقه بطريقة فلسفية » .

ويمكن أن نحدد هذا التعريف بعض التحديد ونعتبر علم الجمال العربى : هو « مجموعة الأسس النظرية والقواعد والقوانين التى ندرس على ضوئها التجربة الجمالية ،

ونمتحن من خلالها الخبرة الجمالية ، ونتذوق عناصرها الفنية ، وقيمها التصويرية والتعبيرية والتشكيلية » . فعلم الجمال العربى ـ اذن ـ يؤدى الى ادراك ماهية الجمال الفنى ، فى الأجناس الادبية والفنية المختلفة .

ورحت أفتش عن سبب لاختفاء هذا اللون من ثقافتنا العربية المعاصرة . على الرغم من أنها حفلت بكل الأجناس والانواع الأدبية ، حتى تلك الاجناس الادبية ـ التى قيل ان تراثنا العربى قد خلا منها خلوا تاما ، او على الاقل ، لم يعرفها بصورتها المتطورة الناضجة ـ كالرواية والاقصوصة والمسرحية ، عرفتها ثقافتنا العربية الحديثة ، وطورتها ، وأصلتها وأنضجتها ، وتحولت الى اجناس أدبية عربية ، لها أصولها الجمالية وتقاليدها الفنية .

فلماذا خلت ثقافتنا العربية الحديثة من هذا العلم ، مع أنه ضارب بجذوره فى حضارتنا العربية ، وتراثنا العربى ؟

من الممكن ان نؤجل الاجابة على هذا السؤال ، حتى نتعرف على بذور هذا العلم وجذوره المتأصلة فى تراثنا العربى القديم .

تاريخ وموازنة ...

ولكى تتضح فى أذهاننا الصورة كاملة ، نشير الى نشأة علم الجمال وكيف انتقل الى الحضارة الاوربية وكيف تطور فى الثقافة الغربية ... وبدون الدخول فى تفصيلات ، نحب أن نقدم عرضا سريعا بين يدى القارىء لنحدد له طبيعة هذا العلم ونشأته ومساره فى الحضارات القديمة والحديثة .

نشأ هذا العلم نشأة طبيعية فى حضن الثقافة اليونانية القديمة ، وكان طبيعيا أن يكون فرعا من فروع الفلسفة . وقد اهتم به **سقراط وافلاطون وأرسطو** ، وبحثوا فى ماهيته ووضعوا له الحدود والتقسيمات . وتشير الكتب التى اهتمت بفلسفة الفن وعلم الجمال الى بذور هذا العلم فى المحاورة التى جرت بين **سقراط** وتلميذه « **هبياس** » عندما سأل سقراط تلميذه .

ـ ماذا عسى ان يكون الجمال ؟

ـ وأجاب (هبياس) أستاذه ، بأن راح يعدد له بعض الاشياء الجميلة .

فلم يجد سقراط بدا من أن يلفت نظر تلميذه الى أنه لم يكن يسأل عن « الجزئيات » التى تنطبق عليها صفة الجمال . وانما قصد من وراء سؤاله : معرفة ماهية ذلك (المدرك) الكلى الذى نسميه باسم (الجمال) . فليس من شأن فلسفة الجمال أن تبحث فى احصاء أنواع الجمال ، وانما تنحصر مهمتها فى تعريف ماهية الجميل » (١) .

---

(١) الدكتور زكريا ابراهيم : فلسفة الفن فى الفكر المعاصر ٦ (مكتبة مصر سنة ١٩٦٦) .

ويحدثنا **الدكتور زكريا ابراهيم** فى كتـابه« فلسفة الفن فى الفكر المعاصر » أن هذا المفهوم الافلاطونى الذى اشرنا اليه فى المحاورة السابقة ،ظل كما هو فى الفكر الاوربى الحديث ، وبخاصة عند هؤلاء الفلاسفة المثاليين فهو « بعينه فهم**هيجل** فى القرن التاسع عشر لمهمة (علم الجمال). ففى كتابه (دروس فى علم الجمال) ، أكد : انه لابد من أن نتخذ نقطة انطلاقنا من (الجمـال) بوصفه (فكرة) أو حقيقة كلية لأننا بذلـك ،وبذلك فقط نستطيع أن نتجنب الوقوع فى الكثير مـن المآزق التى تسببها لنا كثـرة المواضـيع الجميلة . او تعدد مظاهر الجمال فى الطبيعة والفن على السواء » (٢) .

ثم تطور هذا العلم بعد ذلك فى الثقافـةالاوربية تطورا كبيرا ، وبخاصة فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، على أيدى الفلاسفة والمفكرين ،وتنوعت اتجاهاته ومدارسه وتصوراته حسب فلسفة.كل فيلسوف من فلاسفة هذين القرنين.ويبدو أن ازدهار هذا العلم فى أوروبا فى هذيـن القرنين يعود الـى ازدهار فلسفاتهم وتطورهـاالكبير ، وكان مـن الطبيعى ان يهتم الفلاسفـة بفلسفة الفن وعلم الجمال ، لأنهما من العناصرالتى تدخل فى مجـالات بحوثهم واهتماماتهم . وكان اهتمامهم بدراسة الظاهرة الجمالية والنفاذالى باطن العمل الفنى لا يعنى وضع معايير للجمال يطيعها منتجو الأعمال الفنية ، بل كان مجـرددراسة نظرية معرفية .

فعالم الجمال « ليس بمتأمل تنحصر كلمهمته فى الادراك الحسى ، كما أنه ليس بفنـان يصدر فى عمله عن الهام فنى ، وانما هو باحـثتتمثل وظيفته فى فهم الظاهرة الجمالية ، والعمل على توضيحهـا فى اذهاننـا ... فليس (علمالجمال) علما معياريا يبين لنا ما ينبغى ان يكون عليه العمل الفنى ، وانما هو علم وصفى يدرسالعمل الفنى باعتباره ظاهرة بشرية تدخـل فى صميم النشـاط الروحى للموجود البشرى ...وعالم الجمال لا ينصح الفنان بشىء ولا يلزمه بشىء . بل يقتصر على دراسة النشاط الفنى ،والنفـاذ الـى المعنى الباطنى العميـق للعمـل الفنى . (٣)

ثم اخذت نظره الفلاسفة المحدثين لدراسةعلم الجمال تتطور وتأخذ مسـارات جديـدة . فبعضهم اعتبرها مجرد دراسة تجريبية للذوقالانسانى . والبعض الآخر يحولها الى دراسـة لسيكلوجية الابداع الفنى والتذوق الجمالى .والبعض ، مـن الذين يهتمـون بالتفسـيرات الاجتماعية ، ربطوها بالنشـاط الحضـارى ،وغدت دراسة تعنى بالبحث فى العلاقة بين منتج الفن وجمهوره . وقد كانت هذه التحولات ثمرةمن ثمار اهتمام الأدباء وغير الفلاسفة ببحـوث علم الجمال . وان كان من الحـق ان نقـرر انالفلاسفة والمهتمين بالدراسات الفلسفية ظلـوا على اهتمامهم بدراسة علم الجمال ، والاهتمـامبالخبرة الجمالية فى حد ذاتها ، باعتبارها نشاطا انسانيا يؤكد حرية الفرد وقدرته الابداعية .

---

(٢) المصدر السابق والصفحة

(٣) المصدر السابق ٧ ــ ٨ (بتصرف)

على ان أهم تحول طرأ على دراسة علم الجمال ، هو ما حدث فى مطلع القرن العشرين ، أو فى ربعه الأول على وجه التحديد ، وعلى أيدى مجموعة من الباحثين الألمان من امثال « دسوار » و « أوتيتس » . وغيرهما ، فقد حولوا « علم الجمال » وفلسفة الفن وبحث الظاهرة الجمالية، الى (علم عام للفن) وهجروا بصورة نهائية هذه التسميات السابقة : « علم الجمال » او « الاستطيقا » لتصورهم ان التسميات الاولى ،غير محدده وغير علمية ، وترتبط فى اذهان الناس بالتأمل الفلسفى المجرد . فى حين انهم كما يقول الدكتور (زكريا ابراهيم) « قد ارادو ان يجعلوا من (علم الفن العام) دراسة وصفية تستوعب شتى مظاهر الخبرة الجمالية دون ان تصطبغ بأية صيغة معيارية » (٤) .

وقد كان هدف هذه الدراسة الوقوف على نشأة الظاهرة الفنية وتقويمها « ومعرفة وظائفها البدائية وبيان علاقتها بما عداها من الظواهر الحضارية الاخرى . وقد كتب **(أوتيتس)** مجلدين ضخمين بعنوان « أسس علم الفن العام » **حاول ان يبين ـ فيهما ـ ان الفن لا** يمثل ظاهرة نوعية مستقلة ... بل هو واقعة من وقائع الحضارة او الثقافة بمعناها العام ... وليس علم الفن العام مجرد دراسة علمية وصفية ، أوموضوعية للظاهرة الجمالية ، تختفى فيها شتى التأملات الفلسفية حول طبيعة الجمال ، وتنعدم فيها كل الاحكام التقويمية ، بل هو أيضا دراسة بشرية عامة ، تظهرنا على الوظائف الدينية والقومية والنفعية والوجدانية » (٥) .

واذا كان هذا الاتجاه فى دراسة الظاهرة الجمالية قد حاول ان يحولها الى علم تجريبى وضعى فأن الفلاسفة ظلوا يعرضون للخبرة الجمالية على ضوء تأملاتهم الميتافيزيقية ، وتأثراتهم العميقة التى انتقلت اليهم من التراث اليونانى . وواجهوا « المشكلة الجمالية فى ضوء فهمهم العام لطبيعة الوجود البشرى ، ولصلة الخبرة الجمالية بما عداها من خبرات بشرية أخرى . ومن هنا فقد ظلت فلسفات الفن فى القرن العشرين متأثرة بالتيارات الفكرية التى ظهرت فى هذا العصر ، مطبوعة بطابع الاتجاه المذهبى لكل فيلسوف من الفلاسفة على حدة . والا فهل يمكننا ان نفهم نظرية **برجسون** فى الفن ،ان لم تكن على علم بمذهبه العام فى (الحدس) ؟ ... وهل يكون فى وسعنا ان نقف على جوهر « (الخبرة الفنية) عند **جون ديوى** ان لم نكن على دراية واسعة بنزعته التجريبية المتطرفه واتجاهه البرجماتى الواضح ؟ ... وهل يتسنى لنا ان ندرلك معنى العمل عند (هيدجر) اذا لم نكن على وعى تام، بنوع اتجاهه الفكرى، وطريقته (الفنومنولوجية) فى تحليل الظواهر البشرية» (٦)

ومن خلال هذه التيارات والاتجاهات المتعددة فى دراسة الظاهرة الجمالية تغيرت المفهومات التى كانت سائدة قبل القرن العشرين،على يد مجموعة متنوعة من الفلاسفة ودارسى فلسفة الفن من امثال « **بندتو كروتشه** »و « **جورج سفنتيانا** » و « **ديوى** » و « **آلان** » و « **مالرو** » و « **البيركامى** » و « **ميرلوبونتى** »و « **سارتر** » و « **مارتن هيدجر** » و « **أرنست**

(٤ ـ ٥) المصدر السابق (١٠)

(٦) المصدر السابق (١٠ ـ ١١) « بتعرف »

كاسيرر » و « سوزان لانجر » و « هربرت ريد »و « سوريو » و « باير » وغيرهم من الفلاسفة والباحثين الذين تناولهم الدكتور زكريا ابراهيمفى كتابه القيم « فلسفة الفن فى الفكر المعاصر » .

ولم يكتف هؤلاء الباحثون فى فلسفة الفنفى القرن العشرين باعادة النظر الى المفاهيم التى درج علماء الجمال على استخدامها مثل مفهوم(التعبير) ومفهوم « الصورة » ومفهوم (الحدس) ومفهوم (الرمزية) ... بل ربطوا علم الجمالبمباحث اخرى مثل (علم اللغة) و « علم النفس » وغيرهما من العلوم التى تهتم ببحوث الذكاء ،والعبقرية ، والابداع الفنى . تلك هى الصورة العامة لنشأة علم الجمال وتطوره وتأثيره علىالفكر الأوربى الحديث ، اعترف انها اثرت تأثيرا كبيرا فى دراساتنا الأدبية والنقد الآدبى ، ولكنهالم تبلور تيارا محددا واضحا من تيارات علوم الجمال كما حدث فى البلاد الاوروبية .

وان كانت هناك بعض الجهود الفردية التىقامت بترجمة بعض بحوث علم الجمال من اللغات الاوروبية الى اللغة العربية . وجهود اخرى قامبها اساتذة فى تأليف بعض البحوث القريبة من مباحث علم الجمال ، وان كانت اقرب الى النقدالادبى ومناهج التحليل النفسى منها الى علم الجمال ومن هؤلاء وهؤلاء على سبيل المثال :**يوسف مراد وأمين الخولى والعقاد وزكى نجيب محمود ومحمد خلف الله احمد . ومحمد النويهىومصطفى ناصف وعز الدين اسماعيل وزكريا ابراهيم وأميرةمطر ومصطفى سويف وفؤاد البهىالسيد وغيرهم** من بعض اساتذة الجامعة الذين قدموا دراسات جامعية فى الابداع الفنى .

ولكن كل هذه الجهود العلمية الصادقةالمخلصة ، لا تشكل ما يمكن أن نطلق عليه (علم الجمال العربى) وهى فى معظمها دراسات متأثرةتأثرا شديدا بعلم الجمال الأوربى وتياراته واتجاهاته ، ويمكن ان ندرجها فى مجال النقدالادبى والدراسة الادبية .

ويبقى السؤال قائما : لماذا لا يكون لنا علمجمال عربى ؟ وهل اختفى هذا العلم من ساحتنا الثقافية الحديثة ، لأن رواد الحضارة العربيةالقدامى لم يلتفتوا اليه ؟ وهذا التساؤل الأخير لا يمثل الحقيقة ولو رجعنا الى تراثنا العربى ،فسنجد كثيرا من فلاسفة الاسلام والمتكلمين والعلماء والأدباء من اجدادنا ، قد عرفوا هذاالعلم معرفة دقيقة ، وهم الذين نقلوا هذا العلم الى العالم الاوربى القديم ، قبل النهضة الاوربيةالحديثة ، فقد ترجموا كثيرا من تراث اليونان الفلسفى والأدبى . وقد تأثروا بهذا التراث .وهم الذين ترجموا اهم كتابين من كتب «ارسطو» يعتبران اساسا هاما من أسس علم الجمال ، هماكتاب « الخطابة » و « فن الشعر » ، وهذا الكتاب الاخير ترجمه ولخصه من فلاسفة الاسلام« **ابو بشرمتى » ويحيى بن عدى و « الكندى » و « الفارابى » و « ابن سينا » و « ابن رشد »** ،ولا شك ان هؤلاء المفكرين والفلاسفة ، قد عرفوا افكار الفلاسفة والشعراء والخطباء اليونان ،ووقفوا على كثير من اتجاهاتهم الأدبية والعلمية. وكان يمكن أن يفيدوا فوائد كبرى فى مجال علمالجمال والنقد الأدبى . ولكن اهتماماتهم كانت تتجه فى المقام الأول الى الفلسفة والمنطق وعلمالكلام . وجاءت اهتماماتهم الادبية والجماليةعلى هامش رسالتهم الاساسية وتبعاً لها .

ولكن هذا الا يمنع من أن نجد عند هؤلاءومن تأثر بهم من الكتاب والادباء العرب القدامى بذورا تعتبر اساسا نظريا لعلم الجمال ، ازدهرتعلى أيدى بعض الفلاسفة المسلمين ، وبعض رجال المعتزلة والاشاعرة . وبعض فلاسفة المتصوفين .

وكان هم هؤلاء جميعا الوصول الى الذروةفى التأثير فى الناس واقناعهم بأفكارهم . وكـان سبيلهم الى ذلك التأثير والاقناع ، هو الكلمـةالواضحة ، او الكلمة الملهمة المؤثرة . ومن هنـا جاء اهتمامهم بدراسة عناصر الابداع الفنى فىالكلام ، ووجوه تأثيره والهامه وايحائه . وتحولت نظراتهم فى هذا المجال الى تأصيل فكـرى لعلمالجمال .

ويمكن ان نشير على سبيل المثال الى كاتبموسوعى كبير **كأبى عثمان الجاحظ** ، وهو مـن فرقة من فرق المعتزلة ، كيف شغل هذا الكاتبالكبير ببعض الموضوعات التى تعتبر على نحو ما ، من بحوث علم الجمال ، ومن امعان النظر فى كلامهعن هذه الموضوعات نشعر أنه كان يمتلك تصورا فكريا لعملية الابداع الفنى ، فهو يرى مثلا انالموهبة الفنية هى الأساس فى كل ابداع فنى . وان الكاتب الموهوب يندفع بفطرته الفنية الـىابداع اعمال أدبية مكتمله الاداة قادرة على التأثير فى الناس . ومعيـار جودة العمـل الفنى عندالجاحظ هو هذا التأثير فى نفوس الناس أولا . ثم يأتى بعد ذلك ما فى الكلام من صواب ومنفعة . ونستطيع ان نجد دليلا على هذا الكلام فى تلك النصيحة التى يسديها الى الناشئين من الادباء ،يقول « فاذا اردت ان تتكلف هـذه الصناعة ، وتنسب الى هذا الادب ، فقرضت قصيـدة أوحبرت خطبة . أو ألفت رسالة ، فاياك ان تدعوك ثقتك بنفسك او يدعوك عجبك بثمرة عقلك الىان تنتحله وتدعيه ، ولكن اعرضه على العلماء فى عرض رسائل أو اشعار ، أو خطب ، فان رايتالاسماع تصغى له ، والعيون تحدج اليه ، ورايت من يطلبه ويستحسنه ، فانتحله . فاذا عاودتأمثـال ذلـك مرارا ، فوجدت الأسـماع عنه منصرفة ، والقلوب لاهية ، فخذ فى غير هـذهالصـناعة . واجعـل رائدك الـذى لايكذبك ، حرصهم عليه او زهدهم فيه » . (٧)

وحول استقباح الجفاف العلمى فى الشعروعدم بناء القصيدة على الافكار وحدها ، يقول الجاحظ : « لو أن شعر صالح بن عبد القدوسكان مفرقا فى أشعار كثيرة ، لصارت تلك الأشعار ارفع مما فى عليه بطبقات ... ولكن القصيـدةاذا كانت كلها امثالا لم تسر ، ولم تجر مجرى النوادر ، ومتى لم يخرج السامع من شىء الىشىء ، لم يكن لذلك عنده موقع » . (٨)

ويمكن ان نجد فى كتابات الجاحظ أفكاراكثيرة حول « الوحدة العضوية » وحول « اللفظ والمعنى » وحول « فكرة التأثير » او « الخيال »وغيرها من الأفكار التى تعتبر مـن مباحث علم الجمال .

---

(٧) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ١ ٢٠٣ (تحقيـقعبد السلام هارون)

(٨) المصدر السابق ٢٠٦

فحول اللفظ والمعنى يقول « والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى والمدنى. وانما الشأن فى اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفى صحة الطبع، وجودة السبك، فانما الشعر صياغة، وضرب من النسج. وجنس من التصوير » ، (٩) ، فالجاحظ فى هذه العبارات يتحدث كعالم من علماء الجمال الفاقهين الذين يرون ان العمل الادبى لا يكتمل الا من خلال البناء الفنى والموهبة التى تلتقط المعانى المطروحة فى الطريق فتصوغها وتنسجها فى كلمات وتعبيرات شفافة، تبرز جمالها وتزيد فى تأثيرها. ولا اعتقد ان الجاحظ كان يهدف من وراء هذه الأفكار وأمثالها الى تفضيل اللفظ على المعنى : كما ذهب الى ذلك كثير من دارسينا، ولكنه كان يؤكد تلك الفكرة الجمالية التى ترى اننا لا تستطيع فى مجال الابداع الفنى، أن نفصل اللفظ عن المعنى، أو نفصل المعنى عن اللفظ، فهما مقترنان ممتزجان، ولعل هذه الفكرة هى التى الهمت — فيما بعد — **عبد القاهر الجرجانى** فى نظريته عن « النظم » التى تعتبر بكل المعايير من مباحث علم الجمال، وهى تلامس كثيرا من افكار علماء الجمال المحدثين، والذين يعاودون النظر فى كتابى « اسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » لعبد القاهر يتأكدون من صحة كلامى هذا .

ويمكن ان نشير الى حكيم آخر من حكماء المعتزله هو **بشر بن المعتمر**، وقد كانت له نظرات فى علم الجمال والنقد الادبى . وصحيفته التى سميت باسمه تحمل تلك الأفكار والنظرات . ويقول فى هذه الصحيفة حول قضية اللفظ والمعنى « التوعر يسلمك الى التعقيد . والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ، ويشين الفاظك ، ومن اراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف » (١٠).

ويحدثنا عن مناسبة المعانى للالفاظ بقوله لابد « أن يكون لفظك رشيقا عذبا فخما سهلا ، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا ، اما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت ، واما عند العامة ان كنت للعامة أردت ، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معانى العامة ، انما مدار الأمر على الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال » (١١) .

وهناك كثيرون من الفلاسفة والادباء والباحثين العرب القدامى يمكن ان نستشهد بأقوالهم في هذا المجال من امثال (**الآمدى**) و (**قدامة بن جعفر**) و (**ابن طباطبا العلوى**) و (**ابن رشد**) و (**ابن سينا**) و (**الكندى**) و (**الفارابى**) . ولكن المجال لا يتسع لهذا .

---

(٩) **الجاحظ : الحيوان** ج ٢) ١٣١ — ١٣٢)

(١٠) نقلا عن البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٨ — ١٣٩

(١١) المصدر السابق

وكذلك الامر بالنسبة للمتصوفة .. ولكن لابـدمن ان نقف عند قضيتين هامتين فى هـذا المجال هما :

قضية اعجاز القرآن

وقضية الرموز الفنية عند فلاسفة المتصوفين

فقد ثارت حول القضيـة الأولى قضـاياكثيرة ، والفت مباحـث متعددة . وكان مـن الطبيعى ان يهتم اصحاب هذه القضايا والمؤلفاتبدراسة الظاهرة الجمالية فى التراكيب الادبيـة حتى يتمكنوا من فهم المغزى الأدبى والفنى لاعجازالقرآن الكريم .

وقد الف كثير من علماء الكلام من المعتزلةوالأشاعرة وأهل السنة . كتبا تدور حول اعجاز القرآن ، ويعنينا هنا بصفة خاصة كتابان بعنوان« اعجاز القرآن » الاول « **لأبى سليمان الخطابى** » والثانى « **لأبى بكر الباقلانى** » .

ولست اقف عند هذيـن الكتابـين لأعرفـرأى الخطابى والباقلانى فى قضية الاعجاز ، ولكن لاتبين موقفهما من فهم الظاهرة الجمالية فى نتاجالادباء . ففيهما أفكار وتصورات فى الابداع الفنى والتشكيل البيانى وروعة التجارب الادبية تحتاجالى تأمل ودراسة ، فالخطابى (مثلا) له مفهوم عام لأجناس الكلام ودرجات جودتها يحدثنا عنهابقوله « ان اجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها فى نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها فى البلاغـةمتباينة غير متساوية ، فمنها البليغ الرصـين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل . ومنهـاالجائز المطلق الرسل . وهذه أقسام الفاضل من الكلام ،فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وارفعه، والقسم الثانى أوسطه واقصده . والقسم الثالث أدناه واقربه . فحازت بلاغات القرآن من كـل قسم من هذه الاقسام حصة . وأخذت من كـل نوع من انواعها شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذهالأوصاف نمط من الكـلام يجمـع بين صفتى الفخامة والعذوبة ، وهما على الانفراد فى نعوتهماكالمتضادين، لأن العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة فى الكلام تعالجان نوعا من الوعورة ، فكاناجتماع الامرين فى نظمه مع نبو كل واحد منهما عن الآخر ـ فضيلة خص بها القرآن » (١٢) .

ويمكن ان نقف عند معنيين هامين فى هذاالكلام للخطابى هما « الجمال » و « الجـلال » واثرهما فى النفس الانسانية ، وهو يعبر عـنالجلال فى الاثر الفنى بالرصانه والجزالة والفخامة والمتانة وعـن الجمـال بالعذوبـة والسهولـةوالسلاسة .

ومما يلفت النظر فى كلام الخطابى حـولالابـداع الفنى : ادراكه العميـق للمعاناة التى يتحملها مبدع العمل الادبى وما يجب ان يتوافرله من ثقافة وبراعـة وقدرة على تحمـل المعاناة وبصر بمواضع التراكيب ونظمها . وهو يحدثناعن كـل ذلك بقوله « وامـر معاناة المعانى التى

---

(١٢) اعجاز القرآن ـ للباقلاني . تحقيق السيد صقرص ١٦

تحملها الألفاظ شديد ، بالغ الشدة ، لأنها نتائج العقول ، وولائد الأفهام وبنات الأفكار ...
وأما رسوم النظم فالحاجة الى الثقافة والحذق فيها أكثر ، لأنها لجام الألفاظ وزمام المعانى .
وبه يتصل أخذ الكلام ، ويلتئم بعضه ببعض ، فتقوم له صورة فى النفس يتشكل بها
البيان » (١٣) .

وهذا كلام لا يختلف كثيرا عن نظرات بعض علماء الجمال فى الحضارة الاوربية الحديثة ، عن علاقة المعانى بالالفاظ التى تحملها ودور الثقافة . والتقاليد الفنية الخاصة بنظم الكلام .

أما ((**الباقلانى**)) فهو عالم من اهم علماء الأشاعرة ، وكتابه (**اعجاز القرآن**) من ادق الكتب العلمية المبكرة التى تناولت بالتفصيل هذه القضية ، ولكنه تناول الى جانب ذلك ، كثيرا من قضايا النقد وعلم الجمال . وتعرض فى معظم صفحات كتابه لدراسة الخبرة الجمالية عند الشعراء والادباء ، والموازنة بينهما وبين اساليب القرآن الكريم فى التصوير والتعبير ، وطريقته فى عملية النظم ، وقد تحول الكتاب الى معرض أنيق للتذوق الشعرى العميق .

ويمتاز الباقلانى عن غيره من المتكلمين ومن كثير من اللغويين والكتاب ، بأنه كان يختار نصا كاملا يجرى عليه تجاربه فى التذوق الفنى ، فوقف عند « **معلقة امرىء القيس** » . واستشهد بأشعار كثيرة تناولها فى دراسته ووازن بينها وبين البلاغة القرآنية .

وفكرته عن اسلوب النظم فى الكلام جيدة ، وآراؤه حول اللفظ والمعنى ، وعملية الابداع الشعرى ، سليمة مستقيمة تدل على ذوق مرهف وحس فنى عميق . وهو يميز تمييزا كبيرا بين ذوق العلماء ، وذوق الأدباء والشعراء فى عملية التقويم الشعرى والتذوق الفنى . وله تصور فنى متكامل لطبيعة التعبير الأدبى والفنى .

فالكلام عنده موضوع للابانة عن الأغراض التى فى النفوس . واذا كان كذلك وجب ان يتخير من اللفظ ما كان أقرب الى الدلالة على المراد ، وواضح فى الابانه عن المطلوب ، ولم يكن مستكره المطلع على الأذن ، ولا مستنكر المورد على النفس ، حتى يتأبى بغرابته فى اللفظ عن الافهام ، أو يمتنع لعويص معناه عن الابانة . ويجب ان يتنكب ما كان عامى اللفظ مبتذل العبارة ، ركيك المعنى ، سفسافى الوضع ، مجتلب التأسيس ، على غير اصل ممهد ولا طريق موطد » (١٤) .

يبقى أن اشير فى نهاية هذا العرض السريع لبذور علم الجمال وجذوره فى تراثنا العربى ، الى قضية الرموز الفنية عند فلاسفة المتصوفين . وهى قضية هامة ومتشعبة تحتاج وحدها الى دراسة متخصصه وتكاد تكون نظرية مستقله فى علم الجمال ورائد هذه النظرية بلا مراء ، هو الشيخ الاكبر ((**محيى الدين بن عربى**)) . فقد اهتدى هذا الفيلسوف المتصوف ، الى نظام رمزى كامل ، طبقه على اللغة والفكر ووصل من خلاله الى كشوف فكرية وفنية كبيرة .

---

(١٣) المصدر السابق ١٧

(١٤) المصدر السابق ١٧٨ .

وقد درس (ابن عربى) هذا النظام الرمزى فى موسوعته الكبرى « الفتوحات المكية » . درسه فى السفر الأول تحت عنوان « علم الحروف » وعاد اليه فى السفر الثانى بالبحث والدرس . ولست بصدد تقويم هذا النظام الرمزى الذى اهتدى اليه ابن عربى ، فهذا الأمر محتاج الى فترة طويلة للتفرغ الكامل لهذا النسق المعقد الذى استغرق مئات الصفحات فى الفتوحات المكية ، ولكن الذى لاشك فيه ان قدرة ابن عربى على التذوق الفنى والادراك الجمالى ، تسلكه فى زمرة علماء الجمال ، وان كان الرجل لم يكن يقصد الى هذا ولا يسره ان ينال هذا اللقب ؛ فقد كان همه الأكبر الوصول من خلال هذا كله الى علم الباطن ، ليكون طريقه الى الروح الأعظم وسر الاسرار ، الذى كان الهدف من كل مكابداته الصوفية ، واشواقه الروحية .

• • •

اذن لماذا اهملنا كل هذا التراث الرائع .. ؟ ولماذا لم تتطور هذه النظرات العميقة فى دراسة الخبرة الجمالية ، كما تطورت فى الحضارات المختلفة ؟

ولماذا بقينا بلا علم جمال عربى حتى الآن ؟

ولا اريد أن اغامر بالرد على هذا السؤال . فليس يكفى ان نقول ان انقطاع تيار الريادة فى مجال الفلسفة الاسلامية والعربية كان وراء هذا الأمر . فلاشك ان عندنا مجموعة من المفكرين والدارسين للفلسفة الاسلامية والمهتمين بالأدب والتذوق الجمالى والفنى ، كان من الممكن أن يقوموا بتأصيل نظرى حديث لعلم الجمال العربى فى ساحتنا الثقافية .

وعلى كل حال فليس المهم أن نجيب على التساؤلات التى تثيرها ، ولكن الأهم ان نفجر المزيد من هذه التساؤلات ، ثم نترك الاجابة عليها للتطورات الفكرية والروحية واحداث الحياة وتقلباتها ، ومرور الايام وكر الليالى . فهى كفيلة بأن تحل أعقد المشكلات ، وتجيب على أصعب الاسئلة .

وقد نجيب على السؤال بطريقة اخرى ، وذلك بأن نقوم بمحاولات فى سبيل الوصول الى علم جمال عربى . وقد قمت ـ على امتداد عشرين عاما ـ بمحاولتين ، او بمعنى أدق بمغامرتين فى هذا السبيل لا مفر من أن اعرض لهما مادمت اتحدث عن خلو ساحتنا الثقافية من « علم جمال عربى » .

واتمنى ان نثير حول هاتين المحاولتين مزيدا من الجدل والحوار والنقد والتفنيد حتى نبلور هذه الأفكار ونحدد المصطلحات ، مادمنا نسعى الى « علم جمال عربى » .

محاولتان :

المحاولة الاولى :

اما المحاولة الاولى فقد عرضت لى وانا اقوم بدراسة تفصيلية فى شعرنا المعاصر سنة ١٩٥٨ وكنت اقف عند شعر الرائد الكبير **محمود حسن اسماعيل** طويلا ، اعيش بين صوره واتذوق

تجاربه الفنية ، واحلل طرائفه التعبيرية وقيمهالجمالية . ولكن كنت احس فى شعر محمودحسن اسماعيل بشيء آخر غير كل هـذا ، شيء يغمرنفسي ، ويهز وجدانى ، ويحرك عقلى . واحيانا كنت أسمع همسه واضحا فى أذنى . . ما طبيعةهذا الشيء ؟ هل هى القدرة اللغوية الفائقة عند الشاعر ؟ هل هى الطاقة الشعرية ؟ هل هـوقاموس محمود حسن اسماعيل المتفرد ؟ هـل هى طريقته فى تشكيل صوره الفنية ، وتراكيبـهوتعبيراته ؟ هل هو مزيج من كل هذا . .)

ووجدتنى أبحث عن تصور جديد لاكتشافهذا الشيء . وبعد معاشرة طويلة لمعظم شـعر محمود حسن اسماعيل ، وجدتنى أهتف : حقالقد وصل هذا الفنان الكبير الى درجة « الوجد الشعرى» وسحرنى رنين هاتينالكلمتين ،وفرحتبهما فرحا كبيرا فقد مهدا لى الطريق الى المحاولة الاولى . واكتشفت ان الفنان الموهوب لابد انيصل في مرحلة من مراحل حياته الى ذروةالنضج الفنى ، وكما يصل المتصوفة والسـالكون اليالوجد الصوفى يصل الفنان الى شيء قريب مـن هذا ، لابد من الكشف عنه وتحـديده بطـريقةموضوعية .

الوجـد الفـنى

وقررت ان اطلق على هـذا الشيء اسـم« الوجد الفنى » .

واعترف ان فكرة (الوجد الفنى) هذه ،تراءتلى فى الأصل خاطرة صوفية عابرة ، فى لحظـة من تلك اللحظات المرهفة النافذة العميقة التيتشبه الاشراق الصوفى ، وقـد اقتنصـت تلك الومضـة الحالمة ومزجتها بفلسـفة الجـمال ،ومصطلحات النقد الأدبى ، واستيقظ طـموحى العارم وتذكرت خلو ساحتنا الثقافية من عـلمجمال عربى ، فحاولت ان اجعل من تلك الومضة العابرة لبنة من لبنات هذا العلم . فاسـتعرتمصطلح «الوجد» من قاموس المتصوفةوالسالكين وأسندته الى التجربه الفنية فصار « وجـدانفيا » . ورحت أدرس على ضوء هذا الاكتشـاف « جهاز الابداع الفنى » وطبيعته وطريقته فيابداع التجربة الفنية وادوات الابداع التى يعمل من خلالها هذا الجهاز . وجعلت اتساءل هـلاللغة وما يحيط بها من اشعاعات وظلال ، ومـا تفجره من شحنات وصور ورموز ، هى ادواتهذا الجهاز ؟ وكيف يعمل هذا الجهاز من خـلال هذه الادوات والرموز ؟

وما علاقة كل هذا بالعالم الخارجى ، أوعالم الفنان الباطنى ؟

ثم عكفت — بعد ذلك — على وضع بعـضالاسس الموضوعية لهذا (الوجد الفنى) منخلال دراسة التجربة الفنية في مراحلها المختلفة حـتىتصل الى ذروة التوهج والاشراق ونقلت معـنى كلمة « الوجد » من قاموس الفلاسفة الالهيينوالمتصوفة وحولته الى مصطلح جمالى يصـــور ارتباط مبدع الفن بتجربته الفنية ارتباطا عضـوياحميما متوهجا ، فيه جدة الفن وعمق الشـعور ونضج الأداة الفنية . وحددت السماتوالخصائصالتي تميز **الوجد الفنى . ومنها :**

التنبه الحاد المصحوب بيقظة الحسورهافةالشعور وعمق الاحساس بالحياة .

جيشان النفس واحتدام العاطفة ،والروحالانسانى العميق الذى يحتضن الوجود بما فيــه من كائنات .

غزارة الموهبة ، وثراؤها ،واكمال الاداةالفنية ، مع الاحساس بالدهشة الدائمة مــن مظاهر الوجود ومرائى الطبيعة .

ووضحت ايضا الزوايا المتعددة التى يمكنأن نطل منها على الوجد الفنى والتى يمكن ان يتحول اليها :

فقد يكون معيارا فنيا نختبر من خـــلالهالتجربة الفنية ، وندرس ظروف مبدعها وطبيعته

وقد يتحول الى فلسفة جمالية اذا درسناعلى ضوئه ، تصور الفنان للجمال ، وادراكه للعلاقات والنسب التى تشكل معمار العمـــلالفنى .

وقد يصبح حالة تلم بالفنان ، فتغير نظرتهالفنية ، وتصبغ ادراكه للاشياء ونظرته للعلاقات الانسانية .

وقد يتحول الى سمة من سمات العمـلالفنى ، وخصيصة من خصائصه ، ويكون ادراك تلك السمات والخصائص الجمالية ، منهجانقديايمكن أن نفيد منه ونفسر على ضوئه الاعمـــال الادبية والفنية . على أن هذه التحديداتالصارمةلم تمنعنى من القيام بعمليات متعددة من التذوق الجمالى من خلال منهج « الوجد الفنى » فقمتبدراسة لشعر محمود حسن اسماعيل بعنــوان « الوجد الشعرى عند محمود حسن اسماعيل »... ودرست على ضوئه بعض التجاربالصوفية كاحياء علوم الدين ومشكاة الانوار للغزالى .والرعاية لحقوقالله للمحاسبى والرسالةالقشيرية القشيرى . والفتوحات المكية لمحيى الدين بنعربى .

وقمت بدراسة فكرة الموت على ضوء منهجالوجد الفنى . ومن خلال هذا المنهج تذوقت القصيدة العينية لابن سينا « هبطت اليك مــنالمحل الارفع » . وهى تجربة عميقة تمتزج فيها الرؤية الفكرية بالرؤية الفنية امتزاجا تاما ،حتىليصعب علينا ان نفصل فيها بينالتفكيروالتصوير والتعبير ، ولعل ذلك يعود الى ان الشاعر كانقد وصل الى تلك الحالة المتوهجة المشرقة ، التى تلم بمن يصلون الى درجة الوجد الفنى ،فتحولتالفكرة فى وجدانه الى تجربة مشبوبة فى اعماقه ، فخرجت القصيدة الى الوجود على هذا النحــوالمركب الذى تسوده وحدة عضوية ووحـــدة فنية ووحدة شعورية . وقد تراءت لى اشــياءجديدة فى أثناء الدراسات التطبيقية التى كنت أقوم بها على ضوء نظرية « الوجد الفنى » .

مثلا ، وانا ادرس الفتوحات المكية لابرعربى تبين لي انه اصل مجموعة من النظـرات الجمالية ، ووضع نسقا متكاملا للمعرفة يتلاءممع أفكاره وتصوراته ، وتوصل الى مجمـوعة من الرموز الفنية فى الباب الذى سماه « عــلمالحروف او « علم الاسرار » . وأشاع مجموعة من المصطلحات الفنية واللغوية من الممكن انتكوننواة صلبة لعلم جمال عربى . الى جانب ماتوصل

اليه من رموز واشارات ، واستخدامات للغـة ،مكنته من ابداع مجموعة من النصوص الادبية والفنية ، اعتقد انها تثرى نقدنا العربى الحديث،لو صبرنا على فهمها وسبر اغوارها ، واخضعناها للذوق العصرى .

واكتشفت وانا ادرس (مشكاة الأنوار)للامام ابى حامد الغزالى ، انه توصل الى النور الباطنى والظاهرى وربط بين الذين يدركون هذهالانوار وبين من يتذوقون الموسـيقى ويدركـون طبيعة الالحان ويتذوقون الاغانى ويميزون بينالاوتار وقال « فانظر الى ذوق الشعر كيـف يختص به قوم من الناس ، وهو نوع احساسوادراك . ويحرم منه بعضهم ، حتى لا تتميـز عندهم الالحان الموزونة المتزحفة . وانظر كيـفعظمت قوة الذوق فى طائفة حتى استخرجوا بها الموسيقى والاغانى والاوتار » .

وقد نشرت بعض هذه الدراسات التطبيقيةالتى قمت بها . ولفت نظرى بصفة خاصة مـا اثاره البعض حول دراسـة التـراث العـربىواستلهامه واستيحائه على ضوء هذا المنهـج ، فقد ظن البعض ان هذه حيلة الجأ اليها لاحيـاءالتراث العربى ، ولا ادرى لماذا نحتال لاحيـاء تراثنا ، وهو واجبنا جميعا . ولكن الحقيقـةالمجردة ان « الوجد الفنى » معيار نقدى يصلح لدراسـة الادب المعـاصر والادب القـديم علىالسواء .

فليس طريقا لتلخيص آراء العرب القدامىفي علم الجمال وتصورهم لفلسفته .

وليس منهاجا لاعادة النظر فى مدلول كلمةالوجد عند الصوفية على اختـلاف مدارسـهم وتصوراتهم .

وليس دعوة تلفيقية لمزج افكار مختلفة منمدارس علم الجمال فى الحضـارة الاوربية ،وخلطها بأفكار مشابهة فى تراثنا العربى .

فالوجد الفنى معيار نقدى معاصر استلهمفى البداية التراث العربى ، ثم تحول بعد ذلك الى مصطلح جديد له اسسه وخصائصه وسـماتهالتى حددتها فى هذه الدراسة .

وهذا فى نظرى ،هو المعنى الحقيقيلاستلهامالتراث ، فنحن نعمل عقولنا وذوقنا المعاصر فى خامات مشعة عبقة من تراثنا ، لنحولها بعد ذلكالى شىء جديد ، له غزارة الايحاء وعبقالتراث فى اطار المنهج العلمى الحديث .

ليس معنى ذلك اننى لم استفد من نظراتالعرب القدامى فى علم الجمال وتصورهم للعملية النقدية ، او لم استفد من معانى الوجد عنـدالصوفية ، او من افكارهم فى الذوق والجمـال والخير والحب والوهم والخيال ، والابداعالفنىبل الصحيح ان هذه الاشياء كلها ، كانتالخميرة الاساسية لهذه الفكرة ، اختلطت بهذه العناصركلها وتغلغلت فيها فانتجت هذا الذى نسـميه « الوجد الفنى » .

واعتقد اننى افدت كثيرا من تطبيق (معيارالوجد الفنى) على الاعمال الفنيـة والادبيـة للمتصوفة والسالكين ، لان اصحاب تلكالتجاربوصلوا في معظم الاحيان الى حالة مـن الوجـد

الصوفي ، وهى وقدة روحية مشحونة بالالوان والظلال تهز النفس الانسانية وتفجر كل طاقات الابداع ، ومن ثم تكون الاعمال التي يبدعونها ،على هذا المستوى المشحون المتوتر المتوقد ، وانتهيت من هذا الى ان كل اديب لا يصل الى تلك الوقدة الروحية والشعورية وهو يبدع عمله الفنى ، لا يكون اديبا بالمعنى الحقيقى . قد ينتج فى غير هذه الحالة أعمالا كثيرة ، ولكنها تظل اعمالا فاترة ، لا تهز الوجدان ، ولا تلذ العقل ، ولا تسر القلب ، ولا تثير الشعور ، ولا تلهب الخيال ، ولا توصلنا الى هذه الغبطة الفكرية والجذل الروحى ، الذى نشعر به عادة بعد أن نقرأ الاعمال الادبية الشامخة .

وتبين لى ــ بعد أن وصلت الى هذا الحد ــ ان « الوجد الفنى » معيار خاص لا يصلح لسبر أغوار كل التجارب الادبية . فهو يهمل التجارب المتوسطة والجيدة ، وينأى عن التجارب العادية. ويسقط من حسابه كثيرا من الادباء والفنانين الذين لم يصلوا الى تلك الحالة من التوهج والاشراق التى تصاحب عادة من يصلون الى درجة الوجد الفنى . وبذلك يكون معيارا خاصا بالقمم والشوامخ والاعمال الادبية والفنية الكبرى .

على اية حال ليس عيبا ان يكون الوجد الفنى معيارا خاصا . وليس عيبا ان يصل الفنان ومبدع الأدب الى تلك الحالة ، من التوهج والاشراق التى نسميها وجدا فنيا ، لانهما عندما يصلان الى تلك المرحلة ، يبدعان أعمالا فنية رفيعة ، تمتزج فيها التجربة الشعورية بأدوات الفنان والأديب التعبيرية والتصويرية والتشكيلية وتنصهر فى باطنهما التجربة اللغوية بالتجربة الشعورية ، ويخرج العمل الفني موجدا ،تتلألأ في داخله رؤية الفنان ممتزجة بأدواته اللغوية ، وصوره التعبيرية وتدفقه الشعورى .

ولكن هذه الخصوصية فى المعيار تستلزم خصوصية فيمن يستخدمه ... واذا كان مبدع الفن قد وصل الى حالة الوجد الفنى ، فلابد ان يكون الناقد الذى يتناول عمله ، قد وصل هو الآخر الى تلك الحالة من التوهج والاشراق ، اى قد تربع على قمة الوجد الفنى .

ولا شك أن تذوق الجمال فى الحروف والاصوات والانغام والاضواء والاشكال ، يعطى الناقد رصيدا من التجارب المتعددة والدربة والخبرة في استكناه اسرار الجمال فى العلاقات بين الاشكال وبمضى الزمن والنضج واكتمال الاداة ، والامعان فى دراسة الخبرة الجمالية ، تتحول هذه الخبرة عند الناقد الى « حدس فنى » وبذلك يصل الى درجة التوهج والاشراق والوجد الفنى ، التى يصل اليها مبدع العمل الادبى والفنى . وبذلك يتساوى ــ حيال معيار الوجد الفنى ــ الفنان المبدع مع عالم الجمال والناقد الذى يتناول الاعمال الفنية ، ويصبح الناقد والدارس للخبرة الجمالية فنانا مبدعا .لا فرق بينه وبين الفنان المبدع الا ان الاول يأخذ تجاربه من الحياة مباشرة . بينما يأخذ الفنان الناقد تجاربه الابداعية من الاعمال الفنية . على اننى اعترف ان معيار (الوجد الفنى ، لم يستكمل حظه من الدراسة ، ولم يتحدد بصورة نهائية . ولعل ذلك يرجع الى اننى عنيت فى المقام الاول بالدراسات التطبيقية على ضوء الاصول النظرية القليلة التى اهتديت اليها .. ولم اشأ أن اتفرغ للتأصيل النظرى فى بداية الأمر ،وتركت

الباب مفتوحا امام الجديد الذى اكتشفه على ضوء الخبرة الجمالية ومن خلال تذوق الاعمـال الادبية . وظل الأمر على هـذا النحـو حـتى استفرقتنى المشاغل ، وانصرفت نهـائيا عـن « معيار الوجد الفنى » ولم أعد أتناوله فى مجال التنظير ، أو فى مجال الدراسات التطبيقية .

ولكن يبدو ان فكرة « علم الجمال العربى » ظلت تقبع في اللاشعور ، ولم تفارقنى ابدا . حتى اتيح لها ان تخرج فى شكل جديد يختـلف عن « معيار الوجـد الفـنى » وكان ذلك نواة المحاولة الثانية .

المحاولة الثانية :

منهج الرؤية الفنية

ولهذه المحاولة قصة ، فقد اكتشفت أننا فى مجال الدراسة الأدبية لاعلام شعرنا العربى لا نزال نجتر الأفكار التى اهتدى اليها الرواد فى مطلع هذا القرن والعقود الثلاثة التى تلت ذلك ، وقد نستثنى بعض الدراسات القليلة التى حاولت أن تضيف جديدا ، أو تقدم شيئا مبتكرا ، مع ان الدراسة الادبية تطورت فى العالم تطورا كبيرا ، واحتدمت السـاحة الثقـافية فى اوربا وامريكا بالنظريات النقدية الكثيرة والحديثة .

ثم رأيت ما طغى على معظم دراساتنا الادبية من وقوع في براثن المناهج الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فوقعت فى خلل كبير أصاب التذوق الجمالى بنكسة كبرى . وتحولت معظم دراساتنا الأدبية وخاصة فى الثلث الثانى من القرن العشرين الى وثائق سياسية ونظـرات فى الاجتـماع والاقتصاد .

وعن لى ان أقف مع القلة القليلة من الاساتذة الجامعيين الذين لا يزالون يولون القيم الجمالية عناية كبرى . ويحاولون اعادة الدراسة الأدبية الى طبيعتها الأصيلة .

وفكرت فى القيام بعمل ايجابى يجمع بين أمرين . **الامر الاول** : اعادة دراسة اعلام شعرنا العربى من جديد ، حتى هؤلاء الذين درسـوا على أيدى الرواد واعلام النقد العربى الحديث . فى محاولة لتقديمهم للأجيال الجديدة من خـلال تصور جديد يستلهم ما جد من تطورات عـلى مناهج النقد والدراسة الادبية في العالم .

والامر الثانى : ان اصطنع منهجا جـديدا يتيح لى أن انفذ من خلاله الى جوهر التجـربة الفنية لهؤلاء الشعراء ، وأن أقدم شيئا جديدا ، يحمل بعض النظرات المبتكرة .

واخترت ان أبدأ دراساتى هذه ، بتقـديم شاعر من اكبر شعراء العربية على امتداد عصورها هو « **أبو الطيب المتنبى** » وكان السبب فى اختيار هذا الشاعر ، وتقديمه فى طليعة هذه الدراسات لونا من المعاظلة ، ونوعا من التحدى ، فهـذا الشاعر بالذات حظى بدراسات كثـيرة والفت حوله مئات الكتب فى القديم والحديث . والاقبال على دراسته من جديد ، يؤكد للأجيال الجديدة ، ان طبيعة الدراسات الانسانية تختلف عن طبيعة العلوم ومناهجها ؛ وان احدا لا يستطيع أن يقول فيها الرأى الاخير ، وان التجارب الفنية والادبية مهما قيل حولها ، فى حاجة دائمة الى من يقول

فيها رايا جديدا . واهتديت ـ بعد معاناه ـ الى منهج متميز ، تناولت على ضوئه المتنبى . وسميته « منهج الرؤية الفنية » . وقمت بتحديد هذا المنهج تحديدا نظريا ، وفصلت قواعده واسسه العلمية . وان كنت فى دراستى لعالم المتنبى الشعرى لم اشأ ان اثقله بتلك التفصيلات النظرية ، وهذه الاسس الفكرية (١٥)

واكتفيت بتقديم بعض الاصول النظرية العامة في مقدمة المقالة الاولى من هذه المقالات التى نشرتها عن المتنبى ودخلت فيها عالمه من خلال رؤية فنية .

وكنت انثر بين الحين والحين ـ وفى اثناء الدراسة ، بعض ملامح نظرية لهذا المنهج .

معالم منهج الرؤية الفنية

ويمكن فى هذا المجال ان اتناول بصورة عامة معالم منهج الرؤية الفنية ، واحدد سماته المميزة ، واشير الى بعض أدواته وبعض مصطلحاته الجمالية .

ولا اريد ان اضع له تعريفا جامعا مانعا منذ الوهلة الاولى ، ولنقتصر على وصفه حتى نتيح له النمو بعد ذلك . وهو على اية حال « منهج ينظر الى العمل الادبى من الناحية الفنية والادبية . وليس مقيدا بصورة سابقة ولا بنمط فكرى معين ، أو مذهب سياسى او اقتصادى أو عقيدة من العقائد ، ولكنه يلج مباشرة الى داخل العمل الادبى مجردا من كل الافكار السابقة ثم يحاكم العمل من خلال مقاييسه الجمالية والفنية ، ويصل الى اهدافه ومراميه من خلال معايير فنية بحت .

ولكن ليس معنى ذلك ان هذا المنهج يتنكر للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية لمبدع العمل الادبى والفنى ، فلا شك ان هذه الظروف تؤثر تاثيرا عميقا بصورة او بأخرى على الاعمال الادبية والفنية ، وتشكل طابعها العام ، وملامحها الاساسية ، وتميز تقاليدها الجمالية فى عصر عن عصر آخر . ولكن هذا التأثير لا يكون بصورة مباشرة فقد يكون بذرة صغيرة تنمو داخل التجربة الادبية والفنية وتحول مسارها وجهات متعددة ، وقد يكون هذا التحول ملائما لطبيعة هذه الظروف ، وقد يكون على النقيض منها ، وقد يكون مزيجا مركبا من هذين النقيضين ، المهم ان الفنان عندما يجبل تجربته الفنية ، لا يصوغها من جزئيات العالم الخارجى بطريقة مباشرة ، ولكنها تتحول بجزئياتها وعناصرها داخل جهاز ابداعه الفنى هذه التحولات المركبة المعقدة . ثم يزداد تعقيدها بما يحيط بها من عناصر الابداع الاخرى غير المنظورة والتى ترجع الى طاقة الفنان وموهبته .

ومن أجل هذا كان على الناقد الذى يتناول عملا أدبيا أو فنيا ، ان يطرح كل افكاره السابقة، ويدخل مباشرة الى داخل العمل الادبى والفنى يتذوقه ويتعرف على عناصره الجمالية والفكرية، ويعرف طبيعته الفنية وتقاليده الجمالية . ولاشك ان كل عمل فنى له عالم خاص مستقل

(١٥) الثقافة ـ مايو سنة ١٩٧٧ وراجع الاعداد ٤٤ ، ٤٧، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ من مجلة الثقافة .

كل الاستقلال عن كل الظروف الخارجية : ولهمعاييره ومقاييسه الخاصة به ، وقد يكتشف الناقد أن جزئيات العمل الادبى والفنى الذىيعيش فى داخله ، قد تشكلت من بعض عناصر العالم الخارجى ، ومن كل عناصره ، وقد يجدفى داخلالعمل اصداء واضحةللظروف السياسية والاقتصادية والعقائدية التى احاطت به . هنـالا يمكن لمنهج الرؤية الفنية ان يتنكر لهذهالعناصر التي اكتشفها الناقد من باطن العمـل الفنـيوالادبى .

ولكن منهج الرؤية الفنية ينكر كل الافكار،ما شاع فى بعض الدراسات الادبية التى تصطنع المناهج الاجتماعية والعقائديةمما يسمى(بالحتميةوالجدلية) بين ظروف مبدع العمل الادبىوالفنى وبين ظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصاديةوطبيعة حياته ونزعاته . لان الذين يقولون بهذه الحتمية ، مقيدون بمعايير اخرى ، تختلف عـنمعايير العمل الأدبى والفنى ، ثم هم يبـدأون دراستهم من خارج النص الادبى والفنى ، فاذادخلوا الى باطن العمل الفنى ، فلكى يبحثوا فيه عن السياسة والاقتصاد والاجتمـاع واصـداءالمذاهب والأفكار ، ويقيسوا على ضوئها شـعر الشاعر وعمل الأديب وفن الفنان ، ويبحثوا عنمطابقة هذه الاعمال لتلك الظروف الخارجيـة ، فاذا طابقتها فهى أعمال ادبية صادقة وممتازة ،واذا لم تطابقها فهى فى نظرهم أعمال غير صادقة أو ضعيفة او زائفة . وبذلك تتحول الاعمـالالادبية والفنية . عند هؤلاء الى وثائق سـياسية وتاريخية واجتماعية وفى بعض الاحيان الىوثائقنفسية .

ولكن منهج الرؤية الفنية ينكر كل الافكار ،جذريا عن تصور هؤلاء ، يختلف فى طبيعة عمله ، وفى تصوره وفى ادواته الفنية . فهو ـ كما قلتيبدأ من داخل العمل الأدبى والفنى نفسه فهـذا العمل الأدبى والفنى فى نظره ، كون مستقل عـنعناصره الأولى وجزئياته التى اسهمت فيتشكيله ، كون خاص له قوانينه الموضـوعية وتقاليـدهالجمالية الخاصة به . فشعر المتنبى مثلا عـالم لغوى جمالى ، مستقل كل الاستقلال عن عناصرهالاولى التى شكلته ، وهى ظـروف الشـاعر السياسية والاجتماعية وتأثره بأفكارعصره وعقائدمجتمعه ، هو خلق لغوى مستقل ، ولكن يمور فى داخله كل ما يمور فى الحياة من تيارات ، ولكنهليس الحياة ذاتها ، وقد نصل من خلال هـذا العالم الفنى الى احداث وظروف تطابق احداثحياة الشاعر وظروف نفسه ، وقد نصـل الى احداث تناقض الاحداث التى نعرفها عن الشاعرلان الشاعر عندما يشكل تجربته الشعرية تتفاعل وتتحول الى خلق لغوى وعالم فنى مستقل عنجزئياته التى شكلته ، فظروف الشاعر وأحداث حياته ، قد تكون مجرد مثير للتجربة ، وقـدتلهمه تلك الظروف والأحداث صورا عكسية . وقد يحور الشاعر فى تلك الاحداث وقد يضيـفاليها احداثا من عنده يخترعها اختراعا . وقـد يطمس كل الاحداث الخارجية طمسـا تاما .ولهذا فالربط الحتمى الساذج بين الظـروف الخارجية وبين العمل الفنى ، عمل تأباه طبيعة(منهجالرؤية الفنية) . وهذا هو الفرقالاساسي الذى يميز هذا المنهج عن بقية مناهج الدراسةالادبية التى تهتم بالرؤية الاجتماعية .

(الرؤية الفنية) منهج فنى يهتم بالعمل الفنى وحده ومن داخله يصل الى كل القيم الفكرية والجمالية . وقد تكون هذه القيم من عالم السياسة او من عالم الاجتماع أو من طبيعة النفس البشرية ، المهم ان نتوصل اليها من داخل العمل الفنى وفى اطاره ، وبهذا يختلف منهج الرؤية الفنية أيضا عن مناهج الدراسة الادبية ، التي لا تهتم الا بالنواحي الجمالية أو تصطنع مناهج التحليل النفسى ، او التحليل اللغوى .

انه منهج يجمع فى اطار واحد بين جوهر كل تلك المناهج ، ولكنها تتفاعل وتتوحد وتتحول الى معيار واحد هو ما أطلقت عليه « منهج الرؤية الفنية » .

لقد افاد هذا المنهج من كل مناهج النقد الموضوعية والتاريخية والجمالية والاجتماعية والنفسية . ولكنه في النهاية حدد لنفسه نسقا معينا ميزه عن كل هذه المناهج ، وجعل له طبيعة مختلفة ووظائف متغايرة .

على ان هذا المنهج لم يقتصر فى تناوله للأعمال الادبية والفنية على الادوات المتعارف عليها فى مجال الدراسات الادبية ، ولم يكتف بمصطلحات البلاغة القديمة ولا مصطلحات النقد السائدة . وانما اصطنع لنفسه مصطلحات جديدة وصك تعبيرات جمالية جديدة، ونوع فى استخدام الادوات النقدية وافاد فى كل ذلك بعلم اللغة الحديث والدراسات الصوتية . كما افاد من مجالات فنون اخرى كالفنون التشكيلية والموسيقى والتصوير .

ولقد كانت الدراسات التطبيقية مجالا لاختبار هذا المعيار الجديد وامتحان المصطلحات الجديدة التى حاولت أن أحكمها . لأن الاصول النظرية لاى منهج من المناهج ، تظل قيما جامدة ساكنة ، لا تنبض فيها الحياة الا اذا نزلت الى ساحة الاستعمال التطبيقى . وقد اتاحت لى دراسة شعر المتنبي من خلال منهج « الرؤية الفنية » ان اختبر بصورة تطبيقية معظم هذه المصطلحات الجديدة . فأسهمت بشكل جيد فى حل كثير من المشكلات التى كانت تواجهنى ،وانا اقوم بعملية التذوق الفنى ، قبل أن اهتدى الى هذه المصطلحات . وارجو ان استشهد في غير هذا المجال بنماذج تطبيقية تبين كيف كنت أتغلب على هذه المشكلات. لأننى خصصت هذه الدراسة للجانب النظرى .

ولست أرغب فى استقصاء كل المصطلحات التى حددتها خلال « منهج الرؤية الفنية » ويكفى أن اذكر اهم هذه المصطلحات مع التعريف به .

ولعل من اوائل المصطلحات التى اهتديت اليها مصطلح ((**التشكيل اللغوى**)) والفنان العظيم يملك الى جانب موهبته الفنية وطاقته الابداعية موهبة التشكيل اللغوى ، وهى التى تعينه على تشكيل العمل الادبى والفنى من خلال الصور ،او من خلال براعته فى استخدام الكلمات وتتابع المقاطع ، والقدرة على استخراج ظلال الالفاظ وايحاءاتها وجرسها ، واكتشاف المعانى المستكنة فى باطن الكلمات .

وهناك مصطلح آخر يتصل بفكرة التشكيل اللغوى فى الشعر اطلقت عليه ((**بناء القصيدة على طريقة اللوحة**)) فالشاعر الذى يملك القدرة على هذا التشكيل الفنى . يبنى قصيدته بالطريقة

التى يشكل بها الفنان لوحته . فكما يهتم الفنان ــ وهو يبدع لوحته ــ بالاضواء والظلال ،والفراغ والنسب فى المساحات والالوان ومعالم الاطـارالذى يضم كل هذه العناصر ، يهتم الشاعر بكل هذه الاشياء . ولكن في حدود وسائله التعبيريةوالتصويرية ؛ فأدواته التى يبنى منها قصيدته على طريقة اللوحة : هي الحـروف والالفـاظوالمقاطع . والشاعر الذى يملك هذه القـدرة الفنية ، يستطيع أن يشكل عمله من خلال تتابعالحروف وانتقاء الالفاظ والمقاطع . يستطيع ان يحدث ظلالا وفراغات ومساحات ويفجر فيهـاالضوء ؛ وقـد يسـتخدم موهبتـه السـمعية والبصرية فى مراعـاة النسـب فى القصيـدةوادراك التوازن والتبـاين والتـدرج والايقـاع والتماثل فى الاطار العام الذى يشكل فيهالقصيدةوبذلك تتحول القصيدة الى لوحة نبحث فيها عن كل هذه العناصر التشكيلية . وقد اتاح لى هذاالمصطلح أن اسمى قصائد المتنبى لوحات . وحللت بصـورة تفصيلية على ضوء هذا المصطلح الجديدثلاث لوحات من شعر المتنبى . هى اللوحة الاولى وهى قصيدته التى مطلعها

« ضيف الم برأسى غير محتشم ... والسيف احسن فعلا منه باللمم »

واللوحة الثانية : قصيدته التى مطلعها

« واحر قلباه ممن قلبه شبم ... ومن بجسمى وحالى عنده سقم »

واللوحة الثالثة : قصيدته التى مطلعها :

« ليالي بعـد الظاعنـين شـكوك ... طـوال وليل العاشقين طويل »

وقد تبين لى بعد تذوق هذه اللوحاتالثلاثان المتنبى يملك حسا فنيا متفوقا وقدرة باهرة على الاحساس بالالوان والظلال فى الكلمات ،ولقدكان يشكل منها لوحاته الفنية تشكيلا اخاذاجذابا لا يتأتى الا لفنان موهوب يملك ناصية اللغـة ،ويعرف كل مفرداتها ؛ ويتفهم دلالالتها المختلفة.

هناك مصطلح آخر اطلقت عليه « الاشعاعالفنى » وهو مترتب على سجية شخصية تكون فى الفنان الموهوب . وهى « جاذبية الشخصية »الفنية . والفنان الذى يملك جاذبية الشخصية يتمكن بسهولة من ادراك الالفـاظ والتعبيـراتوالحروف والمقاطع التى تسهم في عملية البنـاء الفنى وتزيد فى حيوية العمل الفنى ، ولكن هذهالجاذبية تتحول الى شىء آخر عند الفنان المبدع هو الذى سميته « الاشعاع الفنى » . وهو شىءلا يمكن ان نقف عنده فىتعبير او تصوير او تركيب أو صورة ، ولكننا نحسه عندما نقرأ العملالفنى؛ساريا كالنور يضيء بين اجزائه وفصوله ،وندرك آثاره بالتذوق ، متمثلا فى تلك الغبطة والنشـوةوالجذل الروحي ، الذى نحس به بعد فراغنـا من قراءة عمل فنى ممتاز .

اننا نحس آثار هذا « الاشعاع الفـنى »ونطرب لها ، لا مجرد طرب حسى عابر ، ولكـن على صورة جيشان فكرى وروحى وفنى ،يلازمناوقتا طويلا ويغيرنا . وبذلك نصير شيئا آخر غير الذى كنا عليه ، قبل القراءة .. شيئا جـديدايضىء داخلنا ذلك (الاشعاع الفنى) الذي سرى الينا من العمل الفنى العظيم .

● ● ●

هذه اهم المصطلحات الجديدة التى أضافها(منهج الرؤية الفنية) ، الى مصطلحات النقد الادبى وعلم الجمال .

وهناك مصطلحات اخرى ثانوية وغير دائمةتجيء من داخل العناصر التى تشكل العملالفنى او من الافكار التى يحتوى عليها العمل .

مثلا « فكرة الزمن » قد تتحول عند فنانموهوب من مجرد فكرة تدل على معنى محدد ، الى مصطلح جمالى يسهم فى تشكيل العملالفنىكله ، فتصهر كل الادوات التعبيرية والتصويرية وتدوي فكرة الزمن فى كل جزئية مــن جزئياتالعمل الفني .

ولا اريد ان اتابع الحديث عــن هـــذهالمصطلحات الثانوية ويكفي هــذا المثال دليــلا عليها .

ونعود مرة اخرى الى منهج (الرؤيةالفنية)بعد أن عرفنا طبيعته ووظيفته وادواته التــى يستخدمها صاحب هذا النهج في تذوق الاعمالالفنية ، لنتساءل . :

هل هذا منهج جديد حقا ؟ ! وهل من حقالباحثين والدارسين ان يحاولوا اصطناع مناهج جديدة فى النقد الادبي وعلم الجمال ؟

وسأترك الرد على الشق الاول من السؤالللقارىء ، الذي عرف هذا المنهج من هذا العرض النظري ، وتابع تطبيقاته التي نشرتها فى مجلةالثقافة القاهرية . واتخذت شعر المتنبي مجالا لتطبيقه ، وتمحيص قيمة الفنية . واختبــارمعاييره الجمالية .

اما الرد على الشق الثاني من السؤال . فيتلخص في ان من حق كل باحث او دارس فى كل عصر من العصور ان يتذوق العمــل الفنـــيبالطريقة التي تروق له ، وان يعيد قراءة الاعمال الفنية القديمة ، قراءة جديدة ، وان يستخرجمن تجربة الاديب والفنان ، ملامــح جــديدة فى الابداع والفن ، وان يعيد تحليلها وتركيبها علىضوء قراءته الجديدة من خلال ما يصطلح مــن مناهج .

وهذا هو العمل الذى يعمله منهج « الرؤيةالفنية » والذى حاولت استخدامه .

قرءاة جديدة للتجارب الادبية والفنية ،وتحليل لمكوناتها الجمالية ، وتفسير لخصائصها الفكرية والروحية ، وتركيب جديد ــ على ضوءهذا التحليل والتفسير ــ حول التجربة الفنية والحديث عنها ، الى شيء جديد . وبهذا يتحولالعمل النقدي الى عمل فني ابداعي ، يثير من الامتاع واللذة العقلية والفنية ، ما تثيره التجربةالأصيلة من متعة جمالية وروحية . وتتحول ــ بذلك ــ التجارب النقدية الى تجارب فنيــة . وبقدر ما تتعدد الاعمال الفنية ، يجب ان تتعدد الاعمال النقدية التي من هذا الطراز الفني ، بليمكن ان تتعدد الاعمال النقدية تعددا كبيرا حول عمل فني واحد . فالعمل الفني لا يبــوح بكــلأسراره لناقد واحد مهما كانت مواهبه وقدراته واكتمال ادواته . وسيظل لكل ناقــد جديد ــعنده ــ سر جديد يبوح له به دون غيره ، ومــن الممكن ان يظل العمل الفنــي محتفظــا باعظــمخصائصه واجمل سماته واكبر اسراره لناقــد معين قد لا يجيء الا بعد ألف عام او اكثر .

ولعل هذا ما يفسر لنا ما نراه الان من جدةوطزاجة وابتكار في دراسات نقدية جديدة ، تعرض لاعمال جاهلية وعباسية وأموية . كما نجدفى دراسات الدكتور مصطفى ناصف عن الشعر العربي ودراسات الدكتور عبد القادر القط عن الادب الاسلامي والاموي ودراسات الدكتور محمد النويهي عن الشعر الجاهلي ، ودراسات الدكتورابراهيم عبد الرحمن . وغيرها من الدراسات التي تتناول جوانب الادب القديم .

لكن يبقى ان أطرح على نفسي سؤالا ، هل هاتان المحاولتان اللتان قدمت لهما تأصيلا نظريا فى هذه الدراسة يمكن ان تكونا نواة لعلم جمال عربي ؟

* وهل تصلحان أساسا نظريا لمزيد من الدراسات التطبيقية ؟

* وهل تصمدان للنقد والتمحيص ؟

* وهل حقا هما محاولتان جديدتان ؟

وادع الاجابة على كل هذه الاسئلة للمتخصصين فى الفلسفة والنقد الادبي وعلم الجمال وعلوم اللغة ، ولا شك انني سأفيد من توجيهاتهم فائدة كبرى .

ولكن ردي على السؤال بصفة مبدئية انني لم انظر الى هذين المنهجين الا على انهما محاولتان . وهذا وحده يؤكده انني لا ازال فى مجال المحاولة والتجريب . وقد اصل في يوم ما الى أساس نظري متكامل يصلح ان نقول عليه : هذا هو « علم الجمال العربي » ولكن هاتين المحاولتين ــ وحدهما ــ لا تصلحان اساسا لهذا العلم الذي نهفوا اليه ، ونسعى الى تأصيله فى ساحتنا الثقافية ، ولكنهما بالتأكيد خطوة نحو علم جمال عربي .

تقويم المحاولتين ....

واذا كان لي فى نهاية هذه الدراسة ، ان اقوم بنقد هاتين المحاولين ، فانني اعترف أولا بالعيب الاساسي ، الذي تسلل اليهما ، على الرغم من محاولتي الشديدة تجنب الوقوع فيه ، وهو الاختلاط وعدم التحديد الدقيق للمصطلحات ، وان كان هذا الامر فى النهاية سيتيح لي ان امعن النظر طويلا حتى انتهى الى التحديد الدقيق للمصطلحات ، والتعريف الجامع المانع لها .

وهناك مشكلة تثور حول هذين المنهجين ، ومن الممكن ان تكون عيبا ، ما لم نحاول العمل على تحديد حجمها وتوضيح ما تثيره من اختلاط .

وهذه المشكلة تتلخص فى ان هذين المنهجين يتشابكان مع مدلول « النقد الادبي » بشقيه النظري والتطبيقي .

وفى رأيي ان النقد الادبي يقف على ارض مشتركة مع « علم الجمال » وهناك مساحات كبيرة يتجولان عليها معا .

على ان علم الجمال ظل لفترة طويلة فرعامن فروع الفلسفة ، وعندما انفصل عنها احتضنه النقد الادبي ، وظل رافدا من روافده حتى الان ، والنقد الادبي نفسه ظل ممتزجا لفترات طويلة بالدراسات الادبية والادب المقارن وتاريخ الادب والنظريات الادبية . ولم يستقل كل علم منهما استقلالا تاما الا بعد تقدم الدراسات العلمية وقيام المتخصصين بتحديد دقيق صارم لكل نوع من هذه الانواع .

ولهذا لن افزع كثيرا اذا وجدت هاتين المحاولتين تدخلان على نحوما في مجال النقد الادبي .

وان كنت اعتقد انهما اقرب الى علم الجمال منهما الى النقد الادبي ؛ لانهما تحاولان اساسا البحث فى ماهية الجمال . والخبرة الجمالية فى الادب والفن .

و (معيار الوجد الفني) موغل فى القرب من علم الجمال ، لانه يقوم فى البداية على اساس فكرة فلسفية ، اقتبستها من قاموس فلاسفة المتصوفة . ولان الاسس التي يقوم عليها اقرب الى التنظير الفلسفى ، وهو من هذه الناحية يكاد يكون علما « معياريا » وان كانت له جوانب اخرى تتمثل فى الادوات الفنية التي يستخدمها لدراسة الخبرة الجمالية ، وتذوق النصوص الادبية والفنية . وهذا الجانب يقرب من النقد الادبي ويجعل « الوجد الفني » يلامس مناهج العلوم الوصفية .

اما منهج « **الرؤية الفنية** » فعلى العكس من (منهج الوجد الفني) جانبه الاهم ، موغل فى القرب من النقد الادبي وهو الجانب الذى يهتم بتذوق العمل الفني من خلال ادوات النقد الادبي، ولكن يغلب عليه من ناحية اخرى الاهتمام بدراسة الظاهرة الجمالية وتحديدها تحديدا علميا كلون من الوان المعرفة الفلسفية . وهو صميم علم الجمال .

وهناك عيب اعترف به فى نهاية هذا التقديم وهو الحماس الشديد الذي غلب على بعض اجزاء الدراسة فى هاتين المحاولتين . وقد كان هذا الحماس ناشئا عن احساسي بانني لا بد ان آتي بشيء جديد . ولعل هذا الاحساس هو السبب الرئيسي فى كل العيوب التي لحقت بالمنهجين .

ولكن حسبي ــ في هاتين المحاولتين ، انني بذلت جهدي ، واستنفدت ، فى البحث والتذوق طاقتي ، فان اخطأت فلى اجر المحاولة ، وان اصبت فلي اجران ، كما يقول العلماء . والله من وراء القصد . وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انبت ،، .

* * *

عبدالعزيز محمد الزكي

يحيى حقي بين المصرية والتركية

لا جدال فى ان دراسة فن يحيى حقى الادبي يستلزم التعرف على نشأته واساليب تربيته ، خاصة وانه نشأ وتربى فى اسرة ذات اصلاب تركية ترعرعت فى احضان المجتمع المصرى ، وتعرض بذلك لكثير من الصراع بين المصرية والتركية ، كما تراوحت حياته بين الانتماءات الصوفية الاسلامية والبوهيمية الرومانسية ..واساليب التفكير الشرقى والحياة الغربية الحديثة . ثم محاولاته للنجاة من تلك المتناقضات فى رحاب حرية الفنان .. ومع ذلك فاذا كان هذا البحث يركز على مشكلة صراع يحيى حقى بين تركيبته الموروثة ومصريته التي يحياها فان الهدف الاخير منه هو أن يبين كيف انتصر يحيى حقى على ذاته ووصل الى نوع من السلامة النفسية التي شق على الكثيرين من اقرانه الوصول اليها .وقد حقق له ذلك الكثير من وضوح الرؤية ونفاذ البصيرة مما جنبه التخبط والضياع . وعاونه على ممارسة الفن وهو متحرر من مختلف العقد الموروثة والمكتسبة ...

— ١ —

ان جذور يحيى حقى ليست مصرية صميمة، فقد نشأ جده « ابراهيم حقى » فى بلاد المورة بجنوب اليونان ، في حين كانت تنتشر اصول العائلة فى ربوع تركيا وفروع منها فى مصر

وشاهد ابراهيم حقى عن قـرب بعض نواحـي النهضة الاوروبية الحديثة الى أن بدأت أوروبا تضيق الخناق على العناصر التركية في حركـةمناهضة الحـكم العثمانى بقصد تحـرير بـلاد اليونان ، وصاحب ذلك هجرة الكثيرين من الاتراك من أوروبا الى تركيا وغيرها من اقطـار الدولـة العثمانية ، وبذلك رحـل ابراهيم الـى مصـر بعد أن توسطت له خالته السيدة « حفيظة هانم » خازندارة قصور الخديو اسماعيل ، ونجحت في تعيينه فى خدمة الحكومة المصرية التى كانت تعانى نقصا في مختلف الوظائف الحكومية ، التى لايشغل كوادرها العليا فى غالب الاحيان الا مـن لـه صلة قرابة بالعناصر المصرية التركية الاصل ...

وهكذا حضر ابراهيم حقى التركى المقيم فى بلاد اليونان .. والجامع بين الحضارة الاسلامية وحضارة الغـرب الحديثة ـ الـى مصـر فى عهد الخديو اسماعيل طلبا للدخـل المستقر ورغبة فى الامن ... واستلم مهـام وظيفته ببلده دمياط ، واخذ يتدرج فى وظائف الحكومة حتى أصبح مدير مصلحـة في بندر المحمودية بالبحيرة(1) فى ظروف سياسية معقدة تتشـابك فيهـا الصراعات بين العناصر التركية والمواطنين المصريين ...

وعاصر ابراهيم احداث الثورة العرابية ، وعاش كل ما تعرضت له العناصر التركية من انفعالات ومشاعر ، وانساقت فيه من اعمال وتصرفات نتيجة للتطورات السياسية والاقتصاديـة والاجتماعية التى تمر بها مصـر فى ذلك الحين .. ومـع ذلك استقر فكر ابراهيم حقـى على البقاء في مصـر ، وتزوج من سيدة تركية تعيش فى مصر ، انجب منها ثلاثة من الابناء اكبرهم محمد والد يحيى حقى ؛ والثانى محمود طاهر الذى الهبت مشاعره الفنية وهو فى فورة الشباب «مذبحة دنشواى» فانفعل باحداثها وخرج علينا برواية « عذراء دنشواى » ، وهى أول رواية فيها مشاركة وجدانية وطنية من العناصر التركية للمواطنين المصريين . اما الابن الثالث فهو « كامل » ولايكاد يذكر عنه يحيى حقى شيئا ..

والذى يهمنا هنا هو الابن الاكبـر محمـدحقى ... ولقد ولد محمد حقى فى مصر ، وحاول والده ان ينشئه فى أول الامـر تنشئة اسلامية صرفة ، فالحقه باحـد المعاهد الازهريـة حيـث حصل على نصيب مـن الثقافة الاسلامية العربية قبل أن يلتحق باحدى المدارس الفرنسيـة ، ولكنه لم يلبث ان قطـع تعليمه عندما ادرك أن ظروف اسرته المتوسطـة الدخـل لا تقوى علـى تكاليف المدارس الفرنسية ، ورضـى بوظيفته فى وزارة الاوقاف .. ولكـن صلته بالثقافـة والعلم لـم تتوقف ، وحداه طموحه الثقافى الى قراءة عيون الكتب العربية كديـوان المتنبى وكتب الغزالـى ومقامات الحريرى ، استجابة لنزعات ادبية وميول فنية ساعدته على حفظ روائـع الشعر العربى ، فاكتسب فصاحة فى اللسان وقدرة على البيان . وتزوج محمد حقى ايضا من سـيدة البانية الام تركية الاب تعيش مـع أسرتها فى بندر المحمودية حيث كان والدها يعمل دليل مكتب البـريد .. وكانت السيدة/سيدة السيد حسين تجيد القراءة والكتابة ، كما كانت شديدة التدين تقبل على قراءة

(1) يحيى حقي : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .. مجلة « عالم الفكر » المجلد الخامس ـ العدد الثالث : أكتوبر ـ نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٧٤ ـ الكويت .

القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف والسيرة النبوية العطرة ، كما ألمت كذلك بكتب الادب العربى القديم ... وهكذا شب يحيى حقى بين والدين يعشقان الادب ويميلان للقراءات الاسلامية ..

ولقد انجب محمد سبعة من البنين واثنتين من البنات ، وكون أسرة كبيرة العدد تحملت الأم شتى المسئوليات وكثيرا ما أشاد يحيى حقى بتضحيات والدته ودورها الفعال فى حسن تربيته هو واخوته واخواته فقال : « ربتنا بيدها تطبخ وتطعمنا متكلفة فى ذلك أشد العناء متمايلة للوصول بنا مستورين لآخر الشهر ... ربتنا بلسانها تحت بغير الحاح على الاستقامة والجد والمذاكرة كسوط صاحب الجواد الاصيل له دفع وليس له لسع .. وبتنا بنظراتها اذا كنا فى تجمع من الناس تحوط علينا وتعلمنا كيف ينبغى ان نجلس وكيف ينبغى ان يكون الكلام المهذب ، تقيد علينا كل زلة لسان وان كانت بريئة ، وتنبهنا اليها اذا انفض الجمع ... بل من عادة أمى أن لا تنام الا ان اطمأنت اننا عدنا جميعا »(٢)

ولد يحيى – وهو الثالث فى تسلسل قائمة الابناء – فى السابع من يناير – الموافق – يوم عيد ميلاد السيد المسيح عند اقباط مصر – عام ١٩٠٥ – وقت أن كانت حركة مصطفى كامل الوطنية على أشدها ، فى بيت ضئيل من بيوت الاوقاف بحارة الميضأة وراء مقام السيدة زينب المتفرع من شارع الصليبية بحى قيسون المعروف حاليا بقسم الخليفة ، وهو حى من الاحياء الشعبية الصميمة .. فشب يحيى حقى فى الاجواء الشعبية القاهرية ، وشاهد منذ الصغر « ابن البلد » عن قرب شتى احواله : فى جده ودعابته ، فى حرمانه وسخريته ، فى ذكائه وقناعاته ، فى ايمانه وانحرافاته ، فنما فى قلبه وهو مازال صبيا حب ابن البلد وميل التردد على الاحياء الشعبية، خاصة بعد أن ترك حى قيسون وسكن بعيدا .. بل ان أول ما عرف قلبه الحب تعلق بحب بنت من بنات البلد رغم انه كان يعيش فى أسرة تنتمى الى مجتمع مهاجر يميل لنوع من العزلة الانطوائية، يرقب المجتمعات عن بعد دون اندماج ويشعر بأن مستواه الحضارى أرقى من المستويات المصرية ، وان جمعه بين الثقافة الاسلامية والحضارة الغربية أعطاه ميزات لا تتوفر فى كثير من جماعات عامة الشعب .. ولكنه مع ذلك حرص على الا يظهر باى مظهر من مظاهر الاستعلاء ، مما يدعوه الى تصنع ضروب من التواضع لا تخلو من تكلف يكشف عن معالم التعالى الكامن .. ومع انه كان لا يتكلم الا باللغة العربية فان الكلمات التركية كانت تظهر عادة فى حالات انفعالات الغضب والضيق التى تتحرر من التصنع والتكلف ... وحتى حين كانت تقوم علاقات مع بعض الافراد من عامة الشعب فانها كانت مجرد علاقات سطحية تهتم بتوثيق الروابط مع من يتعاملون معه ، ويقدم لهم خدمات يومية لا يستغنى عنها احد .. ويؤكد يحيى حقى ذلك حين يذكر أن « اسرتى كان يشملها منذ وعيت روح من الديموقراطية الشعبية .. لا أدرى من اين جاءتها .. ؟ هى طبع وخلق

(٢) يحيى حقي – خليها على الله : المؤسسة المصرية العامة للتاليف والنشر – دار الكتاب العربى للطباعة والنشر – القاهرة – بدون تاريخ .

لا ثمرة علم واقتناع ... فما دخل بيتنا خادم والا خالطنا مخالطة الاهل .. ولم ننظر بأنفة الى القصاب والبقال وبائعة الجبن والصابون .. ولكننى أظنها ديمقراطية معاملة فحسب »(٣) .

هكذا كانت تعيش الاسر المصرية ذات الجذور التركية سواء من الناحية النفسية أو الاجتماعية ، خاصة منذ قيام الثورة العرابية .. ونشأ يحيى حقى وتربى وتعلم وهو يعايش شتى محاولات المعاناة التى كانت تقاسى منها المجتمعات المصرية ذات الاصلاب التركية فى جهودها للمواءمة بين بواعث الاتجاهات التركية واغراض الاستقرار فى مصر ... ويبدو أن يحيى حقى لم يستطع ان يتخطى الحواجز الاسرية وان يندمج فى الحياة المصرية التى لم يشهد غيرها الا خلال واقعية روحية بعواطفه وعقله جميعا بعد ان عايشها بكل كيانه وارتضاها طواعية حتى استمد منها رغباته وآماله واحلامه وأوهامه ويعكس عليها كل ماينفعل داخله من مشاعر وافكار وخيالات وهواجس .. لم يحس اطلاقا فى قرارة نفسه بأن هذا التباين الذى يوجد بين حياته المنزلية بتقاليدها التركية وحياته العامة فى مختلف مجالات المجتمع المصرى تدعو الى أى نوع من الانفعال ترغمه على ان يستقل بحياة اسرية بعيدة عن مجتمع القاهرة .. ولذلك لا نكاد نلمح اى احساس يجعلنا ندرك انه يشعر بأى نوع من التغاير او الاختلاف بينه وبين اى مواطن آخر يزامله الحياة فى المدرسة أو فى العمل او فى اللهو رغم معرفته الاكيدة بأصله التركى ... بل يلحظ عليه احيانا علامات من الضيق والتأفف اذا ما نبهه احد عَرَّضَ بطريقة او اخرى من قريب أو بعيد الى اصل عائلته الالبانى خاصة اذا ما كان يحاول ان يشكك فى أصالة انفعالاته المصرية وعمق تجاوبها مع الحياة المصرية ..

واذا كانت احداث الحرب الالبانية اثارت وجدانه عام ١٩١٢ والهبت مشاعره التركية وهو ما زال صبيا فى السابعة من عمره ، وحثته على قول الشعر ليعلن السخط على الاستعمار الاوروبى الذى يهدد كيان الدولة العثمانية ويعرض مسقط راس اجداده للخطر ، فان فظائع دنشواى ـ التى اطلع على احداثها عام ١٩١٤ في قصة « عذراء دنشواى » التى كتبها عمه محمود طاهر حقى ـ زادت من سخطه على طغيان الاستعمار البريطانى فتعلق قلبه بجهاد الزعيم مصطفى كامل الذى يدعو باصرار الى ضرورة جلاء الانجليز عن مصر دون شروط مسبقة .

ولقد سحر مصطفى كامل العناصر التركية ببلاغته الكلامية فى الخطب والمقالات التى اخذت تتصاعد لهجتها وتشتد وتقوى حتى بلغت الذروة حين اعلن حربا لا هوادة فيها ضد احكام الاعدام الظالمة فى حادثة دنشواى . واذا بالعناصر التركية يجرفها تيار المشاعر الوطنية وتجد نفسها تعيش هذه المشاعر بكل وجدانها ، واذا بها تحس بأنها اكثر التصاقا بأرض مصر مما تظن . ويكاد محمود طاهر ينفرد بعرض هذه المشاعر فى رواية « عذراء دنشواى » . ويرجع يحيى حقى حماس هذه الانفعالات الفنية الى انه قد تم « التحام كامل بين محمود طاهر

---

(٣) يحيى حقي : دمعة .. فابتسامة . روز اليوسف ـ القاهرة . ديسمبر ـ ١٩٦٥ .

حقى وشعب مصر .. واصبح ابن بلد مصفى جذوره الحديثة نزلت الى الطمى السفلى المتخلف من ايام الفراعنة هيهات ليد أن تقتلعها ، او لما بلد آخر أن يهبها الحياة .. وقد ظهر هــذا الالتحام فى رواية عذراء دنشــواى (٤) .. ولاشك أن رواية عذراء دنشواى نجحت فى تقريب المصريين الاتراك من المصريين الفلاحين اكثر فأكثر .. حتى أنه لم يظهر من بين الاسر التركية من قبل ان يترافع ضد الفلاحين المتهمين فى حادثة دنشواى بخلاف ابراهيم الهلباوى المصرى الصميم الذى ارتضى ان يجرب بلاغته ضدهم ، ويجنى على مواطنين ابرياء من بني جنسه ويسوقهم الى ساحة الاعدام متملصا مــن وطنيته .. ولكــن بلاغة الهلباوى حفرت له قبره اذ ظلت مرافعته فى دنشواى سحابة سوداء تطل على كــل عمــل يصدر عنه وتشوه اخلاصه وتعترض مســتقبل حياته العامة ، حتى فشل فى الحصــول علــى الغفران عندما حاول الدفاع عن ابراهيم ناصف الوردانى بعد أن اغتال بطرس غالي الذى كــان رئيسا لمحكمة دنشواى .

ولقد تصدى الكتاب الاتراك الى هذه النزعات فكتب « ولى الدين يكن » فى مقال الشقاق (٥) « انا تركى .. وابغض عباد الله الى تركى يعتدى .. احب العناصر العثمانية كلها وآخذ بناصر المستضعف منها .. ثم أحب العرب حبا خالط الروح وجرى مجرى الدم فى العروق .. وانا عربى الادب والقلم ، عربى النزعة ، ومن ابغض العرب فأنا مبغضه .. » ولكن اذا به يعود ويقول بعد اغتيال بطرس غالى فى مقال رومانسي الافكار والعواطف عنوانه «بطرس غالي فى موكبه الاخير» (٦) قال القضاة : قتل احد الباغين بطرس باشا غالي قلت لقد قتل مصر .. كل قطرة من ذلك الدم البرىء عند الله أجرها وعلى الانسانية والعصر العشرين عارها .. ماذا جنى هذا الفقيد المظلوم .. ؟ صاح أكثركم مذكرا بحادث دنشــواى ، وتشدق آخرون باتفاق انكلتــرا ومصــر علــى السودان ، وشكا غيرهم من قانون المطبوعات ..

ولقد تصدى كذلك عبد الخالــق ثــروت باعتباره النائب العام لمهمة التحقيق فى الاعتداء بنفسه ، ثم قام بالمرافعة فى الدعوى ضد ابراهيم ناصف الوردانى .. واتسمت كلمته بالاعتدال وان استنكرت اغتيال الاكفاء المخلصين « نحن اول من يحل الاشتغال بالمسائل العامة ، ونرى أن السعى بالطريق المشروعة فيما ترقى به البلاد واهلها من فروض العين على المصرى ، وان كل مصرى مطالب بتضحية شىء من وقتــه ومالــه وهمته فى خدمة بلاده .. نحن أول من يرحب بتنمية الوطنية ورياضة النفوس على احتمــال اشق المشقات في اعلاء كلمة مصر وزيادة شرفها ورفعتها ، وكذلك نرى من مرقيات الامم الدارجة فى رقيها النظر فى أعماق القابضين على ازمة الامور فيها ونقدها ... ولكننا لا نســلــم بحال مــن الاحوال ان يتطلع الى مقام ناقد الحكام الى رجل

---

(٤) يحيى حقي : عطر الاحباب : دار الكتاب الجديد . القاهرة ١٩٧١ .

(٥) الكتاب الثلاثة : ولي الدين .. المنفلوطي .. العقاد .جمعه محمد محمد زكي الدين . الناشر حسين حسنين .. القاهرة بدون تاريخ .

(٦) الكتاب الثلاثة : ولي الدين .. المنفلوطي .. العقاد .جمعه محمد محمد زكي الدين الناشر حسين حسنين .. القاهرة بدون تاريخ .

جمع الى العلم الغزير والحكمة البالغة الاتزان في القول والفعل حتى يقدر الاعمال حق قدرها وينظر الى الامور بفكر صحيح فلا يتعدى حد المشروعية والا انقلبت الخدمة العامة وبالا ، وارادة الخير شرا .. » (٧)

لاشك في ان استنكار الكتاب ، خاصة الاتراك منهم حادث اغتيال بطرس غالى وتولى العناصر التركية مهمة توجيه الاتهام الى الوردانى أثار الريب فى نفوس الشباب المثقف فى مصر بينما كسب الوردانى عطف الكثيرين منهم .. فاذا نال ثروت بكلمته الحكيمة المعتولة اعجاب المسئولين وتقديرهم ، الا انها بعثت الضيق والسخط بين الشباب رغم اعجابه بكفاءاته وحسن بيانه كالمسئولين سواء .. ولكن الحكم باعدام الوردانى حرك ماخبا فى النفوس من مشاعر التذمر والاحساس بالقهر ، والاستبداد جددت اللوعة من قوة احكام الاعدام الظالمة في حادثة دنشواى .. وسرعان ما اجتاح البلاد حركة اغتيالات اخرى تولى تنفيذها أجهزة سرية اشترك فيها الوطنيون من المصريين والعناصر ذات الجذور التركية على حد سواء .. واذا بها تخطط من اجل التخلص من الخونة على اختلاف اجناسهم ودياناتهم مناصبهم ، ومن الانجليز الذين يقيدون الحريات فى مصر ..

الا ان المحتل البريطانى لم يدع الوحدة الوطنية تسير فى طريقها الطبيعى وتحقيق ما تصبو اليه النفوس من قوة وترابط وثيق بين كافة المصريين ، واخذ يضرب على وتر فرق تسد .. ولذلك كثيرا ما حاول ان يستغل اى خلاف ظاهرى ويثير ضروريا من التنافس ، خاصة بين اعيان المصريين وقادة العناصر التركية حول السلطة خلفت صراعات انحرفت عن طريق الوحدة الوطنية واثارت الشكوك بين الجميع ، حتى ارتابت كل فئة فى نوايا الفئات الاخرى ... ولقد نجح الانجليز بالمماطلة المماة في تفجير حدة الخلافات بين سعد زغلول الممثل الشعبى لكافة المصريين وبين عدلى يكن صهر اسرة محمد على الذى زوج ابنته لشريف صبرى شقيق نازلى زوجة السلطان احمد فؤاد باثارة الاشاعات حول عرض الانجليز العرش على سعد زغلول شريطة قبول الحماية البريطانية وفصل السودان عن مصر مما اشعل مخاوف السلطان فؤاد من اطماع سعد زغلول .. الا ان عدلى يكن ، والحق يقال كان فى موقف صعب ، فهو لا يستطيع أن يقف فى جانب السلطان والانجليز ويعادى الشعب الذى يمثله سعد زغلول ، وفي الوقت نفسه لا يستطيع ان يجارى الشعب في اندفاعاته الوطنية التى لا يقبل الانجليز الخضوع لها ، فلم يجد امامه الا ان يقف موقفا وسطا ، وحاول ان يوفق بين مبادىء سعد زغلول فى الوطنية التى تتمسك بالاستقلال التام وجلاء القوات البريطانية وسيادة الشعب المصرى على اقدارة وبين حرص الانجليز على البقاء فى مصر بصورة او اخرى يرضى عنها جميع الاطراف المعنية ... واستطاع عدلى بموقفه الوسط المرن ان يكسب ثقة السلطان فؤاد وتعاون الانجليز وان يتوصل بمجهوداته

---

(٧) الدكتور محمد حسين هيكل : شخصيات مصرية وغربية.. كتاب روز اليوسف رقم ٢ القاهرة يناير ـ ١٩٥٤ .

الخاصة الى ان يقنع بعض الاعيان الاقطاعيين من المصريين داخل حزب الوفد نفسه ويكسب تأييدهم لسياسته التى تقبل ان تقابل الانجليز فى منتصف الطريق (٨) .

واحسب ان أسرة حقى ، رغم انها اسرة موظفين يغلب عليها الحياء والانطوائية ، لم تكن فى منأى عن الاحداث سواء التى تقع فى تركيا او فى مصر ... فكانت تتعاطف مع كل ما يدور حول الدولة العثمانية . فما أن نشرت قصيدة احمد شوقي فى البكاء على خلع السلطان عبد الحميد فى الصفحة الاولى من جريدة الاهرام حتى « كان البيت كله يقف على رجل .. كنا نقرؤها بصوت عال . ونحفظها ونظل نرددها فى مختلف المناسبات (٩) وتعاطف ايضا مع اتجاهات مصطفى كامل التي تتمسك بجلاء القوات البريطانية ولا تعادى الخديو عباس الثاني، وتستعدى الدولة الفرنسية على الانجليز .. ولذلك كانت جريدة اللواء لسان حال الحزب الوطنى هى جريدة الاسرة المفضلة .. ومع ذلك « لم يمنعنا ذلك من التعلق بسعد زغلول ومتابعة احداث ثورة ١٩١٩ بحماسة شديدة .. في اكثر ما كنت اصحب ابى وشقيقى ابراهيم واسماعيل الى الازهر أو بيت الامة أو شادر مقام فى ساحة فسيحة لاستمع الى خطباء الثورة ... واحيانا كان الانجليز يسدون الطرق المؤدية للازهر ليمنعوا الجماهير من حضور اجتماعات الثورة .. فكنت أسير مع أبى واخوى فى طرق ملتوية وازقة ضيقة حتى نصل الى الازهر ونستمع الى خطباء الثورة ونردد مع الجموع اناشيدها ... وكان افراد الاسرة يتخاطفون بلهفة شديدة ما يصل الى ايدينا من منشورات الثورة ... وقد سرت فى بعض المظاهرات الصاخبة التى كانت تكتسح شوارع القاهرة .. وحين كان الانجليز يطلقون علينا النار كنت أجرى مع الجارين ... وفي تلك الايام قرات كل ماوقع فى يدى من كتابات عبد الله النديم ومصطفى كامل .. وكل ما نشر عن حادثة دنشواى ... وهكذا التحقت بمدرسة الحقوق وقد تشبع وجدانى حتى الثمالة بحب مصر » (١٠) ولكن لما دب النزاع بين سعد زغلول ابن الفلاح المصرى وبين عدلى يكن ذى الاصل التركى « اجتاحت بيتنا موجه عارمة من الكآبة وخيبة الامل لفرقة الصف الوطنى » (١١)

• • •

لاشك فى أن ثورة ١٩١٩ ضد المحتل البريطانى الذى يماطل فى خروج قواته من ارض مصر صهرت كثيرا مما تبقى من مشاعر الغربة التى كانت تعانى منها العناصر التركية المصرية في بوتقة الوحدة الوطنية ، واقتربت من التخلص النهائى من نزعات تعدد الولاء لاكثر من وطن ، خاصة بعد انحصار الدولة العثمانية فى نطاق الاراضى التركية فقط .

---

(٨) محمد كامل سليم : ازمة الوفد الكبرى : سعد وعدلى : كتاب اليوم برقم ١٠٧ ، مؤسسة اخبار اليوم ـ القاهرة ـ مارس ١٩٧٦ .

(٩) يحيى حقي : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

(١٠) يحيى حقي : اشجان عضو منتسب .. سيرة ذاتية .. مجلة عالم الفكر ١٩٧٤ .

(١١) نفس المرجع .

واذا ما انتقلنا من المجالات السياسيةوالعواطف الوطنية الى المجالات والعواطف الانسانية نجد انه ، لكل تستقيم الحياة للعناصرالتركية فى مصر ، ينبغي ان يبلغ حبهم للمصريين نفس قوة حبهم لارض مصر ووظائف مصر ..ولا يتأتى ذلك الا اذا اتسع حب الوطن بشفافية الحب الانسانى وودعة الحب الاجتماعى الذى لا يهدف الى اى نوع من السيطرة العسكرية أو التفوق الاقتصادى او السيادة السياسة ،ويتجنب بقدر الامكان اثارة التنافس على مراكز القوى السياسية والاقتصادية والعسكرية ويعتمداكثر ما يعتمد على أصول الحضارة العصرية من فكر وفن وادب ، ومن علم وثقافة ، ليحتفظبدرجة عالية من الرقى الاجتماعى والتفوق الحضارى .. فأقبل ابناء الاسر التركية المصريةعلى دراسة القانون والهندسة ، لان معرفة القانون تسمح بتولى مناصب القضاء ، والنيابةاخطر المناصب واكثرها رهبة بين عامة الناس .. بينما تسمح دراسة العلوم الهندسية بالتغلغل فىشتى شئون المرافق العامة المصرية فى المدن وفي القرى ، نظرا لشدة حاجة الجميع للخدماتالهندسية ... وكثير من ابناء الاسر التركية لم يقفوا عند حد التعليم العالى فى مصر بل اهتموابطلب المزيد من العلم والثقافةوالحضارة فى أوروبا .. ولذلك كان هناك تنافس مثير على التفوقالدراسى للفوز بالبعثات المجانية الى الخارج خاصة بين النابهين غير القادرين على تحملتكاليف العلم فى أوروبا . وبذلك فقد اتيحت للكثيرين منهم فرص الاتصال الوثيق بالتطورالفكرى والثقافى والاقتصادى والاجتماعى في العالم الحديث .

ولا نعجب اذا ما شعرت العناصر التركيةبانها اكثر قدرة على خدمة مصر حضاريا من المصريين الاصليين ، لانها تشعر بأن لها خبراتاوسع فى المجالات الحضارية الحديثة .. ولقد كان لها بالفعل الاسبقية والفاعلية فى تنشيطكثير من مجالات الحياة الثقافية والاجتماعية في مصر .. فلم تقف هذه العناصر عند حد التمنىبأن تصل مصر الى ما وصلت اليه أوروبا من نهضة وازدهار ، أوتكتفى بأن تشيد بذكرحضاراتها السابقة .. بل اخذت تسهم اسهاما جديا فى مختلف مجالات الاصلاح تحت احساسبأنهم على مستوى حضارى متقدم يسمح لهم بسرعة استيعاب الحضارات الغربية مما يعطيهمامكانيات ثقافية تضعهم على راس قادة الفكر والادب والاصلاح الاجتماعى فى مصر .. واذابهم يكونون شتى الجمعيات التقدمية الثقافية والاجتماعية ، ويظهرون كثيرا من النشاط الجادالصادق لبعث نهضة فكرية مصرية تطور المجتمع المصرى وترفع من مستواه الحضارى . ولقدتنافس كل من احمد شوقى ــ وهو من اصل تركى ــ وحافظ ابراهيم ــ وهو من ام تركية ورباه خاله المهندس زميل والده ــ على الترنم بأشعار تسبح بحمد مصر ، وتشيد بمجدهاالخالد وتظهر الحب العظيم الخالص لمصر ، وتشدو بالوطنية المصرية وتغلبها على كل وطنية وقومية.. بينما اعطى محمد تيمور ومحمود طاهر لاشين ومحمود طاهر حقى ــ وكلهم من اصلتركى ــ اهتمامات زائدة لواقع الحياة المصرية في المدن والقرى . وكتب كل منهم قصصاتتناول احوال الفلاحين في الريف ، وتعرض ميل

ابن البلد فى المدن للفكاهة والدعابة ، وتعلقه الزائدبالنكتة الساخرة ، وتمسكة بروح الشهامة التى تظهر في كثير من تصرفاته الانسانية ... كمــابرز من بين العناصر التركية قاسم أمين علىراس الداعين لقضية تحرير المراة المصرية ورفع الحجابحتى تستطيع ان تكون أكثر حركة وقدرة علـى الاسهام فى تحرير الوطن وتقدم المجتمع المصرى.

ولكن كيف يمكن لهذه العناصـر التركيــةالتي تكاد تعيش فى الواقع في شبه عزله اجتماعية وتعودت على ان تتقوقع داخـل نطـاق الاســرالتركية وتبتعد بقدر ما تستطيع عن كـل مـا يحيطها من مشاكل يومية ان تفهم واقع الحياةالمصرية فى الصميم في الريف وفى المدينة ، وتعى ما يدور فى خلجاتها الداخلية وهى لاتنظر الـىاهل الريف وسكان المدن الا من علو الفكر ؟ ان الحنين الوطن الاصلى لا ينمحى من الوعى مهماطال الزمن .. وان اختفى من الوعى الظاهـر فلا بد ان يكون كامنا في الوعى الباطن يؤثر فىالفكر وفى الوجدان وفى التصرفات .

وليحيى حقى راى خاص يفسر بـه نجاحالعناصر التركية في تناول الحياة المصرية فى قصص ومسرحيات .. فزعم ان محمد تيموروجد « ان المجتمع المصرى فى المدن والريف قادر على ان يمد الكاتب بقصص فنى مما يشهد علىان نزعته الادبية مبعثها حب صادق لمصر واهلها وليس من الغريب كما يظن لاول وهلة ان الذىيغمر هذا الحب كله ويحمل لواء المناداة بالادب المصرى الصميم فتى لا تجرى فى عروقه دماءمصرية بل دماؤه خليط من التركية والكرديــة والاغريقية . هذه ظاهرة طبيعية مالوفة عندالآخرين ، كما عندنا في أن العرق الحديث اشد العروق اهتزازا بحب الوطن الجديد وانتباهــالنضاله وجماله .. ولذلك نرى محمد تيمور ، ومن بعده محمود حريصين اشد الحرص علىتأكيد خبرتها بعامة الشعب من الفلاحين وفقراء المدن . وليسـت العبرة أن يولد الكاتب فىأحضانهذه الطبقات بلفى قدرته على الاحساس بها وفهمها بفضل حب وتجاوب روحى . » (١٢)ولكن يحيى حقى يعود ويتساءل « لا أدرى لماذا استشف في كتابات محمد تيمور ــ رغم خفةدمها وميلها للدعابة نغمة حزن دفين » (١٣) كأنه يريد ان يقول ان اثار مشاعر الغربة الاليمة رغمكل ذلك الحب لمصر وللمصريينقد اظهرها الوعى الباطن في تلك النغمة التى تئن بحزن دفين .. !!

الا ان تردد كثير من الافراد منبين العناصرالتركية على اوربا واحتكاكهم المستمر باوروبيين اتاح لهم فرص الاطلاع على الدراسات العلميــةالغربيــة في الشئون الاجتماعيــة والاتجاهــات الاقتصادية والمذاهب السياسية التى تتصارعفى مختلف مجالات الحياة الاوروبية .. وتكاد هذه الدراسات تتفق جميعا فى ضرورة تحقيــقنوع من العدالة الاجتماعية ومــن المسـتوى الاقتصادى اللائق بكرامة الانسان ، ومن الحريةالتى تساوى الكل في الحقوق والواجبات ..

---

(١٢) يحيى حقي : فجر القصة المصرية .. المكتبة الثقافيةرقم ٦ ــ القاهرة .

(١٣) نفس المرجع السابق .

مما حدا ببعض الافراد من هـذه العناصر الى الاهتمام بأحوال الفلاح المصرى وفقراء المدن .. ومما يثير الدهشة حقا هو الحاح قوم من الارستقراط فى الدعوة لرفع مستوى حياة الفلاحين وعامة الفقراء . !! هل قامت هذه الدعوة تحت تأثير مشاعر من القلق لم ترتح لاوضاع اجتماعية تقسو على أناس وتحرمهم من كثير من ضروريات الحياة وتهدر كرامة آدميتهم ؟ أم ترجع لمجرد بواعث انسانية صرفة بعثت فى النفوس الاحتكاك بالحياة الغربية ويسندها فكر متعال لا يقبل ان يكون اتباعه على هذا الوضع المهين المخجل .. ! ؟ ولكن كيف تحولت نظرة التعالى الى مشاعر من العطف والرحمة والحنان . ؟ هل الاحساس بسوء معاملة الفلاح واستغلاله من قبل الحكام الاتراك وحاشيتهم حرك عقد الذنب وحملهم الشعور بالاثم مسئولية عما انتهى اليه الفلاح من حالات بؤس وشقاء وتخلف .. ؟ هل استيقظ فيهم الضمير الحضارى وحثهم الاحساس بالواجب على بذل اقصى ما يستطيعون بذلك من فكر من صيانة انسانية هذا الفلاح وتعويضه عما ضاع عليه من فرص الحياة الكريمة وتخليصه من الهوان الاجتماعى الذى يعانيه حتى يستطيع ان يرفع رأسه ويشعر بتمام المساواة مع جميع الناس .. ؟ ..

لا ريب في أن الدعوة الى الاصلاح الاجتماعى لا تعدو وان تكون مجرد عملية تطهير ذاتية ، قصد بها ممارسة عمل فكرى نبيل يعطى نوعا من الامان الذاتى والاطمئنان الروحى ، تمنح من السيادة الفكرية والقيادة الانسانية والنفوذ المعنوى ما يعوض العناصر التركية عما فقدته من جاه سياسى وسلطان اقتصادى وزعامة عسكرية ، قد تحقق نوعا من الشعبية تعزز من صدق المشاعر الوطنية ، وتدعو الى مزيد من الالتصاق بمصر وشعب مصر ، يساعد على تحطيم دعائم العزلة الاجتماعية التى تحاصر الاسر التركية المصرية ، وتيسر اندماج افرادها فى شتى ثنايا المجتمع المصرى دون عقد ، وتقاوم كل ما يعترض الاندماج الكامل فى الحياة المصرية.

ولذا فان جيل الشباب من العناصر التركية فى أوائل القرن العشرين اثناء حركة مصطفى كامل الوطنية وثورة سنة ١٩١٩ الشعبية تعرض لهزات نفسية اوقعته في ازمات فكرية ، فاذا به يعانى مرارة حيرة الآباء بين الولاء للدولة العثمانية من جهة وتعلقهم بالقطر الذى ولدوا على أرضه ثم هاجروا منه من جهة ثانية ... بينما يعانون هم انفسهم من تضارب العواطف وتناقض التصرفات ، ولا يدرون كيف يوفقون بين التعالي العائلى على عامة المصريين وبين التواضع الاجتماعى فى المعاملات اليومية مع عامة الناس ، والتعاطف الفكرى والمشاركة الوجدانية التى تجارى المصريين فى تطلعاتهم وآلامهم . !! ولا يعرفون كيف يجمعون بين التمسك بالتقاليد التركية داخل البيت وبين مجاراة العادات المصرية خارج البيت ... ويتأملون كيف داخ الجميع من محاولات المزج بين الدعوة للوحدة الاسلامية التى تحث على تكتل الدول الاسلامية فى جانب تركيا ضد الاستعمار الاوربى ، وبين ضرورة الارتباط بالوطنية المصرية التى تلزم جميع العناصر والطبقات بالتكتل من أجل مصر ضد اى تدخل اجنبي .

لا شك في ان شباب هذا الجبل وجدصعوبة ما بعدها صعوبة فيحفظ التوازنالنفسى والتماسك الفكرى واليقين الروحى ، الذىيدعو الى التصرف الحكيم السليم فى خضم هذه المتناقضاتالاجتماعية والثقافية والقومية.ولم يكن امامهم لتحقيق مثل هذا التوازى الا اتخاذ ضروب من التظاهر بدماثة الخلق وادبالحديث ورقة المعاملة ، لاخفاء معـالم التعالى الذى لا يرتاح اليه عامة المصريين .. ويبدوناعجابهم باخلاقيات ابن البلد . ولا يتورعون عن محاكاته فى دعاباته وفكاهاته الى حد الرغبة فيتقمص هذه الشخصية او اظهار البراعـة فى تصويرها فى اعمال فنية او التخلق بمثالياته فيالحياة العملية .. كأنهم يحاولون بكل الطرق تعميق احساساتهم المصرية الصميمة،والتخلصنهائيا من التناقض الرهيب الذى يعيشون فيه، وتحقيق نوع من الانضباط السلوكى لا يثيرضيق المواطنين من التصرفات المتعالية . وكل ذلك اكسبهم قدرة على المواءمة بين الشـخصية التركية والشخصية المصرية ، بحيث نجحوا فى تجنب غضب العناصر التركية المتزمتة من ناحيةوالابتعاد عن اثارة حفيظة المواطنين المصريين من ناحية اخرى . الا ان كل ذلك لم يغب عـنعامة المصريين وخاصتهم ، وكثيرا ما يلقون عليهم نظرات ترتاب فى تمام اخلاصهم للمصريين ..الا ان هذه النظرات تسبب كثيرا مـن الآلام القاسية ، خاصة لشباب ذلك الجيل الذى ولدونشأ وتربى فى ارض مصر ، ولم يعايش غـير المصريين ولم يمتحن غير مشاكلهم ، وشب علىمشاعر وطنية لا تحب سوى الوطن المصرى .. ولذلك نلحظ كيف يبدو الالم على وجه يحيىحقى عندما يحس بانه ما زال يوجد هناك من المعارف من يعتبره دخيلا على المصريين ، ولاينظر اليه على انه مصرى صميم الا بنوع من المجاملة.. وكثير من شباب الاسر التركية المنبتيحاول ان يتحاشى ذكر أصله التركى ، حتى يتناساه ويغفل عنه الجميع ويبعد شبحه الىالابد ، حتى لا يتعرض لشبهة الاتهام بانه مواطن غريب دخيل على المصريين .. ولعل مساهمةهذا الجيل اسهاما ايجابيا فى ثورة سنة ١٩١٩ عن صدق واخلاص بريئين من كل غرض وطدفيه نوعا من الامان النفسى ، حرره كثيرا من قلق الشكوك وبلبلة الريب التى تراكمت داخله على مر الاجيال ، فانطلقت آماله من جديد واخذ يوسع من دائرة طموحه ، وبعد ان كان يقصر نشاطه على مجالات النقد الاجتماعى والاشتغال بالآداب والفنون والحرص على تولى وظائفبالآداب والفنـون والحرص على تولى وظائف النيابة والقضاء والاشغال الهندسية اذا بـهلا يلتحق بمدرسة الحقوق الا لانها توصله الى مناصب الوزراء او السلك الدبلوماسى ، ولايتردد فى فصول المدارس العسكرية رغبة فى بلوغ مناصب قيادية في الجيش .. وكاد يختفىذلك التزمت الذى يقف احيانافى سبيل مصاهرة العائلات المصرية .. وهكذا نجح هذا الجيل فيتحقيق خطوات اوسع نحو ضرب من الاندماج يقترب شيئا فشيئا من الاندماج الكامل ، ويبدوانه تخلص نهائيا من مشاعر الغربة ، واصبح لا يستولى عليه سوى وطنية صادقة خالصـةلمصر وشعب مصر .

ولعل المحاولات التى بذلتها هذه العناصرمن اجل التوفيق بين الحياة الخاصة للعائلات التركية داخل البيوت والحياة العامة فى خضمالمجتمع المصرى خارج البيوت .. وكذلـك

الجهود التى صرفت للمواءمة بين اتجاهــــاتالشخصية المصرية ونزعات الشخصية التركية اكسبت افراد الاسر المصرية التركية نوعا منالمرونة النفسية ،رسبت خبــرات وقـــدرات ومهارات تساعد على وضع الحلول الوسط ،وتحقيقنمط من التوازن بين كثيرمن الاختلافات المتضاربة يرضى عنها الجميع رغم الصراعاتالتى بينهم .. واذا بالظروف تكاد تلزمهم بأن يلتزموا على الدوام بالمواقف الوسط فيالمنازعاتالسياسية التى غالبا ما تنشأ بين المصريــين والانجليز حول الجلاء والحرية والاستقلال ..ولذلك ارتاح لهم الانجليز ، واستغلوا وساطتهم فى اخضاع المصريين لمطالبهم ، واطمأن اليهــم القصر السلطانى واعتمد عليهم فى المفاوضات مع الانجليز ، بل قدر عامة الشعب وخاصته كذلكمجهوداتهم فى تخفيف حدة التوترات السياسية .. ولا نعجب اذا مالجأ اليهم الجميععلىاختلافمواقفهمعندما تستبد بالبلاد الازمات السياسية .. وأحيانا كانوا ينجحون في تخفيف حـــدةالشقاق وتجنيب البلاد مخاطر التطرف فى اي نزاع ، مما مكنهم من أن يلعبوا على الدوام دوراايجابيا فى تحقيق ضرب من الوحدة الوطنيــة تمتص خلافات كل العناصر المتنافرة ، فترضىمواقفهم الوسط جميع الاطراف المتنازعة ، على اساس الاعتقاد بأن الوحدة الوطنية كفيلة بأنتتعدى شتى العقبات ، وقادرة على ان توصـــل الى الامانى المنشودة ، وتخص بالذكــر موقفعدلىيكن الذى حاول ان يوفقبين خداعالانجليز وتمسكهم بالبقاء ، وبين صراحة ســعد زغلول ومواجهته للانجليز وتشــبثه بتحقيــق المطالب الوطنية فىالجلاء والحرية والاستقلال ... ورغمحسن نوايا عدلى يكن الوطنية ، ورغبته الاكيدة في تحقيق استقلال مصر فان محاولاته فى لقاءالانجليز فى منتصف الطريق ، واتباع سياسة الخطوة خطوة ، وتحقيق الاستقلال على مراحلافسد عليه كل شيء وتعرض لمقاومة ســعد زغلول الذى رفض فى النهاية التعامل معــه ،واثار ضده غضب الشــعب الذى اسـقطه فى الانتخابات وهو رئيس الوزراء فانسحب مــنالحياة العامة ويرجع كل ذلك الى ان جيل العناصر التركية في هذه الايام رغم قوة نزعاتهالوطنية ما زال يعانى من ميول ارستقراطية لم تعايش المشكلات الشعبية معايشة واقعية ، ولمتسمح له بالاندماج فيها اندماجا متكاملا ، وانما سمحت له باندماج محدود يتأملها من علو الفكردون ممارسة شاملة .. ولذلك خلا هذا الفكر من يقين المعايشة ووضوح التجربة . . بل عاشرفى استرخاء يحتل بعض المناصب القياديــة والرئيسية لتعدد قدراته وكفاءاته وخبراته ،واستعداده لتحمل شتى المسئوليات ، وتفوقه فى الثقافة من علم وفن وادب يحدوه حماسمتدفق يرعى النزعات الانسانية الاصلاحيــة ، دفعته للاشراف على الجمعيات الخيريــة التىتوزع المساعدة والعون لكل من يستطيع انيصل اليها بطريق او اخر او لكل من نريد ان نصــلاليه لسبب او لاخر .. وحثته كذلك على تنفيذ بعض المشروعاتالاقتصادية التىلاتعود مكاسبهاالا على فئات معينة دون بقية الفئات الاخرى .. وتعتمد اكثر ما تعتمد فى السيطرة على جوانبمتعددة من الحياة الاجتماعية والاقتصاديـــة والسياسية على نقص الخبرات المصرية وضعفوعيها الحضارى من ناحية ، وانتهاز فرصـــة

انحسار النفوذ الاجنبى تدريجيا بسبب المقاومةالوطنية لتتسرب بسرعة ، وتستولى على المواقع التى تركها الاجانب قبل ان ينتبه الى خطورتهاالمواطنون المصريون من ناحية اخرى .. وكل ذلك ينم عن ان هناك نوعا من الانانيةكانت تتحكم في تصرفات العناصر التركية ، افقدتها القدرة على الرؤية عن بعد ، والتصور السليم ، لتطورالمواقف المصرية الصميمة ، وقدرتها علىمواجهة مختلف الصعاب واسترجاع شتى حقوقهـــاالمغتصبة .

ولذلك كانت مفاجأة ثورة ٢٣ يوليه التىلم تصدم القوى العالميـة والنفـوذ الاجنبي وسلطان الاقطاع فقط ، وانما صدمت كذلـكالعناصر ذات الاصول التركية صدمة مباغتة ، جددت فى نفوسهم كل ما كانت تثيره الثـورةالعرابية من مخاوفومواجع وتهديدات .. واذا بهم يرون احمد عرابى جديدا يعود فى ثوبجمالعبد الناصر ، وما لم يستطـع احمد عرابى تحقيقه فى المجالات الداخلية استطاع جمال عبدالناصر أن يحققه فلقد اطاح بالنظـام الملكى من اساسه ، وازال القصر ومن كان يدورفي فلكه من أمراء وحاشية واتباع دون تمييز بين مختلف العناصر ، سواء اكانت من اصلاب تركيةاو مصرية صميمة أو اجنبيـة ، دون نظر لخبراتها وامكانياتها الحضارية وسرعان ما الغيتالالقاب الفخرية واختفى ما تثيره من حساسيات التعالى التى تباعد بين طبقات الشعب ، وضاعكل ما تحاط به من هيبة مفتعلة واصبحت مقامات الجميع على قدم المساواة .. ولعـلقوانين تحديد ملكية الاراضي الزراعية وتأميم الشركات والمصانع والمصارف وتأسيس القطاعالعام كانت من اشد الضربات التى انزلتهاالثورة الناصرية باقتصادياتالاسر ذات الاصولالتركيةوافقدتها كل ما اكتسبته على مر الاجيال من مميزات اجتماعية وسياسية واقتصادية ...ولا غرابة اذا ما اخذت المخاوف القديمة علـى المستقبل الآمن تعاود الأسرة المصرية التركية منجديد بعد أن عاشت آمنة مستقرة فتـرة طويلة ...

ولكن ما ان اطمأنت ثورة ٢٣ يوليه الـىامكانية السير فى الخط الاشتراكى دون معوقات خطيرة حتى اهتمت بتعزيز الخط الديمقراطيالذى ضحت به بعض الوقت من أجل تدعيم الاصول الاشتراكية فى العقـول والنفوس ..وما أن اطلقت الحريات فى حـدود القانـون ، واعيدت الحقـوق التى تحفظ عليها التحـولالاشتراكى ، واستعانت بأهل الخبرة بعد أن شربوا من مناهل الاشتراكية ، حتى عم اقتناععام بأهميتها فى حل مشـاكل الجماهير وازال كثيرا من القلق الذى راود البعض خوفا علىالمستقبل الآمن للابناء ، وبرد الشكـوك التى حثت البعض على الهروب ، واخـذ الفارونيرجعون تباعا الى ارض الوطن وهـم اكثـر اطمئنانا ، لا يبخلون باسهامهم فى حل مشاكـلالجماهير . . وهكذاقبلتاخيرا العناصرالتركية نمطا من الذوبان فى المجتمع المصرى لم يسبق لهاان قبلته فى اى عهد من العهود ... !!

— ٢ —

هذه صورة سريعـة لتطـورات الاسرةالمصرية التركيةمن النواحى النفسيةوالاجتماعية والاقتصادية منذ الثورة العرابية حتى الثورةالناصرية ... وفى معمعة هذه التطورات ولد يحيى حقي ونشأ وتربى وتعلم وتوظف ومارسالادب والفكر والفن وهو يعيش شتى محاولات

المواءمة بين الطبع التركى وتطلعاته فى تحقيــق المستقبل الآمن وبين اهتماماته بالاستقــرار فى مصر كأبنائها الأصليين ... وشاهد يحيى حقى كيف بدات دعائم الوحدة الوطنية تتوطد بفضل جهاد مصطفى كامل وثورية سعد زغلول ... وتثقف على ايدى اجيال اهتمت بتدعيم التقارب بين مختلف جماعات الشعب المصرى ، رغم اختلافاتها العنصرية والطبيقية والاجتماعيــة والاقتصادية والدينية .. وتقلب بين جنبــات الطبقة الوسطى الحديثة التكوين مــن جمــاع المثقفين والاعيان من شتى الفئات ، وسايرها وهى تناضل من اجل تحقيق نوع من التناسق بين اتجاهات الحياة المصرية الحديثة وتأسيس وحدة وطنية مصرية تصرف جهودها نحو بنــاء مصر العصرية ..

فمنذ البدايــة شب يحيى حقى في حى شعبي ، واحب ابن البلد ولغته العامية المميزة .. ولكن على قدر ما احب الحى الشعبى وابــن البلد كره المدرسة المصرية والمدرسين المصريين .. اذ ما أن بلغ السن الذى يسمح له بتلقى العلم حتى بدأ تعليمه فى كتاب السيدة زينب .. ثم التحق بمدرسة ابتدائية مجانية لا يدخلها عادة الا اولاد الفقراء عانى فيها من قسوة ضرب عصا المدرسين ما جعل الدنيا تظلم فى عينيــه يجبر نفسه اجبارا ويعذبها عذابا شديدا حتى تقوى على حشر دماغه بمعلومات لا يكاد يفهم منها شيئا ولا يدرى لماذا يتعلمها ، وذلك لكي لا يتكــرر رسوبه كما حدث في السنة الاولى الابتدائية ، ويطلق سراحه من جحيم المدرسة الابتدائيــة ويرضى أمه التى تغضب وتتحسر على خيبــة أملها فى أولادها اذا ما رسب احدهم (١٤) .. وظن انه قد يجد تعليما أفضل فى المدرســـة الثانوية ، الا انه عانى فيها حرمانا في تربيـــة الخلق ، وتخاذلا فى انماء الشخصية ، وتقصيرا فى الكشف عن المواهب والاستعدادات والقدرات تكتفى بحشو الراس بالقشور وبالعلم النظرى دون ان تعتنى بالدراسات الحقلية والتجارب العملية .. تخلو الكتب الدراسية ومناهج التعليم من كل ما يتصل بالموسيقى من قريب أو بعيد رغم انها غذاء الروح . وتخلو ايضا من الفنون وهى مهذبة للحس والذوق ومن التربية الدينية السليمة ، ويقتصر التعليم الديني على استظهار بعض الآيات القرآنية ... الا ان يحيى حقى عوض كثيرا مما حرم منه في المدرسة المصرية بما تلقاه من مدرسة الأم التركية .. اذ كانت على قدر من الثقافة الادبية والدينية ، تعطي اهتماما بالاحتفالات الدينية والاعياد الاسلامية خاصـــة موالد النبى الشريف ... ولذلك فان اول هزة روحية خبرها يحيى حقى فى حياته كانت ايام الطفولة اثناء حفلة المولد النبوى الشريــف ، التى كانت تهتم الام باقامتها بالبيت فى ميعادها من كل عام ، كما عودته منذ الصغر على زيارة المساجد ، خاصة تلك المساجد التى تقام بهــا الموالد . ولذلك عشق حضورا احتفالات مولد سيدنا الحسين ليتمتع برؤية ما يستعرض فيها من مشاهد السيرك من العاب الحيوانات ومن تمثيليات بسيطة ومن الاغانى الدينية .. (١٥)

---

(١٤) يحيى حقى : خليها على الله .

(١٥) يحيى حقي : دمعة فابتسامة .

وما كاد يحصل يحيى حقى على شهادةالكفاءة حتى وقع في حيرة . اذ كان عليه ان يختار بين القسم العلمى والقسم الادبى .. لقدكان يتمنى في صباه ان يكون طبيبا لان الطب مهنة حرة تهتم بدراسة جسم الانسان ، وتكشف عن اسباب علله وامراضه ، فكان عليه أن يختار القسم العلمى ولكنه فضل القسم الادبى خشية ان يرسب سنة أو أكثر من ناحية ، وان يحمل الاسرة مزيدا من الاعباء والمصروفات من ناحية أخرى .. فما كاد يحصل على شهادة البكالوريا عام ١٩٢١ حتى التحق بمدرسة الحقوق العلياالتي كانت تمثل قمة التعليم العالى فى ذلك الوقت ، ولا يدخلها الا المحظوظون من الاوائل ، ولذلك اعتبر التحاقه بمدرسة الحقوق شرفا عظيما لا يناله من يدخل مدرسةالتجارة العليا او مدرسة المعلمين العليا .. الا أنه لم يجد في أساليب الدراسة فى مدرسةالحقوق ما يجعلها تفضل عن المدرسة الابتدائية او المدرسة الثانوية ... لقد افتقد فيها علاقاتالتراحم والانصاف والمساواة بين الاساتذة والطلبة ، ورأى حدة الصراع بين الاساتذةالقدامى والاستاتذة الجدد . ومع ان منصب الاستاذ لا يعلوه منصب آخر فان اغلب الاساتذةاقرب الى التجار الجشعين وابعد ما يكونون عن حملة العلم .. ووجد الطلبة فى زحمةالامتحانات فى سباق مروع من اجل الظفر بالاولوية دون مرشد يدلهم على أحسن المراجعوادقها . في حين يجامل بعض الاساتذة أبناء الوزراء وكبار موظفي الحقانية التى تتبعهامدرسة الحقوق .. ويسرقون وقت الطلبة بالعبث والمماحكة حتى اصبح التعليم « كسلقالبيض »ومجرد حشو الدماغ ،حتى يكاد ينفجر بالتفاصيل والقشور دون أن يتاح لطالب واحدفرصة ليقف ويتكلم امام جمع من الناس وهو حاضر الذهن مالكا لشخصيته واعصابه ، حتىلا يمارس المحاماة الا وهو مدرب على صنعة الكلام وحسن الخطابة بعد معرفة القانونواجراءاته .. (١٦)

وهكذا كان مجتمع مدرسةالحقوق صورةمصغرة من المجتمع المصرىككل شاهدفيه يحيى حقى صراعات غير مفهومة بين الاساتذة المصريينعلى الربح والمنصب ، ومنازعات بين الاساتذة الانجليز والفرنسيين من أجل توجيه الدراسة فى المجالات التى تراعى مصالح بلادهم ، وتنافسا بين الطلبة على الاولوية عن طريق التفوق فيالامتحانات او الوساطة والمحاباة والمجاملة .. ولقد اكتوى يحيى حقى بنار هذه الصراعاتوالمنازعات والتنافس التى كانت تثير في داخله تيارات مريرة من القلق والشك وعدمالاطمئنان ...

وانتهت مرحلة الدراسة بمدرسة الحقوقالعليا بنجاحه فى امتحان الليسانس عام ١٩٢٥ وجاء ترتيبه الرابع عشر ... فبعد ان كان قبلظهور النتيجة يتمنى فقط مجرد النجاح ولو جاء اسمه فى ذيل قائمة الناجحين حتى لا يغضبامه او يجرعها مغبة خيبة الامل . وحتى لا تنعى ضياع جهادها من أجل أولادها او تندب سوءحظها معهم . فاذا به يتطلع ان يكون من بين الاربعة الاوائل الذين سترسلهم مدرسة الحقوقفي بعثات الى جامعات أوروبا لاعدادهم لشغل

---

(١٦) يحيى حقي : خليها على الله .

مناصب الاساتذة تدعيما لحركة تمصير مدرسةالحقوق ، واحلال الاساتذة المصريين مكـــان الاساتذة الاجانب من انجليز وفرنسيين ...واخذت تراود يحيى حقى آمال تؤكدها لـــه تجربته فى المدارس المصرية ، واشعرتــه بأنلا مجال للتثقيف الحقيقي الا فى الخارجولافرصة له في اتقان لغة اجنبية الا بالسفر الى بلادهــاحيث تتوفر مناسبات لمشاهدة ضروب من الفن الرفيع على مسارح الباليه والأوبرا والكونسير...وكم آلمه ان يرسب فى الكشف الطبىويخرج من دائرة المرشحين الاصليين وينزل الى مرتبةالمرشح الاحتياطي .. وتحسر على ضياع فرصة كان يأمل ان تعوضه عن كل ما افتقده فىالمدارسالمصرية ، وينعم بالجو العلمى الصحيح ،ويعيش في اجواء ثقافية تنمى عقله وترهف حسهوتندبذوقه وتسمح له بالتمتع بمختلف ضروب الفن الرفيـــع ...

ولم يكن هناك بد من ان يقف يحيى حقىفى طابور الطالبين للوظيفة . مثله فى ذلك مثل جميع افراد أسرته الذين لا يوجد احد منهم منتجرا واشتغل بالمهن الحرة ... واصبح املــه ان يعينه ترتيبه المتقدم للحصول على وظيفة فيقلم قضايا الحكومة .. وحيث انه كان يعلم ان وظائف النيابة المختلطة كانت وقفا على اولادالذوات وعلى من يجيد الحديث باللغة الفرنسية اضطر ان يقدم طلبا للنيابةالاهلية ، فوضعتحتالتمرين فى مكتب نيابة الخليفة لقربه من سكنه .. وبدأ عملا أصدق وصف له هو « صبىوكيلنيابة » كل مهمته ان يجلس بجوار وكيل النيابة ويراقبه .. قد يسمح له بقراءة محضر التحقيقوابداء الراى فيه شفويا .. ولكن لا يحمـــل مسئولية تولى التحقيق ذاته او ابداء الراى فيهكتابة . ولم يجد من يحاسبه على الحضور والانصراف فلم يرتح لمثل هذا العمل ، وشغلنفسه فى الفترة ببعض الدراسات القانونية عن الاحداث والقاء بعض المحاضرات عنها .. كانيطمع عن طريقها ان يتولى وظيفة تسمح لــه بالاشراف على ملاجىء الاحداث ومواصلة ابحاثهفى كل ما يتعلق بمشاكل الحدث . ولكنه وجد السبل مسدودة لمثل هذه الوظيفة . فحاول انيجرب حظه في المحاماة وهى عمل حر غريب عن أسرته يتطلب اتصالات متشعبة بمختلف فئاتالمجتمع .. بينما اسرته قليلة العدد منطوية على نفسها فى شبه عزلة اجتماعية .. كل رجالهاموظفون ، ليس لهم معاملات مع الناس تدعو الى الدخول فى خلافات مدنية او منازعاتجنائيةاو حتى مشاحنات عائلية تستدعى خصومات شرعية . فلم يجد يحيى حقى من يسنده فىالقاهرة ، وهى بلد كبير يحتاج فيه المحامى الناشىء الى اتصالات ومعارف واصدقاء لكىيستطيع ان يجد لنفسه مكانا بين كبار المحامين الذين يسيطرون على مختلف القضايا .. (١٧)فاذا به يركب الصعب ويقبل الذهاب الـــى الاسكندرية وينزل ضيفا عند خال له يعمــلبالجمارك ليمارس المحاماة في بلد تكاد تخلو من كبار المحامين الاهليين ، ويكثر بها المحامــونالاجانب الذين يسيطرون على سوق محكمــة الاستئناف المختلطة . فاشتغل أول الأمر فىمكتب محامى يهودى وجد فيه كثيرا من مظاهر التقدم الثقافى ومن علامات الرقى الحضارى ..ولكن سرعان ما تركه عندما لـم يف المحامى

(١٧) نفس المرجع السابق .

اليهودى بوعده ويدفع له المكافأة فى أول الشهر .. واشتغل فى مكتب محام مصرى وعده بمكافأة شهرية أكبر .. ويبدو أنه لم يجد الامان كذلك عند المحامى المصرى واذا به ينتقل الى دمنهور وينزل عند احد انسبائه البعيدين ويعمل فى مكتب محاماة انابه صاحب المكتب فى تولى امر الدفاع فى بعض القضايا الصغيرة .. دعته الى التنقل بين مراكز دمنهور لحضور جلسات محاكمها .. وفي دمنهور تعرف على طباع اهالى البحيرة من خلال خلافاتهم التى تعرضها أمامه ملفات القضايا التى وكلت اليه دون أن يخالط الاهالى مخالطة تعرفه بهم عن معاناة وتجربة . . الا انه فزع من قضايا النصب وما تنطوى عليه من غفلة وبراءة متناهية ، ومن لؤم وخسة ودناءة وطمع وجشع من ناحية أخرى .. وتعجب من كثرة ضحايا الخلافات بين الرجل والمراة ، وما تدعو اليه من خيانات تمس العفة والشرف حتى احس بأن الامانة في هذه الدنيا امر مستحيل .. وليته وجد اي نوع من الراحة وهو يبذل اقصى ما يستطيع من جهد لاظهار الحق ودفع الظلم عن موكليه ، ولكنه تعرض لخداع سماسرة القضايا الذين يعملون كوسطاء بين المحامين والمتقاضين .. كما لم يرتح الى كفالة العدالة بسبب العجلة التي تدار بها جلسات المحكمة وسرعة اصدار الاحكام .. فساعد كل ذلك على ظهور عقدة التركى فى مصر التي افقدته الاحساس بالامن والاستقرار ، واغرقته فى مشاعر الغربة والخوف من المستقبل . فلم يستطع مقاومة ضغط التخويف العائلي من مغبة الاستمرار فى عمل حر غير مضمون الجانب ، خاصة بعد وفاة والده فى ١٩٢٦/١٠/٢٦ . وقلق أهله بعد مرور ثمانية شهور على اشتغاله بالمحاماة .. دون فائدة تذكر فوجد نفسه فى النهاية يستسلم لاساليب الاتراك في الوساطة والشفاعة لنيل وظيفة ، وان كانت أقل كرامة مما كان يتمنى .. واذا به يقول : « تعرضت لضغط شديد .. خوفت فيه أشد الخوف من المستقبل المجهول .. من أجل ان ارضى بوظيفة فى الحكومة ... لم يجدوا لي بعد الوساطات والشفاعات الا وظيفة معاون ادارة ... ان هذه الوظيفة أقل كرامة من وظيفة النيابة .. فلم اقبل المنصب الا صاغرا مستسلما . » (١٨) .

ولكن ما ان علم انه عين معاون ادارة بمنفلوط حتى احس بان سفره الى مقر عمله هذه المرة لا يماثل سفرياته الى الاسكندرية ودمنهور حيث نزل عند الاقارب .. واذا به يتهيب السفر الى الصعيد ، ويتوهم انه مهاجر يقيم منفردا فى بلد غريب بعيدا عن الاهل ، ويتوجس خيفة من انقطاع صلته بعائلته ، ويضطر ان يعيش وحيدا فى بلاد تنتشر فيها جرائم القتل والاخذ بالثأر ، محرومة من وسائل التقدم الحضاري من ماء نقي ونور كهربائي ومجاري .. تزحف فيها العقارب في كل مكان .. كلها حياة خشنة صارمة لا تعرف الزينة ولا تجيز دلع القاهري فى طعامه وملبسه ونكاته ونزهاته .. ليلها سجان له يد سوداء تغلق الابواب عند غروب الشمس على الانسان والحيوان ... فأخذ يحيى حقي يردد أقوالا لا تخلو من رعشة « لا استطيع ان أتبين شعوري حين علمت انني مهاجر لاقيم منفردا بالصعيد .. هل هو تهيب من المجهول .. أو هو خوف من

---

(١٨) نفس المرجع السابق .

الانقطاع والوحدة .. ؟ لم يسبق لي قط ان سافرت للصعيد او خالطت أهله .. صورته المنطبعة فى ذهني رسمتها لي اقاويل تقارب تهاويل الاشاعات عن جرائم القتل والاخذ بالثأر .. » (١٩) ومع ذلك سافر يحيى حقي الى منفلوط وتسلم عمله كمعاون ادارة فى أول يناير سنة ١٩٢٧ . تحدوه مشاعر « بسعادة الانطلاق .. الى عالم غامض احس بسحره وعطره .. كنت اشتاق اليه من قديم .. وادركت أن مصريتي ومحبتي لبلدي لا تتمان الا اذا اغتسلت فى حوضه » . (٢٠)

لا جدال فى ان الشيء الجديد على حياة يحيى حقي في منفلوط هو معشيته وحيدا بعيدا عن الاسرة ، دون تدخل من والدته التي يبدوانها كانت ذات شخصية مسيطرة يعمل لها الجميع الف حساب ... ولقد سكن بمفرده لاول مرة ، اذ لم يكن هناك اقارب ينزل عندهم كما كان الحال فى الاسكندرية ودمنهور. . . يدخل البيت ويخرج منه بلا رقيب ، لا يحاسبه احد وقت الخروج ولا يجد من يسأله متى عاد .. اذكانت والداته تحرص على ان تتم علـى أولادها جميعا قبل ان تنام ، ولا يأتي لها نوم الا بعدان يدخل كل منهم فراشه .. وكل هذه الحرية اتاحت له الفرصة الكاملة لكي يتخلص من تأثير كثير من تقاليد اسرته التركية ، ويقترب اكثر فأكثر من صميم الحياة المصرية بعيدا عن كل التدخلات الخارجية .. يعيش فى معمعة المجتمع المصري صباح مساء ، تحيط به مختلف مظاهر الحياة المصرية من كل جانب .. يستعين بأهل منفلوط ويعتمد عليهم كل الاعتماد فى مواجهة شتى الحاجات اليومية الضرورية ... وان ظروف عمله كمعاون ادارة حصرت اتصالاته بالفلاحين الى حد كبير ودفعته لمعرفة طباعهم وعاداتهم فى مواقعها الاصلية .. بينما التنقل بين المراكز والقرى لتلبية الواجب الوظيفي جعله يشاهد عن قرب الطبيعة المصرية ويتصل بها اتصالا مباشرا حين يخترق الحقول ويتأمل النباتات ويراقب الحيوان .

وبذلك تكون اقامة يحيى حقي منفردا فى منفلوط مدة عامين لمباشرة مهام عمله قد ادت الى احتكاكه الفعال بالانسان المصري والمجتمع المصري والطبيعة المصرية ، مما ساعد على تنمية شخصيته المصرية في ظروف لا تسمح بتسرب نفوذ التقاليد التركية ونزعاتها ، وتدعو الى تغليب التقاليد المصرية وتعميق نزعاتها فى مختلف تصرفاته .. واذا بالحياة الجديدة تستغرق كل وعيه واهتماماته ، ولا تكاد تفلت منه لمحة من لمحات الريف فى الصعيد .. فانتبه الى انماط من الانسان الساذج المتخلف .. روعه الدجال الدعى الذي يتظاهر بالتقوى ويلبس العمامة الخضراء ليستغل بساطة الفلاحين .. ويبعث الرهبة فى قلوبهم ويسلبهم اموالهم ويستدرج نساءهم ... وشغله المحتال الذي يلجأ الى كشف الطالع وادعاء القدرة على شفاء الامراض المستعصية .. فهاله ان ينهزم العقل امام الدجل والاحتيال الذي يوهم بامكانية الكشف عن كنوز مختفية واظهار الغائب البعيد ... ويهزه نفوذ رجال الدين على الفلاحين .. ليس فقط فى

---

(١٩) نفس المرجع السابق .

(٢٠) المرجع السابق .

حلقات الذكر وصلوات الجماعة بل على الخصوص فى فض الحزازات وابطال الاخذ بالثأر ، والتقريب بين القلوب وتطهيرها وتقديم النصائح الاخوية التي تمنع الجرائم وتحض على مصالحة المتخاصمين ورد المطلقين ، والسماح بتأجيل سداد الديون .. ولقد ادهشه كيف يعم السلام في القرية طوال اقامة الشيخ بين ربوعها يتنقل من ضيافة الى ضيافة اسابيع وشهورا ، وكيف يتوجس الاهالي خيفة اذا ما عزم على ترك قريتهم ليتوجه الى قرية اخرى .. !! الا انه يلحظ ان قوة هؤلاء الشيوخ لا تتناسب مع ثقافاتهم وشخصياتهم بأنه لا يوجد عندهم علم يبهر ولا قوة روحية خارقة ، وان ولايتهم ليست الا مجرد مهنة متوارثة لكسب العيش بطريق شريف يفيد الاهالي ، ويقوم بدور فعال فى تطهير المجتمع من كثير من الشوائب الخلقية والاجتماعية .. !! ولذلك كانت العلاقة بين هؤلاء الشيوخ والفلاحين علاقة مثالية تتسم بالنبل ، ليس فيها استغلال أو خداع بل فيها تبادل المحبة والاحترام والثقة والرغبة فى تعميم الخير ونشر السعادة والامان والاطمئنان بين الجميع . وذلك بخلاف العلاقة السائدة بين الفلاحين وموظفي الحكومة الذين استقروا فى بلادهم ليقدموا لهم مختلف الخدمات ...

لقد كانت علاقة الموظفين بالفلاحين تفتقر على الدوام الى الثقة المتبادلة ، مما دعا يحيى حقى لأن يشعر بالاسى والاسف لوجود « هوة كبيرة بين الفلاح والحكومة » ولذلك فان « معظم اشغال الحكومة ، رغم حسن نيتها ، يساء فهمها .. وتعرقل وتهدم .. » (٢١) وحاول يحيى حقى بكل قواه ان يستلين الفلاح حتى يثق به كموظف حكومى فلم يفلح .. !! اذ اصبح فى ذهن الفلاح اعتقاد راسخ بأن الحكومة لاتفهمه .. هو فى واد وموظفو الحكومة في واد .. ينظر الى هؤلاء الموظفين على انهم اغراب اجراء ، لايهمهم الا قبض مرتباتهم ، وقلوبهم ليست معه .. حتى دب فى قلب الفلاح ريبة متأصلة من الغرباء ، وريبة أشد اذا كان الغريب من طبقة الافندية الموظفين ، الذين يعتقدون انه راقد على كنز ، وان خيرات أرضه موفورة ينبغى ان يكون لهم نصيب فيها .. فلا نعجب اذا ما اخذ الفلاح حذره حتى لا يظهر عليه دلائل النعمة فلا يطمع فيه « الشباحون » من الموظفين الذين يتوهمون أن تقدير مهابة وظيفتهم تقاس بما يلقونه من اكرام ، ويقدم اليهم من مأكولات حين ينزلون على الفلاحين لظروف العمل ويضطر العمدة لاستضافتهم ... الا ان « فراغة عين الموظف » ليست السبب الوحيد لعدم ثقة الفلاح فيه .. انما لاهتزاز صورته كذلك امام عينيه ، ما ينشب بين الموظفين من خلافات وخصومات تصل الى حد العداء السافر وكتابة العرائض الكيدية ، فكيف تؤمن جانبه .. ؟ فقد يلقى الفلاح الموظف الجديد بالترحاب عند قدومه لاول مرة ، ويقبل ان يدخل معه فى علاقات طالما انها تعود عليه بالفائدة .. لانه يعلم ان هذا الموظف لم يأت اليهم « حبا فى سواد عيونهم » بل تأدية لواجب مفروض عليه ربما يراه كريها فاذا ما فرغ منه يسرع فيولي ظهره وينفض يديه منهم ... ومن خلال هذه المشاعر كانت تصرفات الفلاح تذبذبا بين عواطف الوفاء ونكران الجميل

---

(٢١) يحيى حقي : خليها على الله .

... وبين التودد والنفاق .. مما جعل الموظف بالتالي ، يشعر بان الفلاح رجل لا يوثق به ، عنيد لا يتحول عن طبعه، وان معاملته باللين والانسانية عبث ضائع .. ولكن عدم الثقة المتبادلة وريبة كل منهما في الاخر تفسد كثيرا مـن مشروعات الحكومة ، خصوصا تلك المشروعات التي لا تراعى احوال الفلاح المصري الاجتماعية والثقافية ولم يسبقها اعداد الموظف المناسب لحياة الريف المصرى . . . . !!

وفقد الثقة بين الفلاح والموظف ليست المظهر القبيح الوحيد فى ريف الصعيد .. فان هناك مشاهد اخرى اشد قبحا تستلفت النظر وتدعو الى التأمل .. فان الفلاح المصرى الذى لا يثق فى الموظف يتعرض يوميا لضروب مختلفة من الضغط فى شتى مجالات حياته العادية : يستغله الموظفون من اكبرهم لاصغرهم ... فان المأمور يفرض نفسه على العمدة لكى يعد له وجبة فاخرة اذا ما نزل عليه لسبب من الاسباب يستدعى البقاء في بلدته مدة طويلة ... فيضطر العمدة أن يستولى على دجاجة فلاحة فقيرة لكى يقدم للمأمور الوجبة الشهية التى ينتظرها، ويرضيه على حساب « فلاحة غلبانة » في اشد الحاجة الى العون والمساعدة . . بينما يعامل الطبيب الفلاحين بأساليب تخلو من الانسانية ، وتتسم بالاستعلاء والفلظة والاستقلال . . . فطبيب القرية لا يتورع عن تشريح جثة قتيل فى عقر داره امام اهله ، ولا يبالى بحرمة الميت ولا يحترم مشاعر الجماهير ويقطع فى جثة الغريق على الجسر أمام المارة ... ولا يستنكف من أن يسخر من شباب القرية وهو يكشف عليهم عرايا بوقاحة يوم فرز القرعة ... فلو كان يفحص كلبا جربا لكانت يده احن عليه من على هـؤلاء الفلاحين ... يعيش في قصر جميل ، معتزلا القرية ، كانه اقامه وسط غابة واحاطه بالمتاريس، ولا يتسع الا له ولأسرته ويخرج منه يوميا للادغال لصيد الوحوش ثم يعود ليتمتع دون بقية أهل القرية بكل مزايا المدنية المادية والمعنوية. ... يحيا فى قصر يسوده السلام والدعة والرقة والنظافة والابهة والرفاهية ولا يمكن أن يتصور أن هذا الطبيب المهذب النبيل داخل بيته هـو نفسه الذى يعامل الفلاحين بغلظة وقحة لا اخلاقية ... فيشترط دفع الاجر قبل تقديم العلاج المطلوب أو قبل اجراء عملية ، لا هم له الا الاثراء العاجل بأى ثمن بالطرق المشروعة أو غير المشروعة على حد سواء دون تمييز بين الخير والشر أو الحق والباطل »(٢٢). هذا فضلا عن أن الفلاح كثيرا ما يتعرض لغلظة العمدة بل وظلمه واستغلاله احيانا لتحقيق مآرب شخصية ، أو ليظهر مدى سطوته على الفلاحين حتى يرضى عنه الحكام ... فيعيش الفلاح بين مطرقة العمدة وسندان شيخ البلد ، يحاول أن يكسب ود الطرفين المتنافسين دون جدوى .. فلا نعجب اذا ما سرت الغلظة والقسوة فى مختلف نواحى الحياة في ريف الصعيد فلا تكاد تموت زوجة الفلاح حتى يتزوج بأخرى مهما كان عدد أولاده ومهما بلغ من الكبر .وسرعان ما يتآمر الاولاد على الاب ويقتلونه . واذا ما فرطت بنت فى عرضها فلا يتردد أى فرد من افراد العائلة عن قتلها حفاظا على الشرف

---

(٢٢) المرجع السابق .

.. ولا سبيل لحل الخلافات على حدود الارض‌وري الغيطان سوى تبادل اطلاق النار وسقوط الضحايا من هنا وهناك ، صونا للكرامة ودفاعاعن حرمة الارض ... بل ان الفلاح منذ ولادته محروم من حياة الطفولة يقاسي منذ الصغرويلات العمل فى الحقول ، وسرعان ما يصاب بأمراض البهارسيا والملاريا التى ترهق بدنه‌وتغتال حيويته وتسرع به الى شيخوخة عاجزة ، في حين لا تعرف الفلاحة الرأفة ، فماتكاد تتزوج حتى تنجب، ولا تمنعها كثرة الخلفة ومتاعب الواجبات المنزلية أمام الفرن وتقريص‌الجلة من مشاركة زوجها فى الغيط . . وهكذا تستمر فى عمل يومى شاق دون توقف منذالصبا الى الشيخوخة حتى يصعب التمييز بين الشابة والعجوز من نساء القرية « فليس فى‌قبضة الفقر والشقاء الا عمر واحد » . (٢٣) يجد الفلاح نفسه مضطرا لان يهتم بحيواناته‌الى درجة تفوق اهتماماته بأولاده وزوجه .. فاذا ماتت‌الجاموسة ذرف عليها الدموع،ولطمت‌النساء الخدود ، واقيمت مناحة كبيرة يتقبل فيها العزاء من الاهل والجيران .. ولذلك فليس‌هناك اشد قسوة في الانتقام من دس السم للبقر والجاموس .. وان الترف الوحيد الذى يعرفه‌فلاح الصعيد الحافى القدمين المرتدى الجلباب الازرق البالى هو القتل عند الاخذ بالثأر. (٢٤)بينما تكاد تخلو حياة الفلاح الخاصة من اللهو والمرح ، ولا يسرى عنه الا نزول السيرك الى‌مولدالسيد عبد الرحيم القنائى .. فيتسابق الفلاحون الوافدون من جميع أنحاء المركز على‌مشاهدة الالعاب البهلوانية وعروض التمثيل ومشاهد الغناء والرقص فى نشوة ما بعدهانشوة لا تتكرر الا نادرا .. الا ان الفلاح لا يعرف شيئا عن بهجة الانثى حتى ان الفوانى — وهن‌فلائل — يرقصن فى لباس يغطى اجسادهن الى الكعبين في بيوت من القش والطين .. ومع‌ذلك فان الحياة الجنسية تلعب دورا هاما فى تحريك الحياة فى الصعيد وتثير متناقضاتها‌الاهتمام .. ! ! اذ كيف **تصبح الست ظريفة** — التى كانت فى شبابها غانية من الفوانى — وليةمن وليات الله ويشيد لها مقام يزار ويتبرك به .. بسبب ما أظهرته من كرم وتوبة وتبتل فى‌أواخر حياتها .. ومع ان التقاليد لا تعطى للمراة التى تفرط فى عرضها فرصة للتوبة وتقتص بهافورا بالاعدام .. كما انها سمحت بوجود نقطة للدعارة الرسمية .. فلم يعترض أحد من الاهالى‌على احتراف الفحشاء أو يتحمس لاجبار المومسات على مغادرة البلاد .. بل لم يتأفف‌فرد منهم من سوق الشرطة لهن لاستقبال قطار الرحلة الملكية واطلاق الزغاريد التى يمتنع احرارنساء الصعيد عن اطلاقها علنا .. ! وكذلك‌يعرف العمدة وشيخ البلد كل امراة تمارس الجنس‌سرا ولا يحاول احدهما ان يمنع واحدة من‌بائعات الهوى عن التردد على بيوت الافندية فى الاماكن‌النائية فى الخفاء تحت ستار الليل .. بل لايتورع العمدة أو شيخ البلد عن ان يدفع بامراة بحراوية‌بعد أن يأخذ مأربه منها ليلهى بها الموظفين الذين يتقززون من قذارة المومسات الرسميات اللاتى‌يكشف عليهن كشفا طبيا شكليا وان كان دوريا..

---

(٢٣) يحيى حقي : أم العواجز : قصة ازازة ريحة . الكتاب‌الذهبى العدد ٣٩ اغسطس ١٩٥٥ . القاهرة .

(٢٤) نفس المرجع السابق .

بهدف ابعاد خطر استهواء الشبان من الموظفين لبنات القرية ونسائها .. حتى لا يتعرضن لمصرع اليم .. مع ان الرعب من القتل يكاد يحد من انحراف النساء الصعيديات .. فاذا ما طاش سلوك واحدة منهن غالبا ماتكون من نوعية معينة: كأن تكون ابنة تاجر ثرى مشغول بتجارته .. في حياته يسر ، يتمتع بقسط من التحرر يخفف من شدة الرقابة . (٢٥) أو تكون بنت مدارس دخلت فى علاقات اجتماعية لم تنشأ عليها . او تكون من اسرة مسيحية يلتحق بناتها بمدارس التبشير التى تسمح بنوع من الاختلاط مع الجنس الاخر (٢٦) وفى جميع هذه الاحوال تنتهى حياة البنت التى لا تحرص على شرفها لسبب أو لآخر وان كل ما ينسب الى الصعيد من انحرافات جنسية ينصب فى الغالب على نساء بحراويات أتين من خارج الصعيد (٢٧) او الى الفوانى اللاتى ينشأن على حياة حرة طليقة لا تحافظ على حرمة الجنس وصيانة العرض ، ومستعدة لأن تبذل كل شيء فى سبيل المصلحة والنفع والمادة (٢٨) .. وهكذا اهتم يحيى حقى بأن يعرض متناقضات القيم الجنسية فى الصعيد ويبين كيف انه يحق للرجل الصعيدى ان يمارس الجنس في حرية مطلقة دون قيد اخلاقى أو شرط دينى ، ولا يلام اذا ما اشبع نزواته الجنسية بأساليب داعرة رغم تعدد زوجاته . ولا يشعر بالعار اذا ما رأى الدعارة تطوف من حوله ، ولا يجد داعيا لأن يحرك ساكنا طالما انها لا تمس أهله ، بخلاف اذا ما سمحت امرأة من الصعيد لنفسها بممارسة الجنس فى غير النطاق الذى وضعه الشرع وتسير عليه التقاليد فانها تلقى مصيرها من غير تردد او تفاض . . ! !

• • •

الا أن ريف الصعيد ليس كله قبحا فان الطبيعة وهبته من الجمال الشيء الكثير ، ما اجبر يحيى حقى على أن يصف روعة تدفق مياه الفيضان مع احتفال الفلاحين بوفاء النيل ، ويعرض مناظر حقول القطن والبرسيم فى لوحات خلابة ، ويتأمل حيوانات الغيط عن قرب ، خاصة الحمار الذى زامله مدة اقامته بمنفلوط ، ويحاول أن يستشف كنه كل حيوان من خلال عينيه « للبقرة عين غارقة فى أحلام لذيذة .. للجمل عين ترقب الدنيا من عل بتوجس وغضب مكتوم ، كأنما يخشى أن تلحق بكبريائه اهانة على يد حقراء .. وللحصان عين تنم عن الخيلاء والنبل والذكاء تعكس الضوء بالليل فتتقد كالياقوتة الحرة . وللتيس عين فيها العناد كله ، وحتما الخبث والمؤامرات .. وللجاموسة عين متطفئة لا تنبعث منها حياة او ارادة الا وهي ترضع طفلها فينعقد سباتها على الحنان .. اما الحمار فان عينيه ذابلة حزينة تكاد تترقرق فيها الدموع ، بل يخيل

---

(٢٥) نفس المرجع السابق .

(٢٦) يحيى حقي : دماء وطين : قصة البوسطجى .. مجموعة اقرا . دار المعارف . العدد ١٥٣ . عام ١٩٥٥ . القاهرة .

(٢٧) يحيى حقي : دماء وطين : قصة « أبو فودة » .

(٢٨) يحيى حقي : دماء وطين : قصة : قصة فى سجن .

الى فى بعض الاحيان انها معمصة كعيون الاطفال بعد بكاء .. أهذا هو سر نهيقه .. ليس فى صوت حيوان آخر مثل هذه الحرقة والتفجع والمرارة ، انها صرخة عذاب واستغاثة واشهاد الناس فى نوبة متفجرة من بكاء بلا دموع تمزق الهواء ثم تذوب كأنها لم تكن .. (٢٩)

لا شك فى أن الفترة التى قضاها يحيى حقى فى ريف الصعيد ـ رغم قصرها اذ لم تتجاوز العامين ـ قد عمقت مصريته الى أبعاد ما كان يستطيع أن يصل اليها لو بقى فى القاهرة بصفة مستمرة ولم يتركها الى الصعيد .. فلقد يسرت عليه فهم كثير من اتجاهات الحياة المصرية ونجح فى تصويرها تصويرا واقعيا صادقا فى كتابه ((**خليها على الله**)) .. والهمته بأروع قصصه الأولى في ((**دماء وطين**)) و ((**أم العواجز**)) كانت صدى لتجارب حية ظلت تتفاعل فى داخله وتوحى اليه بعواطف ومشاعر وافكار وحكمة وموعظة وصور وخيالات ، شغلت وجدانه وحركت عقله لمدة طويلة حتى وهو بعيد عن أرض مصر متنقلا بين بلدان أوروبا .. وعلقت قلبه بالفلاح المصرى رغم قذارة ملابسه وبيته وضآلة طموحه وسرعة وقوعه فى الجريمة والانحراف .. فسخر فنه القصصى ليكشف عن أسرار طبيعة شخصيته ، ويدعو الى النهوض به نهضة انسانية وثقافية حتى يرتفع مستواه الحضارى ... الا ان يحيى حقى نظر للفلاح نظرة اهل الحضر وسكان المدن التى لا تستسيغ الاوضاع المتهالكة التى عليها أهل القرى وسكان الريف ، فكان هدفه من وصف المجتمع الصعيدى الوصول الى نوع من النقد والتوعية بقصد ، اولا وقبل كل شىء ، اصلاح حال الفلاح المصرى فى ضوء المفاهيم الحضارية الحديثة .. ولكن أوصاف يحيى حقى للفلاح والحيوان والحقول تقف عند حد القطاعات التى سمحت ظروف حياته بأن يتصل بها اتصالات مباشرة او يدخل معها فى علاقات عمل أو لهو واثقلت فكره ووجدانه .. ولا غرابة فى ذلك فلقد نشأ يحيى حقى وتربى في القاهرة ، وترجع معرفته بالريف ، قبل أن يذهب الى منفلوط ، الى مجرد رؤية بعض القرويين الذين يدخلون بيته لتقديم حساب المحاصيل وأجرة الارض ، أو لقضاء عمل من الاعمال المنزلية .. واغلب تصوراته عن الريف استقاها عن بعض التهاويل والاشاعات التى استمع اليها من هنا وهناك .. ولما ذهب الى أعماق الريف الصعيدى لم يخالط أهله او يعاشرهم ، انما كانت أغلب اتصالاته مع انداده من الموظفين وبذلك لم يختبر حياة الفلاحين فى أحضان الريف ، لانه لم يقم فى بيوت من الطوب اللبن ويرقد على الارض بجوار الحيوان . ولم يأكل أكلهم صباح مساء او يشرب من مجارى الانهار ويرتدى زيهم الفضفاض .. ولم يشاركهم فى جد هم وعبثهم ، يستهويه ما يستهويهم وينفر مما ينفرون ، يخطط معهم للاخذ بالثأر أو يجد نفسه بلا ارادة مندفعا فى معركة من معاركهم دفاعا عن الكرامة أو الارض .. ولذلك اذا اطلع يحيى حقى على بعض أسرار الريف فى الصعيد ورآها عن كثب فلم تتح له الفرص الكاملة لأن يندمج في عائلة من العائلات الصعيدية اندماجا شاملا يسمح له بالامتزاج التام فى خضم حياة

---

(٢٩) يحيى حقي : خليها على الله ..

الفلاحين ليتعرف على ابسط دخائلهم اليومية التي لا يمكن ان يلمحها القريب مهما بلغ من الوعى والثقافة ودقة الملاحظة .. أو يستجيب لكل مايشغل وجدانهم ويثير اهتماماتهم ، ويتجاوب مع كل ما يفتعل فى قلوبهم من هموم ومخاوف وآمال وتمنيات .. ولذلك لا يكفى ان يحس الفنان بالمشكلة لكي ينفعل بها ويعايش ابعادها معايشة حيوية ليستطيع أن يعبر عنها تعبيرا صادقا ، وانما يجب أن يعيش هذه المشكلة بكل جوانبها ويندمج فيها اندماجا شاملا فى تجربة كاملة لا تقف عند مجرد الانفعال والمعايشة ، معتمدة على نفاذ البصيرة وشفافية الرؤية . . اذ لا جدال فى أن من يعيش التجربة أكثر صدقا وأبلغ دقة وأكثر قدرة على التعبير عنها عن الذى ينفعل بها أو يعايشها لفترة من الزمن مهما طالت .. اذ سرعان ما يستولى عليه الملل ويفقد الانفعال حيويته ، وتصبح المعايشة عبئا ثقيلا قد تنقلب الى ضيق وتذمر يتمنى الخلاص من حياة لم يعتدها ... **واذا حاول يحيى حقى أن يوهم نفسه قبل ان يوهمنا بأنه بلغ أغوار شخصية الفلاح المصرى ، وأنه كان فى موقع يسمح له بأن يفسر احوال هذه الشخصية تفسيرا سليما فان نظرته الى هذه الشخصية لم تكن نظرة موضوعية خالصة ، انما كانت نظرة أثر فيها منطق أهل المدن ، حتى يمكن ان يقال ان نظرة يحيى حقى الى أهل الصعيد أقرب ما تكون الى نظرة هؤلاء المستشرقين أصحاب القلوب الكبيرة العامرة بحب الانسانية التى تقبل طواعية أن تعيش فى المجتمعات البدائية أطول مدة ممكنة ، بهدف انقاذ الانسان المتخلف ورفع مستوى حياته وحمايته من الجهل والاستغلال** .. الا ان يحيى حقى يمتاز على هؤلاء المستشرقين بأن بواعثه فى الحدب على هؤلاء الفلاحين لا تقف عند حد الاشفاق والعطف خلال لفتة انسانية ، انما تستند كذلك الى نوع من الغيرة الوطنية يحزنها ان ترى المواطنين على ماهم عليه من تخلف وشقاء ..

وهكذا اكتفى يحيى حقى بأن ينفذ فى أعماق الريف المصرى محاولا أن يتسرب الى وجدان الفلاح المصرى من خلال تصرفاته الخارجية التى يراها امامه ولا يقبلها منطق أهل المدن ليفسرها من خلال علاقاته المتضاربة بين الفلاحين أنفسهم من ناحية ، وبين الموظفين من ناحية أخرى ناشدا فهم خبايا الريف وأسرار شخصية الفلاح المصرى .. ولكن هذا الفهم كان مفيدا كما ذكرنا بحدود امكانيات نشأته القاهرية فى نطاق اسرة ذات أصلاب تركية ..

ولا نعجب اذا ما اخذ يحيى حقى يشكو من مرارات الحياة فى ريف الصعيد ، ويئن من قسوة عمله صارخا « طالما ارهقنى واذاقنى عذاب الجسد والروح اشكالا والوانا ، ثم يستدرك زاعما أنه لولا معاناة مثل هذا النوع من الحياة ، وممارسة مثل ذلك النمط من العمل ما عرف بلوى أهله ومشاكله وشدة حاجته لمن يأخذ بيده من ابنائه ، يترنم بلهجة وطنية ناشدا ان هذا الشعور قد انقذه من (الضياع) حتى وجد فى اقامته بمنفلوط (السلامة وراحة القلب بقدر ما في الدنيا من سلامة وراحة قلب) (٣٠) .. الا أنه كثيرا ما كانت تستولى عليه مشاعر

(٣٠) يحيى حقي : أشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

النفور والزهق ، تصور له تلك البلدة على انها راقدة بين الفيطان والنخيل .. حيوان مشوه.. جسم رابض على الارض لا فكر له .. عيناهواسعتان ولكنه أعمى .. يتنفس ويحيا ويجد سبيله فى الحياة بفضل غريزة قوية .. نومهوجوم .. استيقاظه تحفز .. سكوته بين هذا وذاك .. مخاوفه . (٣١) وكم روعه ذاك الفلاحالمعدم الذى يهوى القتل تحت بواعث الاخذ بالثأر ، وكثيرا ما كان يتحسر لعجزه فى التمييزبين الشابة والعجوز من النساء فى مجتمع ينـدر ان تظهر فيه المراة ... واذا بالملل يستبد به فيالنهاية ويشعر بأن يعيش حياة رتيبة كئيبة لا تسرى عنه سوى الجلسة المتشابهة كل يوم فيالقهوة مع الاصدقاء ذاتهم يتحدث معهم فى نفس الاحاديث التى لا تتغير ، وعادة تدور حول خباياعائلات الزملاء من الموظفين وخاصة حول تصرفات بعض الزوجات المنحرفات (٣٢) فأخذ يتشوقلعمل ينقذه من تلك الحياة القاسية الكئيبة ، واذا بالآمال تراوده فى البحث عن مستقبل آخريبعده عن هذاالمكان يحرره منأسر الريف ،ويطلقه فى عالم اكثر رحابة الى أن صادفه ذات مسـاءاعلان فى صحيفة يومية .. فبينما (كنت راقدا بعد العشاء على السرير بعد نهار أنهك روحىوأن له جسدى .. اقلب **ولا أقرأ صحيفة يومية واذا بنظرى يقع على اعلان لوزارة الخارجية بانها**ستعقد مسابقة تعين الفائزين فيها بوظائف امناء المحفوظات اى سكرتيرين فى القنصليـاتوالمفوضيات » (٣٣) فتيقظت فيه كل الرغبـات السابقة التى كثيرا ما شوقته للحياة فى الخارجحيث تتوافر مختلف المتع الفكرية والثقافية والفنية وكذلك الحياة المتحضرة الراقيـة التىللمراة فيه دور بارز وسرعان مـا (تقـدمت للمسابقة ... ونجحت .. وان جاء اسمى فيذيل قائمة الفائزين .. صدر أمر تعييني امينـا لمحفوظات القنصلية المصرية فى جدة باعتبارهاسواالمناصب الشاغرة وقتذاك) (٣٤) ..

وهكذا حدث الانقلاب الخطير الثانى فىحياةيحيى حقى بعد حدث هجرته من القاهرةللصعيد بعامين من الزمان .. فانتقل من حياة يفيض فيهاالعمل المرهق عن الزمن المحدود الى حياة يفيض فيها الزمن عن عمل موهوم .. (٣٥) فلم يتـأخريحيى حقى فى تسلم المنصب الجديد رغم أنه لم يحقق كل طموحه ويرضى تطلعاته ، الا انه عبـرعن رضاه بالعمل فى جدة بقوله : سأزور الحجاز .. وادرس المذهب الوهابى .. واعرف مشاكلالحج والكورنتينات ... وارى جميع الشعوب الاسلامية .. وبعض كبار المستشرقين .. (٣٦)

---

(٣١) يحيى حقي : ام العواجز : قصة : ازازة ريحة .

(٣٢) يحيى حقي : خليها على الله .

(٣٣) المرجع السابق .

(٣٤) يحيى حقي : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

(٣٥) يحيى حقي : خليها على الله ..

(٣٦) المرجع السابق ..

ـ ٣ ـ

ويبدو أن حياته فى جدة وهى تمتد من عام١٩٢٩ الى عام ١٩٣٠ لم تكن أسعد حالا من حياته في منفلوط . فلقد كتب لي أخيرا رسالةخاصة ذكر فيها شيئا عن حياته فى ذلك الوقت يقول « فقد عشت فى جدة وعمرى ٢٤ سنةقرابة سنتين ... فى جو حار رطب خانق ... بعوض وعرق .. كنت اتعاطى حبوب الكينايوميا .. انام على مرتبة ساخنة داخلناموسية .. استحم فى طشت بماء من صفيحة .. اشتغلبالليل على كلوب اتلف عينى .. ومع ذلك قرات مكتبة القنصلية كلها .. وتعرفت لأول مرة الىالجبرتى ، وكتبت عدة مقالات وقصص لا اذكرها « .. اذ (فى تلك الآونة كان النشاط الدبلوماسى قليلا فرحت أقضى وقت فراغى فيمكتبة القنصلية حتى قراتها عن آخرها ـ وفيها اكتشفت تاريخالجبرتى لأول مرة وفتنت به اشد الافتتان .. فلم اعرف كاتبا او مؤرخا استطاع ان يصور روحالشعب المصرى مثله » (٣٧) فلم يتوقف يحيى حقى وهو فى جدة عن السعى من اجل تعميقمصريته . فاذا به يعيش مع الجبرتى يحوم حول الروح المصرية ويكتب مجموعة من المقالاتفى **جريدة البلاغ** تحت عنوان **((الفكاهة فى المجتمع المصرى))** وقعها باسم **((عبد الرحمن بن حسن))**وهو اسم الجبرتى نفسه . لخص فيها كل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من فكاهة . بعد ان حصرهاوبوبها وارجعها الى اصولها النفسية ، محاولا الكشف عن بعض نواحى الشخصية المصرية .

ولعل اهتماماته بالشخصية المصرية وتعزيزمعرفته بها فى تلك الفترة هى التى شغلته عما يدور في بلاد الحجاز من حياة .. فلم ير هناكسوى « المسلمين يأتون للحج من جميع ارجاء العالم ، فيكونون لوحة شاسعة كان لها اقوى الأثر فى نفسى » (٣٨) ومع ذلك لا نكاد نعثر له عن أى نوع من الكتابات الوصفية التأثرية الفنيةـ التى عرف بها ـ تعطى لنا لوحة قلمية حول الكعبة الشريفة أو الحرم النبوى الكريم رغمشغفهالزائد بوصف كثير من الآثار الاسلامية فىالقاهرة واستنبول « وان كل ما ظهر له من انعكاساتحياته فى جدة لم يتعد كتابة بعض المقالات عن المذهب الوهابى ومشكلات الحج والكورنتينات فىمجلة الرابطة الشرقية ، وهو فى هذه المقالات يكاد يسير على هداية هؤلاء المستشرقين الذينالتقى بهم خلال العمل الدبلوماسى واعجببعقليتهم الغربية المنظمة » ..

وهكذا نجد يحيى حقى في جدة منزويافى مكتبة القنصليه بعيدا عن المجتمع الحجازى.. يقرأ ويقرا محاولا ان يجتر مدى ما توصل اليه من مصرية .. وان ذهب لمشاهدة المسلمين فى ساحات الحج الا ان بواعثه كانت بواعث فضولـ وما أقبل على دراسة المذهب الوهابى الا بدافع ثقافى يريد أن يتلمس مدى قدرة هذا المذهبعلىتطوير الفكر الاسلامى فى الدين .

---

(٣٧) يحيى حقي : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

(٣٨) المرجع السابق .

وما ان تم نقل يحيى حقى من جدة الى استانبول فى عام ١٩٣٠ حتى اتاه الفرج .. فاذا كان قد حبس نفسه في جدة بمكتبة القنصلية فانه فى استانبول خرج الى المجتمع التركى يتصل بالعائلات ، خاصة تلك العائلات التى تمت له بصلة قرابة ، ويزور الاحياء الشعبية ويتردد على مقاهيها وملاهيها ، ويصف آثارها الاسلامية ويعايش الحركة الكمالية .. لا شك فى ان خروج يحيى حقى من جدة الى استانبول أعاد اليه بعض حيويته .. فان قلب يحيى حقى لم يفض بفكر جديد وهو فى جدة ، وان عقله لم ينفعل بحياة اهل جدة ، وعاش على هامش المجتمع الحجازى يتصل أكثر ما يتصل بالمستشرقين الاجانب ، واقتصرت تحركاته على نطاق الاعمال الدبلوماسية .. ولعل ذلك يرجع الى ضرب من الحذر الذى شب عليه يحيى حقى فى معاملاته مع كل من لا يجرى فى عروقه دماء تركية ، خاصة من هم من اصل عربى صرف ، الذين دخلوا معهم خلال التاريخ في صراع مرير على السلطة استمر اجيالا ، فتخوف من أن تظهر العقد القديمة اذا ما دخل فى علاقات وطيدة مع الحجازيين ، أواذا ما حاول أن يتعمق فى فهم المجتمع الحجازى ويتبين ايجابياته وسلبياته ، وفضل ان يكتم انفاس فكره ويضيق الخناق على نبضات عقله حتى لا يتعرض لاتهامات التحيز .. ولكن بمجرد ان استقر يحيى حقى فى استانبول حتى شعر انه يعيش في موطن اجداده الاول ، وانه عاد من المهجر الى بلد له فيه عدد عديد من الذين لهم به صلة رحم .. فلم يعد يحس بأن هناك مايدعو الى الحذر ، وانطلقت تصرفاته فى شتى المجالات يدخل بيوت الاقارب وغير الاقارب من الاصدقاء والمعارف ، ويزور المساجد ويتردد على الآثار الاسلامية .. ويحاول أن يصادق بعض المصريين المقيمين في استانبول ويدخل معهم فى علاقات .. يندمج فى المجتمع الدبلوماسي ويشاركه فى كثير من تحركاته الاجتماعية .. ينفعل بثورة كمال اتاتورك ولا يتردد فى تقويمها .. يقبل على تعلم اللغة التركية لان معرفته باللغة التركية لم تكن تسعفه فى التفاهم مع أهله اذ « لم تكن اللغة التركية تستخدم فى بيتنا الا للسباب في لحظات الغضب » . (٣٩) وقد استطاع ان يتقن تلك اللغة لدرجة انه تمكن من تذوق الشعر التركى وان يتصل بشعراء تركيا ويتعرف عليهم .. ويتابع بوجه خاص تطورات الحركة الكمالية فى عنفوانها يرقب محاولات كمال أتاتورك فى تحويل تركيا من دولة شرقية اسلامية الى دولة علمانية حديثة ينفصل فيها الدين عن الدولة . ويشهد مظاهر تحول حكومة شعب مسلم متدين الى دولة تتجاهل دينه وتعاديه وتعتقد ان التمسك بالدين هو سر تأخر الشعوب ، وتحاول أن تزيل كل ما يمت للدين بصلة ... ويقرأ كل ما كتب عن كمال أتاتورك فاستطاع ان يصاحبه يوما بيوم يشاهده وهو يخطب ويجالسه عندما زار السفارة المصرية فى أنقرة ليسترضى المصريين بعد حادثة اهانة الطربوش .. واذا كانت شخصية مصطفى كمال قد بهرته الا انه اخذ عليه دكتاتوريته ومصادرته للحريات الدينية ومعاداته لرجال الدين وتعطيله اداء فرائض الاسلام ومحاولته اعادة مسجد أياصوفيا الى الكنيسة التى كان عليها أول الامر . ولكنه رضي بحل وسط بأن يكون البناء مجرد

---

(٣٩) يحيى حقي : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

متحف لا هو مسجد ولا هو كنيسة تبطل فيه الصلوات الخمس ولا تعود اليه ترانيم الصلوات المسيحية .. (٤٠) ولعل محاولات مصطفى كمال لقطع صلة تركيا بالدين الاسلامي ـ رمز الحضارة العربية الاولى . تهدف الى ازالة كل ما اخذه الاتراك من العرب .. ولذلك اتخذ خطوات ايجابية من أجل تطهير اللغة التركية من الالفاظ العربية وهي تكاد تصل الى ثلث مفرداتها .. والزام عامة الشعب التركي بكتابة اللغة التركية بالاحرف اللاتينية بدلا من الحروف العربية ، بل أمر بكتابة القرآن الكريم ذاته والآذان بالحروف اللاتينية كذلك .. وفضل ان يرتمي في احضان الحضارة الغربية املا في التطور والاصلاح والتقدم على أن يظل راكدا جامدا في تكايا حضارة العرب وثقافاتهم المتكاسلة ، رغم انه حارب بشراسة الاحتلال الغربي في بلاده حتى طهرها من التدخل الاجنبي.

ولقد تصور يحيى حقى أن مصطفى كمال كره العرب وحضارتهم وثقافاتهم كرها لم يعرف له مثيلا بلغ الحماقة ، اذ ليس هناك « احمق من رجل يهاجم في العصر الحديث دين رجل آخر ، فما بالك بحماقة من يفعل ذلك بأمته على بكرة ابيها » (٤١) واذا لم يثر الشعب التركي ضد مصطفى كمال بسبب نزعته المعادية لدين الاسلام فليس ذلك « خوفا من بطشه انما اكراما له لانه انقذه من التمزق والعبودية واستلاب الاجنبي لارضه . » (٤٢) واذا استجاب الشعب التركي لاوامر مصطفى كمال بهذا الصدد ، فان قلبه ظل يخفق بدين الاسلام وايمانه به لم يتزعزع وان كانت تصرفاته تجامل تعليمات الحاكم ...واذا تحسر يحيى حقى على عداء مصطفى كمال للدين الاسلامي وحرمان الشعب التركي من الحرية الدينية فانه تضايق الى حد الغضب لانه نوعا من العداء للعرب يبدو في اهماله لحضارتهم واعطاء ظهره لثقافاتهم، رغم ان تركيا مااستطاعت ان تحكم العالم العربي ويقبل العرب الخضوع لسلطانهم زمنا طويلا الا بفضل تمسكها بالدين الاسلامي ، حين اهتم سلاطين الدولة العثمانية بأن يتولوا الخلافة الاسلامية ، لأن سلطات الخلافة الاسلامية تعطى لهم من النفوذ والتأثير الروحي ما يضمن ولاء الاقطار العربية للدولة العثمانية .. ولقد كان الدين الاسلامي دوامامن أهم العوامل التى قربت العناصر التركية في مصر من عامة المصريين ، ودعت المصريين الى حسن استقبال الاتراك كلما نزلوا بديارهم حتى لو بفرض الاستعمار والاستغلال .. ولقد ضحى مصطفى كمال بكل هذه الجذور التاريخية في سبيل اعتقاده بأن حضارة الغرب هى حضارة المستقبل ، وان حضارة العرب آخذة في الذبول ولا حاجة لتركيا فيها وضررها يفوق نفعها ..

ولكن ما هو الباعث الحقيقي لهذه الغيرة الدينية عند يحيى حقى ... ! ؟ هل هو باعث روحى صرف ، أو هو باعث يحركه نوع من القلق يخشى انفكاك الارتباط الروحي بين تركيا

---

(٤٠) يحيى حقي : دمعة .. فابتسامة .

(٤١) المرجع السابق .

(٤٢) نفس المرجع السابق .

ومصر ؟ ان هذا الحرص على الدين لم يترنم بهيحيى حقى وهو فى الحجاز مسقط راس الديانة الاسلامية حيث ولد رسول المسلمين عليه الصلاةوالسلام .. وانطلقت منه دعوته الى العالم الخارجى .. وحيث الكعبة الشريفة اقدس المقدسات الاسلامية .. وحيث قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ومقابر آل محمد والصحابةوشهداءالاسلام الاول .. فان كل هذه المواقع المقدسة لم تدغدغ حواس يحيى حقى الروحية كما دغدغ وجدانه مسجد اياصوفيا ومسجد الانصارى الصحابى باستانبول . .واذا كان ازدحام ساحاتالكعبة الشريفة بالحجاج قد بهره واثاره الا ان ذلك لم يدفعه الى كتابات اشبه بكتاباته عن ازدحام مسجد اياصوفيا بالمصلين فى ليلة القدر .. **فالغيرة الدينيةهنا تكاد تكون غيرةارتباط . .!!لا شك فى أن يحيى حقى يعشق مصر عشقا مابعده عشق ، ولكنه يود كذلك لو تظل هناك علاقات وطيدة بين مصر وتركيا وخاصة العلاقاتالروحية .. وان الدين الاسلامى كان على الدوام من أهم** العوامل التى توثق الروابط بين الشعوب وتجدد حيويتها كلما اعتراها فتور بين المصريين والاتراك . . فاذا ما تخلت تركياعن الدين الاسلامى وارتمت فى أحضان الحضارة الغربية فان الذى يقلق يحيى حقى في المقام الاول أن هذا التخلى يقضى على ما تبقى من روابط الوصال بين مصر وتركيا والعرب والاتراك .. ويعز على المصريين الذين تجرى فى عروقهم دماء تركية ان يشهدوا المصرع الاخير لعلاقات تاريخية قاومت القرون ، وأن يستشهدوا على فتور الروابط بين المصريين والاتراك الى حد العدم .. وكل ذلك يضعف من اتصالات المصريين بأقربائهم فى تركيا ويمهد لقطع العروة الوثقى بوطن اجدادهم ... ولهذا السبب بالذات كان يحيى حقى ضد سياسة مصطفى كمال فى معاداة الاسلام وكراهية العرب .. ! !

• • •

الا أن اقامة يحيى حقى الطويلة بين الشعب التركى خلال فترة عنفوان الحركة الكمالية ، وما أثارته من تقلبات فكرية ونفسية ، وما خاضته من تجارب اجتماعية وثقافية اتاحت له من الفرص ما مكنه من أن يدرس جوانب كثيرة من اتجاهات الشخصية التركية السلوكية والاجتماعية ، بينما يشاهد تصرفات الاتراك وانفعالاتهم وميولهم فتكشف له من المفارقات ما لفت انتباهه . . ولعل اهتمامه الزائد بتحليل الشخصية التركية يرجع الى حد بعيد لرغبته فى فهم بعض اتجاهاته الداخلية .. ولعل نجاحه فى فهم هذه الشخصية يمينه أولا وقبل كل شيء على فهم ذاته فهمـا يعرفه بنفسه ... فوجد أن الشعب التركى « شعب غريب يجمع بين المتناقضات » تتسم شخصيته بسمات متعارضة تجمع بين « القوةوالرقة » ورأى في الافراد « عيون بعد أن تبرق بلهب نظرة النمر الجائع تترقرق فيها السماحةوحب الدعابة ... فرض الاعتداد بالنفس يغلو فى مواسم التأدب الاغواتى . . شعب يتوه فى الخيال وترفعه الموسيقى الى السماء ثم لا يحيد فى نظرته عن الواقع العملى والمنفعة المادية ... شعب تنضج فى اغانيه الشعبية بدموع البكاء على الشهداء الذين سقطوا فى ميدان الجهاد ضد روسيا وضد اليونان .. وأشدها حزنا البكائيات على الشهداء

في حرب البلقان .. ثم هو فى الوقت ذاتهيزدرى الموتى والقبور ازدراء شديدا .. لم اشهد طوال اقامتى اربع سنواتفي استانبول جنازة واحدة .. تتم المراسم كلها فى المسجد .. يتقبل العزاء ثم انصراف كلحى لسبيله (٤٣) ورغم انه شعب فشا فيه التصوف وكثرت التكايا وتعددت الطرق الصوفيه.. ومع ذلك فليس فى استانبول قبر لولى من هذا الشعب يزار وتنسب له كرامة » ولذلكفلا نعجب اذا ما تقبل الشعب التركى الغاء التكايا . . ووجد يحيى حقى « بين الكتبالرائجة فى استانبول تتندر برياء الدرويش الذى يزعم انه يلتزم المسجد واذا سئل عنهوجدوه في الخمارة « وكان ذلك من بين الدواعى التى حثت الحكومة على حل الطرق الصوفيهومطاردة » المنتمين اليها مطاردتها للمجرمين المستحقين للشنق » وكذلك شجعت عامةالشعب على الاستهزاء بالدراويش والوعاظ « وما اكثر هزء نكاتهم الشعبية بالوعاظ ودعاة الفضيلةوالكرم وبالوعود المحمولة على الغد لا اليوم » بل ان « مساجد استانبول كلها كانت لا تنطقبشيء عما تنطق به احجارها .. كلها روائع معمارية فحسب .. مقامة على مقابر العظماءمن سلاطين آل عثمان .. لا توحى بأية شحنة روحية .. ورغم ذلك لم أر مثيلا للشعب التركىفى تبجيلة وتحيته واعزازه لشخص الرسول بشرا لانبيا فحسب « (٤٤) .. **واذا انتقل يحيى حقىمن واقع الحياة الدينية الى عالم الرجل والمرأة وجد أن « استعلاء الرجل على المرأة .. فى تركيالا يتمثل الا فى اختطافة لفتاة من قرينه والهرب بها الى الجبال ونوالها عنوة .. فهذا الاختطافهو عنده البرهان الوحيد على الرجولة** .. « (٤٥) وشد انتباهه كعادته أحوال بائعات الهوى فيقول« لم أر مثل البغى التركية في ايمانها بأنها ضحية مجتمع الرجال الذى لا يرحم .. « وتحسر حينشاهد « فى تلك المقاهى الشعبية الصغيرة فى استانبول بين ربى التلال المخضرة المشرفة علىالبسفور او مرمرة اعزازا وتصفيقا لفتاة لم تبلغ سن الرشد .. ولكن خدها مداس للجميع« ثم رثى لظروفها القاسية عارضا لاحوالها المتضاربة « لم أر انسانا ضعيفا مثلها يجمع بينالابتسام والرعب وبين الصلف والمسكنة .. بين الافصاح والاختناق .. بين الطرب والأنين « وكماغاظه مجتمع الرجال لانهم « تقننوا فى تفصيل ثوب لها ..ثوب فنطزية اسمه الذل .. « (٤٦)

هذه هى الملامح الاساسية للشخصيةالتركية كما تكشفت ليحيى حقى في ضوء تجاربة فى استانبول .. ولا شك فى أن اقامته الطويلةفى تركيا التى بلغت ست سنوات على فترتين متباعدتين في استانبول وفى انقره قد مكنته منأن يتعرف على مدى التفاوت بين الشخصية

---

(٤٣) يحيى حقي : دمعة .. فابتسامة .

(٤٤) المرجع السابق .

(٤٥) المرجع السابق .

(٤٦) نفس المرجع .

المصرية والشخصية التركية .. كيف ان تعميق معرفته بالشخصية التركية يعينه على حسن التصرف خلال شخصيته المصرية ، ويكشف له بعض ما خفى عليه من جوانب ذاته الموروثة عن الاصول التركية ، فيتمكن من أن يتحرر من ازدواجية الاتجاهات وتضارب الانفعالات وتصادم القيم المصرية والتركية ، ويحقق شخصية واحدة متجانسة ترتاح لكل ما هو مصرى ولو رفضها طبعه التركى لسبب من الاسباب .. وان طول اقامته بين اهل اجداده لم يحدث فيه اية رجة نفسية ارتدت به عن مصر .. بل لم تفارقه احساسات الغربة وهو بعيد عن مصر .. فان اتضحت له جذور مقوماته التركية فان ذلك لم يمنعه من ان يتعمق فى فهم روحه المصرية فى نفس الوقت الذى يتأسى فيه على هؤلاء المصريين الذين ينحرفون عن طريق التفكير المصرى الاصيل السليم .. !!

— ٤ —

ولقد قرأ يحيى حقى قصة « عودة الروح » لتوفيق الحكيم فاذا بالحنين الى مصر وشعب مصر يعاوده ، واذا به يبعث بمقال عنوانه « توفيق الحكيم .. بين الخشية والرجاء » لمجلة « الحديث » بحلب فى آخر سنة له في استانبول عام ١٩٣٤ . وكانت من أولى مقالاته التى حاول فيها أن يحدد المسار الذى ينبغى ان يسير فيه الادب المصرى حتى يصبح المعبر الحقيقى عن كل ما يختلج داخله من انفعالات وآمال .. فاستهل مقاله بأنه « لعل الاغتراب هو وحده الذى حفزنى الى كتابة هذا المقال » (٤٧) وعاب فيه اتجاهات الادب المصرى التى تغلب عليها الميول الفردية من دون الميول العامة التى تعبر عن روح كلية هى روح الشعب المصرى بأجمعه.. ولذلك كانت اغلب الكتابات الادبية فى ذلك الوقت مجرد صرخات شخصية تدور فى واد لا تجد لها من صدى بين عامة النفوس ... ولقد ذهب توفيق الحكيم باتجاهاته الصوفية في مسرحية أهل الكهف يشيد بأن كل موجود هو من الله .. والله دائم .. فكل ما هو موجود دائم .. وينوه الى أن الزمن هو احدى خصائص عقل الانسان الذى لا يدرك الا بثلاثة مقاييس .. وبذلك حاول ان يمزج بين المواقف الصوفية والنظرات العلمية .. الا ان هذه المسرحية بمذهبها الصوفى العلمى لا تكاد تعبر من قريب أو بعيد عن مشاعر الجماهير ولذلك لم يكن لها اى صدى لدى عامة الناس ، ولم يتجاوب معها الشعب المصرى ككل ، ذلك الشعب الذى كان يمر بمرحلة نضال سياسى واجتماعى واقتصادى يحتاج اكثر ما يحتاج الى عوامل تقوى فيه نزعات الجهاد حتى يستطيع أن يتغلب على مختلف انواع المصاعب التى يضعها الاستعمار لعرقلة نهضته .. وليس فى حاجة على الاطلاق لتقوية النزعات الصوفية التى قد تدعو الى نوع من الاسترخاء ، يستمرىء الكسل والخمول ، ويتهرب من المسئولية الوطنية بداوفع من الانانية التى تحث على قطع صلة الفرد بكل ما حوله طلبا للطهر والخلاص ، فى ظل وهم نظرية صوفية سطحية .. **ولذلك اعتبر يحيى**

---

(٤٧) يحيى حقي : خطوات فى النقد . مكتبة دار العروبة ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .

حقى مسرحية ((أهل الكهف)) مــن المسرحيات الخطرة على شباب مصر ، اذ قد تستهوية بالميول الصوفية، على حين أنه لا خلاص لمصر من الاستعمار ولا نهضة للشعب المصرى من الفقر والتخلف الا على يد جهود شباب مصر الذى يجب ان يبذل كل فرد منه في تعاون ويشترك أقصى ما يستطيع من جهد ، دون نظر لأى نوعية من المنافع الفردية سواء أكانت مادية أو روحيــة .. ولذلــك فاذا كانت مسرحية أهل الكهف بمثابة نجاح كبــير لتوفيق الحكيم كفنان في عالــم الادب فانه لا يكاد يكون لها أى دور ايجابى فى المجالات التى تدعم مقومات الشعب المصرى .. ولا نعجب اذا ما شك يحيى حقى في قيمة مسرحية اهل الكهف بالنسبة لشعب مصر .

واحسب ان يحيى حقى هنا يكاد يكون متأثرا بالحركة الكمالية من جهــة ، وبالنزعات التركية العملية من جهة اخرى .. فان مصطفى كمال قد قاوم التصوف بكــل صــوره ليصرف جهود عامة الجماهير ويركزها فى خدمة تركيا ..ويبدو أن يحيى حقى كان يتمنى فى ذلك الوقت ان يظهــر فى مصر شخصيــة قياديــة مثــل مصطفى كمال تعطى لشعب مصر من الكرامــة والحوافز المادية والمعنوية ما يلهب القوى الكامنة تعمل على رفع قيمة الانسان المصرى .. دون ان تستغرقها قيم غيبية لا تساعد على رؤيــة افصاح الحقائق التى يعيش في قلقها المصريون..

الا ان يحيى حقى تنبه الى أن نزعة التصوف التى تشوب قصة « عودة الروح » لتوفيق الحكيم تتسم بالمحلية خلاف نزعة التصوف العالمية التى تتسم بها مسرحية «اهل الكهف » وهى قصــة تقوم على ديانة الفراعنة تستوحــى اسطــورة اوزوديس وايزيس ، وتتخذ مــن ثورة ١٩١٩ الشرارة التى اوقدت الحياة فى اشــلاء مصــر المتقطعة الاوصال المتفرقة الممزقة الجوانــب ، واعادت اليها الروح التى وحدت جميع الصفوف وشملتها تحت راية مصرية واحدة .. وعرضت هذه الافكار تصرفات عائلة مصرية صميمة ..رغم انها كثيرة الافراد . فلقد كان يعممهم اتحاد ووصال وود .. ولكنهم وقعوا جميعا فى حب فتاة متلاعبة تسكن بجوارهم حاول كل منهــم أن يتقرب اليها على غفلة من اخوانه .. فتوشك المصلحة المتضاربة ان تباعد بينهم .. واذا بالثورة المصرية تعصفهم جميعا وتكتسح حبهم التافة ،وتجمعهم على الوفاق من جديد داخل حب كبير هو حب مصر .. فعادت الروح الى مصر التى ظن الجميع انها ماتت ، حتى ان عودة الحياة الى هذه الروح لفتت انتباه أجنبى فرنسى ..**ويرى يحيى حقى فى هذه القصة صورة صادقة للمجتمع المصرى سواء في القاهرة او فى الريف ،ولذلك لها قيمة واقعية يمكن ان تعود بشيء من النفع . لانها استمدت أصلا من التــراث المصرى القديم من ناحية ، واتخذت من الحياة العائلية الحديثة سبيلا للتعبير عن عظمة الماضي وحيوية الحاضر** .. الا ان يحيى حقى لم يجد فى قصة « عودة الروح » ما يشفي غليله الوطني ويشبع اتجاهاته المصرية الصاعدة إشباعا قويا . فان القصة تريد بصدق وايمان الجمع بين الروح والجسد .. بين المعنى والرمز .. بين البسر والتغير .. بل وتريد كذلك ان تبين لنا كيف تسري الحياة من جديد في جسد مصر .. ولكن القصة لم توضح كيف اسهم كل فرد من افراد الاسرة فى الجهاد الثورى .. كما جاءت الخاتمة

باردة تافهة ليس فيها حرارة الباطن ولا عظمته. فكانت صورة الثورة باهتة مقتضبة كما لو كانت دخيلة على القصة وثانوية بالنسبة لموضوعها ..لم تجد مصريا واحدا يليق بأن تعلق على لسانه بأن مصر التى خال الجميع انها ماتت قد عادت اليها الروح واختارت اجنبيا فرنسيا لكى يشهد على هذا التحول .. بينما جعلت جميع افراد الاسرة بصرعهم المرض ، وتنتهى القصة وهم اشبه بالموتى ، كل منهم لائذ بفراشه .. ورغم ان القصة توحى بأن مصر لا يمكن أن تحيا الا بطلسم الفراعنة . فلا شك في أن استلهام مجد الفراعنة يثير كثيرا من الاحلام الجميلة .. الا ان اسطورة أوزوريس ما زالت بعيدة عن الوعى المصري العام ، وبذلك لا تستطيع ان تستفز روح مصر الحديثة استفزازا قويا فعالا ، مما أصاب القصة بنوع من عدم التوازن بين الباطن الفرعونى المقتبس والظاهر العصرى المستمد من الواقع .فاذا كان الباطن عظيما فان الظاهر لا يوجه اليه العناية الكافية ، وتغلب عليه الوقائع الصبيانية التى لا تخلو من تصنع واستطراد .. فان الادب المناسب لشباب مصر فى هذه الايام ينبغى ان يكون ادب كتاب اقوياء يجلو فيهم حرارة اليقين الذى لا يسلم من وسواس الخشية .. وتكون روحهم مزيجا من الكبرياء والتواضع وخليطا من الحلم بالآمال والشعور بالواقع الملموس .. ينظرون الى السماء ولا ينسون ان ارجلهم على الارض .. (٤٨) .

• • •

وهكذا اصبحت المصرية تشغل يحيى حقى اكثر من اى شيء آخر ، ويكاد يغلب المصرية على التركية بينما هو يعيش فى تركيا الوطن الاول لاجداده ، اذ لم تستطع الحياة التركية بسيرها الحثيث نحو الاستقلال والتقدم ان تستهويه استهواء يجعله يتأفف من مصريته ، بل اعطته دوافع قوية لكى لا يألو جهدا فى سبيل أن يصل بالمصرية الى درجة من الشفافية والوضوح . حتى تهدأ روحه العاشقة لمصر ..ولقد ظهرت قوة حاسته **المصرية درجة قوية من البصيرة الصادقة حين حاول أن يكشف الخلل في مصرية الكثيرين** من المصريين خاصة اذا كانوا من بين المصريين المهاجرين ويشتغلون بمسائل عامة تهم كافة المصريين .. فانه من المعروف عن نجيب الريحانى ان فنه « مصرى خالص صادق قد انبعث من قلب مصر ودل عليها وترحم عنها وارخ لها .. وان الريحاني هو مصر ، ومصر هي الريحاني .. (٤٩) الا ان ازدواج شخصيته وجمعها وبين الاصل العراقى اوالشامى والمصير المصرى يراه يحيى حقى » مفتاح الغاز حياته وتفسير شخصيته .. عاش الريحانى طيلة حياته يشعر بفارق مكتوم بينه وبين المصريين .. وهذا سر وخدته الملحوظة فى حياته العامة والخاصة .. (٥٠) . وان كان

(٤٨) المرجع السابق .

(٤٩) نفس المرجع السابق .

(٥٠) نفس المرجع السابق .

الريحانى من اوفى طبقات المهاجرين الى الشعب المصرى واكثرهم فهما لعاداته وعجائب طبعه فانه لم يسلك الطريق السوى الذى يخدم الفن المسرحى خدمة مصرية خالصة .. وتأثر حد كبير بظروف مصر السياسية والاجتماعية دون أن يؤثر فيها ، وجاراها دون ان يطورها .. عالج عيوبها معالجة سطحية لم تنفذ الى الاعماق وتقتلعها من جذورها .. فلما فكر الريحانى فى تكوين فرقة مسرحية هزلية كانت فرقته تستمد موضوعاتها من هامش الحياة المصرية . ومسرحياتها الاستعراضية لا تكاد تخرج عن انها مجرد مسرحيات « فرانكو آراب » تعتمد على روادمن الليفانتين الاجانب ومن انصاف المتعلمين من المصريين الذين سحرتهم الثقافة الغربية .. ويترددون بين الشرق والغرب وهم لا مصريون او اجانب .. ولما حاول الريحاني ان يطور مسرحه ويعطيه صبغة اكثر مصرية لجأ الى شخصية « كشكش بك » عمدة كفر البلاحى الحديث الثراء بسبب ارتفاع اسعار القطن المفاجىء فأصاب انفاقه ضروبا من الاضطراب ، فأخذ يصرف أمواله بسخاء على اللهو والمتعة ، مما جعله موضع سخرية سماسرة القطن واشباههم واستغلال الراقصات والغانيات .. فاتخذ منه الريحانى موضوع تسلية على المسرح يهزأ من تصرفاته وهو يعبث بين بائعات الهوى ينفق عليهن كل ماله بلا مبالاة ، دون ان يحصل منهن على شيء .. لكى يسرى على رواد المسرح ، واغلبهم من الطبقة الوسطى ، سواء من المصريين او الاجانب المقيمين في مصر .. ولكن سرعان ما مل الجمهور شخصية « كشكش بك » لرتابة الموضوعات والحركات والكلمات ، فاضطر ان يغير من الشخصية الاولى لمسرحياته ويجارى التطورات الاجتماعية ، فاتخذ من شخصية « الافندى » ـ الذى اعده دنلوب فى المدارس المصرية واسلم اليه الانجليز شئون مصر الداخلية ، واخذ يكون طبقة وسطى نامية ينتمى اليها فى الغالب موظفو الحكومة واشباههم ليكسب جمهورا عريضا متزايدا من المصريين ، وحيث ان هذا الافندي لم يألف بعد لبس البدلة او رباط العنق .. ممزق بين الشرق والغرب .. دخله متواضع لايكاد يكفى مطالب الحياة الحديثة .. يعيش بين دسائس الديوان وتحكم الرؤساء وانتشار الوساطة .. فأخذ الريحانى يعبر عن مشاكل هذه الطبقة حتى يبدو اكثر مصرية واكثر تطورا فى معالجة حياة مصر الحديثة . تصور مسرحياته ، المقتبسة من المسرح الفرنسى الرخيص ، هذا الافندى على انه انسان طيب القلب حسن النية وان كان لا يخلو من مكر ودهاء .. لا يريد من الحياة الا السلامة ، ولكنه قادر على الدس والطعن دفاعا عن النفس .. عواطفه حائرة بين حب الفتاة العفيفة المتخلفة والفتاة الحديثة المشكوك في اخلاصها .. ولا يجد ما يتسلى به الا النكت التى تسخر من خداع الناس ونفاقهم وتكشف خبثهم الاجتماعى .. ومع ذلك لا يتخلى عن خلقه الشرقى الصميم الذى يسلم بالقدر والرضاء بما قسم الله .. الا انه عز على يحيى حقى أن يستمد الريحانى مواصفات هذه الشخصية من مسرحيات غير مصرية اعتمدت اكثر ما اعتمدت على المسرح الفرنسى الهابط واقتبست منها اكسد بضاعة بعد أن زوقت بلفائف من التدليس والخداع لاتكاد تخرجها عن اعمال الغش التجارى ، واستوردت لشعب مصر لكى تحبسه فى نطاق هذا الفن المسروق وتفرض عليه ان

يعيش فقط فى متاعب طبقة واحدة هى طبقةالافندية .. « ولولا غلبة هـذه الطبقة على المصرى ما توفرت اسباب هذا النجاح السطحىللريحانى . » (٥١)

ولذلككم آلم يحيى حقى أن يقتصر مسرحالريحانى على شخصيات منحرفة غير سوية .. لا تصور الا ما فى المجتمع من تفكك وضعفوتخاذل وتراض .. تنحصر فى شخصيـــات . ابن الذوات التالف .. والفتى العبيط ...والخادمة الشرشوحة .. والبنت الدلوعة .. والمعلـم لابس الملاســة .. والافندى العجوزالخبيث .. وامراة تركيـة عجـــوز لاضحاك الجمهور على رطانتها العربية تشبها باضحاكالاتراك على شخصية باشا مصرى يقسم بالله بين كلمة واخرى .. ورغم ان هذه الشخصياتهى شخصـــيات مجتمع السنوات الاولى من عشرات القرن العشرين الا انه حز فى نفس يحيىحقى أن لا ترى مسرحيات الريحانى فى المصريين الا اشخاصا طبيعتهم بلاهة ، وغزلهم تلعيبحواجب ، غضبهم سريع واعصابهم مفلوته .. يثورون للتافة من الامور . يستسلمون للحكموالمواعظ الفارغة .. يميلون للردح والتشليق . اذ ان عرض الشعب المصرى يمثل هذه الصورةالبشعة التي تبعث على اليأس من قدرة المصرى على النهوض والتطور والتقدم لا يمكن ان تكونالا خلال نظرة خاطفة متعلجة لاجنبى تخدعه بعض المظاهر فينساق فى الترويج لهـا والالحاحعليها على انها هى كل شيء في الشعب المصرى شأنه فى ذلك شان الزائر الطارىء او المقيم الذىلم يندمج فلم تتح له فرص فهم بواطن الامور فى الشخصية المصرية .. فاعاقت مسرحياتـهالشعب المصرى عن فهم امكانياته فهما صحيحا: وبلبلت كثيرا من المعاني والقيم ، مما عرقل تطورهبما تبثه من ضعف وعجز ويأس ، ومن تشويه للواقع وتشهير بالحقائق .. وبذلك لم يقدممسرح الريحانى خدمة تذكر للحياة المصرية ، ولا شك فى أن ضرره تعدى كل ما سببه مـــنضحك وقهقهة .. واذا كان الريحانى فنانـــا عظيما لم يؤد خدمة عظيمة لمصر . وهـذا هوعيبه الكبير الذى لا يمكن ان تغفره له الحمية المصرية ، ولا يرضى ان يسكت عنـه كـل مـــنيعشق مصر ، ولا يفكر الا في دفع المصرية فى المسار السوى الصميم .

ـ ٥ ـ

واذا لم يرض يحيى حقى عن اتجاهاتالافكار الاجتماعية فى مسرحية اهل الكهف ، وتضايق من ضآلة العواطف الوطنية فى قصة« عودة الروح » .. كما عز عليـــه ان يشـــوه الريحانى ملامح الشعب المصرى ليسلى الاجانبتارة وانصاف المتعلمين من الطبقة الوسطى تارة اخرى .. فانه ايضا لم يغفل عن هؤلاء الاتراكالذين جرى فى قلوبهم حب مصر ، ثم لم تستقم لهم الحياة بين المصريين لسبب او لآخـر ،فتاوه اشـد التاوه مـــن المصـائب التي نزلت

---

(٥١) المرجع السابق .

بالاسرات التركية المصريــة التى ارتاحت الىالعزلة والانعزالية ، واتخذت مواقف سلبيــة انانية من الحياة العامة في مصر ..

ولقد صور لنا يحيى حقى ابرع تصوير كثيرا من الشخصيات القلقة التي تعاني مــن عقــدة الصراع بين المصرية والتركية فى كتابه ((**دمعة .. فابتسامة**)) وفى كتابه ((**ناس فى الظــل**)) ولعــل تحليله لشخصية ((علي بك فوزي)) تعد من اروع التحليلات واشملها لذلك المصرى الذى يشــعر بحنين ضائع لوطن يشعر فى أعماقه أنه اصبح غريبا عنه ... لقد سيطر الصراع بين المصرية والتركية على نفسية ((علي بك فوزي)) فلم يعرف الاستقرار او الراحة ، وظل يقاسي من القلق حتى غاب عنه الهدف الرئيسي الذى ينشده من الحياة . واستولى عليه نوع مــن الضيــاع الروحي لم يسمح لمصريته أن تستغرقه استغراقا تاما ولم يمكنه فى الوقت ذاته مــن أن يســتعيد تركيبته الاولى في صورتها النقية .. وعرض يحيى حقي كل ذلك فى كتابه ((ناس فى الظل)) فى لوحة انتقادية رائعة حاول أن يحلل فيها احوال ذلك المصرى الذى تجرى في عروقه دماء تركية ، ويعانى من اضطرابات ترجع لضرب من ازدواجيــة فى الميول والرغبات والنزعات والعواطف والافكار والمثل ... وبين كيف ان على بك فوزى خاب في أن يوفق بين النزعات التركية ودوافع الحيــاة المصرية ، وبالتالي عجز عن الوصــول الى تلــك المواءمة التى تحقق له السلامة النفسية والاتزان العاطفي والانسجام الفكرى ، الذى لا يشمئز من قبول الواقع المصرى على ما هو عليه والاندماج فيه قلبا وقالبا ، مشاركا الناس مشاركة فعالة ايجابية في كل ما يخطر على وجدانهم من آمــال وأمانى ، وكل ما ينزل بهم من آلام ومصائب ، ولا يدع الاسى على فقدان الجاه والسلطان يشل ارادته ويدفعه لعزلة لا تقدم ولا تؤخر ، تعرقل نشاطه وتجعله يجتر أوهاما بائدة لا تنتهي ، ولن تعود عليه الا بأن تمنعه من أن يتطور مع تطور الاحداث الجارية ، فاذا به يقف عند حد التأفف من كل سلوك هابط .. والضيق من قبح الغباء وغلظة الحس وتبلد الشعور ، والتبرم مــــن الكلمة النابية والنكتة الباردة ، وكراهية الجلف والمغرور الذي يدوس على اقدام جلســائه دون أن يدرى او يبالى .. وهكذا لم يتقبل علي بك فوزى كثيرا من الاوضاع الاجتماعية السائدة بين عامة الناس ، ولم يرتح اليها علــى اعتقاد انهــا تتنافى مع المستوى الحضارى الرفيع المتمــدن والخلق الكريم الفاضل .. فوسع هذا الاعتقاد هوة التناقض بين الاتجاهات التركية والواقــع المصرى ، وادى الى نوع من الانفصام يفصل الفرد عن المجتمع ...

لقد تخرج علي بك فوزى فى مدرسة المعلمين العليا التي كانت تعتبر في ذلك الوقت اقل المعاهد العليا شأنا ، خاصة بين الطبقات الشركسية التي ينتمي اليها ، على اعتبار انه من سلالة المماليك ولما جاء ترتيبه الاول بين المتخرجين أرسل الــى بعثة لانجلترا على نفقة حكومة مصر ، ليدخل مدرسة اكستر التى لا تصل الى مستوى جامعات كمبردج واكسفورد التي لا يدخلها الا ابناء القادرين من الاعيان المصريين على نفقتهم الخاصة .. وكل هذا امتهان وظلم لابن من ابناء الانساب العريقة

التي كان لها الحكم والسيادة فيوم من الايام ... وما ان عاد من البعثة الى مصر واشتغلبالتدريس حتى اصطدم بتحكم « مستر دنلوب » الانجليزيمستشار وزارة المعارف والمهيمن عليها هيمنة تامة ... وتحركت فى داخله كوامن السخطعلى الاحتلال البريطاني الذى ازال كثيرا من نفوذ العناصر التركية ونافسها منافسة خطيرة تهددمستقبلها ، فأحس بانه يقع تحت وطأة الظلم الاستعمارى الذى اضاع هيبة العناصر التركيةواضعف مكانتها بين المصريين .. فى حين ان على بك فوزي رجل رفيق مهذب شديد الحساسيةمتمدن يتبع اساليب الحضارة .. ذكي الفؤاد مغترف من الثقافات الغربية والعربية .. صاحبذوق فني وادبى يعشق الطبيعة ويتحسس جمال الالفاظ .. وقف علمه وثقافته ومواهبه فى اولالامر على تعليم تلاميذه لا المنهج فحسب ، بل كذلك معنى النخوة والرجولة والشهامة والاعتزازبالوطن وامجاده .. ومعنى التبرى من التعصب والغرور والصلف والكبر الفارغ .. ومعنىالاستمساك بالعدل وكراهية الظلم حتى قدره تلاميذه تقديرا عظيما واخلصوا له الود والحب. . الا انه لم يشعر بالسعادة لمثل هذا التقدير وذلك الحب ، لانه كان يحس على الدوام انهمغلوب على أمره يعمل تحت ظل الاستعمار الذى تشخص أمامه فى شخصية مستر دنلوب الكريهة، وان رضاه بالسكوت عن استبداده دون مواجهة يناقض الدروس الاخلاقية التي يلقنها للطلبة ، فهرب من مهنة التعليم ودخل فى مهمة الوظائف الادارية حتى بلغ منصب السكرتير العام لوزارةالزراعة وحصل على رتبة البكوية ... ولكن رق الوظيفة الادارية تحت الاحتلال قضى على كلما تبقى من قوة الاحتمال ونفد صبره ، فمال للعزلة والتبحر فى دراسة التصوف ... لانهلم يكن عنده القدرة على ان يعلن الثورة ضد الاحتلال ويقاوم الاوضاع الفاسدةويعترض علىسياسة الحكام ويقوم تصرفات المحكومين .. بل لم يكن أمامه الا ان يتخذ موقف الرفض ، وهوموقف سلبي يلجأ الى عزلة قد تشبع ميوله في التصوف وتعفيه من اللوم ، وتنفي عنه المسئوليةالناجمة عن الاشتراك فى أى عمل من الاعمال ، وتنقذه مما يتفشى بين الناس من احقاد وخسةووضاعة ، الا انها حطمت كل جسر يربطه باهتمامات الناس ، وجعلته يعيش فى امتعاضكامل لكلما يدور حوله ، سواء من تسلطالانجليز أو من استعلاء الاجانب على المواطنين ، او منتخبط سياسة الوزراء او من نهب الخديو للبلاد .. أو من تفشى الفلظة واللجاجة والوقاحةوالغش والمكر والخبث بين العامة .. فاذا بالشعور بعدم الرضا الذى ادى به الى العزلةيتحول الى سخط ، والسخط يصبح امتعاضا يشعره بأنه ليس له مكان فى هذا البلد فترك مصرهربا من كل هذه الاوضاع التى لا يرتاح اليها .. ولكن ما ان خرج من مصر حتى وجد نفسه فىمهب آلام ضارية تعصف به من كل جانب .. فما استقر فى بلد الا واحس بالغربة وعاش فى عذاباشد من عذاب الحياة فى مصر ، فلم يصبر على الاقامة فى المانيا وسرعان ما هاجر الىاستانبول لعله يجد فى بلاد ينتسب الى اهلها بنسب من الاصل بعض الراحة بين آل اجداده ،ويحس بنوع من الامان والاطمئنان يخلصه من الشعور بالظلم والاضطهاد والمهانة .. ولكن ظلحبيس عزلته وصراعاته ، تبدو عليه مظاهر

الأعياء من ارهاق نفسي رهيب .. تشقيه الوحدة في الشيخوخة وتضنيه الهزيمة بعد ان ضاع الامل في كل شيء ، ولم يعد يبالي بالتقدم او التخلف بالحياة او بالموت فلا الحياة في مصر اعطته ما يريد ولا العودة الى الوطن الاول ردت اليه ماظن انه فقده في مصر .. وما أن اشتد به المرض حتى اضطر للعودة الى الوطن الذي نشأ فيه وتربى ليموت ويدفن في مقابر اسرته .. ولقد شيع جنازته خلق غفير من تلاميذه واصدقائه وكل من سمع عن مكانته وجهوده ليشهدوا العالم على ان مصر لم تبخل على هذا الرجل بالتكريم والتقدير ، ولا تنكر فضل من قدم لها خدمات جليلة ، حتى ولو تنكر لها واعطاها ظهره ليخفي معالم الغضب والضيق والرفض والامتعاض.(٥٢)

الا ان يحيى حقي لم يكتف بأن يعرض مشكلة تعثر العناصر المصرية التركية في تعميق مصريتها عرضا واقعيا من خلال مشاهداته وملاحظاته هنا وهناك في مصر وتركيا ، وفي مختلف الاوساط التي اختلط بها واجتمع فيها مع عناصر تتضارب في داخلها التيارات المصرية التركية من الاقارب والاصدقاء والمعارف .. بل اهتم ايضا بمعالجتها كفنان القصص المتميز تاركا مطلق الحرية في العرض والوصف والتحليل لشخصيات موجودة فعلا في المجتمع المصري ، دون ان ينبه الى اصولها التركية الا بالاشارة او الرمز ، محاولا يبرز مجهوداتها المتواصلة من اجل الاندماج في المجتمع المصري اندماجا كليا خلال شتى مراحل تطور تفكيره .ونخص بالذكر هنا ثلاثة نماذج مختلفة تناولها في « قنديل ام هاشم » وهي شخصية « داود افندي » في قصة « السلحفاة تطير » .. وفي مرحلة « صح النوم » وهي شخصية « القزم معزوجته » .. ثم في مرحلة « الفراش الشاغر » وهي شخصية « فتى العائلة » .

ا ــ اما عن شخصية « داود افندي » في قصة « السلحفاة تطير » فهي تصور لنا كيف ينزل المجتمع العقاب بكل من يعتزل الناس ويعيش بعيدا عنهم ولا يشاركهم في معارفهم وانفعالاتهم ، فيتعذر عليه الاندماج اندماجا ايجابيا فعالا في الحياة العامة ، فيجانب تصرفاته الصواب ، اذ كثيرا ما تختلط عليه الامور ويقع فريسة الحقد والمكر ، فيتصرف بحماقة قد توقعه في مشاكل تضيع عليه كل شيء وتفرض عليه ضربا من التأقلم تفقده مقومات شخصيته الأصلية المتوارثة ، دون ان يمنحها أصالة جديدة ويغرقها في تقاليد بالية متخلفة ... ويصر يحيى حقي على أن « داود افندي » شخصية خيالية ، الا أنه يؤكد من حين لآخر انه ليس شخصية خرافية بل لا ينفي احتمال وجوده بيننا حيا يرزق .. وداود افندي كما يصوره لنا يحيى حقي احد اولاد الذوات الذين ورثوا عن وارثين عن وارثين .. فكان من المعقول ان يفتقروا طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل « فأصبحوا كالحيوان البرمائي لا هو هنا ولا هو هناك .. فهم لذلك اسرع انقراضا »(٥٣) يتشبث

(٥٢) يحيى حقي : « ناس في الظل » كتاب الجمهورية العدد ٢٨ يوليه ١٩٧١ القاهرة .

(٥٣) يحيى حقي : قنديل ام هاشم .. قصة السلحفاة تطير :دار المعارف ـ القاهرة مجموعة اقرا رقم ١٨ .

بأن يسكن فى ملكه بدار قديمة فى حارة مسدودة ،مع ان له استحقاقافىوقف ورثة عن أم أمه او جد جده ، يمكنه من ان يعيش في حى افضل .. هوبالنسبة لجيرانـه غنى ولكنه في الواقـع فقير .. يعتز بأصله الذي يغنيه فيستريح ولا يسلكه فىالفقراء فيريح .. ان هو ككل اولاد الذوات الذين تربوا فى آثار عز سالف .. نجد فيه مـع الكبرياءوالانفة كثيرا من الاخلاق الصبيان وقلة الدراية بالحياة فى معتركاتها .. بما فى العالـم الخارجىتمسكا بالماضى .. طيب كريم مع معاونة .. ينفر مـن الفريـب .. اهـل الحارة تجلـه لغناه ..وتستعبطه لنزوله الى مستواهم،ويتعجبون كيف يجد لذة فى ان تصافح يـده الناعمة النظيفة يداصلبة خشنة كيد العمال ...

ولما حدث ان استدعى لقسم الشرطة بسبب مخالفة القاء ماء قذرفىالطريق وهو يجهل اسلوب التعامل فى المجتمع الذى يعيش فيه ـ فاذا بعامل تعود الجلوس معـه ويتظاهر بصداقتـه يستفزه ويسهل عليه اثارته ضد سوء معاملة رجال الشرطة لعامة الناس ، ويبدي رغبته فى الذهاب معه الى قسم الشرطة ليكـون فى عونه .. الا انه لـم يف بهذه الرغبة .. وكان الجاويش فعلا من الفظاظة وقلة الادب بحيث لم يستطع داود افندى ، بمـا فيه من الكبرياء وقلـة الصبر ، ان يقبل ان يهزه الجاويش هزة توقـع طربوشه علـى الارض امام عدد كبير من الناس .. وصمم على أن يرفع دعوى تعويض بقرش صاغ واحد كرد شرف .. وما كان من هذا العامـل الا أن سايـره وشجعه علـى ان يستمر فى مقاضاة الجاويش .. ولم يتاخر هـذه المرة في الذهاب معه الـى المحكمة . لما رآه وجلا مضطربا رغم انه اعتقد ان العدالة تقتضى ان يدفع داود افندى ثمن تعاليه وابتعاده عن محيط الحياة التى يعيشها المكدودون المتعبون من عامة الشعب المتصببون عرقا في زحمة الحياة القاسية ، اذ ان قلبه رق له عندما اشتد به القلق .. ولكن سرعان ما اعتاد داود افندى المحاكم بعد أن تكرر تأجيل جلسة الدعوى مرة بعد اخرى.. واذا به يصاحب وكلاء المحامين الذين وجدوا فيه صيدا ثمينـا يلتفـون حولـه ، يحتسون القهـوة والشـاى ،ويدخنون النارجلية على حسابه .. ويجد متعة تصل حد الهواية فى عمـل المحاكم دعتـه الى ان يشارك وكلاء المحامين فى احاديث القضايا ويدخل معهم جلساتها لمجـرد الاستمتاع .. مما اغـرى صديقه العامل بأن يعرض عليه بأن يتكلف برفـع دعوى لقريب له معدم يستولي رجل ذو بطش وسلطان على ملك واسع له نظير اقتسام ما يحكم به مناصفة بينهما .. فوقـع فى المصيـدة واذا بشهامتـه وطيبته وجهلـه تبسط له الامـور ، وتدفعه لان يظهـر كامل استعداده ليصـرف على هذه الدعوى حتى ولو رهـن مصاغ زوجته .. ويورط نفسه فى مشاكل الآخرين غرَّقه فيها هذاالعامل عن حسن قصد او سوء نية ، اذ انه يدعى انه ما اراد الا خير الجميع بان يخـدم الاثنين معافيشغل داود افندي اوقات الفراغ فى عمل يعود عليه بالنفع ويرجـع الملك المغتصب لقريبه ...ولكن وكلاء المحامين تزاحموا حـول داود افندى يستغلونه ويستنزفون امواله ، كانهم يريدون ان يستردوا دينا بطريقة غير مباشرة او يستعيدوا اموالا كانت لهم سلبت منهم بطريقة أو بأخرى..

فكان داود افندي ضحيــة انتقام جيــل مما سبق فعله اجداده بعامة الفلاحين واستغلالهم لكافة المصريين وخداعهم لهم وسلب اموالهم ..وهو لا يدرى كيف يتصرف بحكمة وقورة .. بل تستولى عليه كبرياء وانفة تجعله يعيش فى الماضى اكثر من الحاضر .. وتدفعه لان يعتز بأصله الذى لا يغنيه ، ولكنــه يتشبث بــه لمجرد انــه يريحه ويرتاح الى المشاعر التى توهمه بانه ما زال ابن عز من قمة راسه الى اخمص قدمه ... « عجبت من همه التافه .. ولكن كثيرا مــن الناس الطيبين لا يسلمون فى بعــض الاحيان من الوهــم والشك فى براءة ماضيهم ... فتختلط فى اذهانهــم الرغبة بالحقيقة ... أم هم يستيقظون فجأة الى انــه ليــس هناك دليــل واحــد على أن الحياة غــير مزدوجــة .. ؟ لا يستطيع ان يكــون واثقا كــل الوثوق من ان ليس له فى الوقت نفسه حياة أخرى كالاحلام .. لا يشعر بها كما لا يشعر بما حوله من ركبه الدوار في حياة تتصل طي ضباب كثيــف بحياة اشد غموضا لكائنات اخرى .. (٥٤) .

ولكن سرعان ما طحنته الايام وضاع بــين الاحداث وتاه فى خضم المشاكل ، بسبب جهله بالمصريين وبعده عن الحياة المصرية وتقوقعه داخل عادات واتجاهات تأبى عليه الخــروج مــن داره القديمة بالحارة المسدودة .. ومــع ذلك اجبر فى النهاية الى ان يندمج فى الحياة المصرية رغما منه ولكن من الباب الخلفى دون ان يتحرر من مشاعر الغربة .. وان بدا انه اخــذ يجارى بعض المظاهر السطحية للحياة المصرية .. بخلاف جاره ذلك العامل الذي نشأ نشأة متواضعة ولا ينفك يعرض عليه خدمات لا ينجزها ، بل يورطه فى مشاكل مدعيا أنه يقصد مساعدته ... يركز اهتماماته نحو التخلص من وسط عمال اليوميــة ليلحــق بطبقة الافندية أصحاب المرتبــات الشهريــة .. واخيرا نجح فى تحقيق رغبته بعد الحاح واراقة ماء الوجه وتخلص من ماضيه الكريه كله . حتى الحارة المسدودة تركها وسكن المنيرة .. بينما انحدر المال بداود افندى .. واذابه يشاهــد يجلس فى مطعم أمام طبق فول مدمس بجلابية وجاكيته ، تجمع اصابعه بلقمة حبــات الفــول ويعجنها فى الزيت ثم تحملها كتلة واحدة كالكرة الى فمه .. ويتجشأ برائحة البصل الاخضر والفجل .. وهو الذي تعود تذوق ضروب مــن الموسيقى الرفيعة يتأنق فى ملبســه ولا يأكل الا اخف أنواع الطعام ، امعانا فى اقهار احساساته بأنه يختلف حقا عــن عامة النــاس .. وما ان شاهده العامل وهو يأكل فى مطعم الفول حتى اظهر انشراحه وسروره لهذا التحول فى حيــاة داود افندى . اذ تأكد ان صحة داود افندى آخذة في التحسن ، وانه تخلص مــن امــراض معدته التي يشكو منها .. ولكن ما ان تقدم اليه لتحيته حتى نظر اليه داود افندى نظرة تجمع اقصى ما تستطيع ان تستوعبه مــن الكراهيــة والتأفف والبغض ويصرخ شائحا بوجهه : « روح الله يخرب بيتك زى ما خربت بيتى » (٥٥) .. وهكذا القى داود افندى مغبة كل ما وصل اليه

---

(٥٤) نفس المرجع السابق .

(٥٥) نفس المرجع .

من حال على هذا العامل البسيط الذى أصبح افنديا .. ولا يدرى لماذا يكن له داود افندى مثل هذه الكراهية وذلك العداء ، مع أنه حاول ان يقدم له كل ما يستطيع ان يقدمه لـه مـن خدمات .. ولم يعرف ماذا فعله حتى يلقى منه مثل هذه المعاملة القاسية .. ! ! !

ب ــ ان تفسخ شخصية داود افندى لم تغادر ذهن يحيى حقى .. فما ان قامت ثورة ٢٣ يوليه حتى دعته ما احدثته هذه الثورة مـن تغييرات جذرية فى المجتمع المصري الى وضـع قصة « صح النوم » ليحلل نماذج من الشعب المصرى قبيل الثورة وبعيدها .. واذا به يهتم بان يكون من بين الشخصيات المصرية الصميمة شخصية التركى المصرى ، على اعتبار انه ظاهرة اجتماعية تعيش فى المجتمـع المصـرى تحتـاج للوصف والتحليل والدراسة .. ويقع اختياره على قزم قوقازي يتناول تصرفاته قبل الثورة هو وزوجته فى لوحة من القسم الاول لصح النوم سماه « كتاب الامس » كما تتبع تطورات هاتين الشخصيتين بعد الثورة فى القسم الثاني مـن هذه القصة الذي سماه « كتاب اليوم » ، محاولا ان يكشف عن المزيد من ملامح الشخصية التركية المصرية فى ضوء المتغيرات الجديدة ، لتتضح لـه خبايا دخائلها عن طريق ملاحظة كيفية تكيفها مع كل ما يقع من تغييرات اجتماعية ... ولعله فى ذلك يريد ان يصل الى معرفة نفسه أولا وقبل كـل شـيء حتـى يجنبها التخبط والتورط والارتباك ، ويحفظها من الضياع الذي ليس بعده ضياع .. ! !

وكان يحيى حقى فى تعرضه للقزم وزوجته اكثر صراحة فى تحديد اصولهما التركية .. لـم يقف عند الرمز والاشارة ... واذا به يصـورلنا رجلا بلغ من قصر القامة حتى كاد يكون قزما .. يعد نفسه من أبناء القرية بينما هو حفيد اسرة من برارى آسيا ، تركوا الوطن وهاجروا الى مصر وتقربوا الى حاشية السلطان الذى أقطعهم ارضا فسيحة فى تلك القرية التي يدعى أنه من ابنائها ... بنت الاسرة فى هـذه القريـة دارا فخمـة كان اثاثهـا وتحفهـا حديث الاهالـي ودهشتهم .. ومع ذلك لا تقيم فيها الا حـين تجىء مع جمع المحصول ، ثم تعود الى العاصمة بعد قبض ثمنه « وشاء ربك مالك الملك ان يخلف الآباء ابناء اضاعوا ما ورثوا ، واخذت الارض تتناقص اطرافها ، ويد الخراب تمتد الى المنزل .. ولم يبق لسلالة هذه الاسرة فى وقتنا هذا الا ثلاثة أفدنة وحجرتان نوق مدخل الدار لـم تتهـدم جدرانها .. » (٥٦) ومن أجل هذه التركة بذل حفيد هذه الاسرة جهدا كبيرا ليفوز بمنصـب امين مخزن السماد الهين ومرتبه الضئيل ، حتى يستطيع ان يعيش هو وزوجته فيما تبقى مـن المنزل ويراقب ارضه وينتفع بخيراتها .. وحتى لا تردد زوجته ما تدعيه من انها تزوجت عاطلا .. كما يعيش في وسط اناس يعرفون قدره واصله .. فتتم له كرامة وعمل وجاه .. لم يكن قد تبقى في أسرته من الرجال الا هو .. يلتف حوله عدد قليل من النساء بعضهن ارامل واغلبهن عوانس وكلهن مصابات بأمراض شتى .. يعشن جميعا

(٥٦) يحيى حقى : « صح النوم » .

فى فاقة متسترة فى منــازل مختبئة فى ازقـــةالعاصمة .. ولما ترملت واحدة من تلك القريبات وخلف لها زوجها المرحوم ثروة غير يسيرة قبــلالعزم ان يتزوجها بعــد ان وضعت يــدها على التركة رغم انها ضخمة الجثة ذميمة الخلقة بشعةالصورة .. وادعى انه ما تزوجها الا قياما بواجبه كزعيم للاسرة اذ ليس لها احد غيره .. وقبلت انتذهب معه للقرية .. الا انها اقامت فى دار حسنة جميلة فى اطراف القرية يدفع لها ايجارا يوازيمرتب الزوج .. ثم جاء بأثاث لا بأس به يدل على سعة العيش واستعان بخادم اسود ، وهو ترفلا تعرفه القرية ...

وما استقر القزم فى القرية حتى اخذ يرتادعلى الحان ويتردد على فتاة من بائعات الهوى فى عاصمة الاقليم ، يبعثر نقوده التي يبتزها مــنزوجته بعد عراك وصياح ويواجه عقبها من اسرافه بغضب اشد ارهابا ، مدعيا بأن الديون قد كثرتعليه وينبغي ان يسددها فلا تقوى على احتمال رؤيته مغموما فتجود عليه بما يسأل ... ولكنجاء يوم ونفد فيه صبر الزوجة ويئستمنعلاجة .. فاذا بها هي الاخرى تحاول ان تبعثر نقودهاوتوزعها على جيرانها المأزومين والمساكين ، قبــل ان يستولى عليها ويصرفها على الخمر والنساء.. واخذت تتوسع فى الاحسان فرتبت لاســر فقيرة اعانة شهرية لا تنقطع .. وتكفلت برعايــةبعض ايتام القرية ، وتقدم لهم ما يحتاجون اليه من مأكل وملبس وتعليم .. وتهــرول لمساعدةالمرضى بالهدايا والمال .. فذاع صيت كرمها بعد انعم خيرها اهل القرية واحبها الناسحبا جما..واخذوا يضربون بها المثل فى النبل والعطف علــى الفقراء والمساكينوصارت دارها مقصد المحتاجينوملجأ المعوزين ... ولكن كثرة انفاق الزوجــة خفف النقود فى يد القزم واذا به لا يقدر على زيارةعاصمة الاقليم الا مرة واحدة كــل اول شهر ، وان لم ينقطع عن الحان فانه اخذ يباعد بين الكأسوالكأس ويكثر من التحدث عن نكبته فى تلـــك الزوجة المتلافة التي تبعثر نقودها علــى الغرباءوتبخل على زوجها ، رغم انها تعلم ان كثيرا مــن قصادها من النصابين والادعياء .. ومع ذلــكاحيانا ينجح في الصول على مال منها بطريقة او بأخرى ، وسرعان ما يندفع الى الحان ويشــربحتى الثمالة ، ويجبر جميــع رواد الحان على الشرب على حسابه ، وويل للذي يرفض .. انهيجمع بين المهابة والعربدة يصر على ان يحترمــه اهل القرية حين يتبسـط معهم .. ويثور اذا لــم يتبسطوا معه حين يزور عنهم متعجرفا ...

وكان هذا بالامس .. ولكن مــا ان جــاءالاستاذ ــ ابن القرية المثقف ــ وتولى حكم القرية وبدأ اصلاحاته باغلاق الحان والــزم الجميــعبالاستقامة حتى تبدلحال القزم وزوجه .. فاذا به يحرص على الخروج من داره فى الصباح بعدان تاب عن شرب الخمر حرصا على النقود ، بل لم يعد ايضا يهتــم بحسن هندامــه ، فذهبتاناقته وتبهدل مظهره بعد ان انصرف كل تفكيره الى استرداد الارض التي اضاعها الآباء بعد انورثوها من الاجداد « كانت ارضنا مربعة الشكل .. خير اراضي القرية .. فأنا الآن لا افكر الا فىاسترداد هذه الارض .. وان ارى ارضنا عادت

مربعة الشكل كما كانت .. كان الجزء الناقص مقطوع من قلبي .. اذا عادت لى سأكون اسعد خلق الله ... ومن اجل ذلك قررت انا وزوجتي ان نوفر كل قرش وكل مليم لشراء هذه الارض. وبذلك انتهى كل نزاع وخلاف بين الزوجين لما توحدت اهدافهما وخططهما .. واخذت الزوجة تدخر ايرادها كله حتى تمكن زوجها من استرداد ارض - اجداده .. وقبلت ان تتحمل في سبيل ذلك كل مشاق العمل المنزلي بعد ان استغنت عن الخادم ، ولم تعد تبالي بمساعدة احد .. لا يهمها سوى ترقب اليوم الذي تحلم به هي وزوجها .. وهو يوم تربيع الارض ..

فما الذى بدل الاندفاع والعجزة والتبذير والحماقة عند القوم الى حرص وتقتير واهمال المظاهر .. ؟ ولماذا انساقت الزوجة وراء الزوج في مثل هذه التصرفات ، ورضيت ان تتخلى عن الاحسان والعطف على الفقراء والمحتاجين ؛ وقبلت العمل المنزلي الشاق دون عون خادم وهي التي نشأت على الترف والرخاء .. ؟ ولماذا هذا الاصرار على تربيع الارض .. ؟ **لاشك ان هناك انفعالات عميقة هزت شخصية المصرى التركي تنبه يحيى حقي الى تطورها القريب بعد قيام ثورة ٢٣ يوليه التي نزلت نزول الصاعقة على كثير من العائلات المصرية ذات الاصلاب التركية بسبب ما احدثته هذه الثورة من تغييرات اجتماعية واقتصادية** فاذا بكثير من هذه العائلات تجد نفسها فى العراء بلا ارض او مال بل بلا سند من السلطان بعد الغاء الملكية واصدار قوانين التأميم وتحديد ملكية الاراضي الزراعية .. اذ احدث كل ذلك ضربا من الفزع الفكرى ما جعل مثل هذه الشخصيات تنكمش انكماشا اجتماعيا مريضا يتخلى عن القيم التي تتمسك بها وتعودت عليها، فتنكرت للاحسان ومساعدة الاخرين وحسن معاشرة الذين يحيطون بهم ، وحبست انفاسها فى احلام الماضي تحاول ان تحقق آمالا بالعزلة والحرمان من تلك المتع التي كانت ملك ايديهم فى ذات يوم بدون مقابل من الجهد والعرق ...

الا ان يحيى حقي لا يترك قارىء « صح النوم » دون ان يشعره بانه ما زالت في جعبته تحليلات تخص الاسر التركية المصرية لم يفض بها بعد ... واذا به يفاجئنا بقصة « الفراش الشاغر » فنجد فيها من الكآبة والبشاعة ماتشمئز منها النفس على غير ما تعودنا عليه ... فاذا كانت صراحته وسخريته لاذعة فان عرضه للخراب الروحى الذى اصاب اسرة شارع الريحان يثير الفزع المخيف .. ويتعدى مرحلة الضياع التي كانت تعيشها اسرة القزم .. وتنذر بخراب يبعث على نفور انساني مروع من واقع حياة كريمة نتنة ، يئن فى اعماقه من تأوهات تشكو من ظلم الانسان للانسان على مدى اجيال واجيال خلال احداث ومحن لاذنب فيها للجيل الحالي المتخاذل المتواني ، الذى استسلم لوهم بأن الاقدار هي التي شاءت وهو لم يشأ شيئا على الاطلاق .. !!

(٥٧) نفس المرجع السابق .

ولكن يحيى حقى لم يرد ان يكون واضحاكل الوضوح فى قصة ((**الفـراش الشـاغـر**))
ولذلك لجأ الى الرمـوز الرهيبة التى تهـول فيإثارة القرف من مصير أسرة شارع لريحان التى
هوت الى حضيض خلقى يحط من كرامةالانسان.. واستباح لنفسه بأن يستعين بشتى الصيغ
البلاغية من تشبيه واستعارة وتوريـة وكناية ..يخفف بما يتعمده ايهام واعمال فكر من وطأة
البيان المباشر عن الفحش والفسـق والخسة فيالانسان .. !!

اذ تصور لنا قصة ((الفراش الشـاغر))مدى مـا وصلت اليه اسرة مصريـة ـ هى فى
الاغلب من أصـل تركى كانت تسكن بشـارعالريحان ، وهـو أشبه بحـارة في حي شـعبى
تتزاحم على جانبيه كثير من الدكاكين المتلاصقةالفقيرة .. من بينها دكـان حانوتى يقـع قبال
بيت هذه الاسرة التى تتكون من اب وام وولد ،وحين تعيش فى يسر وترف وسط اسر مطحونة
وعمال فقراء ... ومع ذلك تركها الجيران واهلالشارع فى حالها لما بدا لهم ان افرادها على قسط
كبير من الحياء الذى يجعلها تفضل ان تعيش فيعزلة وراء ستر .. الا انها لم تستطع ان تخفـى
ما ترتع فيه من سعادةورفاهية وترف، اذ تفيضمظاهرها في المواسم والاعياد بنور الفرح الـذى
يتدفق من النوافذ وما يصل الى اسماعهم مـنخلجة الضحك .. كما انه كثيرا ما تقف سيارة
فاخرة من حين لآخر امام باب البيت وينزل منهارجال يتأسون لحاله لما يصدر عنه من تصرفات
غريبة ..

الا ان هذه الاسرة فى الحقيقة تميل الـــى((نفض اليدين من دنيا الناس .. هى عنـدهم
زنابير لا امن الا فى تجاهلها ..)) ـ وتعتقد انالعيش،ليس خطا عموديا يرتكز جديده علىقديمه
ويتسع الافق كلما علا .. ولا قوس دوران فلكشروق ثم سمت فانحدار فمغيب بل تقف نظراتهم
الى الحياة عند حد انها مجرد خط افقي ابيضمستقيم ترسمه نقط سود متشابهة ضاع لونها
من شدة تلاحمها ولذلكآثرتهذهالاسرةالانسحابمن دنيا الناس ، فأفرغت حياتها من كل مضمون
ايجابي ... ومضت تحيا فى السلبية ... انهم يخشون الجهد ... فيؤثرون حياة الشح والجبن
لانها دائما مضمونة...اما ان تكون كريما وشجاعاعلى الدوام فهذا ليس مضمونا (((٨٥) بلــغ
ترفهم درجة ان ((طعامهــم تمضغه لهم قبلهــمالمفارم ويد الهاون .. يأكلون اللحم والخضروات
كلها عجينة واحدة مهروسة ، ويجدن لذة مذاقهافى ضياع طعم اجزائها .. فالشيوع عندهم نجاة
من مقابلة وجها لوجه لنعمة مخلوعة العـذار .(٥٩))) واذا كان الحق يقتضى ان يشكروا الله
على هذه النعم .. الا انهم يتنكرون لها وينكرونهامما يوقعهم فى وضع متعب ، يفتح على مصراعية
كل ابواب الفكر ، رغم انهم اكثر من غـيرهممعـرفة بقـدر هذه النعم وينبغي ان يكـونوا
اشد امتنانا لها ... واذا زعموا انهم ((كفوا عنالاعطاء خشية نوال عوضـ يفرقهم يجذبـه او

(٥٨) يحيى حقي : الفراش الشاغر .. مجلة الكاتب ..ابريل ـ ١٩٦١ ـ القاهرة .

(٥٩) نفس المرجع السابق .

يمتصهم بفيضانه وادعوا انهم بذلك امنوا التفجع وضرب الكف لدمامة العقوق من الآخرين الا انه بهذه المزاعم وتلك الادعاءات لا يخفون الا خسة **أرواحهم هم أنفسهم وهي تنهيب عن الاخطاء حتى تبقى على ما هى عليه من حنق** الشح وخوره ..وتبعد عنها ما استطاعت سماحة الكرم وشجاعته .. ولذلك « اذا ما خلوا الى انفسهم يشعرون بأن ايامهم قد سقت اسماؤها » وتشابهت ولا ينتبهون الى ما بينها من فروق .. ولايحسون بحيوية حدث من الاحداث الا اذا ارتبط « بدوران ظل أو بترديد صيحات الطيور المهاجرة (٦٠) .

ورغم ما تعيش فيه هذه الاسرة من غربة تكاد تفصلها تماما ــ سواء أكان فكريا أو عمليا ــ عن كل ما يحيطها ومن حياة اجتماعية مما يجعلها عاجزة على التجاوب مع كل ما يطرأ عليها من تقلبات وتطورات .. فان هناك ايضا رباطا هشا لا يكاد يوطد العلاقات بين افراد هذه الاسرة .. ولذلك لا نعجب اذا ما اختلطت الاعمار باختلاط الايام ونادى الزوج امراته بيا امي .. وهى تناديه بيا ابنى .. ويناديان ابنها الوحيد بيا اخانا ..ونادى الابن امه بيا عروستى .. فى حين ان مناداته لابيه قد نسيها لانه اقلع عنها منذ سن الخامسة ، واصبح لا يتحدث اليه او عنه فى حضرته ، ولا يشير اليه بضمير الغائب « هو » فى حالة غيابه ...

ورغم ما تعيش فيه هذه الاسرة من يسر ورفاهية فانها رضيت بأن تقيم فى شارع الريحان الشعبي الفقير المتواضع الذى كل اهله من الكادحين المكدودين ... وقد يرجع ذلك الى نوع من الحب للشارع واهله ينبعث من ارتياح افراد هذه الاسرة الى نظرات التقدير والانبهار التى يشاهدونها فى عيون الاهالى من حين لآخر ،وتعوضهم عما فقدوه من سلطان وقوة ونفوذ.. ولذلك فضلت السكنى في وسط هؤلاء القوم البسطاء السذج في نفس الوقت الذى تحيا فيه حياتها الخاصة حسب تقاليدها وماشبت عليه ، فهى وان كانت ترتاح للاقامة فى احد بيوت شارع الريحان كمكان استيطان فانها لا تميل لمشاركة الناس والجيران وسكان الشارع سواء فى حياتهم الخاصة او العامة .. بسبب فقدان الثقة المتبادلة اولا وقبل كل شيء .. وتوقع الغدر من الآخرين فى اية لحظة بمناسبة وبدون مناسبة .. ولذلك خشى افراد هذه الاسرة تقديم المعروف حتى لا يقابلوا بالخسة **ونكران الجميل ... بينما يشعر اهل الشارع بأن هذه الاسرة ترتع فى عز ليس من حقها لان افرادها** لا يكادون يعملون شيئا ولايؤدون خدمة ما تعود على احد ينفع .. فى فى نظرهم لا تستحق حتى مجرد الحياة .. وان ما تتوهمه فيهم هذه الاسرة من خداع وغش ونكران للجميل ما هى الا ضروب من الاسلحة يتذرعون بها ضد مواقف مثل هذه الاسر من عزلة وسلبية .. وتأتي التقرب بالزلفى والخضوع والطاعة لمن يمتنع عن الاعطاء ويريد فى مقابل بقايا ما يتساقط من الموائد المزيد من الشكر والعرفان.. ولذلك لا نعجب اذا ما انعدم التفاهم وتفككت الروابط ، وان كان الجميع يلتفون حول حب الشارع ولا يريدون به بديلا ويتعلقون به كل التعلق ...

---

(٦٠) يحيى حقي : الفراش الشاغر .

وهذا التضارب فى المشاعر يدعو الى ضرب من التخبط الانفعالي لا يعرف كيف ينسق بين تيارات هذه المشاعر المتعارضة ... فالعزلة لا تمنح الامان . . والاختلاط لا يبعث على الاطمئنان .. !! .. ان الكبرياء المجروح .. والتعالي العاجز والعنجهية المتداعية تشعر على الدوام بأن المشاركة والامتزاج والذوبان لا تخلو من انهزامية ، وتنم عن خيبة وفشل« واضمحلال فيزاد التمسك بالعزلة كستار يخفى العجز ويمنع الاخرين من كشف النقص والضعف والتخاذل ، ويكتفى ، بأن يعيش حياة سهلة ميسرة تخففعنه وطأة ضياع النفوذ والسلطان ولا تشعر بالحاجة الى العمل الجاد النافع ، او تدافع لتحقق مستقبل افضل ... لان المشاركة بمختلف الجهود لن توصل الى ما كان عليه الاجداد أو ترجع مجد الماضى الذى ولى .. فهناك نوع من اليأس أدى الى حالة من الرفض لا تقبل الاستسلام والرضوخ للامر الواقع ، فانساق اصحاب المجد الضائع الى العزلة السلبية والامتناع عن عطاء يعلنون بها عن سخطهم وغضبهم ... ولم يجدوا ما يمنعهم عن التمتع بالشراء المورث في لا مبالاة تقف عند حد الاستهلاك لهذا الثراء ، دون التفكير فى استثماره استثمارا يعود على الجميع بالخير يدعون انهم يعيشون على موارد يحاول الاهالى نهبها وحرمانهم منها ، وليس امامهم الا زيادة الحرص الذى اضاف عليهم مظهر الشح الذى يتهرب من السخاء ، خشية مغبة تكاثر عدد المطالبين بالهبات والهدايا ... وهكذا تحول الخوف من نهب المال المورث والمصدر الوحيد للحياة الرغدة الى امتناع عن الاعطاء .. !! ولا بد أن نتوقع انقطاع كل صلة نبيلة بينهم وبين عامة الناس . وضياع الثقة المتبادلة بين الجميع ... ولا تدرى كيف يمكن تحمل مثل هذه الحياة التى تفتقد كل هذه المعاني لولا حب الكل للشارع ..!! ان العزلة مهما كانت صارمة لا تستطيع ان تقطع كل الصلات بحياة اجتماعية يعيش الانسان فى وسطها ، وتحيطه من كل جانب ، وتقابله رغما منه في أية خطوة ولذلك فان الانطواء الذى يلتزم بالعزلة الكاملة لايمكن أن يصل الى حد الهروب الكامل الشامل من هذا المجتمع .. بل ان العزلة فى حد ذاتها لاتستطيع ان تحول دون أثر المجتمع المضاد ، الذى قد ينزل أشد ضروب العقوبة على كل من يقف منه موقفا سلبيا ولا يسهم اسهاما ايجابيا فى تقدمه ويمتنع عن المشاركة والبذل والاعطاء .

لقد توفر لاسرة شارع الريحان حياة سهلة مترفة دون صراع او تزاحم ، جعلها لا تبالى ببذل جهد او امعان فكر ، لانها لا تحس بالقلق على الرزق او تخشى من تقلب الغد . . كما تعودت ان تتصرف بحرية دون قيد او ضغط . . تتمتع بقدرة على التحرك دون ان تسمح بتدخل من احد .. يوجد بين افرادها علاقات رقيقة لاعنف فيها ولا صخب ، تهتم بتبادل الاحترام والحرص على مظاهر المحبة .. وتلتزم بتماسك لا يعترف بتسرب دخيل . الا انها فى النهاية لا تكون مجتمعا قوى البنيان يحتمل مواجهة كل ما يحدث من تطورات فى المجتمع الكبير .. ولذلك غالبا ما تتخبط التصرفات وتضطرب التحركات اذا ما احتك احدهم بالمجتمع الخارجي .. او اعترى هذا المجتمع اى تغير مفاجيء او تعديل غير متوقع .. رغم ما يتمتع به من حرية تسمح بالانطلاق والتصدى لكل ما يستجد من مفاجآت .. وتقوى على ازالة كل غشاوة تعوق وضوح

الرؤية وتطمس معالم الطريق السوى .. وذلك لان افراد هذه الاسرة رغم ما يرتعون فيه من مستوى حضارى متقدم فانهم يقضون ايامهم بلا آمال عريضة تقصد تحقيق هدف محدد ، ويسرعون بتلبية رغباتهم الطارئة دون اهتمام ببلوغ غاية مرجوة ... !!

ولذلك لما ابدى الابن الوحيد رغبة فى الالحاق بكلية التجارة دون ان يبدى الاسباب لم يعترض احد ، وتركت له مطلق الحرية فى الاختيار ..بل لم يندهش الوالدان حين عدل عن الدراسة فى الكلية بعد أن امضى بها سنة كاملة .. اذ لم يخطر على بالهما أن يجبراه على دراسة أورثته كرها للعلوم التى تتعلق بشئون المال والتجارة والادارة والارقام .. لانهما لم ينتبها الى أن فقدان الهدف والبرنامج وضياع الامل فى المستقبل هو الذى جعل الفتى لا يجد المتعة العقلية فى هذه العلوم .. فلم يواصل دراسته فى كلية التجارة... ورغم انه راى باختياره ان يلتحق بعد ذلك بكلية الآداب ، الا انه لم يرتح الى ما عرفه من نظريات ومذاهب ودراسات حثته على الجدل والثرثرة والسفسطة ، ولم تربِ فيه تذوقا للادب والفن ، ولم تقدر على تنمية احساسه بالجمال ... ولم يجد من يراجعه حين عدل عن دراساته فى كلية الآداب بعد ان كرس لها سنة أخرى .. بل طاوعه والداه حين فضل ان يقطع صلته بالدراسة ويبقى فى الدار عاطلا بلا عمل سنة ثالثة ... ولكن الفراغ قلب حياته رأسا على عقب ،اذ اخذت تراوده أفكار الزواج .. الا انه لم يشغل نفسه طويلا فى البحث عن زوجة تهون عليه مثل هذا الفراغ ... لقد كانت تزورهم فتاة ريفية فى صحبة امها ومع ابيها مستأجر اطيان نجم العائلة كلما حل موعد تسديد القسط الشتوى او القسط الصيفي ... وسرعان ما استولت عليه نزوة حكمت بأن هذه الفتاة تصلح له « فهي فتاة خام ساذجة لها عيون سبالة لا تقوى على توجيه النظر .. وجبهة لا تبرق بفكرة .. وجسد فى حالة شيوع تاهت فيه مفاتن الاعضاء .. وشعر ملبد يرى من الآن مقدار سحره اذا غسلته وتهدل ضفائر مبتلة على جبينها وخديها .. » فلم يتردد ووقع عليها اختياره لتصبح زوجة له ، رغم انه عرف انها ارملة لزوج من اقربائها فى الصعيد قتل فى حادث أخذ بالثأر بعد ايام معدودة من زفافها اليه ... اذ أحس وهو فى طريقه اليها انه قد ارتد الى الطبيعة الام وتخلص من تقاليد الاجداد ، التي جرت على خوض المعارك من اجل الظفر بزوجة ابتداء من المطاردة واقتناص الوحش للوحش الى خطف ثم شراء واثبات بطولة بعد نزال الحالى فيما ينساق اليه من متاهات الغزل والسهر ..ولا يوجد ما يجبره على ان يجارى الشباب والتنهدات .. ووراقه ان يحصل على زوجة سهلة قد تولى غيره فك بكارتها ودكها كالطاجن.. وما عليه الا ان يشتريه مستويا ناعما جاهزا.

ولقد هيات له نزوته في الزواج من فلاحة صعيدية حالة نفسية جعلته يستغنى عن فرش المدينة ، ويهتم بأن يؤثث حجرة العرس على النمط الريفى من حصيرة ترص عند حافتها الشباشب والقباقيب .. وسرير من الحديد لهملة شاءت العروس ان تكون من سلك هزاز ... وناموسية من حرير وردى ... وصندوق للملابس مزين بالاحمر والاخضر .. وطشت

ودست للفسيل .. حتى يعيش فى جو مصرى ريفى خالص ... ولعله يكون قد توهم بأن اقباله على الزواج من صعيدية ، وتأثيث غرفة ريفيةعلى خلاف عادة اسرته فى الزواج داخل العائلة ذات الاعراق المتشابهة والتقاليد المتقاربة قدساعد على تحقيق رغبة كامنة تنشد الامتزاج بعامة الناس ولا تعرف السبيل الى ذلك ، ولكن النزوةوالتوهم والرغبة لا تكفى لتحقيق حياة مستقرة ... لقد اختار الفتى زوجة فقيرة جاهلةساذجةيسر لها كل ما تنشده في عش الزوجية ، وكفل لها كل سبل المعيشة الطرية .. وتوقع ان تكونطوع بنانه .. فلقد اعطاها ما فيه الكفاية وهو لم يتعود الاعطاء .. وليس لها فى ان تلزمه بأى نوعآخر من الاعطاء .. وغاب عنه ان هناك اعطاء تفرضه الطبيعة بعد فى نظرها ونظر شبيهاتهامن اولى واجبات العشرة الزوجية ، لا تتحقق الا به ولا تتم أو تستمر الا في احضانه .. ففوجىءفى الليلة الاولى ذاتها بأن يرى هذه الفتاة الخام الساذجة الطيعة فى حياء قد انقلبت الى وحشضار مفترس .. العيون المسبلة ابرقت وانبعث منها في جوف الليل نظرة مستعرة تلحس جسده.. والجبين الذى لا يلمع بفكرة اصبح سطورا عليه امر مستعجل نافذ الاداء على الفور ...الشفاه الرقيقة المطبقة انفرجت عن رعشت تلهث ... الفم يتلمظ ولا يستقر ... وانكشفتاسنان تلألأ جوعها فتطاير من حولها الظلام مذعورا ... والاعضاء التى كانت تزعم انها فقدتفتنتها فى شيوع الجسد استرد كل منها حقه ، بل واغتصب لنفسه فتنة الجسد كله .. « ولميكن يتصور ان واجبات العشرة الزوجية تتطلب كل هذه الحدة والاندفاع وذلك النهم والالحاح.. والامر لا يحتاج لمثل هذه العجلة التي تفقد الشهية وتضيع المتعة .. انه اراد من الزوجةان تكون مجرد دمية طيعة يتسلى بها ، او لعبة جامدة يلهو معها .. ليس لها حق المبادرة وهو غيرملتزم بأية مسئولية نحوها .. ولذلك لم يكن يتوقع ان تصدر مثل هذه الانفعالات المفرية عنتلك الفتاة السمراء .. ! !

ولكن كيف يتصرف معها ويعطيها ما تتمسكبطلبه .. ؟ كيف يرى ظمأها الفريزى الملتهب ويشبع جوعها الجنسى العارم .. وهى لا تقبلالتسويف والمماطلة والمراوغة .. ؟ بينما هو سليل اسرة كفت عن الاعطاء من زمن طويل ، ولا تقبلعلى أمر الا اذا كان سهلا ميسرا . ولا تقدم على عمل الا طواعية وبارادة كاملة دون دفع .. ولاتلتزم بمسئولية او تكره على اداء واجب . ؟ !!

وما كادت تختبره فى أول واجبات العشرةالزوجية في نظرها حتى تعثر .. واذا بفحولته لما شعرت بانها وضعت موضع الاختبار والالزام تفقد حماستها ولا تسعفه .. فسقط امام العروس ورفضت ان تعيش فى ظل حياةزوجية صورية لا جنس هائج فيها ولا غرائز ملتهبة .. فتبين استحالة الجمع بين سليل الاسرالراقية وبين الفتاة الصعيدية الفقيرة سليلة الاسر الكادحة المكدودة التي لا متعة لها فى الحياة الاالمتعة التي وهبتها له الطبيعة ، وتضيع فى جنباتها شتى المفارقاتالاجتماعية والاختلافاتالحضارية،ويتساوى الجميع فى اسلوب اشباع هذه الفريزة الاولية وينعدم مراعاة اى تمايز أو تمييز اذا ماكان شبق يلح فى طلب الارضاء ... ولما تاكدت الفتاة ليلة بعد ليلة من عجز عريسها في مشاركتهاجنسيا بعد ان عرت جسدها وكشفت له عن

نوع جنسى كانت تخفيه فى سذاجة وغباء ،واسباحت له نفسها تحت اعتقاد بان ذلك أمر فرضته الطبيعة ولا تعترض عليه التقاليد والعادات وأقرته الاديان ما دام يسلك الطريق الشرعى المتعارف عليه ... فأحست بالخدعة والمهانة بعد أن عرضت نفسها عرض العبيد ولم تجد غير الصد والابتعاد ... فغضبت لافتضاح شراستها الجنسية .. وثارت لغريزتها الجريحة .. ولم تتورع عن أن ترفس زوجها رافضة ان تستمر فى عشرة رجل على ما هو عليه من احجام فى فراش الزوجية .. وتصارحه بعزة ونخوة بأن « نساء الصعيد خلقن لرجال الصعيد » ثم تمعن فى امتهانه وتواجهه بفلظة فى اباء وشمم .. « اننى أبول على تودك واناقتك وكلامك الحلو » وتسخر منه مستهزاة .. « ابحث لك عن مومياء ملطخة بالابيض والاسود والاحمر » تليق بابن الاكابر وتستطيع ان تستثير فيه نوازعه الجنسية المهيضة ...

لم يكن الفتى يتوقع أن يسقط هذا السقوط فى أولى محاولاته الايجابية للمشاركة الواقعية التي تقر به بالفعل لبنت من عامة الصعيد وتمكنه من البدء فى السير على درب الاندماج الكامل ... واذا بهذه المحاولة تتحول على مذبح الجنس الى دفع فى تيار عارم لايقبل التردد والتسويف .. مع أن تصوراته فى أنه اختار زوجا مطواعا لينة العريكة تستسلم فى هوادة لاوامره ، تطيعه فى كل شيء وتلبى رغباته عند الطلب دون مبادرة منها... ولما فوجيء بضراوة جنسية مصممة على نوال حقوقها المشروعة دون الاهتمام بأى اعتبار آخر .. فلم يخطر على بالها ان ترعى ما بينها من فروق في الحسب والنسب والتحضر والتمدن والنشأة والتربية والثقافة ... ولم تستمهله وتأخذه على راحته حتى يتغلب على كل هذه الفروق ، تقلبا يمكنه من أن يجتاز ما رسبته من حواجز نفسية تحول دون مساعدته على تكوين نوع من الالفة والانسجام والمودة ، تضيف على العشرة الحلاوة لا افتعال فيها ولا انتهازية ،فيسهل عليه أن يستجمع ركائز رجولته ويشحذ فحولته لتكون على أهبة الاستعداد ... ولكن تمسك العروس بأداء حقها على الفور وفى اللحظة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والحضارية جعل العشرة الزوجية تقوم على مجرد نزوة طارئة طائشة عند الفتى فى مواجهة زوجة جادة فى التمسك بحقوقها المشروعة ، بينما لم يسبق هذه العشرة الرسمية محاولات لتحطيم الحواجز التي خلقت ظروفا نفسية جلعت الفتى يحجم عن اداء اولى الواجبات النوعية ، كأن قوى داخلية اكبر منه دفعته رغما عنه أن يعلن نوعا من الرفض لمثل هذه الزيجة غير المتكافئة ، الخالية مما ينبغي ان تكون عليه من تقارب ومشاركة واندماج لا يمكن أن تتحقق الا ببذل جهود مسبقة متواصلة لم ينتبه احد من الطرفين ان يقدم على بذلها اولا وقبل كل شيء .. !!

ولكن الصعيدية كانت اكثر حسما للمشكلة.. وسرعان ما طلبت الانفصال .. اذ احست بأنه ليس هناك ظل من أمل فى حياة زوجية على ابسط اساس من العلاقات بين الرجل والمرأة .. فى حين آلم الفتى ان يسقط فى نظر هذه الصعيدية التي يسيطر عليها شبق جنسى متوقد ورغبة

ملتهبة تلح فى الاشباع كانها لا تجد ما تستطيعان تعوض به كل ما تعانيه من ضروب الحرمان الا ماتريد أن تستمتع به من لذة فى فراش الزوجية.. !! ولم يكن أمام الفتى الا أن يرضخ لرغبتها فى الطلاق ، ولم يعارض الانفصال ،ووجد فيه خروجا من هذا المأزق اللعين .. وتركها تعود الى بلدتها بعد زواج صورى دام اقل من اسبوع ... !! وهكذا انتهت هذه الزيجة فى مدة وجيزة لانها قامت على مجرد نزوة طفل حاول أن يلعب دور الرجولة ... وانسحبت الصعيدية من بيت الزوجية الثاني بارادتها غير آسفة ..الا أن هذا الانفصال جدد مواجع حسرتها على فقدها لزوجها الاول الذى ضيعته عليها تقاليد الصعيد الصارمة فى الاخذ بالثأر ، وتركتها حيرى حتى أصبحت مطمعا لمن يريد ان يلهو ويلعب على حساب كرامتها وعزتها .. وفضلت ان تهجر حياة لا كيان لها فيها وعادت الى الصعيد لعلها تجد فى قريتها من يعوضها عن عريسها الاول من بين رجال الصعيد الذين خلقت لهم نساء الصعيد ويطيب لهن الحياة معهم .. بعد أن فشلت في ان تلعب مع زوجها الثانى دور الدمية التى لا يريدعنها بديلا ... !!

ولكن اذا صعب على فتانا ان يحصل على دمية لبعض الوقت فانه يمكنه ان يصل الى ما اشبه بالدمية بعض الوقت متى دفع الثمن ... لقد أتاح له جو الحرية المطلق الذى تعيش فيه أسرته أن يلجأ الى العاهرات يشترى منهن ، لينفي عنه سبة العجز فى فحولته دون اذعان لالزام **او اكراه .. ويبعد عن رجولته شبهة العنة دون المساس بمشاعره التي يخزيها ان توضع قدراته الجنسية موضع الاختبار ... اذ « ليس لواحدة منهن حق عليه ... فلا مسئولية عليه قبلها .. انه يريد ان يشترى بالنقد لا بمبادلة شيء بشيء..» (٦١)**

وكان فى أول الامر لايفرق بين غانية واخرى .. ثم بدأ يتأنق فى الاختيار .. لاتروقه الا البائعة التي يتكاثر عليها المشترون حتى يضيع فى الزحام ومع ذلك قلما يجد جنته المنشودة لأنه « لايزال يتوهم حتى فى اكثرهن رواجا وانشغالا : اشاحة وجه .. **او لوية خشم .. أو دفعة يد تفسد عليه طمأنينته .. واصبح غاية ما يتمنى ان يجد من جمد وجهها فلا يتحرك ولو صبغ بلون** الشمع .. وانعقد خشمها فى قالب ثابت .. ولو تصلبت **الشفتان كالخشب .. ومن شلت يدها ولو اصبحت باردة كالثلج . (٦٢)**

وهكذا ــ حتى فى احضان بنات الهوى لم يجد فتانا المتعة المرغوبة التي تكفل له الاطمئنان والثقة وتمنحه التقدير الذى يرد له اعتباره ويؤكد وجود ذاته ويعز فحولته ويكرم رجولته ... فلما لم يعثر على العلاج الشافى عند الغانيات انتكس نكسة اصابته بمرض غريب سلط عليه ميكروبا ضعيفا تستطيع ان تلتهمه الكرات الحمراء وتقضي عليه في الحال بكل يسر .. ولكن جسده المتخاذل عجز كذلك عن مقاومة هذا الميكروب الوافى لا لعلة فيه وانما لفقدان ارادته الرغبة فى المقاومة ،

---

(٦١) يحيى حقي : الفراش الشاغر .

(٦٢) نفس المرجع .

حتى اعيا الاطباء فى علاجه مما دعا احدهم الىالنصح بعرضه على طبيب نفسانى .. قد يكشف عن عورات داخلية ويعرى ذاته من كثير مما تتسترووراءه .. ويفصح خباياه الباطنية ويظهر للجميع خوره وتردده وضياعة سواء بين الرجال او معالنساء ... ويكفيه ما أصابه مما كشفت عنه بنت الصعيد .. وما كاد فتانا يصل الى هذا الحالحتى بدا وجهه نديا ينطق « بانصياع رضى وطيبة حلوة » واذا بحركات اعضائه تتناسق ويشملهاهدوء عجيب رماه بالبلادة والتراخى « ولكنه وجده عز الاناقة ، فزاد اعتناؤه باظافره وربطةعنقه وانسجام هندامه » واخذ « يتحرك بخشوع فيه دلال مخنث .. ويتكلم بنبرات خفيضة فيهاغنة .. وبدت فى عينيه عذوبة كأنما كحلها بعسل » اضفتعليه رقة مهذبة ارتاح اليها ، وانكانت مغرية تدعو الآخرين للتودد اليه مما يشعره بأنه مرغوب فيه ولا ينفر منه .

وما كاد يشعر بشىء من الاستقرار النفسىحتى راودته الرغبة فى مواصلة الدراسة من جديد .. واختار هذه المرة كلية الحقوق . .وسرعان ما انتبه زملاؤه لاناقته ورقته ؛ واخذوا يلتفون حوله لايدرون مايجذبهم اليه)«أهىاظافره.. أم اصابعه الرخصة .. أم هذا العسل الذى يسيل من عينيه .. وهذه الرقة فى حديثه » وانأسعده هذا الالتفاف الا أن « احدا منهم لم تتقدم به صلته الى درجة الصداقة التي يفصل رباطهاقلبين عن وسط الزحام « ولكنه » لم يشعر بالوحدة .. بل شعر بالراحة « مما أضاف علىتعسيلة نظرته ابتسامة حلوة » حتى ازداد تعلق الزملاء به وأخذوا « يضربون به المثل فى الطيبةونبل الاخلاق » على اعتبار انه ابن الناس الاكابر ... وهكذا استطاع فتانابحسن علاقاته مع الزملاء ان يكسب أرضية جديدة تمنحه ما يحتاج اليه من اعتياد وتقديريعود عليه بالثقة التي تساند الارادة .. وبالامان الذى يدد الآمال والاماني .. رغم انه لم يسلم منأقوال السوء التي ترى أن مقالاته فى الاناقة والرقة مقومة ورخاوه هي أقرب الى الانوثة منها الىالرجولة ، مما دعا البعض الى توهم انه يعاني من شذوذ جنسي هو منه براء .. !!

اقبل فتانا على دراسة القانون هو مرتاحالبال فتوالى نجاحه حتى لم يبق على تخرجه فى كلية الحقوق الا سنة واحدة « فقد أعجبه انالقانون نجا برقبته من شريعة الكون وربكتها وتناقضها ... وتسميتها للظلم على انه فى بعضالاحيان عدل » ورأى أن « القانون يصطنع لنفسه منطقا مستقبلا جميلاعلى الورق.. بارع التقسيموالتسلسل عاجل النفاذ » الا انه بدا له كأنه « هدم بناء الحياة واتخذ من انقاضها قوالبمرقومة اقام عليها صرحه : القاضي لا يحكم بعمله .. بل من الورق ... فالورق ابين منالحقيقة ... الصدق عنده كالكذب مرفوض ، الا اذا دعمه دليل لم يجد من يكشف زيفه ... الرذيلة عندهمحددة ... والفضيلةمبهمةليس لها حساب»(٦٣) فالقانون قد يقضى لعقابالزوج الخائن ولكن لايكافىء الزوج المخلص ... كما ان نظرتهمتساوية للجميع دون تمييز بين العامل والجاهل والتطوع والمعذور . ولا يعطى اى اعتبار للقدر وما ينزله

(٦٣) يحيى حقي : الفراش الشاغر .

بالناس من محن ومصائب وما يستلزم بعض الرفق والرحمة والعطف . . . ولذلك فان احكام القاضي مهما كانت نزيهة لا تصل الى مستوى العدالة الحقة . . . ومع ذلك فان القانون المنطقى مهما كثرت مظالمه أفضل بكثير من شريعة عادلة بلا منطق مفهوم . . . وهكذا اختلطت الامور على فتانا واخذ ينقد تدريجيا الاحساس بالفروق بين الفضيلة والرذيلة . بسبب ما توهمه من وجود تناقض كبير بين منطق شريعة الكون الالهية وبين منطق القانون الوضعى . عجز عقله عن ادراك ما بينهما من تقارب ووقف عند ادراك ما بينهما من تفاوت . . . !! فان ارتاح الى دراسة القانون فى الامر لوضوح منطقة وتسلسل احكامه الا انه لم يجدفيه ، ما ينصفه من قسوة القدر ويرحمه من شريعة الكون ويمكنه من الانتصار على ذاته وينقذه من مصيره المحتوم . . . !!

ولكن اذا لم تحقق دراسته للقانون ما كان ينشده من وضوح الرؤية وراحة الفكر . . الا انها اتاحت لذهنه من فرص التأمل الحر المنطلق ما أدى به الى بلوغ « لحظة صفاء » غمرته بنقاء وسكينة خلصته من كل ما يكبله من قيود واغلال ، وانقذته من شتى الاوهام والمخاوف وطهرته من الدنس والنجاسة وفاضت عليه بمشاعر لا حدلها من الحرية الرحبة . . . كان يستطيع ان ينتهز هذه الفرصة التى لا تعوض فى تدعيم احوال الصفاء والنقاء والسكينة والطهارة والنجاة والحرية وتعميقها فى الذات وتثبيتها بين جنبات الوجدان . . الا ان ذلك يتطلب سلوك هدى طريق شاق لا يقوى على تحمل جهاده الا من عرف الندم والتوبة ، والتزم بطريقهما وجاهد جهادا متواصلا لا ينحرف عن مزاولة شتى ضروبه من المجاهدات الجسدية والرياضات النفسية . . ليقتلع كل ما فى داخله من جذور الشر . . ولذلك غفل كيانه الهزيل الهش المتخاذل عن ادراك جلال ما انتابه من لحظة صفاء ، ولم ينتبه الى ان ما توصل اليه من نقاء يمهد له الاقتراب من حال التوبة . . فغاب عليه ان يسير فى طريق الندم والتوبة . . واذا به ينعى على ما غمره به الصفاء والنقاء من حرية بلغت من العنفوان ما زلزل قوامة زلزلة اعجزته عن أن ينهض ويصرع الرجس فى داخله ويصحح الخلل الذى أصابه ، وينقذه مما هو مساق اليه من امراض مستعصية . . ورضى ان يبقى على حاله فى مرحلة يتصارع فيها الخير والشر ويتنافس فى السيطرة على تصرفاته الملاك والشيطان . . . فوقع صريع دوامة الحق والباطل . . الا انه فضل أن يعاني الصراع بين الفضيلة والرذيلة تستولى عليه بلبلة تسوقه الى متاهات غريبة شاذة على أن يترك هذه الحرية التي اتته بدون جهد يذكر تطغى على كيانه وتتحكم فى تصرفاته الهوجاء . . . فاذا باحساس ملل فظيع يستولى على كل وجدانه ، ويعكس كيانه بمرارة مرة ما بعدها من مرارة ساقته فى تيه من التخبط والقلق . . بينما لم يبق امامه الا أشهر قليلة ويتقدم لامتحان ليسانس الحقوق مما زاد من توتره . . وتجمعت عليه شتى المواجع ، ودفعته دفعا لتصرفات بلهاء حمقاء أبعد ما تكون عن الحكمة والرقة والنخوة الانسانية ، وساقته سوقا الى حتفه فى هاوية سحيقة لا قرار لها بعد أن سمح للشيطان ان يلعب برأسه ، ويترك للمعصية ان تفترسه فيغيب عنه الوعى الطاهر القويم ، وينساق وراء اوهام حكمت عليه بالعار والاحتقار واثارت ضده مشاعر التقزز والاشمئزاز فاستحق اللعنة فى الدنيا وفى الآخرة . . . !!

فنجد الطالب الجامعى الذى عجز عن توطيد صداقة كريمة بزميل له فى كلية الحقوق يتمتع فى كنفها بما يرحمه من زحمة الحيـاة .. يقـع صريع صداقة مهينة غير متوازنة لا تكافؤ فيهـا بين الطرفين ، ويرضى ان يصاحب صبيا حانوتيا فى شارع الريحان ... واذا بأقاويل السوء التى كانت تهمز بالشذوذ تصبح فجأة حقيقة واقعة... !! لقد تعود الصبى الحانوتى ان يراه على ما هو عليه من أناقة ونعومة ورقـة ورخاوة فى نزوله وصعوده من البيت الذى يقابل دكانه ... ربما سولت له نفسه امرا خبيثا فأخذ يتربص به حتى ينتهز فرصة ليوثق علاقته به وينال منه مراده ... وحدث بينما هو يضج ضـيقا مما يعبث فيه من ملل ان وقع نظره عفوا ذات مرة وهو خارج متأخرا من بيته بغير عادة على صبى الحانوتى وهو واقف على سلم يعلق لافتة على دكانه ... فما أن تقابلت العيـون وراى فتانا شابا « مدكوك الجسم ككيس قطن .. قصـير القامة والذراع .. ضخم اليد .. ضيق الجبهة والعينين .. نظرته ثاقبة لها لمعان ، فيها مكر وحنق وعكارة دم فاسد وجوع الوحش » (٦٤) فظن صبى الحانوتى ان الفرصة المرتقبة قد واتته « وقبل أن يشيح بوجهه راى الصبى يبتسم له ويرفع يده الى راسه بتحية وسلام .. فمضى وهو يعلم انه لا بد عائد اليه » .

ولا ندرى كيف توثقت عرى الصداقة بين شابين رغـم ما هى عليـــه من تباين اجتماعى واقتصادى وثقافى وحضارى وكيف : « اصبح من عادة الفتى أن يمضى امسياته فى صحبة صبى المعلم أمام الدكان » لعله حاول بذلك الهروب من الملل والتحرر من الشـــقاء الذى يعـانى منـه الأمرين ... !! كان أول الأمر ينزل اليه مرتديا بذلته وحذاءه .. ثم « ثم لم يجد بأسا من أن ينزل اليه فى جلبابه وشبشبه » لما توطدت الالفة وزالت ما بينهما من فروق .. فلم يجد فتانا ما يحول دون مجاراة صبى الحانوتى ليس فى ملبسه فقط بل شـاركه كذلك فى موضـوعات الحديث بشغف زائد ، خاصة تلك الموضوع التى تتصل بعمل الحانوتى حتى اصبح « حديث الصبى عن الشغل ومواسمه وسابق مجده ولذته ومتاعبه وطقوسه وفنونه وحيله » (٦٥) ولما احس صبى المعلم بازدياد شـــغف فتانا بالاســـتماع اليـه والاستفسار المتواصل عن كل ما يتعلق بتفاصيل عمله فى عالم الموتى والقبور .. رغبة فى أن يحضر معه ليشاهد بنفسه عن قرب كل ما يستفسر عنه .. ومن الغريب حقا فى الا يتردد فتانا فى قبول مثل هذا العرض فى التو واللحظة مجذوبا بسحر عالم الموتى الذى لم يكن يدرس عنه شيئا .. كأنه مساق وهو فى غيبوبة بعد ان فقد انطلاق الحرية وصفاء الطهارة واستكان لاغراء دعوات خبيثـة تحت تأثير وهم مضلل بأن ما يتحكم فى مصـيره المحتوم قدر لا يخضع لمنطق او قانون ولا يعرف الرحمة أو الشفقة .. فاندفع فى تيارات هوايته الجديدة التى اصبحت لعبته المفضلة ؛ مع انه لم يسبق ان راى جثة ميت من قبل .. !!

---

(٦٤) الفراش الشاغر .

(٦٥) نفس المرجع .

وما ان رأى أول جثة حتى وقف امامهـا مشدوها فى حيرة ما بعدها حيرة لا يدرى هل ما يراه امامه هو « استسلاما بلغ حد التعذيب به . . ام عذابه بلغ مداه فذاب فى استسلام » . . ؟ وما ان ادرك ان الذى امامه « لا شيء . . له صورة بنى آدم » حتى زالت عنه الرهبة من الموتى واقبل يغسل الجثة برفق آمن مادام الميت « ما يشيح بوجهه . . ولا يلوى خشمه . . ولا يدفع بيده » (٦٦) فطاب له هذا العمل الذى اطلق له حرية التصرف . . واصر على ان يصحب صبى الحانوتى فى كل طلب . . بينما ظن صبى الحانوتى ان تمسكه بمصاحبته يرجع اولا وقبل كل شيء الى شدة تعلقه به شخصيا ، بحيث لا يستطيع له فراق ، خاصة وان ابتسامته له اخذت تزداد رقة وعذوبة . . وان نظرته فاضت تعسيلا وحلاوة . . بينما استولى على جسده ارتخاء ورخاوة . . فطمع فيه ووسوس له شيطانه ان يتجرأ عليه ويصارحه بما يريده منه ويطلب منه الا يتدلل عليه اكثر من ذلك ويستسلم له ما دامت هذه هى رغبته . . وحثه على ان يتسربا داخل ظلام الدكان حيث يوجد نعش كبير يسعهما معا ويتيح لهما ان يقضيا مأرباهما فى شوق زائد اليه ، ورغم ان الفتى رد صبى المعلم عن غيه . . الا انه لم يظهر له اى نوع من الغضب او الضيق لمجرد توارد مثل هذه الرغبة على شهوة صديقه . . ولم يبد عليه اى نوع من التأفف من مثل هذه المهانة التى يريد ان يسوقه اليها هذا الرفيق المفضل . . لأن ذهنه التائه فى غيبوبة يستولى عليه ملكوت القبور ولا يكاد يلتفت لأى شيء آخر ولو كان يتصل بكرامة رجولته . . ولذلك لم يعر اى انتباه لكلام صبى المعلم الذى لما لم يجد استجابة فورية لم يلح عليه وتركه فى ملكوته فابتعد عنه بعد ان كان ملتصقا به وهو يناوله هذا الحديث حتى يوحى للفتى بأن ما طلبه كان مجرد نزوة طارئة ، وانه تاب الى رشده ورجع عن رغبته . . وغير موضوع الحديث ودخل فى كلام ليزيل ما يكون قد انتاب الفتى من انفعالات الرفض فيفقده الى الابد قبل ان ينال مرامه منه ، واذا بحديثه يذهب الى « الاستعباد وذم الزمام والتحسر على الماضى » ليشغل الفتى بكلام عام يتردد هنا وهناك بلا مغزى ولا هدف . . .

ولكن صبى الحانوتى لم يتخل هدفه وتحقيق مأربه بطريقة او اخرى . . وان رفض الفتى غير الحاسم لم يدعه ييأس . . ودفعه لأن يفكر فى اعادة المحاولة بطريقة اخرى اكثر فاعلية تفقده القدرة على المقاومة وتجبره على الاستسلام وهو غائب الوعى مشغوف عنه بمأرب آخر . . وهكذا يحاول كل منهما ان يلعب على الآخر لعبة الشيطان . . . !! واذا بصبى المعلم يفاجئه بنبأ يثيره كل الاثارة بعد ان اخبره بوفاة عروس صغيرة السن قبل ليلة زفافها بيوم واحد . . هي عز الطلب . . . واخذ يزينها له حتى يرغبه فيها ويحصل منه على ما يريد فى مقابل تحقيق رغبته . . فلم يتورع عن استثارة تلك الرغبة بكل شدة والحاح ، ويبين له كيف شيعت جنازتها بالموسيقى ونثرت الحناء على القبر ، وغطى جسدها بثوب الزفاف ، واهل عليها بباقات الياسمين فاشعل هذا الحديث كل كوامن رغباته وايقظ شهواته المكبوتة ، فاذا بها تطلب الاشباع وتراوده على امر

---

(٦٦) المرجع السابق .

لا يقره عرف أو قانون ولا يرضى عنه خلق أو دين وتأباه كل الاباء الكرامة الانسانية .. الا ان احساسا حادا استولى عليه يصور له ان امامه فرصة فريدة طالما تمناها وها قد واتته ولن تتكرر وليس امامه ان يقتنصها مهما غلا الثمن الفادح .. !!

وهكذا انهارت كل القيم التى شب عليها الانسان منذ الازل .. وضاع الفتى سليل الاكابر ابن الاصول فى متاهات وضيعة تنم عن شراسة بشعة كامنة تريد ان ترد اعتبارها وتنتقم لكرامتها بأساليب لا انسانية ولا اخلاقية ، لم تبال بما قد يصاب به الفرد من خراب روحى او دمار فكرى فلا تستقيم له حياة سوية ... ولم يكن هذا الفتى أول من ضاع فى هذه الأسرة .. ولن يكون آخر شخص يتعرض لمثل هذه الامراض المستعصية .. لقد سبقه نجم العائلة .. اذ بلغه عقب ارتكابه الفحشاء مع العروس الراقدة جثة هامدة فى قبرها لا حول لها ولا قوة انه هوى فى المستشفى وهو يعالج من ادمان تعاطى مخدرات يلجأ اليها ليبعد عن مخيلته تصورات قاسية وتهيؤات ، خادعة توهمه بأنه محاط باعداد مجهولين يتربصون ويريدون تحطم روحه ووعيه ومنطقه ... فتركت نهايته فراشا شاغرا فى المستشفى تنذر بأن هناك نزيلا جديدا يتوقع ان يحل مكانه الشاغر قريبا .. لعله فتانا مما يهدد مصير هذه الاسرة المنكوبة ويؤدى بها الى الانقراض والفناء ... !!

• • •

لا شك أن قصة ((الفراش الشاغر)) تشهد ليحيى حقى أنه قد تحرر فعلا من الميول التركية ونزعاتها الموروثة ، ولم تقف حائلا دون الرؤية الصادقة لواقع الأعراق التركية المصرية وما وصلت اليه من حال .. وان تناول هذا الواقع تنقصه الصراحة الواضحة ، ولجأ فيه الى دبلوماسية لا تخلو من حياء تستعين بصيغ بلاغية هى اقرب الى الرمزية منها الى الواقعية ..
فانه ربما اراد تخفيف وطأة النقد الاليم الذى يفضح خبايا بنى أعراقه ويتقزز من مباذلهم ...
ومع ذلك فان قصة الفراش الشاغر يمكن وضعها فى قمة نتاج يحيى حقى القصصى باعتبارها آخر فصل فى ملحمة صراع الاصلاب التركية المهاجرة ، تشهد مأساة المهاجر التركى الذى قاوم الذوبان فى المجتمع الجديد ، فتكالبت عليه نواجذ المجتمع المصرى واعطاها فرصة لأن تعضه بشراسة خلال سلبياته ، وتظهره بمظهر معين يثير الازدراء والرثاء على حال من فقد الجاه والسلطان والمجد وتخلى عن الشرف والكرامة والفضيلة ، وانساق فى هاوية سحيقة من الدمار الروحى والخراب العقلى ..

ان قصة « الفراش الشاغر » هى آخر لون فنى لجأ اليه يحيى حقى ليحدد معالم الشخصية التركية المصرية ، فلقد ابتدأ بتحليل نماذج بشرية ، ثم اهتم بتصوير لوحات أدبة .. الا انه لم يبرع البراعة الكاملة فى عرض ما آلت اليه الشخصية المصرية التركية الا عند تأليف «الفراش الشاغرة»

الدرامية التى تمثل صراعا رهيبا بين الانســانوقدره وكيف أدى به الى مصير غاشم لا رحمة فيه ولا عدل ... الا ان قصة «الفراش الشاغر»أشبه باعلان رفض واستنكار .. يحذر وينذر .. بل يتوعد بسوء العاقبة التى تبدو فى أبشع صورالانسانية المنحطة لكل من يعترض على ســـنة الحياة ، ويتعمد اعتزال الناس والابتعـــاد عنهملا يشاركهم فى حياتهم الخاصة أو العامة، ويفضل ان يظل كامنا داخل دائــرة ضـــيقة يأسر كيانهتقاليد وعادات تمنعه من تكوين صداقات سوية ، وتحرمه من علاقات الوصال والود وتحول دونالتضحية والاعطاء والبذل .. ولذلك تكاد قصة « الفراش الشاغر » تعوى بعـــواء كئيب نحيفيريد ان يروى كيـــف يؤدى الانغلاق الى العفـــن ويسوق بصرح الانسـان الى الانحطاط ...

ان قصة ((الفراش الشاغر)) ليســـت الاصرخة توجع غاضبة فيهـــا حسرة واسى على ما وصلت اليه بعض الاسر المصرية التركية فاخذتتستعرض فاجعة نجوم أسرة شـــــارع الريحان وشبابهم وتبين ما أصابهم من خراب روحىودمارعقلى وانهيار خلقى ، وتظهر ضيق أفق الأسر التى لا تراعى فى تربية ابنائها ظروف المجتمع الذىتعيش بين جنباته ، ولا تعد شباب العائلة لخوض تياراته بكل قدرة وتمكن حتى لا ينشأ على العزلةولا يشب على الشح وعدم الاعطاء .. ولا يبـــدو امام المجتمع انه يرفض ان يطاوع عامـــة الناسويتعالى على الذوبان فيهم بعناد يســـــوقه الى الدمار والخزى والعار وينزل بكرامته لعنة ملعونةلا امل لها فى رحمة الله ...

ولا يخلو تصوير هذا الانتحار الروحى علىمذبح التقاليد العاتية الراسخة الجذور من قسوة وعنف وايلام .. فان يحيى حقى لا ينبه او يحذرفقط انما يهدد ويرهب كذلك بأسلوب مرعببشع لا يضع مجالا للاختيار الا بيناتجاهين لا ثالثلهما . اما الامتثال طواعية دون عناد أو تكبـــر للظروف الاجتماعية الجديـــدة التي آلت اليـــهحياتهم ، وقبول تعديل السلوك المتوارث عن رضا واقتناع ، تمهيدا لمشاركة الناس والاندماج فيهمأو الاختلاط بهم الى حد الذوبان عن طريق الود والتعاون والاتصال والوصال والتضحية والاعطاءوالبذل والسخاء .. وذلك لمن اراد النجاة .. واما التجمد على ما هو عليـــه من عزلة وابتعادوالتحجر على ما شب عليه من شح وامتناع عن الاعطاء ، متهربا من الناس والمجتمع خشيـــةالتصادم بالجحود والنكران ، ومتجنبا مواجهة الخسة فى اي مكان .. فتتفشى فى داخله أوبئـــةتبدد قيمه الانسانية ، وتصيبه بخراب يقضى على الآدمية ويعرضسلالته لنهاية اليمة حقيرة..

ـ ٦ ـ

لا جدال فى ان محاولات يحيى حقى المتواليةلتحليل الشخصية المصرية التركية ، ونجـــاح جهوده فى تحديد معالمها الاساسية لكنه من التحررمن ضغط النشأة والتربية الاولى مما عاونه على التخلص من قيود التقاليد وأغلال الوراثة ، وهيأله من الفرص الكاملة لاداء واجبه نحو بنى جنسه

بأن حذرهم التحذير الشديد من مغبة ما قد ينزل بهم من دمار وخراب وهلاك .. الا انه لم يعف المجتمع المصرى من مسئولية بعض ما أصاب آل سلالته من جمود وتدهور وانحلال .. وكيف ان فساد بعض جوانب المجتمع اصابه بالتعفن والتخلف الحضارى ، واضاع عليه كثيرا من القيم الانسانية واشاع فيه فوضى لا أخلاقية .. امتداثرها بصورة او اخرى على الاسر المصرية التركية ويعكس على تصرفاتها سلوكا معينا .. !!

فان بنت الصعيد لما اكتشفت فى عريسها ابن الاكابر .. من وهن جنسى يتوانى عن تادية ما عليه من التزمات ، ويتقاعس عن أن يهبها كل ما يملك من حيوية فى الحال وبلا تردد ودون مقابل عاطفى ، ما دامت قد وهبته نفسها وعرضت عليه كل بضاعتها واباحت له ان ينال منها ما ينال ، حتى قبل أن تعرف من هو وتتوطد بينهما المحبة .. لم تستطع بنت الصعيد أن تقف موقفا سلبيا من هذا العريس ولم تجد داعيا لأن تستمر علاقتها معه وهو على ما هو عليه من شح جنسى يمتنع عن الاعطاء الحيوى فسارعت بمطالبة الفراق فى اشمئزاز وعشرة .. ولم يكن امام عريسنا الا الرضوخ لهذا الطلب وهو صاغر لانه وضع فى ظروف لا يستطيع ان يعاند فيها او يكابر ، وانه لا يملك ان يعطى الا بقدر وحساب وحين يشاء او يريد دون املاء او اجبار .. فما كان منها الا أن نبذته فى اباء وشمم ، وتخلصت من عشرته غير نادمة على ما يمكن أن يتيحه لها من حياة رغدة ..ولا آبهة بما قد يؤول اليه من مصير .. فتركته حطاما هشيما لا يقوى على مصارعة الواقع المتربص به .. فاذا به يتسرب فى حرية الظلام متسللا من الابواب الخلفية الى حياة رخيصة وضيعة هى أقرب الى الموت .. ورأت ان سعادتها الحقة في العودة الى مسقط راسها لتعيش بين من يقدرها من أهل الصعيد ويستطيع ان يمنحها ما تريد دون تخاذل أو مراوغة ..

الا أن ابن البلد لم يستمهله ولم يتورع عن ان ينتقم منه شر انتقام ، وينهش عرضه ويذل رجولته وهو يجرى وراء رغبة حمقاء تريد ان تنال متعة خالصة لا يشوبها عائق ولا يفترها صد او منازلة ، وخاصة اذا ما كانت على مذبح بنت الصعيد فلم يبخل عليه ابن البلد بأن يتيح له مثل هذه المتعة ولكن ليس قبل ان يسلبه كل عشرة وكرامة ، ويدفع به الى هاوية سحيقة لا نجاة منها .. لقد نشأ على الشح لا يعطى دون مقابل واذا به فى النهاية يعطى كل حياته ويفقد انسانيته وآدميته دون مقابل ، بعد ان رضى ان يضاجع الموتى وهو فى غيبوبة من الحس والشعور والادراك والوعى .. فكان الخراب الروحى والدمار العقلى والانحطاط الخلقى ..

بمثل هذه التحليلات الواعية استطاع يحيى حقي أن يتطهر من قيود العقد التركية المتزمتة .. ولكنه يعيش وسط مجتمع يعكس عليه كثيرا من الانطباعات التى لا يرتاح اليها وجدانه وتحد من انطلاقاته الفكرية .. فاذا به يقف حائرا أمام الاتجاهات المصرية غير المتوازنة لخضوعها لتيارات متضاربة يغلب عليها روح الانتقام ولا تتورع عن ان تلجا للغدر والخداع وتخلط بين سفك الدماء

والجريمة وبين العزة والكرامة .. قد تحسـم المواقف بالعنف ولكن دون فاعلية ايجابية وتترك جذور المشاكل تستشرى .. فاحس يحيى حقي بانه مكبل بقيود تدخله فى صراع جديد من اجـل حريته ــ فاذا به يجاهد فى سبيل معرفة الشخصية المصرية الاصيلة ويتكفل بتحليلها وعرضها خلال تطور خبراته الفكرية فى صور ادبية متنوعة تشمل فحص النماذج البشرية واستعراض اللوحـات الفنية وخلق القصص الدرامية .. ويبدو موقفه مـن الشخصية المصريـة واضحا فى قصـص « **البوسطجى** » و « **قنديل ام هاشم** » ولوحات « **صح النوم** » ويمتاز هذا الموقف بأنه لم يصل بعد الى حد اليأس ودرجة التشاؤم التى تلوح بصراحة عن الضياع والخراب والهلاك .. وأنه ما زال هناك امل يدعو الى الجهاد فى سبيل تحرير المجتمـع المصرى مـن كـل مخازيه ، ويسوق الشخصية المصرية الى السلامة الفكرية والسوية الحضارية .. بتعديل مسار انحرافاتها وترشيد اندفاعاتها بالتنسيق بين تياراتها المتداخلة ..

واحسب ان عرض موقف يحيى حقي من المجتمع المصرى والشخصية المصرية ومدى توفيقه فى التحرر من انعكاساتهـا على نشأتـه وتربيته وتعليمه بما لها من ردود فعل تنبعث من مكمن النزعات التركية التقليدية المتوارثة .. يحتاج الى دراسة مفصلة تبحث مرحلة اخرى من مراحل صراعات يحيى حقي المستمرة من اجل الحرية .. تبين حدود معاركه مع ذاته ــ اولا وقبل كل شىء ــ سـواء وهـو يعايش المجتمع المصرى ويختلط بالشخصية المصرية .. او حين يتحرك من ميوله الصوفية الفتية الى خضم البوهيمية الصاخب المنطلق .. ويصارع بعقليته الشرقية تدفق أمواج الحضارة الغربية المتلاحقة .. !!

* * *

سنور شريف

النقد الروائي الانجليزي في دور التكوين

كثيرا ما عبر الروائي الانجليزى عن مخاوفه من الناقد المحترف الذى رأى فيه قوة معرقلة لتطور الرواية ولحرية الكاتب . فأشار سومرست موم (١٨٧٤ ـــ ١٩٦٥) Somerset Maugham الى خطأ الاعتمـــاد كلية على نقاد من غير الادباء المبدعين لان الناقد ، كما يقول موم « الذى لا يعمل بنفسه فى حقل الادب الخلاق يحتمل ان تكون خبرته فى صنعة الرواية بسيطة . ولذلك فهو اما يعتمد في نقده على انطباعاته الشخصية التى قد لا تكون ذات قيمة تذكر ... او يصدر احكاما مبنية علـى اسس جامدة على الروائي ان يتقيد بها اذا ما أراد أن يحوز قبول الناقد » (١) . ونبه هـ.ج.ويلز (١٨٦٦ ـــ ١٩٤٦) H. G. Wells ، قبل ذلك باربعين عاما ، الى عدم جدوى اصرار النقاد على قواعد ثابتة ، والى خطورة اللجوء الى النقاد المحترفين عند تقييم الرواية ، فقال :

اذا اردنا ان نعرف ان الرواية اكثر من وسيلة للترفيه فلا بد فى اعتقادى من ان تتحرر من القيود التي يلح عليهـا اولئك الذين يرغبون في تحديد اطار عام لها . ان كل فن في هذه الايام يجد نفسه مضطرا الى ان يسلك طريقا وعرا بين

---

(١) "The Art of Fiction", Ten Novels & Their Authors (1954), 19-20.

صخور من المستويات التافهة المهنية وبين دوامة من النقدالعشوائي اللامعقول . فعندما يصبح نقد اى فن من الفنون متخصصا ومحترفا ، وتظهر الى الوجود طبقة من الحكامعلى الادب ، يبدأ وضع قواعد ومقاييس علمية محددة ونماذج تطبق على الفن ... لقد تناول النقاد الرواية كما لو كانتذات شكل فني لا يقل تحديدا عن شكل السونيتية (٢) .

واتخذت فرجينيا وولف(١٨٨٢ ـ ١٩٤١) Virginia Woolf الروائيـة التـي اشتهـرت بتجاربها فى الرواية الانجليزية الحديثة ، موقفامضادا **لموقفى ويلز ووموم عندما اسفت لانعـدام النقد الروائى النظرى تقريبا . ورات ان مشاكلالادب** الروائي فى ايامها ترجع الى عدم اهتمـام النقاد بشكل الرواية ونظرياتها الفنية والجمالية، فقالت :

اذا كانت هناك صعوبات تواجه الرواية فلعل السبب فيذلك هو عدم وجود من يعالجها بثقة ويحدد معالمها بدقة . لم يقنن احد للرواية ، ولم يولها الا القلة اهتماما جادا . وعلىالرغم من ان القوانين قد تكون مخطئة ويجب تحطيمها ، فان لها مزاياها ، فهي تضفى الوقار والنظام على الروايـة ،وتعترف لها بمكانتها في المجتمع المتحضر ، وتثبت حقها فى التقدير والدراسة (٣) .

وايا كان موقف الروائي من الناقد فمـنالملاحظ ان ناقد الرواية المحترف ـ باستثناء امثال **برسى لابوك** (١٨٧٩ ـ ١٩٦٥) Percy Lubbock **وف.ر. ليفيز** (١٨٩٥ ـ F.R. Leavis وتلامذتهم فى القرن العشرين ـ لم يصل الـىمستوى نقاد الشعر والادب المسرحى . فليـس هناك ناقد روائي خلال القرون الاولـى لظهورالرواية وتطورها يضاهي **ارسطـو وصموئيـل جونسون** (١٧٠٩ ـ ١٧٨٤) Samuel Johnson **وكولردج** (١٧٧٢ ـ ١٨٣٤) Coleridge في النقد المسرحى والشعرى . ومما يسترعى النظران **ماثيو آرنولد**(١٨٨٢ ـ ١٨٨٨ Matthew Arnold(عميد النقاد الفكتوريين لم يلتفت اطلاقا الىالادبالروائي الانجليزى الذى بلغ ذروته فى ايامه .

بدت الرواية الانجليزية فى اول نشأتها كماردجبار . ووصلت الى مستوى ادبى رفيع خلال السنوات التي تلت ظهور **روبنصـون كـروزو**(١٧١٩) رواية دانيال ديفو (١٦٦٠ـ١٧٣١) Daniel Defoe الشهيرة . وعندما نشرت اعمالالروائيين الكبيرين **فيلدنج** (١٧٠٧ ـ ١٧٥٤) Fielding **وريتشاردسون** (١٦٨٩ ـ ١٧٦١) Richardson اصبحت الرواية الانجليزية واقعا لا جدال فيه ، واحتلت المكانة الاولى عند هواةالقراءة . ومع ذلك لم يصاحب نشأة هذا الشكل الادبى الجديد نقد يستحق الذكر . لقد اثارترويات ريتشاردسون فى عدد قليل من الكتيبات بعض التساؤلات عن **اهدافها** ، ومدى اضرارهابمستوى القراء الخلقى . كما بدا نفس الاتجاه الاخلاقى في مقال لمجهول بعنوان « دراسة لتاريخ**توم جونز** » (٤) (١٧٥٠) "An Examen of the History of Tom Jones" هاجم فيه الكاتب **هجوما** عنيفا مقذعا ما اعتبره انحطاط الاخلاقيات التى بنيـت عليـها روايةفيلدنج ، دون اية اشارة الى قيمتها الادبيـة ،

---

(٢) "The Contemporary Novel", **An English Man Looks at the World** (1914), 150-51.

(٣) **The Moment & Other Essays** (1947), 90

(٤) **المقال المكتوب تحت اسم مستعار هو (اوربيليوس)** Orbilius

وكأنها منعدمة تماما . ثم ظهر اتجاه مماثل في الخلاف الذى قام حول روايات **لورانس ستيرن** (١٧١٣ - ١٧٦٨) [Laurence Sterne] في نفس العصر عندما ركز المتناظرون جدالهم حول مدى اللياقة في ان يكتب ستيرن ، وهو قسيس ، روايات على الاطلاق . ولم يعلق واحد من هؤلاء النقاد على التجديدات الفنية التى اشتهرت بها روايات ستيرن فيما بعد ، والتى جعلته من أعمق الروائيين تأثيرا على تطور الرواية الانجليزية في عصرنا . وكان على ستيرن ان ينتظر حتى عشرينات القرن الحالى ليحتل المكانة التى تليق برائد الرواية الانجليزية الحديثة ، عندما اكتشفت فرجينيا وولف اهمية تجاربه الفنية . وان مايدعو الى الدهشة في كل هذا هو فشل النقد في ان يلحق بركب الرواية في نشأتها وتطورها سنين طويلة .

استمر تجاهل النقاد للرواية طوال النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، اى خلال السنوات التى لاقت فيها الرواية شعبية لا مثيل لها اذا ما قورنت بانواع الادب الاخرى . وأولى النقاد الشعر اهتمامهم كما في **تراجم الشعراء الانجليز** (١٧٨١) **Lives of the English Poets** لصموئيل جونسون ، او الى نظريات النقد الجمالية في كتابات بيرك (١٧٢٩ - ١٧٩٧) Burke ورينولدز (١٧٣٢ - ١٧٩٢) Reynolds . اما فيما يختص بالرواية فقد ظهرت في دوريات من مثيلات **The Monthlyy Review** (١٧٤٩ - ١٨٤٥) و **Critical Review** (١٧٥٦ - ١٨١٧) تعليقات على الروايات التي اخذت تتكاثر بسرعة فائقة . ولكن هذه التعليقات تمثلت في ملخصات للروايات وسرد لاحداثها ليس الا .

على ان الاوضاع قد تحسنت قليلا بالنسبة للدوريات الجديدة في اوائل القرن التاسع عشر ، الا ان تجاهل المعلقين عامة لروايات **جين اوستن** (١٧٧٥ - ١٨١٧) **Jane Austen** التى ارتقت الى مصاف اعظم الروائيين الانجليز ، يشير الى حقيقة الامور فيما يتعلق بالنقد الروائي المحترف وكان الاستثناء الوحيد لافتقار النقد في ذلك العصر هو المقال (٥) الذى رحب فيه الروائي **سير والتر سكوت** (١٧٧١ - ١٨٣٢) Sir Walter Scott في بحرارة برواية اما (١٨١٦) **Emma** لجين اوستن اما المحاضرة السادسة لوليم هازلت (١٧٧٨ - ١٨٣٠) William Hazlitt في محاضراته المنشورة بعنوان **الكتاب الانجليز الهزليون** (١٨١٩) **Lectures on the English Comic writers** وتقليد وولتر سكوت في كتابه **تراجم الروائيين** (١٨٢١ - ١٨٢٤) **Lives of the Novelists** لما سبق ان انجزه صموئيل جونسن في مؤلفه **تراجم الشعراء الانجليز** ، فليست الا محاولات عقيمة في النقد الروائي .

ومتى وصلنا الى العصر الفكتورى وجدنا اتجاه النقاد الملحوظ الى تجنب الرواية في دراساتهم . فالروائي الوحيد ، تولستوى ، الذى تناوله ماثيو آرنولد في مقال طويل (٦) لم يكن انجليزيا بل روسيا . وكان آرنولد في اول المقال صائبا عندما قال : « لقد ولى عهد الروائيين

---

(٥) **Quarterly Review** (1816)

(٦) **Essays in Criticism)** (1888) Second Series

الانجليز العظام، ولم يتركوا من بعدهم خلفا فيمثل شهرتهم » . وفي هذا القول دليل على قدرة **آرنولد** على التمييز بين الجيد والرديء من ادب الرواية، ومع ذلك فقد اولى ظهره لامثال **ديكنز** (١٨١٢ ـ ١٨٧٠) Dickens وثاكيري (١٨١١ ـ ١٨٦٣) Thackeray **وجـورج اليـوت** (١٨١٩ ـ ١٨٨٠) George Eliot وهم **مـن** اعظم الروائيين الانجليز في فترة انتاجهم الخصب وعصر الرواية الانجليزية الذهبي .

يبدو مما سبق اننا اذا ما اردنا ان نكتشف حصيلة من النقد الروائي الذي يعترف بالرواية كأدب رفيع يستحق الدراسة الجادة، فعلينـا ان نوجه انظارنا بعيدا عن الناقـد المحتـرف متجهين نحو الاديب الروائي نفسه وما جاء في كتاباته عن ادبه . وهنا نتذكر ما قالته **اليزابيث بوين** (١٨٩٩ ـ ١٩٧٤) Elizabeth Bowen الروائية الانجليزية في الروائي الناقد ، وهو : « ان الكاتب الابداعي الذي يفتقر الى ملكة النقد لا وجود له . بل ان مهنته كروائي لا تتحمل مثل هذا الافتقار » (٧) . ومما يؤكد الدور الـذي يلعبه الروائي الناقد بروز **اسماء فيلدنج وجورج اليوت هنري جيمس** (١٨٣٤ ـ ١٩١٦) Henry James ود . هـ . لورانس (١٨٨٥ ـ ١٩٣٠) D. H. Lawrence واسـم . فو ستر (١٨٧٩ ـ ١٩٧٠) E.M. Foster وفرجينيا وولف ، على سبيل المثال لا الحصر ، في تاريخ النقد الروائي الانجليزي .

وباستثناء فيلدنج ليست هناك اية محاولة في القرن الثامن عشر لدراسـة الروايـة على اساس نقدي جاد . ويبدو اسهامه في هـذا المجال فيما كتبه في نقد الرواية ونظريتها بينما كان يحاول أن يفسر لنفسه ولقرائه تجاربه في الكتابة الابداعية . ولا جدال ان فيلدنج هو رائد النقد الروائي في انجلترا بغير منازع . بل لعله ليس مجرد رائد لان الرائد يتبعه آخرون ، وهذا ما لم يحدث في حالة فيلدنج الذي سبق النقد الروائي بقرن من الزمان على الاقل . وتكون تسميتنا اكثر دقة لو لقبناه بمستكشف وحيد خاص في نقده عالم الرواية البكر وتحسس معالمها المجهولة .

ونقد فيلـدنج الذي احتـواه في ثـلاث مقـدمات لروايتـه **جوزيف اندروز** (١٧٤٢) Joseph Andrews وفي ثماني عشرة مقدمة ، واحدة لكل كتاب من كتب روايته **تـوم جونز** (١٧٤٩) Tom Jones ، محاولة فريدة في اسهابها ترمي الى الرفع من شأن الرواية بتحرير بعض المقاييس النيو كلاسيكية وتطبيقها علـى الرواية . وايا كانت نتيجة هذه المحاولة (وقد باءت بالفشل كما كان فيلدنج نفسه يعلم) ، فان المحاولة في حد ذاتهـا كانت مثلا مبكرا للنقد النظري للتعريف بالرواية والتقنين لها .

كان الهدف الاساسي الذي سعى اليـه فيلدنج اول الامر هو تعريف ماهية الرواية متخذا روايته **جوزيف آندروز** نموذجا لهـذا الشـكل الجديد . فوصف الرواية بانها « ملحمة هزلية

---

(٧) "Forward", Collected Impressisions. (1950)

منشورة » (٨) . وكان فيلدنج يعلم تماما مدىالابتكار الذى تتضمنه تلك **الموازنة** بين الروايــة والملحمة ، كما كان يعلم ايضا ما يحتمل من اساءةفهم القراء له في مقارنته بين هذين الشكلين من الادب . فيقول فى مقدمــة **جوزيف آندروز** انالرواية « تمثل ... نوعا من الادب لا اتذكر انني رايت حتى الآن اية محاولة مشابهة له فى لغتنا ».ويستمر فيلدنج فى شرح اوجه الشبه والخلاف بين الرواية والملحمة ، كما عرفها هوميروس ،مشيرا الى ان الملحمة مثل المسرحية ، منها ما هو هزلي ومنها ما هو مأساوى . وهوميروس ، كماجاء في ارسطو ، ترك لنا ملحمتين ، احداهــا هزلية بعنوان **مارجيتيس** Margites وقدفقدت ، والثانية مأساوية وهى **الالياذة** .والملحمة قد تكتب اما بالشعر واما بالنثر ، وان كان الشعرهو الاسلوب الغالب . ونبه فيلدنج الى عـــدم الخلطبين «الملحمةالهزلنة المنثورة» وبينالمسرحية الهزلية والرواية الرومانية المنثورة الجـاده . فالرواية عند فيلدنج او« الملحمة الهزلية المنثورة»كما عرفها تختلف عن المسرحية الهزليــة مــن حيث ان « حركتها اكثر امتدادا وشمولا، ودوائراحداثها اكثر اتساعا ، وشخوصها اكثر تعددا واختلافا » . وعندما انتقل فيلدنج الى توضيحالاختلاف بين« الملحمة الهزلية المنثورة » والرواية الرومانسية صادف صعوبات لا حد لها . واعتبران من اسس الاختلاف الاسلوب الهزلي والميل الى المحاكاة التهكمية burlesque للادبالجاد ، والمغالاة فيها ، وهى التى وجد فيهــا فيلدنج متعة بالغة .

ونتج عن تعريف فيلدنج للرواية وتفسيرهلهذا التعريف كثير من الخلط . والسؤال الذى نطرحه هنا هو : هل الرواية كما عرفها فيلدنجاساسا مجرد « محاكاة تهكمية » للشكل الملحمى المأساوى ، ام هى رواية هزلية اخلاقية متكاملةفى حد ذاتها ترمي الى تصوير المجتمع المعاصر ؟ ويعكس هذا السؤال الانشطار الواضح فى **جوزيفاندروز** بالذات ، التى بنيت اول الامــر علــى « المحاكاة التهكمية » لرواية **باميلا** (١٧٤٠ Pamela لريتشارد سون ، ثم تطورت واخذت شكل رواية « المغامرات » Picaresque التي تصــور مساوىء المجتمع بأسلوب الهجاء الساخر ، مستندة الى المبادىء الاخلاقيــة .وليسفى هذا الخلط الواضح بيناتجاهين مختلفين ما يثير الدهشة لانه موجود اصــلا في نظريــةفيلدنج النقدية .

لا شك ان فيلدنج قد تنبه الى عدم التناسقفى تعريفه للرواية مما ادى به بعد ذلك الى تجنب اية محاولات لبناء نظرية فى الرواية متكاملة .وقضت الســنوات الســبع التى فصلت بين **جوزيف آندروز وتوم جونز** على الدور الرائدالذى لعبه فيلدنج فى النقد الروائى . ولا يعنى هذا انه احجم كلية عن النقد . **فتوم جونــز**تحوى من حيثالكمنقد اكثر مما تحويه **جوزيف آندروز** ، ولكنه نقد متناثر يفتقر الى الوحدة .وحتى هذا النقد المتناثر في **المقدمات** يقل تدريجيا

---

(٨) مقدمة جوزيف اندروز

طولا ومضمونا خلال الرواية . وان كان فيلدنج يشير من آن لآخر فى **توم جونز** الى نظرية« الملحمة الهزلية المنثورة » ، الا انه من الواضح انه بدأيفقد اهتمامه بالمسائل النظرية المجردة .

ان ميل فيلدنج الى الاحجام عن التحليل النقدى فى **توم جونز** يشير الى اكتشافه ان النقد فى انجلترا فى عصره لم يسلك الطريق السليم ، وان الدور الذى لعبه النقد في سن القوانين وتطبيقها ما هو الا عبث ، لان القواعد التى اصر عليهــا النقاد النيوكلاسيكيون مستقاة من تراث ادبي غريب عنهــم ولا تتناسب مــع العصر . « والوحدات » التي الح النقاد الكلاسيكيون على ضرورة اتباعها فى المسرحية لم تكن فى نظر فيلدنج الا اصطلاحا ضارا يردده النقاد دون تفكير . وقد عبر فيلدنج عن هذا الراى ستة عشر عاما قبل ان يكشف صموئيل جونسون ، وهو من اعظم نقاد القرن الثامن عشر ، عن عقم هــذا القانون فى مقدماته لاعمال شكسبير . كما انتقد فيلدنج رغبة نقاد عصره فى تطبيق حرفية القوانين المستخرجة من روائع الادب الكلاسيكي دون الاهتمام بروح الادب نفسه . كل هــذه احكام جريئة تدل على انها صادرة عــن وعى نقدى صائب ، حتى ولو ان صاحبها قد فشــل فى التوصل الى اسلوب فى النقد يحل محل النقد العشوائي السائد فى عصره .

وعلى الرغم من فشل فيلدنج في بناء نظرية نقدية فى الرواية فانه كان واعيا على الاقل ، باعتباره روائيا اصيلا ، باهمية هذا الشــكل الجديد من الادب وما يستحقه من اهتمام ومــا يتطلبه من تثبيت اقدامه والاعتراف بمكانته ، ولعل محاولات فيلدنج النقدية التى كانت ترمى الى الارتقاء بالرواية الى المكانة الادبية اللائقة بها ، هى فى حد ذاتها انجاز له قيمته فى هذه المرحلة المبكرة من نشأة الرواية ، ونحن نطلب من اول روائي ناقد في انجلترا اكثر مما يستطيع اذا ما حملناه مسئولية وضع نظرية متكاملة فى تعريف ماهية الرواية .

وكان من الطبيعى اثناء نشأة الرواية ان يتلاحق اسئلة الروائي عن كيفية كتابة الرواية من الناحية العملية المحضة ، وهى اسئلة فى الواقع لا بد وان يطرحها كل روائي فى كل مرة يبدأ فى خلق رواية جديدة . فكما يقول تولستوى « ان كل فنان عظيم لا بد وان يخلق الشــكل المناسب لعمله » . وكلما ازداد الابتكار والاصالة تكاثرت الاسئلة التى هى من صميم عمل الناقد .

وكان ستيرن من اهم التجريبيين فى ادب الرواية ومن اعظمهم ابتكارا فى رواية **تريسترام شاندى** (١٧٦٠ ــ ١٧٦٧) **Tristram Shandy** التى قلب فيهــا الزمن راســا على عقب . وبدلا من ان يقدم بطله كما كان متبعا فى اولى صفحات الرواية فانه لم يسمح له بالظهور الا بعد انقضاء اكثر من نصف الرواية . ومن هنا تظهر احدى المشاكل الفنية الاساسية في كتابة الرواية ، وهى : من اين يبدأ الروائي وكيف يعالج موضوع الزمن وتتابع الاحداث ، ماذا يختار وماذا ينحى جانبا ؟ وقد عرض ستيرن لبعض مشاكل الروائي الفنية فى **تريسترام شاندى** ، متخذا من التاليف احد موضوعاته . ومن اهم الاسئلة التي شغلت باله السؤال : الى اى حد يعتبر الروائي قد حاد عن جوهر موضوعه عندما يستطرد فى تصوير أبعاد الشخوص المحيطة ببطلة ليحسمهم للقارىء ؟

وهذا سؤال لا بد وأن يجيب عليه الروائى قبل ان يبدأ في الكتابة ، كما لا بد وان يطرحه الناقد ايضا عندما يتناول الرواية ، وهو نابع من الوعى بالشكل الفنى للرواية .

وستيرن مثل فيلدنج لم يصل الى اجوبة واضحة فى النقد الروائى . والأجوبة في هذه المرحلة من نشأة الرواية ليست في نفس مستوى اهمية الاسئلة ذاتها . فالذى يهم هو صحة الاسئلة وتنوعها واتساع الرقعة التى تغطيها في مجال الادب الروائي . ويتضح من الاسلوب الذى اتبعه هذان الروائيان فى ادماج تعليقاتهما النقدية فى كتاباتهما الابداعية ، انهما لم يشعرا بالحرج في الجمع بين دور الكاتب الخلاق والناقد فى آن واحد . فلا تناقض بين الابداع والنقد ، بل هما بالنسبة الى الروائي متكاملان .

وتتبع جين اوستن نفس الاسلوب فى الجمع بين الابداع والنقد في بعض رواياتها ، الا انها تصهر آراءها كناقدة فى موضوع الرواية وتصوير شخوصها وتطوير حركتها ، بدلا من ان تعرضها ، كما فعل فيلدنج ، فى المقدمات . ويبدو هذا فى رواية نورث آنجر آبي (١٨١٨) Northanger Abbey التي تكشف عن قدرة جين اوستين على تقييم الرواية المعاصرة لهـا مـن خلال « المحاكاة التهكمية » . وقد كتبت نورث آنجر آبي فى قالب ساخر يحاكى اسلوب « الراوية العاطفية » « ورواية الرعب » بهدف نقد هذين النوعين من الروايات التي انحدرت بالمستوى الادبى والفنى للرواية بشكل ملحوظ . وجاءت هذه الروايات مجرد تكرار لا ابتكار فيه لما سبق ان كتب فى مواضيعها . فكانت شخوص الرواية من بطل وشرير صورة طبق الاصل لبطلات وابطال واشرار مثيلاتها من الروايات ، وهذا صحيح ايضا بالنسبة للمواقف والاحداث والحركة والحوار الى غير ذلك من عناصر الرواية .

ويبدو دور جين اوستن كناقدة روائية عند افتتاح الرواية وتصوير البطلة كاترين مور كنقيض للبطلة المتفق عليها فى الروايات الشعبية . فهى كما تقول الروائية ليست بطلة مثالية ، وليست من اسرة عريقة ، ولا تتصف في طفولتها بالجمال والنباهة والحس المرهف والنبوغ فى الموسيقى والتصوير ، الى آخر تلك الصفات المبالغ فيها . وانما هى طفلة عادية ، وتصبح عندما تنمو فتاة عادية ايضا . وتتضح سخرية جين اوستن اللاذعة فى موقف كاترين الفتاة البسيطة الميالة الى تصديق كل ما تقرأه من « روايات عاطفية » و « روايات الرعب » التى تعطي البطلة صورة كاذبة عن الحياة . وتضع جين اوستن بطلتها في عدة مواقف تطابق المواقف المعروفة فى « روايات الرعب » ، فتتصور كاترين ان الحياة انعكاس لمجموعة التجارب المثيرة التي تمر بها بطلات « روايات الرعب » التي استحوذت على تفكيرها وخيالها . الا ان مواقف كاترين تنتهى دائما بخيبة املها ، واكتشافها الاخطاء التي وقعت فيها نتيجة لانها رات الحياة من خلال قراءاتها لتلك الروايات الرديئة المثيرة . والدرس الذى تتعلمه البطلة فى نهاية نورث آنجر آبى هو ان الحياة لا هى « رواية عاطفية » ولا هى « رواية رعب » وان كانت لا تخلو في الواقع من العاطفية والرعب .

من الواضح ان نقد جين اوستن للروايةالشعبية المعاصرة لها يدور حول الهوة الشاسعة التي تفصل بين الواقع وتصوير الرواية لــه .وبسخريتها من الاثر الذى يتركه هذا الفصل بين الواقع والخيال المثير المبالغ فيه تنقد الكاتبــةالرواية التي لا تنتمى الى الواقع فى شىء ، والتي تصور الحياة بجمود وتصنع . وتشير جين اوستنالى الاحتقار السائد للرواية وخجل قرائها مــن الاعتراف بادمانهم لها ، مما يؤكد مستوى الروايةالهابط وشعبيتها فى نفس الوقت . وفي الفقرة التالية تنكر الفتاة القارئة هوايتها ، بينما تعلقجين اوستن على الموقف .

((انا لست من قراء الرواية ، فقلما اتصفحها . لا تظنانى اقراها كثيرا)) . هذه هي التعليقات التي يكثر ترديدها . ((وماذا تقراين اينها الآنسة ؟)) فيكون جواب الآنسة ((انهاليست الا رواية)) بينما تطرحكتابها امامها بلا مبالاة مصطنعة، او فى خجل مؤقت (٩) .

والامر الذى يهم جين اوستن هو الا يتعدىهذا الاحتقار الى الرواية عامة التى تستحــق التقدير . وفى دفاعها المباشر عن الرواية كمــاعرفتها وكتبتها تبدو امكانيات الرواية في احسن صورها . ويلاحظ ان هذا الدفاع مكتوب علىلسان الكاتبة نفسها موجهة قولها الى القارىء، وهذا أسلوب قلما تستخدمه جين اوستن فىرواياتها ، مما يوضح الاهمية التي تعلقها على تلخيصها لمهمة الرواية الادبيــة كما فهمتهــا .وتستمر الكاتبة فى تعليقها الساخر على لا مبالاه القارئة التي هى في الواقع تقرا ، كما تقول الكاتبة:جود ما انتجه ذهن انسان :

انها (اى الرواية التي تقرؤها الآنسة) ليست الاسيسيليا او كاميللا او بليندا ، او بالآحرى ، انها ليست الا عملا من الاعمالالتي تكشف عن اعظم قدرات العقل الانساني،التي تنقل الى العالم في احسن اسلوب مختار معرفة وثيقة بالطبيعة البشرية ، ومعالمها المختلفة ، وفكرها المتقد ،وحضورها الذهني ، وروح الفكاهة التي تتصف بها (١٠) .

ويبدو من هذه الفقرة ان جين اوستــنانما تصف كتاباتها هي، كما تصف الادبالروائي فى ارقى مستواه . وهى تحاول في هذا التعريفان تضع أسسا ومقاييسا عامة للرواية .

وترى جين اوستن نتيجة للاحتقار السائدللرواية ضرورة وقوف الروائيين من امثالها صفا واحدا ضد النقاد المحترفين ، الذين يحطون فينقدهم الروائي المنشور فى الدوريات من شــأن الرواية ، فتقول :

فلندع الملقبين النقاد يقذفون الرواية ذات الخيالالمنطلق باقذع الاوصاف كما يحلو لهم ، ويتحدثون عن كل رواية جديدة باسلوبهم الواهن ، مشيرين الى العبء الذىتئن من تحته دور النشر . علينا الا يتخلى بعضنا عن بعض . اننا نحن معشر الروائيين هيئة مغبونة . فعلى الرغم من انانتاجنا قد وفر للقراء ترفيها لا حد له ، ولا يمكن لاى هيئة ادبية اخرى فى العالم ان تضاهيها ، فليس هناك شكل ادبيآخر قوبل بمثل الهجوم الذى قوبلت به الرواية (١١) .

---

(٩) نورث انجر ابى ، الفصل الخامس

(١٠) المرجع والفصل السابقان .

(١١) المرجع والفصل السابقان .

فى كل ما سبق ان جاء في نقد الرواية على لسان فيلدنج وستيرون وجين اوستن على ضآلته وتحسسه فى الظلام ، نجد محاولة الروائي توضيح ماهية الرواية ومهمتها ، مما يعينه عمليا في كتاباته الخلاقة ، كما يكتشف هذا النقد عن رغبة الروائي فى الارتفاع بالرواية الادبية والرفع من شأنها .

وقد مهدت هذه الخطوات الاولى فى نقد الرواية الطريق لاديب روائي آخر هو سير والتر سكوت ، الذى اشتهر فى القرن التاسع عشر برواياته التاريخية ، فظهر مقاله « اما رواية » "Emma, a Novel" كمثل جيد للنقد الموضوعى . ويستحق هذا المقال عناية خاصة لانه مثل مبكر لتقييم حاد للرواية سواء اكانت لمجرد التسلية او انها تتضمن هدفا اخلاقيا واجتماعيا . والى جانب هذا فالمقال من اجود ما جاء فى نقد ادب جين اوستن وفى التعرف على الاهمية الادبية لرواياتها في ايامها الاولى . وملكة النقد الموضوعى عند والترسكوت تتضح على وجه التحديد فى قدرته على تقييم عمل كاتبة مثل جين اوستن يختلف اختلافا تاما عن انتاجه التاريخي .

ويشير سكوت فى مقاله الى نوع الروايات الهزيلة التى اكتسحت السوق في ايامه ، والى موقف القارىء منها ، الذى سبق ان اشارت اليه جين اوستن فى نورث آنجر آبي — اى رفض القارىء الاعتراف صراحة بقراءاته على الرغم من استمتاعة بها . وسكوت لا يحكم بقسوة تامة على هذا النوع من ادب الهروب الذى يساعد ، كما يعترف ، على التخفيف من كثير من آلام البشر مثل « الملل والقلق والالم وحتى الفقر » ، كما يخفف من وطأة حياة « المسنين والعزاب المهجورين والوحيدين » . ونظرة سكوت المتسامحة الى رواية الهروب جعلته يشعر بالتزام اكثر نحو توضيح قيمة رواية فى مثل مستوى اما الادبى ، فيقول :

ان واجب الناقد يصبح مضاعفا حيال اعمال ... تكشف عن معرفة عميقة بقلب الانسان ، وتعبر عنها بقوة وعزيمة تهدف الى وضع هذه المعرفة فى خدمة الفضيلة والشرف (١٢) .

واهم ما فى نقد سكوت في مقاله هو التفرقة التي سبق ان اشارت اليها جين اوستن فى نورث آنجر ابى بين روايات معاصريها ورواياتها هى التي تتطلب « اهتماما يفوق بكثير ذلك الاهتمام الذى يتطلبه انتاج معاصريها الزائل الذى يغذى مكتبات الاعارة ومشتركيها من النساء » . فاعمال جين اوستن ، كما يقول سكوت :

تنتمي الى مستوى من ادب الرواية لم يكد يظهر الا فى عصرنا الحالي ، وتصور الشخوص والاحداث المستقاة على نحو اكثر مباشرة من حياتنا العادية اليومية . وهو امر لم تسمح به القواعد السابقة للرواية (١٣) .

---

(١٢) Emma ; a Novel, Quarterly Review, October 1815

(١٣) المقال السابق

ان جكم سكوت الصائب كروائي ناقد جمعبين الرومانسية والواقعية فى رواياته التاريخية مكنه من تقدير مشكلة الروائى في عصره الـذىتحرر من قيود المواضيع الرومانسية البعيـدة عن الواقع دون ان يتحرر من التقاليد الرومانسيةفي اسلوب الكتابة . ويقول سكوت بهذا الصدد :

ان الرواية الحديثة في ظاهرها هي الطفل الشرعـىللرواية الرومانسية ، وعلى الرغم من ان شكلها العام قد تغير ليناسب العصر الحديث ، الا ان المؤلف استمر مقيدابكثير من العالم الخاصة بالرواية الرومانسية التي ظهرت عند نشاتها (١٤) .

من الواضح ان سكوت يشير هنا الـىالمعالجة الفنية التي لاتتمشى مع موضوع الرواية العصرية ، ويبدو هذا ايضا عندما يقول : « ويمكنمتابعة (هذا الاسلوب) فى تناول احداث الرواية وتطورها ، وفى المناخ العاطفى المحيط بالشخوصالروائية (١٥) .

وان كان اسهام جين اوستن فى تطـــورالرواية الحديثة يتلخص في التحرر من المواقف والشخوص والاحداث التقليدية كما جاءت فىالرواية الرومانسية ، فان اسهام سكوت فى نقدة يرجع الى تعرفه على ما انجزته **جين اوستين** فىكل من الموضوع والشكل الفنى اللذن لا يفصل بينهما . ويقول في هذا :

اننا لا نضفى ثناء ضئيلا على مؤلفة ما عندما نقول انهاتلتزم القرب من الاحداث العادية والاشخاص العاديين . ومع ذلك فقد انتجت صورا مبتكرة ذات حيوية الى درجة اننالا نشعر انها تفتقر الى الاثارة التي تعتمد على سرد احداث غير عادية ... ان احداث رواياتها مبنية على وقائع عادية لاتختلف عما تقع تحت اعين غالبية الناس . وتتصرف شخوصها نتيجة لدوافع وعلى اساس مبادىء يسهل على القـارىء انيتعرف عليها ، لانها نفس الدوافع والمبادىء التى تحكمهم وتحكم غالبية اصدقائهم (١٦) .

وعلى الرغم من جميع هذه المحاولات النقدية التي ترمي الى النهوض بالرواية الادبية فانها لم تكن ذات اثر فعال . لقد بنيت على مناقشاتجادة لبعض نواحي الادب الروائي مما يدل على وعى الروائيين الرواد بمشاكلهم الفنية والشكلية،ولكن نقدهم لم يفصح عنها باستفاضة ، ولا على نحو منظم يمكن ان نستخلص منه مجموعة منالاسس النقدية المتكاملة . والى جانب هـذا فان دفاع الروائيعن ادبه وما يستحقه مناحترامالم يأت بالنتيجة المرجوة .

استمر الهجوم على الرواية حتى الستيناتوالسبعينات من القرن التاسع عشر على اساس ان هدفها الاوحد هو التسلية ، وان قراءة الروايات ليس الا نوعا من الادمان والانغماس فى اللذة . وليس فى هذا ما يثير الدهشة ، لان الفكتوريينعرفوا بالتطهرية والتزمت اللذين دفعا بكثير من الآباء الى حرمان اولادهم من تلـك « التسـليةالخطرة » ، كما سموا قراءة الروايات . ومنهم غير ذلك من الشروط العشوائية . وقد شبهتعادة قراءة الرواياتنهارا بشربالخمر في الصباح،

---

(١٤) المقال السابق

(١٥) المقال السابق

(١٦) المقال السابق

من كان اقل صرامة فوضعوا قواعد لقراءة الروايةتبدو لنا اليوم مضحكةفي شروطها . فحرم بعضهم قراءة الروايات صباحا او ايام الاحد ، وسمح بعضهم قراءة والتر سكوت وحرم دوماس الى كما شبهت العادة عامة بالاقبال المفرط على الحلوى الذى كانت لها شروطها ايضا فى البيت الفكتورى . وقد استخدم كثير من الروائيين انفسهم هذين التشبيهين ، فقال **ترولوب** (١٨١٥ – ١٨٨٢) Trollope : «ان الناس تقرأ الروايات كما يأكل الرجال الفطائر بعد العشاء والشعور يداخلهم بأن المذاق فى كلتا الحالتين زائل ان لم يكن ضارا » . واشار ثاكيري الى نفس المعنى عندما قال : « آه – تلك الروايات البديعة . كم اتذكرها جيدا . انها حلوة ولذيذة مثل فطائر الفاكهة التي عرفتها فى صباى » . ومن عشاق الرواية فى عهد فكتوريا هنرى كراب روبنصون Henry Crabbe Robinson الذى لم ينقطع عنها طوال سبعين عاما . وقد عبر عن ادمانه فى مذكراته بقوله :

« ان الرواية بالنسبة لي مثل الخمر بالنسبة للآخرين » . ويقال انه كان يقرأ الروايات دون تمييز بين الجيد منها والردىء . وهذه هى علامة المدمن الحقيقي . وقد واصل القراءة حتى سن التسعين ، عندما اشار فى مذكراته الى قراءته لرواية Vanity Fair (ولم تكن للمرة الاولى) وهو مستلق فى الفراش ممسكا بشمعة لتنير له الصفحات .

كان من الصعب اذا القضاء على النظرة الترفيهية المجردة للرواية التي اشترك فيها الروائيون انفسهم فى بعض الاحيان ، وهي احدى الاسباب التي يرجع اليها تأخر تطور النقد الروائي . ومع ذلك فالاستمتاع بقراءة الروايات الذى وصل الى حد الادمان فى كثير من الحالات ، وان كان عائقا فى سبيل ظهور النقد الروائي ، يمثل في الواقع نقطة الارتكاز في هذا النقد . فالروائي ، كما قال **ترولوب** ، « غير مسموح له بان يبعث الملل . ان كاتب القصص لا بد ان يدخل السرور على قرائه . والا فهو لا شيء» (١٧) وسانده فى هذا الرأى هنرى جيمز الروائي والناقد الشهير ، وهو من اكثر كتاب الرواية وعيا بشكلها الفنى ، عندما قال : « ان الشرط الوحيد المسبق الذى ينبغي على الرواية ان تتقيد به هو اثارة اهتمام القارىء » (١٨) . وعندما يوضع ذلك الاهتمام تحت الدراسة الموضوعية فى محاولة لتفسير ما الذى ادى فى الرواية الى اثارة ذلك الاهتمام ، يولد النقد . ما الذى يدفع بالقارىء الى قراءة الرواية الواحدة عدة مرات بعد ان كشف عن تطور احداث الرواية والعلاقات بين شخوصها ومصيرهم من زواج ووفاة الى غير ذلك ؟ ان مهمة النقد هي الاجابة على هذا السؤال .

ولكن قبل ان يتجه النقد الروائي الى هذه الدراسة الموضوعية التي ترتكز على تحليل وتقييم لشكل الرواية واسلوبها ، اتبع طريقا آخر تناول من خلاله الرواية من حيث اخلاقياتها ودورها

---

(١٧) Autobiography, ch. XII.

(١٨) The Art of Fiction (1884)

الفعال في المجتمع . وهذا اتجاه لا غرابة فيه متى تذكرنا تطهرية الفكتوريين وقلقهم العميق من اى اثر ضار قد يلحق بمجتمعهم . وقد بلغ هذا القلق ذروته خلال الستينات واستمر حتى الثمانينات . ففي عام ١٨٦٦ ظهرت في دورية London Quarterly Review ، التي اشتهرت بميولها المتطهرة ، حملة ضد ما اعتبرتها روايات مثيرة كتبها **تشارلز ريد** (١٨١٤ ــ ١٨٨٤) Charles Reade و**ولكي كولينـــز** (١٨٢٤ ــ ١٨٨٩) Wilkie Collins ، ومسز **هنري وود** Mrs. Henry Wood ووصفتها بانها نوع مـــن « السم الخفي » الذي سيؤدي الى انهيار المجتمع . ويتضح من الاسلوب الذى اتبع في هذه الحملة التي لم يكن لها اى اساس من الصحة ، هبوط مستوى النقد الروائي واللا منطقية التي بني عليها . فكان النقاد يقفزون من اعتراضهم على لا اخلاقية رواية بالذات الى الحكم الشامل علـى طبيعة الرواية عامة وتاثيرها الفاســـد علـى المجتمع .

وقد طبق كثير من النقاد المحترفين مقياس الفائدة الاخلاقية للرواية على نحو اكثر تفاؤلا . فاشاد بعضهم برقي مستوى الروائيين الاخلاقي وطهارة تعاليمهم الاخلاقيـــة . وبـــذلك اصبحت الرواية في نظرهم اداة للتعليم ووسيلة لتصحيح الاوضاع الاجتماعية الفاسدة المعيبة ، ولنشر الفضيلة . وتنعكس هذه النظرة المنفعيـــة الــى الرواية في السبعينات في الجدال الـــذى نشـــأ حول الرواية . وسرد المدافعون عنها امثلة تثبت ان الرواية تعمق من تجربة القارىء ، وتعمل على احياء المثل الفاضلة ، « وتوقظ قليلا من البطولة » وتعلم الفتيات « الايثار والطيبة والرقة » (١٩) . ولا تمتنع ، نفس الدوريـــة ، عـــن مهاجمـــة والترسكوت لفشله ، كما تقول ، في تطوير الفائدة الاخلاقية التي رفعت الرواية الى مصاف الادب المحترم منذ ان كتب رواياته . وتعود مرة ثانية الى وصف رواياته بانها روايات تسلية لا اكثر ولا اقل ، متسائلة كيف يتأتى لمثل هذا الكاتب بما له من نبوغ وقوة وامكانيات ان يسقط من حسابه اهدافا عظيمة تتفتى مع ما حباه الله به ، وتنتهي بالسؤال : « اليست هناك قضية واحدة حية تستحق الدفاع ؟ » (٢٠)

وبذلك كانت معاناة الرواية ، في نهايـــة المطاف ، من اصدقائها الاخلاقيين المنفعيين لا تقل عن معاناتها من اعدائها الاخلاقيين المتطهرين . ففي كلتا الحالتين لم يثمر موقفهما عن الاعتراف بالرواية كشكل ادبي له كيانه واستقلاله الذاتي .

ومع ذلك فقد تقدم النقد الروائي علـى ايديهما نتيجة لا تفاقهما على تقييم الرواية على اساس تاثيرها المنفرد علـــى خيال القـــارىء ومشـــاعره . وفي مقال نشر عـــام ١٨٦٦ في Saturday Review اشار الكاتب الـــى هـــذا التاثير غير المباشر الذى اعتبره اعظم ما تتصف به الرواية فيما يتعلق بفائدتها العملية ، ويرجع الى الصلة الوثيقة بين « خيال الانسان المسرحي »

---

(١٩) "The Uses of Fiction", Tinsley's Magazine (1870), vi.

(٢٠) نفس المرجع ، 'The Scott Centenary' العدد التاسع (١٨٧١ ــ ١٨٧٢)

ومجمل طبيعته الاخلاقية . ويعطي هذا النوع غير المباشر من الفائدة العملية لكل من الروائي والناقد النظرى مجالا اوسع للعمل مما يعطيه النوع الآخر من الفائدة العملية المباشرة . وهـذا النوع السابق هو الذى اعتمـدت عليه جـورج اليوت فى تبرير اهمية عمل الروائي وجديته . وجاء فيما قالته :

ان اعظم فائدة ندين بها للفنان ، سواء اكان رساما أم شاعرا ام روائيا هو تأثيره على اتساع دائرة مشاعرنا وتعاطفنا ... ان الفن هو اقرب شيء للحياة ، وهو وسيلة لتوسيع حلقة تجاربنا ، ولمد صلاتنا ببنى البشر خارج حدود حياتنا الشخصية (٢١) .

ويتبين من هذه الفقرة ان جورج اليوت ،مثل جميع الفكتوريين العظام ، كانت تنظر الـى دورها كمعلم او مؤثر على فكر الناس ومشاعرهم نظرة جادة ، كما تؤمن بمسئولية الكاتب الكبيرة وقداسة عمله .

وقد ادى الاعتراف باهمية الدور الـذى يلعبه الروائي فى حياة الانسان والمجتمع الى تأكيد جديد فى النقد الروائي لاعلى اثر الـروايـة فى السمو بالاخلاق ، ولكن على النواحي الفكرية والابداعيـة فى الروايـة . وفى مقـال ظهـر فى British Quarterly عام ١٨٦٧ ارتفع الكاتب بالمقاييس الفنية التي تتطلبها الرواية ، واضفى ثناء على الرواية لشمولها واحتوائها على الادوار المتعددة التى تؤديها كـل من الملحمـة والمسرحية والشعر الغنائى . ويتساءل الكاتب « ما الذى لا يستطيع الروائى عمله ؟ » . ان اسمى الحقائق فى نظره ــ وهنا يميز وبين مجـرد الدرس الاخلاقى والموعظة ــ يمكن التوصل اليها عن طريق الرواية، وخاصة اذا كانت جورج اليوت هى كاتبة الرواية التى يقارن الكاتب بينها وبين جوته Goethe من حيث نظرتها الجدية وسمو مبادئها .

وتختلف جورج اليوت عن كثير من معاصريها فى مفهومها للنظرية الاخلاقية للرواية ، فهى تعتمد في تأثيرها على القارىء لا علـى الموعظة المباشـرة (وان كانت رواياتها تحوى كثيرا من هذه المواعظ) ولكن على التأثير الخفى لا سلوبها فى الكتابة الذى تخاطب به مشاعر القارىء وعقله وحواسه كانسان متكامل لا يمكـن الفصـل بين عناصـر انسانيته المتعددة . وتقول جورج اليوت في هـذا الصدد مؤكدة العامل الجمالى فى رواياتها لا العامل المذهبى المباشر :

ان مهمتي هي مهمة المعلم الجمالي لا المعلم المذهبي .وهي تهدف الى احياء انبل المشاعر التى تدفع بالانسان الى الرغبة في العدل الاجتماعي ، ولا تهدف الى وصف الخطوات العملية اللازمة المحددة التى قلما يستطيع عقل الفنان الحكم عليها مهما حركه تعاطفه الاجتماعي (٢٢) .

اصبحت القضية هنا قضية فنية جمالية ،وليست قضيـة تلقينية هادفـة مباشـرة ، كما اصبح الشكل الجمالى او الفنى اساسا فى تصوير الرؤية الاخلاقية الشاملة . اى ان الشكل الفنى فى سبيله الى الارتقاء الـى نفس مستوى اهمية الموضوع ، او على الوجه الاصح اهمية الرؤية .

---

(٢١) "The Natural History of German life", Westminister Review, (1856), X

(٢٢) Letter, edit G. S. Haight, 1954-5, vii p. 44

وهنا اعتراف صريح بالدور الفنى والشكلى للرواية الذى لم يتنبه اليه النقاد في غمرة دفاعهم عن اخلاقيات الرواية المتعلقة بالموضوع .

ولعل جورج اليوت فى الرواية هو من اجود واقدر ما كتب فى هذا المجال فى العصر الفكتورى . ونظريتها ــ ان صح تسمية تعليقاتها المتفرقة بنظرية ــ مبنية على الاسلوب الواقعى الذى نادت به ، ودافعت عنه ، وطبقته عمليا منذ اول رواية نشرت لها . وقد اتخذت الالتصاق بالواقع القيد الوحيد للوراية ، وهاجمت فى نقدها ، مستندة الى هذا المبدأ البسيط الروايات التى حادت عنه . فالمبالغة والتقاليد الادبية البالية ، وكل ما يمكن وصفه بالتصنع الادبى لاقى منها نقدا لاذعا . وقد نشرت تعليقاتها ومقالاتها فى دوريتى **ليدر** Leader ووستمنستر Westminster في خمسينات القرن الماضى . واهم ما كتبته فى هذا الصدد مقالان بعنوان : « التاريخ **الطبيعى للحياة الالمانية** » "The Natural History of German Life" « روايات تافهة لنساء روائيات » "Silly Novels by Lady Novelists" وفي الفصل السابع عشر لرواية **آدم بيد** (١٨٥٩) Adam Bede شرحت نظريتها الواقعية موضحة البساطة والقوة اللتين بنت عليهما رايها فى تصوير الحياة ، وقالت :

وبذلك فانا راضية ان احكى قصتي البسيطة دون ان احاول تصوير الاشياء على نحو افضل مما هي عليه فـي الواقع . انا لا اخشى شيئا بالتاكيد الا عدم توخى الصدق ، فهذا رغم اقصي ما نبذله من جهد شيء يخشى منه . ان البعد عن الحقيقة سهل والصدق صعب . وفي صفة الصدق الرفيعة النادرة هذه ، التي تتصف بها صورى الواقعيـة ، والتى يحتقرها اصحاب النفوس المتعالية ، فى هذه الصفة اجد متعة كبيرة .

ان الاحترام ، بل والتقدير ، اللذين تتميز بهما جورج اليوت فى نظرتها الى انتاجها الروائى ساعدا فى الجزء الاخير من القرن التاسع عشر على قيام حركة فى مجالى الرواية والنقد الروائى اساسها الجدية والفكر والعقلانية . واصبح روائيون من امثال **جورج ميريدث** (١٨٢٨ ــ ١٩٠٩) George Meredith **وجورج مور** ١٨٥٢ ــ ١٩٣٣ George Moore **وجورج جيسنج** (١٨٥٧ ــ ١٩٠٣) George Gissing **وتوماس هاردى** (١٨٤٠ ــ ١٩٢٨) Thomas Hardy نقطة التقاء عاصف وجدال مستمر حول الرواية الادبية ، وما يجب ان تكون عليه . فكان راى ميريديث انها يجب أن تتضمن « فلسفة » و « فكرا » و « فكرة » بدلا من ان تكون قالبا لاخلاقيات الطبقة المتوسطة ووسيلة لقتل الوقت . واتخذ جورج مور نفس الموقف مهاجما معاصريه عندما قال غاضبا : « ان اهتمامى لا يتجه نحو اولئك الذين ينظرون الى الادب وكأنه نوع آخر من رياضة ركوب الدراجات » (٢٣) . واصبح « الضمير الفنى » المصطلح الذى تعارف عليه الروائيون النقاد فى حربهم لرفع المستوى الفنى للرواية ووضعه فى المرتبة الاولى قبل اى اعتبار آخر . وكان يخشى عليه ، كما حدث فى العصور السابقة ، من انتشار الرواية الرخيصة الشعبية واكتساحها السوق في اعقاب قوانين التعليم الجديدة التى استوعبت عددا كبيرا من المواطنين ، تعلموا القراءة والكتابة دون ان يحصلوا على اية ثقافة .

---

(٢٣) "A Tragic Novel", **Cosmopolis,** vii, (1897), 58

وكان **جورج جيسنج** من الروائيين النقادالذين بهروا بانجازات الروائيين الفرنسيين والروسيين ، الذين اتصفت اعمالهم بذلك« الضمير الفنى » الحى الذى وضع الادب فوق اى اعتبار مادى ، مالا كان ام شهرة . وقارنجيسنج بين الرواية الفرنسية والروسية من ناحية وبين الرواية الانجليزية من ناحية اخرى ، فقال :

> ان الروايات الانجليزية مادة بائسة بسبب بائس جدا ،وهو ان الروائيين الانجليز يخشون من انجاز احسن ما فى مقدورهم لخوفهم من يضر ذلك بشعبيتهم ، ومن ثم بدخلهم... فليكن الروائيون صادقين مع ضمائرهم الفنية وسيتبعهم الذوق الجماهيرى فيما بعد (٢٤) .

ساعد موقف الروائيين النقاد من الرواية فى الربع الاخر القرن التاسع عشر على الانتباه الى الشكل الروائى ومناقشة جمالياته . وكانت هذه آخر مرحلة من مراحل تطور النقد الروائى فى القرن الماضى واصعبها ، كما يبدو من تخبط النقاد وترددهم ، وعدم توصلهم الى ابسط المبادىء التى يمكن الاستناد اليها .

فانكرت فيرنون لى Vernon Lee الروائية التى عكفت على دراسة البناء الروائى ، جماليات الرواية . ان الرواية فى نظرها ، متى قورنت بفن التصوير او الموسيقى ، ليست الا نصف فن . فهى تفتقر الى الوسيلة التى يمكن بواسطتها ان تحول موضوعها ذا الاهتمامات الانسانية الاخلاقية الى تلك الانطباعات الحسية التى منها يتالف كل ما هو جميل . ان جاذبية الرواية فى نظرها غير جمالية ، بل تستند الى ميلنا المنطقى نحو النقاش والجدل واكتساب معرفة بالحياة ، والاثارة العاطفية ، والشعور بالرضا الذى تدخله علينا نماذج مركبة من الكلمات . وهذا العنصر الاخير هو الوحيد الذى يمكن اطلاق مصطلح « الشكل » عليه وهو عنصر ، كما تدعى فيرنون لى ، تستطيع الرواية الاستغناء عنه (٢٥) .

وظهرت نفس السلبية فيما قاله **جورج بارنيت سميث** George Barnett Smith عام ١٨٧٤ عن بناء الرواية . فبعد ان اثنى ثناء عظيما على فيلدنج واعماله الروائية ، قال :

> لن تحظى الرواية ابدا بمكانة توازى فى اهميتها مكانة المسرحية بسبب العيوب فى بنائها (٢٦) .

ووقع سميث ، كما وقع كثير من معاصريه ، فى نفس الخطأ الناجم عن الاعتقاد بانه يمكن الحكم على بناء الرواية المتفكك بالاستناد الى مقاييس تنتمى الى شكل ادبى آخر مثل المسرحية ، لا الى مقاييس تناسب اهداف الرواية .

---

(٢٤) "The New consorship of literature", letter tothe **Pall Mall Gazette**, XI, (December 1884)

(٢٥) "The Aaesthectics ofthe Novel", **Literature**, (1899), V 98-100.

(٢٦) "Our First Great Novelist" **Macmillan's Magazine**, xxx (1874), 1.

وعلى العكس من ذلك اعتبر آخرون مرونة الرواية واحدة من مزاياها الجمالية . فقال احد المعلقين على الرواية :

ان الرواية من بين جميع الاشكال الادبية هي الشكل الوحيد الذى يستطيع ان يعبر بسهولة مطلقة عن كل عاطفة يمكن تصورها (٢٧) .

غير انه عـاد ثانية واعترف بمخاطر هـذه المرونة فى البناء الروائي .

والمهم فى كل هذا ، سواء اجاءت التعليقات النقدية على الشكل الروائي ايجابية ام سلبية ، هو بدء ظهور الوعى بالناحية الجمالية للرواية ومناقشتها . وقد صاحب هذا الاتجاه الجديد فى اواخر القرن التاسع عشر ازدياد الوعى الفنى عند الروائيين انفسهم الذين وقعوا تحت تاثير **فلوبير** (١٨٢١ ــ ١٨٨٠) Flaubert الروائـــى الفرنسى الـذى ساعد اهتمامه بالشكـل الفنى للرواية على تطوير الرواية الحديثة ، كما ساعد على النهوض بالرواية عامة لما ابداه مـن جدية فى معالجته اياها .

ونتيجة لهذا ، اخذ النقاد الروائيون بالذات فى اواخر القرن ، يعبرون عـن حماسهم المتزايد للرواية وعـن ثقتهم فيها ، متخذين مـن الرواية الفرنسية مثلا يحتذى لرفعة الفـن . فى احدى المقالات الهامة التى ظهـرت عـام ١٨٨٤ بعنوان « فن الرواية » « "The Art of Fiction" اكد **والتر بيزانت** (١٨٣٦ ــ ١٩٠١) Walter Besant الروائى الانجليزى ، ان الرواية قرين تام لاشكال الفنون الاخرى ، محكومة مثلها بقوانين دقيقة يمكن ان تلقن كما تلقـن قوانين الهارمونى في الموسيقى . وعندما نصل الى عام ١٨٩٠ نجد ان النقاش والجدال قد ازداد حول اهداف الرواية واساليبها ومبادئها ، حتى اصبحت ظاهرة مـن ظواهر الدوائر الادبية . وانصب هذا الجدل حول جانبـى الشكـل والموضـوع ، وكان لكـل منهما انصاره . فاصبحت الرواية محور اهتمام عدد مـن النقاد اعتبروها الان شكـلا ادبيا يستحـق الدراسة .

• • •

كان الوقت قد حان لظهور ناقد يستطيع ان يجمع الخيوط المفككة فى شكل مترابط . وآلت هـذه المهمـة الى الروائي هنرى جيمز الامريكي الاصل الذى عاش معظم حياته الادبية فى انجلترا وتجنس بالجنسية البريطانية . وقد ارتفع جيمز الى مصاف الروائيين العظام كما اصبح رائد النقد الروائي فى العصر الحديث .

كانت الثورة فى النقد الروائي التي قامت على اكتاف جيمز مفاجئة وساحقة وكاملة . ففي عام ١٨٨٤ جاء على لسـان جيمز ، وهـو ما زال فى منتصف العمر ، ان الرواية الانجليزية ليست

(٢٧) "Novels & Novelists", **Saturday Review, xxxiii** (1872), 722-3.

موضوعا « لدراسة » (٢٨) ، وعبر عن اسفه العميق لافتقارها الى النقد لاهميته في تطور الادب . وبعد عشرين عاما ، كان جيمز قد درس الرواية وحلها بدقة لم يسبق لها مثيل في **مقدماته** الثماني عشرة التى كتبهــا لطبعـة نيويورك« لرواياتـه وقصصـه » (١٩٠٧ ــ ١٩٠٩) . **ولعلنا لا نخطيء اذا ما قلنا انه** ليس هناك في تاريخ النقد ثورة في مثل شمول الثورة التى ادت الى **مقدمات** جيمز . وينفرد النقد الروائي في هــذه الظاهرة المفاجئة ، بعكس **النقد الشعرى الذى نما** وتطور في انجلترا ببطء وصعوبة طوال ثلاثة قرون منذ ايام الشاعر درايدن . **واذا ما استثنينا** المحاولات الراهنة المتفرقة التي سبق ان ذكرناها ، فاننا لن نكون مخطئين كل الخطأ اذا قلنا ان النقد الروائي في اواخر القرن التاسع عشر في انجلترا ولد من لا شيء . وايا كانت الاهمية التى نضفيها على نقد جورج اليوت وزميلها جورج هنرى لويس George Henry Lewes **فمن الواضح لنا اليوم** كما كان واضحا لجيمز انها كتبت دون استناد الى مبادىء **فنية موثوق بها** ، **بدون التأكد من ان** الجمهور القارىء يتمتع بنفس الثقة في الرواية . اما في حالة جيمز ، **ففي استطاعتنا ان نقول انه** لاول مرة منذ ايام فيلدنج ، الرائد الاول في النقد الروائي ، يتحدث روائي عن **فنه بمعرفة وثيقة** ، كما يكتب عــن اعمال غيره مــن الروائيين بنفس الاســلوب الواثق .

ان نشر **مذكرات** جيمز Note books عن رواياته عام ١٩٤٧ اثبت بما لا يدع مجالا للشك ان جيمز كان فنانا ذا وعي عميق استطاع ان يعبر عنه منذ البداية . **فمن سن الخامسة والثلاثين حتى وفاته** لم يتوقف عن شرح الاسباب والظروف التي دعته الى اختيار موضوعات بالذات ، موضحا في **مذكراته** نواة رواياته ، **والخطوات التي مرت بها** ، وكيفية تطورها . ان كل رواية من روايات جيمز وكل قصة من قصصه ظهرت الى الوجود بارادة واعية افصح عنها الكاتب باسهاب **لايكاد يكون له نظير في** تاريخ الرواية . في هذه **المذكرات** اذآ ، التي بدأ جيمز يكتبها عام ١٨٧٨ ولد النقد الروائي كما نعرفه اليوم . اما **مقدمات** رواياته الثماني عشرة التي كتبها في نهاية حياته الادبية **فهي تتويج لجميع** انجازاته . ويجب ان نشير هنا الى ان الاعتقاد السائد بان النقد كثيرا ما ينشــأ نتيجة لفشــل الكاتب في اعماله الخلاقة **لا** ينطبق اطلاقــا علــى جيمز ، حيث نجد التوأم التام بين النقد والخلق . ويلاحظ ايضا ان جيمز **لم** يكتب معتذرا او مدافعا عن بعض او كل ما جاء في عماله . **ان مجموع نقده** يتصف بطابــع الثقــة **المتواضعــة** ، كما يتصف باحترام الكاتب العميق لذلك الغموض الذى لا بد ان يكتنف كل عمل ادبي خلاق .

واذا ما تركنا **مذكرات** جيمز جانبا لاختلافها العام عن بقية نقده من حيث هي توضيح وتفسير لعملية الابداع عنده ، فان نقده يقع في ثلاث مراحل يتناول الناقد عبرها كتابا معاصرين له وغالبيتهم من الروائيين الانجليز والفرنسيين والامريكيين . وتغطى المرحلة الاولى مقالاته المنشورة ابتداء من سن الواحدة والعشرين في مجلة Nation وغيرها . وهي تعليقات على كتب من مختلف الانواع ، مــن

"The Art of Fiction"

(٢٨)

بينها مقال (١٨٠٥) هاجم فيه رواية **صديقناالمشترك** (١٨٦٥) **Our Mutual Friend** لتشارلز ديكنز . **امـا المرحلة الثانية فهي** تلك الفترةالوسيطة المثمرة التي بدأت بنشر مقال (فن الرواية » (١٨٨٤) " The Art of Fiction " ،وهو تعليق على محاضرة والتر بيزانت المنشورة **تحت نفس العنوان ، وبيان في نظرية الرواية** . ثم تلته مقالاته الهامة عن الروائيين **ترولوب** (١٨٨٣) **وستيفنسون** (١٨٨٨) **وموباسان** (١٨٨٨ Maupassant(**وزولا** (١٩٠٣) Zola **وبلزاك** (١٩٠٥) Balzac ويمكن ان نضيف الى هـذهالمقالات مقالة عن **هوثورن** (١٨٧٩) Hawthorne اعطى فيه الروائي الامريكي حقه في الثناء كاملا ،ثم مقالة عـن **كونراد** Conard **وآرنولد بينيت** Arnold Bennett **وهيو والبول** Hugh Walpoleبعنوان « جيل الشباب » "The younger Generation"

. واخيرا تجيء المرحلة الثالثة التيظهرت خلالها **مقدماته** (١٩٠٧ ـ ١٩٠٩) التي تتضمن مجموع ما جاء في نقده الروائي ، وتمثلعمق وغنى اهتماماته النظرية في النقد . واعتبر جيمز هذه **المقدمات** في مجموعها مرشدا لمن يصبوالى مهنة الرواية الشاقة ، كما سماها . ولا يمكن ان ننكر ان **هذه الاشادات لا تتبع نظاما معينا** ،فكل رواية وكل قصة كانت تطرح اسـئلة نقدية خاصة بها **لا تنطبق على غيرها** ، ولا تستند الـىخطة واضحة الهدف . ومع ذلك فمجموع ما جاء فيها **ذو طابع متنوع** تشمل جوانبه العديدة اهـماوجه النقد الروائي عند جيمز .

وكان جيمز في هدفه طموحا ، فرمى الـىخلق تقليد انجليزى في النقد الروائي من لا شيء . وكان مصيبا في شكواه من افتقار الرواية الـى**النقد عندما قال :**

كان الاعتقاد السائد الى وقت قريب على ما يبدو ، هوان الرواية الانجليزية ليست على حد قول الفرنسيين مجالا للدراسة . ولم يبد عليها انها تستند الى نظرية او اقتناعاو وعى بنفسها ، او انها تعبير عن عقيدة فنية نتيجة اختبار ومقارنة ... لقد كان هناك شعور عام مريح منبسط بانالرواية هي رواية كما ان « البودنج » هي بودنج (٢٩) ، وان مهمتنا الوحيدة هي ان نبتلعها . (٣٠)

وقد سبق ان لاحـظ جيمـز في مقالـهعـن ترولـوب ان « مـن الخطـورة بمكان » في انجلترا « ان يكون المرء فنانا صريحا او واعيا ، اوان يتبع نظاما او مذهبا » . وقد اخذ جيمز على عاتقه مهمة اصـلاح الوضـع بان جعـل الروايةالانجليزية موضع « الدراسة » الجادة لاول مرة تقريبا في تاريخها الطويل .

واسـاسا النقد عند جيمز هـو التعاطفوالتوحيد بين الناقد والعمـل الادبي . ويعرف النقد بانه «مبدأ تفهم الاشياء» ومهمته «الالحاح فيالمطالبة بحاجة جميع الاشياء الى التفهم » (٣١) . ولا فائدة من ان يضجر الناقد من موضوعالمؤلف ،كما سبق ان حدث مع المتطهرين والنفعيين ، لان

---

(٢٩) « البودنج » نوع من الحلوى المائعة الشكل ويقصدباستعمال الكلمة هنا افتقار الرواية الى الشكل المحدود .

(٣٠) "The Art of Fiction"

(٣١) Views & Reviews, (1908), 94

الموضوع هبة تعطي عن طريق مؤثرات وعملياتهي فى نهايتها غامضة . واهتمامات الناقد يجب ان تنصب على المعالجة الادبية التي لا يستطيع انيلم بها الا « بالانغماس فى عبقرية الكاتب ، وتتبع خطاه ، والتعرف على كنهه » (٣٢) . ومع انجيمز فى **مقدماته** كان فى وضع يحسده عليه النقاد من حيثانه كان يلعب دور الناقد لاعماله الخلاقة،وبذلك كان ناقدا مكتمل المعلومات عما يكتب ، فانه كان يلعب دور القارىء ايضا الذى تفوته اشياءكثيرة ، وخاصة فيما يتعلق بالاعمال التي انتجها منذ زمن بعيد . ولذلك فعندما تناول رواياتــهاقترب منها فى تواضع الناقد الذى لا يســتطيع مهما حــاول ان يتعرف على كل ما يكنه العمــلالخلاق . فكان مثلا للناقد المثالــي كما تصــوره جيمز، الذى عليه ان يقبل حدود معلوماته ونقائصقدراته عندما يقف وجها لوجه امام السر الغامض الذى يكتنف كل عمل ابداعي . ان الناقد المحترفيستطيع ان يتعلم الكثير من موقف جيمز من العمل الفني ، واعترافه باستحالة التوصــل الــى كلالحقائق التي تؤول فى نهاية الامر الى ما نسميه فنا . وقد عبر جيمز عن هذا بقوله :

> ان التاريخ الخاص لاى عمل مخلص مهما كان متواضعا ،يهيمن فى مجموعه على جو الرواية الفني المحاط بالغموض ، مما يضفى وقارا على العمل (٣٣) .

ويقول ايضــــــا :

> ان السطح المغمور هنا وهناك يرفض الاستجابة ، بلاشك . فالاسرار والنوايا الخفية مدفونة الى درجة لا تسمح لها بالظهور ثانية (٣٤) .

وفى موقف جيمز هذا بعض الشبه بنظرياتالنقاد المحدثين الذين يؤكدون عدم جدوى تتبع نوايا الكاتب . ولكن الشبه لا يعدو كونه سطحيا ؛اذ ان جميز يملك من البصيرة ما يمنعه من القول بان الاستحالة تعني عــدم المحاولة . ان جيمزيعلم تماما انه ليس هناك نقد مهما تعمق ، يستطيع ان « يستحوذ ذهنيا » على العمل الفني . وانماالنقد انواع ، فمنه ما يقترب قليلا مــن العمل ، ومنه ما يبعد عنه كلية .

وقد كتب جيمز قصة قصيرة فى موضــوعالكاتب والناقد بعنوان **الصورة فى السجاد** (١٨٩٦) The Figure in the Carpet . ويشير العنوانالى السر المدفون فى العمل الفني الذى ينبغي على الناقدوالقارىء انيكتشفاه .ويلاحظ انالسخريةفى القصة لا تصدر ، كما ظن البعض ،عنالاعتقاد بأن سر « فيريكير » ، الكاتبالابداعي ، لا يستحقالاكتشاف ، ولكنها تصدر عن خطأ لاعتقاد بأن هذا السر يمكن التوصل اليه دون اللجوء الى قراءةمتعمقة ومتفهمة للعمل الادبي نفسه. وكل محاولة لاكتشاف سر « فيريكر » الكاتب العبقرى الذىيموت حاملا معه هذا السر الى القبر ، كما تظن شخوص القصــة ، كل محــاولة جــديدة تلقيبالباحث بعيدا عن الجواب ، لانه يعتمد فى بحثه

---

(٣٢) "Notes on Novelists with Some other Notes" (1914), 259.

(٣٣) "The Art of the Novel", edited by R. P. Blackmur (1934), 4.

(٣٤) المرجع السابق . ص ١١ .

على الاخرين وليس على « تحليل دقيق مبنى على التقدير » للاعمال الابداعية ذاتها . والقصة تعبير عن احتجاج جيمز على افتقار انجلترا الى النقدالروائي الجاد ، وعلى « جمود الحسن العام » فيما يتعلق بالرواية . وقد لخص هذا فى قوله :

« ان ما نسميه نقدا بعيد عن الاحساس بحقيقة الاشياء » (٣٥) .

ويرمى جيمز فى هذه القصة الى الارتقاء بالرواية الى مكانة الفن الرفيع المركب الذى يصعب على الناقد ان يحلل جميع تركيباته ، وان يستخلص منه بالتجريد رؤية الكاتب او « الصورة فى السجاد » ، كما سماها جيمز فى قصته . فجوهر العمل الخلاق سر غامض لا يمكن الاستمتاع به وتقييمه ، الا عن طريق القراءة المتعاطفة . ويعنى هذا ان مهمة الناقد شاقة . فيجب ان يتصف بالقدرة على النظرة المركبة والاحساس المرهف ، وعلى بذل كل مشاعره وانتباهه . ان النقد عند جيمز هو « آخر الفنون واكثرها تركيبا ، آخر ما يؤهل له الانسان ، وآخر ما يصل اليه . وهو اكثر الفنون حاجة الى النضوج والتفهم والمقارنة » (٣٦) .

وجيمز فى نظرية للرواية التي تناولها فى مقاله « فن الرواية » يصوغ بعض العبارات المحددة فى مفهوم الرواية والرؤية الروائية التي ينفرد بها هذا الشكل الادبي ، كما يوضح نقائصها ومزاياها التى لا جدال فيها . ونقطة الابتداء عنده، كما كانت عند فيلدنج وجين اوستن وجورج اليوت ، هى تصوير الرواية للحياة . فيقول :

ان السبب الوحيد لوجود الرواية هو انها تحاول تصوير الحياة . ومتى القت هذه المحاولة جانبا ... تكون قد وصلت الى وضع غريب عنها (٣٧) .

ويقول فى مكان آخر : « ان الرواية تتصف بالشمول والعمق فى مطابقتها الرائعة للحياة » . (٣٨) وهناك فقرات عديدة فى نقد جيمز تشير عامة الى تقبله للاسلوب الواقعى واعجابه بكتاب هذا الاسلوب من الروائيين العظام من امثال بلزاك وفلوبير وموباسان ودوديه وجورج اليوت وتورجينييف. وبينما يعبر عن استيائه من اسلوب **جورج صاند (٣٩)** (١٨٠٤ ـ ١٨٧٦) George Sand لافتقاره الى « الدقة » ـ اى اسلوب الحقيقة ، فانه يثنى على « الدقة فى تصوير التفاصيل » الى حد « التشبع » فى روايات بلزاك وفلوبير .

وعلى الرغم من تأكيد جيمز لعلاقة الرواية بالواقع فانه لا يخلط بينهما . فالرواية ليست مرآة ولا هى محاكاة للحياة بالمعنى الضيق لان الفن ، فى نظر جيمز ، لا يمكن ان يكون مجرد

---

(٣٥) المرجع السابق ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩ .

(٣٦) "The Art of Fiction".

(٣٧) "The Art of Fiction"

(٣٨) **Partial Portraits** (1888), 378.

(٣٩) **French poets & Novelists** (1878)

« شريحة من الحياة » كما ادعى زولا . بل الرواية مختارات من الحياة ، يحورها الروائي ويشكلها ويخلقها من جديد . والاختيار ضروري لان الحياة كلها شمول وفوضى ، والفن كله تمييز واختيار » (٤٠) .

وقد شبه جيمز الفن بالمفاعل الكيمائى الذى يصهر مواد الحياة حتى تظهر فى قالب جديد لتؤدى عملها . واستخدم نفس الصورة في وصفه للفنان عندما قال : « انه الكيمائى Alchemist الحديث الذى يبعث الحلم القديم فى البحث عن سر الحياة (٤١) .

الرواية اذا تعطى القارىء صورة واهمة بالحياة ، ويكون نجاحها بالقدر الذى يستطيع الروائى بأسلوبه اقناع القارىء بهذه الصورة وهنا تظهر مشكلة الصدق الفنى التى شغلت بال جيمز كما كانت موضع اهتمام جورج اليوت التى اكتشف فى رواياتها « ذلك الدليل القوى الكامن بالصدق »(٤٢) . فجيمز احتار فى تحديد ما كان يعنيه بالصدق والحقيقة فيما يتعلق بالاسلوب الواقعى . ولم يستطع « تثبيت » درجة الواقع الذى يتطلبه العمل الفنى. ووجد صعوبة فى قبول شخصيات خيالية مثل دون كيشوت ومسترميكوبه لان « حقيقتهما » كما قال « مسألة في غاية الدقة ، مصبوغة برؤية الروائيين الى درجة نتردد معها فى تقديمها كنموذج يحتذى . مهما وضحت معالم الشخصيتين وحيث» (٤٣). واتخذ جيمز موقفا مماثلا حيال رواية ديكنز **صديقنا المشترك** ، فقال عنها انها تحفل بشخوص ممسوخة تثير الضحك ، مشوهة فى مظهرها ومسلكها دون سبب مقنع ، الى درجة قضت على انسانيتهم .

فالواقع اذا ذو اهمية اساسية فى الرواية ، ولكن ليس من السهل اعطاء فكرة واضحة ووصف كامل لما يعنيه الواقع ، كما يتضح من قول جميز :

لا جدال في انك لن تستطيع ان تكتب رواية جيدة الا اذا كان لديك الاحساس بالواقع ، ولكن من الصعب ان اعطيك وصفا مفصلا للعناصر التى تعمل على خلق هذا الاحساس . ان الانسانية شاسعة والواقع ذو اشكال لا حدود لها (٤٤) .

وهنا يتساءل جيمز لماذا يحاول الروائى أن يخلق صورة « واهمة بالحياة » ؟ وماهى وظيفة الفن ؟ والسؤالان متداخلان والاجابة عليهما تكاد تكون واحدة . ووظيفة الرواية فى نظر جيمز هى اعطاء القارىء «عالما آخر» ، تجربة تشبه فى مفعولها الاثير الذى يستخدمه طبيب الاسنان ، فكلاهما يسكن من « آلام الواقع » . ويضيف جيمز : « ان مانراه طبعا هو واقع آخر ، واقع اشخاص آخرين ، ويتوقف ما نراه على القدر الذى تحتويه الصورة من الحياة » (٤٥). غير ان جيمز لا يدعى انه يعرف كنة هذا الشعور بالسكون والتخفيف من الآلام الناجم عن قراءة

(٤٠) "The Art of Fiction"
(٤١) Notes on Novelists, 275
(٤٢) Views & Reviews, 4.
(٤٣) "The Art of Fiction"
(٤٤) المرجع السابق
(٤٥) Notes on Novelists, 436

تجارب الاخرين فى الرواية . وكل ما توصل الىملاحظته هو اننا بعد القراءة نعود الى واقعنا ، وقد ازددنا قوة وصلابة . وتبين ان الروائى الذى يسمح لنا بأن « نحيا حيــاة الاخرين » لا يعمق من تجاربنا فحسب ، بل كذلك رؤيةجديدة للحياة ومعرفة صادقة بانفسنا . اننــا نشارك فى رؤية الروائى ونتشكل به . وفي هــذاالرأى امتداد وتطور لنظريةجورج اليوت في الواقع والصدق الروائى وتأثيرهما الخفى على القارىء .

ان الرواية تستطيع ان تكشف للقارىء عنحقائق نفسه وعالمه بنسبة اكثر من اشكال اخرى فنية فى نظر جميز . فالروائى ، كما يقول جيمز ،يمكن القارىء من ان يختار ويقارن ويتفهم ، حتى يصل فى نهاية المطاف الى نوع من التكامل الذىلا ينتمى الىالوضاعة والنفاقمهما كانتسطحيته وثغراته » (٤٦) . وهــذا التكامل الــذى يعتبره جميز اثرا رائعا مــن آثار الرواية يفترض مسبقا الشمول فى هــذا الادب والابتعاد عــن النظــرةالجزئية للواقع . فعلى الروائى ان يعبر من خلال أدبه عن كل نواحيه الانسانية . وهنا يجد جيمزمكانا للاخلاقيات والضمــير فى نظريته ومقاييسه الادبية . ويرى على هذا الاساس ان الرواية يجبالا تكــون عمــلا وصفيا محليا ، مجــرد صــورة للسطحيات . بل يجب ان يكــون لروح الانسانوجوهره مكان فى الرواية خليق به حتى لا يظهــر مجزأ ممزقا بل متكاملا روحيا وعقليا وجسميا .

وينتقل جيمز بطبيعة الحال من هذه الفكرةالى تناول موضوع العلاقة بين الرجــل والمراة فى الرواية فعبر عن اعتراضه على الرقابة المستترةفى انجلترا تلك التى حرمت علــى الروائى معالجة نواحى هامة من الحياة ، كما عبر عن اسفه للقيودالتى وضعتها الميول المتظهرة والاحتشام المتكلف في ذلك الوقت على العمل الروائى . ونادى جيمزبضرورة التحرر من هذه المعوقات للرواية فىسعيها نحو الرؤية المتكاملة .

ولكن لم يطل دفاع جيمز عن فكرة التحررهــذه التى استلهمها من الروائيــين الفرنسيين وتراجع عنـ ا نتيجة تطهره هو ونفوره من الناحيةالفريزيــة فى الانسان ، واقباله علــى الناحيتين الروحيــة والاخلاقية ، اى مــا اعتبرهما اكثــرانسانية وشمولا . وقد وجد ، رأيه ، ان غالبية الروائيــين الفرنسيــين يفتقــرون الى الرؤيــةالاخلاقية . فهــم على حد قولــ اساتذة فى الفن والشكــل ، وفي تصويرهــم لسطحيات الحياة :الاحساسات والغرائز والرغبات ، ولكن ينقصهم تصويــر « الشخصيــة فى حركتهــا ، وامكانياتسلوكها ، والدور الذى تلعبه الفكرة فى الحياة . . وعندما يضعون ايديهم على حياة الانسان الروحيةتتبدد مهارتهــم » (٤٧) . ويقارن جيمــز مقارنة فاصلة على هذا الاساس بــين الروائيين الانجليزوالفرنسيين .

فالانجليز ، فى نظره ، كتاب تملا كتاباتهم العيوب ، وينقصها الشكل ، ويميلون الى معالجة الامور معالجة نفسية اخلاقية باحتشام متكلف. اما الفرنسيون فهم اساتذة ضحل لا اخلاقيون فى تصوير سطح الحياة . وكان جيمز يرمى الىتحقيق التواؤم بين الميول الانجليزيةوالفرنسية

---

(٤٦) **Selected letters,** ed. Leon Edel, (1956), 157

(٤٧) **sEsays in London & Elsewhere** (1893), 183

فى الرواية بكتابة الرواية النفسية الاخلاقية ذات الشكل الفنى المتناسق ، اى الجمع بين المعنى الاخلاقي والناحية الجمالية .

ورأى جيمز ان مثل هذا التكامل امر شخصي محض وثيق الصلة بالعقل الذى يصدر عنه . وقال فى هذا الصدد :

ان اعمق ما يسفر عنه العمل الفني هو عمق العقل الذى انتجه ... فالرواية الجيدة لن تصدر ابدا عن عقل سطحى . هذه حقيقة تغطى ، بالنسبة للفنان ، المعنى الاخلاقي الذى يحتاجه (٤٨) .

فعقل الفنان بالمفهوم العريض هو الذى يشكل رؤيته وكلاهما محور اهتمام الناقد الروائي وقد شبه جيمز ادب الرواية بالبيت و « بيت الرواية » (٤٩)، له واجهة عريضة تتخللها نوافذ عدة ، كثيرا ما تكون مجرد ثقوب ووراء كل واحدة من هذه الفتحات اسس ذات عينين أو نظارة مكبرة ـ اى اداة ملاحظة فريدة تضمن لصاحبها « انطباعا يتميز على كل انطباع اخر » . فقد يرى المشاهدون نفس المشهد ولكنه يكون دائما مختلفا لان الرؤية تتوقف على المشاهدة وزاوية الرؤية . والمنظر هنا هو مشهد الحياة ، والفتحة او الثقب هو الشكل الادبي والمشاهد الذى نفث الحياة فى كلها هو وعى الفنان المتكامل . هذه هى الصورة اللافتة التي استخدمها جيمز في احدى مقدماته الاخيرة لوصف فن الرواية ، الذى لا وجود له الا بوجود « المشاهد عند النافذة » .

وقد ركز جيمز اهتمامه على ناحية الخلق عند الروائى التى تعكس الخيال اثناء عملية الابداع ، وتكشف عن عملية نسج مشاعر الكاتب وانطباعاته ، اى ذلك الوجه الذى يعكس ذاتية الفنان الدقيقة . وكل روائى يستحق المعالجة النقدية فى نظر جيمز « حالة خاصة » . وجمع هذه « الحالات » فريدة فى نوعها . ويكون الحكم على مستوى الناقد وقدراته بقدر ما يستطيع ان يصل الى اعماق « الحالة » التى يدرسها . ويلخص جيمز بعض تلك « الحالات » التى درسها فى نقده على النحو التالى : ففلوبير هو « المثل والصورة للحالة الفكرية » ، وزولا هو الشخصية التى « تسود وتهيمن فى النهاية » ، اما موباسان « فحالته » مميزة لانه يكتب عن طريق الاتصال الجرىء المباشر بحواسه . وجيمز في نقده هذا يكتب كالطبيب الذى يحاول تشخيص « حالاته » لاوصفها . والشىء الذى يبحث عنه فى « تشخيصاته » المستندة الى اسلوب العمل الادبى ونسجه ، هو مزاج الروائى الفريد ، ومدى رؤيته ، وحركة مشاعره وحواسه . انها تلك الاشياء التى سماها جيمز ب « لون الهواء الذى يشبع به الفنان ، ايا كان ، صورته للحياة دون وعى » . فالنقد عند جيمز لا يقل ابداعا عن العمل لخلاق ، والناقد مثله كمثل الروائى يجب أن يتشبع بالعمل الذى يتناله ويتفاعل معه كما يتشبع الاديب بالحياة المحيطة به ويتفاعل معها . والهدف فى نهاية الامر هو الوصول الى الجوهر .

وقراءة الرواية على هذا النحو معناها دراسة الروائى نفسه والعيش من جديد فى جو حياته الدفينة . ومع ذلك فان جيمز في نقده لا يخلط بين الروائى وعمله . ويقول فى هذا الشأن :

---

(٤٨) Partial Portraits, 406 - 7

(٤٩) The House of Fiction'

« ان الحياة والاعمال شيئان مختلفان ، والمعرفة الوثيقة باحداهما ليست ضرورية اطلاقا للاستمتاع العام بالاخرى » . ولكن على الناقد ان يتعلم « ان يقرأ ما بين السطور » .

وجيمز لا يقع ابدا فى الخطأ الذى وقع فيه كثير من النقاد من بعده ، وهو محاولة استنباط حياة الكاتب من خلال عمله . انه لا يرمي الى مجرد الترجمة عندما « يقرأ السطور » وانما يرى الى مسائل اكثر اهمية بمراحل تكشف عنها حياة الكاتب ، مثل الاسلوب الذى من خلاله اختبر الحياة والناس ، والاشياء التى سلط عليها اهتماماته ، وتلك التي اشاح عنها بوجهه ، والمواقف التي تنبأ بها فى رواياته وكيفية حلها . وعلى رأس هذه القائمة تقع قيمه الاخلاقية المستقاة من تجاربه . فالمطلوب من الناقد عملية تقترب من المنهج النفسى . ويؤكد هذا مقالات جيمز فى نقد الروائيين التي تستند الى الملاحظة النفسية ، والاستنباط والاهتمام بالمعاني الخفية ، والعلاقات الانسانية ، والظروف المحيطة بها ، والدوافع المسلكية .

وجيمز فى تأكيده لاهمية المشاعر والاحساسات عند الناقد يمكن اعتباره الى حد ما ناقدا رومانسيا تنصب اهتماماته على عملية الخلق عند الاديب ، مثله فى ذلك مثل كوليردج الشاعر والناقد الانجليزى . وهناك شبه ملحوظ بين نظرة جيمز الى العمل الخلاق ونظرة كوليردج ، فكلاهما يتعرف على عضوية العمل الحيوية التي تضفى عليه استقلالا مثل استقلال اى من الكائنات الحية . وفيما قاله جيمز عن شخوص روايته **صورة سيدة** (١٨٨١) **The Portrait of a Lady** دليل على استقلالها الذاتي ، ووجودها المنفصل عن وجود المؤلف . فيقول جيمز انه بينما كان يكتب روايته اخذت شخوصها تتصرف على انفراد وكأنها هي بدورها تبحث عن مؤلف آخر يطلق لها العنان . وكان انطباع جيمز اثناء عمله انها تقول له « لو انك اعطيتنا ثقتك فسنرشدك الى الطريق الذى يجب على البطلة ازابيل آرتشر ان تسلكه » . وفى مقدمته لرواية **السفراء** (١٩٠٣) **The Ambassadors** نصح جيمز قراءه الا ينتقصوا من قيمة « القوة الدافعة التي تولدها الرواية لنفسها » والتشبيه الذى يستخدمه جيمز ليوحى بالحياة التي تتخلل العمل الخلاق يبعث الى الاذهان ما قاله كوليردج ايضا عن الوحدة العضوية للقصيدة الشعرية . واليكم نص ما كتبه جيمز ، وهو الاقتباسات المشهورة فى النقد الروائي :

(الرواية) كائن حى ووحدة مستمرة ، مثلها فى ذلك مثل اى عضو حى ، وبقدر ما فيها من حياة سنجد ، كما اعتقد ، ان كل جزء من اجزائها يحتوى على بعض مما فى اجزائها الاخرى (٥٠) .

وتؤدى هذه الفكرة الى وجه من اهم اوجه النقد عند جيمز ، وهو اهتمامه الملح بالشكل الفني وعلاقته بالموضوع . وفى تأكيد جيمز لاهمية الشكل ، الراجع الى تأثير الرواية الفرنسية والحركة الجمالية فى نهاية القرن الماضي ، اسهامه الاساسي فى النقد الروائي . وتتركز **مقدماته** حول قضية الشكل التي كان يعلم جيمز مدى تعقيدها وتركيبها . لقد كان يعي انها مبنية على تناقض لا يمكن حله . فهدف الرواية والشكل النهائي الذى يأخذه لا يتقابلان

---

(٥٠) "The Art of Fiction", 228

ولا يتواءمان كما يحدث للماء فى الوعاء ، والعلاقةبين الشكل والمضمون علاقــة مختلفة تماما عــن علاقة الوعاء والماء . ولم يحاول جيمز تبسيطالقضية ، بل حاول ان يعيها فى ابعادها المتعددة .

ولقــد لخص جيمز اهميــة « الشكــل »بالنسبة للرواية فى قوله « بدون الشكل تكون الرواية مجرد « بودنج مائع » . وهــذا ما وصفبه روائع روايات تولستوى ودوستويفسكــي . وبنى اعتراضه على روايات تولستوى لما اعتبرهافتقــارا الى الشكــل ، وان كان لم يسعــه ، وهو الناقد ذو البصيرة النفاذة ، ان يضفي عليهاثناء عظيما . فروايات تولستوى كما قال جيمز :

كتلة رائعه من الحياة . واقعة عظيمة ــ حدث عشوائيهائل . وحش قيد لموضوعه الكبير هو الحياة باجمعها (٥١) .

ان اعجاب جيمز بهذه الاعمال الرائعــة لاتنكر . لقــد وصفها بانها « بودنج » حقــا الا انه اعترف ان عبقرية الروائي الروسي جعلتهاطيبة المذاق . ومعذلك فجيمز يؤكد عيوبها وهي : « الافتقار الى التكوين ، وتحديهــا للاقتصــادوالشكل البنائي » (٥٢) . أما اساس اعجابــه بالرواية الفرنسيــة ، على الرغم من نفوره مــناخلاقياتها ، فهو اهتمامها بالشكل والوعي الفني الذين اتصف بهما الروائيون الفرنسيون .

وقد يبدو من تعليقــات جيمز على اعمالتولستوى ان نظرته الى الشكل فى الروايــة نظرة ضيقة تفصل بينه وبين المضمون . ولكننا اذا ماامعنا النظر فى نظرية جيمز فى الرواية وجــدنا وعيا كاملا بالوحــدة بينهمــا . فهو يشكو مــنالاعتقاد السائد بان الموضوع والشكل فى العمل الحي مختلفان ومتفرقان . ويحاول اقناعنــابان ذلك التمييز الخطير بين المضمون والشكــل في العمل الفني الرفيع يجب القضاء عليه . وبينايضا انه من المستحيل وضع حد فاصل بينهما وتحليل التكامل الذى هو جوهر العمــل . وقداثنى جيمز على مدام بوفارى Mme Bovary لفلوبير لهذا التواؤم الكامل بين الشكل والمضون ،فقال :

والشكل فى حد ذاته لا يقل باى حال من الاحوال عنجوهر الموضوع او الفكرة في اثارة الاهتمام وفي الفاعلية . ومع ذلك فهو مطابق للمضمون لا يمكن فصله عنه الى درجةاننا لا نستطيع ان نستخلص الشكل في اية لحظه على انفراد . (٥٣)

وهذه الوحدة بين الشكل والمضمون هىاحد متطلبات جيمز الاساسيةفىالرواية، فالشكل وحده ، كما يقول « يأخذ المضمون ويمسك بــهويحفظه » (٥٤) .

وبالاضافة الى تحليل جيمز الدقيق لاوجهالرواية الفنية المختلفة ولانجذابه نحو المشاكل الشكليــة المتعلقــة « بوجهة النظر » والاداةالمصطلح عليها « الوعي المركزى » المبنيــة علــى

(٥١) "The future of The Novel" Essays on the Art of Fiction, ed. Leon Edel (1956) 228
(٥٢) Selected Letters, 171.
(٥٣) Notes on Novelists, 80.
(٥٤) Selected letters. 171.

تصوير الفعل من خلال وعي شخص ذى حس مرهف وذهن متقد قريب من المؤلف نفسه ، بالاضافة الى كل هذا فان اسهام جيمز فى تطور النقد الروائي يظهر ايضا فى مفهومه العضوى لكل عمل خلاق ، ذلك المفهوم الذى على اساسه رفض الاشتراك فى جدال النقاد حول ما سمى « برواية الحدث » « ورواية الشخوص » . فجميع عناصر الرواية كما رآها جيمز متداخلة ومندمجة ، ومهمة الناقد تقييم الشكل الذى هو جماع هذه العناصر . ويقول جيمز فى هذا الشأن :

يكثر الناس الحديث عن هذه الاشياء (الوصف ــ الحوار ــ الحدث ــ الشخوص) كما لو كان كل منها يتميز عن الآخر بشكل قاطع ، بدلا من ان يذوب بعضها فى بعض في كل لقطة من الانفاس ، وتشكل مجتمعة فى علاقاتها المتداخلة وحدة شاملة معبرة . انا لا استطيع ان اتصور شكلا مكونا من سلسلة من الكتل ، او ان تكون هناك فى اية رواية تستحق الدراسة على الاطلاق فقرة وصفية لا يكون السرد من مهمتها ايضا ، او فقرة من الحوار لا ترمى فى نفس الوقت الى الوصف ، او لمسة من الحقيقة ايا كانت لا تلعب دورا فى الحدث ، او حدثا يستقى الاهتمام من اى مصدر غير المصدر العام لنجاح الرواية ، وهو قدرتها التصويرية . فما هي الشخصية اذا لم تكن تحديدا للحدث ؟ وما هو الحدث اذا لم يكن تحديدا للشخصية ؟ واين هي الصورة او الرواية التي لا تتناول الشخصية (٥٥) .

بهذا يؤكد جيمز طبيعة الرواية العضوية ووحدتها . ولكن بما ان الوحدة تتصف بالعضوية فانها وحدة مبنية على التعدد والاختلاف . وجيمز يعلم جيدا ان هناك تناقضا فى محاولة احتواء الحياة التي لا شكل لها فى اطار الرواية المصطنع الذى لا بد وان يكون له شكل ومجرد « فكرة تثبيت » (تلك الكلمة التي يرددها جيمز مرارا فى **مقدماته**) الحياة هي فى حد ذاتها تناقص للحياة . وعندما يأخذ جيمز فى ادلاء النصيحة الى الكاتب الروائي قائلا انه يجب ان يبدأ من نقطة تجارية ، يجد نفسه يتحدث بشكل عام دون تحديد ، ويعترف بان نصائحه لن تفيد الروائي كثيرا . ويقول :

فاى نوع من التجارب نعني ؟ واين تبدأ واين تنتهى ؟ ان التجربة لا حدود لها ولا هي مكتملة ابدا . انها نوع من الحساسية الهائلة تشبه بيت عنكبوت ضخم بنى من ادق الخيوط الحريرية المعلقة فى غرفة الوعى ، وتمسك فى نسجيها بكل ذرة تطير على أجنحة الهواء . انها مناخ العقل : وعندما يكون خياليا ، بل عندما يكون عقل عبقرى ، فانه يحتفظ باوهن ما يوحى بالحياة ، ويحول نبضات الهواء نفسها الى رؤى (٥٦) .

ويعرف جيمز مشكلة الروائي بانها مشكلة الاختيار من تجارب الحياة الغنية وتركيزها وتشكيلها لايهام القارىء بالحياة . فعليه ان يختار ، كما يقول ، من فوضى الحياة « العديمة الشكل والنظام » ، من الواقع « العديم الهدف » بحيث يشكل اختياره هذا معنى ويكشف عن قيم . وبذلك فالرواية فى نهاية الامر تتضمن ــ حتما ــ نوعا من الخداع . ولكن جيمز اصر على ان يكون الخداع مكيفا ومشكلا ومصنعا بمهارة المحترف التي تتطلب المعالجة الدقيقة الواعية . فالحياة ، كما قال جيمز ، مستحيلة التحديد لا تعرف اين تنتهي ، اما الرواية فيجب ان تعلم حدودها . وعلى الرغم من ان جيمز يؤكد **اهمية الاختيار والتركيز والاقتصاد** ، فانه يصر ايضا على ان الهدف هو جعل الرواية « ممثلة للحياة شاملة عليها » ، ولكن دون ان تخلف

(٥٥) "The Art of Fiction"

(٥٦) نفس المرجع

انطباعا بالتصنع والتكلف . وقد شرح جيمز هذهالنقطة المنطوية على التناقض بين الفن والحياة فى قــوله :

فبقدر ما نرى الحياة بدون تنظيم جديد من خلال مــاتقدمه لنا الرواية يكون شعورهـا باننا نلمــس الحقيقة . وبقدر ما نرى الحياة وقد اتخذت لنفسها نظاما جديدا ،يكون احساسنا باننا امام بديل للحياة ، حل وسط ، وتقليد لها . (٥٧)

وبما ان مشكلة الاختيار هي اولى المشاكلالتي يواجهها الروائي ، ولا احد يستطيع حلهـا الا هو ، فان جيمز يعترف باستحالة ان يشترطعليه تناول موضوعـات دون اخرى . واذا كنا نحترم الروائي فعلينا ان نمنحه حريته فيالاختيارخاصة بعد ان عانى الكثير من النظرة المتزمتة الى كل من الحياة والادب . وفى رد جيمز على اشارةوالتر بيزانت الى الروايـة لانجليزيـة وهدفهـا الاخلاقي الواعي ، هجـوم على افتقارها الـىالشجاعة الادبية عند ما قال :

لا بد وان الروائي الانجليزى العادى قد استرعى نظرالناس بافتقاره الى الشجاعة الادبية ، ونفوره من مواجهة الصعوبات التي تتارجح حول معالجة الواقع ــ انه يميلالى الجبن الى اقصى الحدود ... ويتميز عمله ، في اغلب الاحيان ، بالصمت الحريص فيما يتعلق بمواضيع بالذات... ان جوهر الطاقة الاخلاقية هو مسح الحياة باجمعها. (٥٨)

ويلخص جيمز موقفه كناقد بقوله انـــــالا نحاسب الروائي على موضوعه ، وانما نحاسبه على معالجته للموضوع . فيقول :

يجب ان نعطى الروائى حقــه فى موضوعه ، فى فكرته وإما نقدنا فينطبق فقط على ما يصنعه من مادته . (٥٩)

واى فشل ينسب الى العمل الادبي هــوفشل فى التنفيذ فقط حيث يظهر منخلاله ضعف العمل الادبى أو قوته .

ويبدو مما سبق ان الرواية في نظر جيمزاقل الاشكال الادبية جمودا . لقد اشار الــى « روعة هذا الشكل » الذى يمثل « قليلا جدا منالقيود وعديدا من الامكانيات » . وفى استمرار تأكيده لحرية الشكل الروائي تحدث عن شرطواحد فقط ، كما هو واضح من الاقتباس التالى :

وبالمقارنة فان الفنون الاخرى تبدو مقيدة معاقة ،والظروف التي تعمل من تحتها جامدة ومحددة . والشرط الوحيد الذى اتصور انهيمكن وضعه بالنسبة لكتابة الروايةهو ان تكون صادقة . ان هذه الحرية ميزة عظيمة رائعة ... الحياة كلها (مخاطبا الروائي) لك ... لا تصغ الى اولئكالذين يودون سجنك داخل بعض زوايا الحياة ، قائلين ان الفن لا يعيش الا فيها ... ليس هناك طابع للحياة ، ولااساوب للنظر اليها او للشعور بها ، الا ويمكن ان يجد له مكانا في خطة الاديب الروائي . (٦٠)

وبهذا فالناقد الذى رمى ــ فيما يبدو ــالى بناء نظرية نقدية فى الرواية ، لم يطوقها بأية شروط الا شرط الصدق . انه لم يرفع من شأنالرواية فحسب بتناوله لها فى اسهاب وجدية لم يسبق لهما مثل ، بل صورها وفتح لها المجاللتعانق الحياة باسرها . وتصورها في انسبشكل

---

(٥٧) نفس المرجع

(٥٨) نفس المرجع

(٥٩) نفس المرجع

(٦٠) نفس المرجع

يطابق رؤيا الفنان . وهو فى هذا يقارب روائياناقدا اخر هو د.هـ. لورانس ، يختلف تماما عن جيمز ، وانما يتفق معـه فى تأكيـــده ضرورةاستمتاع الروائي بالحرية الكاملة ليحقق رؤياه بشرط واحد ، وهو ان يكون صادقا ومخلصا فىهذه الرؤيا بما يرضي ضميره الفنى . وقد قيم **لورانس** الرواية في مقالة « الاخلاقيات والرواية »(١٩٢٥) (Morality & The Novel) واعتبرها ارقى وسيلة لتصوير الحقيقة ، وكانيعنى بذلك الحقيقة التي تنتمي الى سلوكالحياة . كما الح على انه ليست هناك قواعد لبناء الرواية، وأن القواعديمكنتطبيقها فقطعلىالرواياتالتي هى مجرد نسخمن روايات اخرى لا اصالة فيها . وفيما عدا ذلك ، فالرواية الحية التي تصـــور « الانسان الحي » لا تحكمها الا الحياة . لقــدتقدم لورانس كثيرا عن جيمز فيما يتعلق بتحرر الروائي فى كتابه ، وان كان هناك صدى للورانسعن كيفية كتابة الرواية حين يقول جيمز : يجب أن تكتبها كما تستطيع » .

ومهما نقل عن الثورة التي حققها جيمز فىالنقدالروائي فلننكون مبالغين . ففالبية المبادىء التي نستند اليها في النقد الروائي الحديث والتياغنته بالمصطلحات المعروفة اليوم هى من آثـار جيمز . انه هو الذى نبهنا الى المعنى الشامــلالموحد فى الرواية ، وهو الذى كشف لنا عــن الوحدة العضوية بين اجزاء الرواية وعناصرها ،وهو الذى عرف الدور الذى تلعبه الاخلاقيات بالمعنى العريض فى الرواية ، وليس بالمعنى الضيقالمبنى على السلوك الاجتماعي المتفق عليه ، وهو الذى اشار الى عامل الخداع فى الرواية ، وفىنفس الوقت أكد جوهر الصدق فيها . وفوق كل هذا ، فجيمز هو اول ناقد انجليـــزى بحث فىاسهاب المسائلالجمالية والفنية فى الرواية . ومع ذلك فقد انجز كل هــذا دون اللجوء الىشروطمسبقة . وفيما قاله ليون اديل Leon Edel الناقد المشهور بابحاثه عــن جيمز وترجمتـــهلحياته ، اشارة الى عدم مذهبية الاديب والناقد الكبير :

ليس هناك كاتب حجة اقل مذهبية من جيمز . انهيتحدث الينا بفصاحة حتى اليوم ... معرفا بنفسه ، وبذلك الفن الذى احترفه بالاخلاص . (٦١)

ومنذ وقت بعيد مضى قال برسى لابوكالناقد الروائي المعروف الذى تتبع خطى جيمز فى نقد الرواية ، قال انه الناقد الحقيقي الوحيد فىفن الرواية .

وكان جيمز مثلا للاديب الذى وهب حياتهلفنه وعاش ليصور فى رواياته قيما انسانيــة ، ليمتد بالحياة ويتعمق فيها حتى تصبح دقيقة فىوعيها وغنية في مسئوليتها . اما النقد الروائي بالنسبة اليه فهو اداة ترمى الى تفهم ذلك النوعمن الادب الذى انتجه . ومن الطبيعي ان تكون الاداة فى نفس مستوى رقى الادب ، ما دامكلاهماوليد نفس العقل والروح . ان النقد عند جيمز لا يقل ابداعا عن العمل الخلاق ، بل يصح انتقول انهما وجها عملة واحدة ، ومظهران متكاملان لعبقرية جيمز الابداعية التي تركت تراثا فىالنقدالروائي لا يقل فى كثير عما تركتهفي الادبالروائي . وبانجازات جيمز فى النقد بدا الطريق امام الناقدالروائي المحترف من بعده اكثر وضوحا ، وانتقل النقد الروائي الى مرحلة جديدة تتميز بالثقــةوالتقييم المتزن .

---

(٦١) Introduction', The House of Fiction.



تكنولوجيا العصر والمجال الطبي للعالم العربي سنة ٢٠٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين . ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين . ثمّ خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثمّ أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين

صدق الله العظيم

للدكتور : مصطفى كمال محمد

فما من شك أن عقل الانسان العربي يحمل في تقدمه سمات ماضية ، فالحضارة العربية سلسلة متعاقبة لتطور هذا العقل العربي وكشفه عن أسرار هذا الكوكب الذى يعيش فوقه والكواكب المحيطة به ، وفي الكشف عن مختلف القوانين الفيزيائية والكيميائية والرياضية والطبيعية وتذليلها لغايته ، واصبح هذا العقل المستنير يحمل شعلة الحضارة من عصر الى عصر يليه . فعبقرية الحضارة العربية لا تقف عند حدود العصور الوسطى ، بل تتعداه الى العصور القديمة حيث قامت وازدهرت حضارات مصر وبابل وآشور . وفضل هذه الحضارة على العالم والذى لازال يدين لها بالشكر والعرفان . فالعرب أمة علوم واختراعات ، وأمة أدب وشعر ، وهم الذين أسسوا الاسس الاولى فى شتى الوان العلم والمعرفة . ان جابر بن حيان مثلا هو الرائد الاول في ميدان البحث العلمي التجريبى ، والكندى اول من اثبت كروية السطوح المائية ، والادريسى الذى اكتشف

منابع النيل والاسطرلاب ــ ثم ابن سينا وبحوثه العظيمة فى المجرات وتكوين الجبال والمعادن ... ثم ابن يونس الذى اخترع البندول ... وكذلك الرازى وكشوفاته الطبية العديدة ... ولا نستطيع ان نتجاهل اسهام كل من ابن الهيثم والبيرونى وابن النفيس والبوزجانى وابن رشد والجاحظ وابن البيطار وغيرهم فى مجال العلوم والمعرفة كالجبر والهندسة والفلك والطب والتشريح والصيدلة والكيمياء والفيزياء والنبات والحيوان والمعادن وغيرها .. كما ان القيم الاسلامية لا تتعارض مع العلم ، بل هي روح العلم نفسه ، والتقدم التكنولوجي طالما يستهدف فى النهاية خير الانسانية وسعادة البشر .

لا جدال فى ان اقامة مجتمع الرفاهية هو الهدف الاسمى الذى تسعى اليه كافة الدول المعاصرة، وهو المعيار الذى يقاس به مستوى تقدم الشعوب . "فمجتمع الرفاهية هو المجتمع الذى يتحقق فيه اكبر قدر من الرفاهية الكلية .. اى اكبر قدر من الاشباع من المنافع والسعادة لمجموع افراده .

فالدول النامية تخوض الآن على الصعيدين الوطني والدولى حربا ضد الجهل والفقر والمرض وسيطرة الدول الاقوى عليها . فالعالم العربي فى أشد الاحتياج الى استراتيجية علمية مدروسة لتنمية موارده الطبيعية والبشرية . لأن الدولة الحديثة التى نريد بناءها تعتمد بالدرجة الاولى على الانسان العربى صاحب الحضارة العريقة ، وحامل القيم الشريفة ؛ وهذا يتطلب تحقيق تغيرات جذرية فى انماط السلوك الاجتماعي ومحاولة احداث تغيير فى تركيب وخصائص البيئة المحيطة بالانسان العربي ...

فان العلم والمجتمع يكاد يكمل كل منهما الآخر . فبقدر حاجة المجتمع الى النتاج العلمى لتنميته وازدهاره ، فان العلم فى حاجة الى التقبل الاجتماعي لتدعيمه وتثبيته .

من هنا جاء اهتمامي بتناول العلاقة بين التقدم الحضارى فى مجالات العلم والتكنولوجيا وبين التغير الاجتماعى الذى يمس نظم المجتمع وقيمه الاجتماعية . وان درجة النمو الاقتصادى تتوقف على درجة نقل واستيعاب التكنولوجيا الراقية الموجودة في المجتمعات الصناعية المتقدمة .

البلاد المتقدمة تعيش فى نهضة علمية وثورات تكنولوجية مستمرة وذلك منذ منتصف القرن التاسع عشر . كذلك فان القدر الاكبر من النمو الاقتصادى في هذه البلاد يدين الى التقدم العلمى والتكنولوجى الذى تحقق فى هذه البلاد .

فلكى نعيش هذا العصر ونصل الى سنة ٢٠٠٠ بسلام ، فاننا يجب ان ندرك تماما اهمية التكنولوجيا المعاصرة وتطبيقاتها فى شتى المجالات كقوة ثقافية ديناميكية عصرية ، بمعنى ان رصيد اى دولة من رجال العلم والتكنولوجيا بمعاملهم او اجهزتهم ومعداتهم ، هو الذى ينقل المعاصرة اليها . والتكنولوجيا فى هذا البحث لا يقصد بها المعرفة بمعناها العام وباختلاف فروعها بل اعنى هنا المعارف العلمية التي قد تتنوع فى مجالاتها التخصصية . ولكن، لا ننكر ايضا أنها تشترك وترتكز على المنهج العلمي السليم والذى يعتمد بصفة رئيسية على التحقيق الموضوعي والتجريب التطبيقى ومدى الانتفاع منها ومدى الحدود التي تتيح استخدامه . بهذا البحث اود أن أوضح مساهمة تكنولوجيا العصر فى المجال الطبي وكيفية الاستفادة منها فى بناء العالم العربي سنة ٢٠٠٠ ، وكيفية التركيز على خلق وتنمية اثمن ما نعتز به ، وهو الطاقة البشرية القادرة على الاسهام بالعلم فى صنع المستقبل . هنا أيضا لا اطمع الى جعل الانسان العربي خالدا، ولكن كل ما أريده هو اعطاء اشباههم ولادة بدون حادث، ونموا عاديا ، وحياة بدون عيوب وامراض وآلام . وان طريق العلم يؤدى دائما فى نهايته الى تحقيق الغايات المرجوة وتوفير

السعادة المنشودة لبنى الانسان العربي فى كل زمان ومكان .

وواجب الانسان العربي ان يتعلم وأن يسعى الى مجالس العلماء ليتفقه ويتعظ بالعلم النافع الموصل الى رضوان الله تعالى ، لان الله عز وجل يسائل الناس عن تقصيرهم في طلب العلم ومجالسة العلماء الصالحين .

وان خطة عملنا لا بد ان تستهدف الوصول الى تكنولوجيا عربية عصرية ، وان نلتزم بشعار (العلم للمجتمع) مع الحرص الشديد على توفير كل أسباب الدعم والنجاح للبحث العلمى . فمن جانب يرى أيضا ان يتركز عمل العلماء فى المجال الطبي على تحسين الاداء من خلال علاج المرضى والوقاية منه بمتابعة واستخدام احدث الاساليب التي تكتشف في الدول المتقدمة . كما يرى ان يخصص البحث العلمى والتكنولوجي جهدا خاصا موجها لمساندة صناعة الدواء المحلية الوطنية ، بحيث يكون ذلك من خلال :

— نقل التكنولوجيا الخاصة بانتاج الكيماويات الدوائية التى تصنع منها المستحضرات والعقاقير الطبية اقتباسا وتقليدا .

— استكشاف مصادر جديدة للدواء فى النباتات الاقليمية .

— التركيز على الرعاية الطبية وابحاث القضاء على الامراض الوبائية والمستوطنة واعتبار مشروع القضاء على البلهارسيا مشروعا قوميا عربيا يشترك فيه علماء الداخل والخارج

— استخدام الاجهزة الحديثة والعقول الالكترونية فى المجالات الطبية بشتى فروعها .

وبالتالى سوف اتعرض هنا في هذا المقال لبعض التطبيقات الهامة والابتكارات والخدمات الفعلية التى تقوم بها تكنولوجيا العصر فى المجال الطبى ، ومدى الاستفادة منها للعالم العربى سنة ٢٠٠٠ .

* تكنولوجيا انتاج العناصر الالكترونية والمغناطيسية وعلم الانفورماتيك فى المجال الطبى : اشار العالم لوكلانش رئيس اكاديمية الطب بفرنسا الى الاهمية المتزايدة التى يحتلها الالكترونيك والانفورماتيك فى مجال العيادة الطبية . فمنذ فترة قريبة جدا كان العلماء يعتقدون ان مخ الانسان يتكون من ١٢ — ١٤ مليار نيرون ، متحدة مع بعضها بأعجب الطرق ومتصلة بخيوط عصبية مع أعضاء وانسجة الجسم . كما يوجد نيرون الجسم الحى عادة فى حالتين اما هادئة واما مثارة . ويقول الخبراء أن وظيفتى النيرون هاتين يمكن مقارنتهما ، فى التصوير المبسط بعنصر راديو الكترونى ذى وضعين يعمل بنظام « الوصل والقطع » ويمكن أن يكون ذلك صماما أو مرحلا أو ترانزستورا . ومن النيرونات « تبنى » الاعصاب التى تعتبر بالنسبة للجسم بمثابة الاسلاك ، أو خطوط المواصلات بين الجسم ككل وبين بعض الاجهزة او القطاعات على حدة . وبعبارة اخرى فان الاسلاك — الاعصاب تربط الجسم بالمحيط الخارجي : فنجد مثلا المخيخ وحده وهو غرفة التحكم في الجهاز العصبى المركزى — يضم حوالى ١٠٠ مليار خلية . والخلية هنا ليست مجرد « نواة الحياة » بل مؤسسة متعددة الفروع ذات قطاعات عمل واقسام مختلفة ، ونظام للتغذية بالطاقة ووسائل نقل . ففى الجسم الحى يجرى باستمرار تنسيق العمل بين مختلف الاجهزة ، وتتجمع المعلومات عن حالة النظام وعن ظروف الوسط الخارجى ، ويحافظ على درجة حرارة ثابتة وضغط ثابت . من هذا المنطلق وعلى اسس علمية قوية توغلت تكنولوجيا العصر وعلم السيبرينيتيكا وفروعها بثقة فى المجال الطبى لخدمة الانسان البشرى واصبحت انتصاراتها فى هذا المجال أكثر اهمية وبذلك نجد أن المجال الطبى استفاد ، وسوف

يستفيد كثيرا ، من وجود نظام للمعلومات ـ نظام يمكن أن يجمع المعلومات ، ويحلل المواد رياضيا ، ويجد بسرعة الحالات المرضية المماثلة وستكون هذه بمثابة « ذاكرة » طبية ضخمة . من هذه الحالة يكون بامكان أى طبيب من أى مكان ومن أى دولة من بلدان العالم أن يتلقى الاستشارة من هذه « الذاكرة » الطبية الموجودة .

وبذلك دخلت السيبرينيتيكا الآن غرفة العمليات الجراحية وهى تشارك بشكل مباشر فى العمليات وتتحكم فى الوظائف الحيوية للاجسام ، فتتابع عمل القلب ، وتضبط ضغط الدم فى الشرايين وتراقب عمق التخدير .

من هنا يأتى تعريف علم السيبرينيتيكا : هو علم يدرس طرق ادارة المجتمع البشرى ، وهى كلمة اغريقية قديمة « سيبرنيتيس » وتعنى « ماسك الدفة » أو « الربان » بمعنى القائد . حيث كان علم قيادة السفن في اليونان القديمة يسمى « سيبرنيتيكا » أى علم التحكم والاتصال فى الاجسام الحية والآلات . وبالتالى نرى أن العناصر الهامة فى علم السيبرنيتيكا تتناول العناصر الآتية :

* نظرية المعلومات :

حيث ان كلمة معلومات Information لاتينية الاصل وكان معناها فى البداية تصور ثم تطورات الى أخبار أى نقل الاخبار او نقل معلومة ما . وقد وجد العلماء فى السنوات الاخيرة أن المفهوم العام لكلمة « معلومات » مطاط للغاية فحددوا معناها على أن يصبح « معيار التحدد فى الخبر او المعلومة . وبذلك تعتبر مفهوما علميا جديدا يعطى للباحثين منهجا جديدا ، نظريا ـ اعلاميا ، يمكن بواسطته التغلغل في كثير من العلوم التى تدرس الطبيعة الحية وغير الحية ، والمجتمع والادراك .

* الأوتوماتون

جهاز يمثل نظام آليات وتركيبات (الكترونية كهربائية ، ضغط الهواء ، هيدروليكية) تجرى عمليات استقبال وتحويل ونقل واستخدام الطاقة والمادة بطريقة ميكانيكية اوتوماتيكية أى بدون مشاركة الانسان .

* المنطق الرياضى

تأسس هذا العلم بفضل المفكر الاغريقى ارسطو ، الذى عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد ويرجع الفضل أيضا الى فلاسفة العصور الوسطى مثل عالم اللاهوت والكيميائى رايموند لوليا ، والعالم الرياضى والفيلسوف الالمانى تفريد ولهلم ليبنتس وهو مؤسس أيضا المنطق الرياضى . وهو الذى حاول فى القرن السابع عشر ان يؤسس اول حسابات منطقية حسابية وجبرية حرفية ، والعالم الرياضى جورج بول وأبو الكتابة المعروف فوينتش صاحب رواية « الذبابة » . وقد قام أرسطو بتحليل التفكير الانسانى وأشكاله مثل المفاهيم والحكم والاستنتاج العقلى . وبالتالى علم المنطق هو علم الاستنتاجات السليمة الذى يتناول أشكال وقوانين التفكير . وبدأ هذا العلم يتوغل بسرعة الى عصرنا هذا فى شتى المجالات ويعمل فى كل مكان وكل شىء تعمل فيه الحاسبات الالكترونية . فكل مسألة تحلها الآلات انما تحلها على أساس قوانين المنطق الرياضى الصارمة .

وينبغى هنا ان نوضح كيفية تحويل الاحكام المنطقية الى صيغ رياضية . فنجد فى العبارات البسيطة التى يستخدمها الانسان انها ترتبط ببعضها بواسطة احرف مثل : لا ـ أو ـ و . وهذه الاحرف الثلاثة تستطيع ان تفعل في المنطق كل شىء . ولقد اتفق العلماء (علماء المنطق) على علامات معينة للدلالة على هذه الاحرف ـ مثلما نفعل فى علم الرياضيات فنستخدم الاشارات الرياضية الآتية (+) ،

(–) ، (×) ، (÷) وذلك على أن تحل محل الكلمات المستخدمة مثل « زائد » ، « ناقص » ، « فى » ، « على » على الترتيب. فقد اتفق بالفعل على استخدام الرموز الآتية ولاستخدامها فى علم المنطق الرياضي فمثلا الرمز « الاشارة » الموجبة (+) للدلالة على كلمة أو والرمز اى علامة الضرب فى (×) للدلالة على كلمة (و) ومع استخدام بعض الاسس البسيطة فى علم الجبر نستطيع أن نصل الى حل بعض المسائل المنطقية المعقدة . وتستطيع الآلة الاوتوماتيكية ان تقوم بالشىء نفسه .

* الألغوريثمات

علم حيوى ضرورى لحل مختلف أنواع المسائل ويتضح لنا ان الرياضة في الطب ، واخص علم الوراثة ، لا نستطيع الاستغناء عن تكنولوجيتها . ان العملية التكنولوجية لحل أعقد المسائل تتكون من عدد كبير من العمليات البسيطة ، من الخطوات البسيطة الاولية . ولقد اكتسبت كلمة الغوريثم اى القاعدة معنى واسعا للغاية فى الوقت الحالى. فهو دليل لحل المسائل . ومن الممكن أن تصوغه فى شكل أوامر قصيرة ينبغى تنفيذها بدقة ودون اى اعتراض ، وعندئذ يكون الالغوريثم مرشدا لنا لجميع حل المسائل المعقدة .

ويقول الاخصائيون انه فى الوقت الحالى الذى تتطور فيه الرياضة الآلية بسرعة وتصبح الحاسبات الالكترونية واقعا ملموسا . فان الحاجة تصبح أكثر الحاحا لايجاد الالغوريثم الذى يساعد على حل المسائل المعقدة .

الهدف الاساسى من علم السيبرنيتيكا والذى يسعى علماء الرياضة والفيزياء والهندسة والطب من مختلف بلدان العالم اليه هو الوصول الى أقصى قدر من أتمته عمليات التحكم فى مختلف مجالات النشاط الانسانى وزيادة انتاجية العمل . ومن أجل ذلك لابد من الدراسة العميقة والشاملة لمجالات التحكم والتوصل الى القوانين التى تخضع لها عمليات التحكم . وفى كل مكان نجد أن تنفيذ عملية التحكم مرتبطة بنقل وتجميع وحفظ معالجة المعلومات التى تحدد الشىء المتحكم فيه ومسار العملية والظروف الخارجية وبرنامج العمل . وبالطبع فمن الممكن ان تكون ناقلات المعلومات فى النظم المختلفة ، مختلفة ايضا من حيث طبيعتها : فقد تكون اشارات صوتية او ضوئية او ميكانيكية أو كهربائية او كيميائية أو وثائق او افلاما تلفزيونية ، ولذلك ، ومن المهم فى المجال الطبى الحديث انشاء اجهزة الكترونية لجمع المعلومات عن العمليات الجارية فى الجسم . لهذا الفرض اخترعت وابتكرت اجهزة مدهشة ؛ حساسة للغاية ودقيقة جدا ويكفى ان نذكر منها راسمات القلب الكهربائية التى تدرس نشاط القلب ، وراسمات الدماغ الكهربائية ، والتى تفوص فى اسرار نشاط الدماغ ، ورسمات العضلات الكهربائية والتى تسجل عمل العضلات ، والاقراص الدقيقة التى هى عبارة عن مجسات لاسلكية لدراسة المعدة والامعاء ، والمجهر الالكترونى بأنواعه والمجهر التلفزيونى والتلفزيون الملون في الطب وما الى ذلك من انواع مختلفة متطورة للغاية . لذلك يعتبر علم الالكترونيات والانفورماتيك من الفروع الهامة والاساسية من فروع العلم والتكنولوجيا . وتبين هذه الفروع مدى أهمية علم الكهرباء وتطبيقها فى المجال الطبى – ابتداء من السمكة التى ترسل تيارا كهربائيا حتى آلة تقوية القلب. يشمل علم الالكترونيات أسس وتصميم وتركيب الاجهزة الكهربائية المفرغة ، والاجهزة المصنوعة من اشباه الموصلات مثل الجرمانيوم والسيليكون .

فالاجهزة الكهربائية المفرغة من الهواء واشباه الموصلات تستخدم بنجاح في الاجهزة الاوتوماتيكية واللاسلكية والتلفزيونية والتى تشترك فى رحلات الفضاء ولخدمة الطب الفضائى ،واجهزة الراديو الالكترونية الحديثة

ــ وفى الآلات الالكترونيــة الحاسبية واجهزة الطب بفروعه والبيولوجيا والفيزياء وفى فروع هندسة القياس المختلفة وغيرها . فالمضخمات والمولدات والمقومات ومرسمات التذبذبات واجهزة القياس وغيرها من الاجهزة الالكترونية اصبحت سلاحا فعالا للبحوث الطبية ولتنظيم العمليات الجراحية واجهزتها. وهكذا فان علم الالكترونيات زودنا بامكانيات غير محددة مثل الترانزيستورات بشتى أنواعها . حيث أن الترانزيستورات تشغل مكانا هاما بين أجهزة أشباه الموصلات الكهربائية التى تستخدم لتقويم وتضخيم وتوليد وتغيير تردد التيارات الكهربائية المختلفة ، وكذلك لرسم تذبذبات الظواهر الكهربائية وغير الكهربائية . وتكون دوائر الترانزستورات عادة دائرتان : دائرة الدخول او التحكم ودائرة الخروج او الدائرة المتحكم فيها . وفى دائرة للخروج يوجد الحمل. وتصنف الترانزيستورات حسب طريقة التصنيع والمواد المستعملة وخصائصها للعمل ، ولها ثلاثة مخارج أو اكثر ، وتبعا لعدد المخارج تسمى بصمامات أشباه الموصلات الثلاثية أو الرباعية وهكذا .

وفى أجهزة اشباه الموصلات الحديثة تستخدم بكثرة أشباه الموصلات الآتية : جرمانيوم ، سيليكون ، سيلينيوم وجاليوم زرنيخي وغيرها من مواد اشباه الموصلات . واشباه الموصلات هى المواد التى تحتل موصلتها الكهربائية النوعية أى « المقدار الذى يميز التوصيلة الكهربائية للمادة » مكانا متوسطا بين الموصلات والعوازل . ويجب هنا ان نميز بين التعبيرين « التوصيلية الكهربائية » ، و « الموصلية الكهربائيةالنوعية» فالتوصيلية الكهربائية تعرف بخاصية تمرير المادة للتيار ، فنجد الفرق واضحا بين التعبيرين .

وتستخدم الترانزستورات الآن بنجاح فى المضخات ، اجهزة الاستقبال ، اجهزة الارسال ، المولدات ، المستقبلات التلفزيونية، اجهزة القياس ، الدوائر النبضية ــ الآلات الالكترونية الحاسبة كما توضح ايضا في أجهزة خاصة داخل كبسولة يبتلعها المريض فترسل اشارات عن حالة المعدة والامعاء . كما تفضل اجهزة اشباه الموصلات عن الصمامات الالكترونية بالمميزات العامة التالية:

ــ الوزن الخفيف والمقاييس الصغيرة .

ــ انعدام استهلاك الطاقة على تسخين الفتيلة المستخدمة فى الصمام .

ــ طول مدة الخدمة (يبلغ عشرة آلاف ساعة)

ــ لاجهزة اشباه الموصلات المختلفة في المضخمات ، أجهزة الاستقبال ، أجهزة كفاءة عالية . اذ أن فقد الطاقة فى نفس الاجهزة قليل .

ــ متانة ميكانيكية عالية (تتحمل الاهتزاز والصدمات والمؤثرات الميكانيكية الاخرى)

ــ تحويل الصورة الضوئية الى تيار كهربائي ذى شكل خاص .

ــ توجد دائما تغذية مرتدة داخلية . والسبب هو وجود اتصال كهربائى مباشر بين دائرتى الخروج والدخول .

ــ تعمل بجهد تغذية منخفض .

* مصنع لادوات تقوية القلب

توجد أدوات تقوية القلب منذ خمسة عشر عاما ، وقد عرفت تحسينات متوالية مع تطور فنون تكنولوجية صنع أدوات تقوية القلب . حيث ان هذه الادوات تعمل بشكل نبضات كهربائية فوق عضلة القلب مما يجبرها على متابعة عملها بانتظام .

فى القرن التاسع عشر ، درس ايرلنديان وهما روبرت ادامس (١٧٩١ ــ ١٨٧٥) ووليام ستوكس (١٨٠٤ ــ ١٨٧٨) المرض الذى حمل بعد ذلك اسم ستوك ــ أدامس ، وهو مرض يجمع بين بطء النبض والاغماء . وفي عام ١٩٥٢ ، خطرت للعالم الدكتور بول زول فكرة اعادة تحريك قلب متوقف بواسطة شريطين كهربائيين فوق صدر المرض .

ومنذ عام ١٩٥٨ ، تخيل العالم فورمان تدريب القلب بواسطة سابر . وابتداء من هذه الابحاث التجريبية السابقة واعتمادا على نتائجها ، تناولت ادوات تقوية القلب انتاج تيار كهربائى بواسطة البطاريات . ولقد ساعد تطور الالكترونيك وتطور علم السيبرنتيك فى ظهور هذه الآلات الالكترونية والترانزيستورات فى صنع ادوات تقوية القلب وسهولة انتشارها .

من المعروف ان كل عضلة لها المقدرة على أن تنقبض ، بالتالى تنقبض عضلة القلب، كما تسبق الانقباضات مظاهر كهربائية تولد وتنشىء تغييرا فى القوة . اما الرسومات والتذبذبات الذى يحصل عليها عند التسجيل فيمثل التسجيل رسم انقباض عضلة القلب وذلك نتيجة مرور التيار الكهربائى . وفي افضل الحالات يقدم موجات متتابعة ومتشابكة تظهر باستمرار . وفى كل من الاجزاء ، تجيب موجة موازية لانقباض اذين القلب وموجة أخرى صادرة من بطين القلب تصادف عودة الاستقطاب قمة اخرى وبعد ذلك تبدأ الدورة من جديد .

تتألف أدوات تقوية القلب خاصة من علبة دائرية ذات سمك ضئيل للغاية ، كما يكفى حجمها لاحتواء البطاريات ، كما تحتوى على سابر بشكل شريط . اصبح السابر الآن وحيدا ، وهو يمثل الشريط الكهربائى الذى يجرى ادخاله فى الوريد الايمن او الايسر للراس ، ويصل بدقة حتى البطين الايمن .

يجرى التحقق من موقع الشريط كى لا يحدث انقباضات فى حاجز القلب ، وهو يعتبر جيدا عندما يكون مستوى التقوية منخفضا.عندئذ يجرى ربط السابر بالوريد ، كما توضع العلبة داخل تجويف يجرى اعداده لهذه الغاية فوق الجرح . اما العملية الجراحية التى تجرىبواسطة التخدير الموضعيفتتابعبالاشعة وتعتبر عملية بسيطة .

تمثل الادوات المقوية والحارسة للقلب حوالى ٨٠ الى ٩٠ في المائة من الادوات التى جرى تركيبها خلال السنوات الاخيرة ، وهى مزودة بمجرى اضافى بحيث يراقب السابر حركةالقلبويسير عملالآلةفور ظهور الحاجة. فى بعض الاحيان يجرى صنع العلبة من مادة التيتانيوم النقى ، وهو معدن قوى وذو جودة خصائصية عالية . وبشأن البطاريات ، يبدو أن الليثيوم سيحل محل بطاريات الزئبق مع زيادة العائدات وفترة العمل .

فى الوقت الحاضر يقدر أن هذه الآلات ستملك استقلالا في العمل خلال فترة تمتد من ٥ الى ٨ سنوات . ومع ذلك ، فان مقويات القلب بنسق محدد ، أو المحركات الكهربائية لاتزال تحافظ على مقدرتها . كما أن هناك مؤرجح يرسل نبضات بمعدل سرعة محددة سابقا ، وهى توازى ٧٠ نبضة فى الدقيقة مع عدم مراعاة البطين (القلب) حامل هذه المحركات . واخيرا فهناك آلات تقوية القلب النظائرية مع اشرطتها الكهربائية اى البطاريات العاملة بالبلوتونيوم . تدوم هذه الآلات اكثر من الماضى ، ولكن ذلك لا يقضى على الرقابة الفعلية للمريض .

تجرى أبحاث عديدة لتحسين أدوات تقوية القلب ، وللحصول على مواد جديدة لتصنع منها هذه الادوات . وبالرغم من ذلك فان هناك عيوبا بسيطة فى اجهزة ادوات تقوية القلب الموجودة فى وقتنا الحاضر . حيث نخشى دائما من عطل يصيب المعدات . وهو

يقع في مختلف الطبقات سواء كانت الآلة ضعيفة او البطاريات فارغةاو الاشرطة مقطوعة او السابر متنقلا من مكانة . وبالتالى ومن المستحسن ان يساهم المريض فى مراقبة ساعة الاسعاف المرافقة . ومن ناحية أخرى، لا يهمل الطبيب المعالج مريضة ، وهو يراه فى مواعيد محددة ، كما انشئت مراكز لمراقبة هذه الآلات . كما ان دراسات تردد النبضات يعتبر حاسما ، ويحصل على ذلك بوسائل عديدة : فحص النبض كل اسبوع ـ الفحص الهاتفى واشارات « بيب بيب » التى تكشف وتحول الى اشارات صوتية ، وكل ذلك لا يبعد عن مصلحة المريض بشكل مناسب ، كما لا تثير هذه التدابير خوف المرضى ، بل على العكس ، تثير فى نفوسهم الاطمئنان ، كما تسمح لهم بالحياة في ظروف معقولة . وبشكل خاص يتعلق الامر بالذين يشكون من عدم انتظام عمل الاذين والبطين ، ومهما كان اصل هذه الشكوى . بامكان أمراض أخرى أن تستفاد وتعالج بواسطة هذه الآلات . وطالما لا يوجد حل كامل لقضايا الانسجة والمناعة التى تحد من عمليات تطعيم القلب . فان هذه الآلات تبقى وسيلة الاسعاف الحقيقية لمرضى القلب . ومن هذا المنطلق اقيمت فى الدول المتقدمة مصانع لادوات تقوية القلب لمدى حاجةالمرضى لمثل هذهالادوات لتساعد القلوب المريضة .

* الحاسبة الالكترونية « أورال »

هى حاسبة الكترونية ذات تشغيل برنامجي . وتعتبر الاجهزة الالكترونية هى العناصر الاساسية فيها ، وهى قادرة على اجراء ملايين العمليات وأكثر من ذلك فىالثانية الواحدة. وهذه الحاسبة الالكترونية« أورال » تستخدم لتشخيص الامراض . فهى تضع فى السنة حوالى ٢٠٠٠ تشخيص لعيوب القلب الوراثية ، وليس هذا فحسب بل انها أحيانا تكون اكثر دقة في التشخيص عن الطبيب المعالج ، فقد حدث اكثر من مرة ان اختلف راى الحاسبة الالكترونية « أورال » مع راى الاطباء . وعند اجراء العمليات ثبتت صحة تشخيص الآلة . كما وضعت نظريات ونظم التشخيص الطبي التى يستطيع الاطباء بواسطتها فى العيادات ان يحددوا لا تشخيص عيوب القلب فحسب ، وانما كذلك أمراض الكبد والمعدة وبعض الامراض المعوية والاورام المختلفة ، بما فيها اورام الدماغ .

* أذن الكترونية للصم والبكم

خلال المؤتمر الحادى عشر للحديث عن أمراض الاذن والانف والحلق ، وقد عقد فى بونس ايرس « الارجنتين » ذكر الدكتور كلود شوارد انه حقق مع مساهمة ومساعدة علم الالكترونيات « أذنا الكترونية » يمكن ان تقدم مساعدة هامة للصم البكم . أوضح كيفية وصوله لدمج عقلالكترونى (اوردنياتير) صغير فى الاذن الداخلية ، ومع تحقيقالاتصال مع أطراف عصب السمع ، وضعت هذه الآلة اللاقطة نهائيا تحت الجلد ، ويبلغ قطرها الفعلى سنتيمترين مع سمك يبلغ سنتيمتر واحد ، كما تتلقى النبضات الكهربائية المفنطة لمذياع متنقل ، بحجم آلة تسجيل صغيرة . يعتبر الدكتور شوارد اخصائيا في امراض الاذن والانف والحلق ، وقد سبق له ان وضع بنجاح خلال عام١٩٧٣ أشرطة كهربائية فى الآذان الداخلية لثلاثين شخصا من المصابين بالصم . تتصل هذه الاشرطة الكهربائية بآلة غير متنقلة ، وقد سمحت للمرضى بالاتصال مع العالم الخارجى. تمثل هذهالطريقة صعوبات سائدة، اذ تفرض على المرضى الخضوع كل أسبوع لمعالجة لتجنب اخطار الالتهابات . اما الآلة التى أعدت اليوم فقد تحققت فى اقل من عامين بين سبتمبر ١٩٧٤ ونهاية عام ١٩٧٦ وحتى الآن ، وأقيمت « الاذن الالكترونية » لدى ثلاثة أشخاص أو أكثر منالصم والبكم ، وقد سمحت لهم بالاستماع والحديث بعد عدة أشهر من التدريب .

*** تكنولوجية النفخة غير المنتظمة للتحركات الموجبة الصوتية لعلاج أمراض الاذن والانف والحلق .**

يحدث عادة أنامراض الاذنوالانف والحلق تسبب انسداد قناة تسمى بقناة اوستاش وتقع بين الفم وطبلة الاذن . تعتبر هذه القناة يصعب الوصول اليها لمعالجتها حيث يتراوح قطرها بين ملليمتر واحد ومللميترين. وبصورة عامة تصيب هذه الامراض غالبا الاطفال وخاصة التهاب الاذن الداخلية (حيث يصاب٢٪ من الاطفال فى سنالدراسة بالالتهابات فى قناة اوستاش) وفى حالة تكرارها أى تكرار اصابة الطفل بهذه الالتهابات ، تعتبر هذه الاصابات سيئة بالنسبة لقناة اوستاش الواصلة بين الاذن المتوسطة والجزء الداخلى لطبلة الأذن .

ونتيجة الالتهابات الحادثة في الأذن المتوسطة يتسبب خلل فى توازن الضغط بين جانبى طبلة الأذن ، ومن المحتمل ان يحدث الصمم . عندئذ يتلقى الانف والحلق افرازات تسيل من القناة المسدودة . وعند تجمع هذه الافرازات ، تحدث التهابات وتتلف المخاط . كما يعود ٤ الى ٥٪ من هذه السدود الى الحساسية . ولذلك أعدت طريقة تكنولوجية تعتمدعلى أسس علمالصوت في الفيزياء وهذا التكنيك تم انجازهبواسطة المختبرات البحرية لتحديد الضغط اللازم الذى يسمح بمساعدة « نفخة الصوت » بفتح القناة عند الابتلاع . كما استنكر أيضا اطباء امراض الاذن والانف والحلق استخدام الادوات القاضية على الجراثيم مثل المضادات الحيوية وذلك بشكل دائم لأن ذلك يحدث زيادة فى عدد اصابات الالتهابات الجلدية بالمقابل .

كما اشاروا الى محاسن العلاج بالمياه المعدنية لامراض الأذن والانف والحلق حيث انه نتيجة للدراسات والاحصاءات حول تطبيق العلاج بواسطة المياه المعدنية . اذاع كل من الدكتور روبرت كوفيلير والعالم كلود لاروش والأطباء الباحثينجود لويسكى وجون دى لاتور ما برهنته الاختبارات والابحاث التجريبية التى تمت على الفئران فى مختبر المياه بمستشفى فيشى بفرنسا عن فعالية العلاج بواسطة المياه المعدنية ، وقد تبينت فائدتها خاصة فى علاج التهاب الشرايين فى الاعضاء السفلى وأمراض الاوردة وأمراض اجهزة التنفس العليا . وسجلت النتائج ان ٦٠٪ من النتائج كانت مرضية ، ٢٠٪ من النتائج غير مرضية ، ٢٠٪ من النتائج فاشلة .

وبصورة عامة ، تبين أن المرضى الذين يحصلون على أفضل نتائج العلاج بواسطة المياه المعدنية هم دون الخامسة والستين .

أما لدى المرضى الذين هم دون الخامسة والاربعين ، كانت ٨٪ من النتائج المدهشة ، ٦٠٪ جيد جدا ، يعتبر النجاح سريعا وعميقا بقدر معالجة المريض منذ ظهور أعراض المرض فى البدء .

*** الاجهزة الاتوماتيكية فى خدمة العجزة :**

ان عالم الاجهزة الاوتوماتيكية في ايامنا هذه شديد التنوع . وهو دائم التوسع والتعقيد، وتعتمد الاجهزة الاوتوماتيكية على تحديد مايسمى باستقرار النظام وبذلك يمكن مقاومة مختلف انواع الانحرافات فى العمل ، وعلى حساسية الاجهزة الاتوماتيكية . فساهم هذا الفرع من التكنولوجيا بتقديم خدمات هامة للعجزة لاعطائهم فرصة المشاركة مع الآخرين بالحياة العادية .

فقدمت لهم آلة تدعى « هاندكار » أى عربة اليد الكهربائية ، وهى تسمح للعاجز بالجلوس امام المقود والتنقل بشكل مستقل بدون مغادرة مقعدة .

والصفـات التكنيكية للهاندكـار تتنـاول الآتـي : ـ

ـ دراجة كهربائية ذات أربع عجلات . عجلتان اماميتان للتحريك والتوجيه، وعجلتان مستقلتان في الخلف .

ـ هيكل الدراجةمن مادة البوليستر القوى وتتسع لشخصين . اما قاعدة حمل الدراجة فهى من أنابيب الفولاذ الملتحمة .

ـ فرامل هيدروليكية وتوجه بواسـطة رافعة امام القائد .

ـ محرك كهربائى بقوة ٩٦ فولت و ٤ كيلو وات وهو يحرك العجلات الامامية .

ـ الاستهلاك ، ١٠ كيلو وات ساعة للتعبئة الكاملة مع استقلال للتنقل بين ٥٠ ، ٧٠ كيلو مترا .

ـ أقصى سرعة : ٥٠ كيلو مترا في الساعة .

ـ مجموعة الكترونية او كهربائية ميكانيكية توجه بواسـطة مقود دائرى لـه تأثـير على تموين المحرك الكهربائى .

وبالتالى نجد ان هذه العربة الكهربائيـة تسمح للعاجز بالجلوس أمام المقـود والتنقـل بشكل مسـتقل بدون مغادرة مقعدة اذ يكفى الضغط على زر كى يهبط حتى مستوى الارض ويسمح ذلك للعاجز بالدخول الى المركبـة من الخلف بواسـطة الدفع ، كما يفعل ذلك عادة بواسـطة عجلات عربته . يضغط مجـددا على زر يرفع مستواه كمـا يغلق الابواب فى نفس الوقت . وهناك نظام أوتوماتيكى لتجميد المقعد السـيار .

❊ جهاز للمواليد قبل الموعد

حققـت المؤسـسـة الاوروبيـة للابحـاث والتطبيقات الطبية معدات بسيطة تسمح بنقل المواليد «الخدج» الذين وضعوا قبل الموعد الى مركز العناية اللازمة فى ظروف جيدة تشـمل عدم الحركة والعزلة الحرارية أى الابتعـاد عن تغير فى درجـة حرارة الوسـط والمراقبة وهذا تحت عنوان أيزوكوك . درست هـذه المعدات الجديدة ونظمت بالاتصال مع قسم المساعدة الطبية للحالات المستعجلة فى باريس، ويديره العـالم الدكتور كارا . وقد استخدمت حتى الآن للنقل ١٥٠٠ مولـود جاءوا قبـل الموعد .. ويتراوح وزن المولود بين ٦٠٠ جرام الى ٥٢٠٠ جرام، لقد أعد شكل من البوليستيرين المتمدد (مواد بلاسـتيكية تبدو بشكل خلوى وتدعى كذلك « رغوة » بلاسـتيكية) وهـى تتألف من هيكل وغطاء يسمح باطلاق حـرية رأس الطفل ، ويسمح الهيكل الفـارغ باقامة المولود وعدم حركته بواسـطة رداء وغطـاء عازل ومعقم ... بعد وضع المولود بهـذا الشكل يؤمن الغطاء بعزلة حرارية مع السماح باعطاء الاوكسجين للطفـل لتسهيل عمليـة التنفس . اما المميزات الرئيسية للايزوكوك فتتناول الآتى :

ـ الوزن حوالى ٩٠٠ جرام ، أى خمسين مرة أقل من المعدات الكلاسيكية .

ـ لا يحتاج الى أى مصدر خارجي للطاقة .

ـ حجمه ضئيل (٧١٠ × ٤١٠ × ٢٢٠ ملليمترا) .

يسمح كذلك بتحقيق جميع فنون التنشيط ـ اعطاء الاوكسجين ومد الانابيب ـ التنفس ـ اعطاء الدم ... الخ وذلك فى ظروف تأمين مطلق بسبب عدم وجود آلة كهربائية .

❊ الاسـعاف الطبى السريع .

فى باريس يؤمن قسم « المساعدة الطبيـة والاسعاف السريع » أعمال تنسيق الاسعافات السريعة ، وقد اقيم فى مستشفى نيكر ويديره العالم كارا . حيث يؤمن عدد من عمال المخابرات

ستندرديست وطبيب على الاقل سرعة الاتصال الاذاعى والهاتفى الدائم ، وقد وضع ذلك تحت تصرف القسم المتنقل مع خمس سيارات للاسعاف ، كما يمكنه الاستعانة عند الحاجة بطائرات الهليوكبتر التابعة لرجال الامن والحماية المدنية .

أما دوره الرئيسى فيتناول خاصة نقل المرضى بين مختلف المستشفيات . كما تتصل سيارة الاسعاف المجهزة بطبيب التخدير عن طريق الاذاعة بسيارات الاسعاف التابعة للشرطة ، كما تتصل بقسم المساعدة الطبية والاسعاف السريع .

يحقق المساعدة الطبية السريعة ونظام الاسعاف السريع مايلى :

ـ اعداد بيان يومى بشأن لائحة الاسرة الشاغرة فى قاعات الاسعاف .

ـ تأمين النصائح الهاتفية .

ـ ادارة القسم المتنقل للاسعاف السريع ، حيث يهتم هذا القسم بشكل خاص باسعاف المرضى وعند الحاجة بنقلهم بواسطة سيارات الاسعاف والهليوكبتر أو الطائرة .

* طريقة جديدة لتسجيل حرارة المريض

قدم العالم الصيدلى مارسيل جيو طريقة جديدة لتقدير الحرارة خلال الاجتماع الذى عقد في اول يونيو سنة ١٩٧٦ امام أكاديمية الطب الوطنية الاوروبية ـ ويعتمد الميزان الحرارى (الترمومتر الطبى) الذى عرضه العالم جيو على قوانين انصهار المركبات الكيميائية وهى فى الحالة السائلة . كما انها مقررة لتسجيل حرارة الفم (تحت اللسان) يتألف ميزان الحرارة الجديد أساسيا من خمسين قطعة بلاستيكية صغيرة يحتوى كل منها على كمية من المواد المتبلورة عند درجات منخفضة ، وتملك أيضا دقة فى القياس الحرارى (درجة الحرارة للمريض) بمعدل عشر الدرجة بين ٣٥٫٥ ، ٤٠٫٥ درجة سنتجراد . أما المجموع فيوجد داخل وعاء بلاستيكى مرقم يبلغ طوله ثلاثه سنتيمترات بعرض سنتيمتر وبالاضافة الى مقبض . ترتفع جميع مقاييس المواد بنسبة حرارة الجسم وتتحول من الحالة المتبلورة الى الحالة السائلة كما يتبدل لونها بفضل اضافة مادة تلوين .

تعود فائدة هذا الترمومتر الطبى الحديث الى سهولة أكثر فى قراءة درجة الحرارة بالنسبة للمريض ، كما تعود الى دقة أكثر وسرعة عطب اقل وسلامة صحية أكثر عند استخدامه (يستخدم مرة واحدة ويبلغ ثمنه حوالى فرنك فرنسى) بالنسبة لموازين الحرارة الكلاسيكية .

* تكنولوجيا الفيزياء النووية واهميتها فى المجال الطبى :

سمحت تكنولوجية الفيزياء النووية باقامة اول سيكلوترون طبى للخدمات الطبية فى القارة الاوربية وذلك فى مستشفى فريدريك جوليو بأورسيه بفرنسا ، ويسمح ذلك باستخدام الاشعة النظائرية وسيخصص من ناحية لعلاج أمراض السرطان بواسطة النيوترونات. وضع السيكلترون داخل جدران سميكة من الاسمنت وذلك بجوار معامل الكيمياء وغرف فحص المرضى . وذلك لتسهيل نقل العناصر المشعة المستخدمة ، حيث انه تكفى ثوان معدودة لنقل هذه العناصر المستخدمة والتى تتجاوز فترة نصف حياتها أقل من نصف ساعة أى أن مدى الحياة لها قصير ـ وذلك بواسطة الضغط الهوائى داخل انابيب خاصة النقل . يجرى انتاج العناصر داخل غرفة يتحقق فيها العمل بشكل اوتوماتيكى الى اقصى حد وهنا نجد أهمية الأتمتة حيث

انها مرحلة من مراحل الانتاج الصناعى تتميز بتحرير الانسان من الاداء المباشر لوظائف ادارة العملية الانتاجية ونقل هذه الوظائف الى الاجهزة الاوتوماتيكية . أعدت هذه الآلة النموذجية والصغيرة الحجم من قبل شركة س.ج.ر،م.د.ف والمرتبطة مع شركةتومسون س.اس.اف ـ وذلك لحساب مفوضية الطاقة الذرية . وبامكانها العمل مع فريق من الفنيين المتخصصين في هذه المجالات . أما استغلالها بشكل واسع فيفرض وجود عمل فريق بحثى هام من علماء الكيمياء الذين يعملون على توسيع ,واستخدام الوسائل الجديدة والسريعة لتخليق الجزئيات المرقمه. وقد تطورت هذه الفنون بفضل برامج الابحاث التى تتعلق بالفيزياء النووية ، وقد وجدت تطبيقات هامة على الصعيدين البيولوجى والطبى وخاصة الالكترونيك ,والميكانيك والتحليل الكيميائى او فنون تخليق المواد الجديدة ، وأجهزة الحس الالكترونى وتطبيقات المجهر الالكترونى الماسح . فنتيجة ذلك تطور الطب النووى تطورا سريعا وتحقق سيكلوترون طبى لمعالجة الامراض السرطانية بواسطة النيوترونات .

٭ طريقة تكنولوجية حديثة لفحص الخلايا والانسجة الحيةبواسطةاستخدامالميكروسكوب الالكتروني .

يقدم هذا التكنيك امكانيات رائعة ,وحديثة لفحص المواد البيولوجية والطبية ويطلق على هذا التكنيك اسم Cryodécapage (تبريد ـ = Cryo ، ازالة ـ décapage والتطبيقات الشائعة فى هذا التكنيك تتناول الآتى :

ـ دراسة الخلايا النباتية .

ـ فحص الميكروبات الحية غير المرئية بالعين المجردة .

ـ فحص الانسجة النباتية .

واذا كان لهذا التكنيك فوائد عديدة فيمجال الابحاث التطبيقية فله أهمية أيضا فى مجال الابحاث الاساسية . وهذا التكنيك لايزودنا فقط بامكانية الحصول على مقاطع رقيقة من العينات المطلوب فحصها ,ودراستها « مثل الطرق المستخدمة فى فحص مقاطع رقيقة جدا من المواد الاخرى » ولكنه أيضا يزودنا بمنافع اخرى وعديدة الاغراض نتناول منها الآتي :

ـ رؤية المظهر الخارجى للخلايا .

ـ رؤية الغطاء البلازمى مع امكانية رؤيته بسهولة بواسطة النزع الجزئىلغطاء الخلية .

ـ رؤية المظهر الخارجى للنواة ،والفجوات الصغيرة ... الخ .

ـ دراسة الاسطح المزقة لهذه الاعضاء الحية. كما لهذا التكنيك فوائد اخرى ، فانه يسمح بازالة تكوين الشوائب غير المرغوبة والتى من الصعب مراقبتها عند التكوين . ويتم هذا التكنيك Cryodécapage تحت فراغ كامل . ويفهم بالخلاء (ألفراغ) الغاز ، وخاصة الهواء المخلخل بدرجة عالية . حيث يتم التبريد وطريقة قطع العينة المتجمدة تحت هذا الفراغ . كما يزود هذا التكنيك بترمومتر الازدواج الحرارى وذلك لمراقبة درجةالحررة. وبعد اتمام الحصول على السطح الممزق والمنتج أثناء قطع العينة المتجمدة والتى تم لها عملية Cryodécapage تبدا الخطوة التالية وتسمى الطبع اى يتم تبخير جزئيات من الكربون على العينة المقطوعة ، وتتم كلهذه الخطوات تحت الفراغ. وبعد ذلك من السهولة التامة فصل الطبقة المتبخرة والتى ترسبتعلى العينة والمميزة لتركيب الخلية بواسطة الميكروسكوب الالكترونى . ومن المميزات والفوائد الاساسية لاستخدام الخلايا المتجمدة فى الحالة الحية وذلك لفرض فحصها ودراستها ، فانها تحتفظ بحيويتها عند

التحضير تبعا لهذا التكنيك ــ كما أثبت هــذا التكنيك من الامكان وبدون أى مصاعب دراسة هذه العينة المحضرة والمنتجة بهذه الطريقة Cryodécapage بأنها تعطى صــورة حقيقية للخلايا والانسجة الحية . وبهذا يثبت بأن العينات لم يحدث ولا يطرأ عليها أى تعديل أثناء التحضير بطريقة Crydoécapage وفحصها باستخدام الميكروسكوب الالكترونى. وهنــا أود أوضح أن الميكروسكوب الالكترونى عند تشغيله يستخدم الشعاع الالكترونى بدلا من الشعاع الضوئى كما فى الميكروسكوبات الضوئية .

* تكنولوجيا الاشــعاع وعلم الكيمياء فى معالجة الامراض السرطانية وغير السرطانية .

تستخدم طريقة تكنولوجية لمعالجــة بعض الحالات الشــاذة لاوعية المخ . وهذه الطريقة التكنولوجية الجديدة لا تحتاج الى ضرورة اجراء عملية جراحيــة للمريض . حيث أن هذا التكنيك العلاجى بواسطة الفحص الاشعاعى يتم عن طريق اعطاء فرصة للاشعاع كي يتخلل الى الاوعيــة المصابة مستخدما سابر الكترونيــك مغطى بغطاء على شكل بالون . ينفخ بعــد ذلك الغطاء ويكون بمستوى جرح الاوعية التى تحت العلاج مما يحدث ســدا للقرح مع المحافظــة على امتداد الشريان ، وهذا يســمح بتــأمين وصول الاوكسجين بشكل جيد . كما أن هذا التكنيك الحديث مخصص حاليا لمعالجة الشقوق الناتجة عن رضوض الوجه وعدد من اشكال القروح التى تصيب شريان القلب والتى لم تكن لوقتنا الحاضر قابلة لاجراء عملية بواسطة جراح الاعصاب ، وعمليا غير قابلة للعــلاج بأى طريقة أخرى . ومــع ذلــك فبالامكان توســيع نطاق هذا التكنيك فى حالات عديدة قبل اجراء عملية جراحية من أجــل البحث عن أفضل مكان لاجراء العملية بمستوى أوعية المخ وذلك لعــدم اتلاف مرور شريان القلب.

اعــدت شركة فرنسية ــ انجليزية للاشعة آلة تستخدم أشــعة اكس وقد أطلقت عليها اسم دانسيتوم . يتعلق الامر بطريقة تحــدث ثورة في ميدان اســتخدام تكنولوجيا الاشعاع. يمر شــعاع دقيق من اشــعة اكس فــوق المخ وذلك بشكل طبقة بعد طبقة . تجمــع المعلومات بشكل اشــارات كهربائية وترســل الى العقل الالكترونى (أورد يناتير) ليعيــد تركيب الصور .

وهكذا يمكن مشاهدة مالم يسبق تحقيقه بواسطة التصوير بالاشعة ــ الاورام الرخوة ــ تشويهات أوعية الدم وكل أمر هــام يجب اكتشافه بسرعة لانقاذ المريض .

وتتناول هذه الطريقة كالاتى :

يمتص المخ الاشــعة عند مرورها ، كمــا يقيس جهاز الكاشف أهمية هــذا الامتصاص للاشــعة . اما المحــول المستخدم بالجهــاز فيحول الفرق الحادث الى أرقام حتى يمكن دراستها ومعالجتها بواســطة استخدام العقل الالكترونى . تم تغير اســطوانة الفيديو هذه الارقام الى صور واضحة على شريط مغناطيسى لتســجيل صور التلفزيون . كما يأمل الذين يستخدمون الاشــعة توسيع تطبيق هــذه الآلة فى أجزاء اخرى من الجسم .

* علاج المرضى المصابين بسرطان الرئة :

ان الجراحة في الوقت الحاضر هى العــلاج الوحيد الذى يستطيع شــفاء عــدد من من المرضى المصابين بسرطان الرئة .

فى مركز جراحــة مارى ــ لا نيولــونج فى باريس. اجريت عمليات لالفى مصاب بالسرطان البدائى فى الرئة وقد شفى ٢٣٪ من الذين اجريت لهم عملية منذ خمس سنوات علــى الاقــل . أجريت عمليات أخرى لمئة وستة مرضى مصــابين بــداء السرطان الثانــوى « ميتا ستاز » وقد شفى ٣١٪ من الذيــن

أجريت لهم عمليات تعود الى ثلاث سنوات على الاقل. اما الوفيات خلال العمليات فلا تتجاوز ٥ر٣٪ . يعود التقدم الذى تحقق فى هذا الميدان خاصة الى معرفة المرض باكرا كما يعود الى مراقبة عدد من انواع السرطان المتطور والى علاج كيميائى اكثر فاعلية واخيرا الى تحسن طاقة العلاج بواسطة الكوبالت الاشعاعى .

شدد العالم بويار (باريس) على ضرورة الجمع بين عدد من الادوية التى يعتبر تأثيرها المشترك له فاعلية أكثر من تناول كل علاج على حدة . وبهذه الواسطة يمكن للعلاج الكيميائى أن يأمل القضاء على الخلايا السرطانية بشكل اهم . كما تبين ان العلاج بواسطة الاشعة يمكن ان يستخدم بين مرحلتين من العلاج بواسطة الادوية الكيميائية ... ومع ذلك ، يجب أن يستخدم فى البدء عندما تسد القرحة شعبة الرئة وتسىء الى التنفسى ، من ناحية اخرى ، يعتبر العلاج بواسطة الادوية الكيميائية مفيدا بعد انتزاع القرحة السرطانية . اما النتيجة فتتحسن بمعدل خمسين فى المائة وبامكانها كذلك استدراك أو تخفيف الانتكاس .

* معالجة سرطان العظام :

يسفر هذا النوع من السرطان عن ظهور مرض الرئة . ولفتت الانظار خاصة للاعمال التى يقوم بها العالم جافية وفريقه فى الولايات المتحدة ، وهى تتناول استخدام العلاج الكيميائى بالادوية الكيميائية فى البداية وذلك لوقف نشاط ظهور المرض الذى لا يزال فى حالة بسيطة . وهكذا يبدو ٦٠ الى ٨٠ فى المائة من المرضى الذين يعالجون بهذا الشكل فى حالة مرضية (طيبة) بعد مرور أربع سنوات من اجراء العملية الجراحية ، ولاتبدو لديهم علامات ظهور المرض ، بينما تبلغ هذه النسبة ٢٠٪ لدى المرضى الذين يعالجون بالجراحة فقط .

دعت هذه النتائج الايجابية الى محاولة استخدام هذا العلاج مع المرضى الذين استؤصلت الاورام لديهم مع المحافظة والعناية على العضو المصاب والمزود ببدلة عظيمة الحماية وتحل مكان قسم الورم المقطوع . كما تدل ملاحظات اخرى تتناول معالجة اورام المبيض والامعاء الغليظة والمعدة والرئة لدى عدد محدود وخاص ، تدل على اتجاه أطباء السرطان حاليا وهو اتجاه يهدف الى عدم الاقتصار على العلاج المحلى بواسطة الجراحة والاشعة ، وانما للاستعانة ايضا بعلاج كيميائى عام لمهاجمة المرض عندما لا يمكن ادراكه وهو موجود . كما سيسمح هذا الشكل الجديد لمكافحة السرطان الثانوى بمساهمة المريض مساهمة فعالة وحقيقية فى علاجه ، كما يمكن بهذه الطريقة أن تعطى فرصة طيبة لاجراء عملية تعديل كاملة وتحسين العلاقة بين المريض واطبائه .

قدم كل من الطبيبين دوبارك وديكولكس تقريرا يبين التقدم التكنولوجى الحديث فى مكافحة السرطان الثانوى (ميتاستاز) للعظم . يمثل السرطان الثانوى والمعروف بالتكوين البدائى السرطانى انتقالا او مراكز ثانوية للاورام الخبيثة التى تبدو فى موقع بعيد عن المنظمة فى البدء .

يقدر الطبيب دوبارك والطبيب ديكولكس أن عشرين بالمائة تقريبا من الاشخاص المصابين بالسرطان قد عرفوا الاصابة بظهور السرطان الثانوى للعظم .

تؤلف الخلايا السرطانية مجموعات بمستوى العظم وتسفر عن تحطيم تدريجى للنسيج العظمى والذى يترجم بشكل كسور . بين عام ١٩٦٠ وعام ١٩٧٠ ادخلت الفنون التقليدية لجراحة النسيج العظمى هذا العلاج الجراحى فى حالة ظهور علامات السرطان الثانوى العظمى ولم يكن يعرف قبل ذلك غير العلاج بواسطة تنظيم التشويه عن طريق تجميد العضو

المصاب بالجص . فى الوقت الحاضر ــ تطورت فنون تكنــولوجية التحطيم التدريجى للنسيج العظمى او البدلات الخاصة بكسور العظم . وهى تحمل أملا جديدا للمرضى . يكمن هذا الامــل بامكانية الانتقال بحرية وبدون خطــر يهدد انكسار العظم . يحل هذا الفن فــوائد جديدة كما يبين أهمية تكنولوجيا علم البوليمر في العلاج الطبى الحديث والتى ساعدت هذا الشكل الجديد للعلاج .

وهناك أولا استخدام الاسمنت الاكريليكى ، حيث يجرى حفــر العظم المصــاب ويمــلأ الفراغ بالاسمنت . وبالامكان كذلك استخدام مسمار فى عظم المصاب ، وتجرى تقويته كذلك بالاسمنت الاكريليكي .

وبالامكان كذلك بالاســتعانة « بالتحطيم الشامل » الذى يؤمن صلابة فورية ويسمح بالحصول على تقويــة العظم بحيث يستطيع المقاومة فورا وطوال فترة طويلة امام الحركات الميكانيكية التى يخضع لها . اما جراحة استبدال الاعضاء فتمثل شكلا آخر للعلاج ويوصــى بها : أن تقوية البدلات بواسطة الاســمنت الاكريليكي هى عبــارة عن عنصر اســاسى لنجاحهــا . ويعتمد الاســمنت الاكريــليكي الجراحى على مادة بولي ميثيل ميثا اكريلات وتستخدم كمادة أساسية لمركبين ؛ فى احدى المركبين تكون جزئيات سلفات الباريوم منتشرة داخل المــادة الاســاسية . وتخلط كميــة معلومة من جزئيات ســلفات الباريوم ببودرة البولى ميثيل اكريلات ويضاف بعد ذلك سائل الميثيل ميثا اكريلات للخليط بالنسبة الاتية :

جزءان من بولي ميثيــل ميثــا اكريلات وزنــا .

١ ــ جزء من ســائل ميثيــل ميثا اكريلات وزنــا .

وبعد ذلك يخلطا خلطا جيدا وان يكون فى حالة رخوة ويضــغط حول قضيب مــن الصلب الموضوع بطريقة مركزية داخل قالب اسطواني من الصلب اللين ومن الضرورى بعد ذلــك ان يجرى اجراء البلمرة تماما لمركب الاسمنت الاكريليكى وذلك لزمن يتراوح ما بين ٢٠ دقيقة او اكثر .

❊ أمراض الثدى

نجد هنا مدى اهمية تكنولوجيا العصر فى التوصل السريع والكشف عن الجروح فى انســجة الثدى حيــث ان امراض الثــدى « الطفيفة » نجد لها اهميتها وخطورتها . لان مضاعفة الاورام غير السرطانية والتي تعتبــر فى البداية ليس لها اهمية يمكن أن تؤدى الى استئصال الثدى بشكل كامل . لذلــك من المهم ان نتجة الى علماء تكنولوجيا العصر لخدمة هذا المجال . اشار اطباء امراض الثدى الى انه من المهم الكشف سريعا عن الجروح فى انسجة الثدى . وهنا تتدخل تكنولوجيا العصر لتجد الطريق السليم لانقاذ المرضى . يجرى جمع المعلومات المتعلقة باستخدام وسائل تكنولوجيا العصر للفحص وذلك للحصول على خلاصــة نتائجها بغية الكشف عن أصغر ظاهرة مرضية .

أعدت طريقة للفحص ولا تزال فى مرحلة الاختبار ، وهــي تتناول تسجيل ومقــارنة تبدلات القوى الكهربائية البيولوجية بمستوى الثدى ، ويسمح ذلك بتحديد الثدى الطبيعى والثدى المريض ، وذلك تبعا لاهمية التغير الملحوظ في السعة . كما أمكن تحديد أصــل عدد من الاورام الصغيرة التي تبدو فى الثدى على سبيل المثال ، نذكر منها ان الاكيــاس لا تتطور اطلاقا نحو السرطان ولكن يعود أصلها الى عوامل نفسية وجسدية . نتيجة ذلك ادت الى الاهتمام بدراسة وفحص خطوط الجلد والاصابع واليد بكاملها لدى ثلاثة آلاف امراة فقط لوحظ ان عددا من هذه الخطوط يدل اتجاه « تجسيد » للعواطف والاجهادات على الصعيد الجسدى . وفى الوضع الحالي لهذه الاعمال ، قدر ان بعض الحالات الخاصة من الامكان ان يشار اليها وهي قابلية الاصابة

لامراض الثدى الطفيفة نتيجة للاعراض السابق ذكرها .

فى نطاق... المحادثات التي تمت بفرنسا (باريس) بشأن مرض السرطان والمصابين بداء السكر وبناء على طلب العالم ماتيه حاول اخصائيان وهما جاكلين فابر وهينريكا أونج تحديد نفسية المصاب بداء السرطان وقد وضحا على التوالي مختلف المراحل التي يتعرض لها المصاب بداء السرطان .

عندما يكتشف المصاب بداء السرطان حقيقة مرضه ، فانه سيواجه مرحلة انهيار عصبي قبل ان يتمالك نفسه . عندئذ من الضرورى تخفيف حدة مخاوفه والحديث عن علاجه والحديث مع غيره من عائلته . لانه فى حاجة للثقة بالطبيب الذى يقوم بعلاجه وان يحصل على طمأنينة فعلية من طبيبه . وتحت هذه الظروف فى الامكان ان يتعاون مع الطبيب لمكافحة المرض . وبالتالي عندما يتأكد ويعرف أن جميع التدابير قد اتخذت للتخفيف من آلامه الجسدية والنفسية، عندئذ يقل قلقه ويأسه . كما ألح كثيرا كل من الطبيبين جاكلين فابر وهنيريكا أونج بضرورة التحدث بين مرضى السرطان وعائلتهم وكذلك الاطباء ايضا وذلك لتخفيف حدة المرض لديهم . والواقع أن المرضى بداء السرطان ينتظرون من الهيئة الطبية وكذلك من الذين يجاورونهم وعائلتهم قوة الكفاح معهم .

كما أوضح كل من السادة تشوبرتسكى، لورانت ، دروين وتوتان ضرورة تعليم المصابين بداء السكر منذ البداية ما هية مرضه وكيفية معالجته . كما من الضرورى والواجب ان يتخذ هذا التعليم شكلا جديا وعمليا وعلميا . وهو يحتاج الى عشر ساعات تقريبا . وتكمل هذه الدراسات بتوزيع منشورات خاصة على المرضى بداء السكر . وبالنسبة للمرضى الذين يحتاجون لاستخدام الانسولين ، يجب ان يتلقى المريض الاشراف بنفسه على أحواله ومع مراقبة طبية سليمة ، ليستطيع الحياة بشكل عادى على قدر الامكان .

* التكنولوجيا وميدان طب الاسنان :

اقيم فى عام ١٩٧٤ المؤتمر الثاني الوطني لجمعية طب الاسنان الفرنسية في قصر المؤتمرات بباريس وتناولت اكثر المذكرات العلمية نزع اللثة من الاسنان واصابتها بالقروح وبنسبة هامة . توازى اصابة الاسنان بالقروح كمية استهلاك السكر . كما لا يوجد أى لقاح ضد قرح الاسنان ، ومن أجل تجنب هذا المرض ، لا بد من المحافظة على الانظمة الصحية والاساسية لتنظيف الاسنان مرارا كل يوم وذلك لمنع ظهور طبقة تتراكم فوق الاسنان . كما يعتبر نزع اللثة عن السن مسئولا عن استئصال عدد كبير من الاسنان .

واذا عنى بالاسنان باكرا بالامكان شفاؤها وذلك بفضل جراحة تسمح بالقضاء على رسوب الطرامة فوق اللثة . اما أفضل وقاية لهذه الظاهرة فهي نظافة الفم . وبهذا الشأن أيضا أسفرت عدة ابحاث عن اعداد بدلة الاسنان اى جهاز صفير يقوم مقام عمل السنن وأوضحت النتائج بأننا الان نشهد نهاية اسطورة الذهب . الواقع أن هذا المعدن الثمين يستبدل اكثر فأكثر بمزيج يتركب من أساس يعتمد على النيكل والكروم ـ تملك هذه السبيكة مميزات مماثلة ولكنها أصعب اعدادا لانها اقل ليونة . ومع ذلك يعتبر سعرها أقل ، مما يسمح بتحقيق توفير هام عند اعداد بدلة للأسنان . تمكن حوالي سبعمائة طبيب اسنان بكلية جراحة الأسنان بجامعة باريس من اجراء دراسات تكنيكية ترافقها بيانات واقعية عن تأثير الطبقة الصفيحية الشكل التي تغطى السن والتي تحدث التسوس والنخر وتجريد الأسنان . كما أنه من السهولة أن يتمكن الانسان من مقاومة تسوس الأسنان والنخر وذلك بالعناية الصحية على الاسنان . كما أن تنظيف الاسنان

بانتظام يكفى فى الحقيقة لمنع ظهور هذه الطبقة الصفيحية فوق الاسنان . وهى تتألف بنسبة ٨٠٪ من جراثيم . وفى الواقع هذه الجراثيم تنتهى بمهاجمة الانسجة التي تسند السن ، وبالتالى تحمى هذه الانسجة وتصبح غالبا مقرا للعدوى قبل ان تفقد الطاقة الكلية التى تسند السن قبل الوقوع .

ومن أهم الاستنتاجات التي اسفرت بهذا الاجتماعي العلمي التكنولوجي فى ميدان طب الاسنان :

ـ مواد جديدة للاجهزة التي تقوم مقام السن وذلك للحماية وتسمى بالبدلة وملء السدود . كما هناك اصماغ جديدة لها قدرة الالتصاق بالسن بشكل افضل ومن اهم مميزاتها بأنه ليس من الضرورى عمل اعداد خاص . وقد اوصى باستخدامها .

ـ زرع الاسنان ، ويعتبر من التجارب التكنيكية الحديثة، ويمثل ذلك جذور صناعية حقيقية كما تستخدم كأساس للجهاز الذى يقوم مقام السن أو عديد من الاسنان (البدلة) ويوضع على جانبي العظم ويثبت فى مستوى سمك العظم ، ويبدو ان الاتجاه السائد نحو استخدام الفحم الزجاجي .

كما توصلوا بأنه يوجد تأثيرات جانبية اخرى وذلك لالتهاب الاسنان ، وبالامكان ان يكون هذا التأثير على القلب واوعية الدموالعظام والكلية والعين أو الجلد .

فى الوقت الحالى ـ ولمثل هذه الحالات ـ لا بد من العمل بحذر شديد وعدم انتزاع الأسنان بدون تبصر . وبناء على ذلك يجب تحديد الموقف بدقة سواء لانتزاع الأسنان أو حفظها تبعا للخطر الذى يمكن ان يكون حيويا.

يعتبر الأستاذ دكتور روبيرت فرانك مدير كلية جراحة الأسنانفىستراسبورج ،اخصائيا دوليا شهيرا في ميدان أمراض الفم والاسنان ، وتناول قسمهام من ابحاثه كيفيةتركيبالسن . وقد كرس احدث أعماله وتجاربه العلمية البحثية لحركة انتقال المواد الكلسية بمستوى مختلف أطراف السن . كما تناولت أبحاثه بعد ذلك بواسطة استخدام المجهر الالكترونى الماسح (التصوير بالاشعة) . تحققت هذه الاعمال فى اسنان القط المولود بعد حقنشرايينه بالكلس المشع من نوع (Ca 45). وبرهن العالم فرانك عن وجود طريقتين لمرور الكلس (الكالسيوم) من شعب الدم الى الانسجة التى يقويها الكالسيوم المشع . يمر الطريق الاول بين خلايا النسيج والثانى عبر الخلايا المسؤولة عن تركيب العظم . اما قوة وطرافة هذا العمل فتعود لاثباته أن الطريق الثانى هو اهم من الطريق الاول . تتحقق هذه الاعمال والأبحاث بواسطة الحيوانات المولودة ، وهى تقدم معلومات ثمينة حول تركيب الأسنان .

والتطبيقات العمملية لمثل هذه الاكتشافات من الامكان ان تتضاعف وخاصة فى ما يتعلق بآلية ظهور وعلاج تركيب السن والانسجة الخاصة التى تعتمد عليها السن عند الظهور .

كما تحدث أيضا العالم بيار فوهر عضو الاكاديمية الوطنية لطب الاسنان بفرنسا عن طريقة جديدة تتناول استخدام اكسيد الكالسيوم الثقيلأو الهيكسوكاليكس،اكتشفت هذه المادة الجديدة عام ١٩٧٢ من قبل العالم بيار برنار من باريس.وقد درسها فريق يتألف من ستة باحثين تمكنوا من تنظيم استخدامها بشكل علمى . وقد استخدم الهيكسوكاليكس لمعالجة ١٦٠٠ شخص تقريبا . سمح له ذلك بالقول ان هذه المادة يمكن أن تستخدم بشكل فعال فى جميع حالات معالجة الأسنان .

ان امكانيات هذه المادة ليست ضئيلة ،وهى تشمل القضاء على جميع الادوية وتخفيض استخدام الادوات اليدوية ، وكذلك تخفيض

نسبة اجراء العمليات الجراحية ، ومن شأنها كذلك ان تضاعف نمو العظم من جديد .

ايضا أسفرت عدة ابحاث عن التغيرات الحادثة فى تركيب ودرجة نفاذية العاج الخاص بأقنية جذر السن بعد تعرضه للحوامض الضعيفة والمواد المطهرة بالنتائج الاتية :

ــ ليونة عاج جذر السن بواسطة المواد الكيميائية يقلل الوقت اللازم لعملية توسيع قناة الجذر ميكانيكيا . كما وجد ان درجة ليونة العاج تتناسب طرديا مع وقت الانغماس ولذلك حبذ استعمال اى مادة من مواد البحث لمدة ١٥ دقيقة فقط .

ــ ليست عملية تحديد الوزن المفقود طريقة دقيقة لمعرفة تأثير المادة على علاج جذر السن ، ولكن قياس أيونات الكالسيوم الموجودة فى خلات الكالسيوم المترسبة تعطى ضوءا أفضل لتحديد تأثير المواد المستعملة فى البحث على عناصر العاج غير العضوية . ومن الواضح من نتائج البحث ان كل المواد المستخدمة تعطى زيادة فى أيونات الكالسيوم بعد مضى ٢٤ ساعة مع تغير بسيط فيها بعد مضى ٤٨ ساعة ــ ومن ضمن النتائج أن تحديد وضع استعمال اى مادة يعطى تفاعلا محدودا .

ــ منحنيات ونتائج تحليل حيود الاشعة السينية (اكس) أعطت اجابة واضحة عن التفاعلات والمركبات الجديدة الناتجة بين عاج جذر السن وبين هذه المواد .

ــ كما وجد أن أساس كل المكونات الجديدة الناتجة هى خلات الكالسيوم ، وان التغيرات فى فوسفات الكالسيوم القاعدية (اساس تركيب السن) تغيرات بسيطة وكل التغيرات تمت فى مركبات أخرى مثل هيدروكسيد الكالسيوم .

ــ درجة نفاذية الصبغة تتناسب طرديا مع وقت الانغماس وهذا يعطى ضوءا جديدا على استعمال المواد الكيميائية قبل استعمال المواد المطهرة .

ــ وجد ان أى مادة كيميائية تستعمل يجب الا تتعدى حدود قناة العصب حتى لا تسبب اى الم للمريض فى بادىء الامر .

ــ كما نستطيع القول بأنه لم يستقر الامر بعد على شكل وضع هذه المواد عند استعمالها اكلينيكيا . ان استعمال كمية هذه المواد فى التجارب المعملية كانت اكثر بكثير من كمية المادة اللازمة عند استعمالها اكلينيكيا ، ولكن هذه الكميات يمكنها ان تعطينا فكرة عن التغيرات التى ستحدث فى عاج السن .

ومن التحليلات الاحصائية ومقارنة حامض الخليك ١٠ فى المائة ، ٢٠ فى المائة وثلاث مواد اخرى متداولة مثل :

EDTA - ENDOSOLVE - LARGALULTRA

وجد أنه يفضل تكرار استعمال حامض الخليك كمادة كيميائية لعملية التوسع الكيميائى الميكانيكى اللازمة فى قنوات السن .

* الصحة العامة وطب الاطفال

عرفت ابحاث الكلية خلال السنوات العشر الاخيرة تقدما خاصا فيما يتعلق بأمراض الكلية والضغط . اذا كان قد تحقق فى الواقع تقدم مدهش للعلاج بواسطة الكلية الصناعية وتطعيم الكلية . ولا تزال هذه الوسائل مسكنة كما تمثل حلولا مؤقتة . ان الوقاية من امراض الكلية ترجع عامة لفضل الدراسات والابحاث المتعلقة بالوراثة خاصة ، كما انها ستسمح بتخفيض نقص عمل الكلية لدى الطفل وبالتالى لدى البالغين .

اوضح العالم جون هامبوجر عضو أكاديمية العلوم ومدير مركز ابحاث امراض الكلية فى مستشفى نيكر باريس وذلك كان خلال المؤتمر الذى عقد بمناسبة الذكرى العاشرة لتأسيس

المؤسسة الوطنية للصحة العامة والبحث الطبى ، فان زيادة نسبة البولينا فى الدم ليست ناتجة عن تجمع المادة البلورية من البولينا نتيجة ضعف الكلية لدى الانسان السليم فقط بل انها تقضى على هذه المادة ايضا . وان كثيرا من ذلك برهنت الابحاث التجريبية خلال سنوات عديدة على أن عجز وظائف الكلية يؤدى كذلك الى سلسلة متوالية من الخلل او عدم الاتزان فى المواد الهامة والتى يعتمد عليها اساسا الوسط الداخلى لجسم الانسان مثل الماء والصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والماغنيسيوم وغيرها من المواد الثابتة . وبرهنت الابحاث التى تتعلق بأمراض الكلية والتى حققها عدد من الفرق العملية البحثية من العلماء الفرنسيين والمتخصصين فى هذا الفرع على ما وراء « أزمة الكلية الحادة » من امراض خطيرة تؤدى فى النهاية لوفاة المرضى . وهذه الامراض المختلفة تهاجم الكلية وتحدث فيها اصابات . وان معرفة كل من هذا الخلل وعدم الاتزان فى المواد الاساسية في تركيب جسم الانسان بشكل أوسع وكذلك البحث عن اسبابه (يتعلق الامر غالبا بالمناعة) يعتبر لازما للعلاج وكذلك للوقاية من هذه الامراض. ويحاول علماء الكيمياء عزل المواد السامة واحدة بعد الاخرى وهى التى تجرى مع الدورة الدموية وتعتبر مسؤولة عن الخلل القاتل . ان الكلية الصناعية وحدها هى التى تستطيع حاليا تحقيق عملية التنظيف .

اما فيما يتعلق بأمراض التهاب الاغشية المحاطة بالمخ ، نجد حاليا ان يعاد استخدام المضادات الحيوية والسولفاميد لعلاج مثل هذه الامراض ، وبالتالى نتج عن ذلك أن نسبة الوفيات تناقصت من ٨٠ الى ٢٠ فى المائة ومع ذلك لا تزال هذه النسبة مرتفعة ، ولكن ذلك يعود جزئيا الى قدرة الجرثومة المدهشة والتى تسبب هذا المرض واصرارها على الحياة والتطور بسهولة لمقاومة العلاج . فاهتم الباحثون بتصنيع طعم خاص للوقاية من هذا المرض ، وبالفعل ظهرت فعاليته بايقاف الوباء الاخير الذى حدث فى البرازيل .

ذكر العالم تريو من مؤسسة ميريو انه اذا كانت الاوبئة الكبرى المعروفة مرتبطة بالجراثيم من نوع أ ، س ، فلا يمكن التأكد بأن الجرثومة من نوع ب تعتبر مسؤولة لوحدها . فى فرنسا جرى احصاء كل عام وذلك من الالف الى الالف وخمسمائة اصابة ، كما لا يمكن التأكيد بأنها لن تتخذ يوما هذا الشكل من الانتشار. فى الوقت الحالى لم يتمكن التحقيق وتصنيع الطعم المقابل. وامافيما يتعلق بمرض الانفلونزا وذلك خلافا لالتهابات الاغشية المحاطة بالمخ ، لا يوجد حاليا أى علاج .

يقضى داء الانفلونزا في فرنسا كل شتاء على ٨ ــ ١٨ ألف شخص وبينهم ٩٠ ٪ من الذين تجاوزوا الستين عاما . اما التطعيم فيبدو أفضل الاعمال . ذكر العالم هانون من مؤسسة باستير ما يلى :

اذا كانت حماية التطعيم ضد الانفلونزا فى البداية غير كاملة (جرعة التطعيم) قليلة مع عدم معرفة سلوك تطور الجرثومة التى تعتبر أصل الوباء . اما اليوم فبفضل تطور فنون تكنولوجية التقنية سمحت لنا باستخدام جرعات منتجة وذات فعالية قصوى مع اختفاء كل الاضرار تقريبا التى كانت سابقا تنتج عنها.

منذ شهر نوفمبر ١٩٧٥ وللان يجرى بقسم الامراض المعدية فى قسم البحث الطبى الاجتماعى ، وهو تابع للمؤسسة الوطنية للبحث الطبى لاوروبا، تحقيق يعتمد على نسبة تغيب الطلبة عن حضور الدروس وتعتبر هذه النسبة من التغيب كدليل على اهمية انتشار وباء الانفلونزا . من اجل هذا التحقيق ، جرى اختبار تلاميذ الصف الاول والثانى فى المدارس الابتدائية . وتتراوح اعمارهم بين السادسة والثامنة ، وهو السن الذى تصيبه عادة امراض الاطفال المعدية (الحصبة

ـ التهاب لوزتى الاذنين .... الخ) فى فرنسا مثلا اختيرت ١٢ مدينة . من بينها نانت ، بوردو ، مونبيليه ، ليون وغيرها من المدن . وفى هذه المدن أجرى مراقبة ستة آلاف طفل تقريبا . وفي كل صف يحدد يوميا عددالفائبين وما سبب التغيب عن الدراسة . وعندما تتجاوز نسبة الفائبين ١٥ ٪ يتوجه شخص مكلف بالتحقيق الى المكان الذى يقع فيه الغياب من أجل تحديد ومعرفة ما اذا كان الامر يتعلق بوباء الانفلونزا . وفى حالة تحديد المرض ويشخص على انه بالفعل وباءالانفلونزا يتناول الخطوات الهامة الآتية :

يجرى التقاط بصاق الحلق لدى الاطفال المرضى وكذلك كل من يجاورهم من العائلة ، ترسل جميع هذه الاثار الى مؤسسة باستير فى باريس او الى مركز مراقبة وباء الانفلونزا أو الى المختبرات الوطنية للصحة العامة وهى مختبرات تضم قسم الاوبئة . وبالتالى تقوم جميع الفحوصات اللازمة لعزل عدد من انواع جراثيم الانفلونزا ودراستها دراسة بناءة . ونتيجة لهذه البحوث العميقة سمحت النتائج بمعرفة انتماء هذه الجراثيم الى نوع أ ـ فيكتوريا أو نوع الثانى من ب .

وبالتالى استطاعوا أن يحددوانوع الجرثومة التى ينتمى اليها وباء الانفلونزا ، ومن هذا المنطلق بدأت المؤسسات الصحية فى صنع الطعم الخاص لوباء الانفلونزا واستخدام العلاج الكيميائى السليم للقضاء على هذه الانواع من وباء الانفلونزا .

أمراض الكبد لدى الاطفال

عقد فى أوروبا اجتماع دولى خصص للحديث عن أمراض الكبد ومجارى الفدة الصفراء لدى الطفل وكان مقره فى باريس بمستشفى الاطفال بالضاحية الجنوبية . حيث اقيم خلال السنوات العشر الاخيرة مركز أبحاث لدراسة امراض الكبد ومجارى الفدة الصفراء لدى الطفل . ولا يوجد مثيل لهذا المركز في فرنسا نفسها او الخارج ايضا ويديره العالم الاجيل.

اسفر وجود هذا المركز ، نتيجة تعاون بين الخدمات المتخصصة بالمستشفى ، عن دراسة التشخيص والاسباب لامراض الكبد لدى الطفل ، وبين وحدة أبحاث امراض الكبد لدى الطفل . وقد انشئت هذه الوحدة من الابحاث التى تتعلق بامراض الكبد بالمؤسسة الوطنية والبحث الطبى عام ١٩٦٩ .

عقد القسم الاول من هذا الاجتماع الدولى تحت رئاسة العالم روير دى برو فى قصراونج شامب حيث يوجد هناك مقر المركز الدولى للطفولة . وفى هذا الاجتماع الدولى اجتمع خمسة عشر امريكيا وخمسة عشر اوروبيا . اما المرحلة الثانية فقد عقدت داخل مقر وحدة ابحاث امراض الكبد لدى الطفل . سمح مؤتمر المؤسسة الوطنية للصحة والبحث الطبي لعدد كبير من الاطباء والباحثين بالمساهمة فى أعمال القسم الاول .

ترتبط احدى الاعمال الجديدة لهذا اللقاء بتنوع الابحاث العلمية . كما ضم الاخصائيين فى الكيمياء الحيوية وفى علم المناعة وعلم الجراثيم وكذلك الاخصائيين في علم التشريح ـ والامراض أو الاطباء المتخصصين فى امراض الكبد لدى البالغين او الاطفال ـ وفى هذه المناسبة قامت فكرة السباق الاساسية للتقدم التكنولوجى ودورها الهام فى البحث الطبى.

واشار العالم جوى جود لويسكى الى موضوعين حديثين يتعلقان بالعلاج بواسطة المياه المعدنية : التهاب الكبد الجرثومى والانفعالات الفذائية للطفل ، وبالامكان يؤدى موضوع الانفعالات الفذائية لدى الطفل الى انشاء مستشفى خاص لاجل معالجة اضطراب الهضم لدى الطفل .

التقى حوالى عشرة الاف طبيب من جميع بلدان العالم لتبادل معلوماتهم وخبرتهم فى

نطاق الميدان الطبى والعلاج والجراحة والاختصاصات التكنولوجية العصريةوامراض الفم والاسنان . وتم نقاش اربعة ابحاث حول مواضيع الساعة (المسؤولية الطبية ، ومنع الحمل ـ حوادث منزلية لدى الطفل ، مراقبة وصف الادوية وعدم الافراط فى تناولها ـ المصابون بداء المفاصل الروماتزمية) . كما تناول النقاش ايضا جميع ميادين الجراحة العامةوالصحة العامة والاختصاصات،وخاصة طب الاطفال، والتوليد وامراض الفم والاسنان اما فى مركز المستشفى الجامعى ـ بيتيه ـ سالبترير فقد جرى نقاش حول الافراط فى استخدام المضادات الحيوية لدى الطفل . حيث انه بعد ثلاثين عاما من اكتشاف هذه الادوية، تبدو باستمرار ضرورة تعلم استخدام هذه الادوية بطريقة منتظمة وبدون افراط . لأن الاستخدام غير المنتظم والافراط فى استعمالها لا يؤدى فقط الى الاستهلاك المادى (المالى) ، بل يؤدى ايضا الى المضاعفات المتزايدة والخطرة لبذور المقاومة المختارة والبارزة من الانسان ، وهى تبعد عن كل مشروع علاجى . هذه السعة من المقاومة للمضادات الحيوية تعود الى الاحماض المحتوية على « طفيليات » فى النواة للخلايا الحية او (بلاسميد) وبصورة عامة ـ من الضرورى أن تستخدم المضادات الحيوية بطريقةسليمة والتى تستخدم بدون تمييز على سبيل الوقاية أو قبل معرفة ما اذا كانت هذه الجرثومة هى المسؤولة عن المرض ، وكذلك نوع هذه الجرثومة . يقدر علماء الجراثيم انه لا يصح استخدام المضادات الحيوية ـ اى الادوية المقاومة لحرارة الجسم ـ « للتغطية » كما يجب عدم استخدامها على سبيل الوقاية ،الا فى حالات محددة بعد معرفة نوع الجرثومة المطابقة للمرض والمقصود مكافحتها . كل هذا يعنى عدم اللجوء الى المضادات الحيوية قبل معرفة الجرثومة ونوع حاسيتها النوعية للمرض نفسه .

فى الحقيقة ، يعود اكثر حوادث التهابات مجرى التنفس لدىالاطفال والرضع،كما تعود تقريبا كل اصابات الانف والحلق وراس الحلق وشعبة الرئة الى اصل جرثومى . وبالتالى تكون المضادات الحيوية والتى تخفض الحرارة (الحمى) ليس لها تأثير على هذه الامراض بشكل عام .

بالنسبة لاصابة الاطفال بارتفاع الحرارة لمدة طويلة غير معروفة السبب . فى هذه الحالة يخشى أن تعطى المضادات الحيوية للطفل لانه من الاحتمال ان تعطى نتائج خاطئة أو سالبة بالنسبة للفحوص البيولوجيةاللازمة للعلاج السليم . اما فيما يتعلق باجراء عملية جراحية قادمة أو طفل يتناول ادوية كورتيزونية أو مانعة للانهيار العصبى ، يعتبر تطور التدابير الصحية الشديدة ، وخاصة فى المستشفى ، أكثر فعالية واقل خطورة من العلاج الوقائى بواسطة أدوية المضادات الحيوية .

حقق فريق مؤسسة باستير بفرنسا بادارة العالم فرانسوا جاكوب الحائز على جائزةنوبل الطبية ـ والعالم روبير فور اكتشافا هاما فى علم الحياة . سمح هذا الاكتشاف بادراك سبب عدم تأثير مناعة الجسم على الجنين لدى المرأة الحامل وكذلك على السرطان فى الجسم، بينما تعتبر هذه المناعة سبب لفظ الطعوم لاعضاء خارجية . وبالمقابل لم يحن الوقت للقول ما اذا كان هذا الاكتشاف يمكن أن يساهم فى معالجة السرطان . وقد تركزت البحوث التجريبية الاخيرة على صعيد البحث الطبى على موضوع الخلايا التى بدلت نظريات الوراثة والفسيولوجيا وعلم الامراض بكامله . كما اشار البحث الى علم المناعة مع الاكتشاف الهام الى علم الاجنة مع تخمين الامراض فى ذرات الخلايا قبل الولادة ، وكذلك الى علم الهرمونات مع الوسائل الحديثة لمنع الحمل .

ذكر العالم مينكوفسكي ان مكافحة الوضع السابق لاوانه ، وهو يمثل السبب الاول للوفيات لدى المواليد الجدد يجب ان يتخذ الافضلية في ميدان الصحة العامة . من اصل ٨٠٠ الف ولادة فى فرنسا خلال عام ١٩٧٣ ، تحقق ٨٠ الف ولادة قبل الاوان . ومن اصل هذا العدد ، توفى خمسة عشر الفا ، كما ان عددا شبيها يصاب بعاهات تتعلق بالذكاء والحركة ، ومن ناحية أخرى لاحظ العالم مينكوفسكي ان التقدم الهام في ميدان العلاج لا يجب ان ينسينا ان الكشف عن الحمل الذى يمثل « خطرا كبيرا » والوقاية منه لايزالان يعتبران السلاح الاكثر فعالية ضد الولادة السابقة لأوانها . وان زيارة الحامل للطبيب اربع مرات خلال فترة الحمل تعتبر من الاصل غير كافية . تبين انه فى حالة فحص الحامل مرة فى الشهر من الامكان تجنب حالات الوفاة للمواليد بنسبة كبيرة . كما يمكن تجنب اصابة ستين الفا بالعاهات خلال خمسة عشر عاما . اشارت الطبية جنفييف باريبه المختصة بالتخدير واعادة تحريك المولود اشارت الى الاخطار التى تصيب الحوامل اللواتى يبتلعن جميع انواع الادوية بفرض الوقاية والتقوية . فان عددا من انواع الادوية المدرة للبول يمكن ان تكون سبب عدم التوازن الايونى لدى المرأة والجنين، كما تتسبب في نقص كمية الكالسيوم لدى الأم . ان الأدوية المسكنة والمهدئة للاعصاب تتسرب اكثر الى الجنين بالنسبة للام . لذلك يجب الامتناع المطلق عن كل علاج عند الاقتراب من مرحلة الوضع .

* ابحاث تتعلق بالصحة الغذائية

ان الحياة الحديثة قد عدلت بعمق كثير انفعالات الجسم البشرى ، الذى سيحتاج من جديد لاشياء عديدة يجب على ادوية الغد ان تقدمها بمساهمة تكنولوجيا العصر .

يلاحظ فى الواقع ان اكثر مساوىء التغذية بدون تعقل وحكمة والتى تسبب الزيادة الفائضة فى السعرات والامتصاص الزائد للمواد الدهنية والسكرية بشكل مبالغ فيه يؤدى كل هذا الى الاضطرابات الخطرة بجسم الانسان . وبالتالي لابد من تنظيم تربية حقيقية للتغذية تسمح بالمحافظة على التوازن الغذائي للانسان. بمعنى انه منذ الطفولة، لابد من بذل تربية غذائية صحية للطفل ، مع دراسة دور الفيتامينات وتأثيراتها سواء كان الامر يتعلق بوجودها فى العناصر الطبيعية او حفظها فى المواد الصناعية او تأثيرها بواسطة المنتجات الصيدلية .

عقدت اجتماعات في اوروبا وكان مقر هذا الاجتماع فى باريس لدراسة ابحاث القضايا المتعلقة بالصحة الغذائية . وقد نظمت أخيرا من جانب اللجنة الوطنية للطفولة والمركز الوطني لتنسيق الدراسات والابحاث المتعلقة بالتغذية خلال ثلاثة اجتماعات شدد المشاركون على ضرورة تعديل السلوك الغذائى للاطفال والبالغين ، وذلك بتحقيق تطور في تناول الغذاء الصحى وكمية السعرات اللازمة للطفل . حيث انه من الملاحظ أن الاطفال فى سن الرابعة قد اعتادوا اكل الطعام المالح او الحاوى على كثير من السكر مع عدم شرب الماء .

أشار العالم روسيبه رئيس اطباء مستشفى سان فانسان دى بول بباريس خلال اجتماع اللجنة الوطنية للطفولة وذلك لدراسة تغذية الشباب ، ذكر ان ثلث حالات البدانة والضعف يبدأ منذ الطفولة ، وأن عددا من العادات الغذائية العائلية السيئة تمهد لبدانة الطفل . كما اضاف قائلا : يخشى من تضخم الشحم بشكل غير قابل للنقص لدى الاطفال ويحافظ على ذلك عدم انتظار هرمونى . لذلك يجب على طبيب الاطفال ان يراقب كل زيادة فى الوزن .

كما اشار العالم دوبان خلال اجتماع المركز الوطني لتنسيق الدراسات وابحاث التغذية الى العادات السيئة منذ الاشهر الاولى وخلال العامين الاولين من الحياة . قال : « خلال الاشهر الاولى ينمو الطفل ويزيد وزنه جراما

فى الساعة (حوالى ٢٥ جراما يوميا) اما وزن الدماغ فيزيد جرامين يوميا ، وبعد ١٢ شهرا يزيد وزن الطفل ثلاث مرات بالنسبة لوزنه عند مولده ، كما يبلغ طوله عندما يبلغ عامين نصف الطول النهائي لبلوغه » . وهكذا برهن على اهمية قضايا التغذية لدىالرضيع،وشدد على الاخطاء التى تتردد فى الغالب :

ـ تجاهل الأم للمميزات المختلفة لانواع الحليب وزيادة الكمية .

ـ استخدام باكر للغذاء المالح او الكثير السكر .

ـ لم يعد الاطفال بين الرابعة والسادسة يعرفون شرب الماء . كما يعطون مشروبات كثيرة السكر والالوان .

ونظمت ايضا مؤسسة تنظيم الغذاء فى كلية الطب الباريسية مؤتمرا تناول دراسة الموضوعات المرتبطة بالصحة العامة والصحة الغذائية لسائق السيارة . توجد فى الحقيقة علاقة وثيقة بين نظام الغذاء والانتباه . حدد عدد كبير من الاخصائيين التابعين للهيئة الطبية والمنظمات المسؤولة عن سلامة السير ، حددوا تأثير الكحول وعدد من الادوية بصورة خاصة علـى نوع رد الفعل العصبى . كما دلت الاحصاءات بوضوح علـى أن نسبة الحوادث تزداد مع زيادة نسبة الكحول في الدم . وان سلامة السير تعتبر أفضل طالما نسبة الكحول لاتزداد عن ٣ر. جرام ، ويوازى ذلك كمية امتصاص ضئيلة وخاصة اذا جرى ابتلاع عدد كبير من الادوية دفعة واحدة قبل تناول الطعام فهناك عدد من الادوية المسكنة واللازمة لحالات الصرع والمنشطة والفاقدة للشهية « القاطعة للجوع » وهى تؤثر مثل الكحول وتحدث زيادة فى الوقت اللازم لاحداث رد فعل فى الاعصاب، كما تحدث نقصا فى قدرة تنسيق اعصاب البصر واضطرابات فى التمييز والانتباه . كما وضحت الابحاث التجريبية التى اجريت من قبل مؤسسة تنظيم الغذاء أن الاخطار الواقعية للاضطرابات والتى تسبب الحوادث انما تبدو خاصة عندما يبدأ تناول العلاج ، وذلك قبل ان يعتاد الجسم عليه . ومن هذا المنطلق عكف الاخصائيون على العلاقات التى تنشأ بين الاجهاد العصبى وظروف التغذية ، وقد اتفقوا على أهمية الغذاء المعقول والمناسب. ومن أجل تمتع بانتباه كامل وسرعة استجابة ، لابد من تجنب نقص نسبة السكر فى الدم مما يخفف نسبة الاوكسجين وحتى البروتين فى خلايا الاعصاب . وكذلك تناول وجبات الطعام الغنية وهى تحدث عادة رغبة فى النعاس. فنجد من المستحسن بالفعل احترام السعة المنتظمة للانتباه المفروضة على السائق والتى عادة تنقص بعد ساعتين من قيادة السيارة وذلك نتيجة للارهاق . بالتالى يجب هنا على السائق الوقوف بانتظام لتناول وجبات صغيرة من الطعام والمواد السائلة . تسمح هذه التدابير للسائقين بالمحافظة على انتباه اقصى وتجنب جميع الحوادث التى تعود الى تعب الجسد والأعصاب .

انشىء فريق بحثى لدراسة التعب والاجهادات العصبية ، وهو يضم الاطباء والباحثين فى المجالات المختلفة ـ الأمراض والفسيولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع والطب العام والطب المهنى والأطباء المشرفين على الصحة الرياضية (الطب الرياضي) والغدد والتنفس ... وكانت غاية هذا الفريق البحثي هي تناول المواضيع التالية :

ـ تحديد الاسباب والمظاهر والعناية بالاجهاد وضعف القوة الناتجة غالبا عن عجز عصبى أو نفسي .

ـ جمع ودراسة نشر جميع المستندات المتعلقة بهذه المواضيع .

ـ اعداد وتطبيق التدابير الصحية والوقاية بالنسبة لجميع علامات الاجهاد .

بسم الله الرحمن الرحيم

وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس أن في ذلك لآية لقوم يتفكرون .

صدق الله العظيم

اشارت تحقيقات حديثة الى اهمية وتكرار الاجهاد وضعف القوة الناتجة غالبا عن عجز عصبى أو نفسي . وقد تبينت الاحصائيات للاطباء داخل المستشفيات ان مريضا من اصل اثنين يشكو من التعب والاجهاد العصبي. وعلى صعيد العيادة ، يشمل الضعف جميع مظاهر المرض،وان كل مرض جسمى او عقلى يسبب ضعفا . وعلى الصعيد النظرى ، اقتصرت الدراسات الفسيولوجية الاساسية الكلاسيكية فى الغالب على تعب العضلات ، وهى غير كافية لابراز مجموع مايتعلق بالاجهاد الناتج عن ضعف القوة وتأثيره على الحياة النفسية والاجتماعية .

* عسل النحل شفاء للناس

بدلا من استخدام العقاقير والادوية يوجد علاج جديد وقديم عرفه الانسان منذ القدم ـ انه عسل النحل الذى ذكر فيكتاب الله عزوجل .. الهاما من هذا قدم الطبيب الروسى الاصل «روش» في كتاب تحت عنوان « النحل صيدلية مجنحة » يقول فى كتابه ان العسل افضل علاج للأمراض الناتجة عن البرد ... اما ان يخلط بالحليب الساخن او عصير الليمون او مع الشاى الساخن ... هذا العلاج عرفه العالم منذ مئات السنين . انه يقضى تماما على البرد او الزكام . ويستخدم ايضا فى ايقاف النزيف الرئوى مع خليط مع عصير الجزر ، ويضيف المؤلف ... ان للعسل فوائد عديدة ونافعة وله آثار نافعة اذا استنشق صباحا فهو يساعد على سهولة التنفس وقاتل للجراثيم، بالاضافة الى انه مقو عام لجميع اعضاء الجسم ... والدليل على ان العسل له فوائد كثيرة ، خاصة للجهاز التنفسى، فقد انتجت المانيا الغربية دواء للسعال يدخل فى تركيبه نسبة ٤٥ فى المائة من العسل الابيض .

* علم النفس الهندسى والفسيولوجى

اثبتت الابحاث التجريبية الحديثة ان تطور تكنولوجية الاجهزة الاوتوماتيكية والآلات والمعدات انها غيرت تفكير البشرية ، فكان الانسان فى الانتاج يصنع كل شيء بنفسه ، اما الآن فهو الذى يتحكم في عملية الآلة اى اخذ يتحول اكثر فأكثر الى قائد يصدر أوامره للاجهزة الاوتوماتيكية . رغما عن ذلك التقدم ، فهذه الاجهزة الاوتوماتيكية فرضت على الانسان ان يكون منتبها قوى الذاكرة ، حاضر البديهة ، سريع الاستجابة . فتطورت الدراسات البيولوجية لخدمةالانسان فاستطاع العلماء نتيجة لدراستهم وابحاثهم أن يحددوا الوظائف السيكولوجية العليا للانسان اى صنع معدات مهيأة للاتصال والتعامل مع الانسان ومتناسقة مع قدراته وطاقاته . حيث انه

ثبتت عمليا بأننا نرى أكثر مما نتذكر في كل خطوة نخطوها . وبذلك يدرس علم النفس الهندسي الطبي باهتمام شديد « السعة » للانسان بوصفه قناة معلومات وقناة اتصال وايضا تحديد وتنمية المواهب المهنية لدى الانسان ورفع مستواها الى مستوى متطلبات التكنولوجية العصرية المتزايدة .

وفي الابحاث التجريبية وعلى مدى واسع يجرى في هذا المجال وتقدم للانسان عدة مسائل متزايدة الصعوبة . ويقوم العلماء بعد ذلك ، وبواسطة اجهزة خاصة ، بتحديد ما يسمونه « معامل التقدم » اى القدرة على تنمية المواهب ، وتساعد هذه الطريقة على معرفة ما اذا كان الانسان يستطيع ان يعمل فى اية مهنة من المهن التى تتطلب رد فعل دقيق وسرعة بديهية . وضبط أعصاب واسترشاد فى المواقف غير المتوقعة ، وفحص العاملين قبل توزيعهم على الورش والتخصصات والمناصب . ويحدد العلماء الخصائص الفطرية لكل شخص وقدرته على تنميتها . وهذا يساعد على معرفة العمل الذى يناسب كل انسان ، وعلى عدم تضييع الوقت والمجهود فى تعليمه عملا يناسبه او حرفة لا تتفق مع استعداداته . وبفضل تطور علم البيونيكا يقوم العلماء بوضع علاقات جديدة اكثر ارتباطا بين الانسان والآلة .

وعلم البيونيكا هو علم يدرس استخدام العمليات والمناهج البيولوجية لحل المسائل الهندسية الحيوية . ويمكن تعريف علم البيونيكا ايضا بانه نظرية مناهج اقامة النظم التكنيكية التى تقترب مواصفاتها من مواصفات الاجسام الحية . ويأخذ هذا العلم تسمية من الكلمة الاغريقية « بيون » اى « خلية حية » . وكم من أبحاث تجرى فى ميدان علم البيونيكا ! ان العلماء يبحثون بجهد عن وسائل بيولوجية للوقاية من الاشعة الخطرة ويأملون ان يتمكنوا من بناء مرشحات حية لتنقية الماء والتربة من النشاط الاشعاعى .

❋ مكافحة التلوث والاضرار الصناعية :

فى المجتمعات الصناعية والمجتمعات المجاورة، نجد الهواء يحتوى على ادخنة كثيرة . وكما ان مياه الانهار تحتوى على مركبات كيميائية ، حتى البحر يحتوى على البترول اى متلوث بالبترول ... الخ ، وهذا ما يسمى بتلوث الهواء والماء والبحر والاضرار التى تعود من هذا التلوث تسىء الى الصحة العامة للانسان. فتجرى مباحثات عديدة فى نطاق مكافحة التلوث والاضرار الصناعية ومكافحة الضوضاء . فى الوقت الحاضر يجرى بناء شكل جديد لجدار من الاسمنت ضد الضوضاء وذلك على الطرق السريعة والمزدحمة والتى تكثر فيها الضوضاء بشكل خاص . فامكن تحقيق ستار مصنوع من الزجاج والالومنيوم وهو يندمج تماما مع الموقع،كما يتشرب نسبة كبيرة من الارتجاجات التى تحدثها السيارات مما يخفف قليلا من انزعاج السكان المجاورين لهذا الطريق المزدحم .

اما التصنيع والتلوث البيئى فهما عنصران متلازمان تتناسب العلاقة بينهما تناسبا طرديا فكلما ازداد التصنيع ازداد التلوث البيئى معه بما قد يؤثر على الصحة العامة وعلى نوع الحياة . فى نطاق المعرض الدولى لتكنولوجيا الآلات لمكافحة التلوث والاضرار الصناعية والذى اقيم بين ٧ ، ١١ ديسمبر عام ١٩٧٦ فى باريس وذلك برعاية ومساهمة وزارة نوع الحياة .

قدم هذا المعرض الدولى الاول لمقاومة التلوث والاضرار الصناعية المعدات والمنتجات والوسائل والخدمات المقررة لفنون الهواء والماء والضجيج والنفايا الصناعية ونفايا المدن ومكافحة التلوث والاضرار . حيث أن هناك نصوصا تشريعية عديدة تلزم كل من يسبب التلوث على استخدام تجهيزات لمكافحة التلوث والاضرار . تحققت أخيرا دراسات لحساب اللجنة الاقتصادية الاوروبية فى بروكسل ، افادت أن أسواق صناعة مكافحة التلوث ستعرف تطورا بمعدل ١٤ فى المائة فى السنة حتى عام ١٩٨٠ . سترتفع هذه النسبة الى

١٥٪ فى السنة فيما يتعلق بمعالجة المياه الصناعية ، كما ستبلغ ٥ر٥٪ بالنسبة لتنقية الهواء . اما ميدان أدوات القياس ومراقبة التلوث الجوى فسيزيد بشكل اكيد حوالى ٢٥٪ فى السنة وذلك حتى عام ١٩٨٠ . اما فيما يتعلق باجهزة العزل الحرارى ، أجهزة الحماية ضد أى تغير في درجات الحرارة ستقارب الزيادة السنوية حتى عام ١٩٨٠ ، ١٥٪ ، بينما سيزيد بيع آلات القياس بمعدل ٢٥٪ . بامكان قطاع جمع النفايا والقضاء عليها ، سواء كانت تتعلق بالنفايا المنزلية او الصناعية ، بامكانه ان يعرف زيادة بيع الادوات والمعدات بمعدل ٢٠ فى المائة فى السنة ، وذلك بسبب بدء تطبيق قانون النفايا الصادر فى يوليو عام ١٩٧٥ .

اليوم بوسعنا ان نقول اننا نشهد اليوم ميلاد مجال طبى جديد حيث تقف معه كلمات التكنولوجيا بمداولها العلمى جنبا الى جنب مع هذا المجال وتسلح هذا المجال الطبي الذى يعد من أقدم العلوم ، والتى ولدت كعلم وصفى وتجريبى ، باحدث الوسائل فى ترسانة العلوم ، الا وهى طرق التحليل السليمة ، والتفكير الذهنى والحساب الدقيق . ولقد حطمت التكنولوجيا الحديثة الخرافات القديمة والشعوذة والقيم البالية فى المجال الطبى . واصبح تقدم العلماء المؤشر الذى يوضح اتجاه الانسان الحديث ... وبفضل قدرة العقل الانسانى المعاصر الخارقة والمجددة وبفضل ما أصبح يملك من مقومات وقدرات على التطور وبفضل ما حققه وسيحققه من تقدم تكنولوجى .. وبفضل الاكتشافات ذات المستقبل الكبير فى البيولوجيا الجزئية وفى الكيمياء الحيوية والعضوية والفيزياء الحيوية والفيزياء النووية والاشعاعية وعلم الخلايا وعلم الوراثة ، وبفضل ظهور اتجاهات جديدة فيها وغير متوقعة مثل الاحصاء البيولوجى والرياضيات البيولوجية ونظرية النظم . فوجدنا وتحققنا ان التكنولوجيا المعاصرة الآن قد دخلت بالفعل فى المجال الطبى بشتى فروعه ، والاستخدامات الطبية للاجهزة الصوتية وغيرها فالعقل هو الطريق للايمان ... ونحن نقبل على الايمان بعقولنا .. وان التقدم امر لا يمكن الرجوع عنه ، ولا يمكن ايقافه لان العقل دائم البحث والاكتشاف والابتكار . وبجانب هذا العرض أود ان اكرر اهتمامى والتركيز بالنهوض بالارتقاء الفكرى والثقافى (السمو الفكرى ـ المآثر الثقافية) فى العالم العربى ونرتفع به الى أسمى مكانة والاعتناء ايضا بانماء ملكاتنا العقلية وتعميق ثقافاتنا حيث انها تقدم لنا قوة فكرية تقدمية في جو مكيف المناخ . كما يسمح الارتقاء الفكرى والثقافى للطفل بتعليم ما لا يستطيع ان يتعلمه فى الكتب ، وبالتالى فان مهمتنا هى دراسة ما يمكن ان تقدمه المآثر الثقافية للعلم والتكنولوجيا ومع دولة العلم والايمان ومزودا بطاقة الاصالة الحضارية التى تملكها الامة العربية .

★ ★ ★

المراجع العلمية

١ ـ الموسوعة الصغيرة فى علم السيبرنيتيكا ـ فيكتور بيكيليس

٢ ـ أسس الالكترونيات ـ أ. جيريبتسوف

٣ ـ l'ASSOCIATION POUR LA DIFFUSION DE LA PENSEE FRANCAISE

٤ ـ مؤتمر امراض الأذن والانف والحلق ـ لوشون ـ مدينةالمياه المعدنية بفرنسا سنة ١٩٧٦ .

٥ ـ المؤتمر الثالث والسبعون الفرنسى لامراض الاذن والانفوالحلق والرقبة ـ باريس كلية السان بيير ـ سبتمبر سنة ١٩٧٦ .

٦ ـ فوائد العلاج بالمياه المعدنية ـ الاستاذ شارل دوبريه ـفيشي فرنسا ـ مختبر المياه التابع لمستشفى بيشا .

٧ ـ A New Freezing - Ultramicrotome
H. Moor' Ph.D, K. Muühlethalaer, Ph.D., H. Waldner,
A. Frey, - Wyssling, Ph.D
The Journal of Biophysical and Biochemical
Cytology, 1961, Vol. 10, No. 1

٨ ـ Dijon - France 6e Congrés de la Société européenne de neuroradiologie
„Etude radiologique des Vaisseau anormaux dans les tumeurs cerebrales'' Sept. 1976.

٩ ـ I' exposition „Biocapt 75'' (l'electronique au sevice du malade) BNF n. 1327
du B-12 75

١٠ ـ الايام الوطنية لعلم الاشعة ـ باريس ـ ١٦ ـ ١٨ فبراير/١٩٧٦ بمستشفى امراض الاطفال .

١١ ـ الانسان والآلة ـ فرنسا ـ تولوز ـ ٢٥ ـ ٢٦ نوفمبر١٩٧٦ .

١٢ ـ المؤتمر الدولي لجمعية امراض القلب الفرنسية ـ ٦ ـ٨ ديسمبر ١٩٧٦ باريس ٧٥٠١٩ .

١٣ ـ المؤتمر الفرنسى للجراحة ـ معالجة سرطان العظم ـ باريس ١٩٧٦ .

١٤ ـ Le Professeur charles Gros, MM. Quennville et Gautherie, Chercheurs a l'institut
National de la Sante et de la Recherche Medicale de Strasbourg France 1976.

١٥ ـ Charles Gros: Fondateure de l'ecole de "Sénologie'' strasbourg - France.

١٦ ـ Professeur Debrun. l'Hospital Henri - Mondor de Creteil - Paris - France.

١٧ ـ P.W.R. BEAUMONT, JOURNAL OF MATERIALS SCIENCE SEPTEMBER
1977 p. 1485 part I

١٨ ـ P.W.R. BEAUMONT AND B. L PLUMPTON
JOURANL OF MATERIALS SCIENCE SEPTEMBER 1977 p. 1853 part 2.

١٩ ـ ROBERT FRANK, DIRECTEUR DE l'ECOLE DE
CHIRURGIE DENTAIRE a STRASBOURG. FRANCE.

٢٠ ـ التغيرات الحادثة في تركيب ودرجة نفاذية العاج الخاص باقنية الجذر بعد تعرضه للحوامض الضعيفة والمواد المطهرة ـ رسالة دكتوراه ١٩٧٧ جامعة القاهرة ـ كلية طب الاسنان .

أشرف على الرسالة الدكتورة سلسبيل محمد محمودابراهيم الاستاذ المساعد بكلية طب الاسنان ـ جامعة القاهرة ـ والدكتور مصطفى كمال محمد المدرس بكلية العلوم جامعة المنصورة .. وصاحبة الرسالة السيدة الطبيبة سلمى حسن العشرى .

٢١ ـ Le Professeur Hannoun I'institut Pasteur - 25e Journees Pharmaceutiques internationales - Paris 1975.

٢٢ ـ الذكرى العاشرة لتأسيس المؤسسة الوطنية للصحة والبحث الطبى ـ ١٩٧٥ ـ فرنسا .

٢٣ ـ مؤتمر امراض الكبد لدى الاطفال ـ باريس ١٩٧٥ .

٢٤ ـ اجتماع المركز الوطنى لتنسيق الدراسات وأبحاث التغذية باريس ـ ١٩٧٥ .

٢٥ ـ مؤسسة تنظيم الغذاء ـ مؤتمر لدراسة موضوع القضايا المرتبطة بالصحة الغذائية لسائق السيارة ـ كلية الطب ـ باريس ١٩٧٤ .

٢٦ ـ ايام الجمعية الفرنسية الوطنية للطب ماقبل الوضع وما بعده ـ مدينة تور ـ ١٩٧٤ .

٢٧ ـ Tables rondes - les Entreiens de Bichati : CHU Pitié - Salpêtrière, 105, Boulevard de I'Hôspital, 75013 Paris 0 Septembre et Octobre 1976.

٢٨ ـ مؤتمر علماء الانفعالات الكيميائية للمواد الحية في باريس يوليو ـ ١٩٧٥ .

٢٩ ـ Groupe d'etudes de la fatigue - Docteur Pierre Burgard, 2, Square du Croisice - 75015 Paris.

٣٠ ـ La 2e Semaine internationale de I'Environnement du 7 au 11 decembre - Paris - 1976.

٣١ ـ التكنولوجيا الحديثة في المجال الطبى للتنمية وبناء المجتمع لعام ١٩٧٧/٢٠٠٠ لسنة ١٧ العدد ٥٥٦ ـ جريدة الشباب العربى ـ مصر . للدكتور مصطفى كمال محمد .

٣٢ ـ Journees Pharamaceutiques internationales de Paris (26e Journee Pharmaceutiques, Francaises) "Le Pharmacien et le 3e âge" Paris Sep. 1976.

٣٣ ـ 73e Congres Francais d'oto - rhino laryngologie et de pathologie cervicofaciale. Paris Sept. 1976.

٣٤ ـ 22e Réunion européene d'information en Epileptologie et en Electroencéphalographie Marseille France Sept. 1976.

٣٥ ـ 5e Congres international de médecine Psychosomatique - société francaise de psychosomatique "La place du corps dans la relation PSYCHOSOMATIQUE et Médicale. Paris - sept - 1976

٣٦ ـ Colloque "Biomedica" 11" - TRIA "Homme/machine" Toulouse - France Novembre 1976.

٣٧ ـ Congres international de I'Association dentaire Francaise - Decembre - 1976.

٣٨ ـ Journées nationales de radiologie novembre - Paris - 1976.

٣٩ ـ Dr. Coucazou Jacques Specialisé en Urologie, Acadamie de Moutpéllier, France.

الدافعيـة بين التنظير والنمذجة

دراسة تحليلية مقارنـة

طلعت منصـور *

لعبت الدافعية دورا متعـاظم الاهميـة فى نظريات علم نفس القرن العشرين ، فمفاهيم وفروض الدافعية تؤلف اجزاء متكاملة مـع الكثير من نظريات علم النفس بعامة ، والتعلم والشخصية بخاصة . كذلك شهدت العقود الثلاثة الاخيرة من هذا القرن بنـاء نظـريات للدافعية أكثر تخصصا . وترتبط هذه الحركة بطبيعة الحال، بتزايد مقدار النشاط التجريبى ارتباطا بمتطلبات العصر الخاصة بتحقيق الاداء الافضل والتوظيف الامثل لامكانات الفـرد وطاقاته النفسية . ومن هنا ، كان الاهتمـام المتزايد بعلم النفس الدافعى (Motivational Psychology)، او بعلم الدافعية Motivology(١)

وتصور الدافعية ـ كما يقرر **« پول توماس يونج »** (١٩٦١) ـ على انها مصطلح عام «اكل

(*) دكتور طلعت منصور مدرس الصحة النفسية بكلية التربية جامعة عين شمس . أسهم ببحوث منشورة فى بعض المؤتمرات الدولية . عضو الجمعية المصرية للدراسـات النفسية ، والمجمع المصرى للثقافـة العلمية ، والجمعية الامريكية للتقدم والعلوم .

(١) مصطلح اقترحه « ر. س. وودورث » (١٩١٨) .

محددات السلوك » ، يتطلب منا فى هذه الدراسة ان نضع فى الاعتبار تلك النظريات التى تتضمن مصطلحات اساسية مثل الدافعية الدافع ، الحافز ، الحاجة ، الغريزة ، القوة ، الباعث ، القيمة الذاتية ، وغير ذلك . ونرجو ان نكون قد وفقنا فى انتقاء تلك النظريات التى أثرت فى البحث السيكولوجى وفى تطور التصورات النظرية ابان العقود الثلاثة او الاربعة الاخيرة (٢) .

وهدفنا الا نقدم اهم نظريات الدافعية واحدة تلو الاخرى ، ولكن ان نعرض لنتائج الدراسة المقارنة لنظريات الدافعية وفقا للموضوعات التالية :

١ ـ تطور التنظير فى الدافعية .

٢ ـ مفاهيم الدافعية

٣ ـ نمذجة الدافعية .

(١) تطور التنظير فى الدافعية

لقد قيل عن علم النفس ، كما يقرر « ابنجهاوس » ، أن « له ماضيا طويلا ولكن تاريخا قصيرا » . ولعل هذا يصدق بصفة خاصة على سيكولوجية الدافعية . فقد شكلت فروض ومفاهيم الدافعية جزءا هاما من التصورات الفلسفية والسيكولوجية خلال تاريخها الطويل اعتبارا من فلاسفة الاغريق . لكن الكتاب الاول الذى تكرس تماما للدافعية قد ظهر فى عام ١٩٣٦ (يونج ، ١٩٣٦) ، ولم تظهر المراجع الاولى التى تغطى ميدان علم النفس الدافعى الا فى العقد الاخير . كتب المرجع الاول عالم فذ آخر هو (وودورث ، ١٩٥٨) ، ثم تبعه آخرون ، بندرا (١٩٥٩) مادسن (١٩٥٩) ، هول (١٩٦١) ، براون (١٩٦١) ، يونج (١٩٦١) ، رتلينجشافر (١٩٦٣) ، اتكنسون (١٩٦٤) ، كوفر وآيلى (١٩٦٤) ، توماى (١٩٦٥) ، بولز (١٩٦٧) وغيرهم . وقد ظهر اول مسح للميدان فى الكتاب السنوى لعلم النفس المعروف بـ

Annual Review of Psychology

فى عام ١٩٥٢ ، وكتبه « ماورر » .

كان ميلاد علم النفس كعلم مستقل نتاج « التهجين » بين الفلسفة والفسيولوجيا التجريبية . وفى علم النفس التجريبى « الكلاسيكى » هذا ، الذى نشأ على أيدى فخنر وڤونت وابنجهاوس وغيرهم من السيكولوجيين الالمان ، لم يكن ثمة مجال او استخدام للمفاهيم او الفروض الدافعية . ويمكن ان نعزى اسباب هذه الحقيقة التاريخية الى ان السيكولوجيين التجريبيين الكلاسيكيين قد استأثرتهم دراسة العمليات المعرفية ـ خاصة الاحساس والادراك ، كما تملكتهم الطريقة الاستبطانية فى هذا الصدد . وفى نفس الوقت كان هناك اتجاه صاعد آخر فى البلاد الانجلو ـ سكسونية .

سيكلوجيا وايثولوجيا الغرائز ، فى الوقت الذى كان فيه علم النفس التجريبى آخذا فى النمو فى المانيا ، كانت هناك ثورة علمية ذات دلالة بالغة تتقدم فى انجلترا بنشر « دارون » لكتابه « أصل الانواع » (١٨٥٩) ، وهو الكتاب الذى أثر فى علم النفس تأثيرا بالغ العمق . لقد جعلت نظرية دارون عن التطور البيولوجى فى الامكان تفسير السلوك الانسانى بتطبيق المبادىء ذاتها التى طالما استخدمت فى تفسير سلوك الحيوان . ومنذ فجر التاريخ

---

(٢) يمكن الرجوع ، لمن يريد معلومات أعمق وأوسع عن نظريات الدافعية ، الى الدراسات المسحية لمجموعة من العلماء المبرزين فى هذا الميدان ، مثل : أتكنسون (١٩٦٣) ، بولز (١٩٦٧) ، توماى (١٩٦٥) ، هيلجارد (١٩٦٣) ، كوفر وايلى (١٩٦٤) ، كيش (١٩٥٩) ، مادسن (١٩٥٩) ، يونج (١٩٦١) ، بالاضافة الى المصدر البالغ القيمة

Jones, M.R. (ed.) Nebraska symposium on motivation. Lincoln : Nebraska Univ. Press, 1953-1963.

كان المفهوم الاساسي المستخدم في تفسير سلوك الحيوان هو « الفريزة » للاشارة الى « القوى الدافعة » وكذلك « الميكانزمات المحركة » في سلوك الحيوان. وقد صار ايضا مفهوم الفريزة بعد نشر نظرية دارون ، شائعا بين علماء النفس ، خاصة في الدول الانجلو سكسونية. لذا قدم وليم جيمس ، وهو أول عالم نفس امريكي ذي شأن كبير ، غرائز متعددة لتفسير السلوك الانساني ، لكن موازية لمفاهيم تفسيرية أخرى مثل « العادات » و « الانفعالات » و « الارادة » .

كان وليم ما كدوجل (١٩٠٨) ، عالم النفس الانجليزي — الامريكي ، هو الذي اعتبر « الفريزة » على أنها مفهوم اساسي في تفسير السلوك الانساني . وجوهر نظريته محاولة لاقامة علم النفس استنادا الى مبادىء التطور . وفي كتابه « مقدمة في علم النفس الاجتماعي » ، الذي كان له تأثير بالغ على الفكر السيكولوجي بحيث صدرت منه أكثر من ثلاثين طبعة منذ نشره في عام ١٩٠٨ ، يعرف « الفريزة » على النحو التالي :

« يمكن ان نعرف الفريزة ، اذن ، على انها استعداد نفسي — جسمي موروث او فطري ، تهيء صاحبها الى ان يدرك وينتبه الى موضوعات من فئة معينة، وان يخبر استثارة انفعالية من نوع معين عندما يدرك ذلك الشيء، وان يسلك وفقا لها بطريقة معينة ؛ أو ، على الاقل ، ان يخبر اندفاعا نحو ذلك السلوك» (ص ٢٥)

وفي نظريته عن الفرائز ، يقابل ماكدوجل الفريزة بانفعال معين ، مؤكدا بذلك تأثره بالتوازية Parallelism كاتجاه مسيطر على علماء النفس في هذه المرحلة المبكرة من تاريخه؛ ومن ثم فهو يربط بين قائمة الفرائز ومايوازيها من انفعالات معينة ، مثل غريزة المقاتلة — انفعال الغضب ؛ غريزة حب الاستطلاع — انفعال التعجب ، غريزة الهرب — انفعال الخوف ، الفريزة الاجتماعية — انفعال الميل للتجمع ، غريزة السيطرة — انفعال الزهو ، الفريزة الوالدية — انفعال العطف والحنان ، وغير ذلك من الفرائز .

ويتضح من التعريف السابق ان «الغريزة» في نظرية ما كدوجل مصطلح تفسيري حصري يتضمن :

(ا) المكونات المعرفية التوجيهية (« ان يدرك » ، « ان ينتبه الى ») .

(ب) وكذلك المكونات التنشيطية الدينامية (« الاستثارة الانفعالية » ، « ان يخبر اندفاعا » ، « ان يسلك ») . وتصور مكدوجل للفرائز على هذا النحو ، يعني في نفس الوقت انها مصدر لنظام الدوافع . واذ تتحدد هذه الوظائف التوجيهيةوالدينامية باستعدادوراثي يصير مفهوم الفريزة عند ماكدوجل مفهوما تفسيريا كاذبا Pseudoexplanatory concept تماما ، خاصة وانه لم يقاوم غواية ابتداعه لفرائز كثيرة للغاية . لقد قدم في كتابه (١٩٠٨) فقط اثنتي عشرة غريزة ، ثم اوصل هذا العدد فيما بعد الى اربع عشرة غريزة لتنتهي بما يعرف بالثمانية عشر ميلا فطريا Propensities ، وهذا التحول في المصطلح كان نتيجة الجدل النقدي الطويل الذي شغل علماء النفس في العشرينات من هذا القرن . ويتمركز ما يعرف بالجدل حول الفريزة في عالم النفس « جون واطسون » ؛ الذي ادرك — وغيره من السلوكيين — الخاصية التفسيرية الكاذبة لمفهوم الفريزة بعد ما صار من الواضح ان الكثير من علماء النفس والانثروبولوجيا كان يلجأ الى ابتداع غرائز جديدة في كل مرة يحتاجون فيها الى مفهوم تفسيري للظاهرات التي يدرسونها ، وقد استبقى ماكدوجل في مفهومه عن الميل الفطري Propensity concept فقط تلك المكونات الاكثر دينامية

لمفهومه السابق عن الفريزة ، كما يتضح من التعريف التالى :

« الميل الفطرى استعداد ، وحدة وظيفية للتنظيم الكلى للعقل . وهو استعداد ، حينما يستثار ، يخلق ميلا نشطا ، سعيا ، اندفاعا ، أو حافزا نحو هدف معين » (١٩٣٢ ، ص ١١٨) .

ويحدد مصطلح الغريزة فيما بعد على النحو التالى :

« الغريزة هى ذلك الجانب الخاص من تنظيم الكائن الحى (وحدة وظيفية) يعبر عن نفسه فى تتابع للاداء الغريزى (ص ٤٩) .

بهذا التعريف الاخير للغريزة يكون ماكدوجل اكثر اتفاقا مع استخدام المصطلح لدى علماء الايثولوجيا المحدثين الذين حللوا المفهوم القديم للغريزة ، وهو مفهوم حصرى غامض ، الى عناصر متعددة تحمل معانيا محددة أكثر .

يعتبر « ك . لورنز » مؤسس علم « الايثولوجيا » (Ethology) ، (٣) بينما يعتبر « ن . تنبرجن » منظره المنهجى . ويلخص « تنبرجن » نظريته عن الغريزة فى هذا التعريف :

« سوف اعرف الغريزة بطريقة اختبارية على انها ميكانزم عصبى منظم بطريقة متدرجة هرميا ، مستهدف لجوانب معينة مهيأة للاستثارة (Priming) يطلق ويوجه بالاندفاعات (impulses) ذات الاصل الداخلى وكذلك الخارجى ، ويستجيب لهذه الاندفاعات بواسطة حركات متسقة تسهم فى بقاء الفرد والنوع (١٩٥١ ، ص ١١٢) .

يعرف « تنبرجن » الغريزة ، كما يوضح هذا الاشتقاق على انها ميكانزم ينشط بالاندفاعات التى تعرف فى موضع آخر كما يلى :

« يحدد تأثير هذه العوامل الخارجية الدافعية لدى الحيوان ، التنشيط والاستثارة لغرائزه » (ص ٥٧) .

هذا الفارق بين الميكانزم والدافعية يوجد ايضا فى النظريات الاخرى التى نمت فى هذا القرن موازية للنظريات « الايثولوجية » .

ورغم ما لنظريات الغرائز من آثار عميقة على علم النفس ، الا ان مصطلح « غريزة » قد استخدم بمعانى مختلفة . فاذا كان التعريف التقليدى للغريزة كنموذج منظم ومركب للسلوك يميز النوع الواحد فى موقف معين ، كنموذج غير متعلم ، وغير مرن بدرجة أو بأخرى ، فان الغرائز المحددة على هذا النحو غير موجودة بين الكائنات الانسانية ، ولم تتضح أى غريزة علميا . ففى الكائنات الانسانية تتأثر كل النماذج المركبة للسلوك بالتعلم ، بل حتى لدى الحيوانات الدنيا ، بتأثر النشاط الفريزى بالبيئة .

---

(٣) يشيع تحديد « الايثولوجية » على اساس وصف« فربلانك »

Verplank, W.S. (1957) Aglossary of some terms used in the objective science of behavior. **Peychol. Rev.** 64, No. 6, Part 2, pp. 1-42.

للعلوم السلوكية الموضوعية ، التي يحدد فيها العالم الايثولوجي على انه « .. عالم سلوكي يلقى تدريبه فى علم الحيوانات ، ويدرس عادة سلوك الحشرات والاسماك والطيور اكثر غالبا مما يدرس الثدييات والمجموعات الاخرى ... انه دارس للسلوك المقارن .. عالم سلوكى يحب حيواناته »(ص ١٤) . اما السلوكى فهو : « ذلك العالم الذى يبحث فى سلوك الحيوانات بطريقة موضوعية والذى يحاول ربط ملاحظاته معا فى نظام نظرى لا يتضمن مفاهيم مستعارة من الاستبطان والفلسفة العقلية » (ص ٦) .

وتوازى نظام الغرائز عند ماكدوجل معنظام للعواطف ينطـوى علـى أثر الخبرة والتعلـم على السلوك انفريزى ، وان كان ماكدوجل لم يتنبه الى ذلك . يطلق « ج . ميرفى » (١٩٤٧) على ذلك عملية الجدولة canalization

فالدوافع الاساسية لا تتبدى بنمط غريزى محض ، ولكن مختلطة ومتداخلة مع التجربة والتعلم . واذ اغفل ما كدوجل ما تتصف به الدوافع وما يعتريها من تبدل وتحول ، عنى فرويد بهذا الجانب المميز للدافعية لينتهى الى ان علم النفس مطالب ، ليس برد الافعال الى مصادرها الغريزية ، وانما بالكشف عن هـذه التغيرية فى الحالات الدافعية .

فما جرى من اعتباره سلوكا قائما عـلى الغريزة والفطرة والتكوين البيولوجى للنوع ، لم يكن منعزلا عن آثار الخبرة والتعلم . وتلك حقيقة ابدتها دراسات متعددة .

مثال ذلك ، فى حالة حرمان الكائن الحى من الطعام لفترة طويلة ، تحدث عدة تغـيرات جسمية :

(١) انقباضات معدية .

(٢) تناقص معدل السكر فى الدم .

(٣) تزايد نشاط الجهاز العصبى المركزى ويشيع الاعتقاد خطأ بأن الجوع يتسبب عن الانقباضات المعدية. لكن يصف بعض الباحثين مريضا خضع لعمليـة استئصـال للمعـدة gastrectomy ، الا انه كان يقرر بعدها انه يشعر كالعادة باحساسات الجوع (وانجنستين كارسلون ، ١٩٣١) . واستجابت الفـيران ، التى تعرضت لاستئصال المعدة ، للحـرمان من الطعام بنفس « سلوك الجوع » مثل فيران المجموعة الضابطة التى لم تخضع للاستئصال (تسانج ، ١٩٣٨) . هذه النتائج قد ابدتها بحوث (باش ، ١٩٣٩ ، مورجان ومورجان ، ١٩٤٠) الذين وجدوا ، بعد قطع الاعصـاب من المعـدة الى المخ ، ان مفحوصـيهم كانوا يستجيبون كما لو كانوا فى حالة من الجوع . اى ان الانقباضات المعدية ليست حدثا داخليا ضروريا لدافع الجوع ، لكنها احد المتغيرات العديدة التى عادة ما تتضافر لاحداث الجوع.

وتوضح البيئة التجريبية ان تأثيرات الجوع على السلوك تتغير مع الخبرة بدرجة كبيرة . ولذا ، حينما اخضعت الفيران لجدول منظم من الحرمان مع اطعامها فى نهاية كل فترة من الحرمان ، وجد أنها ــ بعد عدة مرات قليلة ــ اخذت تتناول كمية ثابتة من الطعام في كل مرة ، بدلا من التهام اكبر قدر ممكن من الطعام وتبين احد هذه البحوث (لاورنس ، ماسون ، ١٩٥٥) انه اذا ارتبطت فترة الاطعام التجريبية مع الفترة المعتادة لتنـاول الطعـام ، فـان الحيوانات سوف تأكل أكثر مما لو كان الاطعام غير مرتبطا بالفترات المنتظمة لتناول الطعام .

وهكـذا ، توضـح حقـائق عـلم النفس الفسيولوجى Psychophysiology والمقارن Comparative Psychology ، ابتداء من دراسات بافلوف الشهيرة ودراسات التعـلم الحيوانى ، **ان الكثير من جوانب السلوك التى تبدو أنها تعتمد على الجوع البيولوجى يمكـن ان تستدعى بالمثيرات الخارجية المرتبطة بالهدف فبعض هذه الجوانب فطرى، وراثى ، بيولوجى والآخر متعلم ، وكثيرا ما تتداخل في علاقـات متشابكة مع نظام الدوافع .**

وبالنسـبة للانسان ، ثمة فارق كبـير بين وجهة النظـر التى تذهب الى ان الحـاجات الاجتماعية لدى الانسان ، وكذلك حاجاته الجسمية ، جزء من الطبيعة الوراثية للنـوع الانسانى ، ووجهة النظر التى تذهب الى ان الحاجات الاجتماعية متعلمة من الثقافة التى نشأ فيها وانه حتى اشباع حاجاته الجسمية

يتأثر بثقافته بدرجة واضحة. ولعل **الدراسات الانثروبولوجية** قد أوضحت ان ما يقرره بعض العلماء من وجود غرائز معينة لا توجد في بيئات أخرى كالثقافات البدائية مثلا، ومن ثم لا يوجد اتفاق على نوع الغرائز وعددها ، وبالتالي يبدى بعض الباحثين ميلا الى رفض نظرية الغرائز .

ويفضل بعض العلماء المحدثين عدم نبذ مفهوم الغريزة ، بل ان يعدلوا من التعريف . فعلى سبيل المثال ، يذهب « ايزنك » الى ما يسميه بـ « الحاجات المتفرزة » Instinctoid needs، وهي حاجات ذات أساس غريزي ، ولكن الطريقة التي تشبع بها تعتمد على التعلم بدرجة كبيرة .

في الحقيقة ، بدلا من تغيير تعريف الغريزة واضافة مزيد من الالتباس الى هذا المفهوم النظري ، من الافضل نبذ هذا المصطلح كما يتعلق بالسلوك الانساني . فالتفكير في ضوء هذه « الثنائية » بين الغريزة والتعلم يؤدي بنا الى نفس المنعطف المغلق الذي أعاق التقدم لفترة طويلة في قضية الوراثة ـ البيئة بالنسبة للذكاء .

ولعل من الاجدى ان يكون تفكيرنا في ضوء التركيب الوراثي للكائن الحي في تفاعله مع بيئته وثقافته . وهنا نؤكد الاهمية البالغة لطبيعة التركيب الوراثي . فالقطة ، مثلا ، ترث نوع التركيب الذي يهيؤها لمناشط معينة وفي نفس الوقت يحدد ما تستطيع ان تفعله (ان تمسك الفأر ، وتتسلق الشجرة ، لكنها لا تستطيع ان تتكلم أو تقرأ كتابا) . والكائنات الانسانية ترث نوع التركيب الذي يمكنها من ان تمشي ، ومن ان تسوق السيارة ، ومن ان تتصل بالاخرين عن طريق الرموز والكلمات والمعاني ، ومن ان تخطط للمستقبل . لكنها لا تستطيع ان تنمو طولا الى خمسين قدما ، او ان تعيش على الحشائش ، أو ان تحل المشكلات التي تتعدى حدودها .

فسلوك الكائنات الحية يتحدد بطبيعة التركيب الوراثي والبيئة التي تعيش فيها . ومن ثم ، فان وصف ذلك السلوك على انه سلوك غريزي او متفرز يعتبر تبسيطا زائدا .

● ● ●

في الوقت الذي خرج فيه ماكدوجل بنظرية الغرائز ، ظهر اتجاهان آخران في علم النفس ، تأثرا بداروين أكثر من تأثرهما بفونت . ويمثل هذان الاتجاهان النمو الجنيني لنظامين جديدين في علم النفس :

(١) سيكولوجية التعلم او الـ Manthanology) : (٤) ، وهو المنحى البيولوجي (Biotropic) لعلم النفس الدافعي الذي جرى داخل علم النفس الفسيولوجي وسيكولوجية التعلم .

(٢) سيكولوجية الشخصية أو « علم الشخصية » (Personology) (٥) . وهو المنحى الاجتماعي (Sociotropic) لعلم النفس الدافعي الذي جرى داخل سيكولوجية الشخصية . وما حدث بين هذين المنحيين من تفاعل يتضح من شكل (١) .

ولا يزال علم النفس الدافعي يرتبط بقوة بهذين الميدانين . كما أن الكثير من التصورات والفروض المعاصرة عن الدافعية يمكن فهمها

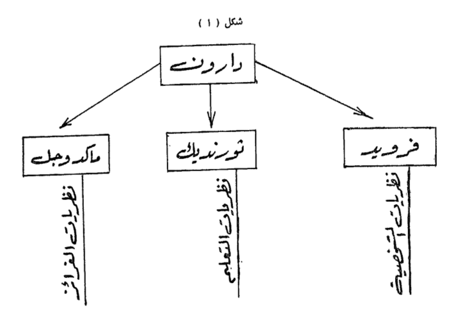
---

(٤) هذا المصطلح ماخوذ عن اقتراح قدمه «كلايد نوبل»

(Clyde E. Noble), Contemporary Psychology, 1968, 13, p. 10.

(٥) مصطلح اقترحه « هـ . موراى » (١٩٣٨) .

شكل (١)



فحسب ارتباطا بهذه الحلفية التاريخية ، كما يتضح من شكل (١) :

المنحى البيولوجى لعلم النفس الدافعى :

سيكولوجية التعلم وعلم النفسى الفسيولوجى :

بتأثير الدارونية نما الاهتمام بالتعلم الحيوانى فى أواخر القرن التاسع عشر . ومن بين من استلهم بنظرية التطور عالم النفس الامريكى « ادوارد لى ثورنديك » ، الذى كان الرائد العظيم فى خلق علم نفس تجريبى للتعلم . فى عام ١٨٩٨ نشر تجاربه المشهورة على القطط فى صندوق ـ متاهة، ووصف التعلم «كمحاولة وخطأ » أو « تعلما انتقائيا » (Selective Learning) ولكى يفسر التعلم اقترح عدة قوانين ، من بينها القانون المشهور المعروف بـ ((**قانون الأثر**)) :

« من بين الاستجابات العديدة لنفس الموقف فان تلك التى تصاحب او تتبع تماما بارضاء للحيوان ، مع بقاء الاشياء الاخرى متعادلة ، سوف ترتبط بدرجة أوثق بالموقف ، بحيث أنها حينما تعاود الوقوع ، تكون اكثر احتمالا للوقوع ، اما تلك التى تصاحب او تتبع بعدم ارتياح للحيوان ، مع بقاء الاشياء الاخرى متعادلة ، تضعف روابطها بالموقف ، بحيث انها حينما تعاود الوقوع ، تكون اقل احتمالا للوقوع . فبقدر ما يكون الارضاء او عدم الارتياح ، تكون قوة أو ضعف الرابطة » (١٨٩٨ ؛ ١٩١١) .

وقد جعل « قانون الأثر » هذا من التدعيم الموضوع الرئيسى فى سيكولوجية التعلم لثلثى قرن . بتقديم مفاهيم «الارضاء» او «الاشباع» Satisfaction « وعدم الارتياح » discomfort كمدعمات ايجابية وسلبية ، جعل ثورنديك من المتغيرات الدافعية العوامل الاكثر اهمية فى سيكولوجية التعلم . مثلما صار خفض الدافعية (الارضاء) وعدم الخفض للدافعية (عدم الارتياح) الشروط الاكثر اهمية للتعلم (خاصة في اعمال ثورنديك بعد عام ١٩٢٩) .

وقد استخدم ثورنديك المصطلح الشائع « الفريزة » كدلالة على المتغير الدافعي الاساسي لكن حينما احتدم « الجدل حول الفريزة » استبدل مصطلح « غريزة » في نظريات التعلم بمصطلحات اخرى للمتغيرات الدافعية الاولية مثل « الحوافز » ، « الحاجات » ، «المطالب» وغير ذلك .

وقد كان « وودورث » (١٩١٨) هو الذي قدم مصطلح« حافز» (drive) لتعيين المتغير الدينامي الذي يحرك او ينشط ميكانزمات السلوك لكن أعظم ادخال المتغيرات الدافعية في سيكولوجية التعلم كان على يدي « ادوارد تولمان » . لقد قدم كتابه الذائع الصيت «السلوك الفرضي لدى الحيوانات والانسان» (١٩٣٢) المتغيرات الدافعية كالحوافز والمطالب على أنها أكثر المحددات السلوكية او المتغيرات الوسيطة أهمية جنبا الى جنب مع المتغيرات المعرفية : « استعداد الغاية ــ الوسيلة » (means and-readiness) و « التوقعات » (expectations) . لم يكن تولمان صاحب نظرية في التدعيم ، لكن الدافعية بالنسبة له ، لعبت دورا هاما كمحدد للاداء ، الذي يرشد او يوجه ايجابيا بالمحددات المعرفية .

لم يهتم تولمان ابدا بالنمو الشكلي لنظريته، وعمد الى تغيير مصطلحاته خلال سنوات بحثة فاذ بدأ ب « المطالب » و « الحوافز » ، تحول الى « الحاجة » ليعود في النهاية الى « الحافز » (٦)

الاان تولمان قد اثرفي المنظر الفذ لسيكولوجية التعلم : « كلارك هل » ، الذي تمثل اعماله الرئيسية (١٩٤٣ ، ١٩٥٢) اعظم نظرية متطورة في السلوك . في هذين الكتابين (١٩٤٣ ١٩٥٢) طور هل قانون الاثر عند ثورنديك الى نظرية للتدعيم ، منظمة ومحكمة . وقد استبدل في هذه النظرية ، « الارضاء » عند ثورنديك ب « اختزال الحاجة » وفيما بعد ب « اختزال الحافز » وحدد المصطلحين الدافعيين الهامين ، « الحاجة » و « الحافز »، على النحو التالي :

« حينما ينشأ موقف يكون فيه الاداء من جانب الكائن الحي لازما للاحتمالية الأمثل للبقاء سواء بالنسبة للفرد او النوع ، يقال انه توجد حالة حاجة . ولما كانت الحاجة ، سواء فعلية أم كامنة ، عادة ما تسبق وتصاحب اداء الكائن الحي ، غالبا ما يقال ان الحاجة تدفع او تحفز النشاط المرتبط . وبسبب هذه الخاصية الدافعية للحاجات ، فانها تعتبر كمنتجة لحوافز حيوانية اولية » .

« ومن الاهمية بمكان ان نلاحظ في هذا الصدد ان المفهوم العام للحافز يميل بقوة الى ان يكون له الوضع المنظم لمتغير وسيطاو (*)، لايمكن ملاحظته ابدا بطريقة مباشرة » (هل ١٩٤٣ ، ص ٥٧) .

« الحاجة » ، اذن ، متغير مستقل يحدد المتغير الوسيط « الحافز » « ف » ، الذي بدوره يتحد مع متغيرات وسيطة أخرى في تحديد السلوك .

ومن بين المتغيرات الوسيطة الاكثر اهمية ، بالاضافة الى الحافز(D)متغير دافعية ــ الباعث incentive - motivation variable (K) الذي يتحدد بمقدار ونوعية الاثابة وقو"العادة م ع س . وهذه المتغيرات الوسيطة تتحد بطريقة تضعيفية في جهد استدعاء رد الفعل reaction evocation-potential (sEr)

السلوك = دالة (sEr) = دالة (Dx K x sHr)

---

(٦) ارجع الى الاعمال الرئيسية لتولمان (١٩٤٢ ، ١٩٥١، ١٩٥٩) .

لقد اثرت نظرية هل بعمق فى تطور نظرية التعلم . « فبين نظريات التعلم المعاصرة يشمخ بناء هل مهيبا بروعة بنبانه ، جميلا بتناسب اجزائه ، فريدا فى تناسق تفاصيله (سيد عثمان ١٩٧٤) . فمن بين زملائه وتلاميذه النجباء كان : « ك . سبنس » ، « ن . ميلر » « ماورر » ، « ج . براون » .

يتمثل اسهام « سبنس » فى نمو مفهوم « الباعث » (incentive) بين المتغيرات الدافعية . لقد غير مفهومه من نظرية تدعيم خفض الحافز drive - reduction - reinforcement theory الى ما يعرف بقانون الاثر التجريبي Empirical Law of Effect ، الذي فيه تلعب الدافعية وخفض الدافعية فحسب دورا فى الاداء ، بينما يفهم التعلم على انه تشريط كلاسيكي يتبع « مبدأ التجاور » Contiguity principle (١٩٥٦ ، ١٩٦٠) .

اما « ميلر » ، بالتعاون مع « دولا رد » ، فقد طبق شكلا مبسطا لنظرية هل على التعلم الاجتماعي (ميلر ، دولا رد ، ١٩٤١) وعلى نظرية الشخصية والعلاج النفسي (دولارد ، ميلر ، ١٩٥٠) وبجانب ذلك ، طور نظرية شكلية عن السلوك الصراعي (ميلر ، ١٩٥٩) ، واكثر المفاهيم اهمية فى نظرية ميلر : «الحافز»، « الامارة » cue ، «الاثابة»، «الاستجابة». يتحدد الحافز على انه « مثير قوى » : ولكل مثير قوى « وظيفة الحافز » drive - function تستثير الاستجابات وتنشطها. وبالاضافة الى ذلك ، يمكن ان يكون للمثيرات « وظيفة الامارة » cue-function التي توجه السلوك . اما « الاثابة » فهي ذلك الشيء الذي ينتج « خفض الحافز » ، الذي بدوره يدعم الاستجابات للمثير . وتعريف الحافز كنوع من المثير ينطوي على مزايا كثيرة: **أولا** ، ان قانون التعميم (والقوانين الاخرى للتعلم) يمكن تطبيقة على الحافز ، **ثانيا** ، « ان الميكانزم الاساسي للدافعية (الاستثارة القوية) واحد بالنسبة للحوافز الاولية والمتعلمة ، وان الميكانزم الاساسي للتدعيم (خفض فى الاستثارة القوية) واحد بالنسبة للاثابات الاولية والمتعلمة » (ميلر ، ١٩٥٩ ، ص ٤٤٠) . وقد قام « ميلر » بتجارب هامة كثيرة عن الدافعية والتعلم .

وقدم « ماورر » ، بالتعاون مع ميلر ، مفهوم « الخوف » كحافز مكتسب ، الذي قد يعتبر الاساس لكثير من الحوافز المكتسبة الاخرى (ماورر ، ١٩٥٠) . ويمثل هذا المفهوم الاساس لما اضطلعنا به من تجارب. وقد غير « ماورر » فى سياق تطور تجاربه نظريته من « نظرية التدعيم ذات العامل الواحد » One-factor reifnforce- ment theory الى ما يعرف « بنظرية العاملين » two-factor-theory) التي عدلها مرة اخرى فيما بعد ، بحيث اصبحت فى الواقع هي نظرية العامل الواحد ، تقوم على « التجاور » (contiguity) على انه العامل الاساسي فى التعلم – وهي بالتالي لا تختلف كثيرا عن نظرية سبنس. وربما يمكن الاختلاف في ان المتغير الدافعي الاساسي هو دافعية « الباعث » فى نظرية سبنس ، و « الخوف » فى نظرية ماورر .

اما « براون » (١٩٦١) فقد بلور نظرية الدافعية الراسخة فى النظرية السلوكية العامة عند هل . وجعل من الواضح ان المتغير البالغ الاهمية (« الحافز ») هو متغير وسيط ، تنشيطي (activating) عام ، لا توجيهي (non-directing) ، ويميز هذا بوضوح مفهوم الحافز عند هل وبراون عن مفاهيم الحافز الاخرى (مثل مفاهيم تولمان وفرويد) ، وبالاضافة الى ذلك ، اتى براون بنظرية اكثر وضوحا واتساقا وقابلية للتحقيق

التجريبي (الامبيريقي) عن «الدافعية الثانية» Secondary movtivation فليس ثمة « حوافز » مكتسبة او متعلمة ولكن هناك « مصادر متعلمة » learned sources للحافز ، التي كلها ـ بنفس الطريقة مثل المصادر الاولية Primary sources (الحاجات) ـ تحدد الحافز العام ذاته او تؤثر فيه . ويشير براون ، مثل ماورر وميلر ، الى الخوف على انه الاساس لكل « الانساق الدافعية الثانوية » secondary motivational systems (١٩٦٨) . علاوة على ذلك ، يتقبل براون امكانية توحيد « الحافز » مع « الاستثارة » فى « المنظومة الاستثارية الشبكية » reticular arousal system (RAS)

بهذا التفسير الفسيولوجي للحافز نتلمس خطا آخر للنمو فى سيكولوجية التعلم . فاذا تتبعنا الخط الاساسي اعتبارا من ثورنديك ، هناك اتجاه مواز هام آخر يبدأ مع بافلوف .

ولعل من المعروف ان نظام بافلوف لا يتضمن اية مفاهيم دافعية فى نظريته الاصلية كما قدمها فى عام ١٩٢٧ . وربما يعزى ذلك الى انه قد أجرى تجاربه على الحيوانات فى ظل شروط اكثر سلبية وتقييدا . فبدون قيام الحيوانات بافعال حرة ، ليس ثمة حاجة لتغير تنشيطي في النظرية . لكن هذا يمثل بالطبع تفسيرا سطحيا لأعمال بافلوف . فاذا تفحصنا نظريته بدقة نجد ان عملية التشريط وسلوك الحيوان فى الموقف التجريبي يحددهما تفاعل دينامي معقد بين عمليتين اساسيتين : « الاستثارة » و « الكف » . وبين هاتين العمليتين ، تعتبر «الاستثارة» على الاقل عملية تنشيطية ، تحريكية ، وبالتالي متغيرا دافعيا بالمعنى التقليدي للدافعية . وبالاضافة الى ذلك تدخل الدافعية فى المثير غير الشرطي الذي يدعم الاقتران الشرطي اذا تبع المثير الشرطي.

وغالبا ما يرتبط المثير غير الشرطي بشيء ما ، هو ، وفقا لنظام هل ، اما خفض الحافز drive- reducing (مثل الطعام) او استدعاء الحافز drive-inducing (مثل الصدمة الكهربية) . وفوق ذلك ، يشير بافلوف الى ما يعرف ب « الفعل المنعكس الانتظامي » Orienting Reflex (OR) كعامل حاسم فى تكوين اى رد فعل شرطي Conditioned Reaction (CR)

وقد خضعت مشكلات « الفعل المنعكس الانتظامي » (ع ظ) والنشاط الانتظامي «نظ» Orienting activity (OA) لفيض من الدراسات المتعمقة ، الفسيولوجية والنفسية وفي الحالات السوية والمرضية فى الاتحاد السوفييتي فى الثلاثين سنة الاخيرة (ب . انو خين ، ١٩٥٨ ، ش . سوكولوف ، ١٩٥٨، ١٩٥٩ ، ١٩٦٤ ، ١٩٧٠ ، فينوجرادوفا ، ١٩٦١ ، الخ) .

والفعل المنعكس الانتظامي (عظ) ، وفقا لهذه الدراسات ، هو استجابة الكائن الحي الى ظهور مثيرات جديدة او الى اي تغيير فى الوسط المحيط (اطلق عليه بافلوف كذلك الفعل المنعكس الاستقصائي exploratory reflex ، **ويمثل الفعل المنعكس الانتظامي استجابة مركبة تسهم فيها تقريبا** كل منظومات الاورجانزم: يدخل فيها استجابات حركية (مثلا ، حركة الجسم والرأس والعين في اتجاه المثير) ، حشوية (تغير دفع الدم فى اجزاء الجسم ، تغير النبض والتنفس) ، بيوكهربية (تغير تيارات الاداء ، الفعل المنعكس الجلفاني ـ الجلدي Skin - Galvanic Reflex وكذلك التغيرات في بنية المحللات Analyzers وفى استثارية أعضاء الاستقبال الحسي receptors ويتموضع التركيب الفسيولوجي ـ العصبي للفعل المنعكس الانتظامي فى المنظومات اللحائية وتحت اللحائية cortical, subcortical systems

(وخاصة التكوين الشبكي reticular formation الذي يباشر تأثيرا تنشيطيا على لحاء المخ) . والفعل المنعكس الانتظامي أهمية بالغة الحيوية: فهو يضمن الشروط الامثل للادراك والتحليل الاولي للمثيرات الجديدة ، وكذلك استعداد الاورجانزم للاستجابة لها (٧)

وقد ادى منطق نمو البحث الرصين فى هذا الصدد الى علماء النفس فى الشرق والغرب الى نتائج متقاربة . فهناك تشابه كبير بين نظريتى العالم السوفيتي « ى . سوكولوف » والعالم الكندى « د . برلاين » (١٩٦٠ ، ١٩٦٧) ، حيث يؤكد كلاهما على دور « المنظومة الاستثارية الشبكية » (RAS) فى السلوك الاستقصائى .

تأثر « برلاين » بالعلماء السوفييت وبجان بياجيه الذي عمل معه ، وخاصة **بدونالد هب.** يعزى الى « هب » بصفة خاصة ، فى عمله الرئيسي (١٩٤٩) ، وصل علم النفس الغربي بالتقليد البافلوفي الاصلي ، كما ينسب اليه الفضل فى بعث نهضة فى التنظير الفسيولوجي فى ميدان علم النفس . لقد كشف « هب » ، فى الطبعة الاولى لنظريته (١٩٤٩) ، عن تصور خاص للدافعية . حيث سلم بأن الدماغ يكون دائما نشطا . وليس ثمة حاجة الى مفاهيم خاصة لتفسير تنشيط السلوك واستارته . بل تكون الحاجة فقط الى مفاهيم عن توجيهية وتنظيمية السلوك ، الذي يتحدد بما يعرف بتجمعات الخلايا cell-assemblies وتتابعات الاطوار Phases - sequnces

وقد غير « هب » فيما بعد من نظريته عن الدافعية واكد على دور « المنظومة الاستثارية الشبكية » في الدافعية . وقد أحكم « هب » نظريته باتقان اكثر فى مقال (١٩٥٩) وفى مرجع (١٩٦٦) . وعلاوة على برلاين ، اثر هب كذلك فى « جيمس اولدز » (١٩٥٦) الذي برز فى تجارب الاستثارة داخل الجمجمة (intracranial stimulation) (٨) ، التي اكتشف فيها الوظيفة التدعيمية للحاجز septum

واهمية دور « المنظومة الاستثارية الشبكية » بالنسبة للسلوك عامة والدافعية خاصة قد أقرها العلماء منذ ان اكتشف الفسيولوجيان « موروزى » و « ماجون » وظيفة هذه المنظومة . كما قدماها لاول مرة فى عام (١٩٤٩) . وأبرزها « ماجون » على نحو

---

(٧) تمثل الدراسات السوفيتية فى الفعل المنعكس الانتظامى « ع ظ » والنشاط الانتظامى « ن ظ » اسهامات مهمة فى الفكر السيكولوجي العالمي المعاصر . وهي تحتل مكانا بارزا كاتجاه مسيطر على كثير من البحوث النفسية السوفيتية ، وبخاصة فى كلية علم النفس بجامعة موسكو ، ورائدها « يوجين سوكولوف » ، « الكسندر لوريا » ، « اولجا فينوجرادوفا » وغيرهم . نظمت « جامعة موسكو ـ كلية علم النفس » بالاشتراك مع « اكاديمية العلوم السوفيتية » سلسلة من البحوث ظهرت فى مجلد بعنوان Orienting Reflex and Explarotor Behavior **فى عام ١٩٥٨ ، وترجم الى الانجليزية فى عام ١٩٦٥ تحت اشراف (L. Voronin) ، ويتضمن ٤٨ دراسة فى هذا الصدد . كما أجرى العديد من البحوث (٢٨ بحثا) تحت اشراف « سوكولوف » و « فينوجرادوفا » ظهرت فى عام ١٩٧٠ (بالروسية) تحت عنوان**

(E; Sokolov, O. Vinogradova (*pds.*) è Neuronal mechanicms of orienting reflex, Moscow Univ. 1970;

وبحوث غيرها (٢٤ بحثا) تحت اشراف « سوكولوف » قدمت امام مؤتمر (١٩٦٩) عن « الميكانزمات النيرونية للتعلم » ، نظمه قسم علم النفس العصبى والفسيولوجى بكلية علم النفس ـ جامعة موسكو وقسم فسيولوجيا النشاط العصبى الراقى باكاديمية العلوم الطبية بموسكو ، ونشرت فى كتاب (بالروسية) تحت عنوان

(E. Sokolov (*pd.*) : Neuronal mechanisms of learning, Moscow Univ.,1970).

(٨) craniology : علم الجماجم

محكم في عام (١٩٥٤) ، وقد يسر هـذا الاكتشاف عمل علماء النفس في هذا الصدد ، خاصة في اعمال « دونالد لندزى » (١٩٥٧) . وتكامل دور « المنظومة الاستثارية الشبكية » فى نظرية الدافعية عند « اليزابيث دوفي » (١٩٦٢) التي أكدت ، كما شاع فى الثلاثينات، دور مفهومين اساسيين فى وصف السلوك وتفسيره : « التنشيط » (Activation) و « التوجيه » (direction) . وغني عن القول ، انه قبل اخضاع هذه الوظيفة الدافعيةللمنظومة الاستثارية الشبكية للبحث، ساد الافتراض بأنها نتيجة نشاط الجهاز العصبي التلقائي alitonomic nervous system ، الذي يعتبر الان نظاما جانبيا وثانوى الاهمية مقارنة بالمنظومة الاستثارية الشبكية .

واهمية دور المنظومة الاستثارية الشبكية قد تأكدت ، بالاضافة الى ذلك ، فى نظرية « دالبير بندرا » (١٩٥٩) الذي يقرر انه قام بالجمع بين اتجاهي « هب » و « سكنر » .

لعل ارجاء الاشارة الى « ب . سكنو » من قبل يعزى الى ان نظريته ـ او بعبارة ادق ، نظامه الوصفي ـ لا يتضمن أية مصطلحات تفسيرية تشير الى متغيرات وسيطة او تكوينات فرضية . ومن ثم ، لا يتضمن نظام سكنر أية متغيرات دافعية بالمعنى التقليدي ـ حتى أقل من بأفلوف . لكن سكنر يستخدم مصطلحات لمتغيرات مستقلة امبيريقية ، ترتبط بالمتغيرات الدافعية . واكثر هذه المتغيرات المرتبطة بالدافعية اهمية فى نظام سكنر : « الحرمان » و « التدعيم » . يحدد الحرمان الدرجة العامة للتنشيط ، بينما يحدد التدعيم « قوة الاستجابة »أو احتمالية حدوث الاستجابة . ويترفع سكنر فى الوقت الحاضر على موقع من أكثر المواقع تأثيرا فى سيكولوجية التعلم الحديثة ، ولاقى نظامه القائم على التجريب تطبيقا على مشكلات عامة (١٩٥٣). فقد طبقت نتائج بحوثه على العلاج السلوكي وخاصة على التدريس (١٩٦٨) . ومن الانتقادات المقنعة لاتجاه سكنر المعادي للنظرية antitheoretical orientation تلك التي قدمها « ن. ميلر » (١٩٥٩) ، الذي أشار الى الفائدة « الاقتصادية » لادخال متغيرات وسيطة فى تلك الحالات التي يكون فيها أكثر من متغيرين مستقلين وتابعين خاضعين للملاحظة في تجربة .

ومما يجدر الاشارة اليه هنا ، أحد الرواد المبرزين فى علم النفس الدافعى ، « يول توماس يونج » ، الذى يعتبر اتجاهه أقرب الى سيكولوجية التعلم والاتجاه السيكوفسيولوجى فى الدافعية منه الى سيكولوجية الشخصية . اضطلع يونج بتجارب كثيرة على الحيوانات عن مشكلات تفضيل الطعام . وقد بنى ، استنادا الى هذه التجارب ، نظرية وجدانية (hedonistie) (٩) موضوعية للدافعية ، تتمثل مسلمتها الاساسية فى أن البواعث (مثل الطعام) تحدد الاستثارة الوجدانية affective arousal وهذه العملية تحدد السلوك وتؤثر فى التعلم . ولا يغفل يونج المصادر الاخرى للدافعية (مثل الحاجات ومثيرات النفور) ، لكنه يؤكد ان الانفعالات الوجدانية الايجابية positive - hedonic affects قد اغفلها علم نفس الدافعية التجريبى الحديث وقد نظم يونج (١٩٦١) كل نتائج البحوث فى علم النفس الدافعى الحديث فى نظامه الوصفى او اطاره المرجعى، الذى يعرف بالاتجاه «متعدد المنظور » multi-perspective او « الانتهاجى » attitudinal ، أو «النسبى» relativistic ، هذا النظام ، الذى يبعث

(٩) Hedonism : فلسفة اللذة ، مؤداها ان غايةالحياة سعى الانسان الى اللذة وتجنب الالم .

على الاثارة والالهام في هذا الميدان ، هو صيغة حديثة لأعماله الفذة المبكرة (١٩٣٦ ، ١٩٤٣)

المنحى الاجتماعى لعلم النفس الدافعى ، ديناميات الشخصية :

في نفس الوقت الذى ابتدع فيه بافلوف وثورنديك وماكدوجل نظرياتهم ، كان « سيجموند فرويد » يرسى اساس التحليل النفسى . لقد كتب ، بعد ان حاول بناء نظرية فسيولوجية (١٨٩٦) ، عمله الرئيسى الاول عن الأحلام (١٩٠٠) . وقد كانت نظرياته ، منذ البداية ، دينامية من حيث انها قد ركزت على « الطاقات » و « القوى » النفسية ، و « الصراعات النفسية الداخلية » كمحددات للسلوك السوى والمرضى . الا ان فرويد قدم اول صياغة منظمة لنظرية الدافعية فى عام ١٩١٥ ، حيث حدد متغيره الدافعى الاساسى الفريزة ، أو بالاحرى الحافز (١٠) :

« يمكن ان نخلص الى نتيجة بأن الغرائز وليست المثيرات الخارجية هىالقوى الدافعية الحقيقية فى التقدم الذى رفع الجهاز العصبى بكل كفايته الهائلة الى مستواه الراقى الحالى من النمو ..

« واذا شئنا الان اعتبار الحياة العقلية من وجهة نظر بيولوجية ، تبدو « الفريزة » لنا كمفهوم محايد بين ما هو عقلى وما هو جسمى ليكون كلاهما الممثل العقلى للمثيرات المتولدة من داخل الاورجانزم والمنسابة الى العقل ، وفى نفس الوقت المقياس للطلب على طاقة العقل بسبب اتصاله بالجسم .

« والآن نحن فى موقع لمناقشة مصطلحات معينة تستخدم للاشارة الى مفهوم الفريزة ، مثل جهده impetus ، هدفه ، موضوعه ، مصدره .

« نعنى بجهد الفريزة عنصرها الحركى ، مقدار القوة او الطلب على الطاقة التى تمثلها. وهدف الفريزة هو فى كل حالة الاشباع ، الذى يمكن الحصول عليه بابطال حالةالاستثارة فى مصدر الغريزة . أما موضوع الفريزة فهو ما يمكن ان يتحقق فيه او من خلاله هدفها . انه الشىء الاكثر تغيرا بالنسبة للفريزة ولا يرتبط بها فى الأصل ، ولكنه يصير متعلقا بها فحسب بسبب ملاءمتهخاصة لتوفير الاشباع ويعنى مصدر الفريزة تلك العملية الجسمية فى عضو او جزء من الجسم ينشأ منه مثير يتمثل في الحياة العقلية بغريزة من الغرائز (فرويد ، ١٩١٥) .

بعد أن قدمفرويدهذه المسلماتوالتعريفات الاساسية ، مضى الى مناقشة المشكلاتالهامة المتعلقة بعدد وأنواع الحوافز الفريزية :

« اقترح أنه يمكن تمييز مجموعتين منهذه الفرائز الاولية ، غرائز حفظ الذات أو غرائز الأنا ، والفرائز الجنسية . لكن ليس لهذا الاقتراح ثقل المسلمة الضرورية،مثل افتراضنا « للفرض » البيولوجى فى الجهاز العقلى ، انه مجرد تكوين مساعد نعتمد عليه فقط طالما يثبت فائدة ، ولن يكون هناك الا فارق ضئيل فى نتائج عملنا للوصف والتصنيفلو استبدلناه بتكوين آخر » (فرويد ، ١٩١٥) .

لقد غير فرويد تصنيفة للحوافز الفريزية مرتين : من الحافزين الفريزيين المذكورين الى حافز غريزى واحد (الطاقة الجنسية « الليبيدو ») ، ثم مرة اخرى الى اثنين : غريزة الحياة (الايروس Eros) وغريزة الموت

---

(١٠) اشار علماء عديدون الى أن الترجمة الصحيحةللمصطلح الالمانى Trieb ينبغي ان تكون « الحافز » ، وليس « الفريزة » كما شاع ترجمتها ويقترح « رابابورت »(١٩٦٠) تسمية المصطلح الدافعى الفرويدى بـ « الحافز الفريزى » Instinctive drive .

(ثاناتوس Thanatos) . ولنترك تفاصيل نظرية فرويد فى الدافعية ، حيث يمكن للقارىء الرجوع اليها فى مصادر عربية عديدة .

لقيت نظرية التحليل النفسى فى الدافعية تغييرا ونموا بعد فرويد ، وقد قدم « كينيث كولبى » (١٩٥٥) تحليلا عميقا لنظرية التحليل النفسى فى الدافعية وأبرز أن « الطاقة » energy و « البنية » structure هما المفهومان الاساسيان والمتماسان فى نظرية التحليل النفسي فى الدافعية (وربما في أى نظرية) . واقترح « نموذجا بنيويا دوريا ـ دائريا cyclic - circular structural model ليحل محل النموذج الثلاثى القديم الذى قدمه فرويد : الهى ، الأنا ، الأنا الأعلى. أما « دافيد رابابورت » (١٩٦٠) فقد قدم تحليلا متعمقا شاملا لنظرية التحليل النفسى فى الدافعية ، وفيه اشار الى الفارق بين الاسباب والدافعية ، حيث يعتبر الدافعية نوعا خاصا من الاسباب . وميز بين « الحوافز الغريزية » والانماط الاخرى للدوافع . واكد، مثل كولبى ، التفاعل الهام بين الحوافز والتركيبات (ميكانزمات الدفاع ، وغيرها). وبالاضافة الى ذلك ، قدم مقارنات بالغة القيمة بين نظرية التحليل النفسى عامة والنظرية التطورية عند بياجية ونظرية التعلم .

ومن النظريات الفذة نظرية «كورت ليفين» فى الدافعية، وهى النظرية الوحيدة فى الدافعية التى ترتبط بعلم النفس التجريبى الكلاسيكى بينما كان يدرس ليفين مع «فرتيمر» مؤسس مدرسة الجشطلت ، ويرافقه كيولروكوفكا ، استلهم ليفين الشاب للقيام بأولى أعماله التجريبية عن «الميول المسيطرة» determining tendencies التى اعتبرت بمثابة نقد لأعمال « آخ » (١٩٠٥) التى تتناول مشكلة الارادة داخل اطار مرجعى ارتباطى كلاسيكى أوضح « ليفين » (١٩٢٢) انه توجد ميول مسيطرة أخرى بجانب الارتباطات ، وان هذه العوامل المسيطرة هى القوى الدافعية الاولية بجانب « الميكانزمات الارتباطية» . وقد واصل ليفين مع زملائه تجاربه وتحليله التصورى للميول المسيطرة ، أو « الحاجات » (Bedûrfnis) كما سماها فيما بعد (١٩٢٨) لم يكن ليفين هكذا مهتما بالحاجات البيولوجية بقدر ما كان مهتما بأشباه الحاجات - quasi needs ، التى هى ميول محتومة بالقرارات (Vorsatz) والحالات الاخرى (Einstellungen) لقد احكم ليفين وزملاؤه باتقان نظرية عن الدافعية الانسانية (كما تتمايز عن نظرية الدافعية الحيوانية التى أحكمتها نظريات التعلم) . وقد طوقت أعماله تلك المشكلات الكلاسيكية مثل «مستوى الطموح»، «النشاط البديل » ، « استدعاء الاداءات المبتورة » (ظاهرة زيجارنك) ، وغيرها . وقد ظهرت نتائج هذه الاعمال فى فترة اقامة ليفين بألمانيا ، وقد جمعت وترجمت الى الانجليزية فى عام ١٩٣٥ .

اما فى فترة اقامته بأمريكا ، فقد أحكم ليفين نظاما كاملا، معروفا بالنظام الطوبولوجى لوصف تركيب الشخص « ش » والبيئة (المدركة) « ب » . وقد الحق بهذا النظام الوصفى (١٩٣٦) فيما بعد نظاما تفسيريا (١٩٣٨) ، حيث فسر السلوك « س » كدالة الشخص والبيئة : س = دالة (ش ، ب) . ويمثل مفهوم القوى النفسية اكثر المتغيرات الدافعية اهمية . ويتحدد هذا التكوين التفسيرى بحالة التوتر فى الشخص (المرتبطة بحالة الحاجة في الاورجانزم) وبالقيمة الذاتية Valence لموضوع او نشاط معين فى البيئة (المدركة) . واذ تعتبر « نظرية المجال » عند ليفين متقنة ومتسقة للغاية ، الا انها قد خضعت للنقد الشديد من حيث ارتباطها تماما بالاحداث الملاحظة (اى ، تعريفات اجرائية قليلة للغاية) ، واهتمامها ـ وفقا لمبدأ المعاصرة contemoracity اساسا بالقوى العاملة فى اللحظة الراهنة ، واغفالها للسياق التاريخى

للظاهرة النفسية ، فنظرية ليڤين «لاتاريخية» وفى ذلك تكمن نقطة الضعف الكبيرة فى نظامه الشاهق الذى أقامه . ورغم ذلك ، فقد الهمت نظرية ليڤين أعمالا تجريبية عديدة ، سواء فى علم نفس الطفل أو (بخاصة) فى علم النفس الاجتماعى . كما أثر فى نظرية التعلم من خلال « تولمان » وفى نظرية الشخصية من خلال « هنرى موراى » .

يرى « موراى » نظريته كشكل حديث لنظرية التحليل النفسي في الدافعية ويقر بدينه لكل من ماكدوجل وليڤين . ويبرز فى كتابه « استكشافات فى الشخصية » (١٩٣٨) تكامل الطرق التجريبية والاكلينيكية ، بما يكشف عن اول امثلة حقيقية للعمل بروح الفريق فى علم النفس . ومن أبرز معالم نظرية موراى محاولة اقامة تكامل للجوانب القيمة من نظرية التعلم مع أساسيات نظرية التحليل النفسى . لذا ، يبتدع موراى تصنيفا محكما على الأصول التطورية genesis للشخصية لوصف السلوك ، لكنه فى تفسيره للسلوك يؤكد — خاصة أهمية احداث الطفولة المبكرة و « ديناميات الشخصية » . وفى اطار ذلك ، يقدم موراى المتغير الدافعى « الحاجة » :

« الحاجة تكوين (وهم مقنع أو مفهوم فرضى) » يكمن وراء القوة (الطبيعة الجسمية — الكيميائية) فى منطقة المخ، قوة تنظم الادراك والفهم والتعقل والنزوع والاداء بطريقة يتم بها تحويل موقف قائم غير سار الى وجهة معينة . وفى بعض الاحيان تستثار الحاجة مباشرة بعمليات داخلية من نوع معين (حشوية viscerogenic ، غددية endocrinogenic أو تتعلق بسرير المخ thalamicogenic تنشأ فى سياق التتابعات الحيوية ، لكنها تستثار اكثر (في حالة الاستعداد) بحدوث احد الضغوط الفعالة (أو بصور توقعية لذلك الضغط) . لذا ، تتبدى الحاجة عندما تؤول بالأورجانزم الى السعى أو الى تجنب المواجهة أو — حينما يدخل فى مواجهة — الى الانتباه والاستجابة لانواع معينة من الضغط . وحتى قد تولد الحاجة ادراكات وهمية وتعقلات هذائية (اسقاطات لضغطها المتصور imaged press على موضوعات غير ملائمة . وتصحب كل حاجة على نحو مميز بشعور او انفعال خاص وتميل الى استخدام اساليب معينة (الحاجات الفرعية sub-needs ووسائل الاداء actones لمعاضدة اتجاهها . وقد تكون الحاجة ضعيفة او قوية ، وقتية أو دائمة . لكنها عادة ما توجد وتؤدى الى نشأة سياق معين للسلوك الظاهرى (او الخيال) الذى (اذا كان الاورجانزم مقتدرا والمقاومة الخارجية ليست مما لا يمكن التغلب عليها) يغير الظروف الحافزة بطريقة تصل بالموقف الى الغاية بما يؤدى الى تهدئة (سلامة أو ارضاء) الأورجانزم « (موراى ، ١٩٣٨ ، ص ١٢٣ — ١٢٤) .

يتضح من هذا الاشتقاق ان « الحاجة » عند موراى تختلف عن الحاجة عند هل وأصحاب نظريات التعلم ، حيث تقتصر عندهم على حالة الحرمان فى بعض الاعضاء الطرفية peripheral organs أو فى الاعضاء الحشوية viscera الحاجة عند موراى ، من ناحية أخرى ، حالة رئيسية (فرضية) ، أكثر شمولا واحاطة من « الحافز » عند هل (اقرب فى الواقع الى جهد استدعاء رد الفعل sEr عند هل) ، ومن « الحافز الفريزى » عند فرويد . تتضمن نظرية موراى تقريبا أربعين حاجة ، مقسمة الى «الحاجات» حشوية الاصل viscerogenic needs (وعددها ثلاث عشرة) و « الحاجات نفسية الاصل » Psychogenic needs (وعددها عشرون على الاقل) . وتمثل هذه الثروة من المتغيرات الدافعية وكذلك المتغيرات التفسيرية الاخرى جوانب القوة والضعف فى نظرية موراى على السواء . تكمن القوة فى امكانية عمل اوصاف متمايزة لشخصيات

الافراد ، والضعف في المخاطرة بتفسيرات كاذبة قد يقع فيها بعض السيكولوجيين . ومما يجدر ذكره ، أن موراى قد عدل نظريته عدة مرات (١٩٥١ ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٩) ليستقر به الامر اخيرا الى استبدال مفهوم « الحاجة » بمفهوم اكثر دقة وتضييقا يعرف ب « الاستعدادات للموضوع » thematic dispositions

« لقد أصبح من الواضح لنا اكثر واكثر انه يمكن تحديد مكونات الطاقة في الشخصية كاستعدادات للموضوع أفضل من تحديدها كاستعدادات عامة للاداء general actional dispositions (١٩٥٩ ، ص ٣٤) .

ولقد استمر موراى في ابتداع مفاهيم وصفية وتفسيرية جديدة ، وكان له فضل بالغ الاثر على سيكولوجية الشخصية لما قدمه من تصورات نظرية وابتكارات منهجية (من بينها اختبار تفهم الموضوع « التات ») ولما توصل اليه من تجاربه الى نتائج قيمة . ولعلنا لا نجانب الصواب اذا اعتبرنا موراى القوة الدافعة في نظرية الشخصية ، حيث يمكن ان نعده الرجل الثاني فقط بعد فرويد .

ولا غرو ، فقد اقتفى ماكليلاند خطى موراى واخذ يسعى الى استكمال الشوط الى أقصى مداه ، حيث واصل البحوث الامبيريقية مستعينا باختبار تفهم الموضوع «التات» وانماء نظرية في الدافعية . لذا قد أعد صورة جماعية لاختبار التات ، وحاول هو وزملاؤه قياس مضمون الخيالات في قصص التات التي يرويها المفحوصون في مواقف مختلفة عديدة ، حيث يمكن خلق دافعيات مختلفة (دافعيات مثل الجوع ، الجنس ، العدوان ، الخوف ، التواد القوة ، والانجاز) . وعن طريق الجمع بين الطرق التجريبية وطرق الملاحظة الميدانية توصل ماكليلاند وزملاؤه الى تصورات خلاقة للدافعية . كما حققوا كذلك نوعا من التقنين لمنهج تحليل المضمون لقصص التات ، الذى طور الى الحد الذى يمكن معالجته بالحاسبات الآلية . ومن المعالم المميزة ايضا لعلم النفس الحديث ان زمرة ماكليلاند قد ركزت بحوثها وتطورها النظرى اساسا على متغير دافعي واحد ، المعروف بدافع الانجاز (ماكليلاند وآخرون ، ١٩٥٣) وقد أوضحوا ببحوثهم ان الفروق الفردية في قوة دافع الانجاز كما يقاس بالتات تتوقف على البيئة ـ خاصة حينما تدعم اساليب تربية الطفل الاستقلال والاعتماد على الذات لديه . وقد أوضحت زمرته في أعمالها اللاحقة ايضا قيمة التات في قياس الدوافع الاخرى (ماكليلاند ، ١٩٥٥ ، اتكنسون ، ١٩٥٨) . وقام ماكليلاند نفسه بدراسة تأثير دافع الانجاز على النمو الاقتصادى في المجتمعات المعاصرة والقديمة (١٩٦١) .

ومن ناحية التصور النظرى ، قدم ماكليلاند اسهامة بالغة القيمة بالانتقال من تصور محتوم بالحاجة need-determined conception لدافعية الى تصور وجدانى محتوم بالتوقع hedonistic, expectation determined للدافعية (متأثر بنظريات يونج وتولمان ، أو على الاقل مواز لها) . ويتضح هذا من الصياغة الاولى لنظريته :

« يصير الدافع ارتباطا وجدانيا قويا ، يتميز برد فعل توقعي للهدف ويقوم على الارتباط السابق لعلامات معينة مع اللذة والألم » (١٩٥١ ص ٤٤٠) .

ويحدد ويلخص المسلمات الاساسية لنظريته على النحو التالى :

« تعريفنا للدافع كما يلى : الدافع هو تمييز redintegration بواسطة علامة او امارة cue لتغير في موقف وجدانى . ويقصد بكلمة تمييز في هذا التعريف ان تتضمن التعلم السابق وكل الدوافع ، في نظامنا ، متعلمة . والفكرة الاساسية هى ببساطة كما يلى : تكون مثيرات أو مواقف معينة متضمنة تباينات بين التوقعات

(المستوى التكيفى) ولادرا كمصادر للوجدان الاولى غير المتعلم ، سواء الايجابى او السلبى بطبيعته . ومن شأن العلامات أو الامارات التى تكون متزاوجة مع هذه الحالات الوجدانية ان تغير فى هذه الحالات الوجدانية ، وتصبح الشروط التى تنتجها قادرة على تمييز حالة مشتقة من الموقف الوجدانى الاصلى ، لكنها ليست متحدة معها » (ماكليلاند وآخرون ، ١٩٥٣ ، ص ٢٨) .

ومن الواضح ان تصور ماكليلاند للدافعية ينحرف الى حد ما عن تصور اسلافه .

وقد لقى هذا المنحى فى اتجاه نظرية «التوقع x القيمة » ("expectation x value" theory) مزيدا من التطور على يدى « چون اتكنسون »، أحد رفاق ماكليلاند الاقربين ، اهتم «اتكنسون» خاصة بسلوك المخاطرة risk-taking behavior واعتماد على دافعية لانجازه . وقد وقد طور من نظرية دافعية الانجاز الى طراز مثمر للغاية كنظرية للدافعية الانسانية (١٩٦٤) تأثر أتكنسون بقوة بليفين وتولمان ، كما أفاد الى حد ما من نظرية القرار الحديثة .

تبدو المتغيرات الدافعية الاكثر أهمية وما بينها من تفاعلات فى معادلة أتكنسون :

م ح = ع ح × ت ح × ث ح ($T_S = M_S \times E_S \times I_S$)

حيث م ح (T_S) تعنى الميل الى احراز النجاح الذى هو وظيفة لاستعداد ثابت فطرى او مكتسب ، يعرف ب « الدافع » الى انجاز النجاح " ع ح " (M_S) ، ويتحد مع «توقع» النجاح ت ح (E_S) و « قيمة الباعث » incentive - value للأداء ث ح (I_S)

ويدخل التوقع ــ او الاحتمالية الذاتية «ل ح» (Ps) ــ فى علاقات متبادلة مع الحافز فى مواقف الانجاز بهذه الطريقة :

ث ح = ١ ÷ ل ح

وتوازيا مع هذا الدافع الايجابى لاحراز النجاح ، يسلم أتكنسون أيضا ب « الخوف من الفشل » أو « الدافع الى تجنب الفشل »:

م +ش = ع ج ش × ت ش × ث ش

وواحد من المسلمات الاساسية لنظرية اتكنسون ان السلوك نتيجة التفاعل بين دافعين على الاقل . ففى مواقف الاستثارة بالانجاز يكون السلوك (س) نتاج دافعين متصارعين :

س = م ح ÷ م +ش

لذا يضمن اتكنسون نظريته ايضا بعض الفروض المستعارة من نظرية ميلر فى السلوك الصراعى .

وفى الفترة الاخيرة عمل أتكنسون مع «نورمان فيزر » ، وجمعا اعمالهما وما قام به زملاؤهم فى مجلد جديد (اتكنسون ، فيزر ١٩٦٦) . في هذا الكتاب يوضحون قيمة نظريتهما المعروفة ب « النظرية المصغرة » - (miniature theory) لدافعية الانجاز ويتلمسون السبيل الى امكانية توسيع النظرية الى نظرية عامة فى الدافعية الانسانية تجمع بين نظامين فى علم النفس العلمى : علم النفس الفارقى (الاختبارات) للشخصية وعلم النفس العام (التجريبى)

يصف « فيزر » (١٩٦٧) تطبيق نموذج « التوقع x القيمة » على سلوك البحث عن المعلومات information-seeking behavior

وبالتالى طرق ذلك الميدان من البحث الذى كان يحتله من قبل العلماء من اصحاب الاتجاه البيولوجى وسيكولوجية التعلم (مثل ، برلاين)

وينتقد اتكنسون كذلك « قانون الاثر » لعدم امكانية تطبيقه على السلوك الانجازى (أتكنسون ، فيزر ١٩٦٦) ، ويشير الى الحقيقة بأن « أولبورت » قد أثار هذا النقد ذاته من حوالى ثلاثين سنة » .

وهنا يبرز اتجاه آخر فى سيكولوجية الشخصية ، صاحبه « جوردون أولبورت » . فى كتابه الذائع الصيت عن الشخصية (١٩٣٧) يقترح نظرية ــ أو ان شئنا ، نظاما وصفيا ــ للشخصية ، تتناقض الى حد ما مع الخط الاساسى الدينامى لنظرية الشخصية كما قدمه فرويد وليفين وموراى ، وغيرهم ، ينكر أولبورت أهمية الحاجات او الحوافز البيولوجية وكذلك اهمية النمو فى الطفولة بالنسبة للشخصية الراشد . وكبديل لذلك ، طور فرضا عن الاستقلال الوظيفى functional autonomy لدافعية الكبار (فرض قدمه أصلا «وودورث» ١٩١٨) . وفى تعديل لنظريته يقرر :

« من وجهة النظر هذه يعتبر الاستقلال الوظيفى مجرد سبيل لاقرار ان دوافع الناس تتغير وتنمو فى سياق الحياة ، لان من طبيعة الناس أنهم ينبغى أن يفعلوا هكذا » (أولبورت ١٩٦٨ ، ٢٥٢٨) .

يتفق أولبورت في هذه النظرة الفلسفية الوجودية للانسان مع عالم فذ آخر هو « ابراهام ماسلو » الذى يعتبر من ابرز قادة الاتجاه الانسانى فى نظرية الشخصية . ينتقد « ماسلو » نظرية التحليل النفسى من حيث أنها « من جانب واحد » ، تعول على دافعية النقائص deficiency - motivation وتغفل تماما دافعية النمو growth - motivation ويسلم ماسلو ان دافعية النمو هذه التى تتضح كحاجة الى تحقيق الذات يمكن ان تتبدى فى السلوك حينما تشبع الحاجات الاخرى المحتومة أكثر بالنقائص . ويقترح نظاما هرميا للحاجات وفقا للقوة الغالبة prepotency (١٩٥٤) ، يمتد من اكثر الحاجات فسيولوجية الى أعظمها نضجا وتمدينا من الناحية النفسية . ويحدد ماسلو نظام الحاجات الاساسية على النحو التالى :

المستوى الاول : الحاجات الجسمية الاكثر اساسية (كالسعى الى الطعام والماء والهواء والدفء والجنس ، وهكذا) . المستوى الثانى حاجات الامن (وتتمثل فى تجنب الاخطار الخارجية او ما يؤذى الفرد) . المستوى الثالث : حاجات الحب والاستحسان . المستوى الرابع : الحاجات التى ترتبط باقامة علاقات مشبعة مع ذات الفرد ومع الاخرين (وتتمثل فى أن يكون متمتعا بالتقبل والتقدير ، وان يحظى باحترام الذات ، وأن يكون محترما ، وأن تكون له مكانة ، وان يتجنب الرفض أو النبذ أو عدم الاستحسان) . المستوى الخامس الحاجات التى ترتبط بالتحصيل والانجاز والمعرفة والتعبير عن الذات (أن يكون الفرد مبدعا ومنتجا ، أن يقوم بأفعال وتصرفات تكون مفيدة وذات قيمة للاخرين ، ان يحقق امكاناته ويترجمها الى حقيقة واقعة) .

وهنا يختلف ماسلو بنموذجه الهرمى للحاجات وما بينها من علاقات وظيفية متبادلة عن صناع القوائم ، منذ ماكدوجل ، الذين كانوا يكدسون قوائمهم دون محاولة جديدة لبيان الصلة فيما بينها . فقد أوضح ماسلو انه لا يمكن وصف حاجة في عزلة عن الحاجات الاخرى : فالحاجات تنتظم وفقا لأهميتها بالنسبة للفرد ، وتتوقف مقدرة الفرد على اشباع الحاجات « العليا » upper needs (أو ان شئنا حاجات النمو ، الحاجة الى المعرفة والخبرة الجمالية وتحقيق الذات)على مستوى اشباعه للحاجات الاساسية (مثال ذلك ، من الصعب على الفرد العمل بكفاية اذا شعر بعدم تقدير الجماعة أو بأنه غير

محبوب) . وقد لاقى هذا النموذج الهرمى لنظام الحاجات تطبيقات ذات بال فى علم النفس التطبيقى (مثل ، علم النفس التربوى والصناعى) .

ولقد تكرس ماسلو فى السنوات الاخيرة على بناء نظرته الى العلاقة بين سيكولوجية الشخصية وفلسفة الانسان (ماسلو ، ١٩٥٩ خاصة ، انظر أيضا ١٩٦٢ ، ١٩٦٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٦٨) .

ولاستكمال صورة نظرية الشخصية اليوم، ينبغى الاشارة الى « رايموند كاتل » ، العالم النفسى الانجلو — امريكى . ليس من السهل تصنيف كاتل على انه ينتمى الى مدرسة معينة او تقليد معين فى علم نفس الشخصية ، وانما هو بالأحرى مؤسس وقائد لمدرسة جديدة تتميز باستخدام التحليل العاملى والطرق الرياضية لبناء نظرية نبعت داخل سيكولوجية الذكاء . ولقد ابتدع كاتل اختبارات عديدة للشخصية ، استطاع بها هو وزملاؤه جمع بيانات وفيرة عن الشخصية . واسكن هذه البيانات في نظريته للشخصية ، التى تلعب فيها « السمات الدينامية » أو المتغيرات الدافعية دورا هاما . ولقد استعار كاتل بعضا من هذه المفاهيم عن ماكدوجل وفرويد، لكنه أعاد بناءها فى نظرية اكثر احكاما واتساقا والمتغيرات الدافعية الاساسية فى هذه «الشبيكة الدينامية » dynamic lattice التى تعتبر نموذجا للبنية الدينامية للشخصية هى : « الارج » erg (وحدة عمل الطاقة) ، العاطفة sentiment ، و«الاتجاه» attitude] ويحدد « الارج » على النحو التالى :

« يبدو أننا هكذا قد بنينا بحيث ان اشباعاتنا النهائية هى اشباعات غريزية ، أو طاقية ergic . يستخدم مصطلح « ارج » ، وهو مأخوذ عن الكلمة اليونانية ergon بمعنى العمل او الطاقة ، فى التكامل والتفاضل الدينامى dynamic calculus لتركيب لا يزال يعرف حتى الان ، بطريقة غامضة ومتقنة الغاية ، بالغريزة أو الحافز ، الذى هو مصدر الطاقة الكامنة وراء السلوك . وكما سنرى يمكن ان يتعين ويتحدد الارج بدقة بطريقة التحليل العاملى ، بينما غدت الغريزة والحاجة والحافز وغير ذلك على انها كل شيء لكل الناس ولا يمكن ان تعد تستخدم بدقة علمية » (كاتل ١٩٦٥ ، ص ١٨٥ — ١٨٦) .

ومن هنا نرى ثمة مصطلحا جديدا للمتغيرات الدافعية الاساسية التى حدد منها كاتل على الاقل أحد عشر متغيرا . هذه المصادر التكوينية للطاقة تنساب خلال تركيبات متعلمة تعرف بـ « الاتجاهات » و « العواطف » — وهى مفاهيم معروفة ايضا من نظريات الشخصية الاخرى . وانها لتكون رحلة طويلة اذا أردنا تتبع كل أعمال كاتل أو بعمق بسبب حجم ما أنتجه . فبالاضافة الى مقالاته العديدة ، الف عدة كتب (١٩٤٦ ، ١٩٥٠ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٥) ، كما اشترك وحرر عددا من الاعمال . ولذا ، فقد عالج كاتل فى قسم خاص فى الفصل المسحى عن «بنية الشخصية» (Personality Structure) الذى كتبه « ويجينز » (J. S. Wiggins) فى الكتاب السنوى لعلم النفس المعروف بـ "Annual Review of Psychology" فى عام (١٩٥٨) .

ويمكن ان نشير الى عالم مبرز آخر فى ميدان نظرية التحليل العاملي للشخصية ، هو «هانز ايزنك » الذى اهتم خاصة بتطبيق نظرية وطرق التحليل العاملى فى علم النفس الاكلينيكى أو « العلاج السلوكى » (انظر ايزنك ١٩٦٤) .

(٢) مفاهيم الدافعية

ليس من السهل تصنيف مفاهيم الدافعية وفرز التشابهات والاختلافات بينها لأنها قد استخدمت بطرق مختلفة بواسطة سيكولوجيين مختلفين ، وأن المتغيرات المتشابهة قد تعينت

بمصطلحات مختلفة فى النظريات المختلفة . لذا كان من الضرورى محاولة استخلاص مفاهيم الدافعية من خلال الدراسة المقارنة للنظريات المختلفة .

المصطلحات التجريبية (الامبيريقية) والفرضية:

لقد نشأت نظريات الدافعية وبنيت فروضها لتفسير السلوك . لكن ليست هناك حاجة الى المفاهيم الدافعية لكل انماط او جوانب السلوك فردود الافعال الانعكاسية البسيطة (الانعكاسات الولادية) يمكن تفسيرها على أساس وجود مثير يباشر تأثيره على البنية الولادية « القوس الانعكاسى » . اما السلوك المركب (الاداءات أو الافعال السلوكية) فغالبا ما يوصف على انه سلوك فرضى او موجه نحو هدف ، وهذا السلوك يمكن تفسيره بنظريات الدافعية . ومصطلحات السلوك «الفرضى» Purposive و « الموجه نحو الهدف » gool- directed مصطلحات وصفية ذات طبيعة مركبة وتجريدية وقد تستخدم هذه المصطلحات لوصف او تعيين السلوك الذى يكشف عن مركب لسمات عديدة يمكن ملاحظتها .

وقد كان ماكدوجل (١٩٠٨) أول من قام بتحليل ووصف محكات السلوك الفرضى ، هى كما عددها سبعة محكات . وقد اشار تولمان الى هذه المحكات حينما حدد ، فى كتابه المشهور ، السلوك الفرضي (١٩٣٢) . وقد اختزل بندرا (١٩٥٩) ، فى تحليله العميق ، هذه المحكات الى ثلاثة : الملاءمة apporpriateness المثابرة persistence ، الاستقصاء searching . واقترح ايضا مصطلح «الموجه نحو الهدف » بدلا من الفرضى ، حيث يستخدمه كمرادف للسلوك المدفوع .

وربما تعتبر اكثر المصطلحات الوصفية بساطة ودقة تلك التى قدمتها « اليزابيث دوفى» فى أعمالها المبكرة فى الثلاثينات وأحكمتها فيما بعد (١٩٦٢) . فكل السلوك يمكن وصفه ، وفقا لدوفى ، بالجمع بين مصطلحين وصفيين: «الشدة» intensity و «الاتجاه» direction ، وهما الجانبان من السلوك اللذان يفترض تكشفهما بالنظريات الدافعية.

وغالبا ما نستخدم فى التفسير السيكولوجى فئتين من المصطلحات : المصطلحات التجريبية (الامبيريقية) والمصطلحات الفرضية .

تشير المصطلحات التجريبية (الامبيريقية) الى « المتغيرات المستقلة » التى يفترض أنها الاسباب النهائية للسلوك (الذى هو متغير تابع) . وقد تتضمن هذه المتغيرات المستقلة المثيرات الخارجية من البيئة وكذلك المثيرات الداخلية من الاعضاء والانسجة المختلفة للاورجانزم . هذه المثيرات الداخلية ينبغى ان تكون قابلة للملاحظة اذا عولجت كمتغيرات مستقلة يمكن وصفها بمصطلحات تجريبية (امبيريقية) . واذا كانت المتغيرات المستقلة يمكن وصفها كمثيرات (داخلية وخارجية) ، فانه يمكن تسميتها بـ « المتغيرات ــ م » (S-variables)

وقد يفضل بعض علماء النفس ، مثل سكنر الاهتمام اساسا بوصف العلاقات الملاحظة بين « المتغيرات ــ م » والسلوك . وتصاغ هذه الاوصاف في بعض الاحيان فى قضايا عامة عن العلاقات المتكررة والملاحظة بانتظام بين أنماط « المتغيرات ــ م» وانماط السلوك أو«المتغيرات ــ س » . وغالبا ما تعرف هذه القضايا العامة بـ « القوانين » (أو علاقات م ــ س) . ويعتبر سكنر تكوين وتطبيق تلك « القوانين » على أنه التفسير العلمى الوحيد . لكن معظم علماء النفس يفضل افتراض وجود متغيرات « توسطية » mediating او « وسيطة » intervening بين « المتغيرات ــ م » ، « والمتغيرات ــ س » . وهذه المتغيرات الوسيطة **لا يمكن ملاحظتها .**

جدول (١) : المتغيرات « م ، ف ، س »
فى بعض نظريات الدافعية

	المتغيرات ــ م المتغيرات المستقلة	المتغيرات ــ ف المتغيرات الوسيطة	المتغيرات ــ س المتغيرات التابعة
ماكدوجل	مثيرات (خارجية)	الغريزة (١٩٠٨) الميل الطبيعى الميل (١٩٣٢)	سلوك غرضى
فرويد	المصادر الجسمية (السوماتية)	الحوافز الغريزية ، الشحنة الانفعالية ، الهى ، الانا ، الانا الاعلى	تداعيات حرة تقريرات الاحلام اعراض عصابية وغير ذلك من السلوك
تولمان	الحالة الفسيولوجية الشروعية (١٩٣١) الحافز (١٩٥١) المثيرات	الطلب (١٩٣٢) نظام الحاجة (١٩٥١) مصفوفة الاعتقاد ــ القيمة (١٩٥١)	سلوك غرضى
يونج	الحاجات المثيرات	الحافز ، الحالة ،الاتجاه الرغبة .	سلوك
اولبورت	الحوافز المثيرات	السمات الدافعية والوسيلية	سلوك وسيلى وتعبيرى
ليفين	الحاجات المثيرات (خاصة موضوعات الهدف)	القوة ، التوتر ، القيمة الذاتية	سلوك
موراى	ضغط الفا (١٩٣٨) ، والمثيرات الاخرى المصادر الداخلية للحاجات	الحاجات (١٩٣٨) ضغط بيتا (١٩٣٨) شحنة انفعالية الاستعداد للموضوع (١٩٥٩) .	الافعال « اكتون » : ١ ــ اللفظية « فربون » ٢ ــ الحركة « موتون »
هل	الحاجة المثيرات الخارجية	الحافز دافعية الباعث جهد الاستجابة قوة العادة	الاستجابة

تابع جدول (١)

	المتغيرات ــ م المتغيرات المستقلة	المتغيرات ــ ف المتغيرات الوسيطة	المتغيرات ــ س المتغيرات التابعة
هب	المثيرات الخارجية والداخلية	قوة العادة تجميعات الخلايا تتابعات الاطوار (١٩٤٩) وظيفة الامارة والاستثارة (١٩٥٥)	سلوك منظم
تنبرجن	المثيرات المفرجة العوامل الدافعية	ميكانزمات الافراح الفطرى ميكانزمات الفريزة الدافعية	السلوك الشهوى الافعال الاستهلاكية استجابات « التات » وغيرها من السلوك
ماكليلاند	الامارات الحرمان من مستوى المواءمة	الدافع الاستثارة الوجدانية	
كاتل	المثيرات الحالة الفسيولوجية	الارج الاتجاه العاطفة	الاستجابات للاختبار وغيرها من السلوك
سكنر	الحرمان المدعمات المثيرات النفورية	قوة الاستجابة أو ــ الاحتمال ؟	السلوك الاستجابى وسلوك العملية
اتكنسون	المثيرات	الميل ، الدافع ، التوقع الباعث ــ القيمة	استجابات التات وغيرها من السلوك
برلاين	المتغيرات الموازية جهد الاستثارة	الاستثارة (المنظومة الاستثارية الشبكية) التطلع	السلوك الاستقصائي والمعرفى

بطريقة مباشرة ، ولكن تستنج او تفترض ، ولذا يمكن تسميتها بـ « المتغيرات » الفرضية Hypothetical variables
او « المتغيرات ــ ف » .

وقد قدم « تولمان » ، بهدف تفسير السلوك الفرضي خاصة ، تلك المتغيرات الوسيطة « مثل » « الحافز » و « المعرفة » cognition وعلى اساس طراز تولمان « م ــ ف ــ س » يمكن تقديم تصنيف اساسي للمتغيرات النفسية وتطبيقها على المتغيرات الدافعية فى أهم النظريات التي عرضنا لها ، كما يتضح ذلك من الجدول (١) ، (الجداول الواردة فى هذه الدراسة مأخوذة عن أعمال « مادسن » ١٩٥٩ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧٣) .

ويتضح من هذا الجدول أن ثمة استخدما للمصطلحات يشيع في علم النفس ينم عن عدم اتساق وفوضى بالفتين . ويتضح ذلك خاصة فى التفسيرات المختلفة المتعلقة بالمصطلحين الهامين : « حاجة » و « حافز » . لذلك يستخدم هل وتولمان (١٩٥١) المصطلحين بطرق متناقضة ، واستخدم موراى « الحاجة بطريقة مختلفة تماما . وهذه الفوضى هي في الواقع اعظم مما يبينه هذا الجدول ، والتي سوف تصبح واضحة من الجداول الاخرى .

الاستعدادات والوظائف :

أعد تولمان أيضا تصنيفا للمتغيرات وفقا لطول مدة وجود المتغيرات : فبعض المتغيرات النفسية توجد لفترة طويلة ، قد تستغرق كل حياة الفرد من الميلاد حتى الموت ، وهي الاستعدادات الموروثة . والبعض الاخر يكون مكتسبا بعملية التعلم فى فترة او اخرى من حياة الفرد ، وتوجد لفترة أقصر او أطول ، ولكنها بعد ان تكتسب تلعب نفس الدور الذي تلعبه الاستعدادات الموروثة . لذا يمكن ان نستخدم مصطلح « الاستعدادات » او «متغيرات الاستعداد » disposition variable للمتغيرات الموروثة وكذلك المكتسبة . وبدلا من « الاستعداد » قد يفضل البعض مصطلحات « العامل » او ربما « التركيب » .

وخلافا لهذه المتغيرات توجد فئة اخرى من المتغيرات النفسية ذات فترة اقصر للوجود ، وتتضمن هذه الفئة فئتين فرعيتين : العمليات ، التي ربما توجد فقط لثوان أو دقائق ؛ والحالات ، التي ربما توجد فقط لساعات أو حتى لايام . ولما كان من الصعب التميز بين العلميات الاقصر والحالات الاطول ، يمكن ان نستخدم المصطلح العام « وظائف » (أو « متغيرات الوظيفة » function variable

ويولي علماء النفس المختلفون اهتماما بفئة من هذه المتغيرات اكثر من الاخرى .

فمتغيرات الاستعداد قد درست اساسا باستخدام طرق الاختبارات فى علم النفس الفارقي ، متضمنا سيكولوجية الشخصية والذكاء . (يوضح مصطلح «التحليل العاملي» الاهتمام « بالعوامل » أو الاستعدادات) . ومن ناحية اخرى ، درست متغيرات الوظيفة اساسا باستخدام الطرق التجريبية فى علم النفس العام ، متضمنا التعلم والمعرفة والدافعية .

ومع ذلك ، توجد علاقة وثيقة بين الاستعدادات والوظائف ، حيث ان الاستعدادات تؤثر فى مسار الوظائف وتخلق الفروق الفردية فى السلوك الذي يتحدد مباشرة بالوظائف . ومن ثم ، غالبا ما استخدم المصطلح الواحد للاشارة الى الاستعداد والوظيفة المتعلقة به . وقد يخلق هذا فى بعض الاحيان فوضى وسوء فهم بين علماء النفس . لذا غالبا ما يشير مصطلح « الحاجة » فى سيكولوجية التعلم الى الوظيفة (على نحو اكثر دقة ، الى الحالة) . ومن ناحية أخرى ، غالبا ما تستخدم «الحالة»فى نظرية الشخصية

لتغطية كل من الوظيفة الدافعة للسلوك والاستعداد الذي يحدد الفروق الفردية في القوة والفترة وغير ذلك من هذه الوظائف . وقد تنبه موراي الذلك وغير مفهومه الاساسي باستبدال مصطلح « حاجة » الى المصطلح الجديد « الاستعدادات للموضوع » thematic dispositions . وهذا الاستخدام ، الذى يبعث على الارتباك والحيرة لمصطلحات الاستعدادات والوظائف يمكن ان يتضح من الجدول (٢) .

المتغيرات الدينامية والتوجيهية :

ربما تعتبر هذه الفئة من تصنيف المفاهيم أكثر أهمية لنظرية الدافعية ، بقدر ارتباطها الوثيق بالمتغير ــ س : « السلوك الموجه نحو الهدف » .

يمكن ان تعتبر « ليفين » أول من قدم تحليلا متعمقا للمفاهيم الدافعية (١٩٣٨) ، حيث ميز بين القوى والقيمة الذاتية . فالقوى forces تتميز بكل من القوة والاتجاه ؛ ولذا يمكن ان تمثل رياضيا بواسطة المتجهات vectors ، أما القيمة الذاتية فهي ، على العكس من ذلك ، يمكن تحديدها فقط قياسا الى قوتها ، ولذا يمكن ان تمثل رياضيا بواسطة المعياريات Scalars .

ولم يكن ليفين هو الوحيد الذي ادرك ذلك التحديد للمفاهيم . فقد ميز « وودورث » (١٩١٨) بين الحافز والميكانزم . ويذهب العالم الميرز « پول توماس يونج » الى تحديد مشابه فى تقريره ان : « علم النفس الدافعي يمكن تعريفه على انه دراسة لكل الشروط التي **تستثير وتنظم** سلوك الكائن الحي » (يونج ، ١٩٣٦ ، ص ٤٥) .

وفى نفس الوقت ، سعت « دوفي » (١٩٣٦) الى الفصل بين « الشدة » و « الاتجاه » كمفاهيم وصفية اساسية فى علم النفس .

ويذهب « فارير » فيما بعد الى التمييز بين الجوانب « ديناميـة الاصل » والجوانب « التوجيهية » للمتغيرات السيكولوجية (١٩٥٥) .

وعلى اساس كل هذه التحديدات ، قدم « مادسن » (١٩٥٩) تصنيفا للمتغيرات السيكولوجية يستند الى التمييز بين التأثيرات المختلفة على السلوك (جدول ٣) ،

١ ــ المتغيرات دينامية الاصل Dynamogenic variables ، وهي تقوم بالتحريك او الاستثارة والتنشيط ، ولذا يكون لها تأثير الشدة intensity effect على السلوك .

٢ ــ المتغيرات التوجيهية directive variables ، وهي تقوم بالتوجيه والتنظيم ، ولذا يكون لها تأثير توجيهي على السلوك .

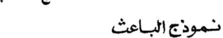
٣ ــ المتغيرات المتجهة Vector variables وهى متغيرات محددة لكل من الشدة والاتجاه .

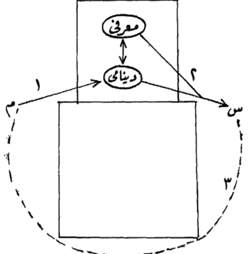
ويتضح من التصنيف (جدول ٣) مرة اخرى مصدر للارتباك بين النظريات النفسية فمصطلح « حافز » يستخدم فى نظام هل كمتغير دينامى الأصل ، بينما فى نظام فرويد كمتغير متجه . ويستخدم مصطلح « حاجة » كمتغير دينامى الاصل عند هل ، ولكن كمتغير متجه فى نظرية موراى (١٩٣٨) وفى نظريات اخرى كثيرة للشخصية .

وبالاضافة الى ذلك ، توجد فروق بين المتغيرات المتجهة ، مثل « الغريزة » عند ماكدوجل و « الحافز » عند فرويد ، من ناحية ، و « جهد الاستجابة » عند هل و « الميل » عند اتكنسون من ناحية أخرى . لذا يعتبر مصطلح « غريزة » عند ماكدوجل غامضا شموليا (ومن ثم ينبغى تصنيفه كمتغير متجه) ، بينما يتحدد بوضوح مفهوم « جهد

شكل (٢)

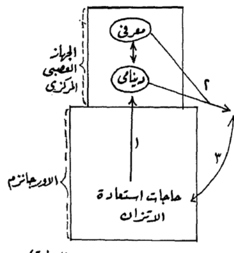
نماذج الدافعية





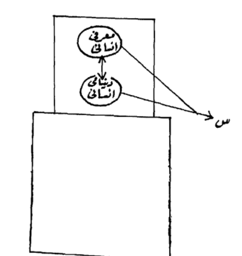
س = دالة (العمليات الدينامية ، والمعرفية)
العمليات الدينامية = دالة (المثيرات)

نموذج استعادة الاتزان



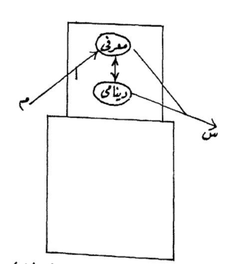
س = دالة (العمليات الدينامية ، والمعرفية)
العمليات الدينامية = دالة (الحاجات)

النموذج الانسانی



س = دالة (العمليات الدينامية الانسانية ، والمعرفية الإنسانية)
العمليات الدينامية الانسانية = دالة (؟) } لاحتمية
العمليات المعرفية الانسانية = دالة (؟) }

النموذج المعرفی



س = دالة (العمليات الدينامية ، والمعرفية)
العمليات المعرفية = دالة (المثيرات)

جدول (٢) : تصنيف للاستعدادات والوظائف

وفقا لمدة وجود المتغيرات النفسية

	متغيرات الاستعداد « العوامل » او « التركيبات »	متغيرات الوظيفة الحالات والعمليات
ماكدوجل	الفريزة الميل الطبيعي العاطفة	الميــل
فرويد	الهى ، الانا ، الانا الاعلى ميكانزمات الدفاع	العمليات الاولية والثانويــة الحوافز والطاقة
تولمان	المقدرات والسماتالمزاجية (١٩٣٢) استعداد الفاية ــ الوسيلة (١٩٣٢) مصفوفة الاعتقاد ــ القيمة (١٩٥١)	التوقعــات المطالب (١٩٣٢) الحاجات (١٩٥١) الحوافز (١٩٥٩)
يونج	الاتجــاه	الحافز ، الحاجة ، الحالة ، الرغبة ،
أولبورت	السمات الدافعية والوسيلية	السمات الدافعية والوسيلية
ليفين	تركيبات الشخصية والبيئة	التوتر ، القيمة الذاتية ، القوة
موراي	الحاجات (١٩٣٨) الاستعــدادات للموضــــوع (١٩٥٩) الشحنــــة الانفعالات (١٩٥٩)	الحاجة (١٩٣٨) الضغط والشحنة الانفعالية (١٩٣٨)
هل	قوة العــادة	الحافز جهد الاستجابة دافعية الباعث
هب	تجميعات الخلايا	تتابعات الاطوار (١٩٤٩) وظيفة الامارة الاستثارة (١٩٥٥)
تنبرجن	ميكــانزمــات الفريزة ميكــانزمــات الافراج الفطري	الدافعية العوامل الدافعية
ماكليلاند	مستوى المواءمة	الدافــع الاستثارة الوجدانية

تابع جدول ٢

	متغيرات الاستعداد العوامل او التركيبات	متغيرات الوظيفة الحالات والعمليات
كاتل	الادرج العاطفة الاتجـاه	تنشيط الارجات ، العواطف والاتجـاه
سكنر	احتمال رد الفعل او قوة الاستجابة	الحرمان التدعيمية الاستثارة النفورية
اتكنسـون	الدافـع	قيمة الباعث التوقع الميـل
برلاين	المنظومة الاستثاريـة الشبكيـــة والتركيبات العصبية الاخرى	المتغيرات الموازية الاستثارة ، التطلع

جدول (٣) : تصنيف المتغيرات : الدينامية ، والتوجيهية والمتجهةوفقا لتأثيراتها على السلوك

	المتغيرات دينامية الاصل	المتغيرات التوجيهية	المتغيرات المتجهة
ماكدوجل	الميل الطبيعي الميــل		الغريزة العاطفة
فرويد	الشحنة الانفعالية	الأنا ، الأنا الأعلى العملياتالاولية والثانوية	الحوافز الهى
تولمان	الطلب (١٩٣٢) الحافز (١٩٥١) الحاجة (١٩٥١) الحافز (١٩٥٩)	استعدادالغايةــ الوسيلة والتوقعات (١٩٣) مصفوفةالقيمةــ الاعتقاد (١٩٥١) المعتقدات (١٩٥٩)	الحافز (١٩٣٢) حيز السلوك المباشر (١٩٥١)
يونج	الحاجة الحافز	الحالة الاتجاه	الرغبة (١٩٣٦) الدافع (١٩٦١)
اولبورت	الحافز السمات الدافعية	السمات الوسيلية	
ليفين	الحاجة التوتر القيمة الذاتية		القــوة
موراى	الضغط الشحنة الاشعالية		الحاجة (١٩٣٨) الاستعدادات للموضــوع (١٩٥٩)
هــل	الحاجة الحافز دافعية الباعث	الاستجابةالموقوتة للهدف الحافز ــ المثير قوة العادة	جهد الاستجابة
هب	الاستثارة (١٩٥٥)	التتابع الطورى (١٩٤٩) تجميعاتالخلايا (١٩٤٩) وظيفة الأمارة (١٩٥٥)	

تابع جدول ٣

	المتغيرات دينامية الاصل	المتغيرات التوجيهية	المتغيرات المتجهة
تنبرجن	المثيرات المفرجة العوامل الدافعية الدافعية	ميكانزمات الافراج الفطرى ميكانزمات الفريزة	
ماكليلاند	الاستثارة الوجدانية	الأمارات	الدافع
كاتل	الارج		الاتجاه العاطفة
سكنر	الحرمان		المثيرات النفورية المدعمات قوة الاستجابة
اتكنسون	قيمة الباعث الدافع	التوقع	الميل
برلاين	الاستثارة	التفكير والعمليات المعرفية الاخرى	المتغيرات الموازية التطلع

الاستجابة » عند هل كمزج للمتغير دينامى الاصل (« الحافز ») والمتغير التوجيهى (« قوة العادة ») على النحو التالى : جهد الاستجابة = دالة (الحافز × قوة العادة) .

لكن هل وحواريوه قد خلطوا لسوء الحظ ــ أو على الأقل لم يميزوا بوضوح ــ بين البعدين المفهومين : « الاستعداد فى مقابل الوظيفة » و « الدينامى الاصل في مقابل التوجيهى» . لذا يكون جهد الاستجابة والحافز وظائف ، بينما قوة العادة فى الواقع استعداد (تنشط بالحافز ومن ثم فهى ايضا وظيفة ، ولكن لا يملك هل وحواريوه مصطلحا لقوة العادة كوظيفة) . وربما يعزى سبب هذا الاختلال الى ان الاستعدادات غالبا ما تكون توجيهية (مثلما تكون قوة العادة) ، وان الوظائف غالبا ما تكون دينامية الاصل (مثلما يكون الحافز) . لكن هناك استعدادات تكون دينامية الاصل (مثل العوامل المزاجية) ووظائف تكون توجيهية (مثل الادراك وغيره من العمليات المعرفية) . ولذا تتضمن معادلة أتكنسون : م = دالة (ع × و × ث) تمييزا بين البعدين . م (الميل) ، « و » (التوقع) وكذلك « ث » (قيمة الباعث incentive-value تكون كلها وظائف ، فيها « م » كوظيفة متجهة « و » كوظيفةتوجيهية، « ث » كوظيفةدينامية الاصل . « ع » (الدافع) يتحدد فى نظرية أتكنسون (١٩٦٤) بوضوح كاستعداد ــ ولكن ليس بوضوح وفقا لتأثيراته على السلوك ــ ومن ثم ربما يمكن تصنيفه كاستعداد متجه وكذلك كاستعداد دينامى .

واهمية التمييز بين هذين البعدين ربما تتضح اكثر اذا وجدناهما فى تصنيف واحد ، يتبين منه لماذا كان المفهوم القديم للغريزة (مثل مفهوم الغريزة عند ماكدوجل) عقيما علميا ، حيث لم يقم اطلاقا بالتمييز والتحديد بين ابعاد المفاهيم ، فالغريزة كانت مصطلحا يشير الى كل من الاستعداد والوظيفة ، وكانت الوظائف تعتبر وظائف متجهة غير محددة .

ويتصف مسار النمو فى نظريات الدافعية بتزايد التمايز فى المفاهيم بين الابعاد المختلفة للمفاهيم . ويرتبط هذا النمو ، بطبيعةالحال، ارتباطا وثيقا بالنمو التجريبى .

ربما يمكن ان نستخدم تصنيف « دينامى فى مقابل توجيهى » على أنه يعطى وصفاتقريبيا لنظريات الدافعية : كانت النظريات الأقدم (ماكدوجل ، فرويد ، والى حد ما الاشكال الأولى من نظريات موراى وتولمان) نظريات تستخدم مفاهيم المتجهات . اما النظريات الاحدث فتنقسم الى مجموعتين : تلك التى تؤكد على المتغيرات دينامية الأصل (خاصة هل وحواريوه) ، وتلك التى تؤكد على المتغيرات التوجيهية (خاصة نظريات ماكليلاند وأتكنسون) .

والنتيجة الهامة لهذه الدراسة التحليلية المقارنة تكشف عن الميل المتزايد بين علماء النفس الى استخدام المصطلحات المختلفة للاشارة الىمختلف جوانبالمفاهيم منالمتغيرات النفسية التى يعالجونها فى نظرياتهم .

واحراز خطوة اكبر فى نمو التنظير السيكولوجى يتم بتقبل نظام عام منالمصطلحات طالما انها مفاهيم عامة مشتركة بين علماءالنفس يعبرون عنها بمصطلحاتهم . وبطبيعة الحال ينبغى ان يكون هناك مجال لاستخدام مصطلحات جديدة ومختلفة حينما يبتدعالمنظر مفهوما جديدا أو يكتشف متغيرا .

• • •

من هذا التحليل المقارن لنظريات الدافعية وتناولها للمتغيرات الدافعية بمفاهيم مختلفة، يمكن ان نخلص الى تصنيف لنظريات الدافعية خاصة وعلم النفس عامة الى الانماط التالية (جدول رقم ٥ ، ٦) :

١ ــ **نظريات « م ــ س »** (S—R) ، وهى تتضمن كلالنظريات الوصفيةذات لغةالبيانات السلوكية . وهذه النظريات قد تتضمنأوصافا

جدول (٤) تصنيف جامع للمتغيرات الفرضية

المتغيرات التوجيهية	المتغيرات الدينامية	المتغيرات المتجهة
الاستعدادات : « الأنا » و « الأنا الاعلى » عند فرويد قوة العادة عندهل	« الدافع » عند اتكنسون	« الهى » عند فرويد
		« الحاجة » عند موراى (= عوامل الشخصية)
الوظائف : « التوقع » عند اتكنسون	« القيمة » عنداتكنسون	« الميل » عند اتكنسون
« الحالة » عند يونج	« الطاقة » عند فرويد	« الحافز » عند فرويد
	« التوتر » عند ليفين	« القوة » عند ليفين
	« الحافز » عند هل	« جهد الاستجابة » عند هل
		« الحاجة » عند موراى (= الحافز)

جدول (٥) : انماط نظريات الدافعية (مادسن ١٩٧٣)

نظريات « م ـ س »	نظريات « م ـ ر ـ س »	نظريات م ـ ض ـ س	نظريات «م ـ ق ـ س»
سكنر	بافلوف	فرويد	اولبورت
بولز	يونج	وودورث	ماسلو
	هب	ليفين	
	تنبرجن	تولمان	
	دوفي	هـل	
	فريمان	ميـلر	
	برلاين	سبنس	
	بندرا	براون	
	مورجان	موراى	
	ستيلار	كاتل	
	كونورسكى	ماكليلاند	
		اتكنسون	
		ماك ف هنت	
		كوش	
		فستنجر	
		بربرام	

جدول (٦) : تصنيف موحد لنظريات الدافعية(مادسن ، ١٩٧٣)

انماط النظريات

الفروض الاساسية	نظريات « م ــ س »	نظريات « م ــ ر ــ س »	نظريات «م ــ ض ــ س »	نظريات » م ــ ق ــ س «
فروض استعادة الاتزان		بافلوف ؟ دوفي فريمان	فرويد هــل موراى (١٩٣٨)	
فروض الباعث	سكنر بولز	يونج تنبرجن هب برلاين بندرا	موراى (١٩٥٩) ليفين ماكليلاند اتكنسون كاتل ميــلر سبنس	
الفروض المعرفية			براون تولمان وودورث ماك لف هنت كوش فستنجر	
الفروض الانسانية				اولبورت ماســلو

العلاقات أشبه بالقوانين Law - like relationships بين المتغيرات « م » والمتغيرات « س » ، لكن لا يقوم أى تفسير لهذه القوانين على فروض اساسية .

٢ ـ **نظريات « م ـ ر ـ س »** (S-O-R) ، وهى تتضمن كل النظريات التى تفسر علاقات « م ـ س » باستخدام متغيرات فرضية «ض» ذات معنى فسيولوجى . (« ر » (O) وتعنى الاورجانزم) .

٣ ـ **نظريات « م ـ ض ـ س »** (S-H-R) وتتضمن كل النظريات التى تفسر العلاقة « م ـ س » باستخدام متغيرات فرضية لها معنى « محايد » لا يشير الى أى شكل من واقع او مادة (بقول آخر ، التكوينات « الاصلية » genuine constructs ويتضمن هذا النمط ايضا كل النظريات التى تفسر باستخدام النمط الشكلى « للمتغيرات الوسيطة » (مثل ، النماذج الرياضية) .

٤ ـ **نظريات « م ـ ق ـ س »** (S-M-R) وتتضمن كل النظريات التى تفسر العلاقات « م ـ س » باستخدام متغيرات فرضية ذات معنى عقلى (« ق » (M) تعنى « عقلى » أو « العقل ») .

٥ ـ **نظريات « ق »** (M) ، وتتضمن النظريات التى تعبر عن فهم لا يقوم على وصف موضوعى ودقيق بلغة البيانات السلوكية ، وانما قد تقوم على لغة البيانات الظاهرية (الفينومينولوجية) . لكن اصحاب هذه النظريات لا يتضحون بجلاء فى هذا بقدر ما يظهرون فى فلسفتهم عن الانسان .

(٣) نمذجة الدافعية

الدافعية ، اذن ، كانت ولا تزال موضوعا لفيض هائل من الدراسات النظريةوالتجريبية تمخضت عنبيانات ومفاهيم و فروضومتغيرات عديدة .

ومن طبيعة الظاهرات المعقدة ان تخضع لمزيد من التحليل وتبين العلاقات ، وبالتالى تعدد النظريات والتصورات . وهنا يتوفر « بالتحليل » بينة متعددة ، قد تكون حتى متناقضة .

ويفرض منطق التناول العلمى لمثل هذه البينة العارمة محاولة تبينها وتبصرها فىاطار تصورات جديدة تكشف عن العلاقات بين النظريات وما بينها من تناقضات . ويقول آخر ، عندما تصل الدراسات والبحوث لظاهرة ما الى حد التشبع الزائد بالبيانات والنتائج ، يستلزم النمو فى دراسة هذه الظاهرة « تركيب » Synthesis هذه البينة الوفيرة فى تصورات ونماذج اخرى تعمد الى جمع اشتات واضداد النظريات المختلفة ، وتسعى الى تكشف ما يجرى بينها منعلاقات وتناقضات ، وما تتصف به من الهام او ابهام ، وما يشيع فيها من وصل وفصل .

يتمثل ذلك فى بعض اتجاهات الفكر السيكولوجى المعاصر التى تعرف ب « **نمذجة النشاط النفسى** » (Psychic Modelling)

« تتحدد اهمية « النماذج » (Models) فى انها تسمح بأن تخضع للاختبار والمراجعة تلك الأسس التي تقوم عليها مفاهيمنا وفروضنا عن الظاهرة النفسية ، وبأن نتبين امكانات التطبيق العملى لهذه المفاهيم والفروض . ويكشف التطبيق انهلكىندرس قوانينالنشاط النفسى بنجاح يمكن ان نستخدم ليسفحسب المنظومات البيولوجية biological systems ولكن ايضا منظومات مبتدعة اصطناعا لمعالجة المعلومات information processing وهذا الاتجاه الرامى الى مزيد من التقدم في بناء النظريات النفسية آخذ فى النمو بتعميق

الشبه بين « النموذج » و « الطراز الأصلي » (prototype) ويعتبر استخدام طريقة النمذجة في بحث النشاط النفسي ليس «مودة» ولكن حتمية تفرضها طبيعة المشكلات المعاصرة لعلم النفس . ومن ثم تمثل النمذجة في جوهرها حلقة بالغة القيمة ، ناقصة في نطاق الطرق المستخدمة في علم النفس والطب النفسي تمكننا من التحقق والمراجعة من البينة التي تتمخض عنها البحوث ، ومن بناء نظرية علمية وعملية متقنة ونافعة .. » (١١)

ولعل هذا الاتجاه يتبدى خاصة في علم النفس الدافعي ، وابرز رواده «ك . مادسن» العالم الدنمركي .

يقدم « مادسن » لعلم النفس العلمي عدة نماذج للدافعية ، ويقرر : « لقد وجدنا انه من المقنع تصنيف الفروض الاساسية ـ البديهيات والمسلمات ـ للدافعية الى أربع فئات نطلق عليها « نماذج الدافعية »
Models of motivation
لأنها غالبا ما تكون **نظما من المتغيرات الفرضية ذات العلاقات المتبادلة ، يمكن تمثيلها ب « نموذج »** ووفقا للمضمون الأساسي للفروض الاساسية في النماذج ، يصنفها مادسن على النحو التالي (شكل ٢) (١٢) :

(١) نموذج « استعادة الاتزان »
"Homeostatic" model

(٢) نموذج « الباعث » "Incentive" model

(٣) النموذج « المعرفي » "Cognitive" model

(٤) النموذج « الانساني "Humanistic" model

نموذج استعادة الاتزان : وهو اقدم النماذج في تاريخ علم النفس الدافعي . وقد ادخل مفهوم « الاتزان العضوي » Homeostasis في علم النفس ، السيكولوجي الامريكي « والتركانون » (١٩١٥) عن الفسيولوجي الفرنسي « كلود برنار » في تصوره « للوسط الداخلي » internal milieu وقد قدم فرويد كذلك (١٩١٥) تصورا مشابها في نفس الوقت .

يتصور هذا النموذج ان **كل العمليات البيولوجية ـ بما فيها السلوك ـ محتومة** باختلال « الاتزان العضوي » ـ أي الشروط القصوى للاتزان في الاورجانزم . وتستمر هذه العمليات حتى يعود « الاتزان » الى حالته الأصلية . ويؤلف اختلال الاتزان **حاجة** تحدد بدورها **حافزا** رئيسيا . وهذا الحافز ، بالاشتراك مع عمليات معرفية ، يحدد **السلوك** الذي يختزل ـ أو « يشبع » ـ الحاجة ، ومن ثم يعيد اقرار الاتزان العضوي .

ويوجد هذا النموذج في تلك النظريات المؤثرة مثل نظريات فرويد وهل . وقد تبنى كثير من علماء النفس هذا النموذج لأنه يتصف بعدة مزايا ، من اهمها :

(١) انه نموذج بسيط .

و (٢) انه نموذج بيولوجي ، وهو مايعتبر هاما بالنسبة لعلماء النفس في فترة ما بعد الداروينية .

وقد ادت شهرة هذا النموذج بعلماء النفس الى سوء استخدامه والى تجاهل الحقائق لفترة

---

(١١) ا. ا. براتكو وآخرون (باللغة الروسية) : نمذجة النشاط النفسي موسكو ، ١٩٦٩ ، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦ .

(١٢) K.B. Madsen. Patterns of preferences and models of motivation. Paper presented at the Symposium on Pleasure, Reward and Preference. June 5. - 9., 1972, Korsdr, - Denmark.

طويلة لم تتلاءم فى النموذج . ولذا تعرض هذا النموذج لنقد شديد الوطأة بحيث انه لم يعد قادرا على استبقاء مكانته على انهالنموذج الدافعى الثابت الوحيد ، الامر الذى ادى الى ابتداع نماذج أخرى كبدائل له .

نموذج الباعث : استمرت « فترة نموذج استعادة الاتزان » من عام ١٩١٥ (وهو العام الذى خرج فيه كانون بنظريته) حتى عام ١٩٥٣ (وهو العام الذى عقدت فيه « ندوة نبراسكا عن الدافعية Nebraska Symposium on Motivation وقد انتقد « هارلو (H.F.Harlow) فى هذه الندوة نموذج الاتزان على أنه ضيق للغاية ، وانه توجد دافعيات أولية بيولوجية اخرى بجانب حافز الاتزان. ولقد اهتم خاصة بوجود « حافز استقصائى بصرى »
visual exploratory drive

ولقد اتضح من التجارب الكثيرة فيما بعد ان حتى ما يعرف بحوافز الاتزان homeostatic drives (بصفة خاصة : الجوع ، العطش الجنس) لا يمكن تفسيرها كلية بواسطة استخدام نموذجالاتزان. ومنأقوى الانتقادات الموجهة ضد النموذج الضيق للاتزان تلك التى قدمها « بول توماس يونج » (١٩٤١ ، ١٩٦١، ١٩٦٨) ، وهى تقوم على بينة تجريبية تتعلق بتفضيلات الطعام لدى الحيوانات ، وهذه التفضيلات لم تقم على الاتزان العضوى .

ويمكن تلخيص القضايا الرئيسية المتضمنة فى « نموذج الباعث » كما يلى : يكون لمثيرات خارجية معينة تأثيرا **ديناميا** ، اى تحدد حالة التنشيط state of activation أو تعبئة الطاقة energy mobilization فى الاورجانزم . وهذه الحالة الدينامية ، بالاشتراك مع العمليات المعرفية ، تحددسلوك الأورجانزم . وغالبا ما يتمخضعن هذاالسلوك **اختزال للمثيرات الدينامية الخارجية**) انظر الشكل) ولهذه المثيرات اصلها فى موضوعات المثيرات المعروفة بـ « البواعث » اى موضوعات المثيرات الدافعة motivating stimulus objects (الدينامية ، التنشيطية ، المعبئة للطاقة) . وتتضمن البواعثفى بعض النظريات «المدعمات» (reinforcers) و « موضوعات الهدف » goal objects

ويوجد نوعان من البواعث : الأولية والثانوية

البواعث الأولية ، وهى المتغيرات « م (S) ، التى لها تأثير دينامى **فطرى** . وهذه البواعث الاولية تلعب دورا هاما فيما يعرف بالنظريات « الوجدانية » أو نظريات « اللذة » (hedonistic theories) التى تتشامخ بينها نظرية « بول توماس يونج » حيث يوضح ان للاستثارة الخارجية نتائج وجدانية ، وكذلك حسية ، وأن « الاستثارة » الوجدانية (affective arousal) توجه الاورجانزم نحو او ضد موضوع المثير ولذا تؤثر فى الاختيار والتفضيل . ومن النظريات الذائعة الصيت فى هذا الصدد ، نظريات : هب (١٩٤٩) ، ماكليلاند ، وتنبرجن.

ومما تجدر اشارته ان النظرية الوجدانية قديمة للغاية ــ حتى أقدم من نظرية الاتزان. فهى تعود الى فلاسفة الاغريق القدامى مثل أبقراط ، و « أصحاب المذهب النفعى » (مثل بنثام) في القرن الثامن عشر . ويكمن التصور الوجدانى ايضا فى «قانون الأثر» عند ثورنديك وفى « مبدأ اللذة » عند فرويد .

أما البواعث الثانوية ، فهى المتغيرات « م » التى لها تأثير دينامى مكتسب . ولذا تلعبتلك البواعث دورا هاما فى نظرية التعلم الحديثة . وكان بفضل دافعية الباعث عند « سبنس » (K. W. Spence) ان تضمنتها نظرية هل (يشار اليها بالرمز « ك » (K) تكريما لـ وتحدد « دافعية الباعث ، ك » (incentive motivation, K)

هذه ، بالاشتراك مع « الحافز » (ف) و « قوة العادة » (م ع س) ، « جهد الاستجابة » (م ج س) والسلوك المتتابع . اذن ، « ك » متغير فرضي يتحدد بالمتغير « م » : حجم ونوع الاثابة (مثل ، الطعام) المستخدمة فى تجارب التعلم التى تشير النظرية اليها .

طور سبنس تصور دافعيـة الباعث عـلى اساس مفهوم هـل عن « استجابة الهـدف السابقة الجزئية » (fractional antedating goal response) او المعروفة ب « ميكانزم

هـ - هـ "(rg - sg).

« والخاصية المميزة ، بل الوظيفة الوحيدة لهذه الاستجابة السابقة الجزئية ، **هى انهـا** تنتج مثيرات مميزة للحصول على الهـدف . ويسمى هل هذا المثير ، مثير الهدف الجزئي (sg) fraclional goal stimulus (مس)

ونلاحظ ان حرف مـ صفير دليل على انه

مثير جزئى ، وان هل يربط بين هـ "←هـ

بخط متقطع اشارة منه الى ان الرابطة بينهما داخلية . وتتطلب نشأة اسـتجابة الهـدف السابقة الجزئية ان ترتبط هـذه الاستجابة

(هـ) ارتباطا وثيقا بالحصول على الاهداف

اى بالتعزيز » (١٣)

ولميكانزم استجابة الهدف السابقة الجزئية فى نظام هل تأثير **توجيهى** فحسب ، لكن يشير سبنس الى احتمالية ان يكون لاحباط استجابة الهدف الكاملة complete goal response (RG)

(هـ)

تأثير **تنشيطى** مشابه للحافز . هـذا التـأثير التنشيطى **او الدينامى** لميكانزم

هـ - هـ

فصل عن التأثير **التوجيهى** بالرمز « ك » .

وقد صار « ك » ، فى تعـديلات سبنس (١٩٦٠) الاخيرة لنظريته ، اكثر أهمية من « ف » (الحافز) كمحدد للسلوك ، حيث افترض هنا أنهما يتفاعلان بطريقة الاضـافة ، ومن ثم كان تعديل سبنس لمعادلة هل المشهورة على النحو التالى :

م ج س = د [م ع س × (ف × ك)]

او جهد الاستجابة = دالة قوة العادة × (الحافز × دافعية الباعث)

وقد افترض ان « ك » تكتسب **بالتدعيم** ، وتتحدد كاختزال للحافز ، بينما تكون « م ع س » (قوة العادة) مكتسـبة **بالتجـاور** contiguity وفقا لما يذهب اليه سبنس .

ومن بين النظريات الحديثة فى الدافعية التى تنتمى الى « نموذج الباعث » : نظرية اتكنسون ومن بين النظريات المبكرة : نظرية ليفين ، لانها تتضمن مفهوم « القيمة الذاتية » valence **الذى تأثر به اتكنسون بعمق . كذلك يشبه** مفهوم « الشـحنة الانفعاليـة » cathexis عند فرويد المفهوم الحديث للباعث .

النموذج المعرفى : يدخل هذا النموج تماما فى كثـير من النظـريات المبـكرة عن **الادراك** والعمليات المعرفية ، لكـن بدون احـكامها كنظريات للدافعية .

---

(١٣) سيد عثمان : الفعل المثير الخالص . الكتاب السنوى الاول للجمعية المصرية للدراسات النفسـية ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

ومن هنا ، تضمنت نظرية الجشطلت الكلاسيكية فروضا دافعية (ف . هيبيدر ، ١٩٦٠) . فقد عالج علماء نفس الجشطلت « الميل الى الاغلاق » أو « الى خلق شكل جيد » على أنه متغير دينامى ، « قوة » . وهذا التصور لم يحكم ابدا فى فروض دافعية صريحة ، وربما قصد فحسب بالميل الى الاغلاق تفسير دافعية العمليات المعرفية . لكن استطاع ليفين حبك نظرية عامة فى الدافعية والشخصية ، تعتبر نظرية باعثية incentive theory أكثر منها نظرية معرفية .

وقد الهمت اعمال السيكولوجيين الجشطلت كذلك ، من خلال ليفين ، العالم « تولمان » . تضمنت نظرية تولمان (١٩٣٢) كلا المتغيرات المعرفية والدافعية لكي يفسر السلوك الفرضى لدى الحيوانات والانسان . وكانت بعض المتغيرات ــ خاصة «التهيؤ لدلائل الجشطلت» (sign - gestalt - readiness) عند تولمان ــ متغيرات دافعية معرفية مختلطة وقد أحكم تولمان بعد ذلك (١٩٥١) هذه المتغيرات المختلطة فى « مصفوفة الاعتقاد ــ القيمة (Belief - Value Matrix) التى تحدد السلوك ، بالاشتراك مع « نظام الحاجة » (Need System) و « حيز السلوك » (Behavior Space) . وقد اطلق تولمان نفسه على نظريته (١٩٥٢) « النموذج المعرفى للدافعية » (A Cognition Motivation Model)

وتتضمن النظريات الحديثة للدافعية شكلين مختلفين بدرجة بسيطة للنموذج المعرفى :

يذهب الشكل الاول الى ان **العمليات المعرفية تحدد العمليات الدينامية** ، وان للعمليات المعرفية اذن تاثير **توجيهي** وكذلك **دينامى** (بطريقة غير مباشرة) . وخير مثال لهذا النمط نظرية « ليون فستنجر » عن « التنافر المعرفي » .

اما الشكل الآخر للنموذج المعرفى فى الدافعية فيفترض ان **للعمليات المعرفية « دافعيتها الذاتية** او الداخلية » (intrinsic motivation)

وافضل ايضاح لهذا نظرية « وودورث » ، التى تتضمن **تعميما لفكرة « الدافعية الذاتية أو الداخلية »** في **« نظرية اولية السلوك »** (Behavior Primary theoey)

تقرر هذه النظرية ان اكثر انواع الدافعية اساسية يقوم على تناول البيئة بقوة . وهذه النظرية لا تستبعد الحقيقة بأن الدافعية « الخارجية » extrinsic ــ الحاجات والبواعث ــ قد تحدد ايضا السلوك فى بعض الحالات . لكن الفكرة الاساسية انه حتى بدون هذه المصادر « الخارجية » للدافعية يكون الاورجانزم نشطا .

قدم « ماك . ڤي . هنت » (١٩٦٥) « صيغة جديدة لنظرية المعلومات » (information theory version) للنظريات المعرفية المبكرة عن الدافعية ، وبين ان نظرية « چان بياچيه » تتضمن فرضا كاملا عن الدافعية المعرفية « الذاتية أو الداخلية » ، وان نظرية « كارل بربرام » ــ العالم الامريكى السيكونيورولوجى ــ تنتمى الى نفس الفئة .

ولما كانت العمليات المعرفية المركبة تتعلق استئثارا بالانسان ، فان النموذج المعرفى يقترب من النموذج الانسانى .

النموذج الانسانى : لم يتحدد هذا النموذج بوضوح مقارنة بالنماذج الثلاثة الاخرى . لكن هناك مجموعة من نظريات الدافعية تنطوى على خصائص مشتركة بحيث يمكن تمييزها عن النظريات الاخرى وتصنيفها فى فئة واحدة . ومن المعالم الهامة المشتركة بينها :

(١) التصور الانسانى لعلم النفس .

(٢) افتراض وجود فئة خاصة للدافعية الانسانية . وتعتبر فئة الدافعية هذه ـ أو السلوك الانسانى ككل ـ « غير » محددة .

ومن أصدق النظريات تعبيرا عن هـذا النموذج : نظرية « أولبورت » و « ماسلو » :

عرض « جوردون أولبورت » نظريته فى كتابه « الشخصية » (١٩٣٧ ، طبعة معدلة ١٩٦١) . فى هذا الكتاب الذائع الصيت ، قدم تحديدا وتمييزا بين العلوم ذات المنحى الفردى (idiographic) والعلوم ذات المنحى الناموسى (nomothetic) ، يقترب من التصورين الخاصين بـ « العلوم الطبيعية » (natural) و « العلوم الشرحية » (hermeneutic) . وقدم فيه أيضا تصوره عن « الاستقلال الوظيفى » للدافعية (functional autonomy) الذى تأثر فيه بالفكرة التى عرض لها وودورث فى كتابه الاول (١٩١٨) . ووفقا لهذا التصور توجد بينة تؤيد وجود فئة من الدافعية لدى الراشدين، الناضجين والمتمتعين بالصحة النفسية ،تكون مستقلة وظيفيا عن الدافعية الاولية الاساسية التى توجد لدى الحيوانات والاطفال .

ويوضح أولبورت ان نظريات الدافعية المتضمنة فى نظريات التعلم تستند بطريقة ضيقة للغاية على التجريب على الحيوانات ، وان نظرية الدافعية المتضمنة فى نظرية التحليل النفسى تستند ايضا بطريقة ضيقة للغاية على دراسة العصابيين، وهم اكثر طفلية فى دافعيتهم من الراشدين الناضجين الاصحاء (مادسن ، ١٩٥٩) .

وقد تأثر « ابراهام ماسلو » فى نظريته بأولبورت وغيره . ويعتبر ماسلو امام « علماء النفس الانسانيين (humanistic psychologists) حيث نادى بالحاجة الى تصور انسانى آخر للعلم خلافا للتصور الطبيعى الذى سيطر حديثا على الفكر السيكولوجى الامريكى . وارتباطا بذلك أيضا تبنى تصورا انسانيا خاصا للانسان خلافا للتصور البيولوجى السائد . ويتضمن تصور ماسلو للانسان فرضه المتعلق بنوع راشد انسانى خاص للدافعية يعرف بـ « الحاجة الى النمو » (growth need) أو « دافعية التغير » (metamotivation)

ويمكن الاشارة الى نظرية « توماس مور » (١٩٤٨) كمثال آخر ، وان كان أقل ذيوعا . تفترض هذه النظرية تصورا انسانيا للعلم ونظرية فى « حرية الارادة » اللاحتمية للدافعية الانسانية .

● ● ●

من هذا العرض لنمذجة النشاط الدافعى يتضح الى أى حد تختزل النمذجة الكثير من نظريات الدافعية الى نماذج محددة تسكن فيها مفاهيمها ومتغيراتها . لكن يسعى بعض العلماء الى مزيد من الربط والوصل بين هذه النماذج المختلفة فى تصورات تركيبية synthesis اكثر عمومية ووظيفية . من هذه التصورات ما قدمه « مادسن (١٩٧٢) من « نموذج متكامل » ، يحاول فيه اقرار التكامل بين هذه النماذج ، وان كان يقرر انه لم ينجح فى تضمين النموذج الانسانى داخل « النموذج المتكامل » ، وبالتالى يسعى هذا النموذج الاخير الى التكامل بين النماذج الثلاث الاولى : « نموذج الاتزان » ، «نموذج الباعث» « النموذج المعرفى » .

يقوم التصور التركيبى لهذا النموذج الموحد كما يقرر مادسن ، على فرضين : الاول يقرر ان كل النماذج الثلاث « صادقة جزئيا » بقدر ما تتناول فئات مختلفة من الدافعية . ويقول آخر ، نماذج الدافعية صادقة كلها ، لكنها قد حدت من امكانية تطبيقها . لذا يفترض ان كل نموذج صادق لفئة خاصة من الدافعية .

اما الفرض الثانى ، فمؤداه ان كل فئةللدافعية تتضمن بنية معينة فى الدماغ (بالاضافة الى « منظومة الاستثارة الشبكية » التي تتضمن كل انواع الدافعية) . وفى ضوء ذلك ، يقترح مادسن (١٩٧٢) الفئات التالية للدافعية :

١ الدوافع دون سريرية المخ
hypothalamic motives

وهى الفئة من الدافعية التى يفترض وجودها فى مراكز دون سريرية المخ hypothalamic centres وكذلك في منظومة الاستثارة الشبكية(RAS) . وهذه الفئة تكون اكثر صدقا بالنسبة لنموذج استعادة الاتزان . ولكن حتى فى هذه الحالة لا نستطيع اعتبار نموذجالاتزان على انهصادق تماما ، حيث ان دوافع الاتزان تتضمن ، مثلا، الدافع الجنسى الذى لا يعتبر كلية دافعا للاتزان العضوى . وربما تحدد البواعثايضا هذا النوعمن الدوافعوكذلك الدوافعالعضوية الاخرى : الجوع ، العطش ، تجنب الألم ، تجنب البرد ، الخ . لذا يمكن ان يطلق على هذه الفئة من الدافعية « الدوافع العضوية »، أو « دوافع استعادة الاتزان » أو « الدوافع دون سريرية المخ » .

٢ ــ الدوافع الحرفية limbic motives

وهى تلك الفئة من الدافعية التى يفترض ان تتضمن « المنظومة الحرفية » limbic system فى المخ ، وكذلك منظومة الاستثارة الشبكية . وهنا يتبين مادسن فروض « كورنورسكى » بأن « الدوافع الانفعالية » تتضمن « مراكز الحوافز الحرفية » limbic drive centers وان «الدوافعالاجتماعية» مشروطة بالدوافع الانفعالية . وهنا ينطبق خاصة « نموذج الباعث » على هذه الدوافع . لذا يمكن ان تسمى ايضا الدوافع «الانفعالية» و « الاجتماعية » بالدوافع « الحرفية » (الفصوص الحرفية ، وهى المحيطة بالجسم الجاسيء فى الدماغ) أو « الباعث » .

٣ ــ الدوافع اللحائية Cortical motives :

وتتضمن اللحاء المخى cerebral cortex وكذلك منظومة الاستثارة الشبكية . وهىتلك الفئة من الدوافع التى تقوم بوظيفتها وفقا للنموذج المعرفى : فالعمليات المعرفية تحدد دافعيتها . ومن ثم يمكن ان تسمى هذه الفئة بالدوافع « المعرفية » أو « اللحائية » .

٤ ــ دوافع منظومة الاستثارة الشبكية
Reticular Arousal System

وهى الدوافع التى يفترض ان تتضمنفقط منظومة الاستثارة الشبكية (RAS) وهى الدوافع التى يصدق عليها النموذج « الذاتى او الداخلى » intrinsic ــ مثل نظرية اولية السلوك عند وودورث . ومن ثم ، يمكن ان تعرف بالدوافع « الذاتية او الداخلية » أو « دوافع الاستثارة أو التنشيط » (activation motives) .

● ● ●

والخلاصة : لقد عرف علم النفسلسنوات عديدة بحقيقة تقرر بأنه ذلك العلم الذى ينتج نظريات متعارضة كثيرة . وربما يستمر هذا الاتجاه فى المستقبل . لذا ، من الأهمية بمكان بالنسبة لعلماء النفس ان يكونوا قادرين على ان ينموا فى انفسهم القدرة على ترشيدتناولهم لهذه النظريات المختلفة ، وعلى استخدامها بوعى ينفتح على علم النفس كعلم ، لا على نظرية بعينها ، وان يكونوا على بصيرة من انفسهم فيخفضوا من دفاعاتهم الرامية الى فرض محرمات نظرية theoretical taboo على الظاهرة النفسية الحية المتسامية ..

وحسبنا تبصر « علم النفس العلمى » !

المراجــع

ALLPORT, G. W. **Personality : a psychological interpretation.** New York : Holt, Rinehart & Winston, 1937.
Pattern and growth in personality. New York : Holt, Rinehart & Winston, 1961.

ATKINSON, J.W. **An introduction to motivation.** Princeton, N. J. : Van Nostrand, 1964.
(ed.) **Motives in fantasy, and society.** Princeton, N. J. : Van Nostrand, 1958.
and Feather, N. T. (eds.) **A theory of achievement motivation.** New York : John Wiley, 1966.

Bash, K.W. An investigation into a possible organic basis for the hunger drive. **J. Comp. Physiol. Psychol.**, 1939, 28, 109 - 135.

BERLYNE, D. E. **Conflict, arousal, and curiosity.** New York : McGraw Hill, 1960.
Motivation problems raised by explorstory and epistemic behaviour. In S. Koch (ed.), **Psychology - a study of a science**, Vol. 5. New York : Mc Graw-Hill, 1963.
Reinforcement and arousal. In David Levine (ed.), **Nebraska symposium on motivation.** LLincoln : Nebraska University Press, 1967.

BINDRA, D. **Motivation : a systematic reinterpretation.** New York : Ronald Press, 1959.

BOLLES, R. C. **Theory of motivation.** New York and London : Harper & Row, 1967.

BROWN, J. S. **The motivation of behavior.** New York : McGraw-Hill, 1961.

CATTELL, R.B. **Description and meassurement of personality.** New York : Harcourt, 1946.
Personality ; a systematic theoretical and fectual study. New York : McGraw-Hill, 1950.
Personality and Motivation structure and measurement. New York : World BBook World Book Co., 1957.
The scientific analysis of personality . Baltimore : Penguin, 1965.
(ed.) **Handbook of modern personality theory.** Chicago : Aldine, forthcoming.

COLEY, K.M. **Energy and structure in psychoanalysis.** New York : Ronald Press, 1955.

DOLLARD, J., and MILLER, N.E. **Personality and psychotherspy.** New York : McGraw-Hill, 1950.

DUFFY, ELISABETHI, **Activation and behaviour.** New York : John Wiley, 1962.

EYSENCH, H. J. **The biological basis of personality.** Springfield, III. : Charles C Thomas, 1967.

EYSENCK, H. J., (ed.) **Experiments in motivation.** Oxford : Pergamon Press, 1964.

FARBER, I. E. Anxiety as a drive state. In M. R. Jones (ed.), **Nebraska sympostium on motivation.** Lincoln : Nebraska University Press, 1954.

FEATHER, N. T. An expectancy-volve model of information-seeking behaviour. **Psychological Review,** 1967, 5 (74), 342-60.

FRANKEL, Y.E. **Man's search for meaning : on introduction to logotherapy.** New York : Washington Square Press, 1963.

HEBB, D,O. **Organisation of behaviour .** New York : John Wiley, 1949.

Drive and the CNS (conceptual nevvous system). **Psychological Review,** 1955, 62, 243-54.

A Neurophysiological theory. In S. Koch, **Psychology-a study of science,** vol. I. New York : McGraw-Hill, 1959.

A textbook of psychology. Philadelphia : Saunders, 1966.

HULL, C. L. **Principles of behavior.** New York : Appleton-Century-Crofts, 1943.

A bahaviour system. New Haven : Yale University Press, 1952.

JONES, M.R. (ed.) **Nebraska symposlumn on motivation.** Lincoln : Nebraska University Press, 1953-1963.

LAWRENENCE, D.H. & W. A. MASON. Food intake in the rat as a function of deprivation intervals and feeding rhythms. **J. Comp. Physiol. Psychol.** 1955, 48, 267-271.

A dynamic theory of personality. New York : McGraw-Hill, 1935.

Principles of tepological psychology. New York : McGraw-Hill,s1936.

A concoptual representation and the measurement of psychological forcess. Durham N.C. : Duke University Press, 1938.

Field theory in social science. D. Cartwrigh (ed.) New York : Harper & Row,19 1952.

LINDSLEY, D. B. Psychoophy siology motivation. In M.R. Jones (ed.), **Nebrska symposium on motivation.** Lincoln : Nebraska University Press, 1957.

LURIA, A. R. **Human brain and psychological processes.** New York : Harper, 1966.

MC CIELLAND, DAVID C. **Personality.** New York : Dryden Press, 1951.

The achieving society. Princeton, N. J. : Van Nostrand Reinhold, 1961.

(ed.) **Studies in motivation** : New York : Appleton-Century-Grofts, 1955.

ATKINSON, JOHN W., CLARK, RUSSELL A., and LOWELL, L. **The acjievement motive,** New York : Appleton-Century-Grofts, 1953.

MC CIELLAND, D. and WINTER, D. **Motivating economic achievement.** New York : Free Press, 1969.

MC DOUGALL, W. **An introduction to social psychology.** London : Methuen, 1908. 1908. The 1960 edition is used here. The energies of men, London : Ethuen, 1932.

MADSEN, K.B. **Theories of motivation,** 4th ed. Copenhagen : Munke-gaard, 1959. 4th ed., 1968.

Integration through meta-science. Exemplified by a comparative study of psychological theories. **Proceedings of the XIV International Congress of Philosophy,** Vienna &s1968 b.

Modern theories of motivation. Copenhagen : Munksgaard, 1973.

MASLOW, A. H. **Motivation and personality.** New York : Harper and Row, 1954.

New knowledge in human values. New York : Harper and Row 1959.

Toward a psychology of being. Princeton, N.J., : Van Nostrand Reinhold, 1962.

The psychology of science. New York : Harper & Row, 1966.

A theory of meta-motivation ; The biological rooting of the value-life. Journal of Humanistic Psychology, è967, 93-127.

MILLER, N.E. An experimental investigation of acquired drives. **Psychological Bulletin,** 1941, 38, 534-35.

Studies of fear as an acquirable drive. **Journal of Experimental Psychology.** 1948, 38, 89-101.

Learnable drives and rewards. In S. S. Stevens (ed.), **Handbook of experimental psychology.** New York : John Wiley, 1951.

Liberalization of basic S-R-concepts : extension to conflict behaviour, motivation, and social learning. in S. Koch (ed.), **Psychology - A study of a science** vol. 2. New York : McGraw-Hill, 191959.

And DOLLARD, J. **Social learning and imitation.** New Haven, Conn : Yale University Press, 1941.

MORGAN, C. & J. T. MORGAN, Studies in hunger : II the relation of grastic denervstion and dietary sugar to the effect of insulin upon food intake in the rat. **J. Genet. Psychol.,** 1940, 57, 153-163.

MORUZZI, G., and MAGOUN, H.W. Brain stem reticular formation and activation of EEG. **EEG Clinical Neurophysiology,** 1949, 1, 455-73.

MOWRER, O. H. A stimulus-response analysis of anxiety and its role as a reinforcing agent. **Psychological Review,** 1939, 46, 553-65.

Learniug theory and personality dynamics. New York : Ronald Press, 1950.

Motivation. **Annual Review of Psychology,** 1952, 3, 419-32.

Learning theory and behaviour. New York and London : John Wiley, 1960a.

Learning theory and the symbolic processes. New York and London; John Wiley, 1960b.

MURPHY, G. **Personality : A biological approach to origins and structure.** New York: Harper, 1947.

MURRAY, H. A. **Explorations in personality.**New York : Oxford University Press,s1938.

Toward a classification of interaction. In T. Parson and E. A. Shill (eds.),

Towards a general theory of action. Cambridge, Mass : Harvard University Press, 1951.

PETERS, R.S. **The concept of motivation,** London : Routledge & Kegan Paul, 1958.

AIRPORT, D. The structure of psychoanalytic theory : a systematic attempt. In S. Koch (ed.), **Psychology a study of a science,** vol. 3. New York : McGraw-Hill 1959.

On the psychoanalytic theory of motivation. In M.R. Jones :ed.) **Nebraska symposium on motivation.** Lincoln : Nebraska University Press, 1960.

SKINNER, B.F. **Science and human behavior.** New York : Macmillan, 1953.

Technology of tesching, New York : Appleton-Century-Crofts, 1968.

SOKOLOV, E.N. **Perception and the conditioned reflex.** Oxford : Pergamon Press, 1963.

SPENCE, K. W. **Behaviour theory and conditioning.** New York, Conn. : Yale University Press, 1956.

Behaviour theory and learning. Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall, 1960.

and JANET TAYLOR SPENCE (eds.) The **Pschology of learning and motivation.** New York and London : Academic Press.

THOMAE, H. (ed.) Allgemeine Psychologie II : **Motivation.** Gôttingen : Hogrefe's Verlag Fûr Psychologie, 1965.

THORNDIKE, E. L. Animal intelligence. **Psychological Review,** 1898, Monograph Supplement 2, 8.

Animal intelligence, New York : Macmiltan, 1911.

TINBERGEN, N. **The study of instinct.** Oxford ; Oxford University Press, 1951.

TOLMAN, E. C. **Purposive behaviour in animal and men.** New York : Appleton-Century-Crofts, 1932.

Drives towards war. New York : Appleton-Century-Crofts, 1942.

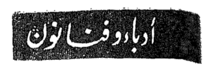
A Psychological model. In T. Parson and E.A. Shill (eds.), **Toward a general theory of action.** Cambridge, Mass : Harvard University Press, 1951.

Principles of purposive behaviour. In S. Koch (ed), **Psychology, A study of a science,** vol. 2, New York : McGraw-Hill, 1959.

TSANG, Y. C. Hunger Motivation in gastrectomized rats. **J. Abnorm. Physiol. Psychol.,** 1938, 26, 1-17.

WANGENSTEEN, O.H. & A.J. CARISON., Hunger sensations in a patient after total gestrectomy. **Proceedings of the Society of Experimental Biology,** 1931, 28, 545 - 547.





ابن شرف القيرواني

وآراؤه النقدية في رسالته «أعلام الكلام»

محمد سلامة يوسف

ابن شرف افريقى أو بالاحرى مغربى المولد والمنشأ والمربى ، وقد كان معاصرا لدولة بنى زيرى خلفاء العبيديين على المغرب وعمالهم عليه ، بعد أن فتحوا مصر واتخذوا من القاهرة قاعدة لملكهم ، وما ان جلا العبيديون عن المغرب حتى تنفس أهل السنة الصعداء بعد أن لقوا على أيدى العبيديين ضروبا من الاذى وصنوفا من العسف والوانا من الاضطهاد زهاء ستين عاما أو اكثر ، حاولوا فيها بشتى الوسائل ومختلف الأساليب فرض المذهب الشيعى وقمع المذهب السنى والقضاء على أهله ، ولاسيما المالكية منهم .

ولما ولى المعز بن باديس ـ واسطة عقد بنى زيرى وأشهر ملوكهم وربيب المالكية ورضيع لبانها ـ بدا له ان يقطع الصلة الواهية التى تربطه بالعبيديين الشيعيى النحلة ، فأعلن انفصاله عنهم ، وخلع طاعتهم ، ولعنهم على اعواد المنابر ، وحمل المغاربة على اعتناق مذهب مالك والاستمساك به دون سواه متأسيا فى ذلك بملوك بنى أمية بالاندلس ، يقول ابن الأثير : « وهذا المعز اول من حمل الناس بافريقية على مذهب مالك ، وكان الاغلب عليهم مذهب أبى حنيفة » (١) ويقول ابن خلدون : « وكان المعز منحرفا عن مذاهب الرافضة ، ومنتحلا للسنة ، فأعلن بمذهبه لأول ولايته ، ولعن الرافضة ، ثم صار الى قتل من وجد منهم » (٢) .

(١) الكامل ٩ : ٩٥ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦ : ١٥٩ .

بيد أن المعز لم ينعم طويلا بالاستقلال ، فقد اغضب العبيديين ، واحفظهم وأثار موجدتهم عليه ، فأخذ الخليفة المستنصر الموتور يفكر كيف يثأر لنفسه من المعز الذى انشق عليه ، وخلع طاعته ، فأشار عليه وزيره اليازورى أن يشرعوا فى ارسال العرب الى المغرب ، فأصلحوا بين زغبة ورياح وكانت بينهم حروب وحقود واعطوهم مالا ، وامروهم بقصد القيروان ، وملكوهم كل مايفتحونه ، ووعدوهم بالمدد والعدد فدخلت العرب افريقية ودارت رحى الحرب على ارض المغرب حتى عجز المعز عن رد عادية الأعراب المغيرين ، وسقط فى يده ، واضطر الى أن يشير على رعيته بالارتحال عن القيروان الى المهدية سنة ٤٩ هـ وهكذا نجحت المكيدة التى بيتت بليل ، وخربت القيروان دار العلم بالمغرب ، وانحسرت موجة العلم والأدب عن القيروان الى المهدية العاصمة الثانية لأمراء بنى زيرى ، وأرز اليها العلماء والأدباء والشعراء .

وقد عاش ابن شرف فى ظلال المعز بن باريس ، واتصلت أسبابه بأسبابه ، وانخرط فى سلك خدمته ، ولقى حظوة كبيرة فى بلاطه ، حتى أصبح شاعر المعز المقدم عنده الأثير لديه على سائر من في بلاطه من الأدباء والشعراء باستثناء ابن رشيق .

حياته :

هو أبو عبد الله محمد بن أبى سعيد أحمد بن شرف الجذامى القيروانى ، هذا ماورد فيما أثر لنا من كتب التراجم والطبقات التى ترجمت له ، وعرفت به قديما وحديثا ، **فياقوت** يقول في ترجمته له : (محمد بن أبى سعيد محمد المعروف بابن شرف الجذامى القيروانى) (٣) **ويقول الصفدى** : « محمد بن أبى سعيد بن احمد بن شرف القيروانى أبو عبد الله الجذامى(٤) ويقو **ابن شاكر الكتبى** فى قواته : « محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف القيروانى الجذامى » (٥) ويقول **ابن بشكوال** : « محمد ابن أبى سعيد بن شرف الجذامي القيروانى يكنى ابا عبد الله » (٦) ويقول **السيوطي** : « محمد بن أبى سعيد بن شرف الجذامى » (٧) ويكتفى **ابن بسام فى ترجمته بقوله** : « وكان أبو عبد الله بن شرف بالقيروانى من فرسان هذا الشأن » (٨) **ويغفل الدباغ فى معالم الايمان** (٩) ذكر نسبه ويهمله ، ولا يشير اليه ، أما **ابن دحية** فى كتابه المطرب فقد أورد سلسلة نسبه ، وانتهى به الى قحطان نقلا عن **أبن الكلبى** أول من راد علم الأنساب ، وألف فيها حيث يقول فى بداية ترجمته له : (من ولد جذام بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان كذا نسبه أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبى (١٠) اما المحدثون فقد

---

(٣) معجم الادباء ١٩ : ٣٧ .

(٤) الوافى بالوفيات ٣ : ٩٧ .

(٥) فوات الوفيات ٢ : ٤١٠ .

(٦) الصلة ٢ : ٥٧١ .

(٧) بغية الوعاة : ٤٦ .

(٨) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٣٣ .

(٩) معالم الايمان : ٣ : ٢٣٩ .

(١٠) المطرب : ٦٦ .

تبعوا القدامى عند ترجمتهم لابن شرف . **فالبغدادى** فى هدية العارفين يعرف به وينسبه بقوله : « محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف الجذامى القيروانى » (١١) ويقول **محمد كرد على** : « أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن شرف الجذامى القيروانى » (١٢) ويقول **صاحب معجم المطبوعات** : « أبو عبد الله محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف القيروانى الجذامى » (١٣) .

ومن عرضنا لما ورد عن أصحاب التراجم والطبقات قديما وحديثا فى نسبه عند ترجمتهم له ، وتعريفهم به نجدهم قاطبة يجمعون على أنه عربى صليبة وليس ولاء ، وأنه سليل قبيلة جذاع تلك القبيلة العربية القحطانية التي نزحت الى افريقية فيمن نزح اليها من القبائل العربية ابان الفتوح الاسلامية لهذا الصقع ، والقت به عصا التسيار ، وطاب لها المقام بمدينة القيروان ، فهو اذن عربى صريح ينتمى الى ارومة عربية قحطانية ، وقد كان نسبة العربي أمرا متعالما مشهورا ، حتى ان ابن رشيق ، قريعه ومنافسه في بلاط المعز بن باديس ، لم يستطع ان يغمزه فى نسبه أو يطعن فى عروبته ، وينال منها عندما استحكم العداء بينهما ، فعندما نقرأ فى ترجمة ياقوت لابن رشيق : « وكان بينه وبين ابن شرف الاديب مناقضات ومحاقدات ، وصنف فى الرد عليه عدة تصانيف ، كان أبوه رشيق روميا ذكر ذلك هو فى الرد على ابن شرف بعد ذكره نسب ابن شرف : هو اسم امرأة نائحة ، ثم قال : واما أنا فنضر الله وجه هذا الشيخ فى ، وأتم به النعمة على ، فما أبغى به أبا ، ولا ارضى بمذهبه مذهبا ، رضيت به روميا لادعيا ولا بدعيا » (١٤) فيبدو لنا من هذا النص أن ابن شرف ربما كان ينبز ابن رشيق بأرومته الرومية ، ويغمزه في نسبه في الأعاجم ، ويطعن عليه ، وينتقص منه بذلك ، وينال منه فى زمن كان العربي يعتز فيه بعروبته ، ويستشعر فيها العزة والشمم ، وكان الموالى المنتمون الى أصول غير عربية لايالون جهدا فى الانتفاء من الولاء الذى وسمهم بميسم الذلة والصفار ، ومن ثم اخذوا يصطنعون الأنساب العربية ، وينتفون جهدهم من أصولهم غير العربية التى نمتهم ، حتى اننا نجد ابا مسلم الخراسانى وهو من هو يصطنع لنفسه نسبا عربيا يزعم فيه أنه من نسل سليط بن عبد الله بن عباس ، وقد قرعه بذلك ابو جعفر المنصور ، وانكر عليه هذا النسب المزعوم عندما هم بالايقاع به وقتله على مايروى لنا الطبرى فى تاريخه : (١٥) ونرى ياقوت فى ترجمته للجاحظ يورد لنا قصة تدل على سخرية الجاحظ (١٦) بهذه الصناعة التى راجت فى عصره ، الا اننا نرى ابن رشيق فى رده على ابن شرف يصرح برضاه عن نسبه في الأعاجم ، ويفخر بأرومته الرومية ، ويعرض

---

(١١) هدية العارفين ٢ : ٧٢ .

(١٢) رسائل البلغاء : ٣٠٢ وانظر ترجمة حسن حسنى لابن شرف فى مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥١ .

(١٣) معجم المطبوعات ١ : ١٣٩ .

(١٤) معجم الادباء ٨ : ١١١ .

(١٥) تاريخ الطبرى ٩ : ١٦٦ ـ ١٦٧ .

(١٦) معجم الادباء ١٦ : ٩٤ .

بابن شرف الذي قالوا عنه : ان شرفا اسم امه (١٧) ، وانه ليس له اب معروف، كما غمزه بذلك مرة اخرى حيث يقول :

اما ابي فرشيق لست أنكره

قل لي ابوك وصوره من الخشب

وهكذا نرى ان اصحاب التراجم والطبقات يجمعون على أن ابن شرف عربي صريح ، وانه سليل قبيلة جذاع تلك القبيلة العربية اليمنية (١٨) التي ينتهي نسبها الى قحطان .

ولم يشر أحد ممن ترجموا له ، وعرفوا به الى مكان ولادته ومسقط رأسه ، ويغلب على الظن أنه ولد بالقيروان ، أما سنة مولده فاننا لانكاد نجد أحدا اشار اليها ممن ترجموا له من اصحاب التراجم القدامى ، اما المحدثون **فقد حددها الأستاذ محمد كرد على وحسن حسني بنحو سنة ٣٩٠ هـ (١٩)** ، اما سنة وفاته فانهم يكادون يتفقون على **أنه توفي سنة ٤٦٠ هـ (٢٠) ولم يشذ عن هذا الاتفاق سوى الصفدى وابن بسام والسيوطي** اما الصفدى فانه أورد تاريخ وفاته بأسلوب الشك والاحتمال ، ولم يقطع بأن وفاته كانت في هذا التاريخ حيث يقول : « وتوفي سنة ستين واربعمائة ، أو فيما قبلها » (٢١) ، أما ابن بسام فقد أورد في أخبار ابن شرف أنه توفي سنة ٣٦٢ هـ نقلا عن ابن رشيق حيث يقول : « حكى ابو على في رسالة قراضة الذهب انه مات سنة اثنتين وستين وثلثمائة (٢٢) وهو خبر غريب ووهم واضح ، اذ انه لم يكن ولد ، وخرج الى الوجود في هذا التاريخ ، وقراضة الذهب التي بين ايدينا الآن لا نجد فيها اشارة الى هذا الخبر الغريب ، ولعل ابن بسام كان يعني سنة اثنتين وستين واربعمائة لا اثنتين وستين وثلثمائة ، اما السيوطى فقد ذهب الى انه توفى سنة ٥١٨هـ وهو خبر غريب ووهم واضح ، ولا ندرى من اين اتى بهذا التاريخ مع أن ترجمته له لا تعدو سطرين استقاهما ونقلهما من الصلة لابن بشكوال ، وبالرجوع الى المصدر الذى استقى منه ، ونقل عنه ، لا نجد ابن بشكوال يذكر تاريخ وفاة ابن شرف بل أغفله تماما واهمله ولم يشر اليه ، على هذا فتحديد تاريخ وفاة ابن شرف بسنة ٥١٨ هـ من اختراع السيوطى ، وليس كما زعم من انه نقله عن ابن بشكوال حيث يقول : « مات سنة ثمان عشرة وخمسمائة ذكره ابن بشكوال في زوائده على الصلة (٢٣) اما مكان وفاته فنحن

---

(١٧) يقول الصفدى : « قيل ان شرف اسم أم أحمد فعلى هذا لاينصرف ، واسم أبيه فينصرف » الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ وبعد أن يعدد رسائل ابن رشيق في هجاء ابن شرف وذكر أغلاطه يقول : « وأنشدني في بعضها :

بنو شرف شرف أمكم	**وليست أباكم فلا تكذب**
ولكنها التقطت شيخكم	**فأثبت في ذلك المنصب**
أبينوا لنا أمكم أولا	**ونحن نسامحكم بالأب**

انظر الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ .

(١٨) في كشف الظنون : ١ : ٤٦ « جذام بضم الجيم والذال قبيلة من اليمن » .

« ١٩ » رسائل البلغاء : ٣٠٢ وانظر مجلة المقتبس ٦ : ٣٥١ .

(٢٠) انظر معجم الأدباء ١٩ : ٣٨ وفوات الوفيات ٢ : ٤١٠ وكشف الظنون ١ : ٤٦ وهدية العارفين ٢ : ٧٢ وظهر الاسلام ١ : ٣٠٨ والأعلام للزركلى ٣ : ٩٠٠ .

(٢١) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ .

(٢٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨٠ .

(٢٣) بغية الوعاة : ٤٦ .

نعلم انه توفى فى دار غربته بالاندلس متنقلا بين ملوك الطوائف . الا أننا لا نكاد نجد احدا من اصحاب التراجم القدامى حدد لنا مكان وفاته اللهم الا ياقوت الذى يكاد ينفرد بين القدامى بتقرير أن وفاة ابن شرف كانت باشبيلية (٢٤) ، كما ذهب الى ذلك من المحدثين حسن حسنى عبد الوهاب حيث يقول: « واجتاز ابن شرف وحده الاندلس ، وسكن المرية وغيرها ، وتردد على ملوك الطوائف كآل عباد باشبيلية وغيرهم وبهذه المدينة الاخيرة كانت وفاته سنة ٤٦٠ هـ » (٢٥) وتبعه في ذلك طائفة من المحدثين . (٢٦) ونحن نشك في هذا الخبر ولا نكاد نطمئن الى انه توفى باشبيلية ، وانه اتصلت اسبابه بأسباب المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية وعاش فى كنفه الى أن أدركته منيته ، لاننا نجد ابن بسام فى ذخيرته يقول عن ابن شرف : « واستقر اخيرا عند المأمون بن ذى النون فعليه خلع آخر لبوسه ، ونثر بقية كيسه ، وكانت لعباد همة فى اصطحاب الاحرار واستجلاب ذوى الاخطار ينصب لذلك الحبائل ويعمل فيه الحق والباطل ، حتى اذا غشوا الى سرجه ، واغتروا بزبرجه سامهم رد قبيس على ابيه ، واخذهم بالسعاية بين الفرقد واخيه » (٢٧) ثم يذكر بعد ذلك أن ابن شرف كان يتجنب عبادا ، ويتحاماه فيقول : « وكان ابن شرف هذا ممن فهم منحاه ، وصم عن رقاه ، فلم يجتمع مع عباد فى صعيد ، ولا اهدى له السلام الا من بعيد » (٢٨) ثم يذكر بعد ذلك أن أول ما بعث به ابن شرف الى المعتضد باشبيلية خمس قصائد من شعره مع رقعة خاطب بها وزيره ابن زيدون ، وأنه أجيب على ذلك برسالة من انشاء ابن عبد البر يستحثه على القدوم على حضرة المعتضد الذى وجه اليه بما يعينه على رحلته اليه (٢٩) فامتنع ابن شرف من القدوم على حضرته واكتفى بأن اهدى اليه كتابه « أبكار الافكار » يقول ابن بسام : « فتوقف ابن شرف عن القدوم بقدمه ، وكلف ذلك سن قلمه ، وطرد تأليفه « أبكار الافكار » « باسم عباد ، وبعث به اليه على البعاد » (٣٠) فلما وصل الكتاب والخطاب الى المعتضد لم يجد بدا من انفاذ صلته اليه ، (٣١) ورد على ابن شرف برسالة من انشاء عبد البر ايضا ، ثم يقول ابن بسام بعد ذلك : « ومع وصول هذه الصلة الى ابن شرف لم يزل على ملوك الطوائف يومئذ يتطوف وينتقل فى الدول من منزل الى منزل ، ومن بلد الى بلد الا حضرة المعتضد فانه كان يخاطبه ، وينشده :

احبك فى البتول وفى أبيها
ولكنى احبك من بعيد (٣٢)

---

(٢٤) معجم الأدباء ١٩ : ٣٨ .

(٢٥) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ .

(٢٦) انظر الدولة الصنهاجية لأحمد بن عامر : ٨٤ وعصرالقيروان : ١٠٨ والأعلام ٣ : ٩٠٠ .

(٢٧) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٣٣ .

(٢٨) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٢٩) المصدر السابق : ١٣٥ .

(٣٠) المصدر السابق : ١٣٨ .

(٣١) المصدر السابق : ١٤١ .

(٣٢) المصدر السابق : ١٤٢ .

ثم يورد له ستة أبيات طريفة خاطب بها المعتضد ، وإيأسه من لقائه والوقوع في حبائله ، ولا بأس من أن نوردها لطرافة معانيها وهي :

اان تصيدت غيرى صيد طائرة
اوسعتها الحب حتى ضمها القفص
حسبتى فرصة اخرى ظفرت بها
هيهات ما كل حين تمكن الفرص
وظاهر حسن ايضا لقصتها
لكن لها باطن في طيها قصص
لك الموائد للقصاد مترعة
تروى وتشبع لكن بعدها غصص
ولست اعجب من قوم اذا انتشبوا
لكنما عجبي من معشر خلصوا
ولم يطب قط لى من يلذ ولا
سلوى اذا كان فى عقباهما مغص (٣٣)

ثم يعلق ابن بسام على هذه الابيات بقوله : « قال هذا لتواتر الخبر عن المعتضد بازورار ركنه ، وخشونة حزنه فأضرب عن ضربه ، ولم يتعرض للنشبة فى حبائل نشبه ، خوفا أن يورطه فى الهوان ، ويسقط العشاء به على سرحان ، ويطيح فى جملة ما طاح على يديه من الخلطاء والندماء » (٣٤) وهكذا يخالجنا الشك ولا يمكننا ان نطمئن الى أن ابن شرف انتهى به المطاف الى اشبيلية ، وانه توفى بها كما يقول ياقوت من القدامى ، ومن ذهب الى ذلك من المحدثين ، ونرجح أنه ادركته منيته بطليطلة فى كنف ابن ذى النون .

اما أسرته فقد سكت عنها المترجمون ، واغفلوها ولم يشيروا اليها ادنى اشارة ، ولم يحفلوا بها شأنه شأن غيره من العلماء والأدباء، فلا نكاد نعرف من أسرته الا ولده جعفرا ، وكان كأبيه اديبا شاعرا ، وقد ترجم له ابن بشكوال فى صلته ترجمة موجزة ذكر فيها أن له رواية عن ابيه ، وأنه أخذ عنه ديوانه حيث يقول : « جعفر بن محمد بن أبى سعيد بن شرف الجذامى القيروانى ، واصله منها ، وبها ولد سنة اربع واربعين وأربعمائة ، وخرج عنها عند اشتداد الفتنة عليها سنة ٤٧هـ الى الاندلس ، واستوطن برجة من ناحية المرية ، يكنى ابا الفضل له رواية عن أبيه ، وأخذ ديوان شعره ، وعن القاضى أبى عبد الله بن المرابط وأبى الوليد الوقشى وأبى سعيد الوراق وغيرهم » (٣٥) ويقول **محمد كرد على :** « وخلف ابنا يدعى ابا الفضل جعفرا كان أديبا ومجيداً أيضا ، اورد له العماد فى خريدته والفتح في قصائد وفصولا تشهد له بطول الباع » (٣٦) وفي الفصل الذى عقده ابن بسام بعنوان « ما اخرجته من شعر ابن شرف فى أوصاف شتى » نجد ابن شرف قد فصل القول واجاد فى تصوير نكبة القيروان حاضرة افريقية، وما أصابها على أيدى أعراب الصعيد من صنوف التخريب والتدمير ، وما لحق بأهلها من ألوان العسف والاضطهاد ، وما حل بهم من فنون الاذى وضروب التعذيب ولا غرابة فى هذا فقد هزته مأساة القيروان ، وافزعته الكارثة ، وازعجته عن حرمه الآمن ، فلا عجب أن انطقته بعدة قصائد تعد من عيون الشعر العربى فى رثاء المدن والامصار ، ويعنينا هنا انه يصف فى احدى مراثيه للقيروان حال افراخه الصغار ـ،

---

(٣٣) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٣٤) المصدر السابق : ١٤٣ .

(٣٥) الصلة ١ : ١٢٩ كما ترجم له الفتح بن خاقان فى قلائده : ٢٥١ ـ ٢٥٨ وأفاض فى الثناء عليه ونقل شعره المرقص والمطرب .

(٣٦) رسائل البلغاء وانظر مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ .

وما تجشموه من صعاب وأهوال في الصحارى والقفار وعلى متون البحار فرارا بأنفسهم من عسف الاعراب وأذاتهم فيقول :

كأنى وأفراخي اذا الليل جننا
وبات الكرى يجفو جفونا ويطرق
حمائم أضللن الوكور فضمها
تجانسها حتى تراءى المفرق
اذا أفزعتهم نبوة زاحموا لها
ضلوعي حتى ودهم لو تفتق
ويصفر جسمى عن جميع احتضانهم
فيثبت ذا فيه وذا عنه يزهق
كأنهم لم يسكنوا ظل نعمة
لها بهجة ملء العيون ورونق
الى أن غدوا قن الفيافى فتارة
تباع وفى بعض الاحايين تعتق
وطورا على موج البحار كأننا
قذى قد وثقنا اننا ليس نفرق
ونحن نفوس تسعة ليس بيننا
وبين الردى الا عويد معلق (٣٧)

كما نجده في مدحة أخرى يبعث بها الى المعتضد يشير الى طفلين له : احدهما ابن أربع سنوات والآخر ابن ست سنوات، وما تجشماه في هذه السن الغضة من صعاب فيقول :

أجشمهم ليل القفار وظلمة ال
بحار وكم ريعوا وللستر ارخاء
ولى منهما سهمان هذا ابن اربع
وهذا ابن ست كلما كان اغفاء
اضمهما والليل داج كأنما
هما نقطتا ياء وجسمى هو الياء
فطورا يغشيهم على ذكرك الكرى
فتصبح اضواء عليهم ولألاء
وطورا يمجون الدجى ومطاله
وما كان للغايات مطل وارجاء
فتضجر منهم انفس ربما بكت
بكى هو للصم الجلاميد ابكاء (٣٨)

ويكاد هذا هو كل ما نعرفه عن أسرة ابن شرف ، وما اثر لنا من اشارات اليها ، في آثاره الشعرية التى وصلت الينا .

●●●

كان ابن شرف شخصية خصبة متعددة المواهب ، فهو اديب ناقد كاتب شاعر صاحب منظوم ومنثور ، فياقوت يبدأ ترجمته له بقوله : « الاديب الكاتب الشاعر » (٣٩) ويعده الصفدى احد فحول شعراء المغرب (٤٠) ، ويقول عنه ابن شاكر الكتبى : « أحد فحول شعراء الاندلس والمغرب » (٤١) . ويقول فيه ابن بشكوال : « وكان من جلة الادباء وفحول الشعراء ، وله كتب مصنفة في معنى ذلك كله ويشير ابن خلدون في مقدمته الى علو مرتبته في الشعر هو وقريعه ابن رشيق فيقول : « ما كان بافريقية من مشاهير الشعراء الا ابن رشيق

---

(٣٧) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨١ .

(٣٨) المصدر السابق : ١٧٩ .

(٣٩) معجم الادباء ١٩ : ٣٧ .

(٤٠) الوافى بالوفيات ٣ : ٩٧ .

(٤١) فوات الوفيات ٢ : ٢٥٥ .

وابن شرف ، وأكثر ما يكون فيها من الشعراء طارئين عليها » (٤٢) وحين عرض له ابن رشيق فيمن عرض لهم من شعراء عصره قال فيه كما نقل لنا ابن فضل الله العمرى : « شاعر حاذق متصرف كثير المعانى والتوليد ، جيد المقطعات والتقصيد ، أشعر أهل زمانه من شق غباره ، واحذقهم من اقتفى آثاره ، وما منهم الا اغر نجيب » (٤٣) فابن رشيق فى موقفه من ابن شرف هو موقف الرجل المنصف الذى يعرف له قدره ، وينصفه ولا يغمطه حقه ، ولا يبخسه فيما يعلم ، ولا ينتقص من قدره الذى يعرفه له ، وهو موقف يحمد لابن رشيق اذا عرفنا ما كان بينهما من منافسة ، والواقع ان ابن شرف كان من الشعراء المجيدين ، وقد اتسم شعره بقوة التراكيب وسلاسة المعانى ، ودقة الوصف ، ووضوح الافكار ، كما هو واضح من أشعاره التى اوردنا طرفا منها ، ويقول فيه ابن بسام : « من فرسان هذا الشأن ، واحد من نظم قلائد الآداب ، وجمعاشتات الصواب وتلاعب بالمنظوم والموزون تلاعب الرماح بأطراف الفصون » (٤٤) وقد أورد ابن بسام طائفة كبيرة من شعره ونثره ، وبسط القول فى أخباره الادبية وافاض فيها حتى كسر عليها مايزيد عن خمسين صفحة ، بل ان لابن شرف **رواية عن أبى الحسن القابسى وأبى عمران الفاسى** الفقيهين يقول ياقوت : « روى أبى الحسن القابسى وابى عمران الفاسى » (٤٥) ويقول الصفدى : ورى ابن شرف عن أبى الحسن القابسى (٤٦) ويذكر ابن بشكوال أن لابن شرف رواية عن أبى الحسن القابسى وأبى عمران الفاسى وصحبة لهما ، وأن أبا الوليد [illegible] عليه ، ووصفه بالعلم والذكاء ، ثم يقول [illegible] اخبرنا عنه ابنه الادب ابو الفضل جعفر بن محمد بجميع مجموعات أبيه ، وكتب بذلك الينا بخطه رحمه الله » (٤٧) ويقول الدباغ : « ولابى عبد الله محمد بن شرف [illegible] رواية عن الشيخ ابى الحسن القابسى وابى عمران الفاسى ، وذكره الشيخ ابو الوليد الباجى ، واثنى عليه ، ووصفه بالعلم والذكاء وان عالم الأدب من بعض علومه » (٤٨) ويبدو أن صلة ابن شرف بالفقهاء والفقه كانت قوية متينة ، وأن روايته عن الفقهاء كانت معروفة مشهورة ، حتى رأينا الدباغ يسلكه فى جملة الفقهاء ، ويعده منهم ، فيترجم له ، ويعرف به في كتابه «**معالم الايمان**» وكأنه كان مشهوراً بالعلم والفقه في عصره ، معدودا من جملة الفقاء والعلماء ، بل انه يبدو أن شخصيته الفقهية العلمية كانت اغلب عليه من شخصينه الادبية ، وأن شهرته بالفقه والعلم طغت على جانب شهرته بالأدب وفاقتها ، حتى اننا نجد الدباغ فى نهاية ترجمته له ينقل لنا ثناء أبى الوليد الباجى عليه ، ووصفه بالعلم والذكاء ، وأن

---

(٤٢) المقدمة : ٥٦٥ ولا نوافق ابن خلدون على ماذهب اليه من أنه لم يكن بافريقية من مشاهير الشعراء الا ابن رشيق وابن شرف ، وأن أكثر من فيها من الشعراء طارئون عليها ، اذ انه وجد بافريقية من الشعراء من هم فى مرتبة ابن رشيق وابن شرف ، بل ربما وجدنا من الشعراء المعاصرين لهما من هو أشعر منهما مثل عبد الكريم النهشلى والرقيق القيروانى وعلي بن عبد الغنى الحصرى وغيرهم .

(٤٣) مسالك الأبصار جـ ١١ قسم ٢ : ٢٣٨ .

(٤٤) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٣٢ وقد نقل الدباغ فى ترجمته لابن شرف عن ابن بسام انظر معالم الايمان ٣ : ٢٣٩ .

(٤٥) معجم الأدباء ١٩ : ٣٧ .

(٤٦) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ .

(٤٧) الصلة ٢ : ٥٧١ .

(٤٨) معالم الايمان ٣ : ٢٣٩ .

علم الأدب من بعض علومه (٤٩) ويقول الدكتور **باغي :** « وكأن ابن شرف قد كانمشهورا بالعلم والفقه فى زمنه ، ولهذا فلسنا نجد له ترجمة لدى ابن خلكان او ياقوت بخلاف ابن رشيق فله ترجمة لديهما » (٥٠) ونرى أن الدكتور باغى قد جانبه الصواب فيما ذهب اليه من انه لم يجد ترجمة لابن شرف لدى ابن خلكان ، أو ياقوت بخلاف ابن رشيق ، ورده ذلك الى أن شهرة ابن شرف فى زمنه بالفقه قد غلبت على جانب الادب بخلاف ابن رشيق ، فالواقع اننا نجد ترجمة لابن شرف عند ياقوت فى معجمه ،واذا كانتترجمته قد سقطت من ابن خلكان فليس ذلك بسبب شهرته بالفقه ، لأن ابن خلكان لم يقصر وفياته على الترجمة للأدباء وحدهم دون غيرهم ، بل ترجم لشتى الطبقات ومختلف الطوائف والفئات من خلفاء ووزراء وقضاة وفقهاء ومحدثين وقراء ومفسرين ونحاة ولغويين وأدباء وشعراء وكتاب ومؤرخين ورواة ووعاظ وصوفية ومتكلمين .

وقد توطدت العلاقات بينه وبين معاصره ابن رشيق ، وتوثقت الصلات بينهما قبل ان يجمعهما بلاط المعز بن باديس واسطة عقد بيته كما يقول ابن خلكان (٥١) والذى كانت القيروان فى عهدهكما يقول ياقوت، « وجهة العلماء والأدباء ، تشد اليها الرجال من كل فج ، لما يرونه من اقبال المعز على أهل العلم والأدب ، وعنايته بهم » (٥٢) كما كانت حضرته محط بنى الآمال ومنتجع الادباء كما يقول ابن خلكان (٥٣) ، وقد حدثنا ابن رشيق كيف كان يشهد مرارا لدته ومعاصره ابنشرف وهو يكتب القصيدة فى غير مسودة كأنه يحفظها ثم يقوم فينشدها ، ويذكر انه لا يستطيع أن يحصى ما كان بينهما والروابط المتينه التى تجمع بينهما تدفع بابن شرف الى أن يحضر كل يوم صاحيا حينا ، وفي سكر حينا آخر على مايروى الصفدى حيث يقول : «وقال ابن رشيق في حقه فى الأنموذج : لقد شهدته مرات يكتب القصيدة فى غير مسودة كأنه يحفظها ، ثم يقوم فينشدها ، وأما المقطعات فما أحصى ماكان يصنع منها كل يوم بحضرتى صاحيا كان أو سكرانا ، ، ثم يأتى بعد ذلك أكثرها مخترعا بديعا » (٥٤) .

وبعد أن اتصلت أسبابهما بأسباب المعز بن باديس ، وجمعهما بلاطه ، وتهيأ لهما أن يكونا شاعرى حضرته وملازمى ديوانه ، حتى أصبحا متقدمين عنده أثيرين لديه على سائر من فى بلاطه من الأدباء ، يقول ياقوت : « وكان ابن شرف وابن رشيق صاحب العمدة متقدمين عنده على سائر من فى حضرته من الأفاضل والأدباء » (٥٥) .

ويقول حسن حسنى : « وقد خصص المعز لصحبته من بين هؤلاء الزعماء المتقدمين ابن شرف هذا وابن رشيق فكان يلتفت تارة الى الاول ، وأخرى الى الثانى ، وجرى بسبب ذلك بين هذين الادبيين مناقضات ومهاجاة رسمها كل منهما فى رسائل مستقلة ومقامات متنوعة لميصل الينامنها شيءفيما نعلم(٥٦).

---

(٤٩) معالم الايمان ٣ : ٢٤١ .

(٥٠) حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها : ٢٠٢ .

(٥١) وفيات الأعيان ٤ : ٣٢١ .

(٥٢) معجم الادباء ١٩ : ٣٧ .

(٥٣) وفيات الأعيان ٤ : ٣٢١ .

(٥٤) الوافي بالوفيات : ٣ : ٩٨ .

(٥٥) معجم الأدباء ١٩ : ٣٧ .

(٥٦) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٢ .

ويبدو انهما كانا أقرب الى نفس المعز من سائر الشعراء ، واكثر استجابة لما يمليه عليهما ولهذا رايناه كثيرا ما كان يستدعيهما، ويخلو بهما حين يطيب له أن يلهو ، وكان على ما يظهر لنا يرغب فى اثارة اسباب المنافسة بينهما في مجالسه الادبية ، ويقوم هو بدور الحكم أحيانا فى المفاضلة بينهما ، يقول ابن ظافر : « ان الاتفاق والتوارد بين الشاعرين يقع أكثر مايقع عندما يضيق المقترح عليهما بأن يعين لهما الوزن والقافية»(٥٧) ثم ينقل عن « أبكار الافكار » لابن شرف ما يؤيد ماذهب اليه فيقول: « اكثر ما يقع هذا الاتفاق الغريب والتوارد العجيب اذا ضيق المقترح على الشاعرين بأن يعين الوزن والقافية .

ذكر أبو عبد الله بن شرف القيروانى فى كتاب (أبكار الافكار) قال : استدعانى المعز بن باديس يوما ، واستدعى أبا على الحسن بن رشيق ، وكنا شاعرى حضرته وملازمي ديوانه ، فقال : أحب أن تصنعا بين يدى قطعتين فى صفة الموز على قافية الغين ، فصنعنا حالا من غير أن يقف احدنا على ما صنه الآخر ، فكان الذى صنعته :

ياحبذا الموز واسعاده
من قبل مضغ الماضغ

لان الـى أن لا مجس لـه
فالفم مـلآن بـه فـارغ

سيـان قلنـا مأكـل طيب
فيـه والا مشرب سـائـغ

والذى صنعه ابن رشيق :

مـوز سريـع اكلـه
من قبـل مضـغ الماضـغ

مـأكلـه لآكـل
ومشـربـة لسـائغ

يخـال وهـو بـالـغ
للحلـق غـير بـالـغ

فأمرنا للوقت ان نصنع فيه على حرف الذال ، فعملنا ، ولم ير أحدنا صاحبه ما عمل ، فكان ماعملته :

هـل لـك فى مـوز اذا
ذقتـه قلت حبـذا

فيـه شـراب وغـذاء
يـريـك كالمـاء القـذى

لـو مـات مـن تلـذذا
بـه لقيـل : ذا بـذا

وما عمله ابن رشيق :

للـه مـوز لـذيـذ
يعيـده المسـتعيـذ

فـواكـه وشـراب
بـه يـداوى الوقيـذ

تـرى القـذى العـين فيه
كمـا يريهـا النبيـذ

قال ابن شرف : فأنت ترى هـذا الاتفاق لما كانت القافية واحدة والقصة واحدة

---

(٥٧) بدائع البدائه : ١٢٧ ، ويقول ابن دحية : « وبسندنا الى أبى عبد الله محمد بن شرف قال : أكثر مايكون توارد الخواطر ووقوع الاتفاق ومايقاربه اذا طلب الشاعران أوالناشران معنى واحدا فى قافية واحدة » المطرب : ٦٧ ثم يورد بعد ذلك شعرى ابن رشيق وابن شرف فى وصف الموز، وفى مدح الزغب على سوق بعض حظايا المعز .

والقصد واحدا ، ولقد قال من حضر ذلك اليوم : ماندرى مم نتعجب أمن سرعة البديهة، أم من غرابة القافية،أم من حسن الاتفاق»(٥٨) ثم ينقل ابن ظافر بعد ذلك عن ابن شرف قوله: « استخلانا المعز يوما ، وقال : اريد أن تصنعا شعرا تمدحان به الشعر الرقيق الخفيف الذى يكون على سوق بعض النساء، فانى أستحسنه وقد عاب بعض الضرائر بعضا به ، وكلهن قارئات كاتبات ، فأحب أن اريهن هذا ، وأدعى أنه قديم لاحتج به على من عابه ، واسر به من عيب عليه ، فانفرد كل منا ، وصنع فى الوقت ، فكان الذى قلت :

وبلقيسية زينت بشعر
يسير مثل ما يهب الشحيح

رقيق فى خدلجة رداح
خفيف مثل جسم فيه روح

حكى زغب الخدود وكل خد
به زغب فمعشوق مليح

فان يك صرح بلقيس زجاجا
فمن حدق العيون لها صروح

وكان الذى قال ابن رشيق :

يعيبون بلقيسية أن راوا بها
كما قدراى من تلك من نصب الصرحا

وقد زادها التزغيب ملحا كمثل ما
يزيد خدود الغيد تزغبها ملحا

فانتقد المعز على ابن رشيق قوله «يعيبون» وقال : قد أوجدت لخصمها حجة بأن بعض الناس عابه ، وهذا نقدا مافطنت له»(٥٩) . وهكذا رأينا المعز بن باديس الذى كان حريصا على أن يقرب الكتاب والشعراء وان يلحقهم بخاصته ، ويجمعهم في ديوانه ، حتى اجتمع فى بلاطه مائة شاعر بليغ كما يقول حسن حسنى ،(٦٠) يطيب له أن يبعث في الشعراء روح التنافس ، وان يدفعهم الى التسابق فى الاجادة ، والمباراة فى الاحسان فيما يقترحه عليهم من أغراض ، وان يساجل بعضهم بعضا ، ويناظره فيما يفرض عليهم ، ويطلب اليهم القول فيه ، وأن يغرى بعضهم ببعض شحذا لقرائحهم ، واستخراجا لاجود ما عندهم ، حتى عادت تلك المساجلات والمناظرات على الادب بأطيب الاثار وأحسن النتائج يقول حسن حسنى « وكثيرا ما كان المعز يظهر الميل الى اديب دون آخر ،او ينشب بين شاعرين فيوقع بينهما تنافسا أدبيا ينشأ

(٥٨) بدائع البدائه : ١٢٧ ـ ١٢٨ والمطرب : ٦٧ ـ ٦٨وليس فى اتفاقهما هذا ما يدعو الى التعجب ، أو يثير الاستغراب لان العلاقات الوثيقة والروابط المتينة التىجمعت بينهما واتصالهما الدائم الطويل قبل ان يجمعهما بلاط المعزين باديس . واتفاقهما فى الأخذ عن مشاهير علماء عصرهماوأدبائه أمثال القزاز وابى اسحق الحصرى وغيرهما .. بالاضافة الى الغرض الواحد الذى فرض عليهما ، وطلب اليهما ان ينظما فيه على قافية واحدة ، فضلا عن انهما لم يكونا يصدران فى ذلك عما يدور بخواطرهما ولم يكونا يتناولان هذه الموضوعات التى فرضت عليهما كما يحسان بها فى داخل نفوسهما ، وكما تقع فى وجدانهما . وقد نتج عن كل ذلك أنجاء شعرهما فى الموضوعات المفروضة عليهما متقاربا متشابها كما رأينا ، وهكذا سخر المعز الشعراء لازجاء أوقات فراغه اللاهى العابث ، وللهوة حين يطيب له ان يلهو ، وللذاته حين يحلو له أن ينشد اللذة ويطلبها فيتقدم اليهم آن يصنعوا شعرا فى مدح زغب نبت على سوق من عيبت به من حظاياه ، او يلغوا فى وصف فاكهةمن الفواكه حتى كان الشعراء فى بلاطه لايكادون يصدرون الا عما يدور بخلده ، ويهجس فى خاطره ، وتحدثه به نفسه وقلما كانوا يصدرون عن داخل نفوسهم اووجدانهم .

(٥٩) بدائع البدائه : ١٢٧ ـ ١٢٨ والمطرب : ٦٨ ـ ٦٩

(٦٠) بساط العقيق : ٥١

عنه تسابق في اختراع المعاني وتوليد المبتكرات، وحصل بسبب هاته المنافسات نهوض في سوق الادب ، وظهرت حركة عامية وفكرية اجتنت افريقية من ثمراتها اليانعة ما يحق لها الافتخار به »(٦١) .

ويغلب على الظن ان ما اثر لنا عن ابن رشيق وابن شرف من مساجلات ومناظرات وما قام بينهما من مناقضات صورتها وسجلتها كتب الادب ، كان لا يعدو ان يكون لونا من الوان المباريات ، وضربا من ضروب المناقشات لايصادران فيها عن داخل نفسيهما ، وكان الناس من حولهما يتلقفون ما يصدر عنهما ، ويغرون احدهما بصاحبه ، ويثيرونه عليه ، ويهيجونه به ، ويحرشون بينهما استخراجا لما عندهما ، واستمتاعا بما يصدر عنهما ، ثم يحكون هذا او ذاك ، ولم يكن كل ذلك ليصل بينهما الى حد التباغض او العداء او القطيعة وانفصام عرى المودة وتقطع أسباب الصداقة بينهما ، وقد تحفظ هذه المناقضات احيانا أحدهما على صاحبه وتهيجه وتثير حميته عليه ، فينصرف مغاضبا ، ولكنه سرعان ما يعود اليه، وتتصل أسباب الصداقة والمودة بينهما ، ولا يبقى للحفيظة والغضب مكان في نفسه ، وقد فطن لذلك ياقوت ، ونبه اليه حيث يقول : « وكان ابن شرف وابن رشيق صاحب العمدة متقدمين عنده على سائر من في حضرته من الافاضل والادباء فكان يقرب هذا تارة ، ويدني ذاك تارة أخرى فتنافسا وتنافرا ثم تهاجيا ، ولكن لم يتغير أحدهما على الآخر بما جرى بينهما في المناقضات (٦٢) نعم لم يتغير أحدهما على الآخر بسبب هذه المساجلات والمناقضات ، وليس أدل على ذلك من أن المكاتبات والمخاطبات ظلت متصلة بينهما ، يكتب كل منهما لصاحبه ويجيبه حتى بعد انانخرطا في سلك خدمة المعز ، واشتد التنافس بينهما ، فها هو ذا ابن شرف يسبق ابن رشيق الى صقلية ، وحين يصل اليها يتذكر أيامه مع ابن رشيق ، فيكتب اليه ـ وهو بالمهدية ـ قصيدة يتشوقه فيها ، ويجيبه ابن رشيق بقصيدة أخرى على ما يروى لنا القفطي حيث يقول : « وكان بين ابن رشيق وبين محمد بن شرف الشاعر مباينه بعد مواصلة وذلك انهما كانا شاعرى ابن باديس، ودخلا اليه ، واتصلا بخدمته في وقت واحد ، وكان ابن شرف ممن لا ينكر حذقه ، ولا يدفع في هذا النوع صدقه ، ولم يزل بينهمامكاتبات ومخاطبات ، فمن شعر ابن شرف قصيدة كتب بها الى ابن رشيق وهو بالمهدية يتشوقه أولها :

عدمناك من بعد وان زدتنا قربا
على ان فيما بيننا سببا سهبا

---

(٦١) بساط العقيق : ٥٥ كما يقول في موضع آخر عن تنافس ابن رشيق وابن شرف ، وحرص المعز على اذكاء جذوة التنافس بينهما : « فانه (أي ابن شرف) كان يترصد اقل الزلات للوثوب على صاحبه ، وجرى بسبب ذلك تنافس أدبي ومكافحة اقلام ، وتسابق الى الاختراع والابتداع ، اجتنى منها سوق الادب فواكه فكرية رسمها كل واحد منهما في تآليف كانت احسن أثر لنتائج قرائح شاعرينا ، وربما كان الامير المعز يحرص على هذا التنافس بين ابن رشيق وابن شرف بالتفاته تارة الى الاول . وأخرى الى رفيقه سعيا منه وراء تنشيط الآداب وترويج موادها .... » بساط العقيق : ٥٩ ويقول احمد امين : « وقد كانا صديقين ، ثم دبت بينهما الخصومة فتساجلا في الادب كتلك المساجلة التي كانت بين الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني » ظهر الاسلام ١ : ٣٠٨ .

(٦٢) معجم الادباء ١٩ : ٣٧ كما أشار ياقوت الى ما كان بينهما عند ترجمته لابن رشيق حيث يقول : « وكان بينه وبين ابن شرف الاديب مناقصات ومحاقدات ، وصنف في الرد عليه عدة تصانيف : » معجم الادباء ١١٠ ومن ذلك ما ذكره ابن رشيق في الرد على ابن شرف من انه منسوب الى امرأة نائحة .

وكتب اليه ابن رشيق قصيدته التي أولها :

عتابا عسى أن الزمان له عتبى
وشكوى فكم شكوى الانت له قلبا(٦٣)

ولعل هذا هو مادفع الصفدى فى ترجمته لابن شرف الى أن يشير الى أن ما جرى بينه وبين ابن رشيق من مهاجاة ومعاداة انما هو أمر يحدث عادة بين المتعاصرين(٦٤) حيث يقول : « وكانت بينه وبين ابن رشيق مهاجاة وعداوة جرى الزمان بعادتها بين المتعاصرين ». ثم يتبع ذلك بسرد اسماء عدة رسائل لابن رشيق يهجو فيها ابن شرف ، ويعدد أغلاطه ومساوئه ، فيقول : « ولابن رشيق فيه عدة رسائل يهجوه فيها ، ويذكر أغلاطه وقبائحه منها « رسالة ساجور الكلب » و « رسالة قطع الانفاس » و « رسالة نجح الطلب » و « رسالة رفع الاشكال ودفع المحال » و « [illegible] الملح ونسخ اللمح »(٦٥) ويقول الوزير السراج فى ترجمته لابن رشيق :« وكان بينه وبين عبدالله بن أبى سعيد بن أحمد المعروف بابن شرف القيروانى مناقضات ومهاجاة ، وصنف عدة رسائل فى الرد عليه منها رسالة سماها « ساجور الكلب » و« رسالة نجح الطلب » و « رسالة قطع الانفاس » ورسالة نقض الرسائل الشعوذية » و « القصيدة الدعية » و « الرسالة المنقوضة » و « رسالة رفع الاشكال ودفع المحال »(٦٦) أما العمرى فى مسالك الابصار فقد ذهب الى أن ما وقع بينهما انما هو من قبيل ما وقع بين الخوارزمى وبديع الزمان»(٦٧) ويؤكد ماذهبنا اليه أنهم كانوا فى هذا العصر كثيرا ما يلجأون الى الهجاء لا لشىء الا للتندر والتسلية وازجاء أوقات الفراغ ، ومن ذلك ما يرويه الصفدى وابن شاكر الكتبى(٦٨) من أن ابن شرف قال بيتين على قافية القاف فى ذم حمام ، فبلغ ذلك ابن رشيق ، فقال مجيزا لهذين البيتين ببيت هجا فيه ابن شرف ونبزه بالعور والصلع وهو :

وانت ايضا أعور أصلع
فصادف التشبيه تحقيق

---

(٦٣) انباه الرواة : ١ : ٣٠١ والقفطى وان كان لم يحدد المكان الذى بعث منه ابن شرف قصيدته الى صاحبه يتشوقه فيها الا أنه يغلب على الظن أنه بعث بها من صقلية ، لانه من المعروف أن ابن شرف سبق صاحبه اليها ، ثم يقول القفطى بعد ذلك ثم ان المنافسة أوقعت بينهما ، وتخارجا فى الهجاء ، وعمل ابن رشيق عدة تصانيف فى الرد عليه واخراج معايب أقواله سأستوفى لمحها وملحها فى كتابى الذى أسميه « الانيق فى أخبار ابن رشيق » بمشيئة الله وعونه انباه الرواة ١ : ٣٠٣ فالقفطى هنا يعد باخراج كتاب يشتمل على رسائل ابن رشيق ومصنفاته فى الرد على ابن شرف وابراز أغلاطه ومعايب أقواله ، ولا ندرى ان كان القفطى قد وفى بوعده فاخرج هذا الكتاب أم لا .

(٦٤) الوافى بالوفيات ٣ : ٩٧ وانظر فوات الوفيات ٢ : ٤١

(٦٥) الوافى بالوفيات ٣ : ٩٧ وفوات الوفيات ٢ : ٤١ ويقول ابن بسام : « وبينه وبين أبى على بن رشيق ماج بحر البراعة ودام ، ورجع نجم هذه الصناعة فاستقام وذهب من المناقضة مذهبا تنازعاه شرا طويلا ، وخلداه ذكرا محمولا ، واحتملاه ان لم يسمح الله وزرا ثقيلا . وكان أبو على أوسعهما نفسا وأقربهما ملتمسا ، ولابن شرف أصالة منزعه وجلالة مقطعه ومتانة لفظه وسعة حفظه ، فتسمع بشعره ملآن من وعوعة وجعجعة ، ولكن ما أبعد ما يرويه وأبدعه » الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٣٣ .

(٦٦) الحلل السندسية فى الاخبار التونسية الجزء الاول القسم الاول : ٢٧٩ ويقول ابن خلكان : « وكانت بينه وبين أبى عبد الله محمد بن أبى سعيد بن أحمد المعروف بابن شرف القيروانى وقائع وما جريات يطول شرحها » وفيات الاعيان ١ : ٣٦٨ .

(٦٧) المكتبة الصقلية : ٦٥١ نقلا عن مسالك الابصار ج ١٧ ويقول حسن حسنى « وقع بينهما بالقيروان ماوقع بين جرير والفرزدق أو بين الخوارزمى وبديع الزمان » مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٤ وانظر رسائل البلغاء ٣٠٥ .

(٦٨) الوافى بالوفيات ٣ : ٩٨ والغيث المسجم ٢ : ٢٥٥ وفوات الوفيات ٢ : ٤١٠ .

بل انهم كثيرا ماكانوا يهجون أنفسهم ، ويتندرون عليها حين لا يجدون من يهجونه ويتندرون عليه ، فقد اجتمع ابن رشيق يوما مع بعض أصحابه وكان فيهم ابن شرف وكان أعورا ، والطوسى وكان أعمى وكان ابن رشيق أحولا ، فقال في صاحبيه وفي نفسه :

لابد في العور من تيه ومن صلف
لانهم يبصرون الناس أنصافا
وكل أحول يلفى ذا مكارمة
لانهم ينظرون الناس أضعافا
والعمى أولى بحال العور لو عرفوا
على القياس ولكن حاف من حافا(٦٩)

ولم يزل ابن شرف ملازما لخدمة المعز بن باديس مقدما عنده أثيرا لديه ، ولم تزل المناقضات والمساجلات والمناظرات متصلة بينه وبين ابن رشيق ، ولم يزل الهجاء والتندر قائما بينهما ، وهكذا مضت الحياة بهما وبغيرهما من الشعراء الذين ضمهم بلاط المعز بن باديس الى أن هاجم أعراب الصعيد القيروان ، فاضطر المعز الى الخروج منها ومغادرتها الى المهدية سنة ٤٤٩ هـ ولحق به من شعراء بلاطه وكتاب ديوانه ، ومن بين من لحق به ، واتصل بخدمته بالمهدية ابن شرف وابن رشيق يقول ياقوت : « ولم يزل ابن شرف ملازما لخدمة المعز الى ان هاجم عرب الصعيد القيروان ، واضطر المعز الى الخروج منها الى المهدية سنة سبع وربعين وأربعمائة ، فخرج ابن شرف وسائر الشعراء معه اليها ، واستقروا بها »(٧٠) ولكن المعز في المهدية كان مهموما محزونا ضيق الصدر منقبض النفس ، فقد سقطت القيروان حاضرة ملكه وقصبة افريقية في ايدى الاعراب الذين عاثوا فى الارض فسادا ، وانتقصوا مملكته من أطرافها ، وأشاعوا فى جنباتها الخراب والدمار ، فلم يعد يعقد المجالس الادبية ، ويدعو اليها الشعراء ، ويقترح عليهم الاغراض التى تخطر بباله ، وانما هو منقبض النفس ، ضيق الصدر ، متبرم بكل شيء ، فاذا حدث وعقد مجلسا من تلك المجالس التى كان كثيرا ما يعقدها بالقيروان ، ودعا اليه الشعراء لا يلبث أن يضيق ذرعا به وبمن فيه من الشعراء ، كما فعل حين مزق الرقعة التى فيها قصيدة ابن رشيق ، ولم يكتف بتمزيقها ، حتى قدمها طعمة للنيران . يقول العمرى فى مسالك الابصار نقلا عن ابن بسام : « ولما طلع نجوم النحوس بسماء المعز بن باديس خرج الى المهدية بسماء كاسفة الاقمار ، وذماء اقصر من طى الخمار ، وكان ابو على ممن انحشر فى زمرته المحروبة ، وتحيز الى فئته المنكوبة اقام معه ، وغشى المهدية فما بعد اسطول الروم ، فأصبح البحر ثنايا تطلع المنايا ، وأكاما تحمل موتا زؤاما ، فدخل على المعز حين وضح الفجر ، فوجده فى مصلاه ، والرقاع عليه ترد ، والشموع بين يديه تتقد فقام ينشده قصيدته التى أولها :

تثبت لا يخامرك اضطراب
فقد خضعت لعزتك الرقاب

فقال له : مه ، متي عهدتنى لا أتثبت ، اذا لم تجئنا الا بمثل هذا فمالك لا تسكت عنا ؟ ثم أمر بالرقعة التى كانت فيها القصيدة فمزقت ، ولم يقنعه حتى أدناها الى الشمع فأحرقت»(٧١) .

---

(٦٩) القيث المسجم ٢ : ٢٥٥ وديوان ابن رشيق :١١٦ ـ ١١٧ .

(٧٠) معجم الادباء ١٩ : ٣٧ .

(٧١) المكتبة الصقلية : ٦٥. نقلا عن مسالك الابصار المجلد السابع عشر .

ويضيق ابـن شرف بالمقـام في المهـدية ، وينبو بها منزله ، ولا يطيب له العيش بها بعد أن لقى من المعز انقباضا عن كل شيء ، وضيقا بالشـعر ، وانصرافا عنه ، وعزوفا عن الادب، وازورارا عن الشعراء ، ونفورا منهم ، وعزوفا عنهم ، وعدم ارتياح لهم ، وانحرافـا عمـن لحق به من الادباء ، وجفـاء لهم ، فلم يلبث بالمهدية الا قليلا حتى ركب ثبج البحـر ، وولى وجهه شطر صقلية وافداً على اميرهـا القائد أبى محمد الحسن بن عمر بن مطكود ، وكأنما ترامى الى سـمعه ، ونمى الى علمه ان الشعراء يصيبون حظوة كبيرة في بلاط هـذا الامـير ، وانه يقدمهم ويؤثرهم ، ويحبوهم ، ويجزل لهم العطاء ، ويقول ياقوت : (فأقام ابن شرف مدة بالمهدية ملازما خدمة المعز بن باديس وابنه تميم ، ثم خرج منها قاصدا صقلية ، ولحق به رفيقه ابن رشيق فاجتمعا بها ، ومكثا بها مـدة »(٧٢) وقد أشار العمرى الى أن ابن شرف سبق ابن رشيق الى صقلية حيث يقول بعد أن أورد خبر ابن رشيق مع المعز ، وتمزيق المعز للرقعـة التى كانت بهـا قصيدته التى لم يرقه مطلعها ، ولم يعجبـه ابتداؤها واستهلالها واحراقها ، والجفـوة التى وقعت بينهما نتيجة لذلك : « فخرج ابن رشيق يومئذ من عنده على غير طريق ، وكانت وجهته الى صقلية ، وكان ابن شرف قد سبقه اليها وقد قتله عليها »(٧٣) ويقول حسـن حسنى : « واقام ابن شرف مدة بالمهـدية مع زمرة شـعراء الملك يخدم الامير المعز وابنـه تميما الى أن رحل عنها قاصدا جزيرة صقلية لمـا سمع من كرم أميرها »(٧٤) .

وكأني بابن شرف وقد وصل الى صقلية ، واطمأن مقامه بها تذكر عهدا سـلف ، واياما مضت مع ابن رشـيق فى ربـوع القـيروان والمهدية ، وفى بلاط المعـز بن باديس ، فيبعث اليه وهو بالمهـدية بقصـيدة يتشوقه فيهـا ويجيبه ابن رشـيق بقصيدة أخرى على مـا يروى لنا القفطى حيث يقول : « فمن شـعر ابن شرف قصيدة كتب بها الى ابن رشـيق وهو بالمهدية يتشوقه ، أولها :

عدمناك من بعد وان زدتنا قربا
على أن فيمـا بيننا سبسبا سهبا

وكتب اليه ابن رشيق جوابا عنها قصيدته التى أولهـا :

عتابا عسى أن الزمان لـه عتبى
وشكوى فكم شكوى الانت له قلبا(٧٥)

ويركب ابن رشيق ثبج البحر الى صقلية فى اثر صاحبه ابن شرف ، وينزل بمازر احدى مدنها على اميرهاابن مطكود ، فيؤثره ،ويقربه، ويسلكه فى عداد خاصته ، ويصيب عنـده حظوة كبيرة ، حتى انه قرأ عليه كتبه ، ومن بين ما قراه عليه من كتبه العمدة ، وعـاش فى كنفه ، ولم يزل عنده حتى أدركته الوفـاة يقول القفطى « ونزل مازر احـدى مدنها على اميرها ومتوليها ابن مطكود ، فأكرمه واختصه، وقرأ عليه كتبه ، ومن جملة ما رأيتـه من قراءته عليه كتاب العمدة فى صـنعه الشعر ، وهو اجل كتبه واكبرها ، ورايت خط ابن رشـيق على نسخة منها ، ولم يزل عنده الى ان مات بمازر» (٧٦) بيد أن الاسـتاذ أحمد امين ذهب الى انهما فرا عند غزو الهلاليين

---

(٧٢) معجم الادباء ١٩ : ٣٨ .

(٧٣) المكتبة الصقلية : ٦٥٠ ــ ٦٥١ نقلا عن مسالك الابصار المجلد السابع عشر .

(٧٤) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥٤ وانظر رسائل البلغاء : ٣٠٥ .

(٧٥) انباه الرواة ٣ : ٣٠١ .

(٧٦) انباه الرواة ١ : ٣٠٣ .

مدينة القيروان ، وان ابن رشيق قصد الى صقلية ، بينما ولى ابن شرف وجهه شطر الاندلس ، (٧٧) ولم يشر الى أنهما خرجا مع المعز بن باديس بعد خراب القيروان الى المهدية ، وأقاما بها معه مدة ، ثم ذهب ابن شرف الى صقلية ، ولحق به رفيقه ابن رشيق ، ثم شخص ابن شرف وحده الى الاندلس تاركا صاحبه بصقلية ، وأن ابن رشيق قد رام بعد ذلك الشخوص الىالاندلس فلم تطاوعه نفسه على ركوب البحر ، فأقام بمازر حتى أدركته منيته بها .

ويبدو أن ابن رشيق أصاب حظوة كبيرة عند ابن مطكود أمير مازر ، وكان أقرب الى نفسه وآثر عنده من ابن شرف ، وليس فى هذا غرابة ، فقد كان لابن رشيق أثر بعيد في النهضة الادبية بصقلية فقد ذاعت شهرته بها ، وترامت اليها أخباره الادبية ، وطنت أشعاره في جنباتها ، وتداول أهل صقلية أخباره ، وتلقفواأشعاره ورووها وتدارسوها، حتى غدا مطمح أنظار بعضالصقليين ،وامامهم الذى يتأسون به فى اتجاههم الادبى ، كما كان له أصدقاء كثيرون معجبون به بهذه الجزيرة، وقد اتصلت أسباب الصداقة بينه وبينهم ، وكانوا على اتصال دائم به ، ويدل على ذلك اننا نجد واحدا منهم وهو أبو عبدالله **الصفار** يصرح بذلك حيث يقول : « كنت ساكنا صقلية ، وأشعار ابن رشيق ترد على ، فكنت اتمنى لقاءه ، حتى قدم الروم علينا ، فخرجت فارا بمهجتى ، تاركا لكل ماملكت يدى(٧٨)

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نراه قد أثر فى النهضة الادبية بجزيرة صقلية ، فبعد ان رحل اليها ، وألقى بها عصا التسيار ، واطمأن مقامه بها أخذ يدرس كتابه العمدة ، والتفت حوله طائفة من أهل الادب ، وأقبلوا عليه يأخذون عنه ويتلقون عليه ، وغير بعيد ماسبق ان ذكرناه من أن ابن مطكود امير مازر نفسه قرأ على ابن رشيق كتابه العمدة ، وقد كلف أهل صقلية بكتاب العمدة ، وشغفوا به، واقبلوا عليه يتدارسونه ، وممن كلف كلف به من أهل صقلية ببو عمر عثمان بن على بن عمر الصقلى ، فقد قرأه ، وأعجب به ، واختصره، يقول حاجى خليفة : « واختصره الصقلى وسماه العدة » (٧٩) .

وهكذا يتبين لنا من خبر أبى عبدالله الصفار مع ابن رشيق أن أشعار ابن رشيق قد سبقته الى صقلية ، وذاعت بها ، وأنه كان باتجاهه الادبى والنقدى موضع الاعجاب والتقدير من ادبائها ، بالغ التأثير فيهم ، حتى اننا نرى ابن حمديس الصقلى مع انه ابعد حظا منه فى الشاعرية يتناول شعره بالمعارضة .

ويبدو ان خاصة ابن مطكود وجلساءه كان يحلو لهم ان تقوم المناظرات بين ابن رشيق وابنشرف ،وأن تتصل المساجلاتوالمناقضات بينهما ، كما كانت فى القيروان ، فقد ترامت اليهم أخبارهما الادبية ، وسمعوا بما كان بينهما من مناقضات ومساجلات ، ووصلت اليهم أخبار ابن رشيق وأشعار وعبرت البحر

---

(٧٧) ظهر الاسلام ١ : ٣٠٨ .

(٧٨) بدائع البدائه على هامش معاهد التنصيص ٢ : ٣٦وورد الخبر مع بعض تصرف فى مسالك الابصار المجلد السابع عشر وانظر المكتبة الصقلية : ٦٥١ وما بعدها وفى الخريدةقسم شعراء المغرب : ٨٣ ـ ٨٤ فى فصل بعنوان « جماعة من شعراء جزيرة صقلية عند الحديث عن أبى عبد الله محمدبن على الصباغ الكاتب : (وكان فى عهد ابن رشيق ، وبينهما مراسلات » ..... وكتب اليهأبو على بن رشيق عند وصولهمن القيروان الى مازو فى أول رسالة ..) ثم يورد ثلاثة أبيات من الشعر أجابه عليها ابن الصباغ بثلاثة آبيات أخرى .

(٧٩) كشف الظنون ٢ : ١٦٩ وانظر المكتبة الصقلية : ٧٠٤ويقول القفطى فى ترجمته لعثمان بن على : « ومن مصنفاته مختصر عمدة ابن رشيق وشاهدت هذا المختصر بحلب بخطهعند ابن القيسرانى ، وقد زاد فيه أبوابا أخل بها ابن رشيق وهى واقعة موقعها من التصنيف » ، انباه الرواة ٢ : ٣٤٣.

الى صقلية قبل ان يعبرها هو اليها ، وكأنما طاب لهم أن تقوم تلك المناقضات والمساجلات والمناظرت بينهما فى ربوع صقلية ، كما قامت بينهما من قبل فى ربوع القيروان ، وان يعيداها سيرتها الاولى حتى ينشط الشاعران ، وتروج سوق الأدب ، ويلهو الناس ، ويسمعون بما يصدر عنهما . يقول العمرى : « وكان قد وقع بينهما بالقيروان ماوقع بين الخوارزمى وبديع الزمان ، فلما اجتمعا يومئذ بصقلية تنمر بعضهما لبعض ، وتشوق اعلام البلد لما كان بينهما من ابرام ونقض » (٨٠) وكان اهل صقلية سعوا بين الشاعرين وحرشوا بينهما ، واغروا احدهما بالآخر ، الا انه يبدو انه كان بصقلية من أهل القيروان من يخشى مغبة الخصومة بين الشاعرين ، ويدرك سوء عاقبتها ، لو دبت عقارب السعاية بين الشاعرية ، واذكى القوم نار العداء بينهما ، فأخذ نفسه باصلاح ذات بينهما ، حتى لايصبحا فى دار غربتهما موضعا لتندر اهل صقلية وسخريتهم يقول العمرى : « فقصد ابن رشيق بعض اخوانه ، وقال له : أنتما على الاحسان وشيخا اهل القيروان ، وقد أصبحتما بحال جلاء وبين الأعداء ، والأشبه بكما الا تفريا اديمكما ، ولا تطعما الأعداء لحومكما ، فقال له : ايت ابن شرف ، فوجده أجنح للسلم ، وأدنى الى الحلم ، برىء اليه من صببه وصعده ، واعطاه بذلك صفقتى لسانه ويده » (٨١) بيد ان ابن رشيق كان يتحرش أحيانا بابن شرف ، وينال منه ، ويتعرض له ، ويسعى به ، ولعله كان يفعل ذلك مدفوعا بمكانته من ابن مطكود أمير مازر ، وبمنزلته الرفيعة التى احتلها من نفوس اهل جزيرة صقلية ، ودالته عليهم ، فكان كما يقول العمرى : « ربما اعترض وتعرض . وتحلب وتلمظ ، واما ابن شرف فلم يحل ماعقد ، ولا حال ماعهد » (٨٢) .

ويطيب لابن شرف المقام بجزيرة صقلية . فقد هادنه ابن رشيق ، وامتدت الهدنة فيما بينهما واتصلت ، واصلح من بالجزيرة من أهل القيروان ذات بينهما ، واستقامت الامور بينهما ، حتى عادا الى الصفاء والاخاء والسماح . يقول حسن حسنى : « فلما اجتمعا بصقلية تسامحا » (٨٣) ثم تهيأت الظروف لابن شرف ، واتيحت له الفرصة ، فركب ثبج البحر ، وعبر الى عدوة الاندلس وولى وجهه شطر ملوك الطوائف ، وتردد عليهم ، وانتهى به المطاف عند المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة يقول ابن بسام : « فتردد على ملوك الطوائف بالاندلس بعد مقارعة اهوال ومباشرة خطوب طوال ... واستقر أخيرا عند المأمون بن ذى النون ، فعليه خلع آخر لبوسه ، ونثر بقية كيسه » (٨٤) ويقول الدباغ : « وقدم الاندلس ، وسكن المرية وغيرها وتردد على ملوك الطوائف » (٨٥) حتى سكله ابن شاكر فى عداد فحول شعراء الاندلس والغرب ، فقد استهل ترجمته بقوله : « محمد بن سعيد بن احمد بن شرف القيروانى الجذامى احد فحول شعراء الاندلس والغرب » (٨٦) ويعده الصفدى احد شعراء الغرب (٨٧) .

---

(٨٠) المكتبة الصقلية : ٦٥١ نقلا من مسالك الابصار المجلد السابع عشر .

(٨١) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٨٢) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٨٣) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ ورسائل البلغاء : ٣٠٥ .

(٨٤) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٣٣ .

(٨٥) معالم الايمان ٣ : ٢٣٩ .

(٨٦) فوات الوفيات ٢ : ٤١٠ .

(٨٧) الوافى بالوفيات ٣ : ٩٧ .

ويؤكد ماذهبنا اليه ـ من أن المهادنة التي تمت في جزيرة صقلية بين ابن رشيق وابن شرف قد أمتدت واتصلت ، وان الأمور بينهما قد استقامت وصلحت ـ مانقرأ في كتب التراجم من أن ابن شرف حين عقد النية على مغادرة صقلية ، وازمع الرحلة الى الاندلس استنهض صاحبه ابن رشيق فى أن يجتمعا بالطريق ، وان يجوزا معا الى الاندلس ، ويبدو أن ابن رشيق تباطأ عنه ، ولم ينهض معه ، بل تردد واعتذر عن عدم النهوض ، فمضى ابن شرف وحده ، يقول ياقوت : « ثم استنهضه ابن شرف على دخول الاندلس ، فتردد ابن رشيق ، وانشد » :

ممـا يزهدنـي فى أرض أندلـس ... أسمـاء مقتـدر فيهـا ومعتضـد

ألقاب مملكة فى غـير موضعهـا ... كالهر يحكـى انتفاخـا صولـة الأسـد

فأجابه ابن شرف على الفور :

ان ترمـك الغربـة فـى معشـر ... قـد جبـل الطبـع علـى بغضـهم

فدارهـم مادمـت فـى دارهـم ... وأرضهـم مادمت فى أرضهـم (٨٨)

ثم شخص ابن شرف منفردا الى الاندلس ، وتنقل فى بلادها ، وسكن المرية بعد مقارعة اهوال ومقاومة خطوب ، وتردد علـى ملوك الطوائف كآل عباد وغيرهم ، وتوفى باشبيلية سنة ستين واربعمائة كما يقول ياقوت ، وقد سبق أن ذكرنا أنه يخالجنا الشك ، ولا يمكننا ان نطمئن الى أنه توفي باشبيلية ، وانه اتصلت اسبابه بأسباب المعتضد ، وعاش فى كنفه الى أن ادركته منيته . وقد سبق أن بسطنا القول فى هذه المسألة ، وانتهينا الى ترجيح أنه توفى بطليطلة فى كنف ابن ذى النون لأننا نجد ابن بسـام يقول : « فتردد علـى ملوك الطوائف بالاندلس بعد مقارعة أهوال ومباشرة خطوب طوال ... واستقر أخيرا عند المأمون بن ذى النون فعليه خلـع آخر لبوسـه ونثر بقيـة كيسـه » (٨٩) .

آثاره ومصنفاته :

خلف لنا ابن شرف مؤلفات كثيرة سقطت من يـد الزمن ، ولـم يصل الينا منها الا القليل ويشيد ابن بسام بمؤلفاته وينوه بهـا حيث يقول : « ولأبى عبد الله عدة تواليف أفاضها بحارا ,واطلعها شموسا واقمارا » ويقول حسن حسنى : « أما تآليف ابن شرف فكثيرة على مانقله الينا المؤرخون » ومن هذه المؤلفات .

أبكار الافكار :

ويشتمل هذا الكتاب على مختارات مما انتجه ابن شرف من شعر ونثر يقول فيه ياقوت « ابكار الافكار جمع فيه ما اختاره من شعره ونثره » (٩٠) ويقول الصفدى : « وهو كتاب حسن فى الادب يشتمل على نظم ونثر من كلامه» (٩١) ويقول ابن دحية : «ولابن شرف مصنفات عديدة واوضاع مفيدة منها » أبكار الافكار » فى سفرين ، وهـو اختراع كلـه فى الحكـم والأمثال والنظم والنثر » (٩٢) ويقول حاجي خليفة: «ابكار الأفكار لمحمد بن سعيد الجذامى

---

(٨٨) معجم الادباء ١٩ : ٣٨ .

(٨٩) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٣٣

(٩٠) معجم الادباء ١٩ : ٤٣

(٩١) الوافى بالوفيات ٣ : ٩٧ وانظـر فوات الوفيات ٢ : ٤١

(٩٢) المطـرب : ٦٦

القيرواني .. جمع فيه من نظمه ونثره » (٩٣) ويقول البغدادى : « له أبكار الأفكار نظما ونثرا » (٩٤) ويقول حسن حسنى : « اما تآليف ابن شرف فكثيرة على مانقلـه الينا المؤرخون فمنها كتاب » أبكار الأفكار « جمع فيه ما اختاره من نظمة ونثره ، وهو انفس مصنفاته ، مفقود وقد يوجد شيء منه في كتب الأدب » (٩٥) ويحدثنا ابن شرف نفسه عن كتابه هذا ، فيذكر أنه اشتمل على مائة نوع من مواعظ وامثال وحكايات قصار وطوال حيث يقول : « وقد كنت حاولت منه مالم اسبق اليه ، ولم اجعل سوى ناظرى معينى عليه ، فصنعت الكتاب الملقب » أبكار الافكار « يشتمل على مائة نوع من مواعظ وامثال وحكايات قصار وطوال » (٩٦) ثم يشير الى انه من اختراعه ، ومما انتجته قريحته ، وانه اشتمل على الجد والهزل فيعقب ذلك بقوله : « مما عزوتها الى من لم يحكها ، واضفت نسجها الى من لم يحكها ، قد طرزت بلمح الجد والهزل ، وحسنت بمقابلة الضد للمثل ، وليس فى ذلك كله رواية رويتها عن قديم ولا جديد ، ولا حديث بها عن قريب ولا بعيد ... » (٩٧) .

وقد اهدى ابن شرف هذا الكتاب الى المعتضد ، وبعث به اليه . يقول ابن بسام : « وطرز تأليفه (أبكار الأفكار) باسم عباد ، وبعث به اليه على البعاد ، وقد كان وسمه قبل باسم باديس بن حبوس » وهذا الكتاب مفقود يكون كل ما وصل الينا منه هو مانقله ابن ظافر فى كتابه « بدائع البدائه » (٩٨) .

أعلام الكلام :

وقد حدثنا ياقوت عن هذا الكتاب وموضوعه ، حيث يقول وهو بسبيل تعداد مؤلفات ابن شرف : « وأعلام الكلام مجموع فيه فوائد ولطائف وملح منتخبة » (٩٩) ثم يشير عقب ذلك مباشرة الى ان لابن شرف كتابا آخر بعنوان « رسالة الانتقاد » ويحدثنا عنه بقوله : « ورسالة الانتقاد وهى على طراز مقامة نقد فيها شعر طائفة من شعراء الجاهليين والاسلام » (١٠٠) فهل هما كتابان مختلفان أو انهما اسمان لكتاب واحد ، ونحن نرجح أن رسالة اعلام الكلام هى رسالة الانتقاد ، وأنهما اسمان لكتاب واحد .

وقد نشر هذا الكتاب حسن حسنى فى مجلة المقتبس تحت عنوان « رسائل الانتقاد » على نسخة فى خزانته واخرى في خزانة الاسكوريال برقم ٥٣٦ (١٠١) من القسم العربى ، كما نشر ضمن « رسائل البلغاء » كما نشره الخانجى مستقلا سنة ١٩٢٦ م وصدره بمقدمة جاء فيها : « كتاب اعلام الكلام الذى ننشره اليوم بين يدى القارىء الكريم وقد سبق لأحد الافاضل التونسيين ، وهو حسن افندى عبد الوهاب

---

(٩٣) كشف الظنون ١ ٤٦

(٩٤) هدية العارفين ٢ : ٧٢

(٩٥) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ وانظر رسائل البلغاء : ٣٠٥

(٩٦) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٤٠

(٩٧) المصدر السابق : ١٤٠ — ١٤١

(٩٨) بدائع البداية : ١٢٦ — ١٢٨

(٩٩) معجم الادباء ١٩ : ٤٣

(١٠٠) نفس المصدر السابق والصفحة

(١٠١) انظر حديثه عن النسخ التى اعتمدها فى « رسائل الانتقاد » مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٠

أن نشره في مجلة المقتبس تحت اسم « رسائل الانتقاد « وقد خيل لحضرته أن رسائل الانتقاد هذه غير أعلام الكلام ، كما أشار بذلك في مقدمته » (١٠٢) ويحدثنا الدكتور ياغى عن رسالة اعلام الكلام وانها هى بعينها « رسائل الانتقاد » كما أنها تسمى أيضا « مقامة عن الشعراء » فيقول : « أعلام الكلام نشرها الخانجي وهى هى رسائل الانتقاد » ، كما هى في الاسكوريال برقم ٥٣٦ وعليها اسم » مقامة عن الشعراء« وقد صورتها لى الجامعة العربية، وبينها وبين نسخة الخانجي بعض الاختلافات القليلة » (١٠٣) وهكذا نرى ان « أعلام الكلام » و « رسالة الانتقاد » و « مقامة عن الشعراء » كلها أسماء اطلقت على كتاب واحد ومسمى واحد .

وتكاد هذه الرسالة تكون هى الأثر الوحيد الذى وصل الينا من مصنفات ابن شرف وآثاره التى امتدت اليها يد الضياع ، وقد كتبها بأسلوب السجع المعروف فى المقامات ، واثقلها بالمحسنات البديعية ، واتخذ لها شخصا خاليا دعاه (أبا الريان الصلت بن السكن) وتحدث على لسان هذا الشخص الخيالى أو البطل عن مشاهير الشعراء القدامى والمحدثين فوصف كل واحد باختصار ، وعرض لمزاياه وعيوبه فى ايجاز ، وأغفل المغمورين منهم والمجاهيل ولم يشر أليهم ، ويقول ياقوت : « وهى على طراز مقامة نقد فيها شعر طائفة من شعراء الجاهلية والاسلام » (١٠٤) ويحدثنا عنها ابن بسام بقوله : » ولابن شرف مقامات عارض بها البديع فى بابه وصب فيها على قالبه ، منها مقامة فيها بعض طول لكنه غير مملول ، آخذة بطرف مستطرف من اخبار الأدباء وذكر الشعر والشعراء » (١٠٥) ويقول أحمد أمين : « كما وضع ابن شرف كتابه (أعلام الكلام) وموضوعه مقامة طويلة كمقامات الحريرى ، تعرض بطلها لمشهورى الشعراء من المتقدمين والمحدثين يصفه في قول قصير ، ويبين مزاياه وعيوبه فى ايجاز » (١٠٦) ويقول حسن حسنى : « وهى من أجمل ما وضع الواضعون فى هذا الفن الجليل الذى كاد ان يكون مفقودا فى التصانيف العربية » (١٠٧) كما ذهب في مقدمته لها الى انه يبدو أن ابن شرف كان يهدف من ورائها الى معارضة كتاب « العمدة » لابن رشيق وانها ربما كانت اطول مما وجده وحققه ونشره، وقد استند فى رايه هذا الى ما جاء فى سياق كلام ابن شرف فى مقدمته للمجلس الاول يقول حسن حسنى : « ويلوح لى أن مؤلفنا قصد بتدوين هذه الرسائل معارضة كتاب «العمدة» .... الا أن الرسائل المعارض بها كانت أطول واكثر مما وجدناه واوردناه هنا يؤيد ذلك ماجاء فى سياق كلام ابن شرف في مقدمته للمجلس الاول حيث يقول : « فأقمت من هذا النحو عشرين حديثا » فالمظنون انه يقصد بالحديث مجالسه مع الاستاذ الموهوم الذى سماه « ابا الريان » كما اختلق الحريرى فى مقاماته شخص

---

(١٠٢) انظر مقدمة رسالة أعلام الكلام ، وممن ذهب من المحدثين الى أن رسالة « اعلام الكلام» كتاب آخر غير « رسائل الانتقاد »» حسن حسنى حيث يقول وهو بصدد عرض مؤلفات ابن شرف : «ومنها كتاب « أعلام الكلام » به نخب وملح مفقود أيضا ، ثم رسائل الانتقاد ، والمظنون انه الفها بعد هجرته القطر التونسى كما يستفاد من سياق كلامه في مقدمتها « مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ ـ ٣٥٥ وانظر رسائل البلغاء : ٣٠٦

(١٠٣) حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها : ٢٠٥

(١٠٤) معجم الادباء ١٩ : ٤٣

(١٠٥) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٥٤

(١٠٦) ظهر الاسلام : ١ : ٨ : ٣٠٨

(١٠٧) بساط العقيق : ٥١

الحارث بن همام واخترع الهمذاني عيسى بن هشام ، فعسى أن يساعدني الحظ بالعثور على بقية هـذا التأليف النفيس ان كان في عالـم الموجودات » (١٠٨) .

هذه هي رسالة أعلام الكلام واقوال العلماء القدامى والمحدثين فيها وفي موضوعها ويجدر بنا قبل أن نتحدث عنها أن نقارن بينها وبين « كتاب العمدة » و رسالة قراضة الذهب » لابن رشـيق .

واذا قارنا بين رسالة ((أعلام الكلام)) لابن شرف ، والعمدة ورسالة قراضة الذهب لابن رشيق وجـدنا تشـابها بينهما في كثير مـن الموضوعات ، فابن شرف مثلا يقول عـن ابن الرومي : « وأما ابن الرومي فشجرة الاختراع وثمرة الابتداع ، وله في الهجاء ماليس له في الاطـراء فتـح فيـه أبوابا ، ووصـل منـه اسبابا، وخلع منه أثوابا وطوقبه رقابا»(١٠٩) ويقول ابن رشيق « وكان ابن الرومي ضنينا بالمعاني ، حريصا عليها ، يأخذ المعنى الواحـد ويولده ، فلا يزال يقلبه ظهرا لبطن ، ويصرفه في كل وجه الى كل ناحيـة ، حتى يميتـه ، ويعلم أنه لا مطمع فيه لاحد »(١١٠) ونـرى ابن شرف في الرسالة يحدثنا عن الشـعراء القدامى والمحدثين ويحمل على اتجاه الرواة وعلماء اللغة ومقاييسهم في تقسيمهم للشعراء الى طبقات ، وتفضيلهم القديم لمجد قدمـه وسـبق الزمن بصاحبه حيث يقول :«وتحفظ من شيئين : احدهما أن يحملك اجلالك القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تسمع له ، والثاني : ان يحملك اصغارك المعاصر المشهور على التهاون بما أنشـدت له ، فان ذلك جور في الاحكام وظـلم من الحكام ، حتى تمحص قوليهما ، فحينئذ تحكم لهما أو عليهما»(١١١) ثم يقول : « وقد وصـف تعـالى في كتـابه الصادق تشبث القلوب بسيرة القديم ،ونفارها عن المحـدث الجديد ، فقال حاكيـا لقولهم « انا وجدنا آباءنا على أمة « وقال تعـالى » لن نعبد الا ما وجدنا عليه آباءنا ...) فـلا يرعك ان تجرى الحق في جميع الخلق ، فيه قامت السـماوات والارض ، وبه أحكم الابرام والنقض ، وسـأمثل لك في هذا أمثالا ، وأملا اسـماعك مقالا ، وفهمك عدلا واعتدالا ، هذا امرؤ القيس أقدم الشعراء عصرا ، ومقدمهم شعرا وذكرا ، وقـو اتسعت الاقـوال في فضله اتساعا لم يفز غيره بمثله، حتى ان العامة تظن بل توقن ان جـواد شـعره لا يكبـوا ، وان حسـام نظمه لا ينبو وهيهات من البشر الكمال، ومن الآدميين الاستواء والاعتدال»(١١٢) ثم يمضي يعدد على بعض الشعراء القـدامى كثيرا من السقطات والهنات ، وينعى عليهم ما وقعوا فيه من أخطاء وعيوب ويجرحهم ، ويشهر بهم بادئا بامرىء القيس أقدم الشعراء عصرا ، ومقدمهم ذكرا وشـعرا ويرى أنـه كسائر الشـعراء لا يخلو من العيوب ولايسلم من الهنات والمآخـذ ، ثم يعرض لطائفـة من عيوبه وسفسـاف شعره وساقطه .

واذا كان ابن شرف يحدثنا عن القـدامى والمحدثين كما رأينا في النص السابق ايراده من هذه الرسالة الذي حمل فيـه على مقاييس الرواة وعلماء اللغة في تفضيلهم القديم لمجرد قدمه وسبق الزمن بصاحبه ، فاننا نجد ابن

---

(١٠٨) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥١

(١١٠) العمدة ٢ : ٢٢٦ ــ ٢٢٧

(١٠٩) أعلام الكلام : ٢٤

(١١١) أعلام الكلام : ٢٨

(١١٢) أعلام الكلام : ٢٨

رشيق يعقد لهم بابا مستقلا وقائما بذاته في كتابه العمدة بعنوان « القدماء والمحدثين » .

وإذا كان ابن شرف يحدثنا في رسالته عن امرىء القيس، ويذكر أنه « مؤسس الاساس، وبنيانه عليه الناس ، كانوا يقولون : أسيلة الخد ، حتى قال امروء القيس : أسيلة مجرى الدمع ، وكانوا يقولون : تامة القامة وطويلة القامة وأشباه هذا وجيداء ، وتامة العنق ، حتى قال امروء القيس : « بعيدة مهوى القرط » وكانوا يقولون في الفرس السابق يلحق الغزال ، ويسبق الظلام ، أو الظليم ، وأمثال هذا ، حتى قال : بمنجرد قيد الأوابد هيكل « ومثل هذا له كثير »(١١٣) فاننا نرى ابن رشيق يحدثنا في رسالته « قراضة الذهب » عن امرىء القيس بقوله: «وانا اقتصر من جميع الشعراء في أكثر ما أورده على امرىء القيس ، لانه المقدم لا محالة ، وان وقع في ذلك بعض الخلاف فالمميز الحاذق بطرق البلاغة يجد لكلامه من الفضيلة في نفسه ما لا يجده لغيره من كلام الشعراء ، والبحث والتفتيش يزيدانه جلالة ، ويوجبان له على ما سواه مزية ، ويشهد الطبع وذوق الفطرة شهادة بينة واضحة لا تدركها شبهة إذا قصد الانسان العدل ، وترك التعصب وأول ما أبدأ من ذلك ما كان من جهة الاستعارة كقوله : « بمنجرد قيد الاوابد هيكل » فانه أول من قيدها ، وسبق الى الاستعارة البديعة فاتبعه الناس »(١١٤) فهل لنا بعد هذه المقارنة بين أعلام الكلام لابن شرف ، وقراضة الذهب والعمدة لابن رشيق التي أوردنا أطرافا منها أن نقول : ان أحدهما تأثر بصاحبه ، وتأسى به ، أو نقول : ان اتفاقهما وتشابههما هو مجرد توارد خواطر كالذي رأينا في الاشعار التي حملهما عليها المعز بن باديس ، ودفعهما اليها دفعا مثل أشعارهما في صفة الموز أو في وصف شعر السوق .

وقد بدا لي بعد كل هذا أن أستنتج أن ابن رشيق أخذ من ابن شرف ، وأميل الى أنه تأسى به ، وأرجح أنه تأثر به خاصة اننا نجد ابن شرف يستهل رسالته،ويفتحها بقوله : « هذه أحاديث صفتها مختلفة الانواع، مؤتلفة في الاسماع ، عربيات المواشم غريبات التراجم ، وعزوتها الى ابي الريان الصلت بن السكن من سلامان ، وكان شيخا هما في اللسان ، وبدرا تما في البيان ، قد بقى أحقابا ، ولقى أعقابا ، ثم ألقته الينا من باديته الازمات وأوردته علينا العزمات فامتحنا من علمه بحرا جاريا ، من فهمه زندا واريا ، وأدرنا من بره طرفا ، واجتنينا من ثمره طرفا ، ونحن اذ ذاك والشباب مقتبل ، وغفلة الزمان تهتبل(١١٥) ...» فابن شرف يصرح في هذا النص انه كتب هذه الرسالة في مقتبل الشباب وصدره ، وإذا عرفنا أن ابن شرف ولد في سنة ٣٩٠ هـ كان لنا أن نزعم أنه ألفها بين سنتي ٤١٠هـ و ٤٢٠هـ أي في العقد الثالث من عمره في مقتبل الشباب وشرخه وصدره ، فاذا أضفنا الى ذلك أنه يمكننا أن نقول : ان ابن رشيق ألف كتابه « العمدة » في الفترة ما بين سنتي ٤١٢هـ و ٤٢٥ هـ لاننا نجده يورد خبر هجاء دعبل بن علي الخزاعي للمعتصم وهروبه من وجهه ، فارا بمهجته

---

(١١٣) أعلام الكلام : ١١٦

(١١٤) قراضة الذهب تحقيق الشاذلي بو يحيى ط تونس سنة ١٩٧٢ م ص ٢٠ ـ ٢١ .

(١١٥) أعلام الكلام : ١٣

(١١٦) العمدة ١ : ٥٧

منـه ، بعد أن طلبه المعتصم ونـذر دمه ، وابعاده في الهرب حتى أدركته منينه ، وحم قضاؤه بالمغرب بزويلة بنى الخطاب حيث دفن الى جوار قبر عبدالله ابن شيخه القزاز حيث يقول : « والى جانبه قبر عبد الله بن شيخنا أبى عبد الله محمد بن جعفر النحوى رحمـه الله » (١١٦) فهو يذكر قبر ابن شيخه القزاز، ويقرن اسم شيخه بقوله : « رحمه الله » فاذا ذهبنا الى أن الدعاء بالرحمة انما هو لشيخه القزاز وانه كان قـد توفى اثناء كتابة تلميذة ابن رشـيق قصة دعبل وخبره مع المعتصم امكننا ان نقول : أن ابن رشيق ابتـدأ تأليف كتابه هذا فى سنة ٤١٢هـ وهنـاك قرينـة ثانية تدل على أن هـذا الكتاب الف فى الفترة آنفة الذكر ، وهى أن أول ما يطالعنا منهـذا الكتاب أن ابن رشيق يرفعه الى ابى الحسن على بن أبى الرجال رئيس ديوان انشاء المعز بن باديس ، ويهديه اياه ، فيقول : « السيد الامجد والفذ الاوحـد حسنة الدنيا وعلـم العليا وبانى المكارم وأبى المظالم رجل الخطب وفارس الكتب ابى الحسن على ابن ابىالرجال الكاتب زعيم الكرم وواحد الفهم ، الذى نـال الرياسة وحاز السياسة » (١١٧) ولم يكن ابن رشيق في صنيعه هذا ، واهدائه كتابه الى ابن ابى الرجال بدعا من المؤلفين والمصنفين وانما كان يجرى على سنة العصر الذى عاش فيه ، فقد جرت عادة العلماء والادباء حينئذاك أن يرفعوا كتبهم ومصنفاتهم الى الامراء والوزراء وكبار رجالات الدولة ، ويهدونها اليهم ابتغاء للمثوبة والمنفعة ، والتماسـا لجزيل عطائهم ونوالهم وصلاتهم وطلبا للشهرة وذيوعالصيت فلا على أن ابن رشيق ان يجرى على سـنة عصره ، فيهدى كتابه الى ابن ابى الرجال ، وأن يسرف في مدحه ، ويغالى في اطرائه شأنه شـأن غيره ممن هم على شاكلته من الادبـاء والكتاب حتى يقول : « ولم ارسم كتابى هذا باسم السـيد زادهالله تعالى سموا لاكـون كجالب التمر الى هجـر ، ومهـدى الوشى الى عدن ، ولكن تزينا باسـمه الشريف وذكره الطيب ؛ واستسلاما بين علمه الطائل وادبـه الكامل ... (١١٨) فاذا عرفنا أن ابـن أبى الرجال هذا الذى أهداه ابن رشـيق كتـابه « العمدة » توفى سنة ٤٢٥ هـ فان من المقطوع به ان يكون هذا الكتاب قد تم تأليفه قبل هذا التاريخ ، وعلى هذا يكون ما ذهبنا اليـه ، وافترضناه من ان ابن رشيق اخذ من رسالة أعلام الكلام لابن شرف ، وافاد منها ، وتأثـر بها امر جائز يقبله العقل ، ولا يحيله ،ولايمنع من ذلك أن ينفى ابن رشيق عن نفسه فيكتابه العمدة تهمة الاخذ من بعض معاصريه ، وذلك انه حين الف كتابه العمدة ، واخرجه للناس يبدو انه ظفر باعجاب الجمهور ، واصـاب الحظوةعندهم الامر الذىأوغر صدور خصومه فنالوا من الكتاب ، وانتقصوا مـن قـدره ، وبخسوه حقـه ، ونقموا علـى صاحبـه ، وغمطوه حقه ، وادعوا عليه الاخذ والانتحـال والسرقة ، فقال معرضا بهم فى بدايـة بـاب التضمين والاجازة : « وهذا باب يختلط على كثير من الشعراء ممن ليس له ثقوب فى العلم ولا حذق بالصناعة كجماعة ممن وسم فى بلدنا بالمعرفة ، وينسب اليها مكذوبا عليه فيها ، كاذبا فيما ادعـاه منها ، ولتعرفهم فى لحـن القول »(١١٩) كما يعرض بهم في موضع آخر حيث يقول : « وكم في بلدنا هذا من الحفات

---

(١١٧) العمدة ١ : ٣

(١١٨) العمدة ١ : ٥

(١١٩) العمدة ٢ : ٨٠

قد صاروا ثعابين ، ومن البغاث قد صاروا شواهين » ان البغاث فى أرضنا يستنسر ، ولولا أن يعرفوا بعد اليوم بتخليد ذكرهم فى هذا الكتاب ، ويدخلوا في جملة من يعدخطله، ويحصى زلله لذكرت من لحن كل واحد منهم وتصحيفه وفساد معانيه وركاكة لفظه مايدلك على مرتبته من هذه الصناعة التى ادعوها باطلا ، وانتسبوا اليها انتحالا ، وقد بلغنى ان بعض من لا يتورع عن كذب ، ولا يستحي من فضيحة زعم انى اخذت مسائل من هذا الكتاب لو سئل عنها الان ما علمها » (١٢٠) وربما كان يقصد بمن لا يتورع عن الكذب ، ولا يستحي من الفضيحة ابن شرف القيروانى قريعه وغريمه ومنافسه فى بلاط المعز بن باديس .

وقد ذهب حسن حسنى الى قريب مما ذهبنا اليه ، فقد ذكر أن ابن رشيق الف كتابه « العمدة » فى حدود سنة ٤٣٠هـ أو قبلها بقليل حيث يقول : « واشهر تأليف لابن رشيق فى الادب هى كتاب العمدة فى صناعة الشعر ونقده الفها في حدود سنة ٤٣٠ هـ أو قبلها بيسير» (١٢١) وانه لمن الغريب حقا ان يذهب الميمنى الى ان ابن رشيق الف هذا الكتاب بعد سنة ٤٤٩هـ معتمدا فى ذلك على خبر أبيات لابن رشيق وردت فى هذا الكتاب وهي :

وذيالك له رجل طحون
لما نزلت به ويد زجوج
يطير بأربع لا عيب فيها
لظهران الصفا منها عجيج
خرجت به الى الاوهام سبقا
وقل له عن الوهم الخروج
الى الملك المعز أبى تميم
أمر بمن سواه فلا أعيج

فابن رشيق يحدثنا عن هذه الابيات بقوله : « ومن قصيدة صنعتها بديهة بالمهدية ساعة وصولى اليه ـ ادام الله عزه ـ عن اقتراح بعض شعراء وقتنا هذا » (١٢٢) فالميمن يرى أن ابن رشيق انما ذهب الى المهدية ، ولحق بالمعز بن باديس بها بعد خراب القيروان على أيدى الاعراب سنة ٤٤٩ هـ وهى سنة جلاء المعز عن القيروان الى المهدية، ولنا أن نسائل الميمنى وان نناقشه فيما ذهب اليه ، فمن ذا الذى زعم أو قال : ان المعز بن باديس لم يذهب قط الى المهدية الا فى سنة ٤٤٩ هـ بعد خراب القيروان ؟ ومن يستطيع ان ينكر أن المعز قد ذهب اليها ، وزارها قبل هذا التاريخ أثناء ازدهار ملكه لتفقد احوال رعيته فيها ، أليست احدى المدن الكبار الواقعة في نطاق دولته ؟ أليس المعز قد ولى عليها ابنه تميما ، وعهد اليه بأمرها ؟ ثم الم يحدثنا المؤرخون القدامى والمحدثون أن المعز كان بالمهدية فى صحبة جدته يوم مات أبوه باديس ، وانه ولى الملك ، وآلت اليه الامارة وهو بها سنة ٤٠٦ هـ ؟ على ما يحدثنا ابن أبى دينار حيث يقول عن وفاة باديس : « فأدركه أجله على مدينة المحمدية آخر ليلة من ذى القعدة سنة ستواربعمائة، فكتم اكابر دولته موته ، وتشاوروا فيما بينهم، فاتفق رأيهم على تولية ولده المعز وكان صغيرا اذ ذاك لم يبلغ عشر سنين ، فجعلوا باديس فى تابوت .... وأوصلوه الى المهدية

(١٢٠) العمدة ٢ : ٢٢٨
(١٢١) بساط العقيق : ٨٧
(١٢٢) العمدة ١ : ٢٠٣

وكان ولده المعز بها خرجت به جدته للنزاهة وجعلتها حرزا لاموالها ، لما كانت ترى من الفتنة فى دولة ولدها باديس»(١٢٣) .

على أن قصة هذه الابيات التى أعتمد عليها الميمنى فى تحديد زمن تأليف كتاب «العمدة» وردت برواية أخرى في النسخة الخطية اقدم نسخ الكتاب تقول هذه الرواية : « قبل وصولى اليها » فهو يصرح فيها أنه قال هذا الشعر قبل ان تتصل اسبابه بأسباب المعز بن باديس ، وينخرط فى سلك خدمته ، ويصطنعه المعز ، ويصطفيه لنفسه ، ويصبح شاعر بلاطه المقدم عنده الاثير لديه ، وليس ادل على ذلك من انه قال هذا الشعر عن اقتراح احد شعراء الوقت ، ولو كان قد قاله بعد سنة ٤٤٩ هـ ـ كما ذهب الميمنى ـ ما كان بحاجة الى اقتراح غيره عليه أن يقول شعرا وانما يكون الاقتراح قبل أن يصل حبله بحبل المعز ، فيدفعه المقترح الى أن يقول شعرا فى هذا الفرض او ذاك ، وبذا يكون الزمن الذى حددناه لتأليف الكتاب اقرب الى الصحة والصواب ، ولا يكون ابن رشيق ألفه بعد سنة ٤٤٩هـ بحال من الاحوال كما ذهب الميمنى .

على اننا لو تركنا هذا الموضوع جانبا ، ونظرنا الى سن ابن رشيق حين رحل الى المهدية ولحق بالمعز بن باديس بها سنة ٤٤٩هـ لرأيناه قد ناهز الستين اذ أنه ولد سنة ٣٩٠هـ على أرجح الروايات ، فكيف نستسيغ او نتقبل أن يسلخ ابن رشيق من عمره ستين عاما ، وأن يقضى حياته الا اقلها لا يؤلف شيئا ، حتى اذا ما أصبح فى خريف العمر ، وغدا شيخا هرما ، واضطربت أمور الدولة ، والتاثت أحوال الرعية ، وحدثت مأساة سقوط القيروان في أيدى الاعرب ، وأزعج عن حرمه الآمن ، واجلى عنه مرغما ، ونزح الى المهدية على كره منه ، راح يكتب وأخذ يؤلف مثل هذا الكتاب ، والميمنى نفسه يقول عنه « ولكن لما انتقل المعز من سبيل أعراب مصر الى المهدية ، وتبعه صاحبنا ، طاس فكره ونال رايه ، فكان يمتعض من أدنى فلتة ، ويجبه على أحقر بادرة ، ويسىء الظن بصديقه الوفى وصاحبه الحفى ، فارتحل الى صقلية وهو كاره .. مع أنها لم تكن أحسن حالا من افريقية »(١٢٤) فشيخ هرم مثل ابن رشيق هذه حاله ونفسيته وتلك ظروفه يزعج عن حرمه الآمن ، ويجلو عن موطنه القيروان مرغما ، ويذرف على ضياعه دموعا صادقة ، ويصور لنا مأساته اروع تصوير واصدقه فى مرثية من أصدق شعر ابن رشيق عاطفة واعمقه اثرا فى النفس ، ثم يعانى فى هذه السن آلام الوحشة والاغتراب ويتجرع مرارة نبو المعز عنه ، وجفوته له ، لا يمكنه بحال من الاحوال ان يؤلف مثل هذا الكتاب في ذلك الحين ، وانما المستساغ والمقبول والاقرب الى الصواب أن يكون قد الفه قبل ذلك فى

---

(١٢٣) المؤنس : ٧٩ ـ ٨٠ وفى بساط العقيق : ٤٢ : « ولما ادركت المنية والده باديس آخر ليلة من ذى القعدة سنة ٤٠٦ هـ بمدينة المحمدية ، تفاوض مديرو الدولة بينهم ، فاتفق رايهم على تولية المعز ، وكان وقتئذ فى التنزه صحبة جدته بالمهدية « ويفهم من كلام ابن عذارى ان المعز كان فى صحبة عمته ام ملال عند توليه الامارة بالمهدية ، وليس في صحبة جدته انظر البيان المغرب ١ : ٣٨٦ وقد ذهب الى ذلك احمد بن عامر فى كتابة « الدولة الصنهاجية » حيث يقول عن ام ملال : « وهى سيدة بنت الامير المنصور وشقيقة الامير باديس نشات ودرجت في كنف والدها واخيها ، واشتهرت برجاحة العقل وسعة التفكير وثقب الراى وعلو الثقافة ... وبذلك تاهلت لان تنتخب وصية على ابنه الامير المعز الذى ولي الامارة وعمره ثمانية اعوام .. » الدولة الصنهاجية : ٦٢ ـ ٦٣ وذكر ابن الاثير ان ولاية المعز كانت بالمهدية ، ولم يشر الى وصاية عمته عليه حيث يقول : « ووصلوا الى المهدية ، والمعز بها ثامن المحرم ، فركب المعز ووقف حبيب يعلمه بهم ، ويذكر له اسماءهم ، ويعرفه بقوادهم واكابرهم ، فرحل المعز من المهدية ، فوصل الى المنصورية منتصف المحرم » الكامل ٩ : ٩٥

(١٢٤) ابن رشيق : ٥٠ .

شرخ شبابه ومقتبل عمره ، والدنيا عليه مقبلة والسلطان عنه راضى ، والظروف مهيأة له ومتاحة ، والزمان موات له ومساعد ، ومن العجيب ان اليمنى يقرر بعد ذلك ان ابن رشيق سنة ٤٤٩ هـ كان فى عهد هرمه وشيخوخته ، وانه لم يصنف فيه شيئا جديرا بالذكر حيث يقول : « ان هذا العهد كان عهد هرمه وهمومه ، وانه لم يعمل فيه عملا يصلح للذكر أصلا ،أو على ما بلغنا»(١٢٥)

فهل لنا بعد كل هذا ان نركن الى ماذهبنا اليه ، وافترضناه ، واستنتجناه من أن ابن رشيق أخذ من ابن شرف ، وتاثر به ،وكان من الممكن أن نطمئن الى ما انتهينا اليه لولا أننا رأينا ابن شرف يورد فى مقدمة رسالته ما ينقض كل ما افترضناه واستنتجناه وذهبنا اليه ،ويأتى عليه من القواعد ، ويجعلنا لانطمئن الى ما انتهينا اليه حيث يقول « ولعمرى ما اشكر من نفسي ، ولا أثنى على شىء من حسى الا ظفرى بالاقل مما حاولته ، على ما أضرمته نيران الغربة من قولى ، وثلمته صعقات الفتنة من لبى ، وقطعت اهوال البر والبحر من خواطرى ، وأضعفت الوحشة والوحدة من غرائزى وبصائرى »(١٢٦) فهذا النص يدل على أن الرسالة كتبت بعد معاناة أهوال في البر والبحر ، وبعد غربة وفتنة ، وليست هناك الا فتنة سقوط القيروان التي هزته ، فخلد مأساتها فى عدة قصائد تعد من عيون شعر رثاء المدن ، هذا اللون الذى شاع فى الاندلس والمغرب العربى قبل أن يعرفه المشارقة ولا نكاد نعرف الا غربته فى صقلية ، ثم الغربة والوحدة فى الاندلس كما سبق أن بينا ، واذا كان الامر كذلك وكانت كتابة الرسالة بعد هذا كله فلا يمكننا أن نزعم أن ابن رشيق تأثر بابن شرف أو أخذ عنه لا في (العمدة) ولا فى (قراضة الذهب) ، ولعل هذا النص هو الذى دفع حسن حسنى الى أن يرجح أن ابن شرف ألف هذه الرسالة بعد هجرته من القطر التونسى حيث يقول وهو بصدد تعداد مصنفات ابن شرف : « ثم رسائل الانتقاد ، والمظنون أنه ألفها بعدهجرته القطر التونسى كما يستفاد من سياق كلامه فى مقدمتها» (١٢٧) .

ومن هنا نرى انه لم يكد يصل الينا من مؤلفات ابن شرف الكثيرة التى يقول فيها ابن بسام : « ولابى عبدالله عدة تواليف أفاضها بحارا ، واطلعها شموسا وأقمارا » (١٢٨) والتى يحدثنا عنها حسن حسنى بقوله : « أما تأليف ابن شرف فكثيرة على ما نقله الينا المؤرخون سوى رسالته أعلام الكلام»(١٢٩) أما باقى مؤلفاته فقد فقدت ، وامتدت اليها يد الضياع ، الا أنه ينبغى أن نشير هنا الى أنه توجد أثارات من نثره وشعره مبثوثة فى ثنايا كتب الادب ، ولا سيما (الذخيرة) لابن بسام ،فقد احتفظ لنا فيها بجملة صالحة من آثاره تكفى لابراز قيمتها ، وأورد لنا طائفة كبيرة من نثره وشعره ، وبسط القول فى اخباره الادبية وأفاض فيها حتى كسر عليها ما يزيد عن خمسين صفحة ، فمن نثره الذى

---

(١٢٥) ابن رشيق : ٦٧

(١٢٦) رسالة اعلام الكلام : ١٤

(١٢٧) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ ـ ٣٥٥ وانظررسائل البلغاء : ٣٠٦

(١٢٨) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٣٤ .

(١٢٩) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ وانظر رسائل البلغاء ٣٠٦ وقد عد البغدادى ضمن مؤلفات ابن شرف حجج النصح وسر البر ، ولا ندرى شيئا عن موضوع هذين الكتابين ولا المصادر التى استقى منها اذ اكتفى بذكرهما دون أن يشير الى موضوعهما ولا الى المصادر التى اعتمدها فى هذين الكتابين .

اورده ابن بسام رسائله الى المعتضد التى خاطب فى احداها وزيره ابن زيدون ، وفصل من رسالة بعث بها الى المظفر بن الافطس ، وفصول من النثر فى مختلف المعانى وشتى الموضوعات ، ثم ختمها بقصة قصيرة سماها مقامة ، وقد التزم السجع ، وكلف بالمحسنات بالبديعية فى كل كتاباته ، فأثقل نثره بالمحسنات البديعية ، واسرف فى استعمالها ، وغالى في تزيين الالفاظ وتزويق العبارات ، وحشد فيها كل ما يستطيع أن يأتى به من تلك المحسنات حتى اننا لانكاد نجد عبارة واحدة لا تثقلها المحسنات ، وقد كان هذا شأنه فى كل ما أثر لنا عنه من نثر سواء أكان نثرا انشائيا صرفا كالرسائل والفصول التي أوردها ابن بسام ، وتحدثنا عنها آنفا ، أم كان نثرا تناول فيه الابحاث الادبية مثل رسالته «أعلام الكلام » تلك الرسالة الوحيدة التى وصلت الينا من بين مؤلفاته ، والتى تناول فيها الشعراء بالنقد ، فقد حشد فيها كل المحسنات البديعية ، وكلف بالسجع الركيك ، واحتفل به ، والتزمه من أول الرسالة الى آخرها كما أولع بالالفاظ الغريبة ، حتى كادت الافكار والاحكام العامة الخالية من الضبط ، والتحليل المشتملة عليها هذه الرسالة تضيع فى أمواج السجع والالفاظ الغريبة ، وتغيب فى خضم الصنعة المفرطة المغالى فيها ، فهو يعرض فيها للشعر والشعراء ومنازلهم في الجاهلية والاسلام ، ويبين رايه فيهم وموقفه منهم سالكا فى ذلك سبيل المقامات .

ومستخدما أسلوبها ، فعنى بتزيين الالفاظ واهتم بتزويق العبارات ، وكلف بالسجع ، واحتفل بالمحسنات والصنعة ، حتى انك لاتكاد تجد عبارة واحدة فى هذه الرسالة لا تنوء بأثقال المحسنات البديعية والصنعة المفرطة المغالى فيها .

أما الاشعار التي اوردها ابن بسام فهى فى موضوعات شتى منها المقطوعة الطريفة التى خاطب فيها المعتضد ، وبعث بها اليه يوئسه من لقائه ، والوقوع في حبائله ، وهى تصور خوفه من المعتضد واشفاقه من القدوم عليه ادق تصوير واروعه، ومنها عدة مقطوعات فى النسيب وقصائد فى مديح المنتصر حفيد ابن ابى عامر وابن طاهر امير مرسية وابن ابى الرجال رئيس ديوان الانشاء فى بلاط المعز بن باديس ، وعدة قصائد فى رثاء القيروان ووصف نكبتها وتصوير مأساتها تعد من عيون الشعر العربى في رثاء المدن والامصار، ومنها مقطوعة تعد من رائع الشعر وجيده يصف فيها ما كان من صيانة الحريم وامتناعهن وتصونهن قبل حدوث مأساة القيروان وما صرن اليه بعدها من الانكشاف والتبذل فى الحل والترحال ، وما عانينه من خطوب واهوال يقول فى هذه المقطوعة :

بعد خطوب خطبت مهجتي
وكان وشك البين أمهارها

ذا كبد افلاذها حولها
قسمت الغربة أعشارها

اطافل ما سمعت بالفلا
قط فعاينت الفلا دارها

ولا رات ابصارها شاطئا
ثم جلت باللج ابصارها

وكانت الاستار آفاقها
فعادت الافاق أستارها

ولم تكن تعلو سريرا علا
الا اذا وافق مقدارها

ثم علت كل عثور الخطا
ترسى بها الارض واحجارها

ولم تكن تلحظها مقلة
لو كحلت بالشمس اشفارها

فاصبحت لا تتقي لحظة
الا بأن تجمع أطمارها

وفى البيت الخامس من هذه المقطوعة قلب مليح يقول ابن بسام معلقا على هذه المقطوعة « قوله » وكانت الاستار آفاقها » من الكلام الفصيح والقلب المليح ، ويشبه منحاه وان لم يكن في معناه قول الاول :

فرد شعورهــن السـود بيضا
ورد وجـوههن البيض سودا

وكقول الآخـر :

نديمتى جـارية ساقيـة
ونزهتى ساقية جارية(١٣٠)

وقد بسط ابن شرف القول ، وأجاد كل الاجادة فى تصوير نكبة القيروان حاضرة افريقية ، وما أصابها على أيدى الاعراب من صنوف التخريب والتدمير ومالحق بأهلها من الوان العسف والاضطهاد ، وما حاق بهم من فنون الاذى وضروب التعذيب ، ومالحق بهم من الذلة والهوان ، وكأن ابن شرف قد احس لذع المصيبة وحرها ، وذاق مرارة النكبة ، وتجرع غصص الكارثة فى نفسه وأهله وولده ، وهزته المأساة وأزعجته عن حرمه الآمن، وعانى من ويلاتها ما عانى فأنطقته بشعر صورها فيه تصويرا دقيقا ، حتى انه قلما نجد عند غيره من الشعراء من صور مأساة القيروان مثل هذا التصوير الدقيق المتمثل، ونحس مثل هذه اللمسات الحزينة التى تشيع فى كل مراثيه للقيروان ووصف مأساتها وماحل بأهلها ، ومن ثم كانت مراثي ابن شرف للقيروان ، وتصويره لمأساة سقوطها ، وماحل بأهلها من أصدق الشعر عاطفة ، وأعمقه أثرا فى النفوس وخاصة حين يصور حال أسرته واطفاله الصغار ، وما تجشموه في هذه السن الفضة من صعاب فى الصحارى والقفار وعلى متون البحار فرارا بأنفسهم من عسف الآعراب وعنتهم وأذاتهم .

يقول ابن شرف :

كأنى وأفراخي اذا الليل جننـا
وباتة الكرى يجفو جفونا ويطرق

حمائم أضللن الوكور فضمها
تجانسها حتى تراءى المفرق (١٣١)

الى آخر هذه المقطوعة التى سبق أن أوردناها عند حديثنا عن أسرته . ومن أشعاره قصيدة يندب فيها القيروان ، ويبكى فيها وطنه الضائع ، ويذرف على ضياعه دموعا صادقة ويسترجع ذكرياته بالقيروان فى مرارة وأسى وحسرة ولوعة ، ويتشوق حياته الماضية بها،وعهوده السالفة فى ربوعها ومغانيها فيقول:

ياقيروان وددت أنـى طائـر
فأراك رؤيـة طائـر متأمـل

آهـا وأيـة آهـة تشفى جـوى
قلب بنيران الصبابـة مصطلـى

أبـدت مفاتيـح الغيوب عجائبـا
كانـت كوامـن تحـت غيب مقفـل

زعموا ابـن آوى فيك يعوى والصدى
بـذراك يصـرخ كالحـزين المثكـل

يا بيـد روطـة والشـوارع حولهـا
مغمـورة أبـدا تفـص وتمتلـى

يا أربعي في القطب منهـا كيف لـى
ببعاد يـوم فيـك لـى ومن أين لـى

(١٣٠) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨٠ وانظر معالم الايمان ١ : ١٤
(١٣١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨١

يالـو شهـدت اذا رايتـك فى الكـرى
كيف ارتجـاع صبـاى بعـد تكهـل
لاكثـرة الاحسـان تنسـى حسـرة
هيهـات تذهـب علـة بتعلـل
واذا تجـدد لـى أخ ومنـادم
جـددت ذكـر اخـاء خـل أول
لـو كنـت أعلـم أن آخـر عهدكـم
يوم الرحيل فعلت مالـم أفعل (١٣٢)

كما توجد مقطوعات من شعره فى كل الكتب التى ترجمت له مثل (معجم الآدباء) (والوافى بالوفيات) (و (المطرب) (معالـم الايمان) ، كما توجد آثار من شعره ونثره في ثنايا الكتب الادبية الآخرى مثل) الغيث المسجم (ففيه عدة مقطوعات من شعره ، كما توجد قطعة من نثره في مدح الشطرنج .وهذه القطعة موجودة ايضا فى(نزهة الجليس ومنية الآديب الانيس).

ونستطيع أن نقول ان أجود اشعار ابن شرف هى قصائده التي رثى فيها القيروان .وطنه الضائع وبكاها فيها ، وندب أيامه بها ، واسترجـع ذكرياته فيها ، وصور حال اسرته واطفالـه الصغار ، وما تجشموه من صعاب بعد ان هزتهم المأساة وازعجتهم الفتنة عن حرمهـم الآمن ، وتلك التى صور فيها اجلاء العرب لآهلها بعـد أن روعوهـم فى حرمهم الآمـن ، وأوقعوا بهم ، ووصف خروج نساء القيروان وسفورهن من هول الكارثة وتبذلهن وامتهانهن ، وما لقينه من أهوال واخطار ، وما تجشمنه من صعاب بعد رغد عيشهن ، وتقلبهن فى أعطاف النعيم مصونات ممتنعات .

ونود أن نشير هنا الى أن المغاربة قد كلفوا بتقليد المشارقة ، وأن ابن بسام قد أدرك ذلك ، واحس تعلق بنى وطنه بالمشارقة ، وولوعهم بتقليدهم ، والتأسى بهـم ، فأحفظه ذلـك ، واغضبة واثار حميته ، فراح ينعى على قومه تطلعهم الى المشرق وعلمائه وادبائه ، وافتتانهم بهم ، واحتفالهم بآثارهم ، وكلفهم بتقليدهم والتأسي بهم حيث يقول : « ان أهل هـذا الافق أبو الا متابعة أهل المشرق يرجعون الى اخبارهم المعتادة رجوع الحديث الى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أوطن بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما ، فغاظنى منهم ذلك ، وأنفت مما هنالك غيرة لهذا الافق القريب أن تعود بدوره أهلة وتصبح بحاره ثمادا مضمحلة ، وليت شعرى من قصر العلم على بعض الزمان واختص اهل المشرق بالاحسان » (١٣٣) .

اما في مجال الشعر فقد كان غاية ما يطمح اليه احد الشعراء المغاربة اوالاندلسيين وتصبوا اليه نفسه أن يشبه بأحد شعراء المشرق ويلحق به ، ويقرن اسمه باسمه ، فالثعالبى يعجب بابن دراج القسطلى ، ولايتجاوز فى تعبيره عن اعجابه به ان يشبهه بالمتنبى فى المشرق ، ولا

---

(١٣٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨١ ـ ١٨٢ وانظر معالم الايمان ١ : ١٥ فما اورد له الدباغ قصيدة يصف فيها خلاء القيروان ، وجلاء اهلها عنها ، منها :

الا منـزل فيـه انيـس مخالـط
تـرى سيئـات القيـروان تعاظمـت
تراهـا اصيبـت بالكبائـر وحدهـا
ترحـل عنهـا قاطنوهـا فـلا تـرى
تكشفـت الاستـار عنهـم وربمـا

الا منـزل فيـه انيـس مجـاور
فجلـت عـن الغفـران واللـه غافـر
الـم تـك قدمـا فى البـلاد الكبائـر
سـوى سائـر او قاطـن وهـو سائـر
اقيمـت ستـور عنهـم وستائـر

وانظر الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨٢ ـ ١٨٤

(١٣٣) الذخيرة القسم الاول المجلد الاول : ٢

يعدو أن يلحقه به فيقول : « وكان بصقع الاندلس كالمتنبى بصقع الشام » (١٣٤) ولم يكن ابن شرف بدعا من شعراء عصره من المغاربة في التعلق بالمشارقة والافتتان بهم، فنراه ونحن نطالع الذخيرةلابن بسام مفتونا بالمتنبي ، كلفا بمجاراته ومعارضته ، وكأنى به وقد زهى بشاعريته ، واحس انه نظير للمتنبى ، وقرين له حتى حدثته نفسه أن يجاريه ويعارضه ، وسولت له أن يطاوله ويساميه ، يقول ابن بسام ان ابن شرف « قال يوما للمأمون بن ذى النون أيام خدمته اياه ، واستشفافه صبابة عمره فى ذراه ، وقد اجروا ذكر أبى الطيب ، فذهبوا في تأنيبه كل مذهب : ان رأى المأمون ـ لافارق العزة والعلا ـ أن يشير الى أى قصيدة شاء من شعر أبى الطيب حتى أعارضه بقصيدة تنسى اسمه ، وتعفى رسمه فتثاقل ابن ذى النون عن جوابه علما بضيق جنابه ، واشفاقا من فضيحته وانتشابه والح ابو عبد الله حتى أحرج ابن ذى النون واغراه ، فقال له : دونك قوله « لعينيك مايلقى الفؤاد وما لقى » فخلا بها ابن شرف أياما ، فوجد مركبها وعرا ، ومريرتها شزرا ، ولكنه أبلى عذرا ، وارهق نفسه من أمرها عسرا فما قام ولا قعد ، ولاحل ولا عقد » (١٣٥) .

كما يذكر ابن بسام فى موضع اخر ان ابن الاشرف كان في وصفه نكبة القيروان وماساتها متأسيا بابن دراج ، ومقلدا له ،ثم ينال منه ، ويغمطه حقه ، ويصفه بالقصور عن شأو ابن‌دراج كدأبه دائمافي‌التعصب لبني‌وطنه وانتقاص من عداهم وغمط حقوقهم ، والغض من شأنهم ، حيث يقول مقارنا بين بيتين لابن شرف وابن دراج :

« قوله (أى ابن دراج) :

فمن حرة حليت بالجلاء
وعذراء نصت بنص الزميل

ثم يتبع ذلك بقوله : « انتحى ابن شرف فيما وصف فتنة قيروانه منحى القسطلي في شكوى زمانه ، والحديث عن الفتن ، فكاثر البحر بوشل مشفوه ، وجارى الريح بكودن لافضل فيه » (١٣٦) الا انه ينبغي الا نغمط ابن شرف حقه فى الشعر ، فهو يعد من الشعراء المغاربة المجيدين ، وشعره يمتاز بوضوح المعانى والافكار والدقة فى الوصف وجزالة الالفاظ والتراكيب كما رأينا من أشعاره التى تناولناها وعرضنا لها .

هذه هى آثار ابن شرف التى فقدت وامتدت اليها يد الضياع ، والتى لم يبق لنا منها الا اثارات منثورة فى ثنايا الكتب ، وقد عرضنا لنثره وشعره حسبما أسعفتنا النصوص ، ولنعرض لآرائه النقدية المتمثلة فى رسالته « أعلام الكلام » .

آراؤه النقدية :

تتمثل آراء ابن شرف في النقد الآدبى فى رسالته « أعلام الكلام » تلك الرسالة التى ضمنها آراءه النقدية ، وبين فيها موقفه من كثير من القضايا الادبية التى كانت تشغل بال معاصريه ، وهى باشتمالها على عديد من القضايا النقدية ، واحاطتها بكثير من المسائل الادبية ربما تعد متنا فى النقد الأدبى .

---

(١٣٤) اليتيمة ٢ : ٢٠

(١٣٥) الذخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٤

(١٣٦) الذخيرة القسم الاول المجلد الاول : ٧٤ على ان ابن‌شرف كان معجبا بشعر ابن دراج وخاصة اشعاره التي قالها فى محنته انظر اعلام الكلام : ٢٦

وقد سبق أن عرضنا لها ، وبينا آراء العلماء فيها، ومواقفهم منها، وقارنا بينها وبين قراضة الذهب والعمدة لابن رشيق ، وذكرنا أنه كتبها بأساوب المقامات، ذلك الاسلوب الملتزم للسجع، والمثقل بالمحسنات البديعية ، والمتسم بتزيين الالفاظ وتزويق العبارات ، والحافل بحوشى الالفاظ وغريبها ، وانه اتخذ لها شخصا خاليا أو بطلا دعاه أبا الريان الصلت بن السكن ، وتحدث على لسان بطله عن مشاهير الشعراء القدامى والمحدثين واغفل المغمورين منهم واهملهم ولم يشر اليهم .

وقد ابتدأ هذه الرسالة واستهلها بقوله : « هذه أحاديث صفتها مختلفة الأبواع مؤتلفة في الاسماع، عربيات المراسم، غريبات التراجم، واختلقت فيها أخبارا فصيحات الكلام بديعات النظام لها مقاصد ظراف ، واسانيد طراف ، يروق الصغير معناها ، والكبير مغزاها ، وعزوتها الى أبى الريان الصلت بن السكن من سلامان » (١٣٧) .

ثم يذكر انه لم يكن مبتدعا لهذه لاحاديث على غير مثال سابق ، ولم يكن سابقا الى اختراعها وابتكارها ، وانما هو متبع لمن سبقه فى أمثالها ، وحاذ حذوهم وناسج على منوالهم، ولاسيما بديع الزمان الهمذانى فى مقاماته التى بلغ عددها على مايرويه الرواة فى ذلك الحين عشرين مقامة ، وان كان هذا العدد لم يكد يصل اليه فيقول : « واحتذيت فيما ذهبت اليه ، ووقع تعريضي عليه من بث هذه الاحاديث مارأيت الأوائل قد ضمته فى كتاب » (كليلة ودمنة) فأضافوا حكمه الى الطير الحوائم ، ونطقوا به على السنة الوحوش والبهائم، لتتعلق به شهوات الأحداث ، وتستعذب بثمرة الفاظ الحداث وقد نحا هذا النحو سهل بن هارون الكاتب فى تأليفه كتاب « النمر والثعلب » وهو مشهور الحكايات بديع المراسلات ، مليح المكاتبات ، وزور ايضا بديع الزمان الحافظ الهمذانى وهو الاستاذ أبو الفضل أحمد بن الحسين مقامات كان ينشئها بديها في أواخر مجالسه وينسبها الى راوية رواها له يسميه عيسى بن هشام ، وزعم أنه حدثه بها عن بليغ يسميه أبا الفتح الاسكندرى ، وعددها فيما يزعم رواتها عشرون مقامة ، الا انها لم تصل هذه العدة الينا ، وهى متضمنة معانى مختلفة، ومبنية على معان شتى غير مؤتلفة ، لينتفع بها من الكتاب والمحاضرين من صرفها من هزل الى جد ومن ضد الى ضد ، فأقمت من هذا النحو عشرين حديثا ، أرجو أن يتبين فضلها ، ولا تقتصر عما قبلها « (١٣٨) .

ويحدثنا ابن خلكان عن بديع الزمان ومقاماته بقوله : « صاحب الرسائل الرائعة والمقامات الفائقة على منواله نسج الحريرى مقاماته ، واحتذى حذوه ، واقتفى أثره ، واعترف فى خطبته بفضله ، وانه الذى ارشده الى سلوك ذلك المنهج » (١٣٩) .

وقد أقر الحريرى لبديع الزمان بالفضل حيث يقول في خطبة المقامات : « فأشار من اشارته ، وطاعته غنم الى أن أنشىء مقامات أتلو فيها تلو البديع ، وان لم يدرك الظالع شأو الضليع » (١٤٠) .

---

(١٣٧) رسالة اعلام الكلام : ١٣ وسلامان بفتح اوله ماء لبنى شيبان على طريق مكة الى العراق ، وبه مات نوفل بن عبد مناف . معجم ما استعجم ٣ : ٧٤٥ ويبدو أن ابن شرف اختار سلامان الذى هو منزل لقبيلة شيبان اشادة بهذه القبيلة وتنويها بشانها ، اذ ينسب اليها ولي نعمته أبو الحسن على بن أبى الرجال الشيبانى رئيس ديوان الانشاء في بلاط المعز بن باديس .

(١٣٨) رسالة اعلام الكلام : ١٣ - ١٤

(١٣٩) وفيات ١ : ١٠٩

(١٤٠) وفيات الاعيان ٣ : ٢٢٨ وانظر مقدمة مقامات الحريرى : ٤ ط الحلبى .

ومقامات بديع الزمان تبلغ اربعمائة مقامة عارض بها أحاديث ابن دريد على ما ذكره الحصرى في زهر الآداب حيث يقول : « ولما راى أبا بكر محمد بن الحسين بن دريد الازدى اغرب بأربعين حديثا ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، واستنتجها من معادن فكره وابداها للابصار والبصائر ، واهداها للافكار والضمائر في معارض اعجمية والفاظ حوشية فجاء اكثر ما اظهر تنبو عن قبوله الطباع ، ولا ترفع له حجتها الاسماع ، وتوسع فيها اذ صرف الفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة وضروب متصرفة فعارضها بأربعمائة مقامة في الكدية تذوب ظرفا ، وتقطر حسنا ، لا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى ، وعطف مساجلتها ووقف مناقلتها بين رجلين سمى احدهما عيسى بن هشام ، والآخر أبا الفتح الاسكندرى وجعلهما يتهاديان الدر ، ويتنافثان السحر في معان تضحك الحزين ، وتحرك الرصين ، يتطلع منها كل طريفة ، ويوقف منها على كل لطيفة ، وربما أفرد أحدهما بالحكاية ، وخص أحدهما بالرواية » (١٤١)

بيد أن المتداول منها الآن بين أيدينا احدى وخمسون مقامة فقط ، ويغلب على الظن انه لم يصل الى افريقية في عصر ابن شرف سوى عشرين منها ، ويقول بروكلمان : «بديع الزمان يفتخر في احدى رسائله بانه صنف اربعمائة مقامة ، وطبيعى انه لا ينبغي فهم العدد هنا على معناه الحرفى ، فهذا محمد بن شرف القيرواني المتوفى سنة ٤٦٥هـ لم يكد يعرف في كتابه « أعلام الكلام » سوى عشرين مقامة للبديع ، ولكن ينبغى أن يكون عدد المقامات التي أثرت وبقيت لنا وهو احدى وخمسون مقامة قد ثبت منذ زمن طويل ، لان الحريرى عارض هذا العدد بمثله » . (١٤٢)

وأبو الريان الصلت بن السكن الذى اجرى ابن شرف على لسانه هذه الاحاديث انما هو رجل استعاره ، أو شخص جرده من نفسه ، وانتزعه منها ، فكان ابن شرف يخاطب أبا الريان هذا البطل المزعوم ويسأله ، وأبو الريان يجيبه بما يعرفه عن كل شاعر الا انه قصر حديثه على الشعراء المشهورين في العصور الجاهلية والاسلامية ، واغفل المجاهل والمغمورين منهم ، واهملهم ولم يشر اليهم وعلل ذلك بعدم قدرته على استقصائهم ، والاحاطة بهم ، ومن ثم اجتزأ بالمشهورين وقصر حديثه عليهم ، يقول ابن شرف : « وجاريت أبا الريان في الشعر والشعراء ومنازلهم في جاهليتهم واسلامهم ، واستكشفته عن مذهبه فيهم ومذاهب طبقته في قديمهم وحديثهم فقال : الشعراء اكثر من الاحصاء ، واشعارهم أبعد من شقة الاستقصاء فقلت : لا أعنتك بأكثر من المشهورين ، ولا اذاكر رأيك الا في المذكورين **مثل الضليل والقتيل ... (١٤٣) » ومضى** يسرد أسماء المشهورين من الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين والمولدين ، كما سرد أسماء طائفة من مشاهير شعراء الاندلس والمغرب مثل : احمد بن عبد ربه ، وابن هانىء وابن دراج القسطلى وعلى بن العباس الايادى التونسى ، حتى انتهى من سرد أسماء المشهورين وتسميتهم طالبا من أبى الريان أن يبين رأيه فيهم واحدا واحدا ، فأجابه أبو الريان بقوله : « لقد سميت مشاهير وأبقيت الكثير . قلت : بلى ولكن ما عندك فيمن سميت لك قال:

---

(١٤١) زهر الآداب ١ : ٢٦١

(١٤٢) تاريخ الادب العربي ٢ : ١١٣ ــ ١١٤ وهو يقصد المماثلة التقريبية فان عدد مقامات الحريرى خمسون مقامة ، وقد اشار الحريرى نفسه في مقدمته الى ذلك حيث يقول :« وانشات على ما اعانيه من قريحة جامدة وفطنة خامدة ... خمسين مقامة » مقدمة المقامات ص ٥

(١٤٣) رسالة اعلام الكلام : ١٤

أما الضليل مؤسس الاساس ، وبنيانه عليه الناس ، كانوا يقولون : أسيلة الخد ، حتى قال امرؤ القيس » أسيلة مجرى الدمع ، وكانوا يقولون : تامة القامة وطويلة القامة ، واشباه هذا ، وجيداء وتامة العنق ، حتى قال امرؤ القيس : « بعيدة مهوى القرط » وكانوا يقولون فى الفرس السابق : يلحق الغزال ، يسبق الظليم او الظلام وامثال هذا حتى قال : بمنجرد قيد الاوابد هيكل « ومثل هذا له كثير .... (١٤٤) »

ويحدثنا عن الحارث بن حلزه اليشكرى بقوله : « واما ابن حلزه اليشكرى فسهل الحزون ، قام خطيبا بالموزون ، والعادة ان يسهل شرح الشعر بالنثر ،وهذا أسهل السهل بالوعر ، وذلك مثل قوله :

أبرموا أمرهم بليل فلما
أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

من مناد ومن مجيب ومن
تصهال خيل خلال ذلك رغاء

فلو اجتمع كل خطيب سائر من اول وآخر يصفون سفرا نهضوا بالاسحار ، وعسكرا تنادى بالنهوض الى طلب الثار لما زادوا على هذا ان لم ينقصوا منه ،ويقصروا عنه ، وسائر قصيدته على هذا المسلك شكاية وطلاب نصفة وعتاب فى عزة وانفة ، وهو من شعراء وائل واحد السنة هاتيك القبائل ... (١٤٥) » وهكذا مضى أبو الريان على هذا الاسلوب ، واخذ يصف طائفة من شعراء الجاهلية ، ثم عرض للمخضرمين ممن أدركوا الجاهلية والاسلام كالنابغة الجعدى ، ثم مضى الى الشعراء الاسلاميين واتبعهم بالحديث عن شعراء بنى أمية ، ثم ذكر جملة من الشعراء المولدين ، ومضى يحدثنا عمن تلاهم ، وأتى بعدهم ، ثم ختم حديثه بالعرض لطائفة من شعراء المغرب والاندلس مثل : ابن عبد ربه وابن هانيء وابن دراج وابى على الايادى حيث يقول : « هذا ما عندى في شعراء المشرق ، وقد سميت لى من متاخرى شعراء المغرب من لعمرى لا يبعد عن معاصره ، ولا يقصر عن سابقة واما ابن عبد ربه الاندلسي وان بعدت عنا دياره فقد صاحبتنا اشعاره .. (١٤٦) .

ومن الامثلة التى أوردناها نجد ان أبا الريان كان يقف عند كل شاعر ليقدم ما عنده ، وما يعرفه ، ويقرر وضعه وماعرف به وتميز به ، ويبرز صفاته وخصائصه ومميزاته ، وما تفرد به عما عداه .

وبعد ان اعجب باحاديثه عن الشعراء المشهورين من الجاهليين الى المولدين ، ومن المشارقة الى المغاربة والتى اوردنا اطرافا منها، اخذ يسأله عن النقد ، ويبدى رغبته الشديدة فى ان يقف على رايه فيه ، وان يقتبس من عمله الصائب ، وان ينال نصيبا منه ، فيجيبه بأن النقد موهبة تولد مع الانسان فمن وهبه ومنحه وحظى بنصيب منه كان قادرا على الميز بين جيد الشعر ورديئة واستحسان الحسن منه ، واستقباح القبيح منه ، اما من لم يرزق هذه الموهبة ولم يحظ بها فهو غير قادر على التمييز بين جيد الشعر ورديئه والتفرقة بينهما ، ويؤيد رأيه وماذهب اليه من ان النقد موهبة ومنحة يحظى بها اناس دون آخرين أنه راى كثيرا من علماء الشعر ورواته ممن له يؤتوا هذه الموهبة لانفاذ لهم فى نقد الشعر ، ولا فطنة عندهم ولا بصيرة فى التمييز بين جيده ورديئه ، بينما راى كثيرا ممن لا علم لهم بالشعر ممن منحوا هذه الموهبة لهم نفاذ وبصيرة وادراك

---

(١٤٤) رسالة اعلام الكلام : ١٥ ــ ١٦

(١٤٥) رسالة اعلام الكلام : ١٧

(١٤٦) رسالة اعلام الكلام : ٢٦

لغامض الشعر ، وقدرة فائقة على الميز بين جيده ورديئه يقول ابن شرف : « قلت لابي الريان في مجلس عقب هذا المجلس : يا أبا الريان لقد رأيت لك نقدا مصيبا ومرمى عجيبا ، ولقد أرغب في أن أنال منه نصيبا ، فقال : النقد هبة في المولد ، وفيه زيادة طارف الى تالد ولقد رأيت علماء بالشعر ورواة له ليس لهم نفاذ في نقده ، ولا جودة فهم في رديه وجيده وكثير ممن لا علم له يفطن الى غوامضه والى مستقيمه ومتناقضة » . (١٤٧) باستحسان ولا استقباح ، وألا نبادر الى استملاح ولا استبراد الا بعد انعام نظر وطول روية وأناة ، فالاستحسان والاستهجان تابعان للروية وطول النظر وحسن المران والدربة ، فيجب ان ننعم النظر ،ونستخدم الفكر في نقد الشعر ، والا ما كنا قادرين على النفاذ الى كنهه وحقيقته وجوهره لمعرفة محاسنه ومساوئه وادراك غوامضه ومتناقضه ، والوقوف على مستقيمه واعوجه من جميع الوجوه ، فالخطأ موكل بالعجلة ، ومع المستعجل الزلل ، ثم يعلل ما ذهب اليه من ضرورة التزام الاناة والروية وحسن المران والدربة في الشعر ، وان الاستحسان والاستهجان تابعان للروية وطول النظر وحسن المران والدربة وان الشعر منه ما يملأ لفظه المسامع فنخطىء فيه ، ونتوهم في معناه ،ونغلط في حقيقيته ، ولا نلتفت الى كنهه ومفهومه ، فنحكم باستحسانه لما فيه من قعقعة وجلبة والفاظ تملأ المسامع دون نظر الى معناه ، وهو غير جدير بالاستحسان ، كما انه لا ينبغي ان نتعجل باستهجان الشعر واستقباحه اذا اشتمل على الفاظ مألوفة معتادة وكلمات مبتذلة مطروقة كثر استعمالها ودورانها على الألسنة ، حتى ننعم النظر في معناه ، فكم من معنى طريف غريب في لفظ مبتذل مألوف ، فالمعنى اذن هو الغاية المنشودة ، يقول ابن شرف : « قلت : أنا شديد الرغبة الى فضلك في أن تسهمني من ميزك وعقلك ما أستهدى بسراجه على مستقيم منهاجه ، فأقف من سرائره على بعض ما وقفت ، واعرف من مفاخره ومعانيه جزءا مما عرفت ، قال : نعم اول ما عليه تعتمد ، واياه تعتقد الا تستعجل باستحسان ولا باستقباح ، ولا باستبراد ولا باستملاح ، حتى تنعم النظر وتستخدم الفكر ، واعلم ان العجلة في كل شيء مركب زاوق وموطىء زهوق ، وان من الشعر ما يملأ لفظه المسامع ، ويرد على السامع قعاقع ، فلا ترعك شماخة مبناه ، وانظر الى ما في سكناه من معناه ، فان كان في البيت ساكن فتلك المحاسن ، وان كان خاليا فاعدده جسما باليا ، وكذلك اذا سمعت ألفاظا مستعملة وكلمات مبتذلة ، فلا تعجل باستضعافها حتى ترى ما في اضعافها ، فكم من معنى عجيب في لفظ غير غريب» . (١٤٨)

ثم يعرض ابن شرف لقضية اللفظ والمعنى ، ويبدو انه كان يقف من هذه القضية موقفا وسطا ، فهو يرى أن الالفاظ قوالب وأجسام للمعاني هي الارواح فهو اذن لا يفضل اللفظ على المعنى ولا المعنى على اللفظ بل يجمع هذين الركنين في وحدة كاملة لا تتجزأ ولا تتقسم ، ومن ثم فهو ينادي بضرورة الموازنة بين اللفظ والمعنى والعناية بكل منهما ، فان حسنا بلغ الشعر الغاية المنشودة ، وان قبح احدهما انحط الشعر عن مكانته المرجوة ، ونزل عن مستواه المطلوب ، الا انه كان يفضل المعنى على اللفظ ، ولعل ذلك راجع الى شيوع هذا المذهب وسيادته في المغرب وميل المغاربة الى اعتناقه والاخذ به ، يقول ابن شرف : « والمعاني هي الارواح ، والالفاظ هي الاشباح فان حسنا فذلك الحظ الممدوح ، وان قبح احدهما فلا يكن الروح » (١٤٩) ويكاد ابن

---

(١٤٧) رسالة اعلام الكلام : ٢٧

(١٤٨) رسالة اعلام الكلام : ٢٧

(١٤٩) رسالة اعلام الكلام : ٢٧ ـ ٢٨

شرف في هذه القضية قضية اللفظ والمعنى يتفق مع ابن رشيق الذي يقف منها أيضا موقفا وسطا لا يفضل احدهما على الآخر ، ولا يفصل بينهما ، بل يشبههما ايضا بالروح والجسد الا ان ابن رشيق بسط القول في هذه القضية ، وفصله في كتابه العمدة : « اللفظ جسم ، وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فاذا سلم المعنى ، واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه ، كما يعرض لبعض الاجسام من العرج والشلل والعور وما اشبه ذلك من غير أن تذهب الروح ، وكذلك ان ضعف المعنى واختل بعضه كان اللفظ من ذلك أوفر حظا كالذى يعرض للاجسام من المرض بمرض بعض الارواح ، ولا تجد معنى يختل الا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب قياسا على ما قدمت من الوان ادواء الجسوم والارواح ، فان اختل المعنى كله وفسد بقى اللفظ مواتا لا فائدة فيه ، وان كان حسن الطلاوة في السمع كما ان الميت لم ينقص من شخصه في رأى العين الا انه لا ينتفع به ، ولا يفيد فائدة ، وكذلك ان اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصبح له معنى لانا لا نجد روحا في غير الجسم البتة » (١٥٠) فابن رشيق في هذا النص يشير الى الارتباط الوثيق والتلاحم التام بين اللفظ والمعنى ، وتلازمهما وتلاحمهما، فاللفظ جسم روحه المعنى ، ومن هنا كان ما يوصف به أحدهما يعد وصفا للآخر ، وما يعترى أحدهما من ضعف أو يطرأ عليه من اختلال ينعكس على الآخر .

ثم يتحدث ابن شرف عن طبقات الشعراء القدامى والمحدثين ، ويحمل حملة عنيفة على مقاييس علماء اللغة والرواة فيما ذهبوا اليه من تفضيلهم القديم واستحسانه لا لشيء الا لمجرد قدمه ، وسبق الزمن بصاحبه ، ولعلهم كانوا مدفوعين فيما ذهبوا اليه من تفضيلهم الشعر القديم وايثاره واستحسانه الى انه كان موضع الاستشهاد والاحتجاج به للغة ، فالشعر القديم حتى الردىء منه صالح للاحتجاج والاستشهاد به في اثبات اللغة وقواعدها وضوابطها وتفسير كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، اما الشعر المحدث فغير صالح لشيء من ذلك ، فالاحتجاج به ساقط ولا يجوز الاستشهاد به ، وانما يؤتى به على سبيل التمثيل والاستئناس ، يقول ابن شرف منبها الى خطأ هذه القضية ، وحاملا على اتجاه الرواة وعلماء اللغة في تفضيلهم القديم لمجرد قدمه ، ومفندا مقاييسهم ،ومحذرا من الوقوع فيها : « وتحفظ من شيئين : احدهما : أن يحملك اجلالك القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تسمع له ، والثاني : أن يحملك اصغارك المعاصر المشهور على التهاون بما أنشدت له ، فان ذلك جور في الاحكام ، وظلم من الحكام ، حتى تمحص قوليهما ، فحينئذ تحكم لهما أو عليهما ، فهذا باب في اعتلاقه استصعاب ، وفي صرف العامة وبعض الخاصة عنه اتعاب » (١٥١)

فهو ينبه في هذا النص الى خطأ هذه القضية قضية تفضيل القديم لمجرد قدمه وينظر الى الشعر بعين النصفة ، ويدعو الى التزام الحيدة في الحكم عليه ، وتقويمه من حيث هو اثر فني دون نظر الى قائلة وزمنه ، ثم يقول : « وقد وصف تعالى في كتابه الصادق تشبث القلوب بسيرة القديم ، ونفارها عن المحدث الجديد ، فقال حاكيا لقولهم : « انا وجدنا آباءنا على أمة » وقال تعالى : « لن نعبد الا ما وجدنا عليه آباءنا » ... فلا يرعك أن تجرى على منهاج الحق في جميع الخلق ، فبه قامت

---

(١٥٠) العمدة ١ : ١٠٣ - ١٠٤

(١٥١) رسالة اعلام الكلام : ٢٨

السمـاوات والارض ، وبـه أحكـم الابـرام والنقض » . (١٥٢)

ثم طفق ينعى على بعض الشعراء القدامى كثيرا من الهنات ، واخذ يعدد عليهم طائفة من السقطات ، وما وقعوا فيه من اخطاء واغلاط وتعقبهم مشهرا بهم ، ومجرحا اياهم بادئا بنقد امرىء القيس اقدم الشعراء عصرا ، ومقدمهم شعرا وذكرا وتعداد سقطاته واخطائه وسرد عيوبه وهناته ، وما اخذ عليه مع اتساع الاقوال فى فضله اتساعا لم يحظ به غـيره ، حتى أن عامة الأدباء والنقاد يظنون بل يوقنون ان جواد شعره لا يكبو ، وان حسام نظمـه لا ينبو ، وهيهات من البشر الكمال ، ومـن الآدميين الاستواء والاعتدال ، ثم اخذ ينقده ويعدد عليه سقطاته واخطاءه فى معلقته أعظم ما اثر لنا عنه من شعر حيث يحدثنا عن هذه العيوب وتلك الهنات في هذه المعلقة بقـوله : « يقول فى قصيدته المقدمة ومعلقته المفخمة :

ويوم دخلـت الخـدر خدر عنيزة
فقالت لك الويلات انك مرجـلي

كما كان اغناه عن الاقرار بهـذا ، ومـا اشد غفلتهعما ادركه من الوصمة به » (١٥٣) وعدد ما ترتب على فعلته هذه من العيـوب والهنات والسقطات والمآخذ، فيقول: « وذلك ان فيه أعدادا كثيرة من النقص والبخس منها: دخوله متطفلا على من كره دخوله عليه ، ومنها قول عنيزة له : « لك الويلات » ومن قولـه لا تقال الا للخسيس ، ولا يقابل بها رئيس.. » وهكذا يمضى يسرد عيوبه وسقطاته وهنـاته الى قوله :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضـع
فألهيتها عن ذى تمائم محـول

فينقده بقوله : « وانما المعروف للعاشق الانفراد بمعشوقه ، واطراح سواه كالقيسين فى ليلى ولبنى ، وغيلان بمية وجميل وبثينـة وسواهم كثير ، فلم يكن لهـا عاشـقا بل فاسقا » (١٥٤)

ويمضى فى نقده على هذا النحو ، ثم يجره ذلك أو يسوقه الى ذكر أبيات ثلاثة من قصيدة له أخرى غير المعلقة وهى :

سموت اليها بعد ما نام اهلهـا
سمو حباب الماء حـالا على حال

فقالت : لحاك الله انك فاضـحى
الست ترىالسماروالناس احوالى

حلفت لهـا بالله حلفـة فاجـر
لناموا فما ان من حديث ولا صال

ونقد هذه الأبيات ، وعدد ما فيها من عيوب وهنات وسقطات بقوله : « فأخبرها هنـا انه هين القدر عند النساء وعند نفسهوبرضاه قولها : « لحاك الله » فحصل على «لكالويلات من تلك ، وعلى « احاك الله » من هذه ، فشهد على نفسه انه مكروه مطرود غير مرغوب فى مواصلته ، ولا محروص على معاشرته ، ولا مرضى بمشاكلته ، ثم اخبر عن نفسه انهيرضى بالحنث والفجور ، وهذه اخلاق لا خـلاق لها » (١٥٥)

ثم يأخذ على امرىء القيس أنه اقر واعترف بما يكتمه الأحرار حيث يقول : (ثم اقر فى مكان آخر من شعره بما يكتمه الاحرار ، ولا ينم بقبحه الا الاوضاع الاشرار ، فقال :

ولما دنوت تسـديتها
فثوب نسيت وثوب اجر

(١٥٢) رسالة اعلام الكلام : ٢٨
(١٥٣) رسالة اعلام الكلام : ٢٨ ـ ٢٩
(١٥٤) رسالة اعلام الكلام : ٢٩
(١٥٥) رسالة اعلام الكلام : ٣٠

وأى فجر في الاقرار بالفضيحة على نفسه وعلى حبه ، وأين هذا من قول يعقوب الخريمي :

ولا أسأل الولدان عن وجه جارتي

بعيدا ولا أرعاه وهـو قريب (١٥٦)

ثم يعلل ابن شرف اعتراف امرىء القيس بهذه المنديات واقراره بما كان يأتيه من فحش وفجور بأنه كان مبغضا للنساء مفروكا مـن حلائله وازواجه لأسباب كثيرة ذكرت ، وكل من حرص على نيل شيء فحرمه ، ومنع منه فعلا ادعاه كذبا وزورا . شأنه شأن غـيره من الشعراء ممن كانوا مبغضين للنساء كالفرزدق مثلا فيقول : « وانما سهل عليه كل هذا حرصه على ما كان ممنوعا منه ، وذلك انه كان مبغضا للنساء جدا ، ومفروكا ممن ملك عصمتها لأسباب كثيرة ذكرت ، وكل من حرص على نيل شيء فمنع منه فعلا ادعاه قولا ، وله أشـباه فيما أتاه يدعون ما ادعاه افكا وزورا وكذبا وفجورا ، ومنهم الفرزدق » (١٥٧)

وهـكذا يمضى ابن شرف فى نقـده لامرىء القيس ذلك الشاعر الذى ساد الاعتقاد فيه عند العامة وبعض الخاصة أنه لا ينتقد ، وكان نقده فى موضعه فنعى عليه عيوبه ، وما أتاه من فحش وفجور وتعهر ، وعدد عليه هناته وسقطاته .

ثم ختم حديثه عن امرىء القيس بأن قرر أن هذه العيوب والمـآخذ وتلك السـقطات والهنات والاستدراكات نزرة قليلة بالنظر لما أقر له به من الفضائل الادبية التى تفرد بها ، وسبق اليها ، وبالقياس الى محاسنه ومزاياه التى خصها بحديث سابق ، ونوه بها ، وأنه مؤسس الأساس ، وبنيانه عليه النـاس ، فاذا كان قد سما أسلوبه ، وعلا في أمور عديدة ومواضع كثيرة فقد انحط وتسفل فى سلوكه ونهجه فى اخرى ، فيقول : « ولسنا ننكر هذه العيوب ونزارتها وما أقررنا له به من الفضائل وندارتها » (١٥٨)

ثم يعرض لحال المتعصبين للقديم لمجـرد قدمه وسبق الزمن بصاحبه ويرى انهم غفل سذج ، وانه من الأولى بهم الا يتعرض لهم ، وأن يتركهم وشأنهم يتخبطـون في عمايتهـم وضلالتهم وجهلهم فيقول : « وستجد ناصرا لا يصدق معاصرا ولا يفضل على متقدم عصر متأخرا يبنى على ضعفه اسمه ، ويفديه مـن الجهل والعيب بنفسه فاذا اعترضك من هذا النمط معترض فأعرض عنه ، ودعـه علـى أخلاقه .... واتبع المنهج الذى أوضـحته لك (١٥٩) ثم يذكر أن فضلاء الشعراء كثيرون جدا الا انه قلما يسلم واحد منهم من هنـات وعيوب وسقطات وأخطاء ، فلكل منهم سقطاته وعيوبه ، ثم يرى ان يجتزىء بالعرض لبعض هذه العيوب ، اذ ليس فى وسعه ان يحيط بها وان يأتى عليها مستهدفا من وراء ذلك ايضاح منهج من مناهج النقد ، والتدريب عليه لا حرصا على انتقاص الفصحاء ، ولا رغبـة فى غمط حقوقهم والنيل منهم ، وليس الفـرض التنديد بالأدباء دون عرض المحاسن والفضائل وبيان نواحى النقص فمنهجه مبنى على القصد والاعتدال يقول : « وفضلاء الشعراء كثـير جدا ، ولكل سقطات ، وسأقفك على بعضـها لعظيم المؤونة فى الاحاطة بها ليس الا لأوضـح لك بذكرها منهجا من مناهج النقد ، لا حرصا على نقص الفصحاء ، ولا قصدا الى تهجـين الصرحاء ، وأية رغبة لنا فى ذلك وهم جرثومة

---

(١٥٦) رسالة اعلام الكلام : ٣٠

(١٥٧) رسالة اعلام الكلام : ٣٠

(١٥٨) رسالة اعلام الكلام : ٣٣

(١٥٩) رسالة اعلام الكلام : ٣٣

فروعنا ،وبهم افتخارنا جميعنا» (١٦٠)ومثل لذلك بزهير بن ابى سلمى ، وحمل عليه ، واورد جملة من سقطاته وطائفة من هنـــاته وعيوبه فى معلقته مع اعترافه برفعة مكانته فى الشعر وسمو منزلته فيه ، فيقول : « قـال زهير على ما وصفناه به ، ووصفه غيرنا من العلو والرفعة فى هذه الصنـــعة من مذهبتـــه الحكمية ومعلقته العلمية :

رايت المنايا خبط عشواء من تصب

تمتـه ومـن تخـطىء يعمـر فيهرم

وقد غلط في وصفها بخبط العشواء على اننا لا نطالبه بحكم ديننا ، لانه لم يكن على شرعنا، بل نطلبه بحكم العقل فنقول : « انما يصـح قوله لو كان بعض الناس يموت وبعضــهم ينجو ، وقد علم هو ، وعلم العالم حتى البهائم ان سهام المنايا لا تخطىء شيئا من الحيـوان حتى يعمها رشقها ، فكيف يوصف بخبـــط العشواء ... (١٦١) فهو لا يعيب على زهير هذا البيت ، ولا يأخذ عليه ما فيه من مخالفة لعقيدتنا وخروج على ديانتنا ، لما كان عليـــه من جاهلية ، فهو غير مطالب بحـكم ديننـا وشريعتنا ، لانه لم يكن على شريعتنا ولم يكن يدين بديننا فلا تثريب عليه من هذه الناحية، وانما عاب عليه أنه عارض العقل وخالف المنطق فيما رآه ، وذهب اليه من أن المنايا خبـط عشواء ، فرأيه فى هذه القضية فائل ومذهبه باطل ، ثم عاب عليه بيتا آخر ورد فى معلقتـــه هو :

ومـن لم يذد عن حوضـه بســلاحه

يهـدم ومن لايظـلم لنـاس يظـلم

بأنه أسرف وتجاوز حدود الحق والعدل ،وقد كانت له مندوحة عن ذلك فيقول في تعليقه على هذا البيت : « وقد تجاوز فى هذا الحق الباطل وبنى قولا ينقضه جريان العادة وشهادة المشاهدة ، وذلك أن الظلم وعرة مراكبــه ، مذمومة عواقبه فى جاهليته واسلامنا ، فحرض فى شعره عليه » (١٦٢)

وهكذا مضى ابن شرف فى نقد زهير ، وعاب عليه ابياتا اخرى فى قصائد اخرى له غـــير المعلقة ، وبعد أن عرض لطائفة من هنـاته ، وعيوبه ختم حديثه عنه بأن له سقطات وهنات اخـرى غير ما سردها وعددها ، وانه اولا المشقة والكلفة لأتى عليها وعرض لها مع ما عرف عنه واشتهر به من انه أمدح الشعراء واجزلهم ، ثم ذكر ان التعصب له من الامور المستقبحة التى لا تحسن بالناقد المنصــف ، اذ ان النقد الموجه له لا يغمط حقه ، ولا ينال منه ، ثم ذكر ان ماجاء في شعره من هنــات وسقطات لا يخل بما عرف عنه من حـكمه الاخرى الرائعة وحسن اسلوبه ورقته ومـا أثر لنا عنه من أقوال مستحسنة وعبـــارات مليحة وان المستحسن لا ينكر ، والقبيح لايهمل فيقول : « ولزهير غير هذا من السقطات لولا كلفة الاستقصاء هذا على اشتهاره بأنه امدح الشعراء ، واجزل الوافـدين على الاشراف والأمراء ، ويتعامى المتعصب له عن وضوح هذا البيان ، وسينكر جميع هذا البرهان ، ويجعل التفتيش عن غوامض الخطأ والصواب استقصاء وظلما ومطالبة وهضما ، ويزعم ان جميع الشعر لو طلب هـذه المطالبــة لبطل صحيحه ، وانعجم فصيحه ، والباطل الذى زعم ، والمحال الذى به تكلم ، فالسليم سليم والكليم كليم ، وانما سمع المسكين أن أملح الشعر ما قلت عبارته ، وفهمت اشــارته

(١٦٠) رسالة اعلام الكلام : ٣٣

(١٦١) رسالة اعلام الكلام : ٣٣ ـ ٣٤

(١٦٢) رسالة اعلام الكلام : ٣٤

ولمحت لمحه ، وملحت ملحه ، ورققت حقائقه، وحققت رقائقه ، واستغنى فيه باللمحة الدالة عن الدلائل المتطاولة ، وأمثال هذا الكلام فى استعمال لطائف النظام ، فتوهم أن خلل الشعر زلله وضعف اركانه ، وتناقض بنيانه وانقلاب لفظه لغوا ، وانعكاس مدحه هجوا داخل فيما قدمنا من الاوصاف المستحسنة ومن لمح اشاراته وملح عباراته » (١٦٣)

ثم يقرر بعد ذلك أن فيما ذكره واورده من شعر هذين الشاعرين الفحلين المتقدمين القديمين ما يغنى عن التفتيش عن سقطات سواهما ، ويجزىء عن تسقط عثرات غيرهما ومن عداهما والبحث عنها فليقس عليها ما لم يقله ، فقد أوضح امرا عظيما يتصل بسلوك الشاعر ومنهجه ونفسيته وانه تناول شعره ونقده من ناحية اتصاله بالمجتمع وتعلقه به ، فيقول : « وفيما أطلعتك عليه من شعرى هذين الفحلين والمتقدمين القديمين ما يغنى عن التفتيش عن سقطات سواهما ، فقس على ما لم تره بما ترى ، واعلم أن كل الصيد فى جوف الفرا . . . » (١٦٤)

ونراه يتعصب للمتنبى، وينتصر له، فيقول: « واما ابو الطيب المتنبى فقد شغلت به الألسن وسهرت فى أشعاره الأعين ، وكثر الناسخ لشعره والآخذ لذكره ، والغائص فى بحره ، والمفتش عن جمانه ودره ، وقد طال فيه الخلف وكثر عنه الكشف ، وله شيعة تغلو فى مدحه ، وعليه خوارج تتغايا فى جرحه ، والذى اقول : ان له حسنات وسيئات ، وحسناته اكثر عددا ، واقوى مددا ، وغرائبه طائرة وأمثاله سائرة ، وعمله فسيح ، ومميزه صحيح ، فيقدر ويدرى ما يورد ويصدر (١٦٥)

ويظهر من حديثه عن قدامى الشعراء واشعارهم ، وعن الشعراء المحدثين وانتاجهم، وما جادت به قرائحهم ، وموازنته بين الفريقين القدامى والمحدثين ان ضلعه كان مع المحدثين وميله اليهم وهواه معهم وتعصبه لهم ، كما يبدو لنا ذلك فى ثنايا الرسالة .

ثم أخذ فى سرد عيوب الشعر وتعدادها مبتدئا باللحن اظهر عيوب الشعر ، اذ تضيق عنه اللغة العربية ولا تتسع له ، وحذر من ارتكابه والوقوع فيه ، وان تحيل له بعض النحويين بشتى الحيل ، واعتذر له بمختلف الاعذار فيقول : « ومن عيوب الشعر اللحن الذى لا تسعه فسحة العربية كقول جرير : »

واو ولدت لعنزة جرو كلب
لسب بذلك الجرو الكلابا

فنصب الكلاب بغير ناصب ، وقد تحيل له بعض النحويين بكلام كالضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وكقول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع
من المال الا مسحتا او مجلف

فرفع مجلفا وحقه النصب ، وقد تحيل بعض النحويين ايضا للفرزدق على وجه الاقواء احسن منه ، فاحذر مثله ، واياك وما يعتذر منه بفسيح من العذر فكيف بضيق » (١٦٦)

ثم عد من عيوب الشعر ايضا خشونة حروف الكلمة كلفظة « بوزع » التى وردت فى بيت من قصيدة لجرير تعد من عيون شعره واحسن قصائده واجزلها وافصحها فثقلت

---

(١٦٣) رسالة اعلام الكلام : ٣٦ — ٣٧

(١٦٤) رسالة اعلام الكلام : ٣٧

(١٦٥) رسالة اعلام الكلام : ٢٥

(١٦٦) رسالة اعلام الكلام : ٣٧ — ٣٨

القصيدة ، واستبردت بهذه اللفظة التىلاتكاد تجد لها نظيرا فى شعر جرير كله وذكر أن الفرزدق قد كثرت في شعره الفاظ كثيرةخشنة يقول ابن شرف : « ومما يعاب به الشعر ، ويستهجنه النقد خشونة حروف الكلمة كقول جرير :

وتقول بوزع قد دببت على العصا

هلا هزات بغيرنا يا بوزع

وهذا البيت فى قصيدة من احلى قصائد جرير واملحها واجزلها وافصحها ، فثقلت القصيدة كلها بهذه اللفظة ، وللفرزدق لفظات كثيرة خشنة الحروف تجدها ان استقصيتها وفتشتها على لفظة جرير هذه ، ولا تكاد ترى اختا لها فى شعره » (١٦٧)

ثم عد من عيوب الشعر أيضا التعقيداللفظى وتقديم آخر الكلام وتأخير أوله ، وذكر انه مما يكرهه النقاد ، ولا يستسيغونه ، واننا لا نكاد نرى هذا العيب فى شعر جرير ويمثل له ببيت الفرزدق :

وما مثله فى الناس الا مملكا

ابو امه حى أبوه يقاربه

ويعلق عليه بقوله : « وهذا غاية التعقيد والتنكيد ، وليس تحته سوى انه شريف كابن أخته ، ولا تكاد ترى فى شعر جرير شيئا من هذا » (١٦٨)

ثم ذكر أن من عيوب الشعر ايضا الكسر وهو وصف شامل لكل عيوب الشعر ، وعده من أشد عيوب الشعر ، وأنه لايمكن ارتكابه والوقوع فيه ، اذ انه اذا وقع في الشعر أخرجه عن اسمه فلا يسمى الشعر الذى وقع فيه هذا العيب حينئذ شعرا ، وليس هذا العيب مما يقع لمن وصف بالشعر وعد شاعرا من الشعراء وسلك فى عدادهم ، اما سائر عيوب الشعر المتصلةبالوزن او القافية أو الضرورات الشعرية كالاقواء والايطاء والسناد والاكفاء والزحاف وصرف ما لا ينصرف ، فكل هذه العيوب محتملة ويمكن للشاعر ارتكابها ، والوقوع فيها واستعمالها ولا يخرج الشعر معها عن كونه شعرا الا أن السلامة من هذه العيوب وتجنبها وعدم الوقوع فيها وارتكابها افضل واجمل ، فيقول : »ومن عيوبالشعر كلها الكسر ، لأنه يخرجه عن نعته شعرا ، وليس مما يقع لمن نعت شاعرا ، فأما الاقواء والابطاء والسناد والاكفاء والزحاف وصرف ما لا ينصرف فكل ذلك يستعمل الا أن السالم من جميع ذلك افضل واجمل » (١٦٩) ثم عد من عيوب الشعر المذمومة مجاورة الكلمة ما لا يناسبها ولا يقاربها مثل مجاورة كلمة «الدل» لكلمة «الشنب» واقترانها بها فى قول الكميت:

حور تكامل فيها الدل والشنب

وكقول بعض المتأخرين فى مرثية له :

فانك غيبت فى حفرة

تراكم فيها نعيم وحور

وان كان النعيم والحور من مواهب أهلالجنة فليس بينهما فى النفوس تقارب ولا لفظة تراكم مما تجمع بين الحور والنعيم ، وكقول بعض المتأخرين :

والله لولا أن يقال تغيرا

وصبا وان كان التصابي اجدرا

لأعاد تفاح الخدود بنفسجا

لثما وكافور الترائب عنبرا

---

(١٦٧) رسالة اعلام الكلام : ٣٨

(١٦٨) رسالة اعلام الكلام : ٣٨

(١٦٩) رسالة اعلام الكلام : ٣٨

فأجاد الوصف واحسن الرصف لكون الورد من قبيل البنفسج ، وهكذا نجد ابن شرف قد بسط القول ، وافاض في الحديث عن العيب الذى سماه « مجاورة الكلمة ما لا يناسبها » (١٧٠) وعد هذا العيب من عيوب الشعر المذمومة .

ثم ذكر أن لفضلاء الشعراء المولدين سقطات وهنات مختلفات فى أشعارهم ، ووعد بأنه سيذكر أطرافا منها لا رغبة فى طلب الزلات وتلمسها ولا شهوة فى اقتفاء العثرات واستقصائها وتتبعها ، وانما لنستدل بها على اغراضنا ونقف منها على منهجنا ، ويضرب مثلا لذلك ببشار فقد كانت طبقات شعره تتفاوت وتتباين ، فيسمو ويرتفع كثيرها ، وينحط ويسفل قليلها ، وكذلك شعر ابى تمام حتى بلغ من تفاوت طبقات شعر هذين الشاعرين وتباينهما الى هذا الحد أنك لو سمعت جيدها لانكرت ان رديئهما لهما ، ولو صح عندك وثبت ان هذا الردىء لهما لأنكرت جيدهما ، ونفيته عنهما ، واقسمت أنه ليس لهما ، وانما هو لغيرهما فيقول : « ولفضلاء المولدين سقطات مختلفات فى اشعارهم ، اذاكرك منها فى أشياء لتستدل بها على اغراضك ، ولا لطلب الزلات ولا لاقتفاء العثرات ، كان بشار تتباين طبقات شعره فيصعد كثيرها ، ويهبط قليلها كثيرا ، وكذلك كان حبيب الطائى فاذا سمعت جيدها كذبت ان رديها لهما ، واذا صح عندك أن ذلك الردى لهما اقسمت أن جيدها لغيرهما » (١٧١)

ثم عد من عيوب الشعر الافتتاحات الثقيلة والابتداءات المستبردة المجوجة وضرب لهذا العيب امثلة كثيرة مثل قول ابى تمام :

هن عوادى يوسف وصواحبه

ومثل قول ديك الجن :

كأنه وكأنها حلل الخلة

وقف الحلول اذ بفمـا

ووجه العيب في افتتاحى ابى تمام وديك الجن انهما ابتدآ قصيدتيهما بضمائر لم يسبقها اسم ظاهر تعود عليه .

كما عاب أيضا الافتتاحات التى يتطير بها ، ويتشاءم منها ، والكلام المضاد للفرض المطلوب ويضرب مثلا لذلك بابتداء قصيدة ابى نواس التى انشدها جعفر بن يحيى البرمكى يهنئه ببنائه دارا جديدة ، فدخل عليه عند كمالها وقد جلس للهناء والدعاء ، وعنده وجوه الناس فابتدأ فأنشد قصيدة مطلعها :

اربع البلى ان الخشوع لبادى

عليك وانى لم اخنك ودادى

فنكس جعفر رأسه ، وتناظر الناس بعضهم الى بعض ثم تمادى ، فختم الشعر بقوله :

سلام على الدنيا اذا ما فقدتم

بنى برمك من رائحين وغادى

فكمل جهله، وتمم خطأه، وزاد القلوب المتوقعة للخطوب سرعة توقع ، واضاف للنفوس المتوجعة بذكر الموت شدة توجع ، وأراد أن يمدح فهجا ، ودخل أن يسر فشجى » (١٧٢)

ثم يضرب مثلا آخر لهذا العيب بما وقع للمتنبي في أول شعر انشده كافورا الاخشيدي وهو :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا

وحسب المنايا ان يكن امانيا

---

(١٧٠) تحدث ابن شرف عن هذا العيب في ص ٣٨ ، ص٣٩ من رسالة أعلام الكلام .

(١٧١) رسالة اعلام الكلام : ٣٩

(١٧٢) رسالة اعلام الكلام : ٤٠

ووجه العيب فى هذا المطلع انه خاطب كافورا بالكاف ، وهذا أمر مستهجن ، وخاصة فى أول لقاء له معه وفى ابتداء استجداء واستعطاف ... » (١٧٣)

ثم يضرب مثلا آخر لقبح مطلع القصيدة واستفتاحها وقع لأحد الشعراء المعاصرين له، فيذكر أن بعض الشعراء أنشد بعض الأمراء فى يوم المهرجان :

لا تقل بشرى ولكن بشريان

غرة الداعى ووجه المهرجان

فأمر الأمير باخراج الشاعر، واستطاربافتتاحه وحرمه احسانه ، ثم علق على هذا المطلع **المستقبح بأنه لو كان هذا الشاعر حاذقا لكان** اصلاح هذا الفساد أيسر الاشياء عليه ،وذلك بأن يعكس البيت فيقول :

وجه من أهوى ووجه المهرجان

اى بشرى هى لا بل بشريان (١٧٤)

ثم يذكر أن من عيوب القافية البالغةالغاية في الاستهجان والاستقباح انتأتى بكلمةالقافية معجمة لا ترتبط بما قبلها من الكلام ، وانما هى مفردة بحشو القافية كقول بعض الشعراء:

فبلغت المنى برغم أعاديك

وابقاك سالما رب هود

يقول ابن شرف : « فأنت ترى غثاثة هذه القافية ، والله تعالى رب جميع الخلق وكل شيء فخص هودا عليه السلام وحده لضعف نقده ، وعجز عن الاتيان بقافية تليق وتحسن » (١٧٥)

ثم يذكر ان مما يقبح فى النسيب الجفاء على الحبيب والقسوة عليه والتضجر ببعده ، واغلاظ العقاب على هجره وصدوده ،ويضرب مثلا لذلك بقول أبى نواس فى أول قصيدته المشهورة التى مدح بها الخصيب بن عبد الحميد عامل مصر :

اجارة بيتينا ابوك غيور

وميسور مايرجى لديك عسير

فان كنت لا خلا ولا أنت زوجة

فلا برحت منا عليك ستور

وجاورت قوما لا تزاور بينهم

ولا قرب الا ان يكون نشور

يقول ابن شرف : « فلم اسمع بأوحش من هذا النسيب ، ولا بأخشن من هذا التشبيب **وذلك قوله ان لم تكوني لى زوجة ولا صديقة فلا برحت منا ستور التراب عليك** ، ولا كان **جاركما عشنا نحن الا الموتى الذينلا يتزاورون** ولا يتواصلون الى يوم النشور مع أن كلامه يشهد عليه بأنه شاك ، وانما المعروف فى أهل الرقة والظرف ، والمعهود من اهل الوفاء والعطف ان يفدوا احبابهم بالنفوس من كل مكروه وبوس ، **فأين ذهبت ولادته البصرية** وآدابه البغدادية حتى اختار الغدر علىالوفاء وبلغت به طباعه الى أجفى الجفاء » (١٧٦)

ثم عرض للسرقات الشعرية ، وعدها من **عيوب الشعراء ، وذكر أن أنواعها كثيرة** واقسامها متعددة ، فمنها سرقة الفاظ ،ومنها سرقة معان ، وبين أن سرقة المعانى اكثر من سرقة الالفاظ لانها اخفى ، وسرقة المعانى متعددة : فمنها سرقة المعنى كله ، ومنهاسرقة

---

(١٧٣) رسالة اعلام الكلام : ٤٠

(١٧٤) رسالة اعلام الكلام : ٤١

(١٧٥) رسالة اعلام الكلام : ٤١

(١٧٦) رسالة اعلام الكلام : ٤١ ـ ٤٢

البعض ، ثم ذكر ان احسن السرقات السرقة باختصار في اللفظ وزيادة في المعنى ، وان اقبح السرقات هي السرقة بزيادة الفاظ مع قصور عن المعنى ، وهناك سرقة محضة بلا زيادة ولا نقص ، والفضل في مثل هذه السرقة راجع للمسروق منه ، ولا شيء للسارق ، ومثل لها بسرقة ابى نواس معنى بيت ابى الشيص بتمامه وهو :

وقف الهوى بى حيث انت فليس لى
متأخر عنه ولا متقدم

فسرق ابو نواس معنى هذا البيت بكماله فقال :

فما حازه جود ولا حل دونه
ولكن يسير الجود حيث يسير

يقول ابن شرف : « فهذا على ان بيت ابى الشيص احلى واطبع ، ومع حلاوته جزالة وقد ذكر عن الحسن انه قال : ما زلت احسد ابا الشيص على هذا البيت حتى اخذته منه ، وسرقة المعاصر قصور همة » (١٧٧)

ثم ختم حديثه عن عيوب الشعر بالحديث عن الاخلال بالتناسب فى المعنى والأبيات ، أو تعقيد الكلام ومثل له بقول المتنبى :

« كفى بك داء ان ترى الموت شافيا »

وهذه العيوب التى عرض لها ابن شرف أوسعها علماء البلاغة والبيان بحثا ودراسة ، وافاضوا فى الحديث عنها ، فالاخطاء اللغوية معيبة يؤاخذ عليها الشاعر واللحن ينتقص من قدرة الشاعر ، ويغض من شأنه ، والخلل اللفظى فى المفردات وفى التراكيب معيب على الشاعر ، ويستوجب توجيه النقد اليه .

ثم ختم الرسالة بالحديث عن أحسن الشعر واجوده ، فقال : «فأما نقد المستحسن فتمثيله لك يعظم ويتسع لكثرته فلا يسعنا ايراده ، وكفى ما سلم فى جميع ما أوردناه فهو فى حيز السالم ، ثم تتسع طبقات الجودة فيه ، واحسن الحسن منه ما اعتدل مبناه ، واغرب معناه ، وزاد من محمودات الشعر على سواه ثم يمدح الأدون فالأدون بمقدار انحطاطه الى حيز السلامة ، ثم لا مدح ولا كرامة » (١٧٨)

ثم بدا لابن شرف أن يسأل أبا الريان السؤال الاخير بعد أن طوف معه كل هذا التطواف ، فسأله عن مذهبه فى انتقاء الاشعار واستفسر عن منهجه وطريقته فى اختيارها ، وعزم عليه ان يخبره عما سأله عنه ، واقترح عليه أن ينشده ولا يمل من مستحسن الاشعار واجودها ، وأن يملى عليه ولا يمل من منتقاها ومتخيرها ، ومنتخبها ، فأجابه أبو الريان الى طلبه ، وحقق رجاءه ومبتغاه . وهكذا نجد ابن شرف يختتم رسالته بايراد عدة امثلة من اجود الاشعار ومنتخبها ومتخيرها فى شتى الموضوعات وفى مختلف الاغراض ، فابتدأ بايراد طائفة منها في الحكمة وما جرى مجرى المثل ، ثم عرض لأمثلة اخرى من منتخب شعر الغزل ، ثم اتبع ذلك بايراد مختارات من المراثى مبتدئا بمرثية قتيلة بنت النضر بن الحارث فى اخيها النضر بن الحارث وقد قتله الرسول صلى اللى عليه وسلم صبرا ، وتعد هذه المرثية من احسن المراثى وافصحها واوجعها واقرحها ، ثم عرض لمنتخبات من اشهر المدائح وبذلك تنتهى هذه الرسالة .

هذه هي رسالة اعلام الكلام لابن شرف التى تمثل آراءه النقدية ، ومن حديثنا عنها ، وعرضنا لآرائه فيها يتبين لنا أن آراءه النقدية قد عرض لها كثير من النقاد السابقين عليه والمعاصرين له كالجاحظ وابن قتيبة وابن رشيق

---

(١٧٧) رسالة اعلام الكلام : ٤٢

(١٧٨) رسالة اعلام الكلام : ٤٦

وان ابن شرف لم يأت بجديد فى هذه القضايا النقدية التى عرض لها كما يتبين لنا من آرائه النقدية فى هذه الرسالة أنه بالرغم من الجهد الذى بذله فى اصدار احكام صحيحة على الشعراء وبيان منازلهم وتقويم أدبهم ، فان هذا الجهد قد ضاع فى خضم التعابير اللغوية المتخيرة ، وغاب في أمواج الالفاظ المنتقاة ، كما نلاحظ انه يهمل التدقيق فى الافكار التى يبنى عليها أحكامه كما فعل قريعه ومنافسه ابن رشيق فى كتابه « العمدة » ومن ثم جاءت أحكامه عامة خالية من التحليل والتدقيق ضائعا ما فيها من صواب محدود فى خضم السجع الركيك وحواشي الالفاظ وغريبها ، وغائبا ما اشتملت عليه من أفكار فى أسلوب المقامات التى التزمه فى هذه الرسالة ذلك الأسلوب المعنى بتزيين الالفاظ ، وتزويق العبارات والحافل بالمحسنات البديعية والصنعة اللفظية ، حتى انه لا وجه للمقارنة والموازنة بين أحكام ابن شرف وآراء ابن رشيق التى بلغت درجة الكمال اذ يوجد بون شاسع بينهما ، فابن شرف ، فضلا عن أسلوبه الذى هو دون أسلوب ابن رشيق فى كتابه « العمدة » ، لم يبلغ منزلة ابن رشيق فى النقد الأدبى ، ولنجتزىء بعرض آرائهما فى قضية القديم والمحدث ، فابن شرف يقول : (وتحفظ من شيئين : احدهما أن يحملك اجلالك القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تستمع له ، والثاني : أن يحملك اصغارك المعاصر المشهور على التهاون بما أنشدت له ، فان ذلك جور فى الاحكام وظلم من الحكام ، حتى تمحص قوليهما فحينئذ تحكم لهما أو عليهما ، فهذا باب فى اعتلاقه استصعاب ، وفي صرف العامة وبعض الخاصة عنه اتعاب ، وقد وصف تعالى فى كتابه تشبث القلوب بسيرة القديم ونفارها عن المحدث الجديد ، فقال حاكيا لقولهم : « انا وجدنا آباءنا على أمة » ..... فلا يرعك أن تجرى على منهاج الحق فى جميع الخلق ، فيه قامت السموات والأرض ، وبه احكم الابرام والنقض (١٧٩) وابن شرف لم يأت بجديد فى هذه القضية ، ولم يعد أن يكون مرددا لكلامهم . فمعاصره ابن رشيق أدلى بدلوه فى هذه القضية وتكلم فيها بأسلوب أوضح من أسلوب ابن شرف ، وعالجها على نحو أكمل واوفي مما عالجها به صاحبنا ، فهو مثلا يستهل الباب الذى عقده فى العمدة بعنوان « باب فى القدماء والمحدثين بالحملة على المقاييس البالية التى اصطنعها الرواة واللغويون فى تفضيلهم القديم لمجرد قدمه وسبق الزمن بصاحبه ، ويبين أن القدم والحداثة أمران نسبيان ، فيقول : « كل قديم من الشعراء فهو محدث فى زمانه بالاضافة الى من كان قبله (١٨٠) ... » كما يقول في موضع آخر : « وانما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين : ابتدأ هذا ببناء فأحكمه وأتقنه ، ثم اتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وان حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وان خشن » (١٨١) كما نجد لابن قتيبة السابق عليهما فى هذه القضية رأيا اكثر دقة ووجاهة وصوابا من رأييهما ، فقد بسط القول فى هذه القضية وفصله ، وافاض فيه حيث يقول : « ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لقدمه ، والى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل للفريقين ، واعطيت كلا حظه ، ووفرت عليه حقه ، وأنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لقدم قائله ، ويضعه فى متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب عنده الا أنه قيل فى زمانه ،

---

(١٧٩) رسالة اعلام الكلام : ٢٨

(١٨٠) العمدة ١ ـ ٧٣

(١٨١) العمدة ١ : ٧٤

أو انه رأى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم » (١٨٢) كما يقول بعد ذلك : « فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، واثنينا به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ، ولا حداثة سنه ، كما ان الردىء اذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه » (١٨٣) ويردد ابن قتيبة رأيه هذا في القديم والمحدث مرة اخرى في مقدمة كتاب « عيون الأخبار » حيث يقول : « وكذلك مذهبنا فيما نختاره من كلام المتأخرين وأشعار المحدثين اذا كان متخير اللفظ لطيف المعنى لم يزر به عندنا تأخر قائلة، كما انه اذا كان بخلاف ذلك لم يرفعه تقدمه ، فكل قديم حديث في عصره ، وكل شرف فأوله خارجية ، ومن شأن عوام الناس رفع المعدوم ووضع الموجود ورفض المبذول وحب الممنوع وتعظيم المتقدم وغفران زلته وبخس المتأخر والتجنى عليه ، والعاقل من ينظر بعين العدل لا بعين الرضا ، ويزن الأمور بالقسطاس المستقيم » (١٨٤) ومن أقوال ابن قتيبة التى عرضنا لها في قضية القديم والحديث نجد أن رأيه في هذه القضية كان أكثر دقة وصوابا ووجاهة من رأى ابن شرف وابن رشيق .

وهكذا يتضح لنا اتجاه ابن شرف في النقد الأدبى وطريقته فى تناول القدامى والمحدثين والموازنة والمقارنة بينهم وقضية القديم والحديث حظيت باهتمام كبير من النقاد العرب ، وكانت الشغل الشاغل للأوساط الادبية في المشرق والمغرب على السواء وفي جميع العصور ومختلف البيئات ، وقد بينا موقف معاصره ابن رشيق منها ، وموقف ابن قتيبة السابق عليهما من هذه القضية أيضا .

كما يتضح لنا كيف تناول ابن شرف فى رسالته « أعلام الكلام » الشعر والشعراء ومنازلهم فى جاهليتهم واسلامهم ومذاهبهم قديمهم وحديثهم ، وكيف كانت الاشعار قبل امرىء القيس سواذج حتى جدد فيها ، ووضع الأساس الذى بنى عليه الناس ، وكيف أقام الصوى والأعلام التى اهتدى بها كل من جاء بعده ، فقد كانوا يقولون : « اسيلة الخد » حتى قال امرؤ القيس : « اسيلة مجرى الدمع » وكانوا يقولون : « تامة القامة وطويلة القامة واشباه هذا حتى قال امرؤ القيس : « بعيدة مهوى القرط » واشباه هذا من الاستعارات والاشارات التى لم يفطن لها من قبله ، وتأسى بها وبنى عليها من أتى بعده ، فحسنت بها أشعارهم ، وكيف أخذ يتناول كل شاعر على حدة ، ويعرض لأخباره المشهورة وسماته ومميزاته الخاصة به ، وكيف مضى في ابداء رأيه على هذا النحو فى مشاهير شعراء المشرق، ثم انتقل بعد ذلك الى مشاهير الشعراء المغاربة والاندلسيين يعرض لهم ، ويبدى رأيه فيهم دون التقيد بمنهج نقدى شامل ودون تحليل أو تعليل ، وكيف عرض بعد ذلك لطائفة من عيوب الشعر ، وكيف اختتم رسالته بايراد نماذج وعرض أمثلة من أجود الاشعار ومتخيرها فى شتى الموضوعات ومختلف الاغراض مبتدئا بعرض أبيات من شعر الحكمة وما جرى مجرى المثل ، ثم عرض لأمثلة أخرى متخيرة من شعر الغزل ، ثم أورد منتخبات من المراثى مبتدئا بمرثية قتيلة بنت الحارث فى اخيها النضر بن الحارث احسن المراثى وافصحها واوجعها ثم عرض ذلك لمنتخبات تعجبه من اشهر المدائح .

هذه هى طريقة ابن شرف فى النقد الأدبى ، وهى كما رأينا لا تتقيد بمنهج نقدى يقوم على الاستقصاء والاستقراء والتحليل والتعليل

---

(١٨٢) مقدمة الشعر والشعراء : ٦ — ٧

(١٨٣) مقدمة الشعر والشعراء : ٧

(١٨٤) مقدمة عيون الاخبار : ٧

والتدقيق وانما تتناول طائفةمن الاخبار النقدية واثارات متفرقة هنا وهنـاك ، وتبدى آراء جزئية في هذا الشاعر او ذاك ، وتصدر احكاما عامة متناثرة في الأدب . يقـول احمد امين : « وظهرت في المغرب حـركة جيـدة في النقد الأدبي وردت أول الأمـر نتفـا في كتب الأدب كقول عبد الكريم النهشلي : قد تختلف المقامات والأزمنة والبـلاد ، فيحسن في وقت مـا لا يحسن في آخر ، ويتستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره .... ومثل قـول ابراهيم الحصرى : الشعر مطبوع ومصنوع ، فالمطبوع الجيد الطبع مقبول في السمع قريب المثال بعيد المنال أنيق الديباجة رقيق الزجاجة .... ثم ارتقى هذا النقد حتى صار موضوعا قائما بنفسه » (١٨٥) وتظل هذه الطريقة في النقد الادبي سائدة في المغرب الى أن يجيء ابن رشيق فيتخصص في نقد الشعر عامة ، وينفرد به ، ويوليه عنايته واهتمامه ويشمله برعايته ، ويأخذ لهـذا الأمـر اهبته ، ويعد له عدته ، فيبوب البحث وينظم منهجه ، ويفرد لذلـك كتابه « العمدة » الذى توج به حـركة النقد الادبى التى ظهرت في المغرب ، فقد نقل فيه فن النقد الادبى كما يقول الأستاذ احمد امين : « من نقد شاعر خاص أو شعراء معينين كما فعل صاحب الموازنة والوساطة الى نقد للشعر عامة » (١٨٦) ويقـول ابن خلدون : « وهـو الكتاب الذى انفرد بهـذه الصـناعة واعطاها حقها ، ولم يكتب فيها أحد قبلـه ولا بعـده مثله » (١٨٧) ويقول فيه القفطى : « وهـو اجل كتبه واكبرها ، وانه اشـتمل على ما لم يشتمل عليه تصنيف من نوعه ، واحسن فيه غاية الاحسان » (١٨٨) .

★ ★ ★

---

(١٨٥) ظهر الاسلام ١ : ٣٠٦ ـ ٣٠٧

(١٨٦) ظهر الاسلام ١ : ٣٠٧

(١٨٧) مقدمة ابن خلدون : ٥٧٤

(١٨٨) انباه الرواة ١ : ٣٠٣

مراجع البحث

١ ـ الأعلام للزركلى ط ثانية سنة ١٩٥٥م .

٢ ـ أعلام الكلام لابن شرف القيروانى ط مكتبة الخانجى سنة ١٣٤٤هـ .

٣ ـ انباه الرواة على أنباء النحاة للقفطى تحقيق أبى الفضل ط دار الكتب ج ١ سنة ١٩٥٠م . وج٢ سنة ١٩٥٢ ١٩٥٢ وج٣ سنة ١٩٥٥م وج٤ سنة ١٩٧٣م .

٤ ـ بدائع البدائه لعلى بن ظافر ط بولاق سنة ١٢٧٨هـ .

٥ ـ بساط العقيق لحسن حسنى عبد الوهاب ط المطبعة التونسية سنة ١٣٣٠هـ .

٦ ـ بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة للسيوطى ط السعادة سنة ١٣٢٦هـ .

٧ ـ البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب لابن عذارى ط بيروت بدون تاريخ .

٨ ـ تاريخ الادب العربى لبروكلمان ترجمة عبد الحليم النجار ط دار المعارف سنة ١٩٥٩م .

٩ ـ تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى ط الحسينية المصرية سنة ١٣٢٦هـ .

١٠ ـ حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها لعبد الرحمن ياغى ط بيروت سنة ١٩٦١م .

١١ ـ الخريدة ، قسم شعراء المغرب للعماد الاصفهانى ط تونس سنة ١٩٦٦م .

١٢ ـ ديوان ابن رشيق جمع وتحقيق الدكتور عبد الرحمن ياغى ط بيروت .

١٣ ـ الذخيرة لابن بسام ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٥م .

١٤ ـ رسائل البلغاء اختيار وتصنيف محمد كرد على ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦م.

١٥ ـ ابن رشيق القيروانى للدكتور/عبد الرؤوف مخلوف سلسلة أعلام العرب ط لجنة التاليف والترجمة والنشر .

١٦ ـ زهر الآداب للحصرى تحقيق علي محمد البجاوى ط الحلبى سنة ١٩٥٣م .

١٧ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق الشيخ أحمد شاكر ط الحلبى سنة ١٣٦٦هـ .

١٨ ـ الصلة لابن بشكوال ط مكتب نشر الثقافة الاسلامية سنة ١٩٥٥م .

١٩ ـ ظهر الاسلام لاحمد أمين ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٢٠ ـ العمدة لابن رشيق القيروانى تحقيق محيى الدين ط مصر سنة ١٩٣٤م .

٢١ ـ عيون الأخبار لابن قتيبة ط دار الكتب سنة ١٩٢٥م .

٢٢ ـ الغيث المسجم فى شرح لامية العجم للصفدى ط الوطنية بالاسكندرية سنة ١٢٩٠هـ .

٢٣ ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى تحقيق محيى الدين ط النهضة سنة ١٩٥١م .

٢٤ ـ قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب لابن رشيق تحقيق الشاذلى بو يحيى ط المطبعة الرسمية بتونس سنة ١٩٧٢م .

٢٥ ـ الكامل لابن الاثير ط مصر سنة ١٢٩٠ هـ .

٢٦ ـ كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون لحاجي خليفةط استامبول سنة ١٣١٠هـ .

٢٧ ـ مجلة المقتبس المجلد السادس .

٢٨ ـ مسالك الأبصار ج ١١ قسم ٢ مصورة معهد المخطوطات بالجامعة العربية .

٢٩ ـ المطرب من أشعار اهـل المغرب لابن دحيـة تحقيـق الابياري وزميله ط المطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٩٥٤م .

٣٠ ـ معالم الايمان في معرفة اهل القيروان للدباغ ط تونس سنة ١٣٢٠هـ .

٣١ ـ معجم الأدباء لياقوت الحموي ط دار المأمون .

٣٢ ـ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع للبكري تحقيق السقاط لجنة التاليف سنة ١٩٤٥م .

٣٣ ـ مقدمة ابن خلدون ط المكتبة التجارية بدون تاريخ .

٣٤ ـ المكتبة الصقلية لاماري ط ليبسك سنة ١٨٥٧م .

٣٥ ـ المؤنس في أخبار افريقية وتونس لابن أبي دينار ط تونس سنة ١٢٨٦هـ .

٣٦ ـ النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف للميمني ط السلفية سنة ١٣٤٣هـ .

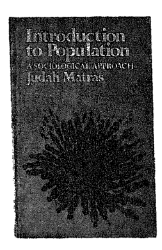
٣٧ ـ هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين لاسماعيل البغدادي ط استامبول سنة ١٩٥٥م .

٣٨ ـ الوافي بالوفيات للصفدي ج ٣ ط الهاشمية بدمشق سنة ١٩٥٣م .

٣٩ ـ وفيات الاعيان لابن خلكان تحقيـق محيي الدين ط السعادة سنة ١٩٤٨م .

★ ★ ★

عرض الكتب



مقدمة السكان

تحليل سوسيولوجي

عرض وتحليل الدكتور مصطفى ناجي

يتكون الكتاب من ثلاثة اجزاء رئيسية مقسمة الى سبعة عشر فصلا بالاضافة الى أربعة ملاحق وثماني صفحات من البيبلوجرافيا وفهرس . وتبلغ مجمل صفحاته ٤٥٢ صفحة. يضم الجزء الاول خمسة فصول ويعالج بصفة اجمالية التصورات المختلفة عن الناس والسكان والمجتمعات
(Perspectives on People, and Societies)
وفيه استعرض المؤلف تأثير التغيرات السكانية على التنظيم الاجتماعي والاقتصادى والسياسي بصفة اجمالية وفى المجتمع الامريكي بصفة خاصة .

الجزء الثانى من الكتاب (الفصل السادس ـ العاشر) يتضمن مناقشة عوامل التركيب السكانى ومتغيراتها ـ الوفيات (Mortality) ـ الولادات (Fertility) والهجرة (Migration) .

الجزء الثالث والاخير يشتمل على ستة فصول تتعلق بالنتائج التي تترتب على التغيرات السكانية وانماطها الديموجرافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ؛ كذلك السياسات السكانية .

Prentice-Hall, Inc., Englewood Cliffs. New Jersey 07632.

بدأ الفصل الاول باحصائيات توضح مدى الانفجار السكاني الذى حدث فى العالم خلال القرن العشرين ، حيث ازداد عدد السكان من بليون ونصف فى بداية القرن الى ما يقارب أربعة بلايين فى عام ١٩٧٥ ، مع احتمالية وصول هذا العدد الى ستة بلايين فى نهاية القرن المذكور اى بمعدل نمو يوازى أربعة اضعاف .

رغم الحديث الكثير عن الانفجار السكاني* والوعي الذى بدأ يتزايد عن أبعاد المشكلة يعتقد المؤلف ان ذلك لا يعني بالضرورة وجود تفهم علمي للمشكلة أو اتفاق على النتائج التي تترتب على الزيادة السريعة فى السكان ، وقد لخص الآراء المتداولة الى : ـ

أ ـ ظاهرة الانفجار السكاني تمثل كارثة على الجنس البشرى حيث ان النقص فى الغذاء والمصادر الاولية والتلوث والتلف الذى يحدث فى البيئة كلها يشكل ظواهر تنبيء وقوع كارثة ، وأن مجرد تخفيض معدل نمو الزيادة السكانية لن يؤخر وقوع مثل هذه الكارثة ، ولذا فهناك ضرورة حتمية وملحة لتوقف النمو السكاني تماما ، اى الوصول الى معدل للسكان معادل للصفر (Zero Population Growth)

ب ـ التزايد السكاني يوفر فرصة ذهبية للنمو والتوسع الاقتصادى والاجتماعي وذلك بتطويره فرص العمل ، ومساعدته فى اكتشاف واستغلال المواد الاولية عن طريق استعمال الابتكارات التكنولوجية والتنظيمية .

جـ ـ الانفجار السكاني يعتبر عاملا مضاعفا للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ويؤدى الى قصور الخدمات الاجتماعيةبصورة عامة . ومن مسلمات هذا الرأى أن حل كثير من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية سيكون متيسرا او تناقصت معدلات نمو السكان المرتفعة فى كثير دول العالم النامي .

تطرق المؤلف فى الفصل الثاني الى منشأ وتطور الحركة المنادية بتوقف النمو السكانى، كما استعرض نشاطات المنظمات القائمة بالدعوة لهذه الفكرة ، وناقش الوسائل التى اتبعتها لتحقيق اهدافها . لقد ظهرت هذه الحركة فى اوائل الستينات من خلال انشطة بعض منظمات القطاعين العام والخاص فى الولايات المتحدة بهدف التأثير على برامجتنظيم الاسرة وتشجيع تحديد النسل . وما لبثت ان تطورت أهداف الحركة من اهتمامأوليبسعادة الافراد كمبرر لتحديد النسل الىابراز خطورة النمو السكاني على النواحي الاجتماعية والديموجرافية والاقتصادية والسياسية كمبرر أساسي يستوجب ايقاف النسل . واشار المؤلف الى عدم وضوح كيفية التوصل الى الاهداف المنادى بها ، خاصة وانه من المسلم به أن تنظيم الاسرة الاختيارى لن ينتج عنه توقف أوتوماتيكي فى الزيادة السكانية . وأن تحقيق معدل نمو سكاني معادل للصفر يستوجب اعتبار برامج اخرى اجبارية .

رغم استمرار الجدل العلمي حول خطورة النمو السكانى وافضل الوسائل المتبعة « لتحديد » أو « ايقاف » النسل (اختيارية أو اجبارية) ودور الزوجين أو الافراد فى مقابل مسئولية الدولة ، نبه المؤلف الى حقيقتين :

(١) معدل الولادات فى الدول الغربية بما فيها الولايات المتحدة قد اخذت بالانخفاض الواضح حتى وصلت فى السبعينات الى مستوى منخفض يضمن بالكاد الاستبدال (Replacement)

---

* خصصت مجلة عالم الفكر العدد الرابع من المجلد ا لخامس (يناير ـ مارس ١٩٧٥) لمناقشة المشكلةالسكانية .

(٢) معدلات النمو السكاني فى بعض الدول النامية وخاصة فى دول شرقي آسيا كالصين وتايلند واندونيسيا وكمبوديا والجمهوريات الاسيوية فى الاتحاد السوفييتي قد بدات بالتناقص بشكل ملحوظ ، مما حدا بكثير من علماء الديموجرافية بدراسة احتمال توقف النمو السكاني عامةفىهذه الدول فىخلالالقرن العشرين وتحليل النتائج المحتمل وقوعها .

من النماذج المستخدمة فى شرح النمو السكاني التي قام المؤلف بمناقشتها فى الفصل الثالث نموذج التحول الديموجرافي (Demographic Transition) والتي تصف تجربة العالم الغربي والصناعي فى تخفيض معدل نموه السكاني منذ بداية حركةالتصنيع، ويمكن وصف مراحل هذا التحو كالآتي : ـ

١ ـ مرحلة ما قبل التصنيع وهي الفترة التي تكون فيها معدلات كل من الولادات والوفيات مرتفعة .

٢ ـ مرحلة بداية التصنيع وفيها تنخفض معدلات الوفيات معبقاء معدلات الولادات ثابتة ومرتفعة ، وهذه المرحلة هي التي ينتج عنها ما يسمى بالانفجار السكاني .

٣ ـ مرحلة التصنيع وفيها تبدأ معدلات الولادات بالانخفاض .

٤ ـ مرحلة ما بعد التصنيع وفيها تصل معدلات الولادات الى مستوىمنخفضبتناسب مع المعدلات المنخفضة للوفيات وبتمامها تتم مرحلة التحول الديموجرافي .

وفى نهاية الفصل حدد المؤلف ثلاثة انماط من استراتيجية الاستجابة لنمو السكان .

النمط الاول : ويشمل التوسع فى الحدود وضم اراض جديدة ، وهي استراتيجية اتبعت فى كل العصور (الحل السياسي أو الغزو) ولو أن احتمالاتها اصبحت ضعيفة فى الوقت الحاضر .

النمط الثاني : اقتباس الابتكارات الحديثة فى التكنولوجيا والنظم الاجتماعية لغرض استغلال الموارد الطبيعية استغلالا افضل (الحل الاقتصادى) .

النمط الثالث : ويتمثل فى تحديد نمو السكان سواء عن طريق زيادة الوفيات أو تناقص الولادات (الحل الديموجرافي) . ولقد كان اللجوء الى زيادة الوفيات وسيلة منتشرة فى بعض المجتمعات .

قدم المؤلف فى الفصل الرابع هيكلا عاما (Typology) ليوضح العلاقة بين العوامل الديموجرافية والتركيب الاجتماعي، وفى شيء من الدقة وصف اجتمالات تأثير هذه العوامل على البيئة الانسانية والنظم الاجتماعية .وقد قسم السكان حسب المتغيرات الآتية : العدد Size المساحة Area الكثافة السكانية (Population Density) ريف وحضر Rural / Urban والتركيب العمرى Age Structure وكذلك خصائص النمو . وكانت تقسيماته للمجتمع مقتصرة على : بدائية ـ بسيطة ـ ومتطورة بالنسبة لقدراتها التكنولوجية .

وبعد تعريف المجتمع الانساني على انه مجموعة من السكان المرتبطة بأنماط من العلاقات الاجتماعية بغرض المعيشة والتأقلم للبيئة المحيطة ، تطرق المؤلف الى النظريات العلمية البارزة فى حقل البيئة الانسانية Human Ecology والتي تصنف المجتمعات حسب طبيعة تكنولوجيا انتاج المواد الغذائية التي تمتلكها . وكذلك نظام تقسيم العمل فى هذه المجتمعات . وذكر المؤلف أن التحول التدريجي للمجتمعات من المستوى البدائي

البسيط الى التنظيم المتطور المعقد يعزى الى التوسع الايكولوجي المتأثر بالزيادة السكانية وما ينتج عنها من تكيف اقتصادى واجتماعي وتنظيمي لغرض تحمل المضاعفات التي قد تنشأ فى مرحلة النمو والتطور .

وبتطبيق مفاهيم الهيكل العام الذى حدده المؤلف على المجتمع الامريكي (الفصل الخامس) حاول أن يربط بين العوامل الديموجرافية ، وخاصة عامل الهجرة ، وبين التغيرات التي حدثت فى التكنولوجيا وانماط الاستيطان والتكيف الايكولوجي المتميز بالاتجاه الظاهر نحو العمران وخاصة فى الفترة التي اعقبت الحرب العالمية الثانية .

وبمقارنة امريكا ذات الطابع الريفي فى القرن التاسع عشر بامريكا الحضارية فى القرن العشرين ، اتصفت الاولى بانتشار المجتمعات الصغيرة Communities المنعزلة نوعا ما والمأهولة بالأسر ذات التركيب الممتد والوظائف المتعددة ومنها : الدينية والترفيهية وتربية النشء ، هذا بالاضافة الى كونها وحدات انتاجية واقتصادية كانت تمثل حلقة الوصل الرئيسية ما بين الفرد ونشاطاته واتصالاته فى المجتمع .

يتصف المجتمع الامريكي حاليا بالتركيز الشديد فى الكثافة السكانية فى جزء بسيط من مساحته الشاسعة وفى التزايد الحضرى والعمراني الهائل المتميز بالمجتمعات اللاامتجانسة التي يغلب عليها نمط الاسر الصغيرة التي تغير كثيرا من وظيفتها التربوية والاقتصادية والترفيهية وفقدانها لمعظم هذه النشاطات .

وابرز المؤلف اهمية عامل الهجرة (الخارجية منها او الداخلية) فى : ١) تشكيل انماط توزيع السكان وتطورها فى المجتمع الامريكي والتي ادت فى النهاية الى ظهور المدن الضخمة Megalopolis . ٢) احلال روابط اجتماعية متصفة بالحضارية محل الروابط التقليدية مثل رابطة الدين ، الجنسية ، المنشأ ، كذلك الروابط العائلية .

بدأ المؤلف الجزء الثاني من الكتاب بتعريف للتحليل الديموجرافي على انه وصف كمي للطاقة البشرية ولمكوناتها بالمجتمع . تلا ذلك استعراض أولي (الفصل السادس) لطرق دراسة النمو السكاني وكيفية حساب مؤشرات النمو ، وبين كذلك استعمالات أبرز هذه المؤشرات وهي معادلة الموازنة السكانية ($P_2 = P_1 + B - D + M$) حيث (P_2) حجم السكان فى وقت (2) يساوى حجم السكان / P_1/ فى وقت سالف زائدا حجم الولادة (B) ناقصا حجم الوفيات (D) زائدا أو ناقصا حجم الهجرة (M) . كذلك اشار الى بعض مصادر البيانات عن السكان مثل التعدادات والمسوحات وسجلات الظواهر الحياتية .

ومن الواضح أن الهدف من هذا الفصل هو تزويد القارىء المبتدىء بقليل من الخلفية العلمية من مفاهيم ومصطلحات ومؤشرات .

فى الفصول الاربعة التي تلت قام المؤلف بمناقشة علاقة التركيب الاجتماعي وكلا من الوفاة والبقاء (الفصل السابع) والزواج وصنع الزواج Match Making (الفصل الثامن) والولادات (الفصل التاسع) والهجرة (الفصل العاشر) .

تتبع المؤلف فى الفصل السابع التطورات التي حدثت فى معدلات الوفيات فى أوروبا وغيرها من القارات المسكونة بالعنصر الاوروبي حيث شهدت تناقصا تدريجيا ومستمرا منذ القرن الثامن عشر وحتى الحرب العالمية الثانية . وكان ذلك التناقص نتيجة لتحسن الاحوال الاجتماعية والتعليمية والاستجابة للتطور الاقتصادى والاستقرار السياسي الذى

ادى الى اصـلاحات اجتماعيـة وارتفاعات فى مستوى المعيشة وكذلك فى تحسن طرق الوقاية العامة ، أما فى الدول الناميـة فان الانخفاض السريع فى معدلات الوفيات الذى حدث عقب الحرب العالمية الثانية فيرجع الى ادخال وسائل الصحة العـامة والصـحة الوقائية والطب الحديث اكثـر مما هـو ناتج عن اى تغـير اجتماعي أو اقتصادى .

بالرغم من أن علماء الديموجرافية قد ابدوا اهتمامهم بدراسة الحالة الزوجية للسـكان وتأثيرها على معدلات الولادات ، الا انهم ، وفى راى المؤلف ، أقل رغبة فى دراسة العلاقة ما بين الزواج من ناحية وتركيب الاسرة وتكوين القرابات والطبقات الاجتماعية من ناحية ثانية حيث ظلت هذه المواضيع موضوع اهتمام علماء الاجتماع والانتروبولوجي. وعند مقارنة الدول الاوروبية والغير اوروبية نجد أن ظاهرة الزواج المتأخر او الامتناع الكلي عنه منتشرة فى معظم الدول الاوروبية عنهـا فى الدول الاخـرى ، وتفسير هذه الظواهر أنها ناتجة عن الشعور المتأصل بالفردية Individualism وبأهمية احساس الفرد بالاستقرار الشخصي والمـالي كخلفية لازمة للزواج والانجاب .

أن ظاهرة رواج الزواج Marriage Boom التي وقعت بعد الحـرب العالميـة الثانية فى الولايات المتحدة واوروبا حدثت بين مجموعات من السكان كانت تتحاشى الزواج كليا أو تختار الزواج المتأخر ولذا ادت حركة رواج الزواج هـذه الى تخفيض سـن الزواج وكذلك الى تخفيض نسـبة غير المتزوجين فى المجتمع مما نتج عنه تقارب معدلات الزواج فى المجتمعات الاوروبيـة وبين الريف والحضر وكذلك بـين الطبقات الاجتماعية المختلفة .

وفى تحليـل وصـفي انتروبولوجي لظاهرة الزواج ، اختيار الزوج ، والزواج المبكر أشار المؤلف الى التغيرات التي حدثت فى الزواج كنظام اجتماعي وركز بشكل محدد على اختلاف طبيعة الزواج فى المجتمعات الاوروبية أو التي من أصل أوروبي عنها فى المجتمعات الاخرى . ومن خصائص المجتمعات الاوربية :

١ ـ وجود فائض من النساء فى سن الزواج بالمقارنة بالمجتمعات الاخرى .

٢ ـ انتشار الفكرة القائلة بأن الزواج يجب أن تسـبقه فترة طـويلة من التعارف بين الطرفين .

٣ ـ اللجوء الى تأجيل الزواج نتيجة لشعور الفرد بأهمية الضـمانات الماليـة وتطلعه الى مستوى معيشة أفضل .

٤ ـ عملية اختيار الزوج أو الزوجة تتصف بأنها اقل تأثـرا بعوامل السـن أو العنصر أو الدين أو مستوى التعليم والقرابة واللغة عنها فى المجتمعات الاخرى .

هذا بالاضافة الى أن عـوامل اخـرى ذات طابع ديموجرافي يمكن أن تسبب حالات من الضغوط على الزواج Marriage Sqeze وذلك بجعلها العرض والطلب يفقدان التناسق فيما بينهما ، ومن أمثال هذه العوامل الهجرة المتزايدة لاحد الجنسين وكذلك اختلاف سن الزواج ما بين الـزوج والزوجـة المنتشر من الدول النامية . هـذا بالاضـافة الى بعض التقاليد التي تحتم الزواج من نفس الطبقـة الاجتماعية .

ان مسـؤولية اختيـار أو تحديد ظـروف الخطبة وكذلك مكان الاقامة وطبيعة الاحوال المعيشية للمتزوجين الجدد ما زالت فى يد الآباء أو الاقارب ، ولم تتـرك كامـلا للاشـخاص انفسـهم حتى في الزواج العصرى مـا زال للآباء قـدرة التحكم فى مكـان وكيفية تقابل الطرفين .

من المتفق عليه بين علماء الديموجرافيا أن عامل الولادات هو العامل الرئيسي المؤثر فى النمو السكاني . ولدراسة هذا المتغير يتبع الباحث عادة فى تحليله احد المستويين التاليين أو كليهما : ـ الأول Macro وهو عبارة عن تحليل العوامل الهيكلية الرئيسية المؤثرة على الخصوبة والولادات . الثاني Micro أو التحليل الدقيق المتعلق بدراسة العوامل السلوكية والفردية المؤثرة على الظاهرة .

رغم وصول معدلات الولادة فى اوروبا والدول الغربية عموما الى مستوى منخفض نسبيا في بداية الحرب العالمية الثانية ، عادت للزيادة فى الفترة التي تلت الحرب مباشرة Baby Boom ، وكان هناك نمطان لهذه الظاهرة (الاول) استمر لفترة زمنية قصيرة لتعويض حالات الولادات المؤجلة خلال فترة الحرب . (الثانية) أمتد لفترة اطول خاصة فى الولايات المتحدة واستراليا ونيوزلندا وكان محصلة تعويض للولادات المؤجلة فى فترة الحرب بالاضافة الى زيادة حقيقية فى معدلات الولادة والاتجاه نحو الولادات على فترات زمنية متقاربة . بدأت الولادات فى دول أوروبا الشرقية وجنوب أوروبا ودول امريكا اللاتينية مثل الارجنتين بالتساقط تدريجيا فى أبان الحرب العالمية الاولى ولكنها أخذت بالانخفاض السريع حتى الحرب العالمية الثانية .

عند بداية الحرب العالمية الاولى كان معدل الولادات فى الدول الاقل تطورا (النامية) عاليا نسبيا (أعلى من ٣٥ بالالف) ، وتتصف معدلات الولادة بالانخفاض الملحوظ فى مجموعة منها بعد الحرب العالمية الثانية بينما استمرت معدلات الولادة العالية فى البعض الآخر .

كما أبرز حقيقة ظاهرة وهي أن الدول التي أتجهت فيها معدلات الولادة بالانخفاض السريع لم تتبع الا القليل مما يوصف بسياسة سكانية محدودة ، وفى الواقع لم تحظ برامج تحديد النسل فى أغلبها بالتشجيع المباشر . ولذا استخلص المؤلف بأن منشأ الاسرة الصغيرة والعودة الى معدلات الولادة المنخفضة فى الدول الغربية ليس له علاقة وطيدة بأى سياسة سكانية حكومية بوجه عام .

لقد اتجه علماء الديموجرافية حديثا الى التحليل الدقيق Micro لموضوع الخصوبة والولادات والاختلافات فى كل منها كالتباين فى عدد الولادات وفى توقيت المواليد . هذا وبالاضافة الى ذلك يرجع الباحثون الى الكثير من النظريات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية لتفسير حجم الولادات واختلافاتها ومن امثلة ذلك نظرية العلاقة ما بين المنزلة الاجتماعية والحراك الاجتماعى Social Status and Social Mobility ومستوى الخصوبة وكذلك نظرية الكلفة ـ المنفعة ـ Cost-Benifit القائلة بان العامل الاقتصادى يتحكم فى تقديرات الزوجين وبالتالى فى لجوءهما الى استعمال اساليب منع الحمل او عدم استعمالها .

ذكر المؤلف ان دراسة الهجرة تتطلب وجهة نظر اكثر من خلفية علمية واحدة ثم تطرق الى شرح تاريخى للهجرة العالمية وخاصة الهجرة من أوروبا والتى اتجه معظمها الى الولايات المتحدة ، ورغم ذلك فان نسبة المهاجرين الى المولودين فى الشعب الامريكى لم تزد فى دورتها عن ١٣٪ . وقليل جدا من دول العالم التى يبلغ فيها المهاجرون نسبة عالية من السكان تصل فى بعض الحالات الى النصف مثل الكويت وهونغ كونغ واسرائيل .

كان للهجرة الداخلية تأثير كبير على توزيع السكان فى الولايات المتحدة وعلى حركتهم الى الغرب التى صاحبت الاسكان بالولايات الغربية وخاصة ولاية كاليفورنيا . كما ادت الى التزايد السريع فى درجة العمران بالولايات المتحدة فى فترة زمنية قصيرة . وتظهر آثار التحرك

السكانى أيضا فى ظاهرة نمو الضاحية Suburbanization الذى تزايدت بشكل ملحوظ من بعد الحرب العالمية الثانية .

رغم ان معظم العوامل الخلفية التى ينبغى دراستها بالنسبة لظاهرة الهجرة ما زالت غير واضحة ومتغيرة التأثير فان معظم النظريات التى توضح اسباب الهجرة تركز حول ضرورة فهم تأثير العوامل الاقتصادية على الميل للهجرة وكذلك علاقة الصفات الاجتماعية والديموجرافية كالعمر والحالة الزوجية والجنس وخلافه على الاستعداد للهجرة .

هذا ورغم الاعتراف بوجود عدة عوامل غير اقتصادية مؤثرة على ظاهرة الهجرة الا انه ما زال ينظر الى تحركات القوى البشرية على انها متعلقة بصورة رئيسة بالعوامل الاقتصادية خاصة فرص التوظيف ، اختلاف الاجور ، وهيكل سوق العمالة والبطالة بانواعها .

ان للهجرة تأثيرا واضحا ليس فقط على المجتمع بل ايضا على الفرد وهناك علاقة ما بين هجرة الافراد وصفاتهم الديموجرافية وغير الديموجرافية كالخصوبة والانحرافات والمرض العقلى وخلافه . بالاضافة لذلك فان الهجرة تأثيرا آخرا مباشرا على العلاقات والمنظمات الاجتماعية وكذلك على الميول السياسية والانفصال العنصرى أو الثقافى ونظم التعليم وخلافه .

وباختصار ان معظم المجتمعات التى تشتد بها حركة الهجرة يجب ان تطور منظماتها ومؤسساتها لكى تضمن الاستقرار والاستمرارية فى الصلات والتفاعلات الاجتماعية على جميع المستويات .

فى الجزء الثالث من الكتاب يناقش المؤلف انماطا مختلفة من الاستجابات الاجتماعية والديموجرافية والاقتصادية والسياسية للتغير السكانى . ويبتدىء الفصل الحادى عشر بمناقشة تأثير التغير السكانى على النظم الاجتماعية مثل تقسيم الـ Division of Labor وتوسيع المحيط الاجتماعى وكذلك تبنى المبتكرات والاستفادة منها مستعينا فى شرحه بالنظريات العلمية المفسرة لهذه الظواهر ومشيرا الى أن النمو السكانى على نطاق واسع يجعل مستحيلا على التركيب الاجتماعى ان يستمر بصورته الاولى . هذا بالاضافة الى ان التزايد فى الكثافة السكانية يؤدى بدوره الى تكثيف النشاطات المتعلقة بانتاج المواد الاساسية كما حدث فى ظاهرة الانقلاب الزراعى Agriculture Revolution

لقد حدد المؤلف نمطين من استراتيجية الاستجابة الديموجرافية للنمو السكانى ويتلخص فى : أ) زيادة الاتجاه العمرانى بما فيه زيادة وتعدد المناطق المتصفة بالحضر والعمران وانتشار المدن الكبيرة Megalopolis ب) التجاء بعض المجتمعات الى تشجيع الهجرة الخارجية . ونظرا لان احتمالات الهجرة الخارجية اصبحت فى عالمنا الحاضر محدودة ، فان النمط الرئيسى للتجاوب ينحصر فى الاتجاه نحو العمران وفى استعمال الزراعة المكثفة . ولظاهرة العمران صفات اجتماعية مميزة منها تباين صفات السكان Heterogeneous وتنوع وتعدد الاتحادات والنظم الاجتماعية . هذا بالاضافة الى الميل للتخصص Specialization الوظيفى والبنائى .

ونظرا لعدم وجود سياسة تحكم الهجرة الداخلية فى معظم الدول باختلاف بعض الدول الاشتراكية ، فان المؤلف يتساءل عما اذا كان من المستطاع التأثير فى الحراك السكانى عن طريق سياسة سكانية محددة . ويستخلص بان الموضوع ما زال يحتاج الى بحث اكثر لتحديد ابعاده .

فى الفصل الثالث عشر انتقل المؤلف الى مناقشة اشكال الاستجابة الديموجرافية وابتدأ بذكر مبدأ قديم عن الضوابط الايجابية Positive Check لمالتوس والقائلة بحتمية ارتفاع الوفيات فى حالة زيادة السكان عن الموارد الغذائية . وتساءل المؤلف عما اذا كان من الممكن ان تسمح اخلاقيات المجتمعات الحديثة بمعدلات اعلى للوفيات كوسيلة لمجابهة اية زيادة فى السكان غير متوازنة مع الزيادة فى الموارد الغذائية وبالتالى هل تلجأ الى تخفيض معدلات الوفيات فى حالة نقص السكان ، استخلص من الدراسات التى قام بها كل من Clark و Kreziok عن اتجاهات معدلات الوفيات بين الاطفال فى المجتمعات الريفية والغير صناعية الى انه من الجائز ان تكون التغيرات التى تحدث فى مستوى الوفيات وفى معدلاتها حسب العمر استجابات من المجتمع لظاهرة نمو السكان بغرض التكييف والبقاء .

كما نبهنا المؤلف الى فكر اخر من افكار مالتوس عن اهمية التحكم فى سن الزواج كوسيلة من وسائل الحد من النمو السكانى والذى لا شك فيه ان انماط الزواج والطلاق واعادة الزواج والقيم المتحكمة فى هذه الظواهر لها ارتباط بمحاولات المجتمع التحكم فى معدلات نمو سكانه ، ولو ان نوعية هذه الارتباطات غير مدروسة . وقد اشار المؤلف على سبيل المثال الى الاتجاه الحديث نحو انخفاض سن الزواج وزيادة نسبة السكان المتزوجين وارتباط كل منها مع التوسع فى استعمالات وسائل منع الحمل بما فيها الاجهاض وخاصة فى الدول الغربية لا سيما فى الولايات المتحدة .

وفى نبذة تاريخية عن تطور وسائل منع الحمل اشار المؤلف الى تواجد العديد من وسائل منع الحمل فى مختلف العصور وانه رغم ما نشر عن الموضوع فى القرن التاسع عشر تطورت الى حركة نسائية كان الغرض منها هو الاصلاح الاجتماعي لمكانة المراة وليس التحكم فى السكان وتحديد النسل . ان مجهودات مسز (Singer) منذ عام ١٩١٣ فى الولايات المتحدة وفى مدينة نيويورك بالذات تشكل بداية الحركة المنادية باستعمال وسائل منع الحمل وتحديد النسل . لقد تطورت الحركة بشكل ملحوظ بعد الحرب العالمية الثانية على يد مستر John D. Rockfeller 111 وانبثق عنها مجهودات هيئة الامم المتحدة ومنظماتها وبرامجها فى العالم النامي . كما تكونت فى الدول الاوروبية ولا سيما الولايات المتحدة بعض المنظمات حديثا التي تطالب بوقف نمو السكان وتؤكد بضرورة استخدام جميع الوسائل الممكنة بما فيها العمليات الجراحية Sterilization وذلك للاعتقاد بعدم كفاية وسائل منع الحمل التقليدية مثل استعمال حبوب منع الحمل .

ان العلاقة التى تربط العوامل الاقتصادية والعوامل الديموجرافية علاقة متشعبة ودقيقة . ومن أبسط مظاهرها احداث التغير السكانى ردود فعل فى كل من حجم ومعدل نمو كل من القوى العاملة والعمالة وسوق العمل ، وكذلك فى حجم كل من الادخار والاستثمار ومستوى الانتاجية . وعند مناقشة هذه الموضوعات (الفصل الرابع عشر) فرق الكاتب ما بين أنماط الاستجابات الاقتصادية للزيادة السكانية فى كل من الدول النامية وفي الدول الاقل نموا .

ونستعرض فيما يلي آراء المؤلف حول نوعية الارتباط بين النمو السكانى والعوامل السالف ذكرها .

النمو في القوى العاملة : تعتبر كل من معدلات النمو السكانى وهيكل التركيب العمرى للسكان ومعدلات الهجرة بأنواعها من المتحكمات الاساسية فى نمو القوى العاملة وفى تحديد نسبتها فى السكان . من المعروف ان حجم

القوى العاملة يتأثر بمعدلات الاشتراك فى سوق العمل لكل من المجموعات العمرية والبيئية المختلفة ، وتلك تتأثر بدورها بعوامل ذات طبيعة ديموجرافية كحجم الاسرةوالهجرة من الريف الى الحضر وزيادة حجم السكان الذين يبلغون سن التقاعد وخلافه .

من الظواهر التى تتضارب حولها الآراء هى العلاقة المحتمل وجودها بين النمو السكانى من جهة وبين مستوى البطالة من جهة اخرى وارتكز المؤلف فى شرح هذه العلاقة على آراء كل من Spengler و Keynes فمن رأى الاول مثلا أن النمو السكانى ولو بمعدل قليل يعتبر أمرا ضروريا لتلافى البطالة الشديدة .

وفي حالة تغيب معدل نمو سكانى مناسب فان على الحكومة ان تزيد من نفقاتها لتعويض النقص فى الاستهلاك المحتمل نشوءه . هذا طبعا يناقض كثيرا من آراء Spengler التي ترى في تناقض معدل نمو السكان خلفية مشجعة لمستويات أعلى للعمالة .

ورغم أن المؤلف لم يلتزم برأى معين فى هذه المسألة الا انه أوضح أن العلاقة ما بين النمو السكاني وكل من البطالة والعمالة تختلف بالدول النامية عنها فى الدول الصناعية . فمعظم الدول النامية تتصف بارتفاع معدلات النمو السكانى وبالتالى ترتفع فيها معدلات الزيادة السنوية فى القوى العاملة ، وبالتالى معدلات كل من البطالة والبطالة المقنعة بالذات .

هذا بالاضافة الى ان الهجرة السكانية فى الدول الصناعية عادة ما تحدث تكاملا بين الموارد البشرية والموارد الاقتصادية فى حين انها فى الدول الاقل نموا تعبر عن نقص دائم في الطلب على العمل الناتج من انخفاض الاجور فى الزراعة كذلك ارتفاع الزيادة السكانية في المناطق الزراعية .

أشار المؤلف الى اهمية دراسة تأثير التركيب العمرى للسكان والتغيرات التى تحدث فيه على معدلات الادخار ، ورغم انه فيما يبدو ينتمي الى المدرسة القائلة بأن الزيادة فىعدد الاطفال فى حد ذاتها ليس لها تأثير كبير على القدرة على التوفير حيث ان :

١ ـ معظم الادخارات تتوقف على حجم الضرائب فى القطاع العام اكثر من توقفها على الادخارات النوعية فى الاسرة .

٢ ـ عدم وجود الادلة الكافية على أن ادخارات الاسرة تشكل المصدر الرئيسى للاستثمارات .

أورد المؤلف عدة نماذج توضح اختلاف الآراء حول تأثير النمو في السكان على مستوى الانتاجية Productivity منها : أولا) قوانين مالتوس عن تناقص العوائد فى قطاع الزراعة Laws of Diminishing Returns التى ينتج عن ازدياد كثافة العمل وحدود الرقعة الزراعية . ثانيا) افكار آدم سميث عن الاقتصاد على نطاق واسع Economics of scale والتى تعكس نوعية العلاقة بين الحجم والانتاجية ، ومن مضمونها انه كلما زاد حجم الوحدة زادت كفاءتها الانتاجية . كذلك قام المؤلف بشرح آراء كيينز المشهورة عن الركود الاقتصادى Staguation وينتج من نقص فيالنمو السكانى وللاسباب الاتية : ـ

١ ـ فى المجتمعات الغنية براس المال التي تتصف بمستوى دخل مرتفع ونمو بطىء في السكان عادة ما يكون صعبا فيها زيادة فرص الاستثمارات .

٢ ـ فى المجتمعات الغنية براس المال ، نسبة صغيرة من الدخل المرتفع يستهلك فقط تاركا نسبة اكبر للاستثمارات .

٣ ـ فى حالة ثبات أو نقص معدل النمو السكانى تزداد معدلات البطالة لعدم كفاية الطلب على الخدمات والبضائع .

٤ ـ تغيب التأثير الايجابي الذى يحدثه النمو السكاني فى تشجيع ارتباطات التعاقد وتشكيلها لنمو كل من الانتاج وانتاجية الفرد .

وقد أشار المؤلف الى أنه لا يوجد نتائج علمية ثابتة تحدد العلاقات الرئيسية ما بين كمية العمل والقدرة الانتاجية ، وكيف تتأثر كل منها بازدياد السكان وان عدم نجاح الاقتصاديين أو بالاحرى تجاهلهم لمعالجة هذه العلاقة يرجع عادة الى أنها تحدث فى اطار اجتماعي وسياسى وعليه فان نوع الاستجابة تختلف باختلاف الظروف السياسية والاجتماعية وان هذه الظروف تتوقف على ثلاثة متحكمات :

١ ـ قرارات الجهة المنظمة للاقتصاد .

٢ ـ الضوابط والمتغيرات التى يمكن تطبيقها على الوحدات الاقتصادية .

٣ ـ تركيب هيكل الجزاءات والتقديرات وكذلك العقوبات المنظمة للنشاطات الاقتصادية .

من المسلم به أن اى تغير ملحوظ فى السكان غالبا ما ينتج عنه اعادة ترتيب كثير من المؤسسات والمنظمات والعلاقات الاجتماعية .

من أمثال الظواهر الاجتماعية التى تنتج عن التغير السكانى وخاصة عن الهجرة التغيرات التى تطرأ على التركيب الوظيفى والبيئى والعنصرى في بعض الحالات مما حدا ببعض علماء الاجتماع القول بان مقدارا من الصراع يصاحب دائما التغير في العلاقة بين المجموعات السكانية وبين مؤسساتها الاجتماعية وان الاستجابة الاجتماعية لنمو السكان تأخذ عادة عدة أشكال منها :

١ ـ خلق انماط من السلوك الذاتي والفردى ومن التطلعات الشخصية ذات الفائدة المحدودة فى فهم أو تكييف التطلعات الجماعية .

٢ ـ زيادة الاختلافات الموجودة في المهارات وفى احتياجات الافراد .

٣ ـ امكانية التغاضي عن أو السماح لبعض السلوك المتحرر من التقاليد بالتواجد مع السلوك العرفى .

٤ ـ تشكيل قوى اجتماعية بهدف تنظيم أو استغلال أو تجنب الخلافات الفردية وخاصة الناشئة عن قصور فى بعض الامكانيات والمجهودات مما يضاعف امكانية المجتمع نحو الانتاج والاستهلاك بل والبقاء ، وفى مقدمتها قدرته على التكيف .

ومن رأى المؤلف أنه اذا كان للنمو السكانى القدرة على توافر احتمالات الاختلافات والتنازع الاجتماعي فانه من الواضح أن ازدياد الكثافة السكانية تخلق حاجة للتميز الطبقي وكذلك التباين فى النظم الاجتماعية وذلك يرجع لان ارتفاع الكثافة السكانية يصاحبه عادة :

أ ـ ارتفاع معدلات الاتصالات الانسانية الناتجة من القرابة الجسمانية .

ب ـ التنافس نحو الاولوية فى جذب الاهتمام وفي المشاركة .

جـ ـ التنافس لحرية الوصول الى المؤسسات والاماكن وفى المجهودات الاجتماعية .

وباختصار فمن الجائز أن يقلل النمو السكاني من قيمة بعض الارتباطات الاجتماعية ويجعلها قليلة الفائدة في نفس الوقت يمكن أن ينمى مزايا ارتباطات أخرى . ولذا فانه من الطبيعي أن تأتى الاستجابة الاجتماعية لمثل هذه التغيرات السكانية فى صورة ابتكارات اجتماعية بما فيها من تغير فى القيم وقوانين

التبادل وكذلك فى تعريف الموارد بل والحوافز الاجتماعية .

اختتم المؤلف هذا الفصل (الخامس عشر) بمناقشة سطحية لتأثير الهجرة على الارتباطات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية واستعمل التقسيمات الآتية للمقارنة: المهاجر باستمرار ، المهاجر أحيانا ، الغير مهاجر أو الثابت ، وبين كيف أن عملية الهجرة ينتج عنها اعادة صياغة الصفات الاجتماعية للمنظمات والمؤسسات وحتى للمجتمعات الصغيرة نتيجة الحركة السكانية .

ابتدأ المؤلف (الفصل السادس عشر) بقوله ان موضوع الاستجابة السياسية للزيادة السكانية ما زال حديثا ولم يحظ بالدراسة المناسبة الا مؤخرا . ثم وجه اهتمامه الى ثلاثة موضوعات ذات علاقة : أولا ـ الضغوط السياسية والادارية التي يتعرض لها المجتمع نتيجة للزيادة السكانية. وثانيا ـ التكامل السياسى المرتبط بظاهرة تغير الخواص Variation الصفة التى تلازم عادة التغيرات السكانية . وثالثا الحراك السكانى على الانضمام والاشتراك فى الاحزاب والمنظمات السياسية والنخبة القيادية .

استخلص المؤلف : أولا ـ ان المجتمعات ذات الكثافة السكانية العالية والنمو السكاني المتزايد تتطلب نسبة مرتفعة من الخدمات الحكومية بشتى أنواعها مثل الخدمات الصحية والترفيهية والتعليمية وخلافه . وثانيا ـ التركيبات العمرية فى حد ذاتها تؤثر فى نوعية وتخصص الخدمات الحكومية اللازمة ، فمثلا ازدياد الاعمار فى سن الشباب يتطلب التوسع فى بناء المدارس وفي فرص العمل فى حين أن زيادة نسبة كبار السن فى السكان تتطلب التوسع فى برامج العلاج الطبي والضمان الاجتماعى وخلافه . ثالثا ـ يصاحب الزيادة السكانية عادة ازدياد حجم الهيئات التشريعية فى المجتمع وازدياد تعقيداتها وتحول العملية التشريعية الى تنظيم شبه بيروقراطى نظرا لازدياد ظاهرة تعدد الخواص التى تصاحب الزيادة السكانية . واخيرا يتأثر التوازن السياسى بين المجموعات المهنية والدينية والثقافية والعنصرية ليس فقط بالزيادة السكانية ولكن بحركة وهجرة السكان الداخلية وقدرة الاحزاب والمنظمات السياسية على توضيح مواقف معينة وقيم أيدولوجية محددة لكل الجماعات والمجموعات المختلفة من السكان.

واخيرا يتساءل الكاتب فى الفصل الاخير عن امكانية تواجد مدينة الاحلام Utopia ذات الصفات الاجتماعية والديموجرافية المتكاملة وكذلك تساءل عن دور السياسة السكانية فى تحقيق ذلك الحلم . فصل بين مفهوم كل من السياسة السكانية والنظرية السكانية حيث عرف الاولى على أنها تتكون من تبنٍّ واضح لحاكم أو جهة ذات سلطة لبعض الاهداف السكانية التى تخدم المنفعة العامة ، وكذلك التحكم في الموارد المتاحة بشأن تحقيق هذه الاهداف اما بواسطة تدخل مباشر أو غير مباشر فى عوامل الوفيات والولادات والهجرة .

وقد رأى المؤلف ان السياسة السكانية يجب فصلها عن السياسات الاخرى المحتملة التأثير على حجم ونمو وانتشار السكان ولكن من خلال تشكيلها لعوامل اخرى غير العوامل الديموجرافية . هذا بالاضافة الى انه لا يمكن بصفة عامة تحديد تركيب محدد للسياسة السكانية يكون له صفة الدوام وانما هي عادة اقل تحديدا وغالبا ما تشمل فترة زمنية معينة .

قام المؤلف باستعراض التجربة الامريكية واستنباط الخلفيات التي صاحبتها وخاصة ظاهرة الهجرة من أوروبا والعوامل التي أدت الى اقفال سياسة الباب المفتوح وظهور نظام الحصة Quata System المنظمة للهجرة في أوائل العشرينات والتى استبدلت

بقانون الهجرة الصادر فى ١٩٦٥ والسارى المفعول حتى الآن .

وتطرق الىشرحبرنامج المساعدةالامريكية للدول النامية فى تنظيم الاسرة وكيف انه بعد تردد طويل توسعت الحكومة الامريكية فى هذا المضمون عن طريق برامج المساعدات ـ الخارجية وبرامج المساعدة لفرض التنمية منذ منتصف الستينات . أشار ايضا الى نتائج الدراسة التى قامت بها الهيئة المشكلة بأمر من الرئيس السابق نيكسون فى عام ١٩٧٥ لدراسة النمو السكاني ومستقبل امريكا واستعرض باختصار اهم النتائج التى توصلت اليها اللجنة بعد دراسات مستفيضة لاكثر من عامين والتى أثرت فى المفهوم العام للمشاكل السكانية .

وبمقارنة الولايات المتحدة والدول الاوروبية وجد أن اهتمام الدول الاوروبية يختلف من دولة الى اخرى حسب طبيعة المشكلة السكانية فى كل منها ومع ذلك فان الخلاف الرئيسى بين التجربة الامريكية والتجربة الاوروبية هو حداثة فكرة السياسة السكانية فيالولايات المتحدة وتواجدها تاريخيا فى كثير من الدولالاوروبيةالتى توصفبالمقارنة بأنها :

١ ـ تقبل مبدأ مسئولية الدولة في تجميع البيانات وتنظيمها بل وفى التدخل لحل كثير من المشكلات الاجتماعية بما فيها مشاكل الهجرة وتوزيع السكان .

٢ ـ شهدت ظواهر سياسية كثيرة مترتبة على تغيرات ديموجرافية مثل الحروب، تصارع القوميات الاوروبية ، انهيار النظام الاقطاعى وخلافه .

٣ ـ تبنت حكوماتها فى بعض الاوقات مبادىء اقتصادية وفلسفية ذات محتوى ضمني يفضل الزيادة فى حجم السكان . Mercantilism

ورغم وجود هذه الخلفية التاريخية للمسألة السكانية فى أوروبا فان الخطواتالتى ادت الى انخفاض الولادات فى تلك القارة لم تكن فى الواقع ضمن سياسة سكانية وانما تطورت تماما دون تدخل حكومات الدول المعنية وجاءت استجابة لاصلاحاتاجتماعية. وحتى القوانين التيلها تأثيرمباشر علىالولادات كالسماح بالاجهاض في الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية التى اعقبت الحركة الاشتراكية نشأت من مفهوم القوانينالمتعلقة بحماية حقوق المراة وبرامج العدل الاجتماعى.

تبنت كثير من الدول النامية حديثا مبادىء عامة يمكن وصفها بأنها تشكلسياسة سكانية والفرض الواضح فى خطط معظم هذه البلدان هو تخفيض معدلات النمو السكانى . في عام ١٩٧٤ ـ تبنت ٣٣ منالدول النامية سياسة سكانية الفرض منهاتخفيض معدلات النمو فى حين تبنت ٣٠ دولة اخرى برامج تنظيم الاسرة لفرض تحسين المستوى الصحي والاجتماعى وخلافه .

وفى هذا المضمار (برامج تنظيم الاسرة) كان لكثير من المنظمات العالمية والمؤسسات الخاصة ولبعض الحكومات الفربية كالولايات المتحدة والسويد نشاط ملحوظ مما كان له اثر واضح فى انخفاض معدلات الولادةوخاصة فى بعض دول الشرق الاقصى كتايلند وتايوان وكوريا والفلبين .

ومع ذلك فان بعض الانتقادات قدوجهت لهذه البرامج على أنها تحاول ان تحل محل برامج الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى والتى هي فى نظر الناقدين اهم بكثير فى المدى البعيد لسكان هذه الاقطار .

وفياعتقاد المؤلفأنه كلما ازدادت معرفتنا عن الخصوبة والولادة وعلاقتها بالنواحى الاجتماعية والاقتصادية والسياسيةفان درجة كبيرة من الاستقرار فى معدلات النموالسكانى ستحدث تدريجيا عن طريق التحكم فيالولادات

ســواء تم ذلك عن طريق سياسة ســكانية محدودة أم لا .

ويختم الموضوع بقوله ان اتباع سياســة سكانية واضحة من شأنه أن يساعد المجتمعات على سرعة وســهولة وصــولها الى مرحلــة الاستقرار السكاني .

قبل توجيه اهتمامنا لمناقشة بعض آراء المؤلف أود أن أورد قليلا من السلبيات واغلبها يقع فى نطاق التنظيم والعرض أكثر منها فى مجال المعاومات .

من الواضــح ان الكتــاب غني بالافكار والنظريات العلمية المتعلقة بموضوع السكان. غير أن المؤلف قدم الكثير منها بطريقة الحشر ولم يعطها حقها من التفصيل . هذا بالاضافة الى احساس القارىء بأن المناقشة لم تتبــع مستوى واحدا فى كل الفصول ، فمثلا يظهر المؤلف كثيرا من العمق ودقة التحليل فى الجزء الثالث من الكتاب ,والذى فى اعتقادى هــو أقوى جزء فيه فى حين تتصف بعض فصول الجزء الثانى بكثير من الملاحظات السطحية وبدائية التحليل .

ان اهتمام الكاتب موجه بصورة خاصة للسوق الاكاديمية الامريكية لتوزيع الكتاب . لذا فان كثيرا من تحليلاته انصبت على الولايات المتحــدة بالذات رغم انه حــاول بين الحين والآخر مقارنة الولايات المتحدة الامريكية بالدول الناميــة .

كالعادة في كل الكتب المدرسية ، معظم المعلومات الاحصائية الواردة فى الكتاب تتوقف عند فترة زمنية معينة ، حتى عام ١٩٧٥ . معظمها أيضا متداول في كتب أخرى عن علم السكان أكثر استعمالا وانتشارا فى جامعات الولايــات المتحــدة واخص بالــذكر كتــاب William Peterson بعنوان السكان Population و Ralph Thomlinson عــن ديناميكية السكان Population Dynamics

ولذا فان الكتاب لم يأت بجــديد من ناحيــة التحليل الديموجرافى البحت Formal Demography

اما من جهة ربط العوامل الديموجرافية بالتركيب الاجتماعى وأنماطه فلا شك ان المؤلف قد قــدم محاولة لا بأس بها فى ابراز تشعب ودقة هذه العلاقة . لذا فان معالجته للموضوع من وجهة نظر سوسيولوجية بحتة ولو أنهــا لم تفسح له المجال للاهتمام بوجهة نظر الفروع العلمية الاخرى عن طبيعة السكان ، الا أنهــا أتاحت له التركيز على التركيب الاجتمــاعي بمضمونه الاوسع وبصورة منظمة ، وكــذلك الرجوع الى كثير من النظــريات والنمــاذج العلمية من كل من فرعى الاجتماع والبيئــة الانسانية ، مما يجعل الكتاب أكثر تشــويقا لمتخصصى فروع الاجتماع والانتروبولوجــي عنها لمتخصصى علم الديموجرافيا البحتة .

قدم المؤلف كتابه على انه كتاب مدرسي الفرض منه أعطاء تحليل دقيق لنقط الالتقاء والتداخل ما بين العوامل السكانية والتركيب الاجتماعى . واتبع فى تحليله ما اسماه بالمنهج الاستكشافى وليس المنهج الجامع ، اراد عن طريقه أن يثير كثيرا من الجدل بطرح الجديد من الاسئلة اكثر من محاولته حسم الاســئلة المطروحة والوصول الى نتائج علمية ثابتة .

وفى هذا المضمون يمكن تحديد مجموعة من المشاكل والاسئلة العامة الرئيسية والتى يحس القارىء حتى بعد قراءة الكتاب بأنهــا مازالت بحاجة الى توضيح . ,وفى اعتقــادى، وذلك هو الراى السائد بين معظم دارسي علم السكان ، أن الاجابة عليها ستأتى فقط عــن طريق الدراسات العلمية المستفيضة والبحوث الدقيقة ومنها الاتى : ـ

١ ـ مشكلة تحديد الارتباطات المتشبعة بين عوامل النظام الايكولوجي وهى السكان ، البيئة ، التنظيم الاجتماعى والتكنولوجيا . رغم ان المؤلف اهتم أساسا بعاملى الســكان

والتنظيم الاجتماعي الا أنه من المعروف ان لكل من عاملي البيئة ,والتكنولوجيا ضغوطها على طبيعة العلاقات المذكورة ، وفي الواقع مازال هناك كثير من الاختلاف بين مدارس علمى الاجتماع والبيئة حول أولوية أى من العوامل الداخلية في هذا النظام حيث يتجه كثير من التحليل الحديث الى ابراز اهمية عامل التكنولوجيا كعامل مؤثر .

٢ ــ رغم أن المؤلف ناقش الاستجابة الاقتصادية لنمو السكان فى فصل منفرد فان تحديد طبيعة العلاقة بين النمو السكاني والتقدم الاقتصادى لم تتوفر . ومازال هناك اختلاف بين مؤيدى الحل الديموجرافى لمسألة التخلف ومحبذى طريقة التنمية الاجتماعية والاقتصادية مع ظهور رأى ثالث ينادى باعتبارهما سياستين متكاملتين فى مرحلة النمو .

٣ ــ جدوى استعمال النماذج العلمية المبنية على تجارب الغرب والدول الصناعية فى تفسير ظاهرة التحول الديموجرافى فى الدول النامية حيث تمر هذه الدول بظروف تاريخية مختلفة وحيث التركيب الاجتماعي والاقتصادى والسياسى والديموجرافي فى هذه الدول اى الدول النامية يعطى لها أنماطا معينة .

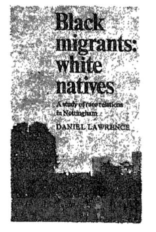
٤ ــ الجدل القائم حاليا بين مؤيدى تحديد النسل والراغبين في ايقاف النسل تماما وامكانية اتباع كل منهما بل وشرعية كل منهما وخاصة على ضوء ومحاولة استعمال الطرق الاجبارية كما حدث فى الهند اخيرا .

يتبع المؤلف الراى القائل بأن المعدلات العالية للزيادة السكانية ، وخاصة اذا اقترنت بظاهرة الهجرة الداخلية او الخارجية تولد جوا من التنافس والصراع الداخلى فى النظم الاجتماعية والسياسية ، وأن الحركة السكانية المرتفعة تؤثر فى قيم المجتمع .

بالمقارنة نجد أن اهتمام الباحثين حاليا هو دراسة احتمالات توقف النمو السكانى والوصول الى حالة الثبات السكانى Stationary Population فى بعض الدول توقع الآثار المترتبة على تضخم قيمة الهرم السكاني ,وتحوله باتجاه كبار السن والشيخوخة من جمود للتنظيم والعلاقات الاجتماعية واحتمالات انطباعها بالتحفظ ، كذا تقلص الحراك السكانى والوظيفى بل وبعض انشطة النظام الاقتصادى نفسه وبصفة خاصة الانشطة الموجهة لمجابهة نمو السكان والاستجابة لاحتياجات ذوى الاعمار الصغيرة .

باختصار قدم الكتاب كثيرا من الوصف والتحليل لتأثير زيادة السكان على العلاقات الاجتماعية والسياسية والبيئية وخلافه ، ولكنه لم يتعرض لمناقشة تأثير الوصول الى معدلات نمو معادلة للصفر على طبيعة وتركيب مجتمع المستقبل ، هذا بالرغم من وجود كثير من الاهتمام العلمي بالموضوع . وليس من الواضح أن كان هذا الاغفال هو نوعا من التخلف العلمي أم انه اختصار لما هو ممكن ادماجه عمليا فى كتاب ,واحد أغلب الظن انه الاخير . ومع ذلك كان يجدر بالمؤلف الاشارة البسيطة الى الاهتمامات الحالية خاصة فى نطاق مناقشة تجربة الولايات المتحدة والدول الغربية الاخرى .

رغم الانتقادات التى اشرنا اليها فأنه مما لاشك فيه ان كتاب البروفيسور ماترس يعتبر خطوة هامة فى طريق توسيع نطاق الدراسات السكانية من مضمونها التقليدى المهتم بالنواحي الكمية والاحصائية فقط ، الى مضمون تحليلي اشمل وخاصة في هذا التخصص الاكاديمي الذى يزداد فيه التراث العلمي بسرعة ملحوظة. رغم تخلفه الواضح في جامعاتنا العربية ليس فقط من الناحية الاكاديمية ولكن أيضا فى البحث والتطبيق فى منطقة من العالم يتوجب ان تجرى بها دراسات ديموجرافية مفصلة . واخيرا ما أحوج المكتبة العربية الى اثراء محتوياتها القليلة فى هذا التخصص العلمى عن طريق البحث ,والنشر والترجمة .



مهاجرون سود ومواطنون بيض

عرض وتحليل الاستاذ عبدالله عبدالغنى غانم

يحظى موضوع الهجرة فى الوقت الحاضر ، وفى ظل مشكلات الانفجار السكانى ، باهتمام متزايد من كثير من علماء الجغرافيا والسكان والاجتماع والانثروبولوجياوالاقتصاد وغيرهم .

وقد حظى موضوع الهجرة فى بريطانيا بقدر اكبر من الاهتمام خاصة مع وجود مشكلة الملونين من مهاجرى دول الكومنولث الذين يعيشون كأقليات وسط الاغلبية البيضاء من المواطنين الاصليين باعتبارهم ينتمون الى سلالات مختلفة عن ابناء البلاد . ومن ثم ارتبطت دراسة موضوع الهجرة في بريطانيا بموضوع آخر هو العلاقات بين السلالات . ووجهت أبحاث عديدة نحو دراسة علاقة هؤلاء المهاجرين بالمواطنين البيض وذلك فى مختلف مجالات الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

وكتاب اليوم هو احد هذه الكتب التىتعالج **العلاقات السلالية في مدينة نوتنجهام احدى** المدن البريطانية . ومن الجدير بالذكر أن الموضوع سبق ان تناوله وفى نفس المدينة باحثون آخرون ومنهم اليزابيث بيرلى ، **وايراكينز نلسن وغيرهم .**

---

* Daniel Lawrance: Blaek Migrants : White Nations,Cambridge University Press, 1974.

ومؤلف كتاب اليوم هـو دانييـل لورانس محاضر علم الاجتمـاع بجامعـة نوتنجهـام . ويتألف الكتاب من ثمانية فصـول بما فيهـا المقدمة والخاتمة .

وفي المقدمة التى اعتبرهـا المؤلـف فصـلا مستقلا نجده يذكر ان الباحثين الذين درسوا العلاقات بين السلالات فى نوتنجهام قد اختلفوا **بما بينهـم ، فقد قـال البعض بأن مدينـة** نوتنجهام لا تعكس اى صراع سلالـى ، وان العلاقات بين السلالات فى هذه المدينة تتسـم بالوفاق والتسامح . بينما قال البعـض الآخر بوجود ازمة فى العلاقات السلالية بين الملونين من ناحية والمواطنين البيض من ناحية اخرى . ومؤلف كتاب اليوم يوافق الراى الثانى، ويرى **ان شهرة مدينة نوتنجهام بالوفاق والتجانس** بين السلالات قول لا يصمـد كثيرا للنقـد وان **القائلين به أساءوا فهم العلاقات بين السلالات** فى هذه المدينة، وانهم اعتمدوا فى قولهم بالوفاق في العلاقات على عدم وجود معارضة منظمة ضد الملونين فى المدينة . ويعلق على هذا بأن فهم العلاقات السلالية يقتضى ان نتعمق بعيدا **عن المظهر الخارجي . وان ما نعتقده وما كنا** نأمله من الابحاث التى تناولت هذا الموضوع في **مدينة نوتنجهام هوان تقوم هذه الدراسـات** باعطاء تقييم للدور الذى تلعبه العوامل الثقافية **والبنائية فى علاقات السلالات وفى رؤية كل من المواطنين البيض للمهاجرين والعكس .**

كذلك هنـاك حاجة لربط هـذه الرؤيـة بالظروف التى اتت بالمهاجرين الى بريطانيا . لماذا تركوا بلادهم ؟ لماذا اتوا الى بريطانيا ؟ هـل في نيتهم العودة الى مواطنهم الاصلية ؟ ولا بد من معرفة المكانة التى يحتلها المهجرون فى كل من مجال المسكن والتوظف ، وان نقرر **ما هي الاسواق الممكن لهم ان ينافسوا فيها فى** هذين المجالين سواء حاليا او مستقبلا . هذه النقاط لابد ان تربط بسياسة التطور العام فى بريطانيا والسؤال الان هو : ماهي المشكلات السياسية اليوم وكيف تؤثر او تصطدم بالعلاقات السلالية، **فاذا اجبنا على هذه الاسئلة امكن ان** نجيب على التساؤل اذا ماكانت مدينة نوتنجهام تحظى بعلاقات سلالية متوافقة ام لا .

ويذكر المؤلف ان فصول الكتاب توضح ان غياب الصراع الظاهر لا يجب أن يختلط بحالة التوافق السلالى المزعومة. وان هذا هو مانجده في نوتنجهام حاليا. حيث أن عدم غياب الصراع الظاهر والتوافق السلالى هو الذى أوجـد حالة من التفاؤل فى غير موضعها .

ويضيف المؤلف : ان غياب الصراع الظاهر في العلاقات السـلالية لا يرجع الـى سيادة التسامح فى هذه العلاقات بل انه يرجع الى الطريقة التى يحدد على أساسها المهاجرون وضعهم فى البلاد كما أن عدم ظهور الصراع يرجع أيضا الى مجموعة اتجاهات وظروف عفوية (فى مجالات الاسـتخدام او العمـل والاسكان) ، ادت الى تقليل التنافس المباشر بين الآهالى والمهاجرين ومن ثم قللت من فرص الصراع المكشوف ومع ذلك فان هذه الظروف فى سبيلها للتغير وذلـك يزيد مـن احتمالات **المنافسة والصراع. ويقول انه بعد دراسة ذلك** كله يمكن الحكم على العلاقات السلالية بالمدينة. ثم ينهى الفصل باستعراض تيار الهجرة نفسـه الى المدينة مؤكدا انه قد بدأ فى الخمسينيات بالنسبة لجـزر الهنـد الغربية وان الهنـود والباكستانيين قـد بدأوا الهجـرة اليهـا فى **الستينات ويوضح تعداد ١٩٦٦ (بالعينـة)** انه حوالي ٨٥٠٠ نسمة ممن يعيشون بالمدينة هاجروا اليها من دول الكومنولث ، وذلك بين سكانها البالغ عددهم ٣٠٥ آلاف نسمة أغلبهم من الجمايكيين ثم الهنود ثم الباكستانيين .

ويعالج المؤلف في **الفصـل الثانـي** بعـض الظروف التى اثرت فى الطريقة التى ينظر بهـا المهاجر الى وضعه بالمدينة. فيعالج أسباب قيام المهاجر بالهجرة الى بريطانيا . ثم يعالج نقطة لها تأثيرها في دراسة سلوك المهاجر بالمدينة

وهى نظرة المهاجر الى هجرته وهل هلى هجرة دائمة ام مؤقتة وقد ثبت ان معظم من تناولهم البحث لاينوون الاستقرر الدائم فى بريطانيا . والنقطة الثالثة التى يعالجها فى هذا الفصل **هي مدى اتفاق ما وجدوه فى بريطانيا بالمقارنة** مع ماتوقعوه قبل هجرتهم اليها .

وباستعراض اسباب الهجرة التى ساقها **المؤلف بالنسبة للجماعات الثلاث (جمايكيون ، هنود ، وباكستانيون) نجد ان اجراء عملية** حسابية بسيطة على الجداول الموضحة لهذه النقطة توضح أن أسباب الهجرة تأخذ نفس الترتيب للجماعات الثلاثة . وهذه الآسباب هي : السبب الاقتصادى يليه الرغبةفى السفر واكتساب الخبرة ثم الرغبة فى التعلم أو مواصلة التعليم . ثم مجموعة رابعة وضعها المؤلف تحت عنوان (أسباب أخرى) .

ونجد أن أسباب اختيار بريطانيا كمنطقة مهجر هى الاسباب التالية (لأنها المكان الوحيد المتاح — مجرد الرغبة فى المجىء الى بريطانيا — وجود الأهل والأصدقاء بها . — اخرى) . وأخيرا يوضح الباحث أن الهجرة عموما الى نوتنجهام هى هجرة اختيارية .

كما أوضحت المناقشة التفصيلية حول النظرة للهجرة وهل هى دائمة أم مؤقتة .

قال المولف انهناك عددا كبيرا منالدراسات كلها توضح أن عددا كبيرا من المهاجرين الملونين الى بريطانيا لا ينوون الاستمرار في بريطانيا **وهذه الحقيقة اوضحها كل من فيلبوت ،** وشيلاباترسون وديفيدسون. وغيرهم . وانهذه الحقيقة قد أوضح بروكس بشأنها أمرا هاما عندما قال : أن كثيرا من الذين يوضحونأنهم سيعودون لمواطنهم الاصلية لا يفعلون ذلك بالفعل ، ويعلق المؤلف بأنه من الأفضل الا نركز على هذه النقطة أى قصد الاستقرار أو العودة بالفعل وانما يجب أن نركز على أثر هذا القرار على السلوك الحالى لانه حتى لو لم يكنالمهاجر يقوم بالادخار فعلا من أجل العودة فان هذا لا يعنى أن سلوكه واتجاهاته فى مجالات أخرى **غير متأثرة بعمق بقصده فى العودة . وهنا يوضح ان كلا من الهنود والباكستانيين يرون** أن بريطانيا مجتمع غريب عنهم وأنهم ليسوا راغبين فى التمثل له . بعكس الجامايكيين . وليس معنى هذا ان الجامايكيين يشعرون بأنهم بريطانيين بل أن ٩٠ ٪ منهم افادوابأنهم يشعرون بعكس ذلك رغم تمثلهم للمجتمع الانجليزى . وقد ثبت ان النسبة الغالبة من المهاجرين يرسلون معونات اقتصادية لذويهم بمواطنهم الاصلية . كما ثبت ان اصطحاب الزوجة الى منطقة المهجر أو الجذب ليس دليلا على نية الاستقرار الدائم بها اذ ثبت أن ٩٣ ٪ من مصطحبى زوجاتهم فى بريطانيا من المهاجرين من الباكستانيين و ٨٩ ٪ منالهنود ينوون العودة لبلادهم . وعموما فان اعلانالرغبة فى العودة كان اكثر وضوحا بين غير مصطحبى زوجاتهم وبجانب ذلك فان نية العودة لدى **المهاجرين لعبت دورا هاما في مقابلة المهاجرين** للظروف غير المرضية بنوع من التسامح . فحيث انهم ينظرون للهجرة كشىء مؤقتفانهم يدخلون هذا فىالاعتبار فىالحكم علىمايواجهون من معاملة غير مرضية . أما عن النقطة الثالثة اى التوقعات والواقع فقد أجاب ٨٦ ٪ من المبحوثين انهم لم يجدوا بريطانيا كما كانوا يتوقعون ، فقد اوضحوا صعوبة حصولهم على العمل وكسب المال . والتفرقة العنصرية والاستقبال السىء للملونين والمستوى المنخفض معيشيا ، والأسكان الردىء وغيره .

وتناول المؤلف فى **الفصل الثالث** مشكلة **التعصب بين المواطنين الاصليين فى نوتنجهام** تجاه الملونيين . فيتناول اهالى نوتنجهام انفسهم بالدراسة وبخاصة أولئك الذين يعيشون بالقرب من الملونين فى المناطقالداخلية من المدينة ويوضح في الجزء الاول من هذا الفصل عدم القبول العام لدى الاهالى بالنسبة

للملونين . ويتعرض للدراسة التى قام بها ابراهام على عينة من ٢٥٠٠ حالة فى خمس مدن من بينها مدينة نوتنجهام نفسها والتى تناول فيها ابراهام موضوع التعصب . وينتقد المؤلف الاساس الذى وضعه ابراهام فى دراسته هذا لتعريف التعصب حيث قال ابراهام ان التعصب كلمة تستخدم فقط لتدل على الاتجاهات العدوانية التى ترجع الى عمليات تقع داخل حامل الاتجاهات العدوانية نفسه . ويعلق المؤلف بأن هذا التعريف لا يميز بين الاتجاهات الناجمة عن مصادر وأسباب مختلفة وهنا يرى المؤلف ان المقياس الذى وضعه نيكولاس ديكين وصنف على اساسه مرقف المبحوثين (عندما درس التعصب للجنس) الى اربعة أقسام ـ شديدو التعصب ـ متعصبون ـ متوسطو التعصب ـ غير متعصبين يرى ان هذا المقياس أفضل من تصنيف ابراهام الذى كان تصنيفه للافراد هو (متعصبون ـ ميالون للتعصب ـ متسامحون ـ واخيرا ميالون للتسامح) حيث يرى المؤلف أن عدم وجود العداء لا يعنى بالضرورة وجود التسامح مثلا . ويضيف المؤلف أنه ليس هناك داع للقول بأن مقولة التعصب هى المحدد الرئيسى او الوحيد للعلاقات السلالية، فهناك القوانين التى تنظم الهجرة والتى تحرم التفرقة العنصرية وغيرها . ويقرر المؤلف هنا ان اغلب الاهالى فى نوتنجهام من البيض يعتبرون الملونين قوما مختلفين عنهم وانهم أقل منهم ، ولا يجب أن يتساووا معهم .

ويعالج **الفصل الرابع** الاسكان والعلاقات السلالية ، فيشير الى أن ازمة الاسكان فى نوتنجهام ترجع الى القرن الثامن عشر ، فقد بدأ الانفجار السكانى منذ ذلك التاريخ مع التطور الصناعى السريع ويتابع المؤلف التطور فى تعداد السكان بالمدينة منذ ذلك التاريخ حتى الان .

وهو في هذا الفصل يحاول توضيح العلاقة بين الاسكان والعلاقات السلالية فى نوتنجهام . فبالرغم من المشكلة السكانية الواضحة التى تعانى منها نوتنجهام ، فانه لم يظهر صراع واضح فى مجال الاسكان . ولكن هذا مرجعه الى الظروف غير المتعمدة والاتجاهات العفوية، وليس مرجعه وجود التسامح لدى السكان الاصليين فى نوتنجهام فى مجال الاسكان .

ويوضح المؤلف ان قيام ازمة الاسكان ونقص المسكن يخلق خصومة وعداء بين السود والبيض ، وهو امر يعتمد على عدة عوامل من أهمها مدى التبرم الذى يشعر به أولئك الذين يعيشون فى ظروف اسكانية سيئة وهم الان كما يبدو غير متبرمين بهذه الظروف وان كانوا ليسوا جميعا بالطبع مشتركين فى عدم التبرم بها .

وفى هذا الفصل يقوم الباحث بوصف المساكن الخاصة بالملونين موضحا اختلافها عن مساكن ابناء نوتنجهام من حيث ما تتمتع به من تجهيزات كالماء الساخن وغيرها . ويعلق بأنه وحتى الان فان الملايين من البريطانيين عموما يعانون من أزمة اسكان حادة اذ لا زال حوالى ٢ مليون يعيشون بمساكن تنقصها الضرورات مثل ، الحمامات ، كما لا زال البعض يعيش بدون مساكن بالمرة ـ كما لازال مليونا نسمة يعيشون فى مناطق متخلفة . وجوهر مشكلة الاسكان فى نوتنجهام ليس انعدام المساكن . بل هو نوع هذه المساكن . فالاف الاسر لا زالت تعيش دون المستوى الملائم . ولكن حيث لا يوجد تعريف متفق عليه للاسكان غير الملائم فان المرء لا يستطيع تحديد من يعانون منه . ولكن ، على العموم ، فان نوتنجهام تعانى فعلا من أزمة اسكان بالمعنى النوعى ، وأغلب المهاجرين الملونين بها يعيشون فى هذه الازمة .

ويوضح المؤلف ان علاقات السلالات تتأثر بوضع الاسكان وان تحليله لهذه النقطة **قد بناه على التحليل الذى قدمه** rex& moor اللذان اوضحا ان العلاقات الاجتماعية فى المجتمعات الصناعية تتحدد بنمط الصراع في المصالح رغم عدم اعتبارهما ان الصراع على الاسكان هو انعكاس لصراع الطبقات فى الصناعة. فقد لاحظا وجود اختلاف كبير فى تسهيلات الدخول فى مجالات الاسكان بالنسبة للمشتركين فى نفس العلاقة فى مجال ملكية ادوات الانتاج (الطبقة) وهما هنا يتابعان ماكس فيبر عندما يقول (ان الصراع الطبقى يميل للظهور عندما تسمح حالة السوق السائدة بمداخل مختلفة للتملك وهنا يظهر الصراع الطبقى ليس فقط **بالنسبة لوسائل الانتاج الصناعي ولكن** بالنسبة للملكية العائلية ايضا) ، والقول بأن اكثر من مبدأ من مبادىء السوق يعمل في عملية توزيع الاسكان فى بريطانيا لا يقتضي اكثر من تغير طفيف فى نظرية فيبر بالنسبة للنظام البيروقراطى لتوزيع المساكن لكى نصل الى **فكرة الاسكان الطبقى ، وهي فكرة هامة جدا في** تحليل البناء والعملية الحضرية ،وان العملية الاساسية التى تدعم التفاعل الاجتماعى الحضرى ــ كما يقول **ركس ومور** هى التنافس من اجل البيوت النادرة فى الضواحى وعلى اساس من عمومية هذه الرغبة فى الحصول على هذه البيوت وعلى اساس من ندرتها والاستقلال النسبي للصراع الطبقي من أجل المسكن عن الصراع الطبقي الصناعى فان ركس ومور قالا انه من المفيد أن تميز الطبقات **الاسكانية التالية وقدما سبع طبقات عن** السكان طبقا لنوع المسكن ونوع علاقتهم به مثلا (ملاك في مناطق مرغوبة ملاك ملكية جزئية بمناطق مرغوبة ــ مستأجرون لمساكن المجالس المحلية ــ ... الخ) . وكل مجموعة من هذه المجموعات السبع تمثل طبقة مختلفة عن غيرها . وتختلف حالة السكان المهاجرين **عن السكان الاصليين فى مجال الاسكان فهو** **يواجه التفرقة العنصرية عند محاولته** السكنى أو الحصول على مسكن فى الضواحي. كما ان المناطق الداخلية قد شغلت شوارعها بسكان من مناطق البيض ثابتين نسبيا وهنا فان المهاجرين لديهم خيار ضئيل فى ان يصبحوا اما مؤجرين من ملاك أفراد أو من مؤجرين آخرين . ومركز المهاجرين السيء فى **سوق الاسكان لا يجلب عليه عطف السكان** الاصليين من البيض بل أنه بالاضافة الى العداء الناجم عن العوامل الثقافية والشخصية فانه ينظر الى المهاجرين باعتباره شخصا **يعمل على اكتظاظ المسكن ، ويقوم بتخريب** البيوت التي يسكنها ، ومركزه هذا فى سوق الاسكان يحدد مركزه في نظر الاهالي البيض. ويوضح المؤلف رفضه للقول بأن سكان انجلترا يتنافسون من أجل السكنى فى الضواحي . كما يوضح أن البحث الميداني قد أوضح أنه لا يوجد تنافس بين المهاجرين والاهالي على الاسكان الا أنه أوضح قوله للتصنيف الطبقي فى مجال الاسكان الذى ساقه كل من ريكس ومور ولكنه أضاف اليه طبقتين أخريين لتصبح الطبقات السكانية عنده تسع طبقات وقد تابع المؤلف هذه الطبقات وتوزيعها مقارنا **موضحا فيها بين المهاجرين والسكان الاصليين** فى نوتنجهام . كما استعرض الصعوبات التي يواجهها المهاجرون فى مجالات الاسكان ، **موضحا انهم يواجهون سعوبة امكانية** الحصول على مسكن في المناطق الراقية ، ولا يمكنهم الشراء فيها . وأنهم يدفعون سعر **فائدة عالية ــ او ان الثمن الذى يطلب منهم** يبالغ فيه عادة بسبب اللون وضيق السوق أمامهم . أو يطلب منهم تأمين عال جدا .. الخ . كما انهم لا يحصلون على أية مساكن من المساكن المملوكة للدولة . وقد أوضح أن ٤١٪ من العائلات المهاجرة التي تركت مسكنها فى مناطق مختلفة قد تحركوا الى مناطق مختلفة ايضا . ويقول ان سبب ذلك هو مواطنهم الاصلية ، ومن ثم فان التكلفة

الاضافية فى مسكن أفضل لا تبدو استثمارا معقولا لاموالهم من وجهة نظرهم وعموما ورغم هذه الظروف كلها فان الاسكان لا يمثل مثارا لصراع بين السلالات .. او على الاقل لم يؤد الى صراع ظاهر بينها . فالنسبة المتبرمة من ساكنيها من الملونين قليلة . ولم يثبت أن هناك تنافسا على المساكن النادرة الغالية . كما أن بعض البيض فى صراع على المساكن فى المناطق التى يسكنها الملونون انفسهم وفيما بينهم .

ويناقش المؤلف في **الفصل الخامس** العلاقات **السلالية والتوظف ـ فيقول ان اغلب مهاجرى** الكومنولث يقيمون فى مناطق ذات طلب على عنصر العمل ويقل اقامة الملونين فى المناطق التي يكون فيها الطلب على عنصر العمل خفيفا أو متوسطا ، وهم عموما يحلون فى مجال **العمل محل البيض فى المناطق التي لم تنجح** فى جذب عدد كاف من البيض . ويستعرض المؤلف التاريخ الصناعي والخدمي لمدينة نوتنجهام موضحا كيف أصبحت تشترى الآن بالصناعات الرأسمالية فى مجال التصدير والمجال المحلى ، وأن النسبة الغالبة من المهاجرين قد جاءت اصلا للبحث عن عمل ، وأن البحث الميداني قد اوضح أن هناك ٣٪ فقط منهم عاطلون حاليا ـ ثم قام الباحث بمتابعة توزيع المجموعات السلالية على مختلف الصناعات ويوضح أن ثمة زيادة فى عددالعمال غير المهرة بن المهاجرين عنها بين البيض . وانهم ، اى المهاجرين ، يعملون بأعمال غير مرضية وغير جذابة عموما للبيض . وعموما فان فجوة التوظف بين الملونين وبين البيض فجوة واضحة . ولم تشكل هجرة الملونين الى المدينة أى خطر على الاهالي البيض من الناحية الاقتصادية ، فالعمل متوفر للجميع **ولا يشغل الملونون من الوظائف ، او الاعمال** عموما ، الا مالا يقبله البيض . ومن ثم لم يشكل مجال العمل مثارا للنزاع السلالي .

ويقرر المؤلف أن كثيرا من الاعمال لا زالت تميز بين الملونين وبين غيرهم من القوى العاملة وان ٦٧٪ من المبحوثين البيض قالوا بوجوب اعطاء البيض أولوية فى مجال العمل . وان أهم اسباب عدم رضى الملونين عن اعمالهم هو **التفرقة التي يلاقونها فيه بل ذلك احساسهم** بامكانية اداء أفضل مما يقومون به بينما ان المهاجرين ليس لديهم نفس الفرصة للحصول على العمل بنفس المؤهلات التى لدى الانجليزى الابيض وذلك بسبب اللون . بينما قالت نسبة ٤٢٪ من العينة للبيض بوجود التفرقة بين السلالات فى مجالات العمل والتوظف .

ويناقش المؤف فى **الفصل السادس** السياسة والعلاقات السلالية ـ فيناقش السلوك السياسي والبدائل السياسية المتاحة امام الملونين ، موضحا ان كثيرا من اولئك الذين صوتوا منهم فى الانتخاب العام لم يفعلوا ذلك بحماسة تذكر وانهم انما فعلوا **ذلك بسبب انه لا يوجد اى بديل امامهم .** ذلك ان الملونين لا يعتقدون أن أيا من الحزبين الرئيسيين (محافظين وعمال) مختلف عن الآخر ولا يختلف الامر بالنسبة لهم أن يفوز اى منهما ، ذلك أنهم اذا كانوا قد صوتوا لصالح المحافظين في الانتخابات الاخيرة فقد فشل المحافظون فى الحصول على تأييد كاف لدخول السوق الاوروبية والحقيقة أن الخطوات التي اتخذتها الحكومة أخيرا فى مجالات الدخول والاسعار لم ترض الناخبين عموما . كما أن القرارات التي اتخذها كلا الحزبين بصدد الهجرة والمهاجرين لم تقابل بالرضى من كل من المهاجرين انفسهم ، وكذا من المواطنين البيض ، وهذه النظرة تنطبق على قوانين الهجرة التي صدرت فى أعوام ١٩٦٢ ، ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧١ . اذ ينظر **الملونون الى هذه القوانين على انها تؤكد**

التمايز بين السلالات وذلك بالنسبة لقوانين ١٩٦٨ ، ١٩٧١ وانها تحقر من شأنهم . بينما ادت القوانين التي قدمتها حكومة العمال فى ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ **الى تهيج هذا الشعور (وقد** لا حظ المؤلف أن اغلب المبحوثين لا يعرفون أن قوانين وتشريعات منع التفرقة العنصرية قد ظلت باقية) وعموما فقد نظر الملونون الى قوانين ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ ، ومابها من ضعف على انها تعكس تذبذب حزب العمال . كما نظر اليها الكثيرون من البيض على انهـــا تعمل على وضع الملونين فى مركز ممتاز . ويقرر المؤلف فى النهاية أن مختلف المحاولات التـــي بذلت في ســبيل تحسين العـلاقات السلالية لم تنجح بسبب عدم وجود القوة التي تساند القوانين التي تصدر فى هـــذا الشأن وان المبحوثين من الاهالي اى المواطنين البيض ــ أو من المهاجرين الملونين لا يشعرون بأن النظام الحزبي الحالي يقدم من الوسائل **والطرق ومايحقق مصالحهم . ويشير المهاجرون** هنا الى انه لا يوجد فى المجالس المحلية اى هندى أو باكستاني أو جمايكى .

ويعالج المؤلف فى **الفصل السابع** (المنظمات وعلاقات السلالات) موضحا انه يوجد الكثير من المنظمات المهتمة بعلاقات السلالات فـــى مدينة نوتنجهام ســواء من الاشـــخاص او الهيئات الرسمية . فثمة ١٤ منظمة رسمية تهتم بالعلاقات السلالية فى نوتنجهام تشرف عليها جهــات عدة مثــل الصليب الاحمـر البريطانى والمكتب الاسقفى للشئون الاخلاقية وغيرهما ، وقد ركز المؤلف فى هذا الفصـــل فقط على اللجنة الوطنية الاستشارية للكمنولث وما ترتبط به من علاقات بغيرها من المنظمات ، مبررا ذلك بأنها اللجنة الوحيدة الرسمية في نوتنجهام التي تتلقى المساعدات المالية ، وانها المسئولـة مسئولية مباشرة عـن تحســين العلاقات السلالية . والسبب الثانى هو ماذهب اليه الكثيرون من أن هذه اللجنة قد قدمت الكثير من أجل تحسين العلاقات السلاليـة بالفعل . والسبب الثالث هو ما ذهب اليه كيتز نلسن من أن هذه اللجنة قد لعبت دورا **دقيقا فى علاقات بناء المدينة السلالية ، ويزعم** المؤلف ان هــؤلاء قد غالــوا في أهمية هــذه اللجنة ويقول ان ما قدمته لم يؤد الا قليلا من المزج فى العلاقات السلالية فى هذه المدينة وان الاهتمام الكبير الذى احيطت به اكــبر بكثير من دورها الحقيقى . وليس معنى هذا انها لم تقم بعمل شيىء مفيد ، الا ان الغالبية الساحقة من الملونين ، وكذا النمط العــام للعلاقات السلالية لم يتأثر بمجهودات هذه اللجنة الا فى القليل النادر . ويســتعرض **المؤلف فى هذا الفصــل دراسة كيتز نلســن** لاعمال هذه اللجنة وتاريخها وتطورها . كما يستعرض موقف المهاجرين منها قائلا انها لا تحظى بحماس الكثيرين منهم ، خاصــة **الباكستانيين والسود .**

واخيرا يستعرض المـؤلف فى **الفصـــل الثامن وهو الخاتمة ما انتهى اليه من نتائج** ومحددا ان المهاجرين فى مجموعهم يشعرون بانهم غرباء وان اغلبهــم لم يأت للاســتقرار الدائم بل للعمل ثم العودة لبلده ، ومستعرضا ملخصا سريعا لنتائج الفصول السابقــة ، وموقف المهاجرين فى مجالات الاسكان والتوظف وغيره مما سبق عرضه تفصيليا .

ومع ان الموضوع الذى يتناوله المؤلف هو الهجرة الا انه يركــز على المهاجرين انفسهم بقدر ما ركز على علاقاتهم بالمواطنين الاصليين ، وقد اعطى المؤلف صورة كاملة عن هــذه العلاقة بالفعل الا ان الكتاب لم يظهر العلاقات بين مجمــوعات المهاجرين مــن دول الهنـد وباكستان وجمايكا ، اذ لم يركز المؤلف على العلاقة بين كل جماعة من هــذه الجماعات وغيرها من الجماعات ، ولا شك ان هذه نقطة كانت جديرة بالبحث خاصة اننا سبــق أن

اوضحنا ان العلاقات السلالية هي النقطة الاساسية فى هذا الكتاب . كما ان المؤلف لم يتناول بالدراسة العلاقات الداخلية بين افراد كل جماعة من هذه الجماعات المهاجرة رغم انه ذكر فى المقدمة ان فهم العلاقات تلعبه العوامل الثقافية والبنائية في هذه العلاقات فى الرؤية المتبادلة بين المهاجرين الملونين من جانب الاهالي من جانب آخر . ولا شك ان عدم اهتمام المؤلف بالعلاقات الداخلية بين مهاجرى كل جماعة من الجماعات المهاجرة قد عمل على غياب عنصر بالغ الاهمية فى تفسير عدد كبير من النقاط والنتائج التي توصل اليها الباحث ، والتي لم يقدم تفسيرا كافيا لها ، مثل قوله بان الملونين لا يتبرمون بظروف السكن السيئة التى يعيشونها . وقوله بان الملونين عموما غير متحمسين للتنظيمات السياسية ولا للمنظمات الخاصة بالعلاقات السلالية ، وقوله بأن الجمايكيين قد تمثلوا نسبيا للمجتمع البريطاني بينما لم يتمثل الباكستانيون والهنود . وقوله بأن غياب الصراع الظاهر فى العلاقات السلالية يرجع الى مجموعة اتجاهات وظروف عفوية وغير مقصودة فى مجالات العمل والاسكان . ولا شك ان العلاقات الداخلية بين افراد كل جماعة كانت ستشكل اساسا تفسيريا هاما لهذا كله ... أو على الأقل أحد الاسس التفسيرية له .

ولعل عدم متابعة العلاقات الداخلية بالتحليل ترجع الى اعتماد المؤلف على المنهج السوسيولوجى كلية ، المتمثل فى الاعتماد على الاستمارة واستخدام المقابلة على عينة محددة (٣٠٠ حالة) من مجموع سكان المدينة من البيض ومهاجرى الكومنولث الملونين مع استخدام الاسئلة المغلقة .

وعلى اية حاله فان الكتاب يتعرض لموضوع امتدت اليه يد البحث مرات عديدة في المجتمع البريطاني وهو العلاقات السلالية بين الاهالي الملونين من المهاجرين . وقد حصر نفسه تماما فى هذه النقطة مما جعل من الكتاب صورة واضحة عن هذه العلاقات دون أن يمس بعمق الصورة التي يعيش عليها المهاجرون انفسهم او المواطنون البيض انفسهم .

★ ★ ★

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ، وسوف تعرض لها بالتحليل في الاعداد القادمة

Abelson, Raziel, "Persons. A Study in Philosophical Psychology," The Macmillan Press Ltd., 1977.

Greeley, Andrew M,. "Ecstasy. A Way of Knowing," Prentice-Hall, Inc. 1974.

Jacob, François, "The Logic of Living Systems. A History of Heredity," Translated by Betty E. Spillmann, Allen Lane, 1970.

Milunsky, Aubrey, "Know your Genes", Houghton Mifflin Company, Boston, 1977.

Milunsky, Aubrey, "Know your Genes", Houghton Mifflin Company, Boston, 1977.

Whitby, M. C., Robins, D.L.J., Tansey, A.W., and Willis, K.G., " Rural Resource Development," Methuen & Co Ltd., 1974.

★ ★ ★

العدد التالى من المجلة

العدد الثالث ـ المجلد التاسع

اكتوبر ـ نوفمبر ـ ديسمبر

قسم خاص عن

العلم والتكنولوجيا

بالاضافة الى الابواب الثابتة



الخليج العربي	٥	ريالات	سوريا	٣	ليرات
السعودية	٥	ريالات	القاهرة	٢٥٠	مليماً
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	مليماً
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	ليبيا	٣٥	قرشاً
اليمن الشمالية	٤،٥	ريال	مسقط	٤٠٠	بايه
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢،٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلساً	المغرب	٥	دراهم

الاشتراكات :

للاشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص.ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت

